الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

إثْرَاءُ
المشْرُوعِ الحَضَارِي

المُجَلَّدُ
١١

مَوْسُوعَةُ الأَنْبِياءِ والمُرسَلِين
قَادَةُ الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة

مُوسَى كَلِيمُ اللهِ عليه السلام

عَدُوُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَقَائِدُ الْمُسْتَضْعَفِينَ

تأليف
د. علي مُحَمَّد مُحَمَّد الصَّلَابِي
الأَمِينُ العَام لِلاتِّحَادِ العَالَمِي لِعُلَمَاءِ المُسْلِمِين

تقديم
أ.د. عَلِي مُحْيِي الدِّين القَرَه دَاغِي
رَئِيسُ الاتِّحَادِ العَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ المُسْلِمِين





دار الأصالة

رقم الإصدار 315
الترقيم الدولي للسلسلة (Tk) 978-625-5637-70-3
الترقيم الدولي للمجلد (11.c) 978-625-5637-81-9

اسم الموسوعة موسوعة الأنبياء والمرسلين: قادة الحضارة الإنسانية الربانية
اسم الكتاب موسى عليه السلام كليم الله.. عدو المستكبرين وقائد المستضعفين
اسم المؤلف د. علي محمَّد محمَّد الصلَّابي

المدير العام للدار رجب صونگول

الاخراج الفني AsaletAjans
ajans@asaletyayinlari.com.tr

الطبعة الأولى - يوليو 2026 م / محرم 1448 هـ

İmak Ofset Basım Yay. A.Ş.
Sertifika No: 71320
Akçaburgaz Mah. 137. Sk.
No: 12 Esenyurt/İSTANBUL

دار النشر دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
Asalet Eğitim Danışmanlık
Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
Sertifika No: 40687
Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler
Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE
Tel: +90 212 511 85 47
www.asaletyayinlari.com.tr
asalet@asaletyayinlari.com.tr

كما أن إصداراتنا متاحة على منصّتي

Google Play Books

Copyright © 2026
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

إِثْرَاءُ
المشْرُوعِ الحَضَارِي

المُجَلَّدُ
١١

مَوْسُوعَةُ الأَنْبِياءِ والمُرسَلِين
قَادَةُ الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة

مُوسَى كَلِيمُ اللهِ عليه السلام

عَدُوُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَقَائِدُ الْمُسْتَضْعَفِينَ

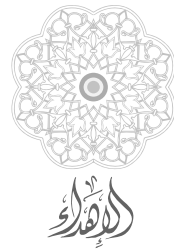
تأليف
د. عليّ مُحَمَّد مُحَمَّد الصَّلَابِيّ
الأَمِينُ العَام لِلاتِّحَادِ العَالَمِي لِعُلَمَاءِ المُسْلِمِين

تقديم

أ.د. عَلِيّ مُحْيِي الدِّين القَرَهْ دَاغِي
رَئِيسُ الاتِّحادِ العَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ المُسْلِمِين

أ.د. فَضْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُرَاد

أ.د. عَبْدُ السَّلَامِ مُقْبِل المَجِيدِيّ



إلى أبناء الأمة المجاهدين؛ رجالاً ونساءً، شِيباً وكهولاً وشباباً، الذين يُعانون ويصبرون ويدافعون عن القيم الرفيعةِ والمبادئ السامية، ويُعلُون كلمة الحق، وينشرون الحقيقة في مشارق الأرض ومغاربها.

إلى كل إنسان آمن بالله وحده لا شريكَ له، ويسعى لمعرفة الأجوبةِ الشافية للأسئلة الوجوديّة الكبرى، عن وحدانيةِ الله تعالى، وخلق الكون، والجنة والنار، والهدى والضّلال، والإيمان والكفر.

إلى أصحاب الفِطَر السليمة، والعقول النيّرة، والأفئدة النقية، الذين هم في أمسّ الحاجة إلى معرفة سيرة موسى عليه السلام من خلال كتاب الله عزّ وجل، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلت: ٤٢].

إلى الباحثين عن أنوار الحقائق في دياجير الظّلام، إلى كلّ هؤلاءِ أُهدي هذا العمل؛ سائلاً الله عزّ وجل أن يجعله نبراساً يهتدي به التائهون، ومصدراً للباحثين عن الحقيقةِ التاريخية، وعِلماً نافعاً للإنسانية جمعاء.

إن قصةَ موسى عليه السلام مليئةٌ بالدروس والعِبَر والفوائد والسنن، ونواميسِ الله في الظالمين والمجرمين، وقوانينه في المُستضعفين في هذه الحياة، وفي هذا الكون الفسيح، ونسأل الله أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].



تقديم

بقلم أ.د. علي محيي الدين القره داغي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم لا يُراد بها تثبيت الرسول ﷺ، ومن آمن به، وسرد المعلومات الدقيقة العميقة حولهم فحسب، بل يُراد منها الاقتداء والاهتداء أيضاً؛ لأن الله جعلهم قدوة ليقتدى بهم، فقال تعالى ـ بعد أن ذكر الله عدداً من الأنبياء والمرسلين ـ: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فقصص الأنبياء نور مقتبَس من نور الله تعالى، وهداية واضحة، وبينات وحجج وأدلة وأحكام شرعية، ومبادئ عظيمة، وقواعد كلية، ومواعظ مؤثرة، وحِكم وعِبَر قوية، وتجارب نافعة متنوعة الألوان والأشكال والأطعمة، يستفيد منها كلُّ من جاهد في سبيله للوصول إلى سبل الهداية والرشاد.

وقد أولى القرآن الكريم عناية منقطعة النظير بسيدنا موسى عليه السلام ونسبه وأجداده وقومه، ومن أرسل إليه، وكل ما يدور حوله، حتى بلغت أسماء السور التي تدور في هذا الفلك سبع سور، وهي سور البقرة (أي بقرة بني إسرائيل، ونصفها حولهم)، وآل عمران، والمائدة، ويوسف، وإبراهيم، والإسراء التي تسمى سورة بني إسرائيل أيضاً، ومريم، كما أن هناك سوراً لها علاقة غير مباشرة بهم.

وبالإضافة لما سبق، فإن قصة موسى عليه السلام والمتعلقة به قد أخذت مكاناً واسعاً، ومكانة عظيمة في القرآن الكريم، حيث تكررت مفصّلة ومطولة، ومتوسطة في عشر سور وهي: سور القصص، وطه، والشعراء، والنمل، ويونس، وهود، وغافر، والزخرف، والدخان، والنازعات، ولكن سورة القصص أكثر تفصيلاً لحلقات حياته بدءاً من ولادته، والمعجزة التي تتعلق بوصوله وهو طفل صغير مولود إلى قصر فرعون والتقاطه له، ثم إعادته وهو رضيع إلى أمه وأخته لتقوما بتربيته على عقيدة إبراهيم عليه السلام وشريعته، ثم فراره، ثم عودته... إلخ.

لماذا كل هذا الحجم من الآيات حول موسى عليه السلام وما يتعلق به؟

وهنا يثور التساؤل حول الحكمة من ذكر هذه التفاصيل التي ذكرها القرآن الكريم حول موسى عليه السلام وقومه؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول:

أولًا: إن الحكمة ـ والله أعلم ـ من هذه العناية القصوى بسيدنا موسى وما أحاط به هو رسم الصراط المستقيم، القائم على العلم بالحق والعمل به، وبيان سبل المغضوب عليهم ممن يعلمون الحق ولا يعملون به، أو يصدون عن الصراط المستقيم ويبغونها عِوَجاً، وسبل الضالين الغافلين الجاهلين بالحق، فكأنهم أنعام يأكلون ويشربون، ولا يفكرون في المبدأ والمنتهى والمصير.

فقصة موسى عليه السلام فيها كل هذه الحقائق والتحديات مع مواجهتها، فواجه هذا النبي أكبر طغاة العصور (فرعون وهامان وقارون) وجندهم، وسحرتهم الذين يمررون أمورهم، ووزراؤهم الذين يتملّقون وينفذون أوامرهم، والحاشرين الذين يحشدون الناس، فكأنهم وسائل الإعلام المضللة اليوم.

ثم إن سيدنا موسى عليه السلام واجه قومه بني إسرائيل الذين فسدت طبائع أكثرهم بسبب الظلم والطغيان، وتغيرت فِطَرهم السليمة بسبب الكبت والذل

والحرمان، فعانى منهم أشد المعاناة كما سجله القرآن الكريم، فقد بذل موسى عليه السلام كل جهده لتوحيد الله تعالى، فإذا بقومه يصنع لهم السامري عجلاً له خوار، ويقول لهم: هذا إلهكم وإله موسى، فيصدّقه الأكثرية، أو يسكتون عنه، كل ذلك خلال فترة بقائه مع ربه على جبل الطور.

ثم إن قومه لم يطيعوه في القتال لأجل العودة إلى الأرض المقدسة، حيث قال لهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢١ـ٢٥].

وهذا أمر غريب، إذ أنهم رأوا بأم أعينهم كيف نجّاهم الله من فرعون؟ وكيف عَبَر بهم البحر الذي تحول إلى اثني عشر طريقاً؟ وكيف أغرق الله تعالى طاغية العالم فرعون أمام أعينهم؟ وكذلك رأوا معجزات موسى عليه السلام من العصا والآيات التسع.. كل ذلك لم يشفع لهم أن يدخلوا في حرب مقدسة لمصلحتهم؟!!، وكذلك بقية تصرفات بني إسرائيل المخالفة لموسى عليه السلام.

فهاتان التجربتان الخارجية والداخلية لم تتحققا لأي نبي من أنبياء الله تعالى السابقين الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز.

فقد ذكر الله تعالى هاتين التجربتين الثريتين لرسوله المبعوث رحمة للعالمين، والمبعوث لوراثة الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها، وبمختلف حضاراتها، وبتنوع التحديات المتمثلة في تحديات الداخل (داخل الأمة الإسلامية) وتحديات الخارج المتمثلة في الطغاة، والأفكار المتنوعة، والإلحاد، والانحراف، وغيرها.

وبالإضافة لما سبق فإن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وجنده وملئه، مع قومه، تحمل مجموعة كبيرة من الحكم والعظات والسنن.

فمن الحِكم الأساسية المستفادة أن المجتمع الطاغوتي الفرعوني لا يخلو من بعض الصالحين، فهذا الرجل المؤمن داخل القصر نفسه، وفي خارجه ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

فهذا يعطي حكمة كبيرة للدعاة في الابتعاد عن الحكم العام، والتريث، والسعي للوصول إلى هؤلاء الصالحين، أو المنصفين داخل المجتمع حتى لو كان المجتمع فاسداً أو طاغياً، وفي إبعاد الظن والسوء العام والحكم العام، والإحباط، واليأس، كما أن شرار الناس ـ في الظاهر ـ قد يتحولون إلى أخيار الناس، فهؤلاء سحرة فرعون أسلموا، وصبروا صبراً يفوق صبر كثير من بني إسرائيل، فقد هدّدهم فرعون بالقتل أو تقطيعهم إرباً إرباً، وصلبهم على جذوع الأشجار فصبروا، فقال فرعون لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧١ـ٧٣].

وأما السنن المتضمنة في قصة موسى عليه السلام مع فرعون فتكمن في مجموعة من الأسباب والسنن، ذكرها المؤلف المحقق الكريم في الفصل السادس من الكتاب، فبلغت ستاً وعشرين سُنّة وسبباً.

مواصفات الحكم الظالم غير الرشيد:

وأهم من ذلك أن قصة موسى عليه السلام مع فرعون تضمنت الحكم الطاغي غير الرشيد، ومواصفاته، وهي:

١ ـ **سياسة خاطئة تؤدي إلى خراب الدنيا والآخرة**، حيث تسبَّب فرعون في غرق جنوده في الدنيا، وفي منع قومه من الإيمان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، وبالعكس فإن الحاكم الرشيد هو الذي يحقق لشعبه سعادة الدنيا والآخرة.

٢ ـ **اعتبار الحاكم أنه إله، أو بمنزلة إله** ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

٣ ـ **الاستعلاء**، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

٤ ـ **الاستكبار**، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ [القصص: ٣٩].

٥ ـ **الإفساد**، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

٦ ـ **الظلم**، فقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

٧ ـ **تجاوز الحق**، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

٨ ـ **الفسق والفجور واتباع الشهوات**.

٩ ـ **الاستخفاف بالشعب**، وعدم الانحياز له، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ [الزخرف: ٥٤].

١٠ ـ **الإسراف**، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠ـ٣١].

١١ ـ **الغفلة**، فقال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

١٢ ـ إذلال الشعب بصورة عامة، واستعباد طائفة منهم، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

١٣ ـ التفاخر، فقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

١٤ ـ تفريق الأمة، وجعلهم فِرَقاً وشيعاً للسيطرة عليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

١٥ ـ استضعاف الشعب، ومنع قوته وتقدمه، فقال تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: ٤].

١٦ ـ قتل الشعب، وخاصة الذين يعارضونه، فقال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

١٧ ـ انتهاك الحرمات والاعتداء على الناس، وجعل النساء أرامل أو دون أزواج لاستخدامهن في البغاء أو الشهوات، أو لخدمة الأكابر، فقال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

١٨ ـ الترف، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

١٩ ـ فساد البطانة والحاشية (الملأ) فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

٢٠ ـ انتشار الفساد المالي والإداري، وتحوّل الوظائف العليا، والقرب من الحاكم (فرعون) مغنماً، وهذا يدلّ عليه قوله تعالى لسحرة موسى: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٥].

فالقرب من الحاكم هو المغنم، وهذا قمة الفساد المالي والإداري في

الدولة؛ لأنه حينئذ ينقلب الميزان، ويصبح معكوساً ومختلاً؛ لأن ميزان الرشد يجب أن يقوم على العدل، وهو يقتضي أن يبني الأجر على مقدار العلم، والخبرة، والعمل.

إذن يفهم مما ذكر هنا وفي الكتاب، وما يمكن أن يستنبط من قصة موسى عليه السلام مع قومه ومع فرعون وهامان وقارون وجنوده، والملأ، ومع السحرة وغيرهم أن هذه القصة بشقّيها في غاية الأهمية القصوى للحبيب المصطفى ﷺ ولأمته وخاصة الدعاة من حيث الاهتداء، والبصيرة، والحِكم، والعِبَر، والعِظات، وأخذ السنن، وفقه التعامل مع العدو والصديق، والطغاة والأشرار والأخيار، وفقه التوقع والمآلات، وفقه الميزان، وفقه المقصود والمقاصد، وفقه الواقع والتوقع، وفقه التنزيل، وغير ذلك.

ثانياً: الحكمة من التفصيل الكبير لأحوال بني إسرائيل من حيث النشأة، والتعامل مع سيدنا موسى عليه السلام، ومن حيث طبائعهم وصراعاتهم، حيث أعطى القرآن الكريم تفاصيل دقيقة يستفاد منها من حيث علوم الأديان، والاجتماع، والنفس، والاقتصاد، والسياسة، ونحوها تفصيلاً يمكن أن يوصف بأنه تقرير دقيق مُفصّل يشمل جميع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والنفسية، والتعامل مع الغير من حيث الالتزام بالعهود والمواثيق، أو نقضها، وغير ذلك مما ذكر القرآن الكريم.

والحكمة في ذلك تعود إلى عدة أشياء، أهمها ـ والله أعلم ـ أن صراع بني إسرائيل سيظل قائماً مع الرسول ﷺ ومع أمته إلى يوم القيامة، فهم لن يرضوا عن المسلمين إلا باتباع ملّتهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

فمثل هذا الصراع الدائم من قبلهم ضد المسلمين يحتاج إلى معلومات موثقة

عن طبائعهم وتاريخهم، وهذا ما زوّده القرآن المسلمين ليكونوا على بينة من الأمر، وليجعلوها نبراساً يهتدون به، وسراجاً ينير لهم الطريق.

أهمية الكتاب:

إن هذا الكتاب موسوعة علمية موثقة حول سيدنا موسى عليه السلام.

وبالاطلاع على هذا السفر العظيم الذي كتبه يراع الأخ المحقق الكريم فضيلة الدكتور علي الصلابي، حفظه الله، وما استنبطه من السنن والعبر، وما سجّله من الوقائع والأحوال والسِّير، وما جمعه من الأخبار والأنباء، وما طرحه من الأفكار القيمة، وما استخرجه من المبادئ العظيمة، والقواعد، والمقاصد، والموازين... يتبين مدى عمق الكتاب، ودقته، وتأصيله، وتفصيله، وأنه كتاب موسوعي عظيم، مرجعه كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فإذا كانت القاعدة المنطقية تقتضي بأن شرف العلوم بموضوعاتها؛ فإن هذا الكتاب الموسوعي العظيم حول رسول يُعَدُّ من أعظم الرسل أولي العزم، بل ينال الكتاب هذا الشرف العظيم من جهتين:

إحداهما: أن مرجعه إلى القرآن العظيم.

وثانيهما: أن موضوع الكتاب هو سيدنا موسى عليه السلام.

فالكتاب قيّم في موضوعه، عميق في استنباطه، دقيق في عباراته، نافع في موضوعاته، ثَرٌّ وثري في مباحثه، فلم يترك أمراً يتعلق بموضوعه إلا وفسّره، واستنبط منه ما يمكن أن يُستنبط من الحِكم، والعبر، والأسباب، والسنن، وفقه الواقع، وفقه التنزيل، ورجع إلى المصادر القديمة والدراسات الجديدة فنهل منها، كما أنه سار على منهج تأليفي رائع. كما أنه كتاب موسوعي لا يَسْتغني عنه باحث مفسر، أو مؤرخ، أو سياسي، أو اجتماعي، حيث تناول جذور بني إسرائيل، ثم تناول سيرة سيدنا موسى عليه السلام ومكانته بين الأنبياء

والمرسلين، ثم خاض في تفاصيل قصة سيدنا موسى عليه السلام وجميع السور التي ذكرته بالتفصيل والتأصيل، واستنبط منها السنن والأسباب للهلاك والخراب، وللبقاء والعمران، وغير ذلك مما يزخر به هذا الكتاب الذي هو في حقيقته: موسوعة علمية حول سيدنا موسى عليه السلام وما يتعلّق به.

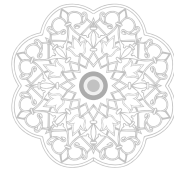
وقد وفق الله تعالى الأخ العزيز والعالم المحقق المفسر المؤرخ فضيلة الدكتور علي الصلابي لعدد طيب من الموسوعات العلمية، وخاصة حول أولي العزم من الرسل، فالله أسأل أن يتقبلها منه بقبول حسن، ويجعلها نافعة لأمتنا الإسلامية، وأن يبارك فيه للمزيد من التآليف النافعة، والدراسات العلمية الشيقة، والمباحث العميقة المباركة.

آمين، والحمد لله رب العالمين
والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه الفقير إلى ربه

أ. د. علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، اللّهم لكَ الحمدُ حتّى ترضَى، ولك الحمدُ بعدَ الرِّضا.

أما بعد:

إن هذا الكتاب «**موسى كليم الله، عدوّ المستكبرين، وقائد المستضعفين**»، إنما هو تتمّة لموسوعة أولي العزم من الرسل، التي أعان الله عزّ وجل على إتمامها، والتي عشت معها سنين عديدة، باحثاً ومتعلّماً، ودارساً في هذه المدرسة الربّانيّة العظيمة.

إنني أحمد الله الكريم المنّان أن وفّقني للاهتمام بهذا المجال المعرفي الزاخر، والتوسّع في سيَر هُداة البشريّة، وأن أنهل من المصادر والدراسات النافعة، وأحمدُه وأشكره على نِعَمه التي لا تُعدّ ولا تُحصى، وأسأله أن يُمدَّني بتوفيقه وتسديده وتأييده في الكتابة المنهجيّة النافعة لبقيّة قصص الأنبياء والمرسلين من كتابه العزيز، وأن يَلقَى ما أكتبه القبول بين الناس، ويجعله سبباً في هداية الكثير من خلقه، وأن تُسهم هذه الكتابات في نشر توحيد الله عزّ وجل، وإفراده بالعبادة، وتقديم نماذج رفيعة للمرجعيّة العقديّة والروحيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة والفكريّة.

هذا، وقد صدر من سلسلة «**أولو العزم من الرّسل**» مجموعة من الكتب، وهي:

١ ـ السيرة النبويّة: عرض حقائق وتحليل أحداث.

٢ ـ عيسى عليه السلام «الحقيقة الكاملة».

٣ ـ نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ميلاد الحضارة الإنسانيّة الثانية.

٤ ـ إبراهيم عليه السلام «خليل الله، وداعية التوحيد ودين الإسلام، والأسوة الحسنة».

٥ ـ وفي هذه المقدمة تقديم للكتاب الخامس في سلسلة «أولو العزم من الرسل»، والموسوم بعنوان: «موسى عليه السلام عدوّ المستكبرين، وقائد المستضعفين».

وقد قسّمت هذا الكتاب إلى ستّة فصول:

بحثت في **الفصل الأول** جذور بني إسرائيل التاريخية وحياتهم في مصر، وقسمته على مبحثين:

المبحث الأول: جذور بني إسرائيل التاريخية، وذكرت في هذا المبحث مواضع ورود ذكر يعقوب (عليه السلام) في القرآن الكريم، ومواضع ذِكْر اسمه الثاني «إسرائيل» في القرآن الكريم، وعن شجرة النبوّة الإبراهيميّة من الفرع الإسماعيلي والفرع الإسرائيلي، وعن أنبياء الفرع الإسرائيلي، وعن ختم النبوّة بالفرع الإسماعيلي، وعن بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عليه السلام، ومن هم الأسباط؟ وماذا تعني؟ وهل هم أنبياء؟ وعن الاسم الثاني الذي اشتُهر به أتباع موسى (عليه السلام) «اليهود»، ومتى بدأ هذا الاسم؟ وعلى ماذا تدل هذه الكلمة «اليهود»؟ وعن كلمة «اليهود» في الاصطلاح وفي السياق القرآني، وعن التفرقة بين اليهود وبني إسرائيل، وعن موقف المسلمين من أنبياء بني إسرائيل، وعن معنى «العبريّين».

وفي المبحث الثاني: كان الحديث عن حياة بني إسرائيل في مصر من مجيء يوسف (عليه السلام) إليها، وهجرة يعقوب وبنيه إلى مصر ووفاته، ووفاة

يوسف عليه السلام، وعن حكم الفراعنة لمصر وهزيمة الهكسوس، وعن فرعون والفرعونيّة، وأسباب اضطهاد بني إسرائيل.

وفي الفصل الثاني: موسى عليه السلام: اسمه ونسبه ومولده ومكانته بين الأنبياء والمرسلين، وعن السّور التي ذُكر فيها موسى وهارون في القرآن الكريم، وذُكر فيها اسم فرعون، وبنو إسرائيل واليهود.

ففي المبحث الأول: ذكرْتُ موسى (عليه السلام): اسمه ونسَبه والبيئة التي وُلد فيها.

وفي المبحث الثاني: موسى عليه السلام ومكانته بين الأنبياء والمرسلين، وعن مفهوم النبي والرسول في اللغة والاصطلاح، وعن النبوّة والرسالة، وعن الأدلّة في كون موسى (عليه السلام) «من أولي العزم»، وعن حقيقة النبوّة، وعن الحكمة من بعث الرّسل، وحاجة الخلق إليهم، ودعوة الناس إلى عبادة الله، وإقامة الحُجّة على البشر بإرسال الرّسل والأنبياء، الذين هم طريق البشرية لمعرفة العقائد الغيبيّة، وحاجة الخلق للقدوة الحسنة، وعن إصلاح النفوس وتزكيتها، وعن تحقيق غايات عظمى، ووظائف كبرى من دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وتبليغ الشريعة الربانيّة إلى الناس، وتبشير العباد وتحذيرهم، وشهادة الرّسل على الأمم يوم القيامة، والاستفادة من سنن الله في الأفراد والشعوب والأمم والدول، وتعليق القلوب والأرواح بالانتظام في سلكِهم، والسّير في موكب الأنبياء والمرسلين المبارك.

وكان الحديث عن خصائص الأنبياء والمرسلين من اصطفائهم بالوحي والرسالة والعصمة، وأن أعْينهم تنام ولا تنام قلوبهم، وعن تخييرهم عند الموت، وعن أن النبي يُقبر حيث يموت، ولا تأكل الأرض أجسادهم، وأنهم أحياء في قبورهم؛ وأنّهم لا يورّثون بعد موتهم.

وأن دين الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام واحد، ودعوتهم واحدة، وأن الإيمان بالأنبياء والمرسلين من أركان الإيمان، وأن الإسلام دين

الأنبياء جميعاً، وأن أول عقيدة في الأرض هي التوحيد، وأن دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة خالصة لربّ العالمين، وأن الاتفاق في الأصول والخلاف في الفروع بين رسالات المرسلين كل ذلك من الله تعالى.

وفي الفصل الثالث: قصة موسى (عليه السلام) في سورة القصص وطه والشعراء والنمل ويونس وهود وغافر والزخرف والدخان والنازعات.

وفي المبحث الأول: قصة موسى (عليه السلام) في سورة القصص، وقد جاءت قصة موسى (عليه السلام) مُفصّلة في سورة القصص أكثر من غيرها، فهي تفصيل لما أُوجِز في الشعراء والنمل؛ حيث تعرّضت لحلقات القصة المتعلّقة بمولد موسى عليه السلام والتقاط آل فرعون له، ورضاعته وتربيته داخل بيت فرعون وما كان يقوم به فرعون من تذبيح بني إسرائيل، كما تعرَّضت السورة لقتل القبطي على يد موسى عليه السلام خطأ، ثم فراره إلى مدين، فسَقْيه للمرأتين، فاتصاله بأبيهما، فزواجه من إحداهما، ثم عودته ومناجاته لربه[١].

وتتَّسم قصة موسى عليه السلام في سورة القصص بسمات؛ أهمّها:

١ ـ جاءت بأسلوب فيه إطناب وتفصيل في كثير من المواضع.

٢ ـ جاء فيها مشاهد لم تأتِ في غيرها، مثل: الحديث عن مولد موسى عليه السلام، والتقاط آل فرعون له، ورضاعته، وفراره إلى مدين، وسقيه للمرأتين، واتصاله بأبيهما، وزواجه بإحداهما، ثم العودة إلى مصر من جديد[٢].

٣ ـ السورة على الرغم من اسمها الدّالّ على أكثر من قصة إلا أنها لم تعالج إلا قصة موسى (عليه السلام)، وكأن في ذلك إشارة إلى أن هذه القصة لِما اشتملت عليه من دروس وعِبر، وما اشتملت عليه من مواقف، فإنها تستحق هذا الاسم

(١) تصريف القول في القصص القرآني؛ دراسة بلاغية تحليلية لقصة موسى عليه السلام، محمَّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ٢٠١٨م، ص٢٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٣.

الجامع «القصص»، ففيها عِبرة القصص القرآني ودلالاته جميعها، وهي سورة تقدِّم قصة كليم الله عليه السلام في مسار واضح؛ فهي تتحدَّث عن بنية المجتمع، وكيف يُمكن معالجة الاختلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيه.

وقد ورد في سورة القصص حديث معظم الشخصيات الأساسية التي كانت في القصة القرآنية عموماً، كما قدّمت تصوُّراً واضحاً عن بنية هذا المجتمع وأطراف الصراع فيه، ففي الشخصيات تحدّثتُ عن مواقفها، وعن خصائصها وعن دورها في سياق بناء المجتمع أو هدمه، وهذه الشخصيات هي:

* موسى عليه السلام.
* قارون.
* الملأ.
* أم موسى.
* هارون عليه السلام.
* الرجل الصالح.
* البنتان.
* امرأة فرعون.
* أخت موسى.
* فرعون.

وفي جانب المجتمع، قدّمت سورة القصص ثلاثة أطراف رئيسة:

الأول: فرعون، الذي يُمثِّل حقيقة نموذج الاستبداد؛ فهو يشكل مؤسسة ومنهجاً للاستبداد.

الثاني: الفئة المستضعفة، وتتألّف من بني إسرائيل وبقية الشعب المستضعف.

والثالث: الفئة المسؤولة عن الإصلاح والتوجيه والإرشاد، وهذه الفئة يُمثِّلها موسى وهارون (عليهما السلام)، والمصلحون معه كمؤمن آل فرعون.

وآيات السورة تُحدِّد ذلك بوضوح تام؛ فهي تُقدّم لنا أولاً مؤسسة الاستبداد والظلم، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وهذه هي الفئة المستقوية التي ظلمت وبطشت وتعدّت وأفسدت، ومارست التفريق والتقسيم بين أبناء المجتمع، والبعد الشخصي فيها واضح وبارز، لأن

فرعون جعل الأمور كلها تدور في فلكه الشخصي، ومن هنا جاءت أوصافه كثيرة ومتعددة في القرآن، بما يشير إلى طبيعة هذا النموذج وخطورته(١).

ومن هذه الأوصاف التي تتصل بفرعون:

التألّه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

الاستعلاء: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

الاستكبار: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ [القصص: ٣٩].

الإفساد: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

الظلم: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

الخطأ والتجاوز والتعدّي: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

الفسق: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

الغفلة: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، وكذلك قال عنه في سورة غافر: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

الاستخفاف: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

التولّي: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].

الاستعباد: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

الاستقواء: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

---

(١) القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، سليمان الدقور، عَمان، دار النّفائس، ٢٠١٨م، ص١٦٩.

مسرف مرتاب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ولا شكّ في أن هذه السورة وصفت مكوّنات الفئة المستبدّة ومشروعها ووسائلها في قمع مخالفيها[١]، وممارسة الظّلم والإجرام في حق المستضعفين، وبيّنت السورة كيف تمّ مواجهة مشروع فرعون بمشروع موسى (عليه السلام) لإنقاذ المستضعفين، في معالم محددة واضحة، وكيف بذل قصارى جهده لرفع الظلم والإجرام عن قومه. وقصة موسى عليه السلام في سورة القصص غنيّة بالدروس والعبَر والفوائد والسنن، ومنها أيضاً حديث عن قصة قارون بتفاصيلها.

وفي المبحث الثاني: قصة موسى عليه السلام في سورة طه، وتتجلّى في هذه القصة رعاية الله لموسى وحفظه، من الولادة وحتى إهلاك أعداء الله، وظهر الأسلوب المتميز لعرض قصة موسى منذ بدايتها في سورة طه، فلم تُعرَض القصة حسب التسلسل الزمني لحوادثها، بل بدأت بعرض وقائع القصة من الواقعة التي تعدّ بحقّ أعظم حوادث القصة وأخطرها، وهي واقعة نزول الوحي على موسى (عليه السلام)، وتكليم الحق سبحانه له، وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، هذا الحدث من أبرز أحداث القصة، وأكثرها أثراً، وقد كان له أكبر الآثار وأعمقها في حياة موسى (عليه السلام) خاصّة، وفي حياة بني إسرائيل وتاريخهم عامة، وانعكست نتائجه على المسيرة التاريخية والحضارية للمنطقة كلها[٢].

وفي المبحث الثالث: قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء، وقد بيّنتُ فيها تفسير الآيات المتعلّقة بقصة موسى عليه السلام، وقد جاءت قصته في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذّبين بالرسالة، وإلى طمأنة الرسول ﷺ وتعزيته عمّا يلقاه من إعراض المشركين،

---

(١) القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، المصدر السابق، ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التّفسير وعلوم القرآن، بإشراف الدكتور مصطفى مسلم، كلّيّة الدّراسات، جامعة الشّارقة، د. ط، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١ م، ٥/ ٢٢٩.

وتكذيبهم له ولرسالته، وإلى رعاية الله له ولأصحابه المؤمنين، ولو كانوا مجرّدين من القوة، وأعداؤهم أقوياء جبّارون في الأرض، مسلّطون عليهم بالأذى والتنكيل ـ وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة ـ وقد كانت القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم.

وفي المبحث الرابع: قصة موسى عليه السلام في سورة النمل، وجاءت مختصرة في بيان الوحي والرسالة، ودعوة فرعون وقومه إلى التوحيد، وسبب الامتناع، وعاقبة المفسدين.

وفي المبحث الخامس: قصة موسى عليه السلام في سورة يونس وهود عليهم السلام، ففي سورة يونس بيّنت الآيات موقف فرعون وملئه من الحق الذي جاء به موسى (عليه السلام) وحشدهم للسحرة، وتصدّي موسى لهم، حيث بيّن لهم سنة الله الجارية في المفسدين ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وفي قصة موسى (عليه السلام) في سورة هود جاءت الأحداث مختصرة، وبيّنت اتّباع ملأ فرعون له، وابتعادهم عن الرشد والصواب، وصوّرت الآيات مآل فرعون وقومه يوم القيامة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وبعد أن تكلّمت الآية الكريمة عن تقدّم فرعون قومَه إلى النار، عادت هذه الآية بالأتباع والمتبوعين إلى ساحة الدنيا، لتعرّفنا أنهم أُلحقوا فيها باللّعنات، تطاردهم وتتبعهم، وأما يوم القيامة فبئس الرفد المرفود، قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

وفي المبحث السادس: قصة موسى عليه السلام في غافر والزخرف والدخان والنازعات.

ففي سورة **غافر** كان الحديث عن مؤمن آل فرعون في دفاعه عن موسى (عليه السلام)، وأساليبه العقلية والعاطفية والدعوية في دعوة قومه للتوحيد

والإيمان بموسى (عليه السلام)، وقمتُ بمقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق رضي الله عنه في الدفاع عن دعوة التوحيد ودعوة الناس إليها، وكيف استخدم مؤمن آل فرعون أساليب الدعوة، وانتقل في مراحلها من السرية إلى المجاهرة، ووظّف سنن الله في خطابه للعقول والقلوب، وما هو مصيره ومصير آل فرعون في النهاية.

ثم كان الحديث عن قصة موسى في سورة **الزخرف**، وعن دعوة فرعون لقومه ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢]، وكيف استخفَّ فرعونُ قومه فأطاعوه بسبب فسقهم، وما ترتَّب على هذا الفسق والكفر والتكذيب لدعوة موسى عليه السلام من الانتقام الإلهي.

وفي سورة **الدّخَان** تمّ عرض قصة موسى مع فرعون، وقُمتُ بتفسير الآيات الكريمة معتمداً على الله، ثم على أقوال العلماء الرّاسخين في علْم التفسير.

وفي سورة **النازعات** تجلَّى موقف فرعون من دعوة موسى (عليه السلام)، وشرحتُ الآية الكريمة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٦].

وفي الفصل الرابع: كانت قصة موسى (عليه السلام) في سورة الأعراف وإبراهيم عليه السلام.

ففي المبحث الأول: قصة موسى (عليه السلام) في سورة الأعراف.

وفي المبحث الثاني: قصة موسى عليه السلام في سورة إبراهيم (عليه السلام).

وفي الفصل الخامس: كان الحديث عن قصة موسى (عليه السلام) وقومه في سورة البقرة، والمائدة، والنساء، والكهف.

ففي المبحث الأول: قصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل في سورة البقرة.

وفي المبحث الثاني: قصة موسى (عليه السلام) مع قومه في سورتي النساء والمائدة.

وفي المبحث الثالث: قصة موسى مع العبد الصالح «الخضر»، حيث بيّنتُ سبب القصة وتفاصيلها في كتب السنة، والعلاقة بين العالم والمتعلّم، وأفضليّة موسى عليه السلام على الخضر، وشرحتُ آيات القصة شرحاً مفصّلاً، واستخرجتُ منها الدروس والعِبر والفوائد والحِكم والسّنن والقيم والأخلاق والأحكام ... إلخ، وأهم المضامين التربويّة، وصفات طالب العلم، وخصائص المعلّم القدوة، وآداب المتعلّم، وأجبتُ عن الأسئلة المتعلّقة بالخضر عليه السلام، هل هو نبيّ أو وليّ؟

وفي الفصل السادس: أسباب هلاك فرعون وقومه، وفضائل موسى (عليه السلام)، ووفاته.

ففي المبحث الأول: أسباب هلاك فرعون وقومه، ومنها:

١) **أولًا**: الكفر بالله عزّ وجل.
٢) **ثانياً**: الشرك في الربوبية.
٣) **ثالثاً**: الشرك في الألوهية.
٤) **رابعاً**: الظلم.
٥) **خامساً**: الاستكبار.
٦) **سادساً**: دفع الحق.
٧) **سابعاً**: انتهاك الحرمات.
٨) **ثامناً**: الاستعلاء على الناس واحتقارهم.
٩) **تاسعاً**: الاعتداء على الناس.
١٠) **عاشراً**: الفخر بالمُلك والسلطان والمال.
١١) **الحادي عشر**: التكذيب بالرسل.

١٢) **الثاني عشر**: التكذيب بالآيات.

١٣) **الثالث عشر**: التكذيب بالبعث والنشور.

١٤) **الرابع عشر**: الاستهزاء بالرّسل وأتباعهم.

١٥) **الخامس عشر**: إيذاء الرسل وأتباعهم.

١٦) **السادس عشر**: كفران النعم.

١٧) **السابع عشر**: فساد الصفوة «الملأ».

١٨) **الثامن عشر**: التّرف.

١٩) **التاسع عشر**: الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة.

٢٠) **العشرون**: سنة الاستبدال.

٢١) **الحادي والعشرون**: سنة الأجل الجماعي.

٢٢) **الثاني والعشرون**: سنة الهلاك.

٢٣) **الثالث والعشرون**: سنة الخسران.

٢٤) **الرابع والعشرون**: سنة الله في المفسدين.

٢٥) **الخامس والعشرون**: سنة الله في الفاسقين.

٢٦) **السادس والعشرون**: الغفلة عن أسباب الهلاك.

وفي المبحث الثاني: كان الحديث عن التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، وكيف تلقّى ألواح التوراة، وفي أي مكان كان ذلك، وكم مرّة وردت التوراة في القرآن الكريم؟ وما أوصافها؟ وما أحكام التوراة التي ذُكرت في القرآن الكريم؟ وبيّنتُ تناقض مواقف اليهود في تطبيق تلك الأحكام، وذكرتُ أحكام التوراة الواردة في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، والتي من أهمها تحريم القتل بالباطل، وتشريع القصاص فيما بينهم.

وتحدّثتُ عن تحريف أحبار اليهود للتوراة، والأدلة على ذلك كما جاءت في

القرآن الكريم، ووضحتُ أن القرآن الكريم فصّل القول فيما اختلف فيه اليهود، وضربتُ على ذلك البراهين.

وفي المبحث الثالث: تكلّمتُ عن أهم صفات موسى (عليه السلام) وفضائله ووفاته، فذكرتُ أهم صفات موسى (عليه السلام) من الإخلاص، والصبر، وعبوديته لله، وتعظيمه لربّه، وخوفه منه، وشكره له، والتوكّل عليه، والإحسان والعلم والقوة والأمانة والحكمة، وكثرة الدّعاء، والتواضع، والاعتراف بالخطأ والشهامة، ومساعدة الضعفاء، والمروءة والشجاعة والعزيمة، وغير ذلك من الصفات.

وأشرتُ إلى هيئة موسى وشكله وجسمه وحجّه إلى بيت الله الحرام، كما جاء في أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة، ولقائه مع رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وذكرتُ ما جاء من أحاديث صحيحة في فضله ومكانته (عليه السلام).

ثم ختمتُ الكتاب بالحديث عن وفاته، وأين قبره، ومن بعدها النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة الموسّعة.

إن هذا الكتاب يجعلك، بإذن الله تعالى، تعيش مع موسى (عليه السلام) منذ طفولته حتى وفاته، وأهم المحطّات التاريخيّة الكبرى التي مرّ بها في حياته مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل، وما قام به من جهودٍ جبّارة في نصرة الحق، ودعوة الناس للتوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وإنقاذ بني إسرائيل من ظلم فرعون وإجرامه.

هذا، وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأربعاء/ ٢٧ شعبان، ١٤٤٣هـ، ٣٠ آذار ٢٠٢٢م، في تمام الساعة الثانية وعشر دقائق ظهراً بالدوحة.

وإن الفضلَ لله عزّ وجل من قبلُ ومن بعدُ، فأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين.

ولا يسعُني في مرحلة الانتهاء من هذا الكتاب إلا أن أقف بين يدي الله عزّ وجل بقلبٍ خاشعٍ منيب، معترفاً بفضله وكرمه، ومتبرّئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضّل عليّ.

وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو تخلّى عني ووكَلني إلى عقلي ونفسي لتبلَّد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويَبست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجزَ القلم عن البيان.

اللهم بصِّرني بما يُرضيك، واشرح صدري، وجَنِّبني اللهم ما لا يُرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك ربنا بأسمائك الحُسنى، وصفاتك العُلا، أن تأجرني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا العمل.

اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقَبول والنفع العظيم.

كما أرجو من كل من يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء، قال تعالى:

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه

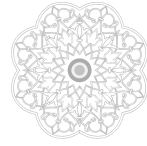
علي محمد محمد الصلاّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

١ رمضان ١٤٤٣هـ/ ٢ نيسان ٢٠٢٢م

الفصل الأول

جذور بني إسرائيل التاريخية وحياتهم في مصر



المبحث الأول

جذور بني إسرائيل التاريخية

ينتسب بنو إسرائيل إلى إسرائيل نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام). وقد ذكر القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام اسمين: يعقوب، وإسرائيل. أما يعقوب فهو اسم عَلَم أعجمي، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وكونه أعجمياً يدعونا ألا نبحث له عن معنى في العربية، ولا نلتفت إلى الإسرائيليات في تعليل تسميته بيعقوب[1].

أولاً: مواضع ورود اسم يعقوب (عليه السلام) في القرآن الكريم:

ورد ذِكر «يعقوب» خمس عشرة مرة في القرآن، فقد ورد في السور المكية الآتية:

* **في سورة يوسف**: ورد ثلاث مرات في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام.

* **وفي سورة مريم**: ذُكر مرتين؛ مرة في الإخبار عن إبراهيم عليه السلام، ومرة في دعاء زكريا عليه السلام طالباً من ربه الولد.

* **وفي سورة هود**: ورد مرة في الإخبار عن بشارة سارة بإسحاق ثم بيعقوب.

* **وفي سورة الأنبياء**: حيث ذُكر مرة في الإخبار عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم بيعقوب.

---

(١) القصص القرآني؛ عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دمشق، دار القلم، ط٤، ٢٠١٦م، (٢/ ٥٠)، منقول بتصرف.

* **وفي سورة العنكبوت**: ورد مرة في الإخبار عن جعل الله النبوة في ذرية إبراهيم وحفيده يعقوب.

* **وفي سورة (ص)، ذُكر مرة في جمع الكرام الثلاثة**: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وأما السور المدنية التي ذكر فيها، فهي:

* **سورة البقرة**: وذكر فيها أربع مرات، وذلك في معرض الحديث عن إسلامه ووصيته لأولاده وهو على فراش الموت بالإسلام، ودعوة ذريته إلى الدخول في الإسلام، والإيمان بجميع الكتب المنزلة، وبجميع الرسل المبعوثين، ويلزم من هذا اتباع اليهود لرسول الله محمد ﷺ ودخولهم في دينه.

* **وسورة آل عمران**: حيث ذكر فيها مرة واحدة في معرض دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بكل الأنبياء وما أُنزل عليهم.

* **وسورة النساء**: إذ ذُكر فيها مرة واحدة، أثناء ذِكْر أسماء مجموعة مباركة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثانياً: مواضع ذكر اسمه الثاني «إسرائيل» في القرآن:

إن الاسم الآخر ليعقوب هو «إسرائيل»، وقد ذُكر في القرآن مرتين:

الأولى: في سورة آل عمران، عند الحديث عمّا حرَّمه يعقوب على نفسه وما حرّمه الله على بني إسرائيل.

الثانية: في سورة مريم، عند الحديث عن شجرة النبوة المتفرعة عن إبراهيم وعن يعقوب عليهما السلام[1].

والذي حرّمه إسرائيل على نفسه جاء في قوله تعالى ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٥١).

﴿بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وقد أنزل الله هذه الآية في مجادلة الرسول ﷺ لأهل الكتاب، وبالذات اليهود بشأن يعقوب عليه السلام، وما حَرّمه على نفسه تقرُّباً إلى الله عزّ وجل.

وتُكذِّب هذه الآية وما بعدها اليهود في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب عليه السلام، فقد دوّن أحبار اليهود في سفر التكوين في العهد القديم الأخبار، ونسجوا الأكاذيب حول يعقوب عليه السلام، زعموا فيها أن يعقوب قد صارع الرّب ليلاً، وأنه قد صرعه عدداً من المرّات، وأن الرّبَّ المصروع المغلوب باركه، وبارك بَنيه، وجعل الأرض المقدسة لهم إلى قيام الساعة، ومنذ تلك الليلة غيّر الله اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، ومعناه عندهم: الذي جاهد الربَّ وصارعه[١]. وهذه من الأكاذيب والافتراءات في حق الله عزّ وجل، وفي حق نبي الله يعقوب عليه السلام.

إن الآية الكريمة: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾: تنصّ على الاسم الثاني ليعقوب عليه السلام، فيعقوب هو إسرائيل عليه السلام، وأولاده وذريته هم «بنو إسرائيل»، وكان إسرائيل عليه السلام موجوداً قبل إنزال التوراة؛ لأن الله أنزل التوراة على نبيه موسى عليه السلام، وإسرائيل وُجد قبل موسى عليه السلام بعشرات السنين، وبما أن إسرائيل عليه السلام نبيٌّ؛ فإن ما التزم به قد أصبح شرعاً ملزماً له، وقد ألزم الله به ذريته وأبناءه، وجعله تشريعاً لهم.

ويُخبرنا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح أن أَحبّ الطعام لإسرائيل عليه السلام كان لُحوم الإبل، فلما مرض يوماً مرضاً شديداً بعرْق النسا، واشتد به سقمه، وطال مرضه، نذر نذراً لله، لئن شفاه الله وعافاه، ليتقرّبنَّ إلى الله بترك أحب الطعام إليه، والامتناع عن أكله[٢].

---

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٥١).
(٢) القصص القرآني، المصدر نفسه، ص٥٨.

وبما أن أحب الطعام إليه هو لحوم الإبل، فقد وفّى بنذره بعدما شفاه الله، وامتنع عن تناول لحوم الإبل، شكراً لله الذي عافاه من مرضه.

وهذا تناسق لطيف مع الآية السابقة من سورة آل عمران، التي تدعونا إلى إنفاق أحب شيء إلينا؛ لننال البرّ والأجر عند الله[١].

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٢ ـ ٩٣].

فإذا كان المسلم الصالح لا يَنال البِرّ حتى يُنفق في سبيل الله أحبّ شيء إليه؛ تقرُّباً إلى الله، وبما أن أحب شيء إلى نبي الله إسرائيل (عليه السلام) هو لحوم الإبل، فقد امتنع عنها، وتقرّب بذلك الامتناع إلى الله، وجعله في سبيل الله لينال البرّ عند الله، ويحظى بالدرجات الرفيعة.

وقد ألزم الله بعد ذلك أبناء إسرائيل بما امتنع عنه أبوهم عليه السلام، وصار هذا تشريعاً من تشريعاتهم، وحرّم عليهم بذلك أكل لحوم الإبل[٢].

ثالثاً: شجرة النبوة الإبراهيمية:

تُبيّن آيات القرآن الكريم: أن إبراهيم (عليه السلام) هو أبو الأنبياء، وأبو هذه الأمة، وأن «شجرة النبوة» منه، وأن الأنبياء المذكورين بعده في القرآن، والمبعوثين بعد زمانه، هم من نسله وذريته[٣].

وبهذا السياق ورد اسم إسرائيل ـ يعقوب ـ للمرة الثانية في القرآن، وذلك في قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، ص٥٩.
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٥٩).
(٣) المصدر نفسه، (٢/ ٥٩).

ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

ذكرت الآية أربعة أنبياء: آدم ونوحاً وإبراهيم وإسرائيل.

ذُكر آدم عليه السلام باعتباره أبا البشر.

وذُكر نوح عليه السلام باعتباره أبا البشرية الثاني بعد الطوفان.

وذكر إبراهيم عليه السلام لأن النبوة انتهت إليه، وشجرة النبوة استقرَّت عنده.

وقد تفرَّع من شجرة النبوة فرعان:

١ ـ **الفرع الإسماعيلي**: المتمثل في إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهذا الفرع خُتم بخاتم الأنبياء والمرسلين رسول الله محمد ﷺ، سيد ولد إسماعيل، بل سيد ولد آدم، بل أفضل المخلوقين جميعاً، وأحبهم إلى الله.

٢ ـ **الفرع الإسرائيلي**: المتمثل بإسرائيل ـ يعقوب ـ حفيد إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهو أبو بني إسرائيل، وأصل أسباطهم، وكل أنبيائهم من ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى عيسى ابن مريم من ذرية يعقوب من جهة الأم؛ لأنه لا أب له عليه الصلاة والسلام، ولهذا الاعتبار ورد ذكر إسرائيل معطوفاً على إبراهيم عليهما السلام في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقد صرّح القرآن بأن الله جعل النبوة في ذرية كل من إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧].

فالله وهب لإبراهيم كلاًّ من إسحاق ويعقوب عليهم السلام، وكان ذلك بعد أن هاجر إلى الله، وغادر العراقَ إلى الأرض المقدسة[١].

---

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٦٠).

٣ـ أنبياء الفرع الإسرائيلي:

جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم وحفيده يعقوب عليهما الصلاة والسلام، والراجح أن ضمير التثنية في قوله ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ يعود على إبراهيم ويعقوب، ووجه الترجيح في ذلك ما سبق أن قرّرناه من تفرُّع فرعي النبوة من الشجرة الإبراهيمية: الفرع الإسماعيلي، والفرع الإسرائيلي.

لقد استمرت النبوة في الفرع الإسرائيلي عدداً من القرون، حيث بعث الله أنبياء كُثُر إلى بني إسرائيل؛ أولهم نبي الله إسرائيل نفسه عليه السلام، الذي كان نبيّاً لأبنائه، ثم ابنه نبي الله يوسف عليه السلام، ثم الأنبياء الآخرون من بني إسرائيل، مثل موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى، وآخرهم هو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

٤ـ ختم النبوة بالفرع الإسماعيلي:

ختم الله النبوة في الفرع الإسرائيلي بعيسى ابن مريم عليه السلام، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، الذي خلقه الله خلقاً معجزاً، دون أب، وأظهر على يديه كثيراً من المعجزات.

وشاء الله أن يختم النبوة كلها بنبيّ من الفرع الإسماعيلي، وهو أفضل الخلق جميعاً، محمد ﷺ[1].

٥ـ بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب:

يبدأ تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عليه السلام، وصِلتهم بإبراهيم كصلتهم بإسماعيل عليهما السلام، أليس إسماعيل عمّاً ليعقوب؟ أليس هو شقيق أبيه إسحاق؟ فلماذا لا يجعلون تاريخه تاريخاً لهم مع أنه عمٌّ لأبيهم؟!

لو كانوا «بني إبراهيم» لبدأ تاريخهم من تاريخ إبراهيم، ولو كانوا «بني إسحاق» لبدأ تاريخهم من تاريخ إسحاق.

---

(١) القصص القرآني، المصدر نفسه، (٢/ ٦١).

ولأنهم «بنو إسرائيل» أي: بنو يعقوب، فإن تاريخهم يبدأ من تاريخ يعقوب عليه السلام، ولهم أن يتوقفوا عند حياته وحياة أبنائه الاثني عشر، وأن يعتبروا ذلك بداية لوجودهم وحياتهم وتاريخهم، هذا لمن ثبت أصله ونسبه ليعقوب عليه السلام[١].

وإسرائيل عليه السلام نبي كريم، ومؤمن عظيم، ولاؤه وبراؤه لله، فهو يُوالي كل مؤمن، مهما ابتعد عنه في النسب أو الزمان، ويتبرّأ من كل كافر ولو كان من صُلبه، ونسله، وذريته[٢].

٦ ـ من هم الأسباط؟

وردت كلمة «أسباط» في القرآن الكريم خمس مرّات: أربعة منها في سياق تعداد أسماء بعض الأنبياء، ونصّت هذه الآيات على وجوب الإيمان بمن سمّتهم الأسباط، وهم أنبياء كرام من بني إسرائيل، ومن هذه الآيات:

* قوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

* وفي قوله تعالى ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

* كما وردت كلمة «الأسباط» في سورة آل عمران، وفي السياق نفسه، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

---

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٦٢).
(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٦٣).

* كما وردت كلمة «الأسباط» في سورة النساء، في السياق نفسه أيضاً: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣].

إن «الأسباط» مذكورون في هذه الآيات الأربعة كلها في إطار ذكر الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا الذكر جعل الكثيرين يعدّون الأسباط أبناء يعقوب الاثني عشر، فهل هذا صحيح؟ وهل إخوة يوسف أنبياء؟ وما معنى الأسباط؟

إن الذين يعدّون إخوة يوسف أنبياء يجعلون معنى الأسباط: الأبناء، فهم أسباط ليعقوب؛ لأنهم أبناء من صلبه، فهل الأسباط في اللغة هم الأبناء؟ وهل السبط هو الابن؟

قال الإمام الراغب في معنى «السِّبط»: أصلُ السبط: انبساط في سهولة، والسِّبط: ولد، كأنه امتداد الفروع، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أي: قبائل، كل قبيلة من نسل رجل[١].

وقال السمين الحلبي عن «الأسباط»: الأسباط جمع سبط، وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب. وأحسن منه ما قاله الأزهري: الأسباط في ولد إسحاق، والقبائل في ولد إسماعيل، فعلوا ذلك تفرقة بين أولاد الأخوَين، أعني إسحاق وإسماعيل، واشتقاق السبط من الامتداد والتفريع، لأن السبط ولد الولد، فكأن النسب امتدَّ، وانبسط، وتفرّع.

* وقيل: اشتقاق الأسباط من السبط، وهو الشجرة التي أصلها واحد وأعضاؤها كثيرة، واستدلوا بقوله تعالى ﴿أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، فترجم الأسباط بالأمم، فكل سبط أمة، وفي الحديث: الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ.

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، دار القلم، ط ١، ١٤١٢ هـ، ص٣٩٤.

قال المبرد: سألت ابن الأعرابي عن «الأسباط» فقال: هم خاصة الولد. أي: هم أولاد الولد.

إذن، السِّبط في اللغة: هو الشيء المنبسط الممتدُّ المتفرِّع عن الأصل، وهو يطلق على ولد الولد وليس الولد، ومعلوم عندنا أن الحسن والحسين رضي الله عنهما هما سبطا رسول الله ﷺ، وهما ابنان لابنته فاطمة رضي الله عنها.

وإن «الأسباط» المذكورين في القرآن ليسوا أبناء يعقوب عليه السلام، بل ذريته المتفرعة من أبنائه.

٧ ـ أسباط بني إسرائيل هم قبائلهم:

والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، فهم بمعنى الأمم، كما ورد في صريح القرآن.

قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿أُمَمًا﴾ في الآية منصوبة، لأنها بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾ أي: قطعنا بني إسرائيل اثنتي عشرة أمة، ولهذا فجّر الله لهم الحجر اثنتي عشرة عيناً على عدد قبائلهم وأسباطهم، وإذا كانت «الأسباط» بمعنى قبائل بني إسرائيل، فإن الأسباط ليسوا أنبياء، وإنما ذكرهم الله ضمن مجموعة من الأنبياء على تقدير حذف مضاف، والتقدير: وأنبياء أسباط بني إسرائيل، أي: آمنّا بما أُنزل على الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن الله أخبرنا بأسمائهم أنهم أنبياء، وآمنّا بالأنبياء الآخرين الذين بعثهم الله إلى أسباط وقبائل بني إسرائيل، ولم يُخبرنا الله عن أسمائهم.

لقد بعث الله إلى أسباط بني إسرائيل أنبياء كثيرين، ولم يخبرنا إلا عن أسماء

قليل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

٨ ـ الراجح عدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام:

رأى بعض المفسرين أن المراد بـ «الأسباط» في الآيات الأربع الأولى إخوةُ يوسف الأحد عشر، فبعد أن تابوا عن ذنوبهم واعتذروا إلى أخيهم يوسف عن فعلتهم الشنيعة به، وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢]، وبعد أن استغفر لهم أبوهم يعقوب عليه السلام، أُنعم عليهم بالنبوة جميعاً، ونالوا هذه الدرجة العالية، لذا فهم المعنيّون بكلمة «الأسباط»، وهذا الرأي يفتقر إلى الأدلة القوية الصحيحة التي تُؤيِّده وتُقرِّره، بل إن هناك أدلة قوية تردُّه وتدحضه، وأسوق هنا بعض الأدلة:

* إنّ كلمة «أسباط» لا تُطلَق على «الولد»، بل على ولد الولد فما دون، قال صاحب كتاب «الدرّ المصون»: «الأسباط»: جمع سبط، وهم في ولد يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل، واشتقاقهم من السّبط، وهو التتابع، سُمُّوا بذلك لأنهم أمة متتابعون، وقيل للحسنين: سبطا رسول الله ﷺ لانتشار ذريتهم، وقال تعالى عن ذرية إسرائيل ـ يعقوب ـ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

* لم يرد في القرآن الكريم ولا السنة الصحيحة أنّ إخوة يوسف قد نُبِّئوا، ولو ورد ذلك لما وسعنا إلا التسليم بنبوّتهم.

* لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غير يوسف عليه السلام، فقد قال للمصريين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يقل: ولقد جاءكم يوسف وإخوته.

* إنّ إخوة يوسف قد همّوا بقتله، وطرحوه في غيابة الجُبّ، وهذا عمل لا يفعله من يُعدُّ لمرتبة النبوة.

* إن يوسف عليه السلام قال لهم، وبعد سنين طويلة من فعلتهم به: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧].

* إن كلمة «أسباط» لم تُطلق على ذرية «يعقوب/ إسرائيل» إلا في سيناء بعد الخروج، ولم تطلق عليهم أبداً في مصر طيلة ما يزيد على مائتي سنة، وهذا يفيد أن معنى كلمة «الأسباط» هو «القبائل» التي تكوّنت من أبناء وذرية كل ولد من أولاد يعقوب، لا أسماء آبائهم(١).

إن الذي أراه ـ وهو ما صحّ عندي ـ أنّ كلمة «الأسباط» التي وردت في القرآن الكريم في سياق تعداد بعض الأنبياء الكرام، إنما تعني الأنبياء الذين بُعثوا من ذرية يعقوب عليه السلام طيلة تاريخ بني إسرائيل في فلسطين، وليس المراد بهذا اللفظ أولاد يعقوب الأحد عشر، كما يرى بعض المفسرين(٢).

وكل ما نقوله عن إخوة يوسف عليه السلام: كانوا في أفعالهم الخاطئة التي سجلتها لهم آيات سورة يوسف عُصاةً مخطئين، ارتكبوا تلك الذنوب والآثام، وبعد ذلك شعروا بتأنيب الضمير، فتابوا إلى الله وأنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طلبوا من أخيهم يوسف أن يستغفر الله لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم، وبعد ذلك تابوا وأنابوا، واستقاموا وأصلحوا، فأقصى ما وصلوا إليه أن يكونوا مؤمنين صالحين، وعابدين محسنين، وبهذا ختموا حياتهم(٣).

رابعاً: اليهود:

اليهود: هو الاسم الثاني الذي اشتهر به أتباع موسى عليه السلام، وهم الذين آمنوا بنبوته، وعدّوه النبيّ الأكبر الذي بُعث في بني إسرائيل. وقد غلب هذا الاسم على اسمهم القديم «بني إسرائيل»، وأصبح عَلماً على أتباع هذا النبي

---

(١) كلام في اليهود، مجموعة مقالات في اليهود وفي دولتهم المعاصرة، محمد علي دولة، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠١٣ م، ص٢٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص٢٤٥.
(٣) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٥٤).

الكريم، سواء من انتسب منهم إلى أسباط بني إسرائيل، أو كان من الأقوام الأخرى التي اعتنقت دين هذا الرسول الكريم.

وهذا الاسم قد عرفهم به الناس منذ أكثر من ألفين وخمسمئة سنة، ونادوهم به ولا يزالون، وهو الاسم الذي سيستمر لهم إلى مدىً لا يعلمه إلا الله عزّ وجل[١].

وقال الأستاذ محمد علي دولة رحمه الله: ابتُدئ تداول هذا الاسم في العهد الأخير من «مملكة يهوذا»، وذُكر لأوّل مرة في سفر الملوك الثاني في أسفارهم المقدسة، أي: بعد موسى عليه السلام بحوالي خمسة قرون، وبعد سليمان بما يزيد عن قرنين من الزمان، ثم نُودي به أهل السبي البابلي، ولما عاد قسمٌ منهم من سبيهم ترسّخ لهم هذا الاسم، وأصبحت الجماعة الدينية التي سكنت أورشليم وما حولها، والتي حكمها كهنة الدين، تُعرف به[٢].

وفي عهد اليونان ثم الرومان، وهم آخر من حكمهم من الأمم، سمّوا المنطقة التي سكنها هؤلاء من فلسطين: «اليهودية» كاسم جغرافي، لكنّ اسم «بني إسرائيل» بقي متداولاً على نطاق ضيق وعلى ألسنة الأنبياء خصوصاً، وحافظ عليه اليهود ولم يتنكّروا له، بل فاخروا به وظلُّوا يذكرونه إلى أن ضاعت أنسابهم.

ولما تمّ إنهاء وجودهم في فلسطين، وطَرْدُ من بقي منهم فيها، وخراب مدينتهم، وهدم مكان عبادتهم، وتشتيتهم في بقاع الأرض، شاع اسم «اليهود» شيوعاً كبيراً في كل أرض حلّوا بها، وأصبح الناس لا يعرفونهم إلا بهذا الاسم، فبه عُرفوا في شبه جزيرة العرب وفي شمال إفريقية، وفي العراق وجميع البلاد التي تقع في شرقه، وفي أوربا وفي بقية أنحاء الدنيا التي وصلوا إليها. وأمّا في القرآن الكريم الذي ابتدأ نزوله في أوائل القرن السابع الميلادي، فقد ذُكروا بالاسمين معاً؛ بني إسرائيل، واليهود (الذين هادوا) [٣].

---

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، مصدر سابق، ص١٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٤٦.

وهكذا ابتدأ هذا الاسم «اليهود» من أواخر عهد مملكة يهوذا، تلك المملكة الأخيرة في تاريخهم في فلسطين، التي شكّل سبط يهوذا غالبية سكانها، وكان جميع ملوك هذه الدولة من هذا السبط، وقد كانت منطقتها في فلسطين بعد السبي البابلي ملاذَ جميع ذرية الأسباط الهاربين من أعدائهم، خصوصاً أن فيها مسجدهم المقدس، الذي سمّوه الهيكل بعد داود وسليمان بزمان طويل[١].

إن اسم «يهود» أصبح اسماً قوميّاً لهم، لكنه ليس بمعنى أن أصلهم واحد، فاليهود لا يجمعهم عرق واحد، لكن يجمعهم دين واحد، هو الذي أُطلق عليه في صياغته الأخيرة اسم «اليهودية».

وهكذا أصبحت كلمة «اليهودي» تدل على من اعتنق دين هذه الجماعة.

ولكن يجب على القارئ أن يعلم: أن اليهوديةَ التي تعارف عليها الناس والكتّاب اسمٌ لدين هذه الجماعة، ليست اسماً لدين موسى عليه السلام المنزل من عند الله أبداً، بل هي اسم وضعه الناس لدين هذه الجماعة، ومن جملتهم اليهود أنفسهم.

* والحق أن رسالة موسى عليه السلام رسالة سماوية هي الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

* وقال سحرة فرعون بعد إيمانهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

إن موسى عليه السلام دعا إلى ملة إبراهيم عليه السلام التوحيدية؛ فإبراهيم هو الجد الأكبر لجميع الأنبياء؛ الذين جاؤوا من نسل يعقوب أو إسرائيل حفيد إبراهيم عليهم السلام.

وحين سأل يعقوب بنيه، وهو يحتضر: ما تعبدون من بعدي؟

---

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، المصدر السابق، ص١٤٦.

أجابوه: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، ومعنى «مسلمون» أي: مستسلمون لأمره، منقادون لحكمه.

ولقد قال يوسف عليه السلام لصاحبه في السجن: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٨]، وهكذا كان جميع أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما السلام، كانوا كلهم يدينون بملة إبراهيم التوحيدية، ويتبعون شرائع وأحكاماً تناسب أزمنتهم ومجتمعاتهم.

ولقد نص القرآن الكريم على ذلك فقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، فليس اسم دين موسى وجميع الأنبياء من بعده «اليهودية»، بل اسمه «ملة إبراهيم» التوحيدية، وليست تسمية «اليهودية» من الله عزّ وجل، بل هي من وضع الناس.

لقد أوضحت فيما مضى كيف وُجد اسم «اليهود» وتاريخ هذا الاسم، لكن عدداً من المفسرين والباحثين ذكر:

أنّ هذه التسمية قد لحقت بالقوم من عهد موسى عليه السلام، وأن أصلها قد جاء من قوله عليه السلام مخاطباً ربّه: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وذلك حين تقدّم الرجال السبعون المختارون من قومه للاعتذار إلى الله عزّ وجل عن عبادة بني إسرائيل العجل. ومعنى ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ تُبنا إليك، فالقوم قد سُمّوا اليهود، وهوداً، والذين هادوا؛ لتوبتهم إلى الله عزّ وجل، وهذا الرأي لا يُسلَّم به لهؤلاء، ومن الأدلة على نفيه:

* أن هذه التسمية «يهود» لم تُطلق عليهم أبداً في عهد أنبيائهم المتقدمين؛ موسى وهارون ويوشع وصموئيل وداود وسليمان وإلياس واليسع صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنها لم تذكر أبداً في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، ولا في أسفار الأنبياء الذين جاؤوا من بعده، فلماذا أُهمل ذكر هذه التسمية كل هذه المدة الطويلة؟!

* أن القرآن الكريم نفى نفياً قاطعاً عن إبراهيم عليه السلام أن يكون يهوديّاً، ولو كانت «اليهودية» ملة مستقيمة لما نفاها عنه[١].

أن اسم «يهود» ـ كما ذكرت ـ اسم غير عرقي، تَسمَّى به كل من دان بهذا الدين، سواء كانوا من أسباط بني إسرائيل أو من غيرهم، وهم الأكثرية الساحقة من يهود هذا الزمان، لكنهم ارتبطوا بالشخصية اليهودية التاريخية؛ شخصية الإنسان المتمرّد العدواني القاسي اللجوج، المتعالي على غيره، الذي يدّعي أنه من شعب الله المختار، وأصبحوا جميعاً أمة واحدة، وعلى خُلُق واحد، إلا من رحم ربك، وهم قليلون جدّاً[٢].

وهذا الاسم يشمل جميع هؤلاء القوم، ولا يرفضه أي قبيل منهم، فالمتدينون والعلمانيون والغربيون والشرقيون المتعلمون والجاهلون، كل واحد منهم يقول عن نفسه إنه يهودي أولاً وثانياً وثالثاً.

ولقد أراد الزعيم اليهودي «ثيودور هرتزل» أن يسمّي دولته المرتقبة «الدولة اليهودية»، وألّف كتاباً تحت هذا العنوان، ولكنهم لاعتبارات أخرى سموا دولتهم حين أقاموها دولة «إسرائيل»، فمصطلح اليهود هو الاسم الجامع والقديم والباقي لهؤلاء القوم[٣].

١ـ اصطلاح : (هادوا . . هُدنا . . هوداً) في السياق القرآني :

وردت في القرآن الكريم هذه الصيغ عن اليهود :

* هادوا : فعل ماضٍ مسند إلى ضمير الغائبين .

* هُدنا : فعل ماضٍ مسند إلى ضمير المتكلمين .

---

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، المصدر السابق، ص١٤٩ .
(٢) كلام في اليهود، محمد علي دولة، المصدر السابق، ص١٥٠ .
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٠ .

* هود: جمع هائد، بمعنى تائب وعائد إلى الحق، مثل حائك وحوك[١].

وإذا أردنا تسجيل بعض اللطائف في استعمال القرآن لهذه الصيغ، فإننا نجد ما يلي:

* وردت كلمة (هادوا) عشر مرات في القرآن في سورة: البقرة والنساء والمائدة والأنعام والنحل والحج والجمعة، وهي في هذه المرات كلها جاءت بهذه الصيغة ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ حيث يُلاحظ أنه يسبقها دائماً الاسم الموصول «الذين»، وتأتي دائماً صلة للموصول لا محل لها من الإعراب، وهي في هذه المرات كلها تتحدَّث عن اليهود الذين هادوا، وهي إما أن تكون تُبيّن زعم الذين هادوا وكَذِبهم وافتراءهم، وإما أن تكشف عن سوء أخلاقهم وأفعالهم، وإما أن تقرنهم مع المؤمنين والنصارى والصابئين، باعتبارهم يُمثِّلون الطائفة اليهودية.

* وردت كلمة «هُدنا» مرة واحدة، وذلك في سورة الأعراف أثناء الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع قومه، فبعد أن تاب قومه عن عبادة العجل، طلب موسى منهم أن يختاروا منهم أصلح سبعين رجلاً صالحاً ليذهبوا معه ويُبايعوا الله عند جبل الطور على ألا يعودوا لمثلها، ولما ذهبوا معه نكص هؤلاء السبعون الصالحون، ورفضوا أن يبايعوا، فهدّدهم الله ورفع الجبل فوقهم، فخافوا وظنوا أنه واقع بهم، عندها أعطوا العهد، وأعلنوا البيعة، وأعلنوا توبتهم لله، وإنابتهم له، ورجوعهم عن المعاصي، وقالوا: ربنا إنّا هُدنا إليك.

قال تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ

(١) الشخصيّة اليهوديّة من خلال القرآن؛ تاريخ وسمات ومصير، صلاح الخالديّ، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ص٧٩.

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦].

ويُلاحظ أنها وردت في سياق التقرير والإثبات والثناء، وذلك أن الذين قالوها هم: نبيُّ الله موسى عليه السلام والسبعون رجلاً الذين تابعوا معه، وهؤلاء تابوا إلى الله صادقين ورجعوا إليه.

* وردت كلمة «هود» ـ جمع هائد ـ ثلاث مرات، وهي في المرات الثلاث في مجال نقض افتراءات ومزاعم اليهود عن إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام، عمّن يحبهم الله ويدخلهم الجنة، وهي تبطل هذه المزاعم، وتنفي أن يكون إبراهيم يهوديّاً أو نصرانيّاً، أو أن الهدى في اليهودية أو النصرانية، أو دخول الجنة لليهودي والنصراني فقط، فهي في موضع الذم والنفي، وليس المدح والثناء[1].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢].

والذي يلفت النظر في هذا الاستعمال هو أن المرات الثلاث في سورة واحدة، وهي سورة البقرة، ولعل الحكمة من هذا ـ والله أعلم ـ هو أن سورة البقرة تُبيِّن نزع الخلافة من أيدي السابقين واليهود، وجعلها في الخلفاء الجدد «المسلمين»، وأن هؤلاء الخلفاء الجدد لا يمكن أن يكونوا هوداً بالمعنى

(١) الشخصية اليهودية، الخالدي، مصدر سابق، ص٣١.

اللغوي الحقيقي، وهم ورثة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، كذلك نشير إلى أن الكلمة في المواضع الثلاثة جاءت خبراً لكان، واسم كان ضمير متصل أو مستتر مقدر.

٢ ـ اليهود في السياق القرآني:

وردت كلمة «اليهود» في القرآن ثماني مرات، ووردت كلمة «يهودي» مرة واحدة في سياق النفي، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

فالآية تنفي مزاعم اليهود في كون إبراهيم عليه السلام يهوديّاً، وتُقرِّر أنه كان حنيفاً مسلماً، وكأن هذه الصفة «يهودي» نقص لا يليق أن يتصف به إبراهيم، ولذلك نفاها عنه القرآن.

أما كلمة «اليهود» فقد وردت في ثلاث سور: البقرة، والمائدة، والتوبة:

* قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

* وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

* وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

* وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] (١).

٣ ـ التفرقة بين اليهود وبني إسرائيل:

إن القرآن الكريم يُفرِّق بين مصطلحي «اليهود» و«بني إسرائيل»، وتبدو هذه التفرقة واضحةً من خلال المواضع التي ذُكر فيها كلٌّ منهما.

لقد فرّق القرآن بين بني إسرائيل واليهود، فعندما كان يتحدَّث عن بني إسرائيل في تاريخهم السابق على بعثة محمد ﷺ، أو كان يشير إلى بعض ما وقع لهم وعليهم قبل البعثة، كان يُطلِق عليهم «بني إسرائيل»، ولما كان يتحدَّث عنهم في مواجهتهم لرسول الله ﷺ في المدينة بعد هجرته إليها، ويكشف عن نفسياتهم ودسائسهم وتحريفاتهم، ويُفنِّد شبهاتهم ودعاياتهم وأقوالهم، كان يطلق عليهم «اليهود».

إذن يمكننا أن نقول: إن هذا الشعب المعروف في التاريخ يُسمَّى «بني إسرائيل» في حياته السابقة، منذ يوسف عليه السلام وانتهاء ببعثة محمد ﷺ.

ويقول الدكتور صلاح الخالدي: إن هذا الشعب نفسه «بني إسرائيل» بعد البعثة النبوية فقدَ هذا الاسم، وأخذ اسماً جديداً وهو «اليهود»، ويخطئ كل من يطلق عليه الاسم السابق.

والحكمة من تغيير اسمهم من بني إسرائيل إلى اليهود هي أن بني إسرائيل يمنحهم

(١) الشخصية اليهودية، الخالدي، المصدر السابق، ص٣٨.

صلة ونسباً بإسرائيل ـ يعقوب ـ عليه السلام، ويُضفي عليهم ظلالاً دينية وإيمانية، وهو نوع من التكريم لهم، وهذا ما حصل في الفترات الماضية، حيث كان بنو إسرائيل ـ الأنبياء والصالحون منهم ـ مُمثِّلين لجانب الحق والهدى والإيمان، ولذلك استحقُّوا هذا التكريم الإيماني بانتسابهم ـ الإيماني والوراثي ـ ليعقوب عليه السلام.

ولكن، بعدما بُعث محمد ﷺ، فقد أصبح هو «الوارث» الديني والإيماني ليعقوب عليه السلام والأنبياء من ذريته، وأصبحت أمته المسلمة هي «الوارثة» للدين والحق الذي جاء به يعقوب وأبناؤه الأنبياء من بعده، ولم تعد لبني إسرائيل ـ الذين كفروا بمحمد عليه السلام ودينه ـ أية صلة تربطهم بيعقوب عليه السلام، ولذلك لم يعودوا مستحقين هذا الاسم الكريم، بل أصبح محمد وأمته أولى بإسرائيل والأنبياء من ذريته من هؤلاء اليهود.

وطالما خسروا هذا الاسم، فلابد أن يبقى لهم الاسم الثاني الذي عُرفوا به في التاريخ، وهو اسم «اليهود»، وهذا الاسم يُطلق عليهم مجرَّداً من معانيه وظلاله الإيمانية من التوبة والرجوع إلى الله؛ لأننا رجَّحنا أنه أعجمي جامد، وليس مشتقّاً من الهود، وهو في هذا ينطبق عليهم تماماً[1].

* ونلحظ في الاستعمال القرآني أمراً آخر له دلالة على ما رجحناه من هذه التفرقة بين الكلمتين ومعانيهما، وهو أن القرآن الكريم عندما كان يُشير إلى إيمان بعضهم بالرسول بجعله من بني إسرائيل، وعندما كان يقصد إحياء إيمانهم وعِلمهم برسول الله ـ أنه رسول الله ـ كان يستخدم هذا الاسم «بني إسرائيل».

وننظر في الآيات التي أوردت هذا:

* قال تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة: ٢١١].

الخطاب لمحمد ﷺ ليسأل عن الآيات التي أنزلها الله لهم على أنبيائهم السابقين، وقد استعمل هذا الاسم «بنو إسرائيل» باعتبار البُعد التاريخي؛ لأن

(١) الشخصية اليهودية، مصدر سابق، ص٣٩.

الآيات قد نزلت على السابقين وهم بنو إسرائيل، وإن كان السؤال موجَّهاً لأحفادهم «اليهود»، ولأن هؤلاء الأحفاد عندهم عِلم بهذه الآيات، فقد يقودهم هذا السؤال إلى اتباعهم رسول الله ﷺ.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وموضوعها هو موضوع الآية السابقة، والسؤال لبني إسرائيل الذين جاءهم موسى بالآيات، وهذه دلالة «إذ الظرفية»، وأحفادهم إنما هم رواة ناقلون لهذه الآيات، وأخذوا هذا الاسم «تقريباً» لهم من الإسلام.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

واختلاف بني إسرائيل طويل طول تاريخهم، وحلُّ هذا الاختلاف وجوابه في القرآن، واليهود الذين عاصروا نزول القرآن ومن جاء بعدهم يُمكنهم أن يعرفوا ذلك بالاطلاع على القرآن، وإذا عرفوه فسيؤمنون بالنبي الجديد، وعندها سيكونون من «بني إسرائيل».

* قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]:

والخطاب في الآية للعرب المشركين، والحديث عن علماء بني إسرائيل، باعتبارهم شهوداً على رسالة الرسول عليه السلام، فعلماء بني إسرائيل يعلمون حقّاً أن محمداً رسول الله، وأنه يأتيه الوحي من الله، وهذا ناتج عن بشارات أنبيائهم به، وهم بهذا العلم استحقُّوا أن يكونوا من بني إسرائيل، على اعتبار أن هذا العلم سيقودهم إلى الدخول في دين النبي الجديد عليه السلام، وإن لم يقوموا بهذه الخطوة الأخيرة فقدوا صفة «علماء»، وفقدوا انتسابهم لإسرائيل عليه السلام.

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]:

والخطاب في هذه الآية موجَّهٌ للعرب المشركين، ويستشهد بشهادة الصالحين من بني إسرائيل على صدق نبوة محمد ﷺ، فالصالح منهم شاهد بعلمه من خلال بشارات الأنبياء السابقين، وهذا أتبع هذه الشهادة بإيمانه الواقعي بالرسول عليه السلام ودخوله في دينه، وهو بهذه الشهادة القولية والعملية يستحقّ أن يكون من بني إسرائيل وأن ينتسب للنبي الكريم إسرائيل عليه السلام.

ونلاحظ أن أربعاً من هذه الآيات موجودة في سور مكية وواحدة في سورة مدنية، ولهذا لا مانع أن نقول: إن هذا الشعب قبل الهجرة النبوية اسمه «بنو إسرائيل»، وبعد الهجرة اسمه «يهود»، وهذا الثاني يجب أن يبقى عَلماً عليه حتى قيام الساعة[١].

* ولو تساءلنا عن الحكمة من تأخير إطلاق اسم اليهود عليهم إلى ما بعد هجرة رسول الله ﷺ، فلعلّ الحكمة تبدو فيما يلي:

ببعثة محمد ﷺ فَقَدَ اليهود الوراثة الإيمانية لدين إسرائيل والأنبياء من ذريته، وتحوَّلوا إلى مجرد وارثين له وراثةَ نسب وجنس، والنبي الجديد هو الوارث للدين والإيمان، والأمة المسلمة الجديدة هي الوارثة للدين والإيمان وصاحبة الخلافة الإيمانية في العالم[٢].

لكن الإسلام في الفترة المكية لم يكن له سلطان عملي في الواقع، والمسلمون في مكة كانوا مُستضعَفين مُضطهَدين، بمعنى أن خلافتهم لم تتحقّق في عالم الواقع ووراثتهم وسلطاتهم لم تمارس في عالم الواقع.

أما بعد الهجرة، فقد قام للإسلام كيان ووجود واقعي، وتحقّق للمسلمين في المدينة وجود عملي، مارسوا به سلطانهم، وأدّوا من خلاله خلافتهم، وطبَّقوا فيه تشريعات دينهم، وعندما أصبح للوراثة الإيمانية في المدينة كيان

(١) الشخصية اليهودية، الخالدي، مصدر سابق، ص٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٢.

واقعي عملي مستقل، ناسب بعد ذلك أن يُحرم اليهود من صلتهم الدينية بإسرائيل عليه السلام، وأن يفقدوا اسم بني إسرائيل، ليكونوا يهوداً أعداء لله ولرسوله وأشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا.

* إن المرات الثماني، التي وردت فيها كلمة اليهود في سور مدنية، كانت كلها في سياق واحد وهو ذمّ اليهود، وتفنيد مزاعمهم وادّعاءاتهم، وكشف تحريفاتهم للعقيدة والإيمان والدين والتاريخ، وبيان شدة عداوتهم للأمة المسلمة وحسدهم لها، وحرصهم على ردّتها وإخراجها من دينها[١].

٤ ـ اليهود يستغلون اسم إسرائيل عليه السلام:

يحرص اليهود على أن يَظهروا أمام العالم بمظهر المؤمنين المتدينين ورثة الديانات السابقة والأنبياء السابقين، ويحرصون أيضاً أن يَبدوا أمام أنفسهم وأمام الشعوب الأخرى وثيقي الصلة والارتباط بأنبيائهم ورسالاتهم ومقدساتهم، ويحرصون على أن يُفهموا العالم أنهم وحدهم شعب الله المختار المفضَّل على العالمين، أو أبناء الله وأحباؤه كما يزعمون.

ويتجلَّى هذا الحرص في إظهار كل ما يربطهم بإسرائيل ـ يعقوب ـ عليه السلام، وقد برز هذا عندما أقاموا دولتهم المعاصرة في فلسطين، حيث اختاروا لها هذا الاسم «إسرائيل» ليُظهروا للناس ارتباطَهم بإسرائيل، وتنفيذهم لتعاليمه وتحقيقهم لنبوَّته.

كما يتجلَّى هذا الحرص في إضفائهم الصبغة الدينية التوراتية على كل ما يقدرون عليه، فاسم دولتهم إسرائيل، واسم إذاعتهم صوت إسرائيل، واسم بنكهم المركزي بنك إسرائيل، والأراضي التي احتلوها أطلقوا عليها أرض إسرائيل، والبقاع التي سيطروا عليها أسماؤها يهودية: مثل يهودا، والسامرة، وأورشليم، وخليج إيلات، وخليج سليمان.

---

(١) الشخصية اليهودية، المصدر السابق، ص٤٣.

ولغتهم هي اللغة العبرية، وهم يُسمَّون أحياناً العبرانيون، ولعلّ هذا مأخوذ من فعل إبراهيم عليه السلام عندما عَبَرَ أراضي العراق والشام ليُقيم في فلسطين، والله أعلم(١).

وهم يُظهرون تمسُّكهم بالديانة اليهودية في عطلة السبت ومنع الأعمال في ذلك اليوم، وفي عيد الغفران والمظلة، وفي الطعام والصيام والذبائح.

وهم في الحقيقة مُستغِلُّون لهذه الأشياء والمعاني استغلالاً بيِّناً، وقد تَوضحَ لنا من خلال الكلام السابق أنهم لم تعد تربطهم بإسرائيل عليه السلام رابطة ولا صلة، بل نحن أولى بإسرائيل منهم؛ لأننا ورثته الحقيقيون(٢).

٥ ـ نحن وأنبياء بني إسرائيل:

نحن نؤمن بأنبياء بني إسرائيل الذين أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنهم، ونُحبهم ونُصلِّي عليهم ونَقتدي بهم، ونُنزِّههم عن كل نقص وظلم وتشويه، لا فرق عندنا بين أنبياء العرب مثل: هود وصالح وشعيب عليهم السلام، كما في الحديث الصحيح، وأنبياء بني إسرائيل مثل: يعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ونعتقد أننا أولى بهؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل كما علّمنا رسول الله ﷺ.

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سلعة له أُعطي بها شيئاً كرهه أو لم يَرضه، قال: لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، قال: فسمعه رجل من الأنصار، فلطم وجهه وقال: تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟! قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ لطمتَ وجهه»؟ قال:

---

(١) الشخصية اليهودية، المصدر نفسه، ص٤٣.

(٢) الشخصية اليهودية، المصدر السابق، ص٤٤.

يا رسول الله، قال: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله حتى عُرف الغضب على وجهه ثم قال: «لا تُفضِّلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنفخ في الصور فيُصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله»، قال: «ثم يُنفخ فيه أخرى، فأكون أول من بُعث أو في أول من بعث، فإذا موسى عليه السلام آخذٌ بالعرش، فلا أدري أحُوسب بصعقته يوم الطور، أو بُعث قبلي؟ ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متّى عليه السلام»[١].

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟» قالوا: يوم صالحٌ نجَّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوِّهم، فصامه موسى، فقال ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه[٢].

نحن أولى بموسى منهم: شعار دائم، وقاعدة عامة يعتقدها المسلمون دائماً، ويعتبرون أنفسهم أولى بأنبياء بني إسرائيل من اليهود أنفسهم، ونعتقد أن كل من أنكر نبوة أحد هؤلاء فقد كفر، وكل من أبغضه أو انتقصه وذمَّه فقد كفر، والله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢][٣].

خامساً: العبريون:

العبرانيون أو العبريون: هو من الأسماء التي سُمّي بها اليهود في تاريخهم، ويذكر المؤرخون أنه أول وأقدم اسم اشتهر به هؤلاء، وأنا ذكرته في آخر قائمة

(١) الشخصية اليهودية، مصدر سابق، ص٤٦.
(٢) المصدر السابق، ص٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٧.

الأسماء، وكان عليّ أن أُعرض عنه وألا أذكره أبداً، لكن ضرورة بيان الحقيقة وضرورة دفع الأوهام قد دَعياني إلى ذلك.

فهذا الاسم لا حقيقة له، بل هو اسم مُفترىً مكذوب، افتراه كتبة الأسفار حين تمّ تدوينها بعد وفاة موسى عليه السلام بعدة قرون، لغرض في نفوسهم[١]، وبيان ذلك فيما يأتي:

إن التاريخ لم يذكر لنا أبداً أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد هاجر منذ أربعة آلاف سنة تقريباً، من موطنه في جنوبي العراق إلى أرض كنعان ومعه أربعة آلاف شخص من قومه، وأقام في تلك البلاد، وأصبح قومه جزءاً من شعوبها، ثم أطلق عليهم اسم «العبرانيين» بسببه.

ثم إن جماعة صغيرة من هؤلاء العبرانيين، كان على رأسها حفيدة يعقوب «إسرائيل»، هاجرت إلى مصر، وأقامت هناك واشتهرت باسم «بني إسرائيل»، وذُكرت أحياناً بالاسم الأول «العبرانيين»[٢].

هذا ما يزعمه اليهود عن بداية تاريخهم القديم، إنهم يجعلون بداية هذا التاريخ من إبراهيم، ويسمونه: إبراهيم «العبراني».

لكن المصادر الموثوقة تذكر أن إبراهيم قد نزل عليه الوحي من السماء في موطنه في العراق، وأن الله رضي عنه وقد اختاره نبيّاً، فدعا قومه إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، لكنهم رفضوا دعوته وآذَوه، فطلب إليه أن يهاجر إلى الأرض المباركة التي كانت تُسمَّى في ذلك الزمان «كنعان»، فخرج إبراهيم ومعه زوجه سارة وابن أخيه «لوط»، انطلقوا وهم ثلاثة فقط في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد إلى أرض كنعان.

وهبط إبراهيم عليه السلام إلى تلك الأرض، وتجوّل في ربوعها، وتعرّف

---

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، المصدر السابق، ص١٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٧.

إلى أهلها ودعاهم إلى توحيد الله، فأجابه عدد منهم، وأصبحت له مكانة مرموقة في نظرهم، وقالوا عنه إنه «زعيم الله» بينهم[١]، وأنه «نبي الله»، وعاش مُبجَّلاً في تلك البلاد مدّة تقرب من قرن ونصف[٢].

ورُزق إبراهيم بابنيه إسماعيل وإسحاق وبأبناء آخرين، كما رُزق بالأحفاد، وكان من أبرزهم «يعقوب» عليه السلام، الذي أكرمه الله بالنبوة وأعطاه اثني عشر ولداً، وكان أعظمهم «يوسف» النبي عليه السلام. وذكرت تلك المصادر أن إبراهيم عليه السلام زار مصر وذهب إلى مكة، حيث أقامت فيها زوجه هاجر وابنه إسماعيل، وأنه كان يخاطب الناس حيثما حلّ باللهجة العربية التي كان يتكلَّمها الناس.

في كل تلك الأماكن لم تُطلق المصادر الموثوقة على إبراهيم لقب «العبراني»، ولم يسمّه أهل كنعان بهذا اللقب، ولم يذكر لنا سفر التكوين الذي أرّخ لحياة إبراهيم عليه السلام أنه من أصل عبراني، لكنه أُقحم عليه هذا اللقب فجأة ومن دون مناسبة مرة واحدة فقط[٣].

إن إبراهيم عليه السلام لم يُنسب إلى قوم يقال لهم: العبرانيون، بل قالت عنه الأسفار: إنه آرامي، وكان عليه السلام غنياً عن أن يُنسب إلى قبيل بعينه، فقد كان أمة وحده[٤].

أما ذريته من حفيده يعقوب «إسرائيل» عليه السلام فقد عُرفت في مصر باسم «بني إسرائيل»، ولم تُعرف أبداً باسم «العبرانيين»، فالمصريون لم يتعرَّفوا على إسرائيل وبنيه وذريته إلا من بعد هجرتهم إلى مصر، ولم يعرفوا هذا الاسم لقبيل من سكان أرض كنعان، وهذا الاسم قد أُقحم فجأة أيضاً على يوسف عليه السلام فدُعي بالفتى «العبراني»، بينما هو عرَّف بنفسه لزميليه في السجن

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، ص١٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٩.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١٥٩.

بقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، ولم يصفهم بالعبرانيين[١].

بل إن بقية ذرية إبراهيم لم يُطلق عليهم هذا اللقب، فالعرب من أولاد إسماعيل، والأدوميّون من أولاد عيسى بن إسحاق أخي يعقوب، وغيرهم، لم يسمّوا «العبرانيين»، فلماذا سُمّيت ذرية إبراهيم من حفيده «يعقوب» فقط بهذا الاسم؟!

إن بني إسرائيل قد ابتدؤوا من رجل واحد معروف مشهور هو يعقوب «إسرائيل» عليه السلام، ولم يكونوا أبداً جزءاً من قبيل كبير أو صغير، كان يسكن جزءاً من أرض كنعان وكان اسمه «العبرانيين»، ومن هذا الرجل «إسرائيل» امتد هؤلاء وكثروا، ثم أُورثوا الأرض المقدسة، وعاشوا فيها قروناً تحت اسم بني إسرائيل، ثم سقطت دولتهم فيها، وغلب عليهم اسم «اليهود»، فمن أين جاءهم اسم «العبرانيين»؟!

إنه اسم مفترى، افتراه كتبة الأسفار لغرض في نفوسهم، ولا يشغل أبداً تلك المدة الزمنية الطويلة التي ذكرها المؤرخون، والتي امتدت من ظهور إبراهيم عليه السلام في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إلى دخول يعقوب «إسرائيل» إلى مصر. ولقد أجهد المؤرخون أنفسهم بالبحث عن سبب هذه التسمية التي ألحقوها بإبراهيم عليه السلام، فمرة يذكرون: أن هذا الاسم قد لحقه لأنه عبر نهر الفرات، وكأنه الشخص الوحيد الذي عبر هذا النهر في التاريخ القديم.

ومرة أخرى يذكرون: أن سبب تسميته بالعبرانيّ لأن أحد أجداده اسمه «عابر»، فلماذا اختير هذا الجدّ السادس من بين قائمة الأسماء العديدة؟ ومرة ثالثة يقولون: إن هذا الاسم جاء من لفظة (عبيرو) وهم قوم قطاع طرق، كان همُّهم الإزعاج والإغارة على الممالك وسلبها، وكانوا يعيشون في شمالي

(١) المصدر نفسه، ص١٦٠.

جزيرة العرب، وإبراهيم عليه السلام كان من هؤلاء، ولا يصحّ هذا أبداً، فأكثر المؤرخين قد رفضوا الصّلة بين مصطلح «العبرانيين» وبين أقوام «العبيرو» هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فالآباء الأولون لبني إسرائيل كانوا من خيرة خَلْقِ الله، إنهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وحاشاهم أن يكونوا من قوم كانوا قطاع طرق.

إن اسم «العبرانيين» لا دليل عليه من التاريخ، وليس هنالك قوم قد تسمَّوا بهذا الاسم، وسكنوا أرض كنعان، ولكن المؤرخين ـ سامحهم الله ـ قد شغلوا أنفسهم بالحق والباطل، بالقيّم والتافه، وحاولوا تبرير كل اسم ذُكر في التواريخ القديمة، والسؤال الآن: لماذا افترى كتبة الأسفار سابقاً هذا الاسم؟ ولماذا يُصر عليه اليهود لاحقاً ويذكرونه في كتبهم التاريخية[1]؟

أمّا ما فعله كتبة الأسفار، فمن أجل أن يجدوا لقومهم صلة روحية بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لكنهم احتاجوا إلى أن ينسبوا إبراهيم لقبيل فسمّوه: العبراني، وكان يكفيهم أن ينتسبوا لهذا الرجل الكبير، فالانتساب إليه شرف عظيم، وهو رجل يشرف به آباؤه وأحفاده، ولا يحتاج هو أن يشرُف بهم، ولقد أحوجهم سلوكهم السيئ وأخلاقهم المرذولة أن ينتسبوا بها إلى مثل هذا الرجل العظيم، فذكروا لأنفسهم نسباً يصلُهم به، وهذا صحيح ـ أي نسبهم إليه ـ ولكنّ تسمية هذا النسب «العبراني» هو كذب وافتراء.

لقد صعب عليهم أن يقرأ الناس عنهم أنهم ابتدؤوا من رجل واحد اسمه «إسرائيل»، وظنوا أن في ذلك نقيصة، فكلّ الشعوب والأقوام تنتسب إلى جماعة كبيرة لها كيان وأرض وتاريخ، وما علم هؤلاء الحمقى أن كل الشعوب والأقوام ابتدأت من أب واحد، وما علموا أن أباهم الأول «إسرائيل» يشرفون به إن اعتبروه أنه بدايتهم وأصلهم وفصلهم، إنه شرف ما بعده شرف أن يكون أبوهم الأول من المصطَفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، مصدر سابق، ص١٦٢.

أما ما فعله اليهود المعاصرون، فمن أجل أن يَكذبوا على الناس، ويقولوا لهم: إنّ لهم موطئ قدم قديم في أرض كنعان، فلقد كان آباؤهم «العبرانيون» أحد أقوامها، وكان عليهم أن يفخروا بأن الله قد أورثهم تلك الأرض المباركة بالشرط الذي شرطه عليهم، لكن الله عزّ وجل أفسد عليهم فرحتهم فقد طردهم منها، وحرّمها عليهم أبداً، وكتب عليهم أن يتيهوا في الأرض كلّها، أما عودتهم الحالية، فمن أجل أن ينفذ فيهم قدر جديد يستحقُّونه على إفسادهم الحالي في الأرض المقدسة[١].

والخلاصة:

* إن مصطلح «عبراني» تسمية غير صحيحة لبني إسرائيل واليهود، بل هو مصطلح غير نزيه أبداً، واليهود الآن يُصِرُّون عليه لغايات مشبوهة.

* إنّ من المضحك جدّاً أن تُوصف دولة اليهود المعاصرة «إسرائيل» بأنها «الدولة العبرية»؛ فشعبها لا يُسمي نفسه بالشعب العبري، بل يسمّي نفسه اليهودي، ومن المضحك جدّاً أن تُسمَّى هذه الدولة باسم لغتها، فالدُّول لا تُنسب إلى لغاتها.

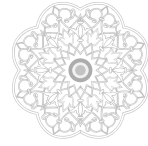
* اللغة العبرية وآدابها شيء قديم، والقوم منذ القدم تكلّموا بشفةِ كنعان، أي: بلهجة كنعانية، وسمّوها اللهجة العبرية، ثم تكلموا بالآرامية، وسمّوها عبريّة الآرامية.

* أتساءل أخيراً: هل مصطلح عبري وعربي مصطلح واحد، وهل كتبة الأسفار حين دوّنوا أسفارهم حرّفوا كلمة «عربي» إلى «عبري» لغايات في نفوسهم[٢]؟

وهذه التساؤلات والإجابة عنها نتركها للباحثين مستقبلاً ليُجيبوا عنها.

* * *

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، المصدر نفسه، ص١٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٣.



المبحث الثاني

حياة بني إسرائيل في مصر

أولاً: يوسف عليه السلام في مصر:

بدأت قصة بني إسرائيل في مصر بعد مجيء يوسف عليه السلام إليها، ودعوة والده وإخوته للمقام فيها، بعدما تمكن في الحكم وأصبح الرجل الثاني فيها. وقصّت علينا سورة يوسف الأحداث العجيبة والمثيرة التي جرت ليوسف عليه السلام منذ أن كان طفلاً صغيراً يكرهه إخوته الكبار ويغارون منه، إلى أن صار رجلاً عظيماً محفوفاً برعاية الله وكرمه.

لقد تفضل الله عليه، فنجّاه من المكايد المتتابعة التي لحقته، وعلّمه من تأويل الأحاديث ما ارتفع به شأنه بين الناس، وآتاه من الملك في أرض مصر، وكان من أجلِّ نعمه عليه أن اجتباه نبيّاً رسولاً، وأتمّ نعمته عليه، كما أتمّها على آبائه الكرام: يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

وكانت بداية هذه المكايد كيد الإخوة العشرة الكبار لأخيهم الصغير يوسف وإرادتهم قتله، أو التخلص منه، بإبعاده عن وجه أبيه، الذي أحبّه كثيراً، ثم تلا ذلك كيد سيدته امرأة عزيز مصر وصاحباتها به، ثم رميه في السجن بضع سنين من غير ذنب اقترفه، لكن الله تفضّل ونجّاه من هذه المكايد كلِّها، وأخرجه من السجن إلى القصر، حيث أصبح الرجل الثاني في مصر بعد ملكها، الذي كان أحد ملوك جماعة الهكسوس، الذين تغلَّبوا على حكم مصر في ذلك الزمان.

دارت مجريات قصة يوسف حول ما كان بينه وبين إخوته، واحتلت تلك

الأحداث مكان الصدارة في تلك القصة، ولقد أشارت الآية السابعة من سورة يوسف إلى ذلك، فقالت: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

وقبل أن أتحدث عن آيات هذه القصة، أو عن آيتها الكبرى كما رآها أحد العلماء المعاصرين المتدبّرين، أحب أن أقف قليلاً لأعرِّفَ بإخوة يوسف، فهم الطرف الثاني الأساس في تلك القصة:

كان مجموع إخوة يوسف عشرة، يضاف إليهم أخوه الشقيق «بنيامين» أصغر أولاد يعقوب عليه السلام: وقد رزُق يعقوب بأولاده الاثني عشر على الترتيب الآتي:

١ ـ رأويين.	٢ ـ شمعون.
٣ ـ لاوي.	٤ ـ يهوذا.
٥ ـ دان.	٦ ـ نفتالي.
٧ ـ جاد.	٨ ـ أشير.
٩ ـ يساكر.	١٠ ـ زبولون.
١١ ـ يوسف عليه السلام.	١٢ ـ بنيامين[١].

وإذا ما عدنا إلى الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]:

* فقد قال ابن كثير: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته عِبرٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرٌ عجيب، يستحقّ أن يُستَخبر عنه[٢].

* وقد ذكر الشيخ عبد الله العلمي الغزّي في كتابه «مؤتمر تفسير سورة يوسف» عشرين عبرة من عبر قصة يوسف مع إخوته.

---

(١) كلام في اليهود، محمد علي دولة، مصدر سابق، ص٢٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، منقول بتصرف عن: كلام في اليهود، المصدر نفسه ص٢٥١.

كما ذكر الشيخ محمد أبو زهرة في تفسيره «زهرة التفاسير» عشرين عبرة أيضاً.

وذكر العلاّمة الشيخ عبد الرحمن السعدي خمساً وأربعين عبرة من هذه القصة أيضاً[١].

ثانياً: هجرة يعقوب وبنيه إلى مصر ووفاته:

تولى يوسف عليه السلام الوزارة في مصر، وساس تموين البلاد في مجاعة شملت مصر وأرض كنعان، ووضع لذلك خطته البارعة التي ذكرها القرآن الكريم وأثنى عليها، فأنقذ البلاد من تهلكة كانت معرّضة لها لا محالة.

وخلال تلك الأزمة دخل إخوته يلتمسون منه قوتاً لأهليهم، وتكرَّر دخولهم عليه، وهو يعرفهم وهم لا يعرفونه حتى كشف لهم عن نفسه[٢]، وغَلبت الرحمُ، فأكرم نزلهم، ووفَّى لهم الكيل وردّ لهم الثمن الذي جاؤوا يشترون به أرزاقهم، ولما عرفوه وقالوا له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٩١]، قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: ٩٢]؛ يعني حتى العتاب لن يكون. ولم يكتف بهذا، وإنما دعا لهم وقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢][٣].

وطلب إليهم أن يُحضروا له أباه، وأن يأتوه بأهلهم أجمعين ليقيموا معه في مصر، والتأم الجمع بعد شتات وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠][٤].

---

(١) تفسير السّعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، الدمام، دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤٣٦هـ، ص٣٦٢ـ٣٦٦.

(٢) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٠١.

(٣) من حديث يوسف وموسى عليهما السلام في الذكر الحكيم، محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م، ص٣٥.

(٤) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٠١.

وفي قوله تعالى ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقفت عند هذا الاستثناء، وأحسستُ أن يوسف كأنه أُلهم أن هذا الأمن وإن امتد خمسة قرون فلن يدوم(١).

لقد هاجر يعقوب عليه السلام ومن معه من الأبناء وزوجاتهم والأحفاد إلى مصر بدعوة من ملكها، ومن نائبه يوسف عليه السلام، وذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان عمر يعقوب مئة وثلاثين سنة، وقد استقبله ابنه يوسف استقبالاً حافلاً، ثم استقبله ملك مصر ـ وكان من الهكسوس ـ ورحّب الملك بوالد يوسف وإخوته أجمل ترحيب، وقال ليوسف: أبوك وإخوتك قد قَدموا إليك، فهذه أرض مصر أمامك، فأقِم أباك وإخوتك في أجود أراضيها(٢).

عاش يعقوب في أرض مصر مُعزَّزاً مكرَّماً سبع عشرة سنة، حتى صار مجموع عمره مئة وسبعاً وأربعين سنة كما تذكر بعض كتب التاريخ، ثم حضرته الوفاة، وكان قد أوصى أبناءه بهذه الوصية التي أخبر القرآن الكريم عنها في اللحظات الأخيرة من حياته عليه السلام، وكانت في مصر، وبين أولاده، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُۚ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣].

إن يعقوب عليه السلام النبي الكريم داعية إلى الله في كل لحظات حياته، وما ترك الدعوة حتى في اللحظات الأخيرة، وإن يعقوب النبي الكريم عليه السلام كان يُوصي أولاده بالإسلام وعبادة الله، وقد جمعهم عندما حضره الموت ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة، ويُوصيهم أن يلتزموها، ويأخذ عليهم العهد ألا

(١) من حديث يوسف وموسى عليهما السلام في الذكر الحكيم، المصدر السابق، ص٣٥.
(٢) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، مصدر سابق، ص٢٥٧.

يخالفوها، وهذا ما يهمُّ الناظرَ في التاريخ أن يعرفه، وما يمكن أن يستفيد منه من حياة يعقوب عليه السلام[١].

لقد وصّى يعقوب عليه السلام أولاده وهو يحتضر بعبادة إلهه وإله آبائه: إسحاق وإسماعيل وإبراهيم، فهو وصّاهم بالإيمان بالله وحده، والابتعاد عن عبادة غيره سبحانه، وهذا هو قوام الدين المستقيم، وهذه الوصية هي آخر كلامه الذي ختم به حياته، وكانت وصيته هي وصية الأنبياء والمرسلين جميعاً من عهد آدم عليه السلام حتى عهد محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، لأبنائهم وأهليهم وأقوامهم؛ فجميعهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عاشوا وماتوا وهم يدعون إلى عبادة الله وحده، والتمسك بدينه، والابتعاد عن الشرك والمعاصي والآثام، ويعقوب عاش ومات وهو يخاطب قومه وأمته مثلما خاطب محمد خاتم المرسلين ﷺ أمته والناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠][٢].

إن دين يعقوب عليه السلام هو دين الإسلام، وهو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، فكل نبي جاء بالإسلام، وطلب من قومه الدخول فيه، وإحسان العبادة لله عزّ وجل.

والإسلام دين يعقوب عليه السلام ودين كل رسول، ليس هو الإسلام بالمعنى الخاص الذي يُطلَق على دين محمد ﷺ، والذي نسخ الله به الرسالات والشرائع السابقة، إنما يُراد به الإسلام بالمعنى العام، وهو الخضوع والاستسلام لله بإخضاع الآخرين وتعبيدهم لله[٣].

لقد غادر يعقوب عليه السلام هذه الحياة وهو مطمئنٌّ على بنيه، بعد إجابتهم

---

(١) الشخصية اليهودية، الخالدي، مصدر سابق، ص٦٣.
(٢) محمّد علي دولة، كلام في اليهود، مصدر سابق، ص٢٦٤.
(٣) القصص القرآني، الخالدي (٢/ ٦٩).

على سؤاله الذي شغل باله وهو على فراش الموت؛ يا أبنائي، ما تعبدون من بعدي؟ وأي دين تلتزمون من بعدي؟

فكانت الإجابة: نعبد رب العالمين وحده، فهو ربُّنا وخالقنا وإلهنا؛ لأنه إلهك وإله الأنبياء من قبل: جدِّك إبراهيم وعمّك إسماعيل ووالدك إسحاق، إنه إله واحد لا شريك له، ونحن مسلمون لله، مستسلمون لله، خاضعون لله، داخلون في دين الله، ملتزمون بطاعة الله «ونحن له مسلمون»، ولقد جاءت هذه الآيات في بيان حقيقة دين إبراهيم ويعقوب عليهما السلام في معرض نقاش اليهود والنصارى، ونفي صلتهم بإبراهيم ويعقوب عليهم السلام.

والخطاب في الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ لهؤلاء اليهود والنصارى؛ يقول الله لهم: لماذا تزعمون أن يعقوب كان يهوديّاً أو نصرانيّاً؟! هل كنتم حاضرين وشاهدين وسامعين آخر كلام قاله يعقوب قبل أن يموت؟ إنكم لم تكونوا معه هناك، لأنكم لم تكونوا مولودين يومها، فقد أوصى بَنيه بالإسلام ديناً، وقد قبل الأبناء وصية الأب وقالوا له: نعبد الله وحده «إلهاً واحداً ونحن له مسلمون» (١).

ثالثاً: وفاة يوسف عليه السلام:

عاش بنو إسرائيل في مصر محفوفين بالتكرمة وصنوف الامتيازات، وطاب العيش لهم في أرض الكنانة، وكان يوسف عليه السلام يحظى باحترام كبير في مصر، وذكر الله لنا في كتابه العزيز دعاء ختاميّاً ليوسف عليه السلام، فقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه متضرِّعاً إليه:

* ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: أنعمت عليّ يا رب بنعمة الملك والمنزلة

(١) القصص القرآني، الخالدي، المصدر السابق، (٢/ ٧٠).

والجاه والسلطان، ووهبتني من ذلك ما وهبتني، وهي أعظم نعم الحياة الدنيا.

* ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: كانت آيتي في تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا، وكانت سبباً في وصولي إلى ما وصلت إليه من المنصب الكبير، وهذا التعليم منك يا ربّ وبفضلك.

ونلاحظ أن يوسف عليه السلام أسند العطاء إلى الله، ونسب الفضل إليه في أهم نعمتين:

ـ نعمة المنصب والسلطان.

ـ ونعمة العلم والمعرفة.

* ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أنت يا رب قادر على كل شيء، إذ خلقت السماوات والأرض.

* ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: اعتمادي يا ربي عليك، وليس على ما أنا فيه من المنصب والسلطان، فأنت الناصر الذي ينصرني، وأنت المعين الذي يُعينني، ربّ لا أسألك سلطاناً ولا صحةً ولا مالاً، ربّ إني أسألك ما هو أبقى وأغنى.

* ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء، واجتماع الأهل ولمة الإخوان.

ويبدو المشهد الأخير مشهد عبدٍ فردٍ يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يُلحقه بالصالحين بين يديه، إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى وفاة يوسف عليه السلام على لسان مؤمن آل فرعون، عندما خاطب قومه ودعاهم إلى التوحيد، فجاء في ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

---

(١) القصص القرآنيّ، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٤٥).

لقد عاش نبي الله يوسف عليه السلام في مصر داعياً إلى توحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة في سجنه وفي قصره، ووظَّف منصبه الكبير توظيفاً دعويّاً، وقدم الآيات البينات على نبوته، والبراهين على دعوته، فآمن به من هداه الله إلا قليلاً من الناس ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِۦ﴾.

وعبَّر المصريون عن معارضتهم لدعوة يوسف عليه السلام بعد وفاته وهلاكه، فما أن توفِّي عليه السلام حتى قالوا: لن يبعث الله لنا من بعده رسولاً، وكأنهم ارتاحوا لأنهم تخلَّصوا منه ومن دعوته[١]، ولعل القرآن الكريم عبّر عن موت يوسف بالهلاك لأجل عدم استجابة أهل مصر لدعوة يوسف عليه السلام، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولا تتحدَّث النصوص القرآنية والحديثية عن بني إسرائيل بعد يوسف عليه السلام، ولا تُشير إلى ما جرى لهم في هذه الفترة حتى قرب عهد موسى عليه السلام، ولا تُبيِّن كم بقي بنو إسرائيل في مصر في تكريم وإعزاز، ولا تحدد الفترة التي بدأ فيها اضطهاد الفراعنة لهم وتعذيبهم[٢]، وإن كان القرآن الكريم قد بيَّن سبب هذا التعذيب، وهو العلو والاستكبار الفرعوني.

ونختم كلامنا عن وفاة يوسف عليه السلام بما قاله الرسول ﷺ ليلة المعراج: حيث روى البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة، عن رسول الله ﷺ، قال في حديث المعراج الطويل: فأتينا من السماء الثالثة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيتُ يوسف، فسلَّمتُ عليه، فقال: مرحباً بك من أخ ونبي. لقد وضع الله عزّ وجل يوسف عليه السلام في السماء الثالثة لاستقبال محمد ﷺ في عروجه إلى السماوات العُلا.

---

(١) القصص القرآنيّ، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٥٥).
(٢) الشخصية اليهودية، الخالدي، مصدر سابق، ص٦٦.

أما قبر يوسف عليه السلام في الأرض فهو مُبهَم غير محدد، وجسمه فيه لا يبلى، لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء[١].

رابعاً: حكم الفراعنة لمصر وهزيمة الهكسوس:

استطاع الفراعنة بقيادة «أحمس» أن يهزموا الهكسوس، وأن يُطهِّروا بلادهم من الاحتلال الهكسوسي، ويطردوهم من مصر، فتغيَّرت الأحوال على بني إسرائيل، ودخلت مصر في طور جديد من الحكم الفرعوني، وسيأتي الحديث مفصَّلاً عن الهكسوس بإذن الله تعالى عند الحديث في قصة يوسف عليه السلام.

١ ـ فرعون:

«فرعون»: لقب أطلقته آيات القرآن على كل من حكم مصر في تلك الفترة، ولا يكون اسماً لحاكم معيَّن حكم البلاد، والذي يُحدِّد اسم حاكم البلاد معرفة الفترة التي حكم فيها، ومن حكام مصر الذين لُقِّبوا بفرعون كما قال المؤرخون: أحمس، ورمسيس، ومنتاح، وأخناتون. و«فرعون» كلمة أعجمية ليست مشتقة.

قال الإمام الراغب في (المفردات): و«فرعون»: اسم أعجمي. وقد اعتُبرت عرامتُه، فقيل: تفرعن فلان: إذا تعاطى فعل فرعون، كما يقال: أبلس وتبلَّس، ومنه قيل للطغاة: الفراعنة والأبالسة[٢].

وقال عنه السمين الحلبي: فرعون: اسم أعجمي: يقال: كل من ملك مصر فهو فرعون، كما أن كل من ملك الروم فهو قيصر، وكل من ملك الفرس كسرى، وكل من ملك اليونان بطليموس، وكل من ملك الحبش فهو نجاشي، وكل من ملك حِمير فهو تُبّع، وقد تصرفت فيه العرب، واشتقوا منه فعلاً فقالوا: تفرعن فلان: إذا فَعَل فِعل فرعون، وقالوا: هم الفراعنة للعُتاة[٣].

---

(١) القصص القرآني، الخالدي، مرجع سابق، (٢/ ٢٥٦).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، ط٤، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، مصدر سابق، ص٦٣٢.

(٣) عمدة الحُفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السّمين الحلبيّ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدايم، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ٢/ ٢٦١.

ووردت كلمة «فرعون» لقباً على حاكم مصر، وأحياناً كانت تُضاف لها كلمة «آل» أو «قوم»، فنقول: آل فرعون، وقوم فرعون[١]. ولقد كان فرعون حاكماً ظالماً وكان جباراً طاغية مفسداً، وبلغ من عتوّه وتمرُّده وكفره أنه ادّعى الألوهية، وأنه كان يقول لقومه «أنا ربكم الأعلى» [٢].

وسيأتي الحديث مُفصَّلاً من خلال سور القرآن الكريم بإذن الله تعالى عن تصرفات فرعون، وهي تصرفات كل الفراعنة الذين حكموا مصر في تلك الفترة.

٢ ـ «الفرعونية»: مرض نفسي كان فرعون مصاباً به، وهو يُصيب القادة والحكام عندما يبتعدون عن الله، ولا يدينون بدين الحق، إنه مرض «الفرعونية»، وهو عقدة نفسية تُصيب فرعون وأمثاله.

إن هؤلاء يرون أنفسهم حكاماً مسؤولين آمرين ناهين، ويرون الآخرين أذلاء مستسلمين، فينسون أنهم بشر كباقي البشر، وأن حكمهم للآخرين فرصة لخدمتهم وتقديم الخير لهم، وعندما ينسون ذلك تُسوِّل لهم أنفسهم أنهم آلهة وأرباب، فيدعون أتباعَهم وأقوامهم إلى تأليههم وعبادتهم، ويتعاملون معهم بمنتهى درجات الازدراء والاستخفاف والاحتقار، فيقصمهم الله، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

إن الفرعونية ظاهرة مرضية خطيرة تُصيب أصحابها في كل زمان ومكان، وإن «فرعون» نموذج مكرر في تاريخ البشرية، يتمثَّل في كل حاكم يحكم قومه، كما حكم فرعون المصريين، بمنأى عن دين الله، وما أكثر «الفراعين» في القديم والحديث!. وقد علّق الشيخ الدكتور سلمان العودة فقال: نحن نطلق لفظ الفرعونية أخذاً واقتباساً من فعل فرعون، وأسلوب فرعون، وطريقة فرعون في ممارسة الحكم والسلطة، والفرعونية ليست نسبة إلى شخص، فالفرعونية صفة أو حالة، تُعبِّر عن الظلم وعن البغي وعن التسلط، وقبل أن نهجو فرعون وعمله

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصريّة، د. ط، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، ص٥١٥ ـ ٥١٦.

(٢) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٦٣).

علينا أن نحاول أن نستخرج من النقوش آثار الفرعونية التي قد تكون مترسِّخة في دواخلنا وفي ضمائرنا، ولها تجليات عدة منها:

* أن يتقمَّصها شخص فيصير فرعوناً في سلوكه من تسلُّطٍ على الناس، واستكبار وظلم، وليس شرطاً أن تملك جنوداً وأعواناً وسلطة لتكون فرعوناً، بل يمكن أن تكون فرعونيتك على زوجتك، أو على ولدك، أو على طلابك، أو على الموظفين عندك، كل أحد بحسبه وعلى قدره.

* ويمكنك أن تُشاهد في السياسة الاستعمارية التي تقوم على أخذ الخيرات، وأخذ المعادن من كثير من البلاد، ولا تأبه بمن مات من الناس أو جاع، كما وقع في الصومال أو في أفغانستان على سبيل المثال.

* أو تقوم على صناعة أسلحة تقتل الإنسان مع الحرص الشديد على المحافظة على المباني وعلى الإنشاءات، فأصبح الإنسان أحطَّ رتبة عندهم من الحيوان، وأحطَّ من المنشآت والأدوات.

هذا هو معنى الفرعونية بمفهومها الشامل، والتي تصل في النهاية إلى شكلها الأكثر تجلِّياً، إلى فعل الظالم الباغي الذي يتجرَّد حتى من الإنسانية، لدرجة تصل به إلى أحطَّ من الحيوانية. فلو أردنا أن نقوم بمقارنة سريعة بين الحيوانات والتَّجرُّد من الإنسانية، سنجد أن الحيوانات المفترسة كالذئب والأسد مثلاً لا تفترس إلا لتأكل، وفي حالة الشبع لا تفترس، بينما الإنسان يتعدَّى حدود الحيوانية وحدود الشبع حين يقتل لشهية القتل، ولا يَعدُّ من يقتلهم بشراً، وإنما يعتبرهم بمرتبة أحطَّ من البهائم والحيوانات، فيتجرد الإنسان من إنسانيته ومن أخلاقه ومن أي قيم أخرى[1].

٢ ـ من أسباب اضطهاد بني إسرائيل:

لما انتقل الحكم في مصر من الهكسوس إلى الفراعنة، قام الفراعنة باضطهاد

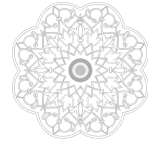
(١) علَّمني موسى، سلمان العودة، إستانبول، مكتبة وسيم، ط١، ٢٠٢١م، ص٢٠.

بني إسرائيل وتعذيبهم، ولعل الفراعنة اعتبروا الإسرائيليين أعواناً للهكسوس المستعمرين الغزاة، ولهذا صبّوا غضبهم عليهم، ونسي الفراعنة فضل يوسف عليه السلام عندما ولي أمرهم وحكم مصر في أزمة اقتصادية حادة تمثلت بسبع سنوات عجاف قاحلة، وخرج بالبلاد من هذه الأزمة بسلام وأمان.

وكان بنو إسرائيل في مصر مؤمنين بالله، مُوحِّدين له، بينما كان المصريون كافرين مشركين بالله يعبدون الأوثان والأصنام، ويعدّون فرعون نفسه إلهاً، وهذا من أسباب العداوة بين الفريقين، فريق الإسرائيليين المؤمنين بالله العابدين له، وفريق المصريين المشركين بالله العابدين لفرعون. وقد أشارت آيات القرآن إلى مظاهر فساد حكم فرعون، وذكرت نماذج من اضطهاده وتعذيبه لبني إسرائيل، يأتي تفصيل ذلك في محلِّه بإذن الله تعالى[١].

* * *

(١) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٦٦).



الفصل الثاني

موسى عليه السلام
اسمه ونسبه ومولده، ومكانته بين الأنبياء والمرسلين

قبل الحديث عن دعوة نبي الله موسى عليه السلام، وتجربته في الدعوة إلى توحيد رب العالمين، وحمله المسؤولية العظيمة في دعوة فرعون وقومه وبني إسرائيل، وتخليصهم من الاضطهاد والظلم، والتعرّف على مكانته بين الأنبياء والرسل، لابدّ من الإشارة إلى أنه كان أحدَ الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من فرعون وقومه، وهو من أولي العزم من الرسل عليهم السلام، لذا لابدّ من أن نتحدث عن مولده ونسبه وأصوله وظروف عصره.

وتظهر مكانة موسى عليه السلام وفضله من خلال ما وصفه الله تعالى به، وما ورد في السنة من ذلك، فهو العبد الذي أحسن ووفّى، فكرّمه الله تعالى تكريماً يليق بمكانته، وأثنى عليه وحفظ لنا قصته في كتابه العزيز، ومراحل عمره من شبابه إلى كهولته، ورسالته وجهاده وكفاحه ضد الاستبداد، بل أخذت سيرته وقصته في القرآن حيزاً كبيراً، وأصبحت من أكثر القصص وروداً في القرآن، سواء قصته مع فرعون، أو قصته مع بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة أو المتوسطة من قصته، وقبل الدخول في تفاصيل قصته عليه الصلاة والسلام، نحبّ أن نقوم بإحصائية قرآنية لمرّات ومواضع ذكر قصته.

المفردات التي تتعلق بقصة موسى خمسة، هي: موسى، وهارون، وفرعون، وبنو إسرائيل، واليهود.

وفيما يلي قائمة بعدد مرات إيراد كل مفردة منها، والسور التي وردت فيها، وعدد مرّات ورودها:

● **السور التي ذكر فيها موسى وهارون:**

أ ـ موسى في القرآن:

ذُكر موسى عليه السلام في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة موزعة على السور كما يلي:

ـ سورة البقرة: ثلاث عشرة مرة.
ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.
ـ سورة النساء: ثلاث مرات.
ـ سورة المائدة: ثلاث مرات.
ـ سورة الأنعام: ثلاث مرات.
ـ سورة الأعراف: إحدى وعشرين مرة.
ـ سورة يونس: ثماني مرات.
ـ سورة هود: ثلاث مرات.
ـ سورة إبراهيم: ثلاث مرات.
ـ سورة الإسراء: ثلاث مرات.
ـ سورة الكهف: مرتان.
ـ سورة مريم: مرة واحدة.
ـ سورة الحج: مرة واحدة.
ـ سورة المؤمنون: مرة واحدة.
ـ سورة الفرقان: مرة واحدة.
ـ سورة الشعراء: ثماني مرات.
ـ سورة النمل: ثلاث مرات.
ـ سور القصص: ثماني عشرة مرة.
ـ سورة العنكبوت: مرة واحدة.
ـ سورة السجدة: مرة واحدة.
ـ سورة الأحزاب: مرتان.
ـ سورة الصافات: مرتان.
ـ سورة غافر: خمس مرات.
ـ سورة فصلت: مرة واحدة.
ـ سورة الشورى: مرة واحدة.
ـ سورة الزخرف: مرة واحدة.
ـ سورة الأحقاف: مرتان.
ـ سورة الذاريات: مرة واحدة.
ـ سورة النجم: مرة واحدة.
ـ سورة الصف: مرة واحدة.
ـ سورة النازعات: مرة واحدة.
ـ سورة الأعلى: مرة واحدة.

والسور التي ورد ذكر موسى عليه السلام فيها أكثر من غيرها حسب الترتيب التالي:

الأولى: سورة الأعراف: إحدى وعشرين مرة.

الثانية: سورة القصص: ثماني عشرة مرة.

الثالثة: سورة طه: سبع عشرة مرة.

الرابعة: سورة البقرة: ثلاث عشرة مرة.

الخامسة: سورة يونس: ثماني مرات.

السادسة: سورة الشعراء: ثماني مرات.

ب ـ هارون في القرآن:

ذُكر اسم هارون عليه السلام في القرآن تسع عشرة مرّة موزعة على السور التالية:

ـ سورة البقرة: مرة واحدة.
ـ سورة النساء: مرة واحدة.
ـ سورة الأنعام: مرة واحدة.
ـ سورة الأعراف: مرتان.
ـ سورة يونس: مرة واحدة.
ـ سورة مريم: مرتان.
ـ سورة طه: أربع مرات.
ـ سورة الأنبياء: مرة واحدة.
ـ سورة المؤمنون: مرة واحدة.
ـ سورة الفرقان: مرة واحدة.
ـ سورة الشعراء: مرتان.
ـ سورة القصص: مرة واحدة.
ـ سورة الصافات: مرتان[١].

● السور التي ذكر فيها اسم فرعون:

ورد اسم فرعون ـ عليه اللعنة ـ في القرآن أربعاً وسبعين مرة موزعة كما يلي:

ـ سورة البقرة: مرتان.
ـ سورة آل عمران: مرة واحدة.

(١) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٧٢).

ـ سورة الأعراف : تسع مرات .
ـ سورة الأنفال : ثلاث مرات .
ـ سورة يونس : ست مرات .
ـ سورة هود : ثلاث مرات .
ـ سورة إبراهيم : مرة واحدة .
ـ سورة الإسراء : مرتان .
ـ سورة طه : خمس مرات .
ـ سورة المؤمنون : مرة واحدة .
ـ سورة الشعراء : ست مرات .
ـ سورة النمل : مرة واحدة .
ـ سورة القصص : ثماني مرات .
ـ سورة العنكبوت : مرة واحدة .
ـ سورة ص : مرة واحدة .
ـ سورة غافر : تسع مرات .
ـ سورة الزخرف : مرتان .
ـ سورة الدخان : مرتان .
ـ سورة ق : مرة واحدة .
ـ سورة الذاريات : مرة واحدة .
ـ سورة القمر : مرة واحدة .
ـ سورة التحريم : مرتان .
ـ سورة الحاقة : مرة واحدة .
ـ سورة المزمل : مرتان .
ـ سورة النازعات : مرة واحدة .
ـ سورة البروج : مرة واحدة .
ـ سورة الفجر : مرة واحدة .

ـ وأكثر السور التي ذكر فيها فرعون هي :

الأولى : سورة الأعراف : تسع مرات .
الثانية : سورة غافر : تسع مرات .
الثالثة : سورة القصص : ثماني مرات .
الرابعة : سورة يونس : ست مرات .
الخامسة : سورة الشعراء : ست مرات .

● السور التي ذكر فيها بنو إسرائيل واليهود:

أ ـ وردت كلمة بني إسرائيل في القرآن إحدى وأربعين مرة، موزّعة كما يلي :

ـ سورة البقرة : ست مرات .
ـ سورة آل عمران : مرتان .

ـ سورة الأعراف : أربع مرات .
ـ سورة يونس : ثلاث مرات .
ـ سورة الإسراء : أربع مرات .
ـ سورة طه : ثلاث مرات .
ـ سورة الشعراء : أربع مرات .
ـ سورة النمل : مرة واحدة .
ـ سورة السجدة : مرة واحدة .
ـ سورة غافر : مرة واحدة .
ـ سورة الزخرف : مرة واحدة .
ـ سورة الدخان : مرة واحدة .
ـ سورة الجاثية : مرة واحدة .
ـ سورة الأحقاف : مرة واحدة .
ـ سورة الصف : مرة واحدة .

ب ـ وأما كلمة اليهود، فقد وردت في القرآن تسع مرات فقط في السور التالية :

ـ سورة البقرة : ثلاث مرات .
ـ سورة آل عمران : مرة واحدة .
ـ سورة المائدة : أربع مرات .
ـ سورة التوبة : مرة واحدة .
ـ وهذه السور الأربع كلها سور مدنية .

بهذه الإحصائية القرآنية نعرف أن أكثر السور حديثاً عن موسى عليه السلام هي سورة البقرة، والأعراف، ويونس، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغافر، والنازعات .

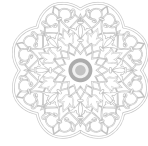
وأما السور التي عرضت لقطات سريعة من قصته، فهي : سورة النساء، والمائدة، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والأنبياء، والمؤمنون، والأحزاب، والصافات، والزخرف، والذاريات، والصف .

وباقي السور اكتفت بذكر اسمه فقط، وهي سور : آل عمران، والأنعام، والكهف، ومريم، والحج، والفرقان، والعنكبوت، والسجدة، وفصلت، والشورى، والأحقاف، والنجم، والأعلى .

ومجموع السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة، وبهذا نعرف أن قصة موسى من أكثر القصص وروداً في القرآن[١].

* * *

(١) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، (٢/ ٢٧٤).



المبحث الأول

موسى عليه السلام؛ اسمه ونسبه والبيئة التي وُلد فيها

أولاً: اسمه ونسبه:

هو موسى بن عمران بن قاهث بين عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وهذا ما ذكره الحافظ ابن كثير(١).

ومن الدليل على أن موسى عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام: قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٤].

وأسرة موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وهي مكونة من أم اسمها: يوكابد بن الوي، وأب اسمه: عمران، وأخت كبرى اسمها: مريم بنت عمران، وأخ وسط اسمه: هارون بن عمران، وموسى عليه السلام وهو الأصغر في أبناء الأسرة(٢).

وتزوج بعد هجرته إلى مدين امرأة تدعى صفورا، واختلف المفسرون وأهل التاريخ في شأن أبيها، فذكروا أنه نبي الله شعيب عليه السلام، وقال آخرون: بل ابنة «يثرى» صاحب مدين، وقالت جماعة: إنها ابنة «يثرون» ابن أخي شعيب

---

(١) قصص الأنبياء، الإمام أبو الفداء، إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٣٧.

(٢) علَّمني موسى، المرجع السابق، ص٢، وانظر: قصة موسى مع فرعون، مصطفى العدوي، القاهرة، ٢٠١٤م، (٤/ ٢٢).

عليه السلام[١]، وقيل: هي ابنة رجل مؤمن من قوم شعيب[٢].

والأرجح أنها ليست ابنة شعيب، لأنه لو كان ذلك لجاء نص اسمه في القرآن، وقد كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل بنص القرآن، وقد عُلم أنه كان بين الخليل إبراهيم عليه السلام وموسى مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، وذكر الطبري أن أولاد موسى عليه السلام: جرشون، وإيليعاز[٣].

ـ وقيل في اسم موسى أنه مشتق من كلمتين: «مو» بالقبطية وتعني: ماء، و«شا» وتعني: شجر، وقيل: بل سُمّي «موريس»، وهو اسم مركب من كلمتين هما: «مو» وهو الماء بالقبطية، و«أورس» أي: المنتشل باللغة المصرية القديمة، ثم عُرِّبت الكلمة في القولين إلى «موسى».

أما أهل الكتاب، فيردّون اسم موسى إلى فعل «ماشيه» فأسموه «موشيه» أي المنتشل من الماء باللغة العبرية[٤]، وكان موسى رجلاً طوالاً كما جاء في الحديث: «كأنه من رجال شنوءة»[٥].

ثانياً: البيئة التي وُلد فيها موسى عليه السلام:

ولد موسى عليه السلام في عصر الفراعنة، الذي كان يقوم في كيانه السياسي على الملك نفسه، ويعاونه طبقة من الأمراء والنبلاء والكهنة والفلاحين والعمال والسحرة.

---

(١) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، هدى الطويل، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) (٦/ ٣٣٢)، وانظر: أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص١٩٥.

(٣) تاريخ الطبري، (تاريخ الرسل والملوك)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، بيروت، دار التراث، ط٢، ١٣٨٧هـ، (١/ ٣٨٥). وانظر: أنبياء تركوا آثاراً، ص١٩٦.

(٤) موسى عليه السلام، حلمي شعبان، القاهرة، (د.ت)، ص١٩.

(٥) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، رقم ٣٣٩٤.

وكان فرعون مصر في أيام ولادة موسى عليه السلام واسع الثراء، شديد البأس، عظيم الدهاء، ولم يكن من الفراعنة من هو أعتى منه على الله، فقد ادّعى الألوهية المطلقة، وأخرج لنفسه من القصص والأساطير ما استطاع به أن يضحك ويمكر بأهل مصر بشتى طوائفها، فعبدوه دون تفكير، وبُنيت له المعابد، وذُبحت له القرابين، وأُجريت له الطقوس والشعائر[١].

وكان فرعون موسى مضرب المثل في استكباره وطغيانه وإجرامه، وقد تعددت ألوان إجرامه لشعبه ولبني إسرائيل، واشتهر باضطهاده لبني إسرائيل ما يشبه اليوم «التفرقة العنصرية»، فاستضعفهم وسخَّرهم في كل عمل مجبرين، ثم زاد على هذا قَتْلَ أبنائهم واستحياء نسائهم.

وكان لفرعون حاشية يزينون له كل معصية، وكان وزيره الأكبر يدعى هامان، وقد قُرِن اسمه هذا باسم فرعون في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وقد امتدت مملكة الفراعنة من الشام إلى ليبيا، ومن ساحل البحر المتوسط حتى الحبشة، وتُعدّ أصول الفراعنة من أصول نوبية وحبشية وليبية وآسيوية سامية من الجزيرة العربية، وكان هؤلاء يأتون ساعين وراء الماء والكلأ والرعي.

وامتزجت هذه السلالات ببطء ما بين (٤٠٠٠ و٣٠٠٠ ق.م)، ونتج عن هذا الامتزاج السلالي شعب مصر الذي أقام حضارته فوق ضفتي النيل، وقد جرت أحداث قصة موسى عليه السلام في عصر الفراعنة[٢]، وفي عهد فرعون، وهو أشدهم ظلماً وعلوّاً واستكباراً في الأرض.

وقد ذكرت المصادر التاريخية وكتب التفسير: أن فرعون موسى رأى في المنام أن ناراً عظيمة أقبلت إليه من طرف بيت المقدس، فخرّبت بيوت مصر، وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعا فرعون السحرة والكهنة وسألهم عن تأويل الرؤيا التي رآها، ففسروا له بأنه يخرج من بيت المقدس ـ الذي جاء منه بنو

(١) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص١٩٧.
(٢) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص١٩٨.

إسرائيل ـ رجل يكون على وجهه هلاك مصر[١].

وقيل: إنّ الكهنة أخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود من بني إسرائيل، وكانت هذه الأفكار تراودهم، فأشار أحدهم على فرعون بقتل كلّ مولود ذَكَرٍ يُولد في بني إسرائيل. فاستحسن فرعون هذا الرأي وأُعجب به كل العجب، لأنه رآه المنفذ الوحيد للخلاص من هذا الخطر العظيم الذي يُحدق بهم، وكلّف بذلك جماعة من رجاله ومعهم «الشفار»، يذبحون كل مولود من الذكور في بني إسرائيل. ولما مضى زمن على ذلك، فإذا بأرباب العمل والقائمين على بناء قصور فرعون يشتكون مما يفعله، قائلين: إنه إذا استمرّ العمل على هذا الأمر فلن يجدوا عمالاً للقيام بالأعمال، مما يوشك أن يضع أبناؤهم العمل على عاتقهم، لذلك أقرّهم فرعون على شكواهم، وأمر بإيقاف الذبح سنة والقيام به سنة؛ ظنّاً منه أن هذه السياسة ستمنع بني إسرائيل من التكاثر، وفي الوقت نفسه سيظل هناك مصدر لليد العاملة[٢].

وفي هذه السنة، وهي سنة الذبح، وُلد نبيُّ الله موسى عليه السلام وهي سنة (١٩٤٨ ق.م) على الأرجح من أقوال الباحثين، وقيل (١٥٧١ ق.م) أثناء حكم أحمس الأول. ويقول الدكتور رشدي البدراوي: وُلد موسى على الأرجح في السنة السابعة من حكم رمسيس الثاني[٣]. ويقول ابن كثير: إنّ أم موسى «عليهما السلام» لم يكن يظهر عليها مخايل الحمل، أمّا أخوه هارون فقد وُلد في السنة التي قبلها لذلك لم يشمله قرار الذبح والقتل[٤].

ولكن الله أراد أن يعيش موسى عليه السلام، وأن ينجو من اضطهاد فرعون وقتله له، لذلك قدّر الأمور وهيّأ لها الأسباب، والتقدير الرباني، والجنود

---

(١) فرعون في القرآن الكريم، زياد الحوراني، دمشق، (د.ت)، ص٦٣.

(٢) الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن ابن الأثير الجزري (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتاب العلمية، ٢٠٠٦م، (١/ ١٥١ ـ ١٥٢).

(٣) فرعون في القرآن الكريم، د. الحوراني، المصدر السابق، ص٦٤.

(٤) قصص الأنبياء ابن كثير، المصدر السابق، ص٢٤٢.

الربانيين، الذين لا يعلمهم إلا هو، والذين أدّوا مهمتهم وقاموا بواجبهم:

ـ التابوت الذي ضمَّ موسى عليه السلام.

ـ واليمّ الذي حمله.

ـ وقلب امرأة فرعون الذي رقّ لموسى.

ـ وفرعون ـ نعم فرعون نفسه ـ الذي وافق على إبقاء موسى عنده، وكذلك حارتْ أمه في كيفية إنقاذ موسى من أيدي الذبّاحين، فألهمها الله بأن تضعه في صندوق وتجعله في النهر(١). وبعد أن فعلت ذلك ساق الله أسباباً عديدة، ليمضي قدر الله في فرعون، كما سنرى في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

وسيرة سيدنا نبي الله ورسوله موسى عليه السلام عَنونها الله تعالى في كلمتين: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] وعَنونها أهل الحديث والأثر باسم: حديث الفتون(٢)؛ لكثرة ما مرّ به من الفتون مثل:

ـ خوفه في بطن أمه، تأثُّراً بخوفها عليه من قتل فرعون.

ـ وخوفه عندما أقبل أهل الشفار لقتله حين وصل في تابوته لامرأة فرعون.

ـ وشكهم في أخته مريم لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢].

ـ ولما أمسك لحية فرعون فهمّ بقتله.

ولما قتل القبطي وطُلب للقصاص.. وهكذا دارت به أحداث الفتون إلى آخر حياته عليه السلام، وهذه الفتون جعلته رمزاً خالداً في الصراع بين الحق والباطل، وفي عون الله للمُستضعَفين، وفيها من التدابير ومن العبر والعظات ما يستحقّ الوقوف عنده(٣).

وموسى عليه السلام يحب اللهَ عز وجل؛ لأن حبّه والإيمان به من شروط الإيمان.

---

(١) فرعون في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص٦٤.

(٢) السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، رقم ١٢٦٣.

(٣) علمني موسى، العودة، المصدر السابق، ص٢.

وأنه كان قبل النبوة وبعد النبوة صاحب نفس شفافة وإيمان بالله، ويلجأ إلى الله في الشدائد، سواء في مصر أو سيناء أو في مدين أو في رجوعه، في كل هذه المواطن كان يشعر بصحبة الله سبحانه وتعالى له، ويناديه ويناجيه مناجاة المستغيث المنكسر المؤمن برحمته وبقدرته وبقوته وبفضله وبعطائه، والله سبحانه وتعالى لم يكن يخيِّب دعوة موسى أبداً ولا دعوة الصالحين والصادقين[١].

قال شيخي وأستاذي سلمان العودة: أحبّه لأنه علمني الكثير بعد رسول الله، وتعرّفت إلى الله أكثر من خلال قصته، وأحببت أكثر سور القرآن التي أطالت في قصته مثل سورة الأعراف، وطه، والقصص، وهي تقريباً كلها عن موسى، فعندما أقرؤها أتخيل تفاصيل القصة، وأحسُّ أني أعيش في جو إيماني عظيم، ومن حبي له جعلت قصته والدروس المستفادة منها موضوع حلقات تلفزيونية في رمضان عام (٢٠١٥م)، وقد عدت إليها بالتحرير والتنقيح والزيادة والتحسين وإعادة الترتيب، وسنقف فيها مواقف كثيرة من حياة موسى، ذات عبر ودروس أخّاذة، تُنبت في صدرك بستاناً كما أنبتت في صدري، وتترك في قلبك أثراً كما تركت في قلبي، وتشقّ في فكرك سبيلاً كما شقّت في فكري، وتحدو خَطْوَكَ كما حدت خطوي[٢].

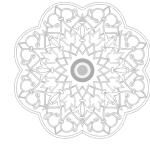
هذه صورة مختصرة جدّاً لجانب البيئة في نظام فرعون، الذي استقبل نبيَّ الله موسى عليه السلام، وقد ذُكر السحر والسحرة ومشتقاتها في قصة موسى عليه السلام في القرآن أكثر من (٣٠) مرة، واعتمد فرعون على السحر والسحرة في مواجهته لموسى عليه السلام بعد بعثته، وأدى هذا إلى نشر الخرافات والخزعبلات والتفنُّن في ذلك إلى أقصى درجة ممكنة[٣].

* * *

(١) علمني موسى، العودة، المصدر السابق، ص٣.

(٢) علمني موسى، المصدر نفسه، ص٣.

(٣) موسى عليه السلام قبل بعثته؛ دراسة مقارنة بين القرآن الكريم والعهد القديم، محمد عطا أحمد يوسف، المجلد ١٩، ع ٥٧، الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ٢٠٠٤م، ص: ٢١ـ١٠٢.



المبحث الثاني

موسى عليه السلام ومكانته بين الأنبياء والمرسلين

عرضَ القرآن الكريم موكبَ الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويعرض السياق هذا الموكب ممتدّاً موصولاً، ولا يُراعي التسلسل التاريخي في العرض، لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٩٠].

وكانت التعقيبات على هذا الموكب المبارك في الذكر الحكيم في قوله تعالى:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].
- ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

● ﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام: ٨٧].

كلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الموكب الكريم، واصطفاء الله له، وهدايته إلى الطريق المستقيم، وذكر هذا الرهط على هذا النحو، واستعراض صورة هذا الموكب العظيم، كلها تمهيدات للتقريرات التي تليه: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، وهذا تقرير لينابيع الهدى في الأرض، فهدي الله للبشر يتمثّل فيما جاءت به الرسل، ولا واهب سواه، لأن الله تعالى هو الذي قرّره، وهدى إليه عبادَه.

ولو أن هؤلاء العباد المهديّين حادوا عن توحيد الله، وانحرفوا عن المصدر الذي يستمدّون منه الهدى، وأشركوا في الاعتقاد أو العبادة أو التلقّي، فإن مصيرهم أن يَحبط عملُهم: أي أن يذهب ضياعاً، ويهلك كما تهلك الدابّة التي ترعى نبتاً مسموماً، فتنتفخ ثم تموت، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط.

وفي قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وهذا التقرير الثاني، فقرّر في الأول مصدر الهداية وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل، وقرّر في الثاني أن الرّسل الذين ذكرهم، والذين أشار إليهم، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة.

إن لفظ ﴿ وَٱلۡحُكۡمَ ﴾ يجيء بمعنى الحكمة، كما يجيء بمعنى السلطان كذلك، وكلا المعنيين محتمَل في الآية. فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب، كالتوراة مع موسى عليه السلام، والزبور مع داود عليه السلام، والإنجيل مع عيسى عليه السلام. وبعضهم آتاه الله الحكمة كداود وسليمان عليهما السَّلام، وكلُّهم أُوتي السلطان على معنى أن ما معهم من الدين هو حكم الله، وأن الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله الرسل إلا ليُطاعوا بإذنه، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى، وكلهم أُوتي الحكمة وأُوتي النبوّة، وحمل دين الله إلى

الناس، وقام عليه، وآمَن به، وتمسّك به، وحافظ عليه، فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوّة مشركو العرب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فإن دين الله غنيّ عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام، والمؤمنون بهم، هم حَسْبُ هذا الدين[١].

إنها حقيقة قديمة امتدّت جذورها وتفرّعت أغصانها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول وآمن بها، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلوب العصبة المسلمة أيّاً كان عددها. إن هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة، إنها فرع من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصولة أسبابه بالله وهداه.

يبقى الإنسان المؤمن في أيّ أرض وفي أي جيل قويّاً وكبيراً، وكأنه الشجرة المتينة السّامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية، وفي أعماق التاريخ الإنساني، فهو عضوٌ في الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهو التقرير الثالث، فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله، وهُداهم جاءهم من عند الله، فيه القدوة لرسول الله ومن آمن معه، فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه، وهذا الهدى هو الذي يدعو إليه ويُبشِّر به، قائلاً لمن يدعوهم ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، لا يختصّ به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد، إنه هدى الله لتذكير البشر كافّة، ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه، وإنما أجره على الله[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، القاهرة، دار الشروق، ط٣٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، (٢/ ١١٤٤).
(٢) المرجع السابق، (٢/ ١١٤٤).
(٣) المرجع نفسه، (٢/ ١١٤٥).

أولاً: النبيّ والرسول والنبوة والرسالة:

١ ـ النبي لغة واصطلاحاً:

أ ـ النبي لغةً:

النبأ: الخبر، والجمع أنباء، وإنّ لفلان نبأً، أي خبراً، والنبيُّ: المخبِر عن الله عزّ وجل، لأنه أنبأ عنه. والنبيُّ: المشتق من النباوة وهي الشيء المرتفع، أي إنه أشرف على سائر الخلق[١]، ويقول الفيروز آبادي في تعريف النبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول، لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم، ويقول الرّاغب الأصفهانيّ في سبب التسمية: ويُسمّى نبيّاً لرفعة محلّه على سائر الناس المدلول عليه بقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧][٢].

ب ـ النبيُّ في الاصطلاح:

النبيّ هو من بُعث لتقرير شرع مَن قَبلَه[٣].

٢ ـ الرسول في اللغة والاصطلاح:

أ ـ الرسول في اللغة:

أصل الرَّسْل: الانبعاث، ومنه الرّسول: المُنبعِث، ويُراد به تارة الرفق، فقِيل: على رِسْلِك، إذا أمرته بالرفق، وتارةً الانبعاث فاشتُق منه الرّسول، والرّسول يُقال تارةً للمتحمّل الرسالة، وتارةً للمتحمِّل القول والرسالة[٤].

---

(١) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، رجاء بنت صالح محمد البحر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٣٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ص٧٩٠.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ، (١٧/ ١٧٣).

(٤) تنوّع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي، رجاء بنت صالح محمد البحر، ص٢٤٤.

والرسول يُقال للواحد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وللجمع: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وجمع الرّسول: رُسُل، و«رُسُل الله» تارةً يُراد بهم الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وتارة يُراد بهم الأنبياء، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومعنى الرسول في اللّغة: الذي يتابع أخبار الذي بعثه؛ أخذاً من قولهم جاءت الإبل رُسُلاً أي: مُتتابعة، وقال أبو إسحاق النّحويّ في قوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]: معناه إنّا رسالة رب العالمين، أي: ذوا رسالة رب العالمين، وسُمّي الرّسول رسولاً؛ لأنه ذو رسالة، والرسول: اسمُ مَن أرسلتَ، وكذلك الرسالة[١].

ب ـ الرّسول في الاصطلاح:

الرّسول: هو من بُعث بشرع جديد[٢]، ويقول الإمام الشوكاني في تعريف النبيّ والرّسول، الذي بيّن فيه الفرق بينهما: فالرّسول: من بُعث بشرعٍ وأُمر بتبليغه، والنبيّ: من أُمر أن يدعو إلى شريعة مَن قَبله، ولم يُنزَّل عليه كتاب، ولا بُدّ لهما جميعاً من المعجزة ظاهرةً[٣].

إذن هناك فرق بين النبي والرّسول كما تبيّن في تعريفهما الاصطلاحي، فالنبي جاء لتقرير شريعة مَن قبلَه، أما الرسول فهو من اختص بشريعة جديدة، وكل رسول نبيّ[٤]، وليس كلّ نبيّ رسولاً.

وموسى عليه السلام هو نبي رسول، قد نبّأه الله تبارك وتعالى بخبر السماء،

---

(١) معجم لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور (ت: ٧١١هـ)، بيروت، دار صادر، ط١١، ٢٠٢١م، مادة (رسل)، ج١١، ص٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، (١٧/ ١٧٣).
(٣) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤ هـ، (٣/ ٤٦١).
(٤) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، رجاء بنت صالح محمد البحر، ص٢٤٥.

وأنزل عليه الوحي، كما أمره أن يدعو الناس، ويبلّغ رسالة ربّه[١].

وقد استدل بعضهم على عدد الرسل والأنبياء بالحديث المرويّ عن أبي ذرّ رضي الله عنه في ذكر عدد الأنبياء والرّسل ونصّه: عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كمِ الأنبياءُ؟ قال: «مائةُ ألفٍ وعِشرون ألفاً»، قلتُ: يا رسولَ الله، كم الرُّسل من ذلك؟ قال: «ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشرَ جمّاً غفيراً»[٢]، ولكن هذا الحديث ضعيف في إسناده[٣].

والصحيح أن عدد الرّسل والأنبياء لا يعلمه إلا الله لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٣ـ تعاليم موسى عليه السلام من عند الله تعالى:

تشملُ هذه التعاليم رسالة موسى عليه السلام التي تلقّاها من ربّه عزّ وجل عن طريق الوحي، وقد ذكر الله موسى عليه السلام في القرآن في جملة من أُوحِي إليهم من النبيِّين[٤].

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

وهذا السياق القرآني يتحدَّث عن موكب واحد، وهو يتراءى عن طريق

---

(١) إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم دراسة موضوعية، محمد الأمين إسماعيل، رسالة ماجستير، السودان، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠٠٠م، ص٢.

(٢) صحيح ابن حبّان، ابن حبان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م، كتاب السّير، رقم (٣٦١).

(٣) في سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغّساني: كذّاب.

(٤) الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٧م، ص٣١٥.

التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة لهدى واحد للإنذار والتبشير، وموكب واحد يضمّ هذه الصفوة المختارة من البشر: نوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وموسى وهارون وسليمان وداود وغيرهم، ممن قصّهم الله على نبيّه المصطفى ﷺ في القرآن الكريم، ومن لم يقصّ عليه، موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتّى البقاع والأرضين، في شتّى الآونة والأزمان، لا يفرّقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن، ولا زمن ولا بيئة، كلّهم يؤدّي الإنذار والتبشير، وكلّهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة إلى ذلك النور، سواء منهم مَن بُعث لهداية قومه، ومن جاء للناس أجمعين كمحمد رسول الله ﷺ خاتم النبيّين.

كلّهم تلقّوا الوحي من الله تعالى، وما جاؤوا بشيء من عندهم، أولئك الرّسل منهم من قصّ الله على رسوله ومنهم من لم يقصَّ، اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعثهم إلى عباده، يُبشِّرونهم بما أعدّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم بما أعدّه الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب على ذلك: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق.

وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنه سبحانه وتعالى رحمةً منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم (العقل)، اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشّرين ومنذرين يذكّرونهم ويبصّرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات التي تحجب عنها، أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، و«عزيزاً»: أي قادراً على أخذ العباد بما كسبوا، حكيماً: يدبّر الأمر كله بالحكمة، ويضع كل أمر في نصابه[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، المصدر السابق، (٢/ ٨٠٥ ـ ٨٠٦).

إننا نقف أمام عظمة العدل، الذي يُرتِّب للناس حجة على الله سبحانه لو لم يُرسل مُبشِّرين ومُنذِرين، هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح وكتاب النفس المكنون بالآيات والشواهد على الخالق ووحدانيته وتدبيره وتقديره وقدرته وعلمه، ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس، ومع هبة العقل الذي يملك أن يُحصي الشواهد ويستنبط النتائج، ولكن الله سبحانه بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها فتعطلها، أو تفسدها، أو تطمسها، أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط، قد أعفى الناس من حجّية الكون، وحجّية الفطرة، وحجّية العقل، ما لم يرسل إليهم الرسل؛ ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يَرين عليها، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثّل في الرسالة هذه الأجهزة، فتصحّ أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي، وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع؛ أو تسقط حجّتها وتستحق العقاب[1].

وخطأ وضلال إن لم يكن هو الخداع والتضليل كلُّ زعم يقول: إنّ العقول الكبيرة كانت حَرية أن تبلغ من دون الرسالة ما بلغته الرسالة، فالعقل ينضبط مع الرسالة بمنهج النظر الصحيح، وأن ما يتمّ بالرسالة ـ عن طريق العقل نفسه ـ لا يمكن أن يتمّ بغيرها، فلا يُغني العقل البشري عنها.

إن تاريخ البشرية لم يُسجل أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية والمتوسطة بالرسالة:

- لا في تصوّر اعتقادي.
- ولا في خُلق نفسي.
- ولا في نظام حياة.
- ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

إنّ عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً، بل إنهم ليقولون: إن عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفته البشرية ـ بعيداً عن رسالة الله وهداه ـ فإذا نحن رجعنا

(١) في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٢/ ٨١١).

إلى تصوّره لإلهه ـ كما وصفه ـ رأينا المسافة التي تفصله عن تصور المسلم العادي لإلهه مهتدياً بهدي الرسالة[1]، فسبحان الله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٤ ـ موسى عليه السلام من أولي العزم:

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أولو العزم من الرسل هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعاً، وقد كانت وصية الله تعالى لعيسى وأولي العزم من الرسل عليهم السلام ما ذكره الله تعالى في سورة الشورى:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

إنّ موسى عليه السلام من أولي العزم، الذين أقاموا الدين الذي أمر الله به الأنبياء والمرسلين، وهذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ، يقول لهم فيه:

- ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ارتضى لكم الحقائق التي تدينونَ بها ونَهَّج وأوضح.
- ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الذي ارتضاه لنوح ووصّاه.
- ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهذا الدين هو نفسه الذي ارتضاه لك، وأوحاه إليك، يا محمد، وارتضاه لعباده.
- ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ ارتضى هذ الدين ـ أي الإسلام ـ لإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله، بعد أن ارتضاه لنوح أبي البشر بعد آدم، ومحمد آخر رسول وخاتم النبيِّين، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل.

---

(١) في ظلال القرآن، المرجع نفسه، (٢/ ٨١١).

● ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أوصاهم جميعاً بإقامة هذا الدين والتمسك به، ونهاهم عن الانحراف عن التوحيد والإسلام.

● ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ شقّ على المشركين دعوتهم إلى الإسلام وإلى توحيد الله، ونبذ الوثنية، وعبادة الله وحده لا شريك له، والانقياد والطاعة له سبحانه وتعالى.

● ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يعلم الله الصالح من عباده فيَهديه إلى طريق الرشاد، ويَجتبيه من بين الناس جميعاً، أي أمرتهم رسلهم بتوحيد الله والإيمان بملائكته واليوم الآخر وبالبعث والنشور، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال من الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم القتل والكفر والزنى والأذيّة للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات. هذا كله مشروعُ دين واحد وملة متّحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم. وأما تفصيل العبادات فهذا يختلف باختلاف الشرائع[١].

إن ما شرعه الله تعالى لأولي العزم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه ديناً قيّماً أجمع عليه الرسل جميعاً، والخطاب لأمته عليه السلام أي: شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ومَن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمرهم به أمراً مؤكَّداً. وتخصيص المذكورين بالذكر يشير إلى علو شأنهم وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل منهم على نبوة بعضهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بعيسى عليه السلام[٢].

---

(١) حقيقة المسيح والتثليث، منصور تميم نتشة، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٤٤.

(٢) قصص أولي العزم من الرسل، ليلى بلخير، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٤م، ص٤٢.

كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أخذ على النبيِّين جميعهم الميثاق، وخصّ بالذكر أولي العزم من الرسل، وقد أخذ الله ميثاق النبيِّين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام أجمعين في حمل أمانة هذا المنهج والاستقامة عليه وتبليغه للناس والقيام عليه في الأمم التي أُرسلوا إليها، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧ـ٨].

إنه ميثاق واحد مطرد من لدن آدم عليه السلام وصولاً إلى خاتم النبيِّين محمد ﷺ، وهو ميثاق واحد، ومنهج واحد، وأمانة واحدة يتسلّمها كل واحد منهم حتى يسلّمها، وقد عمّم النص أولاً:

● ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾؛ خصّ من بين الأنبياء والمرسلين صاحب القرآن الكريم والدعوة العامة إلى العالمين.

● ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل، وهم أصحاب أكبر الرسالات: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه.

● ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾؛ فقد وصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوي للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذي استُعير للعهد والرابطة، وفيه من جانب آخر تجسيم معنوي يزيد إيحاءه للمشاعر، وإنّه لميثاق غليظ متين، ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده، ليتلقّوا وحيَه ويُبلّغوا عنه ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة.

● ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾؛ الصادقون هم المؤمنون، فهم الذين قالوا كلمة الصدق واعتنقوا عقيدة الصدق، ومَنْ سواهم كاذب؛ لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل، ومن ثم كان لهذا الوصف دلالته وإيحاؤه.

وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ المجتهد الناجح عن إجابته التي استحقّ بها النجاح والتفوق أمام المدعوّين بحفل النتائج، وهو سؤال للتكريم وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد وبيان الاستحقاق، والثناء على المستحقّين للتكريم في يوم الحشر الأعظم. فأما غير الصادقين الذين دانوا بعقيدة الباطل وقالوا كلمة الكذب في أكبر قضية يُقال فيها الصدق أو يُقال فيها الكذب، قضية العقيدة، فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيّأ، يقف لهم في الانتظار، وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً[١].

وقد خُصَّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيّين؛ لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأولو العزم من الرّسل[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن لهؤلاء الخمسة مزيداً من فضل على غيرهم من الأنبياء والمرسلين، سواء قلنا إنَّ الأنبياء والمرسلين كلهم أولو عزم، أو قلنا إنَّ أولي العزم من الرّسل هم هؤلاء الخمسة فقط؛ لأن الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم لقوله تعالى ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكون أولي العزم هم هؤلاء الخمسة هو الذي عليه أكثر أهل العلم من المفسرين وغيرهم، فقد قال الشيخ السعدي في تفسير الآية التي ذكرت أولي العزم في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]: يخبر تعالى أنه أخذ من النبيّين عموماً ومن أولي العزم، وهم هؤلاء الخمسة المذكور ـ خاصة ـ ميثاقهم الغليظ، وعهدهم الثقيل المؤكّد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأمر الناس بالاقتداء بهم[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، المصدر السابق، (٥/ ٢٨٣٠).

(٢) تفسير البغوي «معالم التنزيل»، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ، (٦/ ٣٢٠).

(٣) تفسير السعدي، «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، مصدر سابق، (١/ ٦٥٩).

٥ ـ حقيقة النبوة:

إنَّ النبوّة اتصال بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، وسفارة بين الملك المالك الواحد الأحد وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم ـ تبارك وتعالى ـ لخلقه؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهي نعمة مهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده، وفضل إلهي يتفضّل به عليهم وهذا في حقّ المرسَل إليهم.

وأما في حق المُرسَل نفسه، فهي امتنان من الله يمنُّ بها عليه، واصطفاء من الربّ له من بين سائر الناس، وهِبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم، ولا تُنال النبوة بعلم ولا رياضة، ولا تُدرك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها كما يظن مَنْ في عقله بلادة، وإنما هي محض فضل إلهي واصطفاء ربّاني، فهو جلّ وعلا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

إنَّ النبوّة لا تأتي باختيار النبيّ، ولا تُنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أجابهم الربّ تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك، ويتفضّل به على من يشاء من الناس، ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخيرة لأحد غيره، وما كان الاجتباء لأحد سواه[(١)].

وإنَّ الإيمان بالنبوّة هو الطريق المؤدي إلى معرفة الله عزَّ وجل ومحبته، والمسلك المفضي إلى رضوان الله وجنته، والسبيل المؤدّي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته[(٢)].

---

(١) النبوّات، ابن تيمية، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، الرياض، أضواء السلف، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (١/ ٢٠).

(٢) المرجع السابق، (١/ ٢٠).

يقول ابن تيمية: «والإيمان بالنبوّة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يُحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب»[١].

وإنَّ حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسّمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه، إذ مَنْ فقد أحد هؤلاء خسر الدّنيا، أما من عُدم الإقرار بالنبوّة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة عياذاً بالله تعالى، ولا شكّ أنَّ معرفة رسوله وطاعته يحتاجها كل مخلوق مكلّف، ومن حكمة الله تعالى أنه كلّما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنه جلّ وعلا يجعله سهلاً مُيسَّراً غير ذي عوج[٢].

وإن حاجة النّاس إلى معرفة النبوّة والإقرار بالرّسول، وضّحها المولى جلّ وعلا في كتابه توضيحاً أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ الشرح يطول، يقول ابن تيمية: «فتقرير النُّبوَّات من القرآن الكريم أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبويّة، وينبوع كل خير، وجماع كل هدى»[٣].

وإن لابن تيمية كلاماً رائعاً نفيساً يُجمل فيه ما قُدّم بيانه، يقول فيه: إن الله سبحانه جعل الرُّسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

ـ **فالأصل الأول**: يتضمَّن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

---

(١) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، د. علي محمد محمد الصّلاّبي، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ٢٠٢٠م، ص٧٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٩.
(٣) كتاب النبوّات، ابن تيمية، مقدمة المحقق، (١/ ٢١).

ـ **والأصل الثاني**: يتضمّن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يُحبه الله وما يكرهه.

ـ **والأصل الثالث**: يتضمّن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفان عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرّسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يُدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض ووصف الدواء له، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبّ، فإن آخر ما يقدّر بعلم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتّباع الرسول[1].

ثانياً: الحكمة من بعث الرّسل:

بعث الله الرسل (وهم خير خلق الله) مُبشِّرين ومُنذِرين إلى الخلائق، ودَعَوْا أقوامهم إلى طريق الحق والهداية، والغاية هو إخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد حتى لا يُتركوا هملاً دون إنذار أو تخويف، ومنطلق هذا كله الرحمة الإلهية بخلقه.

١ ـ حاجة الخلق إليهم:

إنَّ الأنبياء والرّسل هم صفوة الخلق، والخلق بحاجة إليهم؛ ليبلّغوهم ما يُحبه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العُصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عليهم السلام، فكيف تكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشّرين ومنذرين؟!

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، الرياض، طبعة دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ، (١٩/ ٩٦ ـ ٩٧).

فقد بُعث الرّسل يُهذِّبون العباد ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ويحرّرونهم من رِقّ عبودية المخلوق إلى حرية عبادة رب الأرباب، الذي أوجدهم من العدم، وسيُفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء؛ ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سُعداء، ولو تُرك الناس هملاً دون إنذار وتخويف لعاشوا عيشة ضنكاً في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غاب، القوي فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يُذلّ الوضيع، وهكذا اقتضت حكمته جلّ وعلا ألا يخلق عباده سُدى ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

إن من رحمة الله جلّ وعلا بعباده أن مَنَّ عليهم، فبعث فيهم رسُلاً مُبشِّرين ومنذرين، يتلون عليهم آيات ربهم، ويعلمونهم ما يُصلحهم، ويُرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

٢ ـ دعوة الناس إلى عبادة الله:

إنَّ الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته وتوحيده، وفعل الخيرات واجتناب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف العبادة، من فعل ما يحبّه الله ويرضاه وترك ما يكرهه ويأباه، إلا عن طريق الرّسل، الذين اصطفاهم الله من خلقه وفضّلهم على العالمين، وجعلهم مُبرّئين من كل عيب مُشين، ومن كل خُلُق معيب، وأيدهم بالمعجزات والحجج والبراهين، وأنزل عليهم البيّنات والهدى، وعرّفهم به، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى عبادته وحده حقّ العبادة[١].

٣ ـ إقامة الحُجّة على البشر بإرسال الرسل:

ـ قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

(١) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٣).

ـ وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه : ١٣٤] .

فقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرّسل ليقطع دابر الكافرين، فلا يعتذروا عن كفرهم بعدم مجيء النذير، وليعلم الله تعالى علم ظهور، وإلا فهو تعالى يعلم ـ بالعلم الأزلي ـ من يطيعه ومن يعصيه، وليقيم على عباده الحجة الدامغة؛ فيحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بيان وبرهان .

٤ ـ الأنبياء هم الطريق لمعرفة العقائد الغيبية :

* لا يدرك البشر بعقولهم كثيراً من الغائبات، فهم بحاجة لمن يُعلّمهم ذلك، مثل معرفة أسماء الله جلَّ وعلا وصفاته ومعرفة الملائكة والجن والشياطين، ومعرفة ما أعدّ الله للطائعين في دار رضوانه وكرامته، وما أعدّ للعاصين في دار سخطه وإهانته، ولذلك فإن حاجتهم إلى مَن يُعلِّمهم هذه الحقائق، ويُطلعهم على هذه المغيّبات ضرورة .

ولقد امتدح الله تعالى عباده الذين يؤمنون بالغيب؛ فقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة : ١ ـ ٣]، فلو لم يبعث الله الرّسل لما عرف الناس هذه الأمور الغيبية، ولما آمنوا إلا بما يدركون بحواسهم، فسبحان الخلاّق العليم الذي مَنّ على عباده ببعثة الأنبياء والمرسلين .

٥ ـ حاجة الخلق للقدوة الحسنة :

كمّل الله الأنبياء بالأخلاق الفاضلة، وعصمهم من الشبهات والشهوات النازلة، فهم نبراس الهدى، ومصابيح الدّجى، يقتدي بهم الخَلْق، ويتَّخذون من سيرتهم وحياتهم قدوة يسيرون على منوالهم حتى يصلوا إلى دار السلام، ويحطّوا رحالهم في ساحة ربّ الأنام .

وهم القدوة والأسوة الحسنة في العبادات والأخلاق والمعاملات،

والاستقامة على دين الله. ومن الآيات التي ورد فيها الاقتداء بهدي الأنبياء قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومن الآيات التي ورد فيها الأمر بالاهتداء بهدي الأنبياء آياتُ سورة الفاتحة التي تُقرأ في كل صلاة، إذ أرشدنا سبحانه أن ندعوَه بأن يهدينا صراطهم المستقيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، وأول من يدخل في صف المُنعَم عليهم هم أنبياء الله تعالى وأتباعهم، وذلك لقوله تعالى بعد أن ذكر جملة من الأنبياء الكرام في سورة مريم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٨].

إنَّ حياة الأنبياء عليهم السلام هي الحياة المعصومة، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة، وما أُمروا بتبليغه؛ وذلك لأن الله تعالى اجتباهم واصطفاهم عن علمٍ وحكمة، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال سبحانه عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام): ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]، وقال عن نبيّه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقال سبحانه عن علمه بمن يختار من رسله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وإن الآيات في ذلك كثيرة، والحاصل منها أن مَن اصطفاهم الله عزّ وجل واجتباهم لرسالته هم أولى بالاتّباع والاقتداء؛ وذلك لحفظ الله عزّ وجل لهم وعصمته لهم من الزلل والانحراف، ولو وقع منهم الخطأ لم يُقرّوا على ذلك، فحَريّ بمن هذه صفاتهم أن يُقتدى بهم وتُدرس حياتهم ويُتعرَّف على هديهم،

وذلك لضمان الاهتداء وعدم الانحراف، لهداية الله عزّ وجل وعصمته لهم؛ فيتم الاقتداء من المقتدين وهم في غاية الاطمئنان على صحة ما يأخذونه ويقتدون به، وسلامته من الانحراف[١].

٦ ـ إصلاح النفوس وتزكيتها :

جاء الرّسل عليهم السلام لإصلاح النفوس وتزكيتها وتطهيرها وتحذيرها من المعصية، فهم بُعثوا لدلالة الخلق على الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى المنهج القويم، وتوجيههم نحو الأخلاق الحميدة، وتنفيرهم من المساوئ الذَّميمة، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد أوضح ابن تيمية حاجة العباد إلى بعثة المرسلين في مواضع شتّى من كتبه، فمن ذلك قوله: «والرسالة ضرورية للعباد، ولا بدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي إصلاح للعالم إذا عَدِمَ الروحَ والحياة والنور، والدّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينابيعها من حياتها وروحها فهو في ظلمة وهو من الأموات»، وقد قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن، كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميّت القلب في الظلمات[٢].

وإنَّ الرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، (٣/ ١٨).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، المصدر السابق، (١٩/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

ما ينفعه؛ وحركة يدفع بها ما يضرّه، والشرع هو النور الذي يبيّن ما ينفعه ويضرّه، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً، وليس المراد بالشرع التمييز بين الضّار والنافع بالحسّ، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجم، فإن الحمار والجمل يُميِّزان بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضرّ فاعلها في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والتصديق، والإحسان، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى المماليك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه، والاستعانة به، والرّضا بمواقع القدر به والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقرّب إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به مما هو نفعٌ وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضّار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نِعَم الله على عباده وأكثرها فضلاً عليهم أن أرسل إليهم رُسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيّن لهم الصّراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أسوأ حالاً منها، فمن قَبِلَ رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردّها وخرج عنها فهو من شرّ البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم[١].

وإنّ حاجة الناس إلى الرّسل لا تماثلها حاجة، واضطرارهم إلى بعثتهم لا تفوقها ضرورة، فهم في أشد حاجة وأعظم ضرورة[٢]، وهذا ما وضّحه ابن تيمية بقوله: وليست حاجة أهل الأرض إلى الرّسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، وكحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٩/ ١٠٠).
(٢) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٧).

ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشدّ حاجة من كل ما يُقدّر ويخطر بالبال، فالرّسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده[١].

فاضطرار العباد إلى المرسلين لا يُعادله اضطرار، وحاجتهم إلى المُبشرين والمنذرين لا تماثلها حاجة[٢].

وقال ابن قيّم الجوزيّة: فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرّسل، ولا سبيل إلى معرفة الطّيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطّيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح، الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضّلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، وما ظنّك بمن إذا غاب عنك هديُه، وما جاء به طرفة عين، فَسَدَ قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووُضع في المقلاة؟! فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرّسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسّ بهذا إلا قلب حيٌّ «وما لجرح بميّت إيلام»[٣].

والرّسل هم قادة للبشر، يسيرون بهم على طريق الخير، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، ويُجنّبونهم سُبل الغواية والضّلال، وهم قدوة للناس في أخلاقهم وعبادتهم وطريق حياتهم، وقد أمر الله سبحانه باتباعهم والسّير على طريقهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠][٤].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٩/ ١٠١).

(٢) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٧).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢٨، ١٤١٥هـ، (١/ ٦٩).

(٤) رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، القاهرة، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، (١/ ٧).

٧ـ تحقيق غايات عظمى ووظائف كبرى:

كلّفَ الله عزّ وجل الأنبياء والمرسلين؛ لتحقيق غايات عظمى ووظائف كبرى وأهداف سامية، وإنني أُجمل بعضها في الأمور الآتية:

أ ـ دعوة الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ب ـ تبليغ الشريعة الربانية إلى الناس:

قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ت ـ تبيين ما أُنزل من الدِّين:

قال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ث ـ تبشير وتحذير العباد:

يكون ذلك بدلالة الأمة على الخير، وتبشيرهم بالثواب المُعَدِّ إن فعلوه، وتحذيرهم من الشر، وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه. فقد قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ج ـ إصلاح الناس:

يكون الإصلاح بالقدوة الطيبة والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ

إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

خ ـ إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه:

* قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

د ـ شهادة الرسل على الأمم يوم القيامة:

شهادة الرّسل على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلّغوهم البلاغ المبين ورسالة رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه بعض وظائف المرسلين، التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنهم يُبلّغون عن رب العالمين، فسبحان من خصّهم بهذه الرُّتبة العليّة، ومنحهم هذه الوظيفة السَّنِيّة، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عباده، ليقوموا بواجبات التكليف الرباني(١).

٨ ـ الاستفادة من سنن الله في الأفراد والشعوب والأمم والدول:

إنَّ دراسة حياة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تُعرّف البشر على سنن الله عزّ وجل في التغيير، وتعرِّفهم أيضاً على سنته سبحانه في الدفع والمدافعة، كما أنّها تكشف للدعاة إلى الله عزّ وجل ذلك الصراع الطويل المرّ بين الحق والباطل، وأن الدَّولةَ والعاقبة في نهاية الأمر للحق وأهله، وهذا كلّه لا يبرُز بوضوح كما يبرز في حياة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وصراعهم مع أقوامهم: بالحجة

(١) كتاب النبوّات، ابن تيمية، (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

والبيان، والهجرة، والجهاد، حتى أتاهم الله تعالى بنصره وتمكينه[١].

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدّمين عبرةً لنا، ولولا القياس واطّراد فعله وسنته، لم يصحَّ الاعتبار بها؛ لأنَّ الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن[٢].

ومن السنن التي يمكن التعرّف عليها من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يأتي:

- سوء عاقبة المكذبين للرسل وإهلاكهم.
- نصره سبحانه لعباد المؤمنين.
- مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء.
- زوال الأمم بسبب الترف والفساد وفشوِّ الظلم والتجبُّر على الناس.
- أنّ البشر يتحمّلون مسؤوليتهم في الخير والشر.
- أنّ انهيار الأمم وهلاكها يكون بأجل.
- أنّ الابتلاء للمؤمنين سنة جارية.
- تقرير سنة التدافع والصراع بين الحق والباطل.

*وسنأتي على دراستها مفصلة للاستفادة من السنن في قصة موسى ـ عليه السلام ـ في هذا الكتاب، بإذن الله تعالى.

٩ ـ تعليق القلوب والأرواح بالانتظام في سلكهم، والسير في موكب الأنبياء والمرسلين المبارك:

لعلَّ في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ بصدق ورغبة في اتباع هديهم ـ سبيلاً إلى الانتظام في سلكهم والسير في قافلتهم المباركة، ويُريد الله

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٢٢).

(٢) جامع الرسائل، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جدة ـ السعودية، دار المدني للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٥٥.

عزّ وجل أن يُلحق من اتبعهم بركبهم الميمون، وأن يحشرهم في زمرتهم، فيصدق قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

نسأله سبحانه أن يفيض علينا رضاه وجنته، وأن يُنعم علينا باللحاق بهذه الصفوة المباركة باتباعنا لهم، وحُبنا إياهم، وإن قَصُرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيراً، فعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وما أعددتَ لها؟» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحببت»، قال أنس: فأنا أحب النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم[1].

ويُعلّق الشيخ السعدي (رحمه الله تعالى) على صفات عباد الرحمن الواردة في آخر سورة الفرقان، ورسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أولى من تصدُق عليهم هذه الصفات، فيقول: ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجلّ هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأنقى هؤلاء السادة!. ولله منّة الله على عباده أن بيّن لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم، وبيّن لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منّ عليهم وأكرمهم ـ الذي فضله في كل مكان وزمان وفي كل وقت وأوان ـ أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاّهم، فاللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرّاً، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تُيسِّر ذلك لنا، فإنّا ضعفاء عاجزون من كل وجه، نشهد أنك إن وكلْتَنا إلى أنفسنا طرفة عين وكَلْتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك، التي بها

(١) صحيح البخاري، رقم ٦١٦٧.

خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك[١].

ثالثاً: خصائص الأنبياء والمرسلين:

* إنَّ الأنبياءَ ـ عليهم الصلاة والسلام ـ صفوة البشر وسادتهم، وهم من بني آدم، لهم خصائص البشر وصفاتهم، لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكنَّ الله عزّ وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس، وخصّهم كذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم فيها بقية البشر، وهذه الخصائص لا تُخرجهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عزّ وجل، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، ولله عزّ وجل الحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر، فلو لم يكونوا كذلك لم يكن هناك مجال للاقتداء بهم والتأسّي بأحوالهم، وما خفي علينا من الحِكَم أكثر.

وقد تحدث بعض العلماء عن خصائص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لعلنا نعرف لهم حقَّهم ونقدِّر لهم قدرهم، فنبذل لهم من الأدب والحب والولاء ما يستحقُّونه، وما يلزم ذلك من الاتّباع والتأسِّي بحياتهم وهديهم. وقبل ذكر هذه الخصائص فإنه يحسن أن نُلمَّ ببعض لوازم بشرية الرّسل التي استنكرها كل قوم على نبيهم، وذلك كما في قوله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وعجباً للقوم الكافرين كيف لم ينتبهوا لنعمة الله عزّ وجل إذ جعل الرسل بشراً من جنسهم، فجحدوا هذه النعمة واستغربوها مع ما فيها من اللطف والرفق بالعباد؛ حيث أرسل الله إليهم رسلاً من جنسهم؛ ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله تعالى، ويتمكّنوا من القيام بما يُدعَوْن إليه، ولو بُعث إلى الناس رسل من الملائكة أو من

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، مصدر سابق، (٣/ ٤٥٥).

غير جنسهم لما استطاع الناس الفقه والأخذ عنهم، ولقالوا: هم من جنس غيرنا فلا نقبل ولا نفقه عنهم، فرجع الإعراض في الأول والآخر إلى الهوى، نعوذ بالله.

● **ومن لوازم بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام:**

ـ الاتّصاف بما تتصف به الطبيعة البشرية من كونهم جسداً يحتاجون إلى الطعام والشراب والنكاح، كما أن لهم أزواجاً وذرية وآباء وأمهات وأقارب.

ـ يُصيبُهم ما يُصيب البشر من الأمراض والمكاره والسهو والنسيان والنوم.

ـ يرضَوْن ويغضبون، ويفرحون ويحزنون.

ـ يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر؛ بل إنَّ الأنبياء أشدّ الناس بلاءً.

ـ لا يعلمون الغيب إلا ما علَّمهم الله عزّ وجل.

ـ يقومون بأعمال البشر والأشغال التي يمارسها البشر، كالرّعي والتجارة وصناعة السيوف والدروع وغيرها من المهن البشرية.

ـ ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية ولا الربوبية، بل هم عبيد الله تعالى، حقَّقوا العبودية على أكمل وجه، وتبرَّؤوا من حولهم وقوتهم، واعتصموا بالله وحده، وفوَّضوا أمورهم إليه.

ومع اشتراكهم مع البشر في صفة البشرية، فلقد حقَّقوا الكمال البشري في أرقى صورة؛ لأن الله عزّ وجل اصطفاهم واجتباهم ورباهم على عينه، فكانوا أطهر البشر قلوباً، وأزكى البشر عقولاً وقريحة، وأكمل البشر وأزكاهم أخلاقاً، وأكمل البشر معرفة بربهم وعبودية له وإيماناً به، بل حتى في الصورة الظاهرة الخَلْقية كانوا أكمل البشر أجساماً وأجملهم صورة، وصدق الله العظيم: ﴿... ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهذه الصفات ـ السابق ذكرها ـ هي من مقتضيات البشرية التي يشتركون مع البشر فيها، ولكن الله عزّ وجل بعلمه الشامل وحكمته البالغة خصّ هؤلاء الصفوة من البشر بنعمة النبوة والرسالة، وخصّهم لأجلها بصفات وخصائص تفرّدوا بها عن سائر البشر وفُضّلوا بها عليهم، واستحقوا من أجلها إجلال الناس لهم،

ومحبتهم إياهم وطاعتهم لهم، واتباعهم لمنهجهم وهديهم العام، ووجب على كل قوم طاعة نبيّهم في شريعته الخاصة بهم[١].

ويمكن إجمال هذه الخصائص التي تفرّدوا بها عن سائر البشر فيما يأتي:

١ ـ اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

*قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠]، ويترتب على هذا الوحي أمور يتميزون بها عن الناس، مثل تكليم بعضهم لله عزّ وجل، ونزول الملائكة عليهم، وتعريف الله سبحانه لهم ببعض الغيوب الماضية أو المستقبلية، أو إطلاعه سبحانه لبعضهم على شيء من عالم الغيب، كما حصل ذلك للرسول ﷺ في الإسراء والمعراج، وهذه أكبر وأعظم صفات الأنبياء التي تفرَّدوا بها وأنعم الله سبحانه بها عليهم. وهذه الخاصية هي التي تُوجب على العباد طاعة أنبيائهم وقبول ما يأتون به ويأمرون وينهون؛ لأنه وحي من عند الله عزّ وجل أُمر الأنبياء بإبلاغه للناس، وهذا بدوره يُوجب على الناس توقير أنبيائهم وأقوالهم وتوجيهاتهم، ويمنع من التقدم عليهم بقول أو فعل[٢].

٢ ـ العِصمة:

هذه خاصّيّة ثانية، انفرد بها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عن البشر، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها أنبياءه، فجعلهم معصومين فيما يبلغونه للناس من العقائد والأحكام، ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عزّ وجل لا يُقِرُّه على هذا الخطأ في وقته، وأن النبي يفيء إلى ربِّه بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الذنب أو الخطأ. يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: واعلم أنَّ المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، مصدر سابق، (٣/ ٣٠).
(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، مصدر سابق، (٣/ ٣٠).

دعوى امتناع الذنوب، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزَّههم الله عنها، هؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقِين والشهداء والصالحين[١].

والذي يعنينا هنا، هو عصمة منهجهم وهديهم؛ لأنه وحي من الله عزّ وجل، وهذا يكفل لسالكه السلامة من الخلل والانحراف، ويضمن له النجاة والفوز والتمكين؛ لأنه منهج معصوم لا يعتريه ما يعتري المناهج البشرية من خلل وقصور وانحراف، وينبغي قبل أن ننهي الحديث حول هذه المسألة التنبيه على مسألتين مهمّتين:

ـ **الأولى**: وجوب التأدُّب مع أنبياء الله عزّ وجل ومعرفة حقهم، وخاصةً مع من بدر منه بعض الأخطاء التي لم يقرّهم الله عزّ وجل عليها، بل وفَّقهم لتركها والتوبة منها، حيث إن هذا لا يُنافي عصمتهم ولا ينقص من قدرهم وكمالهم، لأن الله عزّ وجل تاب عليهم واجتباهم وهداهم، ومن ذلك قوله ﷺ عن نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[٢]. فالحذر الحذر من تنقُّصهم وإساءة الظن بهم.

ـ **الثانية**: الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في قصص الأنبياء في القرآن، وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله، ومنافاتها لعصمتهم، مع أنه لا أصل لها، فهي مردودة سنداً ومتناً، فجميع الأخبار الماضية لا نقبل منها في تفسير القرآن إلا ما جاء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وما سواهما فمردود ومرفوض لأنه رجم بالغيب[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٥/ ١٥٠).

(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٣٩٥). ويُنظر: صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢م، رقم (٢٣٧٧).

(٣) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٢).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يُجزَم بكذبها، فإن معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ يقينيّة، وتلك أمور لا تُصدَّق ولا تُكذَّب فلا يمكن اتفاقهما» (١).

٣ـ تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: «والنبيُّ نائمةٌ عيناه ولا ينام قلبُه، وكذلك الأنبياء تنام أعينُهم ولا تنام قلوبُهم»(٢).

وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «إنّا معاشرَ الأنبياءِ تنامُ أعيُنُنا، ولا تنام قلوبُنا» (٣)، ويَنبَني على هذه الخاصّيّة أن رؤيا الأنبياء حقّ ووحي يُتّبع(٤).

٤ـ تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبيّ يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة» (٥)، وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول: «معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحينَ» (٦).

٥ـ يُقبَر النبيُّ حيث يموت:

صحّ عنه ﷺ قوله: «لم يُقبر نبيٌّ إلا حيثُ يموتُ» (٧). ولهذا فإن الصحابة

---

(١) تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، (٢/ ١٣٠).
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، رقم (٣٥٧٠).
(٣) الطبقات، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، (١/ ١٧١)؛ ويُنظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، رقم (١٧٠٥).
(٤) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٣).
(٥) صحيح البخاري، رقم (٤٥٨٦)
(٦) المرجع نفسه، رقم (٤٥٨٦).
(٧) صحيح الجامع الصغير وزيادته من الفتح الكبير، الألباني، رقم (٥٢٠١).

ـ رضي الله عنهم ـ دفنوا الرّسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قُبض[١].

٦ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم:

أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، فمهما طال الزّمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، وقد ثبت هذا عنه ﷺ في قوله: «إنَّ الله حَرَّمَ على الأرض أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ»[٢].

٧ ـ أحياء في قبورهم:

صحّ عنه ﷺ أنه قال: «الأنبياءُ أحياءٌ في قبورهم يُصَلُّون»[٣]، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «مررتُ على موسى ليلة أُسريَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ، وهو قائمٌ يُصلِّي في قبره»[٤].

وأمّا عن كيفية هذه الحياة، فهذا أمر غيبيّ لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف، ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدد منهم، فإنهم لا ينفعون ولا يضرّون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ..﴾ [يونس: ١٠٦].

٨ ـ لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله ﷺ: «إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورِّثُ، ما تركتُ بعد مؤونة عاملي ونفقة نسائي صدقةٌ»[٥].

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٣٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، رقم (٩٢٥).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٦٢١).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٧٥).

(٥) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م، رقم (٩٩٧٣).

والروايات التي عند الإمامين البخاري ومسلم ليس فيها: إنّا معشر الأنبياء[١]، وإنما هي بلفظ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، وقال الإمام ابن حجر رحمه الله بعد شرحه لهذا الحديث: وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ «نحن»، لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عُيينة عن أبي الزناد بلفظ: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورث»[٢]، أُخرج الحديث عن محمد بن منصور عن ابن عُيينة، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه، وأورده الهيثم بن كُليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور، وأخرجه الطبراني في (الأوسط) بنحو اللفظ المذكور، وأخرجه الدارقطني في (العلل) من رواية أُم هانئ عن فاطمة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بلفظ: «إنَّ الأنبياء لا يورثون».

قال ابن بطّال وغيره: ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ الله بعثهم مُبلِّغين رسالتَه، وأمرهم ألا يأخذوا على ذلك أجراً، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا . .﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال نوح وهود وغيرهما نحو ذلك، فكانت الحكمة في ألا يورثوا لئلا يُظَنَّ أنهم جمعوا المال لورثتهم، أما قوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النمل: ١٦] فقد حمله أهل العلم بالتأويل على العلم والحكمة، وكذا قول زكريا ﴿. . . فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝ يَرِثُنِي . .﴾ [مريم: ٥ ـ ٦]، وقد حكى ابن عبد البرّ أن للعلماء في ذلك قولين: وأن الأكثر على أن الأنبياء لا يورّثون[٣].

وقال الساعاتي رحمه الله تعالى في (الفتح الربّاني): قال العلماء: والحكمة في أنهم عليهم الصلاة والسلام لا يورّثون: أنهم لو ورّثوا لظُنّ أن لهم رغبة في

(١) صحيح البخاري، رقم ١٧٥٧.
(٢) مسند أحمد، إسناده صحيح، رقم ٩٩٧٣.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، (٨/١٢).

الدنيا لوارثهم، فيهلك الظانّ، أو لئلا يتمنَّى ورثتُهم موتَهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته، فيكون ميراثه للجميع، وهو معنى الصدقة العامة[١].

٩ ـ إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالاته :

* لقد أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله، وخصّهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصّهم الله بأخلاق سامية، وآداب عالية، وحكمة بالغة، وعزائم وعقيدة صحيحة[٢]. وقد ظهرت عناية الله عزّ وجل بنبيّه موسى عليه الصلاة والسلام، وتهيئته للرسالة، وتأييده له، كما سنبيّن ذلك بإذن الله تعالى في هذا الكتاب.

رابعاً: دين الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام واحد، ودعوتهم واحدة:

١ ـ الإيمان بالأنبياء والمرسلين من أركان الإيمان :

يُعدُّ الإيمان بأنبياء الله ورسله ركناً من أركان الإيمان، فلا يتحقَّق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ويُصدِّق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر، وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنّهم بلَّغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة، وأدَّوا الأمانة، ونصحوا الأمّة، وجاهدوا في الله حقّ جهاده.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ

(١) الفتح الربّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، دار إحياء التراث العربي، مصر، ط١، ١٩٥٨م، (١٥/ ١٩٢).

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، مصدر سابق، (٣/ ٣٦).

﴿ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ومن السنة قول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث» (١)، ولا بدَّ في الإيمان أن يؤمن العبد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله وكل كتاب أنزله(٢).

ولا يتمُّ الإيمان بأنبياء الله عزَّ وجل حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، مَنْ قصّهم الله علينا ومن لم يقصُصهم، فقد أخبرنا الله جلّ وعلا أن هناك أنبياء لم يقصُصهم علينا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، قال ابن تيمية: فنؤمن بما سمّى الله في كتابه من رُسُله، ونؤمن بأن الله سوّاهم رسلاً وأنبياء ولا يَعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائباً على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدّيت الفرائض، وأحللت الحلال وحرّمت الحرام، ووُفِّقت عند الشُّبهات، وسارعت في الخيرات(٣).

وقال أيضاً: من أطاع رسولاً واحداً فقط فقد أطاع جميع الرّسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم، فقد عصى الجميع، ومن كذّب واحداً منهم فقد كذَب الجميع؛ لأنَّ كل رسول يصدق الآخر، ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذّب رسولاً فقد كذّب الذي صدّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته(٤).

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٨.
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١١٧.
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٧/ ٣١٣).
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٩/ ١٨٠).

٢ ـ الإسلام دين الأنبياء جميعاً:

قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

إنَّ الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، فمنذ أن أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام، ودعوته إلى الإسلام، الذي هو الاستسلام لله عزّ وجل وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، ثم استمر الإسلام في ذريته عشرة قرون حتى ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح، فبعث الله نبيّه نوحاً عليه السلام بالإسلام، ثم بعث الله عزّ وجل رسله تَتْرى مُبلغةً دين الإسلام إلى أقوامهم كلما ظهر الشرك وانطفأت أنوار الإسلام(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

إذن، فإن دين الإسلام وتاريخ الإسلام بمعناه العام وُجد مع وجود الإنسان على هذه الأرض، وهو دين الأنبياء جميعاً، أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بُعث به محمد ﷺ جامعاً فيه بين الإسلام العام ـ الذي هو التوحيد ونبذ الشرك ـ وبين الأحكام الشرعية لهذه الأمة، حيث أحلّ لها الحلال وحرّم عليها الحرام، ووضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على مَن قبلها، فجاءت شريعةً كاملة ميسرة شاملة خاتمة للشرائع، صالحة لكل زمان ومكان، وهذا معنى قوله ﷺ: «أنا أوْلى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياءُ إخوةٌ لعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهم شتّى ودينُهم واحدٌ»(٢).

حيث يُوضِّح هذا الحديث أن الأنبياء كالأبناء لأمهات شتّى وأب واحد، وذلك

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤١).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٤٤٣.

لاتفاقهم في التوحيد والإسلام وأصول الإيمان والأخلاق واختلافهم في الشرائع[١].

يقول ابن تيمية رحمه الله: وهذا الدين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام، قال تعالى عن نوح: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١] إلى قوله ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠] إلى قوله ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] إلى قوله ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال في حواريِّي المسيح: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس أنّها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يُطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة كان كلا الفعلين حين الأمر به داخلاً في الإسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تتنوَّع بعض صور الفعل ـ وهو وجهة المصلي ـ فكذلك الرسل، وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك،

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤٢).

فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد(١).

ويقول الشيخ عمر الأشقر (رحمه الله): إنَّ الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً مُنزَّلة من عند الله العليم الحكيم الخبير، ولذلك فإنها تُمثِّل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن، نجد أنَّ الدين الذي دعت إليه الرّسل جميعاً هو الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء، فنوح يقول لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وإن الإسلام هو الدّين الذي أَمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ووصَّى به كلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأبناء يعقوب يُجيبون أباهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وموسى يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريّون يقولون لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، فالإسلام شعارٌ عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمّدية(٢).

---

(١) التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، فالح بن مهدي آل مهدي الدوسري، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط٣، ١٤١٣هـ، ص٣٢٢.

(٢) الرّسل والرّسالات، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت. دار النفائس، لبنان، ط٤، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٢٤٣.

٣ـ أول عقيدة في الأرض هي التوحيد:

إن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الربوبية والقوامة لله وحده، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي «قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام»، وكتابي «نوح عليه السلام والطوفان العظيم»، وإنَّ الحجج الدامغة والبراهين الساطعة والأدلة الثابتة ترفض كل ما يتخبط فيه من يُسمَّون «علماء الأديان المقارنة»، فهؤلاء وغيرهم من التطوّريين الذين يتحدَّثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخِّراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتّى من التعدّد والتثنية للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى آخر ما تأتي له هذه الدراسات المغرضة، التي تقوم ابتداءً على منهج مُوجّه بعوامل تاريخية ونفسيّة وسياسية معينة، حيث يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أنَّ الأديان من صنع البشر، وأنَّها من ثَمَّ تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان[١].

وإنّه حينما يتقرر أن دعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هي دعوة واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله عزّ وجل وتوحيده، فإننا نقصد ذلك المفهوم الشامل للتوحيد والعبادة، ألا وهو إخراج الناس من العبودية والدينونة لغير الله إلى الدينونة لله وحده بكل شمولها، وليس مجرد أن يوحّد الناس بألسنتهم، أو أن يتوجَّهوا إلى الله سبحانه بشعائر التعبد الظاهرة فقط، ثم تبقى قلوبهم ومصادر تلقّيهم وتشريعاتهم إلى غير الله عزّ وجل.

إنَّ مهمة الرّسل في رسالتهم ودعوتهم أشمل من هذا المفهوم القاصر للتوحيد والإيمان، ولو كانت الدعوة إلى التوحيد بهذا المفهوم القاصر لما استحقَّت كلَّ هذه الجهود المُضنية والتضحيات الباهظة من أنبياء الله عزّ وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام[٢].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٣/ ١٨٨٢).

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤٥).

٤ ـ دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة خالصة:

* نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة، دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثّلة فيما يَحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ولقد كنا دائماً نُفسّر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة»، ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي، فإن «عَبَد» معناها: دان وخضع وذلَّ، وطريق مُعبَّد: طريق مُذلَّل مُمهَّد، وعبَّده: جعله عبداً أي خاضعاً مُذلَّلاً، ولم يكن العربيّ الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ، وهو يُؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبُّديّة، بل إنَّه يوم خوطب به أول مرة في مكة، لم تكن قد فُرضت بعدُ شعائر تعبديّة، إنما كان يفهم منه عندما يخاطَب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله، وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره.

إنَّ توحيدَ الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يَدين لها الناس، والدينونة الشاملة، هو التوحيد الذي يستحقّ أن يُرسَل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذَلَ في سبيله كل هذه الجهود، وأن تُحتمَل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مرِّ الأزمان؛ ذلك ليس لأنَّ الله سبحانه في حاجة إليه، فهو سبحانه غنيّ عن العالمين، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان»، إلا بهذا التوحيد الذي لا حدّ لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها[1].

من كل ما سبق، يتأكد لنا أنَّ دين الأنبياء عليهم السلام واحد، وبأنَّ دعوتهم واحدة، وأنّها دعوة للإسلام، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، كما أن

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، باختصار، (٣/ ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣).

هناك أموراً أخرى اتفقت عليها جميع الأديان والرّسالات ودعت إليها، ألا وهي الأخلاق والقيم التي فطر الله الناس عليها، حيث نجد الدعوة إليها والمحافظة عليها ونبذ ما يخالفها موجود في كل رسالة، وقد تضمَّنتها دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تتغيَّر ولا يعتريها تبديل ولا نسخ، مثلها مثل التوحيد وأصول الإيمان، وكذلك برّ الوالدين، وتحريم الفواحش والظلم، وقتل النفس بغير حق، والإحسان إلى اليتيم، والقسط بين الناس، وتحريم الكِبر والفُجور، والحثّ على الكرم والوفاء، وتحريم الغدر والخيانة[١].

٥ ـ الاتفاق في الأصول والخلاف في الفروع بين رسالات المرسلين من الله تعالى:

* إنه فيما عدا أصول الإيمان والقيم الثابتة، جعل الله عزّ وجل لكل رسول شريعة خاصة به لقومه؛ شاملة وكاملة في وقتها لأهلها، وقد تختلف هذه الشرائع من نبيّ لآخر، وقد يتفق بعضها، حتى ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل على رسول الله وخاتم النبيِّين والمرسلين محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة، التي كتب الله عزّ وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا هو المعنى المأخوذ من قوله تعالى ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، ومعناه: لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعةً ومنهاجاً[٢].

ويرى الشيخ عبد الرازق عفيفي (رحمه الله تعالى) بخصوص اختلاف الشرائع واكتمالها في شرعة نبينا محمد ﷺ: أنَّ من تمام رحمة الله بعبادة ونعمته عليهم، وكمال حكمته في إقامة الحجة والأعذار إلى من سبق عليه القول منهم، أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة لكل ما تحتاجه أمته، وجامعة لكل

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ٤٧).

(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، (١٠/ ٣٨٥).

ما يُصلح شأنها، وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أوَدها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلى في جميع شؤونها، سعيدة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقّاً عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يَعلَمُه لهم، ويُنذِرَهم شرَّ ما يَعلَمُه لهم» (١).

وكذلك، فقد تضمَّنت فوق ذلك ما يُكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات على خير حال وأقوم طريق، فالأمم الماضية لما كانت تَسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وكان الوحي مستمرّاً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرُّج في الأحكام، وكان كثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئةً للأمة وتربيةً لها وسدّاً لحاجتها، أو عقوبةً لها على ظلمها وتمرّدها على شرائع ربّها، قال تعالى في رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال الله تعالى في نبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١].

وأما هذه الأمة المحمّدية، فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٨).

عليهم الصلاة والسلام، لا نبيّ بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلى يوم القيامة، كفيلةً بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظّمةً لنواحي حياتهم المختلفة، مُغنيةً لهم عمّا سواها في جميع أمورهم وشؤونهم، ولو طال بهم الأمد، واختلفت أحوالهم على مرّ الأيام والعصور حضارةً وثقافةً، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوةً، وتبدّلت أحوالهم قوةً وضعفاً وغنىً وفقراً[١].

* * *

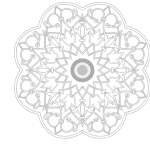
(١) الحكمة من إرسال الرّسل، عبد الرازق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٣٠ـ٣٢.

الفصل الثالث

قصة موسى عليه السلام
في سورة القصص وطه والشعراء والنمل ويونس وهود

إنها القصة الأطول في القرآن الكريم، التي تتحدَّث عن دعوة نبي الله ورسوله موسى عليه السلام، ولذا كان لا بد من الوقوف على الآيات وتفسيرها والتفكُّر بها، أي التي ركَّزت على القصة وتفاصيلها وشروحها والدراسات التي استفاضت في سردها.

* * *



المبحث الأول

قصة موسى عليه السلام في سورة القصص

قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١ ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ

بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ

بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ١ ـ ٥٠].

تفسير الآيات الكريمة في سورة القصص:

جاءت قصة موسى عليه السلام مفصَّلة في سورة القصص أكثر من غيرها، فهي تفصيل لما أُوجز في سُورتي الشعراء والنمل، حيث تعرضت لحلقات القصة المتعلقة بمولده، والتقاط آل فرعون له، ورضاعته وتربيته داخل بيت فرعون وتذبيح فرعون لبني إسرائيل، وقتل موسى للقبطي خطأ، ثم فراره إلى مدين، فسَقْيه للمرأتين، فاتصاله بأبيهما، فزواجه من إحداهما، ثم عودته ومناجاته لربه[1].

(١) تصريف القول في القصص القرآني، محمد صافي المستغانمي، مصدر سابق، ص٢٤٣.

وتتَّسم قصة موسى عليه السلام في سورة القصص بسِمات أهمها:

ـ جاءت بأسلوب فيه إطناب وتفصيل في كثير من المواضع.

ـ جاء فيها مشاهد لم تأت في غيرها، مثل: الحديث عن مولده، والتقاط آل فرعون له، ورضاعته، وفراره إلى مدين، وسَقْيه المرأتين، واتصاله بأبيهما وزواجه بإحداهما، ثم القفول إلى مصر من جديد[١].

ـ السورة على الرغم من اسمها الدال على أكثر من قصة، إلا أنها لم تعالج إلا قصة موسى عليه السلام، وكأن في ذلك إشارة إلى أن هذه القصة لما اشتملت عليه من دروس وعبر، وما اشتملت عليه من مواقف؛ فإنها تستحق هذا الاسم الجامع «القصص»، ففيها عبرة القَصَص القرآني ودلالاته جميعه، وسورة القصص تُقدِّم قصة كليم الله عليه السلام في مسار واضح محدد، فهي تتحدَّث عن بنية المجتمع، وكيف يمكن معالجة الاختلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيه؟

وقد ورد في سورة القصص حديث عن معظم الشخصيات الأساسية التي كانت في القصة القرآنية عموماً، كما قدمت تصوُّراً واضحاً عن بنية هذا المجتمع وأطراف الصراع فيه. ففي الشخصيات تحدَّثت عن مواقفها، وعن خصائصها، وعن دورها في سياق بناء المجتمع أو هدمه، **وهذه الشخصيات هي**:

- موسى عليه السلام.
- قارون.
- الملأ.
- أم موسى.
- هارون عليه السلام.
- الرجل الصالح.
- البنتان.
- امرأة فرعون.
- أخت موسى.
- فرعون.

وهناك شخصيات أخرى لم تُذكر في سورة القصص، وذُكرت في سور غيرها، وهي: السحرة، ومؤمن آل فرعون.

---

(١) المستغانمي، المصدر نفسه، ص٢٤٣.

وفي جانب المجتمع، قدمت سورة القصص ثلاثة أطراف رئيسة:

الأول: فرعون، والذي يُمثِّل حقيقة نموذج الاستبداد؛ «فهو يشكل مؤسسة ومنهجاً للاستبداد».

الثاني: الفئة المستضعفة، وتتألَّف من بني إسرائيل وبقية الشعب المستضعف.

الثالث: الفئة المسؤولة عن الإصلاح والتوجيه والإرشاد، الذي من هدفه وشأنه أن يمسّ الفئتين السابقتين، وهذه الفئة يمثلها موسى وهارون عليهما السلام، والمصلحون معه.

وآيات السورة تُحدِّد ذلك بوضوح تام؛ فهي تقدِّم لنا أولاً مؤسسة الاستبداد والظلم، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، هذه هي الفئة المستقوية التي ظَلمت وبَطشت وتَعدَّت وأَفسدت، ومارست التفريق والتقسيم بين أبناء المجتمع، والبُعد الشخصي فيها واضح وبارز، لأن فرعون جعل الأمور كلها تدور في فلكه الشخصي، ومن هنا جاءت أوصافه كثيرة ومتعددة في القرآن بما يشير إلى طبيعة هذا النموذج وخطورته[1].

وإليك سرد هذه الأوصاف التي تتصل بفرعون:

- **التألّه**: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].
- **الاستعلاء**: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].
- **الاستكبار**: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ [القصص: ٣٩].
- **الظلم**: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].
- **الإفساد**: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].
- **الخطأ والتجاوز والتعدي**: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

---

(١) القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، الدقور، مرجع سابق، ص١٦٩.

- **الفسق:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].
- **الغفلة:** ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].
- **الاستخفاف:** ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].
- **التولي:** ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].
- **الاستعباد:** ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].
- **الاستقواء:** ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].
- **مسرف مرتاب:** ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ولا شكّ في أن هذه الأوصاف لما لها من خطورة وأثر في تكريس سلطة الظلم والاستبداد، فالقرآن يبصّرنا بمنهج التعامل معها، لذلك فقد ذكرت لنا هذه السورة الكريمة مكونات هذه الفئة المستبدة، وبيّنت لنا مواقفها ومصيرها، وتقوم هذه الفئة على السعي لتحقيق مشروعها من خلال تجميع جهود مكوناتها الأساسية، وتتشكل مكونات هذه المؤسسة المستبدة مما يلي:

أ) الزعامة القيادية: فرعون. **ب) الزعامة الاقتصادية**: قارون.

ج) الزعامة السياسية: هامان. **د) الدعامة العسكرية**: الجند.

هـ) الدعامة الاستشارية: الملأ.

وذُكر في سور أخرى: الدعامة الإعلامية للاستبداد الفرعوني التي يُمثلها السحرة.

وفي مقابل هذه الفئة، تقدم لنا السورة الفئة المستضعفة المكونة من بني إسرائيل وبقية الشعب، الذي قسمته تلك الفئة المستبدة الظالمة لتجعله مُشرذَماً بشعاً وطوائف، وتوضح لنا السورة أن هذه الفئة فئة مستسلمة مستضعفة، لذلك فهي تحتاج إلى تقوية مسارها الاجتماعي وتفعيله وتحويله لتخرج من حالة الاسترقاق إلى حالة الحرية، ومن حالة الاستخفاف إلى حالة الاستثقال، وقد فصَّل

لنا القرآن الكريم في حياة هذه الفئة، وتحديداً في حالة بني إسرائيل، حيث ذكر لنا مواقفهم وتطوُّرَ حالهم، وهو ما أخذ مساحة لا بأس بها من أحداث القصة عموماً.

وإذا كان رهان أصحاب المشروع الاستبدادي في بقاء تلك الفئة المستضعفة على حالها، فإن الرهان أيضاً عند الفئة المصلحة يتمثَّل في جانبين:

١) أن يُخرجوا هؤلاء المستضعفين عن حالهم إلى حالة الوعي والرشد والفاعلية.

٢) كما أن واجبهم أيضاً منع استبداد أولئك وتعديهم وإفسادهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

إن هذه الفئة المصلحة لها مشروعها الذي تمتلكه وتعمل لتحقيقه، فإن المشروع لا يُواجَه إلا بالمشروع، والمشروع في هذه القصة يمثل منهج الدعوة والإيمان، ومنهج بناء القيم الذي يقدم للإنسان ـ مستضعفاً أو مستقوياً ـ هوية جامعة تُحقِّق له مساره الإيماني، المبني على توحيد الله تعالى وتحقيق العبودية له وحده.

وتُقدِّم السورة الكريمة (سورة القصص) هذا المشروع في معالم محددة واضحة، فإذا كان مشروع فرعون يقوم على الاستبداد والظلم والاستقواء والفساد وتحقيق مصلحة الفئة الخاصة على حساب المجتمع، فإن هذا المشروع تتكامل مقوِّماته لتُحقِّق الحرية للإنسان الذي يستطيع بها تحقيق عبوديته المطلقة، والتحرر من الخضوع لغير الله تعالى.

ويقوم هذا المشروع على أسس رئيسة هي:

١) **الارتباط بالله تعالى وإخلاص التَّوجُّه إليه**، فالله تعالى هو من يُوفِّق أصحاب هذا المشروع ويرشد سعيهم فيمُنُّ عليهم بذلك: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

٢) **وضوح هدف المشروع وقيمه**، فهي ترتبط بتحقيق قيم الدين، التي جاءت لتحرير الإنسانية، فتربطها بالله تعالى، وهذا يؤكد قيام هذا المشروع على

قيم الدين الحق، الذي جاء به جميع الأنبياء ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٣) السعي نحو نتيجة جامعة لكل أبناء المجتمع، الذين يتفاعلون مع هذا المشروع وينتمون إليه، فهم يسعون إلى تحقيق التمكين المجتمعي، الذي يقوم على تلك القيم الواضحة المحددة النابعة من الإسلام، دين جميع الأنبياء ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦].

٤) ضبط نقطة البداية وتوجيهها، فإن الفاعلية في العمل لهذا المشروع لا تتحقّق بمجرد الأماني، ولا تتم في يوم وليلة، بل تحتاج إلى إعداد، وبناء مشروع جديد لمواجهتها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فالإعداد يكون من المراحل الأولى في حياة الأجيال وبناء توجُّهاتها.

٥) شمولية المشروع واستهدافه للجميع، بحيث لا يغيب عنه أي مكون من مكونات المجتمع حتى لو كان متعدِّياً متجاوزاً، فإن له فيه مكاناً، وإن عارضه أو رفضه فإنه يحكم على نفسه بالزوال والاندثار: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦].

إن أصحاب المشروع هم الذين يأخذون على عاتقهم الوقوف في وجه كل ما يستهدف مجتمعهم، هم الذين يحرصون على المحافظة على سفينتهم وتوجيهها.

في ضوء ما تقدم يمكن أن نفهم أحداث هذه القصة وتفصيلات مواقفها، ويمكننا كذلك معرفة الجهود التي بذلها موسى وهارون (عليهما السلام) في سعيهم لتحفيز الفئة المستضعفة، وتفعيل طاقاتها وتحويل مسارها نحو النصر والتمكين، ومعرفة كل ما واجهوه في سبيل ذلك[١].

---

(١) القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، الدقور، مرجع سابق، ص١٧١ ـ ١٧٢.

إن سورة القصص نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان، نزلت هذه السورة لتضع الموازين الحقيقية للقيم والقوى، نزلت تقرر أن هناك قوّة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله تعالى، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرَّداً من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً[1].

وإليك شرح الآيات الكريمة في سورة القصص:

أولاً: قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٦]:

١ ـ ﴿طسٓمٓ﴾: حروف مُقطَّعة، أو حروف نورانية، كما يُطلق عليها، تُلفظ حرفاً حرفاً، ولذلك سُمِّيت حروفاً مقطعة، فلا تشكل كلمة «طَسْمْ» مثلاً، وإنما تُقرأ «طا سين ميم»، وهذه الحروف من أعاجيب القرآن الكريم، وكله عجيب ورائع، مُعجِب مبدع، والمقصود من هذه الحروف، كما هو معروف، تحدي أهل الفصاحة واللسان، والبلاغة والبيان، من أمة العرب التي نزل فيها القرآن، أي تحديهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل بعض سوره أو بعض آياته، فإن فعلوا فقد حُسمت مادة النزاع، وانقطع الجدال، وتوقَّف النقاش، وثبت لهم أن هذا القرآن ليس كلام الله، ومعاذَ الله بطبيعة الحال، ولكن إن عجزتم عن مجاراته ومضاهاته، وهذه حروفه حروفكم وكلماته كلماتكم، ولكن تأليف كَلِمِه بعضها إلى بعض ليس

(١) في ظلال القرآن، مصدر سابق، (٥/ ٢٦٧٤).

في مقدوركم، إن عجزتم، والأمر كذلك، فهو إذن كلام الله. وافتتاح هذه السورة الكريمة بهذه الحروف، لعل فيه تلميحاً إلى ما تتضمنه قصة موسى عليه السلام:

فكأن الطا والسين إشارة إلى طور سيناء، وكأن الميم إشارة إلى قصة موسى، وهذه مجرد ذوقيات لا مماحكة فيها ولا مماراة، فهي مما ينطبع في النفس ولا يخضع للفحص، والعجيب أن سورة الشعراء التي جاءت فيها قصة موسى مفصلة جاءت طسم، وكذلك القصص طسم، والنمل التي جاءت فيها قصة موسى مجملة جاء طس فحسب، فتأمل[١].

٢ ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾:

ـ ﴿تِلْكَ﴾: الآيات المستحقة للتعظيم والتضخيم.

ـ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: لكل أمر يحتاج إليه العباد من معرفة ربهم ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمّال، فهذا القرآن قد بيّنها غاية التبيين، وجلاّها للعباد ووضّحها، ومن جملة ما أبان قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها وأعادها في عدّة مواضع، وبسطها في هذا الموضع[٢].

٣ ـ ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون هي دليل على النبوة، وعلى المصدر الرباني للقرآن الكريم، وقد وَظَّفت الآياتُ ذِكرَ قصة موسى مع فرعون دليلاً على نبوة محمد ﷺ، فالله هو الذي يتلو على نبيه قصة موسى وفرعون ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾.

وهذه التلاوة المباشرة من الله؛ إنها تُلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين، وتشعرهم بقيمتهم العظيمة، ومنزلتهم العالية الرفيعة[٣].

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ تدل على التبعيض، وهذا

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧١).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧١).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٧٦).

معناه أن الله أخبرنا في القرآن ببعض قصة موسى وفرعون، وهي المعلومات والمشاهد واللقطات التي يعلم الله أنها تُحقِّق العِبرةَ والعظة، فالقرآن لم يُفصِّل القول في تفاصيل وجزئيات قصة موسى عليه السلام، بل إن ما عرضه منها قليل بالقياس إلى ما لم يعرضه، وهو «بعض» وجزء من جسم القصة الكبيرة.

وشِبه الجملة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في قوله تعالى ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ معناها: الصحة والصواب[١].

وقصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر، لذلك يُسمِّيه القَصَص الحق وأحسن القَصَص، لأنه يروي الواقع طبق الأصل[٢].

وغير قابلة للشك في أي خبر أو جزئية منها، فقد حصلت ووقعت في عالم الواقع كما أخبر الله، والآية الكريمة دعوة لكل مؤمن إلى الاكتفاء بالمقدار المعروض من القصة في القرآن، والوقوف أمامه بتدبُّر وتحليل واعتبار، وعدم الذهاب إلى مصادر أخرى غير موثوقة ولا يقينية، كالإسرائيليات والأساطير، بهدف استكمال المعلومات والأخبار غير المذكورة في القرآن منها، لأنها ليست حقّاً ولا صدقاً، فالحق في القصة هو ما ورد في آيات القرآن، وفيما صحّ من أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام[٣].

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: للمؤمنين يُساق الخطاب ويُوجَّه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يُقبلون به على تدبُّر ذلك وتلقّيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون به إيماناً ويقيناً وخيراً إلى خيرهم، وأما ما عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، إذ صانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٨٢).
(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط١، ١٩٩٢م، (١٧/ ١٠٨٧١).
(٣) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٢٨٢).
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٢).

٤ ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]:

تنتقل الآية من قصة موسى وفرعون إلى أحوال الناس في ذلك الزمان، وبشكل مركّز لأحداث القصة مع التلخيص والتكثيف، إذ تُظهر لنا أن فرعون علا في الأرض، وتعطينا الآية النتيجة وتصف الواقع، دون أن تفصّل كيف وصل هذا الواقع إلى ما وصل إليه، فالحاصل أن فرعون علا في الأرض، والتكثيف القرآني العجيب للمعاني يعطيكها في كلمة واحدة، ثم يشغل قدراتك أنت العقلية والنفسية والعملية والتخيلية والثقافية والاجتماعية والسياسية في تمثُّل هذه الكلمة (علا)، ولك أن تستفيد من خبرتك في دراسة التاريخ والتجمعات البشرية في تصوُّر معنى هذه الكلمة الموجزة الجامعة ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

أ ـ ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: علا: من العلو، أي: استعلى، والمستعلى عليه هم رعيته، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته، وعلا حتى على الله عزّ وجل، فادّعى الألوهية وهذا منتهى الاستعلاء، ومنتهى الطغيان والتكبر، وما دامت عنده هذه الصفات، وهو بشر وله هوى، فلا بدّ أن يستخدمها في إذلال رعيته(٢).

علا: أي: تكبّر وتجبّر وطغى.

ومن الصفات الفاسدة التي ذكرها الله عزّ وجل، ووصف بها فرعون وأمثاله، العلوُّ الذي سببه الكبر والتكبر والاستكبار، فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، والكبر مولود من «العُجب»، وذلك: أنّ ذا العُجب إذا مرّ نظره إلى من هو أدنى منه تبين له أنه ممتاز عنه لما سما به في نظرة نفسه، فيرى ذلك الغير في درجة منحطة عن درجته، فيعتقد أن مستواه فوق مستوى غيره.

---

(١) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، عَمان، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط١، ٢٠١٥م، ص٢٢٣.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١٧/ ١٠٨٧١).

فالمتكبّر يعتقد في قرارة نفسه أنه أكبر وأعظم من غيره، فيرى غيره بعين الصغر والحقارة، ويرى نفسه بعين العظمة والفخامة[١].

ومعنى العلو في الآيات: الكبر، وهو المذموم، من العلو المعنوي كالذي في قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

وللكبر آثار تظهر على الجوارح فتراه إذا مشى مع الناس يريد التقدم عليهم، وتراه إن جالسهم يصدّر نفسه في المجلس، يسرّه أن يتكلم ويسمعوا له، وألا ينطق غيره بحرف، ثم هو ينتظر من الناس أن يتلقوا كل كلمة يقولها بالقبول والتصديق كقوله تعالى ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

فالمتكبر يحتقر الناس، ويستضعف حقوقهم، ويسيء معاشرتهم، ويبث عيونه فيهم. ويزداد الأمر سوءاً إن كان ذلك المتكبر وليَّ أمرهم وراعيهم، فتنتج صفة الكبر في هذه الحالة سوء رعايته لهم، واعتداءً على حقوقهم، ويبقى ينظر إليهم بعين الاحتقار، ويرى دائماً أنه صاحب الفضل عليهم[٢].

والعُجب: هو الزّهو، ورجل معجب: مزهوّ، يكون منه الحسن والقبيح، وهذه الأمور: العلوّ والكبر والعجب؛ من أمراض القلوب المهلكة، أعاذنا الله منها[٣].

وهذه الأمراض القلبية اتصف بها فرعون، فقد قال لقومه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، فقد وهم فرعون بوحدانيته بملكه وقصوره وعبيده، فظن أن هذه النعم هي ملكه وحده، وهو أحق بها، فقد أضاف إلى نفسه ملك مصر وأنهارها،

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١٧/ ١٠٨٧١).

(٢) سورة القصص؛ دراسة تحليلية، محمد مطني أحمد خلف الدليمي، تحقيق: محمد صالح عطية، العراق، ديوان الوقف السني، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٢٨٩.

(٣) سورة القصص؛ دراسة تحليلية، محمد مطني أحمد خلف الدليمي، مرجع سابق، ص٢٨٩.

وظن أنها لن تبيد، فأدّاه عجبه بنفسه وملكه إلى ادّعاء الربوبية والألوهية.

ولكن شاءت إرادة الله تعالى، وسُنته في خَلقه بهلاك المتكبرين من الأمم والأفراد، أن ينزع عنهم النعمة التي لم يشكروها، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]. إن العاقل هو الذي إذا ما أنعم الله عليه بنعمة يبادر بشكرها، والمجنون هو من إذا ما حباه الله بنعمة تخيل أنها جاءته بجهده وعقله وذكائه، فالنعم كلها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله، يهبها لمن يشاء من عباده، كما يقول الله عزّ وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

إن أول بلاء للبشرية، وأول معصية وقعت في الكون، كانت بسبب هذا العلوّ والاستكبار، فامتناع إبليس عن السجود هو قمة الكبر والاستعلاء على أمر الله تعالى، وإن الله تعالى قد جعل هذين العنصرين من أصل وساق واحد، وهما الاستكبار والعلوّ، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٤ ـ ٧٥].

ومن عجائب موافقات القرآن: أن الآية المتكلمة عن استكبار إبليس هي الآية (٧٤)، وأن مرات ورود «فرعون» في القرآن (٧٤) مرة، وعلوّ فرعون في الأرض مقترن بخفض آخرين هم الشعب المصري، فما ارتفع أحد إلا بانخفاض طرف آخر، وما شبع أحد وأُتخم إلا بتضوّر آخر، وما انتفع أحد إلا بتضرُّر آخر، وكيف تتهمش الشعوب وتنكمش وتتقلص وتتراجع وتنكفئ وتنحط؟ هذه قصة طويلة، كيف تنتقل من الفعالية والخيرية إلى الغثائية كما حصل لأمة محمد ﷺ، هذا أمر ينبغي أن تتصدى له العقول برويّة، علّها تخرج بعلاج لأزمتها المستعصية التي امتدت قروناً.

والقرآن الكريم أعطانا مفتاحاً مهمّاً للفهم، ونافذة على التاريخ لاستقرائه ببصيرة ووعي، من أجل فهم أحداث التاريخ أولاً، وترشيد الواقع ثانياً، وتأمين المستقبل والأجيال من العثرات التي وقعت فيها الحضارات ثالثاً[١].

(١) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٤.

ب ـ ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾: جمع شيعة، وهي الطائفة التي لها استقلالها الخاص، والمفروض في الحاكم أن يسوّي بين رعيته، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف، يسلّط بعضهم على بعض، ويسخِّر بعضهم لبعض.

ولا شكّ في أن جعل الأمة الواحدة عدة طوائف له ملحظ عند الفاعل، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف، ويشغل بعضهم ببعض، فلا تستقر بينهم الأمور، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته، فيظل هو مطلوباً من الجميع.

والقبط كانوا هم من سكان مصر، والجنس الأساس بها، ثم جاءها يوسف عليه السلام واستقرّ به الأمر وصار متولِّياً على خزائنها، ثم جاء إخوته لأخذ أقواتهم من مصر، ثم استقروا بها وتناسلوا، واحتفظوا بهويتهم دون أن يذوبوا في المجتمع القبطي.

ويُخطئ الكثيرون حين يظنون أن القبطي يعني النصراني، فالقبطي يعني المصري كجنس أساسي في مصر، لكن لما احتل الرومان أرض مصر، فإن ذلك تزامن مع قدوم المسيحية، فأطلقوا على القبطي «المسيحي».

لكن ما السبب في أن فرعون جعل الناس طوائف، تستعبد كل منها الأخرى، قالوا: لأن بني إسرائيل كانوا موالين لأعدائه، ويسيرون في ركابهم، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبني إسرائيل.

والقرآن الكريم حينما يتحدَّث عن ملوك مصر يسمّيهم فراعنة، كما في قوله تعالى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾، وهنا في قصة موسى عليه السلام قال أيضاً: فرعون، أما في قصة يوسف عليه السلام فلم يأتِ ذكر للفراعنة، إنما قال: ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ [يوسف: ٤٣].

وإن هذا من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم؛ لأن الحكم في مصر أيام سيدنا يوسف عليه السلام كان لملوك الرعاة ولم يكن للفراعنة، فالمعروف للدارسين في التاريخ المصري أن الحكم الفرعوني مرَّ بحكومات عائلية مختلفة، كان منهم الملوك، ومنهم الأباطرة، ومنهم من جعل نفسه إلهاً والعياذ بالله. ففي عهد

يوسف حكم ملوك الرعاة مصر قبله وبعده، ولذلك في عهد يوسف بالذات قال: ﴿ٱلْمَلِكُ..﴾ [يوسف: ٥٠]، فلم يكن للفرعون وجود في عصر يوسف[١].

ت ـ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: يعني أنه أخذ بني إسرائيل بالاستعباد وسخَّرهم في الأعمال القذرة، فجعل هذه الطائفة محقّرة مهضومة الحقوق، ولا مساواة بينها وبين الأقباط، مع أن الجميع يسكنون في أرض واحدة وتحت سماء واحدة.

والسبب في ذلك أنه يرى أنهم غرباء عنه في النسب والدين، لأنهم كانوا يعتقدون بعقيدة تختلف عن عقيدته هو وقومه، فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ـ عليهما السلام ـ، فهم يعتقدون بإله واحد هو الله، وينكرون ألوهية فرعون، وكذلك أحسّ فرعون أن هناك خطراً على عرشه من وجود هذه الطائفة في مصر، ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها، فهم جماعة كبيرة قد يتحالفون مع أعدائه من دول الجوار، الذين كانت بينهم وبين فرعون حروب، فاحتقرهم ولم يجعل لهم دوراً في الحياة السياسية والإدارية في مصر، فجعل منهم خدماً، وفرض عليهم الضرائب الباهظة، وكلّفهم بالأعمال الشاقّة، وقام بالتصفية الجسدية في حقِّهم بذبح الأطفال واستحياء النساء.

واستخدم القرآن الكريم كلمة ﴿يُذَبِّحُ﴾ للدلالة على التكثير، أي: يذبّح بعضهم إثر بعض.

وذكر الرازي في أسباب ذبح الأبناء عدة وجوه:

١) أن كاهناً قال له: يُولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا، يذهب بملكه على يده، فوُلد تلك الليلة اثنا عشر غلاماً فقتلهم، والعجب من حمقه، لم يدرِ أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل[٢].

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١٧/ ١٠٨٧٣).

(٢) مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: سيد عمران، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ، ودار الكتب العلمية، ٢٠٢٠م، (٢٤/ ٢٢٥).

٢) وقال السدي: إن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر، فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن رؤياه فقالوا: يخرج من هذا البلد، الذي جاء بنو إسرائيل منه، رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور.

٣) ومن الوجوه: أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشَّروا بمجيئه، وفرعون كان قد سمع ذلك، فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل، وهذا الذي يرجحه الرازي[١].

قام فرعون بتعذيب بني إسرائيل بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو عذاب مزدوج لمن كان له قلب وكرامة، فقتلُ الأبناء عذاب، واستبقاء النساء للاستمتاع بهن أو لتسخيرهن في العمل الشاق والسخرة عذاب آخر يتجرَّعه مَن بقي من كبار السن، وهؤلاء الذين أبقاهم فرعون ليذوقوا على يديه الخسف والهوان.

إذن، هذا التعذيب سلاح مزدوج، فهو من ناحية يقمع طائفة هي بنو إسرائيل، وهو من ناحية أخرى يُروِّع طائفة أخرى هي شعب مصر، إذ يقول هؤلاء: اسكتوا وإلا حصل لكم وحلّ بكم ما حصل لهم وحلَّ بهم، واستَفِيدُوا من المصادرات التي يُجريها النظام في أملاك بني إسرائيل، ويردُّ بعضها إلى المصريين، واستَفِيدُوا من تسخير العمال للعمل في مزارعكم ومصالحكم. فهو بهذه الطريقة الشيطانية قسّم المجتمع فأضعفه، فصار عاجزاً عن مناجزته أو رفع الصوت في وجهه. وهذا العجز يتجلَّى أشد ما يتجلَّى إذا ما وقع المجتمع في مواجهات مع قوى خارجية غازية طامعة، فهو سينهار كبناء من قش، ليظهر العوار والتشوهات التي خَلَّفها الاستكبار على نفسية الفرد وعلى المجتمع، ونسيجه الاجتماعي والسياسي والإنتاجي والوطني وفعاليته الاجتماعية[٢].

---

(١) سورة القصص، محمد الدليمي، مرجع سابق، ص٢٩٣.
(٢) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، ص٢٢٥.

ث ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ : أي كان من الشخصيات التاريخية التي عرفها الناس بالفساد، واشتهر بذلك وتناول الناسُ أخبارَه[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ : تفيد استمراره في وصف الفساد، وتؤكد الآية الكريمة ذلك بإن، ثم تفيد «عراقته» في هذا الفساد ورسوخ قدمه فيه من خلال ﴿كَانَ﴾ وتمكُّنه منه بقوله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إنه من زمرة المفسدين المتصفين بهذه الصفة، الراسخين في هذا الخلق[٢].

٥ ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

لما بيّن سبحانه وتعالى فساد فرعون، عطف عليه نتيجته، وهي إهلاك المفسدين الظالمين، وتمكين المؤمنين المستضعفين، وقدّم هذه لتعلُّق مقصد السورة الأعظم بها، وإن كان توريثهم الأرض يقتضي إهلاك المفسدين أولاً.

والتعبير بالمضارع في هذه الآية له دلالات، أهمها:

١) استحضار الحال الذي وقع فيه، وإن كان في الماضي للاعتبار.

٢) الدلالة على التّجدد، فكلما وُجد السبب وُجد المسبَّب، فإذا وُجد الفساد أعقبه التمكين لأهل الخير الصابرين، ولذلك لم يُعيِّن الطائفة التي استضعفها فرعون بل عمَّم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للدلالة على أنها سنة ماضية، فمتى حدث استضعاف طائفة مؤمنة مستعينة بالله صابرة من طائفة باغية متجبّرة، جاء التمكين لأهل الإيمان والصلاح، والسنن لا تتخلَّف ومشيئته تعالى نافذة.

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، مرجع سابق، ص٢٤١.
(٢) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٦.

٣) دلالة على بشارة من الله تعالى للمستضعفين المظلومين بالتمكين لهم في الأرض، وجعلهم أئمة ووارثين بعد أن كانوا مُستذَلِّين مُضطهَدين.

٤) شفاء لصدور المظلومين، حيث يُريهم الله تعالى زوال الظالمين وكسر الطغاة المتجبّرين.

٥) إن الأمة المستضعفة، وإن بلغت من الضعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستولي عليها اليأس، ولا أن تخلد إلى الكسل، فقد نَجّى الله تعالى بني إسرائيل مع ضعفهم من أسر فرعون وجبروته ومكّن لهم في الأرض.

٦) المطالبة والموعظة الحسنة والكلمة اللّينة، ولابدّ من ذلك، فالأمة مادامت ذليلة مقهورة، لا تطالب بحقّها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها ودنياها ولا تكون لها إمامة.

٧) متى أخذت الأمة بالأسباب نُصرت ومُكّنت، فإن وعد الله تعالى لعباده لا يتخلّف، ولكن عليهم الأخذ بالأسباب الشرعية والدنيوية لتحقيقه.

٨) تحقَّقت هذه الآية في زمن النبي ﷺ، حيث كانت كذلك عاقبة كفار قريش وفرعونها أبي جهل، فكان زوالهم على أيدي المستضعفين من المؤمنين، الذين منّ الله عليهم ومكّن لهم في الأرض.

٩) والمهم أن نعرف كيف نتعامل مع القوى الظالمة، كما فعل النبي ﷺ، مُصاحِبينَ حسن الظن بالله تعالى والفأل الحسن، دائبين على العمل الصادق المدروس بحكمة وعلى بصيرة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] (١).

أ ـ قال الشنقيطي: قد قدمنا على قوله هنا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أنه هو الكلمة التي ذكرها في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ

(١) تدبّر سورة القصص، ناصر بن سليمان العمر، السعودية، الرياض، مركز تدبر للدراسات والاستشارات، ط١، ٢٠١٧م، ص٣٢.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة، أي قادة في الخير، دعاة إليه على أظهر القولين. ولم يبين هنا أيضاً الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه تعالى بيَّن جميع ذلك في غير هذا الموضع، فبيَّن السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فالصبر واليقين هما السبب في ذلك، وبيَّن الشيء الذي جعلهم له وارثين بقوله تعالى ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]، وقوله تعالى ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩] (١).

ب ـ قال السعدي: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونُهلك مَن قاومهم، ونخذل من ناوأهم، ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لابدّ من تمكين في الأرض بقدرة تامة ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته ﴿وَ﴾ كذلك نريد أن ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا وعَلَوا وبَغَوا ﴿مِنۡهُم﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة، ﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم، فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد الله أمراً سهّل أسبابه ومهَّد طُرقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدَّر وأجرى من الأسباب ـ التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ـ ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود(٢).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، جدة، السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، دار علم الفوائد، (د. ت)، (٦/ ٤٥١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مصدر سابق، (٦/ ٦٠٥).

ت ـ قال ابن عاشور: خصّ بالذكر من المنِّ أربعة أشياء عطفت على فعل ﴿نَّمُنَّ﴾ عطف الخاص على العام وهي: جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، والتمكين لهم في الأرض، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم، في نعم أخرى جمة، ذُكر كثير منها في سورة البقرة؛ فأما جعْلهم أئمة، فذلك بأن أخرجهم من ذل العبودية، وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها، لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها وقوة تدفع بها أعداءها، ومملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرانها، بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء، فهذا معنى جعْلهم أئمة، أي يقتدي بهم غيرهم ويدعون الناس إلى الخير، وناهيك بما بلغه ملك بني إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام.

وأما جعلهم الوارثين، فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين، ويحكِّمهم فيهم، فالإرث مستعمل مجازاً في خلافة أمم أخرى، فالتعريف في ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ تعريف الجنس المفيد أنهم أهل الإرث الخاص، وهو إرث السلطة في الأرض بعد من كان قبلهم من أهل السلطان، فإن الله أورثهم أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والآراميين، وأحلَّهم محلَّهم على ما كانوا عليه من العظمة حتى كانوا يُعرفون بالجبابرة، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

والتمكين لهم في الأرض، لتثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها، وهي أرض الشام، إن كانت اللام عوضاً عن المضاف إليه، ويحتمل أن يكون المعنى تقويتهم بين أمم الأرض المعهودة للناس، و﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ هو زوال ملكهم بسبب رجل من بني إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكهّان، ومعنى إراءتهم ذلك إراءتهم مقدماته وأسبابه[1].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، (٢٠/ ٧١ ـ ٧٢).

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٧ـ٩]:

١ ـ قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

وُلد موسى عليه السلام في ظل تلك الأوضاع القاسية التي تم رسمها قبل البدء في القصة، إذ ولد والخطر مُحدِق به، والموت يلتفُّ حوله، وشفرات السيوف مشرعة على عنقه، تهمُّ أن تحتزَّ رأسه، وها هي ذي أمه حائرة به، وخائفة عليه، وتخشى أن يصل نبؤه إلى الجلّادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين، ها هي بطفلها الصغير في قلب المخافة عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينمَّ عليه، عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة، ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة، هنا تتدخل يد القدرة، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، وتُلقي في روعها كيف تعمل، وتُوحي إليها بالتصرف.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ويا الله، يا للقدرة! يا أم موسى أرضعيه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ وهو في رعايتك، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك، وهو تحت عينيك، إذا خفت عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ (١).

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ إنه هنا في اليمِّ في رعاية الله الذي لا أمن إلا في جواره، وفي حفظ الله الذي لا خوف معه، ولا تَقرُب المخاوفُ من حماه، مع قدرة الله التي تجعل النار برداً وسلاماً، وتجعل من ثبج البحر ملجأً ومأمناً، مع عظمة الله التي لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنوا من حماها، الآمن العزيز الجناب.

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٧٩).

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ فلا خوف على حياته ولا حزن بعده.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وتلك بشارة الغد ووعد الله، والله أصدق القائلين.

هذا هو المشهد الأول في القصة، مشهد الأم الحائرة والملهوفة، تتلقى الإيحاء المُطمئِن المُبشِّر المثبِّت المريح، وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور برداً وسلاماً[١].

أ ـ قال الشوكاني في تفسير الآية: أي ألهمناها وقذفنا في قلبها، وليس ذلك الوحي الذي يُوحى إلى الرسل، وقيل: كان ذلك رُؤيا في منامها، وقيل: كان ذلك بملك أرسله الله يُعلِّمها بذلك.

وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبيّة، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى، كما في الحديث الثابت في الصحيحين[٢].

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من فرعون بأن يَبلغ خبرُه إليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وهو بحر النيل.

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ أي: لا تخافي عليه الغرق أو الضيعة، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نُرسلهم إلى العباد[٣].

ب ـ قال ابن القيم: إن فِعلَها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٧٩).

(٢) البخاري، رقم ٣٤٦٤، ومسلم، رقم ٢٩٦٤.

(٣) فتح القدير (تفسير الشوكاني)، محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، دمشق، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ، (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٤) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: عماد عامر، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (٢/ ١٤٣).

ت ـ قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: إن الوحي في عموم اللغة: إعلام بطريق خفي دون أن تبحث عن الموحِي، أو الموحَى إليه، أو الموحَى به. أما الوحي الشرعي؛ فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهجٍ لخلْقه.

فالله تعالى يُوحي للملائكة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

ويُوحي إلى الرسل: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [النساء: ١٦٣].

ويُوحي للمؤمنين الصادقين في اتّباع الرسول: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١].

ويُوحي إلى النحل، بل إلى الجماد: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وإلى الأرض: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥].

وقد يكون الإعلام والوحي من الشيطان: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ويكون من الضَّالِّين: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالوحي إلى أم موسى كان وحياً من المرتبة الرابعة بطرق مختلفة: في الرّوع، أو الإلهام، أو برؤيا، أو بمَلَك يُكلمها، وهذا كله يصحُّ، وهذا الوحي من الله، وموضوعه: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهذا أمر.

﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى ۖ﴾ نهي.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه بشارة في خبرين، فهذه الآية جمعت لأم موسى أمرين ونهيين وبشارتين في إيجاز بليغ معجز.

ومعنى ﴿أَرْضِعِيهِ ۖ﴾: مدة أمانك عليه، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، ولم يقل من أي شيء، ليدلَّ على أي مخوف تخشاه على وليدها: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

ويُراعي الحق سبحانه مشاعر الأم وقلقها على ولدها، خاصة إذا ألقته في

البحر، فيُطمئِنُها ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ لأن الله سيُيسر له تربية خيراً من تربيتك في ظل بيت الغنى والملك.

﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ أي: لفراقه، لأن هذا الفراق سيُعوضك ويعوّض الدنيا كلها خيراً، حيث يقضي على هذا الطاغية، ويأتي بمنهج الله الذي يحكم خلق الله في الأرض.

ثم اعلمي بعد هذا أن الله رادّه إليك، بل وجاعله من المرسلين، إذن: أنا الذي أحفظه، ليس من أجلك فحسب، إنما أيضاً لأن له مهمة عندي[١].

قال الدكتور أحمد نوفل: لاحِظ التوجيه العظيم لدرء الخطر والخوف المتمثل في المواجهة لا الانسحاب ولا الهروب:

﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾. ﴿فَأَلْقِيهِ﴾. ﴿وَلَا تَخَافِي﴾

إذا خفتَ، ببساطة لا تخفْ ـ يعني: واجِهِ الخوف لتنفذَ من مستنقع الخوف.

أما الفرار من الخوف والهروب منه بحثاً عن مكانٍ آمن، فهذا يُوطِّنه في النفس، ويجعل الخوف عقدةً مستديمة، وأما على صعيد علم النفس الفردي أو الاجتماعي، ومن هنا كلمة الصدّيق الرائعة الجامعة الذائعة الماتعة النافعة: اطلبوا الموت تُوهَب لكم الحياة. وكلمة سيف الله: جئتكم بقوم يُحبُّون الموت كما تحبون الحياة، من هنا وصف أصحاب النفسية الإيمانية الجهادية من صحابة وتابعيهم؛ لا يبالون أسَقَط الموت عليهم أم سقطوا هم على الموت، هذه فلسفة عظيمة لو نَعِيها ونَعقلها[٢].

إن الغنى في الاستغناء، فالغنيُّ من استغنى عن الأشياء، لا من احتاجها فكدّسها وأكثر من اقتنائها وجمعها، ومن هنا فإن النبي ﷺ كان أغنى الناس لأنه أكثرهم استغناءً عن الأشياء وعن المتاع الدنيوي الذي لا بقاء له[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٨٨٢).
(٢) تفسير القصص، أحمد نوفل، ص٢٣٦.
(٣) تفسير القصص، المصدر السابق، ص٢٣٦.

وقال أيضاً: وقد تكلَّم المفسرون كلهم عمّا حوت هذه الآية من صنوف القول، وضروب البيان، وجوامع المعاني، وصروف البلاغة وتصريف التعبير، إذ قالوا: جمعت هذه الآية بين فعلين ماضيين وأمرين ونهيين وبشارتين، وهي في سطرين[١].

إن الله تعالى من سننه الجارية في الأمم والشعوب، والمجتمعات والدول، إذا أراد شيئاً هيّأ له أسبابه، وأتى به شيئاً فشيئاً، بالتدرُّج لا دفعة واحدة، فعندما وصل الظلم إلى أقصى منتهاه، ووصل الاستضعاف إلى أسفل نقطة ممكنة، كانت تلك النقطة بداية التمكين لبني إسرائيل، وبدأت قصة التمكين وإنفاذ مشيئة الله عزّ وجل بالاهتمام بالرضيع في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧][٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾: أهذا هو الأمن؟! أهذا هو الوعد؟ أهذه هي الإشارة؟! وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من فرعون؟! وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون؟! وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون؟! نعم؛ ولكنها قدرة الله التي تتحدَّى فرعون وهامان وجنودهما.

إنهم يتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفاً على مُلكهم وعرشهم وذواتهم، ويَبُثُّون العيون والأرصاد على قوم موسى كيلا يُفلت منهم طفل ذكر، فها هي يد القدرة الربانية تُلقي بين أيديهم بلا بحث ولا كدّ بطفل ذكر، وأي طفل؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم جميعاً، وها هي ذي تلقيه بين أيديهم، مجرَّداً من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزاً أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد، ها هي تقتحم به فرعون على حصنه وهو الطاغية، السفّاح المتجبر، ولا تُتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات، ثم ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية:

---

(١) تفسير القصص، المصدر نفسه، ص٢٣٦.

(٢) تفسير القصص، المصدر السابق، ص٢٣٦.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾: ليكون لهم عدوّاً يتحدَّاهم، وحزناً يُدخل الهم على قلوبهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾: ولكن كيف يكون؟ وها هو ذا بين أيديهم، مجردٌ من كل قوة، مجرَّد من كل حيلة؟ لندع السياق يُجيب[١].

أ ـ قال ابن القيم: إنه تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدّر ذلك وقضى به، ليكون لهم عدوّاً وحزناً، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أُصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من ألا يكون له فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لفرعون وقومه ولغيره من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يَذبحُ فرعونُ الأبناءَ في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرُّفه، فذكرُ فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر، وقد أعلمنا سبحانه وتعالى أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره[٢].

ب ـ قال السعدي في قوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾: أي مجرمين، فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم ونكيد لهم، جزاءً على مكرهم وكيدهم[٣].

ت ـ وقال الدكتور زغلول النجار في قوله تعالى ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾: وهذا النص الكريم يسجل واقعة تاريخية مؤداها أن أعوان فرعون التقطوا مهد الرضيع موسى، الذي حملته تيارات ماء النيل إلى قصر فرعون، حتى يكون مصدر عداوة وحزن لهم، وسبب بلاء وقضاء عليهم، واللام

---

(١) في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٥/ ٢٦٧٩).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، (٢/ ٩١ ـ ٩٢).

(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٣).

في ﴿لِيَكُونَ﴾ هي لام العاقبة والصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدوّاً وحزناً.

وقد ختمت الآية بقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]؛ أي أنهم كانوا متعمدين الكفر بالله أو الشرك به وعصيان أوامره واقتراف المظالم والآثام والإفساد في الأرض، وهذا أيضاً حقيقة تاريخية تشهد للقرآن الكريم بالصدق(١).

والقرآن الكريم وصف حاكم مصر أيام موسى عليه السلام في أربع وسبعين آية قرآنية كريمة بفرعون، بينما وصفه في زمن يوسف عليه السلام بـ﴿الملك﴾ في خمسة مواضع مختلفة من سورة يوسف، وهو وجه من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في كتاب الله الكريم، وذلك لأن يوسف عليه السلام لم يعمل لدى أحد من فراعنة مصر، الذين كان ملكهم في زمن وجوده بمصر قد انحسر إلى جنوب البلاد، وكانت عاصمتهم طيبة «الأقصر»، وكانت لغتهم «الهيروغليفية» أي المصرية القديمة، التي لم يكن يوسف عليه السلام يعرفها.

وهذه اللمحة التاريخية على بساطتها هي من جملة البراهين على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العليّة في نفس لغةِ وحيه «اللغة العربية» على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهّد بهذا الحفظ تعهّداً مطلقاً، ليَبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم يبعثون؛ بأنه كلام رب العالمين، وشاهداً للرسول الخاتم الذي أكرمه الله بالنبوة والرسالة. ومن الثابت أن رسول الله ﷺ بُعث خاتماً للأنبياء والمرسلين في سنة (٦١٠هـ) أي بعد أكثر من (٢٢٠٠) سنة من وفاة أخيه يوسف بن يعقوب عليه السلام، وبعد أكثر من (١٧٠٠) سنة من وفاة أخيه هارون بن عمران عليه السلام، فالله الخالق الحكيم

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول نجار، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، (٢/ ٦٢٣).

العليم هو الذي أخبر رسول الله بقصّة هذين النبيِّين الكريمين[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]:

أ ـ قال ابن كثير: يعني: أن فرعون لما رآه همّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل، فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاجّ عنه وتذبّ دونه وتُحبِّبه إلى فرعون.

﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ فقال: أمّا لك فنعم، وأمّا لي فلا، فكان كذلك، وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه.

وقولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه.

وقولها: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولداً وتتبنّاه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالى ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة[٢].

ب ـ قال السعدي: لما التقطه آل فرعون حنّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة «آسية بنت مزاحم»، وقالت: هذا الولد ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ أي: أبقِهِ لنا لتقرَّ به أعيننا ونُستَرَ به في حياتنا.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نُرقِّيه إلى منزلة أعلى من ذلك ونجعله ولداً لنا، ونكرمه ونُجِلُّه.

فقدّر الله تعالى أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبّاً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبُر ونبأه

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٦٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مصدر سابق، (٦/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه سبحانه وتعالى، فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر(١).

ت ـ قال ابن عاشور: ويتضمن قولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾: إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه، لأنه لما انضمَّ في أهلهم وسيكون ربيبهم، فإنه يُرجى منه نفعُهم، وأن يكون لهم كالولد، فأقنعت فرعونَ وفق الأحوال المُجرَّبة في علاقة التربية والمعاشرة والتبنِّي والإحسان، وأن الخير لا يأتي بالشر، ولذلك وقع بعده الاعتراض بقوله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وفرعون وقومه لا يعلمون خفيَّ إرادة الله من الانتقام من أمة القبط بسبب موسى(٢).

إن الله عزّ وجل قذف محبة موسى عليه السلام في قلب امرأة فرعون، فقد أمر قلب تلك المرأة أن يحب هذا الوليد، وما يملك قلبها إلا تنفيذ أمر الله، لأنه جندي من جنود الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وجملة ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ تُلقي ظِلاًّ طيباً رفيعاً، فكأن محبة الله تحوّلت إلى شيء مادي مجسم أشبه ما يكون بغطاء دافئ، وهذا الغطاء يُلقى على موسى الوليد الصغير إلقاءً، غطاء مصنوع من مادة رقيقة شفافة اسمها «محبة الله».

هذه المحبَّة الدافئة ألقاها الله على موسى الوليد إلقاءً في قصر فرعون المتألّه الطاغية، فكانت تعويضاً له عن حنان حضن أمه الدافئ، الذي حُرم منه إلى حين، وكانت سبباً في حمايته وحفظه ونجاته من خطر فرعون وزبانيته وجزّاريه، هذه المحبة التي ألقاها الله عليه هي حنان امرأة فرعون وشفقتها عليه ورأفتها به.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مصدر سابق، (٣/ ١٢٧٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٠/ ٧٩ ـ ٨٠).

وهكذا صار الوليد آمناً في قصر فرعون بعدما تبنّاه فرعون وامرأته[١].

إن امرأة فرعون كانت جُنداً من جند الله تعالى، فكان سبباً بأن حماه الله بالمحبة بسبب ذلك الستار الروحي الرقيق، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، فهي حمته بالحب الحاني في قلب امرأة، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره، وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف.

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾: وهو الذي تدفع به يد القدرة إليهم، ليكون لهم ـ فيما عدا المرأة ـ عدوّاً وحزناً ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وهو الذي على يده مصرع فرعون وجنده.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: وهو الذي تُخبِّئ لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلاً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: فيا للقدرة القادرة التي تتحدَّاهم وتَسخر منهم وهم لا يشعرون!

وينتهي المشهد الثاني ويسدل الستار عليه إلى حين، ذلك شأن موسى. وقبل أن نتحدث عن أمه الوالهة وقلبها الملهوف[٢]، نعرّف بشخصية امرأة فرعون.

ث ـ امرأة فرعون:

اسمها الثابت «آسية»، وقيل إن اسم والدها مزاحم، مَنَّ الله تبارك وتعالى عليها بكفالة نبيه موسى عليه السلام صغيراً، وقد آمنت به كبيراً، كما أعانها عزّ وجل على تحمُّل الأذى في سبيل ثباتها على الدين، فكان ثوابها عند الله عظيماً، فالقرآن الكريم حدثنا عن موقف مشرف لهذه المرأة قبل إيمانها في دفاعها عن نبي الله موسى عليه السلام لدى فرعون واستيهابها له منه، وقد أراد قتله، وهذا جعلها سبباً رئيساً في نجاته من القتل والإبقاء على حياته ليكبر بعد ذلك ويبعثه الله رسولاً، ويكون هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يديه[٣].

---

(١) القصص القرآني، الخالدي (٢/ ٢٩٩).

(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٠).

(٣) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام وتطبيقاته في الأسرة، جوهرة عبد العزيز=

ولفضل آسية زوجة فرعون وعلوّ شأنها ورفعة مقامها، في الدنيا والآخرة، عدّها رسول الله ﷺ من النسوة الكمّل، من خير نساء العالمين وأفضل نساء الجنة، فعن أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: «كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط ثم قال: «تدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(٢).

ـ نموذج للتفاؤل «امرأة فرعون»:

في قوله تعالى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، ففي الوقت الذي التقط فيه آل فرعون تابوت موسى عليه السلام من الساحل، وحملوه إلى فرعون، وقفت امرأة فرعون تحاجّ عن الطفل الصغير، وتذبُّ دونه، وتُحبِّب آل فرعون به. وقد حنَّن الله قلبها عليه وعطّفه، وحبَّبه إليها كأشد ما يكون الحب ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فرجَت نفعَه وتوسَّمت فيه الخير، فتركه فرعون واستحياه، وكان موسى عليه السلام سبباً في انتفاعها به وإنقاذها من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى النور، ورفع منزلتها ومقامها في الدنيا والآخرة.

وإن هذا الخطاب الرائع في متانته ورقته وإقناعه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ

= السيف، رسالة ماجستير، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٣م، ص٩٣.

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٤١١.

(٢) صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء، سليم بن عيد الهلالي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (٢/ ٦٣١).

عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ له أثر في أعظم طاغية عرفه التاريخ البشري، فحمت موسى عليه السلام بتعاطفها وحُبِّها.

وفي قول آسية امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ فضل الفأل الحسن، وقد نالها ما رجَت من النفع؛ أما في الدنيا فهداها الله به، وجعل لها أحسن الثناء في الآخِرين بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فاستعملها الله سبحانه وتعالى بطاعته، وصيَّرها إلى فسيح جنته.

لقد ظهرت آسية بنت مزاحم في حياة موسى عليه السلام صاحبة دور وأي دور؛ إنه دور الأم والمربية والحاضنة، ثم مؤمنة بالرسالة متبرئة من فرعون وعمله، داعية إلى الله تعالى أن يبدلها قصرها في الدنيا ببيت في الجنة[١].

ـ قدوة في الصبر «امرأة فرعون»:

صبرت على تكاليف الإيمان، وتعرضت للأذى والتعذيب، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، كانت ترى بيتها في الجنة[٢].

كانت كلمة واحدة تُنقذها من القتل البشع، وتُعيدها لترفُل في النعيم، صاحبة التاج في مصر، فماذا اختارت آسية بنت مزاحم؟ اختارت رضا الله والقرب منه ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، لقد اختارت كما يقول العلماء: الجار قبل الدار، اختارت ربها فقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ولم تقل: رب ابن لي بيتاً في الجنة، ولقد حقَّق الله الأمل والرجاء بعد أن صبرت على البلاء والتضحية[٣].

إن الإيمان ليس كلمةً تُقال، إنما حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء،

---

(١) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام، مرجع سابق، ص٩٦، ٩٧.
(٢) صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنبياء، سليم بن عيد الهلالي، مرجع سابق، (٢/ ٦٢٩).
(٣) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام، مرجع سابق، ص١٠٣.

وجهاد يحتاج إلى صبر واحتمال، فلا يمكن أن يقول الناس: آمنّا، وهم لا يُتركون لهذه الدعوة، حتى يتعرَّضوا للفتنة فيثبتوا عليها، ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تَفْتِنُ النارُ الذهبَ لتفصل بينه وبين هذه العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا أصل الكلمة اللغوي، وله دلالته وظله وإيحاؤه، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب(١).

امرأة فرعون «آسية بنت مزاحم» آمنت بالله عزّ وجل، ورأت النور بقلبها، فعذَّبها فرعون، ولكنها صبرت وتعلقت بالله تعالى، وناجته ودَعَتْه فاستجاب الله دعاءها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

إن القرآن الكريم حدثنا عن نموذج من عالم النساء، اختارت العبودية المطلقة لله تعالى، فتحقَّق لها ذلك يوم أن صدقت مع الله، فصدق الله معها: فالمرأة في القرآن لا يُؤثِّر عليها وهي صالحة فسادُ الرجل وطغيانه، ولا ينفعها وهي غير صالحة صلاحُ الرجل وتقواه، فإنها ذات مسؤولية مستقلة فيما يتعلق بشؤونها أمام الله، فلا شكّ إذن في اهتمام القرآن بالمرأة، من حيث تسويته بين الرجل والمرأة أمام التكليف الشرعي والجزاء الأخروي، وأن كلاًّ منهما مسؤول عن نفسه مسؤولية مستقلة عن الآخر(٢).

هذه «آسية بنت مزاحم» امرأة فرعون وسيدة مصر الأولى، تُضرب مثلاً طيباً للمرأة المؤمنة الصالحة في البيئة الفاسدة، المرأة التي واجهت الإغراءات والمساومات والترغيب والترهيب والتعذيب بصبر وثبات، المرأة التي لم تغترَّ بجمالها ولم تغترَّ بسلطانها، المرأة التي تتخلَّى عن المتع الفانية والأعراض الزائلة وتتطلَّع إلى ما عند الله تعالى.

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧٢٠).

(٢) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام، المرجع نفسه، ص١٠٤.

فآسية هي تلك المرأة التي ترتقي إلى أعلى الدرجات في عالم المرأة، ويقترن ذكرها بمريم بنت عمران، وبخديجة بنت خويلد، وبفاطمة بنت محمد ﷺ، لم تصل إلى هذه المكانة الرفيعة بجمالها ولا بمالها ولا بسلطانها، وإنما وصلت إليها بإيمانها وعملها الصالح ودعوتها إلى الحق، ألا ما أحوجنا في عصرنا هذا إلى مثل هذه الأمثلة الرائعة وهذه النماذج الطيبة[١].

إن آسية بنت مزاحم كانت نموذجاً في الثبات وصلابة الإيمان وقوة المعتقد، ولم يضرَّها كفر زوجها وطغيانه، إذ كانت مؤمنة بالله، لأن من أحكام الله في خلقه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢].

ـ حال آسية بنت مزاحم مع الدعاء:

ها هي ذي امرأة فرعون، لم يصدَّها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرَّأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها منه شيء، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش معهم.

أبصرت آسية النور، وأبصرت طريق الحق، وأبصرت طريقاً محفوفاً بالدماء والأشلاء، ومع هذا قدرت أن تسير مهما كانت معالم هذا الطريق.

وحين علم فرعون بإيمانها تفنَّن في تعذيبها والتنكيل بها، فصبرت ثباتاً على مبدئها، واحتساباً لأجرها على الله، ورفضت كل المساومات، واستعاذت بالله من الفتنة في الدين، والتجأت إليه في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط فرعون، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي[٣].

في وسط هذا كله، رفعت رأسها إلى السماء واختارت جوار الله والدار

---

(١) المرأة في القصص القرآني، أحمد محمد الشرقاوي، حلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١١م، (١/ ٤٢٧).

(٢) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام، مرجع سابق، ص١٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١١١.

الآخرة على العيش في البيئة الآسنة الفاسدة قائلة: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

يا الله؛ دعوة شاملة كاملة فيها مقاصد عديدة ومتطلبات كثيرة، بدأت فيها بلفظ «ربِّ»، وذلك تمجيداً لله سبحانه، ثم طلبت أن يبني لها بيتاً، وقد حددت مكانه قبل أن تحدد وصفه، ولم ترض بأي منزلة، ولم تقل عند نبيك موسى أو هارون، بل قالت (عندك) أنت، وهنا يدل على سمو النفس ورفعتها، ثم ذكرت بعدها (الجنة)، فهي لم تطلب الدنيا وشهواتها بل طلبت الآخرة، فخصّت فرعون لأنه هو أساس البلاء والفساد، وبدأت بالخاص قبل العام، فقالت: فرعون، ثم عمله، ثم القوم الظالمين، فلله درّك ما أفهمك وما أعقلك! فاستجاب الله لها، وقبضها إليه، وبنى لها بيتاً في الجنة، وكان ثوابها عنده عظيماً، ورفع مقامها في الدنيا والآخرة، وجعلها مثلاً خالداً في كتابه لعباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] (١).

ـ أنموذج آسية في الولاء والبراء:

لقد ضربت لنا آسية بنت مزاحم أروع الأمثلة في الولاء والبراء، فكانت أنموذجاً في الثبات وصلابة الإيمان، ولم تخشَ من سطوة زوجها، بل استعلَت على كل هذه المغريات ووقفت أمامها بصلابة وتبرأت من فرعون وقومه، ووقفت وهي المرأة ضعيفة الخلقة تتحدَّى فرعون أعتى أهل الأرض وأشدهم طغياناً، ومن سيرتها في القرآن الكريم نلاحظ أن الولاء والبراء صفة أولياء الله، فهو تعالى وليّهم وناصرهم ومُغنيهم ومُجيب دعوتهم.

ولقد كانت آسية بنت مزاحم رضي الله عنها قوية الإيمان، مطيعة لله ورسوله، سريعة الاستجابة للدين، مبغضة لأهل الكفر والضلال، كما كان ولاؤها لموسى

(١) المصدر السابق، ص١١٢.

عليه السلام، وبراءتها من فرعون وعمله، وطلبت النجاة منه، ومن عمله، ومن القوم الظالمين[١].

ـ قوة إرادة امرأة فرعون واستقلالها في التفكير:

من خلال نموذج امرأة فرعون يُثبت القرآن الكريم أن المرأة ـ وخلافاً لما أُشيع عنها من أنها تُمثِّل كائناً ضعيف الإرادة منقاداً للتأثيرات المختلفة، فمن الممكن أن تكون على العكس من ذلك ـ نظيرة للرجل، بل أحياناً أقوى في قوة الإرادة واستقلالية التفكير وعدم الخضوع لأي تأثير يتنافى مع قناعتها ورُؤاها، بل والجهاد والكفاح وتحمُّل المصائب في سبيل القناعة الإيمانية ونورها الرباني.

فقد ناظرت ونافست في مجال الدعوة إلى الله وفعل الخير وحماية المستضعفين، وكانت تمتلك من القدرات والاستعدادات ما يجعلها تُحكِّم تفكيرها وعقلها فيما يُعرَض عليها من الأمور، ثم تختار الأصح والأصلح على ضوء ذلك التفكير، ومن ثم تجاهد وتصمد وتقاوم في سبيل تلك القناعات[٢].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠ ـ ١٣]:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]:

يقول تعالى مُخبراً عن فؤاد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم.

---

(١) المصدر نفسه، ص١١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مصدر سابق، (٦/ ٢٣٣).

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: إن كانت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبّتها وصبّرها، قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

والتعبير بالفؤاد المقصود به قلب القلب، أي أن المأساة في الأعماق، عميقة الغور، نافذة إلى الصميم مثلما هو اللب، عقل العقل أو مركزه، فكذلك الفؤاد بالنسبة إلى القلب، وأما وصف «فارغاً» فهو كذلك عجيب، فهل هي تعني زوال ما يمسك القلب من التداعي؟ أو هي تعني أنه مُتفرِّغ من كل شيء إلا من شيء واحد وهَمٍّ واحد هو همّ الولد؟ النص مطلق والفراغ شامل والمعنى عام.

ثم ذُكرت من علامات هذا الفراغ ومؤشراته أنها أوشكت أن تخرج إلى الشارع صائحة نائحة، معلنة عن مشاعرها، مُفصِحة عن مأساتها بفقد ولدها، مظهرة فجيعتها، ولو كانت فعلت لقتلت وليدها، لأنه سيُقطع يقيناً بأنه من بني إسرائيل، وهذا كفيل بقتله، إنها كادت أن تفعل ذلك لولا أن الله ربط على هذا القلب، فلم تندلق منه مشاعره، ولم تنفلت منه أحاسيسه، وهذا من تعهُّد الله لأوليائه، فقد ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، فكأن من علامات الإيمان أن يتحكم الإنسان في مشاعره ـ بمعونة الله ـ وخاصة الأحزان(٢).

أ ـ قال السعدي: لما فقدت موسى أمُّه، حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف ووعدها بردّه.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تُبدِ به ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه، ودلَّ

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، (٦/ ٢٣٣).
(٢) تفسير القصص، ص٢٤١.

ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه[١].

ب ـ قال ابن تيمية: وهذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور؛ إما حبّ وإما خوف وإمّا رجاء، يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء إلا عمّا قد أحبّه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره[٢].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١١ ـ ١٢]:

أ ـ قال ابن كثير: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾: أي أمرت ابنتها، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره وتطلَّبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، قال ابن عباس: عن جانب.

وقال مجاهد: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده[٣].

ب ـ قال السعدي: ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: اذهبي فقُصّي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه من غير أن يحسَّ بك أحد أو يشعروا بمقصدك، فذهبت تقصّه.

ـ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أبصرته على وجه كأنها مارّة لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته وجاءت إليهم قاصدة لظنّوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه؛ عقوبةً لأهله[٤].

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٤).

(٢) العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، الإسماعيلية، مصر، دار الأصالة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١١٧.

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، (٢٥/ ٢٣٧).

(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٤).

ـ ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: تحريماً قَدَريّاً، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة، فلما رأتهم «أخته» حائرين فيمن يرضعه، قالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾؟

قال ابن عباس: لما قالت ذلك أخذوها، وشكُّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في رجاء منفعة الملك، فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، وأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاءً جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببتِ أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصّلات والكساوي والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضيّة، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمناً في عزّ وجاه ورزق دارّ[١].

قال القرطبي: هذا تحريم منع، لا تحريم شرع[٢].

وقال السعدي: ومن لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول ثدي أيٍّ امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال: ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾، وهذا جلّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبّاً شديداً وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا

(١) تفسير القرآن العظيم، (٦/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي الأندلسي، القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، (١٣/ ١٧٠).

البيت بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلّتهم على أهل هذا البيت[١].

ونلاحظ في الآيات السابقة الحسّ الأمني الرفيع عند أم موسى عليه السلام وأخته، فمثلاً:

استخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها في حفاظها على ابنها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، والتَّقصِّي إنما هو تتبُّع الأثر وجمع المعلومات.

اختيار العنصر الأمين والحريص في جمع المعلومات لتكون صحيحة وموثوقة وأمينة، وقبل ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾؛ فأم موسى عليه السلام لم تختر غير أخته، لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك المصلحة، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات وتحصيل الأخبار، والمهم بمكان أن يكون العنصر المرسل في عملية الاستخبارات مندفعاً من ذاته، حريصاً على المصلحة المرسل إليها.

التَّقصِّي والتتبع دون إشارة أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾، إذ نفهم من كلمة التَّقصِّي الانتباه وعدم إثارة الأنظار، ودليل ذلك أنها بصرت به دون أن يشعروا بها.

دقة الملاحظة وقوة الفراسة أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

استخدمت أخت موسى عليه السلام شكلاً من أشكال الاستخبارات العصرية، وهو التخريب الفكري، فبعد أن نظرت إليهن وهن غير قادرات على إرضاعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، وقد قصدت إبعاد موسى عن المراضع ليخلص إلى أمها دون إشعارهم أنها منه بسبيل.

محاولة تحقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتفِ بأن

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٤).

تعرف مكان موسى لتخبر أمها بمكانه، وإنما تقصّت الأخبار، وتوصّلت إلى مكانه، وحاولت إعادته إلى أمه، وقد نجحت في هذا[١].

● **شخصية أخت موسى عليه السلام:**

ظهرت أخت موسى عليه السلام في سورة القصص مُكمِلةً لما بدأته أمها من إلقاء المولود في اليمّ، ومن خلال الآيات الكريمة التي تحركت في إطارها هذه الشخصية نلمح فيها صفات محكمة البناء والصنعة، ظهرت بثوب فتاة ذكية فطنة وحذرة وذات أسلوب سلس حصيف، فقد استطاعت بواسطته أن تُعيد أخاها إلى أمها دون أن تُشعر بذلك أحداً من الطغاة، بالرغم من حرصهم الشديد على التنبيه إن كان هذا الطفل من بني إسرائيل، فيتم القضاء عليه كباقي أفرادهم السابقين.

وذكرت القصة أخت موسى عليه السلام في موقف المعاضد والمساند الذي يؤدي دوراً ويحمل أمانة ويسد لبنة البناء الإيماني، وكانت على قدر كبير من الفطنة والمسؤولية والنشاط والوعي والفهم وتقدير الأحداث وأخذ القرار الصواب[٢].

كما ظهرت رابطة الجأش متحكمة في أشواقها الأخوية ومشاعرها الإنسانية نحو أخيها، وحازمة في تنفيذ مهمتها بدقة متناهية واقتدار كبير.

٣ـ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]:

لم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة أو نحوه، والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه

---

(١) الاستخبارات العسكرية في الإسلام، عبد الله علي السلامة المجيد، إشراف الدكتور يوسف علية محمود، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١١١ ـ ١١٢. وراجع كتاب: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، بيروت، دار المعرفة، ط٥، ٢٠٠٩م، ص٣٠٨.

(٢) قصة موسى في القرآن: دراسة فنية، كلثوم صالح مقابلة، رسالة ماجستير، كلية الآداب في جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠١٢م، ص٧١ـ٧٢.

بعد كل همٍّ فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، وقد وردت آيات القصص في ذلك:

قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: به، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليه.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فيما وعدها من ردِّه إليها، وجعله من المرسلين، فحينئذ تحقّقت بردّه إليها أنه سيكون من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً.

وقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس، وعاقبته محمودة في الأمر نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] (١).

أ ـ قال السعدي: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، بحيث إنه تربّى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً، ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فإذا رأوا السبب مشوشاً، شوّش ذلك إيمانهم لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشّاقة بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربَّى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يُستنكَر ملازمته إياها وحنوّه عليها، وتأمل هذا اللطف وصيانة نبيه موسى من الكذب في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٦/ ٢٣٤).

منطقه، وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها الذي بان للناس هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمّاً، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره كله صدقاً وحقّاً[١].

ب ـ قال ابن عاشور: وموضع العبرة من هذه القصة: أنها تتضمن أموراً ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين، وموعظة للمشركين.

فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدره هو كائن لا محالة كما دلّ عليه قوله ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿يَحْذَرُونَ﴾، وأن الحذر لا يُنجي من القدر.

وثانيه: إظهار أن العلوَّ الحق لله وللمؤمنين، وأن علوَّ فرعون لم يُغنِ عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد، ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

وثالثه: أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه والأخذُ بنصر المستضعفين، ليحذرَ الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم، وليرجوَ الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

ورابعه: الإشارة إلى حِكمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانب فرعون، إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قِبَل مَن أمَّلوا منه النفع أشدُّ عبرة للمعتبر، وأوقع حسرة على المستبصر، وأدلُّ على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قوله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقُّل أن تُستأصل أمةٌ كاملة لتَوقُّعِ مُفسدٍ فيها، لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذِّر فلا يكون

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٥).

المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد، فتحصل مفسدتان هما: أخذ البريء وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغٌ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولما قدّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال، ابتداء من إلقاء موسى في اليمّ إلى أن رَدّه إلى أمه، فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين ﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وليتوسموا من بوارق ظهور النبي محمد ﷺ، وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة، أن ما وعدهم به واقع بأَخَرة.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين ظهراني المفسدين يُخفِّف من لأواء فساد المفسدين، فإن وجود امرأة فرعون كان سبباً في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقّق أنه إسرائيلي فقالت امرأته: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ كما قدّمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفرّ لهم منه.

وعاشره: ما في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يُؤتى من جهله النظر في أدلة العقل[1].

ت ـ أم موسى عليه السلام:

شَرَّفها الله سبحانه وتعالى بأمومة نبيه موسى عليه السلام، وجعلها مباركة على قومها حين ولدت لهم من كان سبب إهلاك عدوِّهم، وإنقاذهم من حياة

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٠/ ٨٥ ـ ٨٦).

الذل والمهانة التي كانوا يرزحون تحت أغلالها. وهي أم لنبيَّين من الأنبياء، وهما: موسى وهارون، ولقد ابتُليت هذه المرأة بموقف من أشد المواقف وأصعبها فثبتت فيه[١]. وظهرت بشخصيتها من خلال الأحداث التي ذكرها الله تعالى في سورة القصص فهي:

امرأة مؤمنة بقضاء الله وقدره، مطيعة لأوامر الله تعالى، وموقنة بتحقيق وعد الله، وصابرة على الأحداث التي تعرَّضت لها[٢]، ومُتوكِّلة على الله.

شخصية تُقدِّم لنا درساً مهمّاً في امتثال أمر الله واليقين بوعد الله، فقد سلّمت وليدها للقدرة الإلهية والعناية الربانية، وهذا دليل على ثقتها بالله، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجريانه إلى حين ينتهي أو يقف، ولولا علم الله المسبق بإطاعة أم موسى لأوامره ما أمرها لله عزّ وجل بإلقاء موسى في اليم، ولولا اطمئنان أم موسى لليم ما استسلمت وألقت بولدها فيه.

إن عاطفة أم موسى الإيمانية تدعوها إلى تنفيذ أمر ربها، وتأمرها بالتوكل عليه والثقة به، وعاطفة أمومتها الحانية التي تعزَّزت لديها بعد أن أرضعت وليدها تدعوها للتمسك بالطفل ولو ذُبح أمامها، فربما كان أهون من إلقائه إلى مصير لا تعلمه، وفي هذا قدَّمت أم موسى درساً عظيماً في التوكل على الله، واليقين بوعده، وتعظيم أمره، وتقديمه على كل أمر[٣].

تبرز عاطفة الأمومة والحنوّ على الابن في شخصية أم موسى عليه السلام بوضوح، فالأمومة من وراء الحمل والولادة والإرضاع قانون روحي تنفرد به الأم دون الأب لتؤدي به النسل، غير غذاء الرحم واللبن وغير وراثة النوع ووراثة

(١) الدور التربوي للمرأة، مرجع سابق، ص٥٦.
(٢) قصة موسى في القرآن، دراسة فنية، كلثوم صالح مقابلة، ص٦٨.
(٣) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام، مرجع سابق، ص٥٩.

ما لأمه من صفات؛ فقانون الأمومة أراده الله سبحانه وتعالى ليتوصل به إلى إنسانية الولد، وتجعل صلته بأبويه صادقة في المحبة والتقدير والاحترام والمودة.

وفي عودة موسى إلى أحضان أمه درسٌ مهم في التربية، فلقد أراد المولى عزّ وجل لموسى الكليم عليه السلام أن يتربَّى في حجر أمه، وهي أم صالحة أمينة على ولدها في تربيته تربية إيمانية رشيدة[١].

إن أم موسى عليه السلام كانت محفوفة بالعناية الربانية والرعاية الإلهية هي وابنها، ولذلك رأت من ألطاف الله ما أثلج صدرها وزاد يقينها ومحبتها لربها واعتمادها عليه، ومن ألطاف الله بها: رجوع موسى إليها وإلى إخوته لينال من برهم وعطفهم بعيداً عن الخوف والفزع، إنها أقدار الله وتدابيره في خلقه.

رابعاً: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤ ـ ١٧]:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]:

في هذه الآية نقلة نوعية كبرى في حياة الكليم موسى، وهنا لا أقصد المكان إنما أقصد الزمنية، فقد طوت كلمة ﴿وَلَمَّا﴾ من عُمرِ موسى عليه السلام ما لا يقل عن سبعة عشر عاماً، فبينما كانت الآية السابقة تتحدَّث عن المراضع، فهذه الآية تتحدَّث عن بلوغ الأشد، وهو في حدود العشرين أو قبلها بقليل أو حواليها.

وهذه طريقة القصص القرآني في طي المراحل العمرية التي لا أحداث مهمة

(١) الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام، المرجع السابق، ص٧٥.

فيها وصولاً إلى الأحداث المهمة، ففي هذا المشهد الذي انتقل إليه السياق سيطرأ حدث يكون له في حياة موسى أبلغ الأثر، فسيترتب عليه انتقاله من مصر إلى مدين، وغيابه عن مكان مولده عشر سنين، ثم إن هذا الحدث الذي قصّه المشهد الذي نحن بصدده الآن فيه قتل القبطي، وهو الموقف الذي ظل هاجساً مُؤرِّقاً لموسى عليه السلام خوفاً من ربه، وظل نقطة استغلال يحاول فرعون من خلالها تأليب الشعب عليه.

على كل حال، نعود إلى النص القرآني الكريم، حيث طُويت السنون عند مرحلة الرجولة بعد الطفولة، فإن موسى عليه السلام عندما بلغ أشدَّه واكتملت قوته[١]، والأشدّ: يعني القوة واكتمال النمو، ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ أي: بلغ عقله مرحلة النضج الفكري، فاكتملت لموسى عليه السلام قوة الجسم ونضج العقل[٢].

بلغ موسى أشُدَّه في قصر فرعون واستوى، ومعنى ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ استقامت حياته، واعتدلت شخصيته، واستقرت صفاته وأخلاقه وتميَّز كيانه، وعُرف بين الناس بأنه ليس مثل فرعون، ولا مثل آل فرعون ورجال القصر، عُرف بين الناس بأخلاقه وصفاته، عُرف بينهم بعزته وكرامته وسماحته ونخوته وعدله وبرّه، عند ذلك صار مؤهَّلاً لتلقّي كرم الله عليه، فآتاه الله العلم والحكمة، وكان محبوباً بينهم، وملجأً للضعفاء والمظلومين منهم، يفزعون إليه ويحتمون به.

فهو من الجانب الرسمي ربيب القصر، ومُتبنَّى فرعون، وبذلك حقّق الحماية الرسمية والأمنية، وهو من الجانب الإنساني عالم حكيم ومحسن كريم، وقد استخدم الجانب الرسمي لتحقيق الجانب الإنساني، ووظّف صلته بفرعون والمقربين منه لخدمة الآخرين وبالذات الإسرائيليين المظلومين من قبل فراعنة مصر، وهذا هو تدبير الله وتقديره، إنه هو العليم الحكيم[٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عباد الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً

(١) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، ص٢٤٧.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٨٩٦).
(٣) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٣١٠).

وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام[١].

أ ـ قال ابن جرير: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما جزينا موسى على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا كذلك نجزي كل من أحسن من رسلنا وعبادنا فصبر على أمرنا وأطاعنا، وانتهى عمّا نهيناه عنه[٢].

ب ـ قال الشوكاني: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الذي جزيناه أم موسى لما استسلمت لأمر الله وألقت ولدها في البحر وصدَّقت بوعد الله، نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم[٣].

إن الإحسان يقود إلى كل خير، فإحسان موسى عليه السلام كان سبباً في إعطاء الله تعالى إياه العِلم والحكمة، وكذلك النبوة، فالخير كل الخير في الإحسان.

وعلى الدعاة وأهل العلم الاجتهادُ في الإحسان؛ فإن هذا منهج قدوتهم من الأنبياء عليهم السلام، وهو ظاهر في نبينا محمد ﷺ قبل بعثته[٤]، كما في قصة خديجة رضي الله عنها لمّا قالت: «والله لا يُخزيَك الله أبداً، إنك لَتصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمل الكلّ، وتُكسِبُ المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتُعين على نوائبِ الحقِّ»[٥].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٥]:

أ ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾: والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ، فمن أي مكان جاء فدخلها؟ وهل كان من القصر في عين شمس؟ أم إنه كان اعتزل القصر والعاصمة، ثم دخل إليها.

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٥).
(٢) تفسير الطبري، (٢٠/ ٤٣).
(٣) فتح القدير، الشوكاني، المصدر السابق، (٤/ ٢٣٠).
(٤) تدبر سورة القصص، ناصر سليمان العمر، مرجع سابق، ص٤٢.
(٥) البخاري، رقم ٣.

ب ـ ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت الظهيرة مثلاً حين تغفو العيون[١]، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار[٢]، أو متخفّياً متنكراً حتى لا يُعرف، أو في الأوقات التي تخف فيها الحركة[٣].

ويبدو من السياق القرآني أن موسى عليه السلام، كانت مواقفه تنفرج عن مواقف القصر والرسميِّين، وتنحاز بالتدريج يوماً بعد يوم للشعب المضطهد المقهور، فما كان لموسى عليه السلام أن يقرَّ الظلم مطلقاً، فكيف يقرّه وهو واقع على شعبه؟ ومن حكمة الله في تربية أمه له، لا أن يُحفظ فحسب، وإنما أن تُحفظ ذاكرته وولاؤه وانتماؤه وتبنيه لقضية شعبه.

لقد أصبح موسى على مستوى القطر المصري نصير المظلومين والمضطهدين والمقهورين، ولسنا نقول هذا رجماً بالغيب، وإنما نقوله استشفافاً من النص الكريم.

إن الرجلين المقتتلين بمجرد أن رأى المظلومُ منهما موسى عليه السلام استنجد به واستغاثه، وما كان ليفعل لو لم يكن يعلم أنه نصيره وأنه وليه وولي كل منتقَصة حقوقه[٤].

ت ـ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: لقد فُوجئ موسى بالرجلين يَقتتلان وحدهما في ذلك الشارع على حين غفلة من أهلها، وكان أحدهما إسرائيليّاً ﴿شِيعَتِهِ﴾ أي: من قوم موسى وهم بنو إسرائيل، وكان الآخر قبطياً فرعونيّاً ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

هذا هو المشهد المتكرر في شوارع وأحياء وبيوت المدينة، فكثيراً ما تقع المناوشات بين الإسرائيليين المظلومين وبين الفراعنة الظالمين[٥].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨١).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٥).
(٣) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، ص٢٤٨.
(٤) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، ص٢٤٩.
(٥) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٣١٣).

وفي قوله تعالى ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ إشارة إلى ترسُّخ روح الفصل بين الفئات بدل التعايش، وروح الاستقطاب وانغلاق المجموعات على بعضها وعن بعضها، بدل الانفتاح والاندماج.

لقد تمزَّق النسيج الاجتماعي، وضُربت شبكة العلاقات، ليتم لفرد ممارسة طغيانه، وهو لا يرى ذلك متاحاً وممكناً إلا بسياسة فرّق تسد، وتقسيم الشعب، وإلهائه ببعضه، وإشغاله بمشكلاته الداخلية؛ لأن الشعب إن اتحد وتفرّغ نهش في الحكم، فليظلَّ منشغلاً بلقمة الخبز أولاً، ثم بالصراع البيني ثانياً؛ ولتتصدع رؤوس الناس من أجل أن ترتاح من الصداع رؤوس من في القمة.

المهم أن الرجل المستضعَف بمجرد أن لمح موسى، فكأنما هبطت عليه نجدة من السماء أرسلها الله تعالى مُعيناً له، وغيثاً إلهيّاً جاء به القدر، فاستغاث الإسرائيلي بنصيره، فتدخل موسى لنصرة الضعيف وتخليص المظلوم، فدفع الظالم دَفعة فقضت عليه، شاء الله أن يتزامن انتهاء أجله مع دفعه موسى[١].

ث ـ ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾: قال الإمام الراغب: الوكز: الطعن والدفع والضرب بجمع الكف[٢]، والوكز لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع، فالوكز هو الضرب بمَجمع اليد، وذلك بأن يضمَّ الضارب أصابعه نحو الداخل، ويُوجِّه قبضته إلى خصمه ويضربه ضربة أشبه ما تكون بضربات الملاكمة في هذا العصر، وكانت ضربة موسى قاتلة للقبطي، وكانت قاضية قضت عليه.

إن الأعمار والآجال بيد الله عز وجل، وما أعمال البشر إلا أسباب مادية ظاهرة، فالله هو الذي قَدَّرَ إنهاء حياة القبطي في تلك اللحظة، وجعل من ضربة موسى سبباً مباشراً لموته.

لم يقصد موسى عليه السلام قتل القبطي، ولم يُخطِّط لذلك ولم يتعمَّده، وهو

---

(١) تفسير سورة القصص، مرجع سابق، ص٣٥٠.
(٢) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ص٨٨٢.

لم يظلمه ولم يعتدِ عليه، كل ما أراده موسى هو أن يردعه عن الإسرائيلي المظلوم، ويُوقف عدوانه عليه، وما وكزُه وضربُه إلا وسيلة لذلك، والوكزة لا تقتل رجلاً في الغالب، لكنها إرادة الله وحكمته التي أنهت عمر القبطيّ لوكزة موسى له، وذلك ليُحقِّق الله إرادته في ترتيب وتدبير الأحداث التالية كما قدّرها سبحانه.

والمهم أن موسى قتل القبطيَّ الفرعوني، ونصر أخاه الإسرائيلي، وبعدما قتله شعَر بتسرّعه في فعله، وأنه أقدم على فعل غير رشيد[١]. والمفهوم من التعبير في قوله تعالى ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطي، مما يشي بقوة موسى وفُتوَّته، وصوَّر كذلك انفعاله وغضبه، وعبّر عما يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.

ويبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي، ولم يعمد إلى القضاء عليه، فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته، وعزاها إلى الشيطان وغوايته، فقد كانت من الغضب، والغضب من الشيطان أو نفخٌ من الشيطان[٢].

ج ـ ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾: ثم واصل موسى عليه السلام تبرُّؤه من الشيطان وعمله بأن وصف الشيطان بأنه: ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، فهو ليس بالعدو الساكن، ولكنه عدوّ متحرك له مخططات في رأسها الإضلال، وهو ليس بالعدو المستخفي، ولكنه العدو المستعلن البيّن.

إن موسى عليه السلام لم يقصد من قريب ولا من بعيد قتل المصري، ولكن هذا الذي حدث، فما كان من هذا العبد الأواب الرجاع إلى الحق إلا أن وصف العمل فوراً بأنه من عمل الشيطان، وهذا من طبيعة الشخصية الإيمانية التي ترجع إلى الحق وتعترف بالذنب، بينما الشخصية الطاغوتية تأخذها العزة بالإثم،

(١) تفسير سورة القصص، د. أحمد نوفل، ص٢٥٠.
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٢).

وتعالج الخطأ بمزيد من الأخطاء مثلما «عالج» إبليس إباء السجود، بتعهُّده وتوعُّده بإضلال الخلق جميعاً كما ضلّ هو(١).

وعَلَّق الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله على ذلك بقوله ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، إنما قال موسى عليه السلام ذلك؛ لأن قتل النفس مُستقبَح في الشرائع البشرية، فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها، وكان موسى عليه السلام يعلم دين آبائه لعلّه بما تلقّاه من أمه المرأة الصالحة في مدة رضاعه وفي مدة زيارته إياها، وجملة ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لشدة غضبه من عمل الشيطان، إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي، أو كفّه عن الذي من شيعته، فلما كان الشيطان عدوّاً للإنسان، وكانت له مسالك إلى النفوس، استدل موسى عليه السلام بفعله المؤدي إلى قتل نفس، أنه فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها لكان عمله جارياً على الأحوال المأذونة، وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير، وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري، وهو تخلل نزغ الشيطان في النفس(٢).

إن قتل النفس المعصومة مُحرَّمٌ ومستقبحٌ ديناً وعقلاً، وإن حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال مما أجمعت عليه الشرائع السماوية.

لم يسوّغ موسى عليه السلام قتله القبطيّ مع كونه مشركاً، بل تاب منه، ومنه تَعلَمُ ضلال الذين يسوّغون قتل النفوس بالتأويلات الباطلة.

قتل الكافر الذي لا عهد له لا يجوز، ومن جنسه الكافر الآمن الذي دخلت بلده بتأمينه وعلمه وإن كان فيه جورٌ، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله الكافر ذنباً واستغفر الله منه، ويعتذر عن قبول الشفاعة الكبرى يوم القيامة بسببه، ويقول: إني قد قتلت نفساً لم أُؤمر بقتلها(٣).

---

(١) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، ص٢٥٠.
(٢) التحرير والتنوير، (٢٠/ ٩٠).
(٣) تدبر سورة القصص، د. ناصر العُمر، ص٤٥، وفي: صحيح البخاري، رقم ٤٧١٢.

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]:

يواصل موسى عليه السلام في هذه الآية اعترافه بذنبه أمام ربه تبارك وتعالى، فيناجيه في خشوعٍ، ويعترف بين يديه في خضوع قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بارتكاب هذا الفعل الذي لا ينبغي لي ولا يُقرّه دينك، وتأباه شرائعك، وتكرهه رحمتك بخلقك، فالدماء في دين الله من أعظم المحرمات المساس بها.

وإن نبي الله ورسوله موسى عليه السلام المؤمن بربه يعلم هذا، فلا خروج من هذا الذنب وظلم النفس إلا باللجوء إلى الرب الغفور الرحيم، بأن يغفر هذا الذنب فيستره ويمحو عنه ولا يقيده في صحائف عمله منّةً منه وتفضُّلاً. فاستجاب له ربه فغفر له، وكيف لا يغفر لعبده وقد جاءه مُقرّاً بالذنب، مبادراً بالتوبة، خاضعاً للرب؟ كيف لا يغفر مولانا الذنب وهو الغفور الرحيم؟[١]

إن الآية الكريمة بيّنت لنا الانكسار العظيم بين يدي الله عزّ وجل من موسى عليه السلام، انكسار العبودية المعترفة بالذنب أمام الله عزّ وجل، وقبول التوبة من الله عزّ وجل تفضُّلاً منه، وبيّنت الآية وجوب التوبة بعد الوقوع في الزلل، وأول التوبة الاعتراف بالذنب[٢].

دلّت مناجاة موسى عليه السلام لربه أنه باقٍ على ملة آبائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام.

بيّنت الآية الكريمة أهمية الاستغفار، وقد كثر ورود الاستغفار في القرآن الكريم بأساليب ومناسبات مختلفة، فقد ورد فيها استغفار الأنبياء عليهم السلام، ومن ذلك استغفار موسى عليه الصلاة والسلام هنا.

---

(١) تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، ص٢٥١.

(٢) دعاء موسى في القرآن الكريم: دراسة تحليلية موضوعية، سلمى داود إبراهيم بن داود، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تموز/ يوليو٢٠١٦م، ص٣٢٧.

علّمتنا الآيات الكريمة التوبة النصوح بفعل موسى عليه السلام لثلاثة أمور:

- الندم والاسترجاع: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.
- والاستغفار: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.
- ثمّ أكّد توبته إلى ربّه وشكره إياه على نعمه فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

تُظهر الآية الكريمة معلماً من معالم شخصية موسى عليه السلام، وهي سرعة التوجّه والالتجاء والمبادرة للإنابة والتوبة إلى الله تعالى، وطلب الستر من الله تعالى والمغفرة.

علّمنا المولى عزّ وجل الثناء عليه بأنه وحده في الوجود كله الغفور الرحيم[١].

علّمنا موسى عليه السلام أن الإنسان ساعة يقترف الذنب، ويعتقد أنه أذنب، لا يكابر، إنما ينبغي عليه أن يعترف بذنبه وظلمه لنفسه، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار[٢].

٤ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]:

إن الله استجاب إلى ضراعة نبيه موسى عليه السلام، وحساسيته واستغفاره ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسّه المتوفّز في حرارة توجهه إلى ربه أن ربه غفر له، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء، فور الدعاء، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى، وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد.

وارتعش وجدان موسى عليه السلام، وهو يستشعر الاستجابة من ربه، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً بالوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ

---

(١) دعاء موسى في القرآن الكريم، دراسة تحليلية موضوعية، سلمى داود إبراهيم بن داود، مرجع سابق، ص٣٣٠.

(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٨٩٨).

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيراً أو معيناً، وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها حتى ولو كانت تحت تأثير الغيظ ومرارة الظلم والبغي.

إن ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول الدعاء، ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم الذي آتاه الله من قبل[١]. وإن هذه الآيات الكريمة تُبيِّن عظمة صلة موسى عليه السلام بربه وقربه منه وحسن مناجاته وخشيته ورجائه والاستعانة به ومعرفة صراطه المستقيم. ويعلمنا موسى درساً عظيماً أن نعم الله تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر[٢].

إن الآية الكريمة بينت أنه لا يجوز لأحد أن يكون ظهيراً للظالمين وللمجرمين حسّاً أو معنى، بالقول أو الفعل أو السّكوت، فموسى تبرأ من ذلك كله بدلالة النكرة المنفيّة، والسياق يبين أن ذلك من واجب شكر النعمة[٣].

جعل جمهور السّلف هذه الآية حجّة على منع معاونة أهل الجور في شيء من أعمالهم من مظاهرة الظالمين، والدفاع عنهم، والبحث لهم عمّا يسوّغ أفعالهم دون مستند شرعي صحيح قد راعاه الظالمون أو التفتوا إليه[٤].

خامساً: قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [**القصص**: ١٨ ـ ١٩]:

١ ـ ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٢).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٧٦).
(٣) تدبر سورة القصص، ص٤٧.
(٤) تدبر سورة القصص، ص٤٧.

على القبطي، ونَدَمِ موسى على فعلته، وتوجُّهِه إلى ربه، واستغفاره إياه، ومغفرته له، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيراً للمجرمين.

ومَرَّ يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره، يترقَّب الافتضاح والأذى، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يصوّر هيئة القلق، الذي يلتفت ويتوجَّس، ويتوقَّع الشرَّ في كل لحظة.

والتعبير يجسّم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يُضخِّمها بكلمتي ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة[١].

وفي قوله ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: تجد الخوف عُبّر عنه بالاسم ليدلّك على أن الخوف سكن في نفس موسى عليه السلام ودام، وأن الترقب والحذر والمتابعة عبّر عنه بالفعل، لأنه حدث يتجدد[٢].

وفي قوله ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: ما أجمل الجمع بين الصباح والخوف، إن لهما مغزى عظيماً ودلالة تخترق كل الحجب، والصبح يبعث في النفس الأُنس والأمن، ولكنه أصبح خائفاً ثم ماذا؟[٣]فبعد هذا القلق والتوجّس إذ هو يطلع:

٢ ـ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطي، إنه هو مشتبك مع قبطي آخر، وهو يستصرخ موسى لينصره، ولعله يريد منه أن يقضي على عدوهما المشترك بوكزةٍ أخرى.

ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تَخايل لموسى، وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه، ثم هذا التوجس الذي يتوقَّع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى، فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه ويصفه بالغواية والضلال[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٣).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٧٩.
(٣) قصص القرآن، فضل حسن عباس، ص٤٩١.
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٣).

٣ ـ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾: غويّ بعراكه هذا الذي لا ينتهي، واشتباكاته التي لا تُثمر إلا أن تُثير الثائرة على بني إسرائيل.

ولكن الذي حدث أن موسى ـ بعد ذلك ـ انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس، ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى عليه السلام بالغيظ من الظلم، والنقمة على البغي، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المثمرة ضعفاء، فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تفيد[1].

٤ ـ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

سمع الإسرائيلي كلام موسى له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ وفهم من ذلك ذمَّ موسى له، ثم رأى الإسرائيلي موسى قادماً إليه، فلم يظن أنه قادم للبطش بغريمه القبطي، وإنما ظنّ أنه قادم لقتله هو والبطش به هو، لأنه سبق أن قال له: إنك لغويّ مبين.

وهذا الإسرائيلي يعرف قوة موسى من حادثة الأمس، فقد قتل القبطي بوكزة من جُمْع يده، ولذلك خاف أن يقتله، وبسبب خوف الإسرائيلي على نفسه من موسى قال له: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، وبهذا أذاع هذا الإسرائيلي الخائف السرَّ، وكشف لغز حادثة الأمس، إذن موسى هو الذي قتل القبطيّ بالأمس.

جعل الإسرائيلي بخوفه وغبائه المشكلة بينه وبين موسى الذي جاء بناء على استنجاده به، ووصف موسى بأنه جبار في الأرض وليس مصلحاً فيها، وبالأمس قتل القبطي، واليوم يريد أن يقتله هو، ترك الإسرائيليُّ القبطيَّ ووجّه كلامه ولومه لموسى، سمع القبطيُّ الخبر المثير، إذن موسى هو قاتل القبطيّ بالأمس،

(١) في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٥/ ٢٦٨٣).

وذهب القبطيُّ مسرعاً إلى فرعون وقدّم لهم حلّ لغز حادثة الأمس، وفُوجئ القوم بالخبر، إذن موسى هو القاتل، ووصل الخبر إلى فرعون(١).

واعتبر فرعون عمل موسى عليه السلام نية مبيّتة للتمرد على النظام يجب القضاء عليها(٢)، وبينما موسى عليه السلام موزّع الخاطر بين شتى الاحتمالات، إذ جاءه رجل من أقصى المدينة وأعلمه بأن الملأ يأتمرون به لقتله، ونصحه بالهجرة والهروب من مصر.

٥ ـ قال القرطبي في قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: إذ تقدم في طه وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون، وردّاً على من قال غير ذلك، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه، فقيل: أصبح خائفاً من قتل النفس أن يُؤخذ بها، وقيل خائفاً من قومه أن يُسلموه، وقيل خائفاً من الله تعالى(٣).

إن وقوع الخوف الجِبِلِّي من موسى عليه السلام لا يؤاخذ عليه ما دام لم يقدّمه على مقتضى الإيمان، والخوف المحرّم من المخلوق هو الذي يخرج به إلى تعظيمه وإنزاله منزلة الربوبية، وكذلك خوفه الخوف الذي يقدّم على مقتضى أمر الله ونهيه، فهذا قد نُهي عنه المؤمنون، كما في قوله ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

سادساً: قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٠ ـ ٢٢]:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٢٠).
(٢) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، مرجع سابق، ص١٣٧.
(٣) جامع أحكام القرآن، القرطبي، (١٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه، أنها فعلة موسى، وما من شك في أنهم أحسُّوا فيها بشبح الخطر، فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد والانتصار لبني إسرائيل، ومن ثم هي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر، ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقّت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء[١]. ولما بدأ جند فرعون يبثُّون عيونهم من أجل التعرف على مكان موسى لكي يصلوا إليه، هيأ الله تعالى لعبده موسى عليه السلام جنداً من جنوده المجهولين ينقل إليه خبر أعدائه، ويقدم له النصح ويرشده إلى الطريق الأسلم، وما أجمل النصح والإرشاد في ساعة الكرب والاختناق[٢].

أ ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾: قال بعض العلماء: إن هذا الرجل هو المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة غافر[٣].

وصفت الآية الكريمة الذي جاء يسعى بالرجولة، وتحتوي هذه الصفة على النجدة والكرم ورفض الظلم، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وقد أخذ هذا الرجل الذي اتصف بصفة الرجولة بزمام المبادرة والجد والتحمُّل لبعد الشّقة[٤].

وفي قوله ﴿رَجُلٌ﴾؛ في هذا تعبير بالرجولة في هذا المقام لتكريم الرجل والإشادة به والثناء عليه؛ لأنه وقف موقفاً بطوليّاً إيمانيّاً، حيث غامر واقتحم الخطر، وجاء ليُخبر موسى بالمؤامرة عليه، ويدعوه إلى الخروج السريع من المدينة.

وحددت الآية الكريمة المكان الذي جاء منه الرجل بأنه أقصى المدينة، وأقصى المدينة طرفها، وهذا يشير إلى المكان الذي اجتمع فيه الملأ ليأتمروا

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٥).

(٢) تأملات قرآنية: من نبأ موسى وفرعون، أحمد بن عبد الله العماري الزهراني، السعودية، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، معهد الإمام الشاطبي، مج١، ع١، ٢٠٠٦م، ص٤٦.

(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٥).

(٤) تدبر سورة القصص، ناصر العمر، مرجع سابق، ص٥٠.

بموسى عليه السلام، ولعلّ قصر فرعون ومقرّ الإدارة والقيادة كان في أقصى المدينة[١].

إن الله عزّ وجل أرسل لموسى عليه السلام من ينقذه طفلاً من بين يدي الموت، وكان المنقذ من آل فرعون، وكذلك هذه المرة أرسل إليه من ينقذه من الموت ويكون أيضاً من آل فرعون، وإلا كيف عرف بتآمر الملأ[٢]. وقد كان هذا الرجل محبّاً لموسى عليه السلام ممن كانوا حوله في بيت فرعون، فقد لبث سنين من عمره فيه، وكان محبوباً بين سكّان القصر، ابتداءً من امرأة فرعون، وقد ألقى الله على موسى محبة منه، فكان يحبه كل من يراه[٣].

إن النص الكريم بالفعل الماضي ﴿وَجَآءَ﴾ من أجل السرد، ثم انتقل إلى المضارع من أجل التصوير بعد السرد ﴿يَسۡعَىٰ﴾.

تأمَّل في هذا المشهد ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾؛ فالمشهد الذي في سورة «يس» ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾، والقرآن الكريم لا يقدّم ولا يُؤخِّر إلا لملحظٍ واعتبار، فقدّم الرجل هنا في القصص على المكان مع أنه لم يقتل، وأخّر الرجل في يس مع أنه قُتل بدلالة ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ وبدلالة ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ إنه أمر يستحقّ التوقف[٤]، إن للرجولة معنىً ومراتبَ في القرآن الكريم.

وفي قوله ﴿يَسۡعَىٰ﴾؛ أي جاء في جد واهتمام ومسارعة ليبلِّغَ ما علم من التآمر لموسى علّه بهذا ينقذ نفساً، ونفس من؟ نفس موسى عليه السلام المتوقع أن يُنقذ أمةً، وبعد أن قدّم المعلومة لموسى قدّم مطالعته تعليقاً عليه، وهي نصيحته

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٢١).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٢٨٥.
(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٢٨٤.
(٤) تفسير سورة القصص، ص٢٥٤.

لموسى بأن يخرج من البلد مهاجراً لأنه مطلوب رأسه[١].

وقد كان الرجل في حركته وسعيه أسرع من رجال فرعون، حيث سبقهم إلى موسى وأخبره ونصحه وأرشده، قال الرجل لموسى جملة في غاية الاختصار والإيجاز حتى يتمكن من الخروج والإفلات من جنود فرعون، فالمقام لا يسمح بالشرح والتفصيل، فقد كان جنود فرعون خلفه، ولا بدّ أن يسرع موسى بالخروج.

ب ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ فالملأ هم القيادة حول فرعون الذين يقودون الناس، ويخضعونهم لفرعون، ويملؤون عيون الناس وقلوبهم مهابة وخوفاً، لقد اجتمع الملأ وتآمروا على موسى واتخذوا قراراً بقتله، وقبل أن يُنفِّذوا قرارهم ويُصدروا أمرهم باعتقال موسى وقتله علم هذا الرجل الأمر، فجاء من أقصى المدينة وقال له: اخرج من المدينة.

﴿فَٱخْرُجْ﴾؛ فالهدف هو الخروج فقط، أما إلى أين يخرج فهذا ليس مهمّاً، فبعد أن يخرج وينجو من القتل يفكّر ويحدد وجهته.

ختم الرجل كلامه لموسى بتذكيره ونصحه له: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وذلك ليطمئن إليه، ويأخذ كلامه مأخذ الجد، وينجو قبل وصول الجند[٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]:

خرج من المدينة خائفاً، وكان قد أصبح في المدينة خائفاً، وخرج منها يترقَّب وكان قد أصبح فيها يترقَّب، وهناك صلة وثيقة بين ثلاث آيات تصور وضع موسى في المدينة:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

---

(١) تفسير سورة القصص، ص٢٥٤.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٢٢).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ فموسى في هذه الآية الكريمة خائف من جنود فرعون، لأن معهم أمراً بالقبض عليه وقتله، وكان يترقَّب ويتلفّت، وينظر هنا وهناك لئلا يواجه جنديّاً من جنود فرعون، فإذا شاهد أحدهم من بعيد سارع بالاختفاء، وكان يسرع الخطا، ويسارع في السعي، ليخرج من المدينة في أقصر وقت.

وخوف موسى عليه السلام طبيعي لا يُلام ولا يُعاب عليه، وليس جُبناً ولا ضعفاً، ألا تريد من رجل مطلوب القبض عليه وقتله أن يخاف من ذلك؟ ولكن خوف موسى الطبيعي من الخطر الفرعوني المحدق به لم يؤثر على إيمانه وتوكُّله على الله، وثقته به، فكل حياته كانت هكذا، وكان يرى فضل الله عليه وحفظه له في كل ما مرّ به من أحداث، ولهذا كان عندما خرج من المدينة خائفاً يترقَّب ممتلئاً يقيناً بالله والتوكل عليه.

﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: إن فرعون وجنوده قوم ظالمون، وهم الآن قد أعلنوا الحرب عليه، وهم أقوياء يملكون كل أسباب ومظاهر القوة، لكنه يُوقن أن القوة إنما هي لله، وأن الله سيُنجيه منهم، ويخلّصه من مكرهم وكيدهم، ولهذا سأل الله أن ينجيه منهم.

إن موسى عليه السلام يُعلّمنا أن نلجأ إلى الله عند الخطر، وألا نخشى الطغاة الظالمين مهما ملكوا من مظاهر القوة، وأن نمتلئ إيماناً بالله وتوكلاً عليه، وأن نلحّ في الدعاء والتضرّع إليه لأنه لا يكشف الغمّ إلا هو.

وأنجى الله موسى عليه السلام من القوم الظالمين، ولم يُدركوه، فخرج من المدينة ناجياً سالماً بفضل رعاية الله وحفظه وتوفيقه[١]، إن النجاة من قبضة المجرمين منّة عظيمة، والإفلات من أخذ الظالمين نعمة جليلة، فعند الظالمين لا قانون يُحتكم إليه، ولا شرعة تُحترم، ولا حقوق إنسان يُوقف عندها، ولا رادع ولا زاجر[٢].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٢٤).

(٢) تفسير سورة القصص، ص٢٥٥.

إن المؤمن عندما يتقرب إلى الله ويلجأ إليه يتقبل دعاءه، ولا يستطيع الظالم مهما كان مُدجَّجاً بأحدث الأدوات والتقنيات والأجهزة الحديثة والقدرات والجنود والأعوان أن يؤذيه ولو قيد أنملة إذا أراد الله حمايته وسمع دعاءه ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]:

نلمح شخصية موسى عليه السلام فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين جنوبي الشام وشمالي الحجاز، مسافات شاسعة وأبعاد مترامية لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقَّب، وخرج منزعجاً بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبَّث ولم يتزوَّد ولم يتخذ دليلاً، ونلمح إلى جانب هذا أن نفسه متوجهة إلى ربه، ومستسلمة له، متطلعة إلى هداه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ومرة أخرى نجد موسى عليه السلام في قلب المخافة بعد فترة من الأمن، ونجده وحيداً مجرَّداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً، يطارده فرعون وجنده ويبحثون عنه في كل مكان، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً، ولكن الله عزّ وجل رعاه وحماه وهداه، فها هو يقطع الطريق الطويل، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء[١].

ـ وفي قوله تعالى ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ هذا المقطع من الآية الكريمة يُشعرنا بأن موسى عليه السلام خرج من مصر إلى مدين لا يلوي على شيء سوى الفرار، والنجاة بنفسه من بطش فرعون وقومه، لذا لم يكن عنده فرصة أن يصطحب معه شخصاً في رحلته يكون أنيساً له، فهو قد خرج سريعاً قِبل وجهه وحيداً فريداً على قدميه، ليس معه شيء. وفي نظري أنه لا زاد معه ولا راحلة، بل ولا حتى ماء، بل وليس معه سوى ثيابه التي على جسده، هذا ما أحسستُ به

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٥).

حين تأملت هذا المقطع[١]. قال العليمي رحمه الله: وخرج موسى هارباً بلا زاد ولا ظهر، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر والبقل[٢].

وقد دلّت الآية الكريمة على هجرة كليم الله موسى إلى أرض مدين، وقيل: مدين هي اسم لموضع البئر التي استقى منها موسى عليه السلام، وقيل: قوم من ذرية إبراهيم عليه السلام لصلبه، وقد قصد موسى عليه السلام بوجهه مدين حيث لا ملك فيها لفرعون، لقول صاحب مدين لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥][٣].

ونلاحظ أيضاً أنه لم يقل عليه الصلاة والسلام أن يهديني السبيل فحسب، وإنما طلب شيئاً زائداً على السبيل الذي هو الطريق، فقال: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فمعنى سواء السبيل أي: وسط الطريق، الطريق الصحيح السوي[٤].

ـ والآية الكريمة فيها الأمل والرجاء والتطلّع إلى المستقبل المشرق، والرجاء والأمل هما ملاذٌ للمبتلى وملجأ بعد الله للمهموم وبلسم للمحروم، ولولا الأمل والرجاء لما كان للحياة طعم ولا معنى.

ـ وفي قوله تعالى ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معنى عسى في اللغة: الإشفاق والطمع في قرب الشيء، فهي من أفعال المقاربة، لكنها إذ جاءت من الله تعالى فإن معناها التحقيق كما قال الطبري: و«عسى» من الله حق، وقال القرطبي: «عسى» من الله واجبة في جميع القرآن إلا قوله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ﴾ [التحريم: ٥].

---

(١) وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين (أكثر من ٢٠٠ فائدة)، إبراهيم بن فهد بن إبراهيم الودعان، مراجعة: عبد الرحمن بن فهد الودعان، السعودية، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص٦.

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين العليمي الحنبلي، دار النوادر للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م، (٥/ ١٨٣).

(٣) الجانب الخلقي في قصة موسى عليه السلام والمرأتين، نورة بنت عبد الله الورثان، السعودية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مج١٧/ع٣٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٢٠.

(٤) وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، مرجع سابق، ص٦.

وقال أبو عبيدة: «عسى» من الله إيجاب، وفي كتاب (اللباب في علوم الكتاب) لعمر بن علي الدمشقي الحنبلي: اتفق المفسرون على أن كلمة «عسى» من الله واجب؛ لأنه لفظ يفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً شيئاً ثم حرمه كان عاراً، والله تعالى أكرم من أن يُطمِعَ واحداً في شيء ثم لا يعطيه[١].

وقال الدكتور أحمد نوفل في الآية: ويبدو أن موسى عليه السلام يعرف وجهته قبل أن يخرج، ويبدو أنه كان يتوقَّع مثل هذا اليوم، فكان قد درس وأعدَّ الاحتمالات وحدّد وجهة الخروج، تماماً كما صنع الصحابة في هجرة الحبشة.

ومدين: نظنها شمال الجزيرة في جنوب الأردن، وهي قريبة نسبيّاً من مصر، وفي دعاء موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فما أحوجنا إلى الهدى في دروب الحياة، سواء دروبها المادية الموصلة إلى الأمكنة أو دروبها المعنوية الموصلة إلى الجنة[٢].

سابعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **[القصص: ٢٣ ـ ٢٥]:**

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ [القصص: ٢٣]:

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين، وصل إليه وهو مجهود

(١) وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، مرجع سابق، ص٧.
(٢) تفسير سورة القصص، ص٢٥٦.

مكدود، وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، السليمة الفطرة، كنفس موسى عليه السلام، وجد الرعاة يُوردون أنعامهم لتشرب من الماء، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء. والأَوْلَى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما. ولم يقعد موسى الهارب المطارد، المسافر المكدود، ليستريح وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف، بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب(١).

ـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: أي ما شأنكما، ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟!

ـ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود. إنه الضعف؛ فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال. وأبونا شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال(٢).

ولفت هذا المنظر نظر موسى عليه السلام، كما أعجبه حرص المرأتين على الابتعاد عن الرجال وعدم الاختلاط بهم، وتحمُّلهما المشقة الكبيرة في ذود غنمهما عن الماء لحين انتهاء الرجال من سقي مواشيهم، وشعر نحوهما بالشفقة والرأفة(٣)، وأراد أن يعرف سبب موقفهما المباغت له، وكان جواب المرأتين لموسى في قسمين:

القسم الأول: سبب ابتعادهما عن الماء أثناء سقي الرجال ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: لا نسقي ماشيتنا إلا بعد ما يسقي الرعاء مواشيهم ويصدرون عن العين ويغادرون الماء، ونرى في هذا الجواب حرص المرأتين على عدم الاختلاط بالرجال وعدم مزاحمتهم وعدم التغلغل بينهم؛ فهما تنتظران بماشيتهما بمشقة ومجاهدة وتسقيان بعد مغادرة الرجال الماء. وهذا التصرف

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٦).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٦).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٣٢٧).

من المرأتين تصرّف فطري طبيعي يتفق مع طبيعة المرأة وفطرتها التي فطرها الله عليها، فالله قد فطر المرأة السويّة الحييّة على عدم الرغبة في مخالطة الرجال الأجانب ومزاحمتهم.

قد تضطر بعض النساء للعمل، ولكنّ المرأة السوية لا تقبل أي عمل، وإنما تختاره بعيداً عن مزاحمة الرجال ومخالطتهم، كما لاحظنا في عمل المرأتين المؤمنتين، حيث كانتا تأخذان أغنامهما إلى أماكن غير التي يأخذ إليها الرجال أغنامهم، وإذا ما اشتركتا مع الرجال في الورود إلى ماء واحد، حرصتا على عدم مزاحمة الرجال، وأبعدتا أغنامهما إلى أن يصدر الرجال ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾.

والقسم الثاني: سبب قيامهما بالمهمة الشاقة في رعي الغنم: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وكأنهما بهذا الجواب تعتذران عن رعيهما الغنم، فما قامتا بذلك إلا من باب الاضطرار، ولو كان في بيتهما رجال لكفوهما هذه المهمة، وأن أباهما المؤمن شيخ كبير، طاعن في السن، ليست عنده قدرة على رعي الغنم ومتابعتها في الجبال والوديان. ومعلوم أنه لابدّ أن يكون جسم راعي الغنم قويّاً ليحسن رعايتها، وهذا لا يتحقَّق في جسم أبيهما الشيخ الكبير. ويُفهم من جوابهما أنه ليس لهما إخوة، وليس في البيت خدم يقومون بالرعي[1].

أ ـ يقول الشيخ الدكتور سلمان العودة في تفسيره لهذه الآية: وهذا يثير التساؤل حول عمل المرأة، والحديث عن طبيعة العمل الذي تعمل فيه المرأة، أما عن حكم عمل المرأة فالمرأة تعمل ويجب أن تعمل، وجزء من مهمة المرأة أن تعمل، ولا أعتقد أنه يمكن الجدل حول عمل المرأة، فالمرأة تعمل لنفسها من أجل أن تحافظ على شخصيتها وعلى كينونتها وعلى جوانبها النفسية، تعمل من أجل الحاجة وتوفير المال لنفسها أو ولدها أو لأبيها كحال هاتين الفتاتين ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فحق العمل مفروغ منه.

(١) القصص القرآني، المصدر نفسه، (٢/ ٣٢٩).

إنما الكلام على طبيعة العمل الذي تعمل فيه المرأة، حيث يجب أن تعمل في عمل يُناسبها، وهذا واضح في هذه القصة، ويجب أن تراعى بيئة العمل التي تناسبها من ستر عن الرجال، فالفتاتان كانتا قريبتين من الرجال دون حواجز بينهما، ولذلك قال تعالى: ﴿تَذُودَانِ﴾ أي: تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر، قال الحسن: تكفّان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس[١]، وتريان الرعاة، ولكن لم تشأ هاتان الفتاتان أن تدخلا في غمار الرعاة رغم أنه لم يكن هناك قانون خارجي وقت هذه القصة يمنع البنات من هذا، ولكن القانون كان داخلهما، لقد تربتا تربية ممتازة، وأبوهما رجل صالح، فربّاهما تربية جميلة بحيث يمنعن أنفسهن باختيارهن من الاختلاط بالرجال منعاً للمضايقة، وربما لتبادل النظرات وما أشبه ذلك، لقد كانت الفتيات في عمل، ولكن بروح جادة وتربية ممتازة[٢].

ب ـ العفة أساس الحوار بين الرجل والمرأة:

من مظاهر العفة في الحوار بين الفتاتين وموسى عليه السلام:

ـ اختصارهما الكلام وعدم تطويله مع الرجل الأجنبي وهو موسى عليه السلام، حيث قالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] دون أخذ وعطاء وزيادة وردّ.

ـ من عفّتهما عدم فتحهما الحوار مع موسى عليه السلام لأنه أجنبي عنهما، ولأجل ألا يطول الكلام بين المرأتين والرجل الأجنبي، جمعتا في كلامهما الإجابة على جميع الأسئلة المحتملة بجملة واحدة مختصرة عفيفة.

ـ من عفّة المرأتين تقديمهما النفي في كلامهما، فقالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ولم يقدّما الإثبات، فلم تقولا: سنسقي بعد قليل. وتقديم النفي أبلغ في الجزم، وأن الأمر لا يقبل النقاش.

---

(١) وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص٩.

(٢) علمني موسى، العودة، مرجع سابق، ص٥٠.

ـ من عفّة المرأتين أنهما جعلتا غاية وقوفهما عدم اختلاطهما بالرجال حتى صدور الرعاء، أي انصرافهم، وليس أن تخفَّ الزحمة فحسب أو يقلَّ الرعاء[١].

ـ وأمّا عفّة موسى عليه السلام، فأكمل من عفتهما، فإذا كانت عفة المرأتين تمثلت في جملة واحدة، فإن عفة موسى تمثّلت في كلمة واحدة إلى أن تم لقاؤه بأبيهما، ففتح الكلام معه على مصراعيه ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾.

ـ وعفّة موسى عليه السلام كذلك ظهرت في قيامه بالسقي لهما دون سؤال: هل تريدان ذلك أم لا؟ فالوضع وظاهر الحال لا يحتاج إلى سؤال، ثم السؤال يحتاج إلى كلام وجواب، وهذا ما لا يريده موسى عليه السلام، فقام وسقى لهما.

ـ كذلك أنه لما سقى لهما توجّه مباشرة إلى الظل، ولم ينتظر شكراً منهما، وهذه فرصة لمرضى القلوب أن يزداد مرضهم ويتبادلوا أطراف الحديث وكلمات الشكر والعرفان، فقد صنع لهن معروفاً ودون طلب منهما، ووقف معهن وسقى لهن[٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]:

أ ـ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾: مما يشهد بنبل هذه النفس التي صُنعت على عين الله، كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل، ولعلها قوة في نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاء رهبته أكثر من قوة جسمه، فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب[٣].

لقد شقّ طريقه نحو البئر في وسط الرعاة بقوة وثبات ومهابة كان يتمتع بها

---

(١) دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر أحمد محمد الريامي، اليمن، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٤، ع ١٤، حزيران/ يونيو ٢٠١٧م، ص٤٥٤.

(٢) دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر أحمد محمد الريامي، مرجع سابق، ص٤٥٥.

(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٦).

عليه السلام، وهو الغريب الوحيد المسافر من مكان بعيد، ولم يجرؤ أحد على الاعتراض[١].

وهنا يخرج خُلق إغاثة الملهوف في شخصية موسى عليه السلام، وسرعة الاستجابة لنجدة المرأتين، فهو ما إن سألهما عن مطلوبهما وسبب تواجدهما بقرب بئر الماء وانزوائهما عن الرجال، وما إن انتهتا من الإجابة حتى بادر بسرعة السقي لهما، وهو ما تقتضيه الفاء في قوله بعد سؤالهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، رغم ما هو عليه من الإعياء والجوع بعد قطعه المسافات، هرباً من فرعون، ووَجَلاً من أن يتمكن منه، فقد زاحم على الماء حتى سقى لهما، كل ذلك رغبة في الثواب، على ما كان به من نصب السفر[٢]، وهموم المطاردة الفرعونية.

ب ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾:

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ ربّ إني في الهاجرة، ربّ إني فقير، ربّ إني وحيد، ربّ إني ضعيف، ربّ إني من فضلك ومنّك وكرمك فقير محووج. ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن، والركن الركين، والظل الظليل، نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحي والانعطاف الرفيق والاتصال العميق، إنه يأوي إلى الظل المادي بجسمه، ويأوي إلى الظل العريض الممدود، وهو ظل الله الكريم المنّان، بروحه وقلبه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٣].

وفي هذا الدعاء تَجلى خُلُق التواضع وصورته في شخصية موسى عليه السلام، وذلك باعترافه بفقره وحاجته إلى ربه، وهذا فيه من كسر النفس

(١) تفسير سورة القصص، ص٢٥٩.
(٢) الجانب الخلقي في قصة موسى والمرأتين، نورة بنت عبد الله الورثان، مرجع سابق، ص٢٣٣.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٦).

والتواضع لصاحب الفضل والمنّة، فرغم ما أنعم عليه من قوة جسدية ونفسية، فإنه لم تطغه أو تجعله يتجبر أو يتكبر. وهذا الفعل من موسى أعلى درجات التواضع والاعتراف بنعائم الله وفضائله عليه، فهو لا يرى في نفسه لنفسه ما يفتح عليها أبواب الاغترار والتكبر، بل يردعهما ويقمعهما؛ فلا تختال ولا تميل، وذلك باعترافه بالحاجة والعوز إلى الله تعالى رغم ما منحه الله من القوة والصولة، فقد رُوي عن بعض المفسرين في بيان قوة موسى عليه السلام الجسدية أن البئر الذي سقى منه للمرأتين قد غُطّى بحجر لا يرفعه إلا عشرون أو أربعون من الرجال، وقد رفعه موسى عليه السلام[١].

وأما قوته النفسية، فتمثلت في إقدامه للسقي متخطِّياً بذلك خوفه المحيط به من كونه غريباً وحيداً مطارداً، فظهوره لسقي الضعيفتين فيه من جسارة القلب وقوته التي تخطّت خوفه من أن يعرفه أحد فيُدلي بمكانه، وهاتان الصورتان من القوة الظاهرة والباطنة لم تجعله متعالياً مستكبراً، وإنما نادى الله بفقره وحوجه إليه سبحانه حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٢]. وهذا دعاء بجوامع الكلم.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ جامعة للشكر والثناء والدعاء، ففيه ثناء على الله بأنه معطي الخير ثم الشروع في الطلب، لأنه أقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن أضيف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل المدعوَّ بصفات كماله وإحسانه وفضله، وصرّح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، وهذا تضرع إلى الله تعالى بطلب جميع الحوائج فهو فقير له وإليه، فقال على سبيل التضرع: إني فقير ومحتاج إلى أي خير ينزل منك قلّ أو كثُر[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد الأنصاري شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٤م، (١٣/ ٢٦٩).

(٢) الجانب الخلقي في قصة موسى والمرأتين، مرجع سابق، ص٢٤٣.

(٣) دعاء موسى في القرآن الكريم دراسة تحليلية وموضوعية، سلمى داود بن إبراهيم بن داود، مرجع سابق، ص٣٣٦.

ويظهر في الآية الكريمة أهمية الدعاء، ولا يشترط في الدعاء أن يكون طويلاً، فلو تأملت في هذا الدعاء لوجدته مختصراً، يتكون من ثماني كلمات، ولم يستغن موسى عليه السلام عن الدعاء في حياته فمن ذلك:

- ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].
- ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].
- ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].
- ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وألفاظ الدعاء السابقة بدأت كلها بـ «ربّ»، لما فيه من معنى الربوبية، وهو إفراد الله بأفعاله كالخلق والملك والتدبير ونحو ذلك، والناس فقراء إلى الله سبحانه وتعالى، وفقر الإنسان إلى ربه صفة ذاتية لا ينفك عنها، كما أن الغنى صفة لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿۞يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وعلى المؤمن أن يتذكر ذلك دائماً.

لقد تبدل الحال بموسى عليه السلام، حيث كان في سعة ورغد عيش ببيت فرعون، ومن ثم أصبح فقيراً مُعدماً في قوله ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وفي قوله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ فهي نكرة تفيد عموم الخير كله صغيره وكبيره، قليله وكثيره، فأيُّ خير من الله، أيّاً كان نوعه، فأنا محتاج إليه[١].

لقد توسل موسى عليه السلام إلى الله تعالى بنوع من أنواع التوسل؛ بذكر الحاجة والفقر والتذلل لله تعالى، فقد يكتفي الداعي بذكر حاله وشكاية حاله إلى الله تعالى عن التصريح بذكر الحاجة، والله عالم الخفيات[٢].

وما نكاد نستغرق مع موسى عليه السلام في مشهد المناجاة، حتى يعجّل

---

(١) وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤.

السياق بمشهد الفرج، معقباً في التعبير بالفاء، فالله عزّ وجل استجاب للقلب الضارع الغريب(١).

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]:

لقد أجيبت دعوة موسى عليه السلام، فبينما هو لايزال جالساً تحت الشجرة التي دعا في ظلها، إذ بإحدى البنتين تعود إليه، ولم يفت النص القرآني وهو الذي يطوي التفصيلات، أنها جاءت تمشي على استحياء، وإنما ذكره القرآن لما لهذا الخلق من أهمية، وخاصة إذا اتصفت به من فُطرت عليه، أعني النساء.

أ ـ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾:

وفي هذه الآية قد أتي بدلائل على أهمية هذه الفضيلة وعلوِّ مكانتها؛ منها: التصريح بالصفة في قوله ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ وأيضاً صيغة المبالغة، إذ إن الاستحياء مبالغة في الحياء، كما أن لفظ ﴿فَجَآءَتْهُ﴾ يغني عن قول «تمشي» ولكن جاء به ليبني عليه قوله ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ ليصف هيئة المجيء وما عنده من الاستحياء التام، بالإضافة إلى ما يدلّ عليه الحرف ﴿عَلَى﴾ من الاستعلاء للتمكن من الوصف(٢).

وقد ذكر المفسرون في معنى قوله ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: أن إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام جاءته تمشي على استحياء منه، وقد سترت وجهها بثوبها، قال بذلك عمر بن الخطاب. والحياء مشتق من الحياة ومرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، فكلما اتصف الإنسان بالحياة الطيبة تعمق فيه خلق الحياء، وإذا ضعف اتصافه بالحياة الطيبة، ضعف عنده الحياء.

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، رقم ٦١١٧.

فالحياء خلق حميد مطلوب، وهو شُعبة أصيلة من شُعب الإيمان، ويُمْدَح الإنسان المسلم المتصف به، قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[١]، وهو يدعو صاحبه إلى ترك الرذائل والتحلّي بالمكارم والفضائل، ومن فقد التحرُّج والتجمُّل وصار عبداً لهواه وشهوته، وصار يفعل ما يحلو له بدون حياء أو تحرّج: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

والهمزة والسين والتاء في الآية: ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ للتأكيد، أي أن الحياء تعمّق في مشاعرها وأحاسيسها وكيانها ووجدانها وملأ عليها وجودها وهي في طريقها إلى موسى، وتؤكد العبارة تمكُّن الحياء منها وتصوِّر هذا تصويراً حيّاً ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، وكأن هذا الحياء والاستحياء ليس حالة نفسية شعورية، وإنما هو طريق مادي معبد ملموس محسوس، طريق تمشي عليه هذه الفتاة الحييّة مشياً وتطؤه بقدميها الحييّتين وطئاً.

ولنتصور درجة ومستوى حيائها وتحرّجها وارتباكها، وارتفاع نبضها وتسارع دقات قلبها واضطراب مشاعرها، وخفوت صوتها، وهي قادمة إلى موسى تمشي على استحياء[٢].

ولقد أبهم القرآن المرأة التي جاءت موسى فقال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ لكن الرسول حدّدها بأنها الأخت الصغرى، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سُئلت: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأتمّهما وأبرّهما، وإذا سُئلت: أيُّ المرأتين تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت وقالت: يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال: وما رأيتِ من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه عن البئر، قال: وما الذي رأيتِ من أمانته؟ قالت: قال: امشي خلفي

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، رقم ٦١١٧.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٣٣).

ولا تمشي أمامي»[١]. كانت الأخت الصغرى إذن، أما اسمها فهو من المبهمات التي لم يُبيِّنها رسول الله ﷺ[٢].

ب ـ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾:

كانت حذرة ذكية في انتقاء كلامها وهي تُبلِّغ رسالتها لموسى عليه السلام، فالذي يدعوه إلى البيت هو أبوها وليس هي، منعاً للشبهة أو الريبة، فلم تقل له: تعال معي إلى البيت، وإنما قالت: إن أبي يدعوك، ثم بينت له سبب دعوة أبيها ليعرف ذلك، وهو أن أباها يريد أن يجزيه ويكافئه مقابل إحسانه إليهما لمّا سقى لهما الغنم.

ولما بلغته الرسالة وخاطبته بهذه الجملة المفيدة المختصرة المفيدة شعرت بالراحة، حيث استراحت من الحمل الثقيل وهو مخاطبة الرجل الغريب، والملاحظ أنه لم يجر حديث مطول بينها وبينه، ولم يردَّ على كلامها بكلام، وإنما قام وذهب معها، ويبدو أنها سارت أمامه لتدله على الطريق إلى البيت، ولكن موسى لم يرتض ذلك؛ فقال لها: امشي خلفي ولا تمشي أمامي، وهذا تصرّف أخلاقي حكيم من موسى عليه السلام، فلو سارت أمامه فقد ينكشف بعض أجزاء بدنها بسبب الريح أو المشي، وقد تتجسم بعض أجزاء جسمها وهي تسير، وقد يرى موسى ذلك منها وهو لا يحب أن يرى ذلك لعظمة أخلاقه وصفاء روحه، وطهارة نفسه ومشاعره، ولهذا طلب منها أن تمشي خلفه، وسار هو أمامها وكانت ترشده إلى الطريق وتُوجِّهه وهي خلفه[٣].

ت ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

وصَلا البيت، واستقبل الشيخُ الكبير الكريم موسى الشّهم القوي الأمين وأنس موسى إليه، وشعر بالأمن والاطمئنان، وعرّفه على نفسه وعلى قصته، فطمأنه الرجل وهنّأه بالنجاة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير والكبير، إسناده حسن، الأحاديث الصحيحة، رقم ١١٨.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٣٥).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٣٣٦).

قال تعالى: ﴿جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قصّ موسى عليه السلام على الرجل قصته منذ ولادته إلى نشأته في قصر فرعون وقتله للقبطي، وأمرِ فرعون بالقبض عليه وقتله، وخروجه من مصر وتوجّهه إلى مَدْيَن، ووصوله إليه. وأُعجب الشيخ الكبير المؤمن بقصة موسى المثيرة، ولاحظ فيها رعايةً وحفظاً من الله له، وأحب موسى لإيمانه وأمانته وشهامته، ودعاه إلى الشعور بالأمان وعدم الخوف وقال له: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والقوم الظالمون هم فرعون وآله وجنوده الجادّون في البحث عن موسى عليه السلام لقتله، وكأن الرجل يريد أن يبين لموسى أنه لا سلطان لفرعون عليه، ولا نفوذ لمصر على مدين في تلك الفترة، وكأن «مدين» كانت مستقلة عن مصر وقتها وغير خاضعة لها، فموسى أوى إلى مَدْيَن، وتحرّر من الخطر الفرعوني، وشعر بالأمان والاطمئنان عند هذا الشيخ المؤمن، وزال عنه الخوف والغم[1].

وهذا تقدير الله وتدبيره، فهو الذي ساق موسى إلى مدين وهداه إليها، وقدّر له الوصول إلى بيت هذا الشيخ الكبير صاحب الإحسان وإكرام الضيفان وحسن اللياقة والأخلاق، وقد كان موسى عليه السلام في حاجة إلى الأمن، كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب، ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد، ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ فجعلها أول لفظ يُعقِّب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة ويشعره بالأمان، ثم بيّن وعلل: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا سلطان لهم على مَدْيَن ولا يصلون إلى من فيها بأذى ولا ضرار[2].

ث ـ الراجح أن هذا الرجل ليس شعيباً عليه السلام:

نحاول أن نتعرف على هوية هذا الرجل الصالح صاحب مدين وأبي المرأتين من هو؟

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٣٧).

(٢) في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٥/ ٢٦٨٧).

فقد اختلف المفسرون والمؤرخون فيه، وقد أورد ابن كثير في التفسير أهم أقوالهم في ذلك:

● قال بعضهم: هو شعيب النبي عليه الصلاة والسلام الذي بعثه الله نبيّاً إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وهو قول الحسن البصري وغيره.

● وقال آخرون: لم يكن شعيباً عليه السلام، وإنما هو ابن أخيه، وكان رجلاً مؤمناً صالحاً.

● وقال آخرون: هو رجل مؤمن من أهل مدين، لا نعرف اسمه.

وإن الراجح هو القول الثالث ـ والله أعلم ـ فلم يبين القرآن اسمه، ولم يصحَّ حديث واحد مرفوع عن رسول الله ﷺ في تعيينه، ولو صح حديث منها لقلنا به، والراجح أنه ليس شعيباً عليه السلام؛ لأن شعيباً عليه السلام كان قبل موسى بمدة زمنية طويلة، فمن خلال قصة لوط وشعيب عليهما الصلاة والسلام في القرآن، كان قوم لوط وقوم مدين متقاربين من حيث الزمان ومن حيث المكان، وكان دمار قوم لوط قبل دمار قوم مدين، وذكّرهم شعيب عليه السلام بما حلَّ بقوم لوط من دمار منذ عهد قريب، وأن الحادثة مازالت قريبة إلى أذهانهم فقال لهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وبما أن هلاك قوم لوط كان في زمن إبراهيم عليه السلام فقد كان هلاك قوم مدين قريباً من عهد إبراهيم.

وبين إبراهيم وموسى عليهما السلام فترة زمنية طويلة تمتد لعدة قرون، فبينهما كلٌّ من إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وبين يوسف وموسى عليهما السلام مدة طويلة، وقد قدّر بعض المؤرخين الفترة بين إبراهيم وموسى أنها أربعة قرون[1]، وهذا رأي ابن كثير والسعدي والخالدي وغيرهم وإليه أميل.

والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو النبي شعيب

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٣٨).

بين بقية قومه المؤمنين ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ولا معاملتهم لنبيّهم وبناته من أول جيل.

ويُضاف إلى هذا أنّ القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات[١].

والخلاصة: أن الرجل الذي أكرم موسى عليه السلام كان رجلاً مؤمناً صالحاً من قوم مدين، وعاش بعد النبي شعيب عليه السلام بعدة قرون، وهو مبهم من مبهمات القرآن، لا نحاول تبيين اسمه لعدم وجود أدلة على ذلك من الأحاديث الصحيحة.

أكرم الرجل الصالح موسى عليه السلام وكافأه، وشعر موسى عنده بالأمان والاطمئنان، وحصل أنس وارتياح بين الرجلين، ولعلّ الرجل الصالح تفرّس في موسى خيراً، واستقبل له مستقبلاً إيجابياً، وعلم أن الله يحفظه ويرعاه ويحميه[٢].

ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٦ـ٢٨]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾: يوحي لفظ الآية كأن الفتاة تستعطف أباها، وترجوه أن

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٧).

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٣٩).

يعرض على موسى عليه السلام أن يعمل لديهم، فهي فرصة لا يمكن تعويضها، لما رأت من خيره ونفعه، وأنه يخفف عنهم الأعمال الثقيلة التي كانت تقوم بها وأختها، فسيُنقل هذا كله إلى موسى عليه السلام.

قولها ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: تلطّف في الطرح وتأدب في العرض، فنادت والدها بلفظ قريب إلى القلب محبب إلى النفس[١].

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾: طلبت من أبيها أن يستأجر موسى ويوظفه أجيراً ليرعى الغنم، وذلك ليتكفّل برعاية الغنم نيابة عنهما، وفي طلبها إشارة إلى أن الأختين إنما رعتا الغنم من باب الضرورة، لعدم وجود من يقوم بذلك من الرجال، أما وقد تيسّر الآن هذا الرجل، فليقم هو برعي الغنم بدلهما، ولهذا سارعت البنت بالإشارة على أبيها بذلك، وقد بَرَّرَتْ طلبها بالقول:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فوصفت موسى عليه السلام بأنه قوي أمين[٢]، وقد قالت ذلك من غير تلعثم ولا اضطراب لأنها كانت تعلم أن أباها يبحث عن أجير يثق بأمانته وحفظه وقوته.

ودلّ قولها على رجاحة عقلها، فأفضل ما ينبغي أن يتصف به العامل المستأجَر: القدرة على أداء العمل المستأجَر له، والأمانة التي تحمله على الإخلاص في عمله، وحفظ ما يؤتمن عليه من مال رب العمل، كما دلّ قولها أيضاً على سرعة فطانتها، وقوة ملاحظتها وحسن فراستها، فقد عرفت قوته عندما سقى لهما بمفرده مع أنه كان في غاية الإجهاد والجوع، وعرفت أمانته ومروءته عندما لاحظت عفته، فقد سار معها إلى بيت أبيها من غير أن يرفع طرفه إليها، وهو أمر على خلاف ما هو معهود من الرجال عندما يلقَوْن النساء[٣].

---

(١) وقفة التأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص٢٠.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٤٠).

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، عبد الحميد محمود طهماز، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، (٦/ ٣١٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[١].

وأُعجب الرجل الصالح بمشورة ابنته ورأيها، فأخذ به، وعرض على موسى العمل عنده، وعرض عليه أيضاً أن يزوجه إحدى ابنتيه، مما يدل على ثقة الرجل بابنته وصلاحها، وثقته أيضاً بموسى عليه السلام.

ودلّت الآية على جواز الأخذ برأي المرأة ولو كانت فتاة في ريعان شبابها وربيع حياتها، فقد تفطن المرأة إلى ما لا يفطن له الرجل، وقد يجعل الله في رأيها خيراً كثيراً أو يدفع به شرّاً خطيراً، ولهذا كان رسول الله ﷺ يستشير أحياناً أمهات المؤمنين، ويأخذ برأيهن فيما يعرض له[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾: لخَّصت بنت الرجل الصالح مواصفات القيادة والشخصيات الإدارية، وليس فقط من يصلح للاستئجار للرعي، والقوة والأمانة هنا هي المعادِل للحفظ والعلم في قصة جد موسى عليه السلام الأعلى يوسف عليه السلام، حين طرح هو مواصفات القائد إذ قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وحفيظ تعادل ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ وعليم توازي ﴿ٱلْقَوِيُّ﴾.

ومواصفات المسؤول سواءٌ أكان راعي غنم أم قائداً من قادة الأمم، ينبغي أن يتجلَّى برفيع الخصال والصفات والشيم والشهامة، كي تتسنَّم المجموعة التي يقودها الذُّرا والقمم وتفلح وتغنم وتسلم وتسعد وتهنأ وتنعم وتشتد منها العزائم وتقوى الهمم[٣].

---

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص٢٧٦.
(٢) التفسير الموضوعي، طهماز، مرجع سابق، (٦/ ٣١٢).
(٣) تفسير سورة القصص، ص٢٦٤.

٢ ـ قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧].

يبدو أن الرجل الصالح اقتنع بموسى عليه السلام وأحبه، وموسى عليه السلام يُحَبُّ لشكله ولروحه ولرجولته ولمروءته وشهامته وتواضعه وأخلاقه، فعرض على موسى عليه السلام في بساطة وصراحة إحدى ابنتيه من غير تحديد ولا تحرّج ولا التواء، فهو يعرض نكاحاً لا يُخجل منه، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت، وليس في هذا ما يُخجل ويدعو إلى التحرّج والتردُّد والإيماء من بعيد[١].

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بل كانت النساء يعرضن أنفسهن على النبي ـ ﷺ ـ أو من يرغب في تزويجهن منهم، وكان يتم هذا بصراحة وأدب وخُلق رفيع، لا تُخدش معه كرامة ولا حياء، إذ عرض عمر الفاروق (رضي الله عنه) ابنته حفصة على أبي بكر فسكت، وعلى عثمان فاعتذر، فلما أخبر النبي ﷺ بهذا طيّب خاطره، وذلك عسى أن يجعل الله تعالى لها نصيباً فيمن هو خير منهما، فتزوّجها ﷺ. وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها، فألقت إليه ولاية أمرها يُزوجها ممن يشاء، فزوّجها رجلاً لا يملك إلا سورتين من القرآن، فهو علَّمها تلك السورتين فكانتا صداقاً لها، وعلى تلك البساطة والوضاءة كان أبناء المجتمع الإسلامي يبنون بيوتهم ويُشيِّدون صرح الأمة من غير تلعثم ولا تصنُّع، وهكذا صنع الشيخ الكبير ـ صاحب موسى عليه السلام ـ فعرض على موسى ذلك العرض[٢].

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾ أي: أُزوِّجك إحدى ابنتيَّ هاتين، وفي هذا أدب رفيع من العارض ومن المعروض عليه. وفي مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذا الخلق الكريم وهذا التشجيع من أولياء

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٨).
(٢) في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٥/ ٢٦٨٨).

أمور البنات، ألا ترى أن الله أباح لنا أن نعرِّضَ بالزواج لمن توفِّي عنها زوجها؟ قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ولا تخفى علينا عبارات التلميح التي تلفت نظر المرأة للزواج.

وقوله ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ أي: تكون أجيراً عندي ثماني سنوات، وهذا مهر الفتاة، أراد أن يُغلي من قيمة ابنته حتى لا يقول زوجها إنها رخيصة، أو أن أباها رماها عليه.

ـ ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] يعني: حينما تعايشني ستجدني طيب المعاملة، وستعلم أنك موفَّق في هذا النسب، بل وستزيد المحبة في البقاء معنا.

٣ ـ فأجاب موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ أي: أنا بالخيار، أقضي ثمانية أم عشرة، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [(١)]: فهو الشهيد الموكّل بالعدل بين المتعاقدين وكفى بالله وكيلاً[(٢)]، والله على ما أوجب كل واحد منا لصاحبه على نفسه بهذا القول شهيد وحفيظ[(٣)].

بيَّن موسى عليه السلام هذا البيان تمشِّياً مع استقامة فطرته ووضوح شخصيته وهو ينوي أن يُوفِّي بأفضل الأجلين كما فعل[(٤)]. والدليل على أن موسى عمل عند صهره عشر سنين: ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: سألني يهودي من أهل الحِيرَة: أي الأجلين قضى موسى؟ فسألتُ ابن عباس فقال: أكملهما وأتمّهما[(٥)].

إن طبيعة موسى عليه السلام القائمة على الشهامة والمروءة والكرم

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٩١٠ ـ ١٠٩١١).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٩).
(٣) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن» الطبري، (٢٠/ ٦٥ ـ ٦٦).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٨٩).
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني، المصدر السابق، رقم ١٨٦.

والأريحية لا تقبل إلا الكرم والفضل، ولهذا لم يكتف بالمطلوب منه، وإنما زاد السنتين الأخريين فضلاً وكرماً[١].

ويعتقد بعض الباحثين أن موسى عليه السلام تزوّج التي ذهبت إليه تدعوه لأبيها ثم حثَّت أباها على استئجاره بعد ذلك، ليكشف السياق القرآني عن لون من ألوان الإعجاب الراقي الذي يجيش بنفسها تجاهه[٢]. وانتهت معاناة الفتاتين وقلق الوالد وترقبه لهما.

إن هجرة موسى عليه السلام إلى مدين وعمله عند الشيخ ومقامه لديه طوال هذه السنوات، هي مرحلة إعداد روحي عميق[٣].

لقد هيأ الله لموسى عليه السلام الإقامة في مَدين بحكمته وتدبيره سبحانه وتعالى، لينتقل بعد ذلك لمرحلة أخرى قدّرها الله له، وهكذا تم الاتفاق بين موسى وبين الرجل الكبير، وتزوّج موسى ابنته الصغرى وعمل المدة المتفق عليها بينهما.

وقد فعل الله الحكيم ذلك بموسى، لأنه يعدّه لمهمة كبيرة، سيجعله نبيّاً رسولاً ويبعثه إلى فرعون وينقذ بني إسرائيل، وهذه المهمة لابدّ أن تسبقها فترة تهيئة وإعداد، فكانت السنوات العشر في مدين[٤].

٤ ـ من تدابير الله لموسى عليه السلام في السنوات العشر:

نقلت يد القدرة الإلهية خُطا موسى عليه السلام خطوة خطوة؛ منذ أن كان رضيعاً في المهد حتى المرحلة التي ألقت به في اليم ليلتقطه آل فرعون، وألقت عليه المحبة في قلب امرأة فرعون لينشأ في كنف عدوه، ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً، وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها، وصاحَبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٤٦).
(٢) المرأة في القصص القرآني، الشرقاوي، المرجع السابق، ص١٠٣.
(٣) المرأة في القصص القرآني، المرجع السابق، ص١٠٤.
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٣٤٦).

مدين وهو وحيد مطارد من غير زاد ولا استعداد، وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر، ثم يعود بعدها فيتلقَّى التكليف.

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه، ومن التلقي والتجريب قبل النداء وقبل التكليف، تجربة الرعاية والحب والتدليل وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس، وتجربة الندم والتحرّج والاستغفار، وتجربة الخوف والمطاردة والفزع، وتجربة الغربة والوحدة والجوع، وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة والمشاعر المتباينة والخوالج والخواطر، والإدراك والمعرفة . . إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليف ضخم شاقٌّ متعدِّدُ الجوانب والتبعات، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي، إلى جانب هبة الله اللّدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير[1].

ورسالة موسى عليه السلام بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر، عدا رسالة محمد ﷺ:

فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبّر، وهو كان أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم استعباداً للخلق واستعلاء في الأرض.

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرؤوا مذاقه، فمردوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً. والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفَّن، ويذهب ما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق وعسير.

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة، انحرفوا عنها، وفسدت صورتها في

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٠).

قلوبهم، فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة، ولا هي باقية على عقيدتها القديمة. ومعالجة مثل هذه القلوب شاقّة وعسيرة، والالتواءات فيها والرواسب تزيد المهمة مشقة وعسراً.

وهو في اختصار: مرسل لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من الأساس، فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً له حياة خاصة، تحكمها رسالة. وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير[١].

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقبات داخلية وخارجية، وما يعتريه من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل.

جاءت تجربة السنوات العشر لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى عليه السلام وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليفها العسيرة، فإن لحياة القصور جوّاً خاصّاً وتقاليد خاصة وظلالاً خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكِن النفس من المعرفة والإدراك والشفافية. وإن الرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير والواجد والمحروم، وفيهم النظيف والوسخ، والمهذب والخشن، وفيهم الطيب والخبيث، والخيّر والشرير، وفيهم القوي والضعيف، والصابر والجزوع وفيهم وفيهم...

وإن للفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم وطريقة فهمهم للأمور، وطريقة تصورهم للحياة، وطريقة حركتهم وحديثهم، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم. وهذه العادات تَثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربَّوا في القصور، ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلاً عن معاناتها وعلاجها مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصلاح، لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم قلوب أهل القصور. وكما أن للرسالة تكاليفها من المشقة والتَّجرُّد والشظف أحياناً.

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٠).

وقلوب أهل القصور، مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الترف والدعة والمتعة، فإنها لا تصبر طويلاً على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة.

لذلك شاءت القدرة التي تنقل خطا موسى عليه السلام أن تخفض ما اعتادته نفسه من تلك الحياة، وأن تزجَّ به في مجتمع الرعاة، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم ليجد القوت والمأوى، بعد أيام الخوف والمطاردة والمشقة والجوع، ومن ثم ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر، وروح التأفُّف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم، وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم، وأن تلقي به في خضم الحياة كبيراً بعدما ألقت به في خضم الأمواج صغيراً، ليتمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها[١].

فلما استكملت نفس موسى عليه السلام تجاربها، وأكملت مرانتها ودربتها بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه، ومقر أهله وقومه ومجال رسالته وعمله، سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيداً طريداً خائفاً يتلفَّت، فما هذه الجيئة والذهاب في الطريق ذاتها؟

إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق الذي سيقود فيه موسى خطا قومه بأمر ربه كي يستكمل صفات الرائد وخبرته، حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق، فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير، حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير. وهكذا ندرك كيف صُنع موسى على عين الله وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف. فلنتبع خطا موسى تنقله يد القدرة الكبرى في طريقه إلى هذا التكليف[٢].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩١).
(٢) في ظلال القرآن، المصدر السابق، (٥/ ٢٦٩١).

تاسعاً: قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٥]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]:

نرى أن خاطراً راود موسى عليه السلام، فعاد به إلى مصر بعد انقطاع الأجل، وقد خرج منها خائفاً يترقَّب، وأنساه الخطر الذي ينتظره هناك، وقد قتل فيها نفساً، فهناك فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه.

هذه الطمأنينة؛ إنها اليد التي تنقل خطاه كلها، وقادته هذه المرة بالميل الفطري إلى الأهل والعشيرة والوطن، وأنسته الخطر الذي خرج هارباً منه وحيداً طريداً، ليؤدي المهمة التي خُلق لها منذ اللحظة الأولى.

عاد موسى عليه السلام في طريقه، ومعه أهله، والوقت ليل، والجو ظلمة، وقد ضل الطريق، وهناك كما يبدو من أنسه بالنار التي شاهدها (وحده) ليأتي منها بخبر أو جذوة، وهذا هو المشهد الأول في هذه المرحلة[1].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩١).

أ ـ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أي: لما عمل موسى عند صهره الرجل الصالح عشر سنين، وأتمّ المدة التي اتفقا عليها وقضى الأجل، غادر مدين وسار بأهله ـ زوجه وأولاده ـ وتوجه عائداً إلى مصر.

ب ـ ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾: رأى ناراً بجانب جبل الطور، فطلب من أهله أن يمكثوا مكانهم وألا يغادروه وسيذهب هو إلى النار التي رآها[1].

وقد أخبر موسى عليه السلام أهله بوجود النار، وهذا يعني أنهم لم يروها كما رآها هو، وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقدها بشر، وإلا لاستوى أهله معه في رؤيتها، فهذا إذن أمر خاص به[2]، واللطيف في التعبير القرآني أنه عبر عن رؤية موسى للنار ليلاً بفعل ﴿ ءَانَسَ ﴾ وليس بفعل «رأى» أو «أبصر».

فهنا قال: ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾.

وفي سورة طه قال: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه: ١٠].

وفي سورة النمل قال: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [النمل: ٧].

إن الفعل الماضي ﴿ ءَانَسَ ﴾ ورد خمس مرات في القرآن، أربع مرات منها في سياق رؤية موسى للنار بجانب جبل الطور. والتعبير بفعل ﴿ ءَانَسَ ﴾ يُعطي معنىً أبلغ وأعمّ من معنى الفعل «رأى»، إن الفعل «رأى» يدل على الرؤية والإبصار بالعين، أما فعل ﴿ ءَانَسَ ﴾ فإنه يعطي معنى فعل «رأى»، ويزيد عليه معنى الأنس والاستئناس بما رأى، والانشراح لما رأى والرضا النفسي والشعوري بما رأى والتفاعل مع ما رأى.

وبما أن موسى عليه السلام كان في حالة ضيق، ويعاني ما يعاني من البرد، وقد أضل الطريق في الليل المظلم، فقد وجد أُنسه وطمأنينته بتلك النار التي رآها

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٤٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٩١١).

وآنسها من بعيد، فاستأنس بها واستروح إليها وانشرح صدره لها ورجا أن يجد عندها حلاً لمشكلته، وهكذا كان[١].

وفي قوله لأهله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ فالآية تبين أن الرجل قوّام على أهله يتعرّض دونهم لما يُخشى ولا يعرّضهم له، يذهب ويبتغي لهم، فليس من شأن المرأة السعي والتعرض للمخاطر، فأبقاها في مكان آمن حتى يرجع.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن موسى عليه السلام هو موسى لم يفتر أو يتغيَّر، فموسى الذي استغرب وقوف المرأتين دون الرجال تذودان الغنم، هو موسى الذي يصون زوجه، ويحثّها على المكوث، ثمّ يذهب يبتغي لها ما تتدفّأ به[٢].

ت ـ قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾: رجا أن يجد شخصاً عند النار، فيسأله عن الطريق إلى مصر فيأتي أهله بخبر يستدل به على الطريق الصحيح، فإن لم يجد خبراً فسوف يأتيهم من النار بجذوة يصطلون بها، ويتدفؤون عليها في هذه الليلة الباردة. والجذوة هي الجمرة، قال الراغب: الجذوة: الذي يبقى من الحطب بعد الالتهاب[٣]، ولم ترد كلمة ﴿جَذۡوَةٖ﴾ في القرآن في غير هذا الموضع.

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗاۖ سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، رجا أن يأتيهم منها بخبر من رجل عندها يخبره عن الطريق أو يأتيهم بشهاب مشتعل يقبسه منها ويشعله، ثم يأتيهم به مُقتبَساً مُشتعِلاً ليصطلوا به[٤]، ومعنى ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾: شعلة لها لسان ولهب[٥].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٤٩).
(٢) تدبر سورة القصص، ناصر العمر، ص٦٤.
(٣) المفردات، الأصفهاني، المصدر السابق، ص١٩٠.
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٣٥٠).
(٥) تفسير الشعراوي، (١٨/ ١٠٩١٢).

﴿ءَانِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، فهو رجا أن يجد على النار هدى بأن يجد عندها رجلاً يخبره بخبر الطريق الصحيح، أو يأتيهم منها بقبس مشتعل من النار[١].

وعند النظر في آيات السور الثلاث: القصص وطه والنمل في التعبير عن هذا المشهد من قصة موسى عليه السلام نجد: أنه عبّر عنه بكلمات خصّها به ولم ترد في غيره من القرآن:

منها: ﴿جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩].

ومنها: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾: حيث ذُكرت مرتين: في سورة النمل [آية: ٧]، وفي سورة القصص [آية: ٢٩].

ومنها: ﴿بِقَبَسٍ﴾: حيث ذُكرت مرتين: في سورة طه: ﴿ءَانِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ [آية: ١٠]، وفي سورة النمل: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [آية: ٧].

ويمكن أن نرتب السور الثلاث التي ذكرت هذا المشهد من قصة موسى ترتيباً متدرجاً هكذا: سورة القصص، ثم سورة طه، ثم سورة النمل، فعبّر في سورة القصص بالجذوة من باب الرجاء: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وتحوّلت هذه الجذوة إلى قبس في سورة طه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَانِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾، بينما تحوّل هذا القبس إلى شهاب قبس في سورة النمل، وجزم موسى بإحضاره جزماً، وليس من باب الرجاء، حيث قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، ولا ننسى ملاحظة التعبير بالسين الجازمة بدل «لعلّ» الراجية في فعل ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ بدل فعل «لعلي آتيكم».

إن جمع المواضع الثلاثة التي عبَّرت عن الحادثة نفسها، بهذا التنويع المعجز، قادنا إلى هذه الملاحظة، وسبحان الله منزل هذا القرآن[٢].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٥٠).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٥١).

٢ ـ قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠]:

أ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في الجبل مما يلي الوادي، فوقف مبهوتاً في أمرها فناداه ربه: ﴿ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾.

﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره ولا ربّ سواه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه[١]. والكلام صفة من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلَّم بالوحي»[٢].

وأجمع السلف على ثبوت الكلام لله، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهو كلام حقيقي يتعلق بمشيئته بحروف وأصوات مسموعة[٣]. والدليل على أنه بمشيئته قوله ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فالتكليم حصل بعد مجيء موسى على أنه متعلق بمشيئته تعالى[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٦/ ٢٤٤).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز ابن باز وآخرين، القاهرة، المطبعة السلفية، ط١، (١٣/ ٤٦٠).

(٣) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة، ص٧٢.

(٤) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، علي محمد الصلابي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٧٩.

ويعتقد السلف أن الله تعالى من صفاته صفة الكلام، وهي صفة قائمة غير بائنة عنه، لا ابتداء لاتصافه بها ولا انتهاء، يتكلم بها بمشيئته واختياره، وكلامه تعالى أحسن الكلام، ولا يشابه كلامه كلامَ المخلوقين، وإذن فالخالق لا يقاس بالمخلوق، ويُكلِّم من شاء ويُسمع على الحقيقة من شاء من ملائكته ورُسله، ويَسمعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه، كما كلمه وناداه حين أتى الشجرة بصوت نفسه، فسمعه موسى، كما أن كلامه تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، فإن صوته لا يشبه أصواتهم، وكلماته تعالى لا نهاية لها، ومن كلامه القرآن والتوراة والإنجيل، والقرآن كلامه، سوره وآياته وكلماته[١]. وقال ابن تيمية: فإن السلف وأئمة الحديث يقولون إنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه ليس بمخلوق بل كلامه صفة له قائمة بذاته[٢].

ب ـ المكان الذي نادى الله موسى فيه:

حرصت آيات القرآن على تحديد المكان الذي كانت فيه النار، والذي سمع فيه موسى كلام الله:

ففي سورة النازعات ذكر اسم الوادي المقدس «طوى» وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٦]، وورد هذا أيضاً في سورة طه في قوله تعالى ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، ولقد جعل الله وادي «طوى»، وهو الواقع بجانب جبل الطور في سيناء، أي: وادياً مقدّساً بنص الآية، والقداسة هنا الطهارة والتنزيه عن المفاسد والرذائل.

و﴿طُوًى﴾ في هذه الآيات: هو اسم للوادي المقدس، وهو «عطف بيان» ـ كما يقول النحويون ـ على ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ وكأنه قال له: إنك بوادي طوى.

---

(١) من عقيدة المسلمين، الصلّابي، المرجع السابق، ص٨١.

(٢) من عقيدة المسلمين، الصلّابي، المرجع نفسه، ص٨١. وانظر: جامع الرسائل، ابن تيمية، المصدر السابق، ص٥٥٤.

وفي سورة القصص ورد تحديد المكان في هذه الآيات:

● **الأولى**: قوله تعالى ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ . . .﴾ [آية: ٢٩].

● **الثانية**: قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ . . .﴾ [القصص: ٣٠].

● **الثالثة**: قوله تعالى خطاباً لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

● **الرابعة**: قوله تعالى خطاباً لنبيه محمد ﷺ أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦].

وفي سورة مريم ورد تحديد مكان نداء الله في آية قريبة من هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥١ ـ ٥٢]. ومعنى هذه الآيات أن الوادي المقدّس «طوى» كان بجانب جبل الطور المبارك، وكانت الشجرة المباركة في سفح جبل الطور، ورأى النار فيها عن بُعْد، وجانب الطور هو الجانب الأيمن بنص آية سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، والجانب الأيمن من جبل الطور هو الجانب الغربي، كما في آية سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ما كنت بالجانب الغربي الأيمن لجبل الطور، وهو الجانب الذي نادينا موسى منه[1].

وإنَّ جانبَ الطور الأيمنَ الغربيَّ الذي فيه الشجرة المباركة هو نفسُه جانب الوادي الأيمن المذكور في قوله ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، و﴿شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾؛ هو جانبه، ويمكن تصور المكان من خلال هذه الآيات، وذلك على النحو الآتي:

لما وصل موسى بأهله إلى وادي طوى وجبل الطور، سار هو في وادي طوى،

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٥٣).

ووجّه وجهه نحو مصر وجعل جبل الطور عن يمينه، وبذلك كان جانب وادي طوى عن يمينه أيضاً وهو شاطئ الوادي الأيمن، وكانت الشجرة المباركة على يمين موسى، فهي على شاطئ وجانب الوادي الأيمن الذي هو في جانب جبل الطور الأيمن.

وإن هذه البقعة اليمنى كلها بقعة مباركة، باركها الله في تلك الليلة المباركة، وهي المذكورة في قوله ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، والمعنى: لما أتى موسى المكان ناداه الله من الشجرة، وهذه الشجرة من شاطئ وادي طوى، وهذا الشاطئ هو جانب الوادي الأيمن، وهذا الوادي هو في جانب جبل الطور الأيمن، وهذه البقعة كلها هي البقعة المباركة، ولهذا قال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] (١).

وتعتبر آيات سورة القصص من أكثر الآيات التي حددت المكان الذي نُودي منه موسى عليه السلام(٢)، وهذا ما لا نجده في سورة أخرى بهذا التفصيل(٣).

ت ـ البقعة المباركة:

بارك الله تعالى البقعة المباركة والنار التي ذكرها ومن حولها، قال تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] أي: الذين حضروا عند النار في ذلك الوقت، وهم موسى عليه السلام والملائكة الذين أرسلهم الله جلّ وعلا، وإن كانوا لم يُذكروا في كتاب الله العزيز، أما الله عز وجل فَكلّم موسى وهو مستوٍ على عرشه فوق سماواته سبحانه وتعالى، ولكن إنما يذكر الله ـ جلّ وعلا ـ موسى عندما حضر والملائكة الذين حضروا تلك القصة، أو ذلك

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٥٤).
(٢) الحوار القرآني في قصة موسى، تيسير محجوب الفتياني، الأردن، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٥م، ص٦٦.
(٣) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، الأردن، دار النفائس، ط٣، ٢٠١٠م، ص٥٠٤.

الحال الذي كان لموسى مع ربه ـ جلّ وعلا ـ فبُورك موسى، وبورك الملائكة، وبوركت النار، وبوركت البقعة التي فيها تلك النار ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، بقعة مباركة، ورجل مبارك، وملائكة مباركون، وشجرة مباركة ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

قال أهل العلم: البركة هي كثرة الخير، والبركة تكون في الأقوال، والأفعال، والأماكن، والأزمنة، وأمور أخرى، وهنا القصد:

في الأقوال: فكتاب الله كتاب مبارك، والبركة فيه ظاهرة، فهو رحمة، وهو شفاء، وهو شفاعة وهو أجر، عندما تقرؤه تأتيك البركة من كل جهة.

في الأفعال: كطالب العلم، فيبارك الله لك في وقتك، ويبارك الله لك في علمك، ويبارك الله لك في الأجر الذي تأخذه، ويبارك الله لك فتعبد الله على بينة من أمرك.

في الأماكن: فالمساجد مباركة، خاصة المساجد الثلاثة، ومكة مباركة، والمدينة مباركة، وهذا الوادي مبارك، والشام مباركة، فيجعل الله البركة في هذه الأماكن.

في الأزمان: فرمضان مبارك، وليلة القدر مباركة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وعشر ذي الحجة أيام مباركة.

وأما الأمور الأخرى: فماء المطر مبارك، وزيت الزيتون مبارك، ولعق الأصابع بعد الأكل فيه البركة، والخيل جعل الله فيها البركة[١]، وهناك أشخاص مباركون: فمحمد ﷺ مبارك، وموسى عليه السلام مبارك، باركه الله ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وعيسى عليه السلام مبارك: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، وهذه بركة يجعلها الله في أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٢].

---

(١) فبهداهم اقتده: قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، ط١، ٢٠١٠م، ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥٣.

وفي قوله تعالى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ قيل: ووصفت بالبركة لما وقع فيها من التكليم والرسالة لموسى عليه السلام، وإظهار المعجزات والآيات على يديه(١).

ث ـ ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]:

امتدح الله عزّ وجل نفسه بأنه ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والعالَمون جمع عالَم، وكل ما سوى الله فهو عالَم، وفي قوله تعالى ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. والنصوص المعرِّفة بأنه رب العالمين كثيرة جدّاً، كما مدح نفسه بأنه رب كل شيء كما في قوله تعالى ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ويبين الإمام ابن القيم معنى قوله تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيقول: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ربوبيته للعالم تتضمن تصرُّفه فيه وتدبيره له ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كلّ ساعة في شأن يخلق ويرزق ويُميت ويُحيي ويخفض ويرفع ويعطي ويمنع ويُعزُّ ويُذلُّ، ويصرّف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه(٢).

وتحدّث ابن القيم رحمه الله عمّا يُشاهده العبد من اسمه سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيقول: وشاهد مِن ذِكر اسمه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيّوماً قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرّها، قد استوى على عرشه، وتفرّد بتدبيره وملكه، فالتدبير كله بيديه ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدابير نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع والخفض والرفع، والإحياء والإماتة والتوبة والعزل والقبض والبسط، وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

ولا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع، ولا معقّب لحكمه ولا رادّ لأمره،

---

(١) معالم التوحيد في قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، حمود بن غزاي بن غازي الحربي، السعودية، مجلة العلوم الشرعية، جامعة القصيم، مج١٢، ع ٥، أيار/ مايو ٢٠١٩م، ص٣٨٧٥.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي محمد الدخيل الله، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ، (٤/ ١٢٢٣).

ولا مبدّل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتُعرَض الأعمال ـ أول النهار وآخره ـ عليه، فيقدّر المقادير، ويوقّت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]:

فأمر الله موسى عليه السلام في هذه الآية بأن يُلقي عصاه من يده، بمعنى أن يرميها على الأرض، وإذا بها تتلوى على الأرض كأنها جانٌّ، إما بمعنى الجن المعروف أو بمعنى غير ظاهر في اللفظ، ولكنه موجود في اللغة، ولعله سُمِّي بهذا الاسم تشبيهاً له بالجان.

إن موسى عليه السلام لما رأى هذا المشهد أدار ظهره وولى هارباً ولم يتلفت وراءه وهو الشجاع البطل، وإن المنظر يخلع القلب من شدة غرابته، ولنتصور الموقف ضع نفسك في المكان صحراء وليل ووحدة موحشة، وكذلك العصا التي تتحول بمجرد إلقائها على الأرض إلى حية تتحرك حركة سريعة، مَن يبقى مكانه؟! ومَن يُحافظ على اتزانه؟! ثم يناديه الله تعالى قائلاً: يا موسى أقبل ولا تخف، إنك في كنف من لا يُروَّع الذين في كنفه، إنك من الآمنين[٢].

أ ـ قال السعدي: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها سَوْرة مُهِيْلة، ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾؛ فهو ذَكَر الحيات العظيم، و﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروع في قلبه، فقال الله له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف، فإن قوله ﴿أَقْبِلْ﴾: يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل في الأمر المخوف.

فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ ۖ﴾ أمرٌ له بشيئين: إقباله، وألا يكون في قلبه خوف، ولكن

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، (٤/ ١٢٢٣).
(٢) تفسير سورة القصص، ص٢٧٣.

يبقى احتمال، وهو أنه قد يُقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه.

فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه وتمّ يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون ليكون على يقين تام، فيكون أقوى وأصلب[1].

ب ـ قال الدكتور فضل حسن عباس عن قضية العصا: فنرى المفسرين قد أكثروا فيها القول، وخلاصة ما قالوه: أن العصا وُصفت بأوصاف ثلاثة: تارة بأنها حية تسعى، وأخرى كأنها جانٌّ، وثالثة هي ثعبان مبين، وقالوا هذه الأوصاف الثلاثة شيء واحد، فهي ثعبان مبين في ضخامتها، وهي حية تسعى كذلك، ولكنها جانّ في خفة حركتها، والجان صغار الحيات كما يقولون.

وإن الذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الأمر ليس كما قالوا، ولكلٍّ وجه، والله أعلم بما يُنزِّل، فوصف العصا بأنها ثعبان مبين إنما ذكره القرآن في سياق الحديث عن فرعون: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٠ ـ ٣٢]، ولا شكّ في أن هذا الوصف ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ يتسق منسجماً مع السياق، لأن ما تعطيه هذه الكلمة تجد فيه النفس من الرهبة ما ليس في الوصفين السابقين، والمقام مقام تخويف ورهبة.

أما سياق الرسالة فلم يأت ذكر الثعبان، وإنما الحيّة والجان، ولا شك في أن الحية تشمل أنواعها الصغيرة والكبيرة، فهم يُعرّفون الجان بأنها صغار الحيات، فهي حية صغيرة. والقرآن الكريم حينما قال حية تسعى، فإنه لم يُشِر إلى صغرها أو كبرها، ولذا فإن الذي نميل إليه أن قوله سبحانه ﴿هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] غير قوله ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠].

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨٠).

ونرجح تفسير الجان هنا لا بصغار الحيات، كما يقول المفسرون أو جلُّهم، وإنما نفسره بالجان الذي هو مقابل للإنسان، وهو من الجن، وقد قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ـ١٥].

ونستأنس لهذا التفسير بما يلي:

أما لفظة ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ فذُكرت في القرآن أكثر من مرة، ولا تعني إلا هذا النوع الذي خُلق من النار، ولم يرد تفسير الجان بصغار الحيات إلا في هذا الموضع الذي هو وصف للعصا على ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي، فلم يرد تفسير الجان بصغار الحيات في موضع آخر، ولا يظنَّ ظانّ هنا أننا نُنكر أو نستبعد أن تأتي الكلمات القرآنية في أكثر من موضع، وأن يكون لها في كل موضع تفسير غير الذي تُفسَّر به في الموضع الآخر، كما لا يظن ظانّ أننا ننكر أن يفسر الجان لغةً بصغار الحيات، وكل الذي يتبادر لنا أن الجان هنا، إنما هو المخلوق المعروف، وربما يقول قائل: إن المشبّه به يجب أن يكون أمراً حسِّياً معلوماً للمخاطبين، ونقول: إن هذا هو الكثير الغالب أن يكون أمراً محسوساً، ولكنه قد يكون غير ذلك كذلك، نعم لا بدّ أن يكون معلوماً للمخاطبين، وما نظن أحداً يجهل خفة الجان وقدرته على الحركة.

ذُكر بعد هذا الوصف قول الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، ولم يُذكر هروبه في سورة طه بعد قوله ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، كل الذي ذُكر ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]، وقد ذَكر ما هو قريب من هذا في السورتين الأخريين، وهذا الذي نركز عليه أنه جاء في سورة طه ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، فالعصا إذن قد خرجت عن طبيعتها، فصارت حية تسعى، ودليل هذا قوله سبحانه ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، وهذا معناه أن طبيعة العصا تغيرت، وسيعيدها الله كما كانت عصا، لكن الذي في سورتي النمل والقصص إنما جاءت بأداة التشبيه كأن، ولا شك في أن التشبيه لا يخرج الشيء عن حقيقته، ونظن ذلك أمراً بديهياً، ومن نافلة القول: وإذا كان

هذا الذي أُراه في هذه الآيات الكريمة ـ والله أعلم بمراده ـ فلستُ أقصد مخالفة المفسرين ـ معاذ الله ـ ولست أريد حمل أحد على ما أُريته إن لم يجد فيه مقنعاً.

ذلك هو جانب بدء الوحي في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، ومن ثم فإن الذي يهمنا أن كل سورة كان لها حديثها الخاص بها، وهذا إلى جانب تعدد الأساليب البليغة[١].

٤ ـ قال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]:

وبعدما أعاد الله الحية عصاً، وشاهد موسى عليه السلام المعجزة بعينيه ولمسها بيديه، فأراد الله أن يُقدم له معجزة أخرى، ليست مخيفة مثل الأولى، ولكنها مثلها في الدلالة على وحدانية الله وقدرته على فعل ما يشاء، وكانت يد موسى سمراء، وذلك لأن موسى كان أسمر اللون كما أخبرنا رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «أمّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فرجل آدم جَعْدُ الشعر»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام، رجل آدم طُوال جَعْد، كأنه من رجال شنوءة»[٣].

ومعنى «آدم»؛ أسمر اللون.

ومعنى «طوال»؛ طويل الجسم.

ومعنى «جعد الشعر»؛ شعر رأسه أجعد قطط، وليس سبطاً مسترسلاً، فالرسول ﷺ يخبر أن موسى عليه الصلاة والسلام كان أسمر اللون.

وقد أمر الله موسى عليه السلام أن يُدخل يده السمراء داخل جيب درعه

---

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، المرجع السابق، ص٥٠٩.
(٢) البخاري، رقم ٣٤٣٨، مسلم، رقم ١٦٥.
(٣) مسلم، رقم ١٦٥، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٢.

أو ثوبه ويخرجها، فإنها ستخرج بيضاء ناصعة البياض، تلمع وتتلألأ بيضاء من غير سوء؛ فليس بياضها عن بَرص أو بهاق أو أي مرض جلدي، وإنما بياضها معجزة من الله حين تعود إلى لونها الأسمر المعتاد.

كان تحويل يده السمراء إلى بيضاء، ثم عودتها إلى لونها الأسمر معجزة من الله له، كمعجزة تحويل العصا إلى حية تسعى، ثم عودتها عصا خشبية بعد ذلك[1]. وإن معجزة تحويل يد موسى عليه السلام السمراء إلى بيضاء من غير سوء، جاءت هذه الآية في سورة القصص، وكذلك سورة طه وسورة النمل: قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٢ ـ ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ﴾ [النمل: ١٢].

وإن الضم في قوله ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] معناه الإدخال، فعبّر به في سورة طه، لكنه عبّر في سورة النمل بالإدخال: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ﴾، والإدخال هو السلوك المذكور في سورة القصص: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ والسلوك هو النفاذ والاختراق، يقال: سلك الطريق: إذ نفذ فيها واخترقها، فضم اليد إلى الجيب هو إدخالها فيه، وإدخالها في الجيب هو نفاذها واختراقها له، ونلاحظ أن الآيات الثلاث في السور الثلاث تركز على حقيقة واحدة وهي أن يده ستخرج: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾.

أما الجناح المذكور في الآيتين: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ و﴿ٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ فهو الجانب، قال الإمام الراغب: الجناح: جناح الطائر، وسُمي جانبا الشيء جناحيه فقيل: جناحا السفينة وجناحا العسكر وجناحا الوادي.

وقيل: جناحا الإنسان: جانباه، قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جانبك، وقوله تعالى ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾: المراد بالجناح فيه اليد

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٦٩).

أي: اضمم إليك يدك، لكون الجناح كاليد، ولذلك قيل لجناحي الطائر يداه[١].

فمعنى قوله ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ اضمم إليك يدك بسبب الرهبة والخوف، إنه قد أدخل يده في جيبه لتخرج بيضاء من غير سوء ليكون ذلك له آية: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ وقد أمره الله بشيء آخر، وهو أنه عندما يشعر بالرهب والخوف والفزع والرعب فعليه أن يضم إليه يده: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ وذلك ليزول عنه الرهب والرعب.

وليست هذه الوسيلة التي أرشد الله لها موسى عليه السلام خاصة بتلك الليلة المباركة، وإنما هي وسيلة عامة مطردة لزوال خوفه وفزعه في أي موقف يمر به.

كما أن هذه الوسيلة الربانية لزوال الرُّعب والخوف ليست خاصة بموسى عليه السلام، وإنما هي عامة تصلح لكل من مرّ بحالة من الرهب والفزع، فإذا ضم يده إليه، فإنه سيشعر بزوال ذلك[٢].

قال الإمام ابن كثير في التفسير: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾: قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية.

والظاهر أن المراد أعمّ من هذا، وهو أنه أُمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه ـ وهو يده ـ من الرهب، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف.

وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده من الخوف إن شاء الله[٣].

ونفَّذ موسى أمر الله تعالى، فأدخل يده في جيبه، فخرجت بيضاء من غير

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٧٠).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٧١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

سوء، وبعد فترة عادت سمراء كباقي جسمه وضمَّ يده إليه، ووضعها على قلبه فزال عنه ما كان يجده من الخوف والفزع والرعب والرهب، وعاد إليه اطمئنانه وهدوءُه، وأعطى الله موسى عليه السلام الآيتين، وقال له عنهما: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

قال ابن كثير: هما إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه، فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه(١).

وإذن، فهي الرسالة إلى فرعون وملئه، وإنه الوعد الذي تلقَّته أمُّ موسى وهو طفل رضيع: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي الوعد اليقيني الذي انقضت عليه السنون، وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين(٢).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ فالفسق هو الخروج عن منهج الله خروجاً شائهاً شائناً مفسداً، والخروج عن الفطرة كذلك، وقوم فرعون خرجوا عن الملة التي نشرها يوسف عليه السلام في مصر، وخرجوا عن فطرة الله، وخرجوا عن العقل وخرجوا عن العدل، كل ذلك صوَّرته كلمة(٣).

٥ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣ـ٣٥]:

عَرَفَ موسى عليه السلام طبيعة المهمة الثقيلة التي كلّفه الحق تبارك وتعالى بها، فأراد أن يستزيد من تأييده تعالى فأظهر ضعفه وشدة افتقاره إلى معونة ربه(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، المصدر السابق، (٣/ ٣٧٥).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٣).
(٣) تفسير سورة القصص، ص٢٧٧.
(٤) التفسير الموضوعي، طهماز، (٦/ ٣١٧).

ولقد تذكَّر موسى عليه السلام أنه قتل من قوم فرعون نفساً، وأنه خرج من بينهم طريداً، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيداً وهو في حضرة ربه، وربه يكرمه بلقائه ويكرمه بكلامه ويكرمه بآياته ويكرمه برعايته، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يُقتل فتنقطع رسالته، فيطلب من ربه العون والتأييد والمناصرة.

أ ـ ففي قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾: يقولها لا ليعتذر ولا ليتقاعس ولا لينكص، ولكن ليحتاط للدعوة، ويطمئن إلى مُضيّها في طريقها ولو لقي ما يخاف، وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين[(١)].

وفي قوله ﴿رَبِّ﴾ بحذف حرف النداء للإشارة إلى قوة إحساسه بالقرب من ربه، وكأنه حذف حرف النداء ليجد حلاوة كلمة ﴿رَبِّ﴾ من غير أن يشغل بحرف قبلها.

وقوله ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يؤكد لدلالة هذا التوكيد على قوة هذا المعنى في نفسه وأن خوفه من أن يقتلوه خوف أكيد، لأنه قتل منهم نفساً، ووراء هذا إحساس أكيد بأن فرعون وملأه، التابع له في الرأي، يريدون الانتقام منه[(٢)].

ب ـ وفي قوله ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]:

إن فصاحة اللسان لا تعني اللسان الذي بين الفكين، وإنما تعني قوة الحجة، والقدرة على الإقناع بالبينة، والقدرة على دحض الشبهة، وهذا هو المعنى الحقيقي للفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وأنها كلها أوصاف للطاقات النفسية والعقلية واليقظة والوعي، وكل ما يكون به البيان قبل أن يتحرك به اللسان، فيكون اللسان هو الناطق به ليس إلا، وهكذا كان يعرف موسى أخاه هارون، وأنه قوي في حجته، قادر على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، كما يعرف له مكانة ومنزلة في الناس[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٣).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٠٨.
(٣) المصدر السابق، ص٣٠٨.

وهذا هو مراد موسى عليه السلام بقوله ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ لأن الفاعل ضمير يعود على هارون، ومعنى أن هارون يصدقه أنه يُقيم الحجة على ما قاله موسى، ويدفع عنه الضلالة والباطل، ثم يعلم موسى عليه السلام أن هارون معين على الحق ونعم المعين، ولذلك قال: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ﴾: أي مُعيناً، وراجع تعادل الكلام وفصاحته وعذوبته وإيجازه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾.

﴿يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ثم لاحظ لمحة أسكنها موسى عليه السلام في بيانه وهي أنه قال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ ثم ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فأكّد خوفه من أن يكذبوه، ولم يؤكد خوفه من أن يقتلوه، فأومأ بذلك إلى أن خوفي من أن يكذبون في بلاغي عنك أشد علي من خوفي أن يقتلون، ووراء ذلك من إحساسه بتحمل عبء البلاغ عن ربه ما وراءه(١).

ت ـ قوله جل شأنه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]:

رحم الله الشيخ الباقلاني الذي قال: «وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل» لأن هذه لا يقولها إلا من له تجربة طويلة وخصبة في التعرف على شرف الكلام، وأن وجه الوقوف على هذا الشرف ليس بطول الدرس، ولا بكثرة العلم، ولا بقراءة من كتبوا فيه، وإنما هو وجه واحد هو أن تتأمل، قلت ذلك لأني أجد في هذه الكلمات من البلاغة والدّقة والسداد والصواب ما لا يمكن أن يكون إلا من الله، وأعجز عجزاً ظاهراً عن بيانه، وكل الذي أقوله هو راجع له.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ فالعضد من المرفق إلى الكتف، وإذا قوي هذا العضد قوي الجسم كله، وشد العضد يعني تقوية الجسم كله، والشّد هنا ليس قوة حسية وإنما هو قوة موسى عليه السلام في أداء بلاغ الله، وعليك أنت أن تراجع كلمة ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ لتعلم أي مدى كان هارون عليه السلام

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، المصدر السابق، ص٣٠٩.

يُشَدُّ به عضدُ أخيه الذي هو كليم الله، والذي كلفه الله بملاقاة فرعون وهو راجع من مدين التي خرج إليها هارباً من فرعون ثم قال:

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾؛ وادخل في هذه الجملة واسأل عن حدود معنى كلمة ﴿سُلْطَانًا﴾، هل المراد به الحجة؟ هل المراد به القوة والسيطرة؟ هل المراد به الهيبة؟ ثم استغنى عن بيان سعتها بقوله بعدها:

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾؛ وقف عند الفاء التي رتبت عجز فرعون وعجز ملأ فرعون وجنود فرعون عن الوصول إلى سيدنا موسى وسيدنا هارون بعد أن جعل الله لهما سلطاناً[1].

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾؛ وما المراد بالوصول؟ وكيف كان هذا السلطان حصناً حصيناً أمام جبروت الذي يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، وكيف صار عاجزاً قصير اليد فلا تصل يده بكل ملئه وبكل قومه وبكل جنوده إلى رجلين من بني إسرائيل.

وانتهى الكلام وبقي الوعد، والوعد ليس عجز فرعون وملئه عن أن يصل إليكما، وإنما الوعد بأنك أنت وهارون ومن تبعكما الغالبون لهذا الجبروت الذي زلزل بجرمه أمن بني إسرائيل الذين قال لهم الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] فأمَّنهم وذكر المشيئة، فجاء هذا الشيطان وانتهى بزمانه زمن بني إسرائيل في مصر. وظهرت الحكمة من ذكر يوسف للمشيئة، ولاحظ الجملة الأخيرة التي هي وعد وبشارة بالنّصر على فرعون في أول الوقت الذي يكلَّف به سيدنا موسى عليه السلام ببلاغ رسالة ربه إلى هذا الطاغية، قال سبحانه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

فقدّم «بآياتنا»، والأصل أن يكون الكلام أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا،

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، المصدر السابق، ص٣١٠.

ولما كانت غلبة موسى وهارون ومن يتبعهم جبروتَ فرعون الذي كان يزلزل الأرض من تحت أقدام كل من يروم أن يطأ بقدمه تراب مصر، أقول غلبة موسى وهارون ومن تبعهما لصاحب هذا الجبروت الذي لم تظهر قوته على شعبه، وإنما على أعداء شعبه أمراً بعيداً في المنظور البشري، قدم الآيات لأنها تعني أنكم غالبون بهذه الآيات، لأن هذا الفرعون لا تغلبه إلا آيات الله لأنه غلب الممالك[١].

وفي قوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي سنقوي أمرك ونُعزُّ جانبك بأخيك الذي سألتَ له أن يكون نبيّاً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منةً على أخيه من موسى على هارون عليه السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيّاً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وفي قوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ـ٥٢][٢].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: هذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعد ما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له وعده، ومكَّنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، المصدر السابق، ص٣١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، المصدر السابق (٦/ ٢٤٥ـ٢٤٧).

ث ـ قال ابن عاشور: محل العبرة من هذا الجزء من القصة التنبيه إلى أن الرسالة فيض من الله على من اصطفاه من عباده، وأن رسالة محمد ﷺ كرسالة موسى جاءته بغتة، فنودي النبي الكريم ﷺ في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب جبل الطور، وأنه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى، وأن الله ثبته كما ثبت موسى، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه(١).

ج ـ قال المالكي الناصري: وتهدئة لروع موسى وتأميناً له من كل خوف تعهَّد الحق برعايته ورعاية أخيه وحمايتهما من كل أذى، وبشَّرهما بأن الغلبة في النهاية ستكون عاقبة فرعون وملئه، وهذا التعهُّد الإلهي النافذ هو ما نطق به قول الله تعالى في السياق الإلهي نفسه: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٢).

عاشراً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٦ـ٣٧]:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]:

أ ـ يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: المعنى في الآية السابقة: فلما جاء موسى فرعون وملأه بأدلَّتنا وحُجَجِنا بيناتٍ أنها حجج شاهدة بحقيقة ما جاء به موسى من عند ربه، قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر افتريته من قبلك وتخرَّصته كذباً وباطلاً ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه من عبادة من تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، (٢٠/ ١١٨).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٤/ ٥٢٥).

(٣) تفسير الطبري، (٢٠/ ٧٦ـ٧٧).

ب ـ قال الشيخ السعدي: ذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا۟﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارضون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصّه الله علينا وقد علم: ﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] (١).

وقد روت سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون، في صفحتين كاملتين من القرآن الكريم، حقائق إيمانية من كلام العلماء الأتقياء، يُظهرون خوفهم من بأس الله الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين، وذكر لهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وذكر لهم يوم التناد، وذكر لهم يوسف عليه السلام(٢).

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]:

وهو ردّ مؤدب من كليم الله عليه السلام، وهو يُلمِّح ولا يُصرِّح فيه، وفي الوقت ذاته واضح مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل. فربه أعلم بصِدقه وهداه، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى، والظالمون في

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨١).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣١٣.

النهاية لا يفلحون، وسنة الله التي لا تتبدل، وإن بدأت ظواهر الأمور في غير هذا الاتجاه، وسنة الله يواجه بها موسى قومَه، ويواجه بها كلُّ نبي قومَه[١].

وفي رد موسى عليه ردّاً ضمنيّاً في قضية مسلَّمة أنه لابد أن يكون لله رسالة في الناس، وأنه لابدّ أن يكون للحق حملة بين الناس، وهذه المسلَّمة من البداهة العقلية والقضايا الفطرية، ولذا فإن موسى إذ يُحيل هذه القضية لا يُحيل إلى مجهول أو مُبهَم من القول، وإنما يُحيل إلى معلوم عقلي وفطري وبدهي، ثم يلفتهم لفتة أخرى إلى النهايات والعواقب والمآلات يقول: ومن تكون له عاقبة الدار، وكثير من الناس لا يُميِّزون صدق الأفكار إلا بما تُنجزه في الوقائع من نتائج وتُحدثه من آثار، وهؤلاء عندما يرون الحق يرث الأرض سيتأكدون أنه الحق، وموسى يتكلم كلام الواثق، والذي يتكلم بهذا الأسلوب يستميل المخاطبين، وهنا درس للدعاة أن يكونوا مستقيمين بما معهم من حق، وبما حمَّلهم رب العالمين من أمانة الدين، وأن العاقبة للمتقين، ووراثة الأرض للمؤمنين.

ثم لفتهم في هذا السطر إلى أن عاقبة الظالمين خسران، فلا يجتمع الظلم والفلاح، وقانون الله أنه كتب ألا يكون الفلاح للظالمين، وهو قانون عام يشمل المتكلم والمخاطب، ففرعون إن كان ظالماً فلن يُكتب له الفلاح، وأنا إن كنت ظالماً لن يكون لي فلاح، وهو كلام الواعي على سنن التاريخ والواثق من دعوته وحقيّة رسالته[٢].

وقال المكي الناصري: وهذه لهجة خالية من المباهاة والعناد، مرغوب في استعمالها عند القيام بالدعوة والإرشاد[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٤).
(٢) تفسير سورة القصص، ص٢٨٣.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٤).

الحادي عشر: قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨ـ٤٢]:

١ ـ قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]:

و ردُّ فرعون هذا على دعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، يدل على تطاوله ولعبه وتهكُّمه وسخريته.

أ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾: كلمة فيها فجور وكفر، حيث يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم، ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة، ثم على القهر الذي لا يدع لرأس أن يُفكِّر ولا للسان أن يُعبِّر، وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب.

ب ـ ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: يحاول أن يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة والبحث عن الحقيقة، وهو يلهو ويسخر، وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاكّ في صدق موسى، ولكنه مع هذا الشك يبحث ويُنقِّب ليصل إلى الحقيقة: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (١).

ولعل ردَّ فرعون على موسى عليه السلام جاء لما هدّد موسى بالسجن: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وهذا الكلام وجهه

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٤).

فرعون إلى موسى بعدما أفحمه بالحجج الدالة على توحيد الله سبحانه وتعالى، وتفرُّده بالربوبية والألوهية، ولم يرضخ موسى عليه السلام لتهديده؛ بل أظهر آيتي العصا واليد واتَّضحت حجته، عندئذ خشي فرعون أن يسري التمرُّد على ألوهيته المزعومة إلى شعبه المقهور، فجاء بهذا الكلام الموجّه إليهم رجاء أن يبطل بذلك حجج موسى في إثبات ألوهية الإله الواحد الأحد[١].

وفي هذا الخطاب للملأ، سلك فرعون ثلاثة مسالك لإقناع قومه بصحة موقفه في قضية الألوهية، وهي:

أولًا: إظهار نفسه بمظهر المنصف، في الكتاب العزيز: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ نفى فيه علمه بوجود إله سواه، دون نفي وجوده، وعدم العلم بوجود الشيء البديل لا يدل على عدم وجوده، وإنما سلك هذا المسلك من أجل الخداع والتمويه، ليُظهر نفسَه في مظهر المنصف، ويتوصل بذلك إلى تقبلهم ما يقوله فيما بعد من أمر الإله اعتماداً على ما رأوا من إنصافه؛ فكأنه قال: لا علم لي بوجود إله لكم غيري ـ كما زعم موسى ـ لكن الأمر محتمل وسأُحقِّق لكم في ذلك[٢]، وقد كان كاذباً فيما ادّعاه من عدم وجود إله غيره[٣]:

وإن فرعون كان عارفاً بوجود الرب في الباطن، لكنه جحد وأنكر كبراً وعلوّاً. قال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فكانوا عارفين بصدق الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، لكنهم جحدوا بها ظلماً وعلوّاً.

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، سعيد محمد بابا سيلا، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٠م، ص١٤١.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ، (٢٠/ ٨٠).

(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، المرجع السابق، ص١٤١.

وكانت عاقبة الجحود وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة، قال ابن تيمية رحمه الله: وكان فرعون في الباطن عارفاً بوجود الصانع، وإنما استكبر كإبليس وأنكر وجوده، ولهذا قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾، فلما أنكر الصانع، وكانت له آلهة يعبدها، لم يصفه الله بالشرك، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى، والمنكر للصانع منهم مستكبر ولا يعبد الله قط[١].

وإن قوم فرعون كانوا موافقين لفرعون في إنكاره الصانع العظيم، وادعاء هذا الكافر المجرم للربوبية والألوهية، وذلك في قوله تعالى ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ـ٩٨] [٢].

إن ما قاله فرعون في مقدمته الكاذبة بأنه لا دليل على وجود الله، مقدمة كاذبة وباطلة، فالأدلة على وجود الله مبثوثة في الأنفس والآفاق، وقد دل على وجوده سبحانه العقل والفطرة والحس، فحدوث الأشياء بعد عدمها دليل على أن مُوجِداً أوجدها، فلا يمكن أن توجِدَ نفسها بنفسها، فثبت قطعاً أن هناك خالقاً أوجدها[٣].

كما أن المقدمة الثانية في إثبات إلهية نفسه، وأن إثبات ألوهيته على مُلكيّته ليس المقصود بها كونه خالقاً للسماوات والأرض وما بينها، لأن العلم بامتناع ذلك من بداهة العقول، فلم يدّع أحد ذلك، بل إن مقصده أن السلطة والقيادة على الناس لا تكون إلا له، وأن طاعته والانقياد لأوامره واجبة، فهو ملكهم وسيدهم، ومن هنا ادعاء ربوبيته عليهم، وأن في كلامه ما يؤكد عدم ثقته في

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ابن تيمية الدمشقي، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٧/ ٦٣١).

(٢) أسباب هلاك الأمم السابقة، المرجع السابق، ص١٢٦.

(٣) منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين، أفنان حمد بن محمد الغماس، الرياض، مركز دلائل، ط١، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص١٢٢.

ألوهيته عليهم، وأن من المحتمل وجود إله غيره يستحقّ العبودية له.

ويتبين ذلك في تصريحه في اللحظة نفسها بأنه شكاك بكذب موسى عليه السلام، غير متيقن من دعوى وجود رب العالمين «إله غيره» وذلك بقوله ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، فإذا كان ظني أن موسى عليه السلام كاذبٌ في إثبات إله غيره ولم يتيقن من كذبه، ويعلم علم اليقين بذلك، فهذا دليل إقرار غير مباشر أن ثمة إله غيره في الوجود، فما دام ظن أن موسى عليه السلام كاذبٌ، فقد ظن أن في الوجود إلهاً غيره؛ بل إن الآيات على لسان موسى عليه السلام أخبرت أنه كان عالماً بصحة دعوة موسى عليه السلام وليس ظنيّاً، وذلك بقول موسى عليه السلام له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] (١).

وقد شابه قولُه قولَ كثير من الملاحدة المعاصرين الذين ينفون وجود الله، بحجة عدم وجود الدليل على ذلك، فما لا دليل عليه وجب نفيه، ويزعمون أنهم بحثوا وسيّروا وتحرَّوا مواطن إمكان وجوده، ومع ذلك لم يجدوه، فوجب انتفاء وجوده، وعلَّقوا وجوده على جانب حسي تجريبي، فإذا تحقّق إثبات وجود الله عن طريق العلوم التجريبية المحسوسة؛ وجب إثباته فحصروا الدليل عليه، وأثبتوا نفيه وعدم وجوده، فكان فرعون أحسن حالاً منهم ـ مع تجبره وتكبُّره ـ حيث شك في وجوده وقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ولم ينف وجود الخالق جازماً كما فعل ملاحدة عصرنا(٢).

إن المنكرين للألوهية يطلبون الدليل على ثبوت الشيء، فإذا لم يجدوه نفوه، ومعلوم أن عدم العلم ليس علماً بالعدم، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود(٣)، فإذا لم يتمكنوا من العلم به لم يكن هذا حجة على عدم علم غيرهم

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي، (٢٤/ ٥٩٩).
(٢) منهج القرآن الكريم، أفنان حمد، المرجع السابق، ص١٢٣.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وآخرين، الرياض، دار العاصمة، ١٩٩٩م، (٦/ ٤٦٩).

به، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩] (١).

وقد ضلَّ كثير من الملحدين بسبب الجحود والنكران. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: بنو آدم ضلالهم، فيما جحدوه ونفوه بغير علم، أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدَّقوا به، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شيئاً وصدَّقوا به كان حقّاً(٢).

ثانياً: إظهار نفسه بمظهر المُحقِّق المُدقِّق، والباحث عن الحقيقة بالطرق العملية، إذ يظهر ذلك في القرآن: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فها هو يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة(٣).

ويصدر أمر فرعون الفوري إلى وزيره هامان ليبني له صرحاً(٤)، يصعد من خلاله إلى السماء ليبحث حقيقة ما ذكره موسى من وجود إله له في السماء، ولعله كان يرجو أن يكون ما يقوله مقبولاً بعد هذا التحقيق، هذا إن كان في نيته فعلاً بناء الصرح، وهل بُني هذا الصرح أم لا؟ وماذا كان مصيره إن كان قد بني أم لا؟ مسألتان ورد فيهما أقوال، وأغلبها مستند إلى آثار عن التابعين ولا دليل عليها، والله أعلم(٥).

وفي قوله تعالى ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾؛ يتبين أن فرعون الذي لم يعلم لشعبه إلهاً غيره، يجهل أن من صفات الإله الاستغناء عن غيره، وأن المحتاج إلى مساعدة لا يكون إلهاً، وكأن هذه الفاء التي في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ فاضحة وكاشفة لوهمه، وأنه ما أتم جملة ﴿مَا عَلِمْتُ

---

(١) الرد على المنطقيين (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، ابن تيمية، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، بيروت، مؤسسة الريان، ٢٠٠٥م، ص١٠٠.
(٢) مجموع الفتاوى، المصدر السابق، (١٧/ ٣٣٦).
(٣) المفردات، المصدر السابق، ص٢٧٩.
(٤) الصرح: هو البناء العالي المرتفع، وقيل: هو القصر مطلقاً.
(٥) تفسير الطبري، (١١/ ٧٨)، وانظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٤٠١).

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] حتى دل على كذبه بقوله ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، وقد جرى على لسانه ما يلفت أنه ينفي بلسانه ألوهيته، وذلك في قوله ﴿فَأَوْقِدْ لِي﴾ وقوله ﴿فَٱجْعَل لِّي﴾، فأنا في حاجة إلى أن تُوقد لي، وفي حاجة إلى أن تجعل لي صرحاً، وهذا إعلان صريح عن الحاجة التي يُفترض أن يكون الإله غنيّاً عنها(١).

ثالثاً: رمى موسى بالكذب ظنّاً منه واتهاماً في قوله ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي في زعمه أن ثمّ إلهاً غيري، وجاء فرعون بهذا الاتهام إعلاماً منه بأن عزمه على الصعود إلى السماء ليس لأنه جازم بوجود إله موسى هناك، بل ليُثبت صحة قوله بعدم وجود إله سواه(٢).

ولم يتراجع فرعون عن ادعائه الألوهية، رغم الحجج والبيّنات التي جاء بها موسى، حتى إذا عايش العذاب وتحقَّق من الهلاك أراد استدراك ما فاته ليدفع عن نفسه البليّة الواقعة، وفي ذلك يقول الله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن هيهات هيهات، فقد فات الأوان وجاءه الجواب المفحم في قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

نعم يا فرعون، فلقد كان لديك متسع من الوقت لتشهد شهادة التوحيد، وتُسلِم لرب العالمين، أما الآن بعد معاينة العذاب فكلاّ ثم كلاّ(٣).

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]:

أ ـ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الهمزة والسين والتاء في كلمة ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ليست للطلب،

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣١٩.
(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٤٢.
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٤٣.

وإنما هي للعلو في التكبر والاستكبار، معناه رفض الانقياد للحق، ليس لأنه لم يتبين، وإنما رفض الانقياد تكبراً واستكباراً بعدما تبين، وهذا قاطع في أن فرعون أدرك الحق ورفض الإذعان له تكبراً، وحرصاً على الألوهية التي سبقت في الآية.

ب ـ ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ نلاحظ هنا أن فرعون قال في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾، وقال المولى سبحانه في هذه الآية، واستكبر هو وجنوده، ولم يقل استكبر هو والملأ، ليبين لنا ربنا أن طغيان الطاغية لا يكون معتمداً إلا على الجنود التي أخذت على عاتقها حماية السلطان، وليس حماية الأرض والقيم والحق كما هو الأصل، وأن كل طاغية في التاريخ القديم والأقدم والحديث، والواقع الذي يعيشه الناس، ليس له ركن يحميه إلا الجيش، حتى يأخذ الجيش على عاتقه حماية السلطة، ومن أجل تفادي خطر طغيان السلطة قررت الأمم المؤمنة بالحكم الرشيد إبعاد الجيوش عن الاشتغال بالسياسة في دساتيرها وسياستها وأدبها وثقافتها، ويكفي الجيوش حماية تراب الأوطان والقيم الإنسانية الرفيعة تقرُّباً إلى الله، وليس قسرها على حماية الطغيان[1].

ت ـ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: وعجيب جدّاً أن يقول ربنا في الأرض، مع أن فرعون وجنوده استكبروا في مصر، لينبه ربُّنا أهلَ الأرض، كل الأرض وهم جميعاً خلقه، إلى خطر مساندة الطاغية في استكباره واستعلائه على قومه، لأنك تراه حين يفعل ربما يشغل الجنود لضرب شعبه، وترك أرضه تحت أقدام عدوه، ويفتح حرباً بجيشه بينه وبين شعبه، وعدوه آمن على أرض هذا الشعب الذي يطارده جيشه، وهذه لفتة لا تكون إلا من الذي علم كل ما كان، وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون.

ثم قال سبحانه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ نسأل عن قيمة هذا الجار والمجرور، الذي يُقيِّد الاستكبار بأنه خارج عن الحقّ، ولن تجد في اليوم ولا في الأمس

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، المرجع السابق، ص٣٢١، بتصرف.

ولا في التاريخ كله استكباراً بالحقّ، وإنما هذا القيد له نظائر كثيرة في الكتاب العزيز؛ ومنه ما جاء على لسان سيدنا يوسف عليه السلام في خطاب صاحبيه في السجن لما دعاهما إلى التوحيد وقال لهما: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، وهل هناك أسماء معبودة أو معبودات أنزل الله بها سلطان؟

المقصود ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: أي بغير بيّنة وبرهان، مع أنه من المقطوع به أنه لا تكون هناك آية وبينة وبرهان وسلطان من الله إلا بالحق، ولذلك تجد الكتاب العزيز أكثر ما فيه من غضب وترهيب ووعيد للذين يخالفون البين الظاهر؛ لأن مخالفته وعدم الانقياد للحق يُحوِّل الحياة إلى جحيم، فإذا استطاع الظالم أن يجعل بسيفه للباطل سلطاناً وبرهاناً، فاعلم أنك تعيش في ساحة الخراب[١].

ث ـ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ لاحظ البناء للمجهول في قوله ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ بضم الياء، ولم يقل لا يرجعون بفتحها، لأن الرجوع الذي ظنوه منفيّاً لم يكن المراد أن يرجعوا هم بأنفسهم إلينا، وإنما ظنوا أنهم لن تصادفهم قوة فوق قوتهم ترجع بهم إلينا، مع أن هذه القوة أيقنوها من آيات موسى والبينات، والتي نفذت في قلوبهم وغلبهم الاستكبار؛ فكابروا وعاندوا في الإيمان بها، وفي أنها ترجع بهم إلينا، وهكذا تجد في كل كلمة، وفي كل حركة معنى في كلام الله[٢].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾؛ فلذلك تجرَّؤوا، وإلا فلو علموا أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله لما كان منهم ما كان[٣]، وإن الإنسان متى اعتقد بأن لا رجعة له إلى الله زاد ظلماً وفساداً وطغياناً. وإن عقيدة الإيمان باليوم الآخر هي صمام الأمان الإنسي للخلاص من الطغيان، فذاك إنسان يرى نفسه محاسبةً على

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص٣٢٣.
(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨٢).

النقير والقطمير، وعلى كل كبيرة وصغيرة، فهو يقاوم نفسه ويردع شهواته وطغيانه على الخلق، ومن ثم يكون نصيراً للحق[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]:

تنتقل هذه الآية من حلقة التكذيب إلى حلقة التعذيب، وفيها المزيد من غضب الله والعقوبة؛ فيها عقوبة غاضبة، وترى الغضب في كل كلمة وفي كل حرف.

إن غضب الله في هذه الآية إنما اشتد وبلغ ما بلغ؛ لأن الحق كان ظاهراً لا لبس فيه[٢]، وراجع قوله سبحانه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ كأن الحق سبحانه لم يمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة؛ إنما عاجلهم بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أي جميعاً في قبضة واحدة، التابع والمتبوع، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي ألقينا بهم في البحر، وهذا الأخذ الذي يشمل الجميع في قبضة واحدة يدل على قدرة الأخذ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا القوي العزيز كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][٣].

أ ـ وهكذا كانت النهاية الحاسمة: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي أخذاً شديداً، وهو نبذ في اليم، والذي أُلقي في مثله موسى الطفل الرضيع، فكان مأمناً وملجأً، وهو ذاته الذي نُبذ فيه فرعون الجبار وجنوده، فإذا هو مخافة ومهلكة، فالأمن إنما يكون في جناب الله وقوته، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجناب[٤]، وهنا تأمل في الآية الفاءات الثلاث التي تلاحقت، وتلاحقت معها أحداث ثلاثة في قوله سبحانه:

---

(١) تفسير سورة القصص، ص٢٨٥.
(٢) يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٢٤.
(٣) تفسير الشعراوي، (١٨/ ١٠٩٢٩).
(٤) يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٢٥.

ـ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾؛ وسارع ببيان النهاية بعد بيان استكباره في الأرض، ثم جاء بعد الأخذ بلا مهلة، والنبذ في اليم ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، ومن ثم جاء بعد النبذ في اليم الأمر بالنظر والاعتبار ﴿فَٱنظُرْ﴾ لوجوب المسارعة بالنظر والاعتبار بهذه الأحوال التي ملخصها أن الله سبحانه وتعالى أخذ بأعناق المعارضين للحق، وطرحهم في اليم الذي لا قعر له ولا ساحل، وكم في هذا اليم من طواغيت أزعجوا البلاد والعباد[١].

ب ـ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المأمور في قوله ﴿فَٱنظُرْ﴾؛ هو سيدنا رسول الله ﷺ، فتأمَّلْ وانظُرْ أيها النبي، ويا كلَّ معتبر ومتعقِّل بعد النبي ﷺ، تأمل بعين بصيرتك، ومتعقل عقلك كيف كانت عاقبة الظالمين؟ وكيف يكون عاقبة أمثالهم في كل حين[٢]؟

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين، وفيها عبرة للمعتبرين ونذير للمكذبين، وفيها القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين بلمح البصر، وفي أقل من نصف سطر[٣].

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]:

هذه الآية وراءها من المعاني ما لا يُحَدُّ ولا يُعَدُّ، والكلام عن فرعون وجنوده، وضمير الجمع المفعول به في قوله ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ عائد على فرعون وجنوده لأن الكلام عنهم من أول قوله تعالى ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ [القصص: ٣٩]، والمعنى الذي لا يُحدّ ولا يُعدّ هو أنهم قدوة وأئمة يدعون إلى النار، وأن كل من يقتدي بهم، ويتبع سبيلهم، فهو سائر إلى النار من يوم أن كان فرعون وجنوده إلى يوم أن ينفخ في الصور ويبطل التكليف، وأن هذا داخل في القاعدة الشرعية

(١) المصدر نفسه، ص٣٢٥.
(٢) تفسير سورة القصص، ص٣٨٥.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٥).

التي بيَّنها رسول الله ﷺ: أن كل من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وأن ابن آدم الذي قتل أخاه عليه وزر كل من قتل نفساً إلى يوم القيامة، وأن من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً، وهذا لو تأملته لكان عناية فائقة من رب السماوات والأرض بهذه الجماعة الإنسانية الذين هم بنو آدم، الذين أكرمهم الله، وأن من يزرع فيهم خيراً فله أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة، وأن من يزرع فيهم شرّاً فعليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، وأن المسألة ظاهرة ليست بحاجة إلى فلسفة، ولا إلى تنطُّع، ولا إلى علم، وإنما هي ظاهرة يدركها من لم يقرأ ولم يكتب، وعليك أن تختار عدّاد السيئات الذي يعدّ عليك وأنت في قبرك إلى يوم القيامة.

ازرع الخير تجده أمامك في عالم البرزخ وكذلك يوم القيامة، ومن عمل الشر والباطل والكفر والظلم والذنوب والمعاصي، يجدها أمامه في قبره ويوم بعثه، وقد كان فرعون وجنوده فيه أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون.

هذا يوجب علينا أن نستخلص من الآيات ـ التي ذكرت فرعون في السورة ـ خلاصة ما كان عليه فرعون وجنوده، وأول شيء أنه علا في الأرض؛ طغى واستعلى وتجبر وفَرَّق أهل الأرض، وهم الجماعة المتقاربون، وجعل أهلها شيعاً وجماعات، واستضعف طائفة ينتقم منها بحقد وضراوة، أو أن يكون اتهمها بالزور ليبرر تنكيله بها، ولكل زمان تهمة، وهو بالقطع لم يقل التهم التي في زماننا، وإنما اختار من تهم زمانه، ووجّه الإعلام كما رأينا في حكاية المواطن الشريف الذي قال لموسى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

القصد هنا، دعوتك للخير ليست صادقة، وإنما أنت تسعى من ورائها إلى السلطة، وليس هذا ببعيد عن تهم زماننا، ثم نقفز من هذه البداية إلى قوله تعالى في الآيات: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٣٩]، وأن التعميم فيما كان تهيئة لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ لأن فرعون وجنوده لما صاروا

أئمة وقدوات كانوا نموذجاً يُحتذى في الخلق كل الخلق، وفي كل جيل وفي كل زمان، وفي كل مكان، وكان فرعون وجنوده أئمة وقدوة للحاكم المستبد والمتجبر، وللقوم الظالمين والمجرمين في القتل والذبح واستحياء النساء، ومن ورائه جيش يحمي سلطته، ولما جاءته البينة التي لا شك فيها أدرك أنها حق، ولكنها شهوة السلطة، وشهوة الاستبداد والاستعلاء، وقهر الناس، والتسلط عليهم.

إن هناك استبداداً وطغياناً وطغاةً في الأرض قبل فرعون، ولكن لم يُعرف طاغية يقوم جيشه على حماية طغيانه وتعذيبه للناس، وحرقه لأكباد الآباء على الأبناء، وتدمير الأبناء بتدمير عائلاتهم بتهم ملفقة، وأن فرعون وجنوده هم أئمة هذا الكوكب في هذا الطغيان الذي هو شر طغيان، أو المحمي بالجيوش التي هي شر الجيوش، ولم أعرف في تاريخ الأرض له قدوة اقتدى بها، وإنما كان مبدعاً في ذلك، وكان إماماً في ذلك، وسلك سبيله من سلك، وبقي المقهورون ينتظرون آية ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وليذهب الطاغية إلى الجحيم، وليذهب الجيش الذي يُعذِّب الناس ويقتلهم ويحمي الطاغية هو أيضاً إلى الجحيم؛ لأن جيشاً كهذا لا ينتظر الناس منه حماية أرض، لأن جيشاً يقتل شعبه من المستحيل أن يحمي أرضه، وهذا ما أفهمه من الآية، وإن وجدت في كلامي كلمة زائدة في دلالة الآية فنبّه إليها[1].

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]:

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾؛ يعني جعلنا من خلفهم، ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فكل من ذكرهم في الدنيا يقول: لعنهم الله، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيت الدنيا، وهذا اللعن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم، إنما هو مقدمة لعذاب باق وخالد في الآخرة.

---

(١) يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٢٨.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ مادة قبح، تقول للشرير: قبحك الله، أي طردك الله وأبعدك عن الخير، ولها استعمال آخر، تقول: قبّحت الدمُّل: أي فتحته ونكأته قبل نضجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه، ويكون المعنى إذن: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢] أي الذين تشوهت وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التشويه بصور مختلفة.

يقول تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤١].

ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

وإن من المعلوم أن زُرقة الجسم لا تأتي إلا نتيجة ضربات وكدمات شديدة، تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد فتُسبِّب الزُّرقة، وكذلك زرقة العين من أمراض العيون التي تؤدي إلى العمى، ويستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف. وقد كانوا في العصور الوسطى يطلون وجه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم، وتعارف الناس أنه لون الشيطان، لذلك نقول في لغتنا «العفاريت الزرق»، وأما السواد فيقصد به الوجه المشوَّه المنفّر، وإلا فالسواد لا يذم في ذاته كلون، وكثيراً ما نرى أصحاب البشرة السوداء يُشعُّ جاذبية وبشاشة بحيث لا تزهد في النظر إليه، ومعلوم أن الحسن لا لون له، والله تعالى يحب الحسن والبشاشة ويُشعُّهما في جميع العصور، وقد ترى اللون الأسود في بعض الوجوه نضارةً وإشراقاً، وقد نرى صاحب وجه بلون أبيض لا حيوية فيه[1].

أشارت الآيات الكريمة السابقة إلى الهزيمة في الدنيا وفي الآخرة جزاء البغي والاستطالة في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ وليست الهزيمة وحدها، إنما هي اللعنة في الأرض والتقبيح يوم القيامة: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، ولفظة المقبوحين ترسم بذاتها صورة القبح

(١) تفسير الشعراوي، (١٨/ ١٠٩٣٤).

والفضيحة والتشنج وجوّ التقزز والاشمئزاز في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله[١]، وهكذا كانت عاقبة الطاغية المتجبر والمتألّه المتعالي. وأما نبي الله موسى عليه السلام فقد تتابعت عليه رحمات الحق جل وعلا وتوالت عليه أفضاله ونعمه[٢].

الثاني عشر: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]:

تفسير الآية الكريمة:

ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة التي نزلها الله عليه مكتوبة في الألواح.

ـ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: من بعد ما أهلكنا المكذبين من الأمم والأجيال السابقة، تُبصِّر الناس بالحق وتميزه عن الباطل.

ـ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: جعلنا فيها أسباب الهداية ونزول الرحمة، لعلهم يتعظون بها وبأحكامها، وهذا يدل على حاجة المؤمنين الناجين من الهلاك إلى التشريع الإلهي، ليبنوا حياتهم على أساسه القوي المتين، ويسيروا على ضوء منهجه المستقيم. فلا يكفي التخلص من الطغاة الظلمة، لا بد أيضاً من أن يتخلصوا من قوانينهم الجائرة الفاسدة، والشريعة الإلهية هي وحدها التي تأخذ بيد البشرية، لتعمر الأرض بالعدل والحق، وهي وحدها التي تُصحِّح المسيرة البشرية، بعد أن انحرفت على يد الطغاة الظلمة إلى سبل الهلاك والدمار[٣].

١ ـ **قال الطبري:** يقول تعالى ذِكره: ولقد آتينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي قبله، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين،

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢١٩٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٢٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٢٢).

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: ضياء لبني إسرائيل لهم فيها كل ما يحتاجونه من أمر دينهم ﴿وَهُدًى﴾ ويقول: وبياناً لهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن عمل به منهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يقول ليتذكروا نِعَم الله بذلك عليهم، فيشكروه عليها ولا يكفروا[١].

٢ ـ قال ابن كثير: يُخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى عليه أفضل الصلاة والتسليم من إنزال التوراة عليه، بعد ما أهلك فرعون وملأه.

ـ وقوله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يُعذِّب أمةً بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ ـ ١٠].

ـ وقوله تعالى ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي من العمى والغي ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: إرشاد إلى العمل الصالح ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بنبيه[٢].

٣ ـ قال الشيخ الشعراوي رحمه الله: إن في قوله تعالى ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أنه كان لديك قضية ثم نسيتها، فاحتجت لمن يذكِّرك بها، فهي ليست جديدة عليك، هذه القضية هي الفطرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان، لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق، إذن: في الفطرة السليمة للناس جميعاً مقوِّمات الإيمان والهداية، لولا غفلة الإنسان[٣].

---

(١) تفسير الطبري، (٢٠/ ٧٩ ـ ٨٠).
(٢) تفسير ابن كثير، ٦/ (٢٤٥ ـ ٢٤٨).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٨/ ١٠٩٣٧).

الثالث عشر: قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٤ ـ ٤٧].

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]:

إذ شرعت الآيات بالتحقيقات، بعد أن ختمت قصة موسى وفرعون، وبيان الدروس والعبر المستفادة منها، وجاء أول تعقيب يبيّن صدق النبي ﷺ وصحة رسالته من خلال توجيه الخطاب إليه مباشرة، وشرح الآية الكريمة: أي ما كنت بالجانب الغربي من جبل الطور عندما أوحينا إلى موسى، وما كنت من الشاهدين، فتشاهد ما جرى لموسى، وكيف ناداه الله تعالى وكلمه[1].

أ ـ قال ابن كثير: يقول الله تعالى مُنبِّهاً على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، أي ما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له، وإغراق قومه ثم قال تعالى:

ـ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٢٥).

ـ وقال في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [هود: ١٠٠].

ـ وقال بعد ذكر قصة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

ـ وقال في سورة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ [طه: ٩٩].

وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ يا محمد ما كنت بجانب الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقيه على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين[(١)].

ب ـ قال السعدي: ولما قصَّ الله على رسوله ما قصَّ من هذه الأخبار الغيبية نبَّه العباد أن هذا خبر إلهيٌّ مخفيّ، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ أي: بجانب الطور الغربي إذ قضينا لموسى الأمر ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق[(٢)].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]:

أ ـ قال السعدي: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾: فاندرس العلم، ونُسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علَّمناك وأوحينا إليك. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾ أي مقيماً في أهل مدين ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي تُعلِّمهم وتتعلَّم منهم، حتى أُخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين،

(١) تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).
(٢) تفسير السعدي، المصدر السابق، (٣/ ١٢٨٣).

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن ذلك الخبر، الذي جئت به عن موسى، أثرٌ من آثار إرسالنا إليك، ووحيٌ لا سبيل لك إلى علمه دون إرسالنا[١].

ب ـ قال القرطبي في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾: أي بعد موسى، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذكر الله، أي عهده وأمره، نظيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبيّنا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه ولكن طالت المدة، وغلبت القسوة، فنسي القوم ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمداً مُجدِّداً للدين وداعياً الخلق إليه[٢].

ت ـ قال عبد الحميد محمود: إن في إخبار رسول الله ﷺ عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلّم من أهله، دلالة ظاهرة على نبوته[٣]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين ورسولاً إليهم تتلو عليهم آيات الكتاب، ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً، أرسلناك للناس كافة عندما أصبحوا في أمسِّ الحاجة إلى رسالتك[٤].

إن الآيات الكريمة تثبت أن استحضار سيدنا محمد رسول الله ﷺ لقصة موسى عليه السلام، بهذا العرض وهذا المنهج، أنه هو رسول الله، وأن ما يتلوه على الناس إنما هو وحي يوحيه الله إليه، فقد مرّت على هذه القصة قرون بعد قرون، وأجيال وراء أجيال، وأمم بعد أمم، بحيث يفصل بينها أزمنة متطاولة وأجيال وأقوام وأمكنة متباعدة، فكيف عرفت يا رسول الله هذه القصص والأخبار؟!

ولم تكن أيها النبي ـ صلى الله عليك ـ مقيماً في مدين ولا أنت من أهلها، وما كنت تتلو عليهم آياتنا، ولكن أرسلناك إلى هذه الأمة وإلى الإنسانية جمعاء لتتلو

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، المصدر السابق، (١٣/ ١٩٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٢٥).
(٤) التفسير الموضوعي، المصدر السابق، (٦/ ٣٢٥).

عليهم ما ننزله عليك من قصة موسى في مدين بعدما انقضى عليها قرون طوال[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]:

هذه هي المرة الرابعة التي يكرر فيها النص الكريم صيغة ﴿وَمَا كُنتَ﴾ خلال ثلاث آيات، وهذا التكرار يدلُّ على أن النص الكريم يستشهد بهذه القصة على نبوة النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم، ومن هنا يكرر ليقرر، ويعيد صيغة ﴿وَمَا كُنتَ﴾ ليصل إلى النتيجة المطلوبة.

يقول النص الكريم: إنك أيها النبي الكريم لم تكن بجانب الطور إذ نادينا موسى عليه السلام، ولكنَّ هذا الوحيَ الذي قصّ عليك القصة إنما هو رحمة من ربك، فالقصص رحمة، والكتاب رحمة، وأنت لهؤلاء القوم وللعالمين رحمة، هذه الرحمة تتمثَّل في إنذارك قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون حقائق غفلوا عنها، ومصيراً خطيراً ينتظرهم في الدنيا والآخرة[٢].

قال صاحب الظلال رحمه الله: كذلك صَوّر القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، وما سمع رسول الله ﷺ النداء، وما سجل في وقتها تفصيلاته، ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء أن قصّ عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ﷺ فيما يدعوهم إليه، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم من نذير من قبله، فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم، ولم يُرسَل إليهم رسول منذ أمد طويل، منذ أبيهم إسماعيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣].

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]:

وهذه الآيات الكريمة تقتضي أن أسباب المصائب هي الذنوب والمعاصي،

---

(١) تفسير سورة القصص، ص٢٩٢ بتصرف.
(٢) تفسير سورة القصص، ص٢٩٥.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٨).

وأن البعد عنها سبب حلول الخير والبركات بإذن الله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فشيوع الفساد والظلم يجلب المصائب والعقوبات الإلهية في الدنيا قبل الآخرة، وهذا يقتضي وجوب الإصلاح وإزالة الظلم حتى لا تحلَّ العقوبة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

ما أحوج الناس إلى التوبة لله سبحانه عزّ وجل، وإلى استغفاره مما كسبت أيديهم، فإن الله تعالى لا يعذّب المستغفرين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] (١).

أ ـ قال الدكتور أحمد نوفل: إن الله تعالى لو لم يرسل إلى العرب رسولاً يُنذرهم ويُذكّرهم، ومن ثم وقعت بهم المصائب التي يستحقُّونها نتيجة طبيعية لشركهم، وما يُنتجه الشرك في المجتمع من مظالم وفجور ومعاصٍ، فيقولون لو وقع بهم ذلك: يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً، فنتبع وحيك وتعليماتك، ونكون بهذا الرسول وبالرسالة التي أُرسل بها من المؤمنين (٢).

ب ـ قال صاحب الظلال: فهي رحمة الله بالقومِ، وهي حجة كذلك عليهم كيلا يعتذروا بأنهم أُخذوا على غرّة، وأنهم لم يُنذروا قبل أخذهم بالعذاب، وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب، فأراد الله أن يقطع حجتهم وأن يعذر إليهم وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾؛ كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول، ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة (٣).

ت ـ قال عبد الحميد طهماز: أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن تُعذِّبنا على كفرنا، فهو يُبلغنا آياتك فنتبعها، ونكون من المصدقين بها.

---

(١) تدبر سورة القصص، ص٧٣.
(٢) تفسير سورة القصص، ص٢٩٦.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٩).

ـ ﴿وَلَوْلَآ﴾ الأولى امتناعية، والثانية تحقيقية واقعة في سياقها، والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما أرسلناك، إنما قطعاً لعذرهم، وإلزاماً للحجة عليهم[١].

وإن الآيات في هذا المعنى كثيرة، ومنها قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وبعد أن أكَّدت الآيات صدق النبي ﷺ وضرورة بعثته، وحاجة الناس إلى رسالته، أظهرت عناد المعاندين لرسالته[٢].

الرابع عشر: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٨ ـ ٥٠]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]:

وهكذا لم يُذعنوا للحق، واستسلموا بالتعليلات الباطلة: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾؛ إما من الخوارق المادية وإما من الألواح التي نزلت عليه

---

(١) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين أبو سعيد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ، (٤/ ٥٧٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٢٧).

جملة وفيها التوراة كاملة، ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم ولا مخلصين في اعتراضهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ولقد كان في الجزيرة يهود وكان معهم التوراة، فلم يؤمن لهم العرب، ولم يصدقوا بما في أيديهم من التوراة، ولقد علموا أن صفة محمد ﷺ مكتوبة في التوراة، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب، فلم يُذعنوا لهذا كله، وادعوا أن التوراة سحر، وأن القرآن سحر، وأنهما من أجل هذا يتطابقان، ويُصدِّق أحدهما الآخر.

ـ ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ فهو المراء إذن واللجاجة، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ولا ضعف الدليل[١].

وردّ الله عليهم بأسلوب التحدي الذي تناسب مع عنادهم وتعنتهم[٢]، فقال:

٢ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]: أي: كنتم صادقين في ادعائكم أنهما ساحران، وكثيراً ما يَقرن الله تعالى بين التوراة والقرآن الكريم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩١ ـ ٩٢]:

إن الله عزّ وجل في كتابه العزيز يسير معهم خطوة أخرى في الإفحام والإحراج، يقول لهم: إن لم يكن يعجبكم القرآن ولم تكن تعجبكم التوراة، فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فائتوا به أتبعه[٣].

وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء، فيما

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٨).
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٢٨).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٦٩).

أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه، أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ، أي القرآن الكريم، وبعده في الشرف والعظمة كتابه الذي أنزله على نبيه ورسوله موسى عليه السلام.

إذن، أولئك عجزوا عن الاستجابة للتحدي الذي لا يزال قائماً، ولا يزال المعاندون لرسالة القرآن الكريم عاجزين أيضاً عن تحديه، وسجل الله تعالى عجزهم، وكشف معه سبب عنادهم وتعنتهم(١).

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]:

وهذه نهاية الإنصاف وغاية المطاولة بالحجة، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر الذي لا يستند إلى دليل، إن الحق في هذا القرآن لبيّن، وإن حجة هذا الدين لواضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده، وإنهما لطريقان لا ثالث لهما، إما طريق للحق وخلاص من الهوى، وعندئذ لابدّ من الإيمان والتسليم، وإما تجنب لطريق الحق واتباع الهوى فهو التكذيب والشقاق، ولا حجة من غموض في العقيدة، أو ضعف في الحجة، أو نقص الدليل كما يدعي أصحاب الهوى المغرضين.

ـ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾: وهكذا جزماً وقطعاً، كلمة من الله لا رادّ لها ولا معقب عليها، إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين غير معذورين، وهم لا حجة لهم ولا معذرة، بل متبعون للهوى، ومعرضون عن الحق البيّن(٢).

ـ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾: فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٠٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٩٩).

فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟ ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم ميله للحق هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله؛ فلهذا قال:

ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، فقد جاءهم الهدى فرفضوه وعرض لهم الهوى فاتبعوه، وسدوا على أنفسهم أبواب الهداية وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسُبلها، فهم في غَيِّهم وظلمهم يعمهون وفي شقائهم وهلاكهم يترددون[١].

ـ وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن، ولم يحيطوا علماً بهذا الدين فما هو إلا أن يصل إليهم، ويُعرَض عليهم، حتى تقوم الحجة وينقطع الجدل وتسقط المعذرة، فهو بذاته واضح لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه، ولا يكذب به إلا متجنّ يظلم نفسه، ويظلم الحق البين، ولا يستحقّ هدى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم، وعرضه عليهم، فلم يَعُدْ لهم من حجة ولا دليل[٢].

وفي نهاية قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، فقد ذكر الإمام السعدي (رحمه الله) بعض الفوائد والعبر من هذه القصة، فقال:

ـ آيات الله تعالى عبرةٌ، وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد ويستنير منها المؤمنون، وعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يعبأ الله بهم وليس لهم منها نور وهدى.

ـ إذا أراد الله تعالى أمراً هيأ أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ـ الأمة المستضعفة، حتى لو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليه الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور،

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨٥).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧٠٠).

خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكَّنهم في الأرض، وملَّكهم بلادهم.

ـ الأمة مادامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقَّها ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها، ولا يكون لها إمامة فيها.

ـ لطف الله بأم موسى، وهوَّن عليها المصيبة بالبشارة بأن سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ـ إن الله يُقدِّر على عبده بعض المشاق ليُنيله سروراً أعظم من ذلك أو يدفع عنه شرّاً أكثر منه، كما قدَّر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وتزداد به غبطة وسروراً.

ـ الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ـ الإيمان يزيد وينقص، وإن من أعظم ما يزيد الإيمان ويتم به اليقين: الصبر عند المزعجات والتثبيت من الله عند المقلقات كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليزداد إيمانها بذلك، ويطمئن قلبها.

ـ من أعظم نعم الله على عبده، وأعظم معونة للعبد على أموره تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ـ إن العبد ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لابدّ منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أُمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ـ جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ـ جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.

ـ من رحمة الله بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يُريه من آياته ويُشهِده من بيناته ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى إلى أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ـ قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنباً واستغفر الله منه.

ـ من يقتل النفوس بغير حق يُعَدّ من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ـ من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول الإسرائيلي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ـ إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة ـ بل قد يكون واجباً ـ كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومحذّراً.

ـ عند تزاحم المفسدتين، إذا كان لابدّ من ارتكاب إحداهما أنه يرتكب الأخفَّ منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يُقتل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى[1].

ـ إن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه، فإن الله لا يخيِّب مَنْ هذه حاله، كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨٨).

ـ الرحمة بالخلق، والإحسان إلى من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وإن من الإحسان سقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

ـ استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها ولو كان الله عالماً لها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ـ إن الحياء ـ خصوصاً من الكرام ـ من الأخلاق الممدوحة.

ـ إن المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ـ إن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه، لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له مقابلاً، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ـ مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر به العمل، وإنما مردّه العرف[1].

ـ تجوز الإجارة بالمنفعة ولو كانت المنفعة بضعاً.

ـ خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يُلام عليه.

ـ خير أجير وعامل يعمل للإنسان أن يكون قويّاً أميناً.

ـ من مكارم الأخلاق أن يحسِّن خلقه لأجيره وخادمه ولا يشق عليه بالعمل، لقوله ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ـ جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد لقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ـ ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة من

(١) تفسير السعدي، المصدر السابق، (٣/ ١٢٨٨).

الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون، ومن الغرق.

ـ من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهديّاً.

ـ ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتأصيلاً موافقاً قصّه قصّاً، صدَّق به المرسلين، وأيَّد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، مدارسة في شيء من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنّان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه على مَن مُجرَّدُ خبره يُنبئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصَدَّقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكافرة المتعاضدة ترمي هذا الدين بقوس واحدة، وتكيد له المكائد، وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده في الأرض، ولكننا نراه يزداد نموّاً وآياته وبراهينه تزداد ظهوراً، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عِبرة وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين، والحمد لله وحده[1].

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٨٩).

الخامس عشر: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٣]:

هذا المقطع من الآيات الكريمة في سورة القصص يتضمن قصة قارون التي تُمثل الطغيان الاقتصادي والمالي، مثله مثل فرعون في بداية السورة، وهو رمز الطغيان السياسي والعسكري والأمني، وقد بيَّن الدكتور أحمد نوفل صلة هذه الآيات بما قبلها ومناسبتها في سياق السورة، فقال:

في فاتحة السورة تكلم القرآنُ الكريم على نموذج للعلو العاتي المنطلق من البعد السياسي المستحوذ على السلطة والقوة، والذي يمارس قهر الناس بقوة السلطان والجند، وفي ختام السورة تحدث عن علو آخر وسبب استكبار آخر هو العلو المنطلق من البعد الاقتصادي، فتكامل بين فاتحة السورة وخاتمتها الاستكباران: السياسي والاقتصادي، ولكن لماذا فصل بينهما؟

ففيما أظن لكي يترك للعقول فرصة التأمل لكل استكبار على حدة، وحتى لا يُظن أنهما شيء واحد وإن تكاملا، ثم إن هذا من قوم وهذا من قوم آخرين لذا فصل بينهما، وإن جمع بينهما الوصف (التكبر) والزمان والمكان؛ ففرعون بغى

وطغى على الشعبين المصري والإسرائيلي، وقارون بغى على الشعب الإسرائيلي: ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، ففرعون وقارون من رموز الفساد.

كان ذلك حديثاً عن صلة القصة بالسياق، سياق السورة، ولكن ما صلتها بما قبلها مباشرة؟

والذي أراه: أن الآيتين قبلها كانتا تتحدَّثان عن الآخرة، وتحدي الله تعالى للمشركين أن يأتوا بشركائهم فيتبين أنه لا ينفع أحدٌ أحداً، وهنا يتقرر ويتكرر المعنى ذاته فكأن هذا الطاغية قارون قد زعم ماله إلهاً معبوداً مع الله، وأنه ينفعه ويحصنه، وإذ به يهوي مخسوفاً به، فما ينفعه ماله، ولا يدفع عنه النقمَ سلطانُه، فتبين أن الحق والقوة والأمر لله وحده[1].

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]:

أ ـ ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾:

كان قارون إسرائيليّاً من قوم موسى، لكنه خرج على قومه بني إسرائيل وانحاز إلى فرعون وملئه، ونصرهم على قومه بني إسرائيل، وقد وردت خلاصة قصته في آخر سورة القصص التي اختصت بالحديث عن قصة موسى عليه السلام منذ ولادته وحتى خروجه ببني إسرائيل من مصر وغرق فرعون. وقد ورد اسم قارون أربع مرات في القرآن:

الأولى: في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

---

(١) تفسير سورة القصص، ص٣٦٨.

وقد أخبرنا القرآن الكريم أنه لما بُعث موسى عليه السلام نبيّاً رسولاً إلى فرعون وملئه كان «الثالوث الباغي» يحكم مصر، وهو المتمثل في فرعون وهامان وقارون، ولذلك نصَّت آية سورة غافر على أن الله أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وهامان وقارون، وهذا يعني أن قارون كان في قمة قوته وفتنته وقت بعثة موسى عليه السلام، وأنه كان جزءاً أساسيّاً من النظام الحاكم في مصر ومساعداً رئيسيّاً لفرعون.

إن النظام الفرعوني كان يقوم على أربع قوى:

ـ القوة المالية الاقتصادية التي يمثلها قارون.

ـ القوة الإدارية التنفيذية التي يمثلها هامان والملأ.

ـ القوة الإعلامية التأثيرية التي يمثلها السحرة المسترهبون.

ـ القوة الفرعونية، حيث كان فرعون يستخدم القوى الثلاث ويسيطر عليها ويوظفها في إخضاع شعبه له.

ولذلك قرنت الآيات بين الطغاة الثلاثة: فرعون وهامان وقارون، والجامع الذي يجمع بينهم هو الكفر والطغيان والفساد.

ـ طغيان فرعون بسبب ملكه وسلطانه، ولهذا دعا قومه إلى عبادته.

ـ وطغيان هامان بسبب وظيفته ومركزه.

ـ وطغيان قارون بسبب ماله وكنوزه.

واتفق موقف الطغاة الثلاثة، حيث استقبلوا موسى عليه السلام بالتكذيب، واتهموه بأنه ساحر كذاب، وترك قارون لقومه بني إسرائيل، وانفصاله عن موسى الإسرائيلي مثله وانحيازه لفرعون القبطي ضد قومه دليل على التقاء الكفار على الكفر والطغيان، مهما اختلفت أصول وأجناس الكفار، فالكفر ملة واحدة.

الثانية: والآية الثانية التي ذكر فيها قارون ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩ـ٤٠].

والثالثة: في قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [القصص: ٧٦]:

والرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

وتخبرنا آيات القرآن الكريم أن قارون كان إسرائيليّاً قبطياً: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، ونحن لا نعرف نسب قارون الإسرائيلي ولا مدى قرابته لموسى عليه السلام، كما لا نعرف كيف كانت بداية قارون ولا كيف كانت مسيرة حياته وعلو شأنه كرمز من رموز الطغيان(١).

وكل ما نأخذه من آيات القرآن أن قارون الإسرائيلي كان من كبار الأغنياء أيام حكم فرعون، وأنّه اغتر بأمواله وكنوزه، ولهذا انحاز إلى جانب فرعون ضد قومه بني إسرائيل، وأن فرعون اعتمد عليه وعلى قوته المالية في دعم نظامه(٢).

وأشارت كتب التراث والروايات التاريخية إلى أن قارون هو أحد أكبر وأشهر الأثرياء على مرّ التاريخ الإنساني كله، وهو من بني إسرائيل، وأنه كان يمت بصلة قرابة من موسى عليه السلام، ولكن حرصه على المال والثراء جعلاه يتقرب من فرعون مصر، بل يتحرك معادياً لسيدنا موسى محاولاً تشويه دعوته في عيون أتباعه(٣).

وقد خاض رواة الإسرائيليات كثيراً في الحديث عن قارون وكنوزه ومفاتيحه،

---

(١) القصص القرآني، الخالدي، (٣/ ٤٣).
(٢) القصص القرآني، الخالدي، المصدر السابق، (٣/ ٤٣).
(٣) فرعون وموسى، خالد علي نبهان، مصر، مكتبة النافذة، ٢٠٠٥م، ص٢٧٤.

وذهب بعضهم إلى أن هذه المفاتيح كانت تُحمل على سبعين بغلاً، ولا يزيد حجم الواحد منها عن إصبع.

وكفانا الإمام ابن كثير في الرد على من زعموا أن قارون كان يعرف اسم الله الأعظم، وأنه كان يتقن «الكيمياء» التي تحوِّل المعادن إلى ذهب، فقال: وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، وأنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخيُّل وصنعة، ولا تُحيل الحقائق ولا تُغيِّرها، ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر[1].

ب ـ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: والبغي هو التعدي، وهو لفظ عام يدخل فيه جميع أنواع المظالم التي تصدر من الباغي بحقّ من يبغي عليهم، سواء أكان: بغياً ماديّاً يصدر عن الاستئثار بالمال وغيره من الأشياء المادية، أو بغياً معنويّاً يتمثَّل في التكبر مما يسبب أذىً نفسيّاً للآخرين، وبغياً قوليّاً من شطحات اللسان، وبغياً عملياً يتمثَّل في تصرفات الباغي بما يسبب من الإساءة للآخر.

ولذا لم يذكر البغي في القرآن الكريم إلا في موضع الذم، لما يحمل من تبعات سلبية ونتائج تصل إلى حد القبح، إن لم يكن القبح بعينه، لذلك حرّم الله تعالى البغي على المؤمن والكافر فكان تحريمه مطلقاً.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

إن الله سبحانه وتعالى نهى عن البغي، وقرن ذلك النهي بالفحشاء والمنكر في قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

إن اختلاف الأمم وتفرقهم وابتعادهم عن الحق كان سبب البغي فيما بينهم،

(١) قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٣٧٣.

وقد أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

إن كُفْرَ كثيرٍ من الأمم كان بسبب البغي، وذلك عندما حسدوا الآخرين على ما آتاهم الله من فضله، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وقال الله سبحانه وتعالى في هؤلاء: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

لقد أجاز الله تعالى لمن يُبغى عليه أن ينتصر لنفسه إن أصابه البغي أو وقع عليه من قبل أحد، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

إن البغي لابد أن يعود أثره على الباغي طال الزمان أم قصر، وهذا الأثر لا يجاوز الباغي ولا يتعداه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

إن كثيراً من العقوبات والجزاءات والحرمان الذي ينال كثيراً من الناس هو سبب بغيهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] (١).

إن قارون آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، غير أنه طغى وبغى على الناس بهذا المال، ولم تحدد الآيات فيم كان البغي، ليدعه مجهولاً يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم

(١) موسى من وحي القرآن، د. عقيل حسين عقيل، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠١٠م، ص٢٥٤.

ومتاعهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال، حق الفقراء في أموال الأغنياء كيلا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم، ومن حولهم محاويج إلى شيء منه، فتفسد القلوب وتفسد الحياة، وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب[1].

ت ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾:

ولم ترد «الكنوز» في القرآن إلا مرتين، في قصة موسى عليه السلام، والمرتان في سياق الذم:

المرة الأولى: في الحديث عن كنوز قارون التي خسف الله بها الأرض بعد ذلك، وزالت الكنوز بزوال قارون مالكها.

والمرة الثانية: في التعقيب على هلاك وغرق فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

وإن التعبير عن أموال قارون بالكنوز يوحي بأنه حصّلها بأدنى جهد مبذول، وأنه كان يعدُّها ويحفظها ويجعلها بعضها فوق بعض، ولا يُخْرِجُ منها شيئاً للمحتاجين، كما يوحي هذا التعبير بأنه كان يكنزها ويكثِّرها وينمّيها، ويحرص على أن يزيدها وما كان يكتفي أو يقنع أو يشبع منها.

وأخبرنا الله أن مفاتح هذه الكنوز لتنوء بالعصبة أولي القوة من الرجال: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ذهب بعضهم إلى أنها المفاتيح التي تفتح بها خزائن كنوزه، وهذه المفاتيح تعجز عصبة الرجال الأقوياء عن حملها، وهناك من يرى أنه لا ترادف بين المفاتح والمفاتيح، ولو أريد مفاتيح خزائن الأموال لقال الله: مفاتيحه، المفاتح جمع «مفتح»، أما المفاتيح فإنها جمع «مفتاح».

قال أبو البقاء في (الكليات): المفتاح: آلة الفتح، والمفتح: الخزانة والكنز

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١١).

والمخزن، والمفاتح جمع مفتح وهو المكان، وليست جمع مفتاح، فلو كان كذلك ينبغي أن تقلب ألفه ياء فيقال: مفاتيح[١].

فالمفاتح إذن هي الخزائن التي توضع فيها كنوز قارون، هذه الخزائن كانت «تنوء» بالعصبة أولي القوة، أي: عندما يحملها عصبة الرجال الأقوياء فإنها تثقلهم وتتعبهم، ولا يكادون يحملونها ولا ينهضون بها.

ـ المفاتح تنوء بالعصبة أولي القوة:

يقال: ناء الرجل بحمله إذا نهض وقام به مثقلاً، وناء الرجل: إذا أثقله الحمل فسقط ولم ينهض، وناء الحمل بالرجل: إذا أثقل الحملُ الرجلَ وأمالَه[٢]، والعصبة: هي الجماعة من الناس المتعصبة المتعاضدة المجتمعة[٣].

وكون خزائن قارون تنوء وتثقل بالمجموعة الكبيرة من الرجال الأقوياء دليل على كثرتها، وهذا دليل آخر على أن المراد بالمفاتح في الآية هو الخزائن، وليس المفاتيح التي تفتح بها الخزائن، فالمفاتيح لا تنوء بالعصبة أولى القوة، بل لا تنوء بالرجل الواحد، إذ يستطيع الرجل الواحد حمل مئات المفاتيح بسهولة ويسر[٤].

وهناك من يرى أن المفاتيح هي من أبواب الكنوز وليست الخزائن، فإن كانت العصبة لا تستطيع حمل تلك المفاتيح، وتنوء تحتها من ثقل وزنها، فلنا أن نتصور حجم تلك الكنوز من صور المفاتيح، فالمسألة هنا ليست خاصة بقارون وقومه، وإنما هي قضية كبرى تدخل في الجانب الاقتصادي والاجتماعي الذي ينعكس سلباً أو إيجاباً على جميع أفراد المجتمع من خلال الآتي:

١ ـ تنظيم الثروة.
٢ ـ حركة رأس المال.
٣ ـ تداول النقد.
٤ ـ استثمار الأرض.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٤٦).
(٢) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٥، ٢٠١١م، (٢/ ٩٦٠).
(٣) المفردات، الأصفهاني، ص٥٦٨.
(٤) القصص القرآني، (٣/ ٤٧).

وكل ما له علاقة بالجانب الاقتصادي الذي يعود بالنفع على جميع أفراد المجتمع، فإن تكدس رأس المال بيد بعض الأفراد، وكان هذا المال على سبيل الكنز، فقد حُرم منه الكثير من أبناء المجتمع، وإن كانت دورته قصيرة فقد اقتصرت الفائدة منه على بعض الأفراد بما يسد رمقهم، ويبقى المال كنزاً في هذه الحال[١].

إن الإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويُقدر الجهد الفردي الذي يُبذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهوِّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجاً معيناً للتصرف في الملكية الفردية ـ كما يفرض منهجاً لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير؛ ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات، ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بطر ذميم[٢].

ث ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]:

لقد وجد قارون من قومه من يحاول رَدَّه عن هذا البغي، ورَجْعَه إلى النهج القويم، الذي يَرضاه الله في التصرف بهذا الثراء، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال، وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب، وفي هذه الآية والتي بعدها خلاصة ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده عن سائر مناهج الحياة.

﴿لَا تَفْرَحْ﴾: فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفاء بالثراء

(١) موسى من وحي القرآن، مرجع سابق، ص٢٥٥.
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٢).

والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ، لا تفرح فرح البطر الذي يَنسى المُنعِم بالمال وينسى نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران، لا تفرح فرح من يستخفُّه المال فيشغل به قلبه، ويُطَيِّر له لبّه، ويتطاول به على العباد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: فهم يردّونه بذلك إلى الله تعالى، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتطاولين بسلطانه على الناس(١).

إن الآية الكريمة حرّمت الفرح بالمال والإمارة، إذا كان الفرح بطراً وفخراً واعتزازاً وكبراً وخيلاء(٢).

واستخدام أهل الثروات ما في أيديهم فيما يُغضِب الله عز وجل من الفسق والفجور والفساد، ثم قيامهم بالتكبر والبطر والاستعلاء والطغيان(٣).

إن التكبر على عباد الله عزّ وجل من كبائر الذنوب التي حرمها الله ورسوله، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذلُّ من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بُولَس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخَبال» (٤).

وقوله ﷺ: «لا يَدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من كِبْر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حسناً ونعله حسناً، قال: إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال» (٥).

وأما الفرح المباح، فهو انشراح صدر المؤمن وسعادته وسروره بالطاعة والعبادة والاتصال بالله، وتلذُّذه بنعم الله، وشكر الله عليها واستخدامها في

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١١).
(٢) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، عبد الهادي الشمراني، تحقيق: عبد الباسط إبراهيم بلبول، السعودية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٥٣٦.
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٤٨).
(٤) رواه أحمد، حسنه الألباني، رقم ٦٦٧٧.
(٥) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، مرجع سابق، ص٥٣٦.

طاعته، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]؛ فالآية تأمر بالفرح بفضل الله ورحمته وإنعامه عليهم، وتُخبرهم أن فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من متاع الدنيا الزائل(١).

٢ ـ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]:

استمر قوم قارون في نُصحه، وبيان المنهج الإلهي القويم المعتدل الذي يُعلِّق قلبَ صاحب المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضُّه على هذا ويُكلِّفه إياه تكليفاً، كيلا يتزهَّد الزهد الذي يُهمل الحياة ويُضعِفُها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدَّد وتتحقَّق خلافة الإنسان في هذه الأرض، وذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا ينشغلون بالمتاع عن تكاليفها، والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمُنعم وتقبُّلٍ لعطاياه، وانتفاع بها، فهو طاعة من الطاعات يُجزى عليها بالحسنى(٢).

أ ـ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: اطلب فيما أعطاك الله الفوز في الدار الآخرة، وأن يعترف بأن ما معه إنما هو فضل وعطاء ومنحة من الله؛ حيث أرشدوه إلى أن يُوجِّه كلَّ ما آتاه الله إلى الآخرة.

و«ما» في قوله ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: اسم موصول، وهو يدل على العموم والشمول(٣).

---

(١) القصص القرآني، مرجع سابق، (٣/ ٤٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١١).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٤٩).

ب ـ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: دعوة إلى ألا ينسى نصيبه من الدنيا، ما أباح الله فيها من المآكل والمشارب، والملابس، والمساكن، والمناكح، فإن لربك عليك حقّاً ولنفسك عليك حقّاً ولأهلك عليك حقّاً ولزوجك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه(١).

فالدنيا مزرعة للآخرة، وممر إليها، ولهذا أحل الله تعالى للإنسان أن يتمتع بها بسائر أنواع المتاع الحلال كوسيلة إلى الآخرة، فهي ليست مقصودة في ذاتها، كما قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيل» (٢).

وكان عبد الله بن عمر يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساء، وخُذْ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (٣).

ت ـ ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: طلبوا منه مقابلةَ الإحسان بالإحسان، فهذا المال هبة من الله وإحسان، فليُقابلِ الإحسانَ فيه إحسانُ التقبُّل وإحسان التصرُّف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران(٤).

﴿وَأَحْسِن﴾ في عبادة ربك وطاعته في كل أنواع العبادات والطاعات المتعلقة بالأموال وغيرها ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، ولقد طلب المؤمنون من قوم قارون أن يُقابلِ إحسان الله إليه بإحسان، وذلك باستخدام تلك الكنوز في نفع الآخرين(٥).

وفي قولهم ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: نصيحة ثمينة جامعة، فالإحسان في ديننا أعلى مراتب التديُّن، كما في حديث جبريل إذ سأل النبيَّ ﷺ

(١) التدبر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، (٢٥/ ٤٠٩).
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٤٧).
(٣) صحيح البخاري، الإمام البخاري، رقم ٦٤١٦.
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١١).
(٥) القصص القرآني، (٣/ ٥١).

عن المراتب الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، فظهر أن أعلى المراتب الإحسان، وفسَّر النبي ﷺ ذلك بأن تَعبُدَ الله كأنك تراه فإن لك تكن تراه فإنه يراك.

ومن الإحسان أن تُحسن الفهم لكتاب الله وأحكام دينك، ومن الإحسان أن تحسن علاقتك بالمجتمع ورحمك وذويك والناس، بل والكون بكل ما فيه، ومن الإحسان أن تؤدي الحقوق التي في مالك، والإحسان مفتوح على صور لا عدّ لها ولا حصر. وقرنوا دعوتهم له إلى الإحسان بإحسان سبق من الله إليه[١].

ث ـ ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: وختموا وصاياهم بالنهي عن نقيض الإحسان وهو الفساد، فنهوه عن أن يبغي الفساد في الأرض.

فالفساد نقيض الإصلاح، والإصلاح هو أيضاً صوره لا تنتهي، فكل إخلال بقانون الله في المجتمع أو في الكون أو في النفس هو إفساد، ولك أن تتصور كم من الصور يدخل تحت هذا المفهوم المطلق[٢].

فالفساد بالبغي والظلم، والفساد بالمتاع المطلق بعيداً عن مراقبة الله ومراعاة الآخرة، والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء، والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال[٣].

ج ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ ثم برروا دعوتهم له إلى عدم الفساد والإفساد بأن الله لا يحب المفسدين، بل يَمقتهم ويُبغضهم، لأنهم فاسدون في أنفسهم أولاً ولأنهم مفسدون في الأرض، يستخدمون نعم الله في الظلم والبغي والشر، وبذلك ينشرون المفاسد والرذائل والخبائث.

إنهم في فسادهم وإفسادهم خسروا محبة الله، وماذا يملك الإنسان إذا خسر محبة الله؟ وهل هناك شيء يصلح أن يكون عوضاً وبديلاً عن محبة الله؟ لقد أخبر المؤمنون قارون في بداية النصيحة أن الله لا يحب الفرحين، وأخبروه في آخرها

(١) تفسير سورة القصص، ص٣٨٧.
(٢) تفسير سورة القصص، ص٣٧٨.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١١).

أن الله لا يحب المفسدين، وفي أثناء نُصحهم له طالبوه بالإحسان والإصلاح؛ لأن الله يحب المحسنين (المصلحين).

إذن، إنهما طريقان: طريق محبة الله؛ بأن يتصف سالكوها بالصفات التي يُحبها الله، ويعملوا الأعمال التي يحبها الله. وطريق غضب الله؛ بأن يتصف أصحابها بالصفات التي لا يحبها الله ويعملوا الأعمال التي تُغضب الله.

إنها ست قواعد جوهرية، وتتضمن كل واحدة حقيقة إيمانية قاطعة قدَّمها المؤمنون نصيحة لقارون:

١ ـ ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

٢ ـ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾.

٣ ـ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

٤ ـ ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

٥ ـ ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾.

٦ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وهكذا رسمت الآيات لأصحاب الأموال المنهج القويم الذي يجب عليهم أن يلتزموا به، فالمال في الحقيقة مال الله تعالى، وعليهم أن يستعملوه في طاعته ضمن الحدود التي شرعها لهم والتي تكفَّلت ببيان وظيفته الأساسية، كوسيلة لاستمرار الحياة وعمرانها. وإن أي مجاوزة للحدود المشروعة، يُخرج المال عن وظيفته الأساسية ويجعله وسيلة هدم للحياة وإفساد لها.

ويبدو أن كثرة المال أَعمتْ قارون عن رؤية الحقيقة والاعتراف بفضل الله تعالى[1]، فأصمَّ أذنيه عن النصائح، وأغلق قلبه أمامها، وردّ عليها بتكبر واستعلاء.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٤٧).

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]:

أ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾: سجلت هذه الآية الكريمة الناصحة جواب قارون على دعوة قومه، فقال لهم: إنما أُعطيت هذا المال بعلمي وتدبيري وحكمتي وحنكتي وخبرتي وحكمتي في إدارة مشاريعي، وخبرتي الواسعة في التجارة، وحيلتي في اقتناص الفرص، والتخطيط الذي لا يخطئ ولا يعرف التخبُّط ولا التخليط[١].

وهذه إجابة تدل على أن قارون أمعن في غيّه، وكانت قفزة سريعة في اتجاه الهاوية، وتلك الكلمة هي أقصى ما يتطلع إليه الشيطان من الأغنياء وأصحاب النقود[٢].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ﴾: إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ويَفتِنُه المال ويُعميه الثراء، وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس من يظن أن علمه وكدَّه هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حساباً ولا ناظر إلى غضبه ورضاه[٣].

ب ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾:

وردّ الله عليه هنا بتذكيره بهوانه وضعفه وعجزه، وأنه مهما ملك من الأموال فهو

---

(١) تفسير سورة القصص، ص٣٨٠.

(٢) من أنباء القرى، أحمد الكبيسي، ترجمة وتحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة العالمية، ٢٠٠٧م، ص٤٦٨.

(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٢).

في قبضة قدرته تعالى ومشيئته، وهو سؤال تعجيب وتوبيخ، بسبب اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه أنه تعالى أهلك من الأمم السابقة من هم أقوى منه وأكثر مالاً[١].

ت ـ ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: لأنه تعالى يأخذهم بغتة قبل أن يسألهم عن ذنوبهم؛ لهوانهم عليه كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، وقد يكون المعنى المراد نفي السؤال في الآخرة، إذ يساقون إلى العذاب في جهنم من غير سؤال، لكثرة ذنوبهم وجرائمهم، يُعرفون بسيماهم من اسوداد الوجوه وزرقة العيون، قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، أو لا يسألون يوم القيامة سؤال استعلام، فالله عليم بأحوالهم. ومهما قيل في معنى الآية، فهي لا تتعارض مع الآيات المخبرة عن السؤال يوم القيامة، كقوله تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

ـ وقوله أيضاً: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]، فقد يكون المراد منه سؤال التوبيخ أو التقريع، أو يكون نفي السؤال وإثباته في موقفين، والمواقف يوم القيامة كثيرة، واليوم طويل، فلا تناقض[٢].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]:

لقد صوّرت الآيات السابقة المشهد الأول من مشاهد القصة، وتجلّى فيه بغي قارون وتطاوله وإعراضه عن النصح والتعالي على العظة، والإصرار على الفساد، والاغترار بالمال، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران. ثم جاء المشهد الثاني[٣].

أ ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾ أي: خرج على قومه بموكب كبير حافل، تحيط به بهارج الدنيا وزخارفها من خدم وحشم ومراكب فارهة، وثياب فاخرة

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٤٩).
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٤٩)، روح المعاني، (٢٠/ ١٢١).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٣).

وحلي ورايات وزينات، ومن الطبيعي أن يتجمع عامة الناس ليشاهدوا مثل هذا الموكب[١].

وتقف طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت، وتقف طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقسمة الإيمان والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله، والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان[٢].

وفي قوله ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾؛ يتكرر حرف «على» للمرة الثالثة من بدء القصة حتى هذه الآية في أربع آيات، وما يفيده هذا الحرف من الاستعلاء الذي كان يغمر هذا الطاغية، ويملأ جوانحه، وأي كبر انطوت عليه تلك النفس الخبيثة: المهم أن هذا الطاغية خرج في زينته على قومه ليمارس هوايته وتلذذه بالانتفاش على الخلق واستصغارهم، وما درى أن جزاءه الصَّغار والبوار والنار[٣].

ب ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: في كل زمان ومكان تستهوي زينةُ الأرض بعضَ القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة؟ من مال أو منصب أو جاه، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ويسيل لعابهم على أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدَّوه، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها[٤]، وقد قصرت أنظارهم وأفكارهم عن رؤية الأخطار التي تنتظر أصحاب الاستكبار[٥].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٣).
(٣) تفسير سورة القصص، ص٣٨٢.
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٣).
(٥) تفسير سورة القصص، ص٣٨٣.

وهذه المقولة: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾؛ هذه أمنية المتعلقين بالدنيا الذين قصروا همَّهم عليها، فلم ينظروا إلى ما وراءها، وهي المقولة نفسها التي يرد أمثالها في عصرنا الحاضر من المنبهرين بزينة الحضارة المادية الغربية[١].

ـ وفي قوله ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾؛ فإن قارون في نظر هؤلاء لذو حظ عظيم؛ لأن الحظ العظيم عندهم هو الزينة والمال والمتاع والترف والإسراف، وصاحب الحظ العظيم هو الذي أُوتي ذلك، فقارون صاحب حظ عظيم، أما هم فإنهم محرومون من ذلك الحظ العظيم.

إن نظرتهم إلى قارون خاطئة، وإن تقويمهم له غير صحيح، فليس هو ذا حظ عظيم، ولو أُوتوا مثله لما كانوا ذوي حظ عظيم، سر انخداعهم بزينة قارون وفتنته، واغترارهم بما هو معه، هو أنهم ﴿يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلو لم يكونوا يريدون الحياة الدنيا لما خُدعوا وفتنوا. وكأن القرآن يدعونا إلى معرفة أساس خطئهم لئلا نقع فيه، فأساس الخطايا هو ابتغاء الحياة الدنيا وطلبها وإرادتها والرغبة فيها، ونسيان الآخرة وتركها وعدم الرغبة فيها[٢].

إن من أراد الآخرة يعرف قيمة الدنيا بالنسبة لها، ولهذا يطلب الآخرة ونعيمها، قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٠ ـ ٢١].

لم يكن قارون ذا حظ عظيم؛ لأنه لم يكن مؤمناً، ولهذا ليس له في الآخرة إلا

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥١).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٥٧).

النار، ولن تدفع عنه أمواله وكنوزه النار، فهل هو ذو حظ عظيم، وهو ذاهبٌ إلى النار؟!

والقارونيون المُغترُّون بأموالهم الذاهبون إلى النار ليسوا ذوي حظ عظيم؛ لأنهم ليس لهم حظ في الجنة، فكيف ينخدع بهم المؤمنون بالآخرة؟! قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

صاحب الحظ العظيم في الدنيا هو من آتاه الله الإيمان والصلاح، ومنّ عليه بالسماحة والرفق وحسن الخلق، وجعله يتذوَّق طعم الرضا والطمأنينة والسعادة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤ـ٣٥] (١).

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]:

أ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها(٢).

الذين علموا أن الدنيا طريق إلى الآخرة، وأنها دار اختبار وابتلاء، وليست دار نعيم وبقاء، وهذه حقيقة لا يعلمها إلا المؤمنون الصالحون.

ب ـ ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾: وهي كلمة دعاء بالهلاك، ثم شاع استعمالها للزجر(٣)، وفي هذه الكلمة توجُّع من الذين أُوتوا العلم على الذين يريدون الحياة الدنيا مما تمنَّوا لأنفسهم(٤).

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٥٧).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٩٩).
(٣) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥١).
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٩٩).

ت ـ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾: العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس، وتلذّ الأعين[١].

ث ـ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لا تتمنَّوا أن يكون لكم مثل مال قارون، فثواب الله في الآخرة للمؤمن الصالح خير مما تتمنونه، فهذا عرض زائل لا يخلو من كدر وهمٍّ وعناء، ويُعرِّض صاحبه لمسؤولية جسيمة يوم القيامة، فهو مسؤول عن اكتسابه وإنفاقه[٢].

ففي الحديث الشريف عن أبي برزة الأسلمي: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيمَ أفناه؟ وعن علمه فيمَ فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيمَ أنفقه؟ وعن جسمه فيمَ أبلاه؟»[٣].

ج ـ ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: ولا يتبع هذه النصيحة ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات واجتنب المحرمات، ورضي بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار، وأنفق ماله في كل ما فيه سعادة لنفسه وللمجتمع، وكان قدوة صالحة في حفظ مجد أمته، ورفع صيتها بين الأمم، وبذل كل ما فيه نفعها وقوتها وإعلاء شأنها، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس، ويلقى المثوبة من ربه[٤].

وإن ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون. والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يُلقّاها إلا الصابرون، الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائِها، وهم الصابرون على الحرمان مما يملكه الكثيرون، وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة، درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض، والتطلع إلى ثواب الله في رضًا وثقة واطمئنان[٥].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥١).
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥١).
(٣) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، رقم ٢٤١٧.
(٤) تفسير المراغي، (٢٥/ ٤٣٠).
(٥) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٣).

٦ ـ **قال تعالى**: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]:

بينما كانت الآية السابقة تعرض مشهداً حواريّاً، إذ بهذه الآية تعرض مشهداً سرديّاً، تعرض فيه ما جرى لذلك المستكبر، فتخبرنا أن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، فسواها به وبداره، فما كان لهذا المغرور من فئة ولا طائفة ينصرونه من دون الله، وما كان هو في ذات نفسه من المنتصرين، أي فما أغنى عن نفسه، ولا أغنت عنه طائفته وفئته وخدمه وحشمه وأمواله[١].

ونلاحظ أن القرآن الكريم ربط بين جملتين بحرف الفاء:

الأولى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

والثانية: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

وهنا الفاء تدل على الترتيب والتعقيب: أي أن الله خسف به وبماله بعدما خرج على قومه في زينته، وكان خروجه على قومه في زينته هو السبب في خسف الله به، لقد أخذ الله قارون وهو في أوج استعلائه وغروره وتكبُّره وفرحه وبطره، وقصمه قصماً وهو في سكرته بماله وزينته، خسف الله به وبداره الأرض، وانشقت الأرض وابتلعته، وابتلعت أمواله وكنوزه، وابتلعت خزائنه ومُلكه.

وفرعون الذي يدَّعي الألوهية، ويزعم القوة المطلقة، والذي تحالف معه قارون؛ لم ينصره، وعجز عن رفع عذاب الله عنه، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، حيث ذهبت قوته فصار أمام عذاب الله ضعيفاً، وذهب حلفاؤه عنه فتلقى عذاب الله وحيداً، وذهبت عنه كنوزه فاستقبل عذاب الله فقيراً.

ونلاحظ أن القرآن أجمل الحديث عن الخسف بقارون وداره ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فلم يُفصّل هذا المشهد العنيف المؤثر، ولم يذكر كيفية ذلك[٢].

---

(١) تفسير سورة القصص، ص٣٨٥.

(٢) القصص القرآني، (٣/ ٦١).

ونعلم أن الإسرائيليات قد أوردت تفاصيل كثيرة لخسف الله به وبداره، ولكنها لم تثبت ولم تصحَّ، ولهذا نبقى مع إجمال القرآن للحادث ولا ندخل في تفاصيله[١].

وهناك حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رأسه، يَخْتَالُ في مَشْيَتِهِ، إذ خَسَفَ اللهُ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»[٢].

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجرّ إزاره إذ خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[٣].

ترى هل هو قارون الذي تحدَّثت عنه الآيات؟ أم هو رجل آخر؟ الله سبحانه أعلم، لكنّ الآيات الكريمة والحديث الشريف دلت دلالة واضحة على أن الذي يمشي مشية المختال المتكبر، وهو معجب بثيابه وزينته، يمكن أن يخسف الله به الأرض، والجزاء من جنس العمل[٤].

والآية الكريمة تشير إلى أنه عندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حدّاً للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتُحطِّم الغرور والكبرياء تحطيماً.

ويجيء المشهد الثالث في قصة قارون حاسماً فاصلاً ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فابتلعته وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقاً، وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد ولا ينتصر بجاه أو مال.

وهوت معه الفئة الطاغية التي حرفت بعض الناس، وردَّتهم الضربة القاضية

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ٦٢).
(٢) مسلم، رقم ٢٠٨٨. ومتفق عليه.
(٣) البخاري، رقم ٥٧٩٠.
(٤) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥٢).

إلى الله، وكشطت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال، وكان هذا المشهد الأخير[١]، وهو قوله تعالى:

٧ ـ قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]:

لقد كانوا بالأمس يقولون: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، ولكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذي لا يُردُّ عن القوم الكافرين ـ اليوم يثوبون إلى رشدهم ويقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيِّق ويوسِّع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة[٢].

أ ـ وكلمة «وَيْ» اسم فعل مثل: أفّ وهيهات، وتدل على الندم والتحسر، فهي تنديد وتخطيء للفعل، وقد تقال «وي» للتعجب.

«ويْ» ندماً على ما كان منهم من تمنِّي النعمة التي تنعّم بها قارون، وتخطيئاً لأنفسهم، بعد أن شاهدوا الخسف به وبداره، وهم يندمون الآن ويُخطّئون أنفسهم؛ لأن لله تعالى في رزقه وحكمته قدراً[٣]. إن كلمة «وي» تدل على التندم والتعجب، يستعملها النادم لإظهار ندامته، والمتعجب لإظهار تعجُّبه[٤].

ب ـ ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله[٥].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٣).
(٢) تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٦٧).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٨/ ١١٠٣٢).
(٤) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥٣).
(٥) تفسير ابن كثير، (٦/ ٢٦٧).

ت ـ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا يفلح الجاحدون[١].

ـ وقد اعتبر الذين تمنّوا ما لقارون بما حدث له، وأيقنوا أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على سلبه ممّن يشاء، واعترفوا بفضل الله تعالى ومنّته عليهم، إذ لم يستجب لهم ويجعلهم مثل قارون، إذن القضية ليست شخصية متعلقة بشخص قارون، بل بكل من كانت حاله كحاله.

ـ قد يدعو الإنسان ربه تعالى بشيء، ويكون الخير ألا يُعطاه، لذلك عليه أن يرضى ويُسلِّم لحكم الله تعالى، فقد يكون ما ادّخره له خيراً، أو ما كفّه من الشر عنه أعظم، لو بدا له اغتبط بسنة الله عليه، وكما قال مخبراً عمّن تمنّى ما لقارون بعد الخسف: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ فعلى المرء أن يسلِّمَ لحكمة الله في قضائه ويعترف بضعف علمه وإدراكه.

ـ وقد رُوي عن النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «وإن من عبادي المؤمنين من لا يَصلح له إلا الغنى، ولو أفقرته أفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يَصلح له إلا الفقرُ، ولو بسطتُ له أفسده ذلك».

ـ في الآيات بيان لهوان الدنيا، وتأمل سرعة تحول نظر الناس وشغفهم بالدنيا، فبالأمس تمنَّوا مكان قارون، واليوم صاروا يحمدون الله تعالى أن لم يكونوا مثله.

ـ وفيها أن السلامة لا يعدلها شيء، فمن عاش معافىً في ستر وكفاف خيرٌ ممن رُزق من زهرة الدنيا ما شاء الله، ثم ابتُلي بلاء يُحوجه إلى رحمة الناس.

ـ لله كم ممن جُمعت له الدنيا تمنَّى أن يعيش كأحد خدَمه هانئاً مستقرّاً لما رآه من البلاء والهم والعناء! وعلى خلافهم العالمون الصالحون، يقول أحد الزهّاد ممن لا يملك من الدنيا شيئاً: «لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»[٢].

ويُسدل الستار على هذا المشهد، وقد انتصرت قيم الإيمان بتأييد الله

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٣٥٣).

(٢) تدبر سورة القصص، ناصر العمر، ص٩١.

ونصره، ورجحت في كفة الميزان، وقرّرت الآيات الكريمة الحقيقة الكبرى في نهاية قصة موسى مع فرعون، وقصة قارون مع كنوزه وقومه في قول الله تعالى:

٨ ـ **قال تعالى**: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ التي تحدَّث عنها الذين أُوتوا العلم، وهو العلم الحق الذي يقوِّم الأشياء قيمتها الحقيقية، وتلك الدار الآخرة العالية الرتبة، والبعيدة الآفاق: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ومنهجه في الحياة، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً ولا يبغون فيها كذلك فساداً، أولئك الذين جعل الله لهم الدار الآخرة، تلك الدار العالية السامية.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرَّجون من غضبه ويبتغون رضاه، ويلتزمون بشريعته وأحكام دينه، وفي تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه، فالحسنة بأضعافها وبما هو خير منها، والسيئة بمثلها رحمةً بضعف الخلق وتيسيراً[1].

ـ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

والآية الكريمة تُظهر فضل الله تعالى وعدله في الدار الآخرة:

ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾ أي: فله خير منها في ذاتها وفي وصفها وفي قدرها.

ـ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي:

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٧١٤).

إلا مثل ما كانوا يعملون في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ـ وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»[(١)].

أ ـ قال السعدي: لما ذكر الله تعالى قارون وما أُوتيه من الدنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، رغّب الله تعالى في الدار الآخرة وأخبر بالسبب الموصل إليها، فقال:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ التي أخبر الله بها في كتابه وأخبرت بها رسله التي جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدّر ومنغّص.

﴿نَجْعَلُهَا﴾ داراً وقراراً.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله؟ والتكبر عليهم وعلى الحق؟!

﴿وَلَا فَسَادًا﴾، وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله والانقياد للحق والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال:

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر لمن اتقى الله تعالى وغيرهم وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة، فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها حظ[(٢)].

---

(١) رواه مسلم، رقم ١٣١.

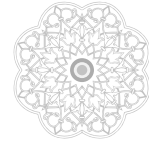
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٣٠٠).

ب ـ قال المكي الناصري: بعدما سجَّل كتاب الله نفاذ حكمه القاهر فوق عباده في فرعون الطاغية المتجبر، الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، واستكبر هو وجنوده في الأرض، حيث نبذه وجنوده في اليم نبذ النواة، كما ورد ذلك في ختام قصة موسى، وبعدها سجَّل كتاب الله نفاذ حكم الله القاهر فوق عباده في قارون، الذي بغى على قومه، وخرج في زينته متبرِّجاً مختالاً، حيث خسف الله به وبداره الأرض، كما ورد ذلك في نهاية قصة قارون، وانتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة عامة تشملهما وكل من سلك مسلكهما وكان على شاكلتهما من الطغاة المفسدين وعتاة المُترَفين، مبيناً أن من لم يعمل على إقامة العدل بين الناس ونشر الصلاح في مجتمعاتهم لن يكون له أدنى حظ من النعيم المقيم في دار الخلود؛ لأنه خان أمانة الخلافة عن الله في الأرض، وقابل نعمة الله بالكفران والجحود، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: وتقوى الله هي الحاجز الحصين من الوقوع في شرك الفساد، وهي الدواء الناجع لعقدة الاستعلاء والاستبداد[١].

ت ـ قال الدكتور صلاح الخالدي: كان هلاك قارون في مصر قبل الخروج، والراجح عندنا أن قصة قارون كانت في مصر، وأن الله خسف به وبداره الأرض لما تعاظمت فتنته، وقبل خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وقبل غرق فرعون، ويدل على هذا أن القرآن نصّ على إرسال موسى إلى الثلاثي الظالم: فرعون وهامان وقارون، وأن الثلاثة الطغاة اتفقوا على اتهام موسى بأنه ساحر كذاب، وهذا معناه أن قارون كان متحالفاً مع فرعون وهامان ضد موسى، ومُكذِّباً له معهما[٢].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير، الناصري، مرجع سابق، (٤/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٧٠).



المبحث الثاني

قصة موسى عليه السلام في سورة طه

قال تعالى : ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ

عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا
وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ
قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ
إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ
عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا
رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا
وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ
أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً
أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ
كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ
خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ
يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ
ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ
أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي
نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا
صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ
وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾
قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ
يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ
فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ
ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ
أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا
وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا
جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا
وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾
قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ
ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ
لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ
كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾
مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ
يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾

نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١ ـ ١١٤].

سورة طه، سورة مكية وآياتها خمس وثلاثون ومئة آية، وهي تبحث عن الأهداف نفسها للسور المكية، وغرضها الأساسي التركيز على أصول الدين من التوحيد والنبوة والبعث والنشور[١].

وتبدأ هذه السورة وتختم بخطاب الرسول ﷺ ببيان وظيفته وحدود تكاليفه وفي شدّ أزره وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يلقى من السفاهة والعناد والتكذيب، ولإرشاده وتذكيره بوظيفته الأساسية الإبلاغية، وعدم إجباره الناس على الإيمان[٢].

وبين المطلع والختام تَعرِضُ سورة طه قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر مفصلة مطولة، ولاسيما موقف المناجاة بين الله ونبيه موسى عليه السلام، وموقف الجدل بين موسى وفرعون، وموقف المبارزة بين موسى والسحرة.

وتتجلَّى في هذه القصة رعاية الله تعالى لموسى وحفظه من الولادة وحتى إهلاك أعداء الله، وفي ثنايا سورة طه تبرز بعض مشاهد يوم القيامة في عبارات يرجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً، كما عرضت القصة يوم الحشر الأكبر، وفيه يتم الحساب العادل ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، ص٧٠٠.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٢٦).

العصاة إلى النار. وتعرض السورة قصة آدم سريعة قصيرة تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطئِه، وهدايته له، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدي أو ضلال بعد التذكير والإنذار. ومن ثم تختم هذه السورة ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمُّل الأذى في سبيل الدعوة حتى يأتي نصر الله[١].

ونبدأ على بركة الله في تفسير قصة موسى عليه السلام في سورة طه، ولا ننسى بداية الآيات من السورة قبل الشروع في القصة:

أولاً: قوله تعالى ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٨]:

١ ـ ﴿طه﴾: قال الشنقيطي: قوله تعالى ﴿طه﴾؛ أظهر الأقوال عندي أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة جاءتا في مواضع أخرى لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة، أما الطاء ففي فاتحة الشعراء ﴿طسٓمٓ﴾، وفاتحة النمل ﴿طسٓۚ﴾، وفاتحة القصص، وأما الهاء ففي فاتحة مريم في قوله تعالى ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[٢].

ثم ذكر رحمه الله أقوالاً أخرى في معنى كلمة ﴿طه﴾ وقال: وفي قوله ﴿طه﴾ أقوال أخرى ضعيفة، كالقول بأنه من أسماء النبي ﷺ، والقول بأن الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية، يقول لنبيه: يا طاهراً من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وغير ذلك من الأقوال الضعيفة، والصواب إن شاء الله في الآية هو ما صدَّرنا به، ودل عليه القرآن في مواضع أُخر[٣].

---

(١) استراتيجية توجيه الخطاب في القرآن الكريم، سورة طه نموذجاً، مشعل عبيد الشمري، إشراف: الدكتور خالد بن دومي، رسالة ماجستير، الأردن، جامعة اليرموك، ٢٠١٤م، ص٥٦.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، المصدر السابق، (٤/ ٣).
(٣) أضواء البيان، مصدر سابق، (٤/ ٤).

وزاد المفسرون هنا: أن ﴿طه﴾؛ كلمة مفيدة ومعناها يا رجل، أو فعل أمر بالوطء: طأ، فقُلبت الهمزة هاء، وذلك لما روي أن النبي ﷺ كان يقوم في تهجُّده على إحدى رجليه، فأُمر أن يطأ الأرض بقدميه[١].

قال ابن كثير رحمه الله: رُوي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾؛ يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفا» عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رِجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني: طأ الأرض يا محمد[٢]. وذكر هذه الرواية أيضاً ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري» [٣].

وإن صحت هذه الرواية: فلعله ﷺ كان يراوح بين قدميه بسبب طول قيامه في تهجُّده بالليل، وقد صحّ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى تتفطّر قدماه، فعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر؟! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٤]؟!

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٥]؟!

قال ابن حجر: وفيه ـ أي: الحديث ـ أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ [سبأ: ١٣] وفيه ما كان النبي ﷺ من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه[٦].

---

(١) التفسير الموضوعي، طهماز، (٥/ ٢١٩).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، ٢٠٠٦م، (٢/ ٤٦٩).
(٣) فتح الباري، ابن حجر، مصدر سابق، (٨/ ٤٣٢).
(٤) البخاري، رقم ٤٨٣.
(٥) البخاري، رقم ٤٨٣٦.
(٦) فتح الباري، ابن حجر، مصدر سابق، (٣/ ١٥).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله: تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات السور، ولا مانع هنا أن نشير إلى ما ورد في ﴿طه﴾؛ فالبعض يرى أنها حروف متصلة، وهي اسم من أسماء الرسول ﷺ، وآخرون يرون أنها حروف مقطعة مثل ﴿الٓمٓ﴾، ومثل ﴿يسٓ﴾؛ فهي حروف مقطعة إلا أنها صادفت اسماً من الأسماء كما في «ن» حرف، وهو اسم للحوت: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، و«ق» حرف: وهو اسم لجبل اسمه جبل «ق»، ومن ثم لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء فتكون ﴿طه﴾ اسماً من أسماء الرسول ﷺ(١).

٢ ـ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

أي: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحمن الرحيم، وجعله موصولاً بالسعادة والفلاح والفوز، وسَهّله غاية التسهيل، ويَسّر كل طُرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة(٢).

٣ ـ ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل المطالب فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الشرعية المفصّلة التي كان مستقرّاً في عقله حسنُها مُجمَلاً، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سمّاه الله تذكرة، والتذكرة لشيء كان موجوداً، إلا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله.

وخصّ بالتذكرة من يخشى لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢١٠).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠١٧).

بجنّة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟! هذا ما لا يكون ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١٢].

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: الخشية: خوف بمهابة؛ لأن الخوف قد يكون خوفاً دون مهابة، أما الخوف من الله فخوف ومهابة معاً[١].

٤ ـ ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾:

ـ ﴿تَنزِيلًا﴾: مصدر أنزلناه تنزيلاً، وقد ورد في نزول القرآن أنزلنا ونزلناه ونزل[٢]، ولأن القرآن أخذ أدواراً عدة في النزول، فقد كان في اللوح المحفوظ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته في الوجود فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم تنزل مفرَّقاً حسب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ، والذي نزل به جبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣][٣].

وإن الآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جدّاً معروفة كقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

وقوله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

وقوله ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، والآيات التي تمثّل ذلك كثيرة جدّاً[٤].

وقوله تعالى ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، خص السماوات والأرض، لأنها من أعظم خلق الله، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان، فالإنسان طرأ على كون معدّ جاهز لاستقباله، فكان عليه ساعة أن يرى هذا الكون المعدّ لخدمته بأرضه وسمائه ولا قدرة له على تسيير شيء منها، كان عليه أن يُعمل عقله، ويستدلَّ بها على المُوجد سبحانه وتعالى، كأن الحق

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢١٥).
(٢) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢١٥).
(٣) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢١٥).
(٤) أضواء البيان، (٤/ ٥ ـ ٦).

ـ تبارك وتعالى ـ يقول لك: إذا كان الخالق سبحانه قد أعدّ لك الكون بما يقيم حياتك المادية، أيترك حياتك المعنوية دون عطاء؟!

إن الله عز وجل أكمل مقوِّمات التكوين العالي لمن جعله خليفة في الأرض، فكما أعطاه ما يقيم حياته ونوعه بخلق السماوات والأرض، وما أعطاه من طعام وشراب وهواء، أعطاه ما يقيم معنوياته بنزول القرآن الذي يحرس حركاتنا من شراسة الشهوات، فالذي أنزل القرآن هو الذي خلق الأرض والسماوات العلا[١].

قال ابن كثير: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلا في ارتفاعها ولطافتها[٢].

وقال السعدي: ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات، المدبر لجميع المخلوقات، أي فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم وعظِّموه نهاية التعظيم.

وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر كما في هذه الآية، وكما في قوله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وذلك أن الخالقَ الآمرُ الناهي، فكما أنه لا خالق سواه فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضاً فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان[٣].

٥ ـ قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾:

فالآية السابقة أعطتنا مظهراً من مظاهر العطف والرحمة، وهذه تعطينا مظهراً

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢١٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٥/ ٢٦٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، (٣/ ١٠١٧).

من مظاهر القهر والغلبة: واستواء الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ على العرش يؤخذ في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والعرش في عُرف العرب هو سرير الملك، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شؤونها إلا بعد أن يستتب الأمر، والخالق ـ جلّ وعلا ـ خلق الكون بأرضه وسمائه، وخلق الخلق، وأنزل القرآن لينظم حياتهم، وبعد أن استتب له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكيّاً، ولم ينعزل عن كونه وعن خلقه؛ لأنهم في حاجة إلى قيّوميته تعالى في خلقه.

فكونُ الله ليس آلة تعمل من تلقاء نفسها، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها، لذلك كانت المعجزات التي تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية[١].

و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هو الذي نزَّل القرآن من الملأ الأعلى، وخلق الأرض والسماوات العلا، فما نزّل القرآن على عبده ليشقى، وصفة الرحمة هي التي تبرز هنا للإلمام بهذا المعنى، وهو المهيمن على الكون كله[٢]. فإنزال القرآن الكريم من آثار رحمته جل وعلا، وكما في قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، فلا يمكن أن يكون نزوله سببَ تعب وعناء وشقاء، بل هو سبيل كل سعادة وهناء.

ـ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: من صفات كماله جلّ وعلا من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل[٣].

قال السعدي: فلما بَيَّنَ أنه الخالق المدبر الآمر الناهي، وأخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها.

---

(١) تفسير الشعراوي، (٨/ ٩٢١٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٢٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٢٤).

ـ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك[١].

٦ ـ قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾:

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يمتنّ بما يملكه في السماوات والأرض وما تحت الثرى، والله تعالى لا يمتن إلا بملكية الشيء النفيس الذي يُنتفع به، وكأنه سبحانه يلفت أنظار خلقه إلى ما في الكون من مقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها، ويستنبطوا ما ادّخره لهم من أسرار وثروات في السماوات والأرض. والناظر في حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما من حفريات الأرض، أو من أسرار الفضاء الأعلى في عصر الفضاء.

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لعلموا أن في الأرض وتحت الثرى وهو «التراب» كنوزاً وثرواتٍ ما عرفوها إلا في العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة، وكلها تحت الثرى مطمورة تنتظر من ينقِّب عنها وينتفع بها[٢].

قال ابن كثير: أي: الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه ولا رب غيره[٣].

وقال السعدي: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ من مَلَكٍ وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً[٤].

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠١٨).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢١٩).
(٣) تفسير ابن كثير، (٥/ ٢٦٨).
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٠١٨).

٧ـ قوله تعالى ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ :

قال السعدي: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾؛ أي الكلام الخفي، ﴿ وَأَخۡفَى ﴾ من السر الذي في القلب ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب ﴿ وَأَخۡفَى ﴾ ما لم يخطر، يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته.

وهنا المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء دقيقها وجليلها، خفيِّها وظاهرها، فسواءٌ جهرت بقولك أو أسررته، فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى. فلما قرّر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه وعموم رحمته وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه وعموم علمه، نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يُوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلة[1]:

٨ـ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾: لا معبود بحق إلا هو جل جلاله لأنه هو وحده المتصف بصفات الكمال المنزّه عن صفات النقص، فلا يستحقّ العبادة سواه، وكمال شريعته من كماله جل وعلا، فهي سبيل السعادة، فتمسَّكوا بأمره وانقادوا لشرعه، وسِيروا على منهجه، فهو المعبود وحده، الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا تصلح حياتكم إلا بعبادته وطاعته.

﴿ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾؛ الدالة على كماله وصفاته، ولا حدّ لكماله جلّ وعلا، ولا حصر لصفاته سبحانه، ولهذا فإن أسماءه الحسنى لا حدّ لها ولا عدّ: فمن أسمائه الحسنى ما بيَّنه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وهي الأسماء التي يجب أن نذكره بها، وندعوه بها، كما في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا ندعوه بغيرها ولا نذكره أيضاً إلا بها: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠١٨).

ومن أسمائه الحسنى ما استأثر سبحانه به، ولم يعلّمه أحداً من خلقه، وقد دل على ذلك ما جاء في بعض الأدعية المأثورة: أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء همّي وغمّي[١].

وكما لا يجوز أن نذكره سبحانه وندعوَه بغير أسمائه الحسنى، وكذلك لا يجوز أن نتقرّب إليه بغير ما شرعه لنا، وبيّنه في كتابه وسنّة نبيه ﷺ، فهما سبيل السعادة، فمن أراد الله تعالى به خيراً هداه إلى دينه وعلمه شريعته، كما جاء في الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفَقِّهْه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ والله المُعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرُّهم مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله»[٢].

ومفهوم الحديث: أنَّ من لم يتفقَّه في الدين، ويتعلَّم أحكامه وشرائعه، فما أراد الله تعالى به خيراً، وقد أخرج حديث معاوية من وجه آخر ضعيف، وزاد في آخره: «ومن لم يتفقَّهْ في الدين لم يبالِ الله به»، والمعنى صحيح كما قال ابن حجر العسقلاني[٣].

فمصدر شقاء الإنسان نابع من إعراضه عن دين الله وشرعه، وجهله وسوء فهمه، فالله سبحانه ما خلق الخلق لِيُعذِّبهم ويُشقيهم، ما خلقهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته وعبادته، ويسعدوا بفضله ورحمته، وما من شقاء يصيبهم إلا بسبب إعراضهم عن طاعته وعبادته[٤].

قال السعدي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشير عيون، مكتبة الحلواني، ط١، ١٩٦٩م، ودار الكتب العلمية، ١٩٧٢م، (٢/ ٧٦).
(٢) البخاري، رقم ٧١.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (١/ ١٦٥).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٢٦).

والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاماً محضة وإنما هي أسماء أوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمّها وأجلّها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مُقرِّبة إليه؛ يُحبُّها ويحبُّ من يُحبُّها، ويحبُّ من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها، ويتعبَّد له بها[1]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ٩ـ١٦]:

ظهر الأسلوب المتميز لعرض قصة موسى منذ بدايتها في سورة طه، فلم تُعرض القصة حسب التسلسل الزمني لحوادثها، بل بدأت الآياتُ بعرض وقائع القصة من الواقعة التي تعدّ بحق أعظم حوادث القصة وأخطرها، وهي واقعة نزول الوحي على موسى عليه السلام، وتكليم الحق سبحانه له وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، هذا الحدث أعظم أحداث القصة وأخطرها، إذ كان له أكبر الآثار وأعمقها في حياة موسى عليه السلام خاصة، وفي حياة بني إسرائيل وتاريخهم عامة، وانعكست آثاره أيضاً على المسيرة التاريخية، والحضارية للمنطقة كلها[2].

كان موسى عليه السلام عائداً من بلاد مدين إلى مصر في طريق صحراء سيناء

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠١٨).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٢٩).

ومعه أهله، ويظهر لنا من خلال الآيات الكريمة أنه كان يعاني في أثناء رحلته من ظروف صعبة وشاقة، فالليلة شاتية باردة والظلام دامس، وقد ضلّ الطريق وتاه عن المقصد، وأهله ـ كما تذكر الروايات ـ كانت تعاني من آلام حمل ومخاض، وهي في أمسّ الحاجة إلى المأوى والفراش الدافئ والماء الساخن، وحاول موسى أن يُوقد النار بالوسائل المعروفة في ذلك الزمن، فلم يتمكَّن، وأخذ يتلفَّت حوله بحثاً عن المأوى والدفء، بينما كانت الريح الباردة تلسع وجهه، والظلام الدامس يُغشي بصره بحُجُب كثيفة سميكة تحجب عنه أقرب الأشياء منه.

إن موقف موسى في ظروفه هذه المحيطة به يُمثِّل الإنسان بضعفه وعجزه وحيرته وشدة حاجته وافتقاره إلى معونة ربه وهدايته، فلولا أن الله خالق الإنسان سخّر له ما سخّر في السماوات والأرض من أسباب الحياة ما استطاع الإنسان العيش، وما تمكن من إنشاء حضارة ولا عمران، فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً، فهو خلق الإنسان، وأعطاه كل أسباب الحياة التي يحتاج إليها، قال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

كما أن الإنسان بحاجة أيضاً إلى هادٍ يهديه الطريق الذي يُوصله إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ومن دون هذه الهداية يظل الإنسان تائهاً، يضرب في صحراء الحياة ضرب عشواء، فالتمكين المادي لا يكفي وحده لسعادة الإنسان، بل لا بد له من منهج يضبط سلوكه، ومن شريعة يسير على هَدْي أحكامها، تُبيِّن له الطريق القاصد، وتنقذه من حيرته وضلاله، وتُوضِّح له مقصده وحكمة وجوده، فتكون له بمنزلة المصباح الكاشف، الذي يُبيِّن له حقيقة حياته، وغاية مسيرته وسعيه وجهده.

هكذا كان حال موسى عليه السلام؛ إنسان تائه في الصحراء، في أشد الحاجة إلى معونة ربه وهدايته، وهو سبحانه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، والعليم الحكيم، يعلم أحواله وحاجاته وأسباب سعادته وهدايته، ولمع نور النار من

خلال حُجُب الظلام، فتبدَّدت الوحشة، وسرى الأُنس في داخل النفس[١].

١ ـ قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]:

هذا خطاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري، والتعظيم لهذه القصة والتضخيم لها[٢]، ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ والمراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتي[٣].

٢ ـ قال تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]:

﴿ءَانَسْتُ﴾ أي: أبصرتُ وشعرتُ بشيء يُستأنس به ويُفرح به ويُطمأن إليه، ومقابلها «توجّست» للشرِّ الذي يُخاف منه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧].

﴿لَّعَلِّىٓ﴾: رجاء أن أجد فيها القبس، وهي شعلة النار التي تُتَّخذ منها إن أُدركت النار وهي ذات لهب، فتأخذ منها عوداً مشتعلاً مثل الشمعة. وفي سياق آخر قال: ﴿بِجَذْوَةٍ﴾[٤]، وهي النار حينما ينطفئ لهبها ويبقى منها جمرات يمكن أن تُشعَل منها النار، وفي موضع آخر قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧].

وهذه كلها صور متعددة، وحالات للنار، ليس فيها تعارض، فموسى عليه السلام حينما قال: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠]، ويرجو أن يجد القبس، لكن لا يدري حال النار عندما يأتيها، أتكون قبساً أم جذوة؟

وقد طلب موسى عليه السلام القبس لأهله، لأنهم كانوا في ليلة مطيرة شديدة البرد، وهم غرباء لا يعلمون شيئاً عن المكان، فهو غير مطروق لهم،

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣١).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠١٩).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٢٦).
(٤) سورة القصص، ٢٩.

فيسيرون لا يعرفون لهم اتجاهاً، فماذا يفعل موسى عليه السلام، ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه؟

إنهم في أمسِّ الحاجة للنار؛ إما للتدفئة في هذا الجو القارس، وإما لطلب هداية الطريق، ولذلك قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] هادياً يدلنا على الطريق، وفي موضع آخر قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أن طمأن أهله[١]: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] أي: أقيموا في مكانكم[٢].

والمتأمل في الموقف الذي يعيشه الآن موسى وأهله في هذا المكان المنقطع، وقد اكفهرّ عليهم الجو، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعيّاً، فكلّ من أهله يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أن يطمئنهم فقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل: ٧]، فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون: لا تتركنا في هذا المكان، قال: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [طه: ١٠]، وربما قال هذه لزوجه وولده، وقال هذه لخادمه، فلا بدّ أنهم راجَعُوه، فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد.

كذلك في قوله: قبس أو جذوة، لأنه حين قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠] يرجو أن يجد هناك القبس، لكن لعله يذهب فيجد النار جذوة، وفي مرة أخرى يجزم فيقول: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل: ٧].

إذن: هي لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة، وتعدَّدت الكلمات لأن الموقف قابل للمراجعة، ولا ينتهي بكلمة واحدة[٣].

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١].

يُقال: إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ في شجرة، لكن لا خضرة الشجرة تؤثر في النور فتُبهته، ولا النور يطغى على خضرة الشجرة

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٢٧).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣١).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٢٨).

فيمنع عنها الخضرة، فهي إذن مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله، فكانت هذه النار هي أول الإيناس لموسى في هذا المكان الموحش، وكأن هذا المنظر العجيب الذي رآه إعدادٌ إلهي لموسى حتى يتلقّى عن ربه، فليست المسألة مجرد منظر طبيعي.

وقوله: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: في هذه الدهشة ﴿نُودِيَ﴾ فالذي يُناديه يعرفه تماماً، لذلك ناداه باسمه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، وما دام الأمر كذلك فطمع الخير فيه موجود، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء، ويأنس به، ويبحث عن مصدر هذا الصوت، ولا يعرف من أين هو؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التي ينبعث منها النور[1].

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗىٰ﴾ [طه: ١٢]:

فساعةَ أن كلَّمه ربُّه ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، فقد أزال ما في نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه، وعلم أنها من الله تعالى، فاطمأنّ واستبشر أن يرى عجائب أخرى. ونلحظ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أن الحق تبارك وتعالى حينما يتحدَّث عن ذاته يتحدَّث بضمير المفرد ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾.

وحينما يتحدَّث عن فعله يتحدّث بصيغة الجمع، كما في قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ [مريم: ٤٠]، وفي قوله ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩]، ففي الفعل يتكلم سبحانه وتعالى بصيغة الجمع، لأن كل صفات الحق تتكاثف في الفعل، من قدرة على التنفيذ وعلم وحكمة وإرادة، لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع، ويقولون في (النون) في قوله ﴿نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾، ﴿نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أنها: نون العظمة[2].

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ لإيناس موسى، لأن الربوبية عطاء، فخاطبه بـ ﴿رَبُّكَ﴾ أي الذي يتولى رعايتك وتربيتك، وقد خلقك من العدم، وأمدّك من عُدم.

---

(١) المصدر نفسه، (٢/ ٩٢٢٩).

(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٣٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي: ربك أنت بالذات لا الرب المطلق؛ لأن الرسل مختلفون عن الخلق جميعاً، فلهم تربية مخصوصة، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]. إذن: فالحق تبارك وتعالى يُربّي الرسل تربية تناسب المهمَّة التي سيقومون بها.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ هذا أول أمر، وخلع النعل للتواضع وإظهار المهابة، ولأن المكان مقدس، والعلة ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾، فاخلع نعليك حتى لا تَفصِل جسمك عن تربة هذا المكان المقدس الطاهر، ولا تجعل نعليك يحولان بينك وبين مباشرة هذا التراب[١].

قال شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله: إنه خلع حقيقي للنعلين، ولكن الكلمة تُشير إلى: «اخلع الأدنى»، وكلما خلع الإنسان الأدنى كان هناك أيضاً أدنى فيخلعه، وهكذا يكون الإنسان في سموٍّ مستمرٍّ، وفي ترقٍّ دائم، وشعار الإسلام «من استوى يوماه فهو مغبون»، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان.

وتُشير الكلمة أيضاً إلى: أن تَبرأ من نفسك الأمّارة بالسوء، ومن الشيطان الذي يوسوس بالسوء.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ تُشير على وجه العموم إلى: الأمر بخلع الرجس، وخلع كلِّ ما هو مُلوَّث بالرياء، والسير في طريق الله على طهر ونقاء مادي ونفسي، فإن طريق الله هو طريق الطهر والصفاء[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ قيل: كانا من جلد حمار غير مدبوغ، وقيل: كانا من جلد بقر، وإنما أُمر بخلعهما لتنال قدمه بركة الوادي المقدس.

وقيل: أَمره بذلك تأديباً له وأمراً بالخضوع، والخلع: نزع الملبوس.

---

(١) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢٣١).

(٢) قصص الأنبياء، عبد الحليم محمود، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠١٠م، ص١٩٣.

وقيل: معناه فرِّغ قلبك من شغل الأهل والولد. فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي[١].

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾: الوادي: سفح الجبل، ويقال: هو مجرى عظيم من مجاري الماء، و﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهر بإزالة النجاسات، وكذلك بإزالة الكفر والمعصية عنه، وقيل: المقدس: المبارك[٢].

وفي قوله ﴿طُوًى﴾: اسم الوادي، وهذا كلام عام جاء تحديده في موضع آخر فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠].

والبعض يرى في الآية تكراراً وليس الأمر كذلك، إنما هو تأسيس لكلام جديد يوضّح ويحدد مكان الوادي المقدس طوى أين هو، فإن قلت: أين طوى؟ يقول لك: في الوادي الأيمن، لكن الوادي الأيمن نفسه طويل، فأين منه هذا المكان؟ يقول لك: عند البقعة المباركة من الشجرة[٣].

فالآية الثانية حدَّدت المكان، كما تقول أنت: اسكن في حي كذا وفي شارع كذا وفي رقم كذا[٤].

قال ابن القيم: فأمره سبحانه أن يُعظِّم ذلك الوادي بالوطء فيه حافياً كما يوطأ بساط الملك، وصار ذلك سنة في بني إسرائيل في مواضع صلواتهم وكنائسهم، وشريعتنا بخلاف ذلك، فصلَّى النبي ﷺ في النعلين، وأمر أصحابه أن يُصلُّوا في نعالهم[٥].

---

(١) لباب التفسير، تاج القراء محمود بن نصر الكرماني النيسابوري، (ت: ٥٣١هـ)، لندن، المكتبة القومية البريطانية، (د.ت)، (٥/ ٥١٣).
(٢) المصدر نفسه، (٥/ ٥١٣).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٣٢).
(٤) تفسير الشعراوي، المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢٣٢).
(٥) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، مصدر سابق، (٣/ ٤١٩).

وقال السعدي: وكان مطلبه ـ أي: موسى عليه السلام ـ النور الحسي والهداية الحسية فوجدها، ثم النور المعنوي، وهو نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب. والهداية الحقيقية هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله، وأخبره سبحانه وتعالى أنه ربه، وأمره أن يستعدَّ ويتهيّأ لمناجاته ويهتمّ لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المُعظَّم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاة كليمه موسى لكفى[(١)].

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]:

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: أنا اصطنعتك لنبوتي ورسالتي، وأسمعتك كلامي، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فالنبوة لا تكون بالاكتساب وتحصيل الأسباب، وإنما تكون باصطفاء الحق سبحانه بمشيئته وعلمه وحكمته، فالله سبحانه الحكيم الخبير: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤][(٢)].

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾؛ فيا للتكريم! يا للتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار، يختار عبداً من العبيد، هو فرد من جموع الجموع، تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرة في مجموعة، المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله: كن فكان، ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان[(٣)].

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾؛ كيف يكون وقعها في قلب موسى، وهو يعلم من أمه أن الله أوحى إليها ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]، وأن الله حرّم عليه المراضع، وردّه إلى أمه كي تقرّ عينها، وأنه سبحانه ألقى عليه محبة منه، وهو يذكر عطاء الله له منذ أن ولد، ورعاية الله له منذ أن وُلد، هو الآن يسمع ربه وهو يقول له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، وهو يسمع هذا الكلام من ربه.

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٠).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٣).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣١).

وأراد ربنا أن يُدخل المسرة على قلب موسى فقال له ﴿وَأَنَا﴾، وكان يمكن أن يقول «واخترتك»، ولكن ذكر ضمير الذي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، والذي تعهَّده من ساعة أن ولد، ورباه في بيت عدوّ له وعدو لله، يقول له «أنا» وليس غيري، ويؤكد له الخبر بضمير متصل، وكأن اختيار الله لموسى ذُكر مرتين، مرة بمجيء ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ خبراً لقوله ﴿وَأَنَا﴾، ومرة بإسناد الفعل «اخترتك» للضمير[١].

وقوله ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾؛ بيان للذي اختاره الله له، وهو سماعه ووعيه وَحي ربه، ثم بلاغ ما سمعه من ربه، وإنفاذ ما أُمر بإنفاذه، وهذه الفاء التي في قوله ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ تُرتِّب الأمر بالاستماع على الاختيار، ولم يقل فاسمع، وإنما قال فاستمع أي بكل ما فيك من وعي، وأني اخترتك لتستمع واصطفيتك لتستمع، وهذا هو مقام النبوة التي يعرفها موسى في قومه وأن الله جعل فيهم أنبياء، ومن عجيب أمر موسى عليه السلام أنه تربَّى في بيت فرعون، ولبث فيهم من عمره سنين، ولم تُلوَّث نفسُه بأي سوء، وإنما كان موحِّداً ذاكراً لربه، وعاش حياته كلها عيشة الأبرار الصالحين[٢]، قبل اختيار الله له بالنبوة والرسالة.

﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: استمع لما يوحى إليك وتأهَّب له، واجعل همتك كلها مُتوجِّهة إليه، فهو أمر خطير[٣].

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: ألق سمعك للذي أُوحي إليك، فإنه حقيق بذلك لأنه أصل الدين ومبدؤه وعماد الدعوة الإسلامية، وقال القرطبي في قوله ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾: حُسن الاستماع كما يجب، فقد مدح الله عليه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ١٨]، ومدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٥٤.
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٥٤.
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٣).

أدباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال هاهنا: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى.

روي عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكفَّ العبد جوارحه ولا يشغلها فيشتغل قلبُه عما يسمع، ويغضَّ طرفَه فلا يلهو قلبُه بما يرى، ويحصر عقله فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يَفهم فيعمل بما يَفهم.

وقال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر. وإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنية صادقة على ما يُحبُّ الله، أفهمه كما يُحبُّ، وجعل في قلبه نوراً[(١)].

٦ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]:

أ ـ ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: أنا المعبود الحق الذي لا يستحقّ العبادة أحد غيري، ودلّ قوله سبحانه هذا على أن معرفة الله تعالى هي أوجب الواجبات وأول المهمات وأعظمها، فهي أول ما يجب على الإنسان أن يعلمه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: هذا أول واجب على المكلفين، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له[(٢)]، عرّف الله سبحانه موسى بأنه وحده سبحانه المستحق للعبادة والطاعة، فلا يستحقّ العبادة والطاعة أحد غيره جلّ وعلا، لأنه

(١) تفسير القرطبي، (١١/ ١١٨).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٧١).

وحده المتصف بصفات الجلال والكمال. وسبق تقرير هذه الحقيقة في أول السورة عند قوله تعالى الذي مرّ معنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

ولعله قد اتضح لنا الآن سرُّ بدء الآيات بعرض قصة موسى من هذه الواقعة من موضع النداء والمناجاة في وادي طوى بجانب جبل الطور، هذه المعرفة التي تنير للإنسان درب حياته، وبها تظهر معالم المنهج الذي يجب عليه التزامه، ويبقى الإنسان من دون المعرفة يتخبط في ظلمات الحيرة والقلق والجهل، فهي التي تُخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، فيعرف الإنسان بها أنّ عليه أن يتوجَّه بطاعته وعبادته إلى الله الذي خلقه ورباه[١].

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: المستحق للألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفُؤ له سبحانه وتعالى[٢].

وقال محمد متولي الشعراوي في قوله ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: صاحب التكاليف، والمعبود المطاع في الأمر والنهي، وأوّل هذه التكاليف وقمّتها، والينبوع الذي يصدر عنه كل السلوك الإيماني: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، وما دام لا إله إلا هو فلا يصح أن نتلقى الأمر والنهي إلا منه، ولا نعتمد إلا عليه، ولا يشغل قلوبنا غيره[٣].

ب ـ ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أي: توجَّه إليّ وحدي بالعبادة والطاعة، فمن أجل أن تسعد بعبادتي وطاعتي خلقتُك، وأنعمتُ عليك بنعمي، وسخَّرتُ لك ما في أرضي وسمائي، فالله سبحانه غنيّ عنك وعن عبادتك وطاعتك، ولا سعادة لك أيها الإنسان إلا بطاعة ربك وعبادته والعيش في ظلال منهجه وشريعته. فمعنى

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٤).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٠).
(٣) تفسير الشعراوي، (٥/ ٩٢٢٧).

العبادة: الطاعة والخضوع والانقياد في جميع شؤون الحياة[١]. إن العبادة تشمل كل حركة تؤدي خدمة في الكون، نيَّتُك فيها لله عزّ وجل[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾؛ هو بيان أهمية الألوهية التي هي قوام العقيدة، والله في ندائه لموسى عليه السلام يؤكدها بكل المؤكدات بالإثبات المؤكد ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، الأولى لإثبات الألوهية لله، والثانية لنفيها عن سواه، وعلى الألوهية تترتَّب العبادة، والعبادة تشمل التَّوجُّه لله في كل نشاط الحياة[٣].

ت ـ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾: وخص الصلاة بالذِّكر، وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها وتضمُّنها عبودية القلب واللسان والجوارح[٤].

والصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذِّكر، لأنها تتمخَّض لهذه الغاية، وتتجرَّد من كل الملابسات الأخرى، وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده، وتتجمَّع للاتصال بالله[٥].

والصلاة هي العبادة الدائمة التي لا تنحل عن المؤمن، مادام فيه نفس، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير وهي كل عام أو كل محصول، والصيام يسقط عن المريض والصوم شهر في العام، والحج يسقط عن غير المستطيع وهو مرة واحدة في العمر، أما الصلاة فلا عذر أبداً يُبيح تركها، فتُصلِّي قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، فإن لم تستطع تُصلِّي ولو إيماء برأسك أو بجفونك، فإن لم تستطع فحسبك أن تخطرها على قلبك، مادام لك وعي، فهي لا تسقط عنك بحال.

كذلك فالصلاة عبادة متكررة: خمس مرات في اليوم والليلة، وذلك لتُذكِّرك

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ٢٣٤).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٤٠).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣١).
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٠).
(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣١).

باستمرار إن أنْستك مشاغلُ الحياة، ولتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم[١].

والصلاة لله تعالى تدل على طاعته سبحانه والانقياد والخضوع لأمره، فهي العبادة بمعناها الخاص، وهي أهم العبادات، ولهذا خصّها سبحانه فذكرها بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: صلِّ الصلاة المشروعة على الوجه المستقيم من أجل أن تذكرني، فذكره سبحانه يجعل الإنسان في أعلى درجات السعادة الدنيوية، ولا سعادة في الدنيا إلا بذكره سبحانه، فهي التي تصله بالله، وهي معراجه إليه سبحانه، بها يمتلئ قلب المصلي طمأنينة وسكينة، ويبتعد عن القلق والحيرة والاضطراب وتعب الأعصاب.

تجمع الصلاة للمُصلِّي الانقياد والاستسلام لله تعالى بأسلوب عملي، بأداء قيامها وسجودها وركوعها، مع ذِكره سبحانه ومناجاته بالآيات الكريمة التي يقرؤها، وبالتسبيحات الخاشعة التي يرددها، وبالدعوات والابتهالات التي يرفعها، ويفيض الله تعالى على المصلي في مقابل ذلك من فيوضات رحمته وخزائن فضله وإحسانه، ويَذكره سبحانه في الملأ الأعلى، أخبر عن ذلك بقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في الملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم، وإن تقرّب مني ذراعاً تقرَّبتُ منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً»[٢].

أرأيتَ سعةَ فضله سبحانه ورحمته؟! أرأيت كيف أنه سبحانه أسرَعُ إليك بمعونته ورحمته وإحسانه منك إليه بطاعتك وعبادتك، وهو سبحانه غني عنك

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٤٠).

(٢) البخاري، رقم ٧٤٠٥، مسلم، رقم ٢٦٧٥.

وعن عبادتك وطاعتك؟! وهذا هو سرُّ شعور المصلي الخاشع في صلاته بلذة مناجاته سبحانه، بهذه اللذة تزول عنه هموم الحياة وأحزانها، وبها يَعرف حلاوة الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولهذا كان الخشوع في الصلاة روحَها وزبدتَها، وهو أعلى صفات المؤمنين المفلحين وأرفعها: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

فالصلاة خير ما يستعين به الإنسان للتغلُّب على هموم الحياة ومصاعبها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاة واحة غنّاء في صحراء حياة الإنسان يجد فيها راحة قلبه وغذاء روحه وسكينة نفسه، تنزاح بها عن قلب الإنسان ونفسه أثقالُ الحياة وهمومُها، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلّى[(١)]، ومعنى: حَزَبه: أهمَّه وأحزنه[(٢)].

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾: اللام للتعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذِكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجلّ المقاصد، وبه عبودية القلب وبه سعادته، فالقلب المُعطَّل عن ذكر الله مُعطَّلٌ عن كل خير، وقد خَرِبَ كل الخراب، فشرع الله أنواع العبادات التي مقصوده منها إقامة ذكره وخصوصاً الصلاة.

قال تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا نوع يقال له توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، فالألوهية وَصْفُه تعالى، والعبودية وَصْفُ عبده[(٣)].

ثم بيّن الله سبحانه لموسى ـ بعد أن شرّفه بمعرفته وكلّفه بطاعته وذِكره ـ

---

(١) سنن أبي داود، رقم ١٣١٩.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٦).
(٣) تفسير السعدي (٣/ ١٠٢٠).

مسؤوليةَ الإنسان عن عمله يوم القيامة، فقال تعالى بأسلوب التقرير المؤكد[١]:

٧ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]:

أي: مع ما سبق وَطِّنْ نفسَك على أن الساعة آتية لا محالة، والساعة هنا هي عمر الكون كله، وأما أعمار الناس في الكون فهي متقاربة؛ كل حسب أجله، فمن مات فقد قامت قيامته وانتهت المسألة بالنسبة له.

يقول محمد متولي الشعراوي: إذن، نقول: الساعة نوعان: ساعة لكل منّا وهي عمره وأجله الذي لا يعلم متى سيكون، وساعة للكون كله، وهي القيامة الكبرى، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أي: اجعل ذلك في بالك دائماً، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً، فإياك أن تقول: سأموت قريباً، أما القيامة فبعد آلاف أو مئات السنين؛ لأن الزمن ملغيّ بعد الموت، كيف؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث، فإذا انعدم الحدث فقد انعدم الزمن، كما يحدث لنا في النوم، وهل تستطيع أن تُحدِّد الوقت الذي نمته؟ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، والعبد الذي أماته الله مائة عام لما بعثه قال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع، لأن يوماً أو بعض يوم هي أقصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام؛ لذلك نقول: «من مات فقد قامت قيامته»[٢].

ومن حكمته سبحانه وتعالى أن أخفى الساعة؛ أخفاها للفرد، وأخفاها للجميع، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال: أفعل ما أُريد ثم أتوب قبل الموت، ولذلك أخفاها الحق تبارك وتعالى، لنكون على حذر أن نلقى الله على حال معصية، وكذلك أخفى الساعة الكبرى، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خلق

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٤٤).

الله وتنتفع به ظلماً وعدواناً، وتعلم أنك إن سرقت سترجع إلى الله فيحاسبك، فما دمت سترجع إليّ فاستقمْ وعدِّلْ من سلوكك.

وقوله ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ أي: ليس مأتياً بها، فهي الآتية، مع أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي سيأتي بها، فمعنى ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ أي: فإذا جاء وقتها حدثت بإذن ربها[١].

إن وقت الساعة مما استأثر الحق سبحانه بعلمه، فلم يُطلع عليه نبيّاً مرسلاً ولا مَلَكاً مقرَّباً، وقد أخبر سبحانه عن ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وجاء الخبر عن ذلك أيضاً في السُّنة النبوية، فعندما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ قائلاً: أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤولُ عنها بأعلَمَ من السائل»[٢].

وفي قوله ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: أكاد أخفيها حتى عن نفسي، فكيف أُظهرها لك؟! وهذا محمول كما قال القرطبي: على ما جرت به عادة العرب في كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء، قال: كدت أخفيه عن نفسي، والله تعالى لا يَخفى عليه شيء[٣]. ومن هذا الباب قوله ﷺ: «ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما تنفقُ يمينُه»[٤].

وقال أهل العلم: إن كلمة ﴿أُخْفِيهَا﴾ تفيد معنيين؛ تعني أُظهرها، وتعني

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٤٤).
(٢) رواه مسلم، رقم٨، التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٧).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٧).
(٤) البخاري، رقم ٦٦٠.

أُخفيها من الخفاء، وقالوا إن المعنى في الآية يحتملهما، فإذا كانت بمعنى أُخفيها من الخفاء أفادت الجملة معنى أكاد أخفيها عن نفسي، وإن كانت الجملة بمعنى أُظهرها أفادت الجملة معنى اقتربت الساعة، وأن الحق سبحانه يوشك أن يُظهرها وأن تقوم الساعة، ثم كلمة ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ فيها إسناد فعل آتية إلى الساعة، وهذا يعني أنها آتية في الطريق، وهذا يُقرِّب معنى أكاد أخفيها بمعنى أظهرها، ونحن نقول إن الأجل آتٍ، أو فلان أتاه الأجل، وكأن الأجل يَعرف موعدي وموعدك، وهو في الطريق آتٍ لي ولك، والله يعلم كم بقيت له من المسافة حتى يصل، وهذه دقائق خفية في عبارات الكتاب العزيز، ونحن نقرؤها في مثل قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، و﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥] من غير أن نلتفت[١].

وقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾: أي: بما تعمل في حياتها الدنيا من خير أو شر، فالمسؤولية شخصية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولا يُسأل الإنسان إلا عن عمله، وهو كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ـ٤١].

ويدل قوله سبحانه ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ على أن للإنسان كسباً واختياراً في سعيه وعمله، وأن له إرادة وحرية فيما يعمل وفيما يترك، وهو أساس مسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة[٢].

قال الدكتور محمد أبو موسى في تعليقه على قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]: يُلاحظ فيها أمور:

الأمر الأول: أنها باب من أبواب إيجاز القرآن واختصاراته، لأنه لا يكون جزاء، أعني ثواباً وعقاباً، إلا إذا كان هناك بيان لأعمال يثاب فاعلها، وبيان لأعمال يعاقب فاعلها، يعني هناك شرائع وأوامر ونواهٍ، وقد سكتت الآية عنها وأشارت

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد أبو موسى، ص٣٥٩.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٨).

إليه بجملة ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وهذا ضَرْبٌ من الإيجاز العالي، الذي لم تُشبِعْه الدراسة البلاغية، وإنما تركه البلاغيون لمن يأتي بعدهم.

والأمر الثاني: في هذه الجملة: أنها قررت قاعدة شرعية وعقلية وإنسانية، وهي أن كل نفس لا تُجزى إلا بما تسعى، وكل امرئ بما كسب رهين، وأنه ليس في شرائع الله من نوح إلى سيدنا رسول الله ﷺ إلا هذا الأصل.

وليس في شرائع عقلاء الناس من غير المؤمنين إلا هذا الأصل، حتى إن فرعون نفسه لم يأخذ هارون بذنب موسى، لما خرج موسى إلى مدين، فإذا وجدتَ من يأخذ واحداً بذنب غيره، فيخطف الابن ليحضر الأب، أو يعذّب البنت بذنب أبيها، فاعلم أنه خرج من شرائع الله منذ نوح، وخرج من شرائع العقلاء، ودخل بنفسه وشعبه في غابة ليست غابة حيوان، بل أدنى، لأننا لم نرَ كلباً عضّ كلباً إلا الكلب الذي عضَّه.

والأمر الثالث والأخير: في الجملة المضيئة، والتي هي من منبع الفطرة أن كلمة ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ جاءت مبنية للمجهول، وأقرب ما يقال في هذا هو أن المُثيب والمعاقب والمحاسب بعد الساعة هو الله وحده ـ سبحانه ـ ولك أن تلحظ فيه معنى آخر، وهو أن كل من له عقل سواء له شرع أو ليس له شرع، يقرّ بهذه الحقيقة، وهي أنه لا تُجزى نفس إلا بما تسعى، وأن من يفعل غير ذلك بشعبه وناسه كأنه جاء إلى هذه الأرض من كوكب مجهول[(١)].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يمنعك عن هذه القضايا الثلاث الكبرى، وهي: معرفة الله تعالى بكماله ووحدانيته، وطاعته بإقامة الصلاة والتزام دينه وشريعته، والإيمان بالمسؤولية أمامه سبحانه يوم القيامة[(٢)].

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٦٠.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٨).

﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ أي: الذي يُنكرها ويجحدها، فلا يؤمن بالله تعالى الإيمان الصحيح، ولا يعبده ويذكره وينقاد لشرعه، ولا يؤمن بالمسؤولية والجزاء يوم القيامة.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: أصبح تابعاً لهواه.

﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ أي: فتهلك هلاك الشقاء والتعاسة والعذاب في الدنيا والآخرة.

وهذا التحذير وجَّهه الله تعالى إلى موسى عليه السلام لأنه المخاطَب والمكلَّم، والمراد به الإنسان المكلَّف، فكأنه سبحانه يقول لهذا الإنسان: في هذه القضايا الثلاث الأساسية سبيلُ سعادتك وسلامتك ونجاتك، وفي إعراضك عنها شقاؤك وعذابك في الدنيا والآخرة[1].

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: كأن الحق تبارك وتعالى يعطي لموسى عليه السلام مناعة لما سيقوله الكافرون في الآخرة، وغرضهم أن يكون هذا كذباً فليست الآخرة في صالحهم، فإياك أن تصغي إليهم حين يصدُّونك عنها، ولكن لماذا يصدُّ الكفار عن الآخرة والإيمان بها؟ لأنهم يعلمون أنهم سيُجازَون بما عملوا، وهذه مسألة صعبة عليهم، ومن مصلحتهم أن تكون الآخرة كذباً.

وصدق أبو العلاء المعري حين قال:

زعم المُنجِّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تُحشَر الأجسادُ قلتُ إليكما

إن صحَّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صحَّ قولي فالخسارُ عليكما

أي: أن المؤمن بالبعث إن لم يكسب فلن يخسر، أما أنتم أيها المُنكرون فخاسرون.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ أي: تهلك، من الردى وهو الهلاك.

وهكذا جاء الكلام من الله تعالى لموسى عليه السلام:

أولًا: البداية إيماناً بالله وحده لا شريك له وهذه القمة الأولى، ومن ثم جاء

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٢٣٨).

بالقمة الأخيرة وهي البعث، فالأمر ـ إذن ـ منه بداية وإليه النهاية ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ إلى أن قال ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] (١).

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦] أي: فلا يَصدَّنَّك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل مَن كان كافراً بها غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها ويجادل فيها بالباطل، ويُقيم من الشبه ما يَقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، فإياك أن تُصغي إلى من هذه حاله، أو تَقبل من أقواله وأعماله الصادّة عن الإيمان بها والسعي لها بسعيها، وإنما حذر الله تعالى عمّن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله، وكون النفوس مجبولة على التشبه والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا إشارة إلى التحذير من كل داع إلى باطل، يصدُّ عن الإيمان الواجب أو عن كماله أو يُوقع الشبهة في القلب، ومن النظر في الكتب المشتملة على ذلك.

وذكر في هذا الإيمان به وعبادته والإيمان باليوم الآخر؛ لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمّت تمَّ أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها أو نقص شيء منها(٢).

إن اتباع الهوى هو الذي يُنشئ التكذيب بالساعة، فالفطرة السليمة تُؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها، ولا يتم فيها العدل تمامه، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقَّق فيها الكمال المُقدَّر للإنسان، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال(٣).

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العُلوي الذي تجاوبت به جنبات الوجود، وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد، ولا بد أن موسى قد نسي

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٤٧).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢١).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٤).

نفسه ونسي ما جاء من أجله، وذلك ليتبع ذلك الصوت العُلوي الذي ناداه، ويسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه. وبينما هو مستغرق فيما هو فيه، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفَّت إلى سواه، فإذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب[1].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٤]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]:

ما: استفهامية والتاء بعدها إشارة لشيء مؤنث، وهو الذي يمسكه موسى في يده، والكاف للخطاب كأنه قال له: ما هذا الشيء الذي معك؟ والجواب عن هذا السؤال يتم بكلمة واحدة «عصا»، أما موسى عليه السلام فهو يعرف أن الله تعالى هو الذي يسأل، ولا يخفى عليه ما في يده، ولكنه كلام الإيناس من الله تعالى، فعلى العبد أن يستغلَّ هذه الفرصة ويُطيل أمد الأُنس بالله عزّ وجل، ولا يقطع مجال الكلام هكذا بكلمة واحدة، لذلك رد موسى عليه السلام.

٢ ـ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]:

قال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ ثم فتح لنفسه مجالاً آخر للكلام.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾؛ وهنا يرى موسى أنه تمادى وزاد، فيحاول الاختصار ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾: أي أعتمد عليها حين المشي، وحين أقف لرعي الغنم،

(١) المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٣٢).

فأستند عليها، والاتكاء أن يراوح الإنسان بين قدميه فيُريح القدم التي تعبت وينتقل من جنب إلى جنب[١].

ـ ومن فوائد العصا ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أضرب بها أوراق الشجر فتتساقط، فتأكلها الغنم والماشية؛ لأن الراعي يمشي بها في الصحراء، فتأكل من العشب وهو النبات الطبيعي الذي لم يزرعه أحد ولا يسقيه إلا المطر، فإن انتهى هذا العشب اتجه الراعي إلى الشجر العالي، فيُسقط ورقه، لتأكله الغنم، فيحتاج إلى العصا، ليؤدي بها هذه المهمة.

وفي قوله ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] لراحته هو، و﴿أَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ لخدمة الرعية، وفيها سياسة إدارة الرزق كلها للناس، ورعي الغنم وسياستها تدريب على سياسة الأمة بأسرها؛ ولذلك ما بعث الله من نبي إلا ورعى الغنم ليتعلم من سياسة الماشية سياسة الإنسان.

وفي الحديث الشريف: «ما بعث الله من نبي إلا ورعى الغنم، وأنا كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة»[٢]، ولما أحس موسى عليه السلام أنه أطال في خطاب ربه عزّ وجل أجمل فقال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: منافع وحوائج أخرى غير ما ذكرت، فكأنه عليه السلام أراد البيان أن يذكر أنه ما حمل العصا للعدوان، وإنما حملها للانتفاع.

ومن أدب موسى عليه السلام: أن الله لما سأله عمّا في يمينه وكان السؤال محتملاً أن يكون عن عينها أو منفعتها أجابه بعينها ومنفعتها[٣].

ومنافع العصا كثيرة، فصّلها أعرابي للحجاج بن يوسف الثقفي عندما سأله قائلاً: ما في يدك؟ قال: عصاي، أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطواتي، وأثبُ

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٢٢٦٢).
(٢) البخاري، رقم ٢٢٦٢.
(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٢).

بها النهر، وتُؤمِّنني من العثر، وألقي عليها كسائي، فيقيني الحر ويُدفئني من القَرِّ، وتُدني إليَّ ما بعُد مني، وهي محمل سُفرتي، وعلاقة إداوتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عَقور الكلاب[١].

وقد توسع العلماء في الحديث عن المآرب الأخرى، وبعض العلماء يقولون: لقد كان موسى عليه السلام ينتظر أن يسأله ربه عن هذه المآرب ليُطيل الحديث معه، لكن الحق سبحانه لم يسأله عن ذلك؛ لأنه سينقله إلى شيء أهم من مسألة العصا، فما ذكرتَه يا موسى مهمة العصا معك، أما أنا فأريد أن أخبرك بمهمتها معي[٢]، ثم يقول سبحانه:

٣ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩]:

ارْمِ بها على الأرض، وهو هنا إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام، فلم تعد للتوكُّؤ والهش على الغنم، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان، فتصير حية.

٤ـ قال تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]:

هذه نقلة كبيرة في مسألة العصا، فقد كان في الإمكان لإثبات المعجزة أن تتحول العصا، وهي عود جاف من الخشب، إلى شجرة خضراء، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُجري لموسى هذه المعجزة لأنه سيحتاج إليها فيما بعد، ولو تحولت العصا إلى شجرة خضراء فسوف تستقر في مكانها، أما حين تتحول إلى حيّة فهي حيوان متحرك، تجري هنا وهناك، وهذا ما سيحتاجه موسى في معركته القادمة[٣].

ألقى موسى عصاه: ﴿فَإِذَا هِيَ . .﴾ إذا هنا فجائية كما تقول: خرجت فإذا أسدٌ بالباب، وحينما ألقى موسى العصا سرعان ما تحولت وهي جافة يابسة إلى

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٣٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٢).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٣).

حية تسعى[١]، وفُوجئ موسى عليه السلام بالمعجزة التي ما خطرت له على بال وما كان يتوقَّعها، انقلبت العصا بقدرة الله إلى حية تتحرك.

والحية: اسم جنس يقع على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، وقد وصفها سبحانه أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] مما يدل على ضخامتها، فالثعبان: العظيم من الحيات.

ويبدو أنها تتحرك حركات سريعة، إذ وصفها سبحانه أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، واجتمع على موسى هول المفاجأة والخوف الطبيعي الذي يعتري الإنسان في مثل هذه المواقف، فابتعد هارباً عنها[٢].

والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولّى مدبراً ولم يعقِّب، إنما يكتفي بالإشارة الحقيقية إلى ما نال موسى عليه السلام من خوف: ذلك أن ظِلَّ هذه السورة ظِلُّ أمن وطمأنينة، فلا يشوبه حركة الفزع والجري والتولِّي بعيداً[٣]، وطمأنه الله تعالى وأزال خوفه، وأمره أن يأخذها ويحملها[٤].

٥ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]:

أي: ليس عليك منها بأس ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: هيئتها وصفتها إذ كانت عصا. فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها[٥].

وكانت هذه المسألة تدريباً لموسى عليه السلام وتجربة، فالعصا مهمة في

---

(١) المصدر نفسه، (١٢/ ٩٢٥٣).
(٢) التفسير الموضوعي، (١٥/ ٢٤٠).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٤).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٠).
(٥) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٢).

رسالته، وسوف تكون هي معجزته في صراعه مع فرعون حين يضرب بها البحر، وفي دعوته لبني إسرائيل حين يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء[١].

وقد عالج القرآن هذه القصة في لقطات مختلفة، فمرة يقول عن العصا كأنها ثعبان، ومرة يقول: حية، ومرة أخرى: جان. والحقيقة أنها صور مختلفة للعصا حينما انقلبت، فمن ناحية قتلتها المميتة هي حية، ومن ناحية ضخامتها ثعبان، ومن ناحية خفة حركتها جان، وكل هذه الخصائص كانت في العصا، وحين تجمع كل هذه اللقطات تعطيك الصورة الكاملة للعصا بعد أن صارت حية، فآيات القرآن ـ إذن ـ تتكامل لترسم الصورة الحقة لخلق الله تبارك وتعالى[٢].

٦ ـ **قال تعالى**: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٢٢]:

اليد معروفة: والجناح للطائر، ويقابله في الإنسان الذراع من بداية العضد، والحق سبحانه حينما أوصانا بالوالدين قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يعني: تواضَعْ لهما، ولا تتعالَ عليهما. وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص: ٣٢]، وفي موضع آخر قال: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ﴾ [النمل: ١٢]، والجيب طوق القميص، سمّي جيباً لأنهم كانوا في الماضي يجعلون الجيب الذي يضعون به النقود أو خلافه في داخل الثوب، ليكون بعيداً عن يد السارق، فإذا احتاج الإنسان شيئاً في جيبه يُدخل يده من طوق القميص ليصل إلى الجيب، فسمّي الطوق جيباً وهذا من مظاهر التكامل بين الآيات.

والمعنى هنا: اضمم كف يدك اليمنى، وأدخله من طوق قميصك إلى تحت عضدك الأيسر ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أي: ساعة أن تخرج يدك تجدها بيضاء، لها ضوء ولمعان وبريق وشعاع.

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٤).

(٢) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢٥٤).

ومعلوم أن موسى عليه السلام كان أسمر اللون كما وصفه النبي ﷺ حينما طُلب منه أن يصف الرسل، الذين لقيهم في رحلة الإسراء والمعراج، فقال: «أما موسى فرجلٌ آدَمُ[١] طوالٌ، كأنه من رجال أزْدِ شنوءة»[٢]، أي: أسمر شديد الطول؛ لأن طوال يعني: أكثر طولاً من الطويل، ومن هنا كان بياض اليد ونورها في سُمرة لونه آية من آيات الله، ولو كان موسى أبيض اللون ما ظهر بياض يده.

وقوله ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢] أي: من غير مرض، فقد يكون البياض في السُّمرة مرضاً ـ والعياذ بالله ـ كالبرص مثلاً، فنفى عنه ذلك[٣].

قال مجاهد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كفه تحت عضده، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر[٤].

وقوله تعالى: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: معجزة، ولكنه لم يقل شيئاً عن الآية الأولى، فدلّ ذلك على أن العصا كانت الآية الأولى، واليد الآية الأخرى[٥]، والمعجزتان أجراهما الله على يدك وأيّدك بهما كدليل على صحة نبوتك وصدق رسالتك[٦].

٧ ـ قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣]:

أي: فعلنا بك ذلك لنجعلك ترى بعض معجزاتنا الكبرى، فهاتان المعجزتان: العصا واليد، اللتان أراهما الله تعالى موسى، هما بعض المعجزات التي أيده الله سبحانه بها في أثناء مواجهة موسى لفرعون وملئه، فقد أيده الله تعالى بتسع معجزات أخبره سبحانه عنهن في قوله ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢] وتدل كثرة

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٥)، آدم: يعني أسمر.
(٢) البخاري، رقم ٣٣٩٤.
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٦).
(٤) تفسير ابن كثير، (٥/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).
(٥) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٦).
(٦) التفسير الموضوعي، (٣/ ٢٤١).

المعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها موسى على شدة عناد الذين أُرسل إليهم[١].

قال الشيخ متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي: نريك الآيات العجيبة عندنا لتكون مقدمة لك، فحين نأمرك بشيء من هذا القبيل فاعلم أن الذي يأمرك ربٌّ لن يغشَّك، ولن يتخلى عنك، وسوف يؤيدك وينصرك، فلا تخف أو تتراجع، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعِدُّ نبيه موسى للقاء مرتقب مع عدوه فرعون الذي ادّعى الألوهية[٢].

إن كلاًّ من العصا واليد معجزتان كبيرتان وبرهانان من عند الله تعالى كما قال: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]، هذا من حيث كونهما من المعجزات الدالة على صدق موسى عليه السلام، أما من حيث تأثير العصا فكان أكبر من اليد، لأن العصا قد انقلبت إلى حية عظيمة، والحية عدو للإنسان، بخلاف اليد، فكل ما هناك أنها تحولت من السواد إلى البياض[٣].

ونقل الرازي عن الحسن أن الإعجاز في اليد أعظم من الإعجاز في العصا، وضعَّفه الرازي معللاً أن اليد ليس فيها إلا تغيير اللون، وأما العصا ففيه تغيير اللون، وخلق الزيادة في الجسم، وخلق الحياة والقدرة، والأعضاء المختلفة، وابتلاع الحجر والشجر[٤].

والمعجزتان تتشابهان في كونهما مُتحوِّلتين متقلِّبتين من طبيعة إلى أخرى بحيث يعجز الخصم عن معارضتهما أو الإتيان بمثلهما[٥].

وقد ذكر الصاوي وابن عاشور وأبو بكر الجزائري أن اليد اليُمنى هي التي أُمر

---

(١) التفسير الموضوعي، المصدر السابق، (٣/ ٢٤١).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٦).
(٣) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، محمود عبد الكريم الحسن، رسالة ماجستير، فلسطين، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٠م، ص٤٠.
(٤) تفسير الرازي، (٢٢/ ٢٧).
(٥) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص٤١.

موسى عليه السلام بإدخالها في جيبه والله أعلم، وقد يُستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يحب التيامن في شأنه كله، وكان يستعمل اليد اليمنى فيما هو خير، واستعمال موسى العصا كان للخير فهو يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وهذه من أمور الخير[١].

والظاهر أن معجزة اليد كانت في بياضها فقط، فالقرآن لم يحدثنا عن شيء آخر غير هذا، ولعلها كانت زيادة في مساندة النبي موسى عليه السلام لاحتمال أن يبقى عند بعض المعارضين شك في عصا موسى أنها من أنواع السحر، فجاءته معجزة اليد لزيادة الحجة والبرهان[٢].

ويكفينا في هذا المقام أن نعرف أن هذه العصا قد قامت على رأسها دعوة كاملة، وكان لها تاريخ وسجل حافل، وهي رمز للقوة في وجه الطاغية الأكبر الذي قرع موسى بابه بهذه العصا دون خوف ولا وجل، وكانت سبباً لنجاة المؤمنين وقت أن ضرب بها موسى البحر فانفلق، لقد ذهب الخوف الذي اعترى موسى عليه السلام وقت إلقاء العصا وتحوُّلها عن طبيعتها إلى حية تسعى، وهو الآن يتدرَّب ويتهيأ لقمع الظلم وإحلال العدل، وإنقاذ شعب بأكمله من قبضة ذلك الطاغية الذي علا في الأرض، وجعل أهلها شيعاً، يذبِّح الأبناء ويستحيي النساء.

وهكذا لابد لكل داعية من عصا تؤنسه ـ أي قوة ـ فمرة يتكئ عليها أي تكون في وضع منخفض، دليل على خفض الجناح للمؤمنين ومساندة أهل الصلاح والتقى، ومرة يرفعها لتكون في حالة عليا مشهورة في وجه كل جبار عنيد، والداعي المسلم مؤيَّد بتأييد الله، ولسوف تكون المعركة لصالحه ويردّ إفك الأفاكين إن هو أحسن استخدام العصا في وقتها، وهذا هو منهج المصلحين، وطريق الصالحين على مر السنين. فها هو ذو القرنين يحدثنا القرآن الكريم عن أسلوبه مع الناس ومعاملته لهم: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧ـ٨٨].

---

(١) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص٤١.
(٢) المصدر السابق، ص٤١.

وقد احتوت الآيات السابقة على عدة مفاهيم في أصول المنهج القويم في التعليم، ومن تلك المفاهيم ما يلي:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]: استهلال الدرس بالسؤال يعرض التدرُّج في تعليم الطالب، وهذا أسلوب تربوي يحتاجه المدرس في جذب انتباه التلاميذ وإثارتهم لما سيُلقي عليهم، ومنه قول البخاري رحمه الله: باب طرح المسألة على أصحاب يختبر ما عندهم من العلم[١]، ثم ذكر حديث النبي ﷺ: «إنَّ من الشَّجَر شجرة لا يَسقط ورقُها».

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾: فيه إشارة إلى سرعة تنفيذ الأوامر الإلهية دون تردُّد أو نقاش أو تعطيل.

﴿وَلَا تَخَفْ﴾: الخوف يُربك العملية التعليمية.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾: تنويع الآيات والأدلة، وكحجة لإثبات التوحيد، يدل على أهمية تنويع الأمثلة والبراهين لإثبات المسائل المهمة[٢].

وبعد هذه الشحنة الإيمانية والتجربة العملية، كلّف الله موسى عليه السلام بحمل رسالته وتبليغها، فأمره هذا الأمر الواضح البيِّن الصريح.

٨ـ قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]:

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: أي جاوز الحد في تكبره وكفره، وفي فجوره وظلمه، حتى زعم لنفسه صفة الربوبية، فقد حكى الله عن فرعون قوله ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وادَّعى أيضاً صفة الألوهية في قوله الذي ذكره سبحانه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وبهذا

---

(١) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، المصدر السابق، ص٤٣. وانظر: فتح الباري، (١/ ٦٢).
(٢) فتح الباري، المصدر نفسه، ص٤٣.

بلغ الطغيانَ والتكبُّر والتجبُّر ولا شك[١]، لقد وقع فرعون في الاعتداء على مقام الإله العظيم، واستعبد بني إسرائيل، وتجاوز الحد في العدوان، وقد برز طغيان فرعون وتعدّيه وتجاوز حدّه في أقبح صوره، وذلك عندما ادعى أنه إله ورب لقومه ودعاهم إلى عبادته.

وتولَّد عن هذا الطغيان الفرعوني القبيح كلُّ مظاهر الطغيان الأخرى من ظلمه وعدوانه وبغيه وإفساده وتكبره واستعلائه، إن أبرز عنوان لحكم فرعون هو الطغيان، وأبرز صفة لفرعون أنه طاغية، ولقد أوجز التعبير القرآني المعجز بهذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ مظاهر وممارسات فرعون في حكمه وملامح الحكم الفرعوني مما أغنى عن كل تفصيل وإسهاب[٢].

﴿طَغَىٰ﴾ جامعة لكل جرائم فرعون:

ـ فإنه ما ذبح الأبناء إلا لأنه طغى.

ـ وما سبى النساء إلا لأنه طغى.

ـ وما استعبد بني إسرائيل إلا لأنه طغى.

ـ وما جعل أبناء الوطن شيعاً وفرقاً إلا لأنه طغى.

ـ وهكذا تجد الطغيان جامعاً لكل الرذائل والجرائم التي ليس على الشعوب أخطر منها، ثم راجعْ أن الحق جلّ وتقدس وهو العليم بأثر الطغيان والاستبداد والقهر والظلم، وأنه المدمر لحياة الناس، كيف كان حارساً لخلقه، وكيف أعدّ العدّة من خلقه لمواجهته، ثم راجعْ شيئاً آخر وهو:

● إعداد نموذج الناس الذين يواجهون الطغيان، وأنهم هم المصطفون الأخيار: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ [طه: ١٣].

● وهم أهل العلم: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٧٤).

● وهم الذين زرع الله في قلوبهم الإيمان: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤].

● وهم أهل العمل بما علموا: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤].

وهكذا بيَّن عزّ وجل في كتابه العزيز خطر الطغيان على الشعوب، وصفات من يقاوم الطغيان(١).

ولا شك في أن موسى عليه السلام كان يعلم مدى طغيان فرعون وظلمه؛ لأنه نشأ في قصره وتربّى في كنفه، وابتُلي بعد ذلك بقتل رجل من أعوانه وجنوده، فخرج من مصر هارباً من ظُلمه وطغيانه، فأقام في مدين سنين عدداً، ولما ظن أن فرعون قد نسي أمره عاد إلى مصر، وفوجئ وهو في طريق عودته بتشريف الله له بالنبوة، وتكليفه بحمل الرسالة إلى فرعون وملئه وبني إسرائيل(٢).

ولم يكن موسى عليه السلام مكلَّفاً بالذهاب إلى فرعون فقط، فقد أخبره الله في تلك الليلة المباركة أنه مبعوث إلى فرعون وقومه، وورد هذا صريحاً في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١]، قوم فرعون ظالمون كافرون عابدون لفرعون، وموسى مكلَّف أن يأتيهم ويدعوهم إلى الله ليتقوه ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، ولهذا جمع القرآن بين فرعون وقومه، باعتبار موسى عليه السلام مبعوثاً لهم جميعاً.

قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

قال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٦٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٢).

وهذه الآيات صريحة في أن الله بعث موسى نبيّاً رسولاً إلى فرعون وأعوانه وقومه، هذا بالإضافة إلى كونه نبيّاً رسولاً إلى قومه بني إسرائيل[١].

يا لها من مهمة كبيرة وخطيرة، كيف يواجه موسى عليه السلام فرعون الطاغية؟! لا بدّ أن موسى شعر بثقل الرسالة التي حملها، دلّ على ذلك ما حكاه الحق سبحانه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

وقوله أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٤].

إذن، هذه المهمة بحاجة إلى مقوّمات كبيرة لإنجاحها، إن لم تتوفر هذه المقوّمات فسوف تفشل هذه المهمة وتُصاب بشللٍ تام، فتوجه موسى عليه السلام إلى الله تعالى بطلب المعونة مُظهراً افتقاره أمام الله تعالى، إذ لا غنى لعبد من عباد الله عن معونة ربه وتأييده. وهذا نبي الله موسى، وهو من أولي العزم من الرسل يتوجَّه إلى الله مستعيناً به في غاية الخضوع والتذلُّل[٢]، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٥]:

وفي شرح هذه الآيات:

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]:

لأن أول أسباب النجاح في العمل الذي تُكلَّف به أن يشرح الله صدرك، وأن تحب هذا العمل، وأن تتحمَّل كل ما يكون وخصوصاً من فرعون[٣].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٧٥).
(٢) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص٤٨.
(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٦٦.

وانشراح الصدر وزوال الضيق يقوي من عزم الإنسان، ويُحوّل الشعور بمشقة التكليف إلى متعة ولذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يُثقل خطا الحياة[١]، والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى أكرم نبينا محمداً ﷺ بشرح صدره لحمل رسالة الإسلام من غير سؤال، وأنزل عليه سبحانه في معرض الامتنان قوله الكريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

وهذا الدعاء من موسى عليه السلام لربه من مظاهر توحيد الألوهية، ويظهر فيه التذلُّل والخضوع، فالله وحده قاضي الحاجات ومفرِّج الكربات. وذكر البغوي في تفسيره: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾: وسّعه للحق، قال ابن عباس: يريد حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفاً شديداً، لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدراً بما كُلِّف به من مقاومة فرعون وجنده، فسأل الله أن يُوسِّع قلبه للحق حتى يعلم أن أحداً لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون من شدة شوكته وكثرة جنوده[٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٦]:

لأن هذه حقيقة لا يعلمها إلا المصلحون، وفي الصدر منهم موسى عليه السلام، وأنه لا سهل إلا ما جعله الله سهلاً، وأنه سبحانه إن شاء جعل الصعب سهلاً[٣].

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي: سهِّل عليّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوّن عليّ ما أمامي من الشدائد. ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٣)، وانظر: التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٤).
(٢) معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسن بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة، ١٩٨٩م، (٣/ ٢٦٠).
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٣٦٦.
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٣).

طلب موسى عليه السلام من ربه أن ييسر له أمره، لأن تيسير الله لعباده هو ضمان النجاح، وإلا فماذا يملك الإنسان دون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول[١]؟! طلب موسى من ربه تسهيل تبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٧ ـ ٢٨]:

ويجب أن ننظر في طلب موسى عليه السلام كله ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨] وأن نضيف إليه من باب تفسير القرآن بالقرآن آيات تتحدَّث عن الموضوع نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

لماذا طلب موسى من الله أن يشرح له صدره ويحلل العقدة من لسانه ليفقهوا قوله، لأنه يخاف إن كذّبوه أن يضيق صدره، وإذا ضاق صدره فإنه ينحبس لسانه ولا ينطلق، وعندها لا يقوم بالبلاغ والبيان.

إن آيات سورة الشعراء: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ تُوضِّح المراد بالعقدة في آيات طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨].

من خلال النظر في الآيات السابقة مجتمعة نقول مستعينين بالله: كانت العقدة في لسان موسى عليه السلام عقدة معنوية نفسية شعورية، وليست عقدة الضيق الذي يترتب عليه عدم انطلاق اللسان[٢]. ولذلك طلب موسى من ربه أن يؤيده

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٣).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٨٠).

بهارون لأنه أفصح منه ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤]، فهارون عليه السلام أفصح من موسى في كلامه، باعتراف موسى نفسه، لأن كلامه واضح فصيح عند الانفعالات والإحراجات والاحتكاكات، وذلك لهدوئه في أعصابه ومشاعره[١].

وكان موسى عليه السلام يعرف من نفسه أنه ينفعل عند المواقف الخاصة، وانفعال مشاعره يؤدّي إلى توتّر في أعصابه، وهذا يقود إلى ضيق صدره وتلاحق أنفاسه وانحباس الهواء في صدره ورئتيه. وينتج من هذا عدم انطلاق لسانه عندما يتكلم، وإذا تكلم كان كلامه سريعاً متتابعاً لا واضحاً ولا فصيحاً، إنه يعرف هذا من نفسه، ويعترف أن هذه عقدة نفسية معنوية في لسانه، وأنها تحول بينه وبين الفصاحة والبلاغة في التبليغ وإقامة الحجة، وبذلك لا يفقه الطرف الآخر كلامه.

ولهذا سأل موسى ربه أن يحلَّ عقدة لسانه ليفقهه فرعون وقومه، وسأل الله أن يشرح له صدره ليزول سبب العقدة والحبسة، وقد استجاب الله دعاء موسى عليه السلام فأزال ضيق صدره، وحلّ عقدة لسانه عندما شرح صدره، فانطلق لسانه وصار فصيحاً في البيان والتبليغ مثل أخيه هارون[٢].

وعلينا ترك الروايات غير الصحيحة في الكلام على عقدة اللسان، كما قال بعض المفسرين الذين قبلوا حكاية الجمرة والتمرة التي حرقت لسان موسى وهو صغير، فأصابته بلثغة دائمة، وهنا طلب من الله أن يزيل هذه العقدة اللثغة. وخلاصة حكاية «الجمرة والتمرة» كما رواها هؤلاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه لما دعت امرأة فرعون زوجها إلى تبنِّي موسى وعدم قتله، استجاب لها وتبناه وفي يوم من الأيام كانت امرأة فرعون جالسة مع زوجها، وكان موسى طفلاً صغيراً في حضنها، فأمسك فرعون بموسى وحمله ووضعه في حجره، فتناول موسى لحية فرعون، فشدّها ومدّها إلى الأرض، فقال الغواة ـ أعداء الله ـ

(١) المصدر نفسه، (٢/ ٣٨١).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣٨٣).

لفرعون: ألا ترى إلى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أنه يرثك أو يعلوك ويصرعك، فأرسل فرعون إلى الذبّاحين ليذبحوه.

فقالت امرأته: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟

فقال: لقد شدّ لحيتي، وهو يزعم أنه يعلوني ويصرعني. فدعته إلى اختباره ليعرف أنه لم يقصد ذلك، وأنه لا يعقل، وأنه لا يفرق بين الجمرة والتمرة.

فوضع فرعون أمامه جمرة وتمرة، فتناول الجمرة ووضعها على لسانه فأحرقته، فأصابته لثغة دائمة بسببها، فسأل الله أن يحل تلك العقدة بإزالة اللثغة[١].

وقد قبل بعض المفسرين والمحدثين هذه الرواية لأنه صح إسنادها إلى الإمام ابن عباس رضي الله عنهما، ولم يصرّح برفعها، بينما اعتبرها بعضهم موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما، وليست مرفوعة للنبي عليه الصلاة والسلام، لعدم تصريح ابن عباس بالرفع، ونحن مع الإمام ابن كثير في تعليقه على هذه الرواية: وهكذا رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من حديث يزيد بن هارون به.

وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم، وسمعتُ شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً[٢].

وبما أن الراجح أن الرواية منقولة عن ابن عباس، وليست مرفوعة للنبي ﷺ، فإننا لا نعتمدها ولا نقول بها ونتوقف فيها، والله أعلم. إذن حكاية «الجمرة والتمرة» لم تصح عندنا، ولهذا لا نقول: إن العقدة التي في لسانه إنما هي لثغة بسبب حرق الجمرة للسانه وهو طفل[٣].

وقد قدَّم الأستاذان أحمد عبد الله أحمد وطاهر لون نيجيري دراسة حول

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير، ص٢٨٣.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٧٨)، تفسير ابن كثير، (٣/ ١٤٩).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٣٧٩).

الروايات الواردة في نسبة العجمة لموسى عليه السلام، وظهر بنتائج بحثهما جملة من النقاط، من أهم تلك النقاط[١]:

ـ أن هذه القصة لم تثبت إلى النبي ﷺ سنداً ومتناً على وفق منظور المحدثين رحمهم الله.

ـ أن إسناد القصة إلى ابن عباس رضي الله عنهما حسن، لكن ليس هناك تلازم بين السند والمتن في الصحة أو الحسن، قد يكون السند صحيحاً أو حسناً والمتن عكس ذلك.

ـ أن هذه القصة تتعلق بأخبار الأمم الماضية التي ليس للرأي مجال ولا اجتهاد فيها، والأصل أن يكون لها حكم الرفع وإن كانت موقوفة، ولكن هنا لا يُحكَم لها بذلك لأن ابن عباس رضي الله عنهما كان من الذين أخذوا عن أهل الكتاب.

ـ أن معنى العقدة التي وردت في الآية لا تعني العجمة أو اللثغة، لأن ذلك صفة عيب في الخلقة البشرية، والأنبياء مُبرَّؤون عن ذلك من طفولتهم إلى نبوتهم، بل المراد بها: أنها حالة معنوية يكون عليها عندما يعتريه الغضب والضيق عند إرادة المحاجة والاستدلال على قومه.

ـ أنه لا يمكن تحقيق معنى العقدة التي في سورة طه إلا مع آيات سورة الشعراء.

ـ أن الإسرائيليات التي لم يرد في الشريعة ما يُثبتها أو يَردُّها فإنه لا يجوز تصديقها أو تكذيبها، عملاً بقول النبي ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم»، وأما إن ثبت غير ذلك كالتناقض مع القرآن والأحاديث الصحيحة أو الاستحالة مع العقل الصحيح، فإنه يتوجب عدم تصديقها.

ـ أن الأخبار التي ترد في كتب التفاسير الأصلية كالطبري وغيره ليس همها جمع الأحاديث الصحيحة في الآية فحسب، بل إنهم يذكرون كل ما ورد فيها؛ غثّها وثمينها، والتنقيح لك وعليك.

---

(١) الروايات الواردة في نسبة العجمة لموسى عليه السلام، دراسة حديثية، أحمد عبد الله أحمد، وطاهر لون نيجيري، فلسطين، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، جامعة غزة، مج ٢٧، نوفمبر، ٢٠١٩م، ص ٢٤٩.

وكذلك قام الدكتور يحيى محمود محمد القضاة بدراسة حول قصة لسان موسى عليه السلام دراسة نقدية، وخرج بهذه النتائج:

ـ الرسل والأنبياء عليهم السلام مُنزَّهون عن العيوب الخَلقية والخُلقية، وما نُقل عن الأنبياء عليهم السلام من الأخبار مما يخالف ذلك فهي أخبار باطلة.

ـ لم يصح في قصة احتراق لسان موسى عليه السلام حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ، والقصة الواردة هي من الإسرائيليات ولا يمكن الركون إليها.

ـ أحكام علماء الحديث في غاية الدقة، فقد صحَّحوا سند القصة إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ونقدوا متنها، ونبَّهوا على أنه لا تلازم بين صحة السند وصحة المتن.

ـ شهرة الرواية ورواجها في المصادر لا يدل على صحتها، بل لا بد من البحث والتحرِّي ومراجعة أقوال العلماء.

ـ أكثر ما يُطرح من تساؤلات وشبهات حول القصة، والتي يردِّدها بعض المعاصرين ممن يدعي العقلانية في الحكم على نصوص الشريعة، ويزعمون أنها من تحقيقاتهم وبنات أفكارهم، هي في الحقيقة تساؤلات قديمة، أوردها النقاد وأجابوا عنها[1].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٢]:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ [طه: ٢٩]:

وزيراً: أي مُعيناً وظهيراً، ويطلب الوزير حين لا يستطيع صاحب الأمر القيام به بمفرده، فيحتاج إلى مَنْ يعينه على أمره، وهو وزير إن كان ناصحاً أميناً يُعين

(١) قصة عقدة لسان موسى: دراسة نقدية، يحيى محمود القضاة، الأردن، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، مج ١٤، عدد ٤، ٢٠١٨م، ص٣١٣.

صاحبه بصدق، فإن كان غاشًّا لئيماً يعمل لصالح نفسه فليس بوزير بل هو «وِزْر»[١]، والوزير هو المحتمل ثقل أميره وشغله[٢].

وقد استجاب الله عزّ وجل لطلب موسى، وقد صرح القرآن الكريم بذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥ـ٣٦].

إن موسى هو النبي الرسول، المكلفّ بالرسالة أساساً، أما هارون فهو نبي، وهو «وزير» لموسى، رِدء ومساعد له، ولم تُذكر كلمة: «وزير» إلا مرتين في القرآن، والمرتان في قصة موسى وهارون عليهما السلام، والوزير في المرتين وصف لهارون عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩ـ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥].

وقد جعل الله عزّ وجل هارون عليه السلام نبيّاً ووزيراً وردءاً مساعداً له، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]، أي: سنقوّي أمرك ونشد عضدك وأزرك بأخيك هارون وسنبعثه نبيّاً معك، ونجعله وزيراً لك، وسنعطيك أنت وأخاك الآيات والأدلة والبراهين، وسنجعل لكما السلطان، وسننصركما ونُؤيِّدكما، بحيث سيعجز فرعون وقومه عن الوصول إليكما، ونجعلكما غالبين لهم.

لقد شاء الله أن يكون هارون نبيّاً منذ الأزل، ولكنه شاء سبحانه وتعالى أن يبعثه نبيّاً فعلاً بعد طلب موسى، فيكون طلب موسى عليه السلام سبباً في نبوة هارون، وموسى بذلك كان أنفع أخ لأخيه[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٥٩).
(٢) المفردات، الأصفهاني، ص٨٦٧ـ٨٦٨.
(٣) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٣٨٨).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها خرجت لأداء العمرة، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يسأل آخر: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ فقال: لا أدري، فقال السائل: أنا والله أدري، إنه موسى حين سأل النبوة لأخيه هارون، وعلّقت عائشة رضي الله عنها قائلة: صدق والله[١].

ـ ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾: ليكون مأموناً عليّ، وهذا المطلب يشير لأدب عال من آداب النبوة، وهو حرص موسى عليه السلام أن يقوم بالرسالة على أكمل وجه، فحاول أن يستعين بأخيه ليعينه على تبليغ الرسالة، ولو أراد الاستئثار بالرسالة ما طلب هذا الطلب، وهذا نموذج يجب أن يُحتذى به، فإن عَلِقْتَ بأمر فوق طاقتك فلا غبار عليك أن تستعين عليه بغيرك، فهذا دليل على إخلاصك للمهمة التي كُلِّفت بها[٢].

فموسى عليه السلام لم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو، وإنما إلى نجاح المهمة التي كلفه الله بها، ويجب أن يشيع هذا الخلق بين الناس، فإنه من صفات أولي العزم[٣].

ب ـ قوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾: فاختار أخاه هارون ليعينه في مهمة الرسالة، ثم أوضح العلة في ذلك، فقال في آية أخرى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

وإن اختيار موسى لهارون عليه السلام بسبب معرفته الواسعة في قومه، فهو يستطيع أن يتعامل معهم لأنه يعيش بينهم، وأما موسى عليه السلام فقد تركهم فترة من السنين[٤]، كما أن موسى عليه السلام على معرفة بما امتاز به هارون من حلم ولين وصبر وفصاحة وإخلاص لمسيرة الأنبياء والمرسلين الذين سبقوهم، كإبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم عليهم السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٤٣).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦١).
(٣) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢٦٢).
(٤) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص٤٩.

وقد قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون، فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً ويكرمه بالرسالة، فاستجاب الله دعاءه وجعله نبيّاً مرسلاً[١].

ت ـ قال تعالى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ [طه: ٣١]:

كلمة جليلة جدّاً، وشدّ الأزر تعني شدَّ الظهر، والأصل فيها الإزار الذي يَشُدُّ به المرء ظهرَه، ثم إن شد الأزر الذي هو الظهر مجاز عن مساعدته في الأمر المعنوي المكلف به وهو خطاب فرعون[٢].

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾؛ قوّني به وشُدَّ به ظهري[٣]، وكأن موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى فرعون، وقومه من بعده، عملية شاقة، فطلب من الله أن يعطيه أخاه ليساعده في هذه المشقة[٤].

ث ـ قال تعالى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٣٢]:

أي: في أمر النبوة وحمل الرسالة[٥]، تفضلاً منك عليّ وعليه، وأن يكون التكليف منك له يا ربي، ونلاحظ أن موسى عليه السلام طلب أن يشرح الله صدره، ويُيسِّر له أمره، ويحلَّ عقدة من لسانه، ويُعينه بوزير من أهله، كل أولئك لا ليواجه المهمة المباشرة، ولكن ليتَّخذ ذلك كله مساعداً له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير، والتلقي الكثير من السميع البصير[٦].

٥ ـ قال تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٤]:

فهذه هي العلة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته، لا طلباً لراحة نفسية، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله وتسبيحه وذكره.

---

(١) صفوة التفاسير، (٣/ ٢٣٥).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٣٦٧.
(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٤).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦٢).
(٥) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٤).
(٦) في ظلال القرآن، (٤/ ١٣٣٣).

أ ـ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ والتسبيح: تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً.

ذاتاً: فلا ذات مثل ذاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، فلا تقل: إنَّ سَمْعَ الله كسمعك، أو إن بصره كبصرك، أو إن فعله كفعلك، والمعنى: نسبحك ونقدسك تقديساً يرفعك إلى مستوى الألوهية الثابتة لك، فلا نزيد شيئاً من عندنا[١].

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾: ننزهك عمّا لا يليق بك، ونقول سبحان الله، وقيل: نصلّي لك[٢].

قال المراغي: أي لكي نُنزِّهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من بينها ما يدعيه فرعون الطاغية وفئته الباغية من الألوهية له[٣].

وقوله ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ أي: دائماً، فكأن التسبيح يُورِث المسبِّحَ لذة في نفسه، والطاعة من الطائع تُورثه لذةً في نفسه، كما قال النبي ﷺ: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[٤]، وكان ﷺ: إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[٥].

ب ـ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي: ونُكثر من ذكرك، فيكون ذلك عوناً لنا على ما كلفتنا به، فإن الإكثار من الصلاة والذكر يملأ الإنسان بطاقة روحية كبيرة تُعينه على تحمُّل التبعات الجسيمة والمهمات العظيمة.

ولهذا لما اختار الله تعالى مريم للمهمة الكبيرة العظيمة، أمر الملائكة أن تناديها وهي في محراب عبادتها لتُضاعف من صلاتها وقنوتها وذكرها: ﴿وَإِذْ

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦٤).
(٢) لباب التفاسير، (٥/ ٥٢٦).
(٣) قضايا العقدية في سورة طه: دراسة مقارنة بين السلف والمتكلمين، همام مصطفى الزق، إشراف الدكتور أحمد العصمي، رسالة ماجستير، فلسطين، الجامعة الإسلامية في غزة، ٢٠١٧م، ص٥٥.
(٤) المستدرك للحاكم، صحيح على شرط مسلم، (٢/ ١٦٠).
(٥) سنن أبي داود، رقم ١٣١٩.

﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣]، وكذلك عندما كلف الله تعالى نبينا محمداً ﷺ بحمل رسالة الإسلام أنزل عليه في بواكير التنزيل من قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٥] (١).

إن الذِّكر لا يكون حقيقيّاً ولا مُؤثِّراً إلا إذا صدر من القلب، وسواء وافقه اللسان أو اقتصر على القلب، وإن أعظم مقاصد الذِّكر أن تستقر عظمة الله تعالى في قلب الذاكر؛ ذلك لأن القلب هو مُستقَرُّ حقائق الإيمان، فإذا كان القلب الذاكر قد امتلأ بالإيمان بالله عز وجل، وأُفعم بحبه وإجلاله والخوف منه والرجاء لما عنده، فإنه غير قابل للمزاحمة بتأثير القوى الأخرى، ويكون مُحصَّناً من أن يتسرَّب إليه تعظيم غير الله تعالى أو الخوف منه أو رجاؤه، ومن ثم ينطلق في أفقه الرحيب، حيث يلبي نداء الفكر الصافي والعقل السليم، فيتحدد سلوك صاحبه في هذه الحياة وفق ميزان واحد لا يتبدل ولا يتغيَّر، وهو إخضاع الفكر والسلوك لما يُرضي الله عزّ وجل، وإن سخط جميع البشر، واجتناب ما يسخطه جل وعلا وإن رضي جميع البشر، فتكون أعمال هذا الذاكر منسجمة مع شريعة الله.

وإننا حينما ننظر إلى جهاد موسى عليه السلام في تحطيم طغيان فرعون، ثم نقارن بينه وبين العمل الذي عزم على القيام به بقوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٤] نجد الفهم الدقيق والإدراك العميق لحقيقة ذكر الله، فهل بقي موسى وهارون عليهما السلام يذكران الله تعالى في صومعة حتى أدركتهما الوفاة؟!

الواقع أنهما قاما بالجهاد لاستخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فكان المقصد الأعلى من ذكر الله تعالى هو أن ينزعا من عقول الناس طغيان فرعون وهيمنته على النفوس ليحل محلها تعظيم الله جلّ وعلا، فإنه ما دام

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٥).

يُخيِّم على العقول تعظيم القوى البشرية، فلن يصل ذكر الله تعالى إلى شغاف القلوب وإن تردَّد على الألسنة[١].

ولقد كان رسول الله ﷺ أعظم الذاكرين والمجاهدين، ولقد كان من نتائج ذكره العميق قيامه بمحاربة الطغيان في عهده بكل أشكاله وأنواعه ونُظُمه[٢]. إن الأمر الجليل الذي سيُقدِم عليه موسى عليه السلام يحتاج إلى التسبيح الكثير والذكر الكثير والاتصال الكثير[٣].

إن موسى عليه السلام لما فرغ من طلب المُعين واختاره وحدَّده، ووصف مقدار حاجته إليه، توجَّه إلى الله وقال: كل الذي طلبتُه إنما يكون به إنجاز ما طلبتَه مني، إذا كان تسبيحك كثيراً وذكرك كثيراً هو المصاحب والمعين والقرين.

وفي هذا الموقف الجليل في الوادي المقدَّس تتابعت مطالب سيدنا موسى، وكأنه استشعر أن باب الله قد فُتح له، فأفرغ مرة واحدة كل حاجاته[٤].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥]:

أي: إنك عالم بأحوالنا، تعلم ضعفنا وافتقارنا إليك في كل الأمور[٥]، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك[٦]. ودلّت الآية الكريمة على أن البصير اسم من أسماء الله الحسنى[٧]، وقد ورد اسمه سبحانه «البصير» في القرآن الكريم اثنتين وأربعين مرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١) الرسائل الشمولية، عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة ودار عيون المعرفة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٤٢.
(٢) الرسائل الشمولية، عبد العزيز الحميدي، مرجع سابق، ص٢٤٣.
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٣).
(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٢٦٧.
(٥) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٥).
(٦) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٤).
(٧) معالم التوحيد في قصة موسى، حمود الحربي، مرجع سابق، ص٣٨٧٨.

وقوله سبحانه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧].

يقول الشيخ السعدي (رحمه الله) في اسم الله البصير: البصير الذي أحاط بصره بجميع المُبصَرات في أقطار السماوات والأرض، حتى أخفى ما يكون فيها، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها صغيرها ودقيقها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك، فسبحان من تحار العقول في عظمته ولطفه وخُبْره بالغيب والشهادة والحاضر والغائب، ويرى خيانات الأعين وتقلُّبات الأجفان وحركات الجَنان.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ـ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، أي مطلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات(١).

إن لله تعالى بصراً يليق بعظمته، يحيط بأقطار السماوات والأرض، ويرى به سبحانه جميع مخلوقاته دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، ولا يخفى عليه منها شيء، وأنه سبحانه وتعالى ذو البصيرة بالأشياء، وهو الخبير بها، والمُطَّلع على بواطنها(٢).

وهذا السؤال من موسى (عليه السلام)، والتضرع والدعاء يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى

---

(١) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، السعودية، دار ابن القيم، ط٣، ١٩٨٧م، ص٣٥ـ٣٦.

(٢) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها «سورة الأعراف: ١٨٠»، دراسة تربوية للآثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى، عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار القسطناوي للطباعة والنشر، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص٦٢٨.

الله المرشد للخلق خصوصاً إذا كان المدعوّ من أهل العناد والتكبُّر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر، وعلمٍ تامٍّ بما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكَّن من التعبير به عما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام مِن ألزم ما يكون لكثرة المراجعات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه، وليُحبِّبه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه ليُنفِّر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً أن يتيسَّر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن؛ إذ يعامل الناس كلاًّ بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت لابدّ أن تؤثر، فلذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه هذه الأمور فأُعطيها[1].

خامساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٣٦ـ٤٨]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]:

لقد أطال موسى عليه السلام سُؤلَه، وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٥).

وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير، وربه سمع له وهو ضعيف في حضرته، ناداه وناجاه، فها هو ذا الكريم المنان لا يُخجل ضيفَه، ولا يردُّ سائله، ولا يُبطئ عليه بالإجابة الكاملة.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾: هكذا مرة واحدة في كلمة واحدة، فيها إجمال يُغني عن التفصيل، وفيها إنجاز لا وعد ولا تأجيل، إذ إن كلَّ ما سألَه أُعطِيه، ومع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس باسمه: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾، وأي تكريم أكبر من أن يَذكر الكبير المتعالي اسمَ عبد من العباد؟!

وإلى هنا كفاية وفضل من التكريم والعطف والإيناس وقد طال التجلي، وطال النجاء، وأُجيب السؤال، وقُضيت الحاجة، ولكن فضل الله لا خازن له، ورحمة الله لا ممسك لها، فهو يغمر عبده بمزيد من فضله، وفيض من رضاه، فيستقيه في حضرته، ويمد من نجائه وهو يُذكِّره بسابق نعمته، ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته، وكل لحظة تمر وهو في هذا المقام هي متاع ونعمى وزاد ورصيد[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧]:

أي: أنعمنا عليك قبل هذه المرة، والمنة القديمة ممتدة وسائرة في طريقها معك منذ زمن، فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن[٢].

﴿مَنَنَّا﴾؛ وهي من المنة: أي العطاء دون مقابل ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾، ومن ثم: هناك مرة أولى، إلا أن المراد بالمنّة هنا ما حدث من الوحي إلى أم موسى وهو صغير، فهي في الحقيقة المنّة الأولى إنما قال هنا ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾، وهذا هو ترتيب ذِكر الأحداث[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٤).
(٢) في ظلال القرآن، المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٣٤).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦٥).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨]:

أي: عندما أوحينا إلى أمك وحي الإلهام أو بواسطة هاتف هتف بها بإذن الله تعالى ولعله الأرجح، إذ تضمن الوحي أمرين ونهيين وبشارتين، وهو كما في قوله سبحانه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وكلمة ﴿إِذْ﴾؛ التي ترجع بالسامع والقارئ إلى زمان وحال هذا المنّ[(١)]، وقت أن أوحينا إلى أمك ما يُوحى، فكانت هذه هي المنة الأولى، حيث وُلدت في عام يقتل فيه فرعون الذكور فمننا عليك لما قلنا لأمك: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

ومعنى ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: أمراً عظيماً لك أن تُقدِّره أنت، فتذهب فيه نفسُك كل مذهب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] ويفصّل الحق سبحانه وتعالى هذا الوحي لأم موسى[(٢)].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]:

هذا ما أوحينا به إلى أم موسى، واليمّ: البحر الكبير، سواء أكان مالحاً أم عذباً، فلما تكلم الحق سبحانه عن فرعون قال: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، والمراد البحر الأحمر، أما موسى فقد وُلد في مصر، وأُلقي تابوته في النيل، وكان على النيل قصر فرعون، وبالله أيّ أمّ هذه التي تُصدِّق هذا الكلام: إن خفتِ على ولدك فألقيه في اليم؟ وكيف يمكن لها أن تنقذه من هلاك مظنون وترمي به في هلاك متيقن؟ ومع ذلك لم تتردَّد أمُّ موسى لحظة في تنفيذ أمر الله ولم تتراجع، وهذا هو الفرق بين وارد الرحمن ووارد الشيطان؛ وارد الرحمن لا تجد النفس له

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٦٩.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦٦).

ردّاً، بل تتلقاه على أنه قضية مُسلَّمة، ووارد الشيطان لا يجرؤ أن يزاحم وارد الرحمن، فأخذت الأم الوليد وألقته كما أوحى إليها ربها.

ونلحظ في هذه الآيات أن آية القصص لم تذكر شيئاً عن مسألة التابوت: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] هكذا مباشرة، وقد قالوا: لأن الحق سبحانه تكلم عن الغاية التي تُخيف، وهي الرّمي في اليم، وطبيعي مع حنان الأم أن تحتال لولدها وتعمل على نجاته، فتضع له مثل هذا التابوت، وتعدّه إعداداً مناسباً للطفو على صفحة الماء.

فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة، وفرق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة والخطاب حين الحادثة، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة، فصنعت له صندوقاً جعلت فيه مهداً ليناً واحتاطت للأمر، ثم يُطمئنها الحق سبحانه على ولدها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧] فسوف ننجيه لأن له مهمةً عندي ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر في عبارات سريعة متلاحقة: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩].

ولذلك، تجد السياق في الآية الأولى هادئاً رتيباً يناسب مرحلة الإعداد، وأما في التنفيذ فقد جاء السياق سريعاً متلاحقاً يُناسب سرعة التنفيذ، فكأن الحق سبحانه أوحى إليها: أسرعي إلى الأمر الذي سبق أن أوحيته إليك. هذا الكلام في الحبكة الأخيرة لهذه المسألة[١].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أي: تحمله الأمواج وتسير به، وكأن لديها أوامر أن تُدخله في المجرى الموصل لقصر فرعون[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾؛ هنا يلاحظ أنه جاء الخبر عن هذه

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦٨).
(٢) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢٦٨).

الوقعة بصيغة الأمر والخطاب لمياه النهر، مما يدل على أن مشيئته سبحانه تامة نافذة في جميع الموجودات، وها هي مياه النهر تخضع لأمره سبحانه وتنقاد لمشيئته جل وعلا، فتؤدي الأمانة التي حملتها سليمة معافاة إلى الساحل حيث شاء الله تعالى وقدّر، وأيّ ساحل؟ ساحل الأخطار، ساحل فرعون، الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل(١).

ونلاحظ أيضاً ثلاثة إلقاءات لموسى عليه السلام:

ـ إلقاء الرحمة والحنان في التابوت.

ـ وإلقاء التابوت في اليم تنفيذاً لأمر الله.

ـ وإلقاء اليمّ للتابوت عند قصر فرعون.

ـ **قوله تعالى**: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾:

﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ أي: لله تعالى، لأن فرعون ادّعى الألوهية، ﴿وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ أي: لموسى؛ لأنه سيقف في وجهه ويُوقفه عند حدّه، وفي الآية إشارة إلى إنفاذ إرادته سبحانه، فإذا أراد شيئاً قضاه، ولو حتى على يد أعدائه وهم غافلون، فمن يتصور أو يصدق أن فرعون في جبروته وعُتوّه وتقتيله للذكور من أولاد بني إسرائيل هو الذي يضم إليه موسى ويرعاه في بيته، بل ويُحبُّه ويجد له قبولاً في نفسه.

وهل التقطه فرعون بداية ليكون له عدوّاً؟ أم التقطه ليكون ابناً؟ كما قالت زوجته آسية: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، إذن: كانت محبةً إلا أنها آلت إلى العداوة فيما بعد، آلت إلى أن يكون موسى هو العدو الذي ستُربّيه بنفسك وتحافظ عليه ليكون تقويض ملكك على يديه، لذلك سيقول فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٦).

وعندما نتأمل في الآيتين الكريمتين قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩]، ثم قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]: نجد أن العداوة في الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربِّه تبارك وتعالى، وأما العداوة الثانية فمن جانب موسى لفرعون، وهكذا تكون العداوة متبادلة، وهذا يضمن شراستها واستمرارها، وهذا مراد في هذه القصة(١).

وأما إذا كانت العداوة من جانب واحد، فإنْ تسامَحَ غيرُ العدو وخجل العدو فإنَّ الأمور تنتهي بالمصالحة، وأما العداوة بين موسى وفرعون فينبغي أن تكون شرسة؛ لأنها عداوة في قضية القمة، وهي التوحيد، ولكن لماذا لم يلفت مجيءُ موسى على هذه الحالة انتباه فرعون فيسأل على حكايته ويبحث في أمره، ولكنها إرادة الله التي لا يُعجزها شيءٌ فتُحبُّه زوجة فرعون وتقول: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: محبة عظيمة كائنة مني، وجاءت كلمة ﴿مَحَبَّةً﴾ نكرة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية، ثم جُعلت من الله تعالى، فأُضيفت لها فخامة أخرى(٢).

فما رآك أحد إلا أحبّك، هكذا حرسك الله بالحب، وأصبح الحب جنديّاً من جنود الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، فيا للقدرة التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعاً تتكسر عليه الضربات، وتتحطم عليه الأمواج، وتعجز قوى الشرّ والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء، ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول، بل لا يملك أن يقول.

إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد، مقابلة القوى الجبارة الطاغية التي تتربص بالطفل الصغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف، والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف، وتقيه من الشدائد، وتلقُّه من

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٦٩).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٧).

الخشونة، ممثلة في المحبة لا في قتال أو نزال[١].

قال أبو زهرة في تفسير الآية: ألقى الله تعالى عليه محبة منه سبحانه، والمحبة التي ألقاها تعالى ذات عناصر؛ **أولها**: أن الله تعالى أحبَّه، ومن أحبَّه الله تعالى كان كريماً على الناس، و**ثانيها**: أن الناس بتوفيق من الله وتوجيهه أحبُّوه، فكان محبَّباً منهم إذ زرع في قلوبهم محبته، و**ثالثها**: أن الله تعالى فتح له القلوب المغلقة، ففتح له قلب فرعون المغلق، وفتح له قلب امرأته[٢].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: كلمة جليلة جدّاً، ومجيئها بعد ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ تزيد جلالها جلالاً، وتزيد بلاغتها وقيمتها، هذه المحبة التي ألقاها الله على موسى، كانت حصناً حصيناً حمى الله بها موسى عليه السلام[٣].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ أي لتكبر تحت نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البَرِّ الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه، فهو لا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذي دبّر ذلك لمصلحة موسى[٤].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ أي تصنع، معناها تُربَّى تربية فيها الصنيعة التي هي الإحسان، وما كان له أن يجد صنائع الإحسان من عدو لي وعدو له إلا لأني ألقيت عليه محبة مني، وكلمة ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ كلمة جليلة جدّاً، أعني تُربَّى برعايتي وعنايتي، وأنك تحت عيني في كل ما يحدث لك، وهل ينتظر موسى كرماً أكرم من هذا[٥]؟!

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٥).
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ)، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م، (٩/ ٤٧٢٥).
(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٣٧٠.
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٥).
(٥) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٧٠.

الرفيق اللطيف العميق الذي يُلقيه التعبير القرآني العجيب[١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]:

أ ـ ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾:

مشت أخته تقصُّ أثره، وتتتبع أخباره، حتى وصلت إلى قصر فرعون، فوجدتهم منهمكين به يبحثون له عن مُرضِع، وكلّما أحضروا له مرضعاً رفض ثديها وأبى لبنها، فقد حرّم الله عليه المراضع، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، وقبلوا منها فدلَّتهم على أمه التي ضمَّته إلى صدرها وألقمته ثديها فتقبَّله بإذن الله تعالى، عرّفه سبحانه أن هذا الثدي ثديُ أمه، المرأة التي حملته في أحشائها وغذته بدمائها، ثدي الأم التي كادت من فرط حنانها وشفقتها أن تكشف أمرها وتبوح بسرها، ولكن عناية الله تعالى أدركتها وثبتت قلبها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

ب ـ ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾:

هكذا ردّك الله تعالى إلى أمك فقرّت عينها وزال حزنها، وحقق سبحانه لها ما وعدها به عندما أمرها أن تُلقيه في النهر داخل الصندوق[٢].

ولم أُحطكَ في قصر فرعون بالرعاية والحماية، وأدعْ أمك في بيتها للقلق والخوف، بل جمعتُكَ بها وجمعتُها بك[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٩).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٥).

ت ـ ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾:

إن هذه منة أخرى من منن الله تعالى على موسى عليه السلام، حيث أدركته عناية الله تعالى، وحفت به ألطافه عندما ابتُلي بقتل رجل من رجال فرعون.

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾؛ خطأ دون أن تقصد إلى قتله، إنما أردت كفَّه عن ظلمه، وقد فصَّل سبحانه حادثة القتل في سورة القصص فقال: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٥ ـ ١٦].

وصدرت الأوامر بقتلك، وأرسل الله تعالى لك رجلاً يُحذِّرك وينصحك، فقد قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٠ ـ ٢١]، ويسَّر لك سبيل النجاة:

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ الذي أصابك بسبب قتلِكَ الرجل[١].

و﴿ ٱلْغَمِّ ﴾: الحزن الذي يغمر النفس ويُصيبها بما يشبه الغمة. وهنا نجد أن الله ذكر النفس ولم يذكر من أي قبيل هو، وفي ذلك إشارة إلى سبب الغم، وهو أنه قتل نفساً وحسبُ ذلك موجباً للغم الذي يصيب بكرب شديد من نفس كنفس موسى الطاهرة التي صُنعت على عين الله، وقد نجّاه الله من هذا الغم الذي أصابه بعد قتله النفس بالتوفيق إلى طرق باب المغفرة وقبول الله له بعد اعترافه بالخطأ والذنب ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦]، وكانت هذه نعمة أنعم الله بها عليه، وعاهد الله ألا يكون ظهيراً للمجرمين.

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾؛ كذلك من القتل أو الإمساك بك[٢]، فالغم كان من

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٤٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٧٣).

الأمرين: عن نفسه اللوامة التي ذابت كمداً وغمّاً، ومن الخوف من فرعون أو من الناس وقد قتل منهم واحداً[١].

ث ـ ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك وبلوناك فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نقّلناك في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه[٢]، لقد امتُحن وابتُلي واختُبر موسى عليه السلام بالخوف والهرب من القصر، وكذلك بالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وبالخدمة ورعي الغنم وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض، وأكثرهم ترفاً ومتاعاً وزينة. وفي الوقت المقدر عندما نضج واستعد، وابتُلي فثبت وصبر، وامتُحن فجاز الامتحان، وتهيأت الظروف كذلك والأحوال في مصر، وبلغ العذاب ببني إسرائيل مداه، في ذلك الوقت المقدر في علم الله جيء بموسى من أرض مدين[٣].

وقد أورد ابن كثير في قصص الأنبياء حديث الفتون، وملخص ذلك أن سعيد بن جبير سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الفتون، فقال: نستأنف له نهاراً يا بن جبير قُمْ، ولما أصبح أخذ ابنُ عباس رضي الله عنهما يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره، فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني إسرائيل، ثم قصة إلقاء موسى عليه السلام في اليم والتقاط آل فرعون إياه، وامتناعه من الارتضاع من الأجانب، ثم قصة موسى حين أخذ لحية فرعون ووضع الجمرة في فيه[٤]، ثم قصة قتل القبطي، ثم هربه إلى مدين وصيرورته أجيراً للشيخ، ثم عودته إلى مصر، وأنه أخطأ الطريق في الليلة المظلمة، واستئناسه بالنار من الشجرة، وكان عند إتمام كل واحدة فيها يقول: هذا من الفتون يا بن جبير[٥].

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٢٧).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٦).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٥).
(٤) قصة الجمرة تعرضنا لدراسة أسانيدها فيما مضى.
(٥) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٥٣).

ج ـ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: ذكر الله تعالى مدة مكوث موسى عليه السلام في مدين على أنها من منته عليه، مع أنه كان فيها أجيراً، إلا أنه قد تمتَّع بحصانة ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن مثواه وأكرمه بل وأرخى عليه ستار الطمأنينة وآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] (١).

ولم يقتصر الأمر على تأمين موسى من الخوف وتحصينه من عدوه، وإنما زالت غربته وانقشعت وحشته بمصاهرة الشيخ والسكن في جواره، فمقوِّمات الحياة قد أصبحت مهيأة لموسى عليه السلام، فهذا بيت يُؤويه وصهر يحميه وزوجة تُعينه وتواسيه، وهو مع ذلك ليس عالة على أحد، فهو يرعى الغنم ويهش عليها بعصاه ليكون ذلك مهراً لزوجته، وقد بقي موسى عليه السلام في أهل مدين عشر سنين (٢).

ح ـ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: ثم جئت إلى موضع النداء والمناجاة على القدر الذي قدَّرته لك، والموعد الذي تعلَّقت به مشيئتي، وسبق به علمي، فلم تتقدَّم عليه ولم تتأخَّر، إنها خطوات وحركات مقدرة محسوبة قدّرها العليم الحكيم (٣).

فقدرُ الله هو الذي حرّك في قلبك الشوق للعودة، وحملك أن تمشي في الطريق غير المأهول، وتتحمَّل مشقة البرد وعناء السفر، قدرُ الله هو الذي حرّك فيك خاطر الشوق لأمك، ففي طريق العودة وفي طوى أنت على موعد مع الاصطفاء للرسالة (٤).

وفي هذا المقام، يقول شيخي الدكتور سلمان العودة: كل شيء على قدر، فكل شيء محسوب في قصة موسى، ميلاد موسى، وزن موسى في الطفولة، نوعية المادة التي صُنع منها التابوت، مستوى المد والجَزْر في البحر آنذاك، مستوى الرياح، اندفاع الريح، وقت خروج امرأة فرعون وبناتها للفرجة أو للسياحة وقت

(١) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٦.
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٠).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٧٤).

مجيء فرعون، نظرة فرعون، أدق التفاصيل محسوبة، وينبغي أن نُدرك أن الأشياء تتكون شيئاً فشيئاً، بناء يتكامل على قدر؛ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

تلك الليلة، الوقت، الجو، الظلام، البرد، وضع موسى، وضع زوجته، المخاض، فقدان الطريق، كل شيء مرتب.

ومن خلال قراءة قصة موسى عليه السلام أصبح عندي نوع من اليقظة ـ أرجو أن يكون كذلك ـ للأحداث التي تقع أمامي، ولا أنظر إليها كأنها خاضعة لفعل الناس فقط، فأقول الناس قرَّروا كذا وأرادوا كذا، سواء كانوا حكومات أو جهات أو أفراداً أو جماعات أو أحزاباً، خاصة أو عامة، أو عدوّاً أو صديقاً، هذا كله يجب ألا يجعلك تغفل عن القدر الكامن في كل شيء ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ (١). وقد قال أبو زهرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾: العطف بـ«ثم» للدلالة على الانتقال من مكان إلى أعلى مكانة، وهي مكانة النبوة في أعلى درجاتها، إذ كلمه الله تكليماً، والقدر هو ما قدره الله تعالى لأن يكون رسولاً نبيّاً كليماً(٢).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]:

اخترتُك واصطفيتُك لمحبتي وكرامتي وهذا يدل على أن لموسى عليه السلام مكانة عالية عند الله تعالى(٣).

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ أي: جعلتك محل صنيعتي وإحساني لتبليغ رسالتي وإقامة حجتي كما قال علماؤنا(٤).

﴿لِنَفْسِى﴾: كلمة لا تُنال بالكسب، وإنما تُنال بالعطاء، وناهيك عن الذي يصطنعه ربُّ السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى لنفسه(٥).

---

(١) علمني موسى، سلمان العودة، ص٧١.
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٢٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٠).
(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٧٢.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٧٢.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾: خالصاً مستخلَصاً لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها واصطنعتك لتؤديها، فما لك في نفسك شيء وما لأهلك منك شيء وما لأحد فيك شيء، فامضِ لما اصطفيتك له(١).

ومن الملاحظ أن سورة طه خاصة دون باقي السور التي تحدَّثت عن موسى عليه السلام قد ذكرت آيتين في اختصاص موسى بالعناية خالصاً مستخلَصاً.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]؛ وقد جاءت هذه الآية لبيان العناية الإلهية التي حظي بها موسى في مرحلة الطفولة، وقد نشأ في قصر فرعون ترعاه عين الله وتحرسه من كل سوء.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]؛ أي مُمحَّضاً لرسالتي ولدعوتي، ليس بك شيء من الدنيا، إنها للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها على الوجه الذي ارتضيته لك، فالصنع الأول في مرحلة الطفولة، والاصطناع الثاني في الرجولة لأداء الرسالة.

ومن الملاحظ كذلك أن لفظ «الاصطناع»، الذي يدل على المبالغة في إصلاح الشيء ولفظ «الصنع» الذي يدل على إجادة الفعل(٢)، قد اختص بهما موسى عليه السلام من بين سائر الأنبياء.

ولعله قد حظي بهذه المرتبة الفائقة من الملاطفة والمؤانسة لكثرة ما تعرَّض له من الأخطار من فرعون ومن بني إسرائيل(٣).

وقد حاول العلماء إحصاء المطالب التي طلبها موسى عليه السلام فوجدوها ثمانية، من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ إلى ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾، ثم

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٦).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، مادة صنع، ص٤٩٣.
(٣) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص٦٧.

وجدوا أن الله تعالى أعطاه ثمانية أخرى دون سؤال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ إلى ما بعدها، فإن كان موسى عليه السلام قد طلب من ربه ثمانية مطالب، فقد أعطاه ربه عزّ وجل ثمانية أخرى دون أن يسألها موسى؛ ليجمع له بين العطاء بالسؤال والعطاء تكرماً بغير سؤال، لأنه إذا سألت الله فأعطاك دلّ ذلك على قدرته تعالى في إجابة طلبك، لكن إن أعطاك دون سؤال منك دلّ ذلك على محبته لك[١].

٧ـ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢]:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: اذهب أنت وأخوك هارون بآياتي ومعجزاتي التي أيدتك بها إلى فرعون الطاغية المتألِّه المتجبِّر. وحتى ينجحا في مهمتهما أمام فرعون وملئه أرشدهما الله إلى الوسيلة التي يُحقِّقان بها النجاح والاستمرار: في ذكر الله والإكثار منه، ولهذا قال لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

﴿تَنِيَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة لأن أصله «تنيان» على وزن «تفعلان»، ولم يرد في القرآن في غير هذا الموضع، والماضي منه «ونى» وهو الفتور والتعب والضعف، يُقال: ونى، يني أي: ضعف وفتر.

فمعنى قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ لا تضعفا عن ذكري ولا تكسلا وتتوقَّفا عن ذكري ولا تتعبا من ذكري، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا في ذكري والمراد أنهما لا يفتران عن ذكر الله، بل يذكران الله في مواجهة فرعون، ليكون الله عوناً لهما عليه وقوة وسلطاناً لهما[٢].

إن الإكثار من ذِكر الله توجيه من الله لجنوده وعباده، وخاصة عندما يواجهون أعداءهم، وورد هذا التوجيه في آيات كثيرة في القرآن منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٩٢٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٤٩).

إن موسى وهارون عليهما السلام مقدِمان على خطوة خطيرة، حيث سيواجهان أعتى كافر، وفرعون يملك الكثير من مظاهر القوة والبطش والطغيان، ولا يُعينهما في تحديه ومواجهته إلا الله القوي الجبار، لذلك أرشدهما الله إلى الإكثار من ذكره ونهاهما عن الضعف والونى والفتور فقال لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، وهذا درس لكل مؤمن يريد أن يقوم بواجبه في عبادة الله، والدعوة إليه ومواجهة أعدائه، فلا بد أن يذكر الله ذكراً كثيراً، ولا يجوز أن يني ويضعف ويفتر عن ذلك(١).

وإن الله عزّ وجل قد قرن الأمر بالدعوة إلى الله بالأمر بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢]، فالله سبحانه يحثُّ دائماً على الذِّكر في كل لحظة، ومن ذَكر الله في الرخاء ذَكره الله في الشدة، وإن من أنواع الذكر التي تُنجي في الشدائد: تسبيح الله سبحانه، ولقد قال سبحانه في شأن ذي النون ـ يونس عليه السلام ـ حينما ابتلعه الحوت: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، وقال سبحانه في شأن أصحاب الجنة حينما طاف عليها طائف من ربك: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

أما الاستغفار فإنه أمان من العذاب:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وهو أيضاً من عوامل السعة في الرزق:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] (٢).

والحفاظ على الذكر والإكثار منه يُعين على تبليغ رسالة رب العالمين،

---

(١) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٣٩٣).
(٢) قصص الأنبياء، عبد الحليم محمود، ص٢٠١.

ومعنى ﴿فِي ذِكْرِي﴾ أي: لأكن دائماً على بالكما، فأنا الذي أرسلتُ، وأنا الذي أيَّدتُ بالمعجزات، وأنا الذي أرعاكما وأرقبكما، وأنا الذي سأجازيكما، فلا يغب ذلك عنكما[١].

إن من أهم الأسلحة والعتاد في مواجهة الطغاة: الإكثار من ذكر الله وحسن الصلة به والاعتماد عليه سبحانه وتعالى في كل وقت وحين، فإن ذكر الله يُعين على جميع الأمور، فيُسهّلها ويُخفِّف حملها[٢].

والذكر طريق الاستعانة بالله على مواجهة الصعوبات، فتسبيح الله وحمده والثناء عليه يجعل القلوب حية وعامرة بذكر الله، وذلك يعصمها من الضعف والفتور في مواجهة الطغيان، وهذا الذكر الدائم يشرح الصدر ويُيسِّر الأمر، وأن هذا ليس خاصّاً بالنبيِّين، وإنما هو عام في كل من آمن بالله وجاهد في سبيل الله سواء بالسيف أو بالقلم أو بالقول أو بأي عمل صالح يتجه به المسلم إلى الله، لأن شَغْل القلوب بذكر الله يمنح القوة والصبر والرضا، وراجع الجملة مرة ثانية ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ تجدها مطلقة[٣].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]:

أي: جاوز الحد في كفره وطغيانه وظلمه وعدوانه[٤]. وهل هناك طغيان فوق ادعائه أنه ربٌّ؟ وأنه إله؟ وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

والمسرف هو الذي يتجاوز الحدود، وهو قد تجاوز في إسرافه وادّعى الألوهية، وعلا في الأرض علوّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين[٥].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٧٦).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٧).
(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٧٣.
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٧).
(٥) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٧٦).

وقد ذكر الدكتور محمد أبو موسى أنه في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] انتقل الكلام انتقالةً أوسع، وصار الخطاب لموسى وهارون عليهما السلام، في حين كان الخطاب الأول لموسى وحده ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾، وهنا ﴿ٱذۡهَبَآ﴾، وهذا يعني أننا لم نعد في الوادي المقدس؛ لأن ذلك كان خاصّاً بموسى عليه السلام، وحضور هارون في الخطاب في هذه الآية وما بعدها يعني أن الله ـ سبحانه ـ أرسل إلى هارون[١].

وهكذا أصبح الخطاب لموسى وهارون عليهما السلام، ولم أعرف في تاريخ النبوات أن الله سبحانه وتعالى أرسل نبيِّين أخوَين إلى أمة واحدة، وقد أعاد البيان الجملة نفسها، وما زاد فيها إلا ألف الاثنين.

ـ وقال في الأولى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾.

ـ وفي الثانية: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

وتكرار الصفة ﴿طَغَىٰ﴾ التي من أجلها أرسل الله نبيّاً ثم أرسل نبيِّين إشارة إلى خطر الطغيان على الحياة الإنسانية، وأن الله سبحانه وتعالى يتعهد البشر ويُعينهم إذا لم يفتروا عن ذكره لمواجهة الطغيان، وفرعون له جرائم بشعة، وإنما اختار منها القرآن هذه الصفة، لأنها رأس كل الفساد، ورأس كل الرذائل ولا أجد أنا ولا أنت ولا هو ولا هي أخطر على بلادي وقومي من الطغيان، ولا أهلك لهم من الطاغية، لأنه من قومي ويُهلك قومي[٢].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]:

إن موقع هذه الجملة هنا موقع عجيب للغاية، وذلك لأننا نواجه الطاغية، والمواجهة له من رسولَيْ رب العالمين، وهو معهما سبحانه وتعالى، وهو ربنا يسمع ويرى، ومع كل هذا كان الأمر بالقول اللين، وتأمَّلْ كلمة ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾، فقد

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٣٧٣.
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، المصدر نفسه، ص٣٧٤.

قال بعض المفسرين: إن هذا القول اللين في خطاب فرعون رُوعي فيه تربية موسى في بيته، ومحبة أهل بيته لموسى وحسن هذه التربية، وهي يد لفرعون على موسى، وذكروا في هذا السياق أن عبد الله بن عباس قال: لو كانت لفرعون يد لكافأته عليها، وقد قالوا إن عاراً ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف، وهذا كله جيد.

والذي هو أولى وأعلى أن اللين هو سبيل الدعوة إلى الخير، وإلى الدين الذي هو كل الخير، ولا يجوز في العقل أن ندعو إلى الرحمة بالغلظة، وأن ندعو إلى العدل بالعنف[1].

ـ **اعتبر شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود** هذه الآية الكريمة من قواعد الدعوة إلى الله حيث قال: ولقد أبان الله سبحانه وتعالى قواعد الوعظ، وبيّن المنهج الذي يجب أن يلتزم به الواعظ.

وأولى هذه القواعد ما قال الله سبحانه وتعالى عنها في أمره لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] والدعوة على بصيرة، أي: على علم، لا مناص من أن يكون الداعي عالماً حتى لا يُوقع جمهوراً من الناس في الضلال، ولقد كان من شيم علمائنا الأجلاء أنه إذا سُئل أحدهم فيما لا يعلم قال: «لا أدري».

وأما القاعدة الثانية فهي ما عَبَّر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وهذه قاعدة جليلة، إن من يُبلِّغ رسالات الله لا ينبغي أن يفعل ذلك إلا إذا كان قلبه عامراً بخشيته مليئاً بهيبته.

والقاعدة الثالثة للوعظ هي: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

والقاعدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ

(١) من حديث يوسف وموسى في الذِكر الحكيم، المصدر السابق، ص٣٧٥.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهي آية تجمع من الأدب الكثير(١).

أ ـ قال العلاّمة السعدي (رحمه الله) في تفسيره للآية الكريمة:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ أي: سهلاً لطيفاً برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صَلف ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال.

﴿لَّعَلَّهُۥ﴾: بسبب القول اللين.

﴿يَتَذَكَّرُ﴾: ما ينفعه فيأتيه.

﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾: ما يضرّه فيتركه، فإنّ القول اللين داع لذلك والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فُسِّر القول اللين في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل، فإنه أتى بـ﴿هَل﴾ الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئِز منها أحد، ودعاه إلى التزكية والتطهُّر من الأدناس التي أصلها التطهُّر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل: أُزكيك، بل قال: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، والتي ينبغي مقابلتها بشكرها وذِكرها، فقال: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنُه بالقلوب، علم أنه لا ينجح فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر(٢).

ب ـ قال الإمام ابن كثير: هذه الآية فيها عِبرة عظيمة، ففرعون كان في غاية العتو والاستكبار، وموسى (عليه السلام) صفوة الله من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا أمر الله موسى ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين. وفي تفسير الإمام الحسن البصري «قولا له»: إن لك رباً، ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً(٣).

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الحليم محمود، ص١٩٨.
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٧).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

ت ـ قال الدكتور صلاح الخالدي: ليونة القول في الأسلوب وليس المضمون، وهذا معناه أن القول اللين هو طريقة التعبير في القول والأسلوب الخطابي، وفي نبرة الصوت، وذلك ليكون لينُ القول ورِقته سبباً إلى استماع فرعون له وتأثُّره به.

وليس القول اللين في ماهية القول ولا في مضمون العبارة ولا في حقائق الفكر والتصور، فهذا المضمون لا يقبل الليونة، لأن الليونة فيه تعني التحريف والتغيير والتبديل، لقد كانت ليونة موسى أمام فرعون في القول لا في المضمون، وفي كيفية التعبير لا في ماهيته وحقيقته، وقد دعاه بالحكمة، كما سيمر معنا في المباحث التالية.

ولما صعّد فرعون في كلامه لموسى، وهاجمه بحدّة، ولم يسكت له موسى بحجة الحكمة والقول اللين، بل ردّ عليه بقوة، وقد سجل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١ـ١٠٢].

قال له فرعون: أنت يا موسى مسحور، فرد عليه موسى قائلاً له: أنت يا فرعون هالك مثبور، وهذا من الحكمة في خطاب موسى له، وهذا لا يتعارض مع القول اللين الذي أُمر أن يقوله، فلكل مقام مقال. والخلاصة: أن القول اللين في الأسلوب لا في المضمون، وفي كيفية القول لا في ماهيته[1].

إن القول اللين لا يُثير العزة بالإثم، ولا يُهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يُوقظ القلب ويُنبِّهه من عاقبة الطغيان، وقوله اذهبا إليه غير يائسَين من هدايته، راجيَين أن يتذكر ويخشى، فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بجدارة ولا يثبت عليها في وجوه الجحود والإنكار. وإن الله

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٩٧).

ليعلم ما يكون من فرعون، ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لابد منه، والله يُحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم، وهو عالِمٌ بأنه سيكون، فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي على حدٍّ سواء[١].

ومن اللطائف التي تُذكرُ في كتب التاريخ، وهي: بينما كان هارون الرشيد يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني أريد أن أكلِّمك بكلام فيه غلظ فاحتمله لي، فقال: لا ولا نعمة عين ولا كرامة، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شرٌّ مني، فأمره أن يقول له قولاً ليناً[٢]. فالنصيحة والقول اللين لهما آداب وأصول وأخلاق حتى تُؤتي ثمارها وتبلغ مرامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ث ـ قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، هذا خطابٌ لفرعون بعد أن طغى، فمن الذي حكم عليه بالطغيان؟

حين تحكم أنت عليه بالطغيان فهو طغيان يناسب قدرات وإمكانات البشر، أمّا أن يقول عنه الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]، فهنا لا بد أنه تجاوز كل الحدود، وبلغ قمة الطغيان، فربنا هو الذي يقول: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، إذن، لا بد أن تعطيه فسحة كي يرى حججك وآياتك؛ ولا تبادره بعنف وغلظة.

وقالوا: النصح ثقيل، فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، ولا تجمع على المنصوح شدتين: أن تخرجه مما أَلِفَ بما يكره، بل تخرجه مما أَلِفَ بما يُحبُّ.

وفي قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: لعل: رجاء فكيف يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وفي علمه تعالى أنه لن يتذكر ولن يخشى وسيموت كافراً غريقاً؟

قالوا: لأن الحق سبحانه يريد لموسى أن يدخل على فرعون دخول الواثق من أنه سيهتدي، لا دخول اليائس من هدايته، لتكون لديه الطاقة الكافية لمناقشته

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٣٣٦).

(٢) تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ٢٠١٦م، (٧/ ٣٢٩).

وعرض الحجج عليه، أما لو دخل وهو يعلم هذه النتيجة لكان محبطاً لا يرى من كلامه فائدة، فالحق سبحانه يعلم ما سيكون من أمر فرعون، لكن يريد أن يقيم الحجة عليه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾؛ كأن الإنسان إذا ما ترك شراسة تفكيره، وغُمّة شهواته في نفسه، فهو لا بد أن يهتدي بفطرته إلى وجود الله، أو ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ عالم الذر والعهد الذي أخذه الله عليه يوم أن قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولو تذكر الإنسان وجرّد نفسه من هواها لا بدّ أن يهتدي إلى وجود الله، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للغفلة مجالاً وأرسل الرسل للتذكير، لذلك قال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولم يقل بادئين.

ومعنى ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أي: النعم السابقة فيُؤمن بالمنعم، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: يخاف العقوبة اللاحقة، فيُؤمن بالله الذي تصير إليه الأمور في الآخرة[١].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]:

إن هارون عليه السلام لم يكن مع موسى عليه السلام في موقف المناجاة الطويل الذي تفضَّل فيه المُنعم على عبده، فأطال له فيها النجاء وبسط له في القول وأوسع له في السؤال والجواب، فردُّهما بقولهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ لم يكن في موقف المناجاة، وإنما هو السياق القرآني يطوي الزمان والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تُعلَم من السياق، ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس. وقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور، وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم ها هما ذان يتوجَّهان إلى ربهما بمخاوفهما[٢]: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٧٩).

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٦).

ابتدأ كلاهما بالالتجاء إلى الله الذي هو فوق كل جبار وعظيم في هذه الأرض، ولو كان فرعون، قائلاً: ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: الذي خلقنا، وربنا يعرف ما عندنا من قدرة، وما عند فرعون من طغيان، ومدى ما نستطيع معه، ومدى مسارعته إلى الشر، وعدم تردُّده فيه[١].

﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾؛ إن الخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم بنصره، لأن الخوف من طبيعة البشر، فهل يُعَدُّ خوف هذين النبيَّين الكريمين من مواجهة فرعون نقصاً في إيمانهما، أو نقصاً في توكُّلهما، أو ثغرة في ثقتهما بالله عزّ وجل؟ كلا بل هو من طبيعة البشر، ليكون هذا الخوف دافعاً لهم إلى التوكل على الله والالتجاء إليه والثقة بنصره[٢].

ومن العجيب أن الله سبحانه وتعالى، الذي قال للأرض كوني فكانت، يقول لنبيَّين كريمين من أنبيائه: اِفعلا، فيقولان: إننا نخاف، وفي هذا معنى كريم جدّاً، وهو أن الخالق أجاز للذي خلقه بيديه أن يُراجعه، وذلك لأن الإنسان أكرم على الله من أن يقول نعم، وهو غير مقتنع، ولو كان الأمر قد جاءه من الذي خلقه[٣].

ومعنى ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾: بتجاوز الحد، وربما عاجلنا بالقتل قبل أن نقول شيئاً، فيسبق قتلُه لنا كلامَنا له.

ومعنى ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: فلا يكتفي بقتلنا، بل ويخوض في حق ربنا، أو يقول كلاماً لا يليق، كما سبق له أن ادعى الألوهية[٤]. والفرط هو الشروعُ بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرُّع وأشمل من الأذى، وفرعون يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما[٥]. وهذا معناه أن فرعون عصبيّ نزق، وليس

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٣١).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٨٠).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٣١).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٨٠).
(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٦).

حليماً ولا متأنِّياً، وإذا سمع شيئاً لا يعجبه ولا يتفق مع هواه، فإنه يسارع بالعقوبة، ويتعجَّل بالأمر بالقتل، وهذا منه طغيان وعدوان(١).

١١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]:

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي(٢).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣] وهذه سُنَّة من سنن الله تعالى(٣)، إن الله عزّ وجل مع جنوده أينما كانوا، معهم بعلمه وسمعه وبصره، فيعلم ما يفعلون، ويسمع ما يقولون، ويراهم وهم يسكنون أو يتحركون، وعندما يواجه جنودُه الأعداءَ يكون الله معهم بعلمه وسمعه وبصره، كما يكون معهم بعنايته ورعايته، ومعهم بحفظه وتأييده ونصره وتثبيته، فيحميهم من بطش وطغيان أولئك الأعداء(٤).

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾: إنه القوي الجبار الكبير المتعالي، إنه الله القاهر فوق عباده، إنه مُوجد الأكوان والحيوان والأفراد والأشياء بقوله: ﴿كُن﴾ ولا زيادة، إنه معهما. وكان هذا الإجمال يكفي، ولكنه يزيدهما طمأنينة، لمّا لمسا بالحسِّ المعونة: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى؟ والله معهما يسمع ويرى؟ والآية الكريمة تُثبت أن لله عزّ وجل السمع والبصر بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فالله عزّ وجل ليس له مثيل ولا شبيه، ونُثبت

(١) القصص القرآن، الخالدي، (٢/ ٣٩٧).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٣٩٧).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٨١).
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٣٩٧).

ما أثبته لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ دون تأويل ولا تحريف ولا تكييف، فتعالى الله، وتقدَّست أسماؤه وعظمت صفاته لا إله إلا هو(١).

قال الشيخ السعدي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع قولكما وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه. فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما(٢).

ففي الآية التي معنا يُطمئنهما الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ حتى لا يخافا، فقدرة الله ستحفظهما، وسوف تتدخل إن لزم الأمر كما تدخلت معهما في حياتهما المليئة بالرعاية الربانية والحفظ الإلهي العظيم. ثم قال لهما الحق سبحانه وتعالى:

١٢ ـ قال تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

ـ «الفاء» هنا «فاء» الإفصاح، تفصح عن شرط مقدر تقديره: إن ذهب الخوف واطمأننتُما إلى الله ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ فاذهبا إليه، والتعبير بإتيانه يفيد أنهما مدرعان بقوة الله التي تُرهِب كل مخلوق، ولو كان فرعون طاغية الأرض(٣).

﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾: وهي جملة مختصرة، لكنها تحوي خلاصة الرسالة والدعوة، ففرعون ليس ربّاً، ولكن الله ربُّه وربُّ العالمين، وموسى وهارون رسولان على فرعون أن يؤمن بهما ويتَّبعهما ويدعو قومه للإيمان بهما واتِّباعهما أيضاً(٤).

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ يُشعِر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه وهو رب الناس، فليس هو إلهاً خاصّاً بموسى

---

(١) لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى، سيد سعيد عبد الغني، الإسكندرية، دار الإيمان، ٢٠٠٧م، ص١٢٣.
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٧).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٢٢).
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٤٠١).

وهارون أو بني إسرائيل، كما هو سائدٌ في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة ولكل قبيل إلهاً أو آلهة، أو كما كان سائداً في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يُعبد فيها لأنه من نسل الآلهة[١].

ثم إيضاح الموضوع في رسالتهما: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾: ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها، ثم الاستشهاد على صدقهما في الرسالة: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك في هذه المهمة التي حددناها، ثم ترغيب واستمالة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فلعله يتلقى السلام ويتبع الهدى[٢].

أ ـ قال الشيخ محمد أبو زهرة: قال تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ هنا انتقل الموقف بهما من خائفَين إلى مُرهبَين، فقوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾ أي جِئناك مجابهَين مسلَّحين بآية: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي خلقك وأعطاك هذا السلطان والجبروت اختباراً لنفسك، وكل فعل وقول محتسَب عليك، وختما قولهما بإلقاء الأمن على فرعون بعد الإرهاب المفزع له، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي إن الأمن والاطمئنان والدعة وعدم الانزعاج يكون لمن اتبع الهدى، فإن لم تتبع الهدى فلا أمن ولا اطمئنان، إنما انزعاج وعدم استقرار، وإرهاب من الله، ولو كنت فرعون، ووحدا الآية وهما اثنتان؛ لأن المراد ما به البرهان على الرسالة وواحدة كافية[٣].

ب ـ قال الشيخ الشنقيطي: العذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل هو المذكور في سورة البقرة في قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٧).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٣٧).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٢٣).

ـ في سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

ـ في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

ـ في سورة الدخان في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠ـ٣١].

ـ في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

وما أمر الله به موسى وهارون في آية طه هذه من أن يقولا لفرعون إنهما رسولا ربه إليه، وأنه يأمره بإرسال بني إسرائيل ولا يعذبهم، أشار إليه تعالى في غير هذا الموضع كقوله في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦ـ١٧] (١).

ت ـ وقال الشيخ السعدي (رحمه الله): أي: فأتياه بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف ـ بني إسرائيل ـ من قيده وتعبيده لهم، ليتحرَّروا ويملكوا أمرهم، ويُقيم فيهم موسى شرعَ الله ودينه: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ تدل على صدقنا، ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢ـ٣٣] إلى آخر ما ذكر الله عنهما (٢).

ث ـ وقال العلاّمة محمد متولي الشعراوي في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فقد جئنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من العذاب: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فأعادوا عليه هذه الكلمة مرة أخرى.

---

(١) أضواء البيان، (١٦ـ١٧).

(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٨).

وقد علّمهما الحق سبحانه كيف يدخلون على فرعون؟ وكيف يتحدَّثون معه في أمر لا يمسُّ كبرياءه وألوهيته، وبنو إسرائيل هم البقية الباقية من يوسف عليه السلام وإخوته لما جاؤوا إلى مصر في أيام العزيز الذي قرّب يوسف إليه وجعله على خزائن الأرض، كما قال تعالى في قصة يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]: هذه ليست تحية؛ لأنك تُحيِّي من كان مُتَّبعاً للهدى وتدعو له بالسلام، فإن لم يكن كذلك فهي نهاية للكلام. لذلك كان يكتبها رسول الله ﷺ في كتبه إلى المقوقس عظيم القبط، وإلى هرقل عظيم الروم يقول: «أسلِمْ تسلَمْ يُؤتِكَ اللهُ أَجرَكَ مرتين، فإن تولَّيتَ فإنما عليك إثم الأريسيِّين، والسلام على من اتبع الهدى» (١).

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: مَن اتَّبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة(٢).

١٣ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]:

أ ـ قال الشنقيطي: ما ذكره الله جلّ وعلا في الآية الكريمة عن موسى وهارون، بأن الله أوحى إليهما أن العذاب على من كذب وتولى، وهنا أُشير إلى نحوه في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦].

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٨٣).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٨).

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات[١].

ب ـ وقال الشيخ السعدي: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ أي: خبرُنا من عند الله لا من عند أنفسنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بأخبار الله وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا في الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ فلعله لا يكون ممن كذب وتولى، هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون، وهكذا رسم لهما الطريق، ودبَّر لهما الأمر، ليمضيا آمنَين عارفين هادئين، وهنا يُسدَل الستار ليرفع، فإذا هما أمام الطاغية في حوار وجدل[٣].

ولقد أتيا فرعون ـ والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه ـ أتياه وربهما معهما يسمع ويرى، فأية قوة وأي سلطان هذا الذي يتكلم به موسى وهارون، كائناً فرعون ما كان، ولقد أبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه. والمشهد هنا يبدأ بما دار بينه وبين موسى عليه السلام من حوار[٤]، ومع أن فرعون في غاية العتو والاستكبار والطغيان، إلا أن الله تعالى بقدرته ومشيئته منعه من البطش بموسى وهارون عليهما السلام، كما وعدهما سبحانه وتعالى[٥].

فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أن يدخل معهما في متاهات يشغلهما بها، ويُطيل الجدل ليُرتِّب أفكاره وينظر ما يقول[٦].

---

(١) أضواء البيان، (٤/ ١٨).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٨).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٧).
(٤) المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٣٧).
(٥) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٤).
(٦) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٨٣).

سادساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٩]:

تفسير الآيات:

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]:

كان الخطاب لهما، ولكن اختص موسى بالذكر، لأنه المتكلم باسمهما، فما كانا يتكلمان معاً، بل كان يتكلم موسى ويوافقه هارون لأن هذا وزير، وذلك الرسول المبعوث، ولأنه كان يؤنس موسى لأنه تربَّى في كفالته ورعايته وهو قريب إلى نفسه مع ما بينهما من بُعد، بالهداية في موسى، والكبرياء في الطاغية فرعون، وقال الزمخشري: لأنه كان يعلم أن لسانه يُحرجه في البيان، ويستدل على ذلك بقوله عندما احتدم الخلاف: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] على أي حال مهما يكن السبب اختص موسى بالنداء، وعمَّم خطابهما[1].

وإن فرعون لم يضف نفسه إلى الرب مع أنهما صرّحا له بذلك عندما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [طه: ٤٧]، وذكر سبحانه في موضع آخر أنهما قالا له أيضاً: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]؛ هو ربنا وربك ورب جميع المخلوقات، ولا شك في أن إعراض فرعون عن إضافة نفسه إلى الرب سبحانه يدل على شدة طغيانه واستكباره، وهو تجاهل وتغافل

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٣٤).

عن حقيقة مستقرة في أعماق نفسه، تقول له: إنك مخلوق ومملوك لخالق عظيم، ومربوب لرب كريم. وقد واجهه موسى بهذه الحقيقة في إحدى محاوراته له فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقد تحدث المؤرخون عن فرعونَينِ في عهد موسى عليه السلام:

ـ فرعون الاضطهاد. ـ وفرعون الخروج.

ولا يهمنا تحديد اسم فرعون الذي ذهب إليه موسى (عليه السلام)، وهل هو فرعون الذي وُلد في عهده ونشأ في قصره وهرب منه لما قتل القبطي؟ أم هو فرعون آخر، تولَّى الحكم في غيبة موسى عشر سنوات في مَدْيَن بعد هلاك سلفه؟

قد يكون هو فرعون نفسه، امتد به الحكم والعمر هذه السنين الطويلة، وبقي حاكماً لمصر منذ ولادة موسى إلى أن عاد إليه نبيّاً، وكان هلاكه غرقاً في البحر لمّا لحق بني إسرائيل[١]. وهذا الراجح لدي، وقد يكون فرعوناً آخر حكم بعد الأول، لا تتحدَّث آيات القرآن عن ذلك، وكل ما تُقرِّره أنه فرعون، ونحن نعلم أن «فرعون» لقب يُطلق على مَن ملك مصر في تلك الفترة، وليس اسماً لملك مُعيَّن حكمها، ولهذا لا تحدّد الآيات اسم فرعون فهو من «مبهمات القرآن». وأما المؤرخون فيذهبون إلى أنهما فرعونان، الأب والابن:

الأول: «**فرعون الاضطهاد**»، وهذا الاسم معناه أنه هو الذي زاد اضطهادُ بني إسرائيل في عهده، من حيث تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو الذي وُلد موسى عليه السلام في عهده وتربّى في قصره، ولما شبّ قتل القبطي ثم هرب منه.

قالوا: فرعون الاضطهاد هو «رمسيس الثاني»، وهو أشهر وأقوى من حكم مصر، وقد حكم ستاً وستين سنة، وذلك من سنة ألف ومئتين وتسع وسبعين (١٢٧٩) قبل الميلاد وحتى سنة ألف ومئتين وثلاث عشرة (١٢١٣) قبل الميلاد، ومات رمسيس الثاني أثناء إقامة موسى في أرض مدين.

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٩٠).

الثاني: «**فرعون الخروج**» وهو «مرنبتاح» أو منفتاح أو مفتاح ـ ابن رمسيس الثاني ـ وقد حكم بعد وفاة والده، وهو الذي واجهه موسى وهارون عليهما السلام، وجرى بينهما وبينه ما جرى من أحداث، وسمي بذلك الاسم لأنه لحق ببني إسرائيل وخرج وراءهم، فأغرقه الله في البحر.

وقد حكم هذا الفرعون مصر نحو عشر سنوات قبل غرقه، ولما ألقى الله جثته على شاطئ البحر، حنّط المصريون جثته ودفنوه إلى جانب أبيه، هذا ما يقوله المؤرخون عن الفرعونين؛ فرعون الاضطهاد رمسيس الثاني، وفرعون الخروج ابنه منفتاح(١).

وهذا ما ورد صريحاً في آيات القرآن، أو صحّ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولهذا نُبقي اسم فرعون الذي واجهه موسى عليه السلام مبهماً، ولا نقول عنه إلا أنّه: فرعون الطاغية المتجبر المفسد، الذي ادّعى الألوهية والربوبية، وعبّد شعبه له، فجعلوه إلهاً وربّاً(٢).

ومهما يكن من أمر في حقيقة فرعون مما ذكرنا، فإن موسى عليه السلام ردّ على سؤال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾:

٢ ـ بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]:

ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أي: ربنا لا ينبغي لأحد أن يسأل عنه، لأنه أوجد كل المخلوقات وأخرجها من العدم، وخصَّ كل مخلوق بصفات وخصائص تناسبه وتلائمه وتميزه من غيره من المخلوقات، فكلّ المخلوقات تعرف ربها الذي أوجدها وأمدها بأسباب استمرار وجودها.

ـ ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: هداهم فأرشدهم إلى كيفية الانتفاع بما أعطاهم الله جلّ وعلا، فهو الذي هدى النملة إلى تخزين طعامها، والنحلة إلى السبل التي

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٩١).
(٢) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٣٩١).

تسلكها لجمع غذائها، والسمكة في أعماق البحار إلى أماكن تكاثرها وتناسلها، والطير في جو السماء إلى طريق هجرته الممتدة فوق المحيطات والقارات. . . إلخ، فهو الذي أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في الألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه جلّ وعلا ما أعظم شأنه وأكمل قدرته[١]!

فإيجاد المخلوقات دليل على وجوده سبحانه، وتخصيص كل مخلوق بالخصائص التي تناسبه دليل أيضاً على وجوده سبحانه وكمال قدرته وعلمه وحكمته، وهداية كل مخلوق إلى طرائق حياته ومعاشه وتكاثره دليل أيضاً على وجوده تعالى وكمال قدرته وتمام مشيئته وحكمته[٢].

ـ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾: إن موسى عليه السلام ردّ بالصفة المبدعة المُنشِئة المدبِّرة من صفات الله تعالى: ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمدَّه بما يناسب هذه الوظيفة ويُعينه عليها.

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام، وهو يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود، هبة الوجود لكل موجود، وهبة خلقه على الصورة التي خُلق بها، وهبة هدايته للوظيفة التي خُلق لها، وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته في حدود ما يطيق في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلَّى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير، من الذرّة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان.

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يُحصى من الذرات والخلايا والخلائق والأحياء، وكل ذرة فيه تنبض وكل خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى، وكلها تعمل منفردة ومجتمعة

(١) أضواء البيان، (٤/ ٤١٩).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٦).

داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها، بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات، وكل كائن بمفرده كون وحده وعالَم بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فُطرت عليها، داخل حدود الناموس العام في توافق وانتظام.

وكل كائن بمفرده ـ ودعك من الكون الكبير ـ يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصِّه ووظائفه وأمراضه وعلاجه، دراستها مجرد دراسة لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كليةً عن طوق الإنسان، وهو خَلْق من خَلْق الله ووهبه وجوده على الهيئة التي وجد بها، والوظيفة التي خُلِق لأجلها[1].

ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾:

قال النابلسي في تفسير هذه الآية: أي أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم أعطاه فكراً وقوة إدراكية يعرف بها الخير من الشر، والحق من الباطل، وما ينفعه وما يضره، وهداه إلى كسب رزقه وإلى طريقة عيشه، فخلقه خلقاً كاملاً وهداه إلى طريق سعادته بما أعطاه من قوة إدراكية، فخلقه وأعطاه وهداه.

ولو اطلعت على آلية الولادة لرأيت أعظم آية من آيات الله عزّ وجل، فهذا الرحم جعله الله في قرار مكين وجعله يتمدد «من ٧سم٣ إلى ٣٥٠٠ سم٣»؛ أي مئات الحجوم الكبيرة كي يتسع لهذا الجنين، ثم يتقلص تقلصاً لطيفاً ليدفعه إلى خارج الجسم في الوقت المحدد، فإذا خرج الجنين إلى خارج الرحم انقبض الرحم انقباضاً شديداً؛ ليسد الشرايين المفتوحة، ولولا انقباضه لماتت الأم من شدة النزيف، فمن رتّب هذا؟ ومن هيّأ هذا؟ ومن سيّر هذا الجنين؟

قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٠].

فهذا الطفل الصغير الذي يولد لتوّه يلتقم ثدي أمه، وإن التقام الثدي عملية

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٨).

معقدة، ففيها إحكام الشفتين على حلمة الثدي، وفيها سحب الهواء كي يخرج الحليب، وفيها أشياء كثيرة أخرى، ولو أن هذا الطفل الصغير لا يعرف كيف يلتقم ثدي أمه لمات جوعاً، فليس بالإمكان أن تعلّمه، إذ ليس عنده إدراك ولا لغة ولا قدرة على الاستيعاب، فلولا منعكس المصّ الذي جعله الله عزّ وجل في الطفل الصغير، لما عاش إنسان على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

ـ فمن جعل اللبن يخرج لهذا الطفل في الوقت المناسب؟ مُعيَّراً في كل يوم من أيام نموه، بارداً في الصيف، دافئاً في الشتاء، معقماً وفيه مناعة الأم كلها؟

ـ وخلق له عينين، ليرى بهما كل شيء، فهو يرى الأشياء بأحجامها وألوانها وأبعادها الطولية والعرضية والعُمقية، وهذه العين لها عتبة تقف عندها، فلو أن هذه العتبة ارتفعت لرأيت في كأس الماء ألوف الألوف من الكائنات الحية، ولعزفت نفسك عن شربه، لكن الله عزّ وجل لحكمته البالغة جعل البصر يقف عند حد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ـ٩]، فخلق له لساناً وشفتين، فبالشفتين يلتقم ثدي أمه، وباللسان ينطق ويعبر عن آرائه وعن أفكاره وعن مشاعره، فمن خلق آلية النطق؟

كيف تتكلم وكل حرف يحتاج إلى سبع عشرة عضلة تأخذ وضعاً معيناً حتى يخرج هذا الحرف؟ كيف إذا كانت الكلمة خمسة أحرف، فهل بإمكان الإنسان أن يتكلم بنفسه؟ أو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُنطقه؟ لولا أن الله تولى عنه تحريك هذه العضلات؛ لما أمكنه أن ينطق بكلمة واحدة.

والسمع له درجة، والبصر له درجة، والحس له درجة، وجعل الله السمع يقف عند حد فلو أنه أسمعك كل شيء لسمعت حركات الأحشاء فلا تنام الليل، والأعصاب جعلها بحساسية معينة، فلو زادت لاختلَّ نظام الحياة، ولك ذاكرة سمعية تعرف بها أصوات كل من حولك، فأنت تسمع المكالمة الهاتفية فتقول لأول وهلة: إنه فلان، فكيف عرفت أنه فلان؟ لولا أن لك ذاكرة سمعية لما عرفت، وإن لك أيضاً ذاكرة شمّية وذاكرة بصرية وذاكرة أسماء وذاكرة أرقام وذاكرة طعوم.

ـ وجعل الله تعالى للإنسان هيكلاً عظمياً، وجعل له عضلات تحرك العظام، وجعل لهذه العضلات أوتاراً.

ـ وجعل الشرايين والأوردة وجعل القلب والرئتين، وجعل المعدة والأمعاء، وجعل جهاز الإفراز، وبثّ في هذا الجسم الأعصاب والغدد الصماء، فخلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ـ وأكثر الأعضاء فيه تعمل ليلاً ونهاراً، بلا كلل ولا ملل، تنام أنت والدماغ يقظان، والهضم يعمل وأنت نائم، والتنفس يعمل وأنت نائم، ويقلِّبُك في الليل ذات اليمين وذات الشمال، وأعمال أخرى لا يعلمها إلا الله وكلها تكون وأنت نائم، فيعدّ الإنسان أعقد آلة على وجه الأرض(١).

ـ لو أمضيت الحياة كلها في الوقوف على دقائق خلق الإنسان ما انتهيت منها، أليس خلقُك أنت معجزة؟ أليس خلق ابنك ـ الذي تعرف كيف ـ أكبر آية دالة على عظمة الله عزّ وجل؟

يقول ربنا في آية أخرى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فماذا عن خلقه للحيوان؟ انظر إلى الجمل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، فمن جعل هذا الذي يستعين به على السير على الرمال؟ ومن جعل لعينيه جفنين؟ ومن جعله يتحمل العطش لمدة طويلة؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

ـ وانظر إلى الطائر كيف يطير؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] وهو شيء يأخذ بالألباب.

ـ وانظر إلى الأسماك كيف تسبح في الماء؟ لماذا خلق الله لها هذه الزعانف؟ إنها أدوات توجيه وأدوات توازن وأدوات تحريك، ومن جعل لهذه السمكة مقياس ضغط تعرف به موقعها في الماء؟ أهي أقرب إلى السطح أم إلى القاع؟

---

(١) تفسير النابلسي، (٧/ ٥٠).

يُقدِّر علماء الأحياء أن في البحر مليون نوع من السمك أي: ألف ألف، ولو اطلعت على بعض كتب البحار، أو على بعض المصوّرات، لرأيت العجب العُجاب، فهناك سمك لطيف، وسمك للزينة، وسمك كبير، وهذه الأسماك كلها تتنفس من أكسجين الماء، ولذلك يلاحظ في أحواض الأسماك فقاعات هواء لأن السمك يتنفس الأكسجين الممزوج بالماء، لكن الحوت من الثدييات فلا يتنفس إلا الهواء فيخرج إلى السطح ليتنفّس، فيصطاده الإنسان، ولولا أنه يتنفس الهواء لما أمكن اصطياده، وهو حوت ضخم ويُعد عملاق البحر، يزن مئة وخمسين طناً ويسمى الحوت الأزرق، وفيه خمسون طناً من الدهن ويعطينا تسعين برميلاً زيتاً وهو ثروة كبيرة جدّاً . . . ولو أمضينا الحياة كلها في الوقوف على آيات الله التي بثها في الأرض لما انتهينا من آية واحدة، أليست هذه الآيات كلها دليلاً قطعيّاً على وجود الله وعلى ربوبيته وعلى ألوهيته وعلى عظمته وعلى أسمائه الحسنى؟

إن الكون كله ما هو إلا دليل على أسمائه الحسنى وصفاته العُلا، فماذا أقول حول هذه الآية!؟

إن الساعات الطوال لا تكفي لشرح هذه الآية من الوجهة العلمية، فهذه الآية يمكن أن تؤلَّف حولها مجلّدات، ولو أملينا فيها دروساً كبيرة؛ ما انتهت؛ لأنها بحث في خلق كل شيء بدءاً من الإنسان ومروراً بالحيوان والنبات ثم الكون، فكل شيء مخلوق في أبدع صورة وفي أدق ترتيب، وقد هُدي هذا المخلوق إما بالغريزة وإما بالفكر وإما بالكشف وإما بالإلهام ووسائل أخرى، فهُدي إلى هدفه وحاجته وسبل معاشه وعلّة وجوده[1].

فكل حيوان خلقه الله في أبدع تكوين، ثم هداه إلى طعامه وشرابه، وهدى الطائر إلى بناء عشّه وإلى رحلة طويلة ما زال العلم حتى الآن حائراً في طريقة اهتداء الطيور إلى أهدافها البعيدة، وأعطى السمكة الخلق الأكمل، ثم هداها

(١) تفسير النابلسي، (٧/ ٣٣٦).

لرحلة تقطع بها عشرات الألوف من الأميال، وكل مخلوق هداه الله إلى سبل العيش، فكيف يعيش؟ وكيف يأكل؟ وكيف يأوي إلى عشه أو إلى جحره؟ هذه هداية الله عزّ وجل، لا أن الحيوان يقوم بأفعال ذكية جدّاً من دون تعليم، وقد عبّر عنها بعض علماء الغرب بالغريزة، والغريزة هنا كلمة لا معنى لها، وإنما جهز الله الحيوان بهذه الغريزة التي هي من أعقد الأفعال، ولكنها مجهزة تجهيزاً تامّاً من دون جهد، وبأن الإنسان هو أرقى هذه المخلوقات، هداه الله إليه وأنعم عليه بنعمة الإيجاد وبنعمة الإمداد وبنعمة الإرشاد.

فمعنى ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أن الله جهز كل مخلوق ببنية وطبيعة ونفسية وأجهزة وأعضاء تناسب مهمته في الحياة، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل حيوان إلى طعامه، وهداه إلى شرابه، وهداه إلى قضاء حاجاته، وهداه إلى دوائه، فقد يُصاب الحيوان بمرض فيذهب إلى البستان يبحث عن حشيشة بعينها، فيأكلها فيشفى، وهداه إلى طريقة توالده، وهداه إلى أُنثاه، وهداه إلى كل شيء، لكنه أعطى الإنسان الفكر، وبالفكر ارتقى الإنسان، وهدى الله الإنسان إليه ليعرفه فيعبده، فعن طريق ماذا هداه إليه؟

عن طريق الكون وعن طريق الأنبياء وعن طريق الكتب وعن طريق ورثة الأنبياء الدعاة إلى الله وعن طريق المصائب وعن طريق الضيق وعن طريق الغنى وعن طريق الفقر وعن طريق المرض وعن طريق الصحة: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فهدى الله سبحانه الإنسان إلى علة خَلْقه، وهداه إلى تحقيق مهمته على وجه الأرض، وزوّده بهذا العقل الذي هو القوة الإدراكية ليهتدي به إلى الله عزّ وجل[١].

ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾:

جاء جواب موسى عليه السلام في غاية البلاغة، لاختصاره وعمق معانيه، وشموله لجميع المخلوقات، مع الإشارة إلى كثرتها وكثرة أجناسها وأنواعها

(١) تفسير النابلسي، (٧/ ٣٣٧).

وخصائصها وافتقارها إلى خالقها وبارئها جلّ وعلا، الذي أوجدها من العدم، وأمدّها بأسباب استمرار وجودها، وهداها وأرشدها، فهو رب العالمين، الواحد الأحد، الإله المستحق للعبادة والطاعة، لا إله غيره، ولا ربّ سواه جلّ وعلا، فهو جواب مُلزم ومقنع ومُفحم(١).

إذن، فالرد إلى قضية الخلق الأول دليل لا يمكن لأحد ردّه، حتى فرعون ذاته لم يدّع أنه خلق شيئاً، إنما تجبَّر وتكبَّر وادّعى الألوهية فقط على مألوه لم يخلقه، ولم يخلق نفسه ولم يخلق الملك الذي يعتزُّ به. ولما كان دليل الخلق الابتدائي هو الدليل المقنع لم يكن لفرعون ردّ عليه، لذلك لما سمع هذه المسألة ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، لم يستطع أن ينقض هذا الدليل(٢). ولابد أن فرعون قد بُهت بجواب موسى وأُفحم، فاضطر أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى(٣).

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]:

لما جاء موسى عليه السلام بدليل قاطع لإثبات الربوبية لله، خشي فرعون أن يزيد في تقرير الحجة، فيظهر للناس صدقُه وفساد طريق فرعون، فأراد أن يصرفه عما يدعوه إليه، وحاول شغله بما ليس له علاقة بما أُرسل له؛ وذلك ليلبس على الناس أن الرسول يعلم الغيب، فيسأله عن القرون الماضية ليفتح باباً للتخطئة والتكذيب بالعناد واللجاج، فقال باستفهام وتعجُّب وتعجيز: فما شأن تلك الأمم الخالية والقرون الماضية؟ ومن هو ربها؟ وكيف لم تعرفه؟ وهل هلكت دون أن تعرفه؟

وقيل: إن سؤاله أراد به التشغيب على موسى عليه السلام حتى إذا قال: إن آباءهم في النار؛ ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا مُعادين لموسى عليه السلام، سلماً لفرعون، وإذا قال هم في سلام كانت حجة لنهوض راية فرعون وصحة مسلكه(٤).

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٨٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٧).
(٤) منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين، أفنان الغماس، ص٢٤٢.

أ ـ قال ابن كثير: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟!(١)

ب ـ قال السعدي: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما شأنهم وما خبرهم؟ وكيف وصلت لهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر والظلم والعناد ولنا فيهم أسوة؟(٢)

ت ـ قال د. محمد أبو موسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾: وهذه الفاء ترتب هذا السؤال على ما قبله ترتيب زمن، وليس ترتيب حدث، و«بال القرون» يعني أخبارها وأحوالها، ودخل فرعون بذكائه في التاريخ القديم وهرب من مسألة الربوبية التي رأى فيها الخناق ضاق عليه(٣)، فكانت إجابة موسى عليه السلام منطقية عقلانية محكمة، فأحال موسى عليه السلام ذلك الغيب البعيد في الزمان والخافي عن العيان إلى ربه الذي لا يفوت علمَه شيءٌ ولا ينسى شيئاً، فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كلها، في ماضيها وفي مستقبلها، والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله(٤).

٤ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]:

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾: لأنه من الغيب المُغيَّب عني؛ فأنا عبد الله تعالى لا أعلم إلا ما علمنيه ربي جلّ وعلا.

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: علم أحوال هذه القرون مثبت في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه شؤون جميع المخلوقات.

---

(١) تفسير ابن كثير، (٥/ ٢٩١).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٩).
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٣٨٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٢.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغيب شيء من علمه سبحانه، ولا ينسى شيئاً جلّ وعلا.

وكأن موسى عليه السلام قال ذلك ليبيّن كمال علمه سبحانه، وأنه لا يحتاج إلى كتاب، ولكنّه أظهر مقدوراته التي قدرها في اللوح المحفوظ، ليُطلِع عليها من شاء من الملائكة الموكَّلين بتصريف شؤون المخلوقات(١).

قال د. محمد أبو موسى في تفسيره للآية: وهذا يعني العلم البالغ الدقة الذي لم يفلت منه شيء؛ ولم يضل منه حدث قلّ أو كثر، ثم هو سبحانه بعد الإحاطة الدقيقة بكل صغيرة وكبيرة من علم القرون الأولى لا ينسى سبحانه شيئاً(٢)، إن الآية الكريمة تدل على قيوميّة الله على خلقه، وتدل على نفي الضلال والنسيان عنه سبحانه(٣).

وبعد هذه الإجابة الدامغة من موسى لفرعون استطرد عليه السلام في عرض آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان، فاختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزروع والأنعام(٤).

٥ ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]:

أ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾: الأرض كلها مهدٌ للبشر في كل زمان ومكان، مهد كمهد الطفل، وما البشر إلا أطفال هذه الأرض يضمُّهم حضنها ويُغذِّيهم دَرُّها، وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة(٥).

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٧).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٣٨٣.
(٣) قضايا العقدية في سورة طه: دراسة مقارنة بين السلف والمتكلمين، همام مصطفى الزق، مرجع سابق، ص٣٥.
(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٨).
(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٣٩).

فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: سوّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها، وليس معنى مهّدها جعلها مستوية، إنّما سوّاها لمهمتها، وإلا ففي الأرض جبال ووديان ومرتفعات، ودونها لا يستقيم لنا العيش عليها، سواء بالاستواء أو التعرُّج أو الارتفاع أو الانخفاض(١).

وهذا يدل على كمال قدرة الله واستحقاقه للعبادة وحده دون غيره، فهي من النعم العظيمة على بني آدم(٢).

وقد ذكر الله عزّ وجل جَعْلَه الأرض مهداً في آيات عديدة، مع الاستدلال بها على أنه المعبود وحده في مواضع كثيرة من كتابه:

كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٠].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد: ٣].

والآيات بمثل ذلك كثيرة(٣).

ب ـ ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: نفَّذ لكم الطرق الموصولة من أرض إلى أرض ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكَّنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم(٤).

ت ـ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: وهذا من مسألة

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٩٠).
(٢) أضواء البيان، (٤/ ٢١ ـ ٢٤).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ٢١ ـ ٢٤).
(٤) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٢٩).

الخلق التي لا يدَّعيها أحد، لأنها دعوى مردودة على مدَّعيها، فأنتَ يا من تدَّعي الألوهية أخرِجْ لنا شيئاً من ذلك، أرنا نوعاً من النبات، فلن يقدر، وبذلك لزمته الحجة[١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: وهو ماء المطر المنزل من السحاب في جهة السماء[٢]، ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض، ومنها نهر النيل القريب من فرعون[٣].

﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ أي: فأخرج الله تعالى بماء المطر أصنافاً من نباتات كثيرة مختلفة في أشكالها وألوانها وطعمها وروائحها، فالخالق هو الله تعالى وحده، ولهذا انتقلت صفة الكلام من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم، ويدل هذا على الالتفات من الغيبة إلى التكلم على تعظيم شأن إنبات النبات، فهو ظاهرة كبيرة تدل على عظمة الخالق سبحانه، كما تدل على سعة فضله وإحسانه على الناس، فلولا أن الله سبحانه أنزل المطر وأخرج الثمر لهلك الناس جوعاً وعطشاً[٤].

ودلَّ قولُه: ﴿أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ على حقيقة علمية ما عرفها الناس إلا في العصور الحديثة، وهي الزوجية في النبات، وانقسامها إلى زوج مذكر، وزوج مؤنث، فقوله: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: أصنافاً، سُمِّيت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض[٥].

وجاء الخبر عن هذه الحقيقة في عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

وقوله عزّ وجل أيضاً: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]، وذكرت بعض الآيات أن الزوجية موجودة في جميع المخلوقات،

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٩١).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٨).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٣٣٩).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٩).
(٥) تفسير البيضاوي، (٤/ ٢٠٢).

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالذكورة والأنوثة والسالب والموجب، وانقسام المخلوقات إلى صنفين متكاملين يكمّل كل صنف الصنف الآخر الذي يقابله، ظاهرة مبثوثة في جميع المخلوقات، وتدل على حدوثها ونقصها وافتقارها، أما الخالق فهو واحد أحد فرد صمد قوي قاهر، حيّ قيوم، غنيّ عن كل شيء، وكل الأشياء تقوم به وتفتقر إليه جلّ وعلا[١].

ولو ضربنا مثلاً برجل انقطعت به السبل في صحراء دويّة لا يجد فيه ماء ولا طعاماً، حتى أشرف على الهلاك، ثم غلبه النوم فنام، فلما استيقظ إذا بمائدة عليها ألوان الطعام والشراب، بالله قبل أن يمد يده للطعام ألا يسأل: من أتى إليَّ به؟ وهكذا الإنسان طرأ على كون مُعَدّ لاستقباله: أرض وسماء، وشمس وقمر، وزرع ومياه وهواء، أليس جديراً به أن يسأل: من الذي خلق هذا الكون البديع؟ فلو تذكَّرتَ ما طرأت عليه من الخير في الدنيا لانتهيت إلى الإيمان[٢].

وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب إلا أيقن بوجود الخالق الحكيم العليم القدير، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى للناس دلائل وجوده وفضله وإحسانه، وجّه الخطاب لهم بأسلوب المتفضل المُحسن[٣].

٦ ـ قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]:

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ فقد خلق الله سبحانه طعامكم وطعام أنعامكم، والأمر هنا للإباحة، ولا يخفى ما فيه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المُنعم

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٧٩).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٩).

وحده للعبادة والطاعة، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر في الآية.

﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: براهين ودلائل ينتفع بها أصحاب العقول الناهية عن اتباع الباطل وعبادة غير خالقها ورازقها جلّ وعلا، فالتفكير والنظر سبيل الإيمان بالله تعالى ووحدانيته[١].

أ ـ قال السعدي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول الرزينة والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود المالك المحمود، الذي لا يستحقّ العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتنَّ بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٠].

وخص الله أولي النُّهى بذلك لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظُّهم حظُّ البهائم يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية وأجسامهم مُعرِضة: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥][٢].

ب ـ قال ابن عطية: انظر إلى هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام، هي مما تقضي بداهة العقول أن فرعون وكل بشر بعيد منها، لأنه لو قال هو القادر الرازق المريد العالم ونحو هذا من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط فيقول أنا أفعل هذا كله، فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكنه أن يقول إن ذلك له[٣].

ت ـ قال محمد متولي الشعراوي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦٠).

(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٠).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م، (٤/ ٤٨).

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، آيات: عجائب، والنهى: جمع نُهية مثل قُرَب جمع قُربة، والنُّهى: العقول: وقد سماها الله تعالى أيضاً الألباب، وبها تتم عملية التدبير في الاختبارات. والعقل من العقال الذي تَعقِل به الدابة حتى لا تشرد منك. وكذلك العقل لم يُخلق لك كي تشطح به كما تحب، إنما لتعقل به غرائزك وتُحكمها على قدر مهمتها في حياتك، وسمِّيت العقول كذلك النّهى، لأنها تَنهى عن مثل هذه الشطحات.

إذن، فلا بد للإنسان من عقل يَعقِلُ غرائزَه، حتى لا تتعدى المهمة التي جُعلت لها، ويوقفها عند حدها المطلوب منها، وإلا انطلقت وعربدت في الكون، فلابدّ للإنسان من نُهية تنهاه، وتقول له: لا لشهوات النفس وأهوائها، وإلا فكيف تطلق العنان لشهواتك ولست وحدك في الكون، وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم؟

وسُمّي العقل لُبّاً ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها، ولتكون أبعد نظراً وأعمق فكراً في الأمور[1].

٧ ـ قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]:

نلحظ هنا أن موسى عليه السلام يعرض على فرعون قضايا لا تخص فرعون وحده، وإنما تمنع أن يوجد فرعون آخر، وقوله: ﴿۞ مِنْهَا...﴾ أي: من الأرض التي سبق أن قال عنها: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاثاً: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، وفي آية أخرى يذكر مرحلة رابعة، فيقول: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، بذلك تكون المراحل أربعة:

- ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾.
- ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾.
- وإليها ترجعون بالموت.
- ومنها نخرجكم بالبعث.

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٩٦).

فقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥]؛ الخلق قسمان: خلق أولي وخلق ثانوي.

الخلق الأولي: في آدم عليه السلامُ، وقد خُلق من طين أي من الأرض، ثم الخلق الثاني: وجاء من التناسل، وإذا كان الخلق الأولي من طين فكل ما ينشأ عنه يعدّ كذلك، لأنه الأصل الأول، ويمكن أن نوجه الكلام توجيهاً آخر فنقول: التناسل يتولد من نِطاف الذكورة وبويضات الأنوثة، وهذه في الأصل من الطعام والشراب، وأصله أيضاً من الأرض.

ومن ثم، فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة، وإن قضية الخلق قضية غيبية، فقد ترك الخالق في كونه عقولاً تبحث وتنظر في الكون وتعطينا الدليل على صدق هذه القضية، فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً تبدأ بالأكسجين، وتنتهي بالمنغنيز، وحين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها العناصر الستة عشر نفسها، ليُثبتوا بذلك البحث التحليلي صدق قضية الخلق التي أخبر عنها الخالق عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وهذه مرحلة مشاهدة، فكل من يموت منا ندفنه في الأرض[(١)].

وبعد أن يموت الإنسان لا يُسارع إلى مواراته في التراب إلا أقربُ الناس إليه، فترى المرأة التي مات وحيدُها وأحبُّ الناس إليها، والتي كانت لا تُطيق فراقه ليلة واحدة، لا تطيق وجوده الآن، بل تسارع فيه إلى أمه الأصلية «الأرض»، وذلك لأن الجسد بعد أن فارقته الروح سرعان ما يتحول إلى جيفة لا تُطاق حتى من أمه وأقرب الناس إليه، أما الأرض فإنها تحتضنه وتمتص كل ما فيه من أذى.

ومن العجائب في نقض بنية الإنسان بالموت، أنها تتم على عكس بنائه،

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٩٨).

فعندما تكلم الخالق عزّ وجل عن الخلق الأول للإنسان قال: إنه خُلق من تراب، ومن طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وقلنا: إن هذه كلها أطوار للمادة الواحدة، ثم بعد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح، فتدبّ فيه الحياة، فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب، كما أنك لو بنيت عمارة من عدة أدوار، فآخر الأدوار بناءً أولُها، وكذلك الموت بالنسبة للإنسان يبدأ بنزع الروح التي وُضعت فيه آخراً، ثم يتصلب الجسد كالصلصال، ثم يرمّ وينتن كالحمأ المسنون، ثم يتبخَّر ما فيه من ماء وتتحلل باقي العناصر فتصير إلى التراب[١].

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] أي مرة أخرى بالبعث يوم القيامة، وهذا الإخراج له نظام خاص يختلف عن الإخراج الأول؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح، ثم يكتمل بإعادة الجسد. هذه كلها قضايا كونية تُلقى على فرعون علّها تُثنيه عما هو عليه من ادّعاء الألوهية، والألوهية تقتضي مألوهاً، فالإله معبود له عابد فكيف يدّعي الألوهية؟! وليس في الربوبية شيء يستحقّ الألوهية والعبادة إلا من له الربوبية أولاً[٢]، ثم يقول سبحانه:

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي: فرعون.

﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: كل المعجزات الدالة على صدق رسالة موسى وصحة نبوته[٣].

وهي الآيات التسع التي جعلها الله تعالى حُجة لموسى وهارون، ودليلاً على صدقهما كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وهي العصا واليد والطوفان والقُمَّل والضفادع والدم والسنين والنقص

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٢٩٨).
(٢) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٢٩٩).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦١).

في الثمرات، تلك هي الآيات التي أراها الله لفرعون، والكلية في قوله: ﴿أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا . . .﴾ [طه: ٥٦] أي: كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك: «لقد أحضرت لك كل شيء»، وليس المقصود أنك أتيت له بكل ما في الوجود، وإنما هي كلية إضافية تعني كل شيء تحتاج إليه.

ومع ذلك كانت النتيجة: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]، وكذّب: يعني نسبها إلى الكذب، والكذب قول لا واقع له، وكان تكذيبه لموسى علّة إبائه: ﴿وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]، امتنع عن الإيمان بما جاء به موسى. ولو ناقشنا فرعون في تكذيبه لموسى عندما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]: لماذا كذَّبتَ يا فرعون؟

الحق سبحانه قال: خلقتُ هذا الكون بما فيه، ولم يأت أحد لينقض هذا القول، أو يدّعيه لنفسه حتى أنت يا من ادّعيت الألوهية لم تدّع خلق شيء، فهي إذن قضية مسلّم بها للخالق عزّ وجل لم ينازعه فيها أحد، فأنت ـ إذن ـ كاذب في تكذيبك لموسى، وفي إبائك الإيمان به[1].

وردّ فرعون على موسى متهماً له بأنه يطمع في الحكم والسلطان، وأنه أتى ينازع فرعون في سلطانه على أرضه وشعبه، وأما المعجزات التي أيده الله تعالى بها فليست سوى عمل من أعمال السحرة[2].

٩ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧]:

لم يمض فرعون في الجدل؛ لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة، وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون، ومن آياته التي تتصل في سيرته، فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وهو سؤال استنكار ومعناه: ما جئتنا نبيّاً هادياً، إنما جئتنا تُريد لنفسك الحكم والسلطان، فتخرجنا بسحرك من ديارنا وتغلبنا عليها، وهي الحجة نفسها التي يحتج بها كل الطغاة والظالمين في جميع

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٠١).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦١).

العصور، يتهمون كل داعية ومصلح ومعارض لطغيانهم وظلمهم بأنه يريد الحكم والسلطان لنفسه، وأنه لا يريد إصلاحاً ولا عدلاً.

إذن، إن دعوة موسى في نظر فرعون دعوة سياسية، بحسب الاصطلاح الدارج في العصر الحاضر، وقد يكون بين الدعاة المصلحين من يتطلع إلى الدنيا ورتبها ومراتبها وزخرفها وزينتها، ويَكثر هذا في عصور الفتن كما أخبر ﷺ[١]. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فِتَناً كقِطَع الليل المظلم، يُصبح الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا قليلٍ»[٢]، وقوله: «بادروا» أي: سارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل تعذّرها والانشغال عنها بالفتن الحادثة[٣]، ولكن الأنبياء عليهم السلام لا يكون منهم شيء من هذا أبداً، فدعوتهم مُنزَّهة عن جميع الأغراض الدنيوية، وهي خالصة لله تعالى، فهم المعصومون بعصمة الله تعالى لهم، وهو سبحانه الذي اصطفاهم واختارهم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد مرّ معنا:

قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ [طه: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

وأراد فرعون أن يقوّي تُهمتَه لموسى ويُعزِّزها فقال على سبيل التحدي[٤]:

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨].

فسمّى فرعون ما جاء به سحراً، ولذلك قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ...﴾ [طه: ٥٨]، وهذه التسمية خاطئة في حق موسى، وإن كانت صحيحة بالنسبة لقوم

---

(١) التفسير الموضوعي، المصدر نفسه، (٥/ ٢٦١).
(٢) مسلم، رقم ١٨٦.
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦٢).
(٤) المصدر نفسه، (٥/ ٢٦٢).

فرعون، فما الفرق ـ إذن ـ بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون؟ السحر لا يقلب حقيقة الشيء بل يظل الشيء على حقيقته، ويكون السحر للرائي، فيرى الأشياء على غير حقيقتها، كما:

قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فلما ألقى السحرة حبالهم كانت حبالاً في الحقيقة، وإن رآها الناظر حيّات وثعابين تسعى، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية بدليل أنه لما رآها كذلك خاف.

وقوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ [طه: ٥٨] أي: نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا.

﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾ أي: مستوياً؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً، بحيث لا تُحجب الرؤية عن أحد، أو ﴿سُوٗى﴾ يعني: سواء بالنسبة لنا ولك، كما نقول: نلتقي في منتصف الطريق، لا أنا أتعب ولا أنت[١].

﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾: الذي يستوي الجميع في معرفته[٢]، ولم يُقبل فرعون على تحدي موسى مباشرة، بل رجع أولاً إلى أعوانه ومستشاريه كما دلت على ذلك الآيات في سورة الشعراء، قال تعالى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٣٤ـ٣٧][٣].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٩]:

قَبِلَ موسى عليه السلام تحدِّيَ فرعون له، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة.

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٠٣).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦٢).
(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٢٦٣).

﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ ﴾؛ طلب أن يُحشَر الناس ضحىً، وذلك ليكون المكان مكشوفاً والوقت ضاحياً، فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمُّعاً في يوم العيد، لا في الصباح الباكر، حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية، وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان في الميدان[١].

إن موسى عليه السلام لم يخش من تحشيد فرعون للسحرة؛ لأنه كان على يقين أنه على الحق المبين، وكان حريصاً أن يرى أكبر عدد ممكن من الناس أحداث المناظرة بين الحق والباطل، وتجلَّى حرصُه في الآتي:

- اختيار يوم عيد «يوم الزينة»؛ حيث يتفرَّغ الناس للمباراة.
- اختيار مكان سَوِيٍّ واسع بارز ليشاهد الجميع المباراة.
- اختيار وقت المباراة في ضحى النهار ليشاهد الناس المباراة بعيونهم، فيُحسنوا الحكم على ما يجري فيها، حريصاً على هداية الناس وهزيمة الباطل وانتصار الحق، ووصوله إلى عقولهم وقلوبهم[٢].

لقد كانت الطريقة التي تعامل معها موسى عليه السلام في قبول التحدي صائبة، وجعلت دعوته ومواجهته لفرعون وتحديه للسحرة حديث الناس في بيوتهم ومجالسهم، وأصبحوا ينتظرون يوم الزينة، وبذلك نجح موسى عليه السلام في نقل دعوته من حوار خاص مع فرعون بين جدران ضيقة وخلف أبواب مغلقة إلى مكان واسع سُوى، وتحويلها إلى حدث شعبي يهم الناس كلهم، ويحرصون على متابعة مشاهده المتلاحقة، وهذا من حكمة موسى في الدعوة إلى الله[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٠).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٣٩).
(٣) القصص القرآني، المصدر نفسه، (٢/ ٤٤٠).

وهنا يُسدل الستار ليُرفع على مشهد المنازلة.

سابعاً: قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٠ ـ ٧٠]:

تفسير الآيات:

١ ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٠]:

يحمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة، وما فكر فيه وما دبَّر هو ومستشاروه يُجمع في جملة ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾، وتُصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون، وجمع كيده، والإتيان به[1].

أ ـ قال العلاّمة محمد متولي الشعراوي: تولى: أي: ترك موسى وانصرف ليُدبر شأنه: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠]، والكيد: التدبير الخفي للخصم، والتدبير الخفيّ هنا ليس دليل قوة، بل دليل ضعف؛ لأنه لا قوة له على المجابهة الواضحة مثل الذي يدسّ السمّ للآخر لعدم قدرته على مواجهته.

إذن: الكيد دليل ضعف؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء: ﴿إِنَّ

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤١).

﴿كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة، إنما دليل على ضعفها فكما أن كيدهن عظيم فكذلك ضعفهن عظيم، فمعنى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: ٦٠]: أدار فكره على ألوان الكيد المختلفة، ليختار منها ما هو أنكى لخصْمه، كما جاء في آية أخرى في شأن نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ [يونس: ٧١].

وكأن الأمر الذي هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة: نفعل كذا أو نفعل كذا؟ ثم ينتهي من هذه المشاورة إلى رأي يجمع كل الاحتمالات بحيث لا يفاجئه شيء بعد أن احتاط لكل الوجوه، فالمعنى: اتفِقوا على الخطة الواضحة التي تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف[1].

ب ـ قال العلاّمة السعدي: في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أي: جميع ما يقدر عليه مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر حينذاك متوفراً وعلمه مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، اجتمع الناس للموعد، فكان الجمع حافلاً؛ حضره الرجال والنساء والملأ والأشراف والعوام والصغار والكبار، وحضّوا الناس على الاجتماع[2].

إن فرعون جمع أسباب مكره واحتياله، وأخذ يُشجِّع السحرة ويعدهم بالوعود البراقة، ويُمنِّيهم الأماني الخلابة، قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ـ٤٢]، ووقف موسى عليه السلام في وسط الميدان حاملاً عصاه في مواجهة عدد كبير من السحرة الحاملين حبالهم وعصيّهم ووسائل سحرهم، ووجّه موسى عليه السلام قبل بدء المبارزة الدعوة إلى السحرة،

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٠٥).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٢).

وبلّغهم الرسالة التي كلفه الله تعالى بتبليغها، ثم حذّرهم من عذاب الله وغضبه إذا أصروا على الوقوف بجانب الطاغية ومساعدته في طغيانه وظلمه[1].

٢ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]:

لما نظر موسى إلى الحشد الكبير لم يفقد ثباته وهدوءه، واستشعر أن الله معه بحفظه وتأييده، وأنه يسمع ويرى كل ما يجري، فازداد إيماناً ويقيناً وتصميماً على المواجهة وقبول المناظرة والتحدي، وتصرَّف موسى مع هذا الحشد الكبير بحكمةٍ وفطنة، وأراد أن يشن عليهم حرباً نفسية قبل بدء المعركة، بحيث يزعزع كيانهم ويهزُّ ثقتهم بأنفسهم ويضعف معنوياتهم، فأقبل على السحرة المتجمعين قائلاً: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

﴿وَيْلَكُمْ﴾؛ إنها كلمة ذم وتوبيخ من موسى للسحرة، وكأنه يقول لهم: وَيلكم وَيحكم، لماذا أنتم هنا؟ وماذا تريدون أن تفعلوا؟ ولماذا استجبتم لدعوة فرعون؟ ألا تفكرون فيما أنتم مُقدِمون عليه؟

﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: وهذه إدانة مباشرة لهم، يقول لهم: أنتم هنا مفترون كاذبون على الله، محاربون لدينه، وأنا لكم ناصح أمين، لا تفتروا على الله كذباً، ولا تحاربوا دينه ولا تستجيبوا لعدوه فرعون.

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾؛ معنى «يسحت»: يُهلك ويُدمِّر، أي: إن الله لكم بالمرصاد، فإن أصررتم على موقفكم ولم تستمعوا لنصيحتي، وافتريتم على الله كذباً، فإن الله سيَصبُّ عليكم عذابه فيهلككم ويدمركم ويقضي عليكم، ولا يستطيع فرعون أن ينصركم ويدفع عنكم عذاب الله.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾؛ كل من افترى على الله كذباً، فإن نهايته هي الخيبة والخسارة، وهذه سنة ربانية ثابتة، وتنطبق على البشر في كل زمان ومكان،

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦٣).

ولا يفلت منها كاذب مُفتَرٍ، وكأن موسى بهذا يحكم على جهودهم، ويستبق الأحداث، ويذكر لهم نهاية المباراة، فهم مهزومون فيها لأنهم كاذبون مفترون على الله، وقد خاب من افترى، فلماذا يتحدّون موسى ويحاربونه؟ لقد هزت كلمات موسى عليه السلام السحرة هزًّا عنيفاً، وشكَّكتهم في جهودهم، وأضعفت هِمَمهم وإرادتهم، وحقَّقت كلماته مفعولها فيهم بدليل اختلافهم وتنازعهم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ [طه: ٦٢]:

الفاء للسببية؛ يعني بسبب ذلك القول الرهيب لمست كلمات موسى اليقينية قلوبهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، وخافوا عذاب الله، وعزفوا عن الاشتراك في المباراة، ورغبوا في عدم مواجهة موسى. هذا القسم الأول، وأما القسم الثاني: فأصروا على موقفهم ورغبوا في الاستمرار في المواجهة حتى النهاية، ويُعتبر انقسام السحرة إلى قسمين، وهم مدعومون من كل رجال ومرافق وإمكانات الدولة، نجاحاً لموسى، وشهادة بحكمته عليه السلام، ولقد واجه الجبهة المعادية له، وهي بهذا التنازع والتشكُّك والانقسام[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾؛ أي بالغوا في إسرار مناجاتهم؛ لأن المناجاة ذاتها إسرار، ومعنى إسرارها؛ المبالغة فيها، بحيث لا يستطيع أحد أن يَطَّلع عليهم، ولا يعرف ما أسرُّوه وتناجَوا به[٢].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾: تحدّثوا سرّاً، وهذا يؤكد خوفهم من كلام موسى، ودليل ما فيهم من استعداد للخير، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار في الشوط إلى آخره[٣].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]:

هكذا تنزل الكلمة الصادقة الصادرة عن العقيدة الحقة؛ تنزل كالقذيفة في

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٤٣).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٤٥).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٠٦).

معسكر المبطلين وصفوفهم، فيتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم وفيما هم عليه من عقيدة وفكرة، وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع، وموسى وأخوه رجلان اثنان، والسحرة كثيرون، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله، ولكن موسى وهارون كان معهما ربُّهما يسمع ويرى، ولعل هذا هو الذي يُفسِّر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون، فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحدَّاهما فرعون ويقبل تحديهما ويجمع كيده، ثم يأتي ويحشر السحرة ويجمع الناس ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟!

وكيف قبلَ فرعون أن يجادله موسى ويطاوله؟ وموسى فردٌ من بني إسرائيل المستعبدين الضعفاء تحت قهره؟ هنا الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى، وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة تُوقع الارتباك في صفوف السحرة المدبرين، فتُحوِجُهم إلى التناجي سرّاً، وإلى تجسيم الخطر واستثارة الهمم، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾؛ الطريقة المثلى هي نظام فرعون في سياسته مع قومه ومع بني إسرائيل، وفي سياسته الخارجية مع الأعداء الذين يغيرون على البلاد من الشرق والغرب والجنوب، وأسأل هل من الطريقة المثلى أن يُذبِّح أبناء بني إسرائيل ويَستحيي نساءهم وأن يعذب الباقي؟ وهل يمكن أن يكون الذين قالوا هذا من بني إسرائيل؟ ليس عندي جواب، وإنما هو السؤال، والسؤال نصف العلم، وإن كان عندك جواب فهو النصف الآخر، ولاحظ كيف اتفقوا بعدما تنازعوا[2].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]:

الفاء للسببية، أي بسبب أنهم أرادوا بسحرهم أن يُخرجوكم من أرضكم،

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤١).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٣٩٤.

ويذهبا بطريقتكم المثلى، وهو أمر جامع متفق عليه، فأجمعوا كيدكم أي: اعتزموا وأقدموا مجتمعين غير متفرقين، وائتوا إلى موسى صفاً، لا خلل فيه ولا افتراق ولا تنازع. واتَّفقوا على أمور ثلاثة:

أولها: إجماع كيدهم وهو تدبيرهم، ادخلوا الحومة مُجمِعين على تدبير واحد غير متفرقين، فإن الإجماع وحده قوة، والفرقة ضعف وعجز، ولا تنازعوا فتفشلوا.

وثانيها: أن يأتوا موسى صفّاً واحداً لا ثلمة فيه ولا افتراق، فإن ذلك يزرع في نفسه الهيبة منكم، قالوا ذلك وكأنهم مُقدِمون على ميدان قتال.

وثالثها: أنهم اتفقوا راغبين في الاستعلاء وأخذ الأجر من فرعون والاستعلاء بعزته الفرعونية وكبريائه الغاشمة، ولذا قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: فاز برضا فرعون من استعلى على خصمه، والسين والتاء للطلب، أي طلب العلو فعلاً، وهذا حث على أن يُشمِّروا عن ساعد الجد ليفوزوا برضا فرعون، ويستعلوا عنده باستعلائهم بالانتصار في هذا الميدان السحري[1].

يرى الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ وأولها كلمة (ثم) التي تدل على أن ما بعدها لا يتم إلا بالتريُّث والتمهُّل وهو ترتيب الجماعة الأول، فالأَولى تمييز الخبرة ووضعها في الصف الموضع الأنفع، ومن ثم هذا الإيجاز الذي لا يمكن أن يكون في معناه أو جزء منه مع الوفاء بالمعنى، فهم يأتون إلى المكان السُّوى وهم مُنظَّمون، مُصطفُّون صفّاً واحداً، وكلمة ﴿صَفًّا﴾ حال أي حالة كونكم صفّاً، وصاحب الحال هو ضمير الجماعة في قولهم ﴿ٱئْتُوا۟﴾ ولما بدؤوا كلامهم بما يستفز طاقتهم، وذلك قولهم «فأجمعوا كيدكم»، ختموه بما يستفز هذه الطاقة أكثر وهو قولهم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ فهذا يومكم، واحرصوا على فلاحكم، ولن تفلحوا إلا بالمهارة والتفوق والوعي واليقظة[2].

ويبدو أن السحرة غُيبوا عن الواقع الذي كان بين موسى وفرعون، وما حدث

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٤٨).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٣٩٥.

من إقامة الحجة الدامغة على فرعون من قبل موسى، ولم يستطع فرعون الرد على كلمة واحدة من كلام موسى عليه السلام، وقد استطاع فرعون تغييب الحقيقة، ولم ينقل إليهم إلا قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، وقد جاؤوا وهم مُعبَّؤون بما يريد فرعون أن يُعبَّؤوا به[1]، ومنها قولهم ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ طريقتهم المثلى أي: ما ارتضاه القوم للعيش عليه، والمذهب والطريق الذي سلكوه، والمراد بالطريقة المثلى التي ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمره وتلك هي الطريقة المثلى[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾؛ هم الآن يبدؤون المواجهة مع موسى عليه السلام، وهم صف متماسك، وهو وحده، ونداؤهم لموسى عليه السلام بحرف النداء الذي للبعيد، وهم في حضرته إشارة إلى شدة عنايتهم ببداية المواجهة التي لم يتركوا شيئاً يورث النجاح إلا فعلوه، وهم رجال فرعون يكررون ما يقول، ويؤمنون بالذي يريد إيمانهم به وهو ما يقول، ويخفي عنهم الذي لا يريد أن يشغل نفوسهم[3].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]:

بادروه باسمه توددًا له كما تودَّد من قبلُ فرعون، ولأنه كان عندهم من بيت فرعون من قبل، فله مكانته في نفوسهم الفرعونية، وحسن أدب منهم، لأن نفوسهم أدركت الحقيقة وإن لم تدخلها، ولذا تنازعوا فيها وخاطبوه بأدب فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] أي اختر لنفسك أحد الأمرين؛ إما أن تُلقي أنت عصاك التي في يدك، وإما أن نكون أول من ألقى، وقد قابل موسى الكليم أدبهم بكرمه، وقد لمح في كلامهم بصريح القول أنهم يريدون أن يبدؤوا، إذ قالوا في تخييره: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ فنفَّذ رغبتهم

(١) من حديث يوسف وموسى، المصدر السابق، ص٣٩٤.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٠٩).
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٣٩٦.

المطلوبة في عباراتهم، ولأنه يريد أن يعرف ما عندهم قبل أن يعرفوا ما عنده، ولأن الترتيب الذي ألهمه الله تعالى به أنها ستلقف ما يُلقون، فكان الترتيب الطبيعي أن يُلقوا هم أولاً[١].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]:

قَبِلَ التحدي، وترك لهم فرصة البدء، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة[٢]، ألقَوا حبالهم وعصيهم، وهم يرفعون أصواتهم يشيدون بفرعون تزلُّفاً وتقرُّباً كما ذكر سبحانه في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

وامتلأت ساحة الميدان بالحبال والعصي، وتمكن السحرة من جعل الناس يتخيلون أنها تتحرك، فالسحر الذي صنعوه أثَّر في أعين الناس، فأصبحوا يتخيَّلون أن الحبال والعصي تتحرك وتسعى، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أنهم أثَّروا في أعين المشاهدين عن طريق الإيهام والتأثير، فخطفوا أبصارهم وخلخلوا مقاييس الرؤية فيها فصارت ترى أشياء حية، وهي ليست حية، وأصيبت أعينهم بعمى الألوان، فرأت لسحرهم حقيقة وواقعاً، أي أنها رأت حبالهم وعصيهم أفاعي وثعابين ضخمة تتحرك وتسعى، مع أنها ليست كذلك في الواقع، وما هي إلا حبال وعصيّ جامدة ساكنة.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: مبالغة في الرهبة التي قذفوها في قلوب المشاهدين الذين كانوا في حالة نفسية خائفة قلقة متأثرة بالسحر، منفعلة بالسحر، وكان الناس في الماضي ينظرون للسحرة نظرة خاصة، تقوم على الخوف والرهبة، ويؤمنون

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٤٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٢).

بالسحر إيماناً كبيراً، وبأن لأصحابه القدرة على تغيير الحقائق وفعل كل ما يُريدون، والهمزة والسين والتاء في ﴿اسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: تدل على التأكيد، وتُثبت إرهاب السحرة للمشاهدين، إن «استرهاب» السحرة للمشاهدين هو السبب في تأثرهم النفسي، ثم في تفاعل واستجابة أعينهم لسحرهم، ورؤيتها الأمور على غير ما هي عليه، ورؤيتها الحبال والعصيّ ثعابين وأفاعي تسعى، ولولا الاسترهاب النفسي لما سحرت عيون المشاهدين.

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: هذه جملة تعليل للرهبة العظيمة التي أصابت الناس، فقد شاهدوا سحراً عظيماً كبيراً ضخماً قدّمه السحرة أمامهم[1]، والتنكير في ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ للتهويل والتضخيم، ويكفينا وصف الله له بأنه سحر عظيم لنتصور مدى عظمته وضخامته وكثرته، لأنه نتيجة كل ما جمعوه وأعدّوه وحشدوه ومكروا به، حيث وظّفوا كل ما يقدرون عليه من الأدوات والأساليب، وجنَّدوا كل ما عندهم من قدرات وكفاءات، لم يتركوا من ذلك شيئاً، وكانت النتيجة سحراً عظيماً، وهذا السحر العظيم هو السبب في استرهاب الناس وتأثرهم وانفعالهم النفسي بما هو أمامهم، وهذا الاسترهاب قاد إلى سَحْر أعينهم، واختلال الرؤية فيها، ورؤيتها الجامد الساكن ثعباناً حيّاً متحركاً[2].

ومما يدل على أن سحر السحرة في تلك المبادرة كان تخييلاً وخداعاً، وليست له حقيقة واقعية، هو ما ذكرته هذه الآية الكريمة من أن موسى عليه السلام نفسه تخيل أن حبالهم وعصيّهم أفاعٍ تسعى!

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: الضمير في ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعود على موسى عليه السلام، والفعل ﴿يُخَيَّلُ﴾ مضارع مسند لغير الفاعل، وفاعله محذوف وتقدير الفاعل: فإذا سِحرُهم يُخيَّل لموسى أن حبالهم وعصيّهم أفاعٍ تسعى، وليست مجرد حبال وعصيّ.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٤٩).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٤٩).

والخلاصة أن السحر الذي قدّمه السحرة في تلك المباراة، من خلال الحبال والعصي، كان من باب التخييل والخداع، وليس له رصيد من الواقع، فكان ما معهم حبالاً وعصيّاً حقيقة مادية جامدة، وبقيت هكذا حتى لما ألقوها لم تتغيَّر، فهي حبال وعصيّ، لكن المشاهدين تخيلوها أفاعيَ، حتى موسى عليه السلام تخيَّلها أفاعيَ تسعى[١].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]:

والتوجُّس لا يكون إلا مقترناً بالخوف، وهو يكون في النفس، فهو حالة نفسية شعورية، وإذا تعمقَت في النفوس والشعور أدّت إلى الخوف، والذي ينتج عنه التخلي والترك للفعل، قال الإمام الراغب عن التوجُّس: «الوجس»: الصوت الخفي، والتوجُّس: التسمّع، والإيجاس: وجود ذلك في النفس، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قالوا: الوجس هو حالة تحصل في النفس بعد الهاجس، لأن الهاجس مبتدأ التفكير، ثم يكون الواجس، ثم الخاطر[٢].

فالتوجُّس مبني على الهاجس، وهو نداء نفسي خفي، ووسواس نفسي داخلي، يكون بسبب مرور الإنسان بحالة معينة، لقد أوجس موسى خيفة في نفسه، ومن دقة التعبير القرآني أنه عبّر عن توجُّسه بكلمة ﴿خِيفَةً﴾، وليس بكلمة «خوف»، وفرق بين الخوف والخيفة.

قال الراغب: الخوف: توقُّع مكروه عن أمارة مضمونة أو معلومة، والخيفة: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨]، فالتعبير عن الحالة العرضية التي مرت بموسى عليه السلام بكلمة ﴿خِيفَةً﴾ بدل «خوف»، وتعيين هذه الحالة بأنها كانت في نفسه، يشير إلى أنها كانت حالة نفسية عرضية سريعة، سرعان ما زالت

---

(١) المصدر نفسه، (٢/ ٤٥١).
(٢) المفردات، ص٨٥٥.

وتلاشت، وحل محلَّها يقينُه وثقته بالله وثباته. وهذا التوجُّس النفسي لم يُؤثِّر على موقفه وتحديه، ولم يتحوَّل إلى «خوف» وجودي يُنتِج آثاراً عملية سيئة، ومن ثم فإن هذه الخيفة النفسية سرعان ما زالت عندما تدارك الله موسى وعافاه منها(١).

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]:

لا تخف يا موسى من سِحرهم وحِبالهم وعِصِيِّهم، ولا تخف من كيدهم وحشدهم، ولا تخف من اعتزازهم بفرعون المتكبر المستعلي ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾؛ الأعلى من الحاضرين، والأعلى من السحرة المتآمرين، والأعلى من الملأ الموجودين، والأعلى من فرعون نفسه المستكبر المنتفش أمامك، وأنت الأعلى من كل من أمامك. ومن معك هو الأعلى من كل ما هو معهم، أنت الأعلى بالحق الذي معك مقابل الباطل الذي معهم، وأنت الأعلى بالإيمان الذي معك مقابل الكفر الذي معهم، وأنت الأعلى باليقين الذي معك مقابل الشك والتنازع الذي معهم، وقبل هذا أنت الأعلى لاتصالك بالله رب العالمين الأعلى، واعتمادك عليه، مقابل اتصالهم هم بفرعون واعتزازهم، فماذا يساوي فرعونهم الأدنى أمام ربك الأعلى الذي معك يسمع ويرى؟

لهذا لا تخف يا موسى، فإنك أنت الأعلى، زالت خيفة موسى عليه السلام السريعة، وحلّ محلها يقينه بأنه هو الأعلى، وعاش موسى لحظتها حالة مُتألِّقة مُتوهِّجة من استعلاء الإيمان، ونظر من علو نفس متألق إلى مَنْ حوله، من فرعون وملئه وجنوده وأتباعه وسحرته، فإذا به يراهم أقزاماً ويرى نفسه ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ منهم لاتصاله بالله، ونظر أيضاً من علوٍّ نفسي إلى ما قدمه السحرة من حبالهم وعصيهم، فإذا به يراها على حقيقتها وتفاهتها، وما هي إلا «فقاعات فارغة» وزبد منتفش، سرعان ما يذهب هباءً(٢).

وقبل أن يُلقي موسى عصاه توجَّه إليهم قائلاً: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٥٣).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٥٤).

﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] إنه كلام الواثق الثابت، فهو يهز الطرف الآخر هزّاً، وذلك على الرغم مما قدموه من سحرٍ عظيم، يُخبرهم أن ما قدّموه فهو سحر وخداع وتخييل وتزييف، ليس له وجود ولا حقيقة، ومن ثم ليس له أثر ولا تأثير، وهو يخبرهم بأنه يواجههم معتمداً على رب العالمين، وأن الله سيُبطل سحرَهم العظيم، ويكشف ما فيه من تزييف وخداع، وأن الله سينصره هو عليهم، ويُقدِّم لهم ـ ولنا من بعدهم ـ سُنّةً ربانية مطردة تحكم حياة الناس أينما كانوا، وهي أن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يُؤيدهم ولا يُوفِّقهم، ثم يندمون ويتحسَّرون.

وبما أنهم سحرة مفسدون، فإن الله لا يُصلح عملَهم، وبما أن فرعون الذي يعتزون به مفسد، فإن الله لا يصلح عمله، عند ذلك أمر الله موسى عليه السلام أن يلقي عصاه التي في يمينه، لقد كانت العصا في يمينه، وكان المشاهدون جميعاً ينظرون إلى موسى ليعرفوا ماذا سيفعل أمام السحر العظيم، أمام الحبال والعصي التي رأوها تسعى، لقد سمعوا عن عصاه الخشبية التي تتحول إلى أفعى تسعى، لكنها ماذا ستفعل أمام الأفاعي الكثيرة الضخمة التي تسعى؟[١]

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]:

وألقى موسى عصاه وتحولت إلى ثعبان مبين، ووقعت المعجزة المبهرة، ولقفت كل ما قدمه السحرة من حبال وعصيّ، وعرف السحرة الحق، وأنه مع موسى وليس معهم، وأشرقت قلوبهم بالإيمان، فخرّوا ساجدين لله، وأعلنوا إيمانهم بالله[٢].

وكلمة ﴿تَلْقَفْ﴾: تعطيك الصورة الحركية السريعة التي تشبه لمح البصر، تقول: تلقفته يعني أخذته بسرعة وشدة، وهذه هي العلة في العصا أن تلقف ما صنعوا من السحر: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [طه: ٦٩] والكيد: التدبير الخفي

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٥٥).
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٤٥٥).

للتغلب على الخصم، لكن ماذا يفعل كيد الساحر وألاعيبه وتلفيقه أمام قدرة الرب تبارك وتعالى.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]: كان التعريف بـ «أل» التي للجنس، ويكون المعنى: ولا يفلح من كان عمله السحر في أي مكان أتى، فكلمة ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾: حيث: ظرف مكان، أي من أي مكان أتى، وإلى أي مكان سار، فهو لا فوز له أبداً ولكن ضلال وتمويه، وتخييل للأعين واسترهاب للنفوس، وعندما استعان فرعون بالسحر والسحرة استعان بهم ليغلبوا؛ ولكنهم كانوا المميِّزين بين السحر والمعجزة، فأدركوا أن عصا موسى ليست من السحر، ولكنها معجزة الله تعالى أعطاها موسى، فآمنوا[١].

لقد دُهش القوم مما يرون، إن ما ألقاه موسى عصا تحولت إلى أفعى، وقضت على كل ما أمامها، فليس الموضوع موضوع سحر، إنما هو حقيقة، وموسى ليس ساحراً، إذن لقد أخبر الله موسى أن عصاه ستلقف ما ألقاه السحرة ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وما ذكره الله لموسى تعليل لسبب قضاء العصا على ما ألقوه، لأن كل ما قدموه إنما هو سحر، وهو ثمرة لكيدهم وباطلهم وأن الساحر لا يفلح أبداً، ولهذا لم يفلحوا[٢].

واللطيف في التعبير القرآني عن حادثة قضاء العصا الحية على الحبال والعصيّ، أنه ركز على «اللَّقف»:

- ففي سورة الأعراف قال: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.
- وفي سورة طه قال: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾.
- وفي سورة الشعراء قال: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٥٠).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٥٦).

واللطيف في التعبير القرآني أن ﴿تَلْقَفُ﴾ لم يرد في القرآن إلا في هذه المواضع الثلاثة، فما هو معنى «اللقف»؟

اللقف في معناه ما ذكره الإمام الراغب: لقفتُ الشيءَ ألقفه وتلقفته: تناولته بالحذق، سواء في ذلك تناوله بالفم أو باليد[١].

فاختيار فعل ﴿تَلْقَفُ﴾ للتعبير عن ابتلاع العصا الحية للحبال والعصي مراد مقصود، لأنه يدل على مهارة العصا الحية وحذقها في التقاف والتقام الحبال والعصيّ، لقد ابتلعتها بحذق وإتقان وتلذُّذ وتفنُّن وسط أنظار المشاهدين المشدوهة، وهذا ليعرفوا أنها تلقف ما أمامها لقْفاً حقيقيّاً، وتتناوله بحذق، وتبتلعه بمهارة وإتقان وتُدخله جوفَها، وكأنهم يسمعون صوت ازدراد العصا الحية لما تلقفه، وكأنهم يسمعون صوت سير ما تلقفه في جوفها، فالأمر حقيقة وليس تخييلاً.

وإذا كان القرآن عبّر عن ابتلاع العصا الحية بفعل ﴿تَلْقَفُ﴾ الدال على الحذق والمهارة، فإنه عبر عن حبالهم وعصيهم بلفظ ﴿يَأْفِكُونَ﴾، وورد هذا في سورتي الأعراف والشعراء: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، والإفك هو الكذب والافتراء، وما قدمه السحرة لم يكن حقيقة وإنما كان إفكاً وكذباً ولابد أن يزول، ألم ينصحهم موسى عليه السلام قبل إلقائهم إفكهم؟ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، وإن المثير هو أين وضعت العصا الحية ما لقفته وابتلعته من الحبال والعصي؟ لقد كان ما قدّمه السحرة سحراً عظيماً، وألقوا كمّاً كبيراً من الحبال والعصي، ولعله كان يزن أطناناً، وها هي العصا الحية تلقف وتبتلع كل هذه الأطنان، فأين وضعتها؟ وما هي معدتها التي حوتها؟

وبينما دُهش الحضور جميعاً بهذا المنظر، كانت دهشتهم أكبر عندما

---

(١) القصص القرآني، المصدر نفسه، (٢/ ٤٥٧)، وانظر: المفردات، الأصفهاني، مصدر سابق، ص٧٤٤.

شاهدوا الحية الكبيرة تتوقف بعدما لقفت ما أمامها، فيُقبِل عليها موسى عليه السلام دون خوف، ويُمسكها بيده ويحملها ويرفعها أمامهم، إنها أفعى وهي لا تلدغه، ثم كانت دهشتهم مضاعفة عندما شاهدوا الحية تتحول في يد موسى إلى عصا خشبية كما كانت، إن الأمر أمر الله وليس أمر موسى عليه السلام، فالله هو الذي نفخ فيها الحياة أمام الناظرين، والله هو الذي سلبها الحياة أمام «المندهشين»، وما موسى عليه السلام إلا سبب أجرى الله الآية المعجزة على يديه(١).

١١ ـ قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]:

قال الزجاج في هذا الموقف: عجيب أمر هؤلاء، فقد ألقَوا حبالهم وعصيَّهم للكفر والجحود، فإذا بهم يُلقون أنفسهم للشكر والسجود، نعم لقد دخلوا كافرين فجرة، فخرجوا مؤمنين بررة، لأنهم جاؤوا بكل ما لديهم من الكيد وجمعوا صفوة السحر وأساتذته ممن يعملون السحر جيداً، ولا تنطلي عليهم حركات السحرة وألاعيبُهم، فلما رأوا العصا وما فعلت بسحرهم لم يخالطهم شك في أنها معجزة بعيدة عمّا يصنعونه من السحر؛ لذلك سارعوا ولم يتردَّدوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون. وهذا يدلنا على أن الفطرة الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواء، فإذا ما تيقَّظت الفطرة الإيمانية وأُزيلت عنها الغشاوة سارعت إلى الإيمان وتأثرت به.

لقد سارع السحرة إلى الإيمان بالله، وكان له هوى في نفوسهم، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣] فكانوا مكرهين، وكانوا أيضاً مُسخَّرين، وهذا بدليل قولهم ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] كأنهم كانوا لا يأخذون على السحر أجراً، فلما كانت هذه المهمة صعبة طلبوا عليها أجراً، فهي معركة تتوقَّف عليها مكانته بين قومه، أما ممارستهم السحر إرهاباً للناس، وتخويفاً لمن تسوّل له نفسه الخروج والتمرد على

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٥٩).

فرعون، فكان سُخرة لا يتقاضون عليه أجراً، لذلك لم يعارض فرعون سحرته في طلبهم، بل زادهم منحة أخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، فسوف تكونون سدنة الفرعونية، يريد أن يشحن هممهم ويشحذ عزائمهم، حتى لا يدَّخروا وُسعاً في فن السحر في هذه المعركة.

إذن، فطباعهم وفطرتهم تأبى هذا الفعل، وتعلم أنه كذب وتلفيق، لكن ماذا يفعلون وكبيرهم يأمرهم به، بل ويُكرههم عليه، ويُلزمهم أن يُعلّموا غيرهم، لماذا؟ لأن السحر والشعوذة والتلفيق هي رأس ماله وبضاعته التي يسعى إلى ترويجها، فعليها يقوم ملكه وتُبنى ألوهيته.

وفرقٌ بين قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فالأول عمل اختياري منهم، وأما الثاني فعلى غير اختيارهم وعلى غير إرادتهم، وكأن صولة الحق فاجأت صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أن خرُّوا له ساجدين، فالإلقاء هنا عمل تلقائي دون تفكير منهم ودون شعور، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى، لأنها ليست سحراً فهم أعلم الناس بالسحر، ونلحظ في هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع: فأُلقي السحرة، قالوا: آمنّا، لتدل على أنهم كانوا يداً واحدة لم يشذَّ منهم واحد، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مسخّرين[1].

وكذلك فإن إعلان إيمان السحرة جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠]، وفي آية أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨]، وتعلم أن موسى عليه السلام هو الأصل ثم أُرسل معه أخوه هارون، ولما عرض القرآن موقف السحرة مع موسى حكى:

قولهم ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

وقولهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٢١).

كان جموع السحرة الذين حضروا هذه المعركة كُثر، فمنهم من قال: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، وآخرون قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨]، فقد كانت أقوالهم متعددة ولقطات مختلفة في تجمع كبير، فنقل القرآن الكريم كل ما حدث[١]، لقد رأى السحرة شيئاً ما هو بالسحر ولا بالشعوذة، رأوا شيئاً لا زور فيه ولا ضلال، رأوا ما لا يملك البشر الإتيان بمثله، فأعلنوا في عزم وإصرار على الملأ في وضح النهار: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

أعلنوا ذلك بعد أن خرُّوا لله ساجدين؛ حمداً وشكراً على أن هداهم للإيمان وأبان لهم سبيل الحق، فكانت المفاجأة التي لم يكن ينتظرها أحد، كانت مفاجأة لفرعون وملئه، وكانت مفاجأة للشعب، وكانت مظهراً كريماً للشجاعة الأدبية[٢].

لقد أقدم السحرة على هذه الخطوة، وهم يعلمون خطورة ما هم مقدمون عليه، ولكنهم كانوا صادقين في إيمانهم القولي والفعلي، فهم يعرفون فرعون وطغيانه، وظلم ملئه، ويعرفون أنهم مُقدِمون على التعذيب الرهيب، وأنهم بإيمانهم خسروا ما عند فرعون من مال وجاه ومركز ومكانة ونفوذ، غير أنهم يعرفون الثمن الكبير الذي ينالونه من اتباعهم لموسى عليه السلام، فهم ينالون ما عند الله ويكسبون فضله ورضاه، وهذا هو الفوز الكبير، وهذا هو الصدق في الإيمان، والصدق في اختيار الحق، والصدق في الالتزام به بعد معرفته.

إن الله يمكر بفرعون ويقلب كيده عليه ويُذيقه مُرَّ الهزيمة، فقد أرادها فرعون «مظاهرة» إعلامية إعلانية ليتشفَّى في موسى أمام الجماهير التي حشدها، ولتزداد الجماهير إيماناً به وبقوته وقدرته، وحرصاً على عبادته وتأليهه، فجعل الله الحشد والميدان دليلاً على «فضيحة» فرعون، فها هم رجاله من السحرة

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٢٣).
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٠٤.

ـ وهو الذي حشرهم وجمعهم واختارهم ـ يشهدون بأن موسى رسول صادق، وأن الله ربُّ العالمين، وها هم يُعلنونها صراحة أمام الجميع.

هزَّت نتائج التحدي فرعون هزّاً عنيفاً، وهزت الملأ والجنود، وهُزم فرعون وملؤه هزيمة بالغة، وغادر الناس ميدان المعركة وهم شامتون بفرعون يستهزئون به ويسخرون منه(١).

وشعر فرعون بمرارة الهزيمة أمام الجموع المحتشدة من الناس، الهزيمة التي هزّت عرش طغيانه وجبروته، فلجأ إلى الأسلوب الذي يلجأ إليه أمثاله من الفراعنة والطغاة والمستبدين في كل زمان ومكان، وهو أسلوب القمع والبطش لإرهاب الجماهير، وجعل السحرة أوّل ضحايا قمعه وبطشه وإرهابه، وحتى يستر جرائمه وظلمه، اتهمهم بالتواطؤ مع موسى وأنهم متآمرون معه(٢).

ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧١ـ٧٦]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]:

راجع بدقة كلام فرعون؛ لأن هذا الكلام لا يكشف لك عقلية فرعون

(١) القصص القرآني، مرجع سابق، (٢/ ٤٦٣).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٤٦٩).

فحسب، وإنما يكشف لك عقلية الطواغيت وأهل الضلالة والظلم والاستبداد والمتكبرين في كل الأزمان، ولا تزال ترى بقاياها، وأول شيء هو أن فرعون في الكلمة الأولى ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ حَرَّفَ كلامهم بطريقتين:

التحريف الأول: أنهم لم يقولوا آمنّا بموسى، وإنما قالوا آمنا برب هارون وموسى، فزعم فرعون أنهم آمنوا لموسى وأغفل الحقيقة وهي إيمانهم برب هارون وموسى، لأن الذي رأوه في عصا موسى لم يكن من شأن موسى وهارون إنما هو آية لا تكون إلا من الخالق جلّ وتقدس.

وأما التحريف الثاني: أنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ﴾، وذكروا الباء على الاعتقاد، وأنت تقول: آمنت بالكتاب العزيز، وأنت تعني اعتقدته، وآمنت بالله ورسوله. وفرعون وضع اللام موضع الباء وقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، وآمنت له، أي انقدت له واتبعته، وهذا هو الذي أراده فرعون من إخفاء حقيقة إيمانهم بالله وجَعْله اتباعاً لموسى وحده، وذلك ليُهيِّئ إلى ضلالة جديدة[1]، وهي:

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾: وقبل أن نتكلم في هذا نتكلم في الكلمة قبلها، وهي ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، وهذا من قمة الطغيان وقمة الباطل، لأنه ألم يكفك أن تكون قد تسلّطت على العباد والرقاب، وإنما أنت معتقد أنك متسلِّط على القلوب والعقول، وأن الإيمان لابد أن يكون داخلاً في حوزتك، فلا مكان له في القلوب إلا بإذنك، وجهل فرعون أن الله ـ سبحانه ـ خلق منطقتين في الإنسان لا يستطيع أحد أن يسيطر عليهما، وهما «القلب» و«العقل».

وأن الله الذي خلق المناطق الحرة كرّمها، وأنكر على لسان نوح عليه السلام أن يُكرهها على شيء تكرهه، وقال لنوح قل لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

والاستفهام في قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ استفهام إنكاري، أي لا نلزمكموها مع

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٤٠٢.

أنها بينة من ربه، ورحمة من عنده. المهم أنه لا سلطان لأحد على القلوب والعقول، ولا يجوز لأي طاغوت أن يحاسب الناس على ما في قلوبهم، سواء كانت عقائد إيمانية أو كانت مذاهب وأفكاراً في أي شأن من شؤون الحياة سياسية أو غير سياسية[١].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾: تجهيل صريح من فرعون لنفسه، لأنه هو الذي جمعهم واختارهم، وهل يجوز من عاقل أن يجمع لمواجهة موسى تلاميذ موسى؟

قال فرعون: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾، وتولى فرعون وجمع كيده ثم أتى، فلما رأوا آية ولم يروا سحراً سجدوا، فقال فرعون: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾؛ المطلوب أن تعرف حقيقة عقلية فرعون، وإنما حكى لنا ربنا ذلك لنتعلَّم، وفرعون وموسى وهارون والسحرة أمة قد خلت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وليس في القرآن حرف واحد إلا وهو يضيء هذا اليوم واليوم بعده[٢]. وهكذا فقلبُ الحقائق وتعميق الجهل والاضطراب في الآراء، وعدم التوازن والاعتراف بالحقيقة الدامغة، من صفات الفراعنة.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.

أولاً: راجع التوكيد بالقسم، ونون التوكيد الثقيلة، في المواقع الثلاثة، وكلها أفعال مضارعة، لأنه وعيد وتهديد بالذي سيكون منه:

- ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾. - ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾. - ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾.

ومراجعة التوكيد لتعلم شدة الغيظ والحقد الذي كان يصدر عنه فرعون، وأن هذه العقلية التي كانت تُناقض نفسها وتهرب من المواجهة الفكرية لجأت إلى جدار حمايتها الأخير وهو القوة، وأنها مع غبائها في كل المَواطن والمواقف

(١) المصدر نفسه، ص٤٠٢.
(٢) من حديث يوسف وموسى، المصدر السابق، ص٤٠٣.

كانت متفوقة جدّاً في التعذيب والتنكيل والإجرام والانتقام، وأنها أبدعت فيه صوراً، وراجِعِ القلب الذي يقطع أيدي الناس وأرجلهم من خلاف، ثم لا يكتفي بهذا وإنما يصلبهم في جذوع النخل، كيف يكون حاكماً في الناس وكيف يُطاع؟!

وراجعْ أنه جعل التقطيع من خلاف والصلب في جذوع النخل طريقاً للعلم في قوله تعالى:

﴿وَلَنَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾؛ إنه إقرار منه بأن الوسيلة الوحيدة التي يتفوق بها على موسى وهارون هي التعذيب والتوحُّش وموت كل معنى إنساني في نفسه، وإن كان ذكر بعض أهل العلم أنه لم يُنفِّذ وعيده هذا في أحد منهم.

وأنه لما قال في سورة أخرى: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] تهيَّب ذلك وخافه، وكأن جنونه هذا وجبروته هذا كشف معدن الإنسان الذي رأى آية الله فآمن بالله ولم يزحزحه هذا الجنون وهذا الحقد، وهذه الرغبة الشيطانية الفرعونية التي لا تزال في ورثته بصورة أخرى، كانتزاع الرضيع من صدر أمه وإدخالها السجن، وكحرق قلب الأب على ولده الذي قتلوه، وكحرمان الولد من رعاية الأب الذي خطفوه، وغير ذلك من الجرائم التي تحمي السلطة عند المجنون بالسلطة[1].

أ ـ قال الدكتور صلاح الخالدي: في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾: فلسنا ممن يقول بالتناوب بين حروف الجرّ في التعبير القرآني، فهذا قول مرجوح عندنا، ولا ممن يقول بالتضمين كذلك، والتناوب هو أن «ينوب» حرف عن حرف، وهنا قالوا: الحرف «في» ناب عن الحرف «على» والمعنى: لأصلبنكم على جذوع النخل، والتضمين أن يتضمن الفعل المذكور معنى فعلٍ آخر يدلُّ عليه الحرف «في»، فيكون الفعل المذكور قد أدى معناه ومعنى الفعل المقدَّر، والتقدير: لأصلِّبنَّكم في جذوع النخل، وأترككم فيها. والأَولى نسيان الحرف «على» هنا، وفهم الآية على معنى الحرف «في» الدال على الاستغراق.

---

(١) من حديث يوسف وموسى، المصدر السابق، ص٤٠٥.

إنه يريد أن يؤكد تصليبه لهم، ومبالغته في ذلك التصليب، ويتفاعل مع ذلك تفاعلاً كبيراً، ويصب عليهم أثناء التصليب كل حقده، فكأنه من شدة حقده الأسود عليهم شق جذوع النخل شقاً، وأدخلهم فيها إدخالاً وهم مقطوعو الأيدي والأرجل، وكأنه يتمنى لو ذابوا داخل جذوع النخل ذوباناً. هذه الإيحاءات يلقيها الحرف «في» وليس الحرف «على»، ولهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

ب ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾؛ أي سوف تعلمون من المعذِّب عذاباً شديداً ودائماً وباقياً نحن أم ربُّ موسى، وكلام فرعون سخرية بموسى وبالسحرة الذين آمنوا به، فقد كان موسى عليه السلام يُهدِّد فرعون وقومه بالعذاب الأبديّ الدائم وكان يعدهم بالنعيم إن آمنوا به[1].

لم يأبه السحرة الذين ملأ الإيمان قلوبهم لتهديد فرعون ووعيده وردوا عليه[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

اقرأ هذه الآية وأصوات الآية التي قبلها لا تزال في أذنك، وصورة جنود فرعون وفي أيديهم السكاكين وهم يقطعون الأيدي والأرجل من خلاف، وصورة جذوع النخل، والذي يفرغون من تقطيعه يربطونه بها، وأن كل ذلك لم يُغيِّر من موقفهم حبة من خردل، وإنما ثبتوا على موقفهم وكلامهم، بأنهم لن يختاروا فرعونَ على ما رأت عقولهم، وأنت يا فرعون لا تُفرِّق بين عالم المادة الذي تمتلك فيه القوة والتعذيب، وعالم العقل والقلب اللذين حُرمت منهما، وهما أقوى بكثير من عالمك الذي أنت مفتون به، وأن البينات أقوى من سياطك ومن حبالك التي تربط بها ضحاياك، وهذا من أكرم المواقف.

ونلاحظ أن فرعون لم يُكلم موسى وهارون كلمة واحدة، وهم الأصل في

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٧٠).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٦٨).

الذي كان، وإنما صبّ ما ترى على الذين ليس لهم ذنب إلا ذنب واحد، وهو أنهم رأوا الآية التي أيد الله بها موسى فآمنوا بها، وسكت فرعون عن موسى وأخيه[1]؛ لأنهم في حفظ الله ورعايته، ورزقهم الله الهيبة العظيمة في نفس فرعون.

ويبدو أن موقف السحرة فَجَّر في نفس فرعون أحقاده على المستضعفين، فأعلن الوعيد الشديد على من فتحوا باب الإيمان بدعوة موسى والانقياد للحق العظيم وتوحيد الله وإفراده بالعبادة.

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾، وقولهم (والذي فطرنا) معطوف على (ما) الموصولة، وإنما عبروا عن الذي جاءهم من البينات بما الموصولة التي فيها تفخيم وإيهام، ليشيروا إلى وقعها في نفوسهم، وعبروا عن الذي فطرهم بالاسم الموصول لأن هذا يفيد أنه سبحانه معروف في الناس بأنه فطر الناس، وأن الكل لو سألتهم مَن خلقهم ليقولون الله، ثم إنهم قدّموا ما جاءهم من البينات على الذي فطرهم، مع أن البينات منه سبحانه لأن هذه البينات التي هي عصا موسى هي التي هدتهم إلى الذي فطرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾؛ الفاء تعني عطف وترتيب ما بعدها، وهو أن يفعل فرعون ما يفعل، على ما قبلها وهي البينات والذي فطرهم، وأنهم لن يختاروا فرعون ولا غيره على هذه البينات، والذي فطرهم. وما في قولهم ﴿مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ الإيهام فيها يفتح معانيَ لا حدود لها، لا تقتصر على تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، ولا الصلب في جذوع النخل، وإنما اقض بهذا وبغيره مما يهديك إليه طبعك المتوحش، استفت شيطانك فيُفتيك، وليفعل الذئب الذي بين جنبيك ما يأمرك به شيطانك، وابلُغ في ذلك نهاية ما تبلغ. وهذا من أكرم ما يجده أهل الحق في صدورهم في مواجهة الباطل الذي لا طاقة لهم بكسره، لأن من ورائه جيشاً يحميه، ولذلك كان الأخذ الشديد ليس لفرعون

(١) من حديث يوسف وموسى، المصدر السابق، ص٤٠٦.

وحده وإنما لفرعون وجنوده، أي للطغيان ولمن حمى الطغيان[١].

قال عكرمة والأوزاعي وغيرهما رحمهما الله تعالى: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تُهيّأ لهم وتُزخرَف لقدومهم؛ ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قصّ علينا أمر سحرة فرعون، فإن المسلمين قد حقق الكثير منهم أمثلة كريمة لإعلان إيمانهم، ولا يبالون بما يصادفونه من عذاب وتنكيل.

أرأيت إلى بلال «رضي الله عنه» يُعذّب ويُنكّل به وهو لا يفتر عن قول أحد أحد؟

يقول ابن كثير في سيرته: وكان أمية بن خلف يُخرجه إذا حميت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى، فيقول هو في ذلك: أحد أحد[٢].

وهل قرأت تاريخ ياسر وسُميَّة وعمار؟ هذه الأسرة التي أكرمها الله بالإيمان، فأعلنته وأُوذيت في الله، فلم يثنها العذاب عن إيمانها. وكان بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[٣].

وعن جابر أن رسول الله ﷺ مرّ بعمّار وأهله يعذبون، فقال: «أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة»[٤].

فأمّا سمية «أمّ عمار» فيقتلونها إذ تأبى إلا الإسلام. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال: أول شهيد كان في أول الإسلام: أم عمّار سميّة، طعنها أبو جهل بحربة في قُبُلها[٥].

---

(١) من حديث يوسف وموسى، المصدر السابق، ص٤٠٧.
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، المصدر السابق، ص٢٠٦.
(٣) قصص الأنبياء في رحاب الكون، المصدر السابق، ص٢٠٧.
(٤) قصص الأنبياء في رحاب الكون، المصدر نفسه، ص٢٠٧.
(٥) قصص الأنبياء في رحاب الكون، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

وإمام المسلمين في الشجاعة الإيمانية هو سيدنا رسول الله ﷺ، ومواقفه الكثيرة في ذلك مشهورة[١]، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي المعنون بـ«السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾: وكلمة «إنما» هنا لها معنى جليل، وهو أن ما دخلت عليه معنى لا يجهله جاهل، ولا يُنكره مُنكِر وهو كذلك؛ لأن الكل يعلم أنك لا تملك من أمرنا إن كنت تملك إلا هذه الحياة الدنيا، وأنها ليست شيئاً له قيمة، إذا قيست بالذي علمه واستيقنه الذين علموا البينات، وهدتهم إلى الذي فَطَرهم، وقد حُرمتَ أنت معرفةً تجعل كل هذه الحياة الدنيا التي ترتكب فيها ما تخجل الكلاب والذئاب من فعله، ثم تركوا تهديده وتسلطه وتجبره وانتقلوا إلى الحياة الآخرة[٢] في خطابهم الإيماني المزلزل العظيم.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]:

تأمل الاستئناف الجليل الذي بدأ فيه السحرة حديثهم عن الحياة الدنيا، بأنها لا قيمة لها، وقالوا لفرعون اقضِ فيها ما أنت قاض، وكيف ابتدئ الكلام بالإيمان الذي هو أنفس ما في الوجود، والذي إذا سكن نفساً ووعته لم تسأل بعده عن شيء، والذي حُرمتَ منه وتلهّيت بقوتك وجيشك الذي يحمي سلطانك الذي هو طغيانك، وليس هناك مشكلة في أن تكون صاحب سلطان، وأن يحمي جيشك هذا السلطان إذا كان سلطانك مؤسَّساً على العدل والرحمة والبر والإحسان وكل ما هو من مكارم الأخلاق.

وقولهم ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أظنها الخطايا قبل الإيمان لأن الإيمان يَجبّ ما قبله، وأنهم قبل إيمانهم كانوا في الخطايا التي أنت فيها الآن يا فرعون، وإن كانت خطايا صغيرة بحجم ما كنا عليه في الجماعة.

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، المرجع السابق، ص٢٠٧.
(٢) من حديث يوسف وموسى، مصدر سابق، ص٤٠٨.

وخطاياك كبيرة بحجم سلطانك الذي تقطع به أيدي الناس وأرجلهم من خلاف، وأنت الآن ترى أننا قَبِلنا أبشع ما توعّدتنا به لنُحصّل الإيمان الذي يغفر الله لنا به خطايانا، التي ليس الذي تُهدِّدُنا به بشيء إذا قيس بعذاب واحدة منها[١].

وقوله: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾؛ فالإيمان بالله سينفعنا، وسيغفر الله لنا الخطايا وهي كثيرة، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحر، فقد صنعوا السحر مكرهين ومارسوه مجبرين، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم، وما أكثر ما يُكره الناس على أمور لا يرضونها، وينفذون أوامر وهم غير مقتنعين بها، خاصة في عصور الطغاة والجبّارين[٢].

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾: الذي عارَضْنا به الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهًا، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن موسى لما وعظهم كما تقدم في قوله: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾ [طه: ٦١] أثر فيهم ووقع منهم موقعاً كبيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجرَوه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم حيث قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ [طه: ٦٣]، فجَرَوا على ما سنَّه لهم وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه التحديد، هي التي أثَّرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووفقهم للإيمان والتوبة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾: فأنت ستزول، بل دنياك كلها ستزول بمن جاء بعدك من الطغاة، ولن يبقَ إلا الله، وهو سبحانه يُمتّع كل خلقه بالأسباب في

(١) المصدر نفسه، ص٤٠٨.
(٢) تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (١٥/ ٩٣٢٩).
(٣) تفسير السعدي، المصدر السابق، (٣/ ١٠٣٥).

الدنيا، أما في الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب إنما بالمسبِّب عزّ وجل دون أسباب[١].

ولقد بيّنوا عاقبة المجرمين، ووقفوا أمام فرعون موقف المعلم المستعلي، وقدموا له ولغيره معاني هذا الإيمان، فقالوا ما قاله الله تعالى في كتابه:

٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾؛ فيها غضب شديد على من ألِف الإجرام وألِفَه الإجرامُ، وظل متشبثاً بإجرامه، حتى كأن إجرامه دخل معه قبره وحُشِر معه إلى ربه، وتلاحظ هذا الغضب في أول كلمة في الجملة، لأن كلمة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾: إن المؤكدة دخلت على ضمير الشأن، وضمير الشأن له في الكلام شأن أيُّ شأن، فإذا دخلت عليه (إنَّ) وجدناها لا تحسن في دخولها على شيء كحسنها حين تدخل على ضمير الشأن، إنما يراد به التنبيه والإيقاظ لتلقي الجملة المفسرة لضمير الشأن ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾.

والمعنى من يأت ربه وكان مجرماً، إشارة إلى ملازمته للإجرام واستمراره له واستمساكه به، فهو يقتل ويظلم ويستبد، وهو يستعذب كل ذلك ولا يجد في نفسه صوتاً إنسانياً يُرقِّق قلبه على طفل يُقتل أبوه، أو على أم يُحرق قلبُها على خطف ولدها، إلى آخر ما تجده من المتوحشين.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط لتقوية ربطه بالشرط وترتيبه عليه، وتتكرر إن المؤكدة التي فُتحت بها الجملة، ويتقدم الجار والمجرور وهو خبر إن، وكأن جهنم أُعدت له ولنظرائه خصوصاً، ولاحظ أن هذا الجار والمجرور الذي تقدم يوشك أن يكون المقصود في الجملة كلها، أو هو عمود معناها، وأن هذه جهنم التي لا يموت فيها المجرمُ ولا يحيا، وهذه جملة حالية، ومن أشد الكلمات وأدلها على قوة الغضب، وناهيك عن الذي في جهنم أعاذنا الله منها، ثم ناهيك عنه وهو لا يموت ولا يحيا.

---

(١) تفسير الشعراوي، المصدر نفسه، (١٥/ ٩٣٣٠).

وإذا كان المرء إما أن يموت وإما أن يحيا، وليس بينهما ثالث، فلست أدري كيف هذا الذي لا يموت ولا يحيا، وأنا أعلم كما تعلم أنه لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة طيبة، وإنما أنا أخاطب اللفظ الذي جاء عليه الكتاب، وأسأل: كيف أن أي ظالم مستبد قاتل، يُعذِّب الناس ويقهرهم، ويحرم الأب العجوز من رعاية ولده، ويحرم الطفل من رعاية أبيه، ثم يسمع ذلك ولا يرتدع، ألا يكون هو الذي اختار لنفسه جهنم لا يموت فيها ولا يحيا؟!

ظاهر الآية أنها عامة، ولا يجوز أن نقول إنها خاصة بفرعون[١]، وإنما يدخل فيها فرعون ومَنْ على شاكلته وإجرامه ومنهجه وعُلوه، وإن مآل الإجرام يرجع على صاحبه بالخسران إن جاء ربه مجرماً ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾؛ فلا هو ميت فيستريح ولا هو حي فيتمتع، إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت، ولا ينتهي إلى حياة، وفي الجانب الآخر الدرجات العلا[٢].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]:

فكأنهم كانوا يُشيرون بقولهم ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ إلى فرعون، والآن يشيرون إلى أنفسهم، وما سلكوه من طريق الإيمان: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لأن الإيمان هو الينبوع الوجداني الذي تصدر عنه الحركات النزوعية وفق المنهج الذي آمنت به، وإلا فما فائدة أن تُؤمن بشيء ولا تعمل له، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٣].

وراجِعْ قوله سبحانه: ﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فهي صفة لـِ«مؤمناً»، و«مؤمناً»

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٤١٢.
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٤١٢).
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٤١٤.

حال، ولا يجوز لك ولا لي أن أحدّد معنى لفظ أطلق الله معناه، وهو عمل الصالحات، لأنه يعني هنا كل عمل تصلح به حياتك وحياة الناس وحياة البلاد والعباد، فلا يجوز أن تحبس الصالحات في الصوم والصلاة والذكر، وإن كان هذا من أكرمها، ولكنه في الحقيقة لإعدادك إلى عمل الصالحات الأوسع، فالصالحات بمعنى الذكر تغسل نفسك من التزوير والكذب والإهمال والغش... إلى آخره.

وأنت تعمل الصالحات إذا كنت في مصنعك أميناً متقناً مجتهداً، وإذا كنت في درسك مع طلاب العلم أميناً متقناً مخلصاً صادقاً، وإذا كنت باحثاً في مختبرك صابراً جادّاً، ومنقطعاً تبحث عن نظرية جديدة تطور مصانِعنا وصناعتنا، هذا هو عمل الصالحات، وكأن مفتاح باب الجنة يدور دورتين؛ دورة يديرها الإيمان، ودورة يديرها عمل الصالحات. ومن لم يزرع صالحاً في الدنيا فهو عابث، إن تصور خيراً هناك؛ عمل الصالحات أي الجد والصدق والإتقان في كل موقف من مواقع العمل والحركة والحياة، تصير به بلادكم جنة، ومن زرع جنة في الدنيا وجد جنة في الآخرة، ومن صير البلاد لهواً وخراباً وقتلاً وتشريداً وتعذيباً وخوفاً وصراخاً، فسيجد جهنم لا يموت فيها ولا يحيا[1].

وفي القرآن الكريم اقترن كثيراً الإيمان وعمل الصالحات، وأشير إلى تكرار كلمة عمل الصالحات، وإلى أنها تحيط بكل نشاط لكل فرد من أفراد الجماعة، وأن عمل الصالحات في المصنع والعمل والمدرسة والسياسة، كعمل الصالحات في المحراب، تأمل ذلك وهو متسع جدّاً[2].

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: درجات الجنة، فالجنة درجات بعضها فوق بعض، أما النار فدركات، بعضها تحت بعض، وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الجنة درجات، لأن أهلها متفاوتون في الأعمال، كما أنهم متفاوتون حتى في العمل الواحد، لأن مناط الإخلاص في العمل متفاوت، لذلك جاء في الأثر:

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٤١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٤١٤.

«الناس على خطر إلا العالمون، والعالمون على خطر إلا العاملون، والعاملون على خطر إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»(١).

قال السعدي: ومن يأتِ ربه مؤمناً مُصدِّقاً لرسله مُتَّبعاً لكتبه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل العاليات وفي الغرف المزخرفات واللَّذات المتواصلات والأنهار السارحات، والخلود الدائم والسرور العظيم، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر(٢).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦]:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، من عدن في المكان أقام فيه، فالمراد جنات أُعدَّت لإقامتك، وفرق بين أن تُعِدَّ المكان للإقامة وأن تُعِدَّ مكاناً لعابر، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حسب المُعِد وإمكاناته، فالإنسان العادي يعد مكاناً غير الذي يعده عظيم من العظماء، فما بالك إذن بمكان أعده ربك عزّ وجل بقدراته وإمكاناته؟(٣)

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأن ظاهرة جريان الأنهار في الدنيا وسيلة للخضرة والخصب والإيناع، و﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: أن الماء ذاتي فيها ونابع منها، ليس جارياً إليك من مكان آخر، ربما يُمنع عنك أو تُحرم منه(٤).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾: وهذا هو التأمين الحق للنعيم لأن آفة النِّعم أن تزول، إما بأن تفوتها أنت أو تفوتك هي؛ أما نعيم الجنة فقد سلّمه الله تعالى من هذه الآفة، فهو خالد لا يزول ولا يُزال عنه(٥).

---

(١) المصدر نفسه، ص٤١٤.
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٦).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٣٤).
(٤) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٣٣٥).
(٥) المصدر نفسه، (١٥/ ٩٣٣٥).

وفي قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قال السعدي: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما ألا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكّى أيضاً نفسه، ونمّاها بالإيمان والعمل، فإن للتزكية معنيين؛ التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين[١].

وقد ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي[٢] الغابر[٣] في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»[٤].

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجَّر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم الله فسَلُوه الفردوسَ»[٥].

٧ ـ موقف السحرة من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية:

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية هذا الذي كان بين فرعون وملئه، والمؤمنين من السحرة السابقين، إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بانتصار العقيدة على الحياة، وانتصار العزيمة على الألم، وانتصار «الإنسان» على «الشيطان»، إنه ميلاد حاسم في تاريخ البشرية، بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية، فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٦).
(٢) الدّرّي: هو النجم شديد الإضاءة، وقيل: النجم العظيم المقدار.
(٣) الغابر: الذاهب.
(٤) البخاري، رقم٣٢٥٦.
(٥) سنن الترمذي، رقم ٢٥٣١، صححه الحاكم، (١/ ٨٠).

الطغاة، فالاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب، وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية، فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتُمنَّى بالقرب من السلطان، فهي ذاتها التي تستعلي على فرعون وتستهين بالتهديد والسلطان، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب والقتل، وما تغيّر في حياتها شيء ولا تغير من حولها شيء ـ في عالم المادة ـ وإنما وقعت اللمسة الخفية التي تُسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى، وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت، وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد.

وقعت اللمسة التي تحوِّل البوصلة، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة، ويتسمّع الضمير أصداء الهداية، وتتلقى البصيرة إشراقات النور، وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي، ولكنها هي تُغيّر الواقع المادي وترفع «الإنسان» في عالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال، ويذهب التهديد ويتلاشى الوعيد، ويمضي الإيمان في طريقه لا يلتفت ولا يتردَّد ولا يحيد[1].

٨ ـ من سحرة إلى شهداء بررة:

انتهى التحدي بإيمان السحرة، واختيارهم لما عند الله، واستعلائهم على ما وجَّهه لهم فرعون من تهديد ووعيد، وثباتهم على الحق الذي اختاروه، وصَبْرهم على التعذيب الذي صبّه عليهم فرعون، فها هم أولاء الذين جنَّدهم فرعون ليشهدوا له، فانقلبوا وشهدوا ضده، وهذا من مكر الله وقدره وتدبيره بفرعون، فبعض من حوله ليسوا معه إنما هم مع الله، ولا يتحدَّث القرآن عما فعله فرعون بهم بعد التهديد، ولا يبيّن كيف قطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ولا كيف صلبهم في جذوع النخل ولا كيف قتلهم.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٧٨).

هذه مبهمات في العرض القرآني لقصة السحرة المؤمنين، وما جرى لهم بعد إعلانهم الإيمان، وحوارهم السابق مع فرعون «فجوة فنية» مقصودة في العرض القرآني.

ونهاية السحرة المؤمنين مفهومة، فهم قد أعلنوا إيمانهم صراحة، وخالفوا فرعون علانية، وفرعون هو الظالم المتجبِّر المستبد المتألّه، الذي لا يسمح لأحد أن يقف أمامه ولا أن يقول له: لا، وبما أن السحرة وقفوا من فرعون هذا الموقف، فإن الأرجح أن فرعون قد نفّذ فيهم تهديده ووعيده، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلّبهم في جذوع النخل، وقُتل الجماعة في سبيل الله، ولقوا وجه الله شهداء بررة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء بررة[1].

وهكذا انتصر الإيمان في التحدي الكبير بين فرعون وموسى عليه السلام، وانتصر السحرة عندما لقوا وجه الله شهداء ثابتين على الحق[2].

٩ ـ مواضع ذكر «السحر» في سورة طه وحكمه في الشريعة:

وردت كلمة «السحر» بمشتقاتها في مواضع في السورة، وقد ذكرتُ تفسيرها فيما مضى، وهي:

ـ **الموضع الأول**: قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

ـ **الموضع الثاني**: قال تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨].

ـ **الموضع الثالث**: قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

ـ **الموضع الرابع**: قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٧٩).

(٢) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٤٧٩).

ـ **الموضع الخامس**: قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

ـ **الموضع السادس**: قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

ـ **الموضع السابع**: قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ـ **الموضع الثامن**: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

أ ـ تعريف السحر في الاصطلاح:

ذكر ابن قدامة في (الكافي) أنَّ: السحر: عزائم ورُقىً وعُقد تترك أثرها في الأبدان والقلوب، فتُمرض، وتَقتل، ويُفرِّق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحدَ الزوجين عن صاحبه[١].

وذكر ابن مفلح في (المبدع في شرح المقنع): أنَّ السحر عُقد ورقىً وكلام، يتكلم به أو يعمل، يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله من غير مباشرة له[٢].

وذكر الشوكاني في (فتح القدير): أنَّ السحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع[٣].

وذكر العظيم آبادي في (عون المعبود) وحاشية ابن القيم أن السحر: إظهار الباطل في صورة الحق.

وعرّفه عوّاد المعتق أنه: هو كل ما فيه مخادعة أو تأثير في عالم العناصر

---

(١) الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة الحنبلي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م، (٤/ ٦٤).
(٢) المبدع في شرح المقنع، برهان الدين إبراهيم بن مفلح، عالم الكتب، ٢٠٠٣م، (٧/ ٤٩٤).
(٣) فتح القدير، (١/ ١٣٩).

نتيجة الاستعانة بغير الله من شيطان أو نحوه يشبه الخارق للعادة، وليس فيه تحدٍّ، يمكن اكتسابه بالتعلم[١].

ب ـ عالم السحر والشعوذة:

كتب الدكتور عمر سليمان الأشقر كتاباً قيماً اسمه «عالم السحر والشعوذة» فمن أراد التوسع فليرجع إليه، وخلاصة الكتاب في النقاط الآتية:

السحر عالم عجيب جميلٌ ظاهره عفن باطنه، تختلط فيه الحقيقة بالخرافة، والشعوذة بالعلم، ويعتمد فيه الساحر على الخفة والعلم والإيهام، كما يستعين فيه بالشياطين.

السحر انحراف قديم في تاريخ الإنسان، فقد عرفته الأمم والشعوب عبر تاريخ البشرية المديد، وأضلّ به الشيطان جِبِلاً كثيراً، وقد أفسد بالسحر فطرة الإنسان وعبَّده به لغير الله فأوبقه وأهلكه.

لم ينته السحر في هذا العصر ولم يتوقف، بل لا يزال للسحرة دور كبير في حياة البشر، ولا تزال الجهود الإنسانية تجري وراء أوهام السحرة والعرّافين والدجّالين، وتُضيِّع في حربها وراءهم الأوقات والأموال، وتزهق بسبب ذلك أيضاً النفوس والأرواح.

السحر علم مُكتسَب يحصل بالتعلم والصناعة، ويمكن أن يحوزه الأذكياء والأغبياء، ولكن لا يمكن أن يتعاطاه الصالحون والأتقياء، وحال السحرة تدل عليهم، فهم أفسق الناس وأرذلهم.

ليس السحر من باب خرق العادة، وإنما يرجع إلى أسباب خفية لا نعلمها، وقد تصبح الأسرار السحرية مشاعاً معلوماً يعرفه الناس كلهم مع تقدم المعارف والعلوم، وقد يكون اعتماد السحرة على الجن والشياطين، وللجن والشياطين قدرات تبدو للإنسان كأنها خارقة للعادة.

---

(١) قضايا العقدية في سورة طه: دراسة مقارنة بين السلف والمتكلمين، همام مصطفى الزق، مرجع سابق، ص١٦٥.

للسحر حقيقة، فقد ينتقل الساحر من مكان إلى مكان بسرعة لا يألفها البشر، وقد يمرض الساحر ويضر ـ بإذن الله ـ ولكنَّ لقدرته حدوداً لا يمكن تجاوزها، فلا يستطيع الساحر أن يوقف الشمس، ويسقط النجوم، ويوقف حركة الأرض، ويبعث الحياة في الأموات، أو يخلق من الجماد أحياء، كما لا يستطيع مسخ الإنسان حيواناً أو الحيوان إنساناً، وكل ما أَوهم فعل شيء من ذلك فهو حيلة تُروَّج على أصحاب العقول الضعيفة.

ويمكن للسحر أن يبطله ساحر مثله، وقد يبطله الأتقياء الصُّلحاء الذين يلجؤون إلى الله ويحتمون به. وللسحر أنواع، فهناك السحر الحقيقي ومنه التخييلي ومنه المجازي، ولكن أكثر السحرة يخلط في سحره بين أنواع السحر كلها، فالساحر يستعمل كل ما يُمكِنه من قدرات للضحك على عقول البشر، وقد يكون ما يستخدمه حيلاً علمية أو حيلاً تخييلية، وقد يستعين بالشياطين.

لا يستطيع الساحر أن يرتقي في سحره ما لم يعبِّد نفسه للشيطان، وكلما ارتقى في العبودية لهذا المخلوق اللعين ارتقى في السحر، وذلك أن الساحر تتدنس نفسه بالخبث والفساد، وتتلذَّذ بالشر، وتتعاظم عنده الرغبة الدائمة في الإيذاء، والشيطان يُلزم الساحر بالكفر والشرك ومحادّة الله ورسوله، ويأمره بكل ما يُغضب الرحمن ويبعده عن الهداية والإيمان[١].

ومع كل الولاء الذي يُظهره الساحر للشيطان، فإن الشيطان يتخلَّى عن الساحر وهو في أشد الحاجة إليه، ويتركه لمصيره الرهيب عندما ينزل به العذاب، وتحيط به الصعاب.

سيادة المادة في هذا العصر وشقاء الروح؛ بسبب انقطاع الصلة بالله عز وجل، وهو ما أدى إلى توجّه كثير من الناس إلى السحرة، يداوون أمراض

(١) عالم السحر والشعوذة، عمر سليمان الأشقر، الأردن، دار النفائس، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٢٨.

النفوس ويطلبون الراحة لنفوسهم المتعبة، ولكنهم لم يجدوا عندهم إلا مزيداً من الداء والبلاء.

للأمم طرائق كثيرة للوقاية من السحر قبل وقوعه، والخلاص منه إذا وقع، وكثير من هذه الطرق مبنية على اللجوء إلى السحرة، وتقوم مجملها على الكفر والشرك والضلال، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وهديه يقوم على الاحتماء بالله، والالتجاء إليه وقراءة القرآن والأدعية والأذكار.

كل الرقى مباحة ما لم تكن شركاً، ولا يجوز تعلُّم السحر ولا تعليمه بحال من الأحوال، والذين أباحوا تعلُّمه من أهل العلم قلّةٌ شذّت، ولا يجوز الالتفات إلى مذهبهم والعمل به. وإن أهل العلم لا يختلفون في الحكم على الساحر بالكفر إذا كان سحره من نوع الاستعانة بالشياطين والكواكب والنجوم، ويجب قتله في هذه الحال. أما إذا كان سحره بالحيل الصناعية فإنه يُعزَّر لإفساده عقائد الناس، حيث يُوهمهم بسحره بالقدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله. وتجدر الإشارة إلى أن من الصحيح أن توبة الساحر قبل القدرة عليه مقبولة، وأما عند الله فإن باب التوبة مفتوح، ولا يَحجب التوبة عنه أحد(١).

لا يعلم الغيب إلا الله، ولا يجوز الاستعانة بأدعياء عِلم الغيب من المنجمين والكهّان والعرّافين، ويجب على الحكام أن يحاربوا هذا النوع من الدجل، ويوقعوا بأهله شتى أنواع العقوبات. وعلى العلماء أن يُحذِّروا المسلمين من اللجوء إلى هؤلاء الدجّالين، وكثير من أدعياء الغيب هم ممن لهم فراسة في الأمور، وبعضهم تكون استعانته بالشياطين.

على المسلمين أن يتوكلوا على ربهم فيما ينوبهم من مصائب ومشكلات، ولا يلجؤون إلى السحرة والعرافين والكهان: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] (٢).

---

(١) عالم السحر والشعوذة، المرجع السابق، ص ٣٢٩.
(٢) عالم السحر والشعوذة، المصدر نفسه، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

وقد تعرض الدكتور عمر الأشقر في كتابه القيّم: «عالم السحر والشعوذة» إلى مواضيع عديدة من أهمها:

تاريخ السحر: عند أهل بابل، وفارس، ومصر، والهند، والإغريق، واليهود، والنصارى، وأوربا، وعند العرب قبل الإسلام، وفي أمريكا والعالم الجديد وفي العصر الحاضر.

وتعرّض الكتاب إلى تعريف السحر في اللغة والاصطلاح، والفرق بين السحر والمعجزة، والسحر والحسد، كما تحدّث الكتاب عن بواعث السحر ودوافعه، وعن السحر بين الحقيقة والوهم، وطرائق السحر وأنواعه، وصلة الشياطين بالسحر والسحرة، والشروط التي يجب توفُّرها في الساحر كي يعينه الشيطان.

وتناول الكتاب موضوع: هل سُحر الرسول محمد ﷺ؟ وعن الحديث الوارد في الموضوع ووجهة نظر الذين رَدُّوا هذا الحديث، والرد على الذين رَدُّوا هذا الحديث.

وتحدث الكتاب عن علاج السحر والوقاية منه، وطرق الأمم في الوقاية من السحر والخلاص منه، وموقف الإسلام من علاج السحر والوقاية منه، وحكم الإسلام في اللجوء إلى السحرة لحل السحر، والطرق الشرعية في الوقاية منه، والطرق المشروعة لإزالة السحر، وعن الآيات والأدعية التي تقي من السحر وتزيله.

ووضَّح الكتاب حكم السحر والسحرة، وحكم تعلُّم السحر وتعليمه، وحكم سحر النجوم، وعقوبة الساحر عند غير المسلمين وعند المسلمين.

وتحدث الكتاب عن توبة الساحر، وعن تفسير آيات السحر من سورة البقرة، وعن أدعياء علم الغيب، وعن علاقة الكهان بالشيطان، وطريقة وحي الشيطان للكهان، ونماذج من الكهانة والعرافة، ككهان الإغريق والمصريين، وكهان العرب، ومصادر الغيب الذي تُوحي به الشياطين، وعن انتشار التنجيم والكهانة في هذه الأزمنة، واستغلال الساسة للمنجمين، وعن حكم مدّعي علم الغيب، وغير ذلك من الأمور المُتعلِّقة بمواضيع السحر والشعوذة.

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ ـ ٨٢]:

وتفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]:

ولا يذكر السياق هنا ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون، ولا كيف تصرف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم مستقلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المُتعلِّق بربه، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها، إنما يعقّب بهذا المشهد، مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعي، وتتجلَّى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة، ولنفس الغرض لا يطيل هنا مشهد الخروج والوقوف أمام البحر ـ كما يُطيل في سورة أخرى ـ بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة، لأن مقدماته كانت في الضمائر والقلوب، وإن هو إلا إيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله ليلاً، فيضرب لهم طريقاً في البحر يبساً دون تفصيل ولا تطويل ـ فنعرضه نحن كذلك كما جاء ـ مطمئناً إلى عناية الله ترعاهم، فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه، ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه[(١)].

أ ـ قال الدكتور صلاح الخالدي: لقد شق الله طريقاً في قعر البحر، وجعله في

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٤).

لحظات آمناً ممهّداً يبساً جافّاً صالحاً للسير، ولم ترد ﴿ يَبَسًا ﴾ في غير هذا الموضع من القرآن(١).

ب ـ وفرّق الإمام الراغب بين اليَبْس واليَبَس فقال: «اليَبْس: يابس النبات، وهو ما كان فيه رطوبة فذهبت، واليَبَس: المكان يكون فيه ماء فيذهب، قال تعالى: ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾» (٢).

وورد في (المعجم الوسيط): اليَبَس: اليابس، يقال: أرض يَبَس: صلبة شديدة، ومكان يَبَس: كان فيه ماء فذهب(٣).

وتجفيف قاع البحر من الماء والطين وتحويله إلى أرض «يَبَس» جافة آية أخرى من آيات الله، لأن الله هو الذي أمر تربة قاع البحر أن تشرب الماء، وأمر الطين أن يجف في لحظة فتحول قاع البحر إلى طريق يبس، وطمأن الله موسى على الطريق الجديد، فقال له: ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾: لا تخاف غرقاً، فاسلك هذا الطريق اليبس، الممتد في درك البحر وقاعه، وسط أمواج البحر الواقفة على جانبيك، ولا تخاف انطباقه عليك، ولا تخاف دركات تحت الماء وغرقك في قاعه، فسوف يحميك الله ويحفظك، ويجعلك تجتاز بقومك الطريق، ولن ينطبق عليك فِرقا البحر، والخلاصة أن الدرْك، بإسكان الراء هو القعر، والدّرَك بفتح الراء هو الغرق والوصول إلى القعر(٤).

ت ـ قال السعدي: لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعِبَر ما قصّه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يُظهروا إيمانهم

(١) القصص القرآني، (٣/ ٩١).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٩١).
(٣) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ١١٠٦.
(٤) القصص القرآني، الخالدي، (٣/ ٩٣).

ويُعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن يُنجيهم من عدوهم، ويُمكِّن لهم في الأرض ليعبدوه جهراً ويُقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بني إسرائيل سرّاً ويسيروا أول الليل ليتمادوا في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل، هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذ ليس فيهم داع ولا مجيب، فحنق عليهم عدوُّهم فرعون، وأرسل في المدائن من يجمع له الناس، ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل، ليُوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦٠ ـ ٦١].

قلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم قد امتلأ عليهم غيظاً وحنقاً، وموسى مطمئن القلب ساكن البال، قد وثق بوعد ربه فقال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه، فانفرق اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطريق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله ألا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق.

فجاء فرعون وجنوده فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين، وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم وغرقوا كلهم، ولم ينجُ منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم قد أقر الله أعينَهم بهلاكه، وهذه عاقبة الكفر والضلال وعدم الاهتداء بهدي الله. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بما زيّن لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال[1].

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٧).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]:

وهنا المعنى: وتبعهم فرعون مصاحباً جنوده، وقد أرسل إليهم يدعوهم معه قائلاً: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون. اجتمع بكل من عنده من جند قوي تجبَّر بهم وعاند، فتبع موسى الذي جمع بني إسرائيل، فكان جمعُ الأقوياء وراء جمع الضعفاء، ولكن كان الله مع الضعفاء، فرعون وجنده وراء موسى وبني إسرائيل، ويحسب المغرور أن البحر حاجزهم، ولكن رب السماوات والأرض، ورب البحار والأنهار، شق البحر بهم، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، وكان كل فرق كالطود العظيم، وكان البحر الذي يكون الناس فيه كدُودٍ على عُودٍ، اثني عشر فرقاً، كان لكل جماعة طريق، وتبع كلُّ أناس إمامَهم، فرأى المغرور الطريق بين يديه يبساً كما هو بين يدي بني إسرائيل، وقد ضل هو وجنده حتى إذا تم دخولهم انطبق عليهم البحر[١].

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: غطّاهم الماء، وقد أُبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهوله، وأنه فوق الحصر والوصف، كأن تقول في الأمر الذي لا تقدر على تفصيله، حصل ما حصل[٢]، أي غطاهم من البحر ما غطاهم، وهذا من الإيجاز المعجز وصاروا في البحر، فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

والإبهام هنا لتذهب به النفس بالخيال كل مذهب وكل خيال فيه دون الحقيقة لأن جنداً بأكمله، كان يتجبر به فرعون ويستعلي ويغتر وقد جمعه كله بإرادته، قد ألقاه فرعون في البحر إلقاء[٣]، وفي لقطة أخرى لهذه الحادثة يبين الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن موسى عليه السلام بعد أن عبر بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته، فلا يتمكَّن فرعون من

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٥٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٤٠).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٥٩).

اللحاق به، ولكن توجيهات المولى تبارك وتعالى لها شأن آخر فأوحى الله إليه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] أي: اتركه كما هو، لا تُعِدْه إلى استطراق سيولته، فكما أنجيتك بالماء سأُتلف عدوّك بالماء، فسبحان من ينجي ويهلك بالشيء الواحد[١]، وفي الآية الكريمة: يجمل السياق ما غشي فرعونَ وقومه، ولا يفصّله، ليبقى وقعه في النفس شاملاً مهولاً لا يحدده التفصيل، وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة، كما قادهم إلى الضلال والبحر، وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار.

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ما حدث في هذا الموضع، كي نتابع السياق في حكمه الإجمالي، إنما نقف أمام الآثار التي يتركها المشهد، ونستمع لإيقاعه في القلوب، فلقد توالت يد القدرة في إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان، فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها سوى اتباع الوحي والسير ليلاً، وذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع؛ موسى وقومه ضعاف ومجردون من القوة، وفرعون وقومه يملكون القوة كلها، فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلاً[٢].

هنا تولَّت يدُ القدرة إدارة المعركة، ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواه، بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه، لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده، يقول الطغيان: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، فيقول الإيمان: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد، فقد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية، وانكسرت راية الباطل، وذلك بلا جهد من أهل الإيمان، وهناك عبرة أخرى؛ فحين كان بنو إسرائيل يُؤدون ضريبة الذل لفرعون، وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، لم تتدخل يد القدرة

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٤٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٥).

لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة وخوفاً، ولكن حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدُّوا لاحتمال التعذيب، وهم مرفوعو الرؤوس؛ يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب، فأمّا عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب.

إذن، هذه هي العبرة التي يُبرزها السياق القرآني بذلك الإجمال، وتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات ليستيقنها أصحاب الدعوات، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض، والطغاة يملكون المال والجند والسلاح[١].

٣ـ قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٨ـ٧٩]:

لأنه قادهم إلى طريق الشقاء والتعاسة، وما دلّهم على طريق السعادة والهداية، وهو ردّ على فرعون وتهكّم به عندما كان يقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وتلك هي العاقبة الأليمة التعسة لكل الذين يسيرون في ركاب الظالمين من أمثال فرعون، ويُعرضون عن عبادة الله تعالى وطاعته والتزام أحكامه الشرعية[٢].

لقد أوقع فرعون في نفوس جنده أنه مدركهم، وأنهم قاتلوهم، إذ هم عُزّل من السلاح، وهم شرذمة قليلون كما قال، وما علم هو وهم أن معهم الله تعالى القادر على كل شيء وكان بهذا إضلالُهم إضلالاً حسّياً، ظهرت عاقبته فيه وفيهم بإغراقهم، وإن هذه صورة جلية حسية من إضلالهم العقلي والديني، فقد أضلَّهم فجعل نفسه إلهاً فيهم، وأضلَّهم فأرغمهم في نفسه، وصاروا ليس معهم وجود إنساني، فقد أضلهم وما هداهم، وأهلكهم وما نجّاهم[٣].

---

(١) المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٤٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٧١).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٠).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُمۡ مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ [طه: ٨٠]:

لله عزّ وجل على بني إسرائيل مِننٌ كثيرة، ونِعم لا تُعدُّ، كان مقتضى العبودية التي وصفهم بها: ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: ٧٧]، أي أن يتبعوا منهج ربهم، ويذكروا نعمه ذكراً لا يغيب عن بالهم أبداً، بحيث كلما تحركت نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمة من نِعَم الله عليهم، فيعلمون أنهم غير متطوعين بالإيمان، إنما يردّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء. والحق ـ تبارك وتعالى ـ هنا يذكرهم ببعض نعمه ويناديهم بأحب نداء ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٨٠]، وإسرائيل يعني عبد الله، عبده المخلص، كما تقول لصاحبك: يا بن الرجل الطيب الورع، فالحق يُذكِّرهم بأصلهم الطيب، وينسبهم إلى نبي من أنبيائه، كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ولا الخروج على المنهج وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح «يعقوب» عليه السلام.

أ ـ وقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُمۡ مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ [طه: ٨٠]، أي: من فرعون الذي استذلكم وذبح أبناءكم، واستحيا نساءكم وسخَّركم في الأعمال دون أجر، وفعل بكم الأفاعيل، ثم ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه: ٨٠]، لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة، إذن: خلّصناكم من أذى، وواعدناكم لنعمة: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ [طه: ٨٠]، واعد: مفاعلة لا تكون إلا من طرفين مثل: شارك وخاصم، فهل كان الوعد من جانبهما معاً: الله عزّ وجل وبني إسرائيل؟ الوعد كان من الله تعالى، لكن لم يقل القرآن: وعدناكم، بل أشرك بني إسرائيل في الوعد، وهذا ينبّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشيء ووافقت فكأنك دخلت في الوعد.

﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾: مكان تلقّي منهج السماء، وهو مكان بعيد في الصحراء، لا زرع فيه ولا ماء، لذلك يضمن لهم ربهم عزّ وجل ما يُقيتهم: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ [طه: ٨٠].

﴿ٱلۡمَنَّ﴾: سائل أبيض يشبه العسل، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى

على ورق الأشجار، وفي الصباح يجمعونه كطعام حلو، وهذه النعمة ما زالت موجودة في العراق، مثلاً، وتقوم عليها صناعة كبيرة هي صناعة المن.

﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾: طائر يشبه طائر السّمانى.

وهكذا وفّر لهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ مقوِّمات الحياة بهذه المادة السكّرية لذيذة الطعم، وطائر شهي، دون تعب منهم ودون مجهود، بل يرونه بين أيديهم مُعداً جاهزاً، وكان المنتظَر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم، لكنهم اعترضوا عليها[1]، فقالوا: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: ٦١].

وفي سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التي صاحبتهم في جدْب الصحراء نعمة أخرى، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ [البقرة: ٥٧] أي: حميناكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون في هذه الصحراء. ونلحظ اختلاف السياق هنا ﴿وَنَزَّلۡنَا﴾، وفي البقرة قال: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾؛ ذلك لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج الموضوع في لقطات مختلفة من جميع زواياه، فقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ تدل على التعدّي الأول للفعل، وقد يأتي لمرة واحدة، إنما ﴿وَنَزَّلۡنَا﴾ فتدل على التوالي في الإنزال[2].

ب ـ قال السعدي: يذكّر تعالى بني إسرائيل بمنته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليك الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة، فتتم عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه بإنزال المن والسلوى والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة[3].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٤٢).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٤٣).
(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٧).

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه : ٨١] :

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ : ذكر الله تعالى رزق بني إسرائيل بالمن والسلوى في سيناء ، فناسب أن يبين ـ سبحانه ـ شكر الرزق وفساد النعمة بالطغيان فقال : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ، وهذا الأمر لبيان إباحة الطيبات ، وهو في معناه يتضمن الطلب ، لأن الأكل مباح ومطلوب ، أما إباحته فلتخيُّر ألوانه الطيبة ، وأما طلبه فلمنع الإنسان نفسه من الأكل فيهلك ، والطيبات لا بد لها من أمرين : أن تكون كسباً حلالاً طيباً ، وأن تكون غير مستقذرة كالميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح ، وغير ذلك من المحرمات التي حُرِّمت لأنها رجس مستقذر ، ونهى سبحانه عن الطغيان في الرزق فقال :

﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ : أي لا تتجاوزوا الحدود فيه ، وتجاوز الحدود فيها يكون بضروب شتى ، منها :

- أن يطلبه من غير حلّه ، ومنها : أن يأكل السحت والربا .
- ومنها : أن يمنع الفقير من حقه .
- ومنها : أن يُسرف فيها إسرافاً ، وأن يُنفقه في غير موضعه .
- ومنها : الشح والبخل بأن يكون عبداً للدينار والدرهم .

فكل هذه مجاوزة للحد وطغيان ، وإن الذي يترتب على الطغيان في الرزق وعدم شكره غضب الله تعالى ، فقال : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ الفاء فاء السببية ؛ أي بسبب الطغيان ينزل بكم غضبي ، وهو أعظم ما يُفقد الإنسان معاني العلو ، فغضب الله يُبعد الشخص من سماء الرفعة ، ويهوي في مكان سحيق من المقت عن الله تعالى .

ولذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ أي : فقد نزل إلى الهاوية

السحيقة البعيدة الغور، ومن سقط في الهاوية فإنه يهلك لا محالة، ولذا قالوا: إن «هوى» معناه «هلك»، ولذلك فسر الزجّاج ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ بمعنى: فقد هلك[١].

أ ـ قال الشنقيطي: واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه، إذا انتُهكت حرماته تظهر آثارها في المغضوب عليهم، نعوذ بالله من غضبه ـ جل وعلا ـ ونحن معاشر المسلمين نؤمن بها كما جاءت، فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه ولا نكذّب بشيء من ذلك، مع تنزيهنا التام له جل جلاله عن مشابهة المخلوقين، وعلا سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً[٢].

ب ـ قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾؛ هنا هوى لها استعمالات: الأولى هوى يَهْوي، بمعنى سقط من أعلى سقوطاً لا إرادة في منعه، كأن يسقط فجأة من على السطح، والآخر: هَوى يَهوي أي: أحبّ، فيكون المعنى ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾؛ يسقط على القاع سقوطاً لا يُبقي له قيمة في الحياة، أو هَوَى في الدنيا، ويهوي في الآخرة كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩]، فأمُّه ومصدرُ الحنان له هاوية، فكيف به إذا هوى في الهاوية؟!

هذه كلها عِظات ومواعظ للمؤمن، يُبيّنها الحق سبحانه وتعالى له كي يبني حركة حياته على ضوئها وهداها، ولما كان الإنسان عرضة للانحياز لا يثبت على حال يتقلب بين عافية ومرض، بين غنى وفقر، فكل ما فيه موهوب له لا ذاتي فيه، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شيء من النعمة لأنها لن تبقى ولن تدوم، ولكن عليك حسن الصلة بالله والاعتماد على العزيز الوهاب واللجوء إليه،

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٣).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٥٠).

ومادام الإنسان خطّاء، فلابدّ أن يغفل عن الصواب، فتكون له سقطات وهفوات، وإنها تحتاج إلى توبة عن ذلك(١).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق والعصيان.

﴿لِّمَن تَابَ﴾: عما يرتكب من كبائر وهفوات، فالتوبة ضراعة إلى الله، ورجوع إليه وهي ذاتها عبادة، وإن الله يقبل التوبة من عباده، التوبة تجبّ ما قبلها من معاصٍ، كما أن الإيمان يجبّ الكفر(٢).

﴿وَءَامَنَ﴾: معناها ملأ الإيمانُ بجلالٍ قلبَه بأن قرن توبته بإذعان مطلق لله تعالى، وكان عمله صالحاً كصلاح قلبه، ولذا قال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأن قام بالعبادة مخلصاً محتسباً، وعمل النافع للناس، وكان يُحبُّ الشيء لا يحبه إلا لله.

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: مشى على الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله له أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجبّ ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهبُ السيئات، وسلوك طريق الهداية بجميع أنواعها، من تعلّم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد وهجرة وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مُكفِّرات للذنوب مُحصِّلات لغاية المطلوب(٣).

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٥٠).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٣).
(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٣٨).

عاشراً: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه: ٨٣ـ٩٨]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٨٣]:

سؤال من الله تعالى لموسى عليه السلام، وهو سبحانه أعلم بالجواب، ولكن أراد أن يُعلِّم موسى آداب السفر، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم نفسه عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفته ونافذاً فيهم ومهيمناً عليهم، وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم. ألا ترى الله عزّ وجل كيف علَّم هذا الأدب لوطاً؟ فقال: ﴿ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ [الحجر: ٦٥]، فأمره أن يكون آخِرَهم، على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عزّ وجل، ومسارعة

إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسرّه، يودُّ لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسَرَّ من مواعدة الله تعالى له[١].

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة الله، والوقوف بين يديه، وقد ذاق حلاوتها من قبل، فهو إليها مشتاق عجول، ووقف في حضرة مولاه، وهو لا يعلم ما وراءه، ولا ما أحدث القوم بعده، حتى تركهم في أسفل الجبل، وهنا يُنبِّئه الله بما كان خلفه[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]:

ومعنى ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: إن قومي سائرون على أثري ومتابعون لموقع قدمي، ومراده أن قومي قادمون ينزلون من جبل الطور، ويدل السؤال والجواب ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ على أن بني إسرائيل كانوا مع هارون عليه السلام، قريبين من موسى عليه السلام، كما يدل على أن موسى عليه السلام قد سبق قومه بالقدوم إلى جبل الطور، حسب الموعد الذي واعده الله إياه وكانوا بإمرة هارون، قريبين منه، ينزلون خلال مدة الثلاثين يوماً قريباً من جبل الطور؛ لذلك لما سأله الله عن سبب سبقه لقومه وعجلته عنهم، أجابه بأنهم على أثره قريبون منه، ثم أجاب عن سبب عجلته بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: تعجَّلت في القدوم إليك حسب الموعد، وذلك لتزداد عني رضًا[٣].

قال العلاّمة محمد أبو زهرة: أي كان الدافع في عجلتي إليك محاولتي إرضاءك وإحساسي أن المسارعة إليك ترضيك، وقال كلمتين تقرُّباً إليه سبحانه، ومشيراً بهما إلى رغبة في ذلك التعجيل.

الكلمة الأولى هي: ﴿إِلَيْكَ﴾ أي: عجلتي كانت إليك، وأنت القريب إلى نفسي وبكلامك أُنسي.

---

(١) تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، ص١١٠.
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٦).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ١٥٨).

والكلمة الثانية هي: ﴿رَبِّ﴾ أي: القائم على نفسي، ومَن صنعتني على عينك، فإني أُسرع إلى مَن صنعني على عينه جلّ جلاله[١].

أ ـ قال ابن كثير: لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩]، وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشراً، فتمَّت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور، ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي: لتزداد عني رضًا[٢].

ب ـ **وقال المفسّر تاج القرّاء الكرماني** في قوله تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ فاعتذر موسى: أي لم أقصد بذلك تعظُّماً عليهم، وإنّما قصدت المسارعة طلباً لمرضاتك[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]:

أ ـ **وشرح الشيخ الشنقيطي** في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾: الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل، فهي فتنة إضلال، كقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وهذه هي الفتنة بعبادة العجل جاءت مُبيَّنة في آيات متعددة كقوله: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

ونحو قوله هنا: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٦).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٦).
(٣) لباب التفاسير، (٥/ ٥٥٨).

الموضع كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ إلى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨] اتخذوه إلهاً، وقد صنعه السامري لهم من حلي القبط، فأضلَّهم بعبادته(١).

ب ـ قال الدكتور صلاح الخالدي: أخبر الله موسى بما حدث مع قومه في غيبته: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥]، فقد امتحن الله بني إسرائيل بالسامري، وابتلاهم وفتنهم به وجعله فتنة لهم، وذلك ليعلم من يَثْبت منهم على الإيمان والتوحيد، ومن يتخلَّى عن ذلك ويسير مع السامري في ضلاله وكفره، وأُسندت الفتنة إلى الله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ على اعتبار أنه القادر سبحانه وتعالى، وأن كل ما يقع فهو في مشيئته وإرادته، ولقد أراد امتحان بني إسرائيل بالسامري، فتحقَّق ما أراده سبحانه، وقام السامري بما قام به.

وبينما أُسندت الفتنة إلى الله تعالى في الجملة السابقة، فقد أُسند الإضلال إلى السامري: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ وهذا الإسناد حقيقي؛ لأن السامري هو السبب المباشر في إضلالهم، المُتسبِّب في فتنتهم، ولم يُذكر السامري في غير سورة طه، وهو اسم علم أعجمي جامد غير مشتق، فلا نبحث عن مادة اشتقاقه في اللغة العربية، ولا عن معنى اسمه فيها، وموقفنا منه كموقفنا من باقي الأسماء الأعجمية المذكورة في القرآن مثل هامان وقارون وفرعون.

ولقد ذَكر القرآن الكريم دور السامري في هذا الموضع من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ولم يُذكر له دور إلا في صناعة العجل من الحلي، وبعدما جاء موسى عليه السلام عاقبه بأن قال له: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، ولم يذكر لنا القرآن كيف كانت بداية السامري، ولا ما جرى له بعد عقاب موسى له، ولا كيف كانت نهايته، فلا نعرف شيئاً عن ذلك، لكن وجود السامري مع بني إسرائيل في سيناء يدل على أنه واحد منهم، فهو إسرائيلي خرج مع موسى من مصر. ونحن نقول ذلك لأن ظاهر القرآن أن موسى عليه

(١) أضواء البيان، (٤/ ٧٧).

السلام خرج ببني إسرائيل من مصر إلى سيناء، وأنه لم يصحبهم أحد من غيرهم في الخروج، فوجود السامري معهم في سيناء دليل على أنه واحد منهم(١).

وفي المراحل اللاحقة من تاريخ بني إسرائيل انقسموا إلى عدة فرق كان منها فرقة «السامريين»، والسامريون طائفة يهودية خاصة لهم أفكار ونظرات خاصة تختلف عن باقي طوائف اليهود وفرقهم، وتُكفِّر باقي الطوائف، ويبدو أنهم يتفقون مع السامري في الاسم فقط، فهو سامري وهم سامريون، ولعله لا توجد نسبةٌ بينهم وبينه، فلم يذكر التاريخ شيئاً عن السامري بعد عقابه، ولا عن أولاده ونسله وذريته، كما أنه لا صلة بين «السامري» وبين مدينة «سامرة»، التي بناها بعض ملوك اليهود بالقرب من مدينة نابلس في فلسطين؛ لأن بناء السامرة كان في فترة متأخرة من تاريخ اليهود بعد هلاك السامري بعدة قرون(٢).

ت ـ قال محمد متولي الشعراوي: الفتنة ليست مذمومة في ذاتها؛ لأن الفتنة تعني الاختبار، ونتيجته هي التي تُحمد أو تُذمُّ(٣).

ث ـ وقال محمد أبو زهرة: في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] أي: أوقعهم في الضلال، والسامري شخص انتقل معهم من مصر، كان يُجيد النحت والتصوير، ولم ينص على أنه من الإسرائيليين أو أهل مصر الأصليين، ويغلب على الظن أنه إسرائيلي اندمج مع المصريين وعرف صناعاتهم(٤).

ويبدو أن السامري كان رجلاً متطلِّعاً للزعامة في بني إسرائيل، ورأى الفرصة سانحة له في غياب موسى عليه السلام، فقام في بني إسرائيل واعظاً داعياً لهم للتوبة والتخلص من الأوزار التي يحملونها، ومن المعلوم أن المصريين القدماء كانوا حريصين على التحلِّي بالذهب، ودلّ على ذلك ما حكاه الله سبحانه من

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٦٠).
(٢) القصص القرآني، للخالدي، (٣/ ١٦٢).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٥٤).
(٤) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٧).

كلام فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢ ـ ٥٣]، ويبدو أن السامري كان خبيراً بصياغة الذهب، فأخذ الذهب الذائب في النار، وصنع منه تمثالاً عِجلاً[١].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦]:

«الفاء»: تفيد الترتيب والتعقيب، ففور أن بيَّن الله تعالى ما كان بقومه رجع موسى إليهم في حال غضب وحزن، ولذا قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ﴾، والقوم هنا هم الإسرائيليون جميعاً الذين كان منهم الذين عبدوا العجل[٢]، وبعدما أُخبر موسى بإضلال السامري لقومه حزن موسى وتألَّم، وحمل ألواحه معه، وغادر جبل الطور وعاد إلى قومه.

وقد وصفت الآية موسى عند عودته لقومه بوصفين: ﴿غَضْبَٰنَ﴾، ﴿أَسِفًا ۚ﴾:

﴿غَضْبَٰنَ﴾: وصفٌ يدل على شدة غضبه على قومه، لضلالهم وفساد أحوالهم وعبادتهم للعجل.

﴿أَسِفًا ۚ﴾: وصفٌ يدل على شدة حزنه على قومه أيضاً بسبب ما فعلوه[٣].

قال محمد الطاهر بن عاشور في الغضب والأسف؛ فالغضب هو انفعال النفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوءُها ويُسخطها دون خوف، والوصف منها غضبان، وأما الأسف فهو انفعال للنفس، ينشأ من إدراك ما يُحزنها وما تكرهه، مع انكسار الخاطر، والوصف منه أسِفٌ.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٧٧).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٦٧).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ١٦١).

وقد اجتمع الانفعالان في نفس موسى، لأنه يسوءه وقوع ذلك في أمته، فانفعاله المُتعلِّق بحالهم غضبٌ، وهو أيضاً يُحزنه وقوعُ ذلك وهو في مناجاة الله تعالى التي كان يأمل أن تكون سبب رضا الله عن قومه، فإذا بهم أتوا بما لا يُرضي الله ولذلك انكسر خاطره(١).

إذن، غضب موسى من جريمة قومه وعصيانهم، وأسِفَ وحزن من أجلهم، وتألَّم من أفعالهم القبيحة، وليست هذه أول مرة يغضب فيها منهم، ويأسف حزناً عليهم، فقد مرّ بذلك الغضب والأسف لما كانوا في مصر معذَّبين وقالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومرَّ بذلك الغضب والأسف لما مرّوا على قوم يعبدون أصناماً فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩]، إن موسى عليه السلام يواجه هذه الطبيعة العجيبة لقومه، وكلما حاول أن يرتقي بهم في عالم الإيمان والفضائل، ارتكسوا وهبطوا إلى عالم المخالفات والرذائل، وهذه طبيعة تدعو إلى غضبه عليهم وحزنه من أجلهم(٢).

وقد وصل موسى عليه السلام إلى قومه، وهو يحمل الألواح، فوجدهم عاكفين على العِجل الذهبي عابدين له، فزاد غضبُه وحزنُه وأسفُه، وألقى الألواح من يديه كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقال ابن عاشور: وإلقاء الألواح رميُها من يده إلى الأرض، وذلك يُؤذن بأنه لما نزل من المناجاة كانت الألواح في يده، ثم إن إلقاءه إياها إنما كان إظهاراً للغضب، أو أثراً من آثار فوران الغضب لمّا شاهدهم على تلك الحالة(٣).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، (١٧/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٦٢).
(٣) تفسير التحرير والتنوير، (٩/ ١١٣).

فلم يكن إلقاؤه الألواح إهانة ولا تحقيراً لها، وإنما كان إلقاءً لا إراديّاً، ناتجاً عن شدة غضبه وانفعاله، غضب موسى وحزن وأسف لمّا علم بعبادة قومه العجل وهو على الجبل، لكن غضبه وأسفه زاد وتفاعل لما رآهم يعبدون العجل، وأدّى ذلك إلى إلقائه الألواح(١).

روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه من العجل، فلم يُلقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»(٢).

يشير الحديث إلى الفرق بين تأثُّر مَن أُخبر عن شيء، وتأثُّر من عاش ذلك الشيء ورآه، ليس الخبر كالمعاينة؛ فتأثّر وانفعال المشاهد للشيء أضعاف تأثر مَن أُخبر به، وهذه حالة نفسية معروفة، وذِكر الحديث حالة موسى عليه السلام أوضح مثال على هذا، حيث اختلف انفعاله عندما شاهد قومه يعبدون العجل عن انفعاله عندما أُخبر عن ذلك، لقد أدّاه انفعاله عندما شاهدهم إلى إلقاء الألواح؛ ونتج عن إلقائها انكسارها، كما أخبر رسول الله ﷺ(٣).

وأقبل موسى عليه السلام على قومه لائماً غضبان ومُعنِّفاً لهم، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦]، لامهم على مخالفتهم في غيابه وذمّهم على سوء خلافتهم له(٤): ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٦٣).
(٢) مسند أحمد، (١/ ٢١٥)، السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠٧.
(٣) القصص القرآني، (٣/ ١٦٣).
(٤) القصص القرآني، (٣/ ١٦٤).

وموسى عليه السلام على الرغم من غضبه وأسفه وإلقائه الألواح وانزعاجه الشديد من عبادة العجل، والشرك بالله سبحانه، كان رفيقاً مع من يُحقِّق معهم، فهو يناديهم بأحب نداء لديهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ بالميم المكسورة التي تدل على ياء المتكلم المحذوفة أي: يا قومي، فلازال الارتباط بهم قائماً، ولم يحدث بعدُ أن تبرَّأ منهم، ولم ييأس من هدايتهم طالما هو بين ظهرانيهم، ومع النداء الرفيق يكون الانتباه من المخاطبين والتهيُّؤ لما يُعرَض عليهم من أمور[1]. والاستفهام في ﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ إنكاري، ومعنى «عجلتم»: تعجَّلتم وسارعتم.

ومعنى ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾: غضبه وعقابه، وأما معنى قوله: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾؟: لماذا سارعتُم بفعل ما يُسبِّب غضب ربكم عليكم؟ وهو عبادتكم العجل، أما علمتم أن الله يغضب من ذلك ويُعاقب من فعله؟ فكيف فعلتموه؟ أتريدون أن تتعجَّلوا عقاب الله؟!

والاستفهام في ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾؟ إنكاري، فلما عبدوا العجل استحقّوا غضب الله، وكأنهم بذلك يُنكرون وعد الله الحسن الذي وعدهم إياه، فنزّلهم موسى عليه السلام بهذا الاستفهام الإنكاري منزلة من زعم أن الله لم يعدهم وعداً حسناً، لأن عبادتهم العجل تتناقض مع الوعد الحسن.

والمراد بالوعد الحسن هنا وعد الله لموسى ثلاثين ليلة لإنزال التوراة عليه بعدها، فوعدُه لموسى وعدٌ حسن منه سبحانه لهم، لأن في التوراة إحساناً لحياتهم وإصلاحاً لحالهم، وكان الأجدر بهم أن ينتظروا وعد الله بالحسنى والعبادة، وأن يرتقبوا عودة موسى بالتوراة ليصلح حياتهم، فكيف يصح انتظار عودة موسى وهم عابدون لغير الله؟!

والاستفهام في ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ إنكاري أيضاً، والمراد بالعهد هنا المدة التي غابها عنهم، فقد أخبرهم أنه سيعود إليهم بعد ثلاثين يوماً، وأبقى

(١) في موكب النبيين، سيد محمد الكيلاني، دمشق، دار القلم، ١٩٨٤م، (٢/ ٥٠٠٠).

فيهم أخاه هارون النبي، ومدَّد الله المدة عشرة أيام، وفي هذه الأيام عبدوا العجل، إنه ينكر عليهم ما فعلوه في هذه المدة، ألأنه غاب عنهم عشرة أيام أخرى ظنوا به الظنون، وخالفوا دينه وعبدوا العجل؟ كانت الأربعون يوماً عهداً طويلاً وفترة مديدة، طال عليهم العهد فيها، ودفعتهم إلى عبادة العجل؟ ومعهم خليفته النبي هارون، إن الأربعين يوماً مدة قصيرة لا تدعوكم إلى مخالفة شرع الله وعبادة غيره ولا شبهة ولا عذر لكم فيما فعلتموه فيها!

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ حرف إضراب بمعنى «بل»، والمعنى: كلا إنه ما طال عليكم العهد في غيابي، بل أنتم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، فأخلفتم موعدي وعبدتُم العجل[1]!

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]:

ومعنى كلامهم ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾؛ أننا لم نتعمد إخلاف موعدك، ولا عبادة العجل، وما فعلنا ذلك بإرادتنا واختيارنا ورغبتنا، فكنا نريد أن نبقى محافظين على العهد والوعد، ولكن حصل أمر ليس في حسابنا أدّى ذلك إلى إضلالنا وإخلافنا الموعد. وبيَّنوا الذي حملهم على إخلاف الموعد وعبادتهم العجل بقولهم: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

ومعنى ﴿حُمِّلْنَا﴾ أي: حَمّلنا السامري أوزاراً من زينة القوم، وأشعرنا أننا مذنبون بتملُّكنا، وأمرنا بطرحها فقذفناها لنتخلص منها[2]. فالقوم أخبروا موسى عليه السلام أنهم شعروا بأنهم يحملون الأوزار والآثام، وقوّى شعورهم بالتخلص منها وطلب منهم إلقاءها وقذفها، وبيَّن لهم أنّ هذا هو الطريق الوحيد للتخلص منها[3].

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٦٥).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٦٦).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ١٦٧).

قال محمد متولي الشعراوي: وكانت هذه الأوزار من زينة القوم، أي: قوم فرعون، وقالوا: إنهم كانوا في أعيادهم يستعيرون الحلي من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيّنون بها، فلماذا لم يَردُّوا هذه الأمانات إلى أصحابها قبل أن يخرجوا من الميقات الذي واعدهم عليه؟

قالوا: لأنهم أرادوا أن يُسِرّوا ساعة خروجهم، حتى لا يستعد لهم أعداؤهم، ويصدّوهم عن الخروج، فأُعجلوا عن ردّها، وقال قوم: إن هذه الزينات والحليّ كانت مما قذف به البحر بعد أن غرق فرعون وقومه، لكن هذا القول مردود؛ لأنهم إن أخذوها بعد أن ألقى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]: إذا أُطلقت الزينة تنصرف عادة إلى الذهب، والقذف هو الرمي بشدة، وكأن الرامي يتأفف أن يحمل المرمى، وفي ذلك دلالة على أن بني إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان، فتألّموا وحزنوا لأنهم لم يردوا الأمانات إلى أهلها، لذلك دخل عليهم السامري من هذه الناحية، فأفهمهم أنكم لن تبرؤوا من هذه المعصية إلا أن ترموا بهذه الزينة في النار، وهو يقصد شيئاً آخر، وهو أن ينصهر الذهب ويخرج ما فيه من الشوائب: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧] أي: ألقى ما معه من الحليّ، لكن فرق بين القذف والإلقاء، الإلقاء فيه لطف وتمهل، فهو كبيرهم ومعلّمهم[1].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]:

أي: أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾، والعجل هو ولد البقرة قبل أن يكبر ويصير ثوراً، ولم يكن العجل الذي صنعه السامري عجلاً حيّاً حقيقيّاً له روح وحياة، ومكوّن من لحم ودم، لأنه لو كان كذلك لكان السامري خالقاً حقيقة وهذا مستحيل، لأن الله وحده هو الخالق المُحيي المُميت،

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٦٠).

السامريّ صانع تماثيل ماهر في تشكيلها وتصويرها وإخراجها، تبقى تماثيل جامدة لا حياة ولا روح فيها[١].

ولهذا وصف العجل الذي صنعه بأنه جسد له خوار[٢]. وقد بيّن الإمام محمد الطاهر بن عاشور الفرق بين الجسم والجسد في القرآن فقال: والجَسَد: الجسم الذي لا روح فيه وهو خاص بجسم الحيوان إذا كان بلا روح، والمراد أنه كجسم العجل في الصورة والمقدار إلا أنه ليس بحي.

وما وقع في القصص أنه كان لحماً ودماً، ويأكل ويشرب، فهو من وضع القصاصين، كيف والقرآن يقول: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ ويقول: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، فلو كان لحماً ودماً لكان ذِكره أدخل في التعجيب منه[٣].

لقد فرق القرآن بين الجسد والجسم، فالجسد ـ كما قال ابن عاشور ـ هو الجسم بلا روح أو التمثال الجامد، والمرات الأربع التي وردت فيها كلمة «الجسد» في القرآن تؤكد ذلك، **فمنها مرتان** في وصف عجل السامري، وأنه جسد له خوار، و**المرة الثالثة**: في وصف الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، وسنتحدث عن ذلك بإذن الله عند عرضنا لقصة سليمان إن شاء الله[٤].

والمرة الرابعة: في الحديث عن الأنبياء السابقين، حيث وصفهم بأنهم رجال أحياء، وليسوا أجساداً جامدة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ـ٨].

أما الجسم في القرآن فهو الجسم الحي الذي فيه روح وحياة، وورد في

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٧٥).
(٢) الخوار: صوت الثور وما اشتد من صوت البقر والعجل.
(٣) تفسير التحرير والتنوير، (٩/ ١١٠).
(٤) القصص القرآني، (٣/ ١٧٥).

القرآن مرتين بهذا المعنى؛ ورد في الحديث عن الملك «طَالُوتَ» الذي جعله الله ملكاً على بني إسرائيل: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وورد في الحديث عن أجسام المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

والخوار هو صوت العجل الحقيقي الحي، ولم يرد في القرآن ـ إلا في موضعين في سورتي الأعراف وطه ـ ذِكرٌ للعجل الذهبي الذي صنعه السامري، وبما أن عجل السامري كان جسداً دون حياة، فكيف كان له خوار؟

لم يكن خواره خواراً حقيقيّاً، لأنه لم يكن حيّاً، وإنما كانت مهارة السامري في صنعه، حيث صنعه بطريقة خاصة بحيث إذا دخله الريح خرج منه صوت يشبه خوار العجل الحي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار، ولا والله ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه وكان الصوت من ذلك[١].

لقد أُعجب السامريّ بالعجل الذهبي الجسد الذي صنعه، وزاد إعجابه عندما كان يسمع خواره عند دخول الهواء فيه وخروجه منه، وافتخر بمهارته وموهبته الصناعية، ودعا السامريُّ بني إسرائيل إلى النظر إلى العجل وسماع خواره، فأُعجبوا به وبخواره، وكانوا يعرفون «العجل الصنم» الذي كان يعبده المصريون: فالقوم عاشوا في مصر، وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل «أبيس»، وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل، وكانت العجول المؤلَّهة إذا ماتت حنّطوها ـ كما يُحنَّط الآدمي ـ بما يحفظ جسمها من التلف، ودفنوها في مقبرة خاصة من جهة سقارة[٢].

ويبدو أن بني إسرائيل تأثروا بعبادة المصريين للعجل «أبيس»، وبقي هذا التأثر والإعجاب كامناً في نفوسهم، فلما جاءت أول فرصة لإظهار هذا التأثر الكامن برز

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

(٢) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، القاهرة، دار الكتب العلمية، ٢٠١٦م، ص٢١٨.

في حياتهم، وعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، ومن المعلوم بداهة أنه لم يَعبد كلُّ بني إسرائيل عجلَ السامريّ، حيث انقسموا إلى قسمين: قسم أُعجبوا بالعجل وعبدوه، وقسم بقوا مع هارون عليه السلام وثبتوا على الإيمان بالله وتوحيده.

ونقف لحظة مع الفريق الذين عبدوا العجل، فلما دعاهم السامريّ إلى عبادته استجابوا له وقال بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى نبيكم، ولكن موسى نسي أن إلهه هنا معنا، فذهب يبحث عنه عند جبل الطور.

قال السدّي في معنى قوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾: قال الضالّون الذين افتَتنوا بالعجل وعبدوه: هذا إلهكم وإله موسى، فنسيه موسى هنا وذهب يبحث عنه هناك. ولابن عباس قول آخر في المفعول به قال: قالوا هذا إلهكم وإله موسى، فنسي موسى أن يذكر أن هذا إلهكم وإله موسى، وبذلك نسي السامري الهدى والإيمان الذي أخذه من موسى وتركه وأضاعه، واختار الكفر بالله[١].

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: أي نسي السامري خميرة الإيمان في نفسه، ونسي أن هذا العمل خروج عن الإيمان إلى الكفر، وهو لا يكفر في ذاته، إنما هو يَكفر ويُكفّر الناس، ولابدّ أنه نسي، فلو كان على ذكر من الإيمان، ومن عاقبة عمله وخيبة ما أقدم عليه، ما فعل[٢]. وعقب القرآن الكريم على جهالتهم وضلالهم في عبادة العجل[٣]، فقال:

٧ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]:

والمقصود أنه لم يكن عجلاً حيّاً يسمع قولَهم ويستجيب لهم على عادة العجول البقرية، فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية، وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً في أبسط صورة، فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٥٨).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٧٨).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ١٧٨).

طاحونة ولا ساقية[١]، ولا شك في أن وقوع من وقع في عبادة العجل دليل على بلاهة فكره وبلادة روحه.

أين هذا العِجل التمثال الذي عبده هؤلاء السفهاء من دون الله رب العالمين، الذي أنعم عليهم وهداهم، والذي أنقذهم وأنجاهم؟! وفي قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾: هو استفهام للإنكار عليهم، والتعجيب من جهالتهم وضلالهم، فهم يشاهدونه ويرونه ولا يكلمهم، وإذا كلّموه لا يردّ عليهم، وإذا سألوه لا يُجيبهم، ومعنى ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: لا يرد إليهم قولاً ولا يقدم لهم جواباً، فهم يدعونه ويُثنون عليه ويُمجِّدونه وهو ساكت لا يشكرهم ولا يعدهم خيراً[٢].

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقال أيضاً: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

إن الآيات الكريمة بيَّنت:

أن هذا العجل الذي عبدوه، من دون الله سبحانه، لا يُكلِّمهم ولا يرد سؤالهم، وأنه لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يهديهم سبيلاً.

أنهم بشركهم كانوا ظالمين لأنفسهم[٣].

إن التأمل والنظر والتفكير في قصة موسى عليه السلام يُظهر: أن الاستعباد الطويل في ظل الفرعونية الوثنية أفسد الفطرة، وأضعف استعدادها لاحتمال التكاليف والصبر عليها والوفاء بالعهد والثبات عليه، ودمَّر الكيان النفسي القائم على توحيد الله وحده وإفراده بالعبادة.

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٨).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٧٩).
(٣) في موكب النبيِّين، (٢/ ٥٠٣).

إن الأنظمة الفرعونية تساهم في بلاهة الفكر وبلادة الروح وتفاهة البشر، لقد تصدى لفتنة عبادة العجل قبل موسى عليه السلام نبي الله هارون عليه السلام فقال لقومه:

٨ ـ **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]:

وكان هارون عليه السلام خليفة لأخيه في غيبته كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، اخلفني واعمل الصالح، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضي في القوم بما يراه مناسباً، وأن يقدّر المصلحة التي يراها[(١)].

إن نبيَّ الله هارون عليه السلام بيَّن لهم أن عبادتهم العجل فتنة فُتنوا بها ـ أي كفر وضلال ارتكبوه بذلك ـ وبيَّن لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء ـ جل وعلا ـ وأن عجلاً مصطنعاً من حلي لا يعبده إلا مفتون ضالٌّ كافر، وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى والوفاء بموعد موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن يطيعوه في ذلك، فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى.

وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمرَّدوا عليه ولم يُطيعوه. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فقوله عنهم في خطابهم له: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ يدل على استضعافهم له وتمرُّدهم عليه المُصرَّح به في الأعراف كما بيّنا[(٢)].

أ ـ وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾: وإن ربكم الرحمن الذي تعم جميعَ الخلق نعمُه، فاتبعوني فيما آمركم به من طاعة الله وإخلاص العبادة له[(٣)].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٦٣).
(٢) أضواء البيان، (٤/ ٨٧).
(٣) تفسير الطبري، (١٦/ ٢٠٢).

ب ـ وقال ابن كثير: يُخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادة العجل، وقوله لهم: إنما هذه فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه[١].

ت ـ وقال أبو بكر الطرطوشي الفقيه المالكي: وأما الرقص، فأول من أحدثه أصحاب السامري لمّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون، فهو دين الكفار وعبادة العجل[٢].

ث ـ قال الرازي: اعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب، ثم إن هارون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار، ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم، بل صرح بالحق فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ الآية، وهاهنا دقيقة وهي أن الرافضة تمسكوا بقوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»[٣].

ثم إن هارون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع، بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه، والمنع من متابعة غيره، فلو كانت أمة محمد ﷺ على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هارون عليه السلام، وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب.

واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق، وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى

(١) تفسير القرآن العظيم، (٥/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (١١/ ١٥٨).
(٣) البخاري، رقم ٣٧٠٦.

التي هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه.

وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فخصّ هذا الموضع باسم الرحمن، لأنه كان يُنبئهم بأنهم متى تابوا قبِل الله توبتهم؛ لأنه هو الرحمن الرحيم، ومن رحمته أن خلَّصهم من آفات فرعون، ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ كأنهم قالوا: لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى، وعادةُ المقلِّدِ ليس إلا ذاك[1].

رحم الله الرازي في رده على الروافض الذين يفترون على الله الكذب فهم لا يفلحون، حيث وصفوا أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يجوز في حقهم، وألصقوا بعليّ من الغلو ما لا يليق به، ومن ذلك ما حاولوا بثَّه من شُبَه حول حديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». ورحم الله الرازي إذ قرر أن عليّاً لو كان مشابهاً لهارون لكان عليه أن يقوم كما قام هارون، ويُبيِّن للناس أنه وصيُّ رسول الله ﷺ، وأن الصحابة ظلموه وأخذوا حقه الموصى له به، فلما لم يفعل رضي الله عنه تبين كذب الرافضة، وأن عليّاً مهما علت منزلته عند رسول الله ﷺ، فإنه يبقى تابعاً للأئمة قبله: أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وأنه أحد رعاياهم، تجب عليه طاعتهم في المعروف، وما سوى هذا فهو هذيان وبهتان[2].

كان علي بن أبي طالب، مقدَّماً ومبجَّلاً عند الخلفاء الراشدين الذين سبقوه رضي الله عنهم، وما كان بينهم من الأخوة في الله والتعاون على البر والتقوى، في روايات صحيحة، ينسف أباطيل الروافض، كما بَيّن الرازي التسلسل في الدعوة إلى الله، وأن التخلية يجب أن تكون قبل التحلية، ولهذا كانت دعوة الرسول ﷺ مؤسَّسة على اجتثاث الشرك وقلعه من جذوره وإزالته من صدور أصحابه، ثم غرس التوحيد والنبوة والقرآن، واستمرت دعوته ودعوة أصحابه على هذا المنوال وهذا المنهاج، فهنيئاً لمن وُفِّق في دعوته إلى هذا الترتيب

(١) مفاتيح الغيب، (٢٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨).
(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن، (٢١/ ١٧٢).

المبارك الطيب الذي استنتجه الرازي في هذه الآية[١].

٩ ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]:

سنبقى عابدين للعجل، عاكفين على عبادته، ملازمين له، حتى يرجع موسى إلينا، إن القرآن الكريم يبين الحقيقة في موقف هارون عليه السلام من نهيه لقومه عن عبادة العجل، وينسف الرواية التوراتية المكذوبة المحرَّفة التي كتبها أحبار اليهود الكَذَبة، واتهموا هارون عليه السلام بأنه هو الذي صنع لهم العجل وقدمه لهم إلهاً، ودعاهم إلى عبادته. وهذا من مكر أتباع إبليس في تشويه الأنبياء واتهامهم هارون عليه السلام بأنه هو صانع العجل، وأنه خان الأمانة، ودعا القوم إلى عبادة غير الله عز وجل بدل أن يدعوهم إلى عبادة الله. إن هارون عليه السلام بريء من هذا الاتهام والبهتان، وإن الأحبار الكَذَبة هم الذين كتبوا هذا الكلام بأيديهم، ثم زعموا أنه كلام الله، وهذا دليل واضح على تحريف التوراة[٢].

لقد كان هارون عليه السلام موحِّداً غير ممالئ، وما كان لنبي أن يعتنق غير التوحيد، ولا أن يُمالئ المشركين، ولكنها التوراة التي تم تحريفها، وتلك فرية على نبي الله هارون تليق بقوم مفترين، ولا تليق بكتاب منسوب إلى الله عز وجل[٣].

وفي قوله: ﴿لَن نَّبۡرَحَ﴾ أي: سنظل على هذا الحال، البعض يظن أنها للمكان فقط، إنما هي حسب ما تتعلق به، تقول: لا أبرح سائراً حتى أصل لغرضي، ولا أبرح هذا المكان، فقد تكون للمكان، وقد تكون للحال كما ورد في القرآن:

للمكان والإقامة في قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠].

وللحال في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف: ٦٠] أي: لا أبرح السير.

---

(١) المصدر نفسه، (٢١/ ١٧٢).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٨٠).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٧٥).

فالمعنى ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: ٩١]، وسنظل على عبادته حتى يرجع موسى، فلن نمكث هذه الفترة دون إله[١].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣]:

رجع موسى عليه السلام إلى قومه غضبان أسفاً، فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل، وأصاب تفكيرهم من فساد، فالتفت إلى أخيه[٢]، وسحبه من شعر رأسه ولحيته وراح يجره إليه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ وهذا مبالغة منه في لوم أخيه، وخاطب موسى أخاه عليهما السلام لائماً له قائلاً: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣].

إن موسى عليه السلام كان يُوقن أن أخاه هارون لم يعبد العجل مع مَن عبدوه؛ لأنه معصوم لا يصدر منه هذا الفعل، ويعلم أنه أنكر عليهم عبادة العجل، لأنّ هذا مما يتفق مع نبوته، لكنه كان يريد أن يكون إنكار هارون أشد وأقوى وأقسى، يريد منه أن يحطم هذا العجل أمامه مثلاً، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يغادر قومه ويلحق به على جبل الطور ليخبره بما فعل قومه، ولهذا قال له: يا هارون عندما رأيتهم ضلُّوا فلماذا لم تتبعني ولم تلحق بي؟ ولماذا لم تأت إليّ؟ ما الذي منعك من المجيء إليّ؟ إنه ليس هناك ما يمنعك، فهل عصيت أمري ورضيت أن تبقى مع القوم عندما عبدوا العجل؟

والاستفهامات في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾؟ وقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟ للإنكار، يُنكر موسى على هارون عدم اتباعه له ولحاقه به، كما ينكر عليه موقفه الذي يُفهَم منه عصيانه لأمره، علماً أن هارون كان متابعاً لموسى عليهما السلام، مُنفِّذاً لأوامره مطيعاً له، لأنه نبي معه ووزير له، ولكن موسى كان تحت تأثير الغضب والأسف والحزن والأسى مما فعله قومه، ولاحظ هارون انفعال

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٦٤).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٨).

وغضب أخيه ـ عليهما السلام ـ فأراد أن يستعطفه ويُرقّق قلبه ويُخفّف غضبه[١].

١١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]:

إن حرف النداء «يا» مذكور في آية سورة طه، من باب التأكيد على الاستعطاف والمبالغة في الاسترحام، لأن الكلمات في الآية تدل على ذلك، ولا يدل قول هارون لموسى عليه السلام: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ على أنه أخوه لأمه، لأنه لم يُنقل ذلك بخبر صحيح، والظاهر أنه أخ شقيق له من أبيه وأمه، ولكنه قال فيه ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ولم يقل: يا أخي، مبالغة منه في استرحامه واستعطافه وترقيق قلبه وإذهاب غضبه، حيث ذكّره بأنهما ابنان لأمّ واحدة اشتركا في رحم واحدة[٢].

قال ابن كثير: قال ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾: ترقّق له بذكر الأم، مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرقّ وأبلغ في الحنو والعطف[٣].

واستعطف هارون أخاه موسى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ أي: لا تشدني من شعر لحيتي ولا من شعر رأسي، فإن هذا يؤلمني ويوجعني، ثم بين له أنه لم يسكت على عبادتهم للعجل، وإنما أنكر عليهم ونهاهم وذكّرهم وأرشدهم، لكنهم لم يستجيبوا له واستضعفوه في هياجهم في عبادة العجل، وكادوا يقتلونه ويُزهقون روحه، وجاء ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقوله: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ يدل على أنه عارضهم معارضة شديدة ثم سكت وسلّم خشية القتل[٤].

وقد برّر هارون بقاءه بينهم رغم عصيانهم بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٨٣).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٨٤).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٥٩).
(٤) القصص القرآني، (٣/ ١٨٤).

﴿بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، وكأن هارون عليه السلام يقول: كان بإمكاني أن آتيك وحدي لأخبرك، فتحصل الفوضى فيهم بعدي، وأخشى عندها أن تلومني وتقول: لقد فرَّقت بين بني إسرائيل وأوقعت فيهم الفوضى بذهابك عنهم، وكان بإمكاني أن آخذ معي الفريق الثابت على الإيمان الذين لم يعبدوا العجل، وهم قلائل بالقياس إلى الفريق الآخر، وأن أنفصل بهم عن الأغلبية عابدي العجل، ولكني خشيت أن تقع الفرقة الشديدة بين الفريقين وقد يقع الاقتتال بينهما، وعندها ستقول أنت لي لائماً معاتباً: فرّقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي ولم تحافظ على وصيتي وعهدي، عندما قلتُ لك: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فجملة ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ معطوفة على ما قبلها، وهي تابعة لما كان هارون يخشاه ويتخوفه من موسى، أي: لم أغادر القوم خشية أن تقول لي: لماذا يا هارون فرقت بين بني إسرائيل؟ ولماذا يا هارون لم ترقب قولي ولم تنفذ عهدي لك[1].

ولقد اجتهد هارون عليه السلام بالبقاء مع قومه عابدي العجل، واعتبر بقاءه معهم بعد إنكاره عليهم تطبيقاً لقول موسى له قبل أن يغادر: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، لقد كان اجتهاد هارون عليه السلام في سياسة قومه عند تعارض مصلحتين؛ مصلحة حفظ العقيدة، ومصلحة حفظ الجماعة والأنفس والأموال والأخوة، فرجّح حفظ الجماعة على حفظ العقيدة اجتهاداً منه، على اعتبار أن موسى عليه السلام عندما يعود سيُصحِّح عقيدتهم، وكأن اجتهاده عليه السلام كان مرجوحاً، لأن حفظ العقيدة هو الأصل، ومصلحة حفظ العقيدة مقدّمة على ما سواها من المصالح[2].

وكان عليه ألا يكتفي بالإنكار عليهم والنصح لهم، بل أن يُتبع ذلك بإزالة المنكر بيده، وأن يفعل كما فعل موسى عليه السلام عندما عاد إليهم، كان عليه أن يحرق العجل الصنم ويدعو عابديه إلى التوبة. ولم يكن هارون عليه السلام مُخطِئاً

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٨٦).
(٢) تفسير التحرير والتنوير، (١٦/ ٢٩٣).

في ترجيحه واجتهاده، فموقفه صواب لكنه ترك ما هو أولى، والله تعالى أعلم.

ولما عرف موسى حقيقة موقف هارون وأنه لم يسكت عليهم، ترك لومه وتعنيفه وسَحْبه من شعره ودعا الله له، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، دعا الله أن يغفر له تأدُّباً مع الله، فيما ظهر عليه من الغضب والانفعال، ثم دعا الله أن يغفر لأخيه هارون فيما يكون وقع فيه من تساهل.

وطلب من الله تعالى أن يدخلهما في رحمته، وأثنى على الله بأنه أرحم الراحمين، وبعدما عرف موسى حقيقة موقف هارون، ودعا له توجّه إلى السامري، وسأله عن القصة[١].

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٥ ـ ٩٦]:

اتجه موسى عليه السلام بغضبه وانفعاله إلى السامري، وهو صاحبُ الفتنة من أساسها، ولم يتوجَّه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسؤول أن يَحول بينهم وبين اتِّباعه إذا هموا بذلك، وهو قائدهم المؤتمن عليهم، فأما السامري فذنبه يجيء متأخِّراً لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدي نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني، فالتبعة عليهم أولاً، وعلى راعيهم بعد ذلك، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً[٢]. وقد اتجه موسى إلى السامري:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما شأنك وما قصتك؟ وهذه الصيغة تُشير إلى جسامة الأمر وعظم الفعلة[٣]، والخطب: يقال في الحدث المهم الذي

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٨٧).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٨).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٩).

يسمونه الحدث الجلل، والذي يقال فيه «خطب»، فليس هو الحدث العابر الذي لا يقف عنده أحد[١].

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: فطنت لما لم يفطنوا، فإن الإبصار يكون بالعين البصيرة، والبصر الذي هو مصدر يبصر يكون بالقلب والعقل والفكر، وقد كان السامري فطناً يعلم صناعة التماثيل، وكان له في ذلك مهارة فائقة كالمتخصصين في هذه الصناعة[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾: والأثر ليس هو أثر جبريل ولا فرس جبريل ولكنه أثر معنوي، والرسول ليس هو جبريل، فلم يجئ ذكر لجبريل في هذا الموضوع حتى يرد بالمعرف بـ «أل»، إنما الرسول الذي تكرر ذكره بالرسالة هو موسى كليم الله، وأثر موسى كليم الله تعالى هو دعوته إلى التوحيد، وإلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فذلك هو أثر موسى، وهو أثر كل رسول برسالة سماوية من الله.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقاها في مهب الريح كما تُلقى النواة وتُرمى، واستبدل بالتوحيد الشرك والكفر، وأن يكون على دين من يعبدون البقر لعنهم الله، وقد بين أن هذا من هوى النفس وليس قائماً على منطق من عقل، ولذا قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي: كذلك الذي رأيتم من فتنة بني إسرائيل بهذا التضليل زينت لي نفسي، ومعنى التسويل أنه تردَّد في هذا الأمر بتساؤل نفسيّ حتى أختار ما أختار بعد أن زيَّنته له نفسه وحسَّنته. كان لا بد له من عقاب يكون به عبرة في الدنيا، وعقاب الآخرة ثابت له[٣].

لقد تكاثرت الروايات حول قول السامري وإجابته لموسى عليه السلام، فما هو الذي بَصُر به؟ ومن هو الرسول الذي قبض قبضة من أثره فنبذها؟ وما علاقة

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٦٧).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٧٨).
(٣) المصدر نفسه، (٩/ ٤٧٧٩).

هذا بعجل الذهب الذي صنعه؟ وما أثر هذه القبضة؟

والذي يتردَّد كثيراً في هذه الروايات أنه رأى جبريل عليه السلام، وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض، فقبض قبضة من تحت قدمه، أو من تحت حافر فرسه، فألقاها على عجل الذهب، فكان له هذا الخوار، أو إنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلاً له خوار، والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث، إنما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية.

ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامري، وتملُّصاً من تبعة ما حدث، وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تُصوِّت في فراغه، فتُحدث صوتاً كالخوار، ثم قال حكاية أثر الرسول يُبرِّر بها موقفه، ويُرجع الأمر إلى فطنته ثم إلى أثر الرسول[1].

وقال الدكتور الأستاذ فضل حسن عباس: والذي أراه أن حكاية السامري وجبريل ليست صحيحة؛ فلا جبريل جاء إلى السامري، ولا السامري أخذ تراباً من أثر حافر فرسه، وأن القول بأنه صاغه بحيث إذا استدبر الريح خرجت الريح من فمه ولها صوت البقر ـ وهو الخوار ـ أقرب من ذلك، بل لا غرابة في ذلك أصلاً[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: وهذا أمر زيَّنته لي نفسي، وهكذا أقر السامري بجريمته، وبيّن أن الذي دفعه إليها نابع من أعماق نفسه، وكأن قصة موسى مع السامري ذُكرت في السورة بكل هذه التفاصيل لإظهار هذه الحقيقة وهي: أن ضلال الإنسان وشقاءه من داخل نفسه ومن كسبه واختياره.

أقرّ السامري بجريمته ودافعِه الذي دفعه إليها دون أن تبدر منه أية بادرة تدل على ندمه وتوبته، وكأنه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ معجبٌ بنفسه وبعمله، فما كان من موسى عليه السلام، في مقابل هذا الإعجاب بالنفس والإصرار على الكفر، إلا أن أصدر عليه هذا الحكم الرهيب الذي يلازمه طول حياته، وهو

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٤٩).
(٢) قصص القرآن الكريم، ص٥٧٦.

الطرد من المجتمع البشري، والعيش بعيداً عن الناس كما تعيش الوحوش[١].

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]:

كانت عقوبة السامري أن يُخلع من بني إسرائيل وأن يُعزل عنهم، والله هو الذي أمر موسى أن يعاقبه هذه العقوبة، لأنه يعلم أنه لا خير فيه، ولا صلاح يُرجى منه، لأنه قد استحوذ عليه الشيطان، قال موسى عليه السلام للسامريّ: ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي: اخرج من بين هذه الأمة فما عدتَ واحداً منها، واذهب بعيداً عنها.

ومعنى قوله: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾: ألا يمسك أحد. ﴿لَا﴾: هي نافية للجنس، ﴿مِسَاسَ﴾: اسم لا مبني على الفتح في محل نصب، والمساس هو المماسّة والمسّ واللمس، وهو مصدر، فعلُه «ماسّ»، ولم يرد في غير هذا الموضع من القرآن[٢].

أ ـ قال ابن كثير في معنى عقوبة السامري: كما أنك أخذتَ ومسستَ ما لم يكن لك أخذُه ومسُّه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس أي: لا تماسّ الناس ولا يمسّونك[٣].

ب ـ وقال محمد الطاهر بن عاشور: جعل موسى حظ السامري في حياته أن يقول: لا مساس، أي: سلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان، فعوضه به هوساً ووسواساً وتوحُّشاً، وأصبح متباعداً عن مخالطة الناس، عائشاً وحده، لا يترك أحداً يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس أي: لا تمسني ولا أمسّك أو لا تقترب مني، فإن المسّ يُطلَق على الاقتراب.

وهذا أنسب بصيغة المفاعلة ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا مقاربة بيننا، فكان يقول

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٢).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٨٨).
(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٥٩).

ذلك وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية[١].

وهكذا انتهى السامري، هذا الرجل الشيطاني الذي استغله الشيطان في إحداث أعظم فتنة في بني إسرائيل، أخرج معظمهم فيها من الإيمان إلى الكفر، ومن عبادة الله إلى عبادة صنم عجل، ولم تنفعه خبرته ولا مهارته ولا موهبته في صناعة التماثيل، ولم تدفع عنه العقوبة في الدنيا ولا العذاب في الآخرة.

ومضى السامري في الصحراء مطروداً منبوذاً معزولاً، وهو يصيح في كل من يقابله قائلاً له: لا مساس ولا لمس ولا اقتراب، وسيطر عليه الهوس والتوحش والاعتزال، وغادر هذه الحياة ملعوناً مطروداً، وحق عليه عذاب الله في الآخرة[٢].

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة.

﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن تستطيع أن تتخلَّف عنه، ولا نجاة لك منه وهو العذاب في نار جهنم[٣].

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]: اتجه موسى عليه السلام إلى مادة الجريمة، بعد أن اتجه إلى المجرم، وهو صورة العجل أو تمثاله، وأمره موسى أن ينظر إليه مع التعبير بأنه إلهه الذي يعبده تهكُّماً به وسخرية، فقد سبق أن قال السامري لبني إسرائيل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ والآن يقول له موسى:

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك، وهو العجل الذهبي.

﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: بقيت مصرّاً على عبادته.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: بالمبرد حتى يصبح ذرات صغيرة[٤].

يقال: حرّق الشيء إذا بردَه بالمبرد، حتى صار ذرات تُنسف، وإنه بعد برده

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، (١٦/ ٢٩٨).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٨٩).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٢).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٣).

يُنسف في البحر نسفاً، أي: يُلقى في البحر ذرات غير متجمعة ولا مجموعة[١].

قال الشيخ أبو زهرة: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بمعنى الإحراق بالنار؛ لأن النار تُذيب الذهب وتصهره، ولا تجعله ذرات تُنسَف، ولأن اللغة تُفسِّر التحريق بالبرد بالمبرد، وهو المعقول المناسب للمقام، والمتفق مع السياق وكلمة النسف[٢].

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: ننسف ذراته.

﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ في مياه البحر وبين أمواجه، فعل ذلك عليه السلام بالعجل، ليُظهر للذين فُتنوا به شدّة غبائهم. ومن ثم التفت عليه السلام مخاطباً لهم يبيّن لهم المعبود الحقيقي الذي يجب عليهم أن يلتزموا عبادته وطاعته دائماً[٣].

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]:

هذه الآية محطة من محطات كلام موسى عليه السلام، فموقعها موقع التذييل لوعظه، وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمة إعراضاً عن خطابه تحقيراً له، وقصداً لتنبيههم على خطئهم، وتعليمهم صفات الإله الحق، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم، لأن الوحدانية تجمع جميع الصفات. وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم[٤].

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: لا يستحقّ العبادة غيره جلّ وعلا، فهو المتصف وحده بصفات الغنى والكمال والجلال.

إن سبيل سعادة الإنسان في توحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة، ولقد شقي السامري وأمثاله بإعراضهم عن توحيد الله وعبادته شقاءً ملازماً لهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكل المعلومات[٥]. ﴿وَسِعَ

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٠).
(٢) أبو زهرة، المصدر نفسه، (٩/ ٤٧٨٠).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٣).
(٤) التحرير والتنوير، (١٦/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).
(٥) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٣).

﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ لأنه سبحانه وتعالى هو الإله الحق، وهذا أيضاً ردّ على السامري وما اتخذه إلهاً من دون الله، فالعجل الذي اتخذه إلهاً لا علم عنده، وكذلك السامري الذي أمر الناس بعبادته، فلو كان عنده علم لعرف أن عجله سيُحرق ويُنسف وتَذروه الرياح، ولعرف العاقبة التي انتهى إليها من قوله للقوم: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، فلو علم هذه الحقائق ما أقدم على هذه المسألة.

ووُسْع علم الله لكل شيء يعني: من أطاع ومن عصى، لكن من رحمته تعالى بنا ألا يحاسبنا عمّا علم منّا، بل يُعلِّمنا حين ندعوه أن نقول: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فسبقت رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا، وسبقت عذابه ونقمته، وفي موضع آخر يقول عزّ وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] (١).

وعادت الآيات كما بدأت تخاطب النبي ﷺ في تعقيبها الأول على ما ورد في القصتين، فكأنه عليه الصلاة والسلام هو المقصود من عرض قصة موسى مع فرعون وقصته مع السامري (٢).

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠٤]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ أي: هكذا نقصُّ عليك يا محمد من أخبار

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٧٦).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٣).

الأمم الماضية، كما قصصنا عليك قصة موسى وهارون وفرعون والسامري وبني إسرائيل نقصُّ عليك قَصصاً آخر من أنباء من سبقوك من الرسل، مواساة لك وزيادة في علمك، وتكثيراً لمؤيدات صدقك، وتنبيهاً وتبصيراً للمستبصرين من أمتك[١].

والأنباء: جمع نبأ وهو الخبر الخطير ذو الشأن العظيم، وأي نبأ أعلى في العبرة من أنباء فرعون ذي الأوتاد، وموسى كليم الله، وبني إسرائيل الذين كانوا المثل في طريق الهداية والتمرد عليها والانفلات منها بأوهامهم التي يتوهمونها[٢].

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾: ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، أي بعض أنباء ما قد سبق، وأكد الله تعالى سبقهم بـ ﴿قَدۡ﴾ ليتعلَّم أهل مكة منها، وأنهم ضلُّوا كما ضل هؤلاء، وستكون العقبى عندهم كالعاقبة التي حلَّت بهم، وأنه ينزل بهم ما نزل بغيرهم، وبيّن سبحانه الكتاب المنزل الذي ذُكرت فيه هذه العبر[٣].

فقال تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾: الذِّكر هنا هو القرآن الكريم؛ لأنه المُذكِّر، وهو رسالة محمد ﷺ، وقد عظّم الله سبحانه وتعالى القرآن بعبارات سامية؛ أولاً: بأنه عطاء الله لنبيه ﷺ وبيّنتُه الكبرى، وذكر أنه من لدنه أي من عنده ووصفه بأنه ذكر، فهو ذكر القلوب ودواؤها وطبّها[٤].

وسُمِّي القرآن الكريم ذِكراً؛ لأنه يُذكّر بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ويُذكّر أيضاً بعبادته وطاعته، وبدينه وشريعته، وهو سبيل الهداية والسعادة، فمن تركه وأعرض عنه شقي شقاوة الأبد[٥].

يقول الشيخ السعدي: يمتنُّ الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة وما فيها من الأحكام، وغيرها التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس خبر الأولين، ولم تتعلَّم ممن

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٤).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٢).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٢).
(٤) المصدر نفسه، (٩/ ٤٧٨٣).
(٥) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٤).

دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقّاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عظيمة نفيسة ومنحة جزيلة من عندنا، ﴿ذِكْرًا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذِكرٌ للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا ما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام التي تشهد العقول والفِطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها. وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدوا بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبلوا عليه بالتعلُّم والتعليم، وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه بالإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك فهو المستحق للعقوبة ولهذا قال[1]:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠]:

أي: عن القرآن ورسالة النبي ﷺ وحجته ومعجزته الكبرى، فمن يعرض عنه فقد أعرض عن رسالة ربه وآياته وعصى الله وعصى نبيه، وبذلك يرتكب وزراً أي إثماً كبيراً ثقيلاً، تنوء بحمله القوى الإنسانية، ويذهب يوم القيامة وهو حامل ذلك الإثم، ومن ذهب يوم القيامة مَوزوراً آثماً، فإنه يكون في عذاب شديد.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَعْرَضَ﴾ ولم يقل «كفر» لأن الإعراض عن فهم معانيه وتبصُّرها وإدراك بلاغته ووجوه إعجازه يؤدي إلى الجحود، لما اشتمل عليه من خيري الدنيا والآخرة، فعبّر سبحانه بالإعراض الذي هو سبب الجحود، وأراد الجحود بذكره سبحانه، وذلك لتعظيم شأن الإدراك وخطره، وما يؤدي إليه من أضرار، ويقول إنه أراد بالوزر ـ بمعنى الإثم ـ عقابه لأنه يكون ثقيلاً.

ونكّر سبحانه وتعالى ﴿وِزْرًا﴾ للتهويل، وبيان أنه وزر خطير، وإثم عظيم، وعذابه أليم[2].

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٤٢).

(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٣).

قال الشنقيطي رحمه الله في الآية الكريمة: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صدّ وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والأحكام، ولم يعتقد بما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال ونحو ذلك، فإنه يحمل يوم القيامة وزراً.

قال الزمخشري في تفسير الآية الكريمة: يريد بالوِزْر العقوبة الثقيلة الباهظة، سمّاها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بوزره أو لأنها جزاء الوِزْر وهو الإثم[1].

قد دلّت آيات كثيرة من كتاب الله على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم أي: أثقال ذنوبهم على ظهورهم.

كقوله في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله في سورة النحل: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله في فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

وبهذه الآيات التي ذكرنا، وأمثالها في القرآن، تعلم أن معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، وقوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾: أن المراد بذلك الوزر المحمول أثقال ذنوبهم وكفرهم، يأتون يوم القيامة يحملونها[2].

---

(١) أضواء البيان، (٤/ ٩٥ ـ ٩٦).
(٢) أضواء البيان، (٤/ ٩٥ ـ ٩٦).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ [طه: ١٠١]:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ فلا محيد لهم ولا فكاك من العناء والشقاء بما يحملون[١]، والضمير في ﴿فِيهِۖ﴾ يعود إلى الوزر وأثره الخطير وهو العذاب الدائم، فأراد بالوزر عذابه كما أشرنا وهو الجحيم، وذكر الوزر وأريد به عذابه، لأنه يكون على قدره من الثقل والخطر العظيم الشأن، فكأنه هو للتساوي بينهما، فهو جزاء وفاق له؛ وهو بهذا حمل شيء شديد السوء حتى يتعجب منه عند الناس.

ولذا قال تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾؛ أي ما أسوأه حملاً لسوء مَغبَّته، ولأنه يُورث السوء، يورث نار جهنم وحسبها من سوء، وإذن الوزر هو الحمل الثقيل يتساوى مع نار جهنم وهي بئس المصير، فهو وزن ثقيل سيئ، وهو يثير التعجب في مآله، وقد حسبوه «هيناً» وهو في ذاته أمر عظيم[٢]، وبئس الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يُعذِّبونه يوم القيامة[٣]، وقد بين الله مقدمات يوم القيامة فقال:

٤ ـ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢]:

﴿يَوۡمَ﴾ عطف بيان على قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وإن يوم نفخ الصور هو يوم البعث الذي يقدم بعده يوم القيامة[٤].

أ ـ قال أبو زهرة: و﴿ٱلصُّورِۚ﴾ هو البوق، وقد قال الراغب الأصفهاني في المفردات: قيل هو مثل قرن يُنفخ فيه، فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعودة الصُّوَر والأرواح إلى أجسادها. وروي في الأثر أن الصور فيه صُوَر الناس كلهم، وعلى ذلك يكون للنفخ في الصُّور معنيان؛ أحدهما: أنه بوق يجمع الله تعالى بالنفخ فيه الأجزاء المتفتتة في الأرض، فتعود صُوَرُها وأرواحها، والثاني: أن صُوَرَ الأجساد المتفتتة فيه ينفخ فيها فتكون أجساداً حية فيها أرواحها.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٤).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٣).
(٣) تفسير السعدي، (٣/ ١٠٤٢).
(٤) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٤).

وعند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ تصوير لجميع الأموات وبعثهم بأنه لا يتجاوز النداء كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كالقائد ينفخ في البوق فيجتمع الجند، بل إنه أسرع من لمح البصر، إذ يكفي النداء من رب العزة فيجتمع الجميع، وإذا اجتمع الجميع اختص الله المجرمين بالذكر(١).

ب ـ قال السعدي: أي: إذا نُفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم، كلٌّ على حسب حاله، فالمتقون يُحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يُحشَرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش(٢).

ت ـ وقال ابن كثير في قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ وسلم سُئل عن الصور؟ فقال: «قرن يُنفخ فيه»(٣).

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن يُنفخ فيه»(٤). وقد رواه الترمذي أيضاً وحسّنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعَمُ وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذن متى يُؤمَر بالنفخ»(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: عطاشاً، قد ازرقّت أعينهم من شدة العطش، أو نحشرهم مُشوَّهين بزرقة عيونهم، وسواد وجوههم(٦).

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في الآية: أي نجمعهم ونسوقهم زرقاً، والزُّرقة هي لونهم، كما ترى شخصاً احتقن وجهه وازرقّ لونه بسبب شيء تعرّض له، هذه الزرقة نتيجة لعدم السلام والانسجام في كيماوية الجسم من الداخل، فهو انفعال داخلي يظهر أثره على البشرة الخارجية، فكأن أهوال القيامة وأحداثها

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٤).
(٢) تفسير السعدي، (٩/ ٤٧٨٤).
(٣) سنن أبي داود، رقم ٤٧٤٢.
(٤) صححه ابن حيان، رقم ٧٣١٢.
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (١١/ ٣٦٨).
(٦) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٥).

تُحدث لهم هذه الزرقة، والبعض يُفسِّر ﴿زُرۡقٗا﴾ أي: عُمياً، ومن الزرقة ما ينشأ عنها العمى، ومنها المياه الزرقاء التي تُصيب العين، وقد تُسبِّب العمى(١).

قال ابن كثير قوله: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ قيل: معناه زُرق العيون من شدة الأهوال(٢).

وقال أبو زهرة في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾: لأنهم الذين كفروا وعاندوا، فكان اليوم عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُ﴾ أي: نجمعهم مُكدَّسين كالأشياء لا كرامة لهم، بل مُهانين غير محترمين، وقال تعالى في سوء حالهم: ﴿زُرۡقٗا﴾ وزرقاً أي أن أعينهم عميت، لأن العين إذا عميت كان سواد حبتها أزرق، وذلك تشويه لها وتشويه للوجه، وطمس للعين، ويقول البيضاوي مُعاتباً للزمخشري: زرق العيون، وُصفوا بذلك؛ لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد أزرق العين.

ولعل وصف الزرق بالعمى أقرب من ذلك القول، ولا نحسب أن وصفهم بزرق العيون ذمّاً جيداً في ذاته(٣).

ونحن نقول: إن القرآن الكريم لم يجعل ﴿زُرۡقٗا﴾ وصفاً للعيون، ولكنه وصفٌ لأجسامهم، ولا شك في أن وصفهم بأنهم زرق في أجسامهم ووجوههم يدلُّ على ما أصابهم من الهلع والفزع وهو المقصود، فهم فزعون هلعون من هول ذلك اليوم الشديد، والزرقة أقرب إلى السواد فهي أدلّ على الفزع، ومعناه أنهم يجيئون سوداً ويتحقَّق قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦](٤).

٥ ـ قال تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾ [طه: ١٠٣]:

الخفت: خفض الصوت، ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: يتبادلون الصوت الخافت الذي

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٣٨٤).
(٢) تفسير ابن كثير، (٥/ ٣٠٩).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٤).
(٤) المصدر نفسه، (٩/ ٤٧٨٥).

يكون بين الجهر والإسرار والنجوى، فهو ليس إسراراً ولا نجوى، ولكنه إعلان في خفت، وهذا التخافت من الهلع والفزع، فإن الخائف الهلع يكون كلامه منخفضاً من شدة فزعه، إذ يحسب أنه محسوب عليه قوله، واللبث المتحدث عنه في أي حال هو؟ أهو اللبث في الحياة الدنيا أم اللبث في القبور بين الموت والبعث؟

اتجه عدد من المفسرين إلى أنه اللبث في الحياة الدنيا، مستمتعين بلذائذها وزينتها وزخارفها، فإنهم يحسبونه زمناً قليلاً، ويجتمع عليهم أَلَمان: ألم بشعور قلة متاعهم في الدنيا، والألم الثاني طول عذابهم في الآخرة، أي أنهم يدركون أن الدنيا متاع قليل بجوار عذاب الآخرة الطويل. ومهما تكن حالهم فإنهم يَستقلُّون متعهم التي يُحاسَبون عليها بجوار الشقاء الذي يلقونه في دار الجحيم التي يخلدون فيها، ويزكي هذا قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٣].

ويتجه بعض المفسرين إلى أن اللبث في القبور إلى وقت البعث، وذلك أنهم يحسبون أنهم لبثوا وقتاً قصيراً ثم استيقظوا بالبعث[١]. وقال أبو زهرة: وإني أميل إلى ذلك الرأي، فإنهم وقت البعث لا يحسبون أنهم قضوا وقتاً طويلاً في القبور، وذلك من قدرة الله وضعف الإنسان. والعشر هي عشر ليال بدليل حذف التاء، والشهر العربي يُعرف بالليالي وهو لغة القرآن، هذا ما يُقدِّره بعض الناس، ويُقدِّره آخرون بيوم واحد، وهو أمثلهم طريقة[٢].

إنهم يستقصرون حياتهم في الدنيا بسبب ما يرون من أهوال يوم القيامة، تضاءلت الدنيا في حسّهم، وقلّت أيامها في مشاعرهم، حتى أصبحت أياماً قليلة في نظرهم، ومع أنهم يتحادثون سرّاً بينهم فإن الله سبحانه يسمعهم ويعلم كلامهم، إنه سبحانه يعلم السرَّ وأخفى[٣].

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٦).
(٢) المصدر نفسه، (٩/ ٤٧٨٦).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٦).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]:

إن المتحدث هو الله تعالى بضمير التعظيم، فهو وحده العظيم الكبير، وقوله: ﴿أَعْلَمُ﴾: أفعل للتفضيل ليس على بابه، بل معناه العليم علماً ليس مثله علم ولا فوقه علم.

﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: مع تخافتهم وقولهم في خفت، بصوت غير مسموع إلا لأنفسهم ليس لأحد غيرهم[١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أصوبهم وأعقلهم[٢]، والأمثل هو الأعدل في القول وفي الإدراك، و﴿طَرِيقَةً﴾ أي طريقة التفكير، والاتجاه إلى الطريق المستقيم.

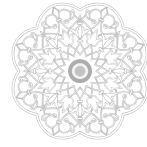
﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: ﴿إِن﴾ نافية أي: ما لبثتم إلا يوماً أي يوماً واحداً.

وإن الله سبحانه وتعالى أخبر عن تخافتهم في وقت الفزع الأكبر، وأنهم في هولهم يَستقلُّون ما مضى عليهم في الحياة، بجوار ما يستقبلون من أيام شداد غلاظ، أو لوجودهم في قبورهم غير شاعرين لا يعرفون الزمن الحقيقي الذي لبثوه في القبور، وذلك دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى على البعث وحكمته في خلق الإنسان[٣].

وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة، ويبدو ذلك فترة وجيزة في الزمان، وشيئاً ضئيلاً في القيمة، فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها والمتاع؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة؟ ما قيمة هذا أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها، والتي تنتظرهم بعد العشر وتمتد بهم بلا انقطاع[٤]؟

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٦).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٨٦).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٧٨٦).
(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٣٥٢).



المبحث الثالث

قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء

قال تعالى : ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ
مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ
ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾
أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ
فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي
فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا
مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ
وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ
لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ
وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ
حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ
لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهٗا
غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا

تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١ ـ ٦٨].

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعها تتلخص في العقيدة، وتجمع في عناصرها الأساسية: توحيد الله، والخوف من الآخرة، والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله، والتخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين، وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين، وجسم السورة هو القصص، والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب، والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد، ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض.

ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جوُّ الإنذار والتكذيب والعذاب الذي يتبع التكذيب، ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله ﷺ واستهزاءهم بالنذر وإعراضهم عن آيات الله واستعجالهم بالعذاب الذي يَعدهم به، مع التقوُّل على الوحي والقرآن بالادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين، والسورة كلها شوط واحد ـ مقدمتها وتعقيبها ـ في هذا المضمار، لذلك نقسمها إلى فقرات ومحاور بحسب ترتيبها، ونبدأ بالمقدمة قبل[1] قصة موسى عليه السلام في السورة.

وإن قصة موسى عليه السلام تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة، وإلى طمأنة الرسول ﷺ وتعزيته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم، وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة، وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل، وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة ـ وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم.

وقد وردت حلقات من قصة موسى عليه السلام في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وهناك إشارات إليها في سور أخرى، وفي كل مرة كانت الحلقات التي تُعرَض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة أو السياق الذي تُعرَض فيه على نحو ما في هذه السورة، وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق.

وإن الحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب، وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء هذا التكذيب وعقاباً على ائتماره بموسى ومَنْ معه من المؤمنين، ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين، وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾،

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٥٨٥ ـ ٢٥٨٧).

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وهذه الحلقة مُقسَّمة إلى مشاهد استعراضية، بينها فجوات بمقدار ما يُسدَل الستار على المشهد، ثم يُرفَع عن المشهد الذي يليه، وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة[1]. ونجد هنا مشاهد سبعة، وهي:

أولها: مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى عليه السلام وربه.

ثانيها: مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتي العصا واليد البيضاء.

وثالثها: مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى.

ورابعها: مشهد السحرة بحضرة فرعون يَطمَئِنُّون على الأجر والجزاء.

وخامسها: مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده.

وسادسها: مشهد ذو شقين: الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسري بعباده ليلاً، والثاني: مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل.

وسابعها: مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين.

وقد عُرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف وفي سورة يونس وفي سورة طه، ولكنها عُرضت في كل موضع من الجانب الذي يناسب ذلك الموضع وبالطريق التي تتفق مع اتجاهه، وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك.

ففي سورة الأعراف مثلاً بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصراً، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعاً، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك، وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة، ومن ثم بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٨٨).

كثيرة، واختصر هذا المشهد فلم يشر إليه، بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله، وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي ﷺ.

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه، واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة، فصاحَب بني إسرائيل في رحلتهم طويلاً، ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة، وكذلك لا تجد تكراراً في عرض القصة أبداً على كثرة ما عُرضت في سور القرآن، لأن هذا التنويع في اختيار الحلقات التي تُعرَض، ومشاهد كل حلقة والجانب الذي يُختار من كل مشهد، وطريقة عرضه، كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع، متناسقة مع هذا الموضع[1].

أولاً: قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١ ـ ٩]:

بدأ الله تعالى سورة الشعراء بالحروف التالية:

١ ـ قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]:

هذه حروف ابتدأت بها السور، وقد ذُكر أن معناها على الحقيقة لا نعلمه، بل اختصَّ بها علم الله تعالى والله بكل شيء عليم، وقد نعرف حكمتها على قدر طاقتنا، وهي الإشارة إلى أن القرآن مكون من الحروف التي تنطقون بها، ولكنكم تعجزون على أن تأتوا بمثله لأنه من عند الله، ولأن النبي ﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب، فهو يعرف الكلمات ولا يعرف الحروف، فذكرُها في القرآن دليل على أنه ليس من عند ذلك الأمي، إنما هو من العالم بكل شيء الذي لا يغيب عن

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٨٩).

علمه شيء في السماء ولا في الأرض، ولأن كبار المشركين قالوا فيما بينهم لا تستمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون، فإذا ابتدأت السورة بهذه الحروف الصوتية استرعاهم صوتها، فجاؤوا متلهفين للاستماع ويذهب عنهم ما اتفقوا، ولذا كانت أكبر السور المفتتحة بهذه الأحرف يعقبها ذكر القرآن، وهنا جاء بعد هذه الحروف الصوتية قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢] (١).

أ ـ قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: ولو تأملت لوجدت أن الحروف المقطعة في أوائل السور مجموعها أربعة عشر حرفاً، وهي نصف الحروف الهجائية، مرة يأتي حرف واحد، ومرة حرفان، ومرة ثلاثة أحرف، ومرة أربعة أحرف، ومرة خمسة أحرف، وهذا يدلنا على أن القرآن معجز، مع أنه بحروفكم وبكلماتكم نفسها. فسِرُّ الإعجاز في القرآن أن تكون مادته ومادة غيره من الكلام واحدة، حروفاً وكلمات؛ لذلك كثيراً ما يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد الحروف المقطعة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ (٢).

ب ـ قال النابلسي: ويمكن أن نقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء الله تعالى أو أنها أوائل لأسماء القرآن الكريم أو أنها اسم علم لهذه السورة، أو أنها أوائل لأسماء النبي ﷺ، فالطاء تُشير إلى أنه طاهر من كل ذنب وعيب، والسين تُشير إلى قدسيته وأنه مصدر سلامة للبشر، والميم تُشير إلى أنه محمود عند نفسه ومحمود عند الله عزّ وجل ومحمود عند الخلق، وأن الطاء إشارة إلى طوبى في الجنة، قال تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، والسين إشارة إلى سدرة المنتهى، والميم إشارة إلى محمد ﷺ.

وإن القرآن الكريم في تفسيره فيه معانٍ ظاهرة وباطنة لا حصر لها، ولكن الذي يلفت النظر إلى أن هذه الحروف حينما تأتي ـ في الأعم الأغلب ـ يتبعها كاف الخطاب، وإن كاف الخطاب التي تأتي بعدها تُرجِّح أنها أوائل أسماء النبي ﷺ،

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٣٤).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٣٢).

هذا بعض ما جاء في التفاسير حول تفسير هذه الحروف، وهناك ثلاث سور تبدأ بـ «طسم» واسمها الطواسيم، وهناك سبعة سور تبدأ بـ «حم» واسمها الحواميم[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢]:

﴿تِلْكَ﴾: الإشارة تدل على البعد لعلو منزلتها، وارتفاع قدرها، وسموّ مكانتها[٢].

﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: يشير الباري تعالى إشارة إلى التعظيم لآيات الكتاب المبين البيّن الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني وارتباط الأحكام بحكمها وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس ويهدي به إلى الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون، ويُعرِض عنه من كُتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير ونصحاً لهم[٣].

وقال محمد أبو زهرة: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ معناها البين في ذاته والمبين للشرائع والتوحيد وهداية البشر، وما من شيء يتعلق بالإيمان وشرائعه إلا بيَّنه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فهذا الكتاب أو بعضه واضح الدلالة على أنه من عند الله تعالى بإعجازه[٤].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]:

هذه هي التسلية لرسول الله ﷺ، وذلك لأنه حمّل نفسه في تبليغ الرسالة فوق ما يُطيق، وفوق ما يطلبه الله منه حرصاً منه على هداية الناس وإرجاعهم إلى منهج الله ليستحقُّوا الخلافة في الأرض، ولأن من شروط الإيمان أن تحب

---

(١) تفسير النابلسي، (٨/ ٣٣٠).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٣٥).
(٣) تفسير السعدي، (٢/ ١٢١٢).
(٤) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٣٥).

لأخيك ما تحبه لنفسك، والحق سبحانه ـ تبارك وتعالى ـ يُسلِّي رسوله ﷺ كما قال في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

ومعنى ﴿بَٰخِعٌ﴾ [الشعراء: ٣]: الذبح الذي لا يقتصر على قطع المريء والودجين[١]، إنما يبالغ فيه حتى يفصل الفقرات، ويخرج النخاع من بينها، والمعنى: تحزن حزناً عميقاً يستولي على نفسك حتى تهلك، وهذا يدل على المشقة التي كان يعانيها الرسول ﷺ من تكذيب قومه له. وفي موضع آخر يقول سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]؛ فهذا أمر نهائي واضح، ونهي صريح بعد أن لفتت نظره بالإنكار فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ [الشعراء: ٣]، وقد نبه الله رسوله في عدة مواضع حتى لا يحمِّل نفسه فوق طاقتها، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۚ﴾ [ق: ٤٥].

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لرسوله: يسِّرْ على نفسك، ولا تكلِّفْها تكليفاً شاقّاً مضنياً، والعتاب هنا لصالح الرسول، لا عليه، ثم يقول الحق سبحانه[٢]:

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]:

إن إيمانهم ليس مما كُلِّفت به، ولو شئنا أن أكرههم عليه لأكرهناهم، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدلاً ولا انصرافاً عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية صورة حسية: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ملويّة محنيّة حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون.

---

(١) الودجان: عرقان متصلان من الرأس إلى العنق، والجمع: أوداج، وهي العروق.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٣٧).

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، فلقد جعل آيتها القرآن، منهج حياة كاملة، ومعجزاً في كل ناحية، معجزاً في بنائه التعبيري وتنسيقه الفني، باستقامته على خصائص واحدة، في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تتخلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد، المتغير الحالات، بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ومستوى واحد، ثابتاً لا يتغيَّر، يدل على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال.

معجزاً في بنائه الفكري والتشريعي والقيَمي والمقاصدي، معجزاً في يُسر مداخله إلى القلوب والنفوس ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثير والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويُسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة.

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن معجزة هذه الرسالة، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة نارية تلوي الأعناق وتُخضِعها وتضطرُّها إلى التسليم، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل، والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تُروى، لا واقعاً يُشهد. فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من أربعة عشر قرناً كتاب مفتوح ومنهج مرسوم، ويستمد به أهل هذا الزمان ما يُقوّم حياتهم، ويُلبِّي حاجاتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل وأفق أعلى، ومصير أمثل. وسيجد فيه مَن بعدنا كثيراً مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ويبقى رصيده لا ينفد، بل يتجدد، ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى، فكانوا يُعرِضون عما ينزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين[1].

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٨٥).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]:

ويذكر اسم الرحمن هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر، فيبدو إعراضهم عنه مستقبحاً كريهاً، وهم يُعرِضون عن الرحمة التي تنزل عليهم، ويرفضونها ويحرمون أنفسهم منها، وهم أحوج ما يكونون إليها(١).

فكلما جدَّد تعالى لهم عِبْرة وموعظة وتذكيراً، فإنهم يقابلون ذلك بالإعراض والعناد والكفر، فلقد أنزل عليهم آيات القرآن مفرقة منجَّمة تجديداً لتذكيرهم وموعظتهم، وتنبيهاً لما فيها من أدلة جديدة ملزمة وحجج بالغة، ومع ذلك أصرَّ القوم على إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم(٢).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٦]:

وهو تهديد مُضمَر مُجمَل مهول، وفي التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ستأتيهم أخبار العذاب الذي يستهزئون به، وهم لن يتلقوا أخباراً؛ إنما سيذوقون العذاب ذاته ويصبحون هم أخباراً فيه، يتناقل الناس ما حلّ بهم منه، ولكنهم يستهزئون فيستهزئ بهم مع التهديد المرهوب، وإنهم يطلبون آية خارقة، ويغفلون عن آيات الله الباهرة فيما حولهم، وفيها الكفاية للقلب المفتوح والحس البصير، وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب(٣).

٧ ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]:

إن معجزة إخراج النبات الحي من الأرض وجعله زوجاً ذكراً وأنثى، إما منفصلين كما في بعض فصائل النبات، وإما مجتمعين كما هو الغالب في عالم النبات، حيث

---

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٢٥٨٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ١٤٣).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٨٦).

تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في عود واحد، هذه المعجزة تتكرر في الأرض حولهم في كل لحظة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، والأمر لا يحتاج لأكثر من الرؤية.

وإن المنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون، ويُنبِّه الحسَّ الخامد والذهن البليد والقلب المغلق إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان في كل مكان؛ كي يرتاد هذا الكون الحي بقلب حي يشاهد الله في بدائع صنعه ويشعر به كلما وقعت عينه على بدائعه، ويتصل به في كل مخلوقاته ويراقبه وهو شاعر بوجوده في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، مرتبط بالنواميس التي تحكمهم جميعاً وله دوره الخاص في هذا الكون وخاصة هذه الأرض التي استُخلف فيها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: كريم بما فيه من حياة، صادرة من الله الكريم، واللفظ يُوحي إلى النفس باستقبال صنع الله بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال لا بالاستهانة والغفلة والإغفال.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إن في كل واحد من تلك الأصناف والأزواج آية عظيمة دالة على كمال قدرة مُنبِتها وخالقها وسعة علمه، وتمام حكمته وعظيم رحمته وإحسانه، تُلزِم بالإيمان به، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وما كان أكثر الناس في الحقيقة والواقع مؤمنين، مما يدل على شدة عنادهم، وغاية ضلالهم وجهلهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٣ ـ ١٠٥]، فالآية تُقرِّر حقيقة واقعة مشاهدة في كل عصر ومصر، والمراد من الأكثرية أكثرية الناس مطلقاً، وليس المراد مشركي قريش وحدهم، كما ذهب بعض المفسرين، وخصوص السبب لا يعني خصوص الحكم إذا كان اللفظ عامّاً[1].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ١٤٤).

٩ ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل جوده إلى كل حيّ، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء؛ حيث أنجاهم من كل شرّ وبلاء[1].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١٢ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٣ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٤ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٥ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٦ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٧ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١٧]:

بدأت الآيات عرضها لمواقف العناد من دعوة الأنبياء عليهم السلام بالحديث عن موقف فرعون، ومعاندته لدعوة موسى عليه السلام، المؤيدة بالبراهين العقلية والمعجزات الحسية.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١]:

وهذا هو المشهد الأول: مشهد التكليف بالرسالة عليه السلام وهو يبدأ بإعلان صفة القوم: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال، وظلموا بني إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءَهم ويستحيون نساءهم، ويعذبونهم بالسخرة والنكال، لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ﴾، ثم يُعجِّب موسى من أمرهم ويُعجِّب كل إنسان: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؟ ألا يخشون ربهم؟! ألا يخافون مغبة ظلمهم؟! ألا يرجعون عن غيّهم؟! ألا إن أمرهم لعجيب يستحقّ

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢١٣).

التعجيب، وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين.

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديداً على موسى عليه السلام فهو يعرفه، ويعرف ظلم فرعون وعُتوّه وجبروته، ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم، ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصَّل أو يعتذر عن التكليف، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٤]:

أ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: إني أخاف أن يبادروا إلى تكذيبي، فأُصاب بضيق الصدر.

ب ـ ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾:

والظاهر من حكاية قوله عليه السلام أن خوفه ليس من مجرد التكذيب ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه، فلا يملك أن يُبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويُفنِّده، إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾.

ومن شأن هذه الحبسة أن تُنشِئ حالة من ضيق الصدر، تَنشأ عن عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما ازداد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً وهكذا، وهي حالة معروفة، فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون، فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته، وطلب إليه أن يُوحي إلى هارون أخيه ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكاليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف، فهارون أفصح لساناً ومن ثم هو أهدأ انفعالاً، فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجّة والبيان.

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٨٩).

ولقد دعا موسى ربَّه ـ كما ورد في سورة طه ـ ليحل هذه العقدة من لسانه، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيراً مُعيناً[١].

ت ـ ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾: وكذلك الشأن في هذه الآية، فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة والتخلي عن التكليف، ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون، حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده بالرسالة، وأتم الواجب كما أمره ربّه دون تعويق، فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية، الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربّه وبيانها، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة، والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقَّف دعوة ربّه التي كُلّف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص، وهذا هو الذي يليق بموسى عليه السلام الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه.

ولما علم ربّه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل وطمأنه مما يخاف. والتعبير هذا يختصر مرحلة الاستجابة، ومرحلة الإرسال إلى هارون، ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه بهارون، ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم في اللحظة نفسها التي يُطمئِنُ الله فيها موسى، وينفي مخاوفه نفياً شديداً في لفظة تُستخدم أصلاً للردع وهي كلمة ﴿كَلَّا﴾[٢]؟

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٥ ـ ١٧]:

﴿قَالَ كَلَّا﴾: كلاّ: لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك، وكلا لن يقتلوك، فأبعِدْ هذا كله عن بالك بشدة واذهب أنت وأخوك.

﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾: الفاء للإفصاح، لأنها تُفصح عن شرط مقدر، أي إذا كان ذلك ما تخاف فاذهبا، والخطاب بالتثنية دليل على أنه أُجيب سؤاله بالنسبة

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٠).

لأخيه[١]، ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وقد شهد موسى منهما العصا واليد البيضاء، والسياق يختصرهما هنا لأن التركيز في هذه السورة موجَّه إلى موقف المواجهة وموقف السحرة وموقف الغرق والنجاة.

اذهبا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾: فأيَّةُ قوة؟ وأية سلطان؟ وأيُّ حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان، ولكن الصحبة المقصودة هنا صحبة النصر والتأييد، فهو يرسمهما في صورة الاستماع الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه، وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

﴿ٱذۡهَبَا﴾ ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ﴾: فأخبِراه بمهمتكما في غير حذر ولا تلجلج.

﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة، فهما ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في وجه فرعون الذي ادعى الألوهية، ويقول لقومه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ فهي المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى، فلا تدرُّجَ فيها ولا حذر، فهي حقيقة واحدة لا تحتمل التدرُّج والمداراة[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أُفردت رسالتهما بالتعبير برسول رب العالمين للإشارة إلى أن الرسالة التي أُرسلا بها واحدة، وأنهما كرسول واحد، وأن موسى يتلقى أمر ربّه ويعاونه هارون في التوضيح والتبيين فهما رسولان لرسالة واحدة، وقد ذكر أنهما رسولان في سورة طه فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] على أساس أنهما رسولان وإن كانت الرسالة واحدة وأسندت إلى رب العالمين، أي ربك ورب آبائك الأولين ورب الناس أجمعين، فهو خطاب يُوجب الخضوع لله تعالى من فرعون طاغية الأرض، ومن معه من قومه الذين يمالئونه ويُشجِّعونه.

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩١).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٠).

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٧]: أن هنا تفسيرية، أي أن تفسير القول هو أرسل معنا بني إسرائيل، ويلاحظ أن الرسالة ليست لبني إسرائيل خاصة، إنما هي دعوة إلى التوحيد ورفع الظلم، ولكن البداية ببني إسرائيل؛ لأن ظلمهم صارخ إذ هو يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم(١).

وهذا دليل على أن مهمة موسى وهارون هي تبليغ فرعون وقومه دعوة الله تعالى، وتخليص بني إسرائيل من طغيانه وظلمه كما قال سبحانه: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧]، وهذا يدل على أن مقاصد دعوة الأنبياء توحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبودية، ونصرة المظلومين وتخليصهم من طغيان الظالمين وعدوانهم وفسادهم وبغيهم، فرسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه؛ قال تعالى:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤].

وكذلك دعوة فرعون لإطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام، فبهت هذا الدين في نفوسهم وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام لينقذهم من ظلم فرعون ويُعيد تربيتهم على دين التوحيد(٢). وهذا الكلام الذي سبق كله كان أمر الله تعالى لموسى، وكان كلام موسى وهارون لفرعون، فبماذا أجاب فرعون؟

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٧).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٠).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ٢٢]:

يتعجَّب فرعون، وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً في قصره منذ أن التقطوا تابوته، وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع الإسرائيلي. وقيل: إن هذا القبطي كان في حاشية فرعون، فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين، ومن ثم بدا فرعون مُتهكِّماً مستهزئاً مستعجباً[(١)].

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ١٩]:

لقد نظر فرعون إلى موسى عليه السلام نظرة احتقار وازدراء، فلم يتعامل معه باعتباره رسولاً معه الحق، وإنما نظر إليه باعتباره إسرائيّلياً من بني إسرائيل، وقومه أذلاء مهانون عبيد للمصريين، فمن هو حتى يواجه فرعون هذه المواجهة، ويخاطبه بهذه المخاطبة، ويدعوه إلى أن يتبعه ويسير معه؟

لم يتعامل الطاغية فرعون مع الأمر باعتباره فكراً ودعوة، ولم يفكر فيه تفكيراً منطقيّاً موضوعيّاً، وإنما حوّله إلى معركة شخصية بينه وبين موسى، ونظر إلى شخصية موسى نظرة فرعونية، قائمة على التكبُّر والاستعلاء، فماذا يساوي موسى في ميزان فرعون الجاهلي؟

ثم تذكَّر فرعون ماضيَ موسى ونشأته في قصر فرعون، فهو ربيب نعمته،

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩١).

فكيف الآن يزعم أنه نبي؟ ابتدأ الكلام باتهام موسى عليه السلام بكفر النعمة، أو كفره بألوهيته.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾: الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، والمعنى: ربيناك فينا، في وسطنا، مكرماً فينا عزيزاً، أي خالطناك بأنفسنا خلطاً وكأنك منّا[١]، فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟! أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته وتدعو إلى إله غيره[٢]؟

ولقد ذهب الكثير من العلماء في قوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: إنما أراد بالكفر الجحود ونكران الجميل، أي: كنتَ من الجاحدين الذين جحدوا نعمتنا وكفروها، فقد أحسنّا إليك لما ربيناك في قصرنا وأنت وليد صغير، ثم اهتممنا بك سنوات عديدة حتى صرت شابّاً[٣].

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: أقمت فينا مختلطاً بنا سنين، الظاهر أنه بقي فيهم حتى بلغ الرشد، وصار شاباً سويّاً، يدبر أموره ويعرف غاياته، وخصوصاً أن جزءًا من التربية كان مع أمه، كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣]، ويقال إنه مكث في بيت فرعون إلى أن بلغ ثلاثين سنة، والراجح عندنا أنه مكث حتى صار رجلاً سويّاً، بدليل ما آتاه الله من قوة عندما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه[٤].

وفي قوله: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾: وما بالك ـ وقد لبثت فينا من عمرك سنين ـ لم تتحدَّث بشيء عن هذه الدعوى التي تدّعيها اليوم، ولم تُخطِرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٥).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩١).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٤٠٦).
(٤) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٥).

وذكَّره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم:

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾: فعلتك الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة[١]، ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي الكافرين بألوهيته، وبأنه لم يكن ليُذعن له كما يذعن الذي يعدُّونه إلهاً، ويقول لهم ليس لكم من إله غيري. وقال بعض المفسرين ـ كما مرّ معنا ـ كفر النعمة، ولا نحسب أن فرعون يرى من كفر نعمته قتل واحد من الرعايا، ولو كان ذا صلة به كخادم أو نحوه، فموسى فيما أحسب كان أقرب إليه من كل الخدم، إذ امرأة فرعون قد اتخذته لها ولداً. لم ينكر نبي الله تعالى أنه فعلها كما وصف[٢]. وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبس لسانه وانطلق يجيب[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]:

أي: قال موسى: فعلت ما فعلت وأنا حينئذ من الضَّالِّين البعيدين عن الرسالة والنبوة، أو كنت من الجاهلين لعاقبة ما فعلت، فما كنت أحسب أني قاتله بمجرد وكزة واحدة، وما أراد عليه السلام ضلال أهل الجاهلية وكفرهم، فالأنبياء محفوظون منذ صغرهم من مثل هذا الضلال[٤].

أ ـ قال محمد أبو زهرة: فعلتها إذ ذاك وأنا من الضَّالِّين ضلالاً بريئاً، والضلال البريء يكون بالجهل والنسيان والبعد عن التأني والصبر، وأخذِ الأمور والاكتفاء في الدفاع عن الحق بأقل الأضرار التي ينزلها بالمعتدي، فنبيُّ الله النقيُّ يعترف بأنه لم يسلك طريق الجادة المستقيمة، وهذه حال موسى عليه السلام فيما يتعلق بالقبطي معترفاً بأنه ضال ضلالاً بريئاً[٥].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩١).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٢٤٦).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩١).
(٤) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٥٣).
(٥) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٦).

ب ـ قال الخالدي: فوّت موسى عليه السلام على فرعون قصده وردّ عليه بحكمة، وأجاب عن سؤاله قائلاً: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ واعترف موسى عليه السلام بأنه قتل، وبأنه كان في ذلك الوقت ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وإن المراد بالضلال في هذه الصورة الحالة التي كان عليها قبل الوحي، وهي حالة جهل لعدم وجود أحكام وتشريعات، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وأنا من الجاهلين، وقال ابن كثير: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: قبل أن يُوحي الله إليّ وينعم عليّ بنعمة النبوة والرسالة[1].

ت ـ قال الشنقيطي: لفظ الضلال يطلق في القرآن وفي اللغة العربية ثلاث إطلاقات:

الإطلاق الأول: يُطلق الضلال مراداً به الذهاب عن حقيقة الشيء، فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء: ضلَّ عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين، ومن هذا المعنى قوله هنا: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم والأسرار التي لا تُعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأني في ذلك الوقت لم يُوحَ إليّ، ومنه على التحقيق: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: ذاهباً عما علَّمك من العلوم التي لا تُدرك إلا بالوحي.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ أي لا يذهب عنه علم شيء كائناً ما كان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

وقوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]،

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٠٧).

وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وعلى هذا المعنى قول الشاعر:

وتظنُّ سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة وفي القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحق إلى الباطل، وعن طريق الجنة إلى النار، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال، تقول العرب: ضل الشيء إذا غاب واضمحل، ومنه قولهم: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه واضمحلَّ، ولأجل هذا سمَّت العرب الدفن في القبر إضلالاً، لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [السجدة: ١٠]، تعني إذا دُفنوا وأكلتهم الأرض، فضلُّوا فيها أي: غابوا فيها واضمحلُّوا(١).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]:

وتابع موسى اعترافه قائلاً: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: لما قتلت الرجل خفت أن تقتلوني، ففررت منكم قبل أن تدركوني وتلقوا القبض عليّ(٢).

والفاء: عاطفة، وقد ذكر سبحانه وتعالى أسباب الفرار وكيف كان في القصص، فقال عزّ من قائل: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠ ـ ٢١].

---

(١) أضواء البيان، (٦/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٠٧).

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: عاطفة، والحكم هو الحكمة أي التجربة، وبعد أن كان يعيش في النعمة في قصر فرعون، اكتسب حكمة وتجربة وعمل وكسب، فإن الشدة تصقل النفس وتربي الحكمة وتزن الأمور والأفعال. ويصح أن يكون الحكم بمعنى الرسالة ـ والنبوة ـ والأول أولى؛ لأن التأسيس أولى من التأكيد، وجعلني رسولاً من المرسلين الذين أرسلهم رب العالمين، فقد جعله الله من أولي العزم من الرسل(١).

ثم بيَّن كليم الله موسى عليه السلام أن النعمة التي يمنُّ بها عليه هي نعمة سببها أشد النقم، لأنها كانت بسبب إيذائك المطلق لبني إسرائيل؛ مما جعل أمه تُلقيه في تابوت في اليم فيكون في قصر فرعون، فلولا هذه النقمة الفاجرة ما كانت تلك النعمة التي تمنُّ بها وتستطيل عليّ بذكرها(٢).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]:

أي: وهذه النعمة التي تمنُّها عليّ ليست في الحقيقة إلا بسبب استعبادك لبني إسرائيل، عندما أمرت بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، فلولا ذلك كنتُ بين أهلي وما ألقَوني في اليم، وما وصلتُ إلى قصرك ونشأتُ فيه، وهكذا بكل الثبات والجرأة والثقة ردّ موسى عليه السلام منة الطاغية الكبير عليه، مما حمله على الانتقال إلى موضوع رسالة موسى، والاعتراض عليها(٣).

أ ـ قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إبطال لمنته عليه في التربية ببيان أنها في الحقيقة نقمة، لأنه كان اتخذ بني إسرائيل عبيداً مُسخَّرين في شؤونه، مُذلَّلين لأموره، مقهورين لعسفه، وموسى عليه السلام وإن لم ينله من ذلك ما نالهم إلا أنه لما كان منهم فكأنه وصل إليه وحلَّ به

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٦).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٧).
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٢٥٣).

كما قيل: «وظلمُ الجارِ إذلالُ المُجيرِ» أي: لا يفي إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم وما أنا إلا عضو منهم، وفي فحواها تقريعه بالكبرياء المتناهية والقسوة البالغة والسلطة العالية التي من ورائها الفرج القريب والمخرج العجيب[١].

ب ـ قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]: أحسنت إليّ وربَّيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً، تُصرِّفهم في أعمالك ومشاقِّ رعيتك، أفيكفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ لا يساوي ما فعلتَه معي ما فعلتَه بهم[٢].

ويدل قول موسى لفرعون معترضاً عليه ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أنه كان يعبِّد بني إسرائيل له، ويجعلهم خاضعين له، وكأنه جعل نفسه ربّاً لهم، وجعلهم عبيداً له، وهذا دليل على أن فرعون كان يدّعي الألوهية والربوبية، ويعتبر نفسه إلهاً وربّاً لرعيته، ويدعوهم إلى أن يعبدوه ويُؤلِّهوه ويُعبّدهم له.

وفعل «عبّد» الرباعي لم يرد في القرآن في غير هذا الموضوع.

إن موسى يعلم أنه لا يجوز أن يكون الناس عبيداً لغير الله، ولا يجوز لأحد أن يُعبِّدهم ويُخضِعهم له من دون الله، وكل من عبّد الناس فقد اعتدى على حق الله في الألوهية والربوبية، ولذلك أنكر فرعون تعبيد واستعباد بني إسرائيل له، وما فعله فرعون من تعبيد بني إسرائيل هو ما يفعله كل طاغية ظالم، حيث يعتدي على حق الله في الألوهية والربوبية والتشريع والحاكمية ويُعبّد رعيته له بدل تعبيدهم لله رب العالمين[٣].

---

(١) محاسن التأويل، (تفسير القاسمي)، محمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٦م، (٩/١٣).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٣٢١).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٤٠٩).

رابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٧]:

بعدما ردّ موسى على فرعون استصغاره له، وأنكر عليه تعبيد بني إسرائيل له، وبعدما سمع فرعون كلام موسى بأنه رسول من الله رب العالمين، سأله عن ربه، لقد ذكرت سورة طه موجزاً لأول حوار بين موسى وبين فرعون حول الألوهية والأدلة على الوحدانية، أما سورة الشعراء فقد فصَّلت قليلاً في هذا الحوار، وفي أسئلة فرعون وإجابات موسى عليها، وسننظر بإذن الله في هذه الآيات وما تتضمنه من حوار نظرة مجملة بعون الله.

لدى المقارنة بين موضوع آيات سورة طه السابقة، وموضوع هذه الآيات من سورة الشعراء، فإننا نجد «تصعيداً» من فرعون في حواره مع موسى عليه السلام، ونرى ارتفاعاً وحدّة في لهجة فرعون وهو يحاوره، ففي سورة طه طرح فرعون سؤالين بطريقة هادئة حيث قال: فمن ربكما يا موسى؟ وبعدما سمع جواب موسى أتبعه بسؤال آخر فقال: فما بال القرون الأولى؟ فتوسَّع موسى قليلاً في جوابه، أما في سورة الشعراء فقد كان فرعون مُحتدّاً في كلامه وحواره مع موسى عليه السلام.

كما نرى أن الحوار الذي سجلته آيات سورة طه كان في جلسة خاصة حضرها موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون، وتُوحي الآيات أنه لم يكن معهم أحد، ولهذا كان كلام فرعون هادئاً في الظاهر، لأنه كان يريد أن يتعرَّف على موسى ودعوته ورسالته ومهمته، فكان جادّاً في البحث راغباً في المعرفة، لا لِيُؤمن ويهتدي ولكن ليكوّن صورة متكاملة عن موسى، ليعرف كيف يواجهه ويحاربه.

ويبدو أنه كَوَّن صورة متكاملة عن موسى عليه السلام، وتَعرّف على حقيقة دعوته وأبعاد رسالته، في ذلك اللقاء الخاص الذي أعدَّه له[1].

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤١٣).

وأما آيات سورة الشعراء، فإنها توحي بأن الحوار بينه وبين موسى كان في جلسة موسَّعة حضرها الملأ من قومه، والملأ هم كبار رجال دولته، الذين يتولَّون حكم الدولة باسمه، ويبدو أن فرعون حرص على أن يحاور موسى أمام الملأ من قومه، ليُعرِّفهم على موسى ودعوته، ويُبيّن لهم مدى خطورتها عليهم، وذلك ليُهيِّجهم عليه ويُنشِّطهم في حربه.

ولذلك «صعّد» فرعون في حواره مع موسى، وعلت نبرته وارتفعت حدة كلامه، وتخلَّى عن هدوئه الظاهري في المقطع الذي ظهر في الحوار الأول، كما سجلته آيات سورة طه، ولجأ إلى أسلوب البطش والتهديد والوعيد، والملاحظ أن موسى عليه السلام بقي متمتِّعاً بهدوئه في ذلك الحوار الثاني الموسع، كما بقي محافظاً على الموضوعية الحكمية في الحوار والجواب والكلام، ولم يُخرجه تهديدُ فرعون عن موضوعيته وحكمته، كما أنه لم يضعف أمامه، ولم يخفْه ولم يخشَ تهديده، وبقي يواجهه بعزةٍ وشجاعة وجرأة.

وتوحي آيات سورة الشعراء السابقة أن فرعون دعا الملأ من قومه إلى جلسة خاصة، وكان من كبار الحضور قارون وهامان، وذلك ليسمعوا ما سيقول لموسى وما سيقول موسى له[1].

ولما بدأ الاجتماع طرح فرعون على موسى سؤاله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا ننسى أنّ فرعون كان ينكر وجود الله عناداً واستكباراً، وكان يدّعي الألوهية والربوبية ويقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكان يُعبِّد قومه له. وقد بين الدكتور الخالدي الفرق بين: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ في سورة طه، و﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في سورة الشعراء فقال: وفاجأه موسى عليه السلام في لقائه السابق به بأن الله هو رب العالمين، وهو الذي بعثه رسولاً إليهم، وقد سأله عن ربّه في اللقاء السابق، فعرّفه موسى على بعض أفعال الله في الوجود وبعض آياته الدالة على وحدانية الله.

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٤١٤).

والآن في هذا اللقاء الموسع يسأل فرعون: ما رب العالمين؟ وسؤاله ليس سؤال الباحث عن الحقيقة الراغب في المعرفة، ولكنه سؤال المستنكر والمستغرب، وهو الذي يريد أن يبني عليه التهديد والوعيد، ويُثير عليه الآخرين بالتهييج، ونلاحظ أنه طرح سؤاله بصيغة «ما» الدالة على غير العاقل: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يستعمل بصيغة «من» المستعملة في العاقل.

كما نلاحظ اختلاف صيغة هذا السؤال عن صيغة السؤال السابق في اللقاء الأول، فهناك كان السؤال بلفظ «من» الذي ورد في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟ وجاء جواب موسى عليه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، وهنا كان السؤال بلفظ «ما» ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١).

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]:

كان فرعون في اللقاء الأول يريد أن يتعرَّف على الله، لا ليؤمن به، لكن ليعرف فكر وعقيدة موسى، وكأنه يقول لموسى: من ربُّكما؟ ما فِعْله؟ فقال له موسى: ربنا الخالق فهو الذي خلق كل شيء وهداه إلى حياته، وهنا في سورة الشعراء يقوله له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ أي: أي شيء ربُّك؟ وما هذا الكلام الذي تقوله؟ وما هذا الذي تدعو إليه؟ وما هذه الربوبية التي تتحدَّث عنها؟ وكأن سؤال فرعون عن الفكرة والمبدأ، ولهذا جاء بلفظ «ما» وهناك سأل عن الله، ولهذا جاء بلفظ «من» (٢).

إن فرعون ـ قبَّحه الله ـ يسأل في هذه الآية: أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول إنك من عنده رسول؟ وهو سؤال المُتنكِّر للقول من أساسه، المُتهكِّم على القول والقائل، والمستغرب للمسألة كلها حتى لَيراها غير ممكنة التصور، بل غير قابلة لأن تكون موضوع حديث(٣).

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤١٤).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤١٥).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٢).

وإنما كان أسلوبه أسلوب الجاحد المعاند المتكبر، فأجاب موسى عليه السلام إجابة هادئة مرشدة بالصفة المشتملة على ربوبية الله عزّ وجل الدالة على أفعاله سبحانه وتعالى وآثار قدرته(١).

٢ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]:

وهو جواب يُكافئ ذلك التجاهل ويُغطِّيه، إنه رب هذا الكون الهائل، هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل وهو ملك صغير ضئيل، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما، وكذلك كان جواب موسى عليه السلام يحمل خلاف ما يدعيه فرعون مع بطلانه، وهدفه توجيه النظر إلى هذا الكون الهائل، والتفكير فيمن يكون ربّه فهو رب العالمين، ثم عقَّب على هذا التوجيه بما حكايته: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، فهذا وحده هو الذي يَحسن اليقين به والتصديق(٢).

لقد كان موسى عليه السلام حكيماً في جوابه، فهو لم يُوجِّهه إلى فرعون السائل، وإنما وجهه إلى الملأ الحاضرين وخاطبهم بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وذلك لِيُشركهم في الحوار وليلمس قلوبهم ويفتح آذانهم، ليعلموا أنهم المقصودون بالكلام والخطاب، فيفكرون فيما يسمعون، وبهذا نقل موسى الحكيم الداعية الرسول الكريم المسألةَ من حوار ثنائي بينه وبين فرعون إلى ندوة عامة بينه وبين الملأ أجمعين(٣).

وكان جواب موسى عليه السلام أن الله عزّ وجل رب العالمين، وهو عالَم السماوات وعالم الأرض وما بينهما، فهذه العوالم وغيرها من العوالم لله عزّ وجل، ولا يدَّعي أحد أنه رب السماوات والأرض وما بينهما حتى فرعون نفسه لا يدّعي ذلك، فكل ما ادّعاه فرعون أنه رب لقومه، وقومه جزء من البشر، والبشر جزء من

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٥٤).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٢).
(٣) القصص القرآني، (٤/ ٤١٥).

العالَمين، والعالمون جزء من السماوات والأرض، ولهذا ربط موسى في جوابه الحكيم بين الكلي المتمثل في السماوات والأرض، والجزئي المتمثل في رعية فرعون، وقال للملأ: ربكم أيها القوم هو الله، وليس فرعون، لأن الله هو رب العالمين ورب السماوات والأرض وما بينهما، بطبيعة الحال لم يزعم فرعون ذلك.

ولمس موسى الحكيم قلوب الملأ لمسة خفيفة، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي إن هذه مسألة لا تحتاج إلا إلى يقين، فلا يدَّعي مخلوق أنه رب السماوات والأرض وما بينهما، مهما بلغ من الكفر والاستكبار، فكيف تناقضون أنفسكم فتُوقنون أن رب السماوات والأرض هو الله، وربكم أنتم هو فرعون[١]؟

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ وجهُ الدليل أن هذه السماوات وهذه الأرض، وهذا الذي بينهما موجودات، حيث يقرر العقل ضرورة أن يكون لها موجد، وهذا الموجد لها أي الخالق لها هو ربها وهو مالكها، وهذا مما يراه كل عاقل هو أهل لأن يكون من أهل اليقين، ودليل هذا هو الفطرة والعقل، وليست في حاجة إلى كتاب.

وإن الأعرابي الذي كان يُوصَف بأنه يبول على عقبيه كان يقول: الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، أفلا يدلان على العليم القدير؟ وموسى يعني كل هذا بدليل قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ لأنه لا يعني أنهم موقنون، وإنما يعني إن كنتم مؤهَّلين لأن تكونوا موقنين، وكانت فيكم الفطرة الإنسانية التي تستدل بالبعرة على البعير[٢].

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي إن كنتم تريدون الحق الذي تسيرون عليه في طريق اليقين والإذعان[٣]. وقد قال محمد متولي شعراوي في تفسيره للآية الكريمة ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]: لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج، والأرض

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤١٦).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٤٤٤.
(٣) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٤٧).

وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقفار ونبات وحيوان وإنسان، وقد وُجدت قبل أن توجد أنت أيها الفرعون المدعي للألوهية والربوبية، إذن: ردّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه وقبل مولده.

وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام: أخبرني يا فرعون يا من تدعي الألوهية، ما الذي زاد في الكون بألوهيتك له؟ وإن كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين، فماذا فعلت أنت؟ ولم يقتصر على السماوات والأرض، وإنما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من هواء وطير يسبح في الفضاء، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء وانتقال الصوت والصورة من خلاله، ففي جو السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحقّ التأمل، ثم يتلطف معهم فيقول: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ إن كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله[1].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه، وهو لا شريك له، فهو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع خاضعون ذليلون.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة[2].

قال فضيلة الدكتور سلمان العودة: وهذه دعوة للتدبر وللتأمل والنظر في ملكوت السماوات والأرض، وهكذا فعل إبراهيم الخليل حين دعا النمرود بالطريقة ذاتها قال: إذا كان عندكم استعداد لليقين والإيمان فانظروا في ملكوت السماوات والأرض الذي يدلكم على الله، وآيات الله لا تحتاج إلى مختبر أو متخصص أو عالم فيزيائي أو فلكي، الأعرابي في صحرائه والمزارع في حقله، والإنسان البسيط

(١) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٥٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

في عقله ومستواه ومعلوماته، يستطيع أن يهتدي إلى الله سبحانه وتعالى[١].

ودهش فرعون من قوة جواب موسى وظهور حجته، فالتفت إلى رجال حاشيته المحيطين به، مخاطباً لهم[٢]:

٣ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]:

لاحظ فرعون بنباهته، أن جواب موسى عليه السلام يُهدِّد عرشه، ويُلغي ربوبيته لقومه، فترك موسى ووجه كلامه للملأ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فقد نجح موسى عليه السلام في استدراج فرعون، وفي تحويل الموضوع من حوار ثنائي إلى حوار عام مفتوح، فها هو فرعون يوجه كلامه للملأ من حوله، وها هم الملأ يستمعون للحوار بين فرعون وبين موسى، وهم يعلمون أنهم مقصودون بذلك.

وقول فرعون لمن حوله: ألا تستمعون؟ من باب الاستغراب والاستهجان، يدعوهم إلى أن يستهجنوا ما يسمعون من موسى عليه السلام، لأنه يتكلم عن رب آخر غير فرعون، وهم يؤمنون أن فرعون وحده ربهم، فأهمل موسى عليه السلام فرعون واستغرابه ووجّه كلامه إلى الملأ، وقدّم لهم تعريفاً آخر على أن الله وحده هو الرب[٣].

٤ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]:

فنقل موضوع الربوبية من بُعدها الكوني الواسع إلى بعدها الإنساني، وبنى على كون الله وحده ربَّ السماوات والأرض وما بينهما، كونَ الله وحده ربَّ الناس، على اختلاف زمان ومكان وجودهم، فرب الكون هو رب الناس، وصارح موسى الملأ حول فرعون بأن ربهم هو الله، وليس فرعون كما يدّعي، وإذا كان فرعون لا يدعي أنه رب آبائهم الأولين، فكيف يدّعي أنه ربهم هم؟ إن رب آبائهم الأولين هو ربُّهم[٤].

---

(١) علّمني موسى، سلمان العودة.
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٥٤).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٤١٦).
(٤) المصدر نفسه، (٢/ ٤١٧).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧]:

وأحس فرعون بقوة وحكمة منطق موسى عليه السلام، ولم يستطع أن يجاريه في المنطق والأسلوب العلمي الموضوعي نفسه، لأنه لا يقدر على هذا المنطق، ولا يملك حجة يخاطب بها قومه، ولهذا انتقل إلى أسلوب السبّ والشتم، فشتم موسى بأنه مجنون، ووجه كلامه للملأ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧].

موسى رسولهم مجنون، هل الكلام الذي قاله كلامُ مجنون؟ وهل الأدلة التي عرضها يمكن أن يعرضها مجنون؟ وهل موسى مجنون لأنه رفض الاعتراف بربوبية فرعون لقومه؟ هذا هو منطق فرعون المستكبر المتجبّر، إنه ينقل القضية من ميدانها الفكري الواسع، إلى ميدان شخصي ضيق، لقد ترك فرعون نقض أدلة موسى، وتحول للكلام على شخصية موسى وعقليته.

وانتقال فرعون هذا دليل على هزيمته أمام موسى، وعدم وقوف كلامه أمام قوة حجة موسى، وبما أنه عجز عن دفع حجة موسى الفكرية، فليقم بتشويه شخصية موسى، وما أقدم عليه فرعون أمام موسى هو نفس ما يُقدِم عليه كل حاكم طاغية مستبد، فعندما يعجز الطاغية عن نقض حجج أصحاب الحق، ولا يستطيع دفع الحجة بالحجة، فإنه يلجأ إلى سبّ وشتم واتهام أصحاب الحق.

ومن حكمة موسى في هذه المواجهة مع فرعون أمام الملأ أنه لم ينزل إلى مستوى فرعون الهابط، ولم يردَّ على الاتهام باتهام مقابل، ولم يدفع عن نفسه تهمة الجنون، فليست المعركة شخصية بينه وبين فرعون، وليس الموضوع عقل موسى أو جنونه، إنما الموضوع الربوبية؛ من ربُّهم: الله أم فرعون؟ ومن رب العالمين، الله أم فرعون؟ إن فرعون يريد أن يصرف سير المواجهة مع موسى عن هذا الخط الأصيل، إلى موضوع هامشي تافه، يقوم على الملاسنة والسباب والشتم بين شخصين، وموسى يدرك هذه اللعبة الفرعونية، فلم يستجب له فيها وأبقى المسألة في إطارها الصحيح، ولهذا وجّه كلامه للملأ قائلاً[1]:

(١) القصص القرآني، (٢/٤١٨).

٦ ـ **قال تعالى**: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]:

مضى موسى عليه السلام في بيان الحجج والبراهين على ربوبية الله عزّ وجل، وصدح بكلمة الحق التي تُزلزل الطغاة والمتجبرين.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وكلام موسى عليه السلام موجه للملأ يقول لهم: أيها القوم ليس ربكم هو فرعون، ولكن ربكم رب مشرق الكون ومغربه، ورب ما بين المشرق والمغرب، لقد عرض موسى عليه السلام مسألة ربوبية الله رب العالمين في أبعاد ثلاثة، وفرعون لا يدّعي ربوبيته لأي بُعدٍ منها:

الأول: المجال الكوني الواسع، المتمثل في السماوات والأرض وما بينهما: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ﴾.

الثاني: المجال الإنساني التاريخي المتمثل في الوجود الإنساني على الأرض: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

الثالث: المجال الأرضي الواسع، المتمثل في المشرق والمغرب على وجه الأرض: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ﴾.

وبهذا ضيّق الأمر على فرعون، ولم يعدْ له حجة أو دليل على أنه رب لقومه، اللهم إلا منطق الطغيان والاستكبار[١]، إن هذا التَّوجُّه يهزُّ القلوب البليدة هزّاً، ويُوقظ العقول الغافية إيقاظاً، وموسى عليه السلام يُثير مشاعرهم، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير[٢].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: حيث لمس عقولهم لمسة، وخاطبهم بهذا الدليل الدال على وحدة الربوبية، ودعاهم إلى إعمال عقولهم، والتفكير فيما أمامهم من أدلة وآيات.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤١٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٣).

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ردّ على اتهام فرعون له بأنه مجنون، وهو اتهام ضمني من موسى لفرعون وقومه في عقولهم، وكأنه يقول لهم مَن المجنون؟ أهو الذي يؤمن أن الله وحده هو رب العالمين، هو رب المشرق والمغرب وما بينهما، أم ذلك الذي يؤمن أن الربّ مخلوق ضعيف مثله لا يملك السماوات والأرض وما بينهما، ولا يملك المشرق والمغرب وما بينهما.

كأنه يقول لهم: إن كنتم تعتقدون أن فرعون ربٌّ لكم فأنتم المجانين، ففكروا وأعملوا عقولكم لتعرفوا الحقيقة[١].

لم يصمد فرعون أمام منطق موسى الموضوعي، وأدلته المقنعة، ولم يستمر فرعون في التظاهر بالأناة وسعة الصدر، فقد قدّم نفسه لمن حوله على أنه حليم موضوعي واسع الصدر، يستمع الرأي الآخر المخالف ولا يضيق به، أو قُلْ قدّم نفسه أمامهم على أنه «ديمقراطي» بالمفهوم المعاصر[٢].

أحدث موسى عليه السلام حالة من الوعي في مجلس فرعون، والفراعنة لا يخشون شيئاً كما يخشون من يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكرهون أحداً كما يكرهون الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينتقمون من أحد كما ينتقمون ممن يهزون الضمائر الغافية، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يُسقَط في أيديهم وتخذلهم البراهين[٣].

٧ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]:

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل، التهديد بأن يُسلِكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد، وهذا هو دليل العجز

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤١٩).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤١٩).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٣).

وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد[١].

ولكن تهديد فرعون لم يَثنِ موسى عن إيمانه ودعوته، ولم يقذف الخوف في قلبه، فقد كان يُوقن أن الله معه، ويسمع ويرى، معه يحفظه ويحميه، ولهذا بقي ثابتاً على الحق رغم التهديد والوعيد، وكذلك لم يُخرجه تهديد فرعون عن هدوئه وحكمته وموضوعيته، ولهذا ردّ على تهديده ونزقه وغلظته بقوله[٢]:

٨ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]:

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى، ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته وهو يدعي أنه مجنون، ومن ثم وجد نفسه مضطرّاً أن يطلب منه الدليل[٣].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣١ـ٣٣]:

أ ـ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه، فكان عليه ساعة أن يسمع من موسى هذا الكلام أن يُصِرَّ على سجنه، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُظهر حجته، فيجعل فرعون هو الذي يطلبها بنفسه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١]، وما كان لموسى أن يأتي بآية إلا أن يطلبها منه فرعون.

ب ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾:

إلقاء العصا له في القرآن ثلاث مراحل؛ الأولى: هي التي واكبت اختيار الله

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٢٥٩٣).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٢٠).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٣).

لموسى ليكون رسولاً حين قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧].

قال الشعراوي: إن موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة الأنس بالله عز وجل، فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، فالعصا في نظر موسى عليه السلام عود من الخشب قريب عهده بأصله، كغصن في شجرة، لكنها عند الله لها قصة أخرى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩ ـ ٢٠].

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

كانت هذه المرة بمنزلة تدريب لموسى عليه السلام ليألف العصا على هذه الحالة، وكأن الله تعالى أراد لموسى أن يُجري هذه التجربة أمامه ليكون على ثقة من صدق هذه الآية، فإذا ما جاء لقاء فرعون ألقاها دون خوف وهو واثق من نجاحه في هذه الجولة، إذن: كان الإلقاء الثاني للعصا أمام فرعون وخاصته، ثم كان الإلقاء للمرة الثالثة أمام السحرة[١].

ومعنى ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: بيِّن الثعبانية، فيه حياة وحركة، ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: يعني واضح للجميع، لأنهم كانوا يُجيدون هذه المسألة ويُخيِّلون للناس مثل هذه الأشياء، ويجعلونها تسعى وتتحرك، ولم تكن عصا موسى كذلك، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقيّاً لا يشك في حقيقته أحد، والمتتبع للَّقطات المختلفة لهذه الحادثة في القرآن الكريم يجد السياق يسميها مرة ثعباناً ومرة حية ومرة جاناً، لماذا؟

قالوا: لأنها جمعت كل هذه الصفات، فهي في خفة حركتها كالجان، وفي شكلها المركب كأنها حية، وفي التلوّي كأنها ثعبان، والجان فرخ الحية[٢].

وهذه الآية «العصا» تُثبت أن الألوهية والربوبية لا تكون إلا لله، فالله الخالق

(١) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٦١).
(٢) المصدر نفسه، (١٧/ ١٠٥٦٢).

هو الذي جعل الحياة تدبُّ في العصا الخشبية اليابسة، فتتحوَّل إلى ثعبان، وهو الذي يسلبها الحياة بعد ذلك، ويعيدها خشبة يابسة كما كانت[١].

ت ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٣]:

أي: نزع موسى يده من تحت إبطه، بعد أن أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء بياضاً منيراً متلألئاً تجذب إليها أنظار الناظرين، ولا شك في أن فرعون وحاشيته قد بُهروا بسلطان المعجزتين، ولكن عنادهم جعلهم يُخفون تأثُّرهم وانفعالهم، ويُظهرون غير ما يُبطنون[٢].

إن العصا واليد آيتان بيَّنتان على نبوة موسى عليه السلام أيضاً، فالله هو الذي أجرى على يديه معجزة العصا ومعجزة اليد، وهذا تصديق عملي من الله لموسى في دعوى النبوة، وشهادة فعلية من الله له أنه نبيٌّ رسولٌ عليه السلام[٣]. وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها، وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملَّق القوم من حوله ويُهيِّج مخاوفهم من موسى وقومه، ليُغطِّي على وقع المعجزة المزلزلة[٤].

١٠ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٤ـ٣٧]:

وحتى يقضي فرعون على أثر الآيتين المعجزتين في نفوس الملأ، وخشية أن يتفاعلوا معهما، سارع إلى اتهام موسى بالسحر.

أ ـ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾:

الملأ: هم عليَّةُ القوم الذين يملؤون العيون ويتصدَّرون المجالس[٥]، وهم

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٢٢).
(٢) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٥٦).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٤٢٢).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٤).
(٥) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٦٣).

كبار رجال الدولة الذين يتولَّون إدارة شؤون الحكم وقيادة الرعية باسم فرعون(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته، وقال: ساحر لأن موسى لم يمارس هذه المسألة إلا مرة واحدة هي التي أجراها أمام فرعون، لكن الملأ على علم بالسحر، وعندهم سحرة كثر(٢).

واتهام موسى عليه السلام بالسحر كاتهامه له بالجنون، وهذا دليل على تناقضه في اتهاماته، فهل موسى ساحر أم مجنون؟ لا يهمّ عند فرعون، المهم عنده هو الاتهام والشتم والسباب، وورد هذان الاتهامان من فرعون لموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩]، ولم يكتف فرعون باتهام موسى بالسحر، وإنما خطا خطوة أخرى في تهييج الملأ من حوله عليه(٣).

ب ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾:

وفي اتهام موسى عليه السلام بالسحر ومخاطبته للملأ يظهر ذعرُه، وإقراره بعظمة المعجزتين، وإن كان يُسمِّيها سحراً فهو يصف صاحبهما بأنه ساحر «عليم»، ويبدو ذعره من تأثر القوم بهما، فهو يُغريهم به: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾، ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهاً، فيطلب أمرهم ومشورتهم.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون؟! وتلك عادة الطغاة حينما يُحِسُّون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبُّر، ويلجؤون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر، وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٢٢).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٦٣).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٤٢٢).

يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون[١].

ت ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾:

فكّر الملأ المجتمعون مع فرعون، ثم اقترحوا على فرعون اقتراحاً، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، اقترح الملأ على فرعون أن يُرجئ موسى وأخاه هارون، أن يُؤخِّرهما ويُؤخِّر البت في المسألة، وأن يستدعي السحرة من مختلف المدائن في مصر، لتتم المباراة بينهم وبين موسى الساحر.

و﴿أَرۡجِهۡ﴾: فعل أمر من الإرجاء وهو التأخير، وفعله الماضي أرجأ، تقول: أرجأ يُرجئ، أرجِئ، وأصل «أرجه»: أرجئه، وفاعل «أرجه» ضمير مستتر تقديره «أنت».

والهاء: في محل نصب مفعول به، وتعود على موسى عليه السلام.

ومعنى ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: اطلب من رجالك وولاتك في مختلف مدن مصر أن يأتوك بالسحرة، وأن يجمعوهم ويحشروهم ويُحضروهم إليك. ومن لطائف التعبير القرآني أن الفعل ﴿أَرۡجِهۡ﴾ لم يرد في القرآن إلا مرتين، والمرتان في قصة موسى عليه السلام، وفي سياق طلب إحضار السحرة.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]: ومن لطائف التعبير القرآني أن كلمتي ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ و﴿حَٰشِرِينَ﴾ لم ترد إلا في هذا السياق أيضاً، حيث وردت الكلمتان ثلاث مرات في الأعراف في الآية ١١١، وفي الشعراء في الآيتين ٥٣ ـ ٣٦[٢].

وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾، وفي ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾ أكثر تفخيماً من ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ وأعلى رتبة لإشعاره بالفوقية، ففي سورة «الأعراف» حكى قول الملأ لفرعون، فناسب خطابهم له بما هو أعظم رتبة

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٤).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٢٥).

تفخيماً له، وفي سورة «الشعراء» كان هو القائل لهم، فناسب تنازله معهم، ومشاورته لهم، فقالوا له: ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ (١).

ث ـ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾:

وكلمة ﴿سَحَّارٍ﴾ ـ التي هي صيغة مبالغة من «ساحر» ـ لم ترد في غير هذا الموضع، ما أراد الملأ إحضار كل ساحر عليم، وإنما أرادوا إحضار كل ﴿سَحَّارٍ﴾، والسحّار هو المتمكّن من سحره، الماهر فيه، ما أرادوا السحرة فقط لأنهم مُقدمون على مباراة حاسمة وخطيرة مع موسى، وهذه المباراة لا ينفع فيها إلا كل سحّار عليم.

وهكذا اتفق الملأ من قوم فرعون على تأخير البتّ في قضية موسى عليه السلام، والاستنجاد بقوة السحرة، وهي القوة القيادية المؤثرة في النظام الفرعوني للوقوف أمام موسى وآياته، وهكذا اجتمعت القيادات الثلاث التي تدعم فرعون وتساعده في حكم مصر:

ـ القيادة الإدارية: المتمثلة في هامان.

ـ والقيادة المالية الاقتصادية: المتمثلة في قارون.

ـ والقيادة الإعلامية التأثيرية: المتمثلة في السحرة.

واجتمعت القيادات الثلاث على مواجهة موسى والوقوف في وجهه والانتصار لفرعون، وانتهى لقاء المواجهة بين موسى وبين فرعون بحضور الملأ الكبراء بانحياز الملأ إلى فرعون وتبنّي اتهامه لموسى، حيث قرر هؤلاء الملأ أن موسى ساحر عليم وليس رسولاً نبيّاً، وأنه خطر مباشر يهدد فرعون ويهدد الملأ ويهدد مصر كلها، وأنه لابد أن يُحشَر السحرة المتمكنون لمواجهة موسى وهزيمته، وخرج موسى من لقاء المواجهة مع فرعون، وصار ينتظر قدوم السحرة من المدائن المختلفة لتتم المباراة بينه وبينهم(٢).

---

(١) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، المرجع السابق، ص٣٧٧.

(٢) القصص القرآني، (٢/٤٢٦).

إن حديث سورة الشعراء عن اجتماع فرعون مع الملأ كان خاصّاً ومغلقاً مع الملأ وخواص القوم، وفيه قال فرعون للملأ من أن موسى ساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون، وماذا تريدون مني أن أفعل معه؟

أجاب الملأ الذين حوله قائلين: أرجِهْ وأخِّر موسى وأخاه، واطلب من ولاتك في المدن أن يحشروا السحرة وأن يأتوك بهم ليباروا موسى، وفي سورة الأعراف قال الملأ من قوم فرعون ولم يقل فرعون، فالملأ هم القائلون المتكلمون، بينما كان القائل المتكلم في سورة الشعراء هو فرعون.

وكرر الملأ القائلون في سورة الأعراف كلام فرعون الذي قاله لهم في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، فلمن قال الملأ هذا القول؟ ولمن قالوا: فماذا تأمرون؟ وإذا كان الملأ هم القائلون السائلون فمن هم المخاطبون والمسؤولون؟

وهذا يدل على ما قلناه من اجتماعين: الاجتماع الأول كان خاصّاً مغلقاً بين فرعون وبين الملأ فقط، وبعدما اتفقوا على خطة مواجهة موسى عليه السلام رتَّب الملأ اجتماعاً آخر موسَّعاً، دعوا فيه وجوه القوم، وبحثوا معهم قضية موسى، وأخذوا منهم موافقتهم على خطة فرعون، وبما أن وجوه القوم كانوا ممثلين للشعب كله، فقد أيّد الشعب خطة فرعون في مواجهة موسى عليه السلام ودعوته.

وكما تظاهر فرعون أمام الملأ بالمشاور لهم، المحترم لآرائهم، المستعد لتنفيذ ما يشيرون به عليه وقال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ تظاهر الملأ أمام المدعوين من وجوه القوم بذلك فقالوا لهم: ماذا تأمروننا أن نفعل لمواجهة موسى؟ إننا مستعدون لتنفيذ ما تُشيرون به علينا، قالوا لهم هذا بعدما أعطوهم رأي فرعون في موسى بأنه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، وكأنهم يدعونهم إلى القول بذلك، فما كان من المدعوين إلا أن أشاروا بتأخير موسى وأخيه، وحشرِ السحرة من المدائن، واستدعائهم لمواجهة موسى ومبارزته، هذه

هي «لعبة الديمقراطية» في صورتها البدائية في النظام الفرعوني الجاهلي[١].

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٧ ـ ١١٢].

وقال صاحب (التحرير والتنوير) عن كلمة ﴿سَحَّارٍ﴾: السحَّار مرادف للساحر في الاستعمال؛ لأن صيغة فعّال هنا للنسب دلالة على الصناعة، مثل: النجّار، والقصّار، ولذلك أتبع هنا وهناك[٢] بوصف ﴿عَلِيمٍ﴾ أي: قوي العلم بالسحر[٣].

خامساً: قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٥١]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٤٠]:

وبينما ذهب حكام المدن وولاة الأقاليم المصرية يجمعون السحرة لإيفادهم

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٣١).
(٢) التحرير والتنوير، (٩/ ١٢٥).
(٣) المصدر نفسه، (٩/ ١٢٥).

إلى فرعون، قام الملأ من قوم فرعون بتهيئة الناس للمباراة القادمة الحاسمة الفاصلة بين السحرة المتمكنين وبين موسى عليه السلام، وقاموا بحملة إعلامية إعلانية حاشدة من أجل ذلك، وهم في حملتهم الإعلامية يريدون التأثير على الرأي العام، واستقطاب الناس إلى جانبهم. فموسى إسرائيلي ساحر عليم متمكن ـ في نظر أتباع فرعون ـ من سحره، يُحوّل العصا إلى حية، وهو ليس رسولاً كما يزعم، وهو يريد استغلال الدين لمصلحته الشخصية، وهو مُخرِّب مفسد يريد تخريب الوطن وإخراج أهله منه... إلخ. وقد قامت الحملة الإعلامية الفرعونية بوصف موسى عليه السلام بأبشع الأوصاف، والدفاع عن فرعون ونظام حكمه الفاسد.

وأصبحت قضية موسى مع فرعون هي شغل الناس الشاغل وحديثهم في مجالسهم ومحل نظرهم وتحليلاتهم، سواء كانوا من المصريين أو من الإسرائيليين، وصار تحديد موعد مباراة السحرة مع موسى موضع اهتمام الناس، ينتظرون تجميع السحرة وقدومهم إلى العاصمة، وقد جاؤوا من مختلف المدائن[1].

أ ـ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ٣٨]:

الفاء للترتيب والتعقيب النسبي، أي: فجُمع السحرة باتخاذ الطريق الذي رسموه والمنهاج الذي حفظوه، وهذا الميقات المعلوم كان باقتراح موسى عليه السلام، عندما طلب منه فرعون الماكر تحديد الموعد، كما جاء في سورة طه، قال تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾ [طه: ٥٨]، أي: حَدِّدْ يا موسى أنت الموعد الذي يناسبك، وأي موعد تراه مناسباً فنحن موافقون عليه، ولا تتخلف عنه، وليكن مكان المباراة ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾.

ومعنى ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾: مكاناً مستوياً ظاهراً بارزاً يراه الجميع، ولا يخفى أي جزء منه عن أي مشاهد، ولا يكون هكذا إلا إذا كان سهلاً واسعاً ممتداً، لا جبلَ ولا تلَّ فيه، ولا أشجار، قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾: مكاناً مستوياً

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٣٢).

بين الناس، وكل ما فيه بارز للناس، لا يغيب شيء منه عن أحد من الناس[١].

ولم يرد ﴿سُوًى﴾ في غير هذا الموضع من القرآن، واعتبرنا طلب فرعون من موسى تحديد موعد المباراة من باب كيده ومكره، لأنه من باب «حربه النفسية» ضدّ موسى عليه السلام، فكأنه يقول له: الأمر محسوم عندنا وفوز السحرة مضمون وهزيمتك مؤكدة، فقد جمعنا لك السحرة من مختلف مدائن مصر، وأحضروا معهم كل خبراتهم ومهاراتهم، وأنت لن تصمد أمامهم.

ولذلك حدِّدْ أنت مكان وزمان هزيمتك، واختر أوسع مكان وأكثره ظهوراً وبروزاً، ليشاهد الجميع هزيمتك، ويشهدوا بذلك عليك[٢].

وحدَّد موسى عليه السلام الموعد واثقاً من وعد ربّه له بالنصر، فقال: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]:

ب ـ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٩ـ٤٠]:

قال الشعراوي: أي: أخذوا يدعون الناس، وكأنهم في حملة دعائية وتأييد، إما لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون في الخفاء، وإما لفرعون، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة، إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة في كرة القدم مثلاً، فما بالك بمباراة بين سحرة من يدّعي الألوهية وموسى عليه السلام الذي جاء برسالة جديدة، يقول: إن له إلهاً غير هذا الإله؟! إنه حدث هزّ الدنيا كلها وجذب الجميع لمشاهدته[٣].

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير ـ من أتباع فرعون ـ ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لعلنا نتبع السحرة؟ هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٣٦)، تفسير ابن كثير، (٣/ ١٥٢).
(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٤٣٦).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٦٥).

الموعد، لترقُّب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي؟ والجماهير دائماً تتجمع لمثل هذه الأمور دون أن تفطن على حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهونها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس، وهكذا تجمَّع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٢]:

أ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]:

طلبوا منه الأجر الكثير مقابل مباراتهم ومواجهتهم لموسى، إذا غلبوه وهزموه، وورد طلبهم في سورتين: في الأعراف والشعراء، وجاء التعبير في سورة الأعراف بصيغة ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إنما التعبير في سورة الشعراء بصيغة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، وهو في سورة الشعراء مؤكد أكثر، لأنه فيه الهمزة الداخلة على ﴿إِنَّ﴾، والتنوين في ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ للتكثير، فلم يحددوا مقدار الأجر المطلوب، وتركوا تحديده لفرعون، وطلبهم الأجر من فرعون هذه المرة يدل على أن فرعون وملأه كانوا يستغلونهم قبل ذلك استغلالاً ويشغلونهم سخرة، ولا يعطونهم على أعمالهم أجراً، وهذه طبيعة المسؤولين الظالمين المستبدين، يُسخِّرون الآخرين لهم، ويستنزفون طاقاتهم، ويسرقون جهودهم، ويأخذون ما عندهم دون أجر ولا جزاء ولا ثمن ولا عطاء، وإذا بدا لهم أن يعطوهم شيئاً كان شيئاً تافهاً هزيلاً لا يساوي شيئاً[٢].

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٤).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٣٤).

بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة، وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة في كل زمان وفي كل مكان، وها هم يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع، وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر[١].

ب ـ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [طه: ٤٢]:

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه، ويذعن لشروط سحرته، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، فسوف تكونون من خاصتنا، نستعين بكم في مثل هذه الأمور ولا نستغني عنكم، لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا[٢].

وكلمة ﴿إِذًا﴾ تُشير إلى لحظة الغلبة التي يرقبها فرعون بكل شوق لأنها لحظة فاصلة تثبت ربوبيته لقومه، وعبادة قومه له، أو تكشف هذا وتذهب به[٣]، وقال لهم ﴿نَعَمْ﴾ أنا موافق على ما تطلبون، وسأعطيكم الأجر الذي تريدون.

﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: ولكم عندي زيادة على الأجر هو أنني سأقربكم مني، وأجعلكم من المقربين لديّ، وأضمُّكم إلى خاصتي وحاشيتي، وتكونون من الملأ المتنفِّذين. ووَعْد فرعون للسحرة أن يجعلهم من المقربين لأنه بحاجة ماسة لهم، وهذا إغراء منه لهم، وترغيب لهم لبذل كل جهدهم لينالوا هذه المنزلة[٤].

وقد أكد فرعون قربهم منه بمؤكدات أولها: إنّ، وثانيها: اللام، وثالثها: الحكم بأنهم يكونون من ذوي الزلفى المحيطين به، فيكونون في ظلامه وظلمه، وبيَّن أن ذلك نتيجة عملهم، وذلك بالتعبير بـ﴿إِذًا﴾ أي أنه نتيجة عملهم[٥].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٥).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٦٦).
(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد أبو موسى، ص٤٦٠.
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٤٣٥).
(٥) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٥٣).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣ ـ ٤٨]:

وهذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام[(١)].

أ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾:

قال لهم ذلك بعد أن قالوا له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، وتأمل قول موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ تجد وراءه الثقة الواثقة والمطمئنة إلى نصر الله، وأنه عليه السلام يقول لهم ألقوا كل ما أنتم ملقون، وكما حشدتم السحّارين من كل المدائن، فعليكم أنتم أيها السحَّارون المجموعون من كل البلاد، أن تلقوا كل ما تظنون أنه يُحقّق لكم الغلبة، ولاحِظ أن موسى وحده في جانب ـ ومعه أخوه ـ وكل سحّار عليم في مصر في جانب، ومعهم الناس المجتمعون، ومعهم فرعون وحاشيته، والمصفِّقون له، ومن حوله من المُطبِّلين في مواجهة موسى وأخيه[(٢)].

ونلاحظ منذ البدء اطمئنان موسى إلى الحق الذي معه، وقلة اكتراثه بكثرة السحرة المحشودين من المدائن، والمستعدِّين لعرض أقصى ما يملكون من براعة، ووراءهم فرعون وملؤه، وحولهم تلك الجماهير المضلَّلة المخدوعة، ويتجلَّى هذا الاطمئنان في تركه إياهم يبدؤون: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ بلا مبالاة ولا تجديد ولا اهتمام، وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدؤوا الجولة باسم فرعون وعزته[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٥).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد أبو موسى، ص٤٦٢.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٥).

ب ـ ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]:

وبما أن السحرة كانوا كافرين بالله، مؤمنين بفرعون معتمدين عليه، راغبين فيما عنده، فقد توكلوا عليه واستنجدوا بعزته، وقد سجل القرآن عبارتهم الغريبة التي نطقوا بها عندما ألقوا سحرهم، قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]، بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، ومن هو فرعون وما هي عزته؟ وماذا تساوي عزته وكبرياؤه أمام عزة الله وقوته وكبريائه؟ وهل تقف عزة فرعون العبد المخلوق الضعيف أمام عزة الله الخالق القوي؟ وهل ينتصر من اعتز بعزة فرعون الزائلة على من اعتز بعزة الله الثابتة؟ صدق من قال: من اعتز بغير الله ذلّ. واعتزاز السحرة بفرعون في قولهم ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يدل على أنهم كانوا يعبدون فرعون، ويعتبرونه ربّاً وإلهاً، ولهذا اعتزُّوا به واعتمدوا على عزته[١].

وفرعون ومن حوله يسمعون، ويُصدِّقون، ويمتلئ فرعون غروراً فوق غرور، وغطرسة فوق غطرسة، وطغياناً فوق طغيان[٢].

وفي قولهم ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾: رجع التوكيد بإن، واللام، وتوكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، وتعريف الخبر باللام الدال على قصر الغلبة عليهم، وأنها لهم دون موسى عليه السلام، وهذه الجملة مهمة أيضاً في لحظتها، لأنهم بعد ذلك بقليل سيسجدون لله رب العالمين، وينتصرون للحق البيّن، ويخلعون عزة فرعون الزائفة الكاذبة ويردونها إليه، وهو في أبّهته بين ملئه، والطبالة والزمارة من حوله[٣].

ولا يفصّل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم، كما فصّل في سورة الأعراف وطه، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق، وينتهي مسارعاً إلى عاقبة

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٤٧).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد أبو موسى، ص٤٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٦٣.

المباراة بين الحق والباطل، لأن هذا هو هدف سورة الشعراء الأصيل[١].

ت ـ ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]:

وقوله جل ذكره وجل كلامه وجل بيانه: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]، تأمل السرعة الخاطفة التي أزهق فيها حقُّ موسى عليه السلام باطلَ فرعون وسحرته، وستجد هذه السرعة الفائقة التي حسمت هذا الموقف الذي جُمع له الناس في هاتين الآيتين:

ـ **الأولى**: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾.

ـ **الثانية**: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

وراجع كلمة: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ وليس المفاجأة فحسب، وإنما هي أي العصا تلقف، وإنما يُخيَّل لمن يراها أنها تسعى، ثم إن اللقف، وهو الأخذ بسرعة وبقوة، لا يكون خيالاً سحريّاً، ثم كلمة ﴿يَأْفِكُونَ﴾ وكيف دلّت على أن كل ما كان منهم إفك، وأن دعوة فرعون لهم إفك وأن حشودهم إفك، وأن صاحب العزة والأبهة الجالس وحوله الناس كل ذلك إفك، لأن عصا موسى لم تلقف عصا السحرة وحبالهم، وإنما لقفت أباطيل وضلالات فرعون وملئه وكل من حوله، عصا موسى لقفت كل الإفك الذي ملأ أرض الكنانة[٢].

ومعنى ﴿تَلْقَفُ﴾: تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة، أما السرعة ففي اختصار الزمن، وأما القوة فتدل على الأخذ بشدة وعنف، وفي هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السحرة.

ومعنى ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: من الإفك يعني: قلب الحقائق، لذلك سمّوا الكذب إفكاً، لأنه يقلب الحقيقة ويغير الواقع[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٥).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٤٦٤.
(٣) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٦٩).

إذن، وقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقَّعها كبار السحرة، فقد بذلوا غاية الجهد في فنّهم الذي عاشوا به وأتقنوه، وجاؤوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه، وهم جمع كثير محشود من كل مكان، وموسى وحده وليس معه إلا عصاه، ثم إذا هي تلقف ما يأفكون، واللقف أسرع حركة للأكل، وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلاً، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقّاً، فلا تُبقي لها أثراً، ولو كان ما جاء به موسى سِحراً، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خُيّل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها، ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً، وعندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلاً، وهم أعرف الناس بأنه الحق[١].

لقد كانت معجزة العصا وانقلابها إلى حية جلية بيّنةً لأهل الخبرة في السِّحر، وإنهم يعلمون أن ما جاء به موسى ليس من نوع السحر، بل هو إعجاز الله تعالى[٢].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ـ٤٨]:

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية، ولكن الحق الذي مسّ قلوبهم حولهم تحويلاً، لقد كانت هزة رجتهم رجّاً، وخضتهم خضّاً، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق، عامرة بالإيمان في لحظات قصار، فإذا هم ملقين ساجدين بغير إرادة منهم، تتحرك ألسنتهم فتنطلق بكلمة الإيمان في نصاعة وبيان ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلاً[٣]، وصدق رسول الله ﷺ: «ما من قلب إلا

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٥).
(٢) تفسير أبي زهرة، المصدر السابق، (١٠/ ٥٣٥٥).
(٣) في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٥/ ٢٥٩٦).

بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»[١].

وهكذا انقلب السحرة المأجورون مؤمنين من خيار المؤمنين، على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه، لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول[٢].

أ ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦]:

يدل على سرعة الاستجابة فكلمة ﴿فَأُلْقِيَ﴾ تدل على ذلك، وأن السجود تمّ منهم دون تفكير، لأنه أمر فوق إرادتهم، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رأوا ألقاهم على الأرض ساجدين لله صاحب هذه الآية الباهرة، ولذلك قالوا:

ب ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨]:

نلاحظ أنهم خرّوا لله ساجدين أولاً، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل، وأن السجود لا يتأتى إلا بعد إيمان، فكيف ذلك؟ قالوا: هناك فرق بين وقوع الإيمان وبين أن تُخبر أنت عن الإيمان، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به، لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كل شك، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله، حتى لم يمهلهم إلى أن يعلنوا عنه، لقد أعادهم إلى الفطرية الإيمانية في النفس البشرية والمسائل الفطرية لا علاج للفكر فيها.

وكأن سائلاً سألهم: لِمَ تسجدون؟ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وقالوا: رب موسى وهارون بعد رب العالمين، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقولوا مثلاً أنا رب العالمين، فأزالوا هذا اللبس بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨].

ومثال ذلك قول بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان عليه السلام لم تقل: أسلمت لسليمان، إنما قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]،

---

(١) أخرجه الشيخان، وانظر: في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٥/ ٢٥٩٦).
(٢) في ظلال القرآن، المرجع نفسه، (٥/ ٢٥٩٦).

فأنا وأنت مسلمان لإله واحد هو رب العالمين، وهكذا يكون إسلام الملوك، وحتى لا يظن أحد أنها خضعت لسليمان؛ لذلك احتاطت في لفظها لتُزيل هذا الشك[١].

وهكذا الإيمان يُحدث في أعماق النفس البشرية انقلاباً، وفي القلب حياة، وفي العقل نوراً، وكان لموقف السحرة الجديد الذي أفصحوا عنه بشجاعة فائقة وعزيمة نادرة وقع الصاعقة على فرعون وملئه، فالجماهير حاشدة، وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة، عبؤوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، ويريد أن يجعل الحكم لقومه، وأن السحرة سيغلبونه ويُفحمونه، ثم ها هم أولاء السحرة يعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله، ويخلعون عنهم عبادة فرعون، وهم كانوا قبل لحظة جنوده الذين جاؤوا لخدمته وانتظروا أجره واستفتحوا بعزته.

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش، أسطورة الألوهية، وأكذوبة الربوبية، وهؤلاء هم السحرة، والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها، ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يُلهونهم بها، فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة؟ والقوة وحدها دون عقيدة لا تُقيم عرشاً ولا تحمي حكماً.

إن لنا أن نقدّر ذعر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة، وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح القاهر، الذي لا يملكون معه إلا أن يُلقوا سجّداً معترفين منيبين، عندئذ جن جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال، بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى[٢].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧١).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٦).

٥ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩ ـ ٥١]:

أ ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾:

فالرجل غاضب لكبريائه المجروح بسبب مبادرة السحرة إلى الإيمان بالله تعالى من غير استئذانه[١]، فهو لا يشك في أن ما رآه السحرة موجب للإيمان فهو لا يشكك في ذلك، لكن المسألة كلها ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته حتى بعد أن كُشف أمره وظهر كذبه، وآمن السحرة بالإله الحق[٢]. ثم أراد أن يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد إنه هُزم وضاعت هيبته.

فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ في حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر، لكن فرعون يأخذها ذريعة لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذي تهدم وألوهيته التي ضاعت، ثم يهددهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه وأنه فقد توازنه واختلّ حتى في تعبيره حيث يقول[٣].

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ أي: تعلمون وبال تآمركم[٤]، وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يؤخر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها[٥]:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: لأقطعن اليد اليمنى والرجل اليسرى، ولأصلبنكم على جذوع النخل[٦].

وهكذا شرع فرعون يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل، وهذا دليل على

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٥٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧١).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧٢).
(٤) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٦٠).
(٥) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧٢).
(٦) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٦٠).

الحماقة التي يرتكبها كل طاغية حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة بلا تحرج من قلب أو ضمير، وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول، فماذا كانت كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور؟ فماذا كانت كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل بما يفقد بعد هذا الوجد؟ إنه القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل بالطغيان، القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير[1].

ب ـ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

وضح السحرة المؤمنون سبب انتقام فرعون منهم، وواجهوا تهديده وتعذيبه وانتقامه بالإيمان والصبر والثبات والإقبال على الله والتوكل عليه، والرغبة فيما عنده، ولننظر إلى ما قالوه لفرعون جواباً على تهديده.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: الضير هو الضرر الشديد، ولم ترد كلمة ﴿ضَيْرَ﴾ في غير هذا الموضع من القرآن، ومعنى قولهم ﴿لَا ضَيْرَ﴾: إن تهديدك لنا بالتقتيل والتصليب لا يضيرنا، إنه قد يضرنا، لكنه لا يضيرنا.

وفرق بين «الضرر» وبين «الضير»:

الضرر هو ما يصيب الإنسان من سوء، قال الإمام الراغب: «الضرر» سوء الحال، إما في نفسه، لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه لذهاب جارحة، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه[2].

إن فرعون قد يُوقع بهم الضرَّ ـ بإذن الله ـ وقد يقطع أطرافهم ويقضي على أبدانهم، وهذا ضرّ واضح، لكنه ضرٌّ ماديٌّ خارجي، يصيب الجوارح والأطراف والأبدان، ولا يصل إلى القلوب والأرواح والمشاعر، تبقى قلوبهم وأرواحهم

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٧).
(٢) المفردات، ص٥٠٣.

في مناعة، ولهذا يَبقون ثابتين على الحق والإيمان، يواجهون كل ما يصيبهم من ضرّ ظاهري بصبر وتحمّل وثبات.

وأما الضير، فهو تأثر قلوبهم وأرواحهم بالضرر المادي الخارجي المصبوب على أبدانهم، وهذا التأثر يدعوها إلى التراجع والانتكاس والارتداد، وترك الحق والرجوع إلى الباطل، فإن حصل هذا فهو ضير، ولهذا قالوا لفرعون: ﴿لَا ضَيْرَۖ﴾ أي: بإمكانك أن تعذبنا كما تشاء، وأن تُوقع بأبداننا الضرَّ الشديد كما تشاء، لكن هذا لن يكون ضيراً، ولن تصل إلى أرواحنا وقلوبنا، ولن تفتّ في هممنا وعزائمنا[١].

كان موقف السحرة بعد إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون موقفاً عظيماً، عبّروا فيه عن قوة الإيمان بالله وحسن التوكل عليه، فبالنسبة لهم:

- لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف.
- لا ضير في التصليب والعذاب.
- لا ضير في الموت والاستشهاد.
- لا ضير إنّا إلى ربنا منقلبون، وليكن في هذه الأرض ما يكون[٢].

- لا ضير علينا أن قتلتنا، لأننا سنرجع إلى الله ربنا، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى لقاء الألوهية الحقة، فكأنك فعلت فينا جميلاً وأسديت لنا معروفاً إذ أسرعت بنا إلى هذا اللقاء، وما تظنه شرًّا هو عين الخير، لذلك فهم الشاعر خبيب بن عدي هذا المعنى، فقال وهو يواجه الموت ويستعد للشهادة، وسنّ الركعتين عند القتل، وقال له أبو سفيان: أيسرّك أن محمداً عندنا يُضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرّني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٧٣).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٧).

الذي هو فيه، تُصيبه شوكة تؤذيه[١]. ثم قُتل وصلبوه، وقبل استشهاده قال أبيات عظيمة منها:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أي شِقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّع
فلست بمُبدٍ للعدو تخشُّعاً ... ولا جزعاً إني إلى الله مَرجعي[٢]

كان حديث السحرة بعد إيمانهم غاية الإيمان، وقمة الاعتقاد فيما عند الله، وحرصهم على سلامتهم في قدومهم على الله.

ت ـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

فبعد أن كانوا سحرة كفرة يُقسِمون بعزة فرعون، انقلبوا إلى مؤمنين بررة يرجون من الله العفو والعون، فسبقوا إلى الإيمان مَنْ حَضَر موقف التحدي والرهان، وإذا كان جوابهم قد جاء في هذه السورة مُوجَزاً مُجمَلاً فقد سبق في سورة طه مطولاً ومفصلاً: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢ـ٧٣][٣].

قال الآلوسي: وقولهم ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أنهم أرادوا به أول المؤمنين من أتباع فرعون، أو أول المؤمنين من أهل المشهد، أو أول المؤمنين من أهل زمانهم، ولعل الإخبار بكونهم كذلك لعدم علمهم بمؤمن سبقهم بالإيمان، فهو إخبار مبني على غالب الظن ولا محذور فيه، كذا قيل، وقيل: أرادوا أول من أظهر الإيمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهور الآية، فلا يَرِدُ مؤمنُ آل فرعون وآسية، وكذا لا يرد بنو إسرائيل، لأنهم كما في البحر،

---

(١) السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث: دروس وعبر، علي الصلابي، دمشق، دار ابن كثير، ط٩، ٢٠١٩م، (٢/ ١٣٤).
(٢) زاد المعاد، (٣/ ٢٤٥).
(٣) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري، (٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

كانوا مؤمنين قبلهم، إما لعدم علم السحرة بذلك، أو لأن كلاًّ من المذكورين لم يُظهر الإيمان الله تعالى ورسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهور الآية، فتأمَّلْ[١].

واختُلف في فرعون: هل فعل بهم ما أقسم عليه أوْ لا؟ والأكثرون على أنه لم يفعل لظاهر قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥][٢]. وقد قال ابن عاشور: والقرآن لم يتعرَّض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعَّدهم به فرعون، لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة، وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلُّبهم في إيمانهم بعد تعرُّضهم للوعيد بنفوس مطمئنة، وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما في سورة النازعات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية[٣].

إن إيمان السحرة يدل على روعة نور الإيمان بعدما يتغلغل في القلوب والأفئدة والصدور والضمائر، ويفيض على الأرواح وينعش أشواقها الإيمانية، وهكذا نرى الإيمان برب العالمين يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عِلِّيِّين، ويملأ القلوب باليقين والقناعة الراسخة فيما عند الله عزّ وجل، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير وزهيد.

هنا يُسدَل الستار على هذه الروعة الغامرة، لا يزيد شيئاً، ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق، وهو يربي به النفوس في مكة، وهي تواجه الأذى والكرب والضيق، ويربى به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب. فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين، وفرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين[٤].

---

(١) روح المعاني، (١٩/ ٨٠ ـ ٨١).
(٢) المصدر نفسه، (١٩/ ٨٠ ـ ٨١).
(٣) التحرير والتنوير، (٩/ ٥٦ ـ ٥٧).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٧).

سادساً: قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨]:

وهنا فجوة في الوقائع والزمن لا تُذكر في هذا الموضع، فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة، وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة في سورة الأعراف ـ وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل إن شاء الله ـ قبل أن يُوحي الله لموسى بالرحيل بقومه، ولكن السياق هنا يطويها، ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة واتجاهها الأصيل(١).

١ ـ قال تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]:

أ ـ ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ الوحي لغة: إعلام بخفاء، وشرعاً: إعلام من الله لرسول من رسله بمنهج خير لخلقه(٢).

ومن الوحي المطلق: قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧]، فالوحي العام إذن لا نسأل عن الموحي والموحى إليه أو موضوع الوحي، فقد يكون الوحي من الشيطان، والموحى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة أو

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٧).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧٣).

الحيوان على خلاف الوحي الشرعي، فهو محدد ومعلوم[١].

ب ـ ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ من الإسراء وهو السير ليلاً، يقال: سرى وأسرى، لغتان[٢].

ت ـ ﴿بِعِبَادِيٓ﴾: وعبادي جمع عبد، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، والتعبير بعبادي فيه إشارة إلى أن الله عامِلٌ على إنقاذهم من فرعون وقومه، وأنه منقذهم كما شاء سبحانه[٣]، وأن نصر بني إسرائيل على الله تعالى وأنهم سيُنصرون[٤].

ث ـ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يعني سيتبعكم جنود فرعون ويسيرون خلفكم[٥]، لقد أوحى الله إلى موسى أن يسري بعباده، أن يرحل بهم ليلاً بعد تدبير وتنظيم، ونبأه بأن فرعون سيتبعهم بجنده، وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر[٦].

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٦]:

أ ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾:

أمر فرعون بالتعبئة العامة، وأرسل في المدائن حاشرين، لقد أرسل فرعون في المدائن حاشرين مرتين:

المرة الأولى: أمر بحشر السحرة من مختلف المدائن، وإحضارهم إلى العاصمة، ليواجهوا موسى عليه السلام، وورد هذا الحشر في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦ ـ ٣٧]، فكان الحشر في المرة الأولى حشر سحرة فقط.

---

(١) تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (١٧/ ١٠٥٧٤).
(٢) التدبر والبيان، للمغراوي، (٢٤/ ٣٣٤).
(٣) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٢٣٥٩٠).
(٤) تأملات في سورة الشعراء، أبو الحسن الندوي، ترجمة الدكتور محمد فرمان الندوي، الهند، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، ط١، ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م، ص٥٥.
(٥) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧٥).
(٦) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٧).

المرة الثانية: عندما أمر بحشر الجنود من مختلف المدائن، وتجميعهم في العاصمة، ليلحقوا ببني إسرائيل الخارجين ويُلقوا القبض عليهم(١).

ب ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾: أخبر فرعون جنوده في المدائن بأن بني إسرائيل ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ ومعنى شرذمة: طائفة قليلة، قال الراغب: الشرذمة: الجماعة المنقطعة وهي مأخوذة من قولهم: ثواب شراذم أي: متقطع(٢).

في كلام فرعون لجنوده عن بني إسرائيل تقليل وتحقير وتهوين لبني إسرائيل، وهذا التهوين ورد في اللفظين «شرذمة» و«قليلون»، ومن خلال معنى ﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ كما أوردناه عن الإمام الراغب الأصفهاني نعرف أن «شرذمة» في الآية لا يُراد بها قلة بني إسرائيل لأن القلة لها لفظ خاص هو ﴿قَلِيلُونَ﴾، إنما أراد بكلمة «شرذمة» أن بني إسرائيل جماعة متقطعة متشرذمة متفرقة، أي أنهم شراذم متقطعة لا أصل لها ولا وطن ولا جامع يجمعها، وأنهم شراذم متفرقون فيما بينهم وأنهم تجمَّعوا على موسى.

وهؤلاء الشراذم ليسوا كثيرين، ولا يشكّلون أغلبية، إنهم قليلون، والناس ليسوا معهم ولا يؤيدونهم، ولو كانوا على حق وصواب لما كانوا شرذمة قليلين، وقد وقع فرعون في تناقض ظاهر وهو لا يدري، فبينما وصف بني إسرائيل بأنهم شرذمة قليلون، وصفهم بأنهم غائظون له ولملئه ولقومه(٣).

ت ـ ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾:

والمعنى أنهم أغاظوهم جميعاً وملؤوا قلوبهم غيظاً عليهم، بسبب مخالفتهم لهم في دينهم، وخروجهم على نظامهم وحكمهم، وتحرّرهم من سيطرتهم واستعبادهم، وهذا اعتراف من فرعون بأن بني إسرائيل خطيرون مزعجون له

(١) القصص القرآني، (٣/ ٧٩).
(٢) المفردات، ص٤٥٠.
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٨٠).

ولنظامه ودولته، يشكلون عليهم خطراً مباشراً، فإذا كانوا «شرذمة قليلين» لا وزن لهم ولا قيمة، فكيف يكونون خطيرين على دولة كبيرة؟

وإذ فرعون في هجومه على بني إسرائيل، وفي تحذير قومه منهم، يقول في مرسوم التعبئة العامة عنهم[١]:

ث ـ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾:

والمعنى: نحن جميعاً حذرون منهم، حاذرون لهم، منتبهون لمشكلتهم، مدركون لخطرهم، حريصون عل التخلص منهم.

و﴿حَٰذِرُونَ﴾: مستيقظون لمكائدهم، محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور، إنها حيرة الباطل المتجبر دائماً في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين[٢].

وقبل أن يعرض المشهد الأخير، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع، ووراثة بني إسرائيل المستضعفين[٣].

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]:

أ ـ قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء وكنوز ذهب وفضة ومقام كريم، قيل: إن ذلك المقام الكريم: المنابر.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقول: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفت لكم من هذه الآية والتي قبلها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يقول: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكهم بني إسرائيل[٤].

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ٨٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٨).
(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٢٥٩٨).
(٤) تفسير الطبري، (١٩/ ٧٨).

ب ـ قال السعدي: فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجز.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين مصر وجنانها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: يُعجِب الناظرين، ويُلهي المتأملين، تمتعوا به دهراً طويلاً، وقضوا بلذاته وشهواته عمراً مديداً على الكفر والعناد والتكبُّر على العباد والتيه العظيم.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ أي: هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم «بني إسرائيل» الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروهم في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمّن يشاء، ويُعزُّ من يشاء بطاعته ويذل من يشاء بمعصيته[(١)].

ت ـ قال محمد متولي الشعراوي: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي الأمر كما أقول لكم وكما وصفت.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبني إسرائيل، وهنا قد يسأل سائل: كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم؟

قالوا: المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها وقد وعدهم بها في الشام[(٢)].

ث ـ وقال القرطبي: في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل، قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، وقيل:

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٢٠).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٧٧).

أراد بالوراثة ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى[١].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٠ ـ ٦٢]:

سار موسى عليه السلام بأتباعه ليلاً، متوجِّهاً نحو البحر، للخروج من مصر إلى الأرض المقدسة، ولحق بهم فرعون وجنوده الكثيرة، ولما أشرقت شمس الصباح اقترب فرعون وجنوده من المؤمنين[٢].

أ ـ ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]:

أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، بينما كانوا متوجهين نحو الشرق، لأن البحر الأحمر واقع شرق مصر، فكلمة مشرقين تتضمن معنيين: جهة الشرق وشروق الشمس[٣].

وأصبح موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفن ولا قوارب لتُقِلَّهم إلى الجانب الثاني من سيناء، وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون. وقال: دلائل الحال كلها أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم[٤]، وسجل القرآن الكريم ما قاله بنو إسرائيل لموسى عليه السلام.

ب ـ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾:

لما رأى كل فريق منهما الفريق الآخر، حيث رأى قوم موسى جند فرعون، فخافوا وفزعوا، ورأى جند فرعون قوم موسى محصورين بينهم وبين البحر ففرحوا واستبشروا، لأنهم أيقنوا بالقبض عليهم والخلاص منهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (١٣/ ٩٩).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٨٢).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٨٢).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٨).

﴿تَرَٰٓءَا﴾: فعل ماض، مشتق من «رأى» لكنه يدل على الرؤية المشتركة بين الطرفين الرائيَيْن(١).

وقول أصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: معناه أن جنود فرعون قد أدركونا وظفروا بنا، و«مدركون»: اسم مفعول من الفعل الماضي: أدرك.

وقولهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: يسجل خوفهم الفطري من الخطر الداهم الذي ينتظرهم على يد فرعون وجنوده ولا يلامون عليه، ففي الحساب البشري المادي ليس أمامهم فرصة نجاة، فكيف ينجون من جند فرعون، وكل الحسابات البشرية المادية تُقرِّر أنهم مدركون، وأنه قد انتهى أمرهم وقُضي عليهم وليس أمامهم فرصة نجاة؟ لكن للإيمان والتوكل على الله حساب آخر، يعرفه نبيهم موسى عليه السلام، ولهذا طمأنهم وأزال خوفهم وهدّأ من روعهم وقال لهم(٢):

ت ـ ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾:

كلا: في شدة وتوكيد.

كلا: لن نكون مُدرَكين.

كلا: لن نكون هالكين.

كلا: لن نكون مفتونين.

كلا: لن نكون ضائعين.

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين(٣).

وهذه معية خاصة من الله عزّ وجل لموسى عليه السلام، وهي مقتضى النصر والتأييد والحفظ والعناية والتوفيق واللطف، وهي من الصفات الفعلية، لأن

(١) القصص القرآني، (٣/ ٨٣).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٨٥).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٥٩٩).

مقتضياتها تابعة لأسبابها، وهي مختصة بمن يستحقّ ذلك من الرسل وأتباعهم، وهي ظاهرة في هذا الموقف. وفي هذه الآية الكريمة إسناد المعية إلى الرب ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه[١]، ومعية الله عزّ وجل لخلقه من أبرز سمات الربوبية لله عزّ وجل[٢].

والمعية في قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ معية حفظ ورعاية وتوفيق وعناية، فربي معي بعلمه وبصره، وبحفظه وعنايته ورعايته، بدليل قوله بعدها ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ فلأنه يحفظني ويرعاني فسوف يهديني وينقذني، وليست هذه أول مرة يُوقن فيها موسى بأن الله معه، وقد سبق أن عاش مظاهر معية الله بتأييده ورعايته في مواطن سابقة منذ طفولته وفي شبابه وهجرته ومواجهته لفرعون ولسحرته.

إن حياة موسى عليه السلام كلها ترجمة عملية لمعية الله وحفظه وعنايته ورعايته، لقد كان معه في كل خطواته وساعاته، أدام عليه توفيقه وتأييده، من كان مع الله فإن الله معه، ومن نصر دين الله فإن الله سينصره، ومن تحدَّى أعداء الله فإن الله سيحميه، وهذا ما أيقن به موسى عليه السلام[٣].

ويلاحظ أنه عليه السلام لم يقل: إنّ الله معنا، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر عندما كانا في الغار، ولعل السبب أن موسى عليه السلام كان يعلم حقيقة ما تنطوي عليه قلوب كثير من بني إسرائيل من النوايا السيئة وسوء الظن بالله تعالى التي أظهرتها بعدُ تلك الأحداث اللاحقة كعبادتهم العجل، وتخاذلهم عن تنفيذ أمر موسى بالجهاد، وجاء الفرج من الله تعالى في اللحظة الحاسمة الحرجة[٤]:

---

(١) التحرير والتنوير، (٩/ ١٣٥).
(٢) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى داود، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٧.
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٨٦ ـ ٨٧).
(٤) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٦٣).

٥ ـ قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٦]:

أ ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾:

أي: أمرنا موسى عليه السلام بواسطة الوحي أن يضرب البحر بعصاه، عصاه المعروفة التي جعلها الله آية من قبل، فأمره أن يأخذ بالأسباب وأن يقوم بحركة بسيطة منه، وهي أن يضرب البحر بعصاه، ونفّذ موسى عليه السلام أمر الله، وضرب بعصاه البحر وكان الوقت صباحاً عند شروق الشمس(١).

ب ـ ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

أي: ونظر بنو إسرائيل إلى البحر أمامهم، فإذا به يتأثر بضربة موسى عليه السلام، فانشقَّ عن طريق يابس، وأصبح الماء على جانبيه كالجبل الراسخ، وهو كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، وقد مرّ معنا تفسيرها.

وفي قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾: في الآية حذف، فيه إشارة إلى سرعة امتثاله عليه السلام، وسرعة ترتُّب الانفلاق على الضرب، وإنما أُمر عليه السلام بالضرب فضرب، وترتَّب عليه الانفلاق إعظاماً لموسى عليه السلام بجعل هذه المعجزة العظيمة بفعله، ولو شاء الله لفلقه من دون ضربه بالعصا(٢).

وقد أمر الله البحر أن يتجاوب لضربة موسى، فوقف ماؤه على جانبي الطريق دون سدّ أو حاجز. وتعبير القرآن عن انشقاق البحر بالفلق: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ مقصود،

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٨٩).
(٢) روح المعاني، (١٩/ ٨٦).

لأن الفلق فصل شيئين عن بعضهما[١]، قال الإمام الراغب: الفلق: شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض[٢].

فالمراد بيان انفصال جزئي البحر عن بعضهما انفصالاً حقيقيّاً ماديّاً مشاهداً، وابتعاد أحدهما عن الآخر، وكأن الجزأين فلقتان حقيقيتان، كما تفلق الحبة إلى فلقتين، وتقسمها إلى قسمين منفصلين، وشبه القرآن كل فلقة من فلقتي البحر بالجبل: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، و«الطّود» هو: الجبل العظيم، الذاهب صُعُداً في الجو، ويشبّه به غيره من كل مرتفع أو عظيم أو راسخ[٣].

وتشبيه كل فرق بالطود العظيم لوحظ فيه استقرار ماء البحر وثباته وانفصاله وعدم تداخله وانسيابه، كما لوحظ فيه ارتفاع ذلك الفرق ارتفاعاً عالياً يُقدَّر بمئات الأقدام.

أمسك الله ماء البحر بقدرته وإرادته، وفلق البحر بأمره، وفرقه فرقتين عظيمتين بمشيئته، وجعل بين الفِرقَين طريقاً آمناً يبساً بحكمته، وذلك ليسلكه أتباع موسى عليه السلام المؤمنون[٤].

أمر الله موسى أن يعبُر بأتباعه المؤمنين الطريق الجديد في قاع البحر فدخله، ودخل بنو إسرائيل خلفه وعبروا الطريق الآمن اليبس، وأمسك الله لهم ماء البحر عن يمينهم وشمالهم كالطود العظيم، وتأمُّلُ وتخيُّلُ هذا المشهد المصور المعجز يزيد المرء إيماناً بالله وبقوته وإرادته وحكمته.

فالقوم يسيرون في طريق يَبس آمن في قاع البحر العميق، والماء واقف عن يمينهم وعن شمالهم، واقف كالجبل العالي، لا يُمسكه أحد، وإن هذا من فعل

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٩٠).
(٢) المفردات، ص٦٤٥.
(٣) المعجم الوسيط، المصدر السابق، (٢/ ٥٦٩).
(٤) المعجم الوسيط، (٢/ ٥٦٩).

الله سبحانه، وإنها آية عظيمة من آيات الله عز وجل[١]. وأراد الله أن يُدخِل فرعون وجنوده البحر ليُغرقهم.

ت ـ قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤]: والمراد بالآخرين هنا فرعون وجنوده الذين وقفوا بعيدين قليلاً عن شاطئ البحر يرقبون المنظر، ومعنى ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: قرّبنا وقدمنا[٢].

و﴿ثَمَّ﴾ بفتح الثاء: اسم إشارة بمعنى هناك[٣].

وقد فرّق التعبير القرآني بين «ثُم» و«ثَم» بفتح الثاء، «ثُم» بضم الثاء: حرف عطف، يدل على الترتيب مع التراخي، أما «ثَم» بفتح الثاء: فهو اسم إشارة بمعنى: هناك، فمعنى قوله: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ﴾: قرّبنا وأدنينا فرعون وجنوده من البحر، وأوقفناهم هناك قريباً من البحر، تمهيداً للخطوة التالية، عبَر موسى وأصحابه جميعاً البحر، ومشوا في الطريق اليَبَس، ووصلوا جميعاً إلى البرّ الشرقي في سيناء.

ث ـ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥]:

أنجى الله موسى ومن معه، من فرعون وجنوده، أنجاهم من القتل والتعذيب على أيديهم، كما أنجاهم من الغرق في مياه البحر، وأنجاهم من انقلاب الماء عليهم وهم يسيرون في الطريق اليَبَس، وأنجاهم من أن يكونوا طعاماً للأسماك، ولما وجدوا أنفسهم على الشاطئ الآخر ناجين حمدوا الله وشكروه على هذه النعمة الغامرة[٤].

ج ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦]:

ومكر الله بفرعون وجنوده، وتمّ ما أراده لهم، فلما شاهدوا الطريق يَبساً سالكاً مأموناً، ولما شاهدوا بني إسرائيل قد عبروه آمنين أيقنوا أنهم سيعبرونه

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٩٣).
(٢) المعجم الوسيط، (١/ ٣٩٧).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٩٤).
(٤) القصص القرآني، (٣/ ٩٤).

أيضاً، ولهذا أصدر فرعون أمره لجنوده بالدخول للَّحاق ببني إسرائيل، فنفَّذوا أمره ودخلوا الطريق ودخل فرعون معهم.

ولما كانوا وسط الطريق يسيرون في قاع البحر، والماء عن يمينهم وشمالهم واقفاً كالطود العظيم، أمر الله الماء أن ينطبق عليهم، وأن يتحد جزآه على جانبي الطريق، فنفّذ الماء أمر الله، وما هي إلا لحظة حتى كان فرعون وجنوده جميعاً تحت الماء غرقى، كانوا على عمق عشرات الأقدام تحت الماء فهلكوا جميعاً، وقد سجلت آيات القرآن الكريم مشهد غرقهم العجيب المثير، بينما كان بنو إسرائيل ينظرون معجبين مبهورين شاكرين الله[١].

وبالسبب نفسه الذي أنجى الله به موسى وقومه أهلك فرعون وقومه؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجي وأن يُهلك بالشيء الواحد[٢].

وقد مرّ معنا ذلك في سورة القصص وطه، وسيأتي بإذن الله تعالى في سورة الذاريات والأعراف والزخرف ويونس.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٧ ـ ٦٨]:

أ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: أي في جميع ما فصّل مما صدر عن موسى عليه السلام، وظهر على يديه من المعجزات القاهرة؛ ومما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال، وما فُعل بهم من العذاب والنكال. وما في اسم الإشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه كتنكير الآية في قوله: ﴿لَآيَةً﴾ أي: آية عظيمة لا تكاد تُوصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن النبي

(١) القصص القرآني، (٣/ ٩٧).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٨٢).

عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام، وحال أنفسهم بحال أولئك المهلَكين، ويتجنَّبوا تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول، ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حلّ بأولئك. أو إن فيما فصّل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام إياها على ما هي عليه، من غير أن يسمعها من أحد، لآية عظيمة دالة على ذلك بطريق الوحي الصادق، موجبة للإيمان بالله تعالى وحده، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام[١].

﴿لَآيَةً﴾: وهي الأمر العجيب الذي يخرج عن المألوف وعن العادة، فيثير إعجاب الناس، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه. والآية تُقنع العقل بأن الله مجريها على يدي موسى عليه السلام، وتدل على صدق رسالته التي جاءت بوحي من الله، وهي مسألة فوق طاقة البشر[٢].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: وهذا يدل على شدة عنادهم وقسوة قلوبهم[٣]، وأن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة، وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا، كما يحكي القرآن عنهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

سبحان الله، لقد كفروا بالله وما تزال أقدامهم مبتلّة من عبور البحر، وما زالوا في نشوة النصر وفرحة الغلبة[٤]، قال أبو زهرة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: هذه الجملة تدل بظاهر اللفظ أن الأكثرين لم يؤمنوا، فلم

---

(١) تفسير أبي السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، (٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٨٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (٦/ ١٦٤).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٨٦).

تأخذهم هذه الآية الباهرة إلى الإيمان واليقين، وتدل بمضامينها على أنّ من المصريين مَن آمن واتبع موسى عليه السلام[١].

ب ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: استأنف الله تعالى القول ببيان قدرته الظاهرة وحكمته الباهرة فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إن الله تعالى الذي خلقك وقام بربوبيتك لحمايتك وهو الحي القيوم[٢].

﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي له العزة كلها؛ عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته[٣].

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: لأنه رب الخلق أجمعين، يرحمهم إن تابوا ويقبلهم إن رجعوا إلى ساحته[٤].

وإن الرب يستحيل أن يكون إلا رحيماً، فرحمته من لوازم ذاته، ولذلك كتب على نفسه الرحمة[٥].

والرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

الأول: رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه كسائر صفاته، يجب إثباتها لله كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

الثاني: رحمة مخلوقة أنزل الله عز وجل منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، يرحم الله بها عباده يوم القيامة كما جاء في قوله ﷺ: «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٣٦٢).
(٢) تفسير أبي زهرة، المصدر نفسه، (١٠/ ٥٣٦٢).
(٣) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، المرجع السابق، ص٤٠٦.
(٤) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٥٨٧).
(٥) ولله الأسماء الحسنى، المرجع السابق، ص١٢٦.

والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[١].

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله ﷺ: أن الله عز وجل قال عن الجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[٢]، وهذه الرحمة من باب إضافة المفعول إلى فاعله، وهذه الرحمة ليست صفة لله تعالى، بل هي من أثر رحمته، التي هي صفته الذاتية الفعلية.

ورحمة الله عزّ وجل لعباده نوعان:

أ ـ رحمة عامة:

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم وتربيتهم ورزقهم وإمدادهم بالنعم والعطايا وتصحيح أبدانهم، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ومساكنهم، ولباسهم ونومهم، وحركاتهم وسكناتهم وغير ذلك من النعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، قال الله عزّ وجل: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ب ـ رحمة خاصة:

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين، فيرحمهم الله عز وجل في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ويُثيبهم عليه، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيما أعطاهم، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب، ويغفر لهم ذنوبهم ويكفرها بالمصائب، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخولهم الجنة ونجاتهم

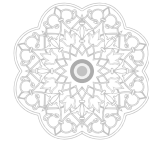
(١) مسلم، رقم ٢٧٥٢.
(٢) مسلم، رقم ٢٨٤٦.

من عذابه عز وجل، وإن هذه الرحمة هي التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] (١).

وقد تجلت رحمة الله عزّ وجل في رحمته الخاصة بأوليائه في قصة موسى عليه السلام وتوفيقهم وتسديدهم، وحفظهم، وتيسير أمورهم، وإجابة دعائهم، ونصرهم على أعدائهم الكافرين، وتمكينه لهم في الأرض، وإعانتهم وإغاثتهم في قضاء حوائجهم، كما في جلب الرزق والمطر وكشف الكروب وخرق السنن الكونية لهم، وإظهار المعجزات على يد موسى عليه السلام.

* * *

(١) ولله الأسماء الحسنى، ص١٢٩.



المبحث الرابع

قصة موسى عليه السلام في سورة النمل

سورة النمل فيها تبيان لأمر التوحيد ولأمر الآخرة، وفيها حديث عن يوم القيامة، وفيها بشارة وفيها إنذار، وفيها مجموعة من القصص، قصة ساداتنا موسى وداود وسليمان ولوط وصالح، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وفي هذه السورة نركز على مقدمتها وما يتعلق بقصة موسى عليه السلام وفق فقه التفسير الموضوعي المُتعلِّق بدراسة موسى عليه السلام في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١ ـ ١٤].

ولو وقفنا مع تفسير للآيات الكريمة في سورة النمل، فإننا سنجد المعاني

الربانية في سرد القصص، والتأكيد على التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده والإيمان باليوم الآخر.

أولاً: قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ١ ـ ٦]:

افتتح الله سورة النمل بقوله الكريم:

١ ـ ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ [النمل: ١]:

أ ـ ﴿طسٓ﴾: أشبهت افتتاحيةُ سورة النمل افتتاحيةَ سورة الشعراء التي قبلها وافتتاحيةَ سورة القصص التي بعدها، فكلا السورتين ـ الشعراء والقصص ـ افتتحهما الله بقوله الكريم ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في معاني الحروف المقطَّعة، وكثرة هذه الأقوال تدل على حقيقة هامة، هي أن الإنسان مهما تدبر كلمات الله في القرآن فلن يقف على كل أسرارها ولن يحيط بمعانيها، ولهذا ذهب كثير من علماء التفسير إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما استأثر الله سبحانه بها، فردّوا علمها إلى الله ولم يفسروها، وأما الذين فسروها فأكثرهم رأى أنها ذُكرت بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أن القرآن مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء الذين ذهبوا إليه قال رحمه الله: ولهذا كل سورة افتُتحت بالحروف فلابدّ أن يُذكر فيها انتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر.

ولو أمعنا النظر كما قال ابن كثير في فواتح سور الشعراء والنمل والقصص لانتصرنا أيضاً لهذا القول، وتأكدنا من قوته ووجاهته، وأن هذه الحروف جاءت بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وكُررت في أوائل تسع وعشرين سورة ليكون أبلغ في التحدي، كما كُررت قصص كثيرة، وكما كُرر التحدي الصريح في عدة آيات، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه[١].

وقد اعترض بعضهم على استقراء ابن كثير بأن هناك ثلاث سور افتُتحت بالحروف المقطعة، ولم يُذكر فيها الانتصار للقرآن وهي: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم، إلا أن هذا الاعتراض يسقط إذا تأملنا كل آيات هذه السور، ففي بعض آيات هذه السور ذِكرٌ للقرآن الكريم، وتأكيد كونه كلام الله كقوله:

في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وفي سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وفي سورة القلم: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢][٢].

ب ـ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾:

قال محمد أبو زهرة في تفسيره للآية: الإشارة إلى ما جاء في السورة من آيات متلوة، وفي ذلك بيان أن هذه الحروف يحتمل أن تكون اسماً للسورة، وقد ذُكر للقرآن وصفان:

أحدهما: أنه كتاب مقروء يُتلى، وتلاوته عبادة، وقد علَّمنا سبحانه وتعالى كيف نتلوه، وعلّم نبينا تلاوته ليعلِّمها للناس أجمعين، فهو متواتر بلفظه ومتواتر بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وكما قال تعالى:

---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٢٢٧).
(٢) المصدر السابق، (٦/ ٢٢٧).

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

والوصف الثاني: أنه كتاب مبين أي بيِّن في ذاته، ومبين لكل ما اشتمل عليه من دلائل التوحيد، ودلائل النبوة، والأحكام الشرعية، وهداية للناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] (١).

ت ـ قال السعدي: يُنبِّه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات، وبيَّنها على أجلِّ المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق.

آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم.

آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار.

آيات دلت على الإيمان، ودعت إلى الوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن العيوب الماضية والمستقبلة طبق ما كان ويكون.

آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأفعاله الكاملة.

آيات عرّفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صوناً لها عمن لا خير فيه، ولا صلاح في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصّهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم (٢).

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٢٩).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٤٠).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]:

أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتُبيِّن لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه[١]، والقرآن في ذاته يهدي، فهو بإعجازه وبلاغته وعبارته المحكمة يهدي النفوس الطالبة للحق المهتدية التي تتجه إلى الحق كما تتجه إبرة البوصلة إلى قطبها، فهو في ذاته هداية، وهو أيضاً مشتمل على الهداية، ففيه دعائم التوحيد، وصور الكون الهادية، وآيات الله البينات في الأحكام الشرعية والمواعظ والعبر، وقصص الماضين من الأنبياء، وإن في قصصهم لعبرة لأولي الأبصار.

وإن القرآن نور لا يرى نوره إلا المُبصِر، وغذاء للأرواح، ولكن لا يتغذى به إلا الأصِحّاء، وشفاء ولكن لا يشفى به إلا من كان قابلاً للشفاء[٢].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الحياتين الأولى والآخرة[٣]، والقرآن يبشر المؤمنين بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق[٤].

وفي التعبير القرآني ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين. والقرآن يمنح المؤمنين هدى في كل فَجٍّ، وهدى في كل طريق، وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة، أن القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه.

إنما القرآن كتاب يخاطب القلب أول ما يخاطب، ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح، الذي يتلقاه بالإيمان واليقين، وكلما كان القلب نديّاً بالإيمان زاد تذوُّقه لحلاوة القرآن، وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف، واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادف.

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ١٢٤٠).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٢٩).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٦).
(٤) المصدر نفسه، (٥/ ٢٦٢٦).

وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المطموس. وكل النُّظم والشرائع والآداب، التي يتضمنها هذا القرآن، إنما تقوم قبل كل شيء على الإيمان، فالذي لا يؤمن قلبه بالله، ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحي من عند الله، وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذي يريده الله. الذي لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدي بالقرآن كما ينبغي، ولا يستبشر بما فيه من بشارات.

إن في القرآن كنوزاً ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه، والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز، ولن تُفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان، والذين آمنوا بالله حقّاً حقَّقوا الخوارق بهذا القرآن، ولكن حين أصبح القرآن كتاباً يترنم المترنِّمون بآياته، فتصل إلى الآذان ولا تتعداها إلى القلوب، فإنه لم يصنع شيئاً، ولم ينتفع به أحد، لقد ظل كنزاً بلا مفتاح! والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى[١]:

٣ ـ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]:

ذكر للمؤمنين أموراً ثلاثة:

الصفة الأولى: أنهم يقيمون الصلاة فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها وشروطها وواجباتها بل ومُستحَبّاتها، وأفعالها الباطنة، التي رُوحها ولبها الخشوع، ويكون باستحضار قرب الله، وتدبُّر ما يقوله المصلي ويفعله[٢].

الصفة الثانية: أنهم يؤتون الزكاة، وهي الفريضة المادية الروحية، التي يقوم عليها التعاون الاجتماعي بين الغني والفقير[٣]، وفيها تطهير النفوس من رذيلة

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٧).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٤٠).
(٣) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣٠).

الشح، وفيها استعلاء بالأرواح على فتنة المال، وأداء حقوق الإخوان في المجتمع الإسلامي السعيد بشرع الله عزّ وجل.

الصفة الثالثة: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير(١).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]:

وهذه الآية الكريمة تُشير إلى حقيقة نفسية واجتماعية دل عليها الاستقراء في القديم والحديث، ألا وهي أن كل شخص ليس عنده إيمان بالآخرة، ويعتقد أن حياته تنتهي عند حلول الموت، تزداد أنانيته حدة، ويزداد شرهه شدة، إذ يُخيل إليه أن ذاته هي البداية والنهاية، وأن حياته في الدنيا ليست وسيلة وإنما هي نفسها غاية، فلا يترفع عن طرق أي باب من الأبواب، ولا يتورَّع عن اتخاذ أحطّ الوسائل وأشنع الأسباب، لاختلاس أكبر قدر من المنافع والشهوات، وانتزاعها إن لم يكن بالحيلة فعن طريق العنف والجرائم والموبقات؛ لأن المجتمع في تصوره القاتم عبارة عن غابة موحشة وأدغال، وكل شيء في نظره القاصر مباح وحلال، ما دامت نهاية حياته القصيرة ـ حسبما يُخيِّل له خياله المريض ـ هي التفسخ والفناء والانحلال(٢).

إن عدم الإيمان باليوم الآخر يطمس منافذ الإدراك في النفس البشرية، وتنفذ في صاحبها سنة الله في أن تصبح أعماله وشهواته مُزيَّنة له وحسنة عنده، وهذا هو معنى التزيين في هذا المقام ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (٣).

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٤٠).
(٢) التيسير في أحاديث التفسير، الناصري، (٤/ ٤١٢).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٧) منقول بتصرف.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾: يتحيرون ويضطربون، لا يعرفون أين يذهبون؟[١] فهم أصبحوا في حيرة واضطراب بين الفطرة الهادية، والشر المتحكم، والضلال المظلم[٢].

وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذه الحال بمؤكدات: أولها بـ (إن) المؤكدة، وبإضافة التزيين إليه سبحانه، وأن ما يريده الله لا يتخلف ولا يمكن أن يتخلف، ولكن التزيين بدأ من أنفسهم، وتمكَّن الشيطان منهم وأغواهم، وقد ذكر سبحانه بعد وصف حالهم في الدنيا حالَهم في الآخرة، فذكر أمرين؛ أولهما سوء العذاب، وثانيهما أنهم وحدهم الأخسرون[٣].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥]:

﴿أُولَٰئِكَ﴾: الإشارة إلى المتصفين بعدم الإيمان باليوم الآخر، وتزيين العمل السيئ لهم، فحسبوه حسناً وما هو بحسن، وهذه الأحوال هي سبب العذاب، لأن ذكر الإشارة إلى الصفات يُومئ إلى أن هذه الصفات هي سبب الحكم وسوء العذاب، هو العذاب الذي يسوء النفوس، ويشوي الوجوه، وهو النار الدائمة والعذاب المقيم الدائم ما شاء الله أن يدوم، خالدين فيها أبداً[٤].

﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي: أنهم أشد الناس خسراناً، خسروا أنفسهم، وخسروا الجنة وخسروا الحياة الأبدية وخسروا النعيم المقيم، خسروا كل شيء[٥].

والأخسر مبالغة في الخسران، فلم يقل خاسر، إنما أخسر، وليته خسر النعيم وتُرك في حاله، إنما يأتيه العذاب الذي يسوءُه[٦].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٣٦).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣١).
(٣) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣١).
(٤) تفسير أبي زهرة، المصدر السابق، (١٠/ ٥٤٣٢).
(٥) تفسير النابلسي، (٨/ ٤٦٤).
(٦) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٣٧).

وتنتهي مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهي الذي ينزل منه هذا القرآن على رسول الله ﷺ[١].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]:

إن لفظ «تُلقّى» يلقي ظل الهداية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم، يضع كل شيء بحكمة، ويدبر كل أمر بعلم، وتتجلَّى حكمته وعلمه في هذا القرآن في منهجه وتكاليفه وتوجيهاته وطريقته، وفي تنزيله في إبانه، وفي توالي أجزائه وتناسق موضوعاته[٢].

أ ـ قال ابن كثير: أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد، قال قتادة: ﴿لَتُلَقَّى﴾ أي: لتأخذ ﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: من عند حكيم عليم، أي حكيم في أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥][٣].

ب ـ قال المالكي الناصري: والحكيم لا يُوحي إلا بالحكمة، والعليم لا ينطق إلا بالعلم، ومن لم ينتفع بما في القرآن من علمٍ وحكمة بقي معدوداً في صف الجهلة والسفهاء، وغريقاً في أوحال المغالطات والجدل والمراء[٤].

ت ـ قال ابن عاشور: وفي الوصفين الشريفين مناسبة للمعطوف عليه وللممهِّد إليه، فإن ما في القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به، وأن ما يُذكر هنا من القصص، وما يُستخلص منها من المغازي والأمثال والموعظة، من آثار حكمة وعلم حكيم عليم، وكذلك ما في ذلك من تثبيت فؤاد الرسول ﷺ[٥].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٧).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٨).
(٣) تفسير ابن كثير، (٦/ ١٨٩).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير، (٤/ ٤١٢).
(٥) التحرير والتنوير، (١٩/ ٢٢٤).

كما قال القرطبي: وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه(١).

ثم بعد هذه المقدمة في سورة النمل، تأتي حلقة من قصة موسى عليه السلام، حلقة رؤيته للنار وذهابه إليها وندائه من الله عزّ وجل، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه، ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله، وهم على يقين من صدقها، وعاقبة التكذيب مع اليقين ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وكذلك كان شأن المشركين في مكة مع آيات القرآن المبين(٢).

ونبدأ في قصة موسى عليه السلام في سورة النمل على بركة الله عزّ وجل.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ٧ ـ ١٤]:

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى عليه السلام بعد قوله في هذه السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، وكأنما يقول لرسول الله ﷺ إنك لست بدعاً في هذا التلقي، فها هو ذا موسى يتلقى التكليف وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه، وليس ما تَلْقاه من قومك بدعاً في التكذيب، فها هم أولاء قوم فرعون تستيقن نفوسهم بآيات الله ولكنهم يجحدون بها ظلماً

(١) تفسير القرطبي، (١٣/ ١٤٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٤).

وعلواً ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ولينتظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين(١).

١ ـ قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗاۖ سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]:

﴿إِذۡ﴾: ظرف دال على الزمان وهو مُتعلِّق بـ (تلقّى) في الآية السابقة، أي أنك تتلقى القرآن الكريم من حكيم عليم صادق في الوقت الذي جرت فيه أحداث قصة موسى وفرعون، فهي قصة صادقة من لدن حكيم عليم، هو الله الذي أحاط بكل شيء علماً، ونجد أن قصة موسى هنا في جملتها ليست مكررة مع غيرها، وفيها إضافات ومحطات مهمة كما سنرى بإذن الله.

أ ـ ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾: ويبدو أنه رأى وحده هذه النار، ولو أن الذي رأى النار هو وزوجته لأشار إليها، ولكن هذه رؤية خاصة وهي ليست ناراً، ولو كانت ناراً حقيقية لأشار إليها بيده فقال: هذه نار، ولكنه آنس ناراً، أي: أحسّ بها، وفي التعبير بـ﴿ءَانَسۡتُ﴾ شعور ترتاح إليه النفس فلا يقال: ﴿ءَانَسۡتُ﴾ إلا للشيء الذي تميل النفس إليه، تقول: آنست منه رشداً، أو آنست منه عفة، أو آنست منه أمانة، أي: شعرت بأمانته وشعرت بعفّته وشعرت برشده(٢).

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: معنى ﴿ءَانَسۡتُ﴾ [النمل: ٧]: آنس يعني شعر، وأحسّ بشيء يُؤنسه ويطمئنه، وضده التوجُّس: أي شعر بشيء يخيفه(٣).

﴿لِأَهۡلِهِۦٓ﴾: قالوا: إنها تعني جماعة بدليل قوله لهم في سورة القصص ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ [القصص: ٢٩]، فكانت زوجته معه، ومعه أيضاً بعض الرعيان أو الخدم، وهناك من يرى أنها زوجته وحدها فقط(٤).

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٨).
(٢) تفسير النابلسي، (٨/ ٤٦٦).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤١).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤١).

ب ـ ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ :

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ : كرر موسى عليه السلام فعل الإتيان مع التأكيد في سورة النمل لقوة يقينه وثقته بنفسه، والتوكيد يدل على القوة[١]، ﴿بِخَبَرٍ﴾ : فلابدّ أن يكون حول النار أناس يُخبرونه عن الطريق[٢].

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ : ومعنى الشهاب : هو شعلة من النار ساطعة، ومعنى القبس : شعلة نار تُقتبس من معظم النار كالمقياس، يقال قبس يقبس منه ناراً، أي أخذ منه ناراً، وقبس العلم : استفادة[٣].

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : كذلك نجد اختلافاً طبيعيّاً في قوله : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص : ٢٩]، وقوله : ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل : ٧]، فالأولى ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ : فيها رجاء؛ لأنه مقبل على شيء يشك فيه وغير متأكد منه، وهو في هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شيء غائب عنه، فلما تأكد قال : ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل : ٧] على وجه اليقين.

وفي هذه المسألة قال مرة : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ [القصص : ٢٩]، وهنا قال : ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل : ٧]؛ ذلك لأنه لا يدري حينما يصل إلى النار، أيجدها مشتعلة لها لسان يقتبس منه شعلة، أم يجدها قد هدأت ولم يبق منها إلا جذوة، وهي القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً، فكل تكرار هنا له موضع وله معنى، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة، فهو تكامل في اللقطات تأتي متفرقة حسب المراد من العبرة والتثبيت[٤].

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ط٣، ٢٠٠٣م، ص١١١.
(٢) تفسير النابلسي، (٨/ ٤٦٦).
(٣) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مجد الدين، مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م، «قبس»، (٢/ ٢٣٨).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤١).

وقال الدكتور فاضل صالح السامرائي عن قصة موسى في سورة النمل والقصص: فالقصة في سورة القصص مُفصَّلة مطولة، وفي سورة النمل موجزة مجملة، وهذا ظاهر في صياغة القصتين واختيار التعبير لكل منهما، هذا أمر، والأمر الثاني أن المقام في سورة النمل مقام تكريم لموسى أوضح مما هو في القصص، ذلك أنه في سورة القصص كان جو القصة مطبوعاً بطابع الخوف الذي سيطر على موسى، بل إن جو الخوف كان مقترناً بولادة موسى عليه السلام، فقد خافت أمه من فرعون عليه، ثم ينتقل الخوف إلى موسى عليه السلام ويساوره وذلك بعد قتله المصري، فنصحه أحد الناصحين بالهرب من مصر لأنه مهدد بالقتل، وطلب من ربّه أن ينجيه من القوم الظالمين، فهرب إلى مدين وهناك اتصل برجل صالح فيها، وقصّ عليه القصص فطمأنه قائلاً: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وهذا الطابع ـ أعني طابع الخوف ـ يبقى ملازماً للقصة إلى أواخرها، بل حتى إنه لما كلفه ربّه بالذهاب إلى فرعون راجعه وقال له: إنه خائف على نفسه من القتل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

وطلب أخاه ظهيراً له يعينه ويصدقه لأنه يخاف أن يُكذِّبوه: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، في المقابل ليس الأمر كذلك في قصة النمل، فإنه ليس فيها ذكر للخوف إلا في مقام إلقاء العصا، فاقتضى أن يكون التعبير مناسباً للمقام الذي ورد فيه، وإليك إيضاح ذلك[1].

قال تعالى في سورة النمل: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، وقال في سورة القصص: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ فزاد ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ وذلك لمقام التفصيل الذي بُنيت عليه القصة في سورة القصص، وقال في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

وقال في سورة القصص: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ بزيادة (امكثوا)

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص ١٠٩.

وهذه الزيادة نظيرة ما ذكرنا آنفاً، أعني مناسبة لمقام التفصيل الذي بُنيت عليه القصة، بخلاف القصة في النمل المبنية على الإيجاز.

قال في النمل: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾، وقال في القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ فبنى الكلام في النمل على القطع ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾، وفي القصص على الترجي: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، وذلك أن مقام الخوف في القصص لم يدعه يقطع بالأمر، فإن الخائف لا يستطيع القطع بما سيفعل بخلاف الآمن، ولما لم يذكر الخوف في سورة النمل بناه على الوثوق والقطع بالأمر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ما ذكره في النمل هو المناسب لمقام التكريم بخلاف ما في القصص، ومن ناحية ثالثة أن كل تعبير مناسب لجو السورة الذي وردت فيه القصة، ذلك أن الترجي من سمات سورة القصص، والقطع من سمات سورة النمل[1]. فقد جاء في سورة القصص:

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩] وهو ترجّ.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] وهو ترجّ أيضاً.

وقال تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾.

وقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾.

وقال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

وقال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ثلاث مرات في الآيات: ٥١، ٤٦، ٤٣.

وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾.

وقال: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ وهذا كله ترجّ وذلك في عشرة مواطن.

في حين لم يرد الترجي في سورة النمل إلا في موطنين وهما:

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، المصدر السابق، ص١١٠.

قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

وقد تردّد القطع واليقين في سورة النمل:

في قوله تعالى على لسان الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

وفي قوله سبحانه على لسان العفريت لسيدنا سليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].

وقوله على لسان الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

فانظر كيف ناسب الترجي ما ورد في القصص، وناسب القطع واليقين ما ورد في النمل، ثم انظر بعد ذلك قوله تعالى في القصة: ﴿سَّاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، ومناسبته لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، وانظر مناسبة ﴿سَّاتِيكُم﴾ لـ ﴿سَيُرِيكُمْ﴾، وبعد كل ذلك انظر كيف تم وضع كل تعبير في موطنه اللائق به[1].

كرر فعل الإتيان في النمل فقال: ﴿سَّاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، ولم يكرره في القصص بل قال: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾، فأكد الإتيان في سورة النمل لقوة يقينه وثقته بنفسه، والتوكيد يدل على القوة في حين لم يكرر فعل الإتيان في القصص مناسبة لجو الخوف، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن فعل «الإتيان» تكرر في النمل اثنتي عشرة مرة[2]، وتكرر في القصص ست مرات، فناسب تكرار ﴿ءَاتِيكُم﴾ في النمل من كل وجه.

وقال في النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وقال في القصص:

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، المصدر السابق، ص١١١.

(٢) المصدر السابق، ص١١١.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، فذكر في سورة النمل أنه يأتيهم بشهاب قبس، والشهاب هو شعلة من النار ساطعة[١].

ومعنى «القبس» شعلة نار تُقتبس من معظم النار، ويقال: قبس يقبس منه ناراً، أي: أخذ منه ناراً، وقبس العلم: الاستفادة[٢]، وأما «الجذوة» فهي الجمرة أو القبسة من النار[٣]، وهي ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب، وفي معناه ما قيل: هي عود فيه نار بلا لهب[٤].

والمجيء بالشهاب أحسن من المجيء بالجمرة؛ لأن الشهاب يدفئ أكثر من الجمرة، لما فيه من اللهب الساطع، كما أنه ينفع في الاستنارة أيضاً، فهو أحسن من الجذوة في الاستضاءة والدفء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ذكر أنه سيأتي بالشهاب مقبوساً من النار، وليس مختلساً أو محمولاً منها، لأن الشهاب يكون مقبوساً وغير مقبوس[٥].

وهذا أدل على القوة وثبات الجنان، لأن معناه أنه سيذهب إلى النار ويقبس منها شعلة ساطعة، أما في سورة القصص فقد ذكر أنه ربما أتى بجمرة من النار ولم يقل إنه سيقبسها منها، والجذوة قد تكون قبساً وغير قبس، ولا شك في أن الحالة الأولى أكمل وأتم لما فيها من زيادة نفع الشهاب على الجذوة، ولما فيها من دلالة على الثبات وقوة الجنان[٦].

---

(١) لسان العرب، (١/ ٤٩١).
(٢) القاموس المحيط «قبس»، (٢/ ٢٣٨).
(٣) القاموس المحيط «جذا»، (٤/ ٣١١).
(٤) روح المعاني، (٢٠/ ٧٢).
(٥) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ٢٠١٠م، (٧/ ٥٥).
(٦) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص١١٣.

وقد وضع كل تعبير في موطنه اللائق به، ففي موقف الخوف ذكر الجمرة، وفي غير موطن الخوف ذكر الشهاب القبس[١].

وفي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: أي تستدفئون، ومؤدّى ذلك أنهم كانوا في برد شديد، وهكذا عاش من تربَّى في بيت فرعون، فهو يذوق الحر والبرد في الصحراء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئ بها زوجته، يقال: اصطلى بالنار؛ أي تدفّأ بها، وكان الحافظ أبو الحسن الزيدي يقول: اجعلوا مخالطة الناس كالنار، أي: تدفأ بهم ولا تقترب منهم إلا اقتراباً معتدلاً، فإنك إن اقتربت منهم أحرقوك وإن تدفأت بهم نفعوك[٢]. وفي هذه الشدة بُعث موسى عليه السلام، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخير عظيم واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]:

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله، وتتصل به العوالم والأفلاك، ويخشع له الوجود كله، وترتعش له الضمائر والأرواح، هو النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض، وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير، ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾: بهذا البناء للمجهول ـ وهو معلوم ـ ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم.

---

(١) المصدر نفسه، ص١١٣.
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣٤).
(٣) تفسير ابن كثير، (٦/ ١٩٠).

﴿ نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ :

فمن ذا كان في النار؟

ومن ذا كان حولها؟

إنها على الأرجح لم تكن ناراً من هذه النار التي نُوقدها، وإنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى، ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله تعالى للهداية الكبرى، وتراءت كالنار، وهذه الأرواح الطاهرة فيها، ومن ثم كان النداء.

﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ إيذاناً بفيض من البركة العلوية على من في النار من الملائكة، ومن حولها، وفيمن حولها موسى عليه السلام، وسجَّل الوجود كله هذه المنحة العليا، ومضت هذه البقعة في سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلي ذي الجلال عليها، وإذنه لها بالبركة الكبرى، وسجَّل الوجود كله بقية النداء والنجاء.

﴿ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ نزّه الله ذاتَه، وأعلن ربوبيته للعالمين[١].

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي لمسات بيانية في الآية الكريمة فقال: قال تعالى في سورة النمل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ ﴾، وقال في سورة القصص: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ ﴾، فما الفرق بينهما؟

قال الراغب الأصفهاني مُفرِّقاً بين الإتيان والمجيء:

الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتِيٌّ[٢].

وقال: المجيء هو الإتيان، ولكن المجيء أعم؛ لأن الإتيان مجيء بسهولة[٣].

ولم يَذكر أهل المعاجم ما ذكره الراغب، وإنما هم يفسرون واحداً بالآخر، فيفسرون جاء بأتى وأتى بجاء، غير أنهم يذكرون في بعض تصريفات «أتى»

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٩).
(٢) المفردات في غريب القرآن، المصدر السابق، ص٦.
(٣) لمسات بيانية، ص١١٣، نقلاً عن المفردات، ص١٠٢.

ما يدل على السهولة، والذي استبان لي أن القرآن الكريم يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقة، أو لما هو أصعب وأشق مما تُستعمل له «أتى» (١).

إن قصة موسى في سورة النمل جاء التعبير فيها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾، وفي سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ ذلك أن ما قطعه موسى على نفسه في سورة النمل أصعب مما في سورة القصص، فقد قطع في النمل على نفسه أن يأتيهم بخبر أو شهاب قبس، في حين ترجَّى ذلك في القصص، والقطع أشق وأصعب من الترجي، وإنه قطع في النمل أن يأتيهم بشهاب قبس أي: بشعلة من النار ساطعة مقتبسة من النار التي رآها، في حين أنه ترجَّى في القصص أن يأتيهم بجمرة من النار، والأولى أصعب.

ثم إن المهمة التي ستُوكل إليه في النمل أصعب وأشق مما في القصص، فإنه طُلب إليه في النمل أن يبلّغ فرعون وقومه رسالة ربه، في حين طُلب إليه في سورة القصص أن يبلغ فرعون وملأه، وتبليغ القوم أوسع وأصعب من تبليغ الملأ، ذلك أن دائرة الملأ ضيقة وهم المحيطون بفرعون، في حين أن دائرة القوم واسعة لأنهم منتشرون في المدن والقرى، وأن التعامل مع هذه الدائرة الواسعة من الناس صعب شاق، فإنهم مختلفون في الأمزجة والاستجابة والتصرف، فما في النمل أشق وأصعب، فجاء بالفعل «جاء» دون «أتى»، ويدل على ذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١]؛ ذلك لأنه أمره بالذهاب إلى فرعون ولم يذكر أحداً آخر: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٤ ـ ٢٦] فانظر كيف لما أرسله إلى فرعون قال: ﴿أَتَىٰهَا﴾، ولما أرسله إلى فرعون وقومه قال: ﴿جَآءَهَا﴾ وأنت ترى الفرق بين الموطنين ظاهراً (٢).

وذكر في القصص جهة النداء فقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ

(١) لمسات بيانية، ص١١٤.
(٢) لمسات بيانية، المصدر السابق، ص١٢٤.

﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ولم يذكر الجهة في النمل وذلك لأنه موطن تفصيل، وموطن النمل موطن إيجاز(١).

قال في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ولم يذكر مثل ذلك في القصص، بل ذكر جهة النداء فقط، وذلك لأن الموقف في النمل موقف تعظيم كما أسلفنا، وهذا القول تعظيم لله رب العالمين(٢).

٣ـ قوله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]:

نزّه الله ذاتَه وأعلن ربوبيته للعالمين، وكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم، وارتفعت البشرية كلها في شخصية موسى عليه السلام إلى ذلك الأفق الوضيء الكريم، ووجد موسى الخبر عند النار التي آنسها، ولكن كان الخبر الهائل العظيم، ووجد القبس الدافئ، ولكنه كان القبس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم(٣).

وفي قوله: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾: مقام تعظيم لله وتكريم لموسى عليه السلام، فشرَّفه بالنداء المباشر، كما أن ثِقل التكليف في سورة النمل للرسالة وتوسعها إلى فرعون وقومه استدعى المباشرة في النداء، ذلك أن الموقف يختلف بحسب المهمة وقوة التكليف كما هو معلوم(٤).

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾: جاء بضمير الشأن الدالة على التعظيم وعلى قَصْر الألوهية على ذاته العلية(٥).

قال الشيخ السعدي: الله: هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين؛ لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال،

---

(١) لمسات بيانية، ص١٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٤.
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٩).
(٤) لمسات بيانية، ص١٢٥.
(٥) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣٦).

وأخبر أنه الله الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه هو المألوه المستحق لمعاني الألوهية كلها، التي توجب أن يكون المعبود وحده، المحمود وحده، المشكور وحده، المُعظَّم المقدَّس ذو الجلال والإكرام، واسم الله هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا، والله أعلم[١]، جاء هذا النداء على حقيقته بأداة ومنادى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾: هذا هو الأصل، وما دمتُ أنا الله فلا تتعجب مما ترى وساعة تسمع من يكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك، فلا تتعجب ولا تندهش[٢]، ووصف سبحانه وتعالى ذاته العلية بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد عزَّ كلَّ شيء فقهره وغلب الأشياء، فلا يُنال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه[٣].

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يُشرِّع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة وله الأحكام الثلاثة، لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها[٤].

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: وكان النداء للاصطفاء، ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض في ذلك الحين، ومن ثم جعل ربّه يُعِدُّه ويُجهِّزه ويُقوِّيه[٥].

---

(١) الحق الواضح المبين، ص١٠٤.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤٤).
(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ٣٤٣).
(٤) ولله الأسماء الحسنى، ص٢٨٣.
(٥) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٩).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]:

أ ـ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾: قول مباشر من رب العزة، وهو دال على التكريم(١).

وهنا باختصار يعكس سورة طه التي جاء فيها تفصيل ـ كما ذكرنا سابقاً ـ لأن العبرة المطلوبة عبرة النداء والتكليف(٢).

ب ـ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: فقد ألقى موسى عصاه كما أمر، فإذا هي تدبّ وتسعى، وتتحرك حركة سريعة هنا وهناك، أدركت موسى عليه السلام طبيعتُه البشرية وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له على بال، وجرى متوكلاً على الله دون أن يفكر في الرجوع، وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة(٣).

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: يعني انصرف عنها وأعطاها ظهره.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يقول: فلان يُعقِّب، يعني: يدور على عقبة ويرجع، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها(٤).

ت ـ ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: ثم نُودي موسى بالنداء العلوي المُطمئِن وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه، لا تخف فأنت مكلف بالرسالة، والرسل لا يخافون في حضرة ربهم، وهم يتلقون التكليف(٥).

وفي قوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فالمقام مقام التكريم والتشريف، وألمح بذلك إلى أنه منهم، وهذا تكريم وتشريف، ثم انظر كيف قال: ﴿لَدَيَّ﴾ مشعراً بالقرب وهو زيادة في التكريم والتشريف، ثم انظر من ناحية أخرى كيف

---

(١) لمسات بيانية، ص١٢٧.
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٩).
(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٢٦٢٩).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤٦).
(٥) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٢٩).

قال: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ ولم يقل: إني لا يخاف مني المرسلون؛ لأن المرسلين لا يخافون بحضرته، ولكنهم يخشونه ويخافونه كل الخوف، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا أخشاكم لله»، فهو أخوف الناس منه وأخشاهم له[١].

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ والمعنى: لا تخف لأني أنا الذي أرسلتك، وأنا الذي أتولّى حمايتك وتأييدك كما قال الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، فأنت معذور في الخوف إن كنت بعيدًا عني، فكيف وأنت في جواري وأنا معك، وها أنا ذا أخاطبك؟!

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة ـ تدريب ـ ليألف هذه المسألة ويأنس إليها، وتَحدث له ممارسة ورياضة، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية.

وبعد ذلك يأتي بآية تثبيت منطقة التكليف في البشر حتى الرسل، والرسل أيضاً مكلفون، وكل مكلف يصح أن يُطيع أو أن يعصي، ولكن الرسل معصومون من المعصية، أما موسى عليه السلام فله حادثة مخصوصة ـ قبل الرسالة ـ حين وكز الرجل فسقط ميتاً، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، وفي موضع آخر يحدّد هذا الذنب: ﴿فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم قوله تعالى[٢]:

٥ ـ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١]:

أ ـ قال محمد متولي الشعراوي: فالاستثناء هنا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ استثنى من ذلك: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل: ١١]، وكأنه عزّ وجل يُعرّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾

---

(١) لمسات بيانية، ص١٢٩.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤٧).

أي: حين قتل القبطي ولكن موسى عليه السلام اعترف بذنبه واستغفر ربّه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦]، ولا كلام لأحد بعد مغفرة الله عزّ وجل للمذنب، لأنه بعد أن ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ يعني عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذي ارتكبه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ١١] (١).

ب ـ قال ابن كثير: فيه إشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على شيء ثم أقلع عنه ورجع وأناب فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، والآيات في هذا كثيرة جدّاً (٢).

ت ـ قال الماوردي: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فيه وجهان؛ **أحدهما**: أنه أراد من غير المرسلين؛ لأن الأنبياء لا يكون منهم الظلم، ويكون منهم هذا الاستثناء المنقطع، و**الوجه الثاني**: أن الاستثناء يرجع إلى المرسلين، وفيه على هذا وجهان: **أحدهما**: فيما كان منه قبل النبوة كالذي كان من موسى من قتل القبطي، فأما بعد النبوة فهم معصومون من الكبائر والصغائر جميعاً (٣). و**الوجه الثاني**: بعد النبوة، فإنهم معصومون فيها مع وجود الصغائر منهم، غير أن لطف الله بهم في توفيقهم للتوبة منها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾، يعني توبة بعد سيئة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي غفور لذنوبهم رحيم بقبول توبتهم (٤).

ث ـ وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من

---

(١) المصدر نفسه، (١٠٧٤٨/١٧).
(٢) تفسير ابن كثير، (٢٢٤/٥).
(٣) التدبر والبيان، للمغراوي، (١٧/٢٥).
(٤) النكت والعيون، (تفسير الماوردي)، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م، (١٩٧/٤).

الجرم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله وتاب وأناب، فبدَّل سيئاتِه حسناتٍ ومعاصيَه طاعاتٍ، فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها[١].

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: إنما يخاف الذين ظلموا ذلك إلا أن يبدلوا حسناً بعد سوء، ويَدَعوا الظلم إلى العدل، ويَدَعوا الشرك إلى الإيمان، ويَدَعوا الشرّ إلى الخير، فإن رحمتي واسعة وغفراني عظيم[٢].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]:

أ ـ قال ابن كثير: هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، ولها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف، وقوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه[٣].

ولم يُعدد هنا هذه الآيات التسع التي كشف عنها في سورة الأعراف، وهي: سنون الجدب، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم؛ لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها، وعلى وضوحها وجحود القوم لها[٤]، وذُكرت أيضاً في سورة الإسراء، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى عند تفسيرنا لآيات الأعراف والإسراء.

ب ـ قال الدكتور فاضل السامرائي عن قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾، وفي سورة القصص ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾: لقد استعمل في

---

(١) تفسير السعدي، (٣/ ١٢٤٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٣٠).
(٣) تفسير ابن كثير، (٦/ ١٩١).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٦٣٠).

سورة القصص أمر الفعل «سلك» الذي يُستعمل كثيراً في سلوك السُّبل فيقال: سلك الطريق والمكان سلكاً، وذلك لأنه تردَّد سلوكُ الأمكنة والسبل في قصة موسى في القصص، بخلاف ما ورد في النمل، فقد ورد فيها ـ أي في سورة القصص ـ سلوك الصندوق بموسى وهو ملقًى في اليم إلى قصر فرعون، وسلوك أخته وهي تقصّ أثره، وسلوك موسى الطريق إلى مدين، وسير موسى بأهله وسلوكه الطريق إلى مصر، حتى إنه لم يذكر في النمل سيره بأهله بعد قضاء الأجل، بل إنه طوى كل ذكر للسير والسلوك في القصة، فقال مبتدئاً: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بخلاف ما ورد في القصص فإنه قال: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، فحسن ذكر السلوك في القصص دون النمل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الفعل «دخل» ومشتقاته تكرر خمس مرات في النمل[1]، في حين لم يرد هذا الفعل ولا شيء من مشتقاته في القصص، فناسب ذكره في النمل دون القصص.

ومن ناحية أخرى، فإن الإدخال أخصّ من السلك أو السلوك اللذين هما مصدر الفعل سلك، لأن السلك أو السلوك قد يكون إدخالاً وغير إدخال، تقول: سلكت الطريق وسلكت المكان، أي سرت فيه، وتقول: سلكت الخيط في المخيط، أي: أدخلته فيه، فالإدخال أخصّ وأشقّ من السلك والسلوك، فإن السلك قد يكون سهلاً ميسوراً، قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٦٩]، فانظر كيف قال: ﴿ذُلُلًا﴾ ليدل على سهولته ويسره وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وهل هناك أيسر من سلوك الماء في الأرض وغوره فيها؟ فناسب وضع السلوك في مواطن السهولة واليسر، ووضع الإدخال في مواطن المشقة والتكليف الصعب[2].

---

(١) لمسات بيانية، ص١٣١.

(٢) لمسات بيانية، المصدر السابق، ص١٣١.

لقد ناسب الإدخال أن يوضع مع قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾، ومهمة التبليغ إلى قومه، وناسب أن يوضع السلوك في مقام الخوف، وأن يوضع الإدخال في مقام الأمن والثقة، وناسب أن يوضع الإدخال وهو أخص من السلوك مع «الشهاب القبس» الذي هو أخصُّ من الجذوة، وأن يوضع السلوك وهو أعمّ من الإدخال مع الجذوة في النار التي هي أعم من الشهاب القبس، فكل لقطة وُضعت في مكانها الملائم لها تماماً[١].

ت ـ قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: فما الفرق بين أدخِلْ يدك، واسلك يدك؟ قالوا: لأنه ساعة يُدخل يده في جيبه يعني في فتحة القميص، إن كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيسمى «إدخال»، فإن كانت مغلقة ـ أي فيها أزرار مثلاً ـ احتاج أن يسلك يده يعني: يدخلها برفق ويوسع لها مكاناً، نقول: سلك الشيء يعني: أدخله بلطف ورفق، ومنه السلك الرفيع حين تدخله في شيء، وساعة نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنىً عرفيّاً بين الناس ومعنىً لغويّاً؛ فمعناها في اللغة: فتحة القميص العليا، والتي تكون للرقبة، وهي في المعنى العرفي فتحة بداخل الثوب يضع فيها الإنسان نقوده، يقولون لها «جيب»، والعوام لها عذر في ذلك لأنهم اضطروا إلى حفظ نقودهم داخل الثياب، حتى لا تكون ظاهرة، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء[٢].

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: وأخرِجْها تخرج بيضاء ناصعة منوّرة، ومعلوم أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعني: أسمر، فحين يرون لونه تغير إلى البياض فربما قالوا: إن ذلك مرض كالبرص مثلاً؛ لذلك أزال الله هذا الظن بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير مرض[٣].

---

(١) لمسات بيانية، ص١٣٢.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٤٩).
(٣) المصدر نفسه، (١٧/ ١٠٧٤٩).

ث ـ قال الآلوسي: في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ مستأنفاً استئنافاً بيانيّاً كأنه قيل: لم أرسلت إليهم بما ذكر؟ فقيل: إنهم فاسقين، والمراد بالفسق إما الخروج عما ألزمهم الشرع إياه، إن قلنا بأنهم قد أرسل قبل موسى عليه السلام من يلزمهم اتباعه وهو يوسف عليه السلام، وإما بالخروج عما ألزمه العقل واقتضاء الفطرة، إن قلنا بأنهم لم يرسل أحد قبله عليه السلام[١].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]:

الفاء للإفصاح، أي أنهم لما جاءت الآيات التسع مبصرة موضحة مبينة كأنها الأبصار التي تبصر وهي ذاتها بصائر بينة واضحة، قالوا هذا سحر مبين، ومبين معناها واضح بيّن، وذلك لقصر مداركهم وقد كانوا يظنون العصا سحراً، وجمع السحرة في المدائن حاشرين وأيقنوا أنها آية الله وليست سحراً، ثم كان اختبارهم بالقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات، فهل كانت سحراً لعلهم لغلبة الأوهام عليهم، أو لعدم إيمانهم ولعدم إدراكهم الفرق بين الحق والباطل، قالوا أيضاً: إنها سحر، فقد كان غالباً على تفكيرهم، ويعدون السحرة علماء لهم، وهم في هذا الادعاء كانوا ضالين، يدركون الحقائق وتذعن أفهامهم لها، ولكنهم يجحدونها وهي بينة واضحة يُذعن لها أهل الحق[٢].

وتأمل قوله تعالى في وصف هذه المعجزات ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بينة واضحة، فهي اسم فاعل جاء في صيغة المفعول إشعاراً بقوة وضوح المعجزات، فهي لشدة وضوحها وظهورها تكاد تبصر نفسها[٣]، إن الآيات من الوضوح كأنها تلحُّ على الناس أن يروا ويتأملوا، فكأنها أبصر منهم للحقائق[٤].

---

(١) روح المعاني، (١٩/ ١٦٨).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٦/ ٢٣٠).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٧/ ١٠٧٥١).

ولهذا استيقنتها أنفسهم وعرفت أنها الحق لا شبهة فيها، فالحق واضح بيّن في كل زمان ومكان ولا يجحده الجاحدون إلا لأنهم لا يعرفونه، بل إنهم يعرفونه ويستيقنونه في قرارة نفوسهم ولا يحملهم على جحوده إلا شعورهم وإحساسهم أنه خطر على مصالحهم وأطماعهم ومغانمهم، فألسنتهم التي قالت: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تخالف ما استقر في نفوسهم(١).

٨ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]:

والجحود نفي ما يُثبت في العقل، وإثبات ما يُنفى في العقل، فهؤلاء يجحدون الحق بعقولهم وأقوالهم، ولكن نفوسهم مستيقنة لأنه لا سبيل لها لأن تنكر وتجحد بتوارد الأدلة المختلفة وتكاثرها(٢)، فعلموا أنها حق من عند الله ولكن عاندوها وكابروها وجحدوها.

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: ظلماً من أنفسهم سجية ملعونة، وعلوّاً أي: استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صيحة واحدة(٣).

وعاقبة فرعون وقومه معروفة، كشف عنها القرآن الكريم في مواضع أخرى، وجاءت الإشارة إليها هنا بأسلوب الالتفات إلى النبي ﷺ تهديداً ووعيداً للجاحدين والمكابرين من قومه قبل أن ينزل بهم من العذاب والهلاك مثلما نزل بفرعون وقومه وتسلية وتثبيتاً للنبي ﷺ، وهو يواجه عنت الجاحدين والمكابرين(٤).

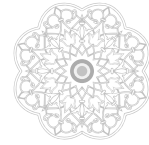
---

(١) التفسير الموضوعي، (٦/ ٢٣٠).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٥٤٣٨).
(٣) تفسير ابن كثير، (٦/ ١٩٢).
(٤) التفسير الموضوعي، (٦/ ٢٣٠).

وما أشبه هذه الآية بآية سورة الأنعام التي وصفت حال قريش في تكذيبهم للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] (١).

* * *

(١) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، ص٣٨٤.



المبحث الخامس

قصة موسى عليه السلام في سورتي يونس وهود

أولاً: قصة موسى عليه السلام في سورة يونس:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا

يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٧٥ـ٩٣].

سُمِّيت سورة يونس لذكر قصة نبي الله يونس عليه السلام فيها، وهي قصة مثيرة سواء بالنسبة لشخصه الذي تعرض لالتقام الحوت له، أو بالنسبة لما اختصَّ به قومه من بين سائر الأمم برفع العذاب عنهم حين آمنوا. وتميزت سورة يونس بالكلام على الأهداف الكبرى لرسالة القرآن، وهي إثبات التوحيد لله، وهدم الشرك، وإثبات النبوة والبعث والميعاد، والدعوة للإيمان بالرسالات السماوية وخاتمتها القرآن العظيم، وهي موضوعات السور المكية عادة(١).

أضف لذلك، تناول السورة للعبرة والعظة بإيجاز، وتقرير صدق القرآن في قصص الأنبياء، كقصة نوح عليه السلام، والنجاة من الطوفان العظيم، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون، واستعانة فرعون بالسحرة لإبطال دعوة موسى، وشأن موسى مع قومه، ودعائه على فرعون، ونجاة بني إسرائيل، وغرق فرعون في البحر، وقصة يونس عليه السلام مع قومه، فصار المذكور في هذه السورة ثلاث قصص(٢).

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، (١١/ ٩٣).
(٢) المصدر نفسه، (١١/ ٩٥).

تفسير الآيات الكريمة المُتعلِّقة بقصة موسى عليه السلام:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٥ـ٧٨]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]:

هذه هي القصة الثانية المذكورة في سورة يونس، وهي قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه، وقد تكرّر ذكرها في القرآن للدلالة على أن قوة الحق وصوت النبوة يعلوان الملك والحكم والسلطان، ويُقوِّضان العروش، ويُزيلان دعائم الباطل، وهذا هو الفصل الأول من القصة، وهو الحوار بين موسى وفرعون وملئه.

أ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: كما بعثنا الرسل إلى أقوامهم بعثنا بعدهم موسى وهارون، ثم: للترتيب والتراخي، أي: أنه بعد أزمان متعاقبة متطاولة بعث الله موسى وهارون عليهما السلام[(١)].

ب ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: كل رسول بُعث إلى قوم، وهذان رسولان يُبعثان إلى فرعون وحاشيته وبطانته، فهؤلاء المذكورون يستأثرون بكل شيء، فكأنهم كل شيء، وما هم إلا حفنة من الناس، صحيح أنهم يستأثرون بالسلطة والنفوذ، لكنهم قلة لا تُذكر، ولا نسبة لهم إلى الشعب.

وإن الملأ هم المقرَّبون ورجال الحكم وأصحاب النفوذ والحظوة والسطوة والسلطة وقادة الأجهزة، والمهيمنون على المقادير، والذين يحكمون باسم فرعون[(٢)]،

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٣٦١٩).

(٢) تفسير سورة يونس؛ دراسة تحليلية موضوعية، أحمد إسماعيل نوفل، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠٠٠م، ص٢٥٦.

والملأ: هم أشراف القوم ووجوهه وأعيانه والمقرّبون من صاحب السيادة العليا، ويقال لهم «الملأ» لأنهم هم الذين يملؤون العيون، أي: لا ترى العيون غيرهم[١].

وفرعون ليس اسماً، لكنه لشهرته وتكراره صار كالاسم، وإنما هو اسم المنصب ككسرى وهرقل والنجاشي والإمبراطور والرئيس... إلخ[٢].

ت ـ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: بأدلتنا على حقيقة ما دَعوْهم إليه من الإذعان لله بالعبودية، والإقرار لهما بالرسالة[٣].

ث ـ ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: واجهوا الرسالة والمعجزات بالاستكبار، والعُلوّ، والعُتوّ، والرفض، والاستعلاء[٤].

ج ـ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: كانوا عاتين في الإجرام، مسلوكين في سلك المجرمين وعدادهم وجمعهم وزمرتهم، والمجرم: من أتى فعلاً كبيراً في جرمه وجريرته وعقوبته، كما في القانون جنح وجنايات كبرى، وكلمة (كانوا) تفيد الرسوخ والقدم في الصفة؛ لأنها جاءت بعد إرسال الرسل إليهم[٥]، ويدلُّ ذلك على استمرارهم، فلم تكن دعوة الحق فيهم مستجابة[٦].

ـ وإن الآية الكريمة بيَّنت أن الاستكبار والإجرام جريمتان كثيراً ما تجتمعان، فتكونان باجتماعهما آفة الآفات، والألف والسين والتاء في ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ للمبالغة في التكبُّر[٧].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٠/ ٦١٢٤).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٥٦.
(٣) تفسير الطبري، (١١/ ١٤٥).
(٤) تفسير سورة يونس، ص٢٥٧.
(٥) تفسير سورة يونس، ص٢٥٧.
(٦) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٣٦٢٠).
(٧) تفسير سورة يونس، ص٢٥٩.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]:

أ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾:

ـ ﴿فَلَمَّا﴾: فاء التعقيب و(لما) تفيد المسارعة وأول حدوث الشيء، فكأن حدوث المسارعة تمت بوسيلتين؛ ليفيد النص سرعة رفض فرعون ومن معه للدعوة.

ـ ﴿جَآءَهُمُ﴾: والمجيء يستعمل للقرب، أي: القدوم من قريب.

ـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾: ما كان ثابتاً صادقاً مستقراً في الكون، والعقول، والفِطر.

ـ ﴿مِنْ عِندِنَا﴾: والذي مصدره من عند الله خالق الكون والبشر، فماذا كان الرد؟

ب ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: تسجل هذه الكلماتُ ردَّهم على دعوة الله، واستخدموا من التوكيد أشده (إنَّ) مقترنة باللام المزحلقة داخلة على خبر إن، واسم الإشارة هذا للقريب، لتحديده، والإيحاء بأنه معلوم لدينا عن كثب، وأضافوا إلى كل ذلك وصف الكتاب الذي جاءهم أو الحق الذي وصلهم بالسحر مضافاً إليه وصف (مبين)، شدةَ الظهور والوضوح بشكل قاطع، لا تخطئه عين أي ناظر[(١)].

قال ابن عاشور: اعتذارهم عن الآيات بأنها سحر هو اعتذار المغلوب، العديم الحجة، الذي قهرته الحجة، وبهره سلطان الحق، فلم يبق له منتسب من المعارضة المقبولة، فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص، ولا تثبت في محكّ النقد[(٢)].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ بهذا التوكيد الذي لا يستند إلى دليل، كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذِّبون في جميع العصور، فهكذا قال مشركو قريش على تباعد الزمان والمكان، وعلى بعد ما بين معجزات موسى

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٦٠.
(٢) التحرير والتنوير، (٧/ ٢٤٩).

ومعجزات القرآن، وفي عصور التخلف كان يُصنِّف كل أمر غريب بالسحر وما يزال[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]:

أ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾: يردُّ رسول الله موسى على فرعون والملأ: (أتقولون): الهمزة للاستفهام، وتقولون هي المستفهم عنه، وحذف النص الكريم مقول القول إيجازاً واختصاراً، وكأنه قال: أتقولون هذا للحق لما جاءكم، أو يمكن تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم هذا سحر، ثم سأل هو: أسحر هذا؟

ـ اللام في ﴿لِلۡحَقِّ﴾ لام التعليل، وبعضهم يسميها لام البيان، وبعضهم يسميها لام المجاوزة بمعنى «عن»، وهذا هو الإيجاز البديع والحذف المقصود المشوق الذي يُشغل العقول لتنظر وتتدبَّر وتُقدِّر وتُفكِّر وتتملَّى وتتأثَّر، فسبحان من أنزل هذا الكلام الجامع المعجز[٢].

ب ـ ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾: همزة استفهام ثانية في آية قصيرة، وكلا الاستفهامين مقصودهما الإنكار والاستهجان من سلوكهم وردِّهم وتصرُّفهم، وهي جملة مستأنفة للتوبيخ والإنكار[٣].

ت ـ ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: والساحر والسحر والساحرون ومَنْ تأثر بهم، كلُّ هؤلاء لا يفلحون، وكأنه لمح إلى النتيجة وأن النتيجة هي الفيصل والحكم، إن هذا الدين وأهله سيكون لهم الفلاح، وأنتم لن يكون لكم فلاح، وهذه أبلغ علامة ودلالة على ما جئتُ به وهو الحق، وأنكم أنتم من يعتمد منهج السحر والسحرة وطرائقهم وضلالهم لا أنا، فالأيام هي الحكم بيننا، فإذا رأينا نتيجة

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٦١.
(٢) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٢٦١.
(٣) تفسير سورة يونس، المصدر نفسه، ص٢٦١.

عدم الفلاح لمن تكون علمنا أنه هو المبطل، وإذا رأينا مَن نتيجتُه الفلاح علمنا أنه على الحق[١].

إن السحر بضاعة المفاليس؛ الذين لا يعتمدون العقل والقانون الكوني والسنن الإلهية، ومن عجب أن ينتعش في زمن العلم كما كان في زمن الخرافة[٢].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]:

المساجلة بين موسى وفرعون وملئه مستمرة، وهذا ردٌّ من قبل ملأ فرعون، يردُّون على موسى بتحجُّر، وجمود بلا عقلانية.

أ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾: ردّوا على الاستفهام باستفهام، واستفهام إنكاري كاستفهام موسى عليه السلام، لكن شتان بين مَن يستنكر الجمود والجحود ومن يستنكر الحق الثابت، ويتعصَّب لهذا التقليد الجامد للآباء.

ب ـ ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: اللفت: التحويل كالقتل والنقل والتغيير وعكس الاتجاه، وهو هنا مستعمل في التحويل عن العمل أو الاعتقاد، فأصله استعارة تمثيلية، حتى صارت مساوية للحقيقة.

ت ـ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: من الدِّين والاعتقاد وتقديس الآباء وتقاليدهم ما دأبت عليه الأقوام في دفاعها عن باطلها، وليس محتكراً للعرب فقط، وإن كانوا قد اشتهروا بالآبائية، وأكثرَ شعراؤهم من قولهم «أولئك آبائي»، لكن هذا القسم مشترك بين الأمم والأقوام، فقد قال القرآن:

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وما هو إلا انطلاق من تقدير الآباء، ولكنه إبقاء على مصالحهم، واستمرار

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٢.

لنفوذهم، وكره منهم للتغيير والإصلاح، وهو آخر ما يخطر لهم ببال، وهم يُحرِّضون الدهماء عن طريق استثارة شعورهم نحو الآباء، والتعصُّب لهم.

قال في (صفوة البيان): ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: لتصرفنا ولِتَلوِيَنا، واللَّفت: الصرف، لذا يقال: لفته يلفته لفتاً: صرفه إلى ذات اليمين أو الشمال، ولفتَ الشيءَ: لواه عنه وصرفه[١].

ث ـ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: السلطان والسيطرة والحكم في الأرض، وهي أرض مصر، وعبَّر عن الحكم والسلطان بالكبرياء، لأن المصريين كانوا لا يفهمون في الحكم إلا الاستعلاء والتحكم والاستكبار، وأن تكون طبقة الحاكمين هي العليا وطبقة المحكومين هي المرذولة، وعبادة المحكوم للحاكم[٢]، وهذه التهمة متكررة عبر الزمان أن هؤلاء الداعين للإصلاح والتغيير يريدون السلطة، وهل أنتم زُهّاد فيها أم منغمسون مستمتعون محتكرون مستفيدون[٣]؟!

ج ـ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾: ثم أكَّدوا كفرهم بالحق لما جاءهم فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾: نفَوا عن أنفسهم صفة الإيمان نفياً مؤكداً، وكان ذلك:

أولًا: بذكر الضمير الدَّالِّ على التعظيم.

ثانياً: بالجملة الاسمية وقوله: ﴿لَكُمَا﴾ لامتناع التسليم، بل إنهم مناوئون غير مستسلمين، بل هم منصرفون[٤].

وتكشف لنا الآية الكريمة مدى خوفهم من تحطيم معتقداتهم الموروثة، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي، وهو الخوف على السلطان في الأرض، وهذا السلطان الذي يستمدُّونه من خرافات عقائدهم الموروثة، إنها

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٦٤.
(٢) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٣٦٢١).
(٣) تفسير سورة يونس، ص٢٦٤.
(٤) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٣٦٢١).

العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات، وانتحال شتى المعاذير، ورمي الدعاة بأشنع التُّهم والفجور في مقاومة الدعوات والدعاة.

إنها الكبرياء في الأرض، وما تقوم عليه من معتقدات باطلة يحرص المتجبرون على بقائها مُتحجِّرة في قلوب الجماهير، بكل ما فيها من زيف، وبكل ما فيها من فساد، وبكل ما فيها من أوهام وخرافات؛ لأن تفتُّح القلوب للعقيدة الصحيحة، واستنارة العقول بالنور الجديد خطر على القيم الموروثة، وخطر على مكانة الطغاة ورهبتهم في قلوب الجماهير(١)، كما أنها خطر على القواعد التي تقوم عليها هذه الرهبة وتستند، إنها الخوف على السلطان القائم على الأوهام والأصنام، وتعبيد الناس لأرباب من دون الله. ودعوة الإسلام ـ على أيدي الرسل جميعاً ـ إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين، وتنحية الأرباب الزائفة التي تغتصب حقوق الألوهية وخصائصها وتزاولها في حياة الناس، وما كانت هذه الأرباب المستخفة بالجماهير لتدع كلمة الحق والهدى تصل إلى هذه الجماهير، ما كانت لتدع الإعلام العام الذي يحمله الإسلام بربوبية الله وحده للعالمين، وتحرير رقاب البشر من العبودية للعباد.

ما كانت لتدع هذا الإعلان العام يصل إلى الجماهير، وهي تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبيتهم، والانقلاب على سلطانهم، والانقضاض على ملكهم، والانطلاق إلى فضاء الحرية الكريمة اللائقة بالإنسان، إنها العلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى الله رب العالمين، وما كان رجال من أذكياء قريش ليُخطِئوا إدراك ما في رسالة محمد ـ ﷺ ـ من صدق وسموّ، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد، ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة، القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد، كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض فقالوا متبجِّحين: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٣٦٢١).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ١٨١٤).

ثم تحدَّثت الآيات بعد هذه المواجهة عن مواجهة ثانية بين موسى عليه السلام من جهة، وبين السحرة الذين جمعهم فرعون، واستعان بهم من جهة ثانية[1].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٩ـ٨٢]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]:

أ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾: الواو: إما استئنافية، وهي التي تأتي جواباً على سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق، فكأن سائلاً سأل: هذا كان رد فعل الملأ، فماذا كان ردُّ فعل فرعون؟ فجاء الجواب: وقال فرعون، وإما عاطفة تعطف قصة على قصة، وموضوعاً على موضوع.

ب ـ ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾: سور القرآن تتكامل ولا تتكرر في عرض القصة الواحدة وأحياناً المشهد الواحد، فهنا لم يعرض السياق مجادلات فرعون، بينما عرضته سور أخرى كطه والشعراء، وهنا يصدر أمر فرعون فيقول: ﴿ٱئْتُونِي﴾ أي: أحضروا لي.

ـ ﴿بِكُلِّ﴾: الباء مُتعلِّقة بـ ﴿ٱئْتُونِي﴾.

ـ ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾: وهو يعلم الحقيقة، وأن النبوة شيء والسحر شيء آخر، ولكنه يكسب الوقت ويَدفع الحقَّ ويُناور ويُداور، ويُلبِّس على الجماهير معتمداً على قلة التمييز وضعف الوعي وإمكان الخلط، وهو بهذه الكلمات يُوحي إلى الجماهير أن ما ترونه هو السحر، وسنردُّ عليه بسحر من مادته ومعدنه، فإذا غُلب سيجد تخريجاً جديداً كأن يقول: سحرتُنا لم يكونوا على مستوى سحر موسى، وحاشاه صلى عليه الله وحاشا للأنبياء، ألم تُقَل الكلمة نفسها عن خاتم الأنبياء: ساحر ومسحور؟

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٣٧).

قال ابن عاشور: العموم في قوله: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ عموم عرفي، أي: بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به[١]، أو أريد ﴿بِكُلِّ﴾ معنى الكثرة[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]:

أ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: الفاء للتعقيب، و«لما» تفيد أول حدوث الشيء، فالكلمة تفيد المسارعة من وجهين، والمجيء تُفيد القرب، أي: بعد جمعهم من مختلف الأقاليم والإتيان بهم من أطراف القطر المصري[٣]، عبّر عنه بالمجيء.

ب ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾: قال موسى عليه السلام لهؤلاء السحرة الذين حشدهم فرعون لنصرةٍ باطلة، قال: ألقوا الذي في جعبتكم، واطرحوا ما عندكم، وائتوا بألاعيبكم وحيلكم، واخدعوا الناس كما تشاؤون. إنه واثق من ربّه، ومما عنده من قوة الحق الذي أكرمه به ربُّه[٤].

وفي خطاب موسى للسحرة دروس وعِبر وفوائد، منها:

ـ قوة الحق عظيمة وإن بدا مجرَّداً.

ـ على حامل الحق أن يُدرك بثقة وعمق قوة ما يحمله من الحق.

ـ الباطل أكثر هشاشة مما نظن ونتصور.

ـ اليقين جزء مهم من عدة النصر[٥].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]:

أ ـ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾: حين ألقى السحرة ما عندهم، أو في أول إلقاء السحرة سحرهم، واجههم موسى.

---

(١) التحرير والتنوير، (٧/ ٢٥٣).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٦٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٨.
(٤) تفسير سورة يونس، ص٣٦٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٦٨.

ب ـ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ : قال موسى في الرد عليهم : قلتم إن ما جئتُكم به سحر ، والسحر ما جئتُم به أنتم ، لا الحق الذي جئتُكم أنا به[١] .

ت ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ : تتجلَّى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئنِّ إلى أن ربَّه لا يرضى أن ينجح السحر ، وهو عمل غير صالح .

ث ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ : هذا الجزء الختامي من الآية تعليل لما سبقه من إبطال سحرهم ، وهذا الختام سنة كونية اجتماعية ، وقانون لا يُنقَض ، ومن تأمَّل الواقع وجد هذا القانون ، فالمفسدون محكوم على عملهم بالفساد ، وعدم الصلاح ، وعدم قبول النهاية غير السعيدة ، فالشقاء ينتظرهم في الدنيا والآخرة[٢] .

ـ قال ابن عاشور : إنما كان السحرة مفسدين ؛ لأن قصدهم تضليل عقول الناس ، ليكونوا مُسخَّرين لهم ، ولا يعلموا أسباب الأشياء ، فلْيَبقَوا آلةً فيما تأمرهم السحرةُ ، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً .

ـ وقال الشنقيطي : ذكر تعالى عن موسى في هذه الآية أنه قال : إن الله سيُبطل سحر سحرة فرعون ، وصرَّح في موضع آخر بأن ذلك الذي قاله موسى عن إبطال الله لسحرهم وقع بالفعل ، كقوله : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٨ ـ ١١٩] ، ونحوها من الآيات[٣] .

ـ وفي قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ قال صديق حسن خان : أي عملَ هذا الجنس ، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أوليّاً[٤] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨٢] :

أ ـ ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ : الحق وإحقاقه قضيتان ، فالحق في قرآننا

---

(١) المصدر نفسه ، ص٣٦٩ .
(٢) تفسير سورة يونس ، المصدر السابق ، ص٣٦٩ .
(٣) أضواء البيان ، (٢/ ١٦١) .
(٤) فتح البيان ، (٦/ ١٠٧) .

ثابت، لكنه لم يتحقَّق في واقع المسلمين هذه الأيام اعتقاداً وعبادة كما أراد الله، وتشريعاً وقانوناً كما أراد، ودعوة لهداية الناس كما أراد، فالحق في ذات القرآن متحقّق، ولكنه في واقع الناس لابد من تحقُّقه وتحقيقه، والله مُتكفِّل كما أنه جعل الحق في قرآنه في ذات القرآن ومبادئه، فإنه سيحقِّق في الواقع الاجتماعي والإنساني والعالمي، والحق في القرآن دائماً ثابت لكن الله تعالى قال في سورة الأنفال، سورة غزوة بدر: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ـ٨].

ب ـ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: والمجرمون من يريدون أن يظل الباطل سائداً والحق غائباً، ولاحِظْ أن ختام الآية هنا وختام ما في الأنفال واحد، فمعركة الحق واحدة والنتائج واحدة، وموقف الباطل من الحق عبر الزمان واحد، موحدة مقاومته والصدّ عنه، وجنايتهم على أنفسهم لأن الله مُتكفِّل بإحقاق الحق ولو كره هؤلاء المجرمون(١).

قال ابن عاشور: أراد بالمجرمين فرعون وملأه؛ فعدل عن ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر، لما فيه من وصفهم بالإجرام تعريضاً بهم، وإنما لم يخاطبهم بصفة الإجرام بأن يقول: وإن كرهتم أيها المجرمون؛ عدولاً عن مواجهتهم بالذم وقوفاً عند أمر الله تعالى إذ قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ (٢).

وانتقلت الآياتُ تتحدَّث عن محنة المؤمنين الذين استجابوا لدعوة موسى، فوصفتهم بأنهم كانوا من شباب بني إسرائيل، وأنهم آمنوا رغم خوفهم من بطش فرعون(٣).

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٧١.
(٢) التحرير والتنوير، (٧/ ٢٥٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٣٨).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٣ ـ ٨٩]:

هذه الآية هي النتيجة لدعوة موسى لفرعون وللملأ وللقوم ولقومه: أن من آمن هم ذرية من قومه، وهو كلام يفيد القلة في العدد، وأنهم من الفتية أو الشباب(١).

١ ـ قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]:

أ ـ ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: أي: فما كانت نتيجة الدعوة وثمرتها إلا إيمان عدد من فتية قومه، ومما يلفت النظر أولاً صيغة الحصر والقصر بالنفي:

ـ ﴿ فَمَآ﴾ وأداة الاستثناء ﴿ إِلَّا﴾ وهذا يفيد أن الجمهرة من الفريقين؛ شعب فرعون وشعب بني إسرائيل لم تُؤمن باستثناء من ذُكروا، ثم لفتة أخرى في هذه اللام في قوله تعالى: ﴿ لِمُوسَىٰٓ﴾: فلم يقل بموسى مثلاً، فما وجه التعدية باللام دون الباء مثلاً؟ هل لأن الفعل مُضمَّن معنى فعل آخر، كأن يكون اطمأن أو صدّق أو غير ذلك، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقوله: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ [طه: ٧١].

ـ ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: يعود إلى موسى، وقوم موسى هم بنو إسرائيل، وذكر

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٧٣.

الذرية دون عمومهم؛ لأن الذرية تطلب الحرية وتبتغيها، وشيوخهم غُرست في نفوسهم العادات والعبادات المصرية القديمة، ورضوا بالدُّون من الحياة، كما يبدو ذلك في قصصهم مع موسى من عبادتهم للعجل، ومن امتناعهم من دخول الأرض المقدسة، وقد رأى ذلك ابن جرير ونحن نتبعه في رأيه(١).

وسؤال آخر على هذا الجزء من النص الكريم، وهل السحرة كلهم من بني إسرائيل؟ فهم قد آمنوا، والجواب: لا يُتصوَّر أن السحرة كلهم من بني إسرائيل، بل الأقرب العكس، فإما كلهم أو جلّهم من شعب فرعون فهو لا يثق إلا بناسه، فلماذا لم يذكر النص القرآني هؤلاء؟ وأين مؤمن آل فرعون؟

والجواب: ربما يكون الكلام عن قوم موسى فقط، فما آمن منهم إلا فئة الشباب على خوف من الفتنة أن تلحق بهم على يد زعمائهم، وعلى يد فرعون وجنوده. وأما السحرة فشأنهم شأن خاص، فقد آمنوا بعد أن تجلّى لهم الحق بشكل قاطع ومعجزة ظاهرة، ومؤمن آل فرعون استثناء من قومه(٢)، وكذلك امرأة فرعون.

ب ـ ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف وأغنياء بني إسرائيل؛ فإنهم كانوا يمنعون الشباب من الإيمان خوفاً على أموالهم ومصالحهم من انتقام فرعون، وهو أمر واقع ومشاهد في كل عصر ومصر، فإنَّ كثيراً من أصحاب الوجاهة والمراتب يُعرضون عن الحق، ويدافعون عن الباطل حمايةً لمصالحهم ومراتبهم(٣).

ـ ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ أي: يصرفهم ويصدَّهم عن الإيمان، فالخوفُ لم يكن على أنفسهم، إنما كان خوفهم على دينهم وإيمانهم، فالبلاء كان كبيراً، والمحنة شديدة، والسبب ما كان عليه فرعون(٤).

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١٠/ ٣٦٢٢).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٧٣.
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٣٨).
(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٥٣٨).

ت ـ ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: هذا كقوله في سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لكن عبّر هناك بالفعل (علا)، وهنا عبّر بالاسم (لعالٍ)، وهذا يفيد ما تفيده الجملة الاسمية من وصف حال، وديمومة وَضْع، واستمرارية نهج الاستكبار والعلو، وهنا مرادف للكبر والاستعلاء والتجبُّر[١].

ـ والمقصود بـ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: الخصوص لا العموم، أي:

ث ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: كلتا الجملتين الختاميتين لهذه الآية مفتتحة بإنَّ، وفي خبرها اللام المزحلقة المفيدة للتوكيد، والإسراف: تجاوز الحد في كل شيء سواء في الإنفاق أو الطغيان أو المعاصي[٢]، والمسرف: هو الذي يتجاوز الحدود، وهو قد تجاوز في إسرافه، وادّعى الألوهية[٣].

ـ وقد قال الحق سبحانه على لسان فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ـ وقال الحق سبحانه أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ـ و﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ علوّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين، وقال الحق سبحانه على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، إذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشدَّ الإسراف[٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]:

يخاطب موسى عليه السلام في هذه الآية من آمن من قومه في الآية السابقة،

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٧٢.
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٧٥.
(٣) تفسير الشعراوي، (١٠/ ٦١٤٣).
(٤) المصدر نفسه، (١٠/ ٦١٥٣).

فيُرتِّب عليهم تبعات الإيمان، فالربط واضح ظاهر، ففي الآيتين افتتاح بذكر موسى، وفي الآيتين ذكر القوم، وفي الآيتين ذكر الإيمان[١].

أ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ﴾: يخاطب موسى عليه السلام في هذه الآية مَن آمن مِن قومه، يُبصِّرهم بتبعات الإيمان وتكاليفه، وأن الإيمان يقتضي صبراً وتوكلاً واحتساباً، ولاحظ أن موسى ينادي قومه: يا قوم، والنداء بهذه الصيغة مقصده التحبُّب للقوم، واستجاشة العزمات للفعل، وقطع المخاوف والتردُّدات.

ب ـ ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾: وتأمَّل أن مطلبه يتلخص في كلمتين: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ وهو مطلب من بني إسرائيل عزيز، وقد أحاط مطلبه من جانبيه بجملتين شرطيتين من قبل ومن بعد[٢]، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، وجاء جواب هذا الشرط في قوله سبحانه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾، ثم جاء بشرط آخر: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾. ونلاحظ أن الشرط الأول بدأ بالإيمان، وختم الشرط الثاني بالإسلام.

نعود لنص الآية الكريمة:

ـ ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾؛ إن صدقتم في دعوى الإيمان بالله، وتحقّقتم به صدقاً وحقّاً، فعلى هذا الإله الذي آمنتم به، الإله القوي العزيز الولي، ناصر الضعيف، وآمنتم بسائر أسمائه وصفاته، فالثمرة الطبيعية لهذا الإيمان أن ينتج التوكُّل.

ـ ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ والفاء واقعة في جواب الشرط، وقدَّم «عليه» على التوكُّل للاهتمام[٣]، فإن الله كافٍ مَن توكَّلَ عليه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكُّل كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣][٤].

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٧٥.
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٩.
(٤) تفسير ابن كثير، (٤/٢٨٨).

ـ ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾؛ أي: خاضعين لأمر الله غير معترضين ولا متمرِّدين ولا مُتردِّدين، فبدأ بالإيمان وختم بالإسلام، وجعلهما حاضنة التوكُّل والدائرة التي تحوطه وتحيط به وتقويه وتحرسه، أي: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ إن كان إيمانكم إيمان مسلم لله، أي: مخلص له غير شائب إياه بتردّد في قدرة الله، ولا في أن وعده حق[1].

فالتوكُّل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه، وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي، وتكون هي أقوى وأثبت، وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام، وجعل التوكُّل على الله مقتضى هذا وذاك، أي: مقتضى الاعتقاد في الله، ومقتضى إسلام النفس له خالصة، والعمل بما يريد، واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]:

هذه الكلمات المنيرة تُشير إلى استجابة خيار قوم موسى عليه السلام لطلبه:

أ ـ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾: الفاء هنا متفرعة عن الكلام السابق، وقد ردّ القوم بالصيغة ذاتها التي طُلبت منهم ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ مقدّمين ما قدّم النصُّ في الطلب منهم، دلالة على دقة الالتزام، ولا أقول حرفيته، فالحرفية لا تُحمد بعكس الدّقة، والفاء في فاتحة الكلام تفيد مسارعتهم في الاستجابة، ثم أردفوا توكلهم بنداء ربهم ودعائه سبحانه[3].

ب ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: وما أجمل هذا الدعاء! وأما معناه فهو طلبهم من ربهم ألا يُمكِّن الكافرين منهم، والظالمين من فتنتهم عن

(١) تفسير يونس، ص٢٨٠.
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٥).
(٣) في ظلال القرآن، المصدر نفسه، (٣/ ١٨١٥).

دينهم، فيصبحوا بهذا الافتتان فتنة للظالمين فلا يؤمنوا؛ لأن شعور المنتصر يُعزِّز الباطل في نفسه(١).

وهذا الدعاء يدل على وعي وعمق، وعلى دلائل بالغة في حسن التوكُّل على الله واللجوء إليه، واستغاثتهم بالله ألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين، مقصود به ألا يمكّن القوم الظالمين منهم، فيظن القوم أن تمكّنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح، ولذلك انتصروا وهُزم المؤمنون، ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجّوا في ضلالهم، فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم(٢). والآية الثانية تؤكد النتيجة المطلوبة، وهي:

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦]:

هذه الآية تتمة الدعاء، وتكملة المطالب من رب العباد، تلك المطالب التي توجَّه بها نخبةٌ بني إسرائيل إلى الله تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقالوا هنا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فتلك مقدمة طبيعية لهذه، وهذه تاليتها في نسق الآيات وفي الواقع(٣).

أ ـ ﴿وَنَجِّنَا﴾: كلمة تُنبئ عن واقع صعب عدواني جائر ظالم يعرِّض حياة من يخالف تيار الفساد السائد إلى الخطر، إما بالسجن وإما بالقتل أو التعذيب، والقوم هنا يطلبون من الله النجاة من هذا الحال البئيس.

ب ـ ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾: عامِلْنا برحمتك يا رب لأننا ضعفاء، وهذا دعاء يدلُّ كذلك على حجم الانكسار، فأنت تدعو الله بأسمائه بما يتوافق مع احتياجاتك، أما رأيت إلى دعاء موسى في سورة القصص(٤):

ـ ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٨٢.
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٦).
(٣) تفسير سورة يونس، ص٢٨٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨٤.

ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

ـ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

ت ـ ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: هم ظالمون وكافرون، فمشاعرهم متحجِّرة، وإنسانيتهم مُتحوِّلة، والمعاني والقيم لا تجد مسلكاً ولا سبيلاً إلى قلوبهم أو عقولهم، فما يمنعهم من إيقاع الأذى بل البطش بنا إلا أن تتغمَّدَنا يا رب برحمتك، فتنجينا من هؤلاء المعتدين الظالمين الكافرين[١].

قال البيضاوي: وفي تقديم التوكُّل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً؛ لتُجاب دعوته[٢].

وقال محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: اجعلنا بمنجاة من هؤلاء، كأن الذي يخيف الأقدمين هو سيول المياه حين تتدفق، ولا ينجو إلا من كان في ربوة عالية، والنجوة: هي المكان المرتفع، وهذا هو أصل كلمة «النجاة»، وهنا يقول الحق على لسانهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء، ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، والشفاء إذا وُجد الدّاء، والرحمة هي ألا يجيء الداء[٣]. وفي هذه الآية دروس وفوائد وعبر:

ـ الانكسار أمام الله، واستشعار الضعف والاضطرار، من أهم أسباب الاستجابة.

ـ الدعاء سلاح وأي سلاح، وكما كان يقول الصالحون منا في الأعصر الخوالي: استعينوا بسهام الليل التي لا تُخطئ، يعنون الدعاء في قيام الليل، ولهم في هذا كلام كثير شعراً ونثراً.

ـ إنْ تجرَّد الضعيفُ من سلاح الدعاء والرجاء فهو الانتهاء.

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٣٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨٤.

(٣) تفسير الشعراوي، (١٠/٦١٥٨).

ـ قسوة الإنسان على أخيه الإنسان حين يتوحش بتملك قوة وحشية؛ تهون أمامها وحشية الوحوش والكواسر.

ـ تجرُّد الإنسان من الإنسانية، ومن القيم التي ترتقي وتضبط هذه الإنسانية، وإيقاع تصرفاته، تحوّلها إلى جحيم بحق نفسه وإخوانه في الإنسانية.

ـ المؤمن لا يتمنى البلاء، ولكن يثبت عند اللقاء[١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]:

ألمحت الآيات السابقة إلى احتمال وقوع المزيد من الأذى على بني إسرائيل، من خلال دعوة موسى قومه إلى التوكُّل، ومن خلال دعاء بني إسرائيل بألا يجعلهم الله فتنة للظالمين، وأن ينجيهم من الكافرين، فهي إشارات واضحة في الآيات السابقة إلى احتمال بل تأكُّد وقوع العذاب، وفي هذه الإجراءات التي أمر الله نبيه موسى أن يتَّخذها، ولكنها قد تُخفِّفه وترسم خطة مغايرة للنجاة والفرار منه[٢].

وإن الآية تُشير إلى أهمية الأخذ بالأسباب، وربط ذلك بالتوكُّل على الله الذي لا ينافي الأخذ بالأسباب، والدعاء سبب للمقصود؛ فمن أخذ بالأسباب، واعتقد أن الله هو الخالق ولا تأثير للأسباب في خلق المُسبَّبات كان متوكلاً، ومن ترك الأخذ بالأسباب التي ينبغي له أن يأتي بها مع التمكّن من فعلها كان عاجزاً[٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «احرِصْ على ما ينفعُكَ، واستعِنْ بالله، ولا تَعجزْ»[٤]. وقال أيضاً: «إن الله تعالى يلومُ على العَجزِ، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»[٥].

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٨٤.
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٨٥.
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٣٩).
(٤) رواه مسلم، رقم ٢٦٦٤.
(٥) سنن أبي داود، رقم ٣٦٢٧.

والكياسة: أي النباهة والتفطّن، بإتيان الأسباب المشروعة الموضوعة للمُسبِّبات، وتركُ ذلك ليس من التوكُّل في شيء، ولا مما يقتضيه الإيمان بالقدر، وإنما هو من الجهل بالشرع والقدر(١).

فالقدر لا يدل على مجرى الأمور بمحض المصادفة والاتفاق، وإنما يدل على إجرائها على نظام خاص، ووضعها على قدر معين، بحيث تُؤخذ الأسباب من أسبابها(٢)، ولهذا أوحى الله إلى موسى أن يأمر قومه أن يأخذوا بأسباب السلامة، والوقاية من ظلم فرعون وبطشه، مع الإكثار من عبادته والتوكُّل عليه سبحانه(٣).

أ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾:

ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: الواو عاطفة أو استئنافية، والإيحاء والإعلام له عدة صور، ولكنه في حق الأنبياء غالباً ما يكون بوساطة إخبار الملك الموكَّل بنقل الرسائل، وهو جبريل عليه السلام، فهو رسول الله إلى كل رسل الله، وقد يكون بغير ذلك من طرف الإيحاء، والله أعلم، وأضاف الإيحاء ونسبه إلى نون العظمة لتعظيم شأنه(٤).

ـ ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أي: أن الوحي شمل كلاًّ من موسى وهارون عليهما السلام، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضي أن يتكلم فيه موسى، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم في الأمر نفسه، فالرسالة واحدة والمنهج واحد(٥)، كما أن الموقف يقتضي أن يتحمَّل الجميع كامل المسؤولية. بمَ كان الإيحاء؟ فسَّرته ﴿أَن﴾ وما بعدها(٦).

ب ـ ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾: كل الناس يسكنون بيوتاً بدءاً من بيوت

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٤٠).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٥٤٠).
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٤٠).
(٤) تفسير سورة يونس، ص٢٨٥.
(٥) تفسير الشعراوي، (١٠/ ٦١٥٩).
(٦) تفسير سورة يونس، ص٢٨٦.

الصفيح والعشوائيات إلى الفلل والقصور الشاهقات بالربوات[١]، فما معنى هذا التوجيه وما مقصد هذا الأمر؟

أرى، والله أعلم أن المطلوب التجمُّع تحضيراً ليوم المغادرة، فلا يبقى بنو إسرائيل مُوزَّعين في الأقاليم والمحافظات والنجوع والبنادر والكفور والقرى والعزب والمضارب والمدن، ولكن فليتجمعوا في أماكن متقاربة، ليسهل استنفارهم والتحرك بهم للخروج الكبير من مصر، وهذه الآية تُكذِّب دعاوى بني إسرائيل عن أعدادهم المهولة وقت هذا الخروج، إذ يزعمون أن الرجال فقط كانوا ستمئة ألف، فما شأن الأطفال والنساء والعجزة من القوم؟ فهم على هذا لا أقل من أربعة إلى خمسة ملايين، وهو ما يُكذِّبه العلامة ابن خلدون، فيحسب تكاثرهم منذ كانوا عائلة يعقوب عليه السلام وأولاده إلى الخروج، بحسب ما قالوا هم من عدد السنين ومن عدد الأجيال، فيرى أنه من المستحيل أن يكونوا كما زعموا.

ولدى بني إسرائيل «عُقدة نقص» فهم دائماً يزيدون أعدادهم فراراً وتخلُّصاً من عقدة الشعور بالأقلية، فقتلى الهولوكوست (٦) ملايين لا يقبلون حذف واحد، بل هم رقم صحيح بلا كسور، وقد ناقشهم جارودي علميّاً، بحسب مزاعمهم، واستنتج أنهم يستحيل أن يزيدوا على ستمئة ألف، وهم فقط أضافوا صفراً.

فهذا المفكر ناقشهم، وأبطل مزاعمهم، فإنهم لم يقارعوه؛ دليلاً بدليل، وحجة بحجة، ورأياً برأي، وإنما لجؤوا إلى المحاكم المسيّسة والمنحازة لهم، فحُوكم المفكر الكبير، وحُكم، وحُرم من أن ينشر في أي دورية، أو أن تنشر له دار نشر كتاباً، وأن تضع مكتبةٌ كتاباً من كتبه في مقتنياتها، أو واجهاتها، أو أرففها[٢].

وعندما ناقشهم المؤرخ الإنجليزي أرفنج، وهو أستاذ جامعي، وأكاديمي محترم، وباحث مجدّ، عكف (١٧) عاماً على دراسة وثائق الهولوكوست، واستبعد تماماً هذا العدد، وإن كان يَدين الهولوكوست، وهذا بطبيعة الحال

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٨٦.
(٢) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٢٨٧.

ما لا يستطيع غيرَه أحدٌ وإلا ذاق الهوان، وهذا المؤرخ عندما أعلن رأيه حُوكم وحُكم بالسجن (٥) سنوات، ودفع غرامة (٥) ملايين باوند، وصُودرت كتبه، ولقد حُوكم هذا الإنجليزي في النمسا، ولم تعترض بلده بريطانيا؛ لأن الأمر يمس من يحكمون العالم، فكيف يجرؤ أحد على التدخل، هذا ما حدث ويحدث في حضارة البلاد الغربية[١]!

ونعود إلى موضوعنا بعد هذا التوضيح العام، فالأمر بسكنى البيوت تحصيل حاصل، وإنما مراده بيوت متقاربة يمكن التواصل بينها، وسرعة نقل المعلومة أو الخبر، واليهود مازالوا وسيظلون في كل مكان يسكنون أحياءهم الخاصة، ويتجمعون في «غيتوات»: جمع «غيتو» أي: منطقة مغلقة معزولة عليهم خاصة بهم[٢].

ت ـ ﴿ وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً ﴾: وهذه تحتاج إلى تأمل، فهل معناها أن يجعلوا بيوتهم مصلّياتهم، أو مصلّياتهم بيوتهم، وكثيراً ما تُثير دور العبادة حساسيات عند المتطرفين، وهذا ما يعاني منه المسلمون في الغرب في هذه الأيام مع بروز اليمين المتطرف في كل أوربا، وظهور القوميين المتعصبين، والتديُّن المنغلق المتشدِّد بين الأوربيين، وإن ظن العالم أن أوربا هي رمز الانفتاح[٣].

وأُسند فعل ﴿ وَٱجۡعَلُواْ ﴾ إلى ضمير الجماعة؛ لأن ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه وقومهما؛ إذ كل أحد مكلّف بأن يجعل بيته قبلة، ويكون المعنى ﴿ قِبۡلَةً ﴾؛ أي: وجهة للقاصد من بني إسرائيل من المرحَّلين من سائر الأقاليم حتى يتم إيواؤهم[٤].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً ﴾؛ اجعلوا بيوتكم مُصلَّيات تصلّون فيها، واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ وَٱجۡعَلُواْ

---

(١) تفسير سورة يونس، المصدر نفسه، ص٢٨٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨٧.

﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، فقال بعضُهم في ذلك نحو الذي قلنا فيه، وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي قدمنا بيانه(١).

ث ـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾؛ حافظوا على صلواتكم، وأقيموها بأركانها وروحها، كما يُرضي ربَّكم ليرضى عنكم ربُّكم، فالصلاة عونكم ومددكم؛ ولذا قال الله لكم في سورة البقرة: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، وعندما حمل النبي العظيم الدعوة أوصاه ربّه بالصلاة والقيام بالليل، ليستمدَّ من الله من خلال الصلاة بين يديه العون والمدد لمواجهة الصعاب(٢).

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٢ ـ ٥]؛ فالصلاة مما يهوِّن الصعاب، ويُذلِّل العقبات، ويُقوِّي المعنويات، ويشحن الروح بالطاقات، والإنسان روح، والروح روحها الصلوات، وحياتها العبادات، وغذاؤها القُرُبات، فإذا انقطعت الإمدادات فالروح إلى مواتٍ(٣).

وعن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر صلّى(٤)، ووجه إيراد هذا الحديث في تفسير الآية: بيان أن الحالة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن عند اشتداد البلاء الفزع إلى الصلاة، والإكثار منها؛ لذلك كان النبي ﷺ إذا حزَبه أمر، أي: نزل به أمر شديد صلّى، تسهيلاً للأمر، وامتثالاً للأمر الذي في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي: الصبر على البلايا والالتجاء إلى الصلاة(٥).

وكذلك كان بنو إسرائيل لما اشتد بهم البلاء أُمروا بالإكثار من الصلاة، قال

---

(١) تفسير الطبري، (١١/ ١٥٥ ـ ١٥٦).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٨.
(٤) صحيح سنن أبي داود، رقم ١٢٩٢.
(٥) التدبر والبيان، (١٤/ ٢٢٨).

ابن كثير بعدما حكى قول ابن عباس ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾ قال: أُمروا أن يتَّخذوها مساجد. وقال الثوري أيضًا عن ابن منصور عن إبراهيم النخعي في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾: كانوا خائفين فأُمروا أن يصلّوا في بيوتهم، قال: وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيَّقوا عليهم، أُمروا بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥] (١).

ج ـ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ التبشير والاستبشار والأمل والرجاء، كلها مطالب غالية مهمة، فاليأس قاتل، بل هو أخطر عدوّ، بل هو الكفر بعينه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاۡيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، واليأس وانعدام الأمل وإغلاق نافذته أقصر الطرق إلى الهزيمة والانكسار والتهدم والانهيار؛ ولذلك فإن الذين يُشيعون اليأس، وينشرون الإحباط هم رمز الخراب؛ ولذا كان نهج نبينا عليه الصلاة والسلام التبشير والاستبشار وبث روح الأمل والتفاؤل والثقة واليقين، والآيات في هذا المعنى كثيرة(٢).

وعموماً، فقد اتخذ بنو إسرائيل بيوتاً خاصة بهم؛ وذلك للعمل على تنظيم أنفسهم، والاستعداد للرحيل من مصر في الوقت الذي يأذن الله فيه، والآية تعلمنا أهمية التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معاً ضرورتان للأفراد والجماعات، وخاصة قُبيل المعارك والمشقات، وقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى يومنا هذا تُنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة، وتلك التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لهم فيها أسوة، وليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمّت

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٨٩).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٨٩.

الفتنة، وتجبّر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة ـ وكذلك كان الحال في عهد فرعون في هذه الفترة ـ[١]. وهنا يرشدنا الله إلى دروس وعِبر وفوائد للاستفادة منها من خلال الآية الكريمة التي تبين لنا:

ـ التخطيط وأهميته في حياة الأفراد والأمم والقادة والشعوب.

ـ القادة التاريخيون هم من يضعون التاريخ.

ـ الأنبياء هم أعظم القادة، ومن يفصلون الدين عن الحياة يظنون أن الأنبياء وعّاظ.

ـ التجمُّع قوة، ورصّ الصفوف مهمٌّ في تحقيق التغيير، والإنجازات الاستراتيجية.

ـ الدين هو محرّك التغيير في العالم.

ـ الاستشارة منهج في التغيير، واليأس أقصر السبل لبقاء الخراب[٢].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]:

لما بالغ موسى في إظهار المعجزات القاهرة الدالة على نبوته، ورأى القومُ فرعونَ وملأه مصرّين على الجحود والعناد والإنكار، دعا عليهم بعد أن ذكر سبب إقدامهم على تلك الجرائم وهو حبّهم الدنيا وبسطة النعيم، التي أبطرتهم فتركوا الدِّين[٣]، لهذا قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾.

قال ابن كثير: هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٦).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٩١.
(٣) التفسير المنير، المصدر السابق، (١١/ ٢٥١).
(٤) التفسير المنير، المصدر السابق، (١١/ ٢٥١). وانظر: تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٩١).

أ ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ : في هذه الآية دعاء من موسى صاعد إلى الله تعالى يشكو من بطش فرعون، ويدعو الله بأن يسلبه قوته التي يسخّرها في الأذى وتعذيب المؤمنين، وعبّر بقوله: ﴿ وَقَالَ ﴾ بواو الاستئناف أو العطف ليفيد أننا أمام مشهد قد يكون بعيداً زمنياً عن سابقه من قبل أو من بعد.

ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً؛ ينادي موسى ربّه، ويدعوه، ويناجيه دون يا النداء فيقول: ربنا ولم يقل ربِّ، الأمر عام والخطب شامل، وهو يتكلم باسمه واسم الشعب كله لا في مسألة خاصة.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ : إنك يا مولانا أعطيتَ فرعون والحاشية والبطانة المحيطة.

﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا ﴾ : وقدم الزينة على الأموال، وهي ثمرتها، أي الزينة المترتبة على الأموال؛ لأنه تكلم على النتيجة والثمرة والنهاية.

﴿ زِينَةً ﴾ : ما يتزيَّن به الناس، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا، كالحلي والجواهر والمباني الضخمة.

﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ : ونكّرها ونكّر زينة ليضخّمها، وهي كذلك في الواقع، أي: زينة عظيمة وأموالاً كثيرة.

ب ـ ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ : لا يُتصوَّر أن اللام في ليضلوا هي لام التعليل، وإنما هي لام العاقبة والصيرورة، بمعنى أنها انتهت إلى اتخاذها وسيلة للصدّ عن الدين، وحرف الناس عن اليقين، ومحاربة دعوة رب العالمين، وليظل الناس غارقين في الشرك المهين؛ الذي يستعبدهم للسلاطين والمتموِّلين والمتنفِّذين[1].

ت ـ ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ : هذه المرة الثالثة التي يقول فيها موسى هذه

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٩٢.

الكلمة المباركة، داعياً متضرعاً لمولاه ﴿رَبَّنَآ﴾، وهذه المرة يطلب من الله أن يطمس على هذه الأموال.

وهناك أشكال من الطمس لا تنتهي، فانهيار العملة، وضرب الأسواق المالية بلغة العصر، والركود الاقتصادي، وتراجع النمو، وخراب المحاصيل بالآفات والحرائق والفيضانات وغيرها، والتفكك السياسي، يُسقط العملة، والصُّوَر كما قلت لا تعدّ.

ث ـ ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: اشدد وطأتك عليها بزيادة تقسيتها حتى لا تتفتح على أنوار الإيمان، فتُقبض على ما هي عليه من كفر وشرك، فتذوق العذاب المهين المخلَّد صاحبُه فيه إلى ما لا نهاية، والمعنى: أدخِلِ الشدة في قلوبهم؛ لأن قسوة قلوبهم، وشراسة نفوسهم لا تذللها إلا الآلام الجسدية والنفسية.

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾: الرسل والدعاة أكبر أمانيهم أن يؤمن الناس، فكيف يدعون على الناس بألا يؤمنوا؟ إنهم لا يدعون على الناس، ولكنهم يدعون على من يفتنون الناس بأن يقبضهم الله على كفرهم ليذوقوا العذاب، وهذا الدعاء من شدة الألم، فالرسول لا يُلام، وإنما يلام من تسبب في أن رسول الرحمة يدعو هذا الدعاء[1]. وقد قال الدكتور وهبة الزحيلي:

«إن دعاء موسى كدعاء نوح عليهما السلام، لم يكن إلا بعد اليأس من إيمان القوم، وبعد طول العهد من النبي موسى بالدعوة إلى الدين الحق، وملازمة قوم فرعون حال الكفر، وإصرارهم عليه بعد نفاذ الصبر منه، وكل ذلك لم يتم إلا بعد إذن من الله؛ لأن مهمة الرسل استدعاء إيمان قومهم، ولا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، بدليل قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن

(١) تفسير سورة يونس، ص٢٩٣.

﴿يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]»[(١)].

كما قال السمرقندي: أهل مصر لما عُذّبوا بالطوفان والجراد والسنين، قالوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ثم نكثوا العهد ولم يؤمنوا، فغضب موسى عليهم، ودعا الله تعالى عليهم[(٢)].

والآية الكريمة فيها دروس وعِبر وفوائد، منها:

الرسل رحمة، فمتى دعَوا على قومهم أو على من يدعونه، فلأنهم يكونون قد تجاوزوا الحدود في الأذى والبطش.

ـ الرسل بشر، ولهم طاقة تحمُّل.

ـ المال بيد المفسد أداة للفساد والبغي والعدوان.

ـ قسوة القلب تمنع صاحبها من الإيمان، وموسى يدعو على فرعون بأن يزداد قسوة حتى يُحرم الإيمان ليكون مصيره عذاب جهنَّم.

ـ الدعاء من المظلوم لا يُرد، فكيف إذا كان رسولاً من أولي العزم؟!

ـ القوة التي يمنحها المال لأصحابه يجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم.

ـ دعاء موسى عليه السلام بوصف الربوبية تذللاً لإظهار العبودية[(٣)].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]:

في الآية السابقة دعاء موسى إلى ربه، وفي هذه استجابة الرب دعاء عبده.

---

(١) التفسير المنير، (١١/ ٢٥٣).

(٢) بحر العلوم (تفسير السمرقندي)، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)، تحقيق: د. محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر، (د. ت)، (٢/ ١٢٩).

(٣) تفسير سورة يونس، المرجع السابق، ص٢٩٤.

أ ـ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾:

﴿قَالَ﴾: أي: ربّه تعالى دون حاجة للنص والتصريح، فمن يُجيب الدعاء إلا الله؟ ثم إن كلمة (ربنا) قد أُعيدت ثلاث مرات في الآية السابقة، فما الحاجة إلى إعادتها؟!

﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾:

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، ودخلت على الماضي فزادته قوة وتوكيداً.

﴿أُجِيبَت﴾: عبر بالماضي ليدلل على تحقُّق الأمر وثبوته وإن كان سيحدث في المستقبل.

ـ ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾: قال «دعوتكما» مع أن الآية سجَّلت أنه هو الداعي؛ لأن موسى عليه السلام إنما يتكلم بلسان الاثنين، وهما يتكلمان باسم الشعب المقهور(١).

وقال الطبري: قال الله لهما: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ في فرعون وملئه وأموالهم، فإن قال قائل: وكيف نُسبت الإجابة إلى اثنين والدعاء إنما كان من واحد؟

وقيل: إن الداعي وإن كان واحدًا فإن الثاني كان مُؤمّناً وهو هارون، فلذلك نُسبت الإجابة إليهما لأن المؤمّن داعٍ(٢).

ب ـ ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: الثبات على المنهج، والمثابرة، وعدم التحول أو التزحزح، ومواصلة السير على ذات الطريق من الدعوة والتحمُّل، والاستقامة جامعة لجميع خصال الخير والصلاح، والأنبياء رمز الاستقامة، ومع هذا فإن الرب الجليل يأمر عباده حتى الأنبياء بما يشاء، ألم يقل لخير الأنبياء والمرسلين:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

---

(١) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٢٩٥.

(٢) تفسير الطبري، (٤/ ٢٩١).

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠].

واستقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم(١).

وقال ابن القيم: الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء(٢).

وسُئِل صدِّيق الأمة وأعظمها استقامةً بعد رسول الله ﷺ عن الاستقامة؟ قال: ألا تشرك بالله شيئاً(٣).

يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذي يَدين به الصدِّيق، واستقام له توحيده على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها في الأنفس والآفاق؛ استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم، فاستقام له كل عمل وكل حال(٤).

ت ـ ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: الواو عاطفة، عطفت هذه الجملة على ﴿ فَٱسۡتَقِيمَا ﴾: فأكد أمر الاستقامة مرتين؛ مرة آمراً بها مباشرة، ومرة ناهياً عن نقيضها، وهو اتباع سبيل المجرمين الذين لا يعلمون(٥).

﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: فيُخطِّطوا على غير علم، ويتردَّدوا في الخطط والتدبيرات، ويقلقوا على المصير، ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون في الطريق الهادي أم هم ضلُّوا السبيل(٦).

وقال الطبري في قوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يقول: ولا تسلكان

---

(١) الوسطية في القرآن الكريم، للصلابي، ص١٥٤.
(٢) مدارج السالكين، (٢/ ١٠٤).
(٣) تهذيب مدارج السالكين، (٢/ ٥٢٧).
(٤) المصدر نفسه، (٢/ ٥٢٨).
(٥) تفسير سورة يونس، ص٢٩٦.
(٦) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٧).

طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، وإن وعيدي وعذابي نازل بفرعون وبقومه(١).

وقال ابن كثير: وقد يَحتجّ بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة «الفاتحة» ينزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمّن(٢).

ولما حان الوقت الذي سبق به علمه، وتعلّقت به إرادته لإجابة الدعوة، أمر الله تعالى أن يخرجَ ببني إسرائيل ليلاً، وعندما علم فرعون بخروجهم خرج مع جنوده في أثرهم، ولما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر، شق الله تعالى لهم بقدرته طريقاً في البحر يبساً(٣).

رابعاً: قال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٣]:

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون ـ في سورة يونس ـ التي ابتدأها الله تعالى بالحوار بينهما، ثم أتبعه بقصة السحرة، ثم استطرد في أثنائها لبيان إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى استعداداً للخروج من مصر، ثم ذكر دعاء موسى على فرعون وملئه.

ولما أجاب الله دعاء موسى وهاون، أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويَسّر لهم أسبابه، وفرعون كان غافلاً عن ذلك، فذكر هنا خاتمة

---

(١) تفسير الطبري، (١١/ ١٦٠ ـ ١٦٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٢٩١).
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٤٣).

القصة الدالة على تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما وقوة فرعون وقومه[١].

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]:

هذه الآية مفتتحُ فصل جديد في حياة بني إسرائيل وقصة موسى مع فرعون ومع قومه، وفي السابقة قال الله لموسى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾، وهنا وفي هذه الآية تُحقَّق هذه الإجابة ونجاة موسى وقومه وغرق فرعون وملئه وإيمانه بعدما رأى العذاب الأليم، كما دعا موسى.

أ ـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: تكرر هذا النص في سورة الأعراف في الآية (١٣٨)، ولكن اتفقت بدايات النص، واختلف ما بعده، فهنا في يونس أعقب هذا مشهد غرق فرعون، وهو لم يتكرر في القرآن، وهناك أعقب هذا النص مشاهدة بني إسرائيل لقوم يعكفون على أصنام، فطلبوا أصناماً مثلهم، فلا تكرار إذن، وإنما هو تشابه لفظي مع تنوع في العرض. والمجاوزة: العبور والانتقال، ونحن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاتنا، ومجاوزة بني إسرائيل عبورهم من الضفة الغربية للبحر الأحمر إلى الضفة الشرقية منه؛ إن أثبتنا أن هجرتهم كانت في هذا المكان، وهو ما نُرجِّحه، ولا أريد القول نقطع به قطعاً كاملاً. وقد نسب تجاوزهم إليه سبحانه إذ قال: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ فهو لفظ في منتهى الدقة، فمن جمّد قاع البحر وأرضيته لعبورهم؟ ومن أوقف الماء بعكس خاصيته من السيولة؟ إنه الله، ومن الذي أعاد البحر إلى طبيعته عند عبور فرعون بعد مرور آخر نفر من بني إسرائيل؟ إنه الله، إذن هو الذي جاوز بهم البحر، وصدق ربي في كل كلمة ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾[٢]، أي: بقيادتنا

(١) التفسير المنير، (١١/ ٢٥٥).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٩٩.

وهدايتنا ورعايتنا، ولهذا الإسناد في هذا الموضع دلالته[١].

ب ـ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: فلحقهم وتبعهم فرعون وجنوده الذين حشدهم لمطاردة بني إسرائيل، والقضاء عليهم، أو إعادتهم قسراً إلى العبودية في مصر والتقتيل البطيء[٢].

﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: ظلماً واعتداءً، وأعماهم الغضب والحقد عن رؤية الحقيقة ومعرفة المعجزة الخارقة في الطريق الذي شقته القدرة الإلهية بين الأمواج العاتية، فدخلوا فيه[٣]، وكان السياق يتكلم على فرعون والملأ، والآن يتكلم على فرعون والجنود، فالملأ هم الطبقة النافذة في البلاط الفرعوني، فيما الجنود هم الذين يلاحقون بني إسرائيل الآن، وكان بإمكان فرعون أن يرسل وزير دفاعه، أو قائد جيشه، أو رئيس أركانه لهذه المطاردة، وأراد الله أن يأتي به، وهنا القدرة الربانية لتتم مشيئة الله بالقضاء على هذا الطاغية، وليكون مثلاً وعبرة لكل طاغية بعده، ولتكون قصته عظة ودافعاً لكل مقهور ومستضعف، ومُثبِّتاً لكل الشعوب المطالبة بحقوقها أمام تغوّل قوى الاستكبار والطغيان والاستعباد[٤].

ت ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾: حتى للغاية، فهي نهاية وبداية، فاللحظة الفارقة واحدة بين الاستدراج إلى البحر وعودة البحر إلى طبيعته.

﴿إِذَآ﴾: ظرف متضمن معنى الشرط.

﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾: أصابه الغرق ولحقه كأنه كان يطارده[٥].

والآيات الكريمة تصور الانتقال السريع من مشهد البغي والعدوان إلى مشهد

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٨).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٢٩٩.
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٥٤٤).
(٤) تفسير سورة يونس، ص٢٩٩.
(٥) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٣٠٠.

الغرق في ومضة[١]، وعندما عاين الموت وفقد الأمل في السلامة قال:

ث ـ ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: قال فرعون المتألّه العالي العاتي المستكبر، هذا الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ويقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِى﴾، فالآن يقول: آمنت وصدَّقت وأيقنت أنني مجرد عبد، والإله الحق هو الذي آمنت به بنو إسرائيل والذي دعا إليه موسى، ولم يقل آمنت بالله وحسب؛ لأن المصريين وقتها كانوا يعبدون آلهة شتى، فعبدوا العجل، وعبدوا الشمس، وعبدوا الزعيم، وعبدوا آلهة شتى كما قالت الآية الكريمة: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، فهو أراد بكلمته هذه أن يقطع النظر عن كل الآلهة الباطلة المدعاة المزعومة، ويؤمن بالله الحق الذي لا إله إلا هو، وهو الذي دعا موسى إلى الإيمان به، والذي آمنت به بنو إسرائيل، ومن هنا فيما أرى جاء هذا التحديد على لسان فرعون[٢].

ج ـ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: جمع لنفسه بين الإيمان والإسلام، أي: وأنا من المستسلمين الخاضعين لأمر الله، والمنفذين لكل ما يطلب، شأني شأن أي عبد مأمور مطيع، لقد انتهت الغطرسة والكبرياء والتألُّه أمام مواجهة لحظة الحقيقة، وتهديد الغرق والموت، والموج العاتي يضرب ذات اليمين وذات الشمال، ويتقاذفه كنواة أو قشرة فارغة[٣].

سقطت عن فرعون الباغي المتجبر كل أرديته، التي تظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، وتضاءل وتصاغر، فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فيزيد في الاستسلام ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[٤].

والآية الكريمة فيها دروس وعِبر، منها:

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٨).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٠٠.
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٨).
(٤) تفسير سورة يونس، ص٣٠١، وانظر: في ظلال القرآن، (٣/ ١٨١٨).

ـ أعطى الإلهُ العظيم الناسَ حرية الاختيار، ولا يعني هذا أن لهم الاختيار المطلق وإلى ما لا نهاية، فمن حادّ الله استدرجه إلى أسوأ مصير.

ـ الاستكبار والعلو والتأله أمراض وتشوُّهات تُصيب البشر والحياة والأمم والمجتمعات، ويدفع الجميع فيها ثمناً غالياً.

ـ إدراك الحقيقة في الوقت المتأخر والوقت الضائع كالإدراك وفهم المسألة خارج قاعة الامتحان وقد سلَّمتَ أوراقك، لا يُسجَّل في رصيدك[1].

ـ التوبة مقبولة حتى لحظة الموت، فإذا عاينت اليقين بالموت؛ فأين الإيمانُ بالغيب؟

ـ التواضع تحت القهر ليس تواضعاً، بل احتيال.

ـ ما أجمل أن يصبح إيمان المستضعفين أمنية المستكبرين.

ـ جند الله لا يعلمهم إلا هو، والغرق يصوره الله سبحانه أنه جند لحق بفرعون حتى أدركه[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]:

في الآية السابقة ادّعى فرعون أنه آمن، لكنه إيمان ليس في الوقت المقبول، وهذه الآية تردُّ إيمان فرعون، وتقول له: إنك تجاوزت الوقت الذي يُقبَلُ فيه الإيمان.

أ ـ معنى ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: أالآن بفك الإدغام، أي: هل آمنت وقد فات الأوان؟! هل آمنت في الوقت الذي لا يُقبَل فيه الإيمان؟ إنه وقت معاينة الموت والإفلاس من كل أسباب النجاة، واليأس من قوة الذات والجنود والحُماة والكُماة والرماة.

الآن وقد نفدت الفرص من بين يديك؟!

---

(١) تفسير سورة يونس، المصدر نفسه، ص٣٠٢.

(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٠٢.

الآن وقد انتهى وقت الامتحان، وقيل في قاعة الامتحان: ضَع القلم؟

الآن وقد ملأتَ البلادَ ذعراً منك، ورعباً من بطشك، وقد تألَّهتَ وطغيت وقتلت واستحييت، وادعيت الدعاوى العريضة في الربوبية والألوهية وفي ملك مصر؟

أين السلطان والهيلمان؟ أين الخلان والغلمان؟

أين الندماء والجلساء؟ أين القوة والأضواء؟

أين كل هذه السطوة؟ أين الحرس والمواكب والمراكب؟

أين الرياش والفراش؟ أين العاج؟ وأين التاج؟

أين التماثيل والتهاويل؟ أين أين . . . ؟

الآن يا فرعون جئتنا عبداً؟ أما كنت تدّعي أنك إله؟ فأنقذ نفسك.

أما أنكرت ربك وزعمت أنك رب؟ فخلّص نفسك.

آلآن؟ ما أعظمها كلمة سجلها القرآن وردّدتها الأكوان، التي ضجّت من طغيان هذا الإنسان الذي خرج من إنسانيته، وادّعى ما ليس له بحق، ادّعى أنه إله للخلق ونسي الخالق، ادّعى الخلود، فأين الآباء والجدود؟ ألم يدّعوا الدعاوى مثلك؟ أما كانوا مثلاً لك؟

الآن؟ ينطق الذين نجاهم الله وهم يرقبونك من الضفة الأخرى.

الآن؟ يلطمك بها ملك الموت الذي جاء ليقبض روحك.

الآن؟ يصرخ بها زبانية العذاب، وقد جاؤوا ليعذبوك، وأنت تسلم جوهرة الروح في الجسد بالإرادة المجرمة الفاسدة[1].

ب ـ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: وقد تمردت على أمر الله، وأعلنت المعصية، وجاهرته بالتحدي، وزعمت أنك ندٌّ، بل لا أمر إلا أمرك، ولا نهي إلا نهيك، ولا نافذ إلا حكمك، لقد ملأت الأرض معصية وتجاوزاً وظلماً، وملأت

(١) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٣٠٣.

وقتك، واستنفدت عمرك في معصية المليك المقتدر سبحانه، فالآن عرفته وقد عصيته من قبل وتحديته؟!

ت ـ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الآن تعلن توبتك وأوبتك وقد أفسدت أمتك وضيعت فرصتك، أما علمت أن الفساد والإفساد وتدمير البلاد عاقبته وخيمة؟!

كم من أهل بلدك ماتوا فقراً وقهراً ومرضاً وجوعاً؟ كم حكمت محاكمُك ظلماً بقتل أبرياء من المستضعفين؟ الآن وقد امتلأت سجلاتك بالفساد والسواد وخراب البلاد[١]؟!

قال الشيخ حسنين مخلوف في (صفوة البيان): الآن أي الآن تؤمن، حين يئست من الحياة وأيقنت الموت، فالظرف مُتعلِّق بمحذوف مؤخَّر، والاستفهام للتوبيخ والإنكار لتأخيره الإيمان إلى وقت لا يجدي فيه نفعاً لعدم قبوله[٢].

قال ابن عاشور: صيغة ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أبلغ من الوصف بالإفساد، من «وكنتَ مفسداً» كما تقدم آنفاً، وبمقدار ما قدمه من الآثام والفساد يُشدَّد عليه العذاب[٣].

قال الزمخشري: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أتؤمن بالساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك؟

﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: من الضَّالِّين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

والآية الكريمة فيها دروس وعِبر وفوائد، منها:

ـ كم ذا يغالط الإنسان نفسه؟! يعلم أنه مخلوق ويدّعي أنه إله.

ـ فرصة الوقت ومهلة العمر أعظم ثروة أهدرها الإنسان ويهدرها، وفرّط فيها ويفرّط.

---

(١) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٣٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٤.

ـ الإيمان بالغيب، ليس عن معاينة ومشاهدة، فإيمان المعاينة يستوي فيه العاقل وغير العاقل، فما قيمته؟!

ـ لا يقبل الله توبة العبد متى أيقن الخروج من الدنيا.

ـ التعامل مع الله ينبغي أن يكون بالصدق والإخلاص، لا بالانتهازية والمخادعة فالله لا يخدع، وكل الناس يقولون في لحظة الفراق: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ وقد علموا أنهم لا يرجعون.

ـ الآن الآن قبل ألا يكون آن وقد فات.

ـ البدارَ البدارَ، وانتهز الفرصة حتى لا يفوتك القطار، وتكون من أصحاب النار.

ـ الغارق المغرَق في المعاصي والفساد يُختَم على قلبه فلا يعود، ويُحال بينه وبين هذا القلب: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] (١).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]:

والآية تتمة للحديث عن مصير فرعون، فقد سجلت الآية السابقة رفض توبته وإيمانه وغرقه، وهذه الآية تكمل الحديث بأن الله سيجعل البحر يلفظه حتى لا يتوهم المتوهمون أنه ذهب إلهاً إلى مكان آخر، فها هو جيفة ملقاة أمام أعينكم (٢).

أ ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾:

ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾: كان السؤال في الآية السابقة «آلآن»، فهو حديث عن الوقت الذي فات، وفي هذه الآية يقول الله: في هذا اليوم سأُنجي بدنك بعد أن تسللت روحك، ليس لكرامتك، بل لأجعلك عبرة لمن يعتبر.

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٣٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٥.

و«الفاء»: هي الفصيحة تفصح عن شرط مقدر في الكلام يدلُّ عليه السياق.

ـ ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: ننقذ جسدك وبدنك بعد أن استلمنا الجوهرة المودعة في هذا الجسم العفن المليء بالكبر، المنتفخ بالكِبر والغطرسة، والدعاوى الفارغة[١]. وبعد خروج روحه من بدنه، وتحويله إلى جثة هامدة أنجاه الله ببدنه، وألقاه على شاطئ البحر، وجعله للناس آية يشاهدونها ويتذكرونها، وكان إنجاء بدن فرعون بعد موته آية من آيات الله، فالله أمر ماء البحر ألا يسحب فرعون إلى قعر البحر، فنفّذ الماءُ الأمرَ، والله أمر الأسماك ألا تأكل جثته، فنفّذت الأسماك الأمر، والله أمر الموج أن يُلقي الجثة على الشاطئ فنفّذ الموجُ الأمرَ، وكان الماء والسمك والموج جنوداً من جنود الله، وما يعلم جنودَ ربك إلا هو[٢].

وبعد غرقه وإلقاء جثته على الشاطئ، أخذ قومُه جثَّته، وحنطوها، ووضعوها في مدافن الأسرة الفرعونية، بجانب جثث الملوك الفراعنة الذين ماتوا قبله، وكان المصريون في العهد الفرعوني يتقنون فنَّ التحنيط، والتحنيط عند قدماء المصريين هو: حفظ هيكل جسم الميت بتخليصه من المواد الرخوة، وتطهير جوفه بمواد خاصة[٣].

وقد حفظ المصريون القدماء جثثَ ملوكهم وفراعنتهم المحنطة في الأهرامات المعروفة وفي المقابر الملكية، وبقيت تلك الجثث موجودة حتى عثر عليها علماء الآثار في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، وكان من تلك الجثث التي عثروا عليها جثة هذا الفرعون الذي قال الله له قبل أن يموت غرقاً: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[٤].

وكان ذلك في عام (١٨٩٨م) بوادي الملوك بطيبة، اكتشف «لوريت» مومياء

---

(١) تفسير سورة يونس، المصدر نفسه، ص٣٠٦.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ١٠٥).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ١٠٦).
(٤) القصص القرآني، المصدر السابق، (٣/ ١٠٦).

فرعون موسى، ومن هناك نقلت المومياء إلى القاهرة، ورفع «إليوت سميث» عنها أربطتها في (٨) يوليو (١٩٠٧م)، ومنذ ذلك التاريخ والمومياء معروضة للزوار بمتحف القاهرة مكشوفة الرأس والرقبة، أما بقية الجسم فهو مغطى بقطعة من القماش[١].

وفي يونيو عام (١٩٧٥م)، قيَّض الله موريس بوكاي الطبيب الفرنسي أن يوقف تآكل المومياء، فقد طلب من السادات رؤية مومياء رمسيس «الذي يُعتقد أنه فرعون موسى» فأذن له، فأخبر السادات أن المومياء بدأ فيها التحلل وعلينا وقفه، فسمح له السادات، فشكَّل فريق عمل، واستطاع وقف تحلل الجثة المحنطة[٢].

وقد فوجئ الدكتور «بوكاي» وزملاؤه عند فك أربطة المومياء باليد اليسرى لهذا الجسد المحنط تندفع فجأة إلى الأمام، وفهم من ذلك أن المحنطين كانوا قد أجبروا تلك اليد على الانضمام إلى الصدر عنوة، كذلك ظهرت بقايا ملحية عديدة على جسد المومياء، وتبين أن عظامها مكسورة في أكثر من موضع دون تمزق للجلد الذي يكسوها.

ومن تلك الملاحظات، استنتج الدارسون أن صاحب تلك المومياء كان قد مات غارقاً في بحر مالح، وأنّ عظامه تكسرت دون تمزق الجلد، ولعل سبب ذلك هو قوة ضغط الماء على جسده بعد غرقه، وأن أمواج البحر ألقت بجثته على الشاطئ بعد غرقه مباشرة، وفُسِّرت الوضعية الغريبة لليد المومياء اليسرى بتشنُّجها لحظة الغرق، وهو يدفع الماء بدرعه التي كان يحملها بها، بينما كان يمسك لجام فرسه أو يحمل سيفه باليد اليمنى، فتيبَّست اليد اليسرى على هذا الوضع واستحالت عودتها إلى سيرتها الأولى.

وبينما كان الدكتور «موريس بوكاي» يعدّ تقريره عن تلك المومياء ظانّاً أنه قد توصّل إلى كشف حقيقة لم يعرفها أحد قبله جاء إلى علمه أن القرآن الكريم ـ وهو

(١) القصص القرآني، (٣/ ١٠٩).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٠٦.

كتاب أنزله الله على محمد ﷺ رسول المسلمين قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة ـ يسجل الواقعة بدقة فائقة، واستغرب الدكتور «بوكاي» سبْق القرآن الكريم بالإشارة إلى نجاة تلك الجثة بعد غرقها؛ لأن تلك المومياء لم تُكشف إلا في سنة (١٨٩٨م).

أُعيدت المومياء إلى مصر بعد علاجها، وبعد أن طبعت في ذاكرة الدكتور «بوكاي» فضولاً شديداً لدراسة الإشارات الكونية في القرآن الكريم، وبعد عشر سنوات أمضاها في تلك الدراسة أذهله التطابق الشديد بين الإشارات القرآنية وحقائق العلم في أعلى مراتبه الحالية.

سجّل الدكتور «موريس بوكاي» شهادته تلك في واحد من أهم الكتب التي صدرت في القرن العشرين، وسمّاه: «الإنجيل والقرآن والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة»، وكانت هذه الآية الكريمة رقم (٩٢) من سورة يونس هي مدخل الدكتور «بوكاي» لمعرقة حقيقة الإسلام، وهذه الآية وحدها تكفي للشهادة على وجه من أوجه الإعجاز في كتاب الله، ألا وهو الإعجاز الإنبائي والتاريخي[١].

وقد تحدث الدكتور صلاح الخالدي (رحمه الله) عن توسيع مفهوم إنجاء بدن فرعون ومفهوم الآية، ومفهوم الذين خلفه فقال:

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: فلم نتركه يغوص في قعر البحر، ولم نتركه للأسماك، وإنما ألقيناه على الشاطئ.

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيث ألهمنا قومه تحنيطه، وإزالة ما يسرع إليه الفناء منه، ودفنه في مقابر خاصة محفوظة.

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيث أبقيناه محفوظاً آلاف السنين، لم تصله عوامل الفناء والذوبان والتلاشي، ولم تمتد إليه يد اللصوص.

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (٢/ ٦٤٩).

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: حيث ألهمنا علماء الآثار اكتشاف بدنك المحنط في نهاية القرن التاسع عشر، ووضعه في متحف الآثار ليراه الناس[١].

وهذه أول إشارة واضحة في التاريخ لقيام المتاحف، وفعلاً اليوم جثة الفرعون موجودة في المتحف المصري بالقاهرة[٢].

ب ـ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: ليصدق الوعد ويصدق النص، وليس لمن خلفك من بني قومك في ذلك الوقت، إذ يبدو أن النص مفتوح على الزمان كله إلى ما شاء الله[٣].

﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: قومك، معاصروك الذين شاهدوا مصرعك، فزادوا شكراً لله.

﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: الناس القادمون بعد آلاف السنين من مصرعك، الذين سيشاهدون جثتك المحنطة المحفوظة، وهذا يقودنا إلى ملاحظة المجال العريض الواسع للآية الناتج عن ذلك. ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، إن جثته آية لعابديه من قومه على أنه ليس إلهاً، وهي آية للناس عندما تكتشف في القرن العشرين بعد آلاف السنين من موته[٤].

ونعتقد أن اكتشاف جثة فرعون عام (١٨٩٨م) وبقاءها معروضة في متحف القاهرة يشاهدها الزائرون المتفرجون، آية بينة واضحة على ما يلي:

ـ آية على قوة الله وقدرته وعظمته الذي أهلك فرعون، ثم أبقى جثته محفوظة هذه المدة الطويلة.

ـ آية على معية الله للمؤمنين، وإنقاذه لهم، وقضائه على أعدائهم الكافرين.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ١١١).
(٢) فن السيناريو في القصص القرآني، جمال شاكر البدري، دمشق، دار صفحات للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٧٦.
(٣) تفسير سورة يونس، ص٣٠٦.
(٤) القصص القرآني، (٣/ ١١١).

ـ آية على انتقام الله من الطغاة المستبدين وإهلاكهم ليتعظ ويعتبر بها الناس، وبالذات الطغاة والمستبدون، فيتخلوا عما هم فيه من طغيان واستبداد؛ لئلا يلاقوا المصير نفسه، ولكن هؤلاء لا يعتبرون: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

ـ آية على صدق نبوة محمد ﷺ، فالله هو الذي أخبره بتفاصيل غرق فرعون وإنجاء جثته، ولو لم يكن رسولاً لما علم بذلك، لأنه أمي لم يتعلَّم من أحد، ولم يتلق هذه المعلومات من أحد، لاسيّما أن كتب المؤرخين وأهل الكتاب لا تتحدَّث عن هذه الجزئية المفصَّلة لغرق فرعون.

ـ آية على أن القرآن كلام الله، وليس كلام أي بشر، وعلى صحة وصدق الأخبار التاريخية التي أوردها وذكرها، فقد ذكر القرآن أن الله قد أنجى جثة فرعون وأبقاها آية لمن خلفه، واكتشفت هذه الجثة بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن، وجاء هذا الاكتشاف شاهداً على صدق وصحة ما أخبرت عنه الآيات.

إن العلم والتاريخ ليقدّمان شهادات مستمرة على صدق وصحة ما ورد في القرآن من أخبار تاريخية، أو معلومات علمية، وهذه الشهادات آيات جديدة على أن القرآنَ كلامُ الله، وكل ما فيه حق وصدق وصواب، وأن محمداً رسول الله ﷺ أوحى الله له بهذا القرآن، أهلك الله فرعون وجنوده وجعل ذلك آية لمن بعدهم، وهكذا انتهت هذه الفتنة الفرعونية الطاغية[1].

ت ـ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾:

وإن كثيراً من الناس الذين أسوق لهم الآيات بالليل والنهار لعلهم يتذكرون، ومع هذا فإن الكثير منهم يظلون سادرين، وعن آياتنا غافلين، وأكَّد المولى عز وجل الكلام بـ ﴿وَإِنَّ﴾ وهي أقوى أدوات التأكيد، ثم باللام الداخلة على خبرها وهي المسماة اللام المزحلقة، وأضاف الآيات إلى نون العظمة ليكسبها عظمة على عظمة، وبهاء على بهاء، وقدراً على قدر[2].

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ١١٢).

(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٠٧.

وقال الرازي: وأما قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾: فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون ذكر حال عاقبة فرعون، وختم ذلك بهذا الكلام، وخاطب به محمداً عليه الصلاة والسلام، فيكون ذلك زاجراً لأمته عن الإعراض عن الدلائل، وباعثاً لهم على التأمل فيها، والاعتبار بها[١].

وفي الآية دروس وعِبر وفوائد:

ـ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: وعدٌ قطعه الله، وظلت الأيام تُثبته.

ـ مومياء رمسيس، وهو حسب الآراء العلمية نفسه فرعون موسى، آية تدلُّ على صدق وعد الله ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

ـ وقت نزول القرآن الكريم لم تكن هذه الآية معروفة للناس؛ ليعلم أن معجزات القرآن تتجدد على مرِّ الزمان.

ـ رؤية الآيات وعظمة الآيات شيء، والاعتبار منها شيء آخر.

ـ الغفلة أخطر الأمراض التي تهدد الإنسان.

ـ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يتعظون ويعتبرون بها، ويرون عاقبة التحدي لقوة الله ووعيده بالتكذيب.

ـ كثير من الناس لا يُوجِّهون قلوبهم وعقولهم لآيات الله[٢].

ورد في السنّة اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وأهلك فرعون، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبيُّ المدينةَ وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسُئِلوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أوْلى بموسى منكم»، فأمر بصومه[٣].

---

(١) مفاتح الغيب، (١٧/ ٢٩٨).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٠٨.
(٣) مسلم، (٢/ ٧٩٥)، رقم ١١٣٠.

ـ وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ذكر أحدهما عن النبي ﷺ: أنه ذكر أن جبريل جعل يدسّ في فيْ فرعون الطين خشية أن يقول: لا إله إلا الله، أو خشية أن يرحمه(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ» (٢).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]:

والسياق متصل، فبعد أن انتهى من فرعون، ونُجِّي بدنه ليكون عبرة المعتبر، عاد السياقُ إلى بني إسرائيل، ومنّة الله بنجاتهم لتبدأ فصول قصة جديدة.

أ ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

﴿وَ﴾: الواو لعطف قصة على قصة، وموضوعٍ على موضوع، أو للاستئناف جواباً على سؤال مقدَّر قد قيل؛ مفاده: ماذا جرى لبني إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده؟

قال السياق الكريم: ﴿لَقَدْ﴾: اللام لام القسم، وقد للتحقيق، وهي داخلة على الماضي فزادت توكيداً.

﴿بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: أنزلنا بني إسرائيل منزل صدق، أي: حق، وعدنا بنجاتهم وحريتهم وإنزالهم منزل الأمن بعد الخوف، والاستقرار بعد الزعزعة، والنجاة بعد القتل، والكرامة بعد الامتهان والمذلّة(٣).

وكلمة «الصدق» تعني جماعَ الخير والبر، وذلك نجده في قول الحق سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، وقوله

---

(١) مسند أحمد، (١/ ٢٤٠).
(٢) سنن الترمذي، (٥/ ٢٦٨)، رقم ٣١٠٨.
(٣) تفسير سورة يونس، ص٣٠٩.

سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٍ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، أي: اجعل لي ذكرى حسنة، فلا يقال: فلان كان كاذباً، وأما قدم الصدق فهي سوابق الخير التي يسعى إليها؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٥]، وهو مقعد عند مليك لا يبخل، ولا يُجلِس في رحابه إلا من يُحبُّه، ولا يُخيِّره على من هم في رحابه، ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربّه فأدخله مدخل صدق، وأخرجه مخرج صدق، وجعل له لسان صدق وقدم صدق.

وبعد أن بوّأ الحق سبحانه بني إسرائيل مبوّأ صدق في مصر والشام، وبعد أن قال لهم: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: ٦١]، أي: أن الحق سبحانه حقَّق قوله:

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: بعد النجاة والمنّ عليهم بعبور البحر جاءتهم أمدادنا رزقاً من السماء دون عناء بأن أنزلنا عليهم المنَّ والسَّلوى، وبعد المنِّ والسَّلوى رزقناهم من الأرض الرزق الذي اعتاده كل الناس[1].

ب ـ ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾: فالعلم يجمع ولا يُشتِّت، ويُوحِّد ولا يُفرِّق، فما لهؤلاء القوم يختلفون بعد مجيء العلم، إنها الأهواء والبغي، وهل تعجب من حالهم؟

انظر اليوم إلى واقع المسلمين تجد الخلاف بين المسلمين في المسائل، والقرآن والسنة بيننا، ولكنه التطرف في الفهم والمذاهب المسبقة والأحكام الجاهزة التي تُنزِّل عليها الأحكام، فهناك قسمٌ لديه منافع ذاتية، وقسم منفصم عن الواقع يُفتي للخيال أو الوهم، وقسم يفتي وكأننا في عصر أبي بكر الصديق أو عمر الفاروق رضي الله عنهما، وتلك الحالة مثل المسافات الفاصلة بين

(١) تفسير سورة يونس، ص٣١٠.

الظلمات والنور. كما أن هناك من جزأ الإسلام ونقد القرآن، ولا ننسى القسم الذي طوّعه الغرب وآخر طوّعه مذهبه. ومن هنا يكون العلم مثاراً للتفرقة، والعلم في ذاته لو نزل على أرض نقية يستحيل أن يكون مثاراً للتنازع، أما أن تختلف العقول والأفهام والآراء، فهذا أمر طبيعي، وظاهرة صحية، والصحابة الكرام عليهم الرضوان لم يكونوا متطابقين في الفهم والاجتهاد، لكنهم كانوا متآلفين وإن كانوا في الفهم متفاوتين(١).

وفيما يخصُّ الآية ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ، منهم من ترقَّب مجيء النبي ﷺ ليؤمن به، ومنهم من تمادى في الطغيان(٢)، أي: أناس منهم بقوا على الباطل، وأناس منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ(٣).

ت ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: إن ربك يقضي بينهم في هذا الخلاف يوم القيامة، وهذا يعني أن الخلاف لن يُحسَم بينهم في هذه الحياة الدنيا، أي: أنه مستمر ما وُجدوا وما كانوا، وما عاشوا وما تناسلوا، إن الخلاف يشتد بينهم ويشتطُّ، وانقساماتهم الدينية تزداد، والثقة تتباعد وتتسع؛ حتى يكون الحكم بينهم أمام الله(٤).

ث ـ ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ في الذي كان مثار خلافهم ومشاكلهم، والسؤال: ما الذي كانوا فيه يختلفون حتى يستحقّ أن يُقضى فيه يوم القيامة؟ وما فائدة القضاء فيه يوم القيامة؟

أعتقد أن محلَّ الخلاف ليس فقهيّاً ولا اجتهاديّاً، وإنما هو اعتقاديٌّ يستحقّ أن يُقضى فيه، إذ قد يصل الخلافُ فيه حدَّ الكفر أو الإيمان، وقيمة القضاء في

---

(١) تفسير سورة يونس، ص٣١٠.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٠/ ٦١٩٢).
(٣) المصدر نفسه، (١٠/ ٦١٩٦).
(٤) تفسير سورة يونس، ص٣١٠.

الأمر يوم القيامة أن يعلم صاحب الاعتقاد السليم جزاء اعتقاده، وصاحب العقيدة الفاسدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر جزاء فساد اعتقاده، فهو قضاء فعلي عملي جزائي، وليس مسألة نظرية فكرية اجتهادية[١].

ويُفهم من الآية أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى يقضي بين من جاؤوا في صف الإيمان وبين من بقوا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان، ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى يقضي يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين، ويقضي أيضاً بين الكافرين، فمنهم من كان ظالماً لكافر، ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه؛ لذلك يقضي الله سبحانه بينهم، والآية تفيد العموم في القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر، وبين كل تائب وعاصٍ[٢].

ثانياً: قصة موسى عليه السلام في سورة هود:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ٩٦ـ١٠٤]:

تضمَّنت سورةُ هود عليه السلام أصولَ الدين العامة، وهي التوحيد والرسالة والبعث والجزاء، وأهم عناصر سورة هود عليه السلام بالإجمال هي:

ـ إثبات كون القرآن من عند الله، من طريق إحكام آياته وإتقانها بنظمها نظماً

(١) تفسير سورة يونس، ص٣١١.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٠/ ٦١٩٧).

رصيناً مُحكَماً لا نقص فيه ولا خلل كالبناء المحكم، ثم تفصيلها في الحال دون خلل، ببيان دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص، والتفرقة بين الحق والباطل، ومن طريق إعجاز القرآن وتحديه العرب بأن يأتوا بعشر سور مثله، وبعد أن عجزوا عن محاكاته والإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، أعلن الله تعالى إفلاسهم وعجزهم؛ فقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

ـ توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما قال تعالى في مطلع هذه السورة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فعبادة كل مَنْ سواه كفر وضلال.

ـ الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته، وكان عرب الجاهلية يؤمنون بأن الله هو الرب الخالق، ولكنهم كانوا يقولون بتعدد الآلهة، وورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تُثبت وحدانية الربوبية، مثل المذكور في هذه السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٧]، والخلق: التقدير المحكم الذي تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة، ثم أُريد به الإيجاد التقديري.

ـ **إثبات البعث والجزاء**: للإيمان بهما وللترغيب والترهيب كما في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧].

وجاء في سورة هود اختبار البشر لمعرفة إحسان أعمالهم، والموازنة بين طبع المؤمن والكافر في أحوال الشدة والرخاء، فالمؤمن صابر وقت الشدة، شاكر وقت الرخاء، والكافر فرح فخور حال النعمة يَؤُوس كَفور حال المصيبة... إلخ.

وورد في سورة هود عليه السلام قصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي ﷺ عما يتعرَّض له من أذى قريش وصُدودهم عن دعوته: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] (١).

---

(١) التفسير المنير، (٨/١٢).

وقد افتتح القرآن الكريم قصص هذه السورة الكريمة بقصة نوح، ثم ثنّى بقصة هود فقصة صالح، ثم انتقل إلى قصة إبراهيم، وذكر لوطاً عليه السلام ثم شُعَيبًا، وانتقل إلى قصة موسى وفرعون، فالقصص مرتبة ترتيباً زمنيّاً[١]، وإليك تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦]:

أ ـ ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو للاستئناف أو للعطف سيّان، واللام للقسم، وقد للتحقيق، فهي أعلى درجات التوكيد، هل لأن القوم مُتشكِّكون، أم لأن الأمر مهمٌّ كان هذا التوكيد أم للأمرين معاً؟ وهو الأجمع والأروع.

ب ـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾: بنون العظمة؛ لتدل على عظمة المرسِل والرسول والرسالة والمهمة المرسَل بها هذا الرسول.

ت ـ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أرسلته بكذا، أي: لهذه المهمة مُحمَّلاً بهذه الرسالة، فالباء مُتعلِّقة بأرسلنا وتُبيِّن بمَ أرسل، وآياتنا تشمل كلمات الله التي يُبلِّغها لفرعون وإن لم تكن كتاباً سماوياً قد أُنزل بعد، والمعنى الثاني هي المعجزات التي رافقت موسى، وأيد الله بها موسى.

ث ـ ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾: هل السلطان المبين هو المعجزات؟ وقبل الجواب نستمع إلى هذه الآية من سورة القصص: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن السلطان حماية، وقوة، وتأثير، وهيبة من الله تحميهما من تجرُّؤ فرعون، ولو قلنا: إن الآيات هي الكلمات التي يبلغها، والسلطان هو المعجزات، ما كان ذلك مُستَبعداً أبداً، على أن السلطان في اللغة معروف، وهو القوة والنفوذ، ويُطلق على الحجة لأنها قوة.

﴿مُّبِينٍ﴾: الظاهر الواضح الجليُّ الحاسم[٢].

---

(١) تفسير سورة هود، ص٣٤٦.

(٢) تفسير سورة هود، ص٣٤٧.

وقال الرازي: اعلمْ أن هذه القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وهي آخر القصص من هذه السورة، أما قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ ففيه وجوه:

أن المراد من الآيات: التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام، ومن السلطان المبين: المعجزات القاهرة الباهرة، والتقدير: ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف، وأيّدناه بمعجزات قاهرة وبيّنات باهرة، الثاني: أن الآيات هي المعجزات والبينات، وهو كقوله: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ [يونس: ٦٨]، وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣]، وعلى هذا التقدير ففي الآية وجهان:

الأول: أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته.

الثاني: أن يراد بالسلطان المبين العصا؛ لأنها أشهر الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، وذلك لأنه تعالى أعطاه تسع آيات بينات؛ العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ونقص من الثمرات والأنفس، ومنهم من أبدل نقص الثمرات والأنفس بإظلال الجبل، وفَلْق البحر. واختلفوا في الحجة لم سُمِّيت بالسلطان؟

فقال بعضُ المحقِّقين: لأن صاحب الحجَّة يقهر من لا حجَّة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره، فلهذا تُوصف الحجَّة بأنها سلطان، وقال الزجاج: السلطان هو الحجَّة، والسلطان سُمِّي سلطاناً لأنه حجَّة الله في أرضه واشتقاقه من السّليط، والسّليط: ما يُضاء به، ومن هذا قيل للزيت: السّليط، وفيه قول ثالث: وهو أن السُّلطان مشتق من التسليط، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية، والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة؛ إلا أن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل، وسلطنةَ الملوك تقبلهما، ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء، وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء، وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة[1].

---

(١) مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي، (١٨/ ٥٣ ـ ٥٤).

وفي الآية الكريمة دروس وعِبر، منها:

ـ السلطانُ هيبةٌ يُلقيها الله على الرسل ومن تبعهم من الدعاة.

ـ لا بد مع كلمات الله، وهي قاطعة معجزة، من حسن عرض وحجَّة تُبلِّغ بها الآيات.

ـ لو كان الدِّين إكراهاً وإجباراً ما كان إرسال الرسل منهجاً إلهياً.

ـ معركة الأفكار أخطر معركة، وتحتاج إلى تدرُّب كسائر المعارك[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]:

بيَّنت هذه الآية لمن أُرسل موسى، وأنه أُرسل إلى فرعون وملئه، ولم يذكر النص الكريم القوم، فكل رسول يُرسَل إلى قومه، ولكن فرعون نموذج مختلف ونمط جديد في سيرة وتاريخ البشرية وحياة الشعوب والأمم، وتطوُّر سلبي في تركز القوة في يد مجموعة هم فرعون والملأ، وصحيح أن الملأ برزوا منذ قصة نوح، لكن لم يُبرز القصص القرآني حاكماً كما فعل في قصة موسى، فدائماً كان الملأ يتصدَّى، أما الآن فقد أصبح للملأ قائد يقودُ المخططات، ويحيك المؤامرات، ويحرك القوات، فتنبَّهْ لدقيق الإشارات في القصص التي تعرّضها هذه الآيات من سورة هود عليه السلام.

أ ـ ﴿إِلَىٰ﴾: للغاية وهي مُتعلِّقة بالآية السابقة، وتحديداً بكلمة ﴿أَرْسَلْنَا﴾.

ب ـ ﴿فِرْعَوْنَ﴾: وهو وصف الحاكم في مصر، وليس اسمه كما قد يتوهَّم البعض، ومثل هذا موجودٌ في كل الأمم؛ فالقيصر في الحضارة الرومانية، وكسرى في الحضارة الفارسية وهكذا، وفي باقي الأمم يُسمَّى الحاكم بمنصبه كذلك؛ فالأمير أو الرئيس أو الملك أو المستشار كما في ألمانيا، وقد يُذكر الاسم وقد يُكتفى بالمنصب دون الاسم.

---

(١) تفسير سورة هود، ص٣٤٨.

ت ـ ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: وأما الملأ فهم المحيطون بالحاكم، وهم غالباً منتقَوْن بعناية فائقة، بحيث يكون انسجام في التركيبة، فلا يُحبُّ المستبد أن يكون عنده معارضة حقيقية، وإنما شكلية من نوع: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾، بينما الفريق الآخر يقول: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١٢ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾، وفريق يريدهم بأدنى اختصاص ـ لو لزم ـ فشأن موسى في نظرهم يعالَج بالسحر والسحرة، وإنما الخلافُ على التفصيل، فالخلافُ بين الفريقين شكلي، ولكن في الجوهر هم متفقون على ردّ دعوة موسى ومقاومته ومجابهته، قبل أن يتصعَّد الأمر إلى المجابهة بالقوة إن لزم الأمر[١].

وإن الخطوط العريضة والرئيسة محل اتفاق، وإنما المعارضة مجرَّدُ تنويعات في اللحن الواحد، هكذا يريدون، والملأ الآن في العالم هم المتنفذون في مراكز القوى الاقتصادية والإعلام والأمن والشركات، والاستشارات، والمناصب العليا الرسمية. وقد يكون الملأ غير ظاهر للعيان، لكنه يرسم السياسات، أو يُسهم في رسمها[٢].

ث ـ ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾: الفاء تفيد المسارعة، وهي مقصودة لهذا المعنى وللإيحاء به، وهو أن القوم: الملأ ومعلمهم، ردوا فوراً برفض دعوة موسى، وتمسكوا بالوضع القائم الذي أطلق عليه القرآن:

﴿أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾: أي: قانونه وحكمه وأحكامه ومنهجه في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وهو المنهجُ القائمُ على التمييز والمحاباة والاستئثار والتمتع بالخيرات من قبل فئة هم الملأ، ومن يلوذ بهم، ويتصل بدائرتهم، لخَّص القرآن كل ذلك بكلمة، وأضافها إلى فرعون: ﴿أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾.

ولخص موقف الملأ أيضاً بكلمة مع فاء التعقيب كما أشرنا: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾، فيا

---

(١) تفسير سورة هود، ص٣٤٩.

(٢) تفسير سورة هود، ص٣٥٠.

للإعجاز والإيجاز، وحشد المعاني بأقل الألفاظ، وأغناها بالدلالة، والإيحاء المطلوب، ولا يتركنا القرآن في جهالة وعمى بالنسبة لأمر فرعون، فلا بد أن يُصدِر حكمَه ويُبيِّن صفةَ هذا الحكم وهذا الأمر، فيختم الآية بقوله حُكماً على أمر فرعون.

ج ـ ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾: جمع العلل كلها، والمساوئ المتجمعة في نظام فرعون بكلمة أو في كلمة أيضاً هي نفي الرشد عن نظامه، ويا للروعة في هذا الإيجاز المدهش والإعجاز المعجب، أي: والله ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾!

ولو تأملت لوجدت هذا سمة أغلب ما يدور في العالم من أحوال وأوضاع وسياسات، فالعالم كله منحازٌ للباطل، وتأمَّلْ كيف يقفُ الكثير في العالم لحماية الإلحاد والشذوذ، وتغوُّل رأس المال، والخصخصة للاستيلاء على ثروات الشعوب. والرشد ملخص للقيادة الحكيمة، والمبادئ السليمة، والقوانين الرحيمة؛ لذا وُصفت فترة خلفاء الرسول ﷺ بالحكم الراشدي ووصف الخلفاء بـ «الخلفاء الراشدون»، وسُمِّي عمر بن عبد العزيز بالخليفة «الراشد»، وبشّرنا النبي عليه الصلاة والسلام بعودة الخلافة راشدة، وليس مدّعاة.

وفي صحبة موسى عليه السلام مع العبد الصالح كان مطلبه من هذه الرحلة وهدفه والغاية منها: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾.

والأيتام لا تُدفع لهم أموالهم إلا إذا ﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾.

فالسَّفَه الذي هو نقيض الرَّشَد، وهو عدو المال وعدو الإدارة وعدو السياسة ونقيض الحكمة والمصلحة والإعداد، وهو رمز التبديد والتبذير، والتخريب والتدمير والتمزيق والتقطيع. ولو تأملنا ما رزقنا الله به في العالم العربي من ثروات، ثم نظرنا ما مقدار العائد على الأمة منها لوجدنا قريباً من العدم، فلا صناعة متطورة، ولا زراعة متقدمة، ولا إدارة محدثة، ولا بحث علمي مُعتنىً به، ولا جامعات راقية، ولا خدمات صحية واجتماعية على مستوى ما يتمتع به العالم، فلماذا؟

إنها كلمة وتتلخص بلفظة: الرشد؛ الذي إن وُجد فالسعادة والتقدم، وإن

فُقد فالشقاء والعدم والندم[١]، إن الرشد هو ما ينقص العالم والأمة الإسلامية في هذه الأيام[٢].

إن سياق الآية الكريمة يُجمِل القصة كلها ليصل إلى نهايتها، فإذا هم يتبعون أمر فرعون، ويعصون أمر الله، على ما في معصية أمر الله من حماقة وجهل وشطط، ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر، يمشون خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبُّر ولا تفكُّر، ودون أن يكون لهم رأي، مستهينين بأنفسهم، ومتخلّين عن تكريم الله للإنسان، بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق، فإن السياق بيَّن أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة، ويكونون له تبعاً[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]:

إن الآية الكريمة تبين كيف أدى انعدام الرشد بفرعون إلى جهنَّم، حيث يكون طليعة قومه إلى النار، ويتقدَّمهم إلى جهنَّم وبئس القرار، فما أبعد هذا عن الرشد، دمار في الدنيا بالغرق ومن معه جميعاً، والنار في الآخرة[٤].

أ ـ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾: يتقدَّم قومه، ويؤمُّهم إلى النار، وصدق الله ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١ ـ ٤٢].

ب ـ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: كما كان يتقدَّمهم في الدنيا، فقد أوردهم البوار والخسار والضنك في العيش، وتقدُّمه في الآخرة سيجرهم وراءه إلى النار، فما أخسرها من صفقة! والويل لمن لا يتعلَّم ولا يعتبر.

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٥١.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٥١.
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٢٤).
(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٢٤).

ت ـ ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: وساء هذا الوارد والورد والمورود، وبئس القرار، وبئس المصير، وبئس المورود، قال الشيخ مخلوف: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ يتقدَّمهم إلى النار كما قادهم في الدنيا إلى الكفر والضلال من قدم يقدُم قدماً وقدوماً، أي: تقدّم.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ﴾: أدخلهم فيها بكفره وكفرهم.

﴿ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: المدخل المدخول فيه، وهو النار[١].

وإن الآية الكريمة تُصوِّر فرعون يُورِد قومه كما يُورد الرُّعاة قطعان الماشية، ألم يكونوا قطيعاً يسير دون تفكير؟ ألم يتنازلوا عن أخصِّ خصائصِ الآدمية وهي حريةُ الإرادة والاختيار؟

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ﴾: ويا بئساه من ورد لا يروي غلَّة، ولا يشفي صدى، إنما يشوي البطون والقلوب[٢].

وقال الشيخُ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: وفي هذا تهكُّم شديد، لأنهم ـ قوم فرعون ـ ساعة يرون الماء، ويشعرون بقرب ريِّ الظمأ وإبراد الحرارة، ولكنهم يشربون من ماء جهنَّم، فبئس ما يشربون كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]: فهم ساعة يسمعون كلمة ﴿يُغَاثُوا۟﴾ فيفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم، فإذا ما علموا أنه ماء كالمهْل يشوي الوجوه عانوا من مرارة التهكم[٣].

وإن الحق سبحانه يُبين لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد، لكن أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من الماء، وكذلك الطعام الذي يأكله أهل النار، والحق سبحانه يقول:

---

(١) تفسير سورة هود، ص٣٥٤.
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٢٤).
(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٦٦٣).

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦]، وهكذا تصير النكبةُ نكبتين[١].

وإذن فذلك كله بسبب قيادة فرعون لهم، وإيرادهم موردهم، وكل ذلك أصبح حكاية تُروى[٢].

وقال المظفري: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي يتقدَّمهم، يقال: قدم بمعنى تقدم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار كما كان يتقدَّمهم في الدنيا إلى الضلال ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقُّقه، ونزَّل النار لهم منزلة الماء حتى سُمِّي إتيانها وروداً.

﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس الورد الذي وردوه؛ فإنه لتبريد الكبد، وتسكين العطش والنار بالضد[٣].

وفي الآية دروس وعِبر، منها:

- أئمة الضلال في الدنيا هم أئمة النار في الآخرة.
- فرعون نموذج لكل طاغية، دمّر عيش قومه، ودمّر مصيرهم وآخرتهم.
- هذا القصص يقصُّه القرآن ليعتبر الخلق، ولا يقامروا بمصائرهم.
- ما أسوأ من يبيع آخرته بثمن من الدنيا قليل، بالغاً ما بلغ.
- الذي يسير بلا تفكير يصبح كالقطيع يتنازل عن أخصِّ خصائص الآدمية، وهي حرية الإرادة والاختيار[٤].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]:

تكلمت الآية الكريمة عن تقدم فرعون قومَه إلى النار، وعادت هذه الآية

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٦٦٤).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٢٤).
(٣) التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، تحقيق: غلام نبي التونسي، الباكستان، مكتبة الرشدية، ١٤١٢هـ، (٥/ ١١٤).
(٤) تفسير سورة هود، ص٣٥٥.

بالأتباع والمتبوعين إلى ساحة الدنيا، لِتُعرِّفنا أنهم أُلحقوا فيها باللعنات تطاردهم وتتبعهم، أما يوم القيامة فبئس الرفدُ المرتفق[١].

أ ـ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾: أي: أُلحقوا في هذه الدنيا لعنة، طُردوا فيها من العزة والكرامة، ونزل بهم الهوان والذل والمقت[٢]. وبُني للمجهول ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ ليشمل كل أحد، فالله يلعنهم وكذلك رسله والمؤمنون، بل تلعنهم الخلائق كلها والملائكة أجمعون[٣].

﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾: اكتفى بـ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ اسم الإشارة مع الضمير دون ذكر الدنيا لوضوح المقصد، وأنها المقصودة، أي: الدنيا، وحذفها للإيجاز، وإبراز عظمة الآخرة وهوان الدنيا[٤].

ب ـ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾: بئس العطاء الذي يعطونه يوم القيامة، وبئس ما قدم فرعون لقومه في الدنيا والآخرة[٥].

والرفد: هو العطاء، فهل تُعَدُّ اللعنةُ في الآخرة عطاء؟ إن هذا تهكُّم بهم أيضاً، مثلها مثل قوله الحق سبحانه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٨][٦].

﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ﴾: أي: العون الذي يُعين به الرافد من يحتاج مساعدتَه.

﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾: أي: المُعان، أي: أن فرعون ومن اتبعه من قومه يتعاونون في تبادل إرفاد النار، يُعين كل منهم الآخر، فهو يعينهم وهم يعينونه، وهذا تصوير لحالهم، إذ تعاونوا على الظلم والذل والإذلال في الحياة، فتعاونوا على المقت، وكانوا وقودَ النار يوم القيامة[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٥٥.
(٢) تفسير أبي زهرة، (٧/ ٣٧٤٧).
(٣) تفسير سورة هود، ص٣٥٦.
(٤) تفسير سورة هود، ص٣٥٦.
(٥) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص٣٥٦.
(٦) تفسير سورة الشعراء، (١١/ ٦٦٦٥).
(٧) تفسير زهرة التفاسير، (٧/ ٣٧٤٧).

وهذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رفد بها قومه، ألم يَعِدِ السحرة عطاءً جزيلاً ورفداً مرفوداً، فها هو ذا رفده لمن تبعه ﴿ٱلنَّارُ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب(١).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]:

هذا تعليقٌ على قصة فرعون وما آل إليه أمره وأمر قومه في الدنيا والآخرة؛ بل هذه الآية والآيات التي بعدها تعليق على سائر القصص التي جاءت في السورة كقصة نوح وقومه وعاد وثمود وصالح ومدين وشعيب، وطغيان فرعون(٢).

أ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف للخطاب؛ فكأنها ثلاث كلمات في كلمة واحدة في اللفظ، واسم الإشارة يعود إلى كل ما ذكر من قصص السورة التي كان ختامها قصة موسى مع فرعون.

ب ـ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾: من الأخبار ذات الشأن، أخبار القرى، والمقصود بالقرية، وفق المصطلح القرآني: القوم أو الشعب أو الأمة، وأحياناً حضارة برمتها، كالحضارة الفرعونية، أو حضارة عاد أو ثمود، فهذه الأقوام أنشأت حضارة، وليست مجرد قرية كما هو المصطلح الدارج اليوم.

ت ـ ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾: نرويه لك بأسلوب القصة الذي يستعذبه كل أحد، فكيف قصص القرآن الموجز المعجز بمنهجيته المتفردة الفذَّة في القَصِّ، والله تعالى هو الذي يقصُّ هذا القصص عليك يا أعظم الرسل في هذا الكتاب أعظم الكتب.

ث ـ ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾: منها ما زالت آثاره قائمة تدلُّ عليه، ومنها ما هو حصيد فلا ترى له أثراً ولا بقية باقية؛ بل درس واندرس، وأصبح مادة للدرس(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٢٥).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٧/ ٣٧٤٨).
(٣) تفسير سورة هود، ص٣٥٨.

وإن مَصارع القوم قد عُرضت في القرآن الكريم، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال، منهم الغارقون في لُجَّة الطوفان الغامر، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خُسف به وبداره الأرض، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وما حلّ بهم من قبل في الدنيا يخايل للأنظار في هذا الموضع، وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد؛ هنا جاء هذا التعقيب.

ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾: فما كان لك به من علم، إنما هو الوحيُ يُنبئك بهذا الغيب المطمور، وذلك بعض من أغراض القصص في القرآن.

ـ ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران، كبقايا عاد في الأحقاف، وبقايا ثمود في الحِجْر، ومنها: ﴿وَحَصِيدٞ﴾ كالزرع المحصود، اجتُثَّ من فوق الأرض، وتعرّى وجهها منه، كما حلّ بقوم نوح أو قوم لوط، وما الأقوام؟ وما العمران؟ إن هي إلا حقول من الأناسي كحقول النبات، غَرْس منها يزكو، وغَرْس منها خبيث، غرس منها ينمو وغرس منها يموت، فهم قد عطّلوا مداركهم، وتولّوا عن الهدى وكذَّبوا بالآيات، واستهزؤوا بالوعد، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين[1].

٦ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١]:

وهذه الآية استمرار للآيات السابقة المعقبة على قصص الأمم والأقوام، وآخرهم فرعون والملأ المعين له، وكيف أنهم جميعاً انتهوا بالهلاك وإلى الهلاك[2].

أ ـ ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ أي: ما ظلمهم الله تعالى بإهلاكهم، فهو مُنزَّه عن الظلم وعن جميع صفات النقص، ولكن ظلموا أنفسهم بسوء

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٢٨).
(٢) تفسير سورة هود، ص٣٥٩.

اختيارهم وكسبهم ووقوعهم في الكفر والشرك، وتكذيبهم للمرسلين الذين جاؤوا وفي يد كلٍّ واحدٍ منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة؛ وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى مُنزَّه عن أن يظلم أحداً[١].

ب ـ ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: فما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها سواءٌ كانت بشراً أو حجارة؛ لم تغنِ عنهم شيئاً، ولم ترفع عنهم العذاب الذي تلقَّوه عقاباً في الدنيا وسعيراً في الآخرة، وإذا كانوا قد دعَوْهم من دون الله في الدنيا، فحين جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميهم من العذاب[٢].

في قوله: ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾: أضاف ربك إلى ضمير المخاطب، وهو سيد الخلق تكريماً له وتشريفاً[٣].

ت ـ ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾: وما زاد الزعماء ولا الآلهة المزعومة، ما زادت من تبعوها واعتقدوها وتوهموها إلا هلاكاً وبواراً وخسارةً وتدميراً[٤].

والآية الكريمة فيما دروس وعِبر منها:

- لا يظلم ربك أحداً.
- المهلَكون لم يظلمهم الله، بل أمهلهم ومدَّ لهم الحبل طويلاً.
- المهلَكون هم تسبَّبوا في هلاك أنفسهم وهم ظالموها.
- المشركون لم يجنوا من شركهم إلا الدمار.
- لا يُغني أحد عن أحد شيئاً إذا حلَّ عذاب الله.
- كم سيطول ندم من اتخذ إلهاً سوى الله.

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٦٦٧).
(٢) المصدر نفسه، (١١/ ٦٦٦٩).
(٣) تفسير سورة هود، ص٣٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٠.

ـ لفظ ﴿تَنۡبِيبٍ﴾ أقوى ببنائه اللفظي، وهو دليل على الخسارة والدمار[١].

إن إهلاكه سبحانه وتعالى للبلاد الظالمة، وإسقاطه للحضارات الفاسدة، لم ينته ولم يتوقف؛ فله تعالى سُنَن في خلقه لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وهذا ما قرّره سبحانه وتعالى[٢]:

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]:

أ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الواو إما عاطفة حالة على حالة، وقصة على قصة، وإما استئنافية جواباً على سؤال مقدر نشأ عن الكلام السابق، والكاف للتشبيه؛ إما تشبيه حالة بحالة، أي: كما أخذ الأقوام السابقة أخذ فرعون وجنوده، وإما من تشبيه الشيء بنفسه إذا بلغ غايةً ما فوقها غاية، وهذا كثير في القرآن، ومنه لا على الحصر وإنما للتمثيل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ وعشرات غيرها.

ب ـ ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾: أول ما يستوقف لفظ الأخذ، وكأنه سبحانه كان قد تركهم، ثم بعد أن أمهلهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، ومنه:

﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢].

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١].

ثم نقف عند الإضافات: إضافة الأخذ إلى لفظ الرب ليفيد عظمته وقوته ـ أي: الأخذ ـ، لأنه من الرب العظيم، وأضاف الرب إلى ضمير خطابه ﷺ للعناية والتشريف، وأما اختيار لفظ الرب فهو الذي يُربِّي، والشدة تربِّي كذلك لمن يستحقها، بعد التربية بالتعهد واللين والتجاوز يأتي الأخذ[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٦١.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٩٧).
(٣) تفسير سورة هود، ص٣٦٣.

ت ـ ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾: هذا اللفظ الثاني للأخذ في هذه الآية، وسيمرُّ ثالث، وهذا التكرار لهذه المادة لتقريرها في الذهن بقوة من خلال التكرير.

﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، وهي شرط أيضاً.

﴿أَخَذَ﴾: الأخذ كناية عن العذاب والإهلاك.

﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: أهلها، أي: الأقوام والأمم، أو القرى بمن فيها وساكنيها.

ث ـ ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾: الواو للحال، والجملة الحالية تتكون من مبتدأ وخبر، لكنهما في محل نصب على الحال، وهذه الجملة الحالية لتثبيت العدالة الإلهية، فهو لا يأخذ البريء، وإنما يأخذ القرى الظالمة، والحضارات الظالمة والأمم الظالمة[1].

ج ـ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وفي الآية تحذير عام لكل الأمم والأجيال، ولجميع الأفراد والجماعات، ولا يعتبر بهذه القصص، ويستفيد من دروسها ومواعظها إلا الإنسان الذي يشعر بمسؤوليته عن هذه الحياة، ويُؤمن أنه ما خُلق عبثاً، وأنه مكلَّف مسؤول، مثاب أو معاقب، فالشعور بالمسؤولية مفتاح كل خير وصلاح، والانسلاخ عنها مفتاح كل شرّ وفساد، وقد دأبت الآيات الكريمة في السورة على التركيز على هذا المعنى وإبرازه، وهو التعقيب الثالث على ما تقدم من قصص في السورة[2].

قال الرازي: واعلم أن هذه الآية تدلُّ على أن مَن أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة؛ لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد، ولا ينبغي أن يُظن أن هذه الأحكام مختصَّة بأولئك المتقدمين؛ لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾، فتبيّن أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي،

---

(١) تفسير سورة هود، ص٣٦٣.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/٩٨).

فلا بدّ وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد[١].

وفي هذه الآية دروس وعِبر وفوائد، منها:

ـ الله يُمهل ولكنه لا يُهمل، فيأخذ أخذاً لا يُبقي ولا يذر.

ـ في القصص عبر، والتاريخ الإنساني مليء بالعبر؛ ولكن قلّ من اعتبر.

ـ ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾: ظالمة لنفسها بالشرك والفساد والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح.

ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[٢]، قال: وقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ـ قال القاسمي: فيه إشعار وإعلام بسننه تعالى في أخذ الظالمين التي لا تتبدَّل، وإنذار كل ظالم ظلم نفسه أو غيره من سوء العاقبة.

٨ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]:

إن هذه الآيات التي تُخبر عن الذي حدث للأمم السابقة إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان، وعلى العمل، ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة، ويعتبر بما جاء فيها، وينتفع بالخبرة التي جاءت منها، فهو صاحب بصيرة نافذة، فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ثابتة.

أ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: لمن قدّر مسؤوليته عن أعماله يوم القيامة، وخاف مما فيها من حساب وجزاء؛ فأصلح عمله وسلوكه، والتزم بدين الله.

ب ـ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾: وكلمة مجموع تقتضي وجود «جامع»

---

(١) مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، (١٨/ ٥٩).

(٢) البخاري، رقم (٤٦٨٦).

والمجموع تتناسب مع قدرة الجامع، فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى، ولا يجتمع الخلق يومها من غفلة، بل يجتمعون وكلهم انتباه.

ـ فالحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ـ ويقول سبحانه: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧].

ـ وهنا يقول: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضح المخزي لمن لم يعتبر بالآيات[١].

قال المراغي: إن فيما قصَّه الله من إهلاك أولئك الأمم، وبيان سننه في عاقبة الظالمين، لَحجَّةٌ بينة، وعبرة ظاهرة لمن يخاف عذاب الآخرة، يعتبر بها فيتقي الظلم في الدنيا على سائر ضروبه، إذ يعلم أن من عذّب الظالمين في الدنيا قادر على أن يعذّبهم في الآخرة، وأن ما حاق بهم في دار الفناء أنموذج لما يكون لهم في دار البقاء.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾: أي: ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة، يوم يُجمع له الناس كلهم ليحاسَبوا على ما عملوا، ثم يُوفَّوا جزاءهم بالعدل والقسطاس.

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: وذلك يوم يشهده الخلائق جميعاً من الإنس والجن والملائكة[٢].

وفي الآية دروس وعِبر وفوائد، منها:

ـ لا يستفيد من آيات الله إلا المؤمن.

ـ الإيمان بالآخرة من أعظم أركان الإيمان، واقتصرت آيات القرآن أحياناً على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]:

أ ـ قال ابن كثير: أي: ما نؤخِّر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٦٧٨).
(٢) تفسير المراغي، (١٢/ ٨٤ ـ ٨٥).

وقضاؤه وقدره في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة، إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدَّر خروجُهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٖ ﴾ أي: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها، ولا ينقص منها[١].

ب ـ قال الرازي: واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة، وصف ذلك بوصفين:

أحدهما: أنه يوم مجموع له الناس، والمعنى: أن خلق الله الأولين والآخرين كلّهم يُحشرون في ذلك اليوم ويُجمعون.

والثاني: أنه يوم مشهود، وقال ابن عباس رضي الله عنه: يشهده البرُّ والفاجر، وقال آخرون: يشهده أهل السماء وأهل الأرض.

والمراد من الشهود: الحضور، والمقصود من ذكره أنه ربما وقع في قلب إنسان أنهم لما جُمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه، فبيّن تعالى أن تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة[٢].

وفي الآية دروس وعِبر وفوائد، منها:

ـ آجال الله لا تُؤخَّر ولا تُبدَّل، ولا تُقدَّم ولا تُؤخَّر.

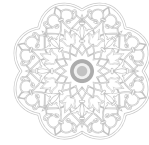
ـ يوم القيامة سماه الله الساعة للدلالة على دقة توقيته.

ـ يوم القيامة يستبطئه المستخفُّ؛ خفيف العقل وسفيه الفكر والفهم، ولو عقل لاستهوله بدل ما استطوله.

ـ الله يمدّ في أجل يوم القيامة، بحسب ما يرى الناس، لتبلغ المدة التي يعلمها الله سبحانه وتعالى وحده[٣].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٢٧٩).
(٢) تفسير الكبير، (١٨/ ٦٠).
(٣) تفسير سورة هود، ص٣٧٠.



المبحث السادس

قصة موسى عليه السلام في سور غافر والزخرف والدخان والنازعات

تستمر قصة موسى كليم الله (عليه السلام) في سور القرآن، وفي كل سورة من سوره تحمل معانيَ وقيماً مختلفة، من المقاومة للمستبدين ومقارعة الفراعنة، ونصرة المستضعفين، وسنتناول في هذا المبحث قصةَ موسى كليم الله (عليه السلام) في سور غافر والزخرف والدخان والنازعات.

أولاً: قصة موسى عليه السلام في سورة غافر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٥٤].

تُسمَّى هذه السورة سورة غافر؛ لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله غافر الذنب وقابل التوب، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنى، وتُسمَّى أيضاً سورة «المؤمن» لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون[١].

وسورة غافر والحواميم السبع مكية، فهي تُعنى بأصول العقيدة كسائر السور المكية؛ لذا جاءت آياتها لإثبات العرش، وإنهاء الصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل، أو فريق الهدى وفريق الضلال، وقد ابتدأت بإعلان تنزيل الكتاب الكريم من الله المتصف بالصفات الحسنى، وهاجمت الكفار الذين يجادلون بالباطل، ثم وصفت مهام ملائكة العرش، وأخبرت عن طلب أهل النار الخروج منها لشدة العذاب، ورفض هذا الطلب، وأقامت الأدلة على وجود الله القادر، وخوّفت من أهوال القيامة، وأنذرت الكفار من شدائد ذلك اليوم.

ثم لفتت الأنظار لموضع العِبرة من إهلاك الأمم العابرة، وهو كُفْرُهم بالآيات البيّنات التي جاؤوا بها، وخصّت بالذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون، وما دار من حوار بين فرعون وقومه وبين رجل من آل فرعون يكتم إيمانه، وما فعله فرعون الطاغية من قتل أبناء بني إسرائيل، واستحياء نسائهم خشية انتشار الإيمان في قومه، وانتهاء القصة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده، ونجاة موسى وقومه جند الإيمان في ذلك العصر، وتلك قضية الإيمان والطغيان.

وقد أردف ذلك بإعلان خذلان الكافرين ونصر الرسل والمؤمنين نصراً مُؤزَّراً في الدنيا والآخرة، وخُتمت القصة بأمر النبيِّ ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر موسى وغيره من أولي العزم، ثم أوردت السورةُ الأدلةَ الكونيةَ على وحدانية الله وقدرته، وضربت المثل للمؤمن بالبصير وللكافر بالأعمى؛ فالمؤمن نيّر القلب والبصيرة بنور الله، والكافر مظلم النفس يعيش في ظلمة الكفر، وأتبعت ذلك ببيان نعم الله على عباده من الأنعام والفلك وغيرها.

---

(١) التفسير المنير، (٢٤/ ٦٨).

وخُتمت السورةُ بما يؤكد الغرضَ المهمَّ منها: وهو الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين، وما يلقونه من أصناف العذاب، ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب، ولكن لا ينفعهم ذلك، فإن سُنَّة الله الثابتة ألا يُقبَل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس(١).

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٧]:

لمّا سلّى الله تعالى رسوله بذكر عاقبة الكفار، الذين كذبوا بالأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم، سلاّه أيضاً بذكر قصة موسى عليه السلام، التي دلّت على أنه مع قوة معجزاته كذّبه فرعون وهامان وقارون، وقالوا عنه: هو ساحر كذاب، ولكن في النهاية تنتصر عليهم. وتلك بشارة لنبينا ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام(٢).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣]:

يقول الله تعالى مسلِّياً لنبيه ﷺ حين كذَّبه قومُه، ومبشِّراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾، والسلطان هو الحجَّة والبرهان(٣).

---

(١) التفسير المنير، (٢٤/ ٧٠).
(٢) التفسير المنير، (٢٤/ ١٠٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ١٢٨).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: هو ملك القِبْط بالديار المصرية.

﴿وَهَٰمَٰنَ﴾: وهو وزيره في مملكته.

﴿وَقَٰرُونَ﴾: وكان أكثرَ الناس في زمانه مالاً وتجارة[١]، وكان قارونُ من بني إسرائيل مع فرعون، وسمع موسى عليه السلام وهو يقول له: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تُعذِّبْهم، وسمعهم وهم يقولون: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه وهم من قومه، وهذا دليلُ الانسلاخ عن قيم الحق والعدل، والتورُّط في الظلم مع النظام الفرعوني الفاسد عقائديّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً، كما أن فرعون كان يهمُّه الولاء المطلق لشخصه، وهذا ما كان من قارون لفرعون.

وقد كان فرعونُ رأسَ الفتنة ومدّعي الألوهية، ومعه وزيره ومساعده هامان، وصاحب خزانته قارون، فكان الثلاثة شركاء؛ لذلك اشتركوا أيضاً في اتهام موسى: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤][٢]، وقد كان فرعون يعتمد على قوة هامان الإدارية، وعلى قوة قارون المالية، ولهذا نصّ على إرسال موسى لهؤلاء الثلاثة الذين كانوا يمثلون أعمدةَ نظام الحكم في مصر، ولما خاطبهم موسى وقدّم لهم الآيات اتهموه بالسحر وبالكذب، اتهموه بأنه ساحر كذاب، ولم يكتفوا بتكذيبه واتهامه، بل تواصَوْا على إيذاء أتباعه[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥]:

وهذا قاطعٌ في أن التهديد بقتل الأبناء واستحياء النساء كان خاصّاً بالذين

---

(١) المصدر نفسه، (٧/ ١٢٨).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٥٣).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ٤٨٤).

آمنوا معه، أما السلوك الشيطانيُّ الأول بذبح الأبناء، واستحياء النساء؛ الذي كان زمن ولادة موسى، فقد انتهى، وصار خاصّاً بالذين آمنوا، وليس هذا استنتاجاً، وإنما هي دلالة الكلام(١).

أ ـ قال ابن كثير: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثانٍ من عند فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما **الأول**: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب، وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما **الأمر الثاني**: فهو إهانة هذا الشعب، وذلك حتى يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم؛ الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل؛ لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال(٢).

ب ـ قال محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥]: نعم كان هذا كيداً من فرعون وأعوانه، لكن هل أنفذ كيده ببني إسرائيل؟ لا بل ردّ الله كيده عليه وباء بالضلال والخسران(٣).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]:

ويبدو من قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٤٤٧٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ١٢٨ ـ ١٢٩).
(٣) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٥٣).

ـ من ناحية أخرى ـ كأن يقال مثلاً: إن القتل لا يُنهي الإشكال، فقد يُوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به، وخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع، وإعلانهم سبب إيمانهم، وهم الذين جيء بهم ليروا عمله ويناوئوه. وقد يكون بعض مستشاري الملك أحسَّ في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له، ويبطش بهم، وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه، ويكون قول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ردّاً على هذا التلويح، وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون كانت تبجُّحاً واستهتاراً لقي جزاءه في نهاية المطاف كما سيجيء، ولعله من الطريف أن نقف أمام حجَّة فرعون في قتل موسى ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضالّ الوثني عن موسى رسول الله عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾؟

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي؟ إنه منطق يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين[1].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]:

فأما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين، والحصن الحصين،

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٧٨).

ولاذ بالجناب الذي يحمي اللائذين، ويُجير المستجيرين، قالها واطمأن وسلَّم أمره إلى المستعلي على كل متكبر، القاهر لكل مُتجبّر، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين، وأشار إلى وحدانية الله ربّه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد، كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب، فما يتكبر متكبر وهو يُؤمن بيوم الحساب، وهو يتصوَّر موقفه يومئذ خاسراً خاشعاً خاضعاً ذليلاً، مجرَّداً من كل قوة، ما له من حميم، ولا شفيع يطاع[1].

أ ـ قال الشنقيطي: ذكر الله ـ جل وعلا ـ في هذه الآية الكريمة أن نبيَّه موسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عاذ بربه، أي: اعتصم به وتمنع من كل متكبر، أي: متصف بالكبر لا يُؤمن بيوم الحساب، أي: لا يُصدِّق بالبعث والجزاء، وسبب عياذ موسى بربه المذكور: أن فرعون قال لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون؛ لأن فرعون لا شك في أنه متكبر لا يُؤمن بيوم الحساب، فهو داخلٌ في الكلام دخولاً أولياً، وهو المقصودُ بالكلام، وما ذكره ـ جل وعلا ـ في آية المؤمن هذه، من عياذة موسى بالله من كل متكبر لا يُؤمن بيوم الحساب كفرعون وأعوانه وقومه، ذكر نحوه في سورة «الدخان» في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠][2].

ب ـ قال الرازي: المعنى أنه لم يأت في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله، واعتمد على فضل الله، لا جرم صانه الله عن كل بلية، وأوصله إلى كل أمنية.

---

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٣٠٧٨).

(٢) أضواء البيان، (٦/ ٣٨٣).

ت ـ واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

الفائدة الأولى : أن لفظة ﴿ إِنِّيٓ ﴾ تدلُّ على التأكيد، فهذا يدلُّ على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس : إنما هو طريق الاعتماد على الله، والتوكُّل على الله تعالى .

الفائدة الثانية : أنه قال : ﴿ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾، فكما أنه عند القراءة يقول المسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجُّه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ المعنى : كأن العبد يقول : إن الله سبحانه هو الذي رباني، وإلى درجات الخير رقّاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعماً لا حدَّ لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله، وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة : أن قوله : ﴿ وَرَبِّكُم ﴾ فيه باعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به من الاستعانة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الظاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدّاً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات .

الفائدة الخامسة : أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل، إلا أنه لا فائدةَ في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل مَنْ كان موصوفاً بتلك الصفة حتى يدخل فيه كل من كان عدوّاً، سواء كان مُظهراً لتلك العداوة، أم كان مخفياً لها .

الفائدة السادسة : أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران :

أحدهما : كون الإنسان متكبراً قاسي القلب .

والثاني: كونه منكراً للبعث والقيامة، وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس، إلا أنه إذا كان مُقِرّاً بالبعث والحساب، صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجري على موجب تكبره. فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلاً، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلاً، فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة السابعة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾، قال على سبيل الاستهزاء ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾، فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين، والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرَّك عني، وسترى ربي كيف يقهرك وكيف يسلِّطني عليك، واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد، علم ألا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء، وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله، والرجوع إلى حفظ الله، والله أعلم[١].

وعن أبي موسى الأشعري: أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»[٢]، وفي هذا الحديث إيماء إلى دواء مَنْ وقع في كيد الأعادي، وترياق من أصابته سموم الأفاعي والحسّاد البواغي، وذلك الاعتصام بحبل الله سبحانه، والركون بالقلب إلى الرب[٣].

وقال أيضاً: وفيه التحصُّن بأسماء الله تعالى، واللوذ به، واللجوء إليه تعالى فيما ينزل بالإنسان مما يُشفِق منه، وأنه لا يُنافي التوكُّل[٤].

---

(١) مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، (٢٧/ ٥٦ ـ ٥٧).
(٢) مسند أحمد، (٤/ ٤١٤ ـ ٤١٥)
(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد البكري الصديقي الشافعي (ت: ١٠٥٧هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٤، ٢٠٠٤م، (٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).
(٤) التدبر والبيان، (٢٩/ ٣٣٤).

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٣٥]:

بعد أن حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع شرِّ فرعون، الذي عزم على قتله، على الاستعاذة بالله، أبان الله تعالى أنّه قيّض له رجلاً من آل فرعون يدافع عنه لتسكين الفتنة وإزالة الشر، واشتمل دفاعه على أمور ثلاثة كبرى، هي:

الأول: استنكار قتل موسى المؤمن بربه، المستضعف مع قومه، في مواجهة قوم فرعون.

الثاني: تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل، وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

الثالث: تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام من تكذيب رسالته ورسالة مَن بعده[1].

---

(١) التفسير المنير، (٢٤/ ١١٢).

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨]:

هذه الآياتُ تُبيِّن أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون وقع الحق في قلبه، ولكنه كتم إيمانه، انتدب يدافع عن موسى، وعمل على دفع القوم عنه، وسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى، وتدسَّس إلى قلوبهم بالنصيحة، وأثار حساسيتها بالتخويف والإقناع، وجال هذا الرجل جولة ضخمة مع المتآمرين من فرعون وملئه، واستخدم منطق الفطرة والعقل والحكمة في حذر ومهارة وقوة كذلك[(١)].

أ ـ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾: أخبر القرآنُ عن مؤمن آل فرعون بأنه ﴿ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾، والوصف بالرجولة هنا وصف تكريم وتشريف، ويراد بالرجولة المعنى المادي والمعنى النفسي.

المعنى المادي: وهو كونه رجلاً، فهو رجل ذَكَرٌ ليقابل الوصف المقابل في الجنس الآخر، يقال: هذا رجل ذكر، وهذه امرأة أنثى.

والمعنى النفسي: وهو كونه يقفُ مواقفَ الرجال، القائمة على قوة الإرادة والعزيمة والهمة والجرأة والشجاعة والإقدام، فهذه المعاني تحتاج إلى رجولة، ولا يقدر عليها كل الذكور، إنما يقدرُ عليها الرجال من الذكور، وكلُّ رجلٍ ذكرٌ لكن ليس كلُّ ذكرٍ رجلاً، فهناك ذكور لا يعرفون معاني الرجولة ولا يقفون مواقف الرجال.

إنه ﴿ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾: والتنوين هنا مقصود، إنه تنوينٌ للتنكير، كما أنه تنوينٌ للإبهام، وهذا الإبهامُ دعوةٌ لنا كيلا نحاول تحديد وتعيين اسمه، وتحديد اسمه لا يقدم فائدة جديدة ولا يضرّ الجهل به، ووصفه القرآن بأنه: ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾:

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٧٩).

وهذا تحديدٌ قرآني لنسبه، وهو ردّ على من يزعم أنه «إسرائيلي»، وكونه من آل فرعون يعني أنه كان من قادة النظام الفرعوني، ومن المقرّبين عند فرعون، والمتنفذين في قومه(١).

ب ـ ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾: وإيمان هذا القائد بموسى عليه السلام شهادة لموسى في نجاحه الدعوي، حيث تمكن من إيصال الدعوة إلى هذا الزعيم الفرعوني، وإقناعه بالدخول في دين الله، كما أن إيمانه شهادة له، فرغم أنه مقرّب عند فرعون إلا أنه فتح قلبه للإيمان وأنواره، فاختار ما عند الله. إن البيئةَ الفرعونيةَ الكافرةَ لم تفسده ولم تطمس على فطرته، إنه آمن بالله وكفر بفرعون، وهذا دليلٌ على جرأته وشجاعته، فهو يعلم من هو فرعون وما هو بطشه وطغيانه، ومع ذلك آمن بالله واستعد لدفع ثمن هذا الموقف.

وقد أخبر القرآنُ أن هذا الرجل كان ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، ويشير هذا إلى أن دعوة موسى في بعض مراحلها كانتْ سرية، وأن بعضَ المؤمنين به كانوا «سريّين» يكتمون إيمانهم.

لقد كانت دعوةُ موسى عليه السلام تأخذ جانبين:

الأول: الجانب العلني: وهو المتمثلُ في إمام الدعوة موسى عليه السلام، حيث كان يتحرك تحركاً علنيّاً، ويدعو ويحاور ويناقش، فقد قابل فرعون، وكانت المباراةُ في يوم الزينة بينه وبين السحرة، وتحدّث مع الملأ من قوم فرعون.

الثاني: الجانب السري: حيث كان بعضُهم يومنون به ويكتمون إيمانهم، وقد عرفنا ثلاثة من هؤلاء كانوا مقرَّبين من فرعون:

١ ـ امرأة فرعون.

٢ ـ والذي أخبر موسى عن ائتمار الملأ به لقتله، وهناك من العلماء من يقول: إنه مؤمن آل فرعون نفسه.

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٧٩).

٣ـ ومؤمن آل فرعون.

إن كَتْمَ هؤلاء وغيرهم لإيمانهم دليل على جواز كتمان إيمان بعض المؤمنين في بعض الحالات الخاصة، وعلى جواز سرية الدعوة في بعض الظروف والأجواء، فإذا ما أسرّ بعض الدعاة دعوتهم، وإذا ما كتم بعضُهم انتماءهم فلا بدَّ أن يعلن آخرون إيمانهم، وأن يُظهروا دعوتهم، ليعرف الناس الدعوة من خلال بعض «رموزها» وقادتها، فيقتدوا بهم، ويستعد هؤلاء المجاهدون لدفع الثمن الباهظ المترتب على ذلك. ففي قصة مؤمن آل فرعون كان موسى عليه السلام يجهر بإعلان دعوته، وإظهار إيمانه، بينما كان مؤمنُ آل فرعون يكتم إيمانه[١].

ومع أن هذا الرجل المؤمن كان يكتم إيمانه، إلا أنه اضطر الآن إلى إظهار إيمانه. إن حياة موسى عليه السلام في خطر، وإن فرعون يريد أن يقتله، ولا يمكن لهذا القائد الفرعوني أن يحولَ دون ذلك إلا بإظهار إيمانه، وإذا أظهر إيمانه سيكشف أوراقه أمام فرعون، فماذا يفعل؟ هل يبقى كاتماً لإيمانه حريصاً على مركزه ومنصبه ولو قُتل موسى فعليه رحمة الله؟ أم يقوم بواجبه وينتصر لموسى عليه السلام، ويدافع عنه، ويظهر إيمانه، وليكن بعد ذلك ما يكون؟

أخذ بالخيار الثاني المتفق مع إيمانه ورجولته وشجاعته، وقدَّم مصلحة الدعوة على مصلحته هو، بل إن مصلحته هو لا تكون إلا مع مصلحة الدعوة، وهذا درسٌ بليغٌ للدعاة في وجوب تقديم مصلحة الدعوة على مصالحهم الشخصية المادية، وفي وجوب التضحية بالمنافع الشخصية من أجل دعوتهم ودينهم. وعندما اضطر مؤمن آل فرعون للدفاع عن موسى عليه السلام والوقوف أمام فرعون، خطا خطواتٍ منهجيةً في غاية الحكمة والترتيب والتخطيط، وقدّم «بياناً» دعويّاً حكيماً، وتمكَّن من إحراج فرعون وهزيمته، وأقام الحجَّةَ عليه وعلى قومه، وكان في ذلك كله ناجحاً نجاحاً كبيراً، فقد أنكر الرجلُ على قومه

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٤٩١).

القتل، وبيّن أنه لا ذنب لموسى إلا إيمانه بالله، وهذا ليس ذنباً[١].

ت ـ ﴿أَنَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾: فهل هذه الكلمة البريئة المُتعلِّقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل، ويردّ عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة[٢]، فتقدير الكلام بالإنكار عليهم في قتله واستقباحه لأمرين:

أما أولًا؛ فلأنه قائل بالتوحيد لله عزّ وجل.

وأما ثانياً؛ فلأنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحة في هدايتكم للخير[٣].

وربما كان الإنكار بطريق الاستفهام في هذا السياق ألطف وقعاً على معاند متجبر من صيغة النهي، بما تُوجبه حقيقته من إلزام واستعلاء، قد يؤدي إلى النفور[٤].

إيثار التعبير بالنكرة: ﴿رَجُلًا﴾، ليدلَّ على عظمة موسى عليه السلام في الرجال حسّاً ومعنى، وقد ذكر البلاغيّون أن من أعراض التنكير: التعظيم والتهويل والتكثير لتليين قلوب المخاطبين واستدراجهم إلى الاعتراف بشناعة الفعلة، والنظر إلى الموقف بمعزل عن الأشخاص، ليكون الحكم أقرب إلى الإنصاف والموضوعية[٥].

وتعليل موجب قتلهم موسى عليه السلام بما ينافيه، لمزيد من التشنيع والإنكار لفعلة الإقدام على قتل نفس محرّمة لأجل كلمة حقّ هي قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وذلك لأنه ما زاد على أن قال: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وجاء بالبينات، وذلك لا يُوجب القتلَ البتّة[٦].

---

(١) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٢١٧.

(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٧٩).

(٣) بلاغة الاحتجاج العقلي، ص٢١٧.

(٤) المصدر السابق، ص٢١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢١٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٢١٨.

وإضافة الربوبية إلى ضمير المتكلم المحكيّ عن موسى عليه السلام ﴿رَبِّيَ﴾، دون ضمير المخاطبينَ إمعاناً في استدراجهم إلى النظر في الأمر، وأنه لازال يتعلَّق بالمتكلم وحده، والقصر بتعريف الطرفين: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فيكون المعنى: لا ربّ لي إلا الله سبحانه وتعالى، وفيه تعريض بمن اتخذ فرعون ربّاً مع أنه عبد حقير(١)، كما أن فيه دلالة على أن فرعون لم يسعَ إلى قتله إلا انتصاراً لنفسه، ودفاعاً عن ملكه وبغيه.

وقد ذكّرهم بأن موسى عليه السلام جاء بكلمة الحق، ومعه بيّنات ومعجزات لصدقه يصعب أن يماروا فيها، فقد عهدوها وشهدوها، وعمّتهم آثارها النافعة من عند ربهم لا ربّه وحده، وبذلك خطا بهم خطوة أخرى لبيان سمة أخرى تستدعي التفكير في قرارهم، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف لتلبيس قلوبهم، وكسر إرادتهم(٢).

ث ـ ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾: لأن بيَّنته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله، فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يردُّه، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحلُّ قتله إذا ظهرتم عليه بالحجَّة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجَّته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حِلِّ قتله مفاوز تنقطع بها أعناق كثيرة(٣).

وفي قوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾: إضافة صفة الربوبية إلى ضمير المخاطبين ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ بعد ذكر البيّنات بعد أن هيّأ نفوسهم للقبول، في حين كانت البداية بإضافتها إلى ضمير المتكلم المحكيّ عن موسى ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ففي الإضافة إلى ضمير المخاطبين استنزال لهم عن المكابرة، استدراجاً إلى الاعتراف بالله ربّاً لهم، وليس لموسى عليه السلام وحده، فهو ربهم لا إحسان عندهم إلا منه،

(١) المصدر نفسه، ص٢١٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٩.
(٣) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٤٧).

فكما أن ربوبيته لموسى عليه السلام اقتضت منه الاعتراف، ينبغي أن تكون ربوبيته لهم داعية إلى ذلك، ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل بأي حالة قدرت.

ج ـ ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾: أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه. وإن كان صادقاً، وقد جاءكم بالبينات وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذَّبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لابد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وهو عذاب الدنيا. وهذا من حسن عقله ولطف دفعه عن موسى عليه السلام، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم[١].

ونلاحظ أن مؤمن آل فرعون سلك مع قومه مسلكاً في منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام[٢]، وبنى كلامه على مسلّمة أن كل إنسان يتحمَّل تبعةَ عمله، ويجني عاقبته، وتتآزر اللطائف البيانية فيها لإبراز بلاغة الحجَّة، ودعم أسلوب الاستدراج، ثم انتقل بعد ذلك إلى التهديد من طرف خفي، وانتقل إلى أمر أعلى، منتهزاً سانحة التقسيم والحديث عن موسى؛ ليقول كلاماً يحتمل الوعد والوعيد بطريق الإنصاف، فينطبق على موسى عليه السلام كما ينطبق على قومه[٣].

ح ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾: ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل.

﴿كَذَّابٞ﴾: بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق

---

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٤٧).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٧٩).
(٣) بلاغة الاحتجاج العقلي، ص٢٢٠.

الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفقه للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه[١].

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾: وهذا عام وأن الكذاب من أهل الضلالة وليس من أهل الهدى، وهذا ينطبق على كل مسرف كذاب، وليس ذمّاً في أحد، ولكن فيه معنى آخر هو أن الذي جاء بالبينات من ربّه هو مهتدٍ؛ لأن القاعدة أن الله لا يهدي من جمع هاتين الخسيستين؛ الإسراف الذي منه التهديد بالقتل، والكذب الذي منه أن يظهر في الأرض الفساد، وهو بهذا فرغ من بيان الموقف الذي يوجبه العقل مع موسى عليه السلام. وذكرت أن بعض المفسرين ذهبوا إليه أنه هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ويقول لموسى عليه السلام: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، وربما كان من الذين أَلِفُوا موسى وأَلِفَهم في بيت فرعون، وهذا شيء آخر، وإنما نحن الآن مع رجل مؤمن يدافع عن الإيمان وعن الذي جاء بالبينات من ربه، وهو مع موسى عليه السلام يشبه سيدنا أبا بكر مع سيدنا رسول الله ﷺ؛ مؤمن ومحب[٢].

ـ مقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق رضي الله عنه:

وقد لاحظ الإمام البخاري ذلك في كتاب التفسير من صحيحه في باب تفسير سورة المؤمن، وأورد حديثاً بيّن فيه موقف أبي بكر رضي الله عنه في الدفاع عن رسول الله ﷺ، فروى بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينما رسول الله ﷺ يُصلِّي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعيط، فأخذ بمنكب

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٤٧).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد أبو موسى، ص٤٧٩.

رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (١).

وقد فضَّل عليٌّ بن أبي طالب أبا بكر على مؤمن آل فرعون رضي الله عنهم، فقد خطب ذات يوم في الناس فقال: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما أني ما بارزني أحد إلا انتصفتُ منه، ولكن أشجع الناس هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحدٌ من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحدٌ إلا أبو بكر، شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، فهذا أشجع النَّاس! ثم قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وقد أخذته قريش، فهذا يحادّه وهذا يتلتله ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟! فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا ويجاهد هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم ردّ عليٌّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله: أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم، فقال علي: فو الله لساعة مع أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه(٢). وممن كتم إيمانه وقام بمهام خاصة بتوجيه رسول الله وموافقته كل من:

ـ **نُعيم بن مسعود**: لما أسلم وكتم إيمانه، وأوقع بالخديعة بين قريش وغطفان من جهة، وبين يهود بني قريظة، فقد استخدم النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فقد كان يعلم أن هناك تصدُّعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يُبرزه ويُوسِّع شقته ويستعمله في جانبه، فقد أطمع غطفان في ثمار المدينة ففكَّك عزمها، والآن ساق المولى عزّ وجل نعيم بن مسعود

(١) البخاري، رقم ٤٨١٥، كتاب التفسير.

(٢) البداية والنهاية، الإمام أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد، دمشق، دار ابن كثير، ط٦، ٢٠٢١م، (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

الغطفاني إلى رسول الله ليعلن إسلامه ويقول له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل فخذِّلْ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»، فقام نُعيم يزرع الشك بين الأطراف، وذلك بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتهم إلى صلحهم. وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتثبيط عزمهم، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس الآتية:

* أنه أخفى إسلامه على كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

* أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إذا هم استمروا في حربهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم، وقلب مخططاتهم العدوانية.

* أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قاله، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[1].

إن نعيم بن مسعود الغطفاني كتم إيمانه عن القوم الذين كانت تربطه بهم علاقة متينة قبل إسلامه؛ فذلك ساعده على النجاح في مهمته الخطيرة، التي ساهمت في فك الحصار عن المدينة في غزوة الأحزاب.

وممن كتم إيمانه بمكة، وقام بمهام خاصة: عمّ النبي ﷺ **العباس بن عبد المطلب** رضي الله عنه، فلا شك في أنه قد آمن برسول الله؛ لأنه ساعة أخذ العهد لرسول الله في بيعة العقبة الثانية، وكان لم يعلن إسلامه بعد، ذهب للأنصار

(١) السيرة النبوية، علي الصلابي، المرجع السابق، (٢/ ٢٢٠).

وقال: هذا محمد في منعة من قومه، فإن شئتم أن تأخذوه، فعاهِدوا على كذا وكذا، وإلا فاتركوه، فكيف يأخذ العهد لرسول الله وهو ما يزال على دين قريش[١]؟

وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عينَ رسول الله ﷺ بمكة، يرقب تحركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحركت في غزوة أحد بجيشها إلى المدينة، بعث العباس رسالة عاجلة إلى النبي ﷺ ضمّنها جميع تفصيلات الجيش، وأسرع رسولُ العباس بإبلاغ الرسالة وجدّ في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة ـ التي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً ـ في ثلاثة أيام، وسلّم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء[٢].

كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمّه العباس، قال ابن عبد البر: وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوّون بمكة، وكان يحبّ أن يَقدُم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: أنَّ مقامك في مكة خير[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]:

وبعد أن خاطب مؤمن آل فرعون عقول قومه بموضوعية، استثار مصالحهم الدنيوية، ولمسهم لمسة مادية، فقال لهم:

أ ـ ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾:

ذكَّرهم بملكهم وسلطانهم ورفاهيتهم في حياتهم، وحذّرهم من الإقدام

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٦٤).

(٢) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (ت: ١٤٢٧هـ)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٧م، ص٢٥٠.

(٣) الاستيعاب في معرفة الاصحاب، ابن عبد البر القرطبي المالكي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م، (٢/ ٨١٢).

على قتل موسى بطريق غير مباشر، وكأنه يقول لهم: اليوم لكم الملك، وأنتم ظاهرون في الأرض، منعَّمون فيها، فإذا قتلتم موسى وكان صادقاً في أنه نبي ورسول الله، فماذا سيفعل الله بكم؟ إنه سينتصر لنبيه، ويوقع بكم بأسه وعذابه، فهل تقدرون على دفع العذاب عنكم؟ إنه لا يوجد أحد ينصرنا من بأس الله. ونلاحظ في كلمات هذا الداعية الحكيم أنه لم يوجّه كلامه لفرعون، وإنما وجّه كلامه للقوم، ولعلّ من أهدافه في ذلك ألا يبدأ «بيانه» في احتكاك مباشر مع فرعون، حتى لا يثيره، والأهم من هذا أنه يريد أن يؤثر في القوم، وأن يكسبهم إلى جانبه، فهم المقصودون في كلامه.

وكان قاصداً «تجاهل» فرعون وعدم مخاطبته؛ لأنه لا يطمع في تغيير موقفه وكسبه إلى جانبه. ومن حرصه على التقرب إلى قومه، أشرك نفسه معهم في دفع ثمن قتل موسى، واستقبال عذاب الله والعجز عن دفعه، وذلك في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَآۚ﴾ يقول لهم: إنما أنا واحد منكم، مصيرنا جميعاً واحد، فلنفكر معاً كيف نبتعد عن بأس الله وعذابه؟[1].

وفي قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: تحبُّب وتقرُّب إلى قومه، وهذه الآية فيها فقه سياسي، وفي مجيئها بعد الآية التي قبلها دلالة على معنى جديد؛ لأن التي قبلها هي الرفض القاطع لإنكار البينات؛ لأن البديل لإنكار البينات هو الظلم، وأنَّ الحصن الحصين الذي يحمي الملك هو الحق والعدل والانقياد للبينة؛ لأن البينة معنى عام قد تكون في الدين، وقد تكون في العلم، وقد تكون في السياسة، ومن حصانة الملك ومن حمايته: العدل والحق والإنصاف. إن مؤمن آل فرعون حذّر قومه من خطورة الظلم المتمثل في إنكار البينات، وأن نتيجة الظلم وإنكار البينة ضياع هذا الملك؛ لأن الله لا يترك الطاغين، وإنما يُنزل بهم بأسَه، وإذا نزل بنا بأس الله فلن نجد عليه نصيراً[2].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٤٩٤).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٤٧٩.

لقد بيّن مؤمن آل فرعون لقومه بأن الله أنعم عليكم بهذا الملك، والظهور في أرض مصر بالكلمة النافذة، والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله عليه السلام، واحذروا نقمة الله إن كذَّبتم رسوله، وأن هذه الجنود والعساكر لا تغني عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء(١).

إن الرجل المؤمن يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض، فهم أحق الناس بأن يحذروه، وأجدر الناس بأن يُحِسُّوه ويتقوه وأن يبيتوا منه على وجل، فهو يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، ومن ثمّ يذكرهم بما هم فيه من الملك والسلطان، ثم هو يُجمِل نفسه فيهم، ويُذكِّرهم ببأس الله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَآۚ﴾ ليشعرهم أن أمرهم يهمُّه، فهو واحد منهم ينتظر مصيره معهم، وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم. لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص، وهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه، ولا مجير عليه، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف(٢).

لقد استخدم مؤمن آل فرعون المنهج العقلي في خطابه لقومه في الآية السابقة، وفي هذه الآية وظف المنهج العاطفي في أسلوب مميز تحت جناح عاطفة القرابة الحميمة، حيث جمع فيها مؤثرات نفسية، ومؤثرات قيمية، ومؤثرات حضارية، ومؤثرات عقدية، وكل هذه المؤثرات تجذب وتستدرُّ العاطفة؛ لأنها تجمع التقارب بين الداعي والمدعو(٣).

ومن المؤثرات التي استعملها في خطابه أيضاً: المؤثر الحضاري المتمثل في نعمة الملك ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فخوَّفهم من انتزاعه

---

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المصدر السابق، (٢٩/ ٣٤٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٧٩)، وما بعدها.
(٣) مؤمن آل فرعون؛ دراسة دعوية تحليلية، بشير علي أحمد الخياط، رسالة دكتوراه، السودان، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم درمان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٣٤٠.

منهم لو أنهم تعرضوا لقتل موسى، والتخويف في حدّ ذاته من أساليب التأثير العاطفي(١). وكان فرعون حاضراً المشهد، واستمع إلى كلمات الرجل المؤمن، وأدرك فرعون أثرها على القوم، وخشي أن ينجح المؤمن في التأثير فيهم وكسبهم إليه، فاضطر فرعون إلى التدخل والتصريح بأن الحق لا يكون إلا معه؛ ولهذا خاطبهم بمنتهى الاستعلاء والتكبُّر(٢).

ب ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

قال ابن كثير: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه رادّاً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أقول لكم، وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي؛ وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقَّق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشَّهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] (٣).

قال الشنقيطي: وهذان الأمران اللذان ذكر الله تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة، قد بيّن في آيات أُخَر أن فرعون كاذب في كل واحد منهما.

أما الأول منهما وهو قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في

---

(١) مؤمن آل فرعون؛ دراسة دعوية تحليلية، الخياط، المرجع السابق، ص ٣٤٢.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٩٤).
(٣) تفسير ابن كثير، (٧/ ١٣١ ـ ١٣٢).

آيات من كتابه، وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاءه بها موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا الله، وأنه جحدها هو ومن استيقنها معه من قومه، ليستخفُّوا بها عقول الجهلة منهم، كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٢ ـ ١٤]، فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وكقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

فقول نبي الله موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدل دلالة قاطعة على أن فرعون كان عالماً بحقيقة الألوهية الربانية، بدليل تأكيد الكلام بالقسم. وقد دلَّ أيضاً على أنه كاذب في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وكان غرض فرعون بهذا الكذب التدليس والتمويه، ليظن جهلة قومه أن معه الحق كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وأما الأمر الثاني وهو قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فقد بيَّن كذبه فيه في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [(١)].

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: لاحظ منطق التسلط في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، ومنطق التزييف في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، لكن هذا من فرعون لم يمنع الرجل المؤمن أن يستمر في دعوته، ولم يصدّه أن ينصح قومه[(٢)]، فقد كان يرى أن عليه أن يحذر وينصح ويبدي من الرأي ما يراه،

(١) أضواء البيان، (٦/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٦٩).

ويرى أن من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده، كائناً ما كان رأي الطغاة، ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين قلوبهم على مصارع الأحزاب قبلهم، وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٠ـ٣٣]:

لم يلتفت الرجل المؤمن لفرعون، بل استمر في تجاهله له، واستمر في توجيه كلامه للقوم مستخدماً لحقائق التاريخ:

أ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [غافر: ٣٠] أي: إني أخاف أن ينزل بكم مثلما نزل بالأمم المكذبة[٢].

ب ـ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حلَّ بهم بأس الله وما ردَّه عنهم رادٌّ، ولا صدَّه عنهم صادّ[٣].

لقد لمس الرجل المؤمن قلوب قومه لمسة تاريخية، حيث ذكّرهم بمن كان قبلهم من الأحزاب والأقوام الكافرة، ودعاهم إلى التفكير بما جرى لهم، فلعلّ ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم، إنه يصارحهم بخوفه عليهم من أن يعذِّبهم الله، كما عذّب قوم نوح وعاد والذين من بعدهم، وما عليهم إلا أن يُؤمنوا بالله لئلا يُصيبهم ما أصابهم[٤].

وقد استخدم مؤمن آل فرعون علم التاريخ ومعرفته بتاريخ النبوات في

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٨٠).
(٢) التفسير الموضوعي، (٧/ ١٣٢).
(٣) تفسير ابن كثير، (٧/ ١٣٢).
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٤٩٦).

تحذيره ونصحه لقومه، وبيَّن لهم ما حلّ بالأمم التي رفضت البينات، وأن الله أغرق قوم نوح وأهلك عاداً بريح صرصر، وأهلك ثمود بالطاغية، وأن قوم فرعون لهم ثقافة دينية فذكرهم بها، ثم إن العلم بدأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم هو الذي يفتح باب قلوبهم للآية الجليلة(١).

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾: وأنهم كانوا ظالمين لما رفضوا الآيات، وظلموا الناس الذين حالوا بينهم وبين الآيات، وظلموا أنفسهم(٢).

لقد بيَّن الله عزّ وجل على لسان مؤمن آل فرعون أنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره(٣).

والآية فيها إشارة إلى سنة من سنن الله الثابتة وإلى عدله المطلق ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: لا يعذِّبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جُرمٍ أسلفوه(٤)، وهذا يعني أن تدميرهم كان عدلاً؛ لأنهم استحقّوه بأعمالهم، وسنة الله مطَّردة في هلاك الأمم الظالمة عدلاً منه(٥).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ يعني: أن عذاب الله ليس بمقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر على أولئك الظلمة السابقين؛ لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم بيّن أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم، التي أدت إلى هلاكهم، فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذير من وخامة الظلم، فلا يغترَّ الظالم بالإمهال. وبالعودة إلى منطق الرجل يُلحظ أن الظلم في قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ نكرة ورد في سياق النفي،

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٤٨٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٨٣.
(٣) تفسير ابن كثير، (٧/ ١٣٢).
(٤) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢١١.
(٥) المصدر نفسه، ص٢١٢.

والنكرة في سياق النفي تدلُّ على العموم، وهذا إثبات لعدل الله المطلق الذي لا يماري فيه عاقل، وهذا الأسلوب فيه ترهيب، وفيه تطمين ودعوة(١).

ت ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]: وبعد أن لفت أنظارهم إلى الماضي انتقل بهم إلى المستقبل، إلى الآخرة التي هم مقدمون عليها، وصوّر لهم بعض ما ينتظرهم هناك من عذاب(٢).

وفي ذلك اليوم ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحابُ الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحابُ الجنة على أصحاب النار، وأصحابُ النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ تُلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا وهناك، وتصور يوم زحام وخصام(٣).

قال السعدي: لمّا خوَّفهم العقوبات الدنيوية، خوَّفهم العقوبات الأخروية فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أي: يوم القيامة حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ [الأعراف: ٤٤] إلى آخر الآيات.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وحين ينادي أهل النار مالكاً ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] وحين يقال للمشركين: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [القصص: ٦٤]، فخوَّفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجَّع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك(٤).

---

(١) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢١٢.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٩٦).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٨٠).
(٤) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٤٩).

ث ـ ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٣]:

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾: بأسلوب الترهيب التصويري، لينقلهم إلى الآخرة في مشهد حي، يصورهم وهم فارّون مدبرون، يطلبون النجاة والسلامة، ويتطلعون إلى أي منقذ ينقذهم فلا يجدون، في حين أن «صورة الفزع والفرار» هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان، أعداء الدعوة والإيمان(١).

ـ ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾: لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه أحد: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٩ ـ ١٠] (٢).

ج ـ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾: لأن الهدى بيد الله، فإذا منع عبده الهدى؛ لعلمه أنه غير لائق به لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته(٣)، وبعد أن لفت مؤمن آل فرعون نظر قومه إلى المصير الأخروي، وما فيه من إيحاء بفساد ما هم عليه، عقّب على ذلك بذكر سُنَّة من سُنَن الله تتعلق بالهدى والضلال(٤).

فجملة ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ ﴾ معناها بعيد الغور، وسياقها في كلام هذا الصادق الذي لا يكذب قومه، يدلُّ على بُعد غورها، وأن مؤمن آل فرعون على درجة من الثقافة الدينية عالية، وعلى استيعاب كبير لأصول دعوة الأنبياء والمرسلين، وإيمان بها حقيقي، وقناعة راسخة بدعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقد بيّن في حديثه الماضي مجموعة من سنن الله الجارية.

---

(١) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢١٣.
(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٤٩).
(٣) تفسير السعدي، المصدر نفسه، (٤/ ١٥٤٩).
(٤) مؤمن آل فرعون، الخياط، ص٢١٥.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ .

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ .

وفي هذه الآية ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ حقيقة راسخة عند كل الموحدين وفي كل النبوات، والرجل المؤمن من آل فرعون يقولها وهو يدعو قومه إلى الهدى لأنه يعلم أن اليقين بأن من يضلل الله فما له من هاد، لا يمنعنا أن ندعو إلى الهدى، أولاً: لأننا لا نعرف من الذي أضلّه الله، ولأن الله علّمنا أن من طلب الهدى هداه الله، وأن من أناب إليه سبحانه فتح له باب رحمته، وأن الذي يضله الله وليس له هاد يهديه هو من رفض الهدى، ورفض البينة والبرهان، ورفض الحق وأصرّ على الباطل، هذا بعد بيان هذه السنة الربانية، فلا يجوز للضال أن يقول: لو هداني الله لاهتديت، لأنك لا تعلم الغيب الذي هو علم الله، ولأن الله وعد، ووعده الحق، أن من مدّ يديه إلى الله لا يردُّهما الله صفراً حتى يضع فيهما خيراً، وأن من تاب الله عليه، وأن من ذكر الله ذكره الله، وأن من سعى إلى الله شبراً سعى نحوه ذراعاً، وأن أعظمَ من الذنب أن تيأس من مغفرة الله للذنب، كل هذا وغيره مفهوم من قوله: ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ التي قالها مؤمن آل فرعون[1] .

ولعل في الآية إشارةً خفية إلى قول فرعون: ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وتلميحاً بأن الهدى هدى الله، وأن من أضله الله فلا هادي له، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحقّ الهدى ومن يستحقّ الضلال[2] .

وبعد هذا ذكَّر مؤمن آل فرعون قومه بموقفهم من يوسف ومن ذريته، وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات، فلا يكرروا الموقف الرافض ذاته مع موسى وهو يصدق ما جاءهم به يوسف، فكانوا منه في شك وارتياب، ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً، وها هو ذا

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٤٨٦.
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٨٠).

موسى يجيء على فترة من يوسف، ويُكذِّب هذا المقال[١].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]:

أ ـ قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحات من حجج الله.

وقوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يقول: فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به يوسف من عند ربكم غير موقني القلوب بحقيقته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ يقول: حتى إذا مات يوسف قلتم أيها القوم: لن يبعث الله من بعد يوسف إليكم رسولاً بالدعاء إلى الحق.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، يقول: هكذا يصدُّ الله عن إصابة الحق وقصد السبيل من هو كافر به مرتاب، شاكّ في حقيقة أخبار رسله[٢].

ب ـ قال السعدي: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب عليه السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في حياته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شكّكم، وشرككم.

﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليقُ بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سُدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرسل إليهم رسله، والظن أن الله لا يرسل رسولاً ظنّ ضلال؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٨١).

(٢) تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، الطبري، (٢٤/ ٦٣).

وصفوا به موسى ظلماً وعلوّاً، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق، وعُدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكَذَبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله وكذّبوا رسوله، فالذي وَصْفُه السرف والكذب لا ينفك عنهما، لا يهديه الله ولا يُوفِّقه للخير؛ لأنه ردَّ الحقَّ بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥]:

لما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ ذكر وصف المسرف المرتاب فقال:

أ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بيَّنت الحق من الباطل، وصارت ـ من ظهورها ـ بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها.

ب ـ ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ أي: بغير حُجَّة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه مُعارِض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلاً.

ت ـ ﴿كَبُرَ﴾: ذلك القول المتضمن لردّ الحق بالباطل.

ث ـ ﴿مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾: فالله أشدُّ بُغضاً لصاحب الباطل؛ لأنه تضمَّن التكذيب بالحق، والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغضُ الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشدَّ المقت، وهؤلاء خواصّ خلق الله تعالى، فمقتُهم دليلٌ على شناعة مَنْ مقتوه.

---

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٤٩).

ج ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون.

ح ـ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: متكبر في نفسه على الحق بردّه، وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه[١].

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾: السلطان: معناه الحجَّة والبرهان، وليس هناك جدال في آيات الله بسلطان؛ لأن آيات الله حجَّة وبرهان وسلطان فوق كل حُجَّة، فوق كل برهان، وفوق كل سلطان، ووجه ذِكْر هذا القيد هو إعظام وإكرام وتنويه بالبرهان والحجَّة[٢]، والحجَّة والبرهان أصل الحق والعدل على هذه الأرض، والقرآن الكريم يُعوِّل كثيراً عليها، وأن الأصلَ في صلاح وإصلاح حياة أي شعب هو الانقياد والتسليم للحجَّة والبينة.

والحامي للحجَّة والبرهان في الشعوب هو القضاء العادل؛ الذي ليس عليه سلطان إلا سلطان الحجَّة والبرهان، فإذا تخلّى القضاء عن ذلك لم يعد قضاء، وتحوّلت حياة الشعوب إلى جحيم وغابة يأكل كبارُها صغارَها، والأنظمة الراشدة لا تحرصُ على شيء كحرصها على نزاهة القضاء فيها، وتعدُّه من أكبر مفاخرها، وإذا رأيتَ القضاء في أي بلد تحت الظلم، فاعلم أنه تسلَّل إلى سدّة الحكم من ليس من أهلها، وأُسند الأمر إلى غير أهله، وسيدنا رسول الله قال لنا: «إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». وليس المقصود أن تكون الساعة هي القيامة، وإنما يمكن أن تكون ساعة الشعب الذي أُسند فيه الأمر إلى غير أهله، وأنه في طريقه إلى الفناء وإن بقي حيّاً يأكل ويشرب[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وفاعل كبُر ضمير يعود على الجدال المفهوم من (يجادلون).

---

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥٠).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٤٨٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٩٠.

و﴿مَقْتًا﴾ تمييز، والمقت أشد الغضب، والتعبير بالاسم الموصول يشير إلى أن هناك ناساً معروفين بالجدال في آيات الله، وهم ذاتهم في زمن فرعون وفي زماننا وفي كل زمان، والجدال في آيات الله يورث مقت الله، وهو أشد الغضب، وكلمة ﴿كَبُرَ﴾ تعني أنه ليس مقتاً فحسب، وإنما هو مما يقال فيه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

وعطفُ ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أولاً فيه تكريم للذين آمنوا، ثم فيه أن الذي يُغضب الله أشدَّ الغضب، يُغضب الذين آمنوا أشدَّ الغضب، وأننا نكره من يكرههم الله، ونعادي من يعاديهم، ونحب من أحبهم الله، وإذا كان الحب في الله هو أصدق الحب، فإن الكره في الله هو أصدق الكره، وأننا مع الله نحب من أحب، ونكره من يكره. ولاحِظْ أن هذا كلام ابن عم فرعون، وكان فرعون من أشد المجادلين في آيات الله، وأن هذا المؤمن يخاطب قومه بهذا الخطاب البيّن الواضح، والرجل اتسع فقهه، واتسع علمه[1]، واستوعب دعوةَ موسى عليه السلام وطريق الأنبياء والمرسلين، وآمن بالله ربّاً، وبموسى عليه السلام نبيّاً ورسولاً.

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾:

كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تكثر في كلام الله أكثر من أي كلام آخر؛ لأنه تشبيه وقياس، القياس له شأن في دين الله، والكاف أداة تشبيه كما قلت، وكما هو معروف، والمهم تحديد المشار إليه، وهو هنا الجدال في آيات الله، وما يفضي إليه من كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، بطبع الله، والقلب الذي يطبع الله عليه فلا يصل إليه حق، مثل القلب الذي يختم الله عليه، وإنما يطبع ربنا ويختم على قلوب الذين كفروا، والذين يستوي عندهم الإنذار وعدمه والنصح وعدمه، وهذا معناه أن الجدال في آيات الله من الطبع على القلوب التي لا ينفذ إليها حق.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: الكليّة في الآية داخلة على

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٤٨٩.

القلوب، التي هي موضع الطبع، وأن هذه القلوب التي هي موضع الطبع مضافة إلى متكبر موصوف بأنه جبار، وهذا يعني أنك لا تجد متكبراً جباراً إلا وقد طُبع على قلبه، وأن الفهم والإدراك الصحيح لا يصل إلى قلب متكبر، وقد فُسِّر المتكبر هنا بأنه المتكبر على الحق، والجبار بالجبار في العصيان، وهذا هو النموذج المجادل في آيات الله. ولا شك في أن الذين يقولون: إن سماع سليمان لكلام النملة من الأساطير، هم من الذين يجادلون في آيات الله، وهم من الذين طبع الله على قلوبهم، وإن كانوا يُوصفون بأنهم مثقفون جدّاً ومتنوِّرون، ونخبة[1].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦ـ٣٧]:

بعد وصف فرعون بأنه متكبر جبار، أخبر الله تعالى عن عتوِّه وتمرُّده وافترائه في تكذيب موسى عليه السلام، حتى بلغ به الأمر أن أمر وزيره ببناء قصرٍ عال منيف شاهق من الآجر، ليصعد به إلى السماء للاطلاع إلى إله موسى؛ قاصداً بذلك التحدي والتمويه والاستهزاء بموسى وإنكار رسالته[2]، توجَّه فرعون إلى وزيره هامان، وطلب منه بناء صرح له ليبحث عن إله موسى في السماء.

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦].

أ ـ ﴿هَامَٰنُ﴾: وزير فرعون، وهو شخصية متصلة باسم فرعون ومقرَّبة منه، وهو الذي أسند إليه فرعون بناء الصرح.

ب ـ ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾: قال الإمام الراغب عن الصرح: بيت عالٍ مزوّق، سُمِّي

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٤٩١.
(٢) التفسير المنير، (٢٤/ ١٢٢).

بذلك لكونه صرحاً خالصاً[١]، أي: أن أساس معنى «الصرح» في اللغة هو الخالص الصافي الخالي من الشوائب والأشياء الغريبة، وسُمِّي البناء العالي صرحاً لأنه قوي متماسك متين، وهذا دليل على خلوصه من الشوائب، فلو كان مخلوطاً بها لما كان ثابتاً، وقد فصّلت سورة القصص مادة بناء الصرح ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾، لقد كان الصرح مصنوعاً من «اللّبن» أو الطوب، وهو المصنوع من الطين، وبعدما يجف الطين ويبس يحرق بالنار ليزداد متانة وتماسكاً[٢].

ت ـ ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾: قال الإمام الراغب في معنى الأسباب: السبب: الحبل الذي يصعد به النخل، وجمعه أسباب، وسُمِّي كل ما يُتوصَّل به إلى شيء سبباً، وعلى هذا قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: لعلي أعرف الذرائع والأسباب الحادثة في السماء، فأتوصل إلى معرفة ما يدَّعيه موسى[٣].

لماذا تظاهر فرعون بالموضوعية والبحث؟

لأنه هُزم أمام منطق الرجل المؤمن الحكيم.

ما هدف فرعون من بناء الصرح؟

● يريد أن يصرف المدعوّين عن القضية الأساسية التي دعا إليها الرجل المؤمن، وكادوا أن يقتنعوا، وذلك ليشغلهم بأمر ثانوي خارج عما هم بصدده، ويجري الحديث حوله.

● يدلُّ على أنه بلغ الغاية في الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول، ويدل على شدة خداعه أنه يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله

(١) المفردات، ص٤٨٢.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٤٩٩).
(٣) المصدر نفسه، (٢/ ٤٩٩)، المفردات، ص٣٩١.

سواه، ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس[١]، وهو بهذا يُظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلهاً غير فرعون[٢].

● يريد أن يجنح بفكر المدعوين فيفكرون في الصرح، وكيف سيكون شكله وعرضه وطوله؟ ومن هم بنّاؤوه؟ فهو يطلب بناءه عالياً وبالآجُرّ، وهذا التوصيف يجعل السامعين يتصوَّرون الصرح تصوُّراً تخيُّليّاً، مما يجنح بخيالهم عن آيات الله وعن الآخرة وغيرها من الأمور، التي كان الرجل المؤمن قد وصل إلى بنائها في أذهانهم.

● يريد أن تفقد حجَّة الرجل المؤمن عند المدعوين قوّتها وحيويتها، فهم الآن يفكرون بها لأنها حية في أذهانهم، لها دوافعها الإصلاحية التوعوية، أما إذا انشغلوا عنها ببناء الصرح فستفقد تلك الحيوية لتتحول إلى قضية نظرية جامدة باردة.

● يريد أن ينسيَهم الدعوة والتفكير فيها باستخدام عامل الزمن، وبناء الصرح يتناسب مع هذه الحيلة، ففيه تأخير وتسويف وتطويل وانشغال، بل إن التطويل والتأخير مقصود من البناء، بدليل أن الكلمات التي عرضت الأمر تساعد على تطويل المشهد ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ التطويل في تحوُّل التراب إلى طين، ثم الإيقاد على الطين بإشعال النار تحته، ثم الانتظار حتى يتمَّ حرق الطين ليصير آجراً، ثم استخدامه في بناء الصرح، وبعد الانتهاء من عملية البناء المطولة يصعد فرعون بتمهُّل وبطء، وهناك يبلغ أسباب السموات وطرقها ـ حسب زعمه ـ، ويبحث فيها بحثاً متأنياً عن إله موسى، ثم يعود إلى الجماهير التي تنتظر نتيجة هذه الرحلة الفرعونية، وسيمرُّ عليهم الزمن الطويل وهم

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨م، (١٢/ ٢٩٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، (٦/ ٢٣٨).

ينتظرون، بحيث ينسون حجج الرجل المؤمن التي سمعوها، وتأثروا بها[١].

● يريد أن يرهق الأمة مؤمنهم وكافرهم اقتصاديّاً بتحمل أعباء هذا البناء العظيم، قاصداً صرف الجميع عن دعوة الرجل المؤمن، واشتغالهم بجمع ما يفرضه عليهم من إتاوات وضرائب إن صح التعبير، وتحمُّل ما ينجم عن إهدار للمال العام من فقر وشظف عيش، كما هي عادة محاربي الدعوات اليوم وصانعي الأزمات، وعندما تتصور ما سينفق في بناء الصرح من أموال، وما يبذل له من طاقات وقدرات، وما يضيع فيه من أوقات، وهذه هي أهداف بنائه، وهنا نقف على صورة من استخفاف الطغاة بعقول الجماهير، وإشغالهم بالتوافه التي تُنسي الحقائق وتضييعهم الأوقات والجهود والطاقات فيما لا يقدم للناس خيراً ولا نفعاً، فكم وكم ينفقون من هذه الضروريات في مسرحيات هازلة عابثة؟! وكم يذهب من هذه المقوِّمات إرضاءً لشهوات الطغاة[٢]؟!.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

أ ـ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أبواب السموات، وقيل: طرق السموات.

ب ـ ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾: وهذا من كفره وتمرُّده أنه كذَّب موسى في أن الله عزّ وجل أرسله إليه.

ت ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾: أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى[٣]، فزُيِّن له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً،

---

(١) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٩.
(٣) تفسير ابن كثير، (٧/ ١٣٤).

ودعا إليه، وناظر فيه مناظرة المحقِّين وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زُيِّن له.

ث ـ ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ﴾: الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محقٌّ، وأن موسى مبطل، ﴿إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة[1].

وتُذكِّرنا مسرحية فرعون بما فعله رائد الفضاء الروسي السابق «غاغارين»، حيث زيّف وحرّف وكذب وافترى على البحث والعلم، فهو ماركسي ملحد ينكر وجود الله، ولكنه لما صعد إلى السماء في سفينة الفضاء، أُعجب بجمال الكون وتناسقه، فاستيقظت فطرته لحظة ونطق عبارة إيمانية لا إرادية، وهو مبهور بإبداع الكون، فقال: لابد أن يكون لهذا الكون إله، وهذه العبارة إلغاء للماركسية من الجذور؛ ولهذا ما إن هبط «غاغارين» إلى الأرض حتى اتصل به سادته مُهدِّدين مُتوعِّدين، وطلبوا منه تعديل تصريحه السابق، فرضخ لهم، وأخبر الصحفيين قائلاً: لقد صعدت إلى السماء وذهبت أبحث عن الله، لكن لم أجده. وكأن فرعون يريد أن يخرج بهذه النتيجة، يريد أن يقول للناس: لقد بنيتُ الصرح، وصعدتُ إلى السماء وبحثتُ فيها عن أدلة تشهد لموسى وتُثبت وجود الله، وتمنيتُ أن أجدها، ولكني ما وجدت منها شيئاً، وما وجدت الله في السماء، ولذلك ليس لكم إله غيري، وموسى كاذب في دعوته.

إذن لم يكن فرعون جادّاً في البحث ولا في بناء الصرح؛ ولكنه هازل عابث ساخر، وكم سينفق وزيره هامان من أموال على بناء الصرح، وكم سيرصد له من ميزانية الأمة، وكم سيوظف له من طاقات وقدرات الأمة، وهذا هو هدف فرعون المسرحيّ منه. وإن الطغاة الظالمين يقتدون بفرعون في هذه الملهاة المسرحية،

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥٠).

حيث يقررون إنشاء مشاريع عديدة، ويرصدون لها الأموال الكثيرة، وينفقون فيها الطاقات والأوقات والجهود، وهدفهم هو إلهاءُ وإشغالُ الناس، وصرفُهم عن الأمور الجدية النافعة[١].

وتدل لهجة فرعون على تراجعه أمام منطق الرجل المؤمن، وبدا تراجعه في المطالب الآتية:

قال في السابق: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ والآن يتراجع عن هذا الطلب، ويأمر ببناء الصرح بحجَّة البحث عن إله موسى.

في السابق طلب من قومه الإذن له بقتل موسى، والآن يطلب من قومه الانتظار بحيادية، ليطلعهم على نتيجة بحثه في السماء.

في السابق جزم بأن موسى عليه السلام ساحر كذاب، والآن تراجع عن الجزم، وعبّر بالظن فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾.

ويُسجَّل تراجعُ فرعون لصالح الرجل المؤمن، ويدل على نجاحه في عرض حجَّته وخطاب قومه بحكمة وموضوعية، والآن رأى الرجل المؤمن أن الوقت قد حان للجهر بإيمانه ودعوة قومه إلى اتباعه بصراحة مجردة، وليس بتلميح إشاري، فقد أوصل قومه الذين يخاطبهم منذ مدة إلى هذه النتيجة، وقد دفع فرعون إلى التراجع العلني عمّا أراده، ثم هو يخشى أن ينشغل القوم ببناء الصرح، وينسوا دعوته وحجَّته وبيانه؛ ولهذا يريد أن يسارع بتقديم الخلاصة لهم، فبدأ بمصارحتهم بدعوتهم إلى اتباعه، وقدم لهم خلاصة دينه، وقارن لهم بين دعوته ودعوة فرعون، وتجريده لفرعون من النفع والضر، وإقامة الحجَّة على قومه، وإعلانه تفويضه أمره إلى الله[٢]:

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٢).
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٤ ـ ٥٠٨).

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٣٨ـ٤٦]:

هذا بقية كلام مؤمن آل فرعون، فإنه أعاد عليهم النصح مرة أخرى حينما رآهم يتمادون في كفرهم وبغيهم، ونادى قومه ثلاث مرات، في المرة الأولى دعاهم في الآيات السابقة إلى قبول الدِّين الذي دعا إليه موسى على سبيل الإجمال، وفي المرتين الأخيرتين على سبيل التفصيل، دعاهم إلى الإيمان بالله سبحانه وسلوك طريق الرشاد، ثم حذرهم من الاغترار بالدنيا، وحثهم على العمل للآخرة لدوامها، وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة، وبين دعوتهم إلى عبادة الأصنام طريق النار.

ثم أخبر سبحانه عن وقايته له، وعصمته من السوء الذي دبّروه له، وإغراق آل فرعون وإدخالهم في جهنَّم يوم القيامة[1].

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]:

فقد سبق فرعون أن قال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

(١) التفسير المنير، (٢٤/١٢٨).

ٱلرَّشَادِ﴾، وهنا يقول الرجل المؤمن للقوم أنفسهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وهذه المواجهة الصريحة منه لفرعون دليل على جرأته وشجاعته وحرصه على دعوته وتوكله على ربه؛ لأنه لا يقف أمام فرعون هذه المواقف، ولا يتحدّاه هذا التحدي، إلا رجل عظيم الإيمان كامل الاعتماد على الله. وعندما دعا القوم لاتباعه عرض الدعوة بلهجته المعهودة القائمة على الإشفاق والتحبُّب ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

وفرق كبير بين قول فرعون لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وبين قول الرجل المؤمن لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، والرجل صادق في قوله لقومه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، بينما كان فرعون كاذباً في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (١).

لقد افتتح الرجل المؤمن دعوته لقومه بلفت نظرهم إلى حقيقة تتعلق به شخصيّاً، وهي أنه على حق، ويقف مع الحق، ويدعو للحق، ومن ثم فالانقياد له يعني المضيَّ قدماً إلى طريق مستقيم، بعيداً عن مواطن الزلل والسقوط، وسعى بهذا التركيز الشديد على قناعته الشخصية إلى استرعاء انتباههم، لعله يأتيهم بما تتوق إليه نفوسهم، كيف لا وكل منهم يرغب في اتباع الحق، ويتجنَّب قدر المستطاع طريق الغيِّ والضلال.

وفي الوقت الذي لاحت له بوادر إقبال عليه، وإصغاء إلى ما عنده، أكمل حديثه(٢)، وشرع في بيان دينه لقومه، فبعد الإجمال انتقل إلى التفصيل في:

- ذم الدنيا وتصغير حالها.
- تعظيم الآخرة، وتوضيح حقيقتها.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٣).

(٢) مؤمن آل فرعون؛ حفيد المرأة الكاملة وابن الرجل الصالح، الشفيع الماحي أحمد، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١١٩.

ـ الموازنة بين دعوة موسى عليه السلام ودعوة فرعون[١]، وإليك تفصيل المجمل:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]:

وكلما بدأ بقوله (يا قوم) بدأ معنىً جديداً، وله عنده أهمية؛ لأنه يلفت نظر قومه إليه، ويقترب منهم ليقتربوا من النصح الذي يُسديه لهم، ولاحظ جملة: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ وكيف بدأت بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ التي تدلُّ على أن ما دخلت عليه مما لا يجهله جاهل، ولا ينكره منكر، كأن هذا معنى شائع في الناس، المؤمن والكافر؛ لأن الكل يرى الكل وهو يموت، ويترك ما يترك من ثراء ونعمة، ولم يعد يتمتع بها، ثم إن اسم الإشارة هنا مهمٌّ جدّاً؛ لأنه يحدِّد ما يريد أن يحكم عليه بأنه متاع، ويُميِّزه أكمل تمييز؛ لأن الحكم عليها بأنها متاع يوجب أن تكون حاضرة حضوراً كأن العين تراها، لقوة تشبُّث الناس بها، مع العلم أنها متاع، وهذا البناء يخالف بناء الجملة الثانية التي ليست معلومة علم الجملة الأولى، وهي:

﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾: ليس كل أحد يعلم ذلك، بل إن هذا مما نجد أكثر الناس لا يُؤمنون به، وإن آمن به المصريون زمن الفراعنة، وأعدوا قبورهم إعداداً خاصّاً لحياتهم الثانية، والمهم أن الرجل المؤمن أكّدها بـ(إن)، ثم بالضمير ﴿هِىَ﴾، ثم جعلها داراً، أي: موضع إقامة دائمة ما دمت حيّاً، كدارك في الدنيا، وأنت هناك لا تموت، فهي دار الأبد، ثم أضافها إلى القرار والمستقر الذي لا يتبدل ولا يتغيَّر، وهذا تدقيق عجيب[٢].

أ ـ قال ابن كثير: ثم زهَّدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة، وصدَّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ

(١) مؤمن آل فرعون، الشفيع الماحي أحمد، المرجع السابق، ص٢٤٣.
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٤٩٧.

﴿ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب، وتزول، وتضمحلُّ، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا مصير إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم(١).

ب ـ قال السعدي: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ يُتمتَّع بها ويُتنعَّم قليلاً ثم تنقطع وتضمحلّ، فلا تغرَّنكم وتخدعكم عمّا خلقتم له، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تُؤثروها، وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها(٢).

٣ ـ قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٤٠].

أ ـ راجع النفي والاستثناء ودلالته القاطعة على أنه من عمل سيئة لا يزيد عقابه ولا ينقص عن عمل السيئة، ووصف العقاب بأنه مثلها، يعني مماثلاً ومساوياً لها، ولا يجوز أن يزيد حبّة خردل عن هذا المثل، والمحظور أن تزيد في عقاب المذنب؛ وليس من المحظور أن تنقص؛ لأن الخطأ في العفو أفضل من الخطأ في العقوبة، وتأمل كيف يرسم لنا ربُّنا طريق الحياة الأفضل. ثم إن العقوبة تكون على من عمل السيئة، وليس على غيره ممن لم يعملها، فلا يعاقب من كان عضواً في جماعة، ولو كان عضواً في عصابة، وإنما على القضاء أن يحدد ما عمله؛ ولا يعاقب إلا على عمله لأن الله قال لنا:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ١٣٤).

(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥٠).

فالمسؤولية فردية، ولا يُؤخذ أحدٌ بذنب أحد، وهذا كله دلالة كلمة ﴿مَنْ عَمِلَ﴾، فلا بد أن يكون عمل، ولا يعاقب على نيته، ثم يعاقب هو على الذي عمل، وليس ولده، ولا أخاه، وأن هذا هو نظام خلافة الإنسان لله في الأرض، ثم راجع مرة ثانية كلمة ﴿عَمِلَ﴾، وأنها تنفي نفياً قاطعاً تلفيق التهمة لمن نرفضه، مهما كان بيننا وبينه من خصومة، وبعد هذا التحديد القاطع في كلام هذا المؤمن الذي يصدُقُ قومه النصح قابل هذا بقوله:

ب ـ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

راجع وتأمل لتقف على شرف الكلام، واعلم أن من وقوفك على شرفه؛ أن تدرك خفايا معانيه، ومن ذلك:

واو العطف التي تعطف عملاً صالحاً على عمل سيئ، وتجمع لك صورتين متقابلتين من أعمال البشر على هذه الأرض، هناك قال من عمل سيئة بالتنكير، أي: أيّ سيئة، قلّت أو كثُرت، وهنا قال من عمل صالحاً، أيَّ: صالح قلّ أو كثُر، وضع بإزاء هذا التنكير قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ـ٨]، وإنما قدَّم المؤمنُ عمل السيئة لأنه رأى قومه مغموسين في السيئة، فأراد أن يخلعهم منها، وقدّم ربنا مثقال ذرة خيراً لأن الخير يُقدَّم لشرفه، ثم قال من ذكر أو أنثى إشارة إلى المساواة في الثواب والعقاب بين الذكر الأنثى، ودفع الجميع لعمل الصالحات.

وسكت عن النساء في عمل السيئة إكراماً لهن؛ لأن السيئة من النساء أسوأ، والكذب منهن أخطر، ثم ذكر الأصل الذي لا يعتدُّ بالعمل الصالح إلا به، وهو الإيمان[1].

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: جملة حالية اسمية وبالواو، وكل ذلك يدلُّ على أنه، وهو

(١) من حديث يوسف وموسى، المرجع السابق، ص٤٩٩.

يزاول العمل الصالح، زاوله وهو في حال الإيمان والتقرب إلى الله، وتخيل معي أن كل الشعب يزاول الأعمال التي تصلح بها البلاد، وهو يتقرب إلى الله بهذه المزاولة، وحينئذ تكون قوة هذه الجماعة في الحق وليست في الباطل، ولن تكون طامعة في خيرات الشعوب، ولن تحيك المؤامرات والصراعات، وإنما تكون سالمة مسالمة، صالحة مصلحة، فيزداد بها الثراء والخير والبر والمرحمة بين العباد؛ المسلم وغير المسلم، هؤلاء الذين يزاولون العمل الصالح بهذه الروح التي تستحضر الذي بيده الأمر، جوابهم وجزاؤهم أنهم يدخلون الجنة، وهذه هي غاية الغايات، هي دار القرار[1].

ت ـ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: وبُني يُرزقون للمجهول، وأشار إلى أن الخير والرزق والعطاء يأتيهم من هنا ومن هنا، ثم ناهيك عن عطاء بغير حساب، مِن أكرم مَن أعطى جلَّ وتقدَّس، وراجع دلالة اسم الإشارة الذي للبعيد:

في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ودلالته على بعد محلّهم وبعد رتبتهم، ثم تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ودلالة ذلك على التوكيد، ثم مجيء المضارع الذي يستحضر الصورة من الغيب البعيد.

في قوله: ﴿يَدْخُلُونَ﴾: وكأنك تراهم في عزّهم، وعليائهم، وكرامتهم وهم يدخلون، ثم مجيء مرة ثانية:

ث ـ قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾: وهو رأس الجملة الحالية، وكيف كان الدخول مقترناً بحال الرزق بغير حساب، والأصل أن يكون الرزق بعد الدخول، وإنما هي المبادرة بتكريم الواحد الأحد لكرام عباده الذين فعلوا الصالحات وهم مؤمنون، وراجع مرة ثانية كلمة «من الصالحات»، واحذر أن تُخصِّصَها بالصلاة والزكاة والذِّكر؛ لأن الله أطلقها، وهو كل ما تصلح به حياة الناس؛ سواء في مصانعهم أو مدارسهم أو إعداد قوتهم، أو ما يحتاجون إليه من أي علم في الطب

(١) من حديث يوسف وموسى، المرجع السابق، ص٤٩٩.

أو الهندسة أو الرياضة، أو ما شئت؛ لأن القاعدة الفقهية هي أن كل علم تحتاجه الأمة فهو من علوم الإسلام، وأن الطبيب الذي له فقه في طبّه أفضل من الفقيه الذي ليس له فقه في فقهه(١).

قال السعدي رحمه الله:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾: من شرك، أو فسوق، أو عصيان.

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾: أي: لا يُجازى إلا بما يسوءُه ويُحزنه بقدر إساءته وما تستحقه؛ لأن جزاء السيئة السوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يُعطَوْن أجرهم بلا حدّ ولا عدّ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم(٢).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٢]:

يقارن الرجل المؤمن بين الدعوتين باللهجة المحببة نفسها:

أ ـ ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ﴾: ويبين لهم أنهما دعوتان اثنتان، لا ثالث لهما، فإما دعوة إلى الإيمان والخير، وهي دعوته الموجَّهة لهم، وإما دعوة إلى الكفر والشر، وهي دعوة فرعون الموجَّهة لهم.

ب ـ ﴿مَا لِىٓ﴾: يستفهم عن شيء من نفسه: كيف أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعونني إلى النار؟ أي: إلى ما يؤدي إلى النار، قالوا: لأن الخير لا يكون خيراً

---

(١) من حديث يوسف وموسى، المرجع نفسه، ص٥٠٠.
(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥٠).

إلا إذا أحببته لسواك؛ لذلك قال ﷺ: «لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه»(١).

ت ـ ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: ويقارن بين حبه لهم وحبه لنجاتهم، وحبّه لأن يعيشوا في جنة، وهم يدعونه إلى النار، ثم استأنف بيان هذه الجملة الموجزة العالية، وابتدأ هذا البيان بكلمة ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ﴾ التي حملت المقارنة المحزنة والمؤسفة بينه وبين قومه.

ث ـ ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ﴾:

وراجع أنه قال أولاً ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، فقدَّم دعوته لهم إلى النجاة «الجنة»، وأخّر دعوتهم له إلى النار، وفي الجملة الثانية عكس، وكأنه لمّا قال الجملة الأولى علا وغلا، وفي قلبه الإحساس بإساءة قومه له، فقدم دعوتهم له إلى النار، وأنهم دعوه ليكفر بالله، ولم يُدْعَ المؤمن الصادق دعوة أسوأ من هذه الدعوة؛ لأن إيمانه بالله ليس هو نفسه، وقلبه وعقله، ولحمه، ودمه، وإنما هو فوق ذلك كله: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليك من نفسك.

﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾: كان يمكن أن يكتفي بهاتين الجملتين أكفر وأشرك، وكلمة ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كلمة مفهومة لأنه ليس هناك مؤمن بالله وله علم بشريك؛ لأنه لا شريك له، ونفي العلم بالشريك نفي لوجوده، قلت: كان يمكن أن يكتفي ببعض ذلك؛ لأن بعضه دالٌّ على بعضه، ولكن الرجل الصادق كأنه يُفرغ من قومه الذين يحبهم مرارة حارقة في قلبه. ثم استأنف استئنافاً آخر، وأعاد كلمة:

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ﴾: وجعل دعوته هي فاصلة الآية ليبقى رنينها في القلوب، وقد ابتدأ الجملة بقوله: ﴿وَأَنَا۠﴾، وكأنه يقول: وأنا الذي تدعونه ليكفر بالله ويشرك به ما ليس له به علم، وهو يدعوكم إلى العزيز الغفار،

(١) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٨٦).

وأحب اقتران الاسمين الجليلين في الفاصلة؛ لأن لها دلالة جليلة، فالعزيز الغالب الذي لا يُغلب، والذي يستحيل أن يكون له شريك، والغالب المستعلي على من يكفر به، فضلاً عن أن يكون داعياً للكفر، فضلاً أيضاً أن يكون داعياً إلى الكفر من يدعوه إلى الإيمان(١).

تجد كلمة العزيز يستخرج منها موقعها هنا إشارات ودلالات لا تشبع منها قلوب أهل الإيمان والبيان(٢). ثم تجد الغفار يفتح الأبواب على مصارعها لمن يريد أن يتوب ويؤوب إلى الغفار، بصيغة المبالغة والتعريف بالألف واللام(٣)، لقد رغَّبهم مؤمن آل فرعون في الإيمان بالله عزّ وجل، وبيَّن لهم بأنه عزيز غفار، يقبل توبتهم إليه، وإقبالهم عليه(٤).

لقد لخص مؤمن آل فرعون دعوته الحكيمة في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ إنه دعاهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره، دعاهم ليغفر لهم، وهو القادر على أن يغفر لهم، وقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم شأن في دنيا ولا في آخرة، وأن المردّ لله وحده، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار(٥).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]:

وبعدما قارن المؤمنُ بين دعوته ودعوة فرعون، خطا خطوة أخرى في التصدي لفرعون، ودعوة القوم إلى عدم الخوف منه.

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٠٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٠٥.
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٦).
(٥) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٨٣).

أ ـ فقال لهم ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : حقّاً، وصدقاً[١]، ويقيناً[٢]، ولا شك ولا محالة[٣].

ب ـ ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ : أي : لا يستحقّ مَنِ الدعوة إليه، والحث على اللجوء إليه، في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً[٤].

يقول الدكتور الخالدي في تفسيره للآية : إنه يعني فرعون نفسه؛ لأنهم كانوا يؤلهونه ويعبدونه من دون الله، وكأنهم يدعون ذلك الرجل المؤمن إلى تأليهه وعبادته ودعائه والتضرع إليه، ويقول لهم : لا شك في أن فرعون الذي تعبدونه وتدعونني لعبادته عاجز عن دفع الضر عن نفسه، أو جلب الخير له، فإذا كان عاجزاً في حق نفسه، فهو في حق غيره أكثر عجزاً لأنه مخلوق ضعيف، حتى لو كان ملكاً فرعوناً، والضر والنفع إنما هما بيد الله وحده، الخالق القوي القادر الضارّ النافع.

هذا هو فرعون في نظر الرجل المؤمن، إنه لم يُخدع بما أحاط به فرعون نفسه من مظاهر القوة وهالات العظمة، ولقد نظر إليه بمنظار الإيمان بالله واليقين بقوة الله، فرآه على حقيقته، ووزنه بميزان الإيمان، فعرف وزنه البشري الحقيقي، وأظهر إيمانه، وانتصر لموسى عليه السلام، وكأن الرجل المؤمن يدعو المؤمنين إلى الاقتداء به في هذا الموقف، وأن ينظروا للطغاة بمنظار الإيمان ويزِنوهم بميزان الإيمان؛ ليعرفوا حجمهم الحقيقي، دون مبالغة أو تهويل، فلا يرهبوهم، ولا يتركوا الحق بسبب تهديدهم[٥].

ت ـ ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ : وهذا المعتقد أي : مرجعنا ومصيرنا ونهاية المطاف إلى الله[٦]، يُلجم النفس عن الباطل والكذب والنفاق، وكل ما يورثها

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٦).
(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥١).
(٣) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٨٧).
(٤) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥١).
(٥) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٧).
(٦) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٨٧).

الخساسة والنذالة، وتحدوها إلى كل عمل طيب وصالح ونافع ورافع للإنسان، وعليه أن يعقل بأنه مكرَّم عند الله ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ولا يهين نفسه، وأن مردَّ الإنسان إلى ربّه إذا كان أليفاً مألوفاً في القلب هان به كل صعب(١).

ث ـ ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾: وتفادى أن يجرح خاطر قومه، وأن يقول لهم أنهم أصحاب النار، عمّم وقال: إن المسرفين هم أصحاب النار، والمسرفون هم المبالغون في المعاصي والمآسي والضلال(٢)، والمسرفون هم: المتجاوزون للحد في الكفر والطغيان، وأشدهم المسرف على نفسه الذي تجاوز الحدَّ الذي ينبغي أن يقف عنده، وهذا الحد إما أن يكون في المأمورات أو في المنهيات(٣).

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردّد ولا تلعثم، بعدما كان يكتم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان، لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره(٤).

ولا بد من أن فرعون قد غضب من كلام الرجل المؤمن، وضاق به ذرعاً، فأصدر أوامره لجنوده لإسكاته والتخلص منه، وقد أحسّ الرجل بذلك، ورأى أن ثمّة تدابير ومكايد تدبَّر له، فألقى كلمته الأخيرة، فوّض بها أمره إلى الله، واستعاذ به من مكرهم وكيدهم(٥).

٦ ـ قال تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥]:

أ ـ ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ ﴾: وهذا التذكر يكون في المستقبل في

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٥٠٧، ٥٠٦.
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٥٠٧.
(٣) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٨٧).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٠٨٣).
(٥) التفسير الموضوعي، (٧/ ٣١٦).

الدنيا والآخرة، فإن استجابوا له وآمنوا حقَّقوا ثمرة الإيمان في الدنيا وفي الآخرة، وعندها يتذكرون ما قاله لهم، فيشكرونه على دعوته. وإن رفضوا دعوته وأصرّوا على الكفر، فسيدفعون ثمن ذلك غالياً في الدنيا والآخرة، وعندها يتحسَّرون ويندمون لرفضهم دعوته.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ليس تهديداً لهم، وإنما هو نصيحة وتذكير، وهو وسيلة أخرى من وسائل التأثير عليهم، وكأنه يقول لهم: إذا اخترتم طريق الكفر، ووقعت بكم عاقبة ذلك، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم(١).

ب ـ ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: أردُّ أمري إليه سبحانه، فهو وليّي، فإن كنتُ قد بليت بنتيجة ما أفضت فيه من شرح منهج الله، والدفاع عن نبيه موسى، والاستماع إلى المنهج الحق والسير عليه، فأرجو أن يعطيني من العمل ما ينفعني في الآخرة(٢).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة دليل واضح على أن التوكُّل الصادق، وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرَّر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل كقولهم: سها فسجد، أي: سجد لعلة سهوه، وسرق فقُطعت يده، كما قدمنا مراراً، وما تضمَّنته هذه الآية الكريمة من كون التوكُّل على الله سبباً للحفظ والوقاية من السوء جاء مُبيَّناً في آيات آخر:

كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤] (٣).

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٠٨).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٨٨).
(٣) أضواء البيان، (٦/ ٣٨٨).

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: أي: ألجأ إليه، وأعتصم به، وأُلقي أموري كلَّها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي، ودفع الضرر الذي يُصيبني منكم أو من غيركم[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: يعلم أحوالهم وما يستحقُّون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شرَّكم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرَّفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلَّطكم عليّ فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: إنه تعالى بصير بأحوال عباده، يعلم من يستحقّ النصرة فينصره ويؤيده، ويعلم من يستحقّ الخذلان، فيخذله ويُضلّه[٣].

ت ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

دلت هذه الآية الكريمة على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم، وأن الله وقاه، أي: حفظه ونجاه من أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على الله، وتفويضه أمره إليه[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن، وقاه الله مكرهم، وردَّ العاقبة السيئة عليهم، فردّ سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكِّر ناجياً في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ، فقال في هلاكهم في الدنيا: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ﴾ الآية [الأنفال: ٥٤] وأمثالها من الآيات، وقال في مصيرهم في البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وقال في عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وما دلّت عليه

---

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥١).
(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥١).
(٣) التفسير الموضوعي، (٧/ ٣١٦).
(٤) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (٢٩/ ٣٦٥).

هذه الآية الكريمة من حَيْقِ المكر السيئ بالماكر أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] (١).

ـ قال السعدي: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: وقى الله ذلك الرجلَ المؤمنَ الموفَّقَ عقوباتِ ما مكرَ فرعونُ وآلُه له، من إهلاكه وإتلافه؛ لأنه بدأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم، واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صيحة واحدة عن آخرهم (٢).

وهذه الآية وقف عندها الإمام جعفر الصادق، واستنبط منها بعض اللطائف والحكم حين قال:

عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ لأني سمعت الله يُعقِّبها بقول: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وعجبتُ لمن مُكر له ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، فإني سمعت الله يُعقِّبها بقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥].

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، فإني سمعت الله يُعقِّبها بقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٤٠].

وعجبت لمن اغتمَّ ـ والاغتمام انقباض الصدر وضيق النفس دون أن تعرف له

(١) أضواء البيان، (٦/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩).
(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٥٥٧).

سبباً، ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإني سمعت الله يعقبها بقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] (١)، يعني: ليست خاصة به وحده.

قال محمد متولي الشعراوي: هذه من دقائق كتاب الله ولطائفه، ومن أخذها وِرداً له لا يمرُّ به شيء من هذا، ونجّاه الله منه ووقاه من الخوف ومن المكر ومن الفقر ومن الغم، ثم إن استجابة الحق سبحانه لعبده المؤمن لم تقف عند حدّ الوقاية من عدوِّه، إنما تعدّت إلى العدو نفسه، حيث انقلب الحال، ودارت الدائرة عليه، تأمل: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، والمراد عذاب الدنيا قبل الآخرة؛ لأن الإنسان له في حياته ثلاث مراحل:

- الحياة الدنيا التي نعيشها الآن.
- ثم حياة البرزخ بعد أن يموت إلى أن يُبعث يوم القيامة.
- ثم حياته بعد البعث(٢).

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]:

أي: يُعْرَضون على النار غدوّاً وعشيّاً في أول النهار وآخره ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة جهنَّم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وهذه الآية دليل على عذاب القبر كما قال العلماء(٣).

قال الرازي: احتُجَّ بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، فالآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشيّاً، وليس المراد منه يوم القيامة؛ لأنه قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ

(١) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٩١).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢١/ ١٣٣٩١).
(٣) التفسير الموضوعي، (٧/ ٣١٧).

﴿ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ وليس المراد منه الدنيا؛ لأن عرض النار عليهم غدوّاً وعشيّاً ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة، وذلك يدلُّ على عذاب القبر في حق هؤلاء[١].

وقد بوّب الإمام البخاريُّ في صحيحه باب ما جاء في عذاب القبر، وذكر هذه الآية، وأورد عدداً من الأحاديث، منها:

أ ـ عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذَكِ الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم عذاب القبر»، قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيتُ رسول الله ﷺ صلّى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر، زاد في رواية: عذابُ القبر حقٌّ[٢].

ب ـ وعن موسى بن عقبة قال: سمعت أم خالد بنت خالد قالت: سمعت النبي يتعوذ من عذاب القبر[٣]، وعن مصعب بن سعد قال: كان سعد يأمر بخمس، ويذكرهن من النبي ﷺ أنه كان يأمر بهن: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»[٤].

ت ـ وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: اطلع النبي ﷺ على أهل القليب[٥]، فقال: «وجدتُم ما وعد ربُّكم حقّاً؟»، فقيل له: تدعو أمواتاً؟ فقال: «ما أنتم بأسمَعَ منهم، ولكنهم لا يُجيبون»[٦].

قال القسطلاني: هذا يدلُّ على وجود حياة في القبر يصلح معها التعذيب؛

---

(١) مفاتيح الغيب، (٢٧/ ٦٤)، بتصرف.
(٢) البخاري، رقم ١٣٧٢.
(٣) البخاري، رقم ١٣٦٤.
(٤) البخاري، رقم ٦٣٦٥.
(٥) القليب: البئر التي لم تطوَ، يذكر ويؤنث.
(٦) مسلم، (٢/ ٦٤٣).

لأنه لما ثبت سماع أهل القليب كلامه عليه الصلاة والسلام وتوبيخه لهم، دلَّ على إدراكهم الكلام بحاسة السمع، وعلى جواز إدراكهم ألم العذاب ببقية الحواس، بل بالذات[١].

ث ـ وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه قالت: قام رسول الله ﷺ خطيباً، فذكر فتنة القبر التي يُفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضجَّ المسلمون ضجَّة[٢]، قال النووي: فيه إثبات عذاب القبر وفتنته، وهو مذهبُ أهل الحق[٣].

ج ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره وتولَّى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: وأما المنافق والكافر فيقال له: لا دريتَ ولا تليتَ، ويُضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه غير الثقلين»[٤].

قال **ابن القيم**: ومما ينبغي أن يُعلَم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيب منه، قُبر أم لم يُقبر، ولو أكلته السباع أو أُحرق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء، أو صُلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فليُعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن أبي بكر شهاب الدين القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، ١٩٩٦م، (٣/ ٥٢٩).
(٢) البخاري، رقم ٦٣٦٥.
(٣) شرح مسلم، (٦/ ١٨٢ ـ ١٨٣).
(٤) مسند أحمد، (٣/ ١٢٦)، البخاري، (٣/ ٢٩٨)، رقم ١٣٧٤.
(٥) الروح، شمس الدين ابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٢م، ص٥٨.

إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن مُنعَّمة أو مُعذَّبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً فيحصل له معها النعيم والعذاب[١].

وذكر ابن أبي العز الحنفي أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ وجميع ما فيه من النعيم والعذاب، هو واقع على جميع البشر، وإن اختلفت كيفيات موتهم، من القتل والحرق والتمزُّق وتناثر الأعضاء، سواء دُفنوا، أو لم يُدفنوا، فهم يعيشون تلك الحياة، إما منعَّمين أو معذَّبين[٢].

فيقول: واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قُبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء، أو صُلب أو أُغرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور[٣].

وبيَّن أيضاً أن الأرواح والأبدان يُصيبها العذاب والنعيم في الدور الثلاث كما قال: فالحاصل أن الدُّور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصُّها، وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى، (٤/ ٢٨٤).

(٢) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المدني: دراسة لغوية، صالح عبد الله منصور العولقي، اليمن، عدن، دراسات قرآنية في جامعة عدن، رسالة ماجستير، ٢٠١١م، ص٣٩٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٠م، ص٣٩١.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٩٢.

ثانياً: قصة موسى عليه السلام في سورة الزخرف:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٥٦].

جاءت قصة موسى مع فرعون في سورة الزخرف، والتي ذُكر فيها قصص بعض الأنبياء من أولي العزم كإبراهيم الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام، ليعتبر الناس بها، ويتَّعظوا بأحداثها ونتائجها، وفيما يتعلق بموسى عليه السلام بدأت السورة بإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، وقوله لهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وحينما يجيئهم بالآيات فإنهم يفاجئونه بضحكهم وسخريتهم منها، وهزئهم بها؛ مع أن الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام كانت كل واحدة منها كافية لإيمانهم، فليس هناك آية إلا وهي أكبر من أختها؛ لأن في كل آية ميزة لا توجد في غيرها، وقد أُخذوا بالعذاب لعلَّهم يرجعون عن غيِّهم الذي هم فيه سادرون، ولما رأوا العذاب قد أحاط بهم هرعوا لموسى عليه الصلاة والسلام قائلين له: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾، ومناداتهم له بهذا الوصف قد يكون وصفاً له بالعلم والمهارة، فلم يكن السحر صفة نقص عندهم، هذا ما قاله بعضُ المفسرين، ولكن الذي نُرجِّحه أنهم إنما نادَوْه بذلك لأنهم كانوا عازمين على عدم الإيمان في قلوبهم، ونستأنس لهذا بقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولو كان إيمانهم صادقاً لقالوا «ربنا»، سألوه أن يدعو لهم ربّه بما عهد

عنده من إجابة الدعوة أن يكشف عنهم الرجس حتى يهتدوا، ولكنهم ـ وقد كشف عنهم الرجس ـ نكثوا ولم يُؤمنوا.

وتُحدِّثنا الآيات بعد ذلك عن غرور فرعون واعتداده بنفسه، وهو حديث لا نجده إلا في سورة الزخرف، فها هو ذا ينادي في قومه: أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون ذلك أم لا تبصرونه؟ ثم يبين اعتداده بنفسه وسخريته بموسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، فهو لا يملك شيئاً من أسباب القوة وعلامات الملك، فضلاً على أنه لا يُحسن الإبانة في قوله، ولو كان موسى عليه السلام صادقاً فهلا أُلقيت عليه أسورة من ذهب، أو جاءت معه الملائكة مصدّقة له؟ ولكن شيئاً لم يكن لهم، نجد شيئاً من أسباب النعمة ظاهراً عليه، ولم يَجئ أحد من الملائكة يصدقه فيما يقول، وهكذا استخفَّ فرعون قومه، استخفَّ عقولهم فلعب بها، وهذا شأن كل رعية ضعيفة، ومن هنا كان من أهل النار، كما أخبر الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم: «الضعيفُ الذي لا زَبرَ له ـ أي: لا عقل ـ الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً»[1].

هكذا كان قوم فرعون، وهذا ما يجعل الشعوب تنحدر فتستمرئ الذل، ومرجع ذلك كله: الفسق والخروج عن منهج الله، فلما أغضبوا الله تبارك وتعالى انتقم منهم، وجعلهم قدوة لمن بعدهم من أهل الضلال، كما جعلهم مثلاً يمكن أن يتعظ به الآخرون، هذا ما جاء في سورة الزخرف، وهو إن تدبَّرناه نجده يتَّسم بالجدَّة في كل جزئياته[2].

وقد جاء الحديث عن موسى وصراعه مع فرعون في سياق تسلية الرسول ﷺ عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره، واعتزازهم بالقيم الباطلة لغرض هذه الحياة الدنيا، وقد بيَّنت سورة الزخرف اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة، رقم ٢٨٦٥.
(٢) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٥٤٩.

من يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وتباهيه بما له من ملك من سلطان وتساؤله في فخر وخيلاء: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وانتفاخه على موسى ـ عبد الله ورسوله ـ وهو مجرد من الجاه الأرضي، والعَرَض الدنيوي ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، واقتراحه الذي يشبه ما اقترحه كفّار قريش: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ وكأنما هي نسخة تكرر، أو أسطوانة تعاد.

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة، على الرغم من الخوارق التي عَرَضها عليهم موسى عليه السلام، وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربّه فيكشف عنهم البلاء، ثم كيف كانت العاقبة بعدما ألزمهم الله الحجَّة بالتبليغ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾، وها هم أولاء الآخرون لا يعتبرون، ولا يتذكرون.

ومن خلال هذه الحلقة تتجلَّى وحدة الرسالة، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق، كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة في استقبال دعوة الحق، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عَرَض هذه الأرض، وطبيعة الجماهير التي يستخفُّها الكبراء والطغاة على مدار القرون[1].

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦ ـ ٤٧]:

هذه الآيات تعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون في إشارة مقتضبة، تمهيداً لاستعراض النقطة الرئيسية المقصودة من القصة في هذا الموضع، وهي تُشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركي العرب وقيمهم[2].

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٢).

(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٢).

أ ـ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِۦهِ ﴾ : هذا رأس الحديث، وهو كذلك غالباً في كل السور، والواو التي بدأ الحديث بها واو الاستئناف، وهي تعطف ما بعدها إلى آخر قصة موسى على ما قبلها، عطف معنى على معنى، وهذا من أدق روابط المعاني، وتماسك البيان[١]، والآيات التي أرسل بها موسى من الله عزّ وجل هي المعجزات الدالة على صدق الرسول في البلاغ عن الله، وسيدنا موسى عليه السلام كان من أكثر الرسل حيازة للمعجزات، وخوارق العادات، وهذا يعني أن من أُرسل إليهم كانوا أكثر خَلْق الله عناداً وإعراضاً عن المنهج الرباني[٢].

فقد جاء موسى عليه السلام لمن أُرسل إليهم بالمعجزات الظاهرات، التي صاحبت دعوة سيدنا موسى لتؤيده وتُثبت للقوم صدقه في البلاغ عن الله. ويشترط في المعجزة أن تكون موضعاً للتحدي، بحيث لا يقدر أحد على الإتيان بمثلها، وأن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم، ليكون التحدي له معنى، ولأن قوم موسى نبغوا في السِّحر كانت معجزة العصا من المعجزات التي أعطاها الله تعالى لسيدنا موسى، وقد درَّبه ربُّه عزّ وجل على استخدام هذه العصا، وعرّفه ما فيها من أسرار قبل لقائه بفرعون وبالسحرة[٣]. وقد بيَّنتُ ذلك في سورة طه مفصّلاً.

﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِۦهِ ﴾ الملأ: هم أشراف القوم، وقيل: القوم يجتمعون على رأي فيملؤون القلوب هيبة، ثم أُطلق على كل الجماعة.

ب ـ ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ : ملخَّص لرسالته وموجز لما جاء به[٤]، وهي ذات الحقيقة التي جاء بها كل رسول: أنه ﴿ رَسُولُ ﴾ وأن الذي أرسله هو ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [٥].

وهذا شيء عظيم جداً: أن خالق الكون وكل شيء يرسل رسولاً يتكلم بوحي

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٥٥٤.
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩٠١).
(٣) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٣٩٠٤).
(٤) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٣٩٠٤).
(٥) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٢).

من الله تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهذه الكلمة ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تُحدث في النفس السوية، والفطرة المستقيمة، والعقل الرشيد أثراً كبيراً، ومن لم يعبأ برسول رب العالمين فهذا دليلُ الضياع والانحراف عن الفطرة السوية، ودلائل التوحيد، وهذا هو موقفُ فرعون وقومه.

ت ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: وهذه الآية اختصرت اختصاراً شديداً جدّاً لمواقف كثيرة في الأعراف وطه والقصص وغيرها؛ لأنها طوتْ ذكر موسى عليه السلام لآياته، وأنهم قالوا إنها سحر، واجتمع السحرة إلى آخره، وضافت هنا كلمة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وهي واقعةٌ موقعَ كلام كثير مثل: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧]، ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [الشعراء: ٣٥]، ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦] وأحداث وتفاصيل كثيرة، وليس المهم أنها لخصتها، وإنما المهم أنها عبّرت عنها بهذه العبارة التي لم تُذكر إلا في هذه السورة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧].

و(إذا) للمفاجأة، وهي دالة على حصول مضمون ما بعدها بسرعة شديدة، وهذا معناه أنهم لم يتمهَّلوا في معرفة الآيات، ولم يُراجعوا أنفسهم، ولم يُفكِّروا ما هو الواجب حتى يكون موقفهم مؤسَّساً على شيء من الصواب، وإنما سارعوا إلى الإنكار والقول بأنه سحر صار هنا ضحكاً ليضيف معنى تلقينهم للآيات بسخرية وخِفَّة وضحك وهزل، وما هكذا يكون عقلاء الناس، وإنما يجب أن تُراجَع الآيات بجدّ ورزانة وبصيرة، وليس بالخفة والهزل والضحك، وظني أن كلمة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ كأنها إرهاصٌ يقوله فيما بعد ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ لأن قوماً يستقبلون الآيات بخفة وضحك واستهزاء، جديرون بأن يستخدمهم طاغية فيطيعوه، ويلاحظ أن الحق لما ذكر ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أتبع ذلك بقوله جلَّ وتقدّس:

٢ ـ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]:

فلمّا صور الحقُّ جلّ وتقدَّس ما كانوا عليه من خفة وعبث ولهو في تلقّي

آيات الله، ذكر أنه سبحانه وتعالى جعل آياته تتواتر عليهم، وما تأتيهم من آية إلا وهي أكبر من أختها، ويعلم ربنا أن آياته كلَّها أكبر، وأن قليلها ككثيرها؛ لأن الأصل في الآية أن تكون خارجة عن طوق البشر، وهذا هو سرّها، وهذه دلالتها وقيمتها، وإنما وصف لنا سبحانه ما نشعر به، وأنك كلما رأيتَ آية بدا لك أنها أكبر، وهذا تلخيصٌ للآيات التسع؛ العصا واليد، ثم الآيات السبع في الأعراف: السنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

هذه الآية تقابل:

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وابحثْ عن رحمة ربك، التي هي كامنة تحت الأخذ بالعذاب؛ لأن العذابَ مهما اشتد، إذا رجع العبد إلى الله كان رحمةً لا تعدلها رحمة[1].

أ ـ قال الطبري: فلما جاء موسى فرعون، وملأه بحججنا وأدلتنا على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه مما جاءهم به موسى من الآيات والعبر يضحكون، كما أن قومك مما جئتهم به من الآيات والعبر يسخرون، وهذه تسليةٌ من الله عزّ وجل لنبي ﷺ عما كان يلقى من مشركي قومه، وإعلامٌ منه له أن قومه من أهل الشرك لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله، وندبٌ منه نبيَّه ﷺ إلى الاستنان في الصبر عليهم بسنن أولي العزم من الرسل، وإخبارٌ منه له أن عقبى مَرَدَتِهم إلى البوار والهلاك، كسُنَّته في المتمرِّدين عليه قبلهم، وإظفاره بهم وإعلائه أمره، كالذي فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به، من إظهارهم على فرعون وملئه[2].

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٥٦.

(٢) تفسير الطبري، (٢٥/ ٧٩).

وقال الشعراوي: معنى ﴿ءَايَةٍ﴾ يعني معجزة، ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني: أن الإعجاز واضح في جميع الآيات على كثرتها، فكلُّ آية كبيرة من جهة ما؛ لأن المقصودَ من الآيات الإعجاز، وإثبات شيء ليس في مقدور البشر ولا طاقتهم، وما دام أن كل آية تؤدي هذا الغرض فهي آيةٌ كبيرة[١].

ب ـ ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي: عاقبناهم على تكذيبهم، وقد أوضح الحق سبحانه هذا العذاب في موضع آخر، كما بيّنا.

ت ـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: فالحق سبحانه لا يُعذِّب خلقه لأنه يُحبُّ أن يعذِّبهم، إنما يعذِّبهم ليعودوا إليه، فحتى العذاب هنا هو رحمةٌ بهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المكابرة والجدال والعناد، لكن هل رجعوا؟ أبداً، ظلوا على كفرهم وجحودهم حتى بعد أن أخذهم الله بالسنين[٢].

وهكذا لم تكن الآياتُ التي ظهرت على يدي موسى عليه السلام مدعاةَ إيمان، وهي تأخذهم متتابعة، كل آية أكبر من أختها، مما يصدق قولَ الله في مواضيع كثيرة، وفحواه أن الخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهَّل للهدى، وأن الرسول لا يُسمع الصمَّ ولا يهدي العميَ، والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم[٣]:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]:

أ ـ ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾:

﴿وَقَالُوا﴾: عندما نزل بهم العذاب.

﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾: يعنون موسى عليه السلام، وهذا إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩٠٨).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٢٩٠٩).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٣).

يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما خصَّك الله به، وفضَّلك به من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنّا العذاب[١].

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: فأقرّوا بأن لموسى ربّاً، وأن ربَّ موسى هو القادر على أن يكشف عنهم العذاب، وأنهم تخلَّوا عن الهزل والضحك[٢].

ب ـ ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: وكأنهم كانوا يعلمون بما بين موسى عليه السلام وربه، وأن الله أعْلمه أنه يكشف العذاب الذي هم فيه عن المهتدين، وأنهم على طريق الهدى يتأرجحون. وقد قالوا هذا بلفظه مع الطوفان، فلما كشفه الله عنهم نكثوا، وهكذا مع بقية الآيات التي أرسلها الله عليهم، وإنما كانوا يضحكون لمّا جاءهم موسى عليه السلام بآياتنا التي هي العصا واليد؛ لأن موسى عليه السلام لم يأتهم بالسنين، ولا بنقص الثمرات، ولا بالطوفان وما بعده، وإنما هي آيات أخذهم الله بها، وأرسلها عليهم[٣].

ت ـ ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: إنا لمتبعوك، فمصدّقوك فيما جِئْتنا به، وموحّدو الله، فمبصرو سبيل الرشاد[٤].

وقال الشيخ عبد الحميد محمود طهماز: ويبدو أنهم نادَوه بهذا النداء تعظيماً وتوقيراً، فللساحر عندهم مكانة رفيعة، وقد ذكر سبحانه في موقع آخر أنهم نادوه باسمه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، وهذا يدلُّ على أنهم نادَوْه باسمه، وقرنوا معه وصفه بصفة الساحر، فدعا موسى ربّه فكشف العذاب عنهم مع علمه سبحانه أنهم لم يُؤمنوا، كشفه عنهم إمهالاً

(١) تفسير السعدي، (٤/ ١٦١٤).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد أبو موسى، ص٥٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٥٧.
(٤) تفسير الطبري، (٢٥/ ٧٩ ـ ٨٠).

لهم إلى الوقت الذي قدّره بسابق علمه ومشيئته لإهلاكهم[١].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]:

فلما رفعنا عنهم العذاب الذي أنزلناه بهم؛ الذي وعدوا أنهم إن كُشف عنهم اهتدوا لسبيل الحق، إذا هم بعد كشفنا ذلك عنهم ينكثون العهدَ الذي عاهدونا، فغدروا وأصرُّوا على ضلالهم وتمادَوْا في غيهم[٢]، وكان رفع العذاب عنهم بسبب دعاء موسى لربه واستجابته له.

قال الشنقيطي: ما ذكره ـ جل وعلا ـ في هذه الآية الكريمة أوضحه في الأعراف بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥]، والرجز المذكور في الأعراف هو بعينه العذاب المذكور في آية الزخرف هذه[٣]، ثم بيَّنت الآيات سبب إصرارهم وعنادهم[٤].

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣]:

حينما تتابعت الشدائد عليهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله عزّ وجل لرفع هذه المصائب، فانكشفت عنهم، فما الذي حصل؟ صار لسيدنا موسى عليه السلام مكانة عند قوم فرعون، واعتقدوا أنه إنسان عظيم، فكأنه نافس فرعون، ونازعه مكانته[٥].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٧/ ٤٢٩).
(٢) تفسير الطبري، (٢٥/ ٨٠).
(٣) أضواء البيان، (٧/ ٢٥٥).
(٤) التفسير الموضوعي، (٧/ ٤٣٠).
(٥) تفسير النابلسي، (١١/ ٥٢٠).

لقد شعر فرعون بالخطر، واهتزت مكانته أمام قومه، وشعر أن موسى عليه السلام يسحب البساط من تحت قدميه، حيث تتجه الأنظارُ خاصة بعد حادثة السحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى، ولم ينتظروا إذناً من فرعون، وبعد أن نزل بهم القحطُ، وأصابهم الجدب حتى يئسوا، توجَّهوا إلى موسى، وطلبوا منه كشف ما هم فيه؛ لذلك نرى فرعون يحاول أن يُعيد مكانته، ويُحسِّن صورته أمام قومه[١].

فبرز فرعون في جاهه وسلطانه وفي زخرفه وزينته، يخلب عقولَ الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق[٢].

أ ـ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]:

إن ملك مصر، وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير، يبهرها، وتستخفُّها الإشارة إليه، فأما ملك السموات والأرض وما بينهما ـ ومصر لا تساوي هباءة فيه ـ فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسُّه، وتعقد المقارنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد، والجماهير المستعبَدةُ المستغفَلةُ يُغريها البريق الخادع القريب من عيونها، ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبُّر ذلك الملك الكوني العريض البعيد[٣]، ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب، ويستغفلها بالبريق القريب[٤].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾: الواو عاطفة لما بعدها، وقف فرعون في قومه ونادى، وفسّرت الآية وشرحت نداء فرعون لقومه بكل أبعاده، وهدفه هو صرفهم عن موسى عليه السلام ودعوته[٥].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩١٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٣).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٣).
(٤) في ظلال القرآن، (٥/ ٣١٩٣).
(٥) من حديث يوسف وموسى، ص٥٥٩.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ يعني: انتبهوا إلى مكانتي ومُلكي وقدرتي عليكم، ولا تهتموا بأمر موسى، فأنا لا أزال ملك مصر، والأنهار تجري من تحتي، يعني: لا أزال وليَّ نعمتِكم.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾: هذا النداءُ فيه اقترابُ فرعون من قومه، وكأنه يستنصرهم ويتودَّد إليهم بأن يقوموا الآن لنصرته عند خطابه لهم(١)، ونلاحظ في ندائه هذا لقومه لم يقل شيئاً عن ألوهيته، ولم يقل أنا ربكم الأعلى، فقد تنازل عن هذه الشعارات التي لم يعدْ لها موضع بعد ما حدث مع موسى(٢).

﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾: بهذا الاستفهام التقريري، يعني: قولوا لي ألم أزل ملكاً عليكم، ولم يأتِ مثلاً بأسلوب الخبر: أنا ملك مصر(٣).

وكأنه يريدُ منهم أن يقولوا له أنت حاكم مصر، وهذا لا يقوله حاكم مصر لقومه إلا إذا استشعر أن منهم من يوشك أن يُنكره، وهؤلاء الذين مرّوا بهذه التجارب الصعبة والكروب التي لا طاقةَ لهم بدفعها، من الطوفان، والجراد، والقمّل، ورأوا موسى يكشفها عنهم بدعائه لربه، يستحيلُ ألا يكون منهم مَن مال إلى موسى عليه السلام(٤).

فرعون الآن يتحدَّث من موقف الضعف، ثم لأنه كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ و﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، والآن يقول: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ يعني: القطر المصري كله، لا العاصمة، فمصر التي ملكها فرعون من الإسكندرية إلى أسوان(٥).

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾: كلمة ﴿مِن تَحۡتِيٓۖ﴾ تدلُّ على

---

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٣١٩٣).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩١٢).
(٣) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٣٩١٢).
(٤) من حديث يوسف وموسى، ص٥٦٠.
(٥) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩١٥).

التمكن والسيطرة، وبالفعل كانت قصورُه على النهر مباشرة، وكأن النهر يمر من تحتها، وجمع الأنهار مع أننا نعرف أن لمصر نهراً واحداً هو نهر النيل، وأنه يتفرع إلى فرعين؛ دمياط ورشيد، فلماذا قال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؟

قالوا: كانت على أيام الفراعنة خمسة أنهار؛ أي: أنهم فرّعوا من النهر خمسة فروع ليزيدوا من الشواطئ، وبهذا كان لديهم عشرة شواطئ تُبنى عليها قصورهم[١]، فقد زادوا من تفريعات النهر الرئيسي لتزداد فرص البناء المطل على النهر، وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على ترف الحياة حين ذاك.

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: أن الأنهار كانت تجري تحت قصوره بالفعل، وقال بعض المفسرين: حتى إنه جعل من تحت سريره الذي ينام عليه مجرى مائياً كالنهر[٢].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: والفاء التي دخلت عليها الهمزة دالة على المحذوف، وكأنه لاطفهم بهذا الحذف؛ لأن المعنى لا محالة «أعميتُم أفلا تبصرون؟!»، والمراد الحضُّ والحثُّ على النظر واسترجاع الهيمنة والسيطرة، وأن له ملك مصر ونيلها العظيم الذي يجري من تحته، وكأنكم عميتم أفلا تبصرون[٣]؟!

فهذا في نظره يدلُّ على أنه المستحق للطاعة والمتابعة، دون نبي الله موسى عليه السلام؛ ولهذا أضاف قائلاً معرِّضاً بموسى عليه السلام:

ب ـ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]:

أي: بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف فقير، ولا يُبين الكلام، قال ذلك افتراءً على موسى عليه السلام، وتنقيصاً له، إذ كان في لسانه خَلَل يسير في النطق، أبرأه الله سبحانه منه كما سبق لنا عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾

(١) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٣٩١٧).
(٢) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٣٩١٩).
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٥٦١.

﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨]، فاستجاب الله له فقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] (١).

لقد انتقل فرعون في هذه الجملة إلى مقارنة عجيبة جدّاً، ودالَّة على أنه استشعر خطر موسى على ملكه، وكأن موسى ينازعه ملكه، وأنتم لستم قوم موسى، وإنما أنتم قومي فأخبروني، ألست خيراً من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين؟! وأول مرة يسيء فرعون إلى موسى هذه الإساءة الكاذبة والبذيئة، وقد هدد الذين آمنوا معه، ولم يُهدِّده، وقصارى ما كان يكذب فيه على موسى هو قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [الشعراء: ٣٥]، وأنه كبير السحرة الذين علَّمهم السحر، أمّا أن يقول هو مهين، فإن هذه الإساءة ما أخرجها من نفس فرعون إلا الإحساس بأن موسى أوشك المصريون أو بعضهم أو أقلهم أن يختار موسى مكان فرعون.

وفرعون يعرف موسى وعقله وأدبه، وأنه أُوتي حكماً وعلماً، وأنه تربَّى ولبث فيهم من عمره سنين، وما مكث سنين بعد تربيته إلا لأنه كان له مكانٌ في بيت فرعون لا يسدّ أحد اختلاله، ولو كانوا عطفوا عليه وهو وليد فربَّوه، فما الذي جعلهم يقيمونه بينهم سنين بعد تربيته؟!

هل يمكن أن يقيموه بينهم بعد تربيته وهو مهين محتقر؟! لا شك في أن فرعون قد علا غيظه من موسى، مع أن موسى لم يفعل إلا الخير، وقد سأله الناسُ ومنهم فرعون أن يدعو ربّه ليكشف عنهم العذاب ففعل، ولم يطلب منهم شيئاً سوى توحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة؛ ولهذا كان هذا الوصف من فرعون لموسى ليس له سبب إلا سبب واحد، وهو شعور فرعون أن موسى صار خطراً على ملكه(٢).

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: جملة كاذبة؛ لأن معناها أنه لا يَبين ولا يقارب أن يبين، وأن موسى سأل ربّه أن يحلّ عقدة من لسانه فأجابه ربه، وأن موسى حاوره وخاطبه،

---

(١) التفسير الموضوعي، (٧/ ٤٣٠).

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٥٦١.

وخاطب الملأ حوله، وفهم فرعون من موسى، وفهم الملأ، وإنما هو الملك له أن يكذب ما يشاء، وأن يقول ما يشاء، وأن يسفّه من كرام الناس ما يشاء.

وبعد هذه المقارنة بينه وبين موسى عليه السلام، التي كشف فيها سرّاً من أسرار نفسه، وأن من قومه من يرى موسى خيراً منه، لأنك لا تقول للناس في صيغة سؤال وليس في صيغة خبر: ألست خيراً من فلان، إلا إذا كنت ترى فلاناً هذا يزاحمك عند بعضهم على الأقل، وفرعون يحرص على ألا يخرج عليه من قومه فرد واحد.

أقول: بعد هذا انتقل فرعون إلى حالة ثالثة، وهي تُشبه حالة الالتزام بالشرعية، وأنه نُصّب ملكاً، وأُلقيت عليه الأساور التي هي شعار رضى القوم بملكه، فقال:

ت ـ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]:

وكل هذا إلحاح في بيان فضله على موسى عليه السلام، وأن الذي أُلقيت عليه أسورة من ذهب لا يجوز خلعه، وأن الذي لم تُلقَ عليه أسورة من ذهب لا يجوز ملكه، وأنا أُلقيت عليّ أسورة من ذهب يوم ملكت، وموسى لم تُلق عليه أسورة من ذهب؛ لأنه لم يملك، فكيف بكم؟! وأي شيء أصابكم؟! فرعون يقول لهم تمسَّكوا بالشرعية، وإذا كان مرسلاً من ربّه كما يزعم فلماذا لم يُرسِلْ معه ربُّه ملائكة تقترن به وتساعده على أداء رسالته؟

المهم عند فرعون بيان أن موسى ليس ملكاً؛ لأنه لم تُلقَ عليه أسورة من ذهب، وليس رسولاً لأنه لم ترسل معه الملائكة. ويلاحظ أن فرعون سكت سكوتاً مطبقاً عن الأحوال والأحداث التي مرت وشدّة العذاب الذي أرسله الله عليهم، وأن فرعون نفسه كان يقول لموسى من هول ما كان يجد من الطوفان، والجراد، والقمل، والدم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

وركّز فرعون على ما نسميه الآن بالشرعية، وهي أن موسى لم ينصَّب ملكاً، وأنني أنا الذي نُصِّبت، وهذه الأنهار تجري من تحتي، وبهذا استخفّ قومه فأطاعوه[1].

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٦٢.

ـ **قال الرازي**: المراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوَّروه بسوار من ذهب، وطوقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة(١).

ـ **وقال القرطبي**: والمعنى: هلا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربّه حتى يتكثَّر بهم ويُصرِّفَهم على أمره ونهيه، فيكون ذلك أهيب في القلوب. فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يعلم أن رسل الله إنما أُيدوا بالجنود السماوية، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرُّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء، كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً ـ في قول مقاتل ـ أو دليلاً على صدقه ـ في قول الكلبي ـ وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كافٍ، وقد كان في الجائز أن يكذِّب مع مجيء الملائكة عما كذَّب مع ظهور الآيات. وذكرَ فرعونُ الملائكةَ حكايةً عن لفظ موسى؛ لأنه لا يُؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم(٢).

لقد استطاع فرعون من خلال عرضه التافه والرخيص وخداعه لقومه أن يستخفَّهم، فأطاعوه.

٦ ـ **قوله تعالى**: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤ ـ ٥٦]:

أ ـ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾: الاستخفاف: يعني العجلة والطيش وعدم التدبر في المسائل، أي: استخفَّهم فرعون بهذا الكلام، فأطاعوه على الضلال الذي هو فيه، ووافقوه على الفساد، ولا يوافق على الفساد

(١) التفسير الكبير، (٢٧/ ٢٢٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (١٦/ ١٠٠ ـ ١٠١).

إلا المنتفع به، أو وجدهم أهل طيش ورعونة وعدم تفكر في الأمور، فضحك عليهم بهذا الكلام(١).

قال ابن عاشور: فتفزَّع عن نداء فرعون قومه أن أثّر بتمويهه في نفوس ملئه، فعجّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لما رأوا من الآيات، فالخفّة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه، إلى التعجيل بالامتثال له، كما يخفُّ الشيء بعد التثاقل. والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم، فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدّقوا موسى في نفوسهم لمّا رأوا آياته نزولاً ورفعاً.

والمراد بـ ﴿قَوْمَهُۥ﴾ هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى، هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون، والمعنى: أنهم إنما خفّوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر؛ لأنهم كانوا يؤلّهون فرعون، فلما حصل لهم تردّد في شأنه ببعثة موسى عليه السلام، لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب(٢).

وقال الطبري: وإنما أطاعوا فاستجابوا لما دعاهم إليه عدوُّ الله، من تصديقه وتكذيب موسى؛ لأنهم كانوا قوماً عن طاعة الله خارجين بخذلانه إياهم، وطَبْعِه على قلوبهم(٣).

وقال السعدي في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾: فبسبب فسقهم، قيض لهم فرعون، يُزيِّن لهم الشرك والشر(٤).

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾: تؤكد فسوقهم الذي ليس له معنى هنا إلا معنى واحد، وهو خروجهم عن الحق

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩٢١).
(٢) التحرير والتنوير، (٢٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٣) تفسير الطبري، (٢٥/ ٨٤).
(٤) تفسير السعدي، (٤/ ١٦١٥).

الذي تبين لهم، إلى الباطل الذي دعاهم إليه فرعون، والفسوق في اللغة الخروج، يقولون: فَسَقت الرّطبة إذا خرجت[١]، فهم خرجوا عن طاعة الله، ووقعوا في الكفر والشرك والمعاصي.

وقال النابلسي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: طُمس على قلوبهم لفسقهم، إذ استخفَّ عقولهم فأمرهم بما لا يُعقل، فأطاعوه، فكانوا قوماً فاسقين، وكأن هناك علاقة بين الفسق وخفة العقل، ففسقهم جعلهم هزيلي العقول، ضعيفي النفوس، وفسقهم مع ضعف عقولهم ونفوسهم جعلهم أدوات رخيصة بيد فرعون[٢].

والفسق في تعريفه الدقيق: هو الخروج عن منهج الله وطاعته، وعندما يطيع الإنسان مخلوقاً في معصية الخالق، أو يطيع أمراً سخيفاً من جهة أرضية، فهذا لا عقل له، ويصبح مثل سقط المتاع، ليس له قيمة أبداً، يخاف من ظله، فمتى يُستخَفُّ بالإنسان؟ ومتى تضعف نفسه؟ ومتى تتهاوى معنوياته؟ ومتى يخنع؟ ومتى يذلّ؟ ومتى يقبل الضّيم؟ إذا كان عاصياً لله عزّ وجل، وكان عبداً لشهواته[٣].

وهذا ما حدث لقوم فرعون، وقعوا في الفسق الأكبر ـ الشرّ والكفر ـ والفسق الأصغر ـ المعاصي والذنوب والكبائر بأنواعها ـ وكانت هنا حالات استثنائية كما حدث لامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، حيث دخلوا في دين الإسلام «دعوة موسى عليه السلام»، وغمرت قلوبَهم تعاليمُه من التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وانعكس ذلك في أقوالهم وأفعالهم.

ب ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: يُخبر الله في هذه الآيات أنه أغرق فرعون وجنوده بعد أن آسفوه سبحانه.

قال ابن عباس: أسخطونا، وقال ابن عباس في رواية أخرى له ومجاهد

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٦٣.
(٢) تفسير النابلسي، (١١/ ٥٢١).
(٣) المصدر نفسه، (١١/ ٥٢٢).

وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم، ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا[١].

قال أبو عبد الله علي الرضا بن موسى الكاظم: إن الله لا يأسف كأسفنا، ولكن له أولياء يأسفون ويرضون، فجعل رضاهم رضاه، وغضبهم غضبه[٢]. لقد أغضب فرعون وجنوده رب العالمين بكفرهم وضلالهم، كما أغضبوا موسى عليه السلام والمؤمنين، وهم أولياء الله وأحبابه، واستحقوا بذلك العقاب، حيث أوقع الله بهم عذابه وانتقامه، وأغرقهم في البحر، وجعلهم عِبرة لمن يعتبر[٣].

لقد اشتد غضبُ الله عليهم بسبب إفراطهم في الكذب والفسوق، وانغماسهم في الكفر والشرك، ومحاربتهم لرسول الله موسى عليه السلام، فكانت العقوبةُ بإغراقهم أجمعين. وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله تبارك وتعالى يُعطي العبد ما يشاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا ﷺ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: وجدت النقمة مع الغفلة[٤].

ت ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾: أي: جعلناهم قدوة للكفار الذين يأتون بعدهم في استحقاق العذاب، وعِظة وعِبرة للناس بعدهم، ويجوز أن يُراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال، ومعنى كونهم أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١][٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٣٢).
(٢) المفردات، ص٧٥٠.
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٩٩).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير، (٣/ ٢٩٢).
(٥) التفسير الموضوعي، (٧/ ٤٣١).

قال ابن جرير: فجعلنا هؤلاء الذين أغرقناهم من قوم فرعون في البحر مقدمةً يتقدَّمون إلى النار كُفَّارَ قومك يا محمد من قريش، وكفارُ قومك لهم الأثر، وقوله: ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾، يقول: وعِبرة يتَّعظ بهم مَن بعدهم من الأمم، فينتهوا عن الكفر بالله[1].

ثالثاً: قصة موسى عليه السلام في سورة الدخان:

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٣٣]:

يشبه إيقاعُ هذه السورة المكية بفواصلها القصيرة، وقافيتها المتقاربة، وصورها العنيفة، وظلالها الموحية، يشبه أن يكون إيقاعها على مطارق أوتار القلب البشري المشدودة. ويكاد سياقُ السورة أن يكون وحدة متماسكة ذات محور واحد، تُشَدُّ إليه خيوطها جميعاً، سواء أكانَ ذلك في هذه القصة ومشهد القيامة ومصارع الغابرين، أم كان في المشهد الكوني والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة، فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة، كما بيَّنها هذا القرآن الكريم[2].

إن سورة الدخان تهجم على القلب البشري من مطلعها إلى ختامها في إيقاع

---

(١) تفسير الطبري، (٢٥/ ٨٥).

(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٢٠٧).

سريع متواصل، تهجم عليه بإيقاعها، كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتجددة في سمة العنف والتتابع، وتطوف به في عوالم شتَّى بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وسنن الخلق ونواميس الوجود؛ فهي على قصرها نسبيّاً رحلة ضخمة في عالم الغيب والشهادة، وكان من ضمن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام: الحديث عن قصة موسى مع فرعون وملئه في هذه السورة[١].

فبعد أن بيَّن الله تعالى إصرار مشركي مكة على كفرهم، بيّن أنَّ كثيراً من المتقدمين كانوا أمثالهم في تكذيب الرسل، وفي طليعتهم قومُ فرعون الذين كذبوا رسولهم موسى عليه السلام، فنصره الله عليهم، وأغرقهم، وجعلهم عِبرةً للمُعتبر[٢].

١ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٧]:

هذه الجولة تبدأ بلمسة قوية لإيقاظ قلوبهم، إلّا أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنة وابتلاء، والإملاء للمُكذِّبين فترة من الزمن، وهم يستكبرون على الله، ويُؤذون رسول الله والمؤمنين معه، قد يكون كذلك فتنة وابتلاء، وإغضاب الرسول واستنفاد حلمه على أذاهم، ورجائه في هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم، والبطش الشديد.

أ ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾: وابتليناهم بالنعمة والسلطان، والتمكين في الأرض، والإملاء في الرخاء، وأسباب الثراء والاستعلاء[٣]، وامتحنَّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو عاملناهم معاملة الممتَحَن؛

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٢٠٧).
(٢) التفسير المنير، للزحيلي، (١٣/ ٢٣٥).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٢١٣).

ليظهر حالهم لغيرهم[١]، والفتنة لا تُذَمُّ لذاتها، وإنما تذمُّ لنتيجتها، مثل الامتحان؛ لا يمدح ولا يذمّ لذاته، إنما حسب ما يترتب عليه، وما ينتج عنه[٢].

ب ـ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مُكرَّمٌ مُعَظَّم عند الله عزَّ وجلَّ، أو عند المؤمنين، أو عنده تعالى وعندهم، أو كريمٌ في نفسه، مُتَّصِفٌ بالخصال الحميدة والصِّفات الجليلة حسَباً ونسَباً[٣].

قال الرازي: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: هو موسى، واختلفوا في معنى الكريم ههنا، فقال الكلبي: كريم على ربه، أي: إنَّه استحقَّ من ربّه أنواعاً كثيرة من الإكرام، وقال مقاتل: حسن الخلق، وقال الفَرَّاء: يقال: فلان كريم قومه؛ لأنّه قلَّما بُعِثَ رسولٌ إلا من أشراف قومه وكرامِهم[٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨]:

أ ـ ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أدُّوا إليّ عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسَوْمِكم إيّاهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي، وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتموهم، واستعبدتموهم بغير حق، فأرسِلوهم؛ ليعبدوا ربهم[٥].

قال ابن عطيَّة: واختلف الـمُتَأَوِّلون في الشيء المؤدَّى في هذه الآية ما هو؟ فقال مجاهد وابن زيد وقتادة: طلب منهم أن يُؤدُّوا إليه بني إسرائيل، وعَناهم بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾، وقال ابن عباس: المعنى: اتَّبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحقِّ، فقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ منادى مضاف، والمؤدَّى هو الطَّاعة والإيمان

---

(١) أوضح المعاني في تهذيب تفسير روح المعاني، أبي الفضل شهاب الدين الآلوسي البغدادي، تحقيق: محسن عبد الحميد، عَمان، دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠١٥م، (٤/ ٥٢٥).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩٩٤).
(٣) أوضح المعاني في تهذيب تفسير روح المعاني، الآلوسي، المصدر السابق، (٤/ ٥٢٥).
(٤) التفسير الكبير، (٢٧/ ٢٤٦).
(٥) تفسير السعدي، ص٧٧٣.

شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر، فكان خيراً له»[١].

ولا يعرف الإنسانُ قيمةَ النعمة ويتذوق طعمها الحقيقي إلا إذا عرف طعم الحرمان، وتذكَّر أيام الظلم والطغيان؛ ولهذا ذكّر موسى عليه السلام قومه بالظلم الذي كانوا فيه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦]:

إنه لمّا تقدم أمر الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام بالتذكير بأيام الله، امتثل أمرَ ربه، فذكّرهم بما أنعم الله تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضِمنِها تعداد شيء مما نزل عليهم من نقمات الله[٢].

أ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: واذكر ـ يا محمد ـ قول موسى لقومه بني إسرائيل: اذكُروا بقلوبكم وألسنتكم إنعام الله عليكم، حين أنجاكُم من فرعون وقومه[٣].

ب ـ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يُذيقكم آل فرعون سُوءاً شديداً[٤].

ت ـ ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: ويذبحون أبناءكم الذكور المولودين[٥].

ث ـ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾؛ أي: ويتركون إناثكم دون قتل من أجل جَعلهنَّ أرقاء[٦].

---

(١) مسلم، رقم ٢٩٩٩.
(٢) تفسير أبي حيان، (٦/ ٤١٠)، تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.
(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٧٩).
(٤) التفسير المحرر، (١٢/ ٢٤٦).
(٥) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٧٩).
(٦) تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.

قال محمَّد متولي الشَّعراويُّ: أرجَعَ الأمرَ إلى مصدره الأوَّل، فلم يقل: ألا تعلوا عليَّ، إنَّما على الله، يعني: افهموا أنَّ المعركة ليست بيني وبينكم، بل بينكم وبين الله الذي أرسلني، فحين تعلون، وتعاندون، لا تعلون عليَّ، إنَّما على الله الذي كلَّفني، وأرسلني إليكم.

ويعني: لا أتكلم من عند نفسي إنما بأمر السماء، وفيه إشارةٌ أيضاً إلى إبطال ألوهيَّةِ فرعون، أنتم بينكم وبين أنفسكم تعلمون أنَّكم لستم آلهةً، وأنَّ هذا ادِّعاء كاذبٌ؛ لذلك خَوَّفَهم بالإلهِ الحقِّ[١].

ـ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟﴾: قالَ ابن عبَّاس: لا تفتروا[٢].

ـ وقال قتادة بن دعامة: لا تَغْتَرُّوا.

ـ وقال مقاتل بن سليمان: لا تَعظُموا على الله أن توحِّدوه[٣].

ب ـ ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: هي هذه المعجزات التي جاء بها، وقد مرَّت بنا كثيراً في سور متعدِّدة من كتاب الله، العصا واليد وغيرها[٤].

ـ وقال الطَّبَريُّ: إني آتيكم بحجَّة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهانٍ على صحَّتها، ظاهِرٌ لمن تأمَّلَها وتدبَّرَها إنَّها حجَّة لي على صحَّة ما أقول لكم[٥].

ـ قال محمَّد متولي الشَّعراويّ: بحجَّة واضحة وآية بيِّنة، وهي العصا، والعصا آية من جنس السِّحْرِ الذي نبغ فيه قوم فرعون، ولكنها ليست من نوعه؛ لأنَّ السحر في حقيقته تخييل للأعين كما قال سبحانه: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ لذلك لما رأى السحرة عصا موسى تلقف

---

(١) تفسير الشعراوي، ٢٢/ ١٣٩٩٧).
(٢) موسوعة التفسير المأثور، إشراف الدكتور مساعد سليمان الطيار (مركز الدراسات والمعلومات القرآنية)، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ٢٠١٧م، (٢٠/ ٢٧).
(٣) موسوعة التفسير المأثور، (٢٠/ ٢٧).
(٤) تفسير القرآن المجيد، فضل حسن عباس، (٥/ ٢١٨١).
(٥) تفسير الطبري، (٢٥/ ١١٩).

ما صنعوا خَرُّوا ساجدين، لا لموسى، بل لربِّه، دون أن ينتظروا إذناً من فرعون، لماذا؟. لأنهم رأوا شيئاً غير السِّحر، ليس تخييلاً للأعين، إنما هو حقيقةٌ واقعةٌ، وهم أدرى النَّاس بماهيَّة السِّحْر(١).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠]:

أ ـ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾:

يعني: لجأتُ إليه، وتحصَّنتُ به من أذاكم. وتأمَّل ساعة قالها موسى كيف أنَّه استعاذ بمُعيذٍ، ولجأ إلى ركن شديدٍ، لا يُضام من التجأ إليه، ماذا حدث بعد أن استعاذ بالله؟. سخَّرَ اللهُ له رجلاً من قوم فرعون يصدِّقُ موسى، ويدافع عنه، وهذه الاستعاذة نفعته في قضيّة انفلاق البحر لما أدركه فرعون وجنوده عند شاطئ البحر، حتَّى قال أصحابُ موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، إذْ لا أمل ولا نجاة. أمَّا موسى فلديه رصيدٌ من الثقة بربِّه، فقال: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] (٢)، قالها وهو واثق بها، وقد رأينا ما حدث في قصّة موسى عليه السَّلام في سورة الشُّعَراء.

ب ـ ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾: دلَّ على أنَّ الرَّجْمَ كان موجوداً في الأمم السابقة التي كانت تُكذِّب رسولَها(٣).

ـ قال ابن عاشور: والرَّجْمُ: الرَّمْيُ بالحجارة تِباعاً حتَّى يموت المرمِيُّ، أو تُثخِنُه الجراح، والقصد منه تحقير المقتول منهم؛ لأنَّهم كانوا يَرمُون بالحجارة من يطردونه، قال تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]، وإنما استعاذ موسى؛ لأنَّه علم أنَّ عادتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رمياً بالحجارة، وجاء في سورة القصص: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، ومعنى ذلك: إن لم تؤمنوا

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٣٩٩٧).
(٢) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٣٩٩٨).
(٣) تفسير الشعراوي، (٢/ ١٣٩٩٩).

بما جئت به فلا تقتلوني، كما دلَّ عليه تعقيبُه بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾، والمعنى: إن لم تؤمنوا بالمعجزة التي آتيكم بها فلا ترجمون، فإني أعوذ بالله من أن ترجموني، ولكن اعتزلوني، فكونوا غير موالين لي، وأكون مع قومي بني إسرائيل، فالتَّقدير: اعتزلوني، وأعتزلكم؛ لأنَّ الاعتزال لا يتحقَّق إلا من جانبين(١).

ـ وقال ابن جرير الطَّبَريُّ: واختلف أهل التَّأويل في معنى الرَّجْمِ الذي استعاذ موسى نبيُّ الله عليه السَّلام بربِّهِ منه، فقال بعضُهم: هو الشَّتْم باللِّسان.

وقال آخرون: بل هو الرَّمْيُ بالحجارة.

وقال آخرون: بل عنى بقوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾: أن تقتلوني. وأولى الأقوال في ذلك بالصَّواب ما دلَّ عليه ظاهر الكلام، وهو أنَّ موسى عليه السَّلام استعاذ بالله من أن يرجمه فرعون وقومه. والرَّجْمُ قد يكون قولاً باللِّسان، وفعلاً باليد. والصَّواب أن يقال: استعاذ موسى بربِّهِ من كلِّ معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروهٌ، شتْماً كان ذلك باللسان، أو رجماً بالحجارة باليد(٢).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١]:

فكونوا بمعزلٍ مني لا عليّ ولا لي، ولا تتعرَّضوا لي بسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحُكم(٣).

ـ قال الطَّبَريُّ: يقول ـ تعالى ذكره ـ مخبراً عن قيل نبيه موسى عليه السلام لفرعون وقومه: وإن أنتم لم تصدِّقوني على ما جئتُ به من عند ربي فاعتزلوني، يقول: فخلُّوا سبيلي غير مرجوم باللِّسان ولا باليد(٤). فلما يئس من إيمانهم، ولمس إصرارهم على الكفر وعنادهم، دعا عليهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير، (٢٥/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).
(٢) تفسير الطبري، (٢٥/ ١١٩ ـ ١٢٠).
(٣) أوضح المعاني في تهذيب تفسير روح المعاني، د. محسن عبد الحميد، (٤/ ٥٢٦).
(٤) تفسير الطبري، (٢٥/ ١١٩ ـ ١٢٠).
(٥) التفسير المنير، (١٣/ ٢٣٦).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]:

فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، وما زادهم كلُّ ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربَّه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩]، وهكذا دعا ههنا ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون، ومشاورته، واستئذانه[١]؛ ولهذا قال:

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣ ـ ٢٤]:

أ ـ ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: والسُّرى لا يكون إلا ليلاً، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد، مشهد السُّرى بعباد الله ـ وهم بنو إسرائيل ـ ثم للإيحاء بجَوِّ الخُفْية؛ لأنَّ سُراهم كان خُفْيةً عن عيون فرعون ومن وراء علمه[٢].

لقد أجاب الله دعاء موسى عليه السلام، وأمره أن يسير بقومه بني إسرائيل ليلاً؛ لأنَّ فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٧٧][٣].

ب ـ ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾: وذلك أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان؛

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٢١٣).
(٣) التفسير المنير، (١٣/ ٢٣٧).

ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون؛ فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشَّره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنَّه لا يخاف دَرَكاً ولا يخشى[١].

والمعنى: اترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربتَه بعصاك، ولا تأمره أن يرجع كما كان؛ ليدخله آلُ فرعون بعدك وبعد بني إسرائيل، فينطبقَ عليهم، فيغرقوا.

وقال أبو عبيدة: رها بين رجليه يرهو رهواً؛ أي: فتح، قال: ومنه قوله: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ والمعنى: اتركه منفرجاً كما كان بعد دخولكم فيه، قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظاهما؛ لأنَّ البحر إذا سكن جريُه انفرج[٢].

وحين ضرب موسى عليه السلام البحرَ تجمّد الماء، وسكن في مكانه على شكل جبلين كبيرين بينهما يابس، ورأى موسى هذا اليابس طريقاً ممَهَّداً؛ فعبره إلى الجانب الآخر، وطبيعيٌّ ـ حسب تفكير العقل ـ أن يضرب البحر مرة أخرى؛ ليعودَ إلى سيولته، ويمنع فرعون وجنوده من اللحاق به، لكنَّ لله تعالى في الأمر تدبيراً آخرَ، فقال له: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ أي: على سكونه؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد أن يهلك فرعون وجنوده بالشيءِ نفسِهِ الذي نجّى به موسى وقومَه، وهذا من طلاقة قدرة الله عزَّ وجلَّ، ففرعون استُدرِجَ في هذا الطريق اليابس الساكن، وعبر خلف موسى في النهاية.

وفعلاً ما إن وصل موسى إلى الناحية الأخرى من البحر حتى كان فرعون في وسطه، وعندما أمر الله الماء أن يعودَ إلى استطراقه وسيولته، أغرق فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾، فبطلاقة القدرة أنجى الله سبحانه، وأهلك بالشيء الواحد[٣].

لقد مرّ موسى وقومه، وأمره الله أن يترك البحرَ ساكناً على هيئته التي مرّ هو وقومه فيها لإغراء فرعون وجنده باتِّباعهم، ليتمَّ قدر الله فيهم كما أراده ﴿إِنَّهُمۡ

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٢).
(٢) فتح القدير، للشوكاني، (٤/ ٨٠٤).
(٣) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠٠١).

﴿جُندٌ مُّغۡرَقُونَ﴾، فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظَّاهرة، والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم، ويختصر السياقُ حكايةَ مشهد الغرق أو عرضه، اكتفاءً بالكلمة النافذة التي لا بدَّ أن تكون ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغۡرَقُونَ﴾.

ويمضي هذا المشهدُ الـمُضمَر إلى التَّعقيب عليه، تعقيباً يشي بهوان فرعون الطاغية المتعالي وملئه الممالئ له على الظلم والطغيان، هوانه وهوانهم على الله، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه، فيطأطئ له الملأ المفتونون به، وهو أَضْأَلُ وأزهد من أن يُحِسَّ به الوجود، وهو يُسْلب النعمة، فلا يمنعها من الزَّوال، ولا يَرثِي له أحدٌ على سوء المآل[١].

ثمَّ ذكر تعالى ما خلَّفوه وراءهم من عزٍّ ومجدٍ ونعيم وثراء[٢]، فقال:

٨ ـ قوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]:

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذي كانوا فيه يرفلون، جنات وعيون وزروع ومكان مرموق، ينالون فيه الاحترام والتكريم ونعمة يلتَذُّون بها، ويطعمونها، ويعيشون فيها مسرورين محبورين، ثم يُنزَع هذا كلُّه منهم، أو ينزعون منه، ويرثُهُ قومٌ آخرون. وفي موضع آخر قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون ذاتَه، ولكنهم ورثوا ملكاً مثله في الأرض الأخرى، فالمقصود إذن هو نوع الملك والنعمة ـ الذي زال عن فرعون وملئه ـ وورثه بنو إسرائيل[٣]. وفي القضيَّةِ كلامٌ كثيرٌ للمفسِّرين[٤].

ثم ماذا؟. ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه

---

(١) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٢١٤).
(٢) التفسير المنير، (١٣/ ٢٣٧).
(٣) في ظلال القرآن، (٥/ ٣٢١٤).
(٤) تفسير القرآن المجيد، فضل حسن عباس، (٥/ ٢١٨٢).

الأرض؛ ذهبوا فلم يَأْسَ على ذهابهم أحدٌ، ولم تشعر بهم سماءٌ ولا أرضٌ، ولم يُنْظَروا أو يؤَجَّلوا عندما حلَّ الميعاد.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾: تعبير يلقي ظلالَ الهوان، كما يلقي ظلالَ الجفاء، فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحدٌ في أرض ولا سماء، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا في سماء، وذهبوا ذهاب النِّمال، وهم الّذين كانوا جبَّارين في الأرض، يطؤون الناس بالنِّعال، وذهبوا غير مأسوف عليهم، فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربِّهِ، وهم به كافرون، وهم أرواح خبيثة شرِّيرة منبوذة في هذا الوجود، وهي تعيش فيه، ولو أحسَّ الجبَّارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء، لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله، ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قُطِّعَتْ آصرةُ الإيمان[1].

أ ـ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥]:

ـ ﴿كَمْ﴾: هي الخبرية المفيدة للتَّكثير في محلِّ النَّصب على أنّها مفعول ﴿تَرَكُوا۟﴾.

ـ ﴿مِن جَنَّٰتٍ﴾: بيان لإبهامها، ﴿وَعُيُونٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: ترك آل فرعون في مصر كثيراً من بساتين، وعيون نابعة بالماء، وكانت بساتينهم كثيرة متَّصلةً من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً، ولعلَّ المراد بالعيون: الأنهار الجارية المتشعِّبة من النيل[2]، فشبَّهها بالعيون. ويحتمل أنَّه كانت هُناكَ عيونٌ ونضبت، كما يعتري كثيراً من بقاع الأرض[3].

---

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٣٢١٤).

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله العلوي الهرري الشافعي، تحقيق: هاشم بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، ط١، ٢٠٠١م، (٢٦/ ٣٥٩).

(٣) المحرر الوجيز، (٥/ ٧٢).

لقد فعل موسى ما أُمِرَ به بأن ترك البحر رهواً، فدخله فرعون وجنوده، فأُغرقوا، وتركوا بساتينَ كثيرةً وعيوناً نابعة. قال بعضُهم: لما كان فرعون يفتخر بالماء وجريان الأنهار من تحت قصره وأشجار بساتينه، جاء الجزاء من جنس العمل؛ ولذا أمر الله تعالى موسى عليه السَّلام بأن يسير إلى جانب البحر دون البرِّ، وإلاَّ فالله سبحانه وتعالى قادٌر على إهلاك العدوِّ في البرِّ أيضاً بسبب من الأسباب، كما فعل بأكثر الكُفَّار ممَّن كانوا قبل القِبْط[١].

ب ـ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٦].

ـ ﴿وَزُرُوعٍ﴾: ﴿وَ﴾ كم تركوا من ﴿زُرُوعٍ﴾ كثيرة الأقوات، جمع زرع، وهو ما استُنبِت بالبذر تسمية بالمصدر من: زرع الله الحرث؛ إذا أنبتَه وأنماه.

قال في «كشف الأسرار»: أي: وفنون الأقوات وألوان الأطعمة؛ أي: كانوا أهل ريف وخصب، خلاف حال العرب.

ـ ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: محافل مزيَّنة، ومنازل محسَّنة[٢].

قال ابن كثير: وهي المساكن الكريمة الأنيقة، والأماكن الحسنة[٣].

وقال الرَّازي: والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة، وقيل: المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها[٤]، وقال الشَّعراويُّ: مَقام، بفتح الميم: اسم مكان القيام إذا كنت جالساً قمت، واسم مكان الإقامة: مُقام، بضمِّ الميم، لموضع الإقامة، والمُقام لا يُوصف بأنَّه كريم إلا إذا توفرت لمن يقيم فيه سبل الراحة والرفاهية، فالمقام نفسُه فيه كرم، يعني: يجمع لصاحبه كلَّ وسائل الخير حين يقوم وحين يجلس، وكأنَّ الخير تابعٌ له مطيعٌ لأوامره،

(١) تفسير حدائق الروح والريحان، (٢٦/ ٣٦٠).
(٢) المصدر نفسه، (٢٦/ ٣٦٠).
(٣) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٢).
(٤) تفسير الرازي، (٢٧/ ٢٤٧).

ولا يكون ذلك إلا إذا كان له تابعون وهو متبوع، وهؤلاء التَّابعون يُؤدُّون له أوامرَه في قيامه وفي قعوده.

كما وردت كلمة «مُقام» بضم الميم، وهي بمعنى مكان الإقامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، وفي قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦] (١).

ت ـ ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]:

ـ قال ابن كثير: أي: عيشة كانوا يتفكَّهون فيها، فيأكلون ما شاؤوا، ويلبسون ما أحبُّوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسُلبوا ذلك جميعَه في صيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنَّم وبئس المصير (٢).

ـ وقال ابن عطيَّة: والنَّعمة ـ بفتح النُّون ـ: غَضارة العيش ولذاذة الحياة، والنِّعمة ـ بكسر النون ـ أعمُّ من هذا؛ لأنَّ النَّعمة بالفتح من جملة النِّعَم بالكسر، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نِعَماً، ولا يقال نَعمة ـ بالفتح ـ (٣).

ـ وقال الشعراوي: كلمة ﴿نَعْمَةٍ﴾ وردت بفتح النون مرتين كما هنا، ووردت بكسر النون مثل: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] في (٣٤) موضعاً، إمّا مفردة وإمّا مضافة إلى الله، ووردت نعمتي ونعمتك ونعمته للغائب، والفرق بينهما أن نِعمة ـ بالكسر ـ تعني: ما تنعَّمْتُم به، ولكن يلاحظ أنَّ المتنعَّم به أشياء خارجة عن الذات، فمرة توجد النِّعمة، وتوجد القدرة على التنعُّم بها، أما النَّعمة ـ بالفتح ـ فتعني وجود النِّعمة ووجود القدرة على التَّنعُّم بها (٤).

ـ وقوله: ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾: من التَّفَكُّه والتَّلَذُّذ، مأخوذة من الفاكهة،

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠٠٢).
(٢) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٣).
(٣) المحرر الوجيز، (٥/ ٧٣).
(٤) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠٠٣).

وهي تدلُّ على الرَّفاهية، ؛ لأنَّ الطعام منه أشياء ضروريّة أساسيّة، وهي التي بها قوام الحياة واستبقاؤها، وطعامٌ آخر للترف والمتعة كالفاكهة تؤكل بعد الطعام، وهذه الأشياء للترف والمتعة يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها ليست من الضَّروريَّات، بدليل أنَّ كثيراً من الناس لا يعرفون أكل الفاكهة، وهم أحياء يُرزقون، إذن: كانوا في رَفاهيَة من العيش وفي متعة فضلاً عن الضروريات[١].

قال الشَّوكانيُّ في قوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾: قُرئت فكهين، والمعنى على القراءة الأولى «فاكهين»: متنعِّمين، طيِّبةً أنفسُهم، وعلى القراءة الثانية «فكهين»: أَشِرِين بَطِرِين، وقال الجوهريُّ: فَكِهَ الرجل ـ بالكسر ـ، فهو فَكِهٌ إذا كان طيِّبَ النَّفس مِزاجاً.

والفَكِهُ أيضاً: الأَشِرُ البَطِرُ، قال «فاكهين»؛ أي: ناعمين، قال الثَّعلبيُّ: هما لغتان كالحاذر والحَذِر، والفاره والفَرِه، وقيل: إنَّ الفاكِهَ هو: المستمتع بأنواع اللَّذَّة كما يتمتَّع الرَّجل بأنواع الفاكهة[٢].

ث ـ ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨].

ـ ﴿كَذَٰلِكَ ۖ﴾ يعني: مثل هذا، سلبها الله منهم، وأعطاها لغيرهم، ولو سُلبت منهم فقط لكانت أخفّ عليهم، إنما سُلبت منهم، وأُعطيت لغيرهم، وهذا أنكى، لكن من هم القوم الآخرون الذين ورثوا النعمة بعد قوم فرعون[٣]؟.

ج ـ قال ابن كثير: واستولى على البلاد المصرية، وتلك الحواصل الفرعونية، والممالك القبطية، بنو إسرائيل كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ

(١) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٤٠٠٣).
(٢) فتح القدير، (٤/ ٨٠٥).
(٣) تفسير الشعراوي، (٤/ ٨٠٥).

يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال عزّ وجلَّ ههنا: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]، وهم بنو إسرائيل(١).

ـ وقال الآلوسي: والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل، وهم مغايرون للقبط جنساً وديناً، ويفسر ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وهو ظاهر في أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون، وملكوها. وبه قال الحسن(٢).

وقيل: المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط، ومن ذهب إلى هذا قال: لم يرد في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر، ولا أنهم ملكوها قط، فليس المراد خصوص ما تركوه؛ بل نوعه وما يشبهه، والإيراث: الإعطاء. وقيل: المراد من إيراثها إياهم تمكينهم من التصرف فيها، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أولاً. وأخذَ جمعٌ بقول الحسن، وقالوا: لا اعتبار بالتواريخ، وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم؛ لأن الكذب فيها كثير، وحسبنا كتاب الله وهو سبحانه أصدق القائلين، وكتابه ـ جل وعلا ـ مأمون من تحريف المحرِّفين(٣).

ـ وقال محمد الأمين الهرري الشافعي: قال المفسرون عند قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: يجعلكم خلفاء في أرض مصر، أو في الأرض المقدسة. وقالوا في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ أي: أرض الشام، ومشارقها ومغاربها، جهاتها الشرقية والغربية، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة بعد انقضاء مدة التيه، وتمكنوا في نواحيها، فاضطرب كلامهم، فتارة حملوا الأرض على أرض مصر وأخرى على أرض الشام، والظاهر: الثاني؛ لأنَّ

---

(١) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٣).
(٢) روح المعاني، (٢٥/ ١٢٣).
(٣) تفسير حدائق الروح والريحان، (٢٦/ ٣٦٢).

المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا أولادهم، ومصر إنما ورثها أولادهم؛ لأنها فُتحت في زمان داود عليه السلام. ويمكن أن يحمل على أرض الشام ومصر جميعاً، والمراد بالمستضعفين: هم وأولادهم؛ فإن الأبناء يُنسب إليهم ما يُنسب إلى الآباء، والله أعلم[١].

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ومن الآثار المُتعلِّقة بالآيات الكريمة استدلال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص بها في بعض المواقع، فعن أبي بكر بن عيَّاش قال: لما خرج عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صفّين، واقترب من المدائن، تمثَّلَ رجلٌ من أصحابه فقال:

جَرَتِ الرِّياحُ على مكانِ دِيارِهِمْ فكأنَّما كانوا على مِيعادِ
وإذا النَّعيمُ وكلُّ ما يُلهى بهِ يوماً يصيرُ إلى بِلىً ونفادِ

فقال علي رضي الله عنه: لا تقلْ هكذا، ولكن قل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٨].

إن هؤلاء القوم كانوا وارثين، فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء القوم استحلُّوا الحُرَم، فحلَّت بهم النِّقَم، فلا تستحلُّوا الحُرَمَ، فتحِلَّ بكم النِّقَم[٢].

ولما دخل سعدُ بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ المدائن، فرأى خلوتها، وانتهى إلى إيوان كسرى؛ أقبل يقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٨][٣]. ثم

(١) تفسير حدائق الروح والريحان، (٢٦/ ٣٦٢).
(٢) موسوعة التفسير المأثور، (٢٠/ ٣٤).
(٣) المصدر نفسه، (٢٠/ ٣٤).

تهكَّمَ السياق القرآني بآل فرعون، وأبدى عدم الاكتراث بهم، فقال :

٩ ـ قوله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان : ٢٩] :

تُثبت هذه الآية أنَّ للجمادات عاطفةً، وأنها تحبُّ وتكره، وتبكي وتفرح، فالعاطفة إذن موجودةٌ في كلِّ المخلوقات على قدر الحاجة، فالعاطفة في الإنسان باقية، فتراه مثلاً يحبُّ ولده، حتى لو كان الولد غبيّاً أو مشاغباً، ويستمرُّ معه هذا الحبُّ، وربَّما يعطف عليه أكثر من السَّويِّ؛ لذلك لما سألوا الأعرابي : من أحبُّ بنيك إليك؟ قال : الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يعود، والمريض حتى يشفى.

وأمّا الحيوان، فعاطفته على قدر الحاجة، فترى الحيوان يعطف على ولده الصغير، ويدافع عنه، فإذا ما كبر تركه كأنَّه لا يعرف عنه شيئاً، ولو ذُبح أمامه ما يشعر نحوه بشيء؛ لأنَّ عاطفته بقدر حاجة الصغير للتَّربية، كذلك الجماد؛ فالحقُّ سبحانه يرتقي به، ويجعل له عاطفةً، ومن هذه العاطفة أنَّ السماء والأرض ما بكت على هؤلاء المهلَكين؛ لأنهم خالفوا منهج الله؛ لذلك خاطب الله الجمادات، وجعلها في منزلة أولي الألباب المستنيرين الذين يفهمون ويعقلون، بدليل أنَّ الله تعالى خيَّر السموات والأرض والجبال في مسألة حمل الأمانة، قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢]، فدلَّ ذلك على أنَّ لها اختياراً وتعقُّلاً، وبعضهم قال : إنَّ السماء والأرض مسخَّرتان ومقهورتان على العبادة. قلت : لا بل كلُّ شيء في الوجود خُيِّر، فمنها من تنازل عن اختياره لاختيار ربِّه، وعن مراده لمراد خالقه، ومنها من اختار أن يكون مختاراً، وهو الإنسان.

وقلنا : فرَّق بين وقت التَّحمُّل ووقت الأداء، فأنت تضمن وقت التحمُّل، وتثق به، لكنَّك لا تضمن وقت الأداء؛ إذن : كانت الجمادات أكثر موضوعيّةً من الإنسان في هذه المسألة؛ لأنها اختارت بداية أن تكون مقهورةً لربها، أمَّا الإنسان فاختار أن يكون مخيَّراً، وعند الأداء منهم من آمن ومنهم من كفر، ومنهم من أطاع، ومنهم من عصى، فإن قلت : بأيِّ لغة تتكلَّمُ الأرضُ والسَّماء؟، وكيف

تفهم؟ نقول: يخاطبها ويفهم منها خالقها سبحانه، فهو الذي يعلم لغتها؛ لذلك أعطانا الحقُّ سبحانه أمثلة لكلام هذه المخلوقات وتسبيحها لله تعالى، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وفي قصّة سيدنا سليمان عليه السلام تكلّم الهدهد كلاماً دلَّ على علمه وفهمه لقضيّة التَّوحيد كأحسن ما يكون الفهم، وتكلَّمت نملةٌ، ووجدنا عندها مقاييس الحقِّ والعدالة[١]، ووالله إنَّ الإنسان ليتعجَّب حينما يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

فكلُّ الكائنات تسبِّح على إطلاقها ودون استثناء، إلَّا الإنسانَ؛ فهو المخلوق الوحيد الذي يشذُّ عن هذه المنظومة المسبِّحة؛ لذلك قلنا: إنَّ المخلوقات الأخرى غير الإنسان كانت أكثر فهماً منه حين رفضت التخيير، وتنازلت عن مرادها لمراد ربها، إذن: لا تغترَّ أيها الإنسان، واعلم أنَّ المخلوقات من حولك لها دور، ولها منزلة عند الله، وقد خُلق فيها مثلُ ما خُلق فيك من الفهم والعاطفة[٢].

وقد ورد في الحديث الصَّحيح عن سيِّدنا رسول الله ﷺ ما يؤيِّد هذه المسألة، فقال عن أُحد: «أُحُدٌ جبلٌ يحبُّنا ونُحبُّه»[٣]، وثبت أنَّ الجبل اهتزَّ به وبصحابته، فقال له: «اثبُتْ أُحُد، فإنَّما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان»[٤]، وقال ﷺ: «والله إنِّي لأعرفُ حجراً كان يُسلِّم عليَّ بمكّةَ قبل البعثة»[٥].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٢٠٠٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠٠٦).
(٣) البخاري، رقم ٤٠٨٤، مسلم، رقم ١٣٦٥.
(٤) البخاري، رقم ٣٣٩٩.
(٥) مسلم، رقم ٤٢٢٢.

وما هذا إلا لأن هذه الجمادات لها فهم وتعقّل على كيفية ما، وأنها منسجمة تماماً مع منهج الله، فهي طائفة مسبّحة؛ لذلك تحبُّ من كان على شاكلتها من البشر، وتكره من شذَّ منهم عن منهج الله، وقضيّة التَّوحيد(١).

لذلك عندما سُئِل سيّدُنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أتبكي السَّماء والأرضُ؟ قال: نعم، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان؛ موضعٌ في الأرض، وموضعٌ في السَّماء، أمَّا موضعُه في الأرض فموضع سجودِه أو مُصلاَّه، وأمَّا موضعه في السَّماء فمَصعَد عمله(٢).

فكان هناك صحبة بين المكان والمكينِ فيه، بين المكان والإنسان المؤمن، وبهذا نفهم: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]، وكيف تبكي السماء والأرض على هلاك عدو الله فرعون بعد أن بارز الحقَّ سبحانه، وادّعى أنَّه إله من دون الله(٣)؟!

ـ وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ يعني: مؤخَّرين ومؤجَّلين عن موعدهم الذي جعله الله نهاية لهم؛ لأنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخَّر(٤)، ولما بين كيفيّة إهلاك فرعون وقومه، أردفَ ذلك بذكر إحسانه إلى موسى وقومه، فبدأ بدفع الضرر عنهم، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب، ثم ذكر اتصال النفع لهم من اختيارهم على العالمين، وإيتائهم الآيات(٥).

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [الدخان: ٣٠]:

بيّن الله سبحانه وتعالى كيفية إهلاك فرعون وقومه، وبيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه، وكيف دفع عنهم الضرر بقتل الأبناء، واستخدام النساء والإتعاب

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠٠٧).
(٢) موسوعة التفسير المأثور، (٢٠/ ٣٦).
(٣) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠٠٧).
(٤) المصدر نفسه، (٢٢/ ١٤٠٠٨).
(٥) تفسير حدائق الروح والريحان، (٢٦/ ٣٦٣).

في الأعمال الشاقة[١]، وامتنَّ الله عليهم بأن أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون، وإذلاله لهم، وتسخيره إيَّاهم في الأعمال المهينة الشاقّة[٢].

ولقد مارس فرعون على بني إسرائيل العذاب البدنيَّ الشاقَّ في أعمال السخرة وسفك الدماء، وكذلك العذاب المعنويَّ بالإهانة والاستحقار وممارسة الصَّغار عليهم، وقد نجَّاهم الله سبحانه من العذاب الحسِّيِّ والمعنوي بتذبيح الأبناء واستحياء النساء؛ الذي كان من أعظم الإهانات التي تعرَّضَ لها بنو إسرائيل، فقد جمعت العذابين المعنويَّ والماديَّ في أقسى درجاته.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١]:

أي: مستكبراً جبَّاراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

ـ وقوله جلَّت عظمتُه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

ـ وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

فكان فرعون مُسرِفاً في أمره سخيفَ الرَّأي على نفسه[٣].

ـ وقال القرطبي: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبّاراً من المشركين، وليس هذا علوَّ مدح، إنّما هو علوٌّ في الإسراف، وقيل: هذا العلوُّ هو التَّرفُّع على عبادة الله[٤].

ـ وقال الشَّنقيطيُّ: وما ذكره ـ جلَّ وعلا ـ في هذه الآية الكريمة من أنَّ فرعون كان عالياً من المسرفين، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، وقوله تعالى في أول القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ

(١) التفسير الكبير، (٢٧/ ٢٤٩).
(٢) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٥).
(٣) المصدر نفسه، (٧/ ٢٥٥).
(٤) تفسير القرطبي، (١٦/ ١٤٢).

طَآئِفَةَ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات(١).

وقد عرَّفَ المولى عزَّ وجلَّ حال فرعون بهذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وقد فسّر المفسِّر محمد الأمين عبد الله الهَرَري هذه الآية فقال:

ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ أي: متكبِّراً عن الإيمان، وقبول الحقِّ.

ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: خبر ثانٍ، أي: من الذين أسرفوا على أنفسهم بالظلم والعدوان، وتجاوزِ الحدِّ في الكفر والعصيان، ومن إسرافه أنَّه على حقارته وخسّة شأنه ادَّعى الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، وكان أكفر الكُفَّار وأطغاهم، وهو أبلغ من أن يقال: (مسرفاً) لدلالته على أنه معدودٌ في زمرتهم، مشهورٌ بأنه من جملتهم، وفيه ذمٌّ لفرعون ولمن كان مثله في العلُوِّ والإسراف، كنمرود وغيره، وبيان أنَّ من أهان المؤمنَ أهلكه الله تعالى وأذلَّه، ومن يُهِن الله فما له من مُكْرِم، وأنَّ النَّجاة من أيدي الأعداء من نعم الله الجليلة على الأحباب، وأنَّ من نكد الدُّنيا ومصائبها على الحُرِّ أن يكون مغلوباً للأعداء، وأن يرى عدوّاً له ما من صداقته بدٌّ، وأنَّ الله تعالى إذا أراد للمرء ترقِّياً في دينه ودنياه يقدم له البلايا، ثم ينجيه(٢)، وبعد أن بيّن طريق دَفْعِهِ الضُّرَّ عنهم، أردف ذلك بذكر ما أكرمهم به(٣).

١٢ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]:

أ ـ قال أبو حيَّان: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم، وشرَّفناهم.

ـ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: علم: مصدرٌ لم يُذكر فاعله، فقيل: على علم منهم، وفضل فيهم، فاخترناهم للنبوَّات والرسالات، وقيل: على علم منّا؛ أي: عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقَّاء بأن يُختاروا. وقيل: على علم منّا بما

(١) أضواء البيان، (٧/ ٣٢٥).
(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، (٢٦/ ٣٦٤).
(٣) تفسير حدائق الروح والريحان، (٢٦/ ٣٦٤).

يصدر من العدل والإحسان والعلم والإيمان بأنهم يُزيِّفون، وتفرط منهم الهنات في بعض الأحوال.

وقيل: اخترناهم بهذا الإنجاء، وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك على العالمين.

ـ ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: عالمي زمانهم؛ لأنَّ أمّة محمّد ﷺ مفضَّلة عليهم. وقيل: على العالمين عامٌّ لكثرة الأنبياء فيهم، وهذا خاصٌّ لهم، ليس لغيرهم، وكان الاختيار من هذه الجهة؛ لأنَّ أمة محمّد أفضل[١].

ب ـ قال ابن كثير: قال مجاهد: ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالَماً، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: أهل زمانه ذلك، وكقوله عزّ وجل لمريم عليها السلام: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي: في زمانها، فإنَّ خديجةَ إمّا أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وإمّا مساويةٌ لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطّعام[٢].

ت ـ قال الدكتور وهبة الزُّحيلي: أي: لقد اختارهم الله على عالَمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك لكثرة الأنبياء فيهم، ولصبرهم مع موسى، وجهادهم في سبيل الله، فلما بدَّلوا الإيمان بالكفر، والصلاح بالفساد، غضب الله عليهم ولعنهم، وجعل منهم القردة والخنازير[٣].

ث ـ قال محمّد متولي الشَّعراوي: الكلام هنا على بني إسرائيل، وهم يتمسَّكون بهذه الآية، ويبنون عليها أنهم شعب الله المختار، فيقولون: إن الله الذي خلقكم، وبعث إليكم رسولاً هو الذي اختارنا على العالمين، وهذا ادِّعاء

(١) البحر المحيط، (٨/ ٣٨).
(٢) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٦).
(٣) التفسير المنير، (١٣/ ٢٣٩).

باطل لأن معنى ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: العالمين في زمانهم والمعاصرين لهم من قوم فرعون وغيرهم، وهؤلاء كانوا في الغالب وثنيين، ففضَّل الله بني إسرائيل عليهم؛ لأنهم يُؤمنون بالله، وكانوا في هذا الوقت خير خلق الله جميعاً، لكنهم أرادوا أن يسحبوا هذا الحكم على الناس جميعاً، وعلى العالمين في كلِّ زمان ومكان، وهذا لا يجوز، بدليل أنهم لما خالفوا منهج الله قطَّعهم في الأرض أمماً، وبعثرهم في كل مكان عقاباً لهم، حتى إنَّك تجد في كل بلد من البلاد حارة باسمهم تُسمَّى «حارة اليهود»، تراهم مجتمعين ومنغلقين على أنفسهم، لا ينسجمون، ولا يذوبون في المجتمع من حولهم، حتى إنَّ القرآن عبّر عن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فكل جماعة منهم في مكان تمثِّل أمّة بذاتها؛ لأنهم لا يذوبون في غيرهم من الأمم، والذي ينفي ادِّعاءهم هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وهذا هو الذي يحدث بالفعل، فمن حين إلى آخر يسلِّطُ الله عليهم من يسومهم سوءَ العذاب[١]، ثمَّ يقول تعالى:

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣]:

أ ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي ﴿مِّنَ﴾ الحجج والبراهين وخوارق العادات[٢] التي صاحبت دعوة موسى عليه السلام، وبهذه الآيات نجّاهم الله من الغرق ومن فرعون، وتظليل الغمام، وإنزال الـمَنِّ والسَّلوى لهم[٣]، وغير ذلك.

ب ـ ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر وامتحان واضح؛ لننظر كيف يعملون، كفلق البحر وإنجائهم من الغرق، وغير ذلك من عظائم الآيات التي لم يُعهَد مثلُها في غيرهم[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٢/ ١٤٠١٠).
(٢) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٥٦).
(٣) التفسير المنير، (١٣/ ٢٣٩).
(٤) تفسير حدائق الروح والريحان، (٢٦/ ٣٦٦).

ـ وقال ابن جرير الطبري: إن الله أخبر أنه آتى بني إسرائيل من الآيات ما فيه ابتلاؤهم واختبارهم، وقد يكون الابتلاء والاختبار بالرخاء، ويكون بالشِّدَّة، ولم يضع لنا دليلاً من خبر ولا عقل، أنه عنى بعض ذلك دون بعض، وقد كان الله اختبرهم بالمعنيين كليهما جميعاً، وجائزٌ أن يكون عنى اختباره إياهم بهما، فإذا كان الأمر على ما وصفنا، فالصواب من القول فيه أن يقول كما قال ـ جل ثناؤه ـ: إنه اختبرهم[١].

رابعاً: قصّة موسى عليه السَّلام في سورة النَّازعات:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٦]:

سُمِّيت سورة النازعات لافتتاحها بالقسم الإلهي بالنّازعات، وهم الملائكة الذين ينزعون أرواح الكُفَّار بعُسر وشدّة[٢]. وموضوع السورة كسائر موضوعات السور المكية التي تهتم بأصول العقيدة من التوحيد والنبوّة والبعث. وشرعت السورة بالقسم بالملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد لإثباتِ البعث، ثم وصفت أحوال المشركين المنكرين للبعث، فصوّرت مدى الذعر الشديد والاضطراب الذي يكونون عليه يوم القيامة، وذكرت مقالتهم في إنكار البعث والرَّدِّ عليهم. وناسب ذلك إيراد قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية الجبَّار الذي ادَّعى الرُّبوبيَّة، ثم أهلكه الله وجنودَه بالغرق في البحر للعِظَة والعِبرة[٣].

وقصةُ موسى هي أكثر القصص وروداً وأكثرها تفصيلاً في القرآن، وقد

(١) تفسير الطبري، (٢٥/ ١٢٧).
(٢) التفسير المنير، (١٥/ ٣٩٦).
(٣) التفسير المنير، (١٥/ ٣٩٦).

وردت من قبلُ في سور كثيرة، وردت منها حلقات منوعة، ووردت أساليب شتى، كلٌّ منها يُناسب سياق السورة التي وردت فيها، وتشارك في أداء الغرض البارز في السياق على طريقة القرآن في إيراد القصص وسرده، وهنا ترد القصةُ مختصرةً سريعة المشاهد، منذ أن نودي موسى بالوادي المقدس، إلى أخذ فرعون في الدنيا، ثمَّ في الآخرة، فتلتقي بموضوع السورة الأصل، وهو حقيقة الآخرة، وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا في آيات معدودات قِصار سريعة؛ ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها، وتتضمَّن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة، وهي تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ[(١)]، وإليك تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥]:

وهو استفهامٌ للتمهيد وإعداد النفس والأذُن لتلقِّي القصة وتأمُّلها[(٢)]. وهذا الاستفهام فيه نعومة ورقّة[(٣)]، والمراد به التَّحقيق والتَّقرير والتَّرغيب في الاستماع الذي يعين على توسيع القلب بقصص الأنبياء والمرسلين[(٤)].

والله سبحانه وتعالى يوجِّهُ رسوله ﷺ إلى أهميّة قصة موسى عليه السلام، مع ما فيها من التسلية لرسول الله ﷺ، فأتى بهذه اللقطة في هذا السياق، فالكفار أنكروا البعث، وكذّبوا رسول الله، وعنّفوهُ، وبالغوا في إيذائه؛ لذلك كثيراً ما نزل الوحي يُسلِّيه، ويخفِّفُ عنه كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فرسول الله من رحمته بأمَّته كان يريدهم جميعاً مؤمنين مَهدِيِّين، يذوقون معه حلاوة الإيمان وبرد الطاعة،

---

(١) في ظلال القرآن، (٦/ ٣٨١٤).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٣٨١٤).
(٣) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٢).
(٤) تيسير التفسير، محمد بن يوسف بن عيسى أطفيش، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافي، ١٩٨٦م، (١٦/ ٤١).

وهو مع ذلك يعلم تماماً حدود مسؤوليته، وأنه ما عليه إلا البلاغ، لكنَّ حرصه على أمَّته جعله يتحمَّل فوق ما يجب عليه؛ لينقذهم من العذاب.

هذا من ناحيته ﷺ، أمَّا من ناحية الكفار فقد بالغوا في إيذائه وإيذاء أصحابه واضطهادهم، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أتى بهذه اللقطة من قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وذكرَ فيها ما كان من شأن فرعون؛ ليقول لهم: إنَّ عذاب الله وانتقامه من المُكذِّبين ليس بالضرورة أن يؤجَّل إلى الآخرة، بل هنا انتقام عاجلٌ، ينتظر المُكذِّبين، وهم في هذه الحياة الدنيا، فالعذابُ ليس بعيداً عنهم.

وهذا ليس كلاماً نظريّاً، إنَّما حدث من واقع الحياة، وهو ما كان من أمر موسى وفرعون ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: ما كان من أمره مع فرعون، ألم يعلم هؤلاء المُكذِّبون عاقبة سابقيهم من المُكذِّبين؟ مع أنَّ طغيانَ فرعون كان أشدَّ من طغيانهم؛ لأنَّه وصل إلى القمَّة في الطغيان حينما قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال لهم: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ومع هذا الطغيان وهذا الجبروت ما نال شيئاً من موسى ـ عليه السلام ـ وما أوقف دعوته؛ لأنَّ سُنَّة الله في رسله أن يؤيِّدَهم بنصره، وأن يخذل عدوَّهم مهما كان جباراً عنيداً، فأين أنتم أيها المُكذِّبون من فرعون[1]؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، إذن في هذه اللقطة تخويفٌ للمُكذِّبين بالنظر في عاقبة سابقيهم من الطغاة، وإيناسٌ وتسليةٌ لرسول الله وللفئة المؤمنة معه، وأنَّ العاقبة لهم، والغلبة لهم[2].

وقد جاءت قصة موسى ـ عليه السلام ـ في سورة النازعات على قدر ما يتطلَّبه السياق، فلم تفصِّل الأحداث في الوادي المقدَّس كما فصّلتها في مواضع

(١) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٤).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٧).

أخرى[١]، فقد لخَّصت الذي جاء في سورة طه والشُّعراء والقَصَص والنَّمل؛ واكتفت بالإيجاز.

ـ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾: يا محمَّد ﷺ، ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: ما كان من أمره[٢].

وتأمَّل الحديث الذي يسأل فيه خالق السموات والأرض سيِّدَ الثّقَلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويقول له: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾؟

والله يعلم السِّرَّ وسِرَّ السِّرِّ، وإنَّما هذا بيان لنا؛ لنعرف أهميّة حديث موسى عليه السلام، ثم إنَّ كلمة ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ تعني أنَّ هذا الحديث يتخيّر مَن يُحسِنُ تلقّيه، ثم يأتي الحديث إليه بنفسه، فليس هو الحديث الذي يطلبه الناس، وإنما هو حديث يطلبُ أهلَه، ويمشي إليهم، وليست المسألة أنَّ هذا الأسلوب من أساليب التشويق، وإن كان منها، وإنَّما فيه شيءٌ آخر، وهو أنه حديث يألفُ أهلَه، ويتحبَّب إليهم، ويأتي هو إليهم، ولذلك تجد ما بعده من الأمور العظام[٣].

٢ـ قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]:

ـ كلمة ﴿إِذۡ﴾ ترجع بنا إلى الوقت الذي كان فيه هذا النداء، وكأننا صِرْنا في الحضرة مع كليم الله، ونسمع نداء ربنا الذي ليس كمثله نداء، وكلام ربنا الذي ليس كمثله كلام، ثم لم تكتفِ الآيةُ بأن تنقلنا إلى هذه الحضرة، إنما حفَّت المكان بالتَّقديس[٤].

ـ ﴿طُوًى﴾: اسم الوادي على الأرجح، وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين في شمال الحجاز، ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة، وهي لحظة كذلك عجيبة، ونداء الله بذاته ـ سبحانه ـ لعبد من عباده أمر هائل، أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبِّر، وهي سِرٌّ من أسرار الألوهيّة العظيمة، كما

---

(١) المصدر نفسه، (٢٧/ ١٦٧٥٧).
(٢) المصدر نفسه، (٢٧/ ١٦٧٥٧).
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٥٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٧١.

هي سرٌّ من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن، وهيَّأه بها لتلقِّي ذلك النداء، وهذا أقصى ما تملك أن تقوله في هذا المقام؛ الذي لا يملك الإدراكُ البشري أن يحيط منه بشيء.

وفي مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه في هذا الموقف، فأمّا هنا فالمجال مجال اختصار وإيقاعات سريعة، ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى ـ عليه السلام ـ عَقِبَ ذكر النداء بالوادي المقدَّس طُوى[1]، فقال:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]:

قال الرازي: إن سائر الآيات تدلُّ على أنه تعالى في أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة، كقوله في سورة طه: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ١١ ـ ٢٤].

فدلّ ذلك على أن قوله ههنا: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ من جملة ما ناداه به ربه، لا أنه كل ما ناداه به، وليس الغرض أنه عليه السَّلام كان مبعوثاً إلى فرعون فقط، بل إلى كل من كان في ذلك الطَّرَف، إلا أنَّه خصَّه بالذِّكر؛ لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل أولئكَ القوم، والطغيان مجاوزٌ للحدّ، ثمَّ إنَّه تعالى لم يبين أنَّه تعدَّى في أيِّ شيء، فلهذا قال بعضُ المفسرين: معناه أنه تكبَّر على الله، وكفر به، وقال آخرون: إنَّه طغى على بني إسرائيل. والأولى عندي الجمعُ بين الأمرين، فالمعنى أنه طغى على الخالق بأن كفر به، وطغى على الخلق بأن تكبَّر عليهم واستعبدهم، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق[2].

ومن العجيب المعجز في الكتاب العزيز، أنه يجري كلمات مفردة، لو ذهبتَ تستقصي معناها لوجدتَ هذه المفردة كأنها بحر لا ساحلَ له، ومن ذلك كلمة ﴿طَغَىٰ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، (٦/ ٣٨١٤).
(٢) مفاتيح الغيب، (٣٠/ ٤٠).

ـ لأنك لو رجعت إلى ما وصف به فرعون من علوٍّ في الأرض، وأنه جعل أهلَها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، لوجدته كلَّه داخلاً في كلمة ﴿طَغَىٰ﴾.

ـ ولو راجعت ما قاله لمّا رأى العصا واليد، ووصف ذلك بالسحر، وهو يعلم خلافَ ذلك؛ لأنَّ الآيات أبين من أن تخفى، لوجدت ذلك داخلاً في كلمة ﴿طَغَىٰ﴾.

ـ ولو رجعت إلى الذي قاله للسحرة، لمّا وقع الحقُّ، وسجدوا لله رب العالمين، وأنه يهدّدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، لوجدته داخلاً في كلمة ﴿طَغَىٰ﴾.

ـ ولو رجعت إلى قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] لوجدته داخلاً في كلمة ﴿طَغَىٰ﴾.

وهكذا استطاعت هذه المفردة أن تستوعب كل ما كان من فرعون، ثم تجدها من وجه آخر تخاطب سيدنا رسول الله ﷺ، وتقول له: إنه ليس كل الذين يعارضونك من قومك لهم هذا الوصف، وأن الحق جلَّ وتقدَّس كلَّف موسى ـ عليه السلام ـ بأن يذهب إلى هذا الطاغية، وليس لموسى عشيرة تحميه كعشيرتك، فقد كان بنو هاشم من آمن ومن لم يُؤمن كانوا جميعاً حماة لك، وكان المعارضون لك يعلمون ذلك، ويحسبون حساب عشيرتك، وعشيرة موسى عليه السلام مستعبدة.

وهكذا تجد هذه الكلمة تخاطب الذي قال له ربه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] خطاباً متَّسعاً جدّاً[1]، وتفتح لرسول الله ﷺ آفاقاً واسعة في مآلات الأمور في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشرِّ، وأنَّ العاقبة للمتَّقين.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]:

كان توجيهُ الله عزّ وجل لموسى عليه السلام أن يستعمل اللِّين والرفق مع فرعون، فكان هذا العرض الليِّن، وهذا الإغراء اللطيف، إنه لا يأمره إنما يعرض

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٧٣.

عليه؛ لأنه يتحدَّث مع فرعون الذي بلغ به جبروته وطغيانه أن يقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فلا يناسبه الأمر، فأذنه لم تعْتَدْهُ، فهو وحده الآمر الناهي، ولم يرَ من رعيته إلا السمع والطاعة. هنا الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أدباً من آداب الدعوة إلى الله، فينقلنا من مرحلة الطغيان إلى القول اللين؛ كما قال في موضع آخر: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

فالمدخل إلى مثل هذا الرجل لا يكون إلا باللين والإقناع والحكمة والموعظة الحسنة، وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لم يأت فرعون؛ ليعاقبه على طغيانه، إنما جاء ليهديَه إلى الجادّة وإلى الصراط المستقيم، ولو أراد أن يعاقبه على طغيانه لعاقبَهُ بطغيان مثله، ومعنى ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨] أي: تتطهر من رجس ما أنت فيه من الطغيان وادِّعاء الألوهية، ومن تعذيبك لبني إسرائيل، ومن قتل أبنائهم واستحياء نسائهم، يعرض عليه هذا دون أن يأمره به[١].

قال الدكتور محمد أبو موسى: والفاء التي في كلمة ﴿فَقُلْ﴾ تعطف وترتِّب القول على ﴿ٱذْهَبْ﴾، وجملة ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ فيها من اللِّين والرِّفق، والمدخل النّفسيّ الذي ليس فوقه كلام؛ لأنَّها سؤال للطّاغية، هل ترغب في تزكية نفسك من كلِّ ما يشوب النفوس، ويعلق بها من سوء، وتكون نفسك نفساً زكية طاهرة، وتَكون بها من كرام الناس وأهل البر وأهل الرحمة[٢]؟

وربنا جلّ وتقدس لم يطلب من فرعون أن يتزكى، وإنما يعرض عليه التزكية لنفسه أو الخُبْثَ والنَّكَد، ثم يدعه هو ليختار، وبناء العبارة تجد فيه إدغام اللام التي في لك، وهذا الإدغام يورث العبارة شيئاً من الهدوء والأناة، إذ يُحبس فيها اللسان هُنيهة عن النطق؛ ليعطي فرعون فرصة من الوعي والأناة، فيُجيب على هذا السؤال الذي هو محض رغبة للإنسان في أن تكون نفسه نفساً إنسانية نقية صافية زكية[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٧).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٥٧٤.
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص٥٧٥.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩]:

والواو التي في أول الجملة تعطف ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ وما تعلقت به من جار ومجرور وما عطف عليه من قوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ على ﴿تَزَكَّىٰ﴾، وكأن المعنى: وهل لك أن أهديك إلى ربك فتخشى، وهذه الجملة الثانية هي جوهر ومضمون الجملة الأولى؛ لأنَّ التزكية التي ليس فوقها تزكية هي أن تهتدي إلى ربك، فتخشاه وتخافَ عقابه، وترجوَ ثوابه، فيستقيمَ عملك كلُّه، وتستقيم حياتك كلُّها، وتخلع نفسك من الظلم، والطغيان، والقهر، والاستبداد.

والفاء التي في قوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ تُؤسِّس الخشية على معرفة الله الذي هو ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وتُرتِّب الخشية على معرفة الله، فالذي يظلم ويكذب ويزوِّر وينافق ويقتلُ كاذبٌ إذا ادّعى معرفة الله؛ لأنَّ دليل المعرفة الحقّة لله هو الخشية، والخشية معناها ترك كلِّ ما يُغضب الله، ومزاولة هذه الكبائر تنفي الخشية، والإيمان يزيد بالعمل الصالح، وينقص بالمعصية، والذي يستبيحُ الدماء، والأعراض والأموال، ويعيش في معمعة الظلم، والبطش، والقهر؛ ينقص إيمانه حتى لا يبقى في القلب إلا نسمة تائهةٌ توشك المعاصي أن تذهب بها، وسيِّدنا موسى دخل بهذه الجملة على عالم الطغيان الذي يعيش فيه فرعون، فزلزل أركان الفرعونيَّة[١].

أ ـ وقال محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩]: كأن الخشية المطلوبة تتأتى بعد الهداية، فالهداية تدلُّه على الله؛ فيعلم عظمته وقدره، فيستصغر نفسه، ويستقلُّها، ويعود إلى ساحة ربِّه، ويتوب، ويتطهَّر من طغيانه فما تكبّر أحد أبداً، وهو يعلم منزلته بالنسبة لربه، ومن علم عظمة ربّه وجلاله انهدمت عنده عظمة النفس؛ لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٧٦.

(٢) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٧).

ب ـ وقال عطية محمد سالم: وفي هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة، وما ينبغي أن يكون عليه نبي الله موسى مع عدو الله فرعون، وأسلوب العرض ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ ثم تقديم الآية الكبرى، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف، فلا يوجد اليوم أكبر من فرعون، ولا أشد طغياناً منه؛ فقد ادَّعى الرُّبوبيَّة والألوهيّة معاً فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ـ ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ولا يوجد اليوم أكرم على الله من نبيِّ الله موسى وأخيه هارون، ومع ذلك كان منهج الدعوة من أكرم عباد الله إلى أكفر خَلْق الله بهذا الأسلوب الهادئ اللين الحكيم، منطلقاً من قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، فكانا كما أمرهما الله، وقالا كما علمهما الله ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، وهذا المنهج هو تحقيق قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد وضع القرآن منهجاً متكاملاً للدعوة إلى الله، وفصَّله العلماءُ بما يُشترط في الدَّاعي والمدعوِّ إليه، ومراعاة حال المدعو(١).

ت ـ قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ أي: أدلّك على عبادة ربك فتخشى، أي: فيصير قلبك خاضعاً له، مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً، خبيثاً، بعيداً من الخير(٢).

ث ـ قال الرازي: وهذا يدلُّ على أنه لابد في الدعوة إلى الله من اللين والرفق وترك الغلظة؛ ولهذا قال لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويدلُّ على أن الذين يستعملون مع الناس القسوة

(١) تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد عطية سالم (ت: ١٤٢٠هـ)، السعودية، ١٩٨٠م، (٩/ ٢٨ ـ ٢٩).
(٢) تفسير ابن كثير، (٨/ ٣١٥).

والغلظة، ويبالغون في التعصُّب، كأنهم على ضد ما أمر الله به أنبياءه ورسله[١].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]:

ومعنى هذا أنه لم يستجب للعرض الأول، وأعرض عنه، فاحتاج إلى بينة ودليل على صدق موسى في دعوته له، والآية الكبرى التي أراه إياها هي العصا التي ألقاها موسى، فصارت حيّة تلقف سحر السحرة[٢]، وذكر العلماء أقوالاً في الآية الكبرى:

أ ـ قال ابن كثير: يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجَّة قوية، ودليلاً واضحاً على صحة ما جاء به من عند الله[٣].

ب ـ وقال ابن جرير: فكانت تلك الآية يد موسى إذ أخرجها بيضاء للناظرين، وعصاه إذ تحولت ثعباناً مبيناً[٤].

ت ـ وقال الدكتور محمد عياش الكبيسي: أي: أقامَ الحجَّة على صدقه بالآية الكبرى، وهي المعجزة التي أظهرها الله على يده أمام فرعون، والآية اسم جنس لا يقصد بها المعجزة الواحدة، فموسى عليه السلام قدّم لفرعون أكثر من معجزة، كما هو معلوم[٥].

ث ـ قال الشيخ محمد يوسف أطفيش: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: هي العصا؛ أي: أظهرها له، واحتجّ بها عليه، أو صيّره عارفاً بأنها حقٌّ من الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، قال بلسانه: إنها سحر إظهاراً للتجلد وعدم العجز والانقياد. والعصا أصل آيات موسى وأكبرها،

---

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (٣٦/ ٤٤٣).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٧).
(٣) تفسير ابن كثير، (٨/ ٣١٥).
(٤) تفسير الطبري، (٣٠/ ٣٩).
(٥) مجالس النور، محمد عياش الكبيسي، الدوحة، جامعة قطر، ط١، ٢٠١٩م، (٤/ ١٨٢٣).

وغيرُها تبع لها. وعن مجاهد: الآية الكبرى العصا، واليد البيضاء، هما كالآية الواحدة، وعبّر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ [طه: ٤٢]، وقيل: يجوز أن يراد بالآية الكبرى الجنس، فتشمل آياتِه كلَّها، أعني التي قبل انفلاق البحر المغرِق(١).

فما كان بعد أن رأى هذه الآية الكبرى إلا أن:

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢١ ـ ٢٤]:

أ ـ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾: انتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية في اختصار وإجمال(٢).

قال ابن كثير: أي: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه، فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره. وعلمُه بأن ما جاء حقٌّ لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأنَّ المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقيادُ للحقِّ والخضوعُ له(٣).

قال الآلوسي: عصى الله تعالى بالتمرُّد بعدما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه، حيث اجترأ على إنكار وجود ربِّ العالمين رأساً، وكان اللعين وقومُه مأمورين بعبادته عزَّ وجلَّ، وترك العظمة التي يدَّعيها الطاغية وتقبلها منه فئته الباغية.

وفي جعل مُتَعَلِّق التكذيب موسى عليه السلام، ومُتعلِّق العصيان الله عزَّ وجلَّ، ما ليس في جعلهما موسى كما قيل، فكذب موسى وعصاه من الذَّمِّ، كما لا يخفى(٤).

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش، المرجع السابق، (١٦/ ٤٣).
(٢) في ظلال القرآن، (٦/ ٣٨١٥).
(٣) تفسير ابن كثير، (٨/ ٣١٥).
(٤) روح المعاني، (٣٠/ ٣٠).

ب ـ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢ ـ ٢٤].

هذا مشهد آخر، مشهد فرعون يتولَّى عن موسى، ويسعى في جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق، حين عزَّ عليه أن يستسلمَ للحق والهدى، ويسارع السياقُ هنا مجملاً مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاته، فقد أدبر يسعى في الكيد والمحاولة، فحشر السحرة والجماهير، ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور والجهالة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاةَ شيءٌ أكثرُ مما تخدعهم غفلة الجماهير، وذلّتها، وطاعتها، وانقيادها، والطاغية لا يملك في الحقيقة قوّة وسلطاناً، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب، وتمدُّ له أعناقها فيَجرُّ، وتَحني له رؤوسها فيستعلي، وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة، فيطغى.

والجماهير تفعلُ هذا مخدوعةً من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم، فالطاغيةُ ـ وهو فرد ـ لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها، وكرامتها، وعزَّتها، وحريتها، وكلُّ فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً، وما يمكن أن يطغى فردٌ في أمة كريمة أبداً، وما يمكن أن يطغى فردٌ في أمة رشيدة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبَّد لواحد من خلقه، لا يملك لها ضرّاً ولا رشداً. وأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة، ومن الذلة، ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وما كان ليقولها أبداً، لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف، لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً[1].

(١) في ظلال القرآن، (٦/ ٣٨١٥).

قال الآلوسي: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾: تولّى عن الطاعة، ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: ساعياً مجتهداً في إبطال أمره عليه السلام، ومعارضة الآية. ولأن إبطال ذلك ونقضه يقتضي زماناً طويلاً، يجوز أن يكون الإدبار على حقيقته؛ أي: ثم انصرف عن المجلس ساعياً في إبطال ذلك. وقيل: أدبر يسعى هارباً من الثعبان[١].

وسعيه ـ عليه لعنة الله ـ في إبطال دعوة موسى ـ عليه السلام ـ هو جمعه السحرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزة الباهرة، كما نطقت بذلك الكثير من الآيات[٢].

قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: فجمع جنوده للقتال والمحاربة أو جمع السحرة للمعارضة، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع: ﴿فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: قال لهم بصوت عالٍ، أو أمر من ينادي بهذا القول، ومعنى ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أنَّه لا ربَّ فوقي.

قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً، وأمرهم بعبادتها، وقال: أنا رب أصنامكم. وقيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم. والأول أولى لقوله في آية أخرى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨][٣].

قال ابن تيمية: إن جحودَ الصانع لم يكنْ ديناً غالباً على أمة من الأمم قط، وإنما كان دِين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس، وأولئك كان علماؤهم من الفلاسفة المشركين الذين يعظِّمون الهياكل والكواكب والأصنام، والأخبار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدلُّ على ذلك؛ ولكن فرعون موسى استخفَّ قومه، فأطاعوه، وهو الذي قال لهم بعد ذلك:

---

(١) روح المعاني، (٣٠/ ٣٠).
(٢) تفسير ابن كثير، (٨/ ٣١٥).
(٣) فتح القدير، (٥/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦).

ـ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾: نكال الكلمة الأولى ونكال الكلمة الأخيرة، وكان فرعون في الباطن عارفاً بوجود الصانع، وإنما استكبر كإبليس، وأنكر وجوده؛ ولهذا قال موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فلما أنكر الصانع، وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها، ولم يصفه الله تعالى بالشرك، إنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة أخرى، والمنكِر للصانع منهم مستكبرٌ كثيراً ما يعبد آلهة، ولا يعبد الله قطّ[١].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥]:

وأمام هذا التطاول الوقح، بعد الطغيان البشع، تحركتِ القوةُ الكبرى ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ويقدِّم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى؛ لأنه أشد وأبقى، فهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلودِه، ولأنه الأنسب في هذا السياق الذي يتحدَّث عن الآخرة، ويجعلها موضوعه الرئيسي، ونكال الأولى كان عنيفاً قاسياً، فكيف بنكال الآخرة وهو أشدُّ وأنكى؟! وفرعون كان ذا قوة وسلطان ومجد موروث عريق، فكيف بغيره من المُكذِّبين؟! وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوةَ من المشركين[٢]؟!

قال ابن كثير: أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عِبرةً ونكالاً لأمثاله من المتمرِّدين في الدنيا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]، هذا هو الصحيح في معنى الآية، أنَّ المراد بقوله: ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية، وقيل: كفره وعصيانه. والصَّحيح الذي لا شكَّ فيه الأول[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٣١).
(٢) في ظلال القرآن، (٦/ ٣٨١٦).
(٣) تفسير ابن كثير، (٨/ ٣١٥).

٩ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦]:

فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدركُ في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يعرف قلبُه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب، حتى يصطدم بالعاقبة اصطداماً، وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وكلٌّ ميسَّرٌ لنهج، وكلٌّ مسيَّرٌ لعاقبة، والعِبرة لمن يخشى(١).

وقال محمد متولي الشعراوي في هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إن في هذه القصة ﴿لَعِبْرَةً﴾: عِظة ودرساً. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: يخشى ربه ويخافه، ويقدِّره حق قدره، ويقدّر عواقب فعله، ويقيس نفسه على من سبقه، فالحقُّ سبحانه تعالى يخاطب قريشاً الذين كذَّبوا رسول الله، ويعظهم بذِكْر هذه القصة في مجال تكذيب الرسول وما كان من عاقبة المُكذِّبين، كأنه سبحانه يقول لهم: يا من كذَّبتم بمحمَّد، وكفرتم بدعوته، وادَّعيتم أنَّ كتابه الذي جاءكم به سِحرٌ وكهانة، خذوا عِبرة من قصة موسى وفرعون الذي كان أشدَّ منكم قوة، وأكثر منكم مدنية وحضارة، فكُفُّوا عما أنتم فيه من مصادمة رسول الله، فليس لكم سبيلٌ إلى النيل منه، أو إخماد دعوته. وهذا تيئيس لهم؛ لأنَّ الآيات تضعهم بين أمرين، إمّا أن ينتهوا إلى الإيمان بمحمد والتصديق بدعوته، وإمّا أن يأخذهم الله أخذَ عزيزٍ مقتدر، كما أخذ سابقيهم من المُكذِّبين، ولن تستطيعوا أن تُفلتوا من هذا المصير(٢).

* * *

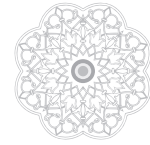
(١) في ظلال القرآن، (٦/ ٣٨١٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٧/ ١٦٧٥٩).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

قصّة موسى عليه السَّلام
في سورتي الأعراف وإبراهيم عليه السَّلام

يشرح القرآنُ الكريمُ في سورة الأعراف قصة موسى كليم الله عليه السلام، فهي سورة فَصَّلت في قصص الأنبياء والمرسلين، وأصول العقيدة، وتقرير الوحدانية لله عز وجل، كما تناولت سورة إبراهيم القصة، وجاء فيها على لسان موسى عليه السلام أصول الدعوة السماوية للتوحيد، ومآل الكفر والشرك والضلال، على ضوء سُنَن الله في الصراع بين الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال.

* * *



المبحث الأوّل

قصّة موسى عليه السَّلام في سورة الأعراف

قال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ

مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن

كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن
يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا
سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا
يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ
وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ
أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ
اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾
قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ
رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا
مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا
فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي
التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞

[الأعراف: ١٠٣ ـ ١٧١].

سُمِّيت سورةُ الأعراف لورود اسم «الأعراف» فيها، وهو سورٌ بين الجنة والنار؛ قال ابن جرير الطبري: الأعراف: جمع عرف، وكل مرتفع عن الأرض عند العرب يُسمَّى عرفاً، وإنما قيل لعُرف الديك عُرفاً لارتفاعه. وروى ابن جرير الطبري عن حذيفة أنه سُئِل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم، فقعدتْ بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلّفت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك على السور حتى يقضيَ الله فيهم[١].

وقد نزلت سورةُ الأعراف لتفصيل قصص الأنبياء وبيان أصول العقيدة، من إثبات توحيد الله عزّ وجل، وتقرير البعث والجزاء، وإثبات الوحي والرسالة، ولاسيما عموم بعثة النبي ﷺ، وقد تضمَّنت سورةُ الأعراف التي هي من أطول السور المكية من مبادئ العقيدة الإسلامية ما يلي:

● القرآن كلام الله: افتُتحت السورةُ بالتنويه بالقرآن العظيم معجزة الرسول الخالدة، وأنه نعمةٌ من الله، وأنه يجب اتباع تعاليمه.

● أبوَّة آدم عليه السلام وقصته بنوع من التفصيل، وسجود الملائكة له سجود احترام وتقدير، لا سجود عبادة وتقديس، وعداوة الشيطان لآدم وبنيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

● إثبات توحيد الله: وهو الإقرارُ بوحدانية الله وعبادته وحده، وإخلاص الدين له، والاعتراف بحقه وحده في التشريع، والتحليل، والتحريم.

● إثبات الوحي والرسالة وإنزال القرآن الكريم على قلبِ النبي ﷺ، وجوهره التكليف بالرسالة الإلهية، وبعثة الرسل إلى الناس.

● تقرير البعث والجزاء في عالم الآخرة: تضمَّنت السورةُ الكلام والإعادة عن يوم القيامة والجزاء والحساب، وانقسام الناس بسببه إلى فرق ثلاث: فرقة

(١) التفسير المنير، (٤/ ٤٩٠).

المؤمنين الناجين أهل الجنة، وفرقة الكافرين الهالكين أهل النار، وأصحاب الأعراف؛ وهو سورٌ بين الجنة والنار.

● أدلة وجود الله: أقام الله تعالى الأدلة الكثيرة على وجوده مثل خلق السموات والأرض في ستة أيام، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمر الله، وإخراج الثَّمرات من الأرض(١).

● التهديد بالإهلاك: أهلك الله الأمم الظالمة عِبرةً لغيرها، وأنذر الناس بإنزال العذاب المماثل، ورغَّب بالإيمان والعمل الصالح لإفاضته الخيرات والبركات من السماء والأرض على الأمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

● وكذا إرث الأرض، والاستخلاف على الآخرين، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

● قصص الأنبياء: أورد الله تعالى مجموعةً من قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، للتذكير بأحوال مَن يُكذِّبون أنبياءهم، وللعِظة والعبرة، ومن أدلِّها قصة موسى مع الطاغية فرعون(٢).

وهذه هي القصةُ السادسةُ من قصص الأنبياء التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وفيها من الإيضاح والبيان ما لم يُذكَر في غيرها من القصص؛ لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات الأنبياء السابقين، وجهل قوم فرعون الذين أُرسل إليهم كان أعظمَ وأفحشَ من جهل سائر الأقوام، كما أن موسى أُرسل أيضاً لغير قومه، أمّا الأنبياء السابقون فإنهم أرسلوا لأقوامهم(٣).

---

(١) المصدر نفسه، (٤/ ٤٩٢).
(٢) التفسير المنير، (٤/ ٤٩٢).
(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٣٠).

أولاً: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ ٱلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١١٦]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]:

وبعد أن تكلَّم الحق سبحانه وتعالى عن نماذج بشرية في حمل الرسالة:

- نوح عليه السلام الذي جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى، وأسس للحضارة الثانية.
- هود وصالح عليهما السلام، وهما من المرسلين في الجزيرة العربية.
- لوط وشعيب عليهما السلام، وهما من المرسلين في بلاد الشام.

شرعت الآيات الكريمة في عرض النَّموذج الآخر، وهو نموذج مختلف تماماً، فموسى عليه السلام لم يبعثه الله إلى قبيلة ولا إلى قرية، وإنما إلى دولة وحضارة ومدنية وجيوش وعروش، ومن ثم اقتضى المقام تفصيلاً أكثر،

وعرض مشاهد متنوعة وصور مختلفة لهذه التجربة من الصراع بين الرسالة السماوية وبين الدولة الفرعونية(١).

وقد ذُكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون في عدة سور مكية بين مطوَّلة ومختصرة، وذُكر اسمه في سور كثيرة، وآيات عديدة زادت على مئة وثلاثين مرة، وسرُّ هذا أن قصته أشبهُ قصص الرسل بحال النبي ﷺ، إذ إنه أوتي شريعةً دينيةً دنيوية، وكوّن الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية(٢).

أ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾:

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف يفيد التراخي الرتبي أو الزمني، وهنا يفيد التَّراخي الزَّمنيّ؛ أي: بعد ما مضى ما شاء الله من الأقوام، ودعوة المرسلين لهم ممن ذكرنا في سورة الأعراف؛ أي: بعد تلك القرى وما حلَّ بها وبالمُكذِّبين من أهلها كانت بعثة موسى(٣).

﴿بَعَثْنَا﴾: وكلمة «بعث» ـ كما نفهمها ـ تُشير أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون. واختيرت كلمة «بعث» للرسالات؛ لأنَّ البعث يقتضي أنَّ شيئاً كان موجوداً، ثمَّ بعثه الحقُّ من جديد، والإيمان يتمثَّلُ في عهد الفطرة الأول الذي كان من آدم؛ لأنَّ الله خلقه بيديه خَلْقاً مباشراً، وكلَّفه تكليفاً مباشراً، فنقل آدم الصورة للذُّرِّيّة، وهذه الصورة الأصلية تضم حقائق الإيمان التي كانت لآدم، وحين بعث الله رسولاً جديداً، فهو لا يُنشئ عقيدة جديدة، بل يُحيي ما كان موجوداً وانطَمَر، وحين يَعُمُّ الفساد يبعث الله الرسول، فكان الحق سبحانه وتعالى حينما كلّف آدم التكليف الأول طلب إليه أن ينقلَ هذا التكليف إلى ذريته، ولو أن الإنسان أخذ تكاليفَ الدين، كما أخذ مقوِّمات الحياة ممن سبق، لظل الإيمانُ مسألة رتيبة في البشر.

(١) مجالس النور، محمد عياش، (١/ ٤٥٨).
(٢) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٠/ ٤٥).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٤).

وحين يقول ربنا مرة إنه: «أرسل» الرسل ومرة أخرى إنه قد بعثهم، فهذا يدلُّ على أنه لم يجئ بشيء جديد، ولكنه جاء بشيء كان المفروض أن يظلَّ فيكم، كما ظلت فيكم الأشياء التي ورّثها لكم أسلافكم، وتنتفعون بها[١].

وقد جاء لفظ ﴿بَعَثْنَا﴾ في الأعراف ويونس فقط، وفيما سواهما: «أرسلنا»، والسبب أن الإرسالَ يعني التوالي، والبعث يدلُّ على التراخي والتهيج، فذكر البعث في الأعراف لبيان التراخي بعد ذكر الأقوام السابقة، وقد كان بينهم موسى عليه السلام مدة طويلة، وربما لما ظهر في السُّورتين من التحدي والاستفزاز بالسحر[٢].

﴿مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ يعني: من بعد الرسل. وعن عبد الله بن عباس قال: إنما سُمِّي موسى؛ لأنه ألقي بين ماء وشجر، فالماء بالقبطية: مو، والشجر: سَى[٣].

أ ـ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: بحُجَجِنا ودلائلنا البينة[٤].

والآياتُ التي بَعث الله بها موسى عليه السلام هي أدلة صدق النبوة، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج؛ ليشاهدها ويسمعها فرعون وملؤه[٥]، وسيأتي في هذه السورة بإذن الله.

ب ـ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: فرعون: هو ملكُ مصر في زمان موسى، والملأ هم أشرافُ قوم فرعون، وتخصيصهم بالذِّكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم؛ لأنَّ مَنْ عداهم كالأتباع لهم، سُمُّوا ملأً؛ لأنهم يملؤون المجالسَ بأجرامهم، والعيون بجمالهم، والقلوب بمهابتهم. ذكره أبو السعود[٦].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٧٠).
(٢) قصص الكليم في القرآن، فرح عبد الفتاح حسام الدين، دار الهدى، ٢٠١٩م، ص١٦٦.
(٣) موسوعة التفسير بالمأثور، (٩/ ٢٥٨).
(٤) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٥٣).
(٥) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٧١).
(٦) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٠/ ٤٦).

وقد حدَّد الحق هنا أن موسى قد بُعث لفرعون وملئه فقط؛ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتُهم سهلةً إن اهتدى الكبار، والغالب والعادة أن من يقفُ أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر، وهم القادةُ أو من حولهم، ولا يرغبون في منهج الخير؛ لأنه يصادم أغراضهم وأهواءهم؛ ولذلك يحاربونه، وأمّا بقيةُ العامة فهم المغلوبون على أمرهم[١].

ولو آمن فرعونُ وملؤه لآمن سائر المصريين؛ لأنهم كانوا تبعاً لهم، كما أن فرعونَ ورجالَ الدولة هم الذين كانوا مُستعبَدين لبني إسرائيل وبيدهم أمرهم، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء؛ لأنهم كانوا مُستعبَدين أيضاً، ولكن الظلم على بني إسرائيل الغرباء أشدّ[٢].

ت ـ ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾: وخلاصةُ استقبال فرعون وملئه لرسالة موسى عليه السلام ودعوته أنَّها استُقبِلَتْ بالظلم؛ أي: كفروا وجَحَدوا. والتعبير القرآني يُكثر من ذكر كلمة «الظلم»، وكلمة «الفسق» في موضع كلمة «الكفر»، أو كلمة «الشرك». وهذه من تلك المواضع التي يَكثر ورودها في التعبير القرآني، ذلك أن الشرك أو الكفر أصبح هو الظلم، كما أنه كذلك هو أشنع الفسق، والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية وحقيقة التوحيد، ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدنيا والآخرة، ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة، والأرباب المتفرقة، وليس بعد ذلك ظلم.

ومن ثَمَّ فالكفر هو الظلم ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، كما يقول التعبير القرآني الكريم، وكذلك الذي يكفر أو يشرك إنما يفسق، ويخرج عن طريق الله وصراطه المستقيم إلى السبل التي لا تؤدي إليه ـ سبحانه ـ إنَّما تؤدِّي إلى الجحيم[٣].

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٧١).
(٢) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٠/ ٤٧).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ٣٤٥).

ث ـ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: وهذه العاقبةُ ستجيء في السياق عن قريب، أما الآن فننظر كذلك في مدلول كلمة ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وهي مرادفةٌ لكلمة «الكافرين» أو «الظالمين» في هذا الموضع.. إنهم ظلموا بآيات الله: أي كفروا بها وجحدوا ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ هؤلاء إنهم مفسدون؛ لأنهم ﴿فَظَلَمُواْ﴾ أي: «كفروا وجحدوا»، ذلك أن الكفر هو أشنع الفساد، وأشنع الإفساد، إن الحياةَ لا تستقيمُ ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد والعبودية لإله واحد، وإن الأرض لَتفسد حين لا تَتَمَحَّضُ العبودية لله في حياة الناس، وإنَّ العبودية لله وحده معناها أن يكونَ للناس سيد واحد، يتوجَّهون إليه بالعبادة، والعبودية كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها، فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلِّبة وشهوات البشر الصغيرة.

إن الفسادَ يُصيبُ تصورات الناس كما يُصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكَّمون في رقاب العباد ـ من دون الله ـ وما صلحت الأرضُ قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة، ومن ثَمَّ يقول الله ـ سبحانه ـ عن فرعون وملئه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وكل طاغوت يُخضع العبادَ لشريعة من عنده، وينبذ شريعة الله، هو من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. وافتتاح القصة على ذلك النحو هو طريقةٌ من طرق العرض القرآنية للقصص، وهذه الطريقةُ هي المناسبة هنا لسياق السورة وللمحور الذي تدور حوله؛ لأنها تُعجِّلُ بالعاقبة منذ اللحظة الأولى ـ تحقيقاً للهدف من سِياقاتِها ـ ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال، فنرى كيف سارتِ الأحداثُ إلى نهاياتها[1].

وقال محمد الأمين بن عبد الله الهرري في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أي: فانظر، أيها الرسول كيف كان عاقبة فرعون

(١) المصدر نفسه، (٣/ ٣٤٥).

وملئه المفسدين في الأرض بالظلم واستعباد البشر، حين جحدوا آيات الله وكفروا بها، وفي هذا تشويقٌ وتوجيهٌ للنظر إلى ما سيقصُّه الله تعالى من عاقبة أمرهم، إذ نصر رسوله موسى، وهو واحدٌ من شعب مُستضعَف مُستعبَد لهم، على فرعون وملئه، وهم أعظم أهل الأرض قوة وصولة، بأن أبطل سحرهم، وأقنع علماءهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من عند الله تعالى، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد، ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن تبعه من ملئه وجنوده، وهذه عبرةٌ قائمةٌ على وجه الدهر، وحُجَّة على أن الغلب ليس للقوة المادية فحسب كما يقوله المغرورون بعظمة الأمم الظالمة الأجنبية لمن استضعفتهم من أهل المعمورة، وبعد التشويق والتنبيه المتقدم قصَّ الله تعالى ما كان من أولئك القوم في ابتداء أمرهم، حتى انتهوا إلى تلك العاقبة فقال[1]:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥]:

أ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان.

﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾: ناداه بلقبه بأدب واعتزاز، ناداه ليقرر له حقيقة أمره، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود.

﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: لقد جاء موسى عليه السلام بهذه الحقيقة التي جاء بها كلُّ رسول قبله، حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً، ألوهية واحدة وعبودية شاملة، لا كما يقول الخابطون في الظلام من «علماء الأديان» ومن يتبعهم في زعمهم، عن تطور العقيدة إطلاقاً ودون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين.

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٦/ ٤٧).

إن العقيدة التي جاء بها الرسلُ جميعاً عقيدة واحدة ثابتة، تُقرِّر ألوهية واحدة للعوالم جميعاً، ولا تتطور من الآلهة المتعددة إلى التثنية، إلى الوحدانية في نهاية المطاف. فأما جاهليات البشر حين ينحرفون عن العقيدة الربانية فلا حدَّ لتخبُّطها بين الطواطم، والأرواح، والآلهة المتعددة، والعبادات الشمسية، والتثنية، والتوحيد المشوب برواسب الوثنية، وسائر أنواع العقائد السماوية التي جاءت كلها بالتوحيد الصحيح؛ الذي يُقرِّر إلهاً واحداً للعالمين، وتلك التخبطات المنحرفة عن دين الله الصحيح.

ولقد واجه موسى عليه السلام فرعونَ وملأه بهذه الحقيقة الواحدة التي واجه بها كل نبي ـ قبله أو بعده ـ عقائد الجاهلية الفاسدة، واجهه بها، وهي تعني الثورة على فرعون، وملئه، ودولته، ونظام حكمه. إن ربوبية الله للعالمين تعني ـ أول ما تعني ـ إبطال شرعية كل حاكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره، وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له ـ من دون الله ـ بإخضاعهم لشرعه هو وأمره، واجهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين(١).

قال السَّعدي: إني رسولٌ من مرسِل عظيم وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربّي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية التي من جملتها أنه لا يتركهم سُدى، بل يرسل إليهم الرسل مُبشِّرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله، وهو لم يرسله(٢).

ب ـ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾؛ أي: حريص على ألاَّ أقول على الله إلا الحقَّ؛ أي: جدير بذلك وحرِيٌّ به(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٦).
(٢) تفسير السعدي، (٣/ ٧١ ـ ٧٢)، نقلاً عن التدبر والبيان.
(٣) تفسير ابن كثير، (١/ ٤٥٤).

فما كان الرسول الذي يعلم حقيقةَ الله؛ ليقول عليه إلا الحقَّ، وهو يعلم قدرَه، ويجد حقيقته سبحانه في نفسه[١]، لما علم من عزِّ جلاله، وعظيم سلطانه[٢] سبحانه.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: بحُجَّة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به[٣].

﴿قَدْ﴾ توكيد بحرف التحقيق.

﴿جِئْتُكُم﴾: أنتم وليس غيركم، وأنتم تعرفونني جيداً، وقد رُبِّيت فيكم، ولبثت فيكم من عمري سنين، ولا يمكن أن أكذب عليكم.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: قد جئتكم ببرهان قاطع من ربكم، ومعجزة شاهدة على رسالتي، دالة على صدق ما أقول، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنهم مربوبون، وأنَّ فرعون ليس ربّاً ولا إلهاً، وإلى أنَّ البيِّنة ليست من كسب موسى، ولا مما يَسْتَقِلُّ به عليه السلام[٤].

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: وباسم تلك الحقيقة الكبيرة، حقيقة الربوبية الشاملة، طلب موسى إلى فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل، فإنَّ بني إسرائيل عبيد الله وحده، فما ينبغي أن يعبِّدَهم فرعون لنفسه، وإنَّ الإنسانَ لا يخدم سيِّدَين ولا يعبد إلهين، فمن كان عبداً لله فلا يمكن أن يكون عبداً لسواه، وإذ كان فرعون إنما يعبِّد بني إسرائيل لهواه، فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله، وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل.

إنَّ إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلانُ تحرير الإنسان، تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله، تحريره من شرع البشر، ومن

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٥٤).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٤٥٤).
(٤) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٠/ ٤٩).

هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر، وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله، ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس(١).

وعلى هذه الحقيقة أمر موسى عليه السلام أن يُبَيِّنَ طلبه إلى فرعون إطلاق بني إسرائيل، ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالأدلة، والبراهين، والحجج الدامغة: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، مقدمة ونتيجة تتلازمان ولا تفترقان، ولم تغب عن فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان، إعلان ربوبية الله للعالمين، لم يغبْ عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون، وقلب نظام حكمه، وإنكار شريعته، وكشف عدوانه وطغيانه، ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يُظهروا موسى بمظهر الكاذب؛ الذي يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل(٢).

ولم ينازع فرعون موسى في هذه السورة في شيء مما ذكره موسى، إلا أنه طلب المعجزة(٣).

وقال أبو حيان: ودلَّ ذلك على موافقته لموسى، وأن الرسالة ممكنة، لإمكان المعجزة إذ لم يَدفع إمكانَها(٤).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]:

أ ـ قال الطبري: فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾: يقول: بحجَّة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٥).

ب ـ قال أبو حيان: لما عرض موسى عليه السلام رسالته على فرعون، وذكر

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٧).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٤٧).
(٣) البحر المحيط، (٤/ ٣٥٧).
(٤) المصدر نفسه، (٤/ ٣٥٧).
(٥) تفسير الطبري، (٩/ ١٤).

الدليل على صدقه، وهو مجيئه بالبينة والخارق المعجز، استدعى فرعون منه خرق العادة الدال على الصدق، وهذا الاستدعاءُ يحتمل أن يكونَ على سبيل الاختبار وتجويزه ذلك، ويحتمل أن يكونَ على سبيل التعجيز لما تقرر في ذهن فرعون أن موسى لا يقدر على الإتيان ببينة، والمعنى: إن كنت جئت بآية من ربك فأحضرها عندي؛ لتصِحَّ دعواك، ويثبت صدقُك[١].

ت ـ وقال د. محمد أبو موسى: وإن كان عذر فرعون في ذلك كعذر غيره من الكذابين أنهم لا يُصدِّقون أهل الصدق؛ لأنهم ليسوا من أهل الصدق، ولو صدَّق فرعون لنجا، ولنجا كل من معه. ولاحِظْ أنه قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، وشرط كلمة ﴿إِن﴾ يترجَّح ألَّا يكون.

وكرَّره في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وكأنَّ في ردِّ فرعون إشارتين إلى رأيه في الكلام الذي سمعه من موسى، وأن احتمال وجود الآية ضعيف، واحتمال صدق موسى ضعيف، ولا يخطرْ في نفسك أن فرعون ليس من أهل اللسان العربيّ؛ لأن الحق سبحانه يحكي دقائق ما في قلب فرعون باللسان العربي المبين[٢].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨]:

طلب فرعون إلى موسى عليه السلام أن يعرض بيِّنتَه بعد أن عرض قضيته، وفي هذا نزول للميدان الذي يُتقنه الفراعنة؛ ليكون فيه استدراجهم، ولتكون هزيمتهم أشدَّ وأوقع، حيث كان المصريون قد بلغوا في السحر شأناً رفيعاً، وكانت الصنعة التي يتداول أخبارها كلُّ الناس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم[٣].

---

(١) البحر المحيط، (٤/ ٣٥٧).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص٥٢٣.
(٣) مجالس النور، (١/ ٤٥٩).

أ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾: وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مَدْيَن، ورأى ناراً. وبيَّنتُ ذلك في سورة طه والنمل والقصص، وكان العرضُ من الإلقاء الأول التَّدريب على المهمّة، وهدفه طمأنة موسى، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا ستستجيب له، فتنقلب حيةً بمجرد إلقائها، وكان ذلك أول إلقاء لها، وأما الإلقاء الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين وإعلامه بالبينة، وهو ما نحن بصدده الآن في هذه الآية التي نتكلَّم بخواطرنا الإيمانية فيها، ثم هناك إلقاءٌ ثالثٌ وهو إلقاء التحدي للسحرة، ولأن لكلِّ إلقاء موقعاً، فلا تقل أبداً: إنَّ ذلك تكرار، إنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات، فلكل موقف ما يتطلَّبه.

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾: يوضِّح الفُجاءة التي أذهلت فرعون، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم في لمح البصر بمجرد إلقائها، ومن فوائد تدريب سيِّدنا موسى على إلقاء العصا في طور سيناء أن موسى لم تأخذه المفاجأة حين يلقيها أمام فرعون، بل ستأخذ المفاجأة فرعون، كأن التدريبَ أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه في لحظة التنفيذ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب؛ لأنَّ العصا صارت ثعباناً وحية حقيقية، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين الساحر، ولا يخاف منها، إذن خوفه منها إبَّان التدريب دليلٌ على أنها انقلبتْ حقيقة لا تخيُّلاً، وتلك هي مخالفةُ المعجزة للسحر، فالمعجزُة حقيقةٌ والسحر تخييل، وهذا هو الذي سيجعل السحرة يخِرُّون ساجدين؛ لأنهم ذُهلوا مما حدث.

﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّنٌ، وواضحة ملامحه المخفية التي لا تخفى على أحد، ويقدم موسى عليه السَّلام على الآية الثانية[1]:

ب ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾: وهذه آيةٌ معجزة، وقوله: ﴿وَنَزَعَ﴾ تعني: إخراج اليد بعسر، كأن هناك شيئاً يقاوم إخراج اليد؛ لأنه لو كان إخراج

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٨٣).

اليد سهلاً لما قال الحق: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ لأن النزع يدلُّ على أن شيئاً يُقاوِم، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة؛ ففي الغالب يحاول صاحبُ الملك التشبُّث بملكه، لكن الحق ينزعه من هذا الملك كذلك قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾.

وهذا يدلُّ على أن يده لها وضع، ونزع يده وإخراجها بشدَّة له وضع آخر، كأنها كانت في مكان حريص عليها، إذن ففيه لقطة بيَّنت الإدخال ولقطة بيَّنت النزع، وهما عمليتان اثنتان. وقال سبحانه في آية ثانية: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢]، والجيبُ هو مكانُ دخول الرأس من الثوب وإن كنا نسمي «الجيب» في أيامنا مطلق شيء نجعلُهُ وعاءً لما نُخَبِّئُ، وكان الأصل أن الإنسانَ حين يريد أن يحتفظَ بشيء يضعه في مكان أمامه وتحت يده، ثم صنع الناس الجيوب في الملابس، فسُمِّيت الجيوبُ جيوباً لهذا.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، إذن ففيه إدخال وإخراج، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات، فآية أوضحت دخول اليد الجيب، وأخرى أوضحت ضمَّ اليد إلى الجناح، وثالثة أوضحت نزع اليد، وهذه لقطات متعددة، تكوّن كلها الصورة الكاملة؛ لنفهمَ أن القصص في القرآن غير مكرر، فالتكرير قد يكون في الجملة، لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية، وحين نستعرضه تتبين أركانُ القصة كاملة، فكلُّ هذه اللقطات تجمعُ لنا القصة[1].

ت ـ ونعرف أن موسى عليه السلام كان أسمرَ اللون؛ لذلك يكون البياض في يده مخالفاً لبقية لونِ بشرته، ويده صارت بيضاء بحيث يراها الناس، يلفتهم ضوءُها، ويجذب أنظارهم، وهي ليست بيضاء ذلك البياض الذي يأتي في سُمرة نتيجة البرص ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، وكل لقطة كما ترى تأتي لتؤكد، وتكمل الصورة، إذن فقوله: ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ يدلُّ على أن ضوءَها

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٨٣).

لامع وضيء، يلفت نظر الناس جميعاً إليها، ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع، وقوله: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً[١].

قال محمد رشيد رضا في تفسيره للآيتين: أي: فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، وهو الذَّكَر العظيم من الحيَّات ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر بيِّن لا خفاء في كونه ثعباناً حقيقيّاً يسعى، وينتقل من مكان إلى آخر، تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر، فيخيَّل إليها أنها تسعى، كما سيأتي من أعمال سحرة فرعون.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا.

﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾: ناصعة البياض تتلألأ.

﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾: إليه، وهم فرعون وملؤه أو لكل من ينظره، والنَّظَّارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الأمور الغريبة، وقد وصف الله تعالى بياضها في «طه» و«النمل» و«القصص» بأنّها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً﴾؛ أي: من غير علّة كالبرص[٢].

قال ابن عطية: وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة، ودعا إلى الله بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقاً فبهما نتحدَّى، وإذا جعلنا التحدي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك، فتنفرد حينئذ العصا بذلك؛ لأن المعارضةَ والعجزَ فيها وقعا.

وقال القاضي أبو محمد: ويقال: تَحدِّي موسى بالآيتين جميعاً؛ لأنَّ الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً، وإن كان لم يُنَصَّ على الدُّعاء إلى الإتيان بمثلهما[٣].

---

(١) المصدر نفسه، (٧/ ٤٢٨).
(٢) تفسير المنار، (٩/ ٤٤).
(٣) المحرر الوجيز، (٢/ ٤٣٦).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠]:

إنهم يُصرِّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرَّر من إعلان تلك الحقيقة، إنها الخروجُ من الأرض، إنها ذهابُ السلطان، إنها إبطالُ شرعية الحكم أو محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث(١).

إن الأرض لله والعباد لله، فإذا رُدَّت الحاكمية في أرض الله، فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع الله، أو خرج منها الأرباب المتألِّهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم، وخرج منهم الملأ الذين يُولِّيهم الأربابُ المناصبَ والوظائف الكبرى، فيعبِّدون الناسَ لهذه الأرباب.

هكذا أدرك فرعونُ وملؤه خطورة هذه الدعوة، وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة، لقد قال الرجلُ العربي ـ بفطرته وسليقته ـ حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: «هذا أمرٌ تكرهه الملوك»، وقال له رجلٌ آخر من العرب بفطرته وسَليقته: «إذن تحاربك العرب والعجم».

لقد كان هذان العربيّان يفهمان مدلولات لغتهما، كانا يفهمان أنَّ (لا إله إلا الله) حديثها في حسّ هؤلاء العرب؛ لأنهم كانوا يفهمون مدلولَ لغتهم جيداً، فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمعَ في قلب واحد، ولا في أرض واحدة شهادة أن لا إله إلا الله مع الحكم بغير شرع(٢).

أ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: عرفنا أن الملأ من القوم هم الذين يتصدَّرون المجالس ويملؤونها، أو الذين يملكون فكرة أو علماً عن السحر، وفي سورة الشعراء جاء قول الحق: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، إذن فهذه روايةٌ جاءت بالقول من الملأ، والآية الأخرى جاءت

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٨).

بالقول على لسان فرعون، وليس في هذا أدنى تناقض، ومن الجائز أن يقولَ فرعون: إنه ساحر، وأيضاً أن يقول الملأ: إنه ساحر، وتتوارد الخواطرُ في أمر معلوم مُتَّفَق عليه، فما الذي يمنع من توارد الخواطر، فيجيء الخاطرُ عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون؟ أيكون فرعون قد قالها، وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال سيدهم شيئاً كرَّروه[١]، ولا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً، ثمَّ قالوه بعده، فأخبر الله تعالى عنهم هنا، وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء[٢].

وصف الأشرافُ والرؤساءُ من قوم فرعون موسى عليه السلام بأنه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الرجل، يعنون موسى عليه السلام.

﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: حاذق في علم السحر، متميّز في فهمه ومعرفته وفائق فيه، يعنون أنه ليأخذ بأعين الناس، حتى يُخيَّل لهم أن العصا صارت حية، ويُري الشيءَ بخلاف ما هو عليه، كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون، وإنما قالوا ذلك؛ لأن السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان، فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، ماهر في فنون السحر متمكِّن من ذلك.

ب ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: وجَّه كل همِّه لسلب ملككم منكم، وإخراجكم من أرضكم بسحره، إذ به يستميلُ الشعب إليه، وينتزع منكم الملك، وعليكم استعادته منه. وقد استشعرت نفوسُهم الخبيثة ما صار إليه أمرهم من إخراجهم من أرضهم، وخلوِّ مواطنهم منهم، وخراب بيوتهم، فبادروا إلى الإخبار بذلك، وكأن الأمر كما استشعروا، إذ أغرق الله فرعون وآله، وأخلى منازلهم منهم، وهذا المذكورُ من كلام الملأ لفرعون[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٨٥ ـ ٤٢٨٦).
(٢) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٠/ ٥١).
(٣) تفسير حدائق الروح والريحان، (١٠/ ٥١).
(٤) المصدر نفسه، (١٠/ ٥٢).

لقد اتهم الملأ موسى عليه السلام بأنه يريدُ أن يخرجَ الناس بسحره من أرضهم، وهذا القولُ من فرعون ومَن معه له هدفٌ، وهو تهييجُ الناس وإثارتهم؛ لأنَّ فرعونَ أقنع الناس أنه إله، وها هي الألوهيةُ تكاد تتهدم في لحظة[١].

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾: على لسان الملأ من قوم فرعون تدلُّ على أنَّ القائل للعبارة أدنى من المقول لهم، فالمفروضُ أن فرعونَ هو صاحبُ الأمر على الجميع.

ومجيء القول ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾: يدلُّ على أن الذي يأمر في مسائل مثل هذه هو فرعون، وهذا يُشعِر بأن فرعونَ قد أدرك أن مكانته قد انحطَّت، وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته، أو أن يكون ذلك من فرعون تطييباً لقلوب مَنْ حوله، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة، فكيف تشاورُ الناس ـ يا فرعون ـ وأنت قد غرستَ في الناس أنك إله؟ وهل يشاور الإله مألوهاً؟! إنَّ قولك هذا يحملُ الخيبة فيك؛ لأنَّك تدَّعي الألوهية، ثم تريد أن تستعينَ بأمر المألوه[٢].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١١ـ١١٢]:

أ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾: أي: أرجئ وأخّر أمر أخيه، لا تفصل فيه بادي الرأي، وأرسل في مدائن ملكك رجالاً أو جماعات من الشرطة والجند حاشِرين؛ أي: جامعين، سائقين للسحرة، فالحشر: الجمعُ والسَّوقُ، وإنما يوجد السحرة في المدائن الجامعة الآهلة بالسكان، والصناعات، والمعاشات[٣].

ويبدو أن الملأ رأوا أن المسألة تحتاجُ إلى تمهُّل وبطء، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القومُ الذين يفهمون في السحر، فما دمنا نقول عن موسى:

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٨٧).
(٢) المصدر نفسه، (٧/ ٤٢٨٧).
(٣) تفسير المنار، (٩/ ٦١ ـ ٦٢).

إنه ساحر، فلنواجهه بما عندنا من سحر. وقبول فرعون لهذه المشورة وهَدْمه لألوهيته؛ لأنه يدَّعي أنه إله، ويستعين بمألوه هم السحرة، والسحرة أتباع له، وقوله الحق على ألسنتهم: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يدلُّ على أن السحر كان منتشراً ومُنبثّاً في المدائن، وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملأ بقوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ (١).

وفي قوله: ﴿وَأَرْسِلْ﴾ في «الأعراف» وفي «الشعراء»: ﴿وَٱبْعَثْ﴾ [الشعراء: ٣٦].

قيل: هذا الاختلاف في التعبير مبني على الترتيب الذي استقرَّ عليه المصحف فـ ﴿أَرْسِلْ﴾ أخصّ في باب الإرسال من البعث؛ إذ لا يقال: ﴿أَرْسِلْ﴾ إلاّ فيما كان توجيهاً فيه معنى الانتقال، أمّا ﴿ابْعَثْ﴾ فأوسع، فإنه يقعُ بمعنى الإرسال وبمعنى الإحياء، ففيه اشتراك، فلما كان الإرسالُ أخصّ وقع الإخبار به أولاً، ثم وقع ثانياً بالبعث، تنويعاً للعبارة، وعلى الترتيب في موضع اللفظ المطّرد من القرآن، ولا يمكن على ما تقرّر من ذلك العكس.

وقيل: إن ﴿أَرْسِلْ﴾ و﴿ابْعَثْ﴾ بمعنى واحد، وإنما عبّر بكل واحد في مواضع تكثيراً للفائدة في التعبير عن المراد بلفظين متساويين (٢).

و﴿حَٰشِرِينَ﴾: تعني من يحشر لك السحرة، ويجمعهم لا بإرادتهم، ولكن بقوة فرعون وبَطْش جنده.

ب ـ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾: بفنون السحر ماهرٍ فيها، وهم يكشفون لك عنه ما جاء به موسى، فلا يفتتن به أحد، وجاء في سورة الشعراء ﴿سَحَّارٍ﴾، وهي تُفيدُ المبالغةَ من جهتين، فكلمة ﴿سَحَّارٍ﴾ تعني أنه يعملُ بالسحر، و﴿سَحَّارٍ﴾ تعني أنه يبالغ في إتقان السحر، والمبالغاتُ دائماً تأتي لضخامة

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٨٨).
(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، شيخ الإسلام الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق: محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨٣م، (١/ ٢٠٤).

الحدث، أو تأتي لتكرُّر الحدث، فـ ﴿سَحَّارٍ﴾ تعني أن سحره قوي جدّاً، أو يسحر في كل حالة، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً، وما دام القائلون متعددين، فواحد يقول: ساحر، وآخر يقول: سحّار، وهكذا، والقرآن يغطّي كل اللقطات[١].

هذا، وقد كانت أرض مصر تموجُ بالكهنة في شتى المعابد، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمالَ السحر، ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترنُ الدِّين بالسحر، ويزاول السحرَ كهنةُ الديانات وسَدَنة الآلهة، وقد استقر رأي الملأ من قوم فرعون، على أن يرجئ فرعون موسى إلى موعد، وأن يرسل في أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة، ليواجهوا «سحر موسى» بزعمهم بسحر مثله[٢].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤]:

أ ـ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾: يدلُّ على بطش الآمر؛ أي: إنه ساعة قال الكلمة هرع الجند بسرعة؛ ليجمعوا السحرة، وقد استطاعوا جَمْعَهم وحَشْرَهم والإتيان بهم.

ب ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾: وجاء في سورة الشعراء: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، لقد جاء بها بهمزة الاستفهام، وفي سورة الأعراف جاء بها بغير همزة الاستفهام، وهذه آيةٌ قرآنية وتلك آية قرآنية.

وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعل انفعالاً أدى به مطلوبه؛ فالذي يستفهم من فرعون قال: ﴿أَئِنَّ﴾، والشجاع قال لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، أي: الأجر لهم، ولكن في القضية الخبرية ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؛ أي: إنَّ بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر، وقد غطَّى القرآنُ هذا الاستفهام وهذا الخبر، وتأتي إجابةُ فرعون على طلب السحرة للأجر:

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٨).

ت ـ ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

﴿نَعَمۡ﴾: حرف جواب قائم مقام جملة، هي: «لكم أجر»، وأضاف أيضاً: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وهذا دليل على أنه ينافقهم، أو يبالغ في مجاملتهم؛ لأنه يحتاج إليهم أشدَّ الحاجة، وهكذا نجد ألوهيةَ فرعون قد خارت أمام المألوهين السحرة.

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: هذه تدلُّ على فساد الحكم؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء، لكن إذا ما كان هناك مقرَّبون، فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها، والدائرة الثانية تنهب أيضاً، وكذلك الثالثة والرابعة، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناسُ مصنَّفين عند الحاكم.

ولذلك كان رسولُ الله ﷺ إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه، كان يسوّي بين الناس جميعاً في نظره، حتى يظنَّ كلُّ إنسان أنه أولى بنظر رسول الله، ولا يُدني أحداً ويقرِّبُه من مجلسه إلا من شهد له الجميعُ بأنه مُقرَّب[1].

قال الرازي: الآية تدلُّ على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام، وتدل أيضاً على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان، فلم يقلبوا التراب ذهباً. ولِمَ لمْ ينقلوا ملك فرعون إلى أنفسهم؟ ولمَ لمْ يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا؟. والمقصودُ من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق، وألا يغترَّ بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب، والله أعلم[2].

قال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: إن السحرة استرابوا في هذا الحشد لمواجهة رجل لم يُعرفْ عنه شيء

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٩٠).
(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

من السحر، فوقع في نفوسهم أن الذي هو فيه ليس سحراً، فقالوا: إن كنا نحن الغالبين، وجعلوا غلبتهم أمراً مرجُوحاً لا راجحاً[١].

٨ ـ **قوله تعالى**: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]:

لقد اطمأن السحرة على الأجر، واشرأبَّت أعناقهم إلى القُربى من فرعون، واستعدوا للحَلْبة، ثم ها هم أولاء يتوجَّهون إلى موسى عليه السلام بالتحدي، ثم يكون من أمرهم ما قَسَم الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يحتسبون، ومن الأجر الذي لم يكونوا يتوقَّعون، ويبدو التحدي واضحاً في تخييرهم لموسى، وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة، وفي الجانب الآخر تتجلَّى ثقة موسى عليه السلام، واستهانته بالتحدي ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾[٢].

ويقول الشيخ محمد متولي الشَّعراوي: ونلحظ أنهم لم يؤكِّدوا لموسى رغبتهم في أن يلقي هو أولاً عصاه، ولكنهم أكَّدوا رغبتهم في أن يكونوا هم أول الملقين، فجاؤوا بضمير الفَصْلِ، وهو «نحن» الذي يفيد التأكيد، ونعلم أن من يعقب، ويكون عمله تالياً لمن سبقه، فإن فعله هو الذي سيترتب عليه الحكم، ولابدَّ أن يكون قوي الحجَّة، هم يريدون أن يكونوا هم المعقِّبين، وأن موسى الذي يبدأ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدؤوا هم أولاً؛ لذلك جاؤوا بالعبارة التي تحملُ المعنيين ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، فعلم موسى أنهم حريصون على أن يبدؤوا هم بالإلقاء، فأتَوْا بكلمة «نحن»، وفكَّر موسى أن من صالحه أن يُلقوا هم أولاً؛ لأن عصاه ستلقفُ وتبتلعُ ما يلقون[٣]؛ لذلك يأتي:

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٢٥.
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٩).
(٣) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٩١).

٩ ـ قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]:

أ ـ ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ أي: فسترون ما يحلُّ بكم من الخزي، ولم يكن هذا أمراً بتنفيذ السحر ورضاً به، ولكنه تهديد(١).

قال محمد رشيد رضا: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ وفي سورة طه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٦]، وهو أدل على رغبته عليه السلام في سبقهم إلى الإلقاء، ولعله نطق أولاً بما فيه من الإضراب، فقال: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم من دوني، ثم أعاد كلمة ﴿أَلْقُوا۟﴾ وحدها لتأكيد رغبته، والإيذان بعدم مبالاته، وفي سورتي «يونس» و«الشعراء»: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠، الشعراء: ٤٣]، فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة «طه»؛ لأنه جواب لخطابهم إيَّاه باسمه بالتَّخيير، فالمقام فيها مقام الإضمار حتماً.

وأما إظهاره في سورتي «يونس» و«الشعراء»، فسببه أنه ليس فيهما ذكر لنداء السحرة إياه وتخييرهم له، فأول آية «يونس» ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟﴾، وقبلها طلب فرعون للسحرة، فلو لم يُصرِّح باسم موسى لكان المتبادر أن الذي أمرهم بالإلقاء هو فرعون حسب قاعدة عودة الضمير إلى أقرب مذكور، وكذلك آية «الشعراء» جاءت بعد ذِكْر طلب فرعون إلى السحرة ومجيئهم وسؤالهم إياه الأجر إن كانوا هم الغالبين، وإجابته إياهم، فهي أولى من آية «يونس» بما ذكر.

وأما زيادة ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ فإنها فائدة نافلة ذات شأن تدلُّ على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم أمره، وكان مجهولاً عنده، وهي لا تنافي عدم ذِكْرها في آية «الأعراف» فيجمع بينهما.

---

(١) التيسير في التفسير، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي (ت: ٥٣٧هـ)، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرين، إستانبول، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، ط١، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، (٦/ ٤٦٣).

وقد قيل: كيف يأمرهم موسى عليه السلام بإلقاء ما عندهم، وهو السحر المنكر؟!

وأجيب بأنه لم يأمرْ بفعل السحر ابتداء، وإنما أمر بأن يتقدَّموه فيما جاؤوا لأجله ولا بدَّ لهم منه، وأراد التوسل به لإظهار بطلان السحر لا إثباته، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن ثمة وسيلة لإبطاله إلا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه في سورة «يونس»: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ـ٨٢].

ومثله توسل إبراهيم ـ عليه وعلى نبيِّنا وآلهما الصلاة والسلام ـ إلى إظهار حقيقة التوحيد لعبدة الكواكب من قومه لما رأى كلاًّ من الكواكب والقمر والشمس بازغاً فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨]، ثم تعقبه بما يدلُّ على كونه لا يصحُّ أن يكون ربّاً، وإسماعه إياهم بعد إبطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] (١).

ب ـ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم خيّلوا إلى الأبصار بسحرهم أنها حيّات تسعى في الحقيقة(٢).

قال أبو جعفر النَّسَفيُّ: أي: قلبوا أعين الناس عن صحة الإدراك، وقيل: حيّروا الأعين(٣).

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠م، (٩/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٢) التفسير المحرر للقرآن الكريم، مؤسسة الدرر السنية، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، ٢٠١٧م، (٦/ ٤٣٠).

(٣) التيسير في التفسير، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي، (٦/ ٤٦٣).

ت ـ ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾: أي: وأخاف السحرة الناس، وأفزعوهم بما خيّلوا إلى أعينهم من الحيات الكثيرة الضخمة التي تسعى[١].

ث ـ ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾: أي: جاء السحرة بتخييل عظيم الشأن عند من يراه من الناس ذي تأثير كبير في أعينهم، وقد أدخل الخوفَ الشديد في نفوسهم[٢]، وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم لندركَ أي سحر كان، وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا ﴿أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ وأثاروا الرهبةَ في قلوبهم ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ لنتصور أي سحر كان.

ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مُصوِّر، فهم استجاشوا إحساسَ الرهبة في الناس، وقسروهم عليه قسراً، ثم حسبنا أن نعلمَ من النص القرآني الآخر في سورة طه: أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة؛ لنتصور حقيقة ما كان[٣]، وقد مرّ بنا تفصيل ذلك في سورة «طه».

وقال الآلوسي: واستدل بالآية من قال: إن السحرَ لا حقيقةَ له، إنما هو مجرد تخييل، وفيه أنهم إن أرادوا أن كلَّ سحر تخييل فممنوع، فالآيةُ لا تدلُّ عليه، والذي ذهب إليه جمهور أهل السنة أن السحر أقسام، وأن منه ما لا حقيقة له، ومنه ما لهُ حقيقة[٤] كما مر بنا.

وعموماً لقد جاء السحرة بسحر عظيم، وهو أمر منطقي؛ لأن العمليةَ هي مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون، أو بقاء ألوهيته؛ لذلك لابدّ أن

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، (٩/ ٢٨٠).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٤٣١).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٩).
(٤) روح المعاني، (٩/ ٢٥).

يأتوا بآخر وأعظم ما عندهم من السحر(١). وكانت مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه، وتطالع السحرة الكهنة، وتطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم(٢).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١٢٢]:

حان الوقت للقضاء على الباطل المنتفش، وإزالة سحر العيون واسترهاب القلوب، وذلك بظهور الحقِّ الهادئ الواثق، الراجح في الوزن، الثابت في القواعد، العميق الجذور(٣)، وهذا ما وضحته الآية الكريمة.

١ ـ ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]:

أ ـ أي: وأوحينا إلى موسى، بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم، أن ألقِ عصاك.

ب ـ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾:

أي: فألقى موسى عصاه، فانقلبت في الحقيقة ثعباناً عظيماً يأكل، ويبتلع بسرعة هائلة جميع ما ألقاه السحرة من الحبال والعصي التي أوهموا الناس كذباً وافتراءً أنها حيّات(٤).

ومعنى: ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تأكل، وتلتهم، وتلتقم، وتبتلع، يقال: لَقف الشيء، وألقفه وتلقَّفه؛ تناوله بالحذف سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد.

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٢٩٦).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٤٩).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٥٠).
(٤) التفسير المحرر للقرآن الكريم، (٦/ ٤٣٩).

ومعنى ﴿يَأۡفِكُونَ﴾ أي: يكذبون ويزوّرون، والإفك: الكذب، وأصل «أفك» يدلُّ على قلب الشيء وصرفه عن جهته[١].

وقال ابن كثير: يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرَّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه، وهي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل[٢].

٢ ـ ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]:

أ ـ ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾:

أي: فلما جرى ذلك ظهر الحق، وتبين لجميع الحاضرين أن موسى عليه الصلاة والسلام رسول من عند الله رب العالمين.

ب ـ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

أي: واضمحلَّ وزال ما كان يقوم به السحرة من الخداع، والكذب، والتخييل[٣].

إن التعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾، وثبت واستقرَّ وذهب ما عداه، فلم يعدله وجود، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وغُلب الباطل والمبطلون، وذلُّوا، وصغروا، وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، دار الفكر، ١٩٧٩م، (١/ ١١٨).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٥٧).
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٩/ ٥٠ ـ ٥١).
(٤) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٥٠).

٣ ـ ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]:

أ ـ ﴿فَغُلِبُواْ﴾ أي: هُزموا، مأخوذٌ من الغلبة، وهي الظفر بالعدو في حال النزاع(١).

ب ـ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ أي: رجعوا، وانصرفوا؛ يقال لمن كان على شيء، ثم رجع عنه: قد انقلب على عقبه، وأصل «قلب»: صرف الشيء من وجه إلى وجه، أو ردّه من جهة إلى جهة كقلب الثوب(٢).

ت ـ ﴿صَٰغِرِينَ﴾؛ أي: أذلاء مهانين، أو مبعدين، فالصغار: الذلة والمهانة، وأصل «صغر»: يدلُّ على القلة والحقارة(٣).

ومعنى الآية الكريمة: فغُلب فرعون وقومه والسحرة عند ذلك الجمع، وانصرف فرعون وقومه والسحرة، أذلاء حقيرين بعد أن أيّد الله موسى، ونَصَره على الباطل.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢]:

وهنا نرى صول الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيَّأة لتلقِّي الحقِّ والنور واليقين. إن السحرةَ هم أعلمُ الناس بحقيقة فنّهم، ومدى ما يمكنه أن يبلغ إليه، وهم أعرفُ الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر، أو من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر، والعالِم في فنِّه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور، ومن هنا تحوَّل السحرةُ من التحدي السافر إلى التسليم المطلق الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين(٤).

---

(١) التدبر والبيان، (١١/ ٤٣٨).
(٢) مقاييس اللغة، (٥/ ١٧).
(٣) مقاييس اللغة، (٣/ ٢٩٠).
(٤) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٥٠).

أ ـ ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]:

أي: ولم يتمالك السحرة أنفسهم بعد أن رأوا عظيم قدرة الله عزّ وجل، وعرفوا صِدْقَ موسى عليه السلام، فسقطوا على وجوههم ساجدين لربهم، فالسحرة لم يتأخَّروا عن السجود، حتى كأنهم خرّوا من غير اختيار، فعبّر بقوله: ﴿وَأُلْقِيَ﴾ كأن إنساناً أمسكهم وألقاهم ساجدين بالقوة، لقوة البرهان الذي رأوا به الحق[١].

ب ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]:

أي: قال السحرة: آمنّا بخالق ومالك ومدبِّر كل شيء، فلا نعبد غيره[٢].

ت ـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]:

لما ذكروا أنهم آمنوا برب العالمين، خصّوا من هداهم الله على أيديهما تصريحاً بالمراد وتشريفاً لهما، فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: ربنا الذي آمنا به هو رب الرسولين الكريمين موسى وهارون؛ الذي أيدهما بهذه المعجزة العظيمة الدّالة على صدقهما[٣].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٦]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]:

أ ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾:

أي: قال فرعون للسحرة لمّا أعلنوا إيمانهم بالله عزّ وجل: آمنتم بموسى قبل

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٤٤٨).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٤٤١).
(٣) المصدر نفسه، (٦/ ٤٤٢).

أن أمنحكم الإذن بذلك؟! فهذا سوءُ أدب منكم، وتجرؤ عليّ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ﴾ [طه: ٧١].

وقوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بهمزة واحدة إما على الإخبار المحض المتضمن للتوبيخ، أو على الاستفهام التوبيخي بحذف الهمزة، ومعناه: الإنكار والاستبعاد(١).

وفيه مناسبة حسنة في سورة الأعراف ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، وقال في الموضعين الآخرين في سورتي طه والشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، ووجه ذلك أن الباء في سورة الأعراف في قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ واللام في ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ في طه والشعراء، محتاج إلى كل واحدة منهما من حيث إن التصديق والانقياد معنيان يُحتاج إليهما، فالباء تحرز التصديق، واللام تحرز الانقياد والإذعان، فبُدئ بالباء المعطية معنى التصديق، وهي أخصُّ بالمقصود من اللام، فاقتضى الترتيب تقديمها، ثمّ أعقب في السورتين بعد اللام، حتى كأنْ قد قيل لهم: أصدّقتموه منقادين له في دعائه إياكم إلى الإيمان بما جاء به من عند الله؟ فحصل المحصولُ على أكمل ما يمكن، والله أعلم(٢).

ب ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

قال ابنُ كثير: يخبر تعالى عما توعّد به فرعون ـ لعنه الله ـ السحرة لما آمنوا بموسى، وما أظهره للناس من كيده ومكره. وفي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ﴾؛ أي: إن غَلَبَهُ لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ

(١) تفسير أبي السعود، (٣/ ١٢٦١). وانظر: تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن أحمد الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧م، (٢/ ١٤١).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، تحقيق: عبد الغني الفاسي، بيروت، دار الكتب العلمية، (١/ ٢٢٠).

﴿ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو يعلم ـ وكل من له لبّ ـ أنَّ هذا الذي قاله مِن أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرات والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا مِنْ أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى عليه السلام لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستُّراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] مِن أجهل خلق الله، وأضلِّهم.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتُخرجوا الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم[1].

ت ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: فيه مناسبة حسنة، حيث قال الله تعالى هنا في سورة الأعراف ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقال في سورة طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، وقال في سورة الشعراء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، فقال في سورة الأعراف ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقله في سورة طه، وإنما أدخل الفاء على قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ [طه: ٧١].

وأما في سورة الشعراء، فإنه أتى بـ«سوف تعلمون» مع اللام فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من الوعيد المُبهم، وهذا النوعُ من الوعيد أبلغ من الإفصاح بقَدْرِه على أنه قد قرن إليه بيانه وهو ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية، فنطق القرآنُ بحكاية التعريض بالوعيد، والإفصاح

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٥٨).

بالتهديد معاً. وأما اختصاص سورة الشعراء بقوله: ﴿فَلَسَوْفَ﴾ وزيادة اللام فلتقريب ما خوّفهم به من اطّلاعهم عليه، وقربه منهم حتى كأنه في الحال موجود، إذ اللام للحال، فالجمعُ بينها وبين «سوف» التي للاستقبال إنما هو لتحقيق الفعل وإدنائه من الوقوع.

وقد بيّنا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً لأحوال موسى عليه السلام في بعثه، وابتداء أمره، وانتهاء حاله مع عدوّه، فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرّب له، المحقق وقوعه، إلى اللفظ المفصح بمعناه، ثم وقع الاقتصار في السورة التي لم يُقصد فيها من اقتصاص الحال ما قُصد في سورة الشعراء على ذكر بعض ما هو في موضع التفصيل والشرح، وهو التعريضُ بالوعيد مع الإفصاح به.

وأما في سورة طه، فإنه اقتصر على التصريح بما أوعدهم به، وترك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها؛ وهو قوله بعده: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، فاللام والنون في ﴿لَتَعْلَمُنَّ﴾ للقسم، وهما لتحقيق الفعل وتوكيده، كما أن اللام في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، لإدناء الفعل وتقريبه، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحال من إعلاء الحق، وإزهاق الباطل[(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]:

فسّر فرعون هذا الوعيد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد الأصبهاني الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ)، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية/ جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٢/ ٦٧٤ ـ ٦٧٨).

﴿خِلَٰفٍ﴾ يعني: يقطع يد الرَّجُل اليمنى ورجله اليسرى، أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل.

قال ابن عباس: وكان أوَّلَ مَن صلب، وأوَّلَ من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه مناسبة حسنة، حيث قال الله تعالى هنا في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في سورتي طه والشعراء: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، فاختصت ما في سورة الأعراف بـ ﴿ثُمَّ﴾ والأخريين بالواو، والمُتوعَّد به واحد في الموضعين، فإن السورتين اللتين اختصَّتا بالواو هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر والتفصيل الأوسع، والواو أشبه بهذا المعنى؛ لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصِقاً لما قبلها، كالتعقيب الذي يُفاد بالفاء، ويجوز أن يكون متراخياً عنه، كالمهلة التي تفاد بـ ﴿ثُمَّ﴾، لا بل يجوزُ أن يكونَ ما بعدها مقدماً على ما قبلها ومُجامعاً لها، إذ هي موضوعةٌ للجمع، ولا ترتيب فيها، فكانت الواو أشبه بهذين المكانين و﴿ثُمَّ﴾ تختصُّ بأحد المواضع التي تصلح الواو لجميعها، فلما كانت مقتصراً بها على بعض ما وُضعت له الواو، استعملت حيث اختصرت الحال، فاقترن بكلِّ مكان ما يليقُ بالمقصود فيه(٢).

وقيل: لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على أن الصلب يقع بعد التقطيع، وإذا دلَّ في الأولى عُلم في غيرها، ولأن موضعَ الواو تصلح له ﴿ثُمَّ﴾ (٣).

وقيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ للتباين والتراخي في الزمان، وتكون للتباين في الصفات

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٥٩).
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، (٢/ ٦٧٨ ـ ٦٧٩).
(٣) أسرار التكرار في القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، دار الفضيلة، (د. ت)، ص١٢٩.

والأحكام، وغير ذلك مما يُحمل به ما بعدها على ما قبلها من غير قَصْد مهلة زمانية، بل ليُعلم موقع ما يُعطف بها وحاله، وأنه لو انفرد لكان كافياً فيما قُصد به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ولم يُقصد في هذا ترتيبٌ زماني، بل تعظيم الحال فيما عُطف وموقعه ومكانته وتحريك النفوس لاعتباره، ولمّا تقدم في الأعراف تهويل ما فعل السحرة وموقعه من نفوس الحاضرين، آنس سبحانه نبيه عليه السلام بقوله: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

ووقع التعبير عما ذكرنا بقوله: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾، فناسبه رعياً لفظيّاً، وتقابلاً نظميّاً تهويل ما توعَّدهم به فرعون فعُطف بـ﴿ثُمَّ﴾؛ ما قصد فرعون من تعظيم موقع ما توعدهم به ثانياً في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ عليهم، وأيضاً فإن فرعون وملأه حين رأوا ما جاء به السحرة، ووقع منهم موقعاً أطمعهم، وتعلق به رجاؤهم، ثم لمّا وقع ما أبطله، وأوضح كيدهم فيه، وباطلهم الخيالي، وَجد الملأ لذلك، واستشعر فرعون ما حلَّ به وبملئه، فهوّل في توعُّدهم ومقاله؛ تجلّداً، وتصبُّراً، أو تعزية لنفسه عمّا نزل به، فأرعد وأبرق في تهويله ما توعّد به السحرة فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾، فقد تناسب المتقابلان لفظاً ومعنىً، ولمّا ضُمّ الواقع في سورة الشعراء لم يُحتج إلى هذا الرعْي، فعطف بالواو، ولم يكن على ما تقرر ليُمكن العكس[١].

٣ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]:

إقرار منهم بالبعث، وهو ثقةٌ بالوعد، وهو تخويفٌ لفرعون: إنّا وإيّاك منقلبون إلى جزاء الله، فيثيبنا على إيماننا، ويعاقبك على صنيعك بنا[٢].

وفي الآية مناسبةٌ حسنة، حيث قال الله تعالى هنا في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] بزيادة قوله: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ على ما ذُكر في سورة الأعراف، وذلك

(١) ملاك التأويل، لأبي جعفر الغرناطي، (١/ ٢٢١).
(٢) التيسير في التفسير، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي، (٦/ ٤٧٠).

لأنَّ السحرة قابلوا وعيد فرعون بما يهوله، ويزيل ألمه من انتقالهم إلى ثواب ربهم، مع التحقّق من مُنقلب مُعذِّبهم فرعون، فجاء في سورة الشعراء، وهي التي قُصد بها الاقتصاص الأكبر: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]؛ أي: لا ضرر علينا، فإن منقلبنا إلى جزاء ربنا، فننعم أبداً وتُعذّب أنت أبداً، فالضَّرر الذي تحاول إنزاله بنا، بك نازل وعليك مقيم، ونحن نألم ساعة لا يعتدُّ بها مع دوام النعيم بعدها، وفي سورة الأعراف وقع الاقتصار على قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وفيه كفاية وإبانة عن هذا المعنى، ودلالة على ما قُصد فيها مما بُيّن وشُرح في سواها[١].

وقيل: إن قوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠] مُقابَل به ما تقدّم من قوله: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤] لمّا اعتقدوا أولاً أن له عزة ونسبوها إليه، فظنوا أنه يقدر على ما يريده، ويستبدُّ بفعله، ثم لمّا وضح لهم الحق رجعوا عن اعتقادهم، وعلموا أن القدرة والعزة لله سبحانه، وسلّموا لخالقهم، ولم يبالوا بفرعون وملئه فقالوا: ﴿لَاضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر، ولا خوف من فرعون إذ العزة لله وحده، ولمّا لم يقع من قولهم في الأعراف أولاً مثل الواقع هنا، لم يجيئوا في الجواب بما جاؤوا به هنا، فافترق الموضعان، وجاء كلٌّ على ما يناسبه[٢].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]:

ونلاحظ أن السحرةَ كذَّبوا كلامَ فرعون من غير أن يقولوا له كذبت، وأنه لا مكر ولا خروج من المدينة كما يزعم، وإنما حدَّثوا عن الحقيقة التي وجدوها في نفوسهم، وهي إيمانُهم بآيات الله لمّا جاءتهم، وأن هذا هو سبب انتقامك منا وليس ما تدَّعيه، وساقوا هذا في لغة القصر بالنفي والاستثناء، وأنه لا جهل أجهل من الذي ينتقم من الذين آمنوا بالحق لمّا جاءهم، ثم صرفوا الكلام عن فرعون والناس، وتوجَّهت قلوبهم إلى الذين آمنوا بآياته لمّا جاءتهم، ولم يجدوا

(١) التفسير المحرر للقرآن الكريم، (٦/ ٤٥٨).
(٢) ملاك التأويل، لأبي جعفر الغرناطي، (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

لهم ملاذاً إلا هو، ولم يَسْتَعْدُوه على فرعون، ولم يطلبوا أن يكفَّ عنهم يد فرعون، وكأنهم قبلوا العذاب في سبيل اختيارهم للإيمان بالآيات لمّا جاءتهم، وطلبوا من الله أن يُفرغ عليهم صبراً؛ لأنهم يعلمون سوءَ إجرام فرعون وشراسته، وأنه لا يحمل بين جنبيه ذرة من الروح الإنسانية، وأن الحلَّ هو أن يُفرغ ربَّهم عليهم صبراً، لم يقولوا اللهم ارزقنا الصبر، وإنما قالوا: أفرغْ علينا من سِجال الصبر، حتى كأنه يُصبُّ علينا صبّاً حتى نتحمل عذاب هذا الآثم الباغي الطاغي، ثم ارزقنا الثبات ونحن في هذه المحنة؛ حتى لا يتسرب إلينا جزع، وأمنيتنا أن تتوفَّانا مسلمين، وهذا هو الكلام الذي يضع النفوسَ الكريمةَ وضعها بإزاء كلام فرعون الذي يملأ النفوسَ خبثاً[1].

أ ـ قال ابن عاشور: والقرآن لم يتعرَّضْ هنا لا في سورة الشعراء ولا في سورة طه للإخبار عن وقوع ما توعَّدهم به فرعون؛ لأن غرضَ القصص القرآني هو الاعتبار بمحل العبرة، وهو تأييد الله لموسى وهداية السحرة، وتصلُّبهم في إيمانهم بعد تعرُّضهم للوعيد بنفوس مطمئنة، وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث، كما قال في سورة «النازعات»: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦]، فاختلافُ المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية[2].

ب ـ قال الرازي: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أكمَل من القول: أنزل علينا صبراً؛ لأنا ذكرنا أن إفراغ الإناء هو صبُّ ما فيه بالكلية، فكأنهم طلبوا من الله كل الصبر لا بعضه، وهذه **الفائدة الأولى**.

أما الفائدة الثانية: فهي أن قوله: ﴿صَبْرًا﴾ مذكور بصيغة التنكير، وذلك يدلُّ على الكمال والتمام؛ أي: صبراً كاملاً تامّاً كقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]؛ أي: على حياة كاملة تامّة.

والفائدة الثالثة: أنَّ ذلك الصبر من قِبلهم ومن أعمالهم، ثم إنهم طلبوه من

(١) من حديث يوسف وموسى، ص٥٣١.

(٢) التحرير والتنوير، (٩/ ٥٦ ـ ٥٧).

الله تعالى، وذلك يدلُّ على أن فعلَ العبد لا يحصلُ إلا بتخليق الله وقضائه[١].

ت ـ وقال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: توفَّنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير منحرفين، ولا مبدِّلين، ولا مفتونين، ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شرّاً محضاً سبباً للفوز بالسعادة؛ لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشرِّ إلى الخير، ولم يحصِّل غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان، والاعتراف بالإيمان، وإذا كانت المهارة في علم الشرّ قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير! اللهم انفعنا بما علَّمتنا، وثبِّت أقدامَنا على الحق، وأفرغْ علينا سِجال الصبر، وتوفَّنا مسلمين آمين[٢].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]:

أي: وقال الأشراف من قوم فرعون وكبراء رجاله له: أتترك موسى وقومه

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٨).
(٢) فتح القدير، الشوكاني، (٢/ ٣٣٠).

المؤمنين من بني إسرائيل من غير أن تعاقبهم، وتضربَ على أيديهم، فيفسدوا عليك رعيّتك في أرض مصر بعبادة الله وحده من دونك، والدعوة إليه، وإلى التمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق[١]؟!

أ ـ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ أي: أتترك موسى وقومه يفسدون في الأرض، والحالُ أنَّه يترك عبادتك ـ يا فرعون ـ وعبادة آلهتك[٢]، وينهى الناسَ عنك وعن عبادتك[٣].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧] إن فرعونَ لم يكن يدّعي بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبِّره، وأن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية، وإنما كان يدَّعي الألوهيةَ على شعبه المستذَلِّ، بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته وأمره تُمضى الشؤون، وتُقضى الأمور، وهذا ما يدَّعيه كل حاكم يحكمُ بشريعته وقانونه.

ولم يكنِ الناسُ في مصر يعبدون فرعون، بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر من قول الملأ له: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، وكما يُثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية أنهم كانوا يعبدونه، بمعنى أنهم خاضعون لما يريده لهم، لا يعصون له أمراً، ولا يخالفون له شرعاً، وأيما ناس تلقَّوا التشريع من بشر، وأطاعوه فقد عبدوه، وذلك هو تفسير رسول الله ﷺ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] عندما سمعها منه عدي بن حاتم ـ وكان نصرانيّاً جاء ليُسْلِمَ ـ فقال: يا رسول الله

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٤٦١).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٤٦٢).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٠).

ما عبدوهم، فقال له رسول الله ﷺ: «بلى، إنهم أحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلال؛ فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»(١).

وأما قول فرعون لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ فيفسره قوله الذي حكاه القرآن عنه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ وظاهر أنه يوازن بين ما هو فيه من ملك ومن أسورة الذهب التي يُحلَّى بها الملوك، وبين ما فيه موسى من تجرُّد من السلطان والزينة.

وما قصد بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذي يسيِّرهم كما يشاء، والذي يتبعون كلمته بلا معارض، والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي، وهي في الواقع ألوهية، فالإله هو الذي يشرِّع للناس، وينفذ حكمه فيهم، سواء أقالها أم لم يقلها.

وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلولَ قول فرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾: فالإفساد في الأرض ـ من وجهة نظرهم ـ هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده، حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كلِّه، إذ إن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره، أو بتعريف مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه، وإذن فهو ـ بزعمهم ـ الإفساد في الأرض بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع، الربوبية فيه لله، لا للبشر، ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه.

ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تُعبد فيها هذه الآلهة، يزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة، وهي بنوَّة ليست حسية، فلقد كان

---

(١) سنن الترمذي، رقم٣٠٩٥، وتفسير ابن كثير، (٤/ ١٣٥).

الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولودٌ من أب وأم بشريين، وإنما كانت بنوَّة رمزية يستمد سلطانه وحاكميته منها، فإذا عبد موسى وقومُه ربَّ العالمين، وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيمُ الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المستخَفِّ؛ الذي إنما يطيعه؛ لأنه هو كذلك، فاسق عن دين الله الصحيح، وذلك كما يقول الله سبحانه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخفَّ قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفُّه الطاغوت، ولا يمكن أن يُطيع له أمراً، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله، ومن هنا كان يجيء التهديد لنظام حكم فرعون كلِّه بدعوة موسى عليه السلام إلى «رب العالمين»، وإيمان السحرة بهذا الدين، وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك، وعبادتهم لرب العالمين، ومن هنا يجيء التهديد لكل وضع يقوم على ربوبية البشر للبشر من الدعوة إلى ربوبية الله وحده، أو من شهادة أن لا إله إلا الله حين تُؤخذ بمدلولها الجدِّي الذي كان الناس يدخلون به في الإسلام(١).

ب ـ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾:

وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام، حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه، وضد ما قصده فرعون، وهكذا عُومل في صنيعه هذا أيضاً، إنما أراد قَهْرَ بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذلَّه، وأرغم أنفه، وأغرق جنوده(٢).

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾: وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان، قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يستطيعون إفساداً في أرضنا، ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا، وفي سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٥٤).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٠).

﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وهذا يدلُّ على أنه كان لديه من يدافع عن موسى ممّن آمن به سرّاً وممن كان يُحبُّه، وإن لم يُؤمن به، فقد قال الله تعالى له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وفيه تصريح بما كان له في أنفس المصريين من المحبة والاحترام[١]، وتعلُّق بعضهم به منذ الطفولة كامرأة فرعون، والدفاع عنه بعد الرسالة كمؤمن آل فرعون.

لقد شرع الملأ مع فرعون في التآمر على موسى عليه السلام وقومه ودعوته، ومضى فرعون لينفِّذ وعيده. وتنتقل الآيات الكريمة إلى مشهد النبي موسى عليه السلام مع قومه، يُحدِّثهم بقلب النبي ولغته ومعرفته بحقيقة ربّه وبسنته وقدره، فيُوصيهم باحتمال الفتنة والصبر على البلية والاستعانة بالله عليها، ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني، فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشَوْن سواه[٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]:

هذه الآية الكريمة التي ذكرها الله عن عبده ورسوله موسى قولة عظيمة، أصبحت قرآناً يُتلى ويُتعبَّد به آناء الليل وأطراف النهار، وهي من أعظم التسلية للدعاة إلى الله الصادقين، وينبغي أن تكون منهاجاً لكل داعية يريد وجه الله، ونصرة دينه، والدعوة إلى توحيده ونصرة نبيه ﷺ، فيقرن دعوته بالاستعانة بالله في كل لحظة، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، ويقرن دعوته بكامل الصبر، فإذا لم يفعل ذلك فلن يتم له مقصوده، ثم يعلم أن ما يؤول إليه الأمر من العاقبة الحسنة هو لمن استعان وصبر واتقى مهما طالت الشدائد، وأظلمت الدنيا في وجهه، واحتلكت الظروف، وتكالبت الأحزاب فرادى وجماعات ودولاً، فإن الله ناصر دينه

(١) تفسير المنار، (٩/ ٨٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٥٥).

وعباده المخلصين الصادقين، فنرجو الله أن يجعلنا منهم، وألا يُحبط لنا عملاً[١].

أ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾:

أي: قال موسى لقومه من بني إسرائيل: اطلبوا العون من الله تعالى على فرعون وقومه، واصبروا على ما يحلُّ بكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم ونسائكم حتى ينجيكم الله بفضله من ظلمهم[٢].

ب ـ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾:

أي: قال موسى لقومه: إن الأرض كلها لله، وليست لفرعون ولا لقومه، يقدّر الله تعالى لمن يشاء من العباد ملك شيء منها، ثم ينزعه منه، ويُداوله بين الناس وفق مشيئته وحكمته[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ت ـ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

أي: والحال الحسنة المحمودة في الدنيا والآخرة تكون في آخر الأمر للذين يتقون الله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه[٤].

كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال عزّ وجل: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى للمؤمنين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟

---

(١) التدبر والبيان، (١١/ ٤٤٨).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٤٦٤).
(٣) تفسير السعدي، ص٣٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٧٠.

بِهَآ ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله تعالى عن إنجائه يوسف عليه السلام من كيد إخوانه وغيرهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٨٩ ـ ٩٠].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾: أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون، إذا كان في الناس متقون وغيرهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إمّا عارض وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى[١]، وفي الآية إشارة إلى أن كلّ من اتقى الله تعالى وخافه، فالله يُعينه في الدنيا والآخرة[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]:

أ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾:

أي: قال بنو إسرائيل لموسى: آذانا فرعون وقومه بقتل أبنائنا، واستحياء نسائنا، وإذلالنا من قبل مجيئك برسالتك ـ يا موسى ـ ومن بعد كذلك[٣].

ب ـ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾:

أي: قال موسى لقومه: أرجو لكم من خالقكم، ومدبّر شؤونكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه[٤].

---

(١) تفسير ابن عاشور، (٩/ ٦١).
(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٣٤٢).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٠).
(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٤٦٠).

ت ـ ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ :

أي : وأن يجعلكم خلفاء في أرضهم من بعد إهلاكهم ، فيمكِّنكم فيها[١] .

ث ـ ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ :

أي : فيرى الله عزّ وجل ما تعملونه حينذاك من خير وشرّ، وشكر وكفر، فيجازيكم عليه[٢] .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٣ ـ ١٤] .

قال محمد متولي الشعراوي : هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها ـ حاشا لله ـ ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه، بل يريد أن يحكم على خَلْقه بفعل خَلْقه، وسبحانه عالمٌ أزلاً بكل من يهتدي ومن يَضَلّ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لِتَسَع كلٌّ منهما كلَّ الخلق، ولم يخلقْ أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط، وكذلك لم يخلقْ أماكن في النار لا تسع إلا أهل النار، بل يمكنها أن تسعَ كل الخلق، ولم يحكم بعلمه في هذه المسألة، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن في الجنة، وعلى فرض أنكم ـ والعياذ بالله ـ كفرتم فلكم أماكنُ في النار، وسبحانه لن ينشئ شيئاً جديداً، أعدَّ كل شيء وانتهى الأمر، وسبحانه يعلم أزلاً، ويتحقَّق بسلوك الناس علمه بأفعالهم واقعاً .

وعلم الواقع هو الذي يكون حُجَّة على الخلق، وهنا في الآية التي نحن بصددها ثلاثة أشياء :

١ ـ أن يهلك سبحانه عدوَّكم .

---

(١) تفسير ابن عاشور، (٩/ ٦١).

(٢) المصدر نفسه، ص٣٧١، التفسير المحرر، (٦/ ٤٦٦).

٢ ـ وأن يستخلفكم في الأرض.

٣ ـ فينظر كيف تعملون.

ونحقق فيما تحقّق منها، وجاء سبحانه في مقدمة الإهلاك[١]، فقال:

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٦]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]:

لما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ بدأ ههنا بذكر ما أنزله بفرعون وبقومه من المحن حالاً بعد حال، إلى أن وصل الأمر إلى الهلاك تنبيهاً للمكلَّفين على الزَّجْر عن الكفر، والتمسُّك بتكذيب الرسل، خوفاً من نزول هذه المحن بهم[٢].

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣١١).

(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٤).

أ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ :

أي: ولقد ابتلينا فرعون وقومه، واختبرناهم بالجدب والقحط وعدم نزول المطر[١].

ب ـ ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ :

أي: وابتليناهم بقلّة ثمارهم، فلا تُثمر أشجارهم إلا قليلاً[٢].

ت ـ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ :

أي: إنما ابتليناهم واختبرناهم بالجدب وقلة الثمار؛ ليتَّعظوا فينزجروا عن كفرهم، ويرجعوا إلى ربهم[٣].

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]، وفي هذه الآية إشارة التحذير الأولى «الجدب ونقص الثمرات». و«السنين» تطلق في اللغة على سِنِيِّ الجدب والشدة والقحط، وهي في أرض مصر المخصبة المثمرة المعطاءة، تبدو ظاهرة تلفت النظر، وتهزّ القلوب، وتثير القلق، وتدعو إلى اليقظة والتَّفكُّر؛ لولا أن الطاغوت والذين يستخفّهم الطاغوت ـ بفسقهم عن دين الله ـ فيطيعونه، لا يريدون أن يتدبروا ولا أن يتفكروا، ولا يريدون أن يروا يد الله في جدب الأرض، ونقص الثمرات.

ولا يريدون أن يتذكروا سنن الله، ووعده، ووعيده، ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية؛ لأنَّ هذه العلاقة من عالم الغيب، وهم أغلظ حسّاً، وأجهل قلباً من أن يرَوْا وراء الواقع المحسوس ـ الذي تراه البهائم وتحسُّه ـ شيئاً، وإذا رأوا شيئاً من عالم الغيب لم

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٠).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٤).
(٣) تفسير السعدي، ص٣٧١.

يتفطنوا إلى سُنَّة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة، وإنما نسبوه إلى المصادفات العابرة، التي لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة.

وكذلك لم ينتبه آلُ فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالة على رحمة الله بعباده ـ حتى وهم يكفرون ويفجُرون ـ كانت الوثنية وخرافاتها قد أفسدت فِطرتهم، وقطعت ما بينهم وبين إدراك النواميس الدقيقة الصَّحيحة التي تصرِّف هذا الكون كما تصرِّف حياة الناس؛ والتي لا يراها ولا يدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، الذين يدركون أن هذا الوجودَ لم يُخلق سُدى، ولا يمضي عَبَثاً، إنما تحكمه قوانين صارمة صادقة.

وهذه هي العقليةُ العلمية الحقيقية، وهي عقلية لا تنكر «غيب الله»؛ لأنه لا تَعارُضَ بين الحقيقة العلمية والغيبية، ولا تُنْكَر العلاقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة؛ لأن وراءها الله الفَعَّال لما يريد؛ الذي يريد من عباده الإيمان، وهو يريد منهم الخلافة في الأرض، والذي يسنّ لهم من شريعته ما يتناسقُ مع القوانين الكونية ليقعَ التناسقُ بين حركة قلوبهم وحركتهم في الأرض.

لم ينتبه آلُ فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله، وبغيهم، وظلمهم لعباد الله، وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات في مصر، التي تفيض بالخصب والعطاء ولا تنقص غَلَّتُها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها، وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون[1].

قال الرازي: ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضارّ لأجل أن يرجعوا عن طريق التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية، وذلك لأن أحوالَ الشدة تُرقِّق القلب، وتُرغِّب فيما عند الله، والدليلُ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١][2].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٥٧).

(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٢٤).

وقال الطاهر بن عاشور: وفي هذه الآية تنبيهٌ للأمة للنظر فيما يحيطُ بها من دلائل غضب الله، فإن سلب النعمة للمنعَم عليهم تنبيه لهم على استحقاقهم إعراض الله تعالى عنهم(١).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]:

أ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ﴾: الحسنة إذا أُطلقت فهي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير، ولكن الحسنة مرة تكون لك، ومرة تُطلب منك، فالحسنة التي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عافية وسلام، ثم الحسنة في مُقوِّمات الذات ومُقوِّمات الحياة، وهي في النبات والحيوان والخصب والثروة، والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك، فسبحانه يطلب منك عمل شيء يورثك في الآخرة حسنة، ولذلك يقول سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهذه هي الحسنةُ التي تعطي الإنسانَ خيراً فيما بعد، إذن فالحسنةُ التي في ذاتك من عافية وسلامة، أو في مقوِّمات الذات من ثمرات، وحيوانات، وخصب، وأعشاب، وثراء، كلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا، والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود، فأيُّ الحسنات أرجحُ وأفضل بالنسبة للإنسان؟ إنها حسنةُ الآخرة(٢).

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾؛ أي: فإذا جاءت آلَ فرعون الحالُ الحسنةُ من العافية والرّخاء وكثرة الأمطار وكثرة الثمار قالوا: هذه النِّعمُ الكثيرة لنا، لأننا نستحقها وجديرون بها، ولم يشكروا الله عليها(٣).

قال ابن عباس: يريد بالحسنة العشب، والخصب، والثمار، والمواشي، والسعة في الرزق، والعافية، والسلامة(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، (٩/ ٦٤).
(٢) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣١٥).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٥).
(٤) التدبر والبيان، (١١/ ٤٥٤).

﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليها، ويقوموا بحق النعمة فيها[١].

ب ـ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾:

فإذا ما جاءتهم سيئة يطّيرون، أي: يتشاءمون؛ لأن الطِّيَرة هي التشاؤم، وضده التفاؤل، ويقال: «فلان طائره نحس»، و«فلان طائره يُمْن وسَعْد». وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويُثيره، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن، وإن طار يساراً فهذا فأل سَيِّئ. والحق هنا يوضح لا تظلموا موسى؛ لأن شؤمكم أو حظَّكم السّيِّئ ليس من موسى؛ لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً، وإنما المالك للكون هو رب موسى، وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا موسى إن صَنَعَ شيئاً يأتي لهم بخير، وهنا يقول لهم: لا تتطيروا بموسى؛ لأن طائركم من عند الله[٢].

قال الشنقيطيُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن فرعونَ وقومه إن أصابتهم سيئة ـ أي: قحط وجَدْب ونحو ذلك ـ تطيَّروا بموسى وقومه، فقالوا: ما جاءنا هذا الجدب والقحطُ إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبيِّنا ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

وذكر نحوه أيضاً عن قوم صالح مع صالح في قوله: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وذكر نحو ذلك أيضاً عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس: ١٨]، وبيّن تعالى أن شؤمهم من قِبَل كفرهم ومعاصيهم، لا من قِبَل الرسل، قال في «الأعراف»: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال في سورة النمل في قوم صالح: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ

(١) المصدر نفسه، (١١/ ٤٥٤).
(٢) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣١٦).

عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال في «يس»: ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩] (١).

ت ـ ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن ما يُصيب فرعون وقومه من شرّ إنما هو مقدَّر عليهم من عند الله تعالى عقوبةً لهم بسبب كفرهم، وليس هو من عند موسى والمؤمنين معه(٢)، كما قال تعالى في شأن المُكذِّبين بمحمد ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو الذي يأتي بالخير والشر، والنفع والضر، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: من عند الله، لا من جهة موسى ومن معه(٣).

ث ـ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون أن ما يُصيبهم من شرّ إنما هو عقوبة لهم من عند الله تعالى بسبب كفرهم، لا من عند موسى وأتباعه(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] (٥).

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يفيد أن هناك قلة تعلم، فما موقفُ هذه القلة؟

---

(١) أضواء البيان، (٢/ ٣٩).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٦).
(٣) التيسير في التفسير، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي، (٦/ ٤٧٩).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٧).
(٥) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٧).

ولماذا لم يرفضوا موقفَ الكثرة؟ كان موقفُهم هو الصمت خوفاً من الطغيان؛ لأن الطاغية أجبرهم، وقهرهم، وجعلهم يسكنون، ولا يعترضون على باطل، ونرى في حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور، ويعلمون الطغيان، ولكنهم لا يتكلمون[١]، أو ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن التطيرَ والتشاؤمَ من صفات الكفار، وعلى المسلمين اجتنابه، وأن يتوكَّلوا على الله، ولا ينبغي لهم أن يجزعوا من التطيّر، وليُعلم أن الأمورَ بيد الله، وأن الشؤم الحقيقيَّ الذي يستجلبُ كل الضَّرر هو مخالفة رب العالمين جلّ وعلا، أمّا كل فعل لم يخالَف به الله، فهذا لا ضَرَرَ فيه ولا طيرة؛ لأن الله ما أباحه إلا لأنه لا ضَرَرَ فيه، وعلى المسلم أن يتحرّز من هذا كله، ولا يتشاءم بشيء، وأن يبني الأمورَ على التوكُّل على الله، ومراعاة أوامره ونواهيه[٢].

إن ما يقع لهم مصدره كلُّه واحد، إنه من أمر الله، ومن هذا المصدر تُصيبهم الحسنةُ للابتلاء، وتُصيبهم السيئةُ للابتلاء، ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ويُصيبهم النكالُ للجزاء، ولكن أكثرهم لا يعلمون، كالذين ينكرون غيبَ الله وقدره في هذه الأيام باسم «العقلية العلمية»، وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم «الاشتراكية العلمية» كذلك، وكلُّهم جهّال، وكلُّهم لا يعلمون، ويمضي آل فرعون في عتوّهم، تأخذهم العزة بالإثم، ويزيدهم الابتلاء شِماساً وعناداً[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]:

لما حكى الله تعالى عن آل فرعون في الآية الأولى أنهم ـ لجهلهم ـ ما أسندوا حوادثَ هذا العالم إلى قضاء الله تعالى وقدره؛ حكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أنواع الجهالة والضلالة وهو أهمُّ، لم يُميِّزوا بين المعجزات وبين

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣١٧).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٤٨٢).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٥٨).

السحر، وجعلوا جملةَ الآيات ـ مثل انقلاب العصا حيّة ـ من باب السحر، وقالوا لموسى: إنا لا نقبلُ شيئاً منها البتة[١].

وفي قوله: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: تفيدُ المبالغةُ في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى؛ لأنهم جاؤوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية التي حكته من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي، وما يفيده تقديم متعلّق «مؤمنين» من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفيّ باسمه[٢].

وقال ابن كثير: هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن تمرد قوم فرعون وعتوِّهم وعنادهم للحق، وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجَّة أقمتها رددناها، فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به[٣].

وقال: وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ـ٩٧][٤].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]:

لما بارزوا الله تعالى بتلك الأفعال العظيمة المذكورة فيما سبق، استحقّوا النَّكال، فسُبّب عن ذلك قوله تعالى:

أ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾:

أي: فبسبب كفرهم بعثنا عليهم الماء الكثير الذي دخل بيوتهم، وأغرق مزارعهم[٥]، وأضرّهم ضَرَراً كثيراً[٦].

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٨).
(٢) تفسير ابن عاشور، (٩/ ٦٩).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦١).
(٤) التدبر والبيان، (١١/ ٤٥٧).
(٥) تفسير السعدي، ص٣٧١.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٧١.

ب ـ ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾: فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم[١].

ت ـ ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ أي: وبعثنا عليهم القمّل، وهو شيء من خَلْق الله سلّطه الله عليهم، فعذّبهم به، وآذاهم إيذاءً كثيراً[٢].

والقمّل هو غير القَمل، فالقَمل هو الآفة التي تُصيب الإنسان في بدنه وثيابه، وتنشأ من قذارة الثياب، وأما القُمَّل فقيل: هو السُّوس الذي يُصيب الحبوب، ومفردها: قُمّلة، وقيل: هو ما يسمّى بالقراد، وقيل: هو الحشراتُ التي تهلك النبات والحرث[٣].

ث ـ ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ أي: وبعثنا عليهم الضفادع، فامتلأت بيوتهم وآنيتهم، وأقلقتهم وآذتهم أذيّةً شديدة[٤].

ج ـ ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: وبعثنا عليهم الدمَ، فصار ماؤهم الذي يشربونه ويستعملونه دماً[٥].

ح ـ ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ على قوم فرعون، هذه العقوباتُ التي جعلناها علامات تدلُّ بوضوح على صحة نبوة موسى عليه السلام، وفصَّلنا كلَّ عقوبةٍ عن العقوبة الأخرى، فكان بعضُها يأتي في إثر بعض[٦].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

خ ـ ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: فتكبّر آل فرعون تكبُّراً شديداً عن الإيمان بالله عزّ وجل وطاعة رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، مع رؤيتهم لتلك الآيات العظيمة الدالة على صدقه، وصحة رسالته[٧]، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٤٧٩).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٤٨٠).
(٣) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٢٠).
(٤) تفسير السعدي، ص٣٧١.
(٥) تفسير البغوي، (٢/ ٢٢٥).
(٦) تفسير ابن عاشور، (٩/ ٧٠).
(٧) تفسير ابن جرير، (١٠/ ٣٩٨).

د ـ ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: وكانوا قبل استكبارهم قوماً يصرّون على معصية الله[١]، وكانوا قوماً يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عتوّاً وتمرّداً[٢].

وفي الآية الكريمة صياغة الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكّنه منهم ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام راسخ فيهم، وهو عِلَّة الاستكبار الصادر منهم، فـ«كان» دالة على استمرار الخبر، وهو وصف الإجرام[٣].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]:

بعد أن استكبروا، وكانوا قوماً مجرمين، توالت عليهم الأحداث والرِّجز، وهي الأمور المفزعة، وما نزل بهم من العذاب، وهنا ذهبوا إلى موسى؛ ليسألوه أن يدعوَ الله ليكشفَ ويرفعَ عنهم ما نزل بهم من العقاب. إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسَل من ربٍّ، وهم قد فهموا أن الرجز الذي عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب. وهذا ينقضُ ربوبية إلههم فرعون؛ لأنه لو كانت الربوبية لفرعون في عقيدتهم لذهبوا إليه، ولم يذهبوا إلى عدوِّهم موسى؛ ليسألوه أن يدعوَ لهم الله، ومن هنا نأخذ أكثر من قضية هي:

أولًا: أن ألوهيةَ فرعون باطلة.

ثانياً: أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه.

ثالثاً: أنه إنْ لم يكشفْ ربّه هذا العذاب فسوف يستمرُّ هذا العذاب.

وكل هذه مقدِّمات تعطي الإيمان بالله[٤].

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٤٨١).
(٢) تفسير الطبري، (٩/ ٤٠).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٤٨٥).
(٤) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٢١).

أ ـ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾؛ أي: ولمّا نزل بآل فرعون العذاب عقوبة بعد أخرى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف: ٤٨].

ب ـ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي: فزعوا إلى موسى قائلين: يا موسى، ادع لنا ربك بالذي أوصاك أن تدعوه به، ليكفَّ عنا هذا العذاب[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٨ ـ ٤٩].

ت ـ ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أي: نقسمُ لك ـ يا موسى ـ لئن رفعت عنا هذا العذاب بدعائك ربَّك لنصدقنّك، ولنؤمننّ بما جئت به[٢].

ث ـ ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؛ أي: ولنخلينّ بني إسرائيل كما طلبت ـ يا موسى ـ فنتركهم معك، وتذهب بهم حيث تشاء[٣].

كما قال تعالى حاكياً قولَ موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وقوله: ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الدخان: ١٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧][٤].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٥ ـ ١٣٦]:

أ ـ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾:

أي: فلما رفع الله عن قوم فرعون العذاب، وأمهلهم إلى الوقت الذي قدّره

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٤٨٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (٧/ ٢٧١).
(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، (٩/ ٢١٦).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٤٩٠).

لهلاكهم، إذا بهم ينقضون عهودهم، فلم يُؤمنوا، ولم يرسلوا بني إسرائيل مع موسى عليه الصلاة والسلام(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩ ـ ٥٠].

ب ـ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾:

لما أخبر الله تعالى عن إهلاكه فرعون عطف عليه ما صنع لبني إسرائيل، تصديقاً لقول موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فكان ما ترجّى، فأغرق أعداءهم في اليم، واستخلف بني إسرائيل في الأرض(٢).

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ أي: فلما نقضوا العهود، وأصرّوا على الكفر، انتقمنا منهم بأن أغرقناهم جميعاً في البحر(٣).

أي: ضربة واحدة فإذا هم هالكون، ومن التعالي والتطاول والاستكبار إلى الهُوِيِّ في الأعماق والأغوار، جزاءً وفاقاً. والسِّياق يختصرُ هنا في حادث الإغراق، ولا يفصِّل أحداثه كما يفصِّلها في مواضع أخرى من السور؛ ذلك أن الجوَّ هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل، فلا يعرض لشيء من التفصيل، إنَّ الحسمَ السريعَ هنا أوقع في النفس، وأرهب في الحسّ(٤).

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾: فيربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها وبين المصير المقدور، ويقرر أن الأحداث لا تجري مصادفة،

---

(١) المصدر نفسه، (٦/ ٤٩١).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (٨/ ٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٦).

(٤) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٠).

ولا تمضي فلتاتٍ عابرةً، كما يظنُّ الغافلون[١].

لقد أغرق الله عزَّ وجلَّ فرعون وقومه بسبب تكذيبهم بآيات الله، وغفلتهم، وإعراضهم عنها، وهي تدلُّ على صدق موسى عليه الصلاة والسلام، فلم يتفكّروا فيها، ولم يعتبروا بها.

سادساً: قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٧ ـ ١٤١]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]:

أ ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾؛ أي: وملَّكنا بني إسرائيل الذين كان فرعون وقومه يقهرونهم، ويستعبدونهم، ويذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم؛ ملَّكناهم جميعَ جهات شرق أرض الشام وجهات غربها[٢].

ب ـ ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ أي: الأرض التي جعلنا فيها الخير ثابتاً مستمرّاً

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٠).

(٢) الوسيط للواحدي، (٩/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

وكثيراً، فأخرجنا لهم منها الزروع، والثمار، والعيون، والأنهار، ونحو ذلك من الخيرات.

ت ـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾؛ أي: وقد وفّى ربك ـ يا محمَّد ـ بما وعد به بني إسرائيل من إهلاك عدوِّهم، وتمكينهم في الأرض؛ وذلك بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

ث ـ ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾؛ أي: وأهلكنا وخرَّبنا خراباً شديداً ما كان يشيِّدُه فرعونُ وقومُهُ من العمارات، ويبنونه من المزارع[2].

ج ـ ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾؛ أي: وخرّبنا أيضاً ما كان يبنيه، ويرفعه فرعون وقومه من المباني والقصور[3]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

---

(١) تفسير الطبري، (١٠/ ٤٠٦).

(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٦).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (٢/ ٣٧١).

قال ابن عاشور: والقوم الذين كانوا يُستضعفون هم بنو إسرائيل، كما وقع في الآية الأخرى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وعَدَلَ عن تعريفهم بطريق الـمَوصُوليَّة، لنكتتين:

أولاهما: الإيماء إلى عِلَّة الخبر؛ أي: إنَّ الله مَلَكَهم الأرض، وجعلهم أمةً حاكمة، جزاءً لهم على ما صبروا على الاستعباد غيرة من الله على عبيده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد ﷺ، بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان، كما كانت لبني إسرائيل جزاءَ صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم[١].

وقال أبو السّعود: والجمعُ بين صفتي الماضي والمستقبل؛ أي: في قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدُّده، وهم بنو إسرائيل ذُكروا بهذا العنوان، إظهاراً لكمال لطفه تعالى بهم، وعظيم إحسانه إليهم في رَفْعِهم من حضيض المذلة إلى أوجِ العزة[٢].

وقد وردت الأحاديثُ الصحيحةُ الدالة على فضل الشَّام وأهله، منها:

● عن زيد بن ثابت قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف[٣] القرآنَ من الرِّقاع[٤]، فقال رسول الله ﷺ: «طُوبى للشام»، فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: «لأن ملائكة الرحمن باسطةٌ أجنحتَها عليها»[٥].

● عن ابن حوالة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمرُ إلى أن تكونوا جنوداً مجنَّدة، جُنْد بالشام، وجُنْد باليمن، وجُنْد بالعراق»، قال ابن حوالة: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركتُ ذلك، فقال: «عليك بالشام، فإنها خيرةُ الله من

---

(١) التحرير والتنوير، (٩/ ٧٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (تفسير السعود)، أبو السعود، (٣/ ٢٦٦).
(٣) نؤلف: من التأليف: نجمع.
(٤) الرقاع: جمع رقعة، وهو ما يكتب فيه.
(٥) سنن الترمذي، (٥/ ٦٩٠)، رقم ٣٩٥٤، وصححه ابن حبان.

أرضه، يجتبي إليها خِيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم، واستقُوا من غُدركم، فإن الله توكَّل لي بالشام وأهله»[١].

● وعن قرَّة عن النبي ﷺ قال: «إذا فسد أهلُ الشام فلا خيرَ فيكم، لا تزال طائفةٌ من أمتي منصورين، لا يضرُّهم من خَذَلهم حتى تقوم الساعة»[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]:

لما بيّن تعالى أنواعَ نعمه على بني إسرائيل بإهلاك عدوِّهم أتبع النعمة العظمى من إراءتهم هذه الآية العظيمة، وقَطْعِهم البحر مع سلامتهم[٣].

أ ـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾؛ أي: قَطَعْنا ببني إسرائيل البحر، فتخطَّوْه بعد أن أغرقنا عدوّهم فرعون وقومه، ورأوا من آيات الله ما رأوا[٤].

وفي قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾؛ أي: قَطَعْنا بما لنا من العظمة، فساقَهُ على طريق المفاعلة، تعظيماً له تعالى[٥].

ب ـ ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ **أي: فمرّ بنو إسرائيل على مشركين ملازمين أصناماً لهم يعبدونها من دون الله سبحانه**[٦].

﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ﴾؛ **أي:** يقيمون عليها معظِّمين، ويعبدونها من دون الله. والعُكُوفُ: الإقبالُ على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له، و﴿أَصۡنَامٖ﴾ جمع صَنَم، والصَّنَم: جثةٌ متَّخذةٌ من فضة، أو نحاس، أو خشب، أو غير ذلك، كانوا يعبدونها متقرِّبين بها إلى الله[٧].

---

(١) صححه ابن حبان، (١٦/ ٢٩٥)، رقم ٧٣٠٦، حفظها: حفظ أهلها.
(٢) سنن الترمذي، رقم ٢١٩٢٢، حديث حسن صحيح.
(٣) تفسير أبي حيان، (٥/ ١٥٦).
(٤) تفسير الطبري، (١٠/ ٤٠٨)، تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٧).
(٥) نظم الدرر، البقاعي، (٨/ ٦٨).
(٦) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٧).
(٧) مقاييس اللغة، (٣/ ٣١٤)، مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، (١/ ٤٩٣).

ت ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى، اصنعْ لنا صنماً، نتخذه إلهاً كما لهؤلاء القوم أصنامٌ يعبدونها(١).

وعن أبي واقد اللَّيثيِّ رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حُنين مرّ بشجرةٍ للمشركين كانوا يُعَلِّقون عليها أسلحتهم، يقال لها «ذات أنواط»، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذاتُ أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لتركبُنَّ سنن من كان قبلكم»(٢).

ث ـ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: قال موسى عليه السلام: إنكم قوم تجهلون عظمة الله، ووجوب إفراده بالعبادة وحده لا شريك له(٣).

وفي الآية؛ أي: ما صدر من بني إسرائيل هنا آفة الجهل، وأن الجهل قد يُوقع في الكفر بالله، وهذه خطورةٌ عظيمةٌ، ولا يُنجي من هذا الجهل إلا تعلّم العقيدة الصحيحة، والتثبُّت منها، وتدريسها، وتكرارها على الناس، وتعليمها للناس، ونشرها بكل وسيلة في المساجد، وفي المدارس، وفي وسائل الإعلام، وفي المجالس، وفي البيوت(٤).

٣ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]:

لمّا استُفيد من كلامه السابق لهم غاية الإنكار عليهم، ذكر هنا ما علّل به هذا الإنكار(٥)، وأيضاً بعد أن ذكّرهم بسوء حالهم من جهلهم، وسفاهة أنفسهم، بيّن لهم فساد ما طلبوه في نفسه، عسى أن تستعدَّ عقولهم لفهمه، واستبانة قُبحه.

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٠٤).
(٢) صحيح ابن حبان، رقم ٦٧٠٢، قال الترمذي: حسن صحيح.
(٣) تفسير السعدي، ص٣٧٢، التفسير المحرر، (٦/ ٥٠٥).
(٤) التدبر والبيان، (١١/ ٤٧٩).
(٥) نظم الدرر، البقاعي، (٩/ ٧٩).

أ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ أي: إن هؤلاء المشركين سيدمّر الله تلك الأصنام التي يعبدونها، ويُهلك ما هم فيه من الشرك ويعذِّبهم(١)، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ب ـ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: وزائل ما كانوا يعملونه من عبادة الأصنام، فلن ينتفعوا بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤].

وقال عزّ وجل: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: إن ما هم فيه من شرك وعُكُوف على الآلهة، وحياة تقوم على هذا الشرك، وتتعدَّد فيها الأرباب، ومن يقوم وراء الأرباب من السَّدَنة والكَهَنة، ومن حكام يستمدُّون سلطانهم من هذا الخليط، إلى آخر ما يتبع الانحرافَ عن الألوهية الواحدة من فساد في التصورات، وفساد في الحياة.

إن هذا كله هالكٌ باطلٌ، ينتظره ما ينتظر كلَّ باطل من الهلاك والدمار في نهاية المطاف، إن موسى عليه السلام انتقل إلى حلقة أخرى مع قومه بني إسرائيل، بعد إذ أنجاهم الله من عدوِّهم، وأغرق فرعون وملأه، ودمّر ما كانوا يصنعون، وما كانوا يعرشون.

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٧).
(٢) تفسير السعدي، ص٣٧٢.

إنَّ موسى عليه السلام اليوم لا يواجه طاغوتَ فرعون وملئه؛ فقد انتهت المعركةُ مع الطاغوت، ولكنه يواجه معركةً أخرى، لعلها أشد وأقسى وأطول مدىً، إنَّه يواجه المعركة مع «النفس البشرية»، يواجهها في رواسب الجاهلية في هذه النفس، ويواجهها مع رواسب الذي أفسد طبيعةَ بني إسرائيل، وملأها بالالتواء من ناحية، وبالقسوة من ناحية أخرى، وبالجبن من ناحية، وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية، وتركها مهلهلة بين هذه التُّرَّهات جميعاً، فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتَّخَفِّي والالتواء لتفادي الأخطار، والعذاب، والحركة في الظلام، مع الذعر الدائم، والتوقع الدائم للبلاء.

ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلاً، عاشوا في ظل الإرهاب، وفي ظل الوثنية الفرعونية، كذلك عاشوا يقتِّلُ فرعون أبناءهم، ويستحيي نساءَهم، فإذا فَتَرَ هذا النوع البشري من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال، وفسدت نفوسهم، وفسدت طبيعتهم، والتوت فطرتهم، وانحرفت تصوراتهم، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من جانب آخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرَّضت طويلاً للإرهاب والطغيان.

لقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ينظر بنور الله، فيرى حقيقةَ تركيبِ النفس البشرية وطبيعتها، وهو يقول لعمَّاله على الأمصار مُوصياً لهم بالناس: «ولا تَضْرِبوا أبشارَهُم فتذلُّوهم»، كان يعلم أن ضَرْبَ البشرة يُذِلُّ الناس، وكان الإسلام في لُبِّهِ، يريد منه ألا يذلَّ الناس في حكومة الإسلام[1]، فالناسُ في دولة الخليفة الراشديِّ عمر بن الخطاب وفي شريعة الإسلام وأحكامه يجب أن يكونوا أعِزّاء، وألا يضربهم الحكام فيُذلُّوهم؛ لأنهم ليسوا عبيداً للحكام، إنما هم عبيد الله، أعزَّاء على غير الله.

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٤).

ولقد ضُربت أبشار بني إسرائيل في طاغوت الفرعونية حتى ذلُّوا، بل كان ضَرْبُ الأبشار هو أحق ما يتعرَّضون له من الأذى في فترات الرخاء، ولقد ضُربت أبشارهم في عهود الطاغوت الروماني، ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام يوم جاءهم الإسلام، فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر(١).

إنَّه مشهدُ بني إسرائيل بعد تجاوز البحر، ونحن فيه وجهاً لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم، بما ترسَّب فيها من ذلك التاريخ القديم. إن العهدَ لم يطلْ بهم منذ أن كانوا يُسامُونَ الخَسْفَ في ظل الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه، ومنذ أن أنقذَهم نبيهم وزعيمهم موسى ـ عليه السلام ـ باسم الله الواحد الأحد رب العالمين؛ الذي أهلك عدوهم وشقَّ لهم البحر، وأنجاهم من العذاب الوحشي الفظيع الذي كانوا يُسامونَهُ، إنهم خارجون عمّا قليلٍ من مصر ووثنيتها، ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزوا البحر تقع أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم، مستغرقين في طُقوسِهم الوثنية، وإذا هم يطلبون إلى موسى رسول رب العالمين؛ الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد، أن يتَّخذَ لهم وثناً؛ ليعبدوه من جديد(٢).

إنها العدوى تُصيبُ الأرواحَ كما تُصيب الأجسام، ولكنها لا تُصيبها حتى يكون لديها الاستعداد، والتهيُّؤ، والقابلية. وطبيعةُ بني إسرائيل ـ كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات ـ طبيعةٌ مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضلَّ، وما تكاد ترتفعُ حتى تنحطّ، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس، ذلك إلى غلظٍ في الكبد، وتصلُّب عن الحق، وقساوة في الحسّ والشعور! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليمَ أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد ـ فقد

(١) في ظلال القرآن، المصدر السابق، (٣/ ١٣٦٤).
(٢) في ظلال القرآن، المصدر نفسه، (٣/ ١٣٦٥).

ذكرت بعضُ الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثةً وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازاً ببني إسرائيل البحر ـ بل حتى ينسوا معجزةَ اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه، وأهلكت هؤلاء أجمعين.

وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلُّوهم، حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيِّجونه على موسى ومن معه بقولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؟ ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيِّهم رسول رب العالمين أن يتَّخذ لهم آلهة، ويغضب موسى عليه السلام غضبة رسول رب العالمين لرب العالمين ـ يغضب لربه ـ سبحانه، ويغار على ألوهيته أن يشركَ بها قومه، فيقول قولته التي تليقُ بهذا الطلب العجيب.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾:

ويمضي موسى عليه السلام يكشفُ لقومه عن سوء المغبّة فيما يطلبون، بالكشف عن سُوءِ عقبى القوم الَّذين رأوهم يعكُفون على أصنام لهم، فأرادوا أن يقلِّدوهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: ثُمَّ ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى ـ عليه السلام ـ على ربِّه، والغضب له ـ سبحانه ـ والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم، وهي حاضرة ظاهرة[1].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠]:

لما بيّن أنَّ هذه الأصنامَ التي مرّوا عليها لا تصلح لأن تُعبد، كان ذلك غير كافٍ لهم لِما تقرَّر من جهلهم، فربّما ظنوا أن غيرها ممّا سوى الله تجوز عبادته، فأنكر أن يتألَّه غيره، وحَصَر الأمر فيه[2].

---

(١) في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٣/ ١٣٦٦).

(٢) نظم الدرر للبقاعي، (٨/ ٧١ ـ ٧١).

أ ـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾؛ أي: قال موسى عليه الصلاة والسلام منكراً على قومه، متعجِّباً من طلبهم: أأطلب لكم إلهاً غير الله العظيم المعبود بحق، الكامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله(١).

ب ـ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أفأطلب لكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضرُّكم، وتتركون عبادةَ الله تعالى، والحال أنه هو الذي فضّلكم على عالمي زمانكم، وأمم عصركم(٢).

والتفضيلُ على العالمين في زمانهم يتجلَّى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين، وليس وراء ذلك فضلٌ ولا مِنَّة، فهذا ما ليس بعدَهُ فضلٌ ولا مِنَّة، كما أنه اختارهم؛ ليورثهم الأرض المقدسة التي كانت إذ ذاك في أيدي المشركين، فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله، وهم في نعمته وفضله يتقلَّبون؟. وعلى طريقة القرآن الكريم في وَصْل ما يحكيه عن أولياء الله بما يحكيه عن الله سبحانه، يستطرد السياقُ بخطاب من الله تعالى موصولٍ بكلام موسى ـ عليه السلام ـ كذلك إلى قومه(٣).

٥ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١]:

وفي مثل هذا الوصل في القرآن الكريم، بين كلام الله سبحانه وما يحكيه من كلام أوليائه، تكريمٌ أيُّ تكريمٍ لهؤلاء الأولياء لا ريبَ فيه، وهذه المِنَّة التي يمتنُّها الله على بني إسرائيل، في هذا الموضع، كانت حاضرةً في أذهانهم وأعصابهم، ولقد كانت هذه المِنَّةُ وحدها كفيلةً بأن تُذكَر وتُشكر، والله سبحانه

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٠٧).
(٢) تفسير ابن عاشور، (٩/ ٨٤).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٧).

وتعالى يوجِّه قلوبهم إلى ما في ذلك الابتلاء من عِبرة، ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة، الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء[١].

أ ـ ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾؛ أي: قال الله مذكِّراً بني إسرائيل نعمته العظيمة عليهم: واذكروا حين أنجيناكم من فرعون وقومه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩].

ب ـ ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾؛ أي: يُذيقونكم ـ يا بني إسرائيل ـ ويكلِّفونكم أقبحَ العذاب وأفظعه، ثمَّ يبيِّن الله تعالى الذين كانوا يُسامون سوءَ العذاب فقال:

ت ـ ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾؛ أي: يُكثرون من قَتْلِ أبنائكم الذكور[٢].

ث ـ ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾؛ أي: ويُبقون إناثكم أحياء؛ ليقُمن بخدمتهم، ويعتدوا على أعراضهن[٣].

ج ـ ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾؛ أي: وفي سَوْم آل فرعون لكم سوءَ العذاب محنةٌ واختبارٌ من الله لكم عظيم[٤].

ويقول الشيخ محمد متولي الشَّعراوي: إنَّه لم يأتِ بالعطف هنا، فلم يقل: يسومونكم سوء العذاب، ويُقتِّلون أبناءكم، ويستحيون نساءكم؛ مما يدلُّ على أنه جاء بقمَّة سوء العذاب؛ لأنَّ الاحتقار والتسخير هما جزء من العذاب، لكن قمة العذاب هي تقتيلُ الأبناء، واستحياء النساء.

وفي آية ثانية يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٦٧).
(٢) تفسير البغوي، (٢/ ٢٢٨)، التفسير المحرر، (٦/ ٥١٠).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥١٠).
(٤) تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٤٩).

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]؛ أي: إنَّهم تعرَّضوا للتقتيل والذَّبح، وفي آية ثالثة يقول: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، لقد جاء بـ«الواو» هنا للعطف؛ لأن المتكلم هنا مختلف، فقد يكون المتكلِّم الله ـ سبحانه ـ يمتنُّ بقمة النعم، لكن: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟﴾، فموسى يمتنُّ بكل النِّعم التي ساقها الله إلى بني إسرائيل، صغيرةً وكبيرة[1].

سابعاً: قوله تعالى: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٧]:

بعد أن عدَّدَ الله طائفةً من النِّعم على بني إسرائيل، كإنجائهم من عبودية فرعون، وجعلهم أمة مستقلة، ذَكَر هنا كيفية نزول التوراة على موسى التي هي دستور حياتهم، وتبيانٌ لشريعتهم والأحكام التي أمر ربهم بها، وسَبَبُ الآيات: هو ما روي أن موسى عليه السلام وَعَدَ بني إسرائيل وهو بمصر: إن أهلك الله عدوّهم، أتاهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٣٤).

فرعون سأل موسى ربَّه الكتاب، فهذه الآيةُ في بيان كيفية نزول التوراة[١].

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]:

أ ـ ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ ﴾؛ أي: وواعدنا موسى انقضاءَ ثلاثين ليلة ينتظر، ويترقَّب بعدها مناجاتنا، وإنزال التوراة عليه، وأتممنا الثلاثين بعشر ليالٍ أخرى[٢].

قال السعدي: لما أتمّ الله نعمته عليهم بالنَّجاة من عدوِّهم وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نِعْمته عليهم بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرْضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمّها بعشر، فصارت أربعينَ ليلة؛ ليستعدَّ موسى، ويتهيّأ لوعد الله، ويكون لنزولها موقعٌ كبير لديهم، وتشوّق إلى إنزالها[٣].

وقال ابن كثير: قد اختلف المفسِّرون في هذه العشر ما هي؟

فالأكثرون قالوا على أن الثلاثين هي: ذو القعدة، وعشر ذي الحجَّة، قالَهُ مجاهد ومسروق، وابن جريج، ورُوي عن ابن عباس، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وجعل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدينَ لمحمَّد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣] [٤].

ب ـ ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ ﴾؛ أي: فكمل بذلك الوقت الذي

---

(١) التفسير المنير، (٥/ ٨٧)، تفسير الرازي، (١٤/ ٢٢٦).
(٢) تفسير السعدي، ص٣٧٢.
(٣) تفسير السعدي، ص٣٧٢.
(٤) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٨).

واعد الله موسى أن يناجيه فيه، وينزل عليه التوراة أربعين ليلة[١].

وقال القرطبي: والفائدة في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾، وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون:

ـ لئلا يُتَوَهَّم أن المراد: أتممنا الثلاثين بعشر منها، فبيَّن أن العشرَ سوى الثلاثين، فإن قيل: فقد قال في «البقرة»: أربعين، وقال هنا: ثلاثين، فيكون ذلك من البداء.

قيل: ليس كذلك، فقد قال: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، والأربعون والثلاثون والعشرة قولٌ واحدٌ ليس بمختلف، وإنما قال القولين على التفصيل والتَّأليف، قال «أربعين» في قوله مؤلَّف، وقال «ثلاثين» يعني: شهراً متتابعاً وعشراً، وكل ذلك أربعون، كما قال الشاعر: عشر وأربع، يعني: أربع عشرة ليلة البدر، وهذا جائزٌ في كلام العرب[٢].

ت ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾؛ أي: وقال موسى لأخيه النّبي هارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ لمّا أراد أن يذهبَ إلى جبل الطُّور لمناجاة الله: كن يا هارون خليفتي في بني إسرائيل إلى أن أرجع إليكم، وأصلح كل ما يحتاجُ إلى الإصلاح من أمرهم[٣].

ث ـ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ أي: وأوصى موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام قائلاً له: ولا تسلك طريقَ الذين يفسدون في الأرض بالمعاصي[٤].

قال ابنُ عاشور: وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة بقوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، فإن سياسةَ الأمة تدورُ حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحاً، فجميعُ تصرفات الأمة وأحوالها، يجب أن تكون صالحة، وذلك

---

(١) تفسير المراغي، (٩/ ٥٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (٧/ ٢٧٥).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥٢١).
(٤) تفسير السعدي، ص٣٧٢، التفسير المحرر، (٦/ ٥٢١).

بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح على فاعلها وعلى غيره، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره، لم تُعتبر صلاحاً، ولا تلبث أن تؤولَ فساداً على من لاحت عنده صلاحاً، ثُمَّ إذا تردّد فعل بين كونه خيراً من جهة وشرّاً من جهة أخرى، وجب اعتبار أقوى حالتيه، فاعتبروا بها إن تعذّر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحاً، وإن استوت جهتاه أُلغي إن أمكن إلغاؤه وإلا تُخُيِّر، وهذا أمرٌ لهارون جامع لما يتعيَّن عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة[1].

هذه الآية الكريمة تجسِّد مرحلة مهمة من حياة موسى عليه السلام، بعد أن خلّص الله عز وجل بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب من فرعون وملئه، وأنقذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدَّسة، ولكن القوم لم يكونوا بعدُ على استعداد لهذه المهمة الكبرى، مهمة الخلافة في الأرض بدين الله، ولقد رأينا كيف اشرأبّت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلتْ عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام ولم يمضِ إلا القليل، فلم يكن بدّ من رسالة مفصَّلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم، ومن أجل هذه الرسالة المفصَّلة كانت مواعدةُ الله لعبده موسى؛ ليلقاه، ويتلقى عنه، وكانت هذه المواعدة إعدادَ موسى لنفسه، كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم، ويستعد لتلقِّيه.

وكانت فترةُ الإعداد ثلاثين ليلة أُضيف إليها عشر، فبلغت عدتها أربعين ليلة، يروِّضُ موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود، ويعتزل فيها شواغلَ الأرض؛ ليستغرق في هواتف السماء، ويعتكف فيها عن الخلق؛ ليستغرقَ فيها في الخالق الجليل، وتصفو روحه، وتشفَّ، وتستضيء، وتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب، وحمل الرسالة الموعودة.

---

(١) التحرير والتنوير، (٩/ ٨٧ ـ ٨٨).

وألقى موسى إلى أخيه هارون ـ قبل مغادرته له، واعتزاله، واعتكافه ـ بوصيته تلك: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

ج: **قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي»** (٢).

شرح الحديث: كان في رجب سنة تسع من الهجرة غزوة تبوك، وكانت لها أهمية كبيرة في السيرة النبوية، وتحقّق منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام(٣).

واستعمل رسولُ الله ﷺ على المدينة عليّاً، فوجد المنافقون فرصةً للتنفيس مما بداخلهم من حقد ونفاق، فأخذوا يتكلمون في عليّ رضي الله عنه بما يُسيء إليه، فمن ذلك قولهم: ما تركه إلا لثقله عليه، وهذا القولُ منهم في حقه علامة بارزة وواضحة في نفاقهم، ففي الحديث الصحيح أن عليّاً رضي الله عنه قال: والذي فَلَقَ الحبّة وبرأ النسمة، إنه لعهدُ النبي الأمي ﷺ، ألاّ يحبَّني إلا مؤمن، ولا يُبغضني إلا منافق(٤).

عند ذلك أدرك عليٌّ الجيش، وأراد الغزو معهم قائلاً: يا رسول الله؛ أتخلِّفني في الصبيان والنساء؟! فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيَّ بعدي؟!» (٥).

وليس في هذا الحديث ما يستدلُّ به الشيعة على كون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خليفة لرسول الله، والردّ عليهم من عدة وجوه:

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٨).

(٢) البخاري، رقم ٤٤١٦، مسلم، رقم ٢٤٠٤.

(٣) المرتضى سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب، أبو الحسن علي الحسني الندوي، الكويت، دار القلم، ط١، ١٩٨٩م، ص٥٥.

(٤) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، علي محمد الصلابي، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠١٥م، ص٧١٢.

(٥) مسلم، رقم ٢٤٠٤.

١ ـ الحديث المذكور له سبب هامٌّ ينبغي ألاّ يُغفَلَ، وألاّ يفهم الحديث دونه، فقد طعن المنافقون في علي رضي الله عنه، فبين رسولُ الله ﷺ مكانته وفضله، وكذب المنافقين.

٢ ـ من الثابت: أن هارون عليه السلام كانت وفاته قبل موسى عليه السلام، والاستدلال بالحديث على إمامة علي بعد رسول الله غير منطبق، ولو أراد رسول الله ﷺ النص على علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقال له مثلاً: أنت معي بمنزلة يوشع من موسى؛ لأنَّ نبي الله يوشع استُخلف على بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام، لكن ذِكر رسول الله ﷺ لهارون عليه السلام الذي كان خليفة موسى عليه السلام في حياة موسى لا بعد وفاته، ليس له إلا معنى واحد، هو الترضية لعلي الذي أحزنه إبقاء الرسول ﷺ له في المدينة مُستخلَفاً على الضعفاء والنساء والأطفال، والمتخلِّفين عن الغزوة، فبين له النبي ﷺ أنه كما استخلف موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام على قومه، وذهب إلى الطور للقاء ربّه تبارك وتعالى، فاستخلافُهُ لعليٍّ من هذا الباب، فموسى لم يستخلف هارون عليهما السلام استخفافاً به وتنقيصاً له، وإنما ائتماناً له، وثقةً به، وكذلك الحال مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٣ ـ هارون عليه السلام لم يكن وصياً لموسى عليه السلام، بل نبيّاً ووزيراً بنصِّ القرآن، وقياس حال أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه الذي هو عند الشيعة وصيٌّ لا نبيٌّ، قياسٌ مع الفارق، علماً بأنهم يرفضون القياسَ أصلاً.

٤ ـ الاستدلال بكون هارون عليه السلام وزيراً لموسى على وزارة أمير المؤمنين علي لرسول الله ﷺ أعجب من الأولى، ذلك لأن الله تعالى الذي جعل هارون عليه السلام وزيراً لنبيه موسى عليه السلام، قال في محكم كتابه عن طلب موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٢]، فهل يرى من يدعي التطابق بين الاثنين كون علي رضي الله عنه مشاركاً لرسول الله ﷺ في نبوته، كما هو الحال في مشاركة هارون

لموسى عليه السلام في أمره؟ . من يعتقد ذلك فلا شك في كفره، وخروجه من ملَّة الإسلام[١] .

٥ ـ لقد استخلف النبي ﷺ على المدينة غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففي غزوة بدر استخلف عبد الله بن أم مكتوم، واستخلف في غزوة السَّويق بشير بن عبد المنذر، واستعمل على المدينة في غزوة بني المصطلق أبا ذر الغفاري، وفي غزوة الحديبية نُميلة بن عبد الله الليثي، كما استعمله أيضاً في غزوة خيبر، وفي عمرة القضاء استعمل عويف بن الأضبط الدّيلي، وفي فتح مكة كلثوم بن حصين بن عتبة الغفاري، وفي حَجَّة الوداع أبا دجانة الساعدي، ذكر هذا ابن هشام في مواقف متفرقة من السيرة[٢] .

إضافة إلى أن استخلافَ عليّ على المدينة لم يكن الأخير، فقد استخلف النبي ﷺ على المدينة في حَجَّة الوداع غير عليّ، وهذا منهجُ النبي ﷺ في تربية القادة، كما حدث عندما أمّر أبا بكر على الحج، واختصَّه أيضاً بالصلاة وحده[٣] .

٦ ـ وأما تشبيهُ النبي ﷺ لعليّ بهارون فهذه فضيلة، كما أن النبيَّ ﷺ شبّه أبا بكر وعمر بأعظم من هارون، ففي غزوة بدر لما كانت قضية الأسرى، واستشار النبي ﷺ أبا بكر، فرأى أن يعفوَ عنهم، وأن يفاديَهم قومُهم، رأى عمر أن يقتلهم، فقال النبيُّ لأبي بكر: «إن مثلك كمثل إبراهيم يوم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك كمثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»، ثم التفت إلى عمر فقال: «يا عمر إن مثلك مثل نوح لما قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ومثلك كمثل موسى لما قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ

(١) ثم أبصرت الحقيقة، محمد سالم الخضر، شبكة أنصار أهل البيت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٢١٥ .
(٢) السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٩٠م، (٢/ ٦٥٠، ٨٠٤، ٨٠٦).
(٣) ثم أبصرت الحقيقة، الخضر، ص٢١٥ .

أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]»[(١)].

فشبّه أبا بكر بإبراهيم وعيسى، وشبه عمر بنوح وموسى، وأولئك من أولي العزم، وهم خيرُ البشر بعد رسول الله ﷺ، وهم أفضلُ من هارون بدرجات صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتشبيه النبي ﷺ لعلي بهارون تكريم له، كما كرّم النبي ﷺ أبا بكر وعمر عندما شبَّههم بإبراهيم وعيسى وموسى ونوح عليهم السلام[(٢)].

٢ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]:

وهذا مشهد قد اختصَّ الله به نبيه موسى عليه السلام، مشهد الخطاب المباشر بين الجليل سبحانه وعبد من عباده، المشهد الذي تتصل به الذرَّة المحدودة الفانية بالوجود الأزليِّ الأبديِّ بلا واسطة، وبطَيْف الكائن البشري أن يتلقى عن الخالق الأبدي، وهو بعدُ على هذه الأرض، ولا ندري نحن كيف؟[(٣)].

أ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾:

ـ **قال السعدي**: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ الذي وقَّتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بما كلَّمه من وحيه وأمره ونهيه، تشوَّق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك حباً لربه، واشتياقاً لرؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾، قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾؛ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلقَ، في هذه الدار، على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله.

---

(١) مسند أحمد، (١/ ٣٨٣)، إسناده صحيح.
(٢) حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان، ١٩٩٩م، ص ٢٠٠.
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٨).

وليس هذا دليلاً على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلّت النصوصُ القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه يُنشئهم نشأةً كاملةً يقدرون معها على رؤية الله تعالى؛ ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل(١).

ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾: نرى الوهلة المذهلة، وموسى يتلقى كلمات ربه، وروحه تتشوق وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق، فينسى من هو، وينسى ما هو، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى، وهو مدفوع في زحمة الشوق، ودَفْعةِ الرَّجاء ولهفةِ الحب ورغبةِ الشهود، حتى تُنْسِيَهُ الكلمة الحاسمة الجازمة(٢).

ب ـ ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾:

ـ **قال الشوكاني**: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾: يفيدُ أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، وأنه لا يرى ما دام الرائي حيّاً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال هنا في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة(٣).

ـ **وقال ابن القيم**: قد أخبر الله سبحانه وتعالى عن أعلم الخلق في زمانه، وهو كليمُه ونجيُّه وصفيُّه من أهل الأرض، أنه سأل ربّه تعالى النظر إليه، فقال ربّه تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾، وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

ـ **أحدها**: أنه لا يُظَنُّ بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربّه بما

(١) تفسير السعدي، ص٣٧٣.
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٩).
(٣) فتح الشوكاني، (٢١/ ٣٤١ـ ٣٤٢).

لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصَّابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا للعجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهميَّة والفرعونيَّة أعلم بالله من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له وأشدّ تنزيهاً له منه؟

ـ **الوجه الثاني**: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه؛ ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربّه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربّه إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربّه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦ ـ ٤٧].

ـ **الوجه الثالث**: أنه أجاب بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست بمرئيٍّ، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدلُّ على أنه سبحانه وتعالى يُرى، لكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته سبحانه وتعالى.

ـ **الوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته، لا يثبتُ لتجليه له في الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلق من ضعف؟

ـ **الوجه الخامس**: أن الله عز وجل قادر على أن يجعلَ الجبل مستقرّاً مكانه، وليس هذا ممتنع في مقدوره بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤيةُ محالاً لكان ذلك نظير أن يقولَ: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

ـ **الوجه السادس**: قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلَّى للجبل

الذي هو جماد، لا ثواب ولا عقاب عليه، فكيف يمتنعُ أن يتجلَّى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته، ويريهم نفسه؟ فأعلم سبحانه وتعالى موسى أن الجبلَ إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشرُ أضعف.

ـ **الوجه السابع**: أن ربّه سبحانه وتعالى قد كلَّمه منه إليه، وخاطبه، وناجاه، وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يُسمع مخاطبَه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز؛ ولهذا لا يتمُّ إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلِّم أحداً أو يراه أحد؛ ولهذا سأله موسى عليه السلام النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله، كما لم يثبت الجبل لتجلِّيه[١].

ـ **وقال الشنقيطيّ**: استدل المعتزلةُ النافون لرؤية الله بالأبصار يوم القيامة بهذه الآية على مذهبهم الباطل، وقد جاءت آيات تدلُّ على أن نفي الرؤية المذكور إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرونه ـ جل وعلا ـ بأبصارهم، كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقوله في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فإنه يفهم من مفهوم مخالفته أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه جل وعلا، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم[٢]، وذلك هو أحدُ القولين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

تواترت الأحاديثُ عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن قيم الجوزية، تحقيق: رائد بن أحمد النشيري، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، ط١، ١٤٢٨هـ، ص١٩٦ ـ ١٩٨.

(٢) مسلم، (١/ ١٦٣)، سنن الترمذي، رقم ٢٥٥٢.

بأبصارهم، وتحقيق المقام في المسألة: أن رؤية الله ـ جل وعلا ـ بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها عقلاً في دار الدنيا قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾؛ لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله تعالى، وأما شرعاً فهي جائزة وواقعة في الآخرة؛ كما دلت عليه الآيات المذكورة، وتواترت به الأحاديث الصِّحاح، وأما في الدنيا فممنوعة شرعاً كما تدلُّ عليه آية «الأعراف» هذه، وحديث: «إنكم لن تَرَوا ربكم حتى تَموتوا» (١) كما أوضحنا في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) (٢).

وقد جاء في الحديث الشريف عن صهيب، عن رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنةَ قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾» (٣). ومعنى قوله: «فيكشف الحجاب»؛ أي: تُزال مانعيَّةُ الرؤية عن المؤمنين، فيكلِّمهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه، فالحجابُ فينا نحن (٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تُضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «إنكم ترونه كذلك» (٥)، ومعناه: ترونه سبحانه رؤية واضحة لا شكَّ فيها، كوضوح رؤية الشمس والقمر، كما يليق بجلاله سبحانه، مما يؤكِّد أن قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لنفي

(١) سنن أبي داود، (٤/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦)، رقم ٤٣٢٠.
(٢) أضواء البيان، (٢٣٣٢).
(٣) مسلم، رقم ٢٩٧.
(٤) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٣).
(٥) البخاري، رقم ٦٥٣٧.

قابلية الرؤية واستطاعتها في الدنيا، أنه سبحانه وتعالى قال لموسى بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾ إذا تجلَّيت لك والجبل أمكن، وأثبت، وأقل تأثراً[١].

ت ـ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾:

فكيف كان هذا التجلِّي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه، إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حيث تشفُّ أرواحنا وتصفو، وتتجه بكليّتها إلى مصدرها. فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقلَ شيئاً؛ لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصوِّر هذا التجلي، ونحن أميلُ إلى اطِّراح كل الروايات التي وردت في تفسيره، وليس منها رواية عن المعصوم ﷺ، والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً.

ـ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾: وقد ساخت نتوءاتُه فبدا مسوَّى بالأرض مدكوكاً، وأدرك موسى رهبة الموقف، وسرتْ في كيانه البشري الضعيف.

ـ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾: مغشيّاً عليه، غائباً عن وعيه[٢]، من شدة دكِّ الجبل، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أوَّلَ مَن يقف، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطور»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه: أن النَّبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال راوي الحديث حمّاد بن سلمة الذي رواه عن سليمان بن حرب: وأمسك سليمان بطرف إبهامه عن أُنملة إصبعه اليمنى، قال: فساخ الجبل ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٤).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٩).
(٣) البخاري، رقم ٣٣٩٨، مسلم، رقم ٢٣٧٤.
(٤) سنن الترمذي، رقم٣٠٧٤، حسن غريب صحيح.

وفي الحديث، كما في الآية، إثبات التجلي لله عز وجل على الوجه اللائق، وجماله عز وجل من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، على ما نطق به كتاب ربنا عز وجل، وأكَّدته سنة نبينا ﷺ[١].

ث ـ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قال محمد رشيد رضا: أي ﴿أَفَاقَ﴾ موسى من غشيه، والتعبير بالإفاقة يدلُّ على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي، وبطلان تفسير قتادة له بالموت.

ـ ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك، وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سألتك أو من لوازمه[٢]، وقال السعدي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك[٣].

ـ ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾: من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك[٤].

ـ ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله، وبما يُنزله عليهم من كلماته، وربهم يأمرهم أن يُعلنوا هذا، والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الإعلانَ في مواضع منه شتّى.

وأدركت موسى رحمةُ الله مرة أخرى، فإذا هو يتلقى منه البُشرى، بشرى الاصطفاء، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص من فرعون وقومه[٥].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]:

ونفهم من قول الله سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(١) التدبر والبيان، (١١/ ٥٠١).
(٢) تفسير المنار، (٩/ ١٢٦).
(٣) تفسير السعدي، ص٣٧٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٧٣.
(٥) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٦٩).

﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه ـ فالرسل كانوا قبل موسى وبعده ـ فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحُكْم هذه القرينة. أما الكلام الذي تفرَّد به موسى ـ عليه السلام ـ وأمرُ الله تعالى لموسى بأخذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تقابلَ به نعمة الله، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قدوة للناس، وللناس فيهم أسوة، وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر، استزادة في النعمة، وإصلاحاً في القلب، وتحرُّزاً من البطر، واتصالاً بالله[١].

وقال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: امتنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره أن يأخذ ما آتاه، أي: أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم، والإكرام الجليل[٢].

وقد ورد من النصوص الصَّحيحة في بيان اصطفاء الله لموسى عليه السلام، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدمُ وموسى، فقال موسى: أنت آدم الذي أخرجَتْك خطيئتُكَ من الجنة، فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّر عليّ قبل أن أُخْلَق؟! فقال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى مرَّتين»[٣].

قال الحافظ: الغرض منه شهادة آدم لموسى أن الله اصطفاه[٤].

ـ وقال العيني: أي: أخلصك الله بذلك، ويقال: جعلك خالصاً صافياً عن شائبة ما لا يليق بك، وفيه تلميحٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٧٠).
(٢) فتح القدير، (٢/ ٣٤٣).
(٣) البخاري، رقم ٣٤٠٩.
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٦/ ٥٥١).

ـ وقال الباجي: يريد ـ والله أعلم ـ أثره بالرسالة على من لم يرسله، وهذا كله على وجه التقرير له على فضله الذي لا يقتضي الإصابة في محاجَّته، وألا يلوم أباه على ما يعي واسع علمه وفضله ولومه عليه(١).

وقال عبد الله الغليمان: وفَرْقٌ بين الرسالة والتكليم، فهو ـ أي التكليم ـ قدر زائد على الرسالة؛ لأنها تحصل بإرسال ملك أو بالوحي، وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه، وهذا الذي اختصَّ به موسى من بين الرسل، فدلَّ على أن الله تعالى كلَّمه دون واسطة، بل أسمعه كلامه منه إليه، وهو أمر واضح(٢).

ـ وبعد هذه الآية الكريمة بيَّن السياقُ ماذا كان محتوى الرسالة، وكيف تلقاها:

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]:

وبعد أن أفاق موسى عليه السلام من صعقته، وأقبل على الله سبحانه تائباً، ذكّره سبحانه بما أنعم عليه، وما خصّه به من نعمة الرسالة وتكليمه عليه السلام، وأنزل سبحانه وتعالى عليه التوراةَ مكتوبةً في ألواح.

أ ـ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾:

والكَتْبُ هو الرَّقْم بقلم على ما يُكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أي شيء، وعندما يقول ربنا: ﴿وَكَتَبْنَا﴾، فالله لم يزاول الكتابة بنفسه، ولكن رسله من الملائكة يكتبون بأمر الحق، وهو القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هي بالأمر من الله، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى، أو يُنسب إلى المباشِر، أو إلى الواسطة ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾.

---

(١) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان التجيبي القرطبي الأندلسي (ت: ٤٧٤هـ)، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، (د. ت)، (٧/ ٢٠١).

(٢) شرح كتاب التوحيد، عبد العزيز بن باز، تحقيق: محمد العلاوي، دار الضياء، ٢٠٠١م، (١١/ ٦٢٥).

قال محمد متولي الشعراوي: ونحن نعرف الألواح، وكنا نكتب عليها قديماً، وللكتابة على الألواح سبب، فقديماً كانوا يكتبون على أيِّ شيء مبسوط، وتبين لنا الآثار أن هناك كُتباً مكتوبة على جلود الحيوانات، مثلاً نجد قدماء المصريين كتبوا على الأحجار، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم، وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح، أخذوا منها قطعةَ العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها، وكانت هذه الوسيلةُ مشهورةً جدّاً لديهم، وصار كلُّ مكتوب عليه يُسمُّونه لوحاً ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ (١).

ـ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني: من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان في الأرض في الوقت المناسب له، فالرسل تأتي بالعقيدة، لكن قد يأتي تشريع مناسب للفترة الزمنية التي جاء فيها الرسول، ويُضِيفُ الله إلى رسول آخر يأتي من بعده، إلى أن جاء محمد ﷺ بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة.

ب ـ ﴿مَّوْعِظَةً﴾: لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة، والموعظة تعني ألاَّ تُنشئ حكماً للسامع، بل تَعِظُهُ بتنفيذ ما عُلم له من قبل، ولذلك يقال: واعظ، وهو الذي لا يُنشئ مسائل جديدة، بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين، ويعظه بما يعلم(٢).

ت ـ ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام التي يحتاجون إليها في أمر دينهم وشريعتهم، وفي جميع شؤون حياتهم، فالشريعة الصالحة الكاملة هي التي تُلبِّي جميع الحاجات التشريعية للأمة في شؤون دينها ودنياها، وهي مُقوِّم أساس من مقوِّمات الحضارة.

والمطلوبُ من بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلّ حضارة الظلم والقهر

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٤٨).
(٢) المصدر نفسه، (٧/ ٤٣٤٨).

والاستبداد، عندما كانوا في مصر، أن يقيموا في الأرض المباركة حضارة العدل والإيمان والحرية والسلام، وها هي الشريعةُ الكاملة قد أنزلها الله عليهم، وها هو نبي الله موسى يقودهم إلى الأرض المباركة، أفيكونون أهلاً لهذه المهمة الجليلة، ويرتفعون إلى مستواها، أم ستتقاصر هممهم وعزائمهم عنها، ويختار سبحانه لها غيرهم من الأمم؟. هذا ما ستكشف عنه الآيات في سورة الأعراف.

ث ـ ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجدٍّ وحزم وعزم، فالمهمة التي كُلِّفتم بها شاقة وكبيرة، تحتاج إلى جد، وعزم، وحزم.

ج ـ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾؛ أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتبعوا رخصها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون في شرائعه المنزلة رُخص لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخص فقط، وترك الواجبات والعزائم(١).

وقال السعدي: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾: هي الأوامر الواجبة والمستحَبة فإنها أحسنها، وفي هذا دليلٌ على أن أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة(٢)، والتفتت الآياتُ تخاطب بني إسرائيل بأسلوب الوعيد والتهديد.

ح ـ ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: سترون عاقبةَ من خالف أمري، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك، والدمار، والثبات(٣).

ـ قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن خاطبه: سأريكم غداً إلامَ يصير إليه حال مَنْ خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه، وخالف أمره(٤).

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٦).
(٢) تفسير السعدي، ص٣٧٣.
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٦).
(٤) المصدر نفسه، (٣/ ١٤٦).

ـ وقال محمد رشيد رضا: والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبَّرها كل قارئ لهذه الآية من وجوه:

أحدها: أن الكتاب الإلهي يجب أخذه بقوة وجدّ وعزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح، وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً، ويتأكد ذلك في الرسول المبلِّغ له، والداعي إليه، والـمُنَفِّذ له بقوله وعمله؛ ليكون لقومه فيه أسوة حسنة، وتلك سُنَّة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية، وإن لم تكن بهداية الدين، والدينُ أحوجُ إلى القوة والعزيمة؛ لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعاً. وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب أو ميثاق الكتاب بقوة، أمراً مقروناً بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم، كما سيأتي الحديث عنه في هذه السورة.

وقد أخذ سلفُنا القرآنَ بقوة، فسادوا به جميعَ الأمم التي كان لها من القوى العددية، والحربية، والنظامية، والمالية، والصناعية ما ليس لهم، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى، لا بالتغني بقراءته في المحافل، ولا بالتَّبَرُّكِ المحض بالمصحف، كما فعل مقلّدة الخلف الطالح. إن من يأخذ القرآن بقوة يكُن القرآنُ حجَّةً له؛ فيسعد به في الدنيا والآخرة، ومن لا يأخذه بقوة يكُن حجَّةً عليه؛ فيشقى بالإعراض عنه، وهجر هدايته في الدنيا والآخرة؛ ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ـ٢٧].

ثانيها: أن سبب تخويف بني إسرائيل عند تبليغهم الميثاق الإلهي بوقوع الجبل بهم، وأمرهم في تلك الحال أن يأخذوه بقوة، هي أن أحكام التَّوراة التي أُخِذَ عليهم الميثاق بأخذها بقوة: شاقة حرجة، وحكمة ما فيها من الشدة والحرج أن القوم كانوا مُستضعَفين مُستذَلِّين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة، وكان القوم أو الأقوام الذين وُعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين

أولي قوة، وأولي بأس شديد، وكان من سُنَّة الله تعالى في البشر أن تتربَّى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر والجهاد بالمال والنفس. ولهذا أمر الله تعالى موسى أن يسير ببني إسرائيل في طريق التِّيه، وهو يمرُّ من بريَّة سيناء، دون الطريق الشمالي القريب من مدن فلسطين؛ إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جباري الكنعانيين وقتئذ، فكتب الله تعالى عليهم التيه أربعين سنة، ملك في أثنائها الذين استذلَّهم المصريون، ونشأ من صغارهم ومواليدهم جيل جديد تربَّى في حجر الشرع الجديد، والتيه الشديد، كما بينه في سورة المائدة.

ثالثها: أن الإسرائيليين قد عظم ملكهم بإقامة شريعتهم بقوة، حتى إذا غلب الغرور على العمل، وظنوا أن الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم، وهو «شعب الله» فَسَقُوا وظلموا، فأنزل الله بهم البلاء، وسلَّط عليهم البابليين الأقوياء، فثلُّوا ـ فأسقطوا ـ عرشهم، وتبَّروا ملكهم، ثم ثابوا إلى رشدهم، فرحمهم الله وأعاد لهم بعض ملكهم وعزِّهم، ثم ظلموا وأفسدوا، فسلَّط الله عليهم النصارى، فمزَّقوهم كل مُمزَّق، فظلوا عدة قرون متكلين على المسيح الموعود؛ ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات، ثم ربَّتهم الشدائد، ونوّرهم العلم العصري، فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما في الإمكان من الأسباب، وفي مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء مع المحافظة على التقاليد الدينية في ذلك، حتى انتهى بهم السعي إلى استخدام الدولة البريطانية بما فصَّلناه في بيان العِبرة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

رابعها: أن المسلمين الذين اتبعوا سُننهم وسُنن النصارى، شبراً بشبر وذراعاً بذراع في الضر دون النفع، كما فصلناه في غير هذا الموضع، قد اغترُّوا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب «الإسلام» ولقب أمة «خاتم الرسل» ﷺ، ولكنهم لمّا يثوبوا إلى رشدهم؛ لأن الذين سلبوا ملكهم وعزَّهم لم يسوسوهم بشدة مربية كافية، بل اجتهدوا في إفساد عقائدهم وأخلاقهم، وإيقاع الشقاق

والتفريق فيما بينهم، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم بتولِّيهم التربية والتعليم لكثيرين منهم، كانوا عوناً لهم على ما يريدون من هَدْمِ عروشهم، والسيادة عليهم بالتدريج، كما فصَّلنا في مواضع أخرى، ولا يزال هؤلاء الـمُتَفَرْنِجُون المخرِّبون يجدُّون في قتل هذه الأمة، وهم يظنون أنهم يُجدِّدون ويُفسدون عليها أمرها، ويحسبون أنهم يُصلحون: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] (١).

وعلَّق الدكتور الشيخ أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي على كلام محمد رشيد رضا في الآية، بأن الله تعالى يقبل من الإنسان إخلاصه وحسن عمله ومتابعته لأنبيائه ورسله، ولا ينظر إلى نسبه وشرفه، وأنه من سلالة كذا وقبيلة كذا أو بلد كذا، فإن هذه أمور فيها دلالة على آياته تبارك تعالى، لا أنها مفخرة يقف عندها الإنسان، ويتغنى بها بالليل والنهار، فيترك السنن الكونية والسنن الشرعية فلا يأخذ بأسباب النجاة، ولا يطيع نبيّاً ولا رسولاً في أمر ولا نهي، وهذا الواقع تمثَّل في اليهود، وكان لهم النصيب الأوفر لما ابتُلوا به من رُعُونة وحماقة وسفاهة، وزعموا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكان للنصارى مثله في بعض الأوقات، ولكنهم اهتدوا للأخذ بالأسباب المادية، فكوّنوا حضارة قوية تتصف بالعدة والعدد، فغلبوا على الأمم بما أُوتوا من جدية وأخذٍ بقوة الأسباب.

وأما المسلمون، فصَدْرُهُم الأول الذين جمعوا بين الأسباب المادية، وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتحكيم شرعه، كان لهم من الملك والخلافة ما لم يكن لأمة قبلهم، ولا كان لمن بعدهم حتى الآن. وبعد هذا ضعف حالهم، وبدأ يضعف شيئاً فشيئاً، فصار حالهم إلى أن دخل بلادهم الإفرنج، فحكمها، وصادر خيراتهم، ومحا هويتهم، ولم يبق من بلادهم غالباً إلا اسم الإسلام وبعض رسمه؛ وخلفهم في الإجهاز على أمة الإسلام تلامذتهم وورثتهم من أبناء الأمة، فزادوا في الطين بلّة، وأصبحت الاستقامةُ في بلاد الإسلام جريمةً كبرى،

(١) تفسير المنار، (٩/ ١٩٣ ـ ١٩٥).

وكل من استقام على أمر الله فهو في سِجِلِّ المجرمين في نظرهم، ويجب أن يتابَع متابعة دقيقة، إما بمضايقته وإمّا بالتحذير منه، وأحياناً سجنه وضربه وقتله، وأصبح أمر الفرائض وأدائها جريمة كبرى، ولاسيَّما صلاة الصبح، وهكذا التَّزَيِّي بزِيِّ الإسلام وسَمْتِهِ بكل ما في الكلمة من معنى، وأصبح الرعب والإرهاب لأهل الإسلام في ديارهم وبلادهم؛ فالمسلم المستقيم لا يأمن على نفسه أن يُؤخذ غِرَّةً في لحظة من ليل أو نهار. وهذا الواقع هو في معظم البلاد الإسلامية، وفي بعضها متنفَّس، بل بعضها ينصر الإسلام، ويبيت المسلم فيها آمناً مطمئناً، فنرجو الله أن ترجع للإسلام قوته ومهابته، ويعبد المسلم ربَّه على أمن واطمئنان، لا على خوف وهلع، وكأنه من كبار المجرمين، والله المستعان[1].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]:

هذه الآيات تتحدَّث عن طبائع المتكبرين القدامى والمعاصرين، فبعد أن بيّن الله تعالى ما لحق بفرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه، ذكر أن امتناع قريش عن الإيمان إنما هو بسبب التكبُّر أيضاً، وهذا يدلُّ على أن منشأ الإعراض عن الإيمان والإصرار على الكفر هو التكبُّر، والكبر يصرف الإنسان عادة عن النظر في الحق، ويؤدي إلى التكذيب به، ويجعل المتكبر غافلاً عن آيات الله الدالة عليه[2].

هذه الآية الكريمة بيّنت بأسلوب التهديد والوعيد سنّة من سننه سبحانه وتعالى في المتكبرين:

أ ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: سأمنع وأصدّ عن فهم آيات كتبي المنزّلة، وعن التفكير في آياتي الكونية الدالّة على عظمتي؛

(١) التدبر والبيان، (١١/ ٥١٤).
(٢) التفسير المنير، (٥/ ٩٦).

الذين يُعجَبون بأنفسهم، فيردّون الحق، ويحتقرون الخلق[١].

فالكبر من آفات النفس الكبيرة، يجعل صاحبه قليل الفهم، ضعيف الإدراك، لا ينتفع بموعظة، ولا يعتبر بمثل[٢].

والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة، ومقوّمات الكبر قد تكون قوة، لكن ألم يرَ المتكبر قويّاً قد ضعف؟ وقد يكون الثراء من مقوِّمات التكبُّر، لكن ألم ير المتكبر غنيّاً قد افتقر؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه، لكن ألم يرَ المتكبر ذا جاه صار ذليلاً[٣]؟

ـ وفي قوله سبحانه: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة، ولذلك فالكبرياء لله وحده، واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في باله لتضاءل؛ لأن الله يخطر ببال المتواضعين من الناس.

إنه سبحانه وتعالى يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون، ويصرف عنهم تصديقَ الآيات الدالة على نبوة الأنبياء، ويصرف عنهم القدرةَ على تصديق أحكام القرآن، ويطبع على قلوبهم، فما بداخل هذه القلوب من الكفر لا يخرج، وما في خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل، وهم برغم حركتهم في الحياة إلا أن الحق لا يُعجزهم عن رؤية آياته في الكون[٤].

ب ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾:

أي: وإن يَرَ هؤلاء المتكبرون كل حُجَّة لله، تدلُّ على أنه المستحقّ للعبادة وحده، لا يُؤمنوا بها، سواء أكانت آية منزلة، أم آية كونية، أو معجزة خارقة[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٧).
(٣) تفسير الشعراوي، (٧/ ٥٣٥٥).
(٤) المصدر نفسه، (٧/ ٥٣٥٦).
(٥) تفسير الشوكاني، (٢/ ٢٧٩)، التفسير المحرر، (٦/ ٥٤٧).

ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ـ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

ـ وقال عزّ وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٢ ـ ١٥].

ـ وقال جلّ وعلا: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

ت ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

ـ ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾؛ أي: طريق الهدى والاستقامة، وهو الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته(١).

ـ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يرغبوه، ولا يسلكوه(٢).

ث ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: إذا رأوا أيَّ طريق من طرق الضلال والفساد، سارعوا إلى السير عليه، مما يدلُّ على الاضطراب والخلل في تفكيرهم، وانعكاس القيم في نظرهم، إننا لنرى في عصرنا الحاضر كثيراً من المسلمين المفتونين بحضارة الغرب المادية، تنسحب عليهم هذه الآية تماماً، يُعرِضون عن الحق الذي في دينهم وشرعهم، ويتمسَّكون بكل ضلال وباطل يأتيهم من غيرهم(٣).

---

(١) تفسير السعدي، ص٣٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٧٣.
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٧).

ج ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾: غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل(١).

أي: صَرْفنا المتكبرين عن فهم آياتنا الشرعية والكونية هو عقوبة لهم بسبب تكذيبهم بها(٢)، وكان الكافرون معرضين عن تلك الآيات، لا يتدبرونها، ولا يتفكرون فيها(٣).

ـ كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١ ـ ٣].

ـ وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ـ وقال عزّ وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] (٤).

وسببُ هذه الغفلة أنهم كذَّبوا بيوم القيامة، وسَلَخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، ولا قيمةَ لحياة الإنسان إذا لم يستشعر في قرارة نفسه بمسؤولية في حياته، إنها جوهر حياته، ومحور وجوده(٥).

٦ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧]:

أ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ أي: والذين

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٦٣٥).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٥).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥٤٨).
(٤) المصدر نفسه، (٦/ ٥٤٨).
(٥) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٤٧).

كذبوا بحُجَجِنا وأدلتنا، وأنكروا البعث بعد الموت ولقاءنا في الآخرة، واستمرُّوا على ذلك إلى مماتهم؛ بطلت أعمالهم وفسدت، وذهبت كأنما لم تكن[١].

ب ـ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا نجازي المُكذِّبين بآياتي ولقائي إلا بما يستحقُّون من العقاب على أعمالهم السيئة[٢].

ثامناً: قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٤]:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة مناجاة موسى لربه وإنزال التوراة عليه، ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه على يد السَّامري عجلاً مَصُوغاً من الحُلِيِّ «الذهب والفضة» تقليداً للمصريين في عهد الفراعنة، الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من شمس وغيرها، ثم عبدوه من دون الله[٣].

وبعد أن ذكر الله تعالى قصة السَّامري باتخاذ العجل إلهاً لبني إسرائيل، ذكر أثر ذلك ووقعه على موسى، إذ إنَّه في حال رجعته كان غَضْبان أسِفاً، واشتد أساه

(١) تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٥٤)، تفسير السعدي، ص٣٧٣.
(٢) تفسير البغوي، (٢/ ٢٣٥).
(٣) التفسير المنير، (٥/ ١٠١).

وحزنه حين رأى الواقع المؤلم من ضلال قومه وغيِّهم، فبادر إلى تعنيف أخيه هارون بسبب عبادة قومه العجل، ولامه على سُكوته على قومه[١].

وبعد أن ذَكَر الله تعالى عتابَ موسى لأخيه هارون عليهما السلام، ثم استغفاره لنفسه ولأخيه ذكر جزاء الظالمين باتخاذ العجل إلهاً ومعبوداً، وقبول توبة التائبين[٢]. ولما بين الله تعالى ما كان من موسى حال الغضب وانقسام قومه إلى قسمين: مصرٍّ على عبادة العجل، وتائبٍ إلى الله من ذلك، بَيَّنَ في هذه الآية ما كان منه عند سكوت الغضب، وسكون النفس، وهدأة البال، وإذا كان موسى سريع الغضب، حادّ الطبع، فهو أيضاً سريعُ العودة إلى الحلم حينما يعود الحق إلى نِصابه، ويعدل الظالم عن ظلمه[٣].

تفسير الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٤٩]:

لمّا ذكر الله تعالى فيما تقدّم قصة المناجاة، وما حصل فيها من الآيات والعبر ذَكَر في هذه الآية ما كان من قوم موسى مدة مغيبه في المناجاة من الإشراك، لما بين السِّياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن[٤]، فقال:

أ ـ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ **أي:** وصنع بنو إسرائيل من بعد ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام إلى ميقات ربّه صنعوا من مَصُوغهم الذي

(١) المصدر نفسه، (٥/ ١٠٦).
(٢) المصدر نفسه، (٥/ ١١٢)..
(٣) التفسير المنير، (٥/ ١١٦).
(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، (٩/ ١٧٣).

يتزيَّنون به عجلاً، وهو ولد البقرة، فعبدوه من دون الله سبحانه[١].

ب ـ ﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾؛ أي: كان العجلُ الذي عبده قومُ موسى جسماً لا روح فيه، له صوت البقر[٢]، وهذا يعني أنهم ضلُّوا بما لا يَضِلُّ بمثله أهلُ العقل، وذلك أنَّ الرَّبَّ جل جلاله؛ الذي له ملك السموات والأرض ومدبّر ذلك، لا يجوز أن يكون جسداً له خوار، لا يكلِّم أحداً، ولا يرشد إلى خير. وقال هؤلاء الذين قصّ الله قصصهم لذلك: هذا إلهنا وإله موسى، فعكفوا عليه يعبدونه جهلاً منهم وذهاباً عن الله وضلالاً[٣]. وقد بيّنا سبب عبادتهم إياه في حديثنا عن قصة موسى في سورة طه.

ت ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾: لما اتخذ قوم موسى العجل بيَّن الله تعالى لهم صفات النقص التي تُنافي الألوهية، أي: ألم ير هؤلاء القوم الذين عبدوا العجل المصُوغ من حُليهم أنه لا يستطيعُ أن يتحدَّث إليهم، ولا يرشدهم إلى أي خير؟ فكيف اتخذوه إلهاً، ومن صفات المعبود الحق أنه يتكلم ويهدي؟!(٤).

وفي الآية دليلٌ على أنّ من أنكر كلام الله فقد أنكر خصائص إلهيَّةِ الله تعالى؛ لأنَّ الله بَيَّنَ أنَّ عدم الكلام وعدم الهداية دليلٌ على النقص، وأن الذي يتكلم ويهدي أكمل ممن لا يتكلم ولا يهدي، والربُّ أحقُّ بالكمال[٥].

وقد سلب تعالى عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية؛ لأن انتفاء التكليم يستلزمُ انتفاء العلم، وانتفاء الهداية إلى سبيل يستلزمُ انتفاء القدرة،

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٥٥).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٥٥٦).
(٣) تفسير الطبري، (٩/ ٦٩).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٥٥٧).
(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٦/ ٨١ ـ ٨٢).

وانتفاء هذين الوصفين ـ وهما العلم والقدرة ـ يستلزمان باقي الأوصاف. فلذلك خُصّ هذان الوصفان بانتفائهما[١].

ث ـ ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: اتخذ قوم موسى العجل إلهاً، وكانوا بعبادتهم له ظالمين لأنفسهم، حيث جعلوا العبادةَ لمخلوق، فوضعوها في غير موضعها[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]:

أ ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: ولما ندم الذين عبدوا العجلَ عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم، وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف وعاجز عن شيء: قد سُقط في يديه، وأُسقط، لغتان فصيحتان، وأصلُه من الاسْتِئْسار، وذلك أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرعه فيرمي به من يديه إلى الأرض؛ ليأسره، فيكتنفه، فالمرميُّ به مسقوطٌ في يدي السّاقط به، فقيل لكل عاجز عن شيء ومصارع لعجزه متندم على ما فاته: سُقط في يديه وأُسقط[٣].

وهذه الآيةُ تُشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلاً، وحدث له عكس ما يفعل، يعضُّ على الأنامل ندماً وغمّاً، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية في كل الأجناس البشرية، ويعضُّ الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصحُّ أن يعمله، فإذا كان الشيء عظيماً فهو لا يكتفي بالأنملة، بل يمسك يده كلها ويعضّها، والحق يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾.

ـ ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: جاءت أنيابهم على أيديهم، كأنَّ الندمَ بلغ أشده.

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٥٩).
(٢) تفسير السعدي، ص٣٧٤.
(٣) تفسير الطبري، (٩/ ٦٢ ـ ٦٣).

إن ذلك حدث من التَّائبين الذين أبصروا بعيونهم، ورأوا أن ذلك باطل وخسران، أي: قالوا: لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم، والتجاء إلى الله عزّ وجل[١].

ب ـ ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم، فقالوا تائبين منيبين إليه من كفرهم به[٢]:

ت ـ ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

ـ وقال صديق حسن خان: في هذا الكلام منهم ما يفيد الاستعانة بالله، والتضرع، والابتهال في السؤال، والاعتراف بعظم ما أقدموا عليه من الذنب، والندم على ما صدر منهم، والرّغب إلى الله في إقالة عثرتهم واعترافهم على أنفسهم بالخسران، إن لم يغفر لهم ربهم، ويَتُب عليهم، ويتجاوز عنهم، ويرحمهم[٣].

ـ وقال أبو السعود: تقديم الرحمة على المغفرة، مع أن التخليةَ حقها أن تُقدَّم على التحلية، إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفِّرة لذنوبهم[٤].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]:

أ ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾؛ أي: ولمّا رجع موسى من مناجاة

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٦٣٦٣).
(٢) تفسير الطبري، (٩/ ٦٢ ـ ٦٣).
(٣) فتح البيان، (٥/ ٢٢).
(٤) إرشاد العقل السليم، (٣/ ٢٧٣).

الله إلى قومه بني إسرائيل، وهو شديدُ الغضب حزيناً، بعد أن أعلمه الله بعبادة قومه العجل عقِب انصرافه عنهم(١).

وصوّرت الآية الكريمة شدة غضب موسى بالتعبير ﴿أَسِفًا﴾، وهي صيغة مبالغة مما يدلُّ على أنَّ الحزن قد اشتد به، وتمكَّن منه(٢).

ب ـ ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾؛ أي: بئس الحال والفعل الذي أقمتموه مقامي بعبادتكم العجل بعد انصرافي عنكم، وقد كنتُ آمركم بتوحيد الله وأحذركم من الشرك(٣)، تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال، وتركتكم على عبادة الله، فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خُوار(٤).

ت ـ ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: هل استعجلتم مجيئي إليكم من مناجاة الله، قبل الوقت الذي قدَّره الله تعالى لتمام هذا الموعد، ولم تنظروني، فعبدتم العجل، ولم تحافظوا على ما وصَّيتكم به من عبادة الله حتى أرجع إليكم بالخير الذي أتيتكم به من عند الله تعالى(٥).

قال الشعراوي: يقول موسى: هل ظننتم أنني لن آتي؟ أو أنني أبطأت عليكم؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلي، أو من أجل إله قادر؟

ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت. وهنا يقول سيدنا موسى عليه السلام: افترضوا أنكم

---

(١) تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٥٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٦٤).
(٣) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ، (٢/ ١٥٦)، تفسير السعدي، ص٣٧٤.
(٤) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٧٤).
(٥) تفسير السمرقندي، (١/ ٣٠٢).

عجلتم الأمر، واستبطأتموني، أو خفتم أن أكونَ قد متُّ، فهل كنتم تعبدونني أو تعبدون ربنا[١].

ث ـ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: ورمى موسى عليه الصلاة والسلام الألواحَ في الأرض غضباً على قومه حين رآهم يعبدون العجل[٢].

ج ـ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي: وأمسك موسى بشعر رأس أخيه هارون، وجعل يسحبه بشدة غضباً عليه، وموسى صلوات الله عليه لم يكن لِيُلقي ألواحاً كتبها الله تعالى، فيها كلامه من على رأسه إلى الأرض، اختياراً منه لذلك، ولا كان فيه مصلحة لبني إسرائيل، وكذلك جرُّه هارون بلحيته ورأسه، وهو أخوه، وإنما حمله على ذلك الغضب فعذره الله سبحانه به، ولم يعتبْ عليه بما فعل؛ إذ كان مصدره الغضب الخارج عن قدرة العبد واختياره، فالمتولّد عنه غير منسوب إلى اختياره، ورضاه به[٣].

ح ـ ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي: قال هارون مستعطفاً موسى عليهما الصلاة والسلام: يا بنَ أمي، إن الذين عبدوا العجل اعتقدوا أني ضعيف، واحتقروني، فلم يطيعوني عندما نهيتُهم عن عبادته[٤].

ونلحظ أن هارون قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ولم يقل: «ابن أب»؛ لأن أبا موسى طُوي اسمه في تاريخ النبوات، ولم يظهرْ عنه أي خبر، والعلم جاءنا عن أمه؛ لأنها هي التي قابلت المشقّات في أمر حياته؛ لذلك جاء هنا بالقدر البارز في حياتهما، ولأن الأمومةَ مستقرُّ الأرحام؛ لذلك أنت تجد إخوة من الأم وإخوة من الأب فقط، وأخوة من الأب والأم، والإخوة من الأب والأم أمرهم معروف، وخاطب هارون موسى عليهم السلام بأُخوّة الأم لما لها من وجود مستحضر في تاريخهم،

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٦٤).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٧).
(٣) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزي شمس وآخرين، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، (١٤٣٢هـ)، ص٣٠٣.
(٤) تفسير الطبري، (١٠/ ٤٦٠).

وأما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً، وكل الآيات التي جاءت عن موسى مُتعلِّقة بأمه؛ لذلك نجد أخاه هارون يكلِّمه بالأسلوب الذي يُحنِّنه: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ (١).

خ ـ ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾؛ أي: وقال هارون لأخيه موسى عليهما الصلاة والسلام مبيناً عذراً آخر، وقد أوشك بنو إسرائيل على قتلي حين نهيتهم عن عبادة العجل، فلا تظنَّ بي تقصيراً(٢).

وهذا دليلٌ على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذي أدّى ما عليه، إلى درجة أنهم فكَّروا في قتله، ويتابع الحقَّ بلسان هارون: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٣).

د ـ ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾؛ أي: قال هارون لموسى ناهياً له عن استمراره في أخذه بشعره، فلا تُسِرَّ أعدائي عبدة العجل بضربي، وإهانتي(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتعوَّذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء(٥).

والشماتةُ هي إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم، وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: إجمال للرأس في عمومها، وفي آية أخرى يقول: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾، ولقد صنع موسى ذلك ليسمعَ العذر من هارون؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجَّة أخيه حين أوضح أنه لم

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٦٥).
(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٤).
(٣) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٦٥).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٥٦٨).
(٥) مسلم، (٤/ ٢٠٨٠)، رقم ٢٧٠٧.

يقصر قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ لأني وحدي، ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ مما يدلُّ على أنه قاومهم حتى كادوا يقتلونه، إذن فهو لم يوافقهم على شيء، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية[١].

وتظهر حكمةُ هارون عليه السلام في مخاطبته لأخيه موسى بـ ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾، بهذا النداء الرَّقيق، والوَشِيْجة الرحيمة، وبهذا البيان المصوِّر لحقيقة موقفه[٢]، ويُذيِّل الله عزّ وجل بقوله:

ذ ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: ولا تجعلني في غضبك عليّ، وعقوبتك لي، مع الذين عبدوا العجل، وفي عِدادهم، والحال أنني لم أعصِ أمرك كما فعلوا[٣].

وكأنه يقول لموسى: إنك إن آخذتني هذه المؤاخذة في حالة غضبك، ربما ظُن بي أنني كنت معهم، أو سلكت مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته. وأراد الحق سبحانه أن يُبيِّن لنا موقف موسى وموقف أخيه، فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه، وموقف هارون الذي بيَّن العلة في أن القوم استضعفوه، وكادوا يقتلونه، ولا يمكن أن يطلب منه فوق هذا، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين:

الأمر الأول: أنه كان يُلقي الألواحَ وفيها المنهج[٤]؟

والأمر الثاني: تأثر موسى أمام وَداعة هارون عليهم السلام، وأمام بيانه الفريد الذي استطاع أن يستجيش وجدان الأُخوَّة الناصرة المعينة.

وأمام هذه المواقف توجّه موسى عليه السلام إلى ربّه يطلب المغفرة له ولأخيه، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين[٥].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٦٥).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ٢٣٧٥).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥٦٨).
(٤) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٦٦).
(٥) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٧٥).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]:

لما اعتذر هارون إلى موسى عليهما السلام، وتحقّق موسى عليه السلام براءة ساحته، وتبيّن له عذره، وعلم أنه لم يُفرِّط في الواجب الذي كان عليه، دعا[١] فقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾: ليُرضيَ أخاه، ويُظهرَ لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا يُتِمَّ لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه لأنَّه فَرَّط في حين الخلافة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، وألا تزال متضمِّنة لهما في الدنيا والآخرة[٢].

أ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾؛ أي: قال موسى داعياً ربه: رب اغفر لي ذنبي فيما فعلتُ بأخي، وبدر مني غضب وحِدّة عليه، واغفر لأخي هارون[٣]، إن موسى عليه السلام يطلب المغفرة له ولأخيه من الغَفور سبحانه وتعالى، الذي يستر الذنب على صاحبه، ولا يفضحه، ولا يعاقبه عليه[٤]، والذي من أسمائه الحسنى كذلك الغفار، وهو اسمٌ دالٌّ على كثرة مغفرة الله لعبده المذنب المستغفر[٥].

ب ـ ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ أي: وارحمنا برحمتك الواسعة، واجعلها مُحيطةً بنا من كلِّ جانب، وأنت أرحمُ بعبادك من كل راحم[٦].

ـ ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾؛ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب؛ فإنها حصنٌ حصينٌ من جميع الشرور، وثَمَّ كلُّ خيرٍ وسرور[٧].

ـ ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: هذا ثناء يدلُّ على مزيد الثقة في الرجاء،

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٧).
(٢) تفسير الرازي، (١٥/ ٣٧٢).
(٣) هذا ربي، خالد الحليوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، (٢٠١٩م)، ص٧٢.
(٤) هذا ربي، خالد الحليوي، ص٧٢.
(٥) المصدر نفسه، ص٧٢.
(٦) تفسير ابن عاشور، (٩/ ١١٨).
(٧) تفسير السَّعدي، ص٣٧٤.

والدعاء في جملته أقوى في استعتاب هارون من الاعتذار له، وأدلّ على تخييب أمل الأعداء في شيء مما يثير حفيظةَ الشماتة[١].

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]:

أ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: إن الذين اتخذوا العجل إلهاً سيُصيبهم غضبٌ من الله، فلم يقبل الله تعالى لهم توبةً حتى قتل بعضُهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]، وقيل: غضب الله هو عذابه في الآخرة لمن لم يتب منهم من عبادة العجل[٢].

ب ـ ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أي: وسينال الذين عبدوا العجل هوانٌ في حياتهم الدنيا، فيصيرون مغلوبين، عقوبةً من الله لهم بسبب كُفْرهم[٣].

ت ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ أي: وكما جزيت أولئك الذين عبدوا العجل بالغضب والذلة نجزي كلَّ من كذب على الله، فعبد غيره وشرع ما لم يأذن له به سبحانه[٤].

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٥٣]:

لما ذكر الله تعالى المصرِّين على المعصية، عطف عليهم التّائبين؛ ترغيباً في مثل حالهم[٥].

---

(١) تفسير المنار، (٩/ ٢٠٩).
(٢) الوسيط، للواحدي، (٢/ ٤١٣).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٧).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٥٧١).
(٥) نظم الدرر، للبقاعي، (٨/ ٩٢).

أي: والذين عملوا الأعمالَ السيئة من الشرك والكفر والمعاصي، ثم ندموا وأقلعوا عن ذلك، وعزموا على ألا يعودوا إليه، وآمنوا بما أوجب الله تعالى الإيمان به، إنّ ربك ـ يا محمد ـ من بعد ارتكابهم للسيئات لَساتِرٌ عليهم أعمالهم السيئة، ومتجاوز عن مؤاخذتهم بها، ورحيم بهم بقبول توبتهم وتوفيقهم للأعمال الصَّالحة[١].

ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ـ وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ـ وقال تبارك وتعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «يا بنَ آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغَتْ ذنوبُك عَنان[٢] السماء، ثم استغفرتني، غفرتُ لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقُرابِ الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتُكَ بقُرابها مغفرة»[٣].

أ ـ قال الرازي: وهذه الآية تدلُّ على أن السيئات بأسرها مشتركة في أن التوبة منها تُوجب الغفران؛ لأنَّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يتناول الكل، والتقدير: إن من أتى بجميع السيئات ثم تاب، فإن الله يغفرها له، وهذا من أعظم ما يفيدُ البشارةَ والفرح للمذنبين، والله أعلم[٤].

ب ـ قال الآلوسي: وفي الآية إعلامٌ بأن الذنوب ـ وإن جلَّت وعظمت ـ فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجلّ، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله له:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (٧/ ٢٩٢)، تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٨).
(٢) العنان: السحاب.
(٣) سنن الترمذي، رقم ٣٥٤٠، بقراب الأرض أي: بما قاربَ مِلأْها، وقارب قَدْرها.
(٤) مفاتيح الغيب، (١٥/ ١٥).

يـا ربِّ إنْ عَظُمَـتْ ذنـوبـي كَثْـرةً فلَقَـدْ عَلِمْـتُ بـأنَّ عفـوك أعظَـمُ
إنْ كـانَ لا يَـرجـوكَ إلا مُحْسِـنٌ فبِمَـنْ يَلـوذُ ويستَجيـرُ الـمُجْـرِمُ

ومما نسب إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ولـمّا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي جعلتُ الرَّجا ـ ربِّي ـ لعفوِك سُلَّما
تعـاظمَنـي ذنبـي فلمَّـا قـرنْتُـهُ بعفـوِك ـ ربِّـي ـ كـان عفـوُك أعظَما

ويعجبني قولُ بعضهم، وما أولى هذا المذنب به:

أنا مذنبٌ، أنا مخطئٌ، أنا عاصي هو غافرٌ، هو راحمٌ، هو عافي
قـابلتُهُـنَّ ثـلاثـةً بثـلاثـةٍ وستغلبَـنْ أوصـافُـهُ أوصـافـي[1]

٧ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]:

لما بين الله تعالى ما كان من موسى عليه السلام مع الغضب، بيّن في هذه الآية ما كان منه عند سُكوت الغضب فقال:

أ ـ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾؛ أي: ولما سكن عن موسى عليه الصلاة والسلام غضبه[2].

ب ـ ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: أخذ موسى الألواحَ التي ألقاها[3].

ت ـ ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾؛ أي: فيها هدى ورحمة للذين يخافون الله سبحانه وتعالى، ويخشونه ويخضعون له؛ فيعملون بما فيها[4].

وقال السَّعدي:

ـ **﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾**؛ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، فأخذ **﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾** التي ألقاها،

---

(١) التدبر والبيان، (١١/ ٥٣٥).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٨).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٨٣.

وهي ألواحٌ عظيمةُ المقدار جليلة، ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾؛ أي: مشتملة ومتضمِّنة ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾؛ أي: فيها الهدى من الضَّلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشَّرّ، والهدى إلى أحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك، وينقادُ له ويتلقّاه بالقبول ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾؛ أي: يخافون منه ويخشونه، وأمَّا من لم يخفِ الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزدادُ بها إلا عُتُوّاً ونفوراً، وتقومُ عليه حُجَّة الله فيها[1].

تاسعاً: قال تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّايَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ـ١٥٨]:

وتابعتِ الآياتُ مسيرةَ بني إسرائيل التاريخية، وهم في طريقهم إلى الأرض المباركة[2]، وهذا تفسيرُ الآيات:

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٣).

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]:

أ ـ ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ﴾؛ أي: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً لوقتٍ وَقَّتَهُ الله لهم؛ ليحضروا فيه إلى مكان معين[(١)].

وتختلف الرواياتُ في سببِ هذا الميقات، وربما كان لإعلان التوبة، وطلب المغفرة لبني إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة، وفي سورة البقرة أن التكفير الذي فُرض على بني إسرائيل هو أن يقتلوا أنفسهم، فيقتل المطيع منهم من عصى، وقد فعلوا حتى أذن لهم الله بالكفّ عن ذلك، وقَبِلَ كفَّارتهم، وهؤلاء السبعون كانوا من شيوخهم ومن خيرتهم، أو كانوا هم خُلاصتهم التي تُمثِّلهم، فصيغة العبارة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ﴾ تجعلهم بدلاً من القوم جميعاً في الاختيار، ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين[(٢)]؟.

ب ـ ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: فلمّا أصابتِ الزلزلةُ الشديدةُ السبعين مع موسى، فصعقوا[(٣)]، وبيّن الله في سورة البقرة سبب ما أنزله لهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

فعندما وصلوا مع موسى إلى مكان المناجاة عند جبل الطور، وشرع موسى عليه السلام يناجي ربّه ويتلقّى وحيه، سألوا موسى أن يروا الله سبحانه جهرة، وقالوا له: لن نصدقَ أنَّك تناجي ربّك حتى نرى الله جهرة، فرجف الجبلُ بهم فصعقوا وماتوا، أولئك هم خيارُ بني إسرائيل، اختارهم موسى بنفسه، وهو أخبَرُ الناس بقومه، وإذا كان خيارهم هكذا، فما بالك بعامّتهم؟

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٧٦).
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٣).

إن الآيةَ تكشفُ عن طبيعة النفوس المادية الغليظة التي لا تؤمن إلا بالمحسوسات، فقلوبهم قاسية، وطباعهم مادية غليظة خشنة، فأيُّ خير يُرجى من مثل هؤلاء القوم. وهناك فرق كبير بين من سأل الرؤية حبّاً لله تعالى وشوقاً إليه، وبين الذين سألوا الرؤية شكّاً وريبة، ووقف موسى على الجبل وحيداً بين أجساد المصروعين، واتَّجهَ إلى الله تعالى داعياً بضَراعة وخُشُوع[١].

ت ـ ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَّ﴾؛ أي: قال موسى مُتضرِّعاً لربه: يا رب، لو شئتَ إهلاك هؤلاء السبعين لأهلكتهم من قبل هذا الوقت، وأمتّني معهم، وذلك على مرأى من قومنا حتى لا يتَّهموني، فماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم، وقد أهلكتَ خِيارهم؟، فإنَّ إهلاكهم في هذا الوقت أدعى لاتّهامهم لي وإيذائي[٢].

نرى موسى عليه السلام يُسلِّم لله تسليماً مطلقاً، لقدرته المطلقة من قبلُ ومن بعدُ، ويُقدِّم ذلك بين يدي دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه، وأن يرد عنهم فتنته، وألا يهلكهم بفعلة السُّفهاء منهم[٣].

ث ـ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؛ أي: سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربّه سؤال استعلام مع تذلُّل واستعطاف: أتُصيبنا بالهلاك بسبب ما فعله ضُعفاء العقول منا بعبادتهم العِجْل؟[٤].

ج ـ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾؛ أي: قال موسى معتذراً لربه: ما عبادةُ قومي للعجل إلا ابتلاء واختبار منك لهم، قدّرته عليهم؛ ليتبيَّنَ الضالّ منهم من المهتدي[٥]، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٤).
(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، (٢/ ٣٨٠).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٧٧).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.
(٥) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٨١).

ح ـ ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾؛ أي: قال موسى: تُضل بسبب هذه الفتنة من تشاء من عبادك ممّن خالف الرسل، وتهدي بها من تشاء ممن اتَّبعهم فلا يُفتنون ولا يضِلُّون[١].

ـ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

ـ وقال سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ـ وقال عزّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ـ وقال جلّ جلاله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

ـ وقال تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

خ ـ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ أي: أنت وحدك ـ يا ربنا ـ ناصرنا، ومتولّي أمورنا[٢]، والقصد من هذه الجملة الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى، تمهيداً لطلب المغفرة والرحمة؛ لأنَّ من شأنِ الولي أنْ يرحمَ مولاه وينصرَه[٣].

د ـ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾؛ أي: فاسترْ ذنوبنا، ولا تعاقبنا عليها، وتعطّف علينا برحمتك[٤]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دفع الضَّرر مقدَّمٌ على تحصيل النفع، إذ بدأ بطلب دفع الضَّرر، وهو قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ثم أتبعه بطلب تحصيل النفع ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾[٥].

---

(١) تفسير الطبري، (١٠/ ٤٧٧).
(٢) تفسير الرازي، (١٥/ ٣٧٨)، التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٦).
(٣) تفسير ابن عاشور، (٩/ ١٢٧).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٦).
(٥) نظم الدرر، (٨/ ١٠٣).

ذ ـ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وأنت ـ يا ربّنا ـ خير من يستر الذنوبَ، ويتجاوز عن المؤاخذة بالنقائص والعيوب[١].

وعطف جملة: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾؛ لأنه خَبَرٌ في معنى طلب المغفرة العظيمة؛ فعُطف على الدعاء، كأنه قيل: «فاغفر لنا وارحمنا واغفر لنا جميع ذنوبنا»؛ لأن الزيادة في المغفرة من آثار الرحمة[٢]. والرحمة إذا قُرنت بالغفر «الستر» يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]:

أ ـ ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: دعا موسى عليه الصلاة والسلام ربّه لبني إسرائيل، فقال: واجعلنا ممن كتبتَ له، وقدَّرتَ له في الدنيا الحالة الحسنة، من العِلْمِ النافع، والعمل الصَّالح، والرزق الواسع، والتوفيق، والعافية، والحياة الطيبة، واكتب لنا في الآخرة حسنة بمغفرة الذنوب والسيئات، ودخول الجنّات[٤].

ب ـ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾؛ أي: إنّا تُبنا ورجعنا إليك يا ربنا[٥]، خاشعين، عابدين، تائبين[٦]؛ أي: تُبنا، ورجعنا، وأنبنا إليك؛ أي: ندمنا على ما طلبه

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٦).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٥٨٦).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٨١).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.
(٥) التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٧).
(٦) تفسير الطبري، (١٠/ ٤٧٨).

قومنا من اتخاذ الآلهة وعبادة العجل، ونحو ذلك من فعل السفهاء، ورَجَعْنا إلى الإيمان المقرون بالعمل[١].

ت ـ ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾؛ أي: أجاب الله موسى فقال: عذابي في الدنيا أُصيب به من أشاء ممّن يستحقه من خلقي، كما أصبت هؤلاء السبعين من قومك بالرَّجفة[٢]، وعذابي أُصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين[٣].

ث ـ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد[٤].

كما قال تعالى حاكياً قول حملة العرش من الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن، والإنس، والبهائم، والهَوامِّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّرَ الله تسعاً وتسعين رحمةً، يرحم بها عبادَه يوم القيامة»[٥].

ج ـ ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: لمّا أعلم الله تعالى أنَّ رحمته واسعة وقدرتَه شاملة، وكان ذلك موسِّعاً للطمع؛ تَسَبَّبَ عن ذلك قوله ذاكراً شرط إتمام تلك الرحمة، ترهيباً لمن يتوانى عن تحصيل ذلك الشرط[٦].

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: فسأُوجب حصول رحمتي التي وسعت

---

(١) التفسير المنير، (٥/ ١٢٦).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٨١).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩٩).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.
(٥) رواه مسلم، رقم ٢٧٥٢.
(٦) نظم الدرر، (٨/ ١٠٥).

كل شيء للذين يمتثلون ما أمرتُ به، ويجتنبون ما نهيتُ عنه[١]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلقَ الخلق: إنَّ رحمتي سبقتْ غضبي، فهو مكتوبٌ عنده فوق العرش»[٢].

ح ـ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: واجعل رحمتي للذين يعطون الزكاة المفروضة في أموالهم لمستحقِّيها[٣]، وخَصَّ الزكاة بالذكر دون الصلاة وما دونها من الطاعات؛ لأنَّ فتنةَ حبِّ المال تقتضي ـ بنَظَرِ العقلِ والاختِبارِ بالفعل ـ أنْ يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض، وفيه إشارةٌ إلى شدة حبِّ اليهود للدنيا، وافتتانهم بجمع المال، ومنع بذله في سبيل الله[٤].

خ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: واجعل رحمتي للذين يُؤمنون بآياتي المنزّلة على رسلي، فيتَّبعونها[٥].

ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

ـ وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: يصدّقون بآياتنا الدالة على توحيدنا، وكفاية شريعتنا، وسُمُوِّها، وصلاحيَّتِها للعمل والتطبيق، وصدق رسلنا[٦].

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٩).
(٢) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥، التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٩).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥٨٩).
(٤) تفسير المنار، (٩/ ١٩٣).
(٥) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.
(٦) التفسير المنير، (٥/ ١٢٧).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]:

لما بيّن الله تعالى أنّ من صفة من تكتب له الرحمة في الدنيا والآخرة: التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات؛ ضَمَّ إلى ذلك أنْ يكونَ من صفته اتِّباع النبيِّ الأميِّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التَّوراة والإنجيل(١).

أ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾: الذي لم يمارسِ القراءةَ والكتابة، وهذه الصفة من صفات كماله عليه الصلاة والسلام؛ لأنها من أدلّة صدقه في نبوته كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والأميّ أيضاً: المنسوب إلى الأمة الأمية، وهي الأمة العربية، وكانت الأميّةُ فاشيةً بينهم في الجاهلية قبل الإسلام. وفي الحديث الشريف أنَّ النبي ﷺ قال: «إنّا أمّة أميّة، لا نكتب ولا نحسب»(٢).

وقال السَّعدي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾: احتراز عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصودَ بهذا محمَّدُ بن عبد الله بن عبد المطَّلب، والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأنَّ المؤمنين به المتَّبعين له هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأميِّ؛ لأنه من العرب الأمّة الأميّة التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب(٣).

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩١).
(٢) رواه مسلم، رقم ١٠٨٠.
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٥.

ب ـ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾؛ أي: يجدون محمداً ﷺ مذكوراً بصفاته الواضحة في التوراة التي أنزلها الله على موسى، وفي الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليهما الصلاة والسلام(١).

ـ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ـ وعن عطاء بن يسار قال: لقد لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صِفَتِهِ في القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وحِرزاً للأميّين(٢). أنت عبدي ورسولي سَمَّيتُك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملَّةَ العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غُلفاً(٣).

وقد أخبر الله في القرآن أن عيسى عليه السلام بشّر بمحمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] (٤).

ورغم التغيير والتحريف اللذين لحقا بالتوراة والإنجيل، ولاسيَّما ما يتَّصل بالنبي ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيِّدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام التي أُرسل بها، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة (٧ـ٩): ولسوف أزلزِلُ كلَّ الأمم، وسوف يأتي حمَداً لكلِّ الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك يقول ربُّ الجنود، ولي الفضة،

(١) تفسير الطبري، (١٠/ ٤٩١)، تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٨٣).
(٢) حرزاً للأميّين: حافظاً لدينهم والمراد العرب.
(٣) رواه البخاري، رقم ٤٨٣٨.
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩٣).

ولي الذهب، هكذا يقول ربُّ الجنود، وفي هذا المكان أُعطي السَّلام، هكذا يقول ربُّ الجنود[١].

قال الدكتور البروفيسور داود بنيامين الكلداني، قسيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الذي أسلم بعد ذلك، وسمّى نفسه «عبد الأحد داود»: لقد ترجمتُ هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، وأعارتني إيَّاها سيدة آشوريّة، كانت ابنة عمٍّ لي، والنسخة هذه باللغة الوطنيَّة الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى التَّرجمة الإنجليزية للكتاب المقدَّس؛ التي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة «حِمَداً» إلى الأمنية، وكلمة «شالوم» إلى الإسلام[٢].

ثم بعد أن استعرض معنى كلمة «حِمَداً» باللغة العبرية، وجد أنَّ لها معنى آخر، هو الحمد. وأيّاً من المعنيين نختار، فإن الحقيقة الناصعة أنَّ كلمة «أحمد» هي الصيغة العربية لكلمة «حمداً»، وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريب فيه ولا مراءَ فيه، ولقد جاء في القرآن الكريم في سورة الصف، كما مرَّ معنا.

وفي إنجيل يوحنّا الذي كُتب باليونانية استُعمل الاسم «بيركليتوس» وهو صيغة وثنية لم تكن معروفةً في دنيا الأدب الإفريقي، ولكن كلمة «بيركليتوس» والتي توافق وتطابق اسم «أحمد» في معناه ومغزاه وفي إشراقه وسموِّه وتمجيده وفي مقامه المحمود الأعلى، لابدّ أن تكون ترجمتها من اليونانية «حِمداً»، أو لعلَّها «حميده» بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح، ولكن واأسفاه لا يوجد هناك بها يسوع على الزمن باللغة الأصلية التي تحدّث بها السيد المسيح[٣]، ومن خلال الصِّفات التي ذكرتها الآيات للنبي ﷺ أظهرت بعض الخصائص والسِّمات للشريعة الإسلامية[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٧).
(٢) محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ترجمة: فاروق الزين، الدمام، دار الإصباح للنشر، (٢٠١٢م)، ص٥٠.
(٣) محمد في الكتاب المقدس، المصدر نفسه، ص٥١.
(٤) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٨).

ت ـ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: يأمرهم الرسول ﷺ بالمعروف، وهو كلُّ خير أمر به الشرع من الإيمان والعمل الصَّالح، والمعروف كل ما عُرف حُسنُه وصلاحه ونفعه، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصِلَة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك.

ـ ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: والمنكر: هو كل ما عُرف قُبحُه من العقول والفِطر، كالشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، والزنا، وشرب ما يُسْكر العقلَ، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك؛ فأعظمُ دليلٍ على أنه رسول الله فيما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحلّه، وحرَّمه(١).

ث ـ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: ويُحلُّ لهم محمد ﷺ الأطعمة والأشربة النافعة التي تستطيبها الأذواق السليمة مما حُرِّم على اليهود من قبل التوراة، أو حرّمه العرب على أنفسهم في جاهليتهم(٢).

ـ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٤ ـ ٥] (٣).

والمراد بالطيّبات: الأشياء الـمُستطابة بحسب الطبع، وذلك لأنَّ تناولها يفيد اللذة، والأصلُ في المنافع الحِلُّ، فكانت هذه الآيةُ دالةً على أنَّ الأصلَ في كلِّ ما تَسْتَطِيبُهُ النَّفْسُ، ويَسْتَلِذُّهُ الطَّبْعُ: الحِلُّ(٤).

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩٣).
(٣) التفسير المحرر، المصدر نفسه، (٦/ ٥٩٤).
(٤) المصدر نفسه، (٦/ ٦٠٢).

ج ـ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ أي: ويحرِّمُ عليهم محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام الأطعمةَ، والأشربة، والأفعال الضَّارَّة التي تستخبِثُها النفوسُ السَّليمةُ ممّا يستَحِلُّهُ بعضُ الناس؛ كلحم الخنزير، والميتة، والدم، والخمر، والزنا، والرّبا، والرياء، والرشوة، وأكل أموال النَّاس بالباطل[١]، ومعنى ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ أي: المستخبثة الضارة، فكل ما يضرُّ الإنسان في دينه وعقله وعرضه ونفسه، فهو حرام في الإسلام؛ ولهذا حرّم الله المسكرات، والدم المسفوح، ولحم الميتة، والخنزير، وبعد أن ثبت ضرر الدُّخان وأنه من الخبائث ظَهر حكمه في الإسلام، وهو المنع والتحريم[٢].

ح ـ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يخفِّف النبي ﷺ في شريعته الإسلامية التكاليف الشرعية الثقيلة التي شُرِعتْ في الشرائع السابقة[٣]، ويُزيلُ عن الذين يتبعونه من أهل الكتاب العهدَ الثقيلَ الذي أخذه الله عليهم من العمل بما في التوراة من الواجبات الثقيلة، والمحرّمات الشديدة التي كانت كالقيود في أعناقهم[٤].

ـ ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: يعني: ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة، وذلك مثل: قتل النفس في التوبة بعد الردّة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيين القِصاص في القتل، وتحريم أخذ الدِّيَة، وترك العمل في يوم السَّبْتِ؛ شُبّهت بالأغلال مجازاً؛ لأنَّ التحريم يمنع من الفعل كما أنَّ الغُلَّ يمنع من الفعل[٥]، وهذا يدلُّ على أن دين محمد ﷺ سهل ميسَّر، لا إِصْرَ فيه ولا أغلالاً ولا مشقّات ولا تكاليفَ ثقالاً[٦].

---

(١) المصدر نفسه، (٦/ ٥٩٤).
(٢) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٩).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ١٥٩).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩٥).
(٥) لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، تحقيق: عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، (٢٠٠٤م)، (٢/ ٦٤٨).
(٦) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.

ـ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ـ وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذه الصفات التي أبرزتها الآية الكريمة للشريعة الإسلامية تدلُّ على أنها الشريعة الصَّالحة للإنسان؛ لكي يبني في ظلها حضارة العدل والإيمان والسلام، ثم تحدَّثت الآيات عن الأمة التي ستحمل هذه الشريعة، وتبني تلك الحضارة[١] في قوله تعالى:

خ ـ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾:

ـ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾؛ أي: صدَّقوا برسالة النبي ﷺ.

ـ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: عرفوا قدره العظيم ﷺ، ووقّروه، وفخّموه، ومنعوه من كل من يريده بسوء ـ ولا شك في أن التمسك بسنّته وتعظيمها من تعظيمه وتوقيره ـ[٢] وأعانوه على أعدائه الذين ظلموه، وكذَّبُوه[٣].

ـ ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه، وجاهدوا في سبيل إعزاز دينه ونشر رسالته، وتطبيق شريعته[٤].

د ـ ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: هو القرآن الكريم الذي أُنزل على محمد مع نبوّته[٥]، والتزموا أحكامَ دينه، وتمسَّكوا بمنهجه وشريعته، فجعلوها أساسَ حياتهم في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية[٦]، والقرآن الكريم يُستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويُقتدى به إذا تعارضت المقالات[٧].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٥٩).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٦٠).
(٣) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩٧).
(٤) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٠).
(٥) التفسير المحرر، (٦/ ٥٩٧).
(٦) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٠).
(٧) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.

ذ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: وكل من اتَّصف بهذه الصفات فهو من هذه الأمة، مهما كان لونه وجنسه ووطنه، فالأمة المسلمة أمة عالمية إنسانية[١].

ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإتيان باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلوِّ درجتهم، وسموِّ طبقتهم في الفضل والشرف؛ أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة هم المفلحون، لا غيرهم من الأمم، ففيه تنويهٌ بشأنهم، ودلالة على أن المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أَحرِياءَ بما يُخبَر به عنهم بعد اسم الإشارة[٢].

ـ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجحون من شرّهما؛ لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح، وأمَّا من لم يُؤمنْ بهذا النبي الأميّ، ويعزِّرُه، وينصرُه، ولم يتّبع النورَ الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون[٣].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]:

لما ذكر الله تعالى لموسى عليه السلام صفة محمد ﷺ، وأخبر أنَّ من أدركه وآمن به فقد أفلح، أمر تعالى نبيّه بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس كافة، والدعاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكلماته واتّباعه[٤]، وأيضاً لمـّا دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتّباعه، وكان ربما توهّم متوهِّمٌ أنْ الحكم مقصورٌ عليهم، أتى بما يدلُّ على العموم[٥].

وأيضاً لما ذكر الرسولَ الأميَّ، استطرد بتذكير بني إسرائيل بما وعد الله به

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٠).
(٢) تفسير ابن عاشور، (٩/ ١٣٦).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٦٠٩).
(٥) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.

موسى عليه السلام، إيقاظاً لأفهامهم بأن محمداً ﷺ هو مصدِّق الصّفات التي علّمها الله موسى(١).

أ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: قل ـ يا محمد ـ للنّاس كلهم: يا أيّها الناس إني مرسل من الله إلى جميعكم من العرب وغيرهم، ولم أُرسَل إلى بعضكم دون بعض(٢).

ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

ـ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصةً، وبُعِثتُ إلى الناس كافة، وأُعطيت الشَّفاعةَ»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمعُ بي أحد من هذه الأمّة يهوديّ ولا نصراني، ثم يموت، ولم يُؤمنْ بالذي أُرسلتُ به، إلا كان من أصحاب النار»(٤).

ب ـ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إنّي رسولُ مَنْ له وحده سلطان السموات والأرض وما فيهما، وله وحده تدبيرُ ذلك، والقيام بتصريفه(٥).

ـ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

---

(١) تفسير ابن عاشور، (٩/ ١٣٩).
(٢) مجموع الفتاوى، (٣٤/ ٢٠٧).
(٣) رواه البخاري، رقم ٤٣٨.
(٤) رواه مسلم، رقم ١٥٣.
(٥) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩١).

ـ وقال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

يتصرف فيهما بأحكامه الكونية، والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جُملتها أنْ أرسل إليكم رسولاً عظيماً، يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذِّرُكم من كلِّ ما يُبعدُكم منه ومن دار كرامته(١).

ت ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله وحده دون ما سواه(٢)، ولا تُعرَف عبادته إلا من طريق رسله(٣).

ث ـ ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: وحده الذي بيده إحياء الخَلْق وإماتتهم(٤)، وجعل سبحانه وتعالى الموتَ جسراً ومَعْبراً يُعبر منه إلى دار البقاء التي مَنْ آمن بها صدّق الرسول ﷺ قطعاً(٥).

ج ـ ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾: لما صدّر الأمر بخطاب جميع البشر، وكان فيهم مَن لا يُؤمن بالله، وفيهم مَن يُؤمن بالله ولا يُؤمن بالنبي الأمّي، ذكَرَ جميع الإيمان ـ الإيمانِ بالله والإيمان بالنبي الأميّ ـ في طلب واحد؛ ليكونَ هذا الطّلب متوجّهاً للفِرَق كلِّهم؛ ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله والنبي الأمي، مع قضاء حق التأدُّب مع الله بجعلِ الإيمان به مقدّماً على طلب الإيمان بالرسول ﷺ، للإشارة إلى أن الإيمانَ بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله(٦)، ومعنى الآية: فآمنوا ـ أيها الناس ـ بالله تعالى؛ الذي تلك صفته، وآمنوا برسوله محمد النبي الذي لا يَكتب ولا يقرأ من كتاب(٧).

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٦.
(٤) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩١).
(٥) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.
(٦) تفسير ابن عاشور، (٩/ ١٤٠).
(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٧/ ٤٣٦).

ح ـ ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ أي: يُؤمن بالله ويوحِّده في عبادته، ويُؤمن بكلمات الله التي منها جميع كتبه التي أنزلها على رسله صلوات الله عليهم وسلامه(١).

ـ كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

خ ـ ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾؛ أي: واقتدوا ـ أيها الناس ـ بهذا الرسول، وأطيعوا لأجل أن تهتدوا إلى الحقِّ(٢).

ـ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتَّبِعوه ضللتم ضلالاً بعيداً(٣).

عاشراً: قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩ ـ ١٦٢]:

بعد أن رغَّبَ الله سبحانه بني إسرائيل باتباع مِلَّة محمد ﷺ عن طريق إنزال الرحمة عليهم، ووصفهم بأنهم المفلحون، ذكر ثلاثةَ أحوالٍ لهم:

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٦١٣).
(٢) التفسير المحرر، المصدر السابق، (٦/ ٦١٣).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.

الحال الأولى: أن بعضهم اتبعوا موسى بحق، واتبعوا أيضاً محمّداً ﷺ، والتزموا الحقَّ، وقَضَوا به.

والحال الثانية: قِسْمتُهم اثنتي عشرة فرقة بعدد أسباطِهم الاثني عشر.

والحال الثالثة: انفجار الحجر اثنتي عشرة عيناً بقدر عدد الأَسْباط لما طلبوا السُّقيا من موسى عليه السلام، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوى عليهم[١].

وبعد أن عدّد الله تعالى أحوالَ بني إسرائيل، وأضاف النِّعَم التي أنعم بها عليهم، وجُحُودهم لها، وظلمهم أنفسهم، ناسب أن يذكر نوعاً آخر من أنواع العصيان أو الظلم ومخالفة أمر الله، وهو دخولُ القرية بقول معيَّن ﴿حِطَّةٌ﴾، وبهيئة معينة ﴿سُجَّدًا﴾، فالمناسبة بين الآيات واضحةٌ، وهي تبيانُ أحوال الظلم من هؤلاء القوم؛ لذا خُتِمَتِ الآيتان بإثبات صفة الظلم فيهم[٢].

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]:

لمّا أمر الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله، وأمر باتِّباعه، ذكر أنّ من قوم موسى من وُفِّق للهداية، وعدل، ولم يَجُرْ، ولم تكنْ له هدايةٌ إلا باتّباع شريعة موسى قبل مبعث رسول الله ﷺ، وباتّباع شريعةِ رسول الله بعد مبعثه، فهذا إخبارٌ عمَّن كان من قوم موسى بهذه الأوصاف[٣].

أ ـ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ومن أتباع موسى عليه الصلاة والسلام من بني إسرائيل جماعة يهتدون بالحق الذي شَرَعه الله عزَّ وجلَّ.

ب ـ ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: بالحق الذي أنزله الله تعالى يحكمون، وبالعدل يقومون، فلا يظلمون الناس[٤] في الحكم بينهم وفي قضاياهم، كما قال

---

(١) التفسير المنير، (٥/ ١٤٠).
(٢) المصدر نفسه، (٥/ ١٤٤).
(٣) البحر المحيط (تفسير أبي حيان)، أبو حيان الأندلسي، (٥/ ١٩٨).
(٤) تفسير البغوي، (٢/ ٢٤٠).

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جعل منهم هُداةً يهدون بأمره، وكأن الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوعُ احترازٍ مما تقدّم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدّم جملةً من معايب بني إسرائيل المنافية للكمال، المناقضة للهداية، فربما توهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ هذا يَعُمُّ بني إسرائيلَ جميعهم، فذكر تعالى أنَّ منهم طائفةً مستقيمةً هاديةً مهدِيَّة[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]:

أ ـ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾: بعد أن أنصفهم الله، وبيّن أن فيهم أمةً يهدُون بالحق، وبه يعدلُون، يقول: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾. والمقصودُ هنا بنو إسرائيل، ومعنى «قطَّعت الشيء» أنَّ الشَّيءَ كان لبعضِهِ تَمامٌ وُجُودِيٌّ مع بعضه الآخر، ثم قطعته، وفصلت بعضه عن بعض، وجعلته قطعاً وأجزاء، فهُم كلُّهم بنو إسرائيل، ولكنَّ الحقَّ يوضِّح أنه قطَّعَهم وجعلهم ﴿أَسْبَاطًا﴾.

و«السِّبط»: ولد الولد. وهم هنا أولادُ سيدنا يعقوب، وكانوا اثني عشر ولداً، وحكتْ ذلكَ سورةُ يوسف، فقال تعالى على لسانِ يوسف: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وحين تَعدّ وتُحصي ستجد أحد عشر كوكباً مرئيّاً، وتضمُّ إليها الشمس والقمر والرَّائي، فيصير العدد أربعة عشر، واترك الشمس والقمر؛ لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه، وخذ الأحد عشر كوكباً، وأضِف الرَّائي، وهو يوسف، فيكون العدد

(١) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.

اثني عشر، وهؤلاء الاثنا عشر سِبْطاً، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثني عشر ابناً من أمهاتٍ مختلفات، وفي هذه الحالة فالميول الأَهوائيَّة بين الأبناء قد تتعاند، ولذلك تنبأ يعقوب وقال ليوسف عليهما السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وهذا أولُ دليل على أنهم مختلفون، وهو سببٌ من أسباب التقطيع، وحَيِثِيّة من حَيثِيَّاته[١].

وهنا وقفة لغوية، فالأسباط في أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل في أولاد إسماعيل، وأولاد إسماعيل «العرب» يسمونهم قبائل، وهؤلاء يسمونهم «أسباطاً».

والتعبير في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ يفيد أنه كانت لهم من قبل وحدة تجمعهم؛ فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شيء واحد، فجاء بكلمة «أسباط» مكان قبيلة، كما جاء التمييزُ مذكَّراً ﴿أَسْبَاطًا﴾.

﴿أُمَمًا﴾ صفة لقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾، وقال الزمخشري في كلمة ﴿أُمَمًا﴾ بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ بمعنى: وقطّعناهم أمماً؛ لأنَّ كل سبط كان أمة عظيمة، وجماعة كثيفة العدد، وقال: ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييز، ووجه كونه مجموعاً أنه وضع ﴿أَسْبَاطًا﴾ موضع قبيلة؛ وكل قبيلة أسباط، لا سبط[٢].

ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ أي: جعلنا كل سبط أمة بخصوصها، والواقع الكوني أثبت أنهم كذلك؛ لأنَّك لا تجد لهم ـ فيما مضى ـ تجمُّعاً قوميّاً، وهو ما يسمُّونه «الوطن القومي لليهود» على الرَّغم من أنَّ الدُّول الظالمة القوية أعانتْهم، وأقامتْ لهم وطناً على أرض فلسطين، ومع ذلك نجد في كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التي تحيا في رحابها، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا في الشعوب، ففي باريس ـ مثلاً ـ تجد «حي اليهود»، وفي

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٢).
(٢) التفسير المنير، (٥/ ١٣٩).

لندن تجد الحالةَ نفسها، وفي كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الظَّاهرة، فهم يعيشون فيها بطقوسهم، وبشكلهم، وبأكلهم، وبعاداتهم، معزولين عن الشعوب، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

وقطَّعهم ربُّنا في الأرض؛ أي: نشرهم في البلاد، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً، ولذلك ستقرأ في سورة الإسراء إن شاء الله: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤]؛ أي: إنَّه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى: اسكنوا الأرض. وحين تقول لنا يا رب: «اسكنوا» فأنت تحدد مكاناً في الأرض، كأن يسكن الإنسانُ في الإسكندرية، أو القاهرة، أو الأردن، أو سورية، لكن يصدر الحكم بأن ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ فهذا يعني أنْ تتفرَّقوا فيها فلا تجمُّع لكم.

ـ ويقول الحق: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]؛ أي: إنَّه حين يجيء وعدُ الآخرة تكون ضربةً قاضيةً عليكم أيها اليهود؛ لأنَّ عدوَّكم لن يتتبعكم في كل أمة من الأمم، ويبعث جيشاً يحاربكم في كل مكان تعيش فيه طائفةٌ منكم، لكن إذا جاء وَعْدُ الآخرة يأتي بهم الحق لفيفاً، ويتجمَّعون في هذا الوطن القوميِّ الذي يفرحون به، ونقول لهم: لا تفرحوا؛ فهذا هو التجمُّعُ الذي قال الله عنه: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾؛ لتكون الضربةُ موجَّهةً إليكم في مكان واحد، فنستأصلكم، ونقضي عليكم[١].

ب ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾؛ **أي**: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيَهم ماءً يشربون منه، وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم ـ والله أعلم ـ في مَحَلٍّ قليلِ الماء، فأوحى الله إلى موسى إجابةً لطلبهم.

ـ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾: يحتمل أنه حَجَر معيَّن، ويحتمل أنه اسمُ جنس يشمل أيَّ حجر كان[٢].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٤).

(٢) تفسير السَّعدي، ص٣٧٦.

وقصة الاستسقاء وردتْ في سورة البقرة: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد تفسير آياتها هم الذين طلبوا الاستسقاء، ولا يوجد تعارضٌ بين الآيتين؛ لأن قومَ موسى طلبوا السُّقيا من موسى، فطلب لهم السقيا من ربه، فقال هنا: ﴿ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾، وفي سورة البقرة [الآية: ٦٠] قال: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾، ولا خلاف ولا تكرار في الآيات:

ـ إن المستسقي في سورة البقرة موسى عليه السلام.

ـ والمستسقَى هنا موسى عليه السلام.

ـ والمستسقَى منه هو الله، جلَّت قدرته. وهذا أمر طبيعيّ.

والحق سبحانه يقول في سورة البقرة: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ [البقرة: ٦٠]، ونجدُ الوحي نزل على موسى بقوله: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب ﴾، وهنا في سورة الأعراف نجد الحق يقول: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾، ولنا أن نعرف أنّ ﴿ فَقُلْنَا ﴾ تساوي ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾ تماماً؛ لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى، بل مناط هذه القضية غير المناط في قوله الحق: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾، فليس كلُّ وحي إلى موسى جاء بكلامٍ مباشرٍ من الله، بل سبحانه كلَّمه ـ أكثر من مرة ـ تشريفاً له، ثم أوحى إليه من بعد ذلك كغيره من الرسل[1].

ت ـ ﴿ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾: وهذا القولُ يدلُّنا على الإعجاز المطلق، فمرة أمر الحق موسى أن يضربَ الماء بالعصا ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، ومرة يأمره أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشيء الواحد، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله، يحركها كيف يشاء.

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٥).

ـ ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾: هنا تعبير ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ وفي البقرة تعبير ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وتعلم أن الانبجاس يحدث أولاً، ثم يتبعه الانفجار ثانياً؛ فالانبجاسُ أن يأتي الماء قطرة قطرة، ثم يأتي الانفجارُ وتدفُّق المياه الكثيرة، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي وتجيء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك، إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد له أولية وله آخرية[١].

ونلاحظ أن الضربةَ واحدةٌ من عصا واحدة، وكان المفترض أن تُحدِثَ هذه الضربة عيناً واحدة، تنبع منها المياه، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عيناً، وعلم كل أناس مشربهم؛ لذلك كان لابدَّ أن يكون المكانُ متَّسِعاً، وأنَّ هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال في الأرض[٢].

ـ وقوله في الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ [الآية: ١٦٠] وفي البقرة ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [الآية: ٦٠] فيه مناسبة حسنة، فالانبجاس ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له، فلما كان الواقعُ في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام السُّقيا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، ولما كان الوارد في سورة البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء، وطلب موسى عليه السلام غاية لطلبهم؛ لأنه واقعٌ بعده، ومرتّب عليه، فناسب الابتداءُ الابتداءَ، والغايةُ الغايةَ، فقِيلَ جواباً لطلبهم: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وقيل إجابة لطلبه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وتناسب ذلك، وجاء على ما يجب ولم يكن؛ ليناسب العكس[٣]، ولأنَّ الانفجارَ أبلغُ في كثرة الماء، فناسب سياق ذكر النعم في سورة البقرة التعبير به[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٦).
(٢) المصدر نفسه، (٧/ ٤٣٩٧).
(٣) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، (١/ ٤٠).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٦٣١)، الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٤م)، (٣/ ٣٩٣).

ث ـ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: قد عرف كل سبط ـ وهم بنو أب واحد ـ عينَهم التي تخرج من الحجر، فيشربون منها، ولا يشاركهم فيها غيرهم من الأسباط[١]، فلا يتزاحمون على الماء، ولا يختصمون[٢]، وقد استراحوا من التعب والمزاحمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم[٣].

ومما أنعم الله به عليهم أيضاً:

ج ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾؛ أي: وسترنا قوم موسى بالسحاب يقيهم من حر الشمس وهم في التّيه[٤].

ـ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾: ساعة تأتي كلمة ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ تعرف أنها مسألة جاءت من علوّ، ولا يفترض أن يكون مكانها عالياً، لكن هي مسألة جاءت أعلى من قدرتك، أي: من فوق أسبابك، إنها بقدرة الأعلى[٥].

ـ ﴿الْمَنَّ﴾: مادة بيضاء اللون، حلوة الطعم، مثل قطرات الزِّبق، يجدونه على الشجر، ولا يزال هذا الشجرُ موجوداً في العراق، يهزُّونه صباحاً، فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض، فيأخذونها على ملاءة بيضاء، واسمه عندهم الـمَنُّ ـ أيضاً ـ وهو في طعم القشدة وليونتها، وحلاوة العسل[٦].

وهناك من المفسرين من يرى أنَّ ﴿الْمَنَّ﴾ كلُّ ما منَّ الله عليهم من طعام

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٦٣١).
(٢) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦١).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٧.
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٦٢٦).
(٥) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٨).
(٦) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٨).

دون تعب ولا عَناء، يجدونه كالصَّمغ معلَّقاً على أغصان الأشجار والنباتات، أو يأخذونه من الأرض[١].

قال ابن كثير: فالمنّ المشهورُ إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الكَمْأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين»[٢].

ـ ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذِّها، فجمع الله بين الظلال والشراب والطعام الطيب من الحلوى واللحوم؛ على وجه الراحة والطمأنينة[٣].

قال محمد متولي الشَّعراوي: وهو طير من رتبة الدجاجيَّات، يستوطن أوربا وحوض البحر المتوسط يُسَمَّى: «سلواة»، وهو «السّمانى»، ويسميه أهل السواحل «السّمان»، وهو يأتي مهاجراً، ولم يربِّهِ أحدٌ، وفي هذا إنزال من الله؛ لأنَّه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم[٤].

ـ ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: هو أمر للإباحة[٥]؛ أي: كُلوا من حلال ما رزقناكم أيها الناس، وطيَّبناه لكم[٦]، والرعاية الربّانية واضحة في هذا كله، ولكن هذه الجِبِلَّة ما تزال عصيَّة على الهدى والاستقامة كما يبدو من ختام هذه الآية التي تذكر كل هذه النعم، وكل هذه الخوارق؛ من تفجير العيون لهم من الصخرة بضربة من عصا موسى، ومن تظليل الغَمام لهم في الصحراء الجافة، ومن تيسير الطعام الفاخر من المن والسلوى.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٢).
(٢) البخاري، رقم ٤٤٧٨، مسلم، رقم ٢٠٤٩.
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٧.
(٤) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٣٩٨).
(٥) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٢).
(٦) تفسير الطبري، (٩/ ٨٩).

ح ـ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ أي: فعصَوْني، ولم يشكروا نعمتي عليهم، وما أدخلوا علينا بذلك نقصاً في مُلْكنا ولم يضرّونا، ولكن كانوا يُنقصون أنفسهم وحُظُوظها من الخير، ويضرُّونها بتعريضها لاستحقاق عقابي[(١)].

ـ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ لإفادة القصر الذي يقتضيه النفي السابق، وفيه ضرب من التهكم بهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل؛ للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر[(٢)]، لقد حذَّرهم من المعاصي ونشر الفساد، كما جاء في سورة البقرة: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] ولكن القوم لم يشكروا الله على نعمه، ولم ينفذوا ما أمرهم به، بل فسقوا على أمره، وظلموا بذلك أنفسهم، وهذا ما دلَّ عليه قول الله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ومن صور فسقهم وظلمهم ما فعلوه عندما أمرهم الله أن يدخلوا إحدى القرى التي مرُّوا بها في سيناء، وهم في طريقهم إلى فلسطين[(٣)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢]:

أ ـ وهذه القصةُ مذكورةٌ أيضاً في سورة البقرة، ونعرف أنَّ قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾ لم يذكر فيه الحقُّ مَنِ القائل؛ لأنَّ طبيعة الأمر في الأسباط أنَّه سبحانه جعل لكل سِبْط منهم عيناً يشرب منها، وكل سبط له نقيب، وهذا دليل

(١) تفسير الطبري، (١٠/ ٥٠٥).
(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٢).

على أنهم لا يأتلفون، فلا يكون القول من واحد للجميع، بل يصدر القول من المشرّع الأعلى، وهو الحق للرسول، والرسول يقول للنقباء، والنقباء يقولون للناس، وبعد أن تلقَّى موسى القول أبلغه للنقباء، والنقباء قالوه للأسباط، وفي آية أخرى قال الحق: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة تُوضِّح أنَّ المصدر الأصيلَ في القول هو الله، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب؛ لذلك يُوضِّح الحق هنا أنه أوحى إلى موسى، وساعة ما تسمع ﴿وَإِذْ﴾ فاعلم أن المراد اذكُرْ حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية، لقد قيل: إن هذه القريةَ هي بيت المقدس وأريحا، لكنهم قالوا: لن ندخلها أبداً؛ لأن فيها قوماً جبَّارين، وأضافوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

والحق لا يبيِّن لنا القرية في هذه الآية؛ لأنَّ هذا أمر غير مهمٍّ، بل جاء بالمسألة المهمَّة التي لها وزنها وخَطَرها، وهي تنفيذُ الأمر على مكان يكون فيه: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ (١).

ب ـ ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾؛ أي: قال الله لقوم موسى: وكلوا من ثمار هذه القرية وحبوبها ونباتها في أيِّ مكانٍ شئتم منها(٢).

ت ـ ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ أي: وقولوا: طلبُنا ومسألتُنا ـ يا ربنا ـ أن تَحُطَّ ذنوبنا(٣).

ث ـ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: وادخلوا باب القرية ركّعاً منحنين متواضعين، وخاضعين لله تعالى(٤).

ج ـ ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾؛ أي: إذا قُمتم بما أمركم الله تعالى به

(١) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٤٠٠).
(٢) تفسير الطبري، (١٠/ ٥٠٥)، تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٦٦).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٧.
(٤) تفسير السَّعدي، ص٣٧٧.

فقلتم: حِطَّة، ودخلتم باب القرية ساجدين، فإننا نستر جميعَ ذنوبكم، ونتجاوز عن مؤاخذتكم بها[١].

ح ـ ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: سنزيد المطيعين لله الذين أحسنوا أعمالهم، وأتقنوها بمراقبة الله تعالى فيها فعبدوه، كأنهم يرونه، سنزيدهم على مغفرتنا لذنوبهم ثواباً من خير الدنيا والآخرة[٢].

ـ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ـ وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ـ وقال عزّ وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

ـ وقال جلّ جلاله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ـ وقال تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠].

ـ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل، فقال: «ما الإحسانُ؟»، قال: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك»[٣].

خ ـ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: فغيّر الظالمون من قوم موسى ما أمرهم الله أن يقولوه ليغفرَ لهم ذنوبهم، فقالوا بدل حطة: حَبَّة في شعرة[٤].

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٦٣٥).
(٢) تفسير الشوكاني، (٢/ ٢٩٢).
(٣) رواه البخاري، رقم ٥٠.
(٤) تفسير الطبري، (١/ ٥٠٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٥٨]، فبدّلوا فدخلوا يزحفون على استاهِهم، وقالوا: حبة في شعرة»(١).

د ـ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: فبعثنا على الذين بدّلوا ما أمرهم الله به عذاباً نزل عليهم من السماء، إمّا الطاعون وإمّا غيره.

ـ كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩].

ـ وقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعونُ رِجزٌ أو عذابٌ أُرسِل على بني إسرائيل، أو على من كان قبلَكم، فإذا سمعتُم به بأرض فلا تَقدِمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»(٢).

ذ ـ ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾؛ أي: أرسلنا على قوم موسى العذاب بسبب ظلمهم لأنفسهم بمعصية الله(٣).

ـ مقارنة بين هاتين الآيتين مع الآيتين في سورة البقرة:

هاتان الآيتان «١٦١ ـ ١٦٢» من سورة الأعراف نظير ما في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩]، وفيها مناسباتٌ حسنةٌ من وجوه، وبيان ذلك على النحو الآتي:

---

(١) البخاري، رقم٤٦٤١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (٧/ ٣٠٤)، تفسير الشوكاني، (٢/ ٢٩٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، المرجع السابق، (٧/ ٣٠٤).

ـ عبّر هنا في سورة الأعراف بقوله: ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾ وفي سورة البقرة: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾؛ لأنَّ القولين قيلا لهم؛ أي: قيل لهم: ادخلوا واسكنوا، وقيل: إن أَمْرَهم بدخول القرية مغاير من حيث المعنى لأمرهم بسُكناها، وإن كان الأمر بدخولهم قد يشير ـ بما جاء معه في السِّياق ـ إلى سكناها، لكن ليس نصّاً، بل ولا هو ظاهر، وإن آية الأعراف بيّنت ذلك، وأوضحت المقصود، وحصل الأمر بالدخول والسُّكنى، وتبيّن وجه ورود العبارتين على الترتيب.

ـ وقال هنا: ﴿وَكُلُواْ﴾، وفي سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ﴾ بحرف التعقيب؛ لأنَّ الأكل لا يكون إلا بعد الدخول، ولا يكون قبله ولا معه، وإنما يكون مرتّباً عليه، ولأن الدخولَ سريعُ الانقضاء، فيتبعه الأكل؛ فجيء بالحرف الذي يبين ذلك المعنى، ويفيدُ أنه على التعقيب من غير مهلة، وأما قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾ هنا في سورة الأعراف، فلأن السكن منجرٌّ معه الأكل ومُساوِق له، ولا يمكن أن يكون مرتَّباً عليه، فجاء بالحرف الصَّالح لذلك المعنى، وهو الواو، والمعنى: أقيموا فيها. وذلك ممتدّ، فذُكِرَ بالواو؛ أي: اجمَعوا بين الأكل والسكن، فقيل في البقرة بما يُرادف فاء التعقيب؛ لأن التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف من سورة الأعراف.

ـ ورد قوله: ﴿رَغَدًا﴾ في البقرة، ولم يرد في الأعراف، وذلك لأنَّ مفهوم السكنى الواردة في الأعراف مع الأمر بالأكل، فهو الامتنان والإنعام المقصود في الآية، كلُّ ذلك معروفٌ بتمادي الأكل، وقوة السياق مانعة من التحجير والاقتصار، فحصل معنى الرغد، ولذلك وقع الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعاً من سياق آية الأعراف، وأيضاً ذكر ﴿رَغَدًا﴾ في سورة البقرة؛ لأنَّ زيادة المنة أدخَلُ في تقوية التوبيخ، وأيضاً لأنه سبحانه أسنده إلى ذاته بلفظ التعظيم، وهو قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾ بخلاف ما في الأعراف فإن فيه ﴿وَإِذۡ قِيلَ﴾.

ـ واقتصر هنا على حكاية أنّه قيل لهم، وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلّت عليه فاء التعقيب؛ لأن آية البقرة سبقت مساق التوبيخ، فناسبها ما هو أدلّ على

المنة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية. وآيات الأعراف سيقت لمجرد العبرة بقصة بني إسرائيل، ولأجل هذا الاختلاف مُيّزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾، وعُوِّض عنه هنا بضمير ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأن القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين، فأُشير إلى أولاهما بما يُومئ إليه الموصول من علة الحكم، وإلى الثانية بحرف السببية، واقتصر هنا على الثاني.

ـ وقد وقع في سورة البقرة لفظ ﴿فَأَنزَلْنَا﴾، ووقع هنا لفظ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، ولما قَيَّد كليهما بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كان مفادُهما واحداً، فالاختلافُ ليس سوى اختلاف تعبير بين القصتين، أو لأن لفظَ الرسول والرسالة كثر في الأعراف، فجاء ذلك وفقاً لما قبله، وليس كذلك في سورة البقرة[1].

ـ وعبّر هنا ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، وفي البقرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]؛ لأنه لمّا اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم، وأُدِّي ذلك في البقرة بقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [البقرة: ٥٩]، استُثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك مرة ثالثة، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضاً أعمّ، فهو أنسبُ بتذييل التوبيخ. وجيء هنا بلفظ ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرّة ثالثة، فكان تذييلُ آية البقرة أنسب بالتغليظ في ذمّهم؛ لأن مقام التوبيخ يقتضيه[2].

قال الدكتور وهبة الزحيلي: قال هنا: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، وقال هناك: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، إشارة إلى حصول الوصفين منهم، فهم ظالمو أنفسهم، وهم فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، ثمَّ إنَّ الظلم فيه معنى الاعتداء على الآخرين، والفسق فيه معنى الخروج عن الدِّين[3].

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٦٤٠).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٦٤١).
(٣) التفسير المنير، (٥/ ١٤٦).

وزِيدَ هنا كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، ولم تُذكر هناك، وزيادتها تأكيد في البيان. ومعنى التبديل أنهم تجرَّؤوا على المخالفة التامّة بالقول والفعل، دون اجتهاد ولا تأويل(١).

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهكذا نتأكد أن كلَّ كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسي تؤديه، ولا تكرار إلا لمجموع القصة في ذاتها، أما لقطات القصة هنا ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً في كل شيء لتعطيَ معانيَ جديدةً(٢).

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦]:

تذكر الآيات نوعاً آخر من مخالفات اليهود وعصيانهم، فبعد أن ذكرت قصَّتهم في دخول القرية، ذكرت قصة احتيالهم على صيد الأسماك. وقد ذكرت هذه القصة في سورة البقرة إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]. وفي ذكر هذه القصة من رسول الله دليل على الإعجاز، فقد نزلت عليه في مكة قبل ملاقاة النبي ﷺ أحداً من اليهود، وكان ﷺ قبل نزول الوحي أميّاً لم يتعلَّم علماً، ولم يطالع كتاباً، فإخباره بالقصة معجز، ودليل على أن ذلك من إخبار الله وكلامه.

---

(١) المصدر نفسه، (٥/ ١٤٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٤٠٥).

وهناك فائدة أخرى من إيراد القصة، هو التنبيهُ على أن الكفر بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس شيئاً جديداً حادثاً في هذا الزمان، وإنما كان الكفر والإصرار حاصلاً في أسلافهم من الزمان القديم(١).

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]:

وهم في هذه المرة لا يخالفون الأمرَ جَهْرةً، ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها، ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه؛ لأن الصبرَ على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة في تملُّك الارتفاع عن الأهواء والأطماع.

ويعدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل إلى أسلوب المواجهة لذراريهم؛ التي كانت تواجه رسول الله ﷺ في المدينة.

ويأمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم في تاريخ أسلافهم، وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة مُتَّصلة الأجيال، ويذكّرهم بعصيانهم القديم، وما جَرَّهُ على فريق منهم من المسخ في الدنيا، وما جَرَّهُ عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً، اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي ﷺ، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرةَ البحر، فهي معروفةٌ للمخاطبين.

فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالُها جماعةً من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية، وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يُجعَلُ لهم يومَ راحة يتَّخذونه عيداً للعبادة، ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش، فجعل لهم السبت، ثم كان الابتلاء ليريهم الله ويعلّمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع، وكيف

(١) التفسير المنير، (٥/ ١٥٠).

ينهضون بعهودهم حين تصطدمُ بهذه المغريات والأطماع، وكان ذلك ضروريّاً لبني إسرائيل الذين تخلخلتْ شخصياتهم وطباعهم بسبب الذي عاشُوا فيه طويلاً، ولا بدَّ من تحرير الإرادةِ بعد الذل والعبودية، لتعتاد الصُّمود والثبات، فضلاً على أن هذا ضروري لكلِّ من يحملون دعوة الله، ويؤهَّلون لأمانة الخلافة في الأرض، وقد كان اختيار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وُجِّه من قبلُ إلى آدمَ وحواء، فلم يصمدا له، واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى، ثم ظل هو الاختيار الذي لا بدَّ أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض، إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا يتغيَّر فحواه.

ولم يصمد فريقُ بني إسرائيل ـ في هذه المرة ـ للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم، وانحرافهم.

لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تَتَراءى لهم على الساحل، قريبة المأخذ، سهلة الصيد، فتفوتهم، وتُفلِتُ من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم، فإذا مضى السبت، وجاءتهم أيام الحِلِّ، لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة، كما كانوا يجدونها يوم الحرم، وهذا ما أُمر رسول الله ـ صلى الله عليهم ـ أن يذكِّرَهم به، ويذكِّرَهم ماذا فعلوا، وماذا لاقوا[1].

أ ـ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: واسأل ـ يا محمد ـ اليهودَ بحضرتك عن خبر المدينة التي كانت على شاطئ البحر[2].

ب ـ ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: اسأل اليهودَ عن اعتداء أهل تلك القرية في يوم السبت ومخالفتهم ما أمرهم الله به من تعظيم يوم السبت بالانقطاع للعبادة، وترك العمل، والاصطياد فيه[3].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٣).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٦٤٧).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٣).

ت ـ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: اسألهم حين اعتدى أهلُ تلك القرية عندما كانت الأسماك الكثيرة تجيء إليهم في يوم السبت مقبلة ظاهرة وكثيرة على وجه البحر(١).

ث ـ ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: وفي سائر الأيام غير يوم السبت لا تأتيهم الحيتان(٢).

ج ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: مثل ذلك الابتلاء العظيم الذي وصفنا نختبرهم به بسبب خروجهم عن طاعة الله(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهودُ؛ فتستحِلُّوا محارمَ الله بأدنى الحِيَلِ»(٤).

على أية حال، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرةَ البحر في بني إسرائيل، فإذا جماعةٌ منهم تهيج أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيَحتالونَ الحيل على طريقة اليهود للصيد يوم السبت، وما أكثر الحيل عندما يَتَلوَّى القلب، وتقِلُّ التقوى، ويصبح التعاملُ مع مجرد النصوص، ويُراد التفلُّت من ظاهر النصوص، إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حرّاسه، إنما تحميه القلوب التقية التي تستقرُّ تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه، وما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية، ولن تستطيع الدولة ـ كائناً ما كان الإرهاب فيها ـ أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته، ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس ومراقبتهم له في السر والعلن.

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٣٧٧.
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٦٤٩).
(٣) المصدر نفسه، (٦/ ٦٤٩).
(٤) تفسير القرآن، ابن كثير، (٣/ ٤٩٢).

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية، وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر، ولا سلطات فيها من الله، ومن أجل ذلك تعجز الأجهزةُ البشريةُ التي تُقيمها الدولة لحراسة القوانين وتنفيذها، وتعجز الملاحقةُ والمراقبةُ التي تُتابع الأمور من سطوحها.

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت؛ الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه، ورُوي أنهم كانوا يُقيمون الحَواجِيز على السمك، ويحوِّطون عليه في يوم السبت، حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه، وقالوا: إنهم لم يصطادوه في السبت، فقد كان في الماء ـ وراء الحواجيز ـ غير مَصيد.

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله، فيحذِّر العاصي مغبّة احتياله، وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال.

بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ما فائدةُ ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه، وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب[(١)]؟

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]:

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم؛ ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم بعدما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله[(٢)].

أ ـ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؛ أي: واذكر ـ يا محمد ـ حين قالت جماعة من أهل تلك القرية لمن كان يعظُ المعتدين منهم: لماذا تنهون المستحلّين للصيد في يوم السبت، والله سيهلكهم في الدنيا بعذاب يستأصلهم[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٤).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٨٤).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٤).

ب ـ ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: أو سيعذِّبهم الله بعذاب شديد.

ت ـ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: فهو واجبٌ لله نؤديه، واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخويف من انتهاك الحرمات لنبلغ إلى الله عذرنا، ويعلم أن قد أدّينا واجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية، فيُثير فيها وجدان التقوى.

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث أمم:

١ ـ أمة عاصية محتالة.

٢ ـ وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار، والتوجيه، والنصيحة.

٣ ـ وأمة تدع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبي، ولا تدفعه بعمل إيجابي.

وهي طرائقُ متعددة من التصور والحركة، فلمَّا لم يُجدِ النصحُ، ولم تنفعِ العظةُ، وسدر السادرون في غيّهم، حقّت كلمة الله وتحقّقت نُذُره[١].

ـ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾؛ أي: قال الذين ينهون المعتدين عن معصية الله: نحن نعظهم من أجل أن نُعذَر عند الله فيما فرض علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يؤاخذنا بالتَّقصير في ذلك[٢].

ـ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ونعظهم أيضاً رجاء أن تُؤثِّر فيهم موعظتنا، فيمتثلوا أوامر الله تعالى، ويجتنبوا نواهيه، فيكفّوا عن اقتراف هذا الجرم العظيم، وهو مخالفةُ نهي الله تعالى عن صيد السّمك يوم السبت[٣].

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٨٥).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٤).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٤٩٤).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]:

أ ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾؛ أي: فلما ترك المعتدون ما أمرهم الله به من تعظيم يوم السبت، ولم يقبلوا نصيحةَ الواعظين[(١)].

ب ـ ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: أنجينا من العذاب الذين كانوا ينهون المعتدين عن ارتكاب السيئات، واستحلال المحرّمات[(٢)].

ت ـ ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾؛ أي: وأخذنا الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله بعذاب شديد[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]؛ أي: عذَّبناهم بسبب خروجهم عن طاعة الله[(٤)].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]:

أ ـ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: فلما تمرّدوا، وتجاوزوا ما نهوا عنه، وتمادَوْا في صيد السمك يوم السَّبت[(٥)]، وقيل: فلمّا تكبّروا عن ترك ما نهاهم الله عنه[(٦)].

ـ قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

ب ـ ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: فلما تمرّدوا وتكبّروا، قلنا لهم:

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٤).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٤٩٤).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٣٧٧.
(٤) تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٧٠).
(٥) التفسير المحرر، (٦/ ٦٥٣).
(٦) إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس المرادي النحوي (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤٢١هـ)، (٢/ ٧٨).

صِيْروا قردة حقيرين، مطرودين من الخير[١]، أي: مَسَخَهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسيّ في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لمّا كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، ولما كان الذنب الذي فعلوه صورته صورة المباح، ولكنّ حقيقته غير مباح، كان جزاؤهم من جنس عملهم، فمُسخوا قردة لما مسخوا دين الله، فلم يتمسَّكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته[٢].

لقد كان العذابُ الشديد هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية، لقد تنازلوا هم عن آدميتهم، حين تنازلوا عن أخصِّ خصائصها ـ وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة ـ وانتكسوا إلى «عالم الحيوان» حين تخلَّوا عن خصائص «الإنسان»، فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان، أما كيف صاروا قردة؟ وماذا حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج من جنسه؟ أم تناسلُوا وهم قردة؟ إلى آخر هذه المسائل التي تتعدَّد فيها روايات التفسير[٣].

وقد أورد الطَّحاوي الأحاديث الدالة على أنَّ الممسوخَ لا نسلَ له، منها قوله ﷺ: «إن الله لم يجعل لمسخٍ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك» [٤].

وقال: فمسخهم قردة وخنازير، ولا تناسلَ لها ولا أعقابَ لها، فكانت في الدنيا ما شاء الله عزّ وجل كونها فيها، ثم أفناها بلا أعقاب خلَّفتها[٥].

لقد جرت كلمةُ الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداءً، كما يجري بها

---

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٦٥٤).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٦٥٧).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٥).
(٤) مسلم، رقم ٢٦٦٣.
(٥) شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٩٩٤م)، (٨/ ٣٢٣ـ ٣٢٤).

التحوير والتغيير، كلمة «كن»، فكانوا قردة مَهِينينَ، كما جرى القول الذي لا رادّ له، ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه[١].

وأما الفرقةُ التي قالت للناهين: لمَ تَعِظُون قوماً الله مُهلِكهم، فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من النَّاجين؛ لأن الله خصّ الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدلّ على أن العقوبة خاصّة بالمعتدين في السبت، ولأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضُ كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فأبدَوْا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشدَّ العقوبة[٢].

وأجاب الشيخ محمد متولي الشَّعراوي عن هذا السؤال: هل الممسوخ يظلُّ ممسوخاً؟، فقال: إن الممسوخَ قرداً أو خنزيراً يظل فترة كذلك؛ ليراه من رآه ظالماً، ثم بعد ذلك يموت وينتهي[٣].

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٧١]:

بعد أن ذكر الله تعالى بعض قبائح اليهود، وعقابهم عليها بالمسخ قردةً، ذكر

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٥).
(٢) تفسير السَّعدي، ص٣٧٨.
(٣) تفسير الشعراوي، (٧/ ٤٤١٣).

في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة، عقاباً على أفعالهم، ثم ذكر أنه فرَّقهم جماعاتٍ مُشرَّدين في الأرض، وأنَّ خَلَفَهم جماعة مادِّيون تهمُّهم الدنيا فقط، وأن أسلافهم قبلوا الأخذ بالتوراة بعد إنذارهم بإسقاط الجبل عليهم، وهذا كله للعبرة، فكل أمة تفسق عن أمر الله، وتخالف أحكام الدين مهددة بمثل هذا العقاب[١].

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]:

لما ذكر الله تعالى قبح فعالهم واستعصاءهم، أخبر تعالى أنه حكم عليهم بالذل والصَّغار إلى يوم القيامة[٢]، فهو إذن الأبد الذي تحقَّق منذ صدوره، فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب، والذي سيظل نافذاً في عمومه، فيبعث عليهم بين آونة وأخرى من يسومُهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغَوْا في الأرض وبغَوْا، جاءتهم الضربةُ ممن سلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية الـمُنْكِرة الناكثة العاصية التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية، ولا تثوب من انحراف حتى تجنحَ إلى انحراف.

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقَّفت، وأن يهود قد عزَّت واستطالت، وإن هي إلا فترةٌ عارضةٌ من فترات التاريخ، ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيُسلَّط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة[٣].

أ ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: واذكر ـ يا محمد ـ حين أعلم ربك اليهود بما قضاه عليهم ممّا هو واقعٌ بهم لا محالة[٤]؛ أي: أعلن أو حكم، وفي قوة الكلمة

(١) التفسير المنير، (٥/ ١٥٨).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٦٦٢).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٦).
(٤) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٧).

ما يفيد معنى القسم، فجاءت اللامُ بعدها كأنها جوابُ القسم[١].

ب ـ ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾ على اليهود.

ت ـ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ أي: الذي يُنزل بهم العذاب الذي يسوءُهم كالسجن، والقتل، والتعذيب[٢].

ث ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب، كما أخذ القرية التي كانت حاضرةَ البحر، وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يتوبُ من بني إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فليس عذابه ـ سبحانه ـ عن نقمة ولا غضبٍ، إنما هو الجزاءُ العادلُ لمن يستحقُّونه، ووراءه المغفرة والرحمة[٣].

ـ قال السَّعدي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ﴾ لمن عصاه حتى إنه يُعجِّلُ له العقوبة في الدنيا[٤].

ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: لمن تاب إليه وأناب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه أي يتقبل منه الطاعات، ويُثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما توعَّدهم به، فلا يزالون في ذلّ وإهانة تحت حُكْم غيرهم، ولا تقوم لهم راية ولا يُنْصر لهم عَلَمٌ[٥].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]:

وهذا السياقُ تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد موسى، وذلك حين تفرَّق اليهود في الأرض، جماعات مختلفة المذاهب والتصورات، مختلفة المشارب

---

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٦).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٦٦).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٦).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٣٧٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٧٨.

والمسالك، فكان منهم الصَّالحون، وكان منهم من هم دون الصَّلاح، وظلت العنايةُ الإلهيةُ تواليهم بالابتلاءات تارة، وبالنعماء تارة، وتارة بالبأساء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويستقيمون على طريقهم(١).

أ ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾؛ أي: ومزقنا بني إسرائيل في أقطار الأرض إلى جماعات متطرفة، بحيث لا تخلو ناحية من الأرض منهم(٢)، فأصبحوا مشتَّتين في بقاع بعيدة، كما هو معروفٌ في تاريخهم(٣).

ب ـ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بني إسرائيل الصَّالحون الذين يُؤمنون بالله ورسله، ومنهم من انحطَّتْ رتبتُهم عن مرتبة الصلاح، فكانوا عصاة مذنبين، أو كفرة مجرمين(٤).

ت ـ ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: واختبرنا بني إسرائيل بالخير والشر؛ ليتوبوا ويرجعوا عن معصية الله عزّ وجل إلى طاعته(٥).

ثم قدمت الآيات وصفاً موجزاً لموقفهم من شريعتهم المنزلة على موسى عليه السلام في التوراة بعد التفرق، والشَّتات(٦).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

أ ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: فجاء بعد أولئك القوم

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٦).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٧).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٦٦٥).
(٥) تفسير السَّعدي، ص٣٧٨.
(٦) التفسير الموضوعي، (٣/ ١٦٨).

ـ الذين كان منهم صالحون ومنهم دون ذلك ـ جيل سوء لا خير فيه، قد أخذوا التوراة من أسلافهم، وعلموا ما فيها من الأحكام[١].

ب ـ ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: إنّ خَلَفَ السوء ـ الذين ورثوا التوراة ـ يأخذون المال الحرام من الرشوة وغيرها من متاع الدنيا الزائل، وأضاعوا العملَ بالتوراة[٢].

ت ـ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ أي: ويقول هؤلاء الذين يأخذون المال الحرام، ويخالفون كتاب الله تعالى، يقولون ـ اغتراراً وتمنِّياً على الله بالباطل ـ سيغفر الله لنا ذنوبنا هذه[٣].

ث ـ ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾؛ أي: وإن جاء أولئك اليهود كسب حرام من متاع الدنيا الزائل، مثل الكسب السابق، استحلّوه وتناولوه مرة ثانية، إصراراً منهم على ذنوبهم، فهم منهمكون في أخذ الحرام، ومع هذا يزعمون أن الله سيغفر لهم[٤].

ج ـ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ألم يأخذِ الله على أولئك اليهود ـ الذين ورثوا التوراة، وأكلوا تلك المكاسب الخبيثة ـ العهد المؤكّد في التوراة بأن يُبيِّنوا الحق للناس، ولا يكذبوا على الله سبحانه[٥].

ح ـ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾؛ أي: والحال أنهم قد قرؤوا كتاب الله، وعلموا ما فيه، وفهموا معانيه[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٨).
(٢) تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٧٢).
(٣) تفسير ابن عطية، (٢/ ٤٧٢).
(٤) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٨).
(٥) تفسير السَّعدي، ص٣٧٨.
(٦) التفسير المحرر، (٦/ ٦٦٩).

هم درسوا هذا الكتابَ، وعرفوا ما فيه، ولكنَّ الدراسةَ لا تُجدي ما لم تخالط القلوب، وكم دارسون للدين وقلوبهم عنه بعيدة، إنما يدرسونه ليتأوَّلوا، ويحتالوا، ويُحرِّفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تُبيحُ عرض الحياة. وهل آفةُ الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ولا يأخذونه عقيدة، ولا يتَّقون الله ولا يرهبونه[١]؟

خ ـ ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: وما أعدّه الله تعالى في الآخرة من ثواب ونعيم خيرٌ للذين يمتثلون ما أمر الله تعالى به، ويجتنبون ما نهى عنه من هذا الحُطام الدنيوي الفاني، أفلا يكون لكم عقل، يا من تأخذون الحرام، وتخالفون كتابَ الله، فلا تنظرون به إلى العواقب، فتعلمون أن ما عند الله خير من هذا العرض القليل الزائل الذي تستعجلونه في الدنيا، وترتدعون عن التهافت على هذا الكسب الحرام المورِث لخزي الدُّنيا والآخرة[٢].

لا شيءَ يثبتُ على الغِيَرِ والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخِضَمِّ الهائج، وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وإنها خيرٌ للذين يتقون، ويعفون، ويترفَّعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع، والأعاصير، والفتن، ويمضون في الطريق لا يلتفتون، مطمئنين، واثقين، ملء قلوبهم اليقين، وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد ـ دعاة الملاحدة وأتباع إبليس ـ أن يلغوه من قلوبنا، ومن عقيدتنا، ومن حياتنا، ويُحلّوا محله تصوّراً كافراً جاهلاً مطموساً ـ رسمه لهم إبليس اللعين ـ ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس، وينطلق السُّعار المجنون الذي لا يكبحه إلا ذلك اليقين، وينطلق سُعار الرشوة والفساد والطمع، وينتشر داءُ الإهمال، وقلة المبالاة، والخيانة في كل مجال[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٧).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٩).
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٧).

إن قضية الآخرة وقضية التقوى، قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السِّياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى، عرض الحياة الدنيا إلى العقل ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى، ولو كان العلم لا الجهالة التي تُسمَّى العلم هو الذي يقضي، لكانتِ الدَّارُ الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى، ولكانت التقوى زاداً للدِّين والدُّنيا جميعاً[١].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]:

وقعت جملة ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخرها عقب التي قبلها؛ لأن مضمونها مقابل حُكْم التي قبلها، إذ حصل من التي قبلها أن هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدنى قد فرّطوا في ميثاق الكتاب، ولم يكونوا من المتقين، فعقّب ذلك ببشارة من كانوا ضدّ أعمالهم، وهم الآخذون بميثاق الكتاب والعاملون ببشارته وآمنوا بالرّسل وآمنوا بمحمد ﷺ، فأولئك يستكملون أجرهم؛ لأنهم مصلحون[٢].

أ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: والذين يعتصمون بكتاب الله عزّ وجل ويُعلونه بما فيه[٣]. والآيةُ الكريمةُ تُعرّض بالذين أُخذ عليهم ميثاق الكتاب، ودرسوا ما فيه؛ ثم هم لا يتمسَّكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به، ولا يُحكِّمونه في تصوُّراتهم وحركاتهم؛ ولا في سلوكهم وحياتهم، غير أن الآيةَ تبقى من وراء ذلك التعريض مطلقة، تُعطي مدلولها كاملاً لكل جيل ولكل حالة، إن الصِّيغة اللفظية: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ تصور مدلولاً يكاد يُحَسُّ ويُرى، إنها صورةُ القبض على الكتاب بقوة، وجدّ، وصرامة.

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٨٨).
(٢) التفسير المحرر، (٦/ ٦٧٠).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٩٩).

الصورة التي يُحبُّ الله أن يُؤخذ بها كتابه وما فيه، في غير تعنّت، ولا تنطّع، ولا تزمّت، فالجدُّ والقوة والصرامة شيء، والتَّعنُّت والتنطُّع والتزمُّت شيء آخر، إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليُسر، ولكنها تنافي مراعاة الواقع، ولكنها تنافي أن يكون «الواقع» هو الحكم في شريعة الله، فهو الذي يجب أن يظلَّ محكوماً بشريعة الله[١].

ب ـ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وحافظوا على الصّلاة، وأقاموها بحدودها ظاهراً وباطناً[٢].

فالتمسُّك بالكتاب في جِدٍّ وقوة وصرامة وإقامة الصلاة ـ أي: شعائر العبادة ـ هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة، والتمسُّك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني: مدلولاً مُعيَّناً، إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس، فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه[٣].

ت ـ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: يشير إلى هذه الحقيقة، حقيقة أن الاستمساك الجادّ بالكتاب عملاً، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يُضيع الله أجره على المصلحين، وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني، ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس وترك العبادة التي تُصلح القلوب، فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص؛ كالذي كان يَصنَعُهُ أهل الكتاب حين تفتُر القلوب عن العبادة، فتفتُر عن تقوى الله.

إنه منهجٌ متكاملٌ يُقيم الحكم على أساس الكتاب، ويُقيم القلب على أساس العبادة، ومن ثَمَّ تتوافق القلوبُ مع الكتاب، فتصلح القلوب وتصلح الحياة، إنه

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٨).
(٢) تفسير السَّعدي، ص٣٧٩.
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٨٩).

منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر، إلا الذين كُتبت عليهم الشقوة، وحقّ عليهم العذاب. وفي ختام حلقات القصة في هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بني إسرائيل الميثاق[١].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]:

إنه ميثاق لا يُنسى، فقد أُخذ في ظرف لا يُنسى، أُخذ وقد نُتق الجبل فوقهم كأنه ظلَّة، وظنوا أنه واقع بهم، ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق، فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس، ولقد أُمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يتمسَّكوا به في شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا، ولا يتهاونوا، ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق، وأن يظلّوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع، وتتقي، وتظلّ موصولة بالله لا تنساه[٢].

أ ـ ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾؛ أي: واذكر ـ يا محمد ـ حين اقتلعنا جبل الطور، فرفعناه فوق بني إسرائيل كأنه سحابة تُظِلُّهم[٣].

ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

ـ وقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

ب ـ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾؛ أي: وغلب على ظنّهم أن الجبلَ ساقط عليهم[٤].

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٨٩).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ١٣٨٩).
(٣) تفسير الطبري، (١٠/ ٥٤٢).
(٤) تفسير الشوكاني، (٢/ ٢٩٨).

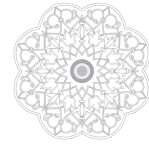
ت ـ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: وقلنا لهم: خُذوا ما أعطيناكم في التوراة فاقبلوه، واعملوا به بجدّ واجتهاد، من غير تقصير ولا تفريط[١].

ـ كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ث ـ ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: وقلنا لهم: واذكروا ما في التَّوراة من العقائد، والأوامر، والنواهي، وتدارسوها كي تتقوا ربكم بالعمل بها[٢].

* * *

(١) التفسير المحرر، (٦/ ٦٨٠).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٦٨٠).



المبحث الثاني

قصة موسى عليه السلام مع قومه في سورة إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ

وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ٥ ـ ١٨].

بعد أن بيّن الله تعالى أنه أرسل محمداً ﷺ إلى الناس؛ ليخرجَهم من الظلمات إلى النُّور، وأن إرساله نعمة له ولقومه، أتبع ذلك بذِكْر قصة موسى عليه السلام، ثم بقصص أنبياء آخرين مع أقوامهم، تنبيهاً على أن المقصودَ من بعثة الرسل واحد؛ وهو إخراجُ الناس من الظلمات إلى النور، وتصبيراً للرسول على أذى قومه، وإرشاداً له إلى كيفية معاملتهم ومكالمتهم(١).

وقد سُمِّيت سورةُ إبراهيم لاشتمالها على جُزءٍ من قصة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، يتعلَّق بحياته في مكّة وصلته بالعرب وإسماعيل، وأن إبراهيم دعا به أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام، وأن يرزق زوجته وابنه إسماعيل اللذين أسكنهما في مكة من الثمرات، وأن يجعله هو وذريته مقيمي الصلاة(٢).

وقد اشتملت سورةُ إبراهيم على ما يأتي:

ـ إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله، والرسل، وبالبعث، والجزاء، وإقرار التوحيد، والتعريف بالإله الحق خالق السموات والأرض، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو إخراجُ الناس من الظلمات إلى النور، واتحاد مهمة الرسل ودعوتهم في أصول الاعتقاد، والفضائل، وعبادة الله، والإنقاذ من الضَّلال.

ـ تسلية الرسول ﷺ ببيان ما حدث للرسل السابقين مع أقوامهم: قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم، والتذكير بعقابهم كما في الآيات.

---

(١) التفسير المنير، (٧/ ٢٢٦).
(٢) المصدر نفسه، (٧/ ٢١٣).

ـ ابتدأ من بين قصص بعض الأنبياء المتقدّمين عليهم السلام بمحاورة موسى لقومه، ودعوته إياهم لعبادة الله تعالى.

ـ دعوات إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام لأهل مكة بالأمان والرزق، وتعلّق القلوب بالبيت الحرام، وتجنيبه وذريته عبادة الأصنام، وشكره ربّه على ما وَهَبه من الأولاد بعد الكبر، وتوفيقه وذرّيته لإقامة الصلاة، وطلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين.

ـ بيان مشهد من مشاهد الحوار بين أهل النار في عالم الآخرة.

ـ ضرب الأمثال لكلمة الحق والإيمان، وكلمة الباطل والضَّلال، بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة.

ـ بيان الحكمة من تأخير العذاب ليوم القيامة[1].

تفسير الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]:

لما بيَّن الله عزّ وجل أن المقصودَ من بعثة نبينا محمد ﷺ هو إخراجُ الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرضَ من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك، وخصَّ موسى بالذكر؛ لأنَّ أمته إحدى الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية[2].

أ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ أي: يُخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صِدْق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به جميعُ الرسل أقوامَهم.

---

(١) التفسير المنير، (٧/ ٢١٥).

(٢) فتح القدير، (٣/ ١٣٤).

ب ـ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: أمرْنا موسى قائلين له: ادْعُ قومك بني إسرائيل إلى طريق الحق، ليخرجوا من ظلمات الكفر والجهل والمعاصي؛ إلى نور الإيمان والعلم والطاعة[١].

ت ـ ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾؛ أي: وذكِّر ـ يا موسى ـ قومك بني إسرائيل بأيام الله وإحسانه، وبأيام نقمته وبطشه وانتقامه[٢]، وذلك ليشكروا الله، ويحذروا عذابه[٣].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنه بينما موسى عليه السلام في قومه يذكِّرهم بأيام الله ـ وأيامُ الله: نعماؤه وبلاؤه» [٤].

وكل الأيام أيام الله، ولكنَّ المقصودَ هنا أن يُذكِّرهم بالأيام التي يبدو فيها لهم أو لجماعة منهم أمرٌ بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة، كما سيجيء في حكاية تذكير موسى لقومه، وقد ذكّرهم بأيام الله لهم، وأيام أقوامِ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم فهذه هي الأيام.

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهنا في القول الكريم إما أن يكون التذكيرُ بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثت للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود، ذلك أن الحقَّ سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم، وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المرسَل إليه من الله، أو أن يكونَ التذكيرُ بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه، أو ابتلاهم فيها بما يؤلمهم[٥].

ث ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: إن في التذكير بنعم الله وأيّامه لدلالات وعبراً ومواعظ لكل من كان عظيم الصبر على الطاعة

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.
(٢) التفسير المحرر، (١٢/ ٢٤٤).
(٣) تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.
(٤) رواه مسلم، رقم ٢٣٨٠.
(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٨٨)، وانظر: تفسير الشعراوي، (١٢/ ٧٤٤٢).

وعن المعصية وعلى البلاء والضَّراء، عظيم الشكر لله على السَّراء والنعماء[١].

ـ قال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين العبرة لكل صبَّار؛ أي: في الضَّراء، شكور؛ أي: في السَّراء، كما قال قتادة: نِعْمَ العبدُ عبد إذا ابتُلي صبر، وإذا أُعطِي شكر[٢].

ـ وقال أبو حيان: والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى التذكير بأيام الله، وصبَّار شكور صفتا مبالغة، وهما مشعرتان بأن أيام الله المراد بهما بلاؤه ونعماؤه؛ أي: صبَّار على بلائه، شكور لنعمائه[٣].

ـ وقال السَّعدي: أي: صبّار في الضَّراء والعسر والضيق، شكور على السَّراء والنعمة، فإنه يُستَدلُّ بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه وتمام عدله وحكمته[٤].

ـ والصَّبّار: الكثير الصبر على طاعة الله تعالى وعن معاصيه، وعند التعرّض للبلاء والمحن.

ـ والشكور: الكثير الشكر لله تعالى على نعمه وإحسانه. والآيةُ تُشير إلى أن حياة الإنسان لا تستمر على وتيرة واحدة، فقد يُبتلى بالخير تارة، وبالشر تارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعلى الإنسان أن يُواجِهَ ظروفَ الحياة وتقلّباتها بالصبر والشكر، ولا يتم له هذا إلا إذا كان مؤمناً بالله تعالى، فالإيمان أمر ضروري للإنسان، به تصبح حياته خيراً مهما تغيّرت وتبدّلت، كما في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «عَجَباً لأمر المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ

---

(١) التفسير المحرر، (١٢/ ٢٤٥).
(٢) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٧٨).
(٣) البحر المحيط، (٥/ ٣٩٥).
(٤) تفسير السَّعدي، ص ٥٤٠.

شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر، فكان خيراً له»[١].

ولا يعرف الإنسانُ قيمةَ النعمة ويتذوق طعمها الحقيقي إلا إذا عرف طعم الحرمان، وتذكَّر أيام الظلم والطغيان؛ ولهذا ذكّر موسى عليه السلام قومه بالظلم الذي كانوا فيه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦]:

إنه لمّا تقدم أمر الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام بالتذكير بأيام الله، امتثل أمرَ ربه، فذكّرهم بما أنعم الله تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضِمنِها تعداد شيء مما نزل عليهم من نقمات الله[٢].

أ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: واذكر ـ يا محمد ـ قول موسى لقومه بني إسرائيل: اذكُروا بقلوبكم وألسنتكم إنعام الله عليكم، حين أنجاكُم من فرعون وقومه[٣].

ب ـ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يُذيقكم آل فرعون سُوءاً شديداً[٤].

ت ـ ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: ويذبحون أبناءكم الذكور المولودين[٥].

ث ـ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾؛ أي: ويتركون إناثكم دون قتل من أجل جَعلهنَّ أرقاء[٦].

---

(١) مسلم، رقم ٢٩٩٩.
(٢) تفسير أبي حيان، (٦/ ٤١٠)، تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.
(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٧٩).
(٤) التفسير المحرر، (١٢/ ٢٤٦).
(٥) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٧٩).
(٦) تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.

ج ـ ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: وفي عذاب آل فرعون لكم اختبار من الله لكم عظيم، وفي إنجائنا لكم منه نعمة من الله عظيمة[١]، فكان العذابُ بالبلاء أولاً، لامتحان الصبر، والتماسك، والمقاومة، والعزم على الخلاص، والعمل له، فليس الصَّبرُ هو احتمال الذل والعذاب وكفى، ولكنَّ الصبرَ هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان، وإلا فما هو صبر مشكُور ذلك الاستسلام للذل والهوان، وبلاء بالنجاة الثانية لامتحان الشُّكر والاعتراف بنعمة الله والاستقامة على الهدى في مقابل النَّجاة، ويمضي موسى في البيان لقومه بعدما ذكّرهم بأيامه، ووجَّههم إلى الغاية من العذاب والنجاة، وهي الصَّبر للعذاب والشكر للنَّجاة، ويمضي ليُبيِّن لهم ما رتَّبه الله جزاءً على الشكر والكفران[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]:

إنَّه لما ذكّرهم بنعمة الأمن رغّبهم فيما يزيدها، ورهّبهم مما يزيلها، فقال:

أ ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؛ أي: واذكروا حين أعلمكم ربكم: لئن شكرتم الله على نعمه بطاعته في أمره ونهيه ليزيدنَّكم من النّعم[٣].

ب ـ ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: ولئن كفرتم نعمةَ الله عليكم، فلم تشكروه عليها بطاعته في أمره ونهيه، فإنَّ عقابه لمن كفر به شديد، فيُصيبكم منه ما يسلب تلك النِّعم، ويُحِلُّ بكم النّقم[٤]، وهذه حقيقةٌ كبرى، وهي زيادةُ النعمة بالشكر والعذاب الشديد على الكفر، ونقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن

(١) نظم الدرر، البقاعي، (١٠/ ٣٨٤).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٨٨).
(٣) تفسير القرطبي، (٩/ ٣٤٣).
(٤) التفسير المحرر، (٦/ ٢٤٨).

إليها قلوبنا أول وَهْلة؛ لأنها وعدٌ من الله صادق، فلا بدَّ أن يتحقَّق على أية حال، فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة، ونبحث عن أسبابها المدركة لنا، فإننا لا نبتعدُ كثيراً في تلمُّس أدلَّتها.

إن شكرَ النعمة دليلٌ على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة، والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة، بلا بطرٍ وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنِّعمة في الأذى، والشر، والدنس، والفساد.

وهذه وتلك مما يُزكِّي النفس، ويدفعها للعمل الصَّالح والتصرف الصَّالح في النعمة، مما ينمِّيها، ويبارك فيها، ويُرضي الناسَ عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً، ويصلح روابط المجتمع، فتنمو فيه الثَّروات في أمان. والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها، أو إنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى الخير والكدِّ الشخصي والسعي، كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله، وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس، واستغلالها للشهوات والفساد، وكلُّه كفر بنعمة الله.

والعذابُ الشديدُ قد يتضمَّن محق النعمة عيناً، بذهابها أو سحق آثارها في الشعور، فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة، يشقى بها صاحبها ويحسد الخالِين، وقد يكون عذاباً مؤجَّلاً على أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله، ولكنه واقع؛ لأن الكفرَ بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء، ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته، وهذا الكفر لا يرجعُ على الله أثره، فالله غنيٌّ بذاته، محمودٌ بذاته، لا بحمد الناس له وشكرهم على عطاياه[1].

وقال ابن القيم: الذِّكْر رأس الشكر، فما شكر الله تعالى من لم يذكره، فإذا نعّمه الله تعالى بنعمه هاج من قلبه هائج الشكر، فالذِّكر رأس الشكر، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «والله يا معاذ إني لأحبُّك، فلا تنسَ أن تقول دُبر كل صلاة: اللهم

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٨٩).

أعنّي على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك»[(١)]، فجمع بين الشكر والذكر كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فالذكر والشكر جماعُ السعادة والفلاح[(٢)].

٤ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]:

أي: وقال موسى لقومه: إن تكفروا بنِعَم الله أنتم وجميع مَنْ في الأرض، فإن الله غنيٌّ عن جميع خلقه وعن شكرهم له، محمود قد استوجب الحمد لذاته لكثرة إنعامه وإن لم تشكروه[(٣)]، وهو حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله[(٤)].

ـ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ـ وقال سبحانه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وقال السَّعدي: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: فالطاعاتُ لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغِنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل[(٥)].

ثم ذكَّرهم موسى عليه السلام بأيام الأمم قبلهم، وبالعذاب الذي أنزله الله تعالى بهم بسبب كفرهم وإعراضهم عن دعوة الرسل عليهم السلام[(٦)]، فقال:

---

(١) سنن أبي داود، رقم ١٥٢٢، صححه ابن حبان، رقم ٢٠٢٠.
(٢) الوابل الصيب، ص١٤٥ ـ ١٤٨.
(٣) التفسير المحرر، (١٢/ ٢٤٩).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٥٤٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(٦) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٠٧).

٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]:

ويستمرُّ موسى عليه السلام في بيانه وتذكيره لقومه، ولكنه يتوارى عن المشهد في تلك المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المُكذِّبة بالرسل والرسالات، وذلك من بدائع الأداء في القرآن لإحياء المشاهد، ونقلها حكاية تروي المشهد بنظرٍ وسمعٍ، وتتحرَّك فيه الشخوص، وتتجلَّى فيه السِّمات والانفعالات، والآن إلى الساحة الكبرى التي يتلاشى فيها الزمان والمكان، وهذا التذكير من قول موسى، ولكنَّ السِّياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمرَّ في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها، قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية وعاقبة المُكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان، وكأن موسى «راوية» يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى، ثم يدع أبطالها بعد ذلك يتحدَّثون ويتصرَّفون، وهي طريقةٌ من طرق العرض للقصة في القرآن، تُحوَّل القصة المحكية إلى رواية حية كما أسلفنا، وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان يواجهون البشرية متجمعةً في جاهليتها، حيث تتوارى الفواصلُ بين أجيالها وأقوامها، وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان، كما هي في حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان[(١)].

أ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: ألم يأتكم خبر الأمم الذين مضوا من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود، وأمم كثيرة من بعد قوم نوح وعاد وثمود، لا يعلم عددهم وأخبارهم إلا الله وحده[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ٢٠٩٠).

(٢) تفسير ابن عاشور، (١٣/ ١٩٦)، التفسير المحرر، (١٢/ ٢٦٧).

والسِّياقُ هنا لا يُعنى بتفصيل أمرهم، فهناك وحدةٌ في دعوة الرسل، ووحدة فيما قُوبلت به(١).

ب ـ ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: جاء كلَّ أمة من الأمم السابقة رسولُهم الذي أرسله الله إليهم، بالحجج الواضحة الدّامغة، والمعجزات الظاهرة الدالة على صدق الرسل، وصحة دعوتهم الناس إلى توحيد الله وطاعته(٢)، وبينات الرسل واضحة لا يلتبس أمرُها على الإدراك السليم(٣).

ت ـ ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ أي: فردّ المُكذِّبون من الأمم السابقة أيديهم إلى أفواههم؛ ليعضّوها غيظاً ممّا جاءت به الرسل من توحيد الله الذي فيه تسفيه أحلامهم، وإبطال آلهتهم(٤).

ـ ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: كما يفعل من يريد تمويجَ الصوت ليسمع عن بعد بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفعُ صوته ذهاباً وإياباً، فيتموَّج الصوت ويسمع، يرسم السِّياقُ هذه الحركة التي تدلُّ على جهرهم بالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر(٥).

ث ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾؛ أي: وقالت الأمم المعاندة لرسلهم إننا نُنكر صحةَ رسالتكم، وصدق دعوتكم في توحيد الله، وترك الإشراك به(٦).

ج ـ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾؛ أي: وإنّا في شكٍّ مُوقع بالرِّيبة مما تدعوننا إليه، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده(٧).

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ٢٠٩٠).
(٢) التفسير المحرر، (١٢/ ٢٦٨).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩٠).
(٤) معاني القرآن، للنحاس، (٣/ ٥١٩)، وانظر: التفسير المحرر، (١٢/ ٢٦٨).
(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩٠).
(٦) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٠٨).
(٧) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٠٨).

ودلّت الآيةُ على أن موقف الأمم المُكذبة من دعوة الرسل متشابهة، مع أنها كانت أمماً كثيرة، وعاشت في بلاد متباعدة، وأزمان مختلفة، فالبنية النفسية والعقلية للإنسان بقيت كما هي، لم تتغيَّر ولم تتبدَّل على الرغم من تبدل أنماط المعيشة وتطورها. ودلّت الآية أيضاً على أن دعوة الرسل واحدة، وأنهم اتبعوا أسلوباً واحداً في مواجهة أقوامهم، وهذا يدلُّ على أن مصدر رسالتهم واحد، وهو وحي الله تعالى، فدعوةُ الرسل من الله تعالى وإلى الله جلّ جلاله، وردُّ الرسل على تكذيب وعناد أقوامهم بقوة برهانهم مع رباطة جأش، وثبات قلب[١].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ١٠]:

لقد استنكر الرسلُ هذا الشك في الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة، وتدلُّ عليها آياتُ الله المبثوثة في ظاهر الكون، المتجلِّية في صفحاته[٢].

أ ـ ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: أفي الله شكٌّ والسموات والأرض آيتان هائلتان بارزتان، فمجرد الإشارة إليهما يكفي، ويردُّ الشارد إلى الرشد سريعاً، ولم يزيدوا على الإشارة شيئاً لأنها وحدها تكفي[٣].

أفي وجود الله ووحدانيته وإفراده بالعبادة تشكّون؟ وهو مبدع السموات والأرض، فكلُّ شيء فيهما يدلُّ على وجوده ووحدانيته جلّ وعلا[٤]؟ ثم أخذ الرسل يعدِّدون نِعَم الله على البشر في دعوتهم إلى الإيمان، وفي إمهالهم إلى أجل يتدبَّرون فيه مصيرَهم، ويتَّقون العذاب.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٠٨).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩٠).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ٢٠٩٠).
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٠٨).

ب ـ ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: فهو ـ سبحانه ـ يدعوكم على ألسنة رسله، يدعوكم ليرحمكم، ويغفر لكم ذنوبكم التي سلفت منكم قبل الاستجابة لدعوته، والإيمان به، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ـ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: ويجعلكم تتمتَّعون بأعماركم حين تحين آجالكم، وتظهر لنا من كلمات الرسل شدة شفقتهم على أممهم وعلى أقوامهم، وحرصهم على إيمانهم وصلاحهم واحتمالهم لغلظتهم وإعراضهم، ومع ذلك ظلَّ المعرضون المعاندون مُتمسِّكين بإعراضهم وعنادهم(١).

ت ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضلَ لكم علينا، فلماذا تكون لكم النبوة دوننا، إنه الحسدُ الذي جعلهم يُعرِضون ويُعاندون، ومعه التقليدُ الأعمى للآباء والأجداد نتيجة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبدُ آباؤهم، وما قيمته؟ وما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتَّفكُّر؟ وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يُفكِّرون في الدعوة الجديدة(٢).

ث ـ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: تريدون بهذه الدعوة أن تمنعونا عمّا كان عليه آباؤنا؛ فالحسد، والتقليد الأعمى، والجمود العقلي، والتكلّس الفكري من أعظم المعوقات عن دعوة الأنبياء، وعن كل خير وصلاح(٣).

ج ـ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: فائتونا بحجَّة واضحة تدلُّ على صحة دعوتكم. وهو سؤالُ تعنّت وعناد، لأنه تعالى أيد المرسلين بالبينات والحجج القاطعات الدالة على صدقهم، وصحة رسالتهم، وبقي الرسل على هدوئهم،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٠٩).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ٣٠٩)، في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩١).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ٣٠٩).

ورباطة جأشهم على الرغم مما في كلام معارضيهم من أسباب الإثارة والانفعال والغضب، فالدَّاعي إلى الله تعالى عليه أن يتحلَّى بقوة الإرادة، ورباطة القلب[١].

٧ ـ قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١ ـ ١٢]:

أ ـ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: يبيِّن السِّياق أن الرسل لا ينكرون بشريتهم بل يقرِّرونها، ولكنهم يوجِّهون الأنظار إلى منَّة الله في اختيار رسل من البشر، وفي منحهم ما يؤهِّلهم لحمل الأمانة الكبرى، ويذكر السِّياق لفظ ﴿يَمُنُّ﴾ تنسيقاً للحوار مع جو السورة، جو الحديث عن نِعَم الله، ومنها هذه المنّة على من يشاء من عباده، وهي مِنَّةٌ ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم، ولكن كذلك على البشرية التي شرَّفها الله بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى، مهمة الاتصال والتلقّي من الملأ الأعلى، وهي مِنَّةٌ على البشرية بتذكير الفطرة التي ران عليها الركامُ لتخرج من الظلمات إلى النور، ولتتحرك فيها أجهزةُ الاستقبال والتلقّي، فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة.

ثم هي المنَّة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك، واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذلِّ والتبدُّد في الدينونة للعبيد، الذلِّ الذي يحني هامةَ إنسان لعبد مثله، والتبدُّد الذي يسخِّر طاقةَ إنسان لتأليه عبد مثله[٢].

ب ـ ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وما صحّ

(١) المصدر نفسه، (٤/ ٣٠٩).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩١).

وما استقام أن نأتيكم بشي مما تقترحون إلا بمشيئة الله، فنحن خَلقٌ من خلقه جلّ وعلا في قبضته، وتحت قهر مشيئته[١].

ت ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: وما نعتمد على قوة غير قوته، وهذه حقيقةٌ دائمةٌ يطلقها الرسل، فعلى الله وحده يتوكل المؤمنُ، لا يلتفت قلبه إلى سواه، ولا يرجو عوناً إلا منه، ولا يرتكن إلا إلى حِماه، ثم يواجهون الطغيانَ بالإيمان، ويواجهون الأذى بالثبات[٢].

وهكذا واجه الأنبياءُ عليهم السلام عنادَ أقوامهم واستكبارهم، بإظهار المزيد من انقيادهم، وطاعتهم لله تعالى، وافتقارهم إليه، واعتمادهم عليه وحده، ثم أضافوا إلى ذلك متسائلين[٣]:

ث ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾: إنها كلمةُ المطمئنِّ إلى موقفه، وطريقه المالئ يديه من وليه وناصره، المؤمن بأن الله الذي يهدي السُّبل لا بدَّ من أن ينصر ويعين، وماذا يهمُّ لو لم يتم في الحياة الدنيا نصرٌ، إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل؟

والقلب الذي يحسُّ أن الله ـ سبحانه ـ يقود خطاه، ويهديه السبيل هو قلب موصول بالله، لا يخطئ الشعور بوجوده سبحانه وألوهيته القاهرة المسيطرة، وهو شعورٌ لا يتركُ له مجالاً للتَّرَدُّد في المضي في الطريق، أياً كانت العقباتُ في الطريق، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربَّص في هذا الطريق، ومن ثم هذا الربطُ في رد الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بين شعورهم بهداية الله لهم

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣١٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩١).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣١٠).

وبين توكُّلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت، ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد.

وهذه الحقيقة ـ حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكُّل عليه ـ لا تستشعرها إلا القلوبُ التي تُزاول الحركةَ فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية، والتي تستشعرُ في أعماقها يدَ الله سبحانه وهي تفتح لها كُوى النور، فتُبصر الآفاق المشرقة، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحسُّ الأنس والقُربى، وحينئذ لا تحفلُ بما يتوعَّدها به طواغيتُ الأرض، ولا تمتلك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد، وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل، وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد[1]؟

ج ـ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: فكما توكَّلنا عليه تعالى في الدَّعوة والهدايةِ، نتوكَّل عليه أيضاً في الصَّبر على أذاكم وكيدكم.

ـ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾: لا نتزحزح، ولا نضعف، ولا نتراجع، ولا نهن، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرِّط ولا نحيد[2].

ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: فكما توكَّلنا عليه تعالى في الدعوة والهداية، نتوكَّل عليه أيضاً في الصَّبر على أذاكم وكيدكم، فتوكُّلنا عليه سبحانه دائم في جميع الأحوال والظروف. وحدث ما توقَّعه الرسل عليهم السلام[3].

٨ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]:

أ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾؛ أي: ليكونَنَّ أحد الأمرين: إما إخراج الرسل من ديارهم وأوطانهم، وإما أن يعود الرسل إلى ملَّتهم وكفرهم، أي: يصير الرسل إلى ملَّة أقوامهم؛ لأنهم ما كانوا

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣١١).

قبل الرسالة كافرين، وإنما كانوا على أصل التوحيد الذي فطر الله الناس عليه، وقد حفظهم سبحانه من لون الشرك والكفر، حتى أكرمهم بعصمة النبوة والرسالة.

ب ـ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: هذا مبني على ظنّهم أن الرسل كانوا على ملّتهم، ثم خالفوهم؛ لأنَّ الرسلَ ما كانوا قبل الرسالة يُظهِرون مخالفتهم[١].

ت ـ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾: وبهذا الوحي ثبّت الله تعالى الرسل وبشّرهم بإهلاك أعدائهم، فلا يتخلّى سبحانه عن رسله وأصفيائه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١][٢].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]:

أ ـ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾: لا محاباةَ ولا جزافاً، إنما هي السُّنة الجارية العادلة، أي: لَنُسكِننَّكم أرض الظالمين بعد إهلاكهم سُكنى الآمنين المتمكِّنين، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥][٣].

ب ـ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: ذلك الإهلاك للظالمين، والتمكين للمؤمنين، حقٌّ ثابت لمن خشي الله تعالى، واتّقاه، وخاف عذابه الذي توعّد به الكفَّار والفُجَّار، أو: لمن خاف الله تعالى وتذكّر أنه قائم عليه، يعلم كل أحواله، ومحيط بكل أعماله، كما في قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣][٤]، إن الإسكانَ والاستخلافَ لمن خاف مقامي، فلم

(١) المصدر نفسه، (٤/ ٣١١).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ٣١٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣١٢).
(٤) المصدر نفسه، (٤/ ٣١٢).

يتطاول ولم يتعالَ ولم يستكبر ولم يتجبَّر، وخاف وعيدي، فحسب حسابه، واتقى أسبابه، فلم يفسد في الأرض، ولم يظلم في الناس، فهو من ثمَّ يستحقُّ الاستخلاف، وينالَه باستحقاق(١).

١٠ ـ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾:

ـ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾؛ أي: سألوا الله تعالى الفتح والنصر، وهو إما من الرسل بعد أن يئسوا من إيمان المعاندين من قومهم، فاستنصروا الله تعالى عليهم كما في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يكون الاستفتاحُ من المشركين المعاندين، كما فعل مشركو قريش في بدر قبل بدء القتال، ففي بعض الروايات أنّ أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أَقْطَعُنا للرَّحم، وآتانا بما لا يعرَف، فأحِنْه الغداة، فكان المستفتِحَ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۘ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وقد يكون المراد كلا الفريقين، فكلّ منهما قد استنصر، وطلب.

ـ ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: وخسر كلّ جبار متكبر معاند للحق، ولم يفلح باستفتاحه، ففَتْحُه سبحانه أفلح به الرسل والمؤمنون(٢).

١١ ـ قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾:

ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: بين يديه جهنَّم، وهو وصفٌ لحاله في الدنيا، فإنه مُرصَد لها، واقف على شفيرها، لا يفصله عنها إلا الموت.

ـ ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: ويسْقى في جهنَّم من ماء يسيل من جلود المعذبين فيها(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٩٣).
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣١٣).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ٣١٣).

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]:

أ ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: يشربه بصعوبة ومشقة جرعة بعد جرعة، لا باختياره، وإنما يجبر على تجرُّعه، ولا يقدر على ابتلاعه بسبب شدة حرارته وقبح طعمه ورائحته، فكيف يكون حاله لو ابتلعه.

ب ـ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ أي: تأتيه أسبابُ الموت، وتُحيط به من كل مكان، فيعاني من آلامها، ولكنه لا يموت فيستريح؛ لأنَّه تعالى هو المميت، والأسبابُ لا تأثيرَ لها، وقد قدّر سبحانه لأصحاب النار الخلود فيها، يعذبون فيها أبداً بأسباب الموت ولا يموتون، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

ت ـ ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: ويسْتَقْبِلُ دائماً عذاباً غليظاً مُتجدِّداً، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، وقد يقول قائل: ألا ينتفعون يوم القيامة بأعمالهم الصَّالحة التي فعلوها في الدنيا، كقِرى الضيف، وإغاثة الملهوف، وعمارة بيت الله الحرام[(١)].

والجواب جاء في قوله تعالى:

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]:

أ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾؛ أي: أعمالهم ضائعة ذاهبة، كرماد حملته الريح، ففرَّقته ونسفته في يوم عاصف، فلم تُبق منه شيئاً، وكذلك أعمالُ الكفَّار لا تنفعهم يوم القيامة، بسبب كفرهم وجحودهم فلا يقبل الله العمل إلا إذا كان خالصاً له، وابتغى به

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣١٤).

رضوانه، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ب ـ ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: لا يقدرون يوم القيامة أن يحصِّلوا شيئاً من ثواب أعمالهم؛ لأنها ضاعت وبطلت بسبب كفرهم، وهذا يزيدهم حسرة وغمّاً وكمداً، حيث تَعِبُوا وشَقُوا في الدنيا، فما جَنَوا إلا العذاب، ولا حصدوا إلا الشقاء، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

ت ـ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ أي: ذلك هو الخسران الكبير الذي لا يرجى تعويضُه، فخسارتُه كبيرةٌ عميقة لا تلافي لها[1].

في سورة إبراهيم عليه السلام جاء على لسان موسى عليه السلام تاريخ الرسالات السماوية، وأصول دعوتهم، ومقاومة الأقوام لهم، وما حدث من حوار ونقاش وتقرير للعقائد المُتعلِّقة بالتوحيد، ووجود الله، وإفراده بالعبادة، ومآل الشرك والكفر والضَّلال، وفق سنن الله في الصراع بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضَّلال.

* * *

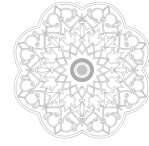
(١) التفسير الموضوعي، المصدر نفسه، (٤/ ٣١٣).

الفصل الخامس

قِصَّة موسى عليه السَّلام مع قومه في سور البَقَرة والنِّساء والمائدة

وردت قصةُ موسى كليم الله (عليه السلام) في أطول السور القرآنية، فبحثت سورة البقرة في قصة بني إسرائيل، وكيدهم للدعوة النبوية في المدينة المنورة ونكران الحق، وكذلك بحثت سورتا النساء والمائدة قصة بني إسرائيل مع موسى وعنادهم في مرحلة الدعوة النبوية، فكانوا أول من واجه الدعوة بالعداء والكيد والحرب في الجزيرة العربية كلها.

* * *



المبحث الأول

قِصَّة موسى عليه السَّلام مع بني إسرائيل في سورة البقرة

قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ

شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا
تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ
أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟
قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ
بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ
تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا
تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ
أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٧٤].

سورة البقرة أطولُ سورة في القرآن، وهي مدنية، وتُعنى كغيرها من السور المدنية بالتشريع المنظِّم لحياة المسلمين في المجتمع الجديد بالمدينة، مجتمع الدين والدولة معاً، فلا يتفاضلُ أحدُهما على الآخر، وإنما هما متلازمان تلازم الجسد والروح؛ لذا كان التشريعُ المدني قائماً على تأصيل العقيدة الإسلامية، ومبدؤها الإيمان بالله وبالغيب، وبأن مصدر القرآن هو الله عزّ وجل، والاعتقاد الجازم بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء السابقين، وبأن العملَ الصَّالح ترجمانُ ذلك الإيمان، ويتمثل بعقد صلة الإنسان مع ربّه بواسطة الصلاة، ويتحقَّق أصولُ التكافل الاجتماعي بواسطة الإنفاق في سبيل الله عزّ وجل[١].

وتحدَّثت السورةُ عن صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين، لعقد مقارنة بين أهل النجاة وبين أهل الدمار والهلاك، كما يقتضي التحدث عن قدرة الله عزَّ وجلَّ ببَدْءِ الخَليقة، وتكريم آدم أبي البشر بسجود الملائكة، وترتيب الـمَولى ما حدث مع آدم وزوجه في الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض[٢].

وفي هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة كان الحديث عن بني إسرائيل، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة مُنْكَرة، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة، وكادوا لها كيداً موصولاً، لم يفتُر لحظة منذ أن ظهر الإسلامُ بالمدينة، وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم عن القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، منذ وحَّد الأوس والخزرج، وسَدَّ الثغَرات التي كانت تنفذ منها يهودُ، وشرع لهم منهجاً مستقلاً يقومُ على أساس الكتاب الجديد.

هذه المعركة التي شنّها اليهود على الإسلام والمسلمين، منذ ذلك التاريخ البعيد، لم يخْبُ أُوارُها حتى اللحظة الحاضرة بالوسائل نفسِها، وبالأساليب نفسِها، لا يتغير إلاَّ شكلُها، أمَّا حقيقتها فباقيةٌ، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردُهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن،

(١) التفسير المنير، (١/ ٧٢).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٧٣).

فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا العالم الإسلامي المفتوح الذي ينكِر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام، ولا يكيد للمسلمين.

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهودُ في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة، ويؤمن بالرسول الجديد، مذ كان القرآنُ يصدِّق ما جاء في التوراة في عمومه، ومذ كانوا هم يتوقَّعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافُه في البشارات التي يتضمَّنها كتابهم. وهذا الدرسُ هو الشطر الأول في هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل، بل هذه الحملةُ الشاملةُ لكشف موقفهم وفضح كيدهم بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد[1].

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يذكّرهم بنعمته تعالى عليهم، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته، يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدّقاً لما معهم، ويندِّد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر، كما يندِّد بتلبيسهم الحق بالبطل وكتمان الحق؛ ليمَوِّهوا على الناس ـ وعلى المسلمين خاصة ـ ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد، ويأمرهم أن يدخلوا في الصفِّ، فيقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصَّبر والصلاة، وينكر عليهم أنهم يدْعُون المشركين إلى الإيمان، وهم في الوقت نفسه يأبَون أن يدخلوا في دين الله مسلمين.

ثم يبدأ في تذكيرهم بنِعَم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل، مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقَّوا هذه النِّعَمَ على عهد موسى عليه السلام وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متَّحدة الجبلَّة، كما هم في حقيقة الأمر، وفق ما بدا من صفاتهم وموقفهم في جميع العصور. ويعاود

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٦٤).

تخويفهم باليوم الذي يخاف، حيث لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها فدية، ولا يجدون من ينصرهم، ويعصمهم من العذاب[١].

ويستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم من فرعون وملئه، كأنه حاضر، ومشهد النِّعَم الأخرى التي ظلت تتوالى عليهم من تظليل الغمام، إلى المنِّ والسلوى، إلى تفجير الصخر بالماء، ثم يذكرهم بما كان منهم بعد ذلك من انحرافات متوالية، ما يكاد يردُّهم عن واحدة منها حتى يعودوا إلى أخرى، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة، وما يكادون ينجون من عثرة حتى يقعوا في حفرة.

ونفوسهم هي هي في التوائها، وعنادها، وإصرارها على الالتواء والعناد، كما هي هي في ضعفها عن حمل التكاليف، ونكُولها عن الأمانة ونكثها للعهد، ونقضها للعهد والمواثيق مع ربها ومع نبيها، حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق، وتكفر بآيات ربها وتعبد سواه، وتجحَدُ في حق الله، فترفض الإيمان لنبيها حتى ترى الله جهرة، وتخالف عما أوصاها الله به وهي تدخل القرية، فتفعل وتقول غير ما أُمرت به، وتعتدي في السَّبْتِ، وتنسى ميثاق الطور، بل وتجادل في ذبح البقرة التي أمر الله بذبحها لحكمة خاصة، وهذا كله يبطِلُ الادّعاء العريض بأنها وحدها المهتدية، وأن الله لا يرضى إلا عنها، وأن جميعَ الأديان باطلة وجميع الأمم ضالة عداها، مما يبطله القرآن في هذه الجولة، ويقرِّر أن كلَّ من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من جميع الملل، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٢].

ونلاحظ من جانب التناسق الفني والنفسي في الأداء القرآني: أن بدء هذه الجولة يلتحم بختام قصة آدم، وبالإيحاءات التي أشرنا إليها في كتاب بداية الخلق وقصة آدم عليه السلام ـ وهذا جانبُ التكامل في السِّياق القرآني بين القصص والوسط الذي تُعرَض فيه، لقد مضى السِّياقُ قبل ذلك بتقرير أن الله خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان، ثم بقصة استخلاف آدم في الأرض بعهد الله

(١) المصدر نفسه، (١/ ٦٤).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٦٥).

الصريح الدقيق، وتكريمه على الملائكة والوصية والنسيان، والندم والتوبة، والهداية والمغفرة، وتزويده بالتجربة الأولى في الصراع الطويل في الأرض بين قوى الشرّ والفساد والهدم ممثلة في إبليس، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة في الإنسان المعتصم بالإيمان.

مضى السِّياقُ بهذا كله في السورة ثم أعقبه بهذه الجولة مع بني إسرائيل، فذكر عهد الله معهم، ونكثهم له، ونعمته عليهم، وجحودهم بها، ورتب على هذا حرمانهم من الخلافة، وكتب عليهم الذلَّة، وحذر المؤمنين كيدَهم كما حذرهم مزالقَهم، فكانت هناك صلةٌ ظاهرةٌ بين قصة استخلاف آدم، وقصة استخلاف بني إسرائيل، واتِّساق في السِّياق واضح وفي الأداء، والقرآن لا يعرض هنا قصة بني إسرائيل، إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب. وقد وردت القصة في السورة المكية التي نزلت قبل هذا، ولكنها هناك كانت تُذكر ـ مع غيرها ـ لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان المتواصل منذ أول الخليقة، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة، فأما هنا، فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم، وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود.

ومن مراجعة المواضع التي وردت فيها قصة بني إسرائيل هنا وهناك يتبين أنها متفقة مع السِّياق الذي عُرضت فيه، مُتمِّمة لأهدافه وتوجيهاته، وهي هنا متّسقة مع السِّياق قبلها، سياق تكريم الإنسان والعهد إليه والنسيان، متضمنة إشارات إلى وحدة الإنسانية ووحدة دين الله المنزل إليها، ووحدة رسالاته، مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها، وإلى عواقب الانحراف عن هذه المقومات التي نِيطت بها خلافةُ الإنسان في الأرض، فمن كفر بها كفر بإنسانيته، وفقد أسباب خلافته، وارتكس في عالم الحيوان.

وقصةُ بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة، تُوحي بحكمة الله في علاج هذه الأمة المسلمة،

وتربيتها للخلافة الكبرى، فلننظرْ بعد هذا الإجمال في استعراض النص القرآني[١].

أولاً: قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٠ـ٤٨]:

تفسير الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]:

ولما تقدّمت دعوة النَّاس جميعاً للعبادة في سورة البقرة، في الربع الأول منها بدأ بالتفصيل بدعوة بني إسرائيل بالإيمان بالنبي ﷺ، حيث إنهم يعرفونه، ومكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، ولما كانت الحكمةُ في الدعوة تقتضي التلطُّف مع المدعو، وحُسْن مناداته، وذكْر منزلته، ناداهم باسم مُحبَّب إليهم، وبيَّن نعمته عليهم، وأن لهم مكانة تاريخية، وشأناً فيما مضى من الزمان[٢].

أ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: يا أبناء يعقوب، هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وإسرائيل لقبه، ومعناه في لغة اليهود: صفوة الله، أو عبد الله، فإسرا: هو العبد، وإيل: هو الله[٣].

---

(١) المصدر نفسه، (١/ ٦٦).

(٢) تفسير الزهراوين (البقرة وآل عمران)، محمد صالح المنجد، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص٨٢.

(٣) تفسير النسفي، (١/ ١١٢).

خاطبهم الله بالخطاب الذي يحبونه ويعتزون به، وهو انتسابهم العرقي إلى إسرائيل[١]، ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه التي أنعم بها عليهم على وجه الإجمال فقال[٢]:

ب ـ ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: اشكروا نعمتي، وعبّر عن الشُّكر بالذكر؛ لأن مَن ذكَرَ النعمة فقد شكرها، ومن جحدها فقد كفر[٣]، وقوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ بألسنتكم ﴿نِعۡمَتِيَ﴾، وتدارسوها، ولا تغفلوا عنها، واذكروها بقلوبكم بالاستيقاظ والانتباه إلى المنعم؛ لتتنبّهوا له سبحانه فتشكروه، واذكروها بجوارحكم؛ أي: قوموا بشكرها عملياً.

ت ـ ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾: مثل تخليصهم من فرعون وقومه، وبعث الأنبياء والملوك منهم، وإنزال الكتب المعظَّمة عليهم، والتظليل بالغمام، والرزق بالمن والسلوى، وتفجير الحجر عيوناً لمشربهم ونحو ذلك، وقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إشارة إلى أن هذه النِّعَم فضلٌ محضٌ من الله[٤]، ويستدعي شكرُ النِّعَم الوفاءَ بعهده.

ث ـ ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾: الذي أخذته عليكم، بطاعتي، وامتثال أمري، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [المائدة: ١٢].

وقيل العهد: عهد الله لآدم: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ـ٣٩].

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٥).
(٣) التفسير الموضوعي، المصدر السابق.
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٥).

وقيل: هو العهدُ الكوني السابقُ على عهد الله هذا مع آدم، العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه، أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له، وهو العهد الذي لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتاج إلى برهان؛ لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها اللَّدُنية، ولا يصدّها عنه إلا الغواية والانحراف، أو هو العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم جد إسرائيل، والذي سيجيء في سياق السورة: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أو هو العهد الخاص الذي قطعه الله على بني إسرائيل، وقد رفع فوقهم الطور، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة[١]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣].

إنَّ هذه العهودَ جميعاً إنْ هي إلا عهد واحد في صميمها، إنه العهد بين البارئ وعباده أن يصْغوا قلوبهم إليه، وأن يسلموا أنفسهم كلها له، وهذا هو الدين الواحد، وهذا هو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعاً، وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار القرون[٢].

ج ـ ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: الذي عاهدتكم عليه، وهو التوفيق والنصر في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى[٣]، فإذا قبلتم هذا الميثاق، وأوفيتم به، واتبعتم محمداً ﷺ ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أُتمِمْ لكم جزاءكم بحسن الثواب، والقبول، وتكفير السيئات، وإدخالكم الجنة.

و«العهد»: هو الميثاق والوصية، والوفاء به: حفظه ومراعاته في كل الأحوال، وبالجملة فإن قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ أي: ادخلوا في الإسلام[٤].

وقوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ أي: بما وعدتكم من جنة النعيم في الآخرة، فالله

---

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٦٧).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٦٧).
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٦).
(٤) تفسير الزهراوين (البقرة وآل عمران)، المنجد، المرجع السابق، ص ٨٣.

سبحانه وتعالى بعد نزول الإسلام اختصَّ برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، وكل من لم يؤمن بهذا الدِّين لا عهدَ له عند الله.

واقرأ قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه، وطلب من الله سبحانه وتعالى الرحمة، قال تعالى: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، فالحق سبحانه وتعالى يذكِّر بني إسرائيل في هذه الآية الكريمة بالعهد الذي أخذه عليهم، وينذرهم أن رحمته هي للمؤمنين برسول الله ﷺ متى جاءت رسالته[١].

ح ـ ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: فاخشوني، وخافوني، ولا ترهبوا ولا تخافوا غيري[٢].

والرَّهبة: الخوف مع الحذر.

وتقديم لفظة ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ على لفظه ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ يفيد الحصر؛ أي: لا ترهبوا إلا إياي.

والرهبة: شدة الخوف، ورهبتُه تعالى عبادة عظيمة، أمر الله بها، وأمر بإخلاصها، وهذا انتقالٌ من الترغيب الى الترهيب، والجمع بينهما يؤثر في النفوس[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٢٩٣).
(٢) تفسير الزهراوين، ص٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٤.

وهكذا جمع الله تعالى في آية الخطاب الأول لبني إسرائيل بين الوعد والوعيد، وبين لهم وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وألا يخافوا أحداً غيره سبحانه، وأن يكونوا على حذر من غضبه وانتقامه، ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة القرآن الكريم(١).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]:

أ ـ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾: هو: القرآنُ الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزمُ من ذلك: الإيمان بما أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم، فقال:

ب ـ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب، غير مخالف لها، فلا مانعَ لكم من الإيمان به؛ لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى مَن آمن به وصدَّق به، لكونكم أهل الكتاب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾: إشارة الى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم؛ لأن ما جاء به محمد ﷺ هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أُنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أُنزل إليه فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به نهاهم وحذرهم عن ضده، وهو الكفر به.

ت ـ ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾، أي: بالرسول والقرآن، وقوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ أبلغ من قوله ولا تكفروا به؛ لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم، ثم ذكر المانع لهم عن الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية.

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٦).

ث ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله، واستحبُّوها، وآثروها[١].

ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا بآيات الله تعالى عِوضاً يسيراً وهو الدنيا وما فيها من شهوات، وهو ـ مهما كان ـ عوض يسير وقليل بالنسبة لما عند الله تعالى في دار النعيم.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض كبير بهم، وبيان سبب كفرهم برسالة القرآن الكريم الذي لا ريبَ فيه، ولعلّ الآية بدأتْ بالتعريض قبل التصريح كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، لكسب المدعوين، وعدم تنفيرهم[٢].

قال القرطبي: وهذه الآية، وإن كانت خاصةً في بني إسرائيل، فهي تتناولُ مَن فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه أو أداء ما علمه ـ وقد تعين عليه ـ حتى يأخذ عليه أجراً، فقد دخل في مقتضى الآية، والله أعلم[٣].

إن من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومن قصد بتعلّمه العلوم الشرعية أو تعليمها المالَ ومتاع الحياة الدنيا، فإنه داخلٌ في الوعيد الذي أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلَّمه إلا ليصيبَ به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة» يعني: ريحَها[٤].

فمن جعل تعلُّمه للدين لنيل شهادةٍ يفتخر بها على الناس، أو جعل تعلُّم الدِّين وسيلةً لتحصيل الدنيا فقط، فهو على خطر عظيم، أمَّا إذا كان قَصْدُه نفع

---

(١) تفسير السَّعدي، المصدر السابق، ص٣٩.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٧).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).
(٤) صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، رقم ١٠٥.

المسلمين، وخدمة الدين من خلال ما يكون فيه من المنصب الشرعي، وأنَّ ما يحصل له من المال إنما هو تبع وليس بأصل، وليتمكَّن به من التفرُّغ لتعليمِ الدين، فهو مأجورٌ على نيته ولا يدخل في الوعيد، ومن أُعطي من بيت المال ما يقوم بحاله وعياله، ليتفرَّغ للتعليم ولا ينشغل عنه بالتكسب، فلا بأس عليه؛ لأن قصده نشر العلم وما يعطاه وسيلةٌ ليتحقَّق ذلك.

وعلى هذا، فيجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، إذا لم يفرَض للمعلِّم شيء من بيت المال، وكان التعليم يقطعه عن التكسب، وكان مِمّن يتعين عليه، ويحبِّب هذا التعليم، فمثله يدخل في حديث النبي ﷺ: «إنَّ أحقَّ ما أخذتُم عليه أجراً كتابَ الله»[١].

ففرقٌ بين مَن يتعلَّم الشريعة ليأخذ عرضاً من الدنيا، وبين من يأخذ لأجل أن يتمكَّن من التعلُّم والتعليم؛ فالأول جعل الأخذ من الدنيا هو الغاية، وتعلُّمَ الدين وتعليمه وسيلة، والثاني جعل خدمة الدين غاية، والأخذ من الدنيا وسيلة، وفي الآية وجوب بيان الحق وتحريم كتمانه، ويتشدَّد التحريم إذا أخذ على الحق عَرَضاً من الدنيا[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]:

أ ـ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: ولمّا نهاهم تعالى عن الكفر المناقض للإيمان، وأن يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، وهو يناقضُ الإخلاص، نهاهم عز وجل عن أمرين عظيمين، كلُّ واحد منهما جريمة عظيمة، فقال عز وجل:

ـ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾: ولا تَخلطوا.

ـ ﴿ٱلْحَقَّ﴾: المنزل من عند الله.

---

(١) رواه البخاري، رقم ٥٧٣٧.

(٢) تفسير الزهراوين، ص ٨٧.

ـ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: المخترَع من عندكم بالصدق وبالكذب، ولا تستعملوا أساليبَ التمويه والتضليل لتحسين الباطل وتقبيح الحق، وأدُّوا النصيحة لعباد الله، ولا تَشوبوا الصدقَ بالكذب[١].

وتخليطُ الحق بالباطل من أبرز صفات بني إسرائيل قديماً وحديثاً، فشأنهم الخداع، والتزوير، والغش، ويخلطون الحق بركام من الباطل حتى يضيع ويذوب فيه[٢].

ب ـ ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تتعمَّدوا إخفاءه والسكوت عن تبليغه، بل عليكم البيان. ومن الحق: نبوة محمد ﷺ وصفته التي يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل.

ـ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لا تقوموا بالتَّلبيس والكتمان، وأنتم عالمون بالحق، أي: لا تكتموا نبوة محمد ﷺ وأنتم تعرفونه حقّاً، وتجدون وصفه مكتوباً عندكم وتعلمون أنه هو، فعليكم بالنصيحة، وهي ضدُّ التلبيس، وعليكم بالبيان، وهو ضد الكتمان[٣].

وفي الآية الكريمة تحريمُ ترويج الباطل في صورة الحق، لينخدعَ الناس، ويأخذوا به، كما يقَدَّمُ اليوم كثير من المنافقين والمفسدين على أنهم من المصلحين المتنوِّرين، وكما تفعله وسائلُ الإعلام في إخفاء حقائق الحوادث وتنفير الناس عن الحقِّ وأهله، بنعتهم بالصِّفات القبيحة، وتزيين الباطل وأهله بالثناء عليهم، وهذه طريقةُ اليهود المغضوب عليهم[٤].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]:

ولما أمر الله بالإيمان في قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾، ونهى عما يناقضه،

(١) تفسير الزهراوين، المصدر نفسه، ص ٨٧.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٧).
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٧).
(٤) تفسير الزهراوين، ص٨٨.

وأمر ببيان الحق، ونهى عما يناقضه؛ أمر بلزوم الشرائع، وأداء العبادات[١].

أ ـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وإقامتها: باعتقاد فرضيتها، وإقامة شروطها وأركانها وواجباتها، والاهتمام بسُنَنها وآدابها، والصلاة تشمل «الفريضة والنافلة»، فيكون الأمر بهذه الفريضة للوجوب، والنافلة للاستحباب، والمقصودُ بأمر اليهود والنصارى بالصلاة، أي: صلاه المسلمين التي شرعها في هذا الدين، لا صلاة اليهود والنصارى.

ب ـ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الواجبة في أموالكم، وهي النصيبُ المعين في أموال مخصوصة، وتُدفع لأهلها ومستحقيها الذين عيّنهم الله، وسُمِّيت «زكاة» لأنها تُزكِّي النفس وتُطهرها، ولم يبين هنا مقدار الواجب ولا الأموال الزكوية ولا أهل الزكاة التي تُدفع إليهم؛ ولكنها مبينةٌ في مواضع أخرى من القرآن الكريم[٢]، والسنه النبويةالشريفة.

ت ـ ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: أي: كونوا مع المؤمنين في أفضل أعمالهم ـ وهي الصلاة ـ وصلُّوا مع النبي ﷺ وأصحابه، وقد استدلَّ كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة[٣].

وأُريد بالأمر بالركوع الصلاة كلها، إذ يطلَق الجزء ويراد به الكل، وقيل: إنما خص الركوع بالذكْر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع.

والركوع: هو الانحناء حتى تصل اليدين إلى الركبتين، وهو ركنٌ من أركان الصلاة، لا تصحُّ دونه، ثم اتجه الخطاب إلى توبيخ أحبارهم ورجال دِينهم الذين يخالف قولهم فعلهم بأسلوب التقرير والتعجيب من حالهم[٤].

---

(١) تفسير الزهراوين، ص٨٩.
(٢) تفسير الزهراوين، ص٨٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٩.
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ٩٨).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]:

لما أمر الله تعالى أهل الكتاب بإقام الصَّلاة والزكاة، والصلاة مع الجماعة، وبَّخهم على ما كان منهم من أمر الناس بالبرِّ مع تركهم له، ونهي الناس عن المعاصي مع وقوعهم فيها.

أ ـ ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾:

ـ ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾: وهذا الاستفهام للإنكار والتقريع، والخطاب لبني إسرائيل؛ وخصوصاً أحبارهم ورهبانهم، فقد كانوا يأمرون الناسَ بطاعة الله وتقواه.

ـ ﴿بِٱلْبِرِّ﴾: وهو جميعُ خصال الخير.

ـ ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: تتركونها من الخير، ولا تحملونها عليه، ولا تمنعونها من المعاصي، أفيليق بكم أن تفعلوا ذلك؟!

ب ـ ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾: حال كونكم تقرؤون كتاب الله، وهو التوراة، التي كانت في أيدي أحبارهم ورهبانهم الذين يأمرون وينهون ويخالفون، مع أن الواجب البدء بالنفس أولاً في إلزامها بالبر، ومنعها من الشر.

وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

وقال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ [هود: ٨٨].

وقال النبي ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسري بي رجالاً تُقْرَضُ شفاههم بمقاريضَ من نارٍ، فقلت: من هؤلاء يا جبريلُ؟ فقال: الخطباءُ من أمتك يأمرون الناسَ بالبرِّ، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا تعقلون[1]؟».

وقال النبي ﷺ: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابُه[2]

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم٢٣٢٧.

(٢) أي: تخرج أمعاء بطنه من مكانها.

في النار، فيدور كما يدور الحمار لرحاه، فيجتمع أهلُ النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنتَ تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» (١).

وقال النبي ﷺ: «مثل العالم الذي يعلِّم الناسَ الخير، وينسى نفسه، كمثل السراج يضيء للناس، ويحرق نفسه» (٢).

ـ وقال الشاعر:

لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مثلَه ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ
ابدأ بنفسكَ فانهها عن غَيها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ (٣)

ت ـ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تُدركون بها خطأكم وضلالكم؟ والعقل عقلان: عقل الإدراك: وهو فهم الأشياء، ويترتب التكليف عليه، وعقل الرشد: وهو الذي يحمل صاحبه على ما ينفعه، ويحجزه عمَّا يضرُّه، وهو المقصود هنا، وفي الآية أنّ العقل يمنع صاحبه من إتيان القبيح، وهذا عقل الرُّشد، وأنَّه إذا قوي عوض بعضَ نقص العلم (٤).

ولما كانت نفوسهم قد أدمنت على الشهوات، وألفت اتِّباع الهوى والنزوات، بين لهم تعالى الوسائل الناجحة لتهذيب نفوسهم، وتخليصها من آثامها ومعاصيها (٥).

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]:

أ ـ ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي: استعينوا على تربية نفوسكم، وتهذيبها بالصَّبر، وهو حبسُ النفس عن الشهوات المحرمة.

---

(١) البخاري، رقم ٣٢٦٧، مسلم، رقم ٣٩٨٩.
(٢) صحيح الترغيب، رقم ١٣١، حسنه الألباني.
(٣) تفسير الزهراوين، ص ٩١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٢.
(٥) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٠).

ـ ومعنى الصَّبر في اللغة: الحبس، يقال: قُتل فلانٌ صبراً، أي: قُتل وهو محبوس مُقيد، وصبَّرت نفسي عن الشيء، أي: حبستها.

ـ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: واستعينوا أيضاً بالصَّلاة؛ لأن الصلاة تمدُّ الإنسان بقوة روحية تساعده على القيام بالتكاليف والأعباء الشاقة، وقد تكرَّر مثل هذا في هذه السورة، وكان النبي ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صلَّى(١).

ومن بواكير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٥].

ونادت الملائكةُ السيدةَ مريم، وهي في محراب عبادتها، تأمرها بمضاعفة صلاتها استعداداً للمهمة الثقيلة التي اختيرت لها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

ومن رحمته بنا تكليفنا بالصلاة، فهي تساعدنا على طاعته، والتزام أحكام شريعته.

ب ـ ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾؛ أي: وإن الصَّلاة لثقيلة شاقّة إلا على الخاشعين الذين يخافون الله تعالى، وتهتزُّ قلوبُهم من خشيته وهم يناجونه في صلاتهم، والخشوع من أعمال القلب، يظهر أثره في سكون الجوارح والتواضع.

ودلّت الآيةُ على أهمية الخشوع في الصلاة، فهو روح الصلاة؛ لأنَّه يروضُ النفس، ويهذبها، ويجعلها تتذوق لذةَ مناجاة الله تعالى وذكْرِه، فتُقبل على الصلاة بهمَّة ونشاط وشوق إلى حلاوتها ولذتها؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «حُبِّبَ إلي النساء والطِّيب، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»(٢).

---

(١) سنن أبي داود، رقم ١٣١٩.
(٢) سنن النسائي، رقم ٣٩٤٠.

وقال أبو العالية رحمه الله: واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة على مرضاة الله، واعلموا أنهما طاعة لله.

ونُعي إلى ابن عباس رضي الله عنه أخوه قُثمٌ، وهو في سفره، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ راحلته وصلى ركعتين، ثمَّ قام يمشي إلى راحلته، وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (١).

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]:

أي: الذين يستيقنون لقاء الله تعالى، ويرجون ثوابه يوم القيامة، فيكون نشاطهم إلى الصلاة وخشوعهم فيها على حسب ذلك(٢).

أ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾:

ـ ﴿يَظُنُّونَ﴾: يوقنون، ويعلمون، ويعتقدون اعتقاداً جازماً. «والظَّن» يأتي بمعنى اليقين، ويأتي حاملاً لمعنى الشك، والمراد به هنا الأول.

ب ـ ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: صائرون ومنقلبون إلى الله(٣).

وأما الذين لا يؤمنون بالجزاء ولا يرجون الثواب، فإنهم يستثقلون التكاليف الشرعية، ولا يقومون بها، وإذا قاموا إليها قاموا متثاقلين، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وعادت الآياتُ إلى تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم، وهذا يدلُّ على كثرة تلك النِّعَم ـ كما بيّنا سابقاً ـ وشدة جُحودهم لها(٤).

---

(١) الجامع لشعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: مختار أحمد الندوي وآخرين، مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م، رقم ٩٢٣٣.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠١).
(٣) تفسير الزهراوين، ص٩٤٠.
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٢).

٨ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]:

أ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

أي: يا بني يعقوب كونوا مثل أبيكم في متابعته الحقَّ، واذكروا نِعَمَه تعالى على آبائكم ذكْراً يحملكم على شكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدخول في دينه واتباع رسوله[١]، وتشمل نِعَمَ الله على بني إسرائيل جميع النِّعَم الدينية والدنيوية مثل: أن جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكاً، وأنزل عليهم كتباً عظيمةً، ونجَّاهم من عدوهم، وأطعمهم المنّ والسَّلوى، وظلَّل عليهم الغمام، وفجّر لهم الماء من الحجر، وغير ذلك.

ب ـ ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ـ ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: الفضل: الزيادة في الخير، والمقصود: فضَّلت آباءكم؛ أي: في ذلك الوقت ـ زمن آبائهم ـ إذ كانت أمتهم أفضل الأمم في العالم، وأمَّا بعد بعثة النبي ﷺ، فقد صارت هذه الأمةُ أفضلَ من بني إسرائيل، ومن غيرهم ممّن سبق كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال النبي ﷺ: «أنتم تُوفون ـ وفي رواية: تُتِمُّون ـ سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[٢].

ـ ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: «العالمون» جمع عالم، والمقصود: عالم ذلك الزمان[٣].

والآية: تبين أن تفضيلَ بني إسرائيل هو تفضيلٌ في زمن مخصوص، لِما كان عليه كثير منهم وقت ذلك من العلم والإيمان والعمل الصَّالح، ولـمَّا عصَوا، وخانوا، واحتالوا على شرع الله، وقتلوا الأنبياء، ونقضوا العهد، ضَرب الله

---

(١) التفسير المحرّر، (١/ ١٦٥).
(٢) سنن الترمذي رقم ٣٠٠١، صحيح الجامع، ٢٣٠١.
(٣) تفسير الزهراوين، ص٩٥.

عليهم الذلَّةَ، ولعنهم، وباؤوا بغضب على غضب، وفضَّل غيرهم عليهم، ونقل الرئاسة الدينية إلى غيرهم.

وفي الآية أن الناسَ يتفاضلون، وأنهم درجات، وأن كلَّ سبب مشروع من أسباب التفضيل هو نعمة من الله[١].

٩ ـ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]:

أ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾: هو يوم القيامة[٢].

ب ـ ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾: لأن المسؤوليةَ يوم القيامة مسؤولية شخصية؛ فلا تزر نفسٌ وزرَ أخرى، ولا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء؛ لأن الحسابَ والجزاء على حسب العمل، لا على حسب النسب[٣].

فالتبعيةُ فرديةٌ، والحساب شخصي، وكلُّ نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً، وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم؛ مبدأ الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله، وهو أقومُ المبادئ التي تُشعر الإنسانَ بكرامته، وتستجيش اليقظة الدائمة في ضميره، وكلاهما عاملٌ من عوامل التربية، فوق أنه قيمةٌ إنسانيةٌ تُضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام[٤].

ت ـ ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾: ما دامت كافرة بالله جاحدة لدينه وشريعته، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

ث ـ ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾؛ أي: فدية؛ لأنها عادة تكون معادلة للمفدى، وهذا إن قدرتْ على الفدية يوم القيامة، والحقيقة لا تقدر على الفدية.

---

(١) تفسير الزهراوين، ص ٩٦.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٢).
(٣) التفسير الموضوعي، المصدر السابق، (١/ ١٠٢).
(٤) في ظلال القرآن، (١/ ٤٢).

والمراد تعظيم وتهويل شأن هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠] (١).

ج - ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنعون من العذاب، فالخطب يوم القيامة شديد، إذ ليس فيه شفاعةٌ ولا فديةٌ ولا نصرةٌ إلا لمن أذن الله له بالشفاعة، وهي للمؤمنين، ولا ينتفع بها الكافرون(٢)، وجاء بعد التذكير الإجمالي بالنِّعم التَّفصيلُ لها مع بيان مواقف بني إسرائيل منها، وقد فصّل الله تعالى قصة نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون في عدد من السُّور الكريمة، واكتفت هذه الآيات هنا بتذكير بني إسرائيل بهذه النعمة الكبيرة(٣).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٢).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٠٢).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ١٠٣).

﴿ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٤٩ ـ ٦١]:

هذه الآياتُ الكريمةُ في تفصيل النِّعَم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، بعد الإشارة إليها إجمالاً في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، تذكيراً لهم بضرورة شكرها[1]، وهذا تفسيرٌ للآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]:

ابتدأ سبحانه بأغلى النِّعَم التي أنعم بها عليهم، وهي نعمةُ الإنقاذ من أكثر الخلقِ شرّاً في الوجود إبّان ذلك، وهو فرعون الذي اتخذه الفسّاق الظالمون من الحكام قدوة، يقتدون به في مظالمه، وإن لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أن ينتصروا في الحروب مثل انتصاره في عصره. أنقذهم الله تعالى على يد موسى كليم الله من بطش فرعون، وقد كان بطشه بهم شديداً.

أ ـ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾:

واذكروا إذ نجَّيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم[2].

ـ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أشدّه وأسوأه. وقيل: ما ساءَهم من العذاب[3].

---

(١) التفسير المنير، (١/ ١٧٤).
(٢) في ظلال القرآن، (١/ ٧٠).
(٣) تفسير الزهراوين، ص ٩٧.

وفي سورة البقرة جاء التعبير عن النجاة بلفظ ﴿ نَجَّيْنَٰكُم ﴾، وفي سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُمْ ﴾، وفي سورة إبراهيم ﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم ﴾؛ فكلمة (نجَّى)، (نجَّيناكم) تكون وقتَ نزول العذاب، وكلمة (أنجى): منعَ عنهم العذاب.

الأولى: (نجَّى): للتخلُّص من العذاب، والثانية: (أنجى): بأن يبعِدَ عنهم عذاب فرعون نهائياً، ففضلُ الله عليهم كان على مرحلتين؛ مرحلة أنه خلَّصهم من عذاب واقع عليهم، والمرحلة الثانية أنه أبعدهم من آل فرعون فمنع عنهم العذاب[١].

ـ وكلمة ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ تشتمل على ألوان شتى من العذاب كالجلد والسخرة والعمل بالأشغال الشاقة، يقال: سام فلانٌ خصمَه، أي: أذلَّه وأعنته وأرهقه، وسام: مأخوذة من (سام الماشيةَ): تركها ترعى؛ لذلك سُمِّيت بالسائمة؛ أي: المتروكة، وعندما يقال: إن فرعون يسوم بني إسرائيل سوء العذاب، معناه أن كلَّ حياتهم ذلٌّ وعذاب[٢].

ب ـ ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾: كناية عن العمل على تخضيد شوكتهم، وإبعادهم عن مواطن السلطان، وذلك بذبحهم أحياناً، ووضعهم في مواضع الذلّ والمهانة، والغاية ألا يكون لهم وجودٌ قائم بذاته، فقد حُكِي عنهم أن فرعون كان يذبح منهم، وكان يتَّخذ منهم عمالاً مُسخَّرين في الأبنية التي يشيدها، وكان يتَّخذ منهم خدماً في البيوت، وذكر الذبح بالذات، وهو إحدى وسائل فرعون لسوء العذاب الذي كان يذيقُهم إياه؛ لأنه أشدُّها هولاً[٣].

وجاء في القرآن الكريم: ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ في سورة البقرة [الآية: ٤٩]، و﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ في سورة الأعراف [الآية: ١٤١].

والذبح غير القتل، الذبح لابد فيه من إراقة دماء، والذبح عادة يتم بقطع

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٣٢٤).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٢٥).
(٣) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٢٦).

الشرايين عند الرقبة، ولكن القتل قد يكون بذبح أو بغيره كالخنق والإغراق، كل هذا قتل، ليس شرطاً فيه أن تُسفَك الدماء.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرِّفنا إلى أن فرعون حينما أراد أن ينتقم من ذرية بني إسرائيل انتقم منهم انتقامين؛ انتقاماً لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس، وساعدوهم على حكم مصر، بدليل أن ملك الهكسوس اتَّخذ يوسف عليه السلام وزيراً، فكأن الهكسوس كانوا موالين لبني إسرائيل، وعندما انتصر الفراعنة انتقموا من بني إسرائيل بكل وسائل الانتقام، قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم. وأما مسألة الذبح في قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فلقد رأى فرعون ناراً هبّت من ناحية بيت المقدس، فأحرقت كل المصريين، ولم ينجُ منهم غير بني إسرائيل، فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا، قال له الكُهان: يخرج من ذرية إسرائيل ولد يكون على يده نهاية مُلكِك. فأمر القوابل «الدايات» بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني إسرائيل، ولكن قوم فرعون الذين تعوَّدوا السلطة قالوا لفرعون: إن بني إسرائيل يوشك أن ينقرضوا، وهم يقومون بالخدمات لهم، فجعل الذبح سنةً، والسنة الثانية يبقون المواليد الذكور، وهارون عليه السلام ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فنجا، وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحَدَث ما حدَث.

إذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه، وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولود، ولو فعلوه بأي طريقة أخرى كأن ألقوه من فوق جبل، أو ضربوه بحجر غليظ، أو طعنوه بسيف أو برمح، فقد ينجو من الموت، ولكن الذبح يجعلهم يتثبتونَ منه في الحال، فلا ينجو أحد[1].

ت ـ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: أبقوهنَّ أحياء لم يذبحوهنَّ، وكانوا راغبين في ذلك، فقد طلبوا حياة نسائهم لغايات في نفوسهم، وليشبعوا بهن شهواتهم[2]. وجاء التعبير القرآني (نساءكم) بدل (بناتكم)، فالحق سبحانه يريد

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٢٧٧).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٢٦).

أن ينبِّهنا إلى أن الفكرة من هذا هي إبقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون؛ لذلك لم يقل بناتكم، ولكنه قال ﴿نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: أنهم يريدونهن للمتعة، وذلك للتنكيل ببني إسرائيل، ولا يقتل رجولة الرجل إلا أن يرى الفاحشة تُصنع في نسائه[١].

ث ـ ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: وفي نجاتكم من هذا الظلم نعمة عظيمة، يختبركم الله بها، ليرى هل تشكرونه عليها أم تكفرون وتجحدون فضله سبحانه عليكم؟!

ويمكن أن يكون المعنى: وفي ظلم آل فرعون لكم اختبار عظيم من الله تعالى، والبلاء يطلق على النعمة العظيمة، وعلى المحنة الشديدة، ليختبر الله العبدَ على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصَّبر[٢]، ولكن المعنى الأول أليق بسياق التذكير بالنّعم ومواقف بني إسرائيل منها[٣].

ومن نعمة الله تعالى على بني إسرائيل أنه أهلك عدوهم فرعون وجنوده أمامهم، إذ أغرقهم الله تعالى في البحر، وهم ينظرون إليهم، وذلك أشفى لصدورهم، وأذهب لغيظ قلوبهم. قال سبحانه في معرض الامتنان عليهم:

٢ ـ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]:

أ ـ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾؛ أي: اذكروا عندما فلقنا البحر، وفَصَلنا بعضَه عن بعض لأجلكم، لتسلكوا طريق النجاة بين أمواجه العاتية، التي أمسكتها قدرة الله، وهي معجزة عظيمة جليلة، أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام، وشاهدها بنو إسرائيل بأم أعينهم[٤]، وقد مرَّ ذلك بنا في سُور سابقة.

ب ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: أغرقنا فرعون وجنوده،

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٢٢٨).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٤).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ١٠٤).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ١٠٤).

واقتصرت الآية على ذكر آل فرعون؛ لأنهم إذا أُغرقوا، وهم رؤوس الضَّلال والعناد، فغيرهم أولى بذلك، وقد صرّح سبحانه بغرق فرعون وجنوده في سورة الإسراء فقال: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وقال أيضاً في سورة القصص: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤٠ ـ ٤١].

ت ـ ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: تنظرون إلى فرعون وجنوده، وهم في لجَّة البحر يغرقون[١].

والآية تُبين عظيم فضل الله على بني إسرائيل، وأنَّه أقرَّ أعينَهم بإهلاك عدوهم، وقد كانت النعمة على بني إسرائيل مضاعفة، وكذلك فإنَّ رؤية عدوهم يهلك فيه شفاء صدورهم، وذهاب غيظ قلوبهم[٢].

ويلاحَظ أن الآيات كلَّما ذكَّرتهم ببعض نِعَم الله عليهم، ذكَّرتهم بعدها ببعض مواقف عنادهم وجُحُودهم؛ ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]:

ولمَّا أغرق الله فرعون وقومه، ونجَّى بني إسرائيل، قادهم موسى عليه السلام، وتهيأ لقبول أوامر الله في الموعد الذي أخبره الله عنه[٣].

أ ـ ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾:

أي: واذكروا يا بني إسرائيل قصة وعدنا «مُوسَى» فصدر الوعد له من الله؛ ليوحي إليه بالأوامر إلى بني إسرائيل.

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٥).
(٢) تفسير الزهراوين، ص ٩٩.
(٣) تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص ١٠٠.

ـ ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يكون في نهايتها الموعد. وكانت ثلاثين ثم أتمَّها الله بعشر، تفرَّغ فيها موسى عليه السلام للعبادة والتهيؤ؛ لتلقِّي وحي الله والتوراة التي سينزلها عليه[١].

وقد جاء بيان المواعدة في سورة طه فقال عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُمۡ مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ [طه: ٨٠]، وكان مع موسى عليه السلام سبعون رجلاً مُنتخَباً لحضور هذا الموعد.

ب ـ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: اتخذتم العجل الذهبي إلهاً عبدتموه من دون الله تعالى في غياب موسى، وقد فصَّلت الآياتُ في غير هذا الموضع قصة عبادتهم للعجل، كما في سورة الأعراف وسورة طه، وقد شرحتُ ذلك بالتفصيل.

وعبادة بني إسرائيل للعجل من أقبح وأشنع جرائمهم ومواقف عنادهم وجحودهم؛ ولهذا تكرَّر ذكْرُ الآيات لها في عدة مواضع.

ـ ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾: لأنفسكم بعبادة غير الله تعالى، فالشرك بالله تعالى أعظم أنواع الظلم، وأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟

فبعد أن نجَّاهم الله تعالى من ظلم فرعون، وأراهم مصرعه بأمّ أعينهم، أعرضوا عن عبادته تعالى وشكره، وعبدوا عِجْلاً مَصْنوعاً من ذهب في غياب نبيهم موسى عليه السلام، ومع ذلك فتح لهم باب التوبة والمغفرة فقال[٢]:

٤ ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]:

وبالرغم من قُبح جريمة بني إسرائيل، فإن الحليم سبحانه وتعالى لم يعاجلهم بالإهلاك فقال تعالى:

---

(١) تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٧).

أ ـ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾؛ أي: تجاوزنا عن عقوبتكم، وقَبِلنا توبتكم، ومحَونا عنكم جريمتكم[١]، والعفو: مَحو الذنب، والتجاوز عنه[٢].

ب ـ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: الشرك الذي حصل منكم باتِّخاذكم العجل إلهاً وبقتل أنفسكم بعدها[٣].

ت ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تقومون بواجب شكر النعمة، إيماناً بالقلب، وتحدُّثاً واعترافاً باللسان، وقياماً بالطاعة بالجوارح[٤].

ومن نِعَمِه سبحانه الجليلة عليهم: إنزال التوراة على موسى عليه السلام، ليهتدي بها بنو إسرائيل، ويحتكموا إلى شريعتها[٥].

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]:

ثم أمر تعالى بني إسرائيل أن يذكروا من نعمه عليهم أيضاً:

أ ـ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾:

ـ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾: أعطيناه، وأنزلنا عليه، وأوحينا إليه.

ـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة.

ـ ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾: الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

والفرقان: الكتاب الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل، وهو نعتٌ للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ «وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها في الألواح، وفرَّقنا بها بين الحق والباطل»، أو المراد هنا: الحجج والمعجزات التي أعطاها الله لموسى عليه السلام من العصا واليد وغيرها[٦].

---

(١) تفسير الزهراوين، ص ١٠١.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٧).
(٣) تفسير الزهراوين، ص ١٠١.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.
(٥) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٧).
(٦) تفسير الزهراوين، ص ١٠٢.

قال محمد متولي الشَّعراوي: والفرقانُ هو الأشياء التي يفرِّق الله فيها بين الحق والباطل، فكأن الفرقان تُطلق مرة على التوراة؛ لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، وتطلق أيضاً على كل ما يفرِّق بين الحق والباطل؛ ولذلك سُمِّي يوم بدر يوم الفرقان؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل، فكأن منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل، ويفرِّق بينهما(١).

ب ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لتهتدوا بما أنزل الله؛ من الضَّلالة إلى الحقِّ والهدى، وهذه هداية العلم والتوفيق.

إن إنزال الكتب السماوية من أجلِّ هدايات البشرية، فلا تطلب الهداية من الأساطير ومناهج البشر الوضعية وغيرها من الأباطيل(٢).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]:

أ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى خالقكم الذي أحدثكم، وأبدعكم، وأخرجكم من العدم.

وأصل برأ من تبرِّي الشيء من الشيء، وهو انفصاله منه، فالخلق قد فُصِلوا من العدم إلى الوجود(٣).

ومن معاني البارئ أيضاً: الخالق الذي خلق خلقاً مُحْكماً، بريئاً من التفاوت والنقص، وميز المخلوقات بعضها عن بعض بصور وهيئات مختلفة(٤).

---

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٣٣٩).
(٢) تفسير الزهراوين، ص١٠٢.
(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (١/ ٤٠٣).
(٤) تفسير النسفي، (١/ ١٢٦)، التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٩).

ومن معاني اسمه البارئ:

ـ أن البارئ هو الموجِد والمبدِع من: برأ الله الخلقَ، إذا خلقهم، وبهذا يكون الاسم مشابهاً ومقارناً لـ «الخالق».

ـ «البارئ»: هو الذي فصل بعض الخلق عن بعض؛ أي: ميز بعضهم عن بعض، وأن أصله من البرء الذي هو القطع والفصل.

ـ أن «البارئ» يدلُّ على أنه تعالى خلق الإنسان من التراب كما قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، وأن أصله من البري، وهو التراب.

ـ وهناك معنى رابع ذكره الزمخشري فقال: «البارئ» هو الذي خلق الخلق، بريئاً من التفاوت: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]؛ أي: خلقهم خلقاً مستوياً ليس فيه اختلاف، ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب، ولا خلل، أبرياء من ذلك كله[(١)].

وقد ورد اسم البارئ ثلاث مرات في القرآن الكريم؛ مرة مُعرَّفاً كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]، ومرتين مضافاً في هذه الآية[(٢)].

ب ـ ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ **بتسليم أنفسكم للقتل والصَّبر عليه**[(٣)]؛ أي: ليقتل الطائع منكم العاصي، لِيطهره، ويطَهر نفسَه[(٤)].

وقال القرطبي: وأجمعوا على أنَّه لم يؤمَر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده[(٥)].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، المرجع السابق، ص٤٤٣.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، ص ٤٤١.
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٩).
(٤) في ظلال القرآن، (١/ ٧١).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (١/ ٤٠١).

ت ـ ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾؛ أي: الصَّبر على القتل خير لكم من الإصرار على الكفر، فلا توبة لكم إلا بذلك.

ث ـ ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾؛ أي: قَبِل سبحانه توبتكم بعد أن فعلتم ما أُمرتم به، وأسلمتم أنفسكم لحكمه، وهذه العقوبةُ الصَّارمة الشديدة التي أنزلها الله بهم تدلُّ على قسوة طباعهم، فلا بدَّ منها حتى تلين نفوسهم الغليظة الجافية[١].

ج ـ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾؛ أي: إنه سبحانه هو الذي يتفضَّل بقبول التوبة، والعفو عن الذنوب، الرحيم بعباده جلَّ وعلا[٢].

ـ ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾: هو الذي يرجع على عبده بالرضا بعد أن غضب عليه، وبالعفو عنه بعد أن عاقبه أو استحقّ العقاب، وهو الذي يوفِّق عبده للتوبة ويقبلها منه. وورد الاسم الكريم في القرآن (١١) مرة، منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر: ٣].

إن التوبة صفة للعبد المؤمن ينبغي أن تُلازمه ويلازمها في جميع مراحل حياته، وكلِّ منازل سَيره؛ لأنه لن يخلو من تقصير في حق الله العظيم مهما بلغ من طاعة، ومهما وصل من منزلة، وها هو ذا نبينا ﷺ، وهو أحبُّ خَلق الله إلى الله يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، واستغفروه، وإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرّة»[٣].

ـ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾: هو الذي له الرحمة الواسعة بعباده، والمؤمنون والمحسنون والرحماء هم الأسعد بها. جاء ذكر الرحيم في (٢٣) موضعاً، منها: ﴿ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٠٩).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٠٩).
(٣) هذا ربي، خالد الخلوي، المرجع السابق، ص ١٢٣.

ـ ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

والمسلم الصَّادق لا ينسى قول النبي ﷺ: «ارحَمُوا من في الأرض يرحَمْكُم مَن في السماء»، فهو من أوسع الأبواب لنيل رحمة الله سبحانه(١).

٧ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]:

بعد أن تاب الله على قوم موسى، بعد عبادتهم للعجل، عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم، فهم كانوا يريدون إلهاً مادياً، إلهاً يرونه، ولكن الإله من عظمته أنه غيبٌ لا تُدركه الأبصار، قال سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فكون الله عزَّ وجلَّ فوق إدراك البشر، فهذا من عظمته جل جلاله، ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحسوس، لا تتَّسع عقولهم ولا قلوبهم؛ لكَونِ الله سبحانه وتعالى فوق المادَّة وفوق الأبصار، وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء، والله ـ تبارك وتعالى ـ قرَّر لنا ما يتعلَّق برؤيته في الدنيا بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فرؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة، لكنه تعالى وضع في مخلوقاته أدلّة على وجوده، فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

أي: إنَّ الله جلَّ جلاله قد وضع دليلاً على وجوده في نفس كل واحد منا، وهي الروح الموجودة في الجسد، والإنسان مخلوق من مادة، نُفخت فيها الروح، فدبّت فيها الحياة، والحركة، والحس.

إذن كل ما في جسدك من حياة ليس راجعاً إلى المادة التي تراها أمامك، وإنما يرجع إلى الروح التي لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها، فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة، وأصبح الجسد رمّة.

---

(١) هذا ربي، المصدر نفسه، ص ١٤.

إذا كانت هذه الروح التي في جسدك وتعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها، مع أنها موجودة داخلك، فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى؟! كان يجب أولاً أن تسأل الله أن يجعلك تُدرِك الروح التي في جسدك، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قال: إنها من أمر الله. واقرأ قوله جلَّ جلاله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

إذا كانت الروح وهي مخلوقة لله لا تدركها، فكيف تطمع أن ترى خالقها؟! وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فكلمة نرى تُطلَق ويراد بها العلم مثلاً، وجاءت كلمة (جهرة)؛ لتنفي العلم فقط، وتطالب بالرؤية مجهورة واضحة، يدركونها بحواسِّهم، وهذا دليلٌ على أنهم مُتمسِّكون بالمادية[١].

والغريب حقّاً في قصة موسى عليه السلام مع قومه: أن الآيات الكثيرة، والنعم الإلهية والعفو والمغفرة، كلُّها لم تغير من تلك الطبيعة القاسِيةِ التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، وتظل مع ذلك تجادل، وتماحك، ولا تستجيب إلا تحت واقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضَوها تحت فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً، وليس أشد إفساداً للفطرة من الذلّ الذي ينشِئُه الطغيان الطويل؛ الذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد استحذاء تحت سوط الجلاد، وتمرُّداً حين يرفَع عنها السوط، وتبطُّراً حين يتاح لها شيءٌ من النعمة والقوة[٢].

ولابد أن نعرفَ أن قضية رؤية الله في الدنيا محسومة، وأنه لا سبيل إلى ذلك، مادام الإنسان في جسده البشري؛ لأن البشر له قوانين في إدراكاته، ولكن يوم القيامة نكون خلقاً بقوانين تختلف، ففي الدنيا لا بدَّ أن تخرجَ مخلَّفات

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٢٣٦).
(٢) في ظلال القرآن، (١/ ٧٢).

الطعام من أجسادنا، وفي الآخرة لا مخلفات، وفي الدنيا يحكمنا الزمن، وفي الآخرة لا زمن؛ إذ يظل الإنسان شباباً دائماً، إذن فهناك تغيير.

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة، في الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله، وفي الآخرة يسمح إعدادُك وجسدُك بأن يتجلَّى عليك الله سبحانه وتعالى، وهذه قمة النعيم في الآخرة، أنت الآن تعيش في آثار قدرة الله، ويوم القيامة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى، وفي ذلك يقول الحق جلَّ جلالُه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

إن الله بقدرته التي لا حدودَ لها يعيدُ خلق العين، فتستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم في الآخرة لأهل الإيمان، أما في الدنيا، فقد حسم الله تعالى المسألةَ مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع أن يستَقِرَّ، فحجب الله رؤيته عن موسى عليه السّلام رحمةً منه؛ لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل، فماذا كان يمكن أن يحدث لموسى، إذا كان موسى عليه السلام قد صعق برؤية المتجلَّى عليه، فكيف إذا رأى المتجلِّي[١]؟

أ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾: لما شرع موسى بمناجاة ربه، وتلقّي وحيه.

ب ـ ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾؛ أي: لن نصدِّقك بأنك تُناجي ربَّك.

ت ـ ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ أي: عياناً. هكذا واجهوا نبيهم موسى عليه السلام، وقابلوا الخير الذي أجراه الله تعالى على يديه لهم[٢].

ث ـ ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: استولت عليكم، وأحاطت بكم. وقيل: هي الزلزلة الشديدة[٣]، وقيل: صوت عظيم وصيحة من السماء، وقيل: نار، فماتوا جميعاً[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٣٤٧).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٠).
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٠).
(٤) تفسير الزهراوين، ص ١٠٥.

ج ـ ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ؛ أي : ينظر بعضُكم إلى بعض كيف يصعَقون ويموتون[١] .

وسؤالهم هذا سؤالُ تعنُّت وعناد، وليس سؤال استرشاد، إذ أجرى الله تعالى على يدي موسى كثيراً من المعجزات الدّالة على صدقه، وإنزال الصَّاعقة عليهم كان عقاباً لهم لِما انضَمَّ إليه من فرط التعنُّت والعناد[٢] .

ولهذا حذر الله تعالى أصحاب نبينا محمد عليه الصلاة والسلام من مثل هذا السؤال المتعنِّتَ كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨] .

ومثل هذه المواقف هي التي أدّت إلى التشديد عليهم في شريعة التوراة، وشعر موسى عليه السلام بالحرج بعد أن صُعقوا وماتوا، كيف يرجع إلى بني إسرائيل من دونهم؟ وماذا يقول لهم؟ فتوجّه الى الله تعالى ضارعاً، فأحياهم الله تعالى[٣] .

وقد بين الله تعالى مِنّته على بني إسرائيل ـ وهذا الإنعام السادس ـ فقال :

٨ ـ **قال تعالى** : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦] :

أ ـ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ : أحييناكم .

ب ـ ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ : موتاً حقيقياً بالصَّاعقة، فجعل بعضُهم ينظر إلى بعض، وهو يحيا، وعاشوا بعد ذلك ؛ ليستوفوا بقية أرزاقهم وآجالهم[٤] .

ـ وقال أبو زهرة في معنى قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ : أي : أثرناكم وحركناكم، وأوجدنا فيكم الإحساس، والتعبير بـ ﴿ ثُمَّ﴾ للإشارة إلى البُعد بين حالهم، وهم أشباه الموتى بما صعقهم من غاشية، وما آلوا إليه من شعور بالحياة والحركة، وقد فقدوا ذلك بسوء ما طلبوا، وعدم فهمهم[٥] .

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٠).
(٢) روح المعاني، (١/ ٢٦٣).
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٠).
(٤) تفسير الزهراوين، ص١٠٥ .
(٥) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٣٧).

ت ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ربكم على نعمة إحيائه لكم بعد موتكم، فتؤمنوا بما أُنزل عليكم، وتشكروا نعمة كتابه الذي أنزله لكم(١).

وتابعت الآيات تذكيرهم ببعض هذه النعم، وبمواقف العناد والجحود والكفران التي صدرتْ عنهم.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]:

ولمّا ذكر تعالى ما دفع عن بني إسرائيل من العذاب، ذكر الإنعام السابع عليهم في هذه السورة:

أ ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾؛ أي: جعلنا الغمام يظِلُّكم؛ ليقيكم حرّ الشمس. و«الغمام»: هو السحاب الرقيق الذي يبرِّدُ الجو(٢)، وذلك عندما ضَرب الله عليهم التِّيه في صحراء سيناء، بعد أن خذلوا نبيهم موسى، ورفضوا الجهاد معه لدخول الأرض المقدسة.

ومن نِعَمه تعالى عليهم أيضاً في فترة التيه هذه: أنه يسَّر لهم الحصول على الطعام، وأغناهم من عناء طلبه والبحث عنه في الصحراء، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى(٣).

ب ـ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: جعلناه رِزقاً نازلاً على مَحَلَّتِكم وأشجاركم.

ت ـ ﴿ٱلْمَنَّ﴾: طعام حلو لذيذ يسقط عليهم في كل يوم ما يكفيهم(٤).

والمن: طعام يشبه الكمأة، دلَّ على ذلك الحديث الشريف عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وماؤُها شِفاءٌ للعَينِ» (٥).

---

(١) تفسير الزهراوين، ص١٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١١١).
(٤) تفسير الزهراوين، ص١٠٦.
(٥) رواه مسلم، رقم ٢٠٤٩.

ث ـ ﴿ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ : طائر معروف، لذيذ اللحم، يأتيهم سهلاً فيذبحونه، ويأخذون منه حاجتهم، فحصل لهم الظل والشراب والطعام، وكان ذلك في وقت التيه ـ ظلوا أربعين سنة يتيهون في الأرض ـ فرحمهم ربهم، ورزقهم من النّعم.

ج ـ ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ :

ـ ﴿ كُلُواْ ﴾ : الأمر للإباحة والامتنان.

ـ ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ ﴾ : الطيب : ما لا تَعافه النفس طبعاً، وليس بمحظور شرعاً.

ـ ﴿ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ : أعطيناكم، وأنعمنا عليكم[١].

ولم يكونوا في حاجة إلى الادِّخار، فلما ادَّخروا اللحم صار ينتن ويفسد؛ ولذلك قال النبي ﷺ : «لولا بنو إسرائيل لم يخنزِ اللَّحمُ»؛ أي : ينتن[٢]. ومع ذلك لم يشكروا الله تعالى على هذه النعم، بل قابلوها بالجحود والكفران؛ ولهذا قال :

ـ ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ : ما نقصونا شيئاً بمعصيتهم؛ لأنَّ الله لا تضرُّه معصيةُ العاصين، كما أنه لا تنفعه طاعة الطائعين، فالله غني عن طاعة عباده، ولا تضرُّه معاصيهم[٣].

ج ـ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ : فالحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة يتحدَّث للمرة الثالثة عن ظلم قوم موسى أنفسهم.

ففي المرة الأولى قال :

ـ ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

ـ وفي الثانية قال : ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾.

ـ وفي هذه الآية قال : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولا شك في أن عاقبة ظلمهم تعود عليهم[٤].

---

(١) تفسير الزهراوين، ص١٠٦.
(٢) رواه البخاري، رقم ٣٣٠، ورواه مسلم، رقم ١٤٧٠.
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٢)، تفسير الزهراوين، ص ١٠٧.
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٢).

والجمع بين صيغتي الماضي ﴿كَانُوٓاْ﴾، والمستقبل ﴿يَظْلِمُونَ﴾، للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم عليه(١).

والآية الكريمة تُبين كمالَ ذات الله، واستغناءه عن مخلوقاته، وفي الآية الكريمة كثرة ظلم بني إسرائيل لأنفسهم لقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾.

ومن صُور ظلمهم وعنادهم ما فعلوه عندما أمرهم سبحانه أن يدخلوا إحدى القرى التي مرّوا بها(٢).

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]:

أ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾:

ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾: بالوحي الذي أوحيناه إلى النبي الذي كان يقودهم.

ـ ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: مباحاً لكم كل ما فيها من الطيبات، موسَّعاً عليكم بغير حساب.

ب ـ ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾:

ـ ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾: الأمر للإباحة؛ أي: أبحنا لكم الأكل منها.

ـ ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: في أي مكان كنتم من البلد تأكلون ما تشاؤون.

ـ ﴿رَغَدًا﴾: هنيئاً مطمئنين.

ت ـ ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾:

ـ ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب البلد.

ـ ﴿سُجَّدًا﴾: شكراً لله على ما أنعم به عليهم.

---

(١) روح المعاني، (١/ ٢٦٤).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٢).

ث ـ ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ :

ـ ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾؛ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم به من الخضوع، والتواضع، وطلب المغفرة، والشكر على النصر، فإننا سنستر ذنوبكم، ونتجاوز عنها، ولا نعاقبكم عليها بسبب طاعتكم لله، وانقيادكم لأمره[١].

ـ ﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾: جمع خطيئة، وهي ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عمداً، فيكون خاطئاً بخلاف ما يرتكبه خطأ دون عمد، فيسمَّى مخطئاً[٢].

ج ـ ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ :

ـ ﴿وَسَنَزِيدُ﴾: على المغفرة أجراً وثواباً ونِعَماً أخرى.

ـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الذين يحسنون عبادة ربِّهم، ويحسنون إلى خلقه في المعاملة وبذل المعروف[٣].

وقد ورَد في الحديث الصَّحيح في حديث سيدنا جبريل قال: ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»[٤].

هكذا أطمعهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالمغفرة إن هم انقادوا لأمره، وخضعوا لحكمه، ووعد المحسنين منهم المزيد من فضله وثوابه، ولكنْ بنو إسرائيل هم بنو إسرائيل في جحودهم، وعنادهم، وفجورهم[٥].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]:

ثم ذكر الله تعالى عناد بني إسرائيل ومعصيتهم، أنهم لمّا أُمروا بالخضوع

---

(١) تفسير الزهراوين، ص ١٠٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٨.
(٣) تفسير الزهراوين، المصدر نفسه، ص ١٠٨.
(٤) رواه البخاري، رقم ٥٠.
(٥) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٣).

بالقول والفعل عند دخول الأرض المقدسة أبوا ذلك[١].

أ- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾:

- ﴿فَبَدَّلَ﴾: خالف، وحرَّفَ، وغيّر.

- ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: بمعصية الله.

- ﴿قَوْلًا﴾ آخر قبيحاً ﴿غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وقد بينه النبي ﷺ بقوله: قيل لبني إسرائيل ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، فبدّلوا فدخلوا يزحفون على استاههم، وقالوا حَبَّة في شعرة[٢]، وفي رواية: «بدّلوا فقالوا: حنطة في شعرة»[٣].

ودلّ الحديث على أنهم لم يعصوا الله تعالى بتبديل الكلام فقط، بل أضافوا إليها تبديل الهيئات، فبدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين لله تعالى، دخلوا يزحفون على مقاعدهم، ووجوههم وصدورهم إلى الأعلى، وبهذا استحقُّوا غضَبَ الله عليهم وعذابه[٤].

ب- ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾:

- ﴿فَأَنزَلْنَا﴾؛ أي: بعد التبديل والتحريف.

- ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بفسقهم، وخروجهم عن طاعة الله.

- ﴿رِجْزًا﴾ عذاباً وغضباً وبلاءً، ومنه الطاعون.

كما قال النبي ﷺ: «الطَّاعونُ رِجزٌ أو عذابٌ أُرسِل على بني إسرائيل، أو على مَن كان قبلَكم»[٥].

- ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من فوقهم.

---

(١) تفسير الزهراوين، ص ١٠٩.
(٢) البخاري، رقم ٣٤٠٣.
(٣) رواه أحمد رقم ٨١١٠، وصححه محققو المسند.
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٣).
(٥) رواه البخاري، رقم ٣٤٧٣.

ـ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾: بسبب فسقهم، وخروجهم عن طاعة الله تعالى، فهلك منهم العددُ العظيم(١).

إن ظلم بني إسرائيل كان كبيراً، فقد وصَفَهم بالظلم مرتين وبالفسق أيضاً، دلالةً على ما فعلوه من الكبائر، ولم يكتفوا بالتبديل والتحريف في ذلك الموقف، بل أضافوا إليه أيضاً فسقاً من قبل ومن بعد.

وفي الآية:

ـ قُبْح تحريف كلام الله، سواء أكان بتحريف اللفظ أم بتحريف المعنى.

ـ أن تبديل كلام الله ظلم عظيم.

ـ وعْظه الذين يتلاعبون بكلام الله، وأنهم يستحقّون عذاباً من السماء.

ـ خطورة الاستهزاء والاستخفاف بكلام الله، وأنّ ذلك ظلم وفسق عظيم.

والفسق نوعان: فسق أكبر، يخرِج من الدين، ويوجب الخلود في النار، وفسق أصغر وهو ما دون ذلك من أنواع المعاصي.

ـ وفيها: أن تبديل بني إسرائيل كان كلياً غير المعنى تماماً وليس جزئياً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾.

ويؤخذ من ذلك: أهمّية الإتيان بالألفاظ كما هي في العبادات من الأذكار والصلوات وغيرها.

ـ وفيها: إثبات حكمة الله في العذاب كما في قوله: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾.

ـ وفيها إثبات الأسباب، وتأثير السّبب في النتيجة، كما في قوله: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (٢).

---

(١) تفسير الزهراوين، ص١١٠.

(٢) تفسير الزهراوين، المصدر نفسه، ص ١١١.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠]:

وكما يسّر الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يد نبيه موسى عليه السلام، والقرآن يذكّرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام(١).

أ ـ ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾؛ أي: طلب موسى عليه السلام لقومه السُّقيا من ربه، والمعنى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى حين استسقاني لكم. وذلك أنهم عطشوا في التيه، فسألوا موسى أن يستسقي لهم، ففعل ذلك، وأوحى الله إليه أن اضربْ بعصاك الحجر(٢).

ب ـ ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾؛ أي: إن الله تعالى قد استجاب لطلب موسى عليه السلام، فأمره بأن يضرب عصاه بحجر، ففعل ذلك فخرجت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من المياه العذبة، تيسيراً لهم، وإنعاماً من الله تعالى عليهم(٣).

ت ـ ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي: المكان المخصَّص لشربهم، وهكذا يسَّر الله تعالى لهم ما يحتاجون من الماء في الصحراء، كما يسّر لهم الطعام، وقال لهم ممتنّاً عليهم:

ث ـ ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: كلوا واشربوا من هذا الرزق الإلهي؛ الذي أتاكم من غير كدّ ولا تعب، وهذا أمر إباحة وإرشاد لهم من الله تعالى(٤).

---

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٧٣).
(٢) تفسير الزهراوين، ص١١١.
(٣) التفسير المحرر، (١/ ١٨٧).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ١٨٧).

وحذرهم من العصيان والفساد الذي يمكن أن يحدث بسبب الترف والتوسع في المآكل والمشارب فقال:

ج- ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: ولا تنشروا الفسادَ في الأرض.

والعَثي: أشدُّ الفساد، والمعنى: لا تتمادَوا في الفساد حال إفسادكم[١].

وكأنه تعالى قال لهم: يكفي ما أنتم عليه من الفساد، فلا تعملوا على نشره في الأرض[٢]؛ أي: لا تعتدوا فيها بالمعاصي، وتنشروا فيها الفساد[٣].

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء، وقد جاء شرعنا بموافقة ذلك على صفة مخصوصة بصلاة أو دعاء[٤].

قال القرطبي: الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القَطْرِ، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلَّة مع التوبة النصوح، وقد استسقى نبينا محمد ﷺ، فخرج إلى المصلَّى متواضعاً مُتذلِّلاً مُتخشِّعاً متوسِّلاً متضرِّعاً[٥]، وحسبك به[٦].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً دخل يوم الجمعة من بابٍ وجاه[٧] المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السُّبُلُ، فادعُ الله أنْ يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللهم اسقِنا، اللهم اسقِنا، اللهم اسقنا». قال أنس: لا والله

---

(١) روح المعاني، (١/ ٢٧٢).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٥).
(٣) تفسير الزهراوين، ص١١١.
(٤) تفسير الزهراوين، ص١١١.
(٥) سنن الترمذي، (٢/ ٤٤٥)، حسن صحيح.
(٦) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (١/ ٢٨٤).
(٧) وجاه: بكسر الواو ويجوز ضمها أي: مواجهة.

ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة[١]، ولا شيئاً، وما بيننا وبين[٢] سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل التُّرس[٣]، فلما توسَّطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: والله ما رأينا الشمس سَبْتاً. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السُّبُل، فادعُ الله يمسِكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالَينا ولا علينا، اللهم على الآكام[٤] والظِّراب والأودية ومنابت الشجر». قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس، قال شريك: فسألت أنساً: أهو الرجل الأول؟ قال: لا أدري[٥].

ومن فوائد هذه الآية:

● معجزه ظاهرة لموسى عليه السلام بخروج الماء من هذا الحجر الأصم من عده وجوه:

١ ـ أنّه حجر يابس منفصل عن الأرض.

٢ ـ وأنه لا يمكن أن يكون الماء مخزوناً فيه عادة.

٣ ـ وأنه يخرج بمجرّد ضربه من العصا، لا يحتاج إلى حفر ولا تنقيب.

٤ ـ وأنه مُوزَّع على هذه العيون الاثنتي عشرة عدد قبائل بني إسرائيل.

٥ ـ وأنه يخرج منه ماء كثير يتدفق بقدر حاجتهم، ويكفي القوم جميعاً، ثم ينقطع عند استغنائهم عنه.

وفي ذلك شاهد عظيم على قدره الله تعالى، فإنّه أخرجه بهذه الكمية الكبيرة من غير حفر ولا تعب، فأين كان الماء مخزوناً؟

---

(١) قزعة: سحاب متفرق.
(٢) سلع: جبل معروف في المدينة.
(٣) مثل الترس: أي مستديرة.
(٤) الآكام: الهضبة الضخمة، والظراب: الجبل المنبسط ليس بالعالي.
(٥) رواه البخاري، رقم ١٠١٣.

وفيها: حُسن تنظيم القوم عند ازدحامهم، أو وجود العصبية بينهم؛ لئلا يتنازعوا، ولئلا يضيع الوقت بالانتظار الكثير.

وفيها: اتخاذ الأسباب التي تدفع العداوة والنزاع.

وفيها: أن من أعظم كفران النِّعَم مقابلتها بإشاعة الفساد في الأرض.

وفي الآية: تعليم العباد الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى قادر على أن يخرِج الماء من الحجر بغير ضربه بالعصا، ولكن أمر بضربه بالعصا ـ مع كونه سبباً ضعيفاً، ولا يخرج الماء في العادة ـ تعليماً للعباد، وربطاً للمُسبِّبات بالأسباب، وليكون ذلك على يد موسى ـ عبده وكليمه ـ تكريماً له[١].

وفيها: أنَّ من حسن إدارة القوم وقيادتهم: تقسيمهم وتوزيعهم وتعليم كل فريق حِصَّتَه وما يخصُّه، وأنَّ التخصيص بالتوزيع يمنع التداخل المؤدي إلى الفوضى والاعتداء والظلم.

وفيها: أن رزق الله قد يحصل للعبد بغير عمل منه ولا تعب، وما كان بعمل وتعب فهو من رزق الله أيضاً[٢].

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]:

لقد كانوا بين الصحراء بجَدْبها وصخورها، والسماء بشواظها ورُجُومها، فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المَنَّ والسَّلوى، عسلاً وطيراً، ولكن البنية النفسية المفكَّكة، والجِبِلّة الهابطة المتداعية، أبت على

(١) تفسير الزهراوين، ص١١٢.
(٢) تفسير الزهراوين، ص ١١٣.

القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء، لقد أخرجهم الله ـ على يدي نبيه موسى عليه السلام ـ من الذلّ والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضِّعَة.

وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنهم لا يريدون أن يؤدُّوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية، حتى بأن يتركوا مألوفَ حياتهم الرتيبة الهينة، أو أن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، أو أن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة في طريقهم إلى العزة والكرامة والحرية، إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر، يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إليها، وهذا ما يذكِّرهم القرآنُ به، وهم يدَّعون في المدنية دَعواهم العريضة[١].

أ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾:

ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ﴾ هكذا بكل وقاحة ينادون نبي الله موسى عليه السلام باسمه، مجرَّداً عن أي كلمة تدلُّ على احترامهم له، وتقديرهم لمكانته.

ـ ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ أي: لن نحبس أنفسنا على لون واحد من الطعام، لا يتغير ولا يتبدَّل[٢]، وهو المَنُّ والسَّلوى. وقد وصف الطعام بأنه واحد ـ على الرَّغم من أنّه من صنفين ـ لرتابة نزوله، والطعام كان يأتيهم من السماء، ولكن تعنُّتَهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه، فقالوا: ما يدرينا لعله لا يأتي، نريد طعاماً نزرعه بأيدينا، ويكون طوالَ الوقت أمام عيوننا، وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية لتعظيم الثقة في استمرار رزق الله، إنهم يريدون أن يروا، فماذا طلبوا؟

---

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٧٤).

(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٥).

ب ـ ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾:

ـ ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنه تعالى في نظرهم ربُّ موسى وحده[١]، وهذا يدلُّ على الغطرسة والجفاء، ولم يقولوا: «ادع لنا ربنا» أو «ادع لنا الله»، كأنَّ عندهم ـ والعياذ بالله ـ أنَفةً، مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى، مع ذلك يقولون: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، كما قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤][٢].

ـ ﴿يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا﴾: وهو نبات معروف، لا ساق له كالكُرَّاث، والنَّعناع، والبقدونس[٣].

ـ ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: نبات معروف يشبه الخيار. وقيل: خضراوات كالبطيخ، والقرع، ونحو ذلك، فالبقول ما يؤكل ساقه، والقِثاء ما يؤكل ثمره[٤].

ـ ﴿وَفُومِهَا﴾: الثوم المعروف. وقيل: الحنطة أو الحمص[٥].

ـ ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾: ويبدو أنها الأطعمة التي ألفوها، واعتادوا عليها عندما كانوا في مصر؛ ولهذا تشوقت نفوسهم إليها دون أن يبذلوا أي جهد في مقاومة نفوسهم، وتعويدها على الحياة الجديدة في الصحراء، ولا خيرَ في أمة تنقادُ لشهواتها، وتضعف أمام نفوسها. وردَّ عليهم موسى بأسلوب يدلُّ على ضجره منهم[٦].

ت ـ ﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾؛ أي: أنهم تركوا الذي هو خير، وهو المَنُّ والسَّلوى، وأخذوا الذي هو أدنى، والدنو هنا لا يعني الدناءة؛ لأنَّ ما تُنتجه الأرض من نِعَم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة، ولكن الله يخلق

(١) المصدر نفسه، (١/ ١١٥).
(٢) التفسير المحرر، (١/ ١٩٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٥).
(٤) تفسير الزهراوين، ص١١٣.
(٥) المصدر نفسه، ص١١٣.
(٦) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٦).

بالأسباب، ويخلق بالأمر المباشر، وما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة «كن» يكون خيراً مما جاء بالأسباب؛ لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه، عطاء خالص من الله.

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] يكون المعنى: أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله - تبارك وتعالى - وهو المَنّ والسَّلوى، يأتيكم بـ «كن»، قريب من رزق الآخرة، بما هو أقل منه درجة، وهو رزق الأسباب في الدنيا(١).

ث - ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾؛ أي: انزلوا أي قرية أو بلد لتجدوا فيها ما تُريدون من هذه الأطعمة، وقد يكون مراد موسى عليه السلام مصر البلد الذي كانوا فيه، ونوّن لسكون وسطه(٢).

قال الإمام محمد أبو زهرة: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ بالتنكير، يجعلنا نُفكِّر: أهي مصر التي اضطُهدوا فيها، وذبحت أبناؤهم، واستُحييت نساؤهم، أم مصر فيه ريفٌ وأرضٌ طيِّبةٌ وزراعة منتجةٌ مايريدونه من فوم، وقثاء، وعدس، وبصل.

إن التنكير يفيد أي مصر فيه زرع وثمار، ولكن الكثيرين من المفسرين يذكرون أنها مصر التي أُخرجوا منها، وأُرهقوا في حياتهم فيها، ومع ذلك لم يذكر أنهم عادوا إلى أرض مصر، وموسى بينهم؛ ولذا نُرجِّح أن موسى عليه السلام طلب إليهم أن ينزلوا من علياء الضيافة الربانية، والعزة الإلهية، وأن يشبعوا شهواتهم في أي مصر فيه الرِّيفُ، وما تُنبت الأرض من زروع وعيون بدل عزّة الصحراء(٣).

وقال الشيخ محمد متولي الشَّعراوي: نلاحظ هنا أن مصر جاءت منونة ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾، ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لا ترد منونة، ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرّة في القرآن الكريم، ونلاحظ أن مصر حينما يقصَد بها وادي النيل لاتأتي أبداً منونة، واقرأ قوله تعالى:

---

(١) تفسير الشعراوي، (١/ ٣٦٥).
(٢) انظر: تفاسير البيضاوي والنسفي والخازن؛ نقلاً عن التفسير الموضوعي، (١/ ١١٦).
(٣) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٥٠).

ـ ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧].

ـ وقوله جل جلاله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي﴾ [الزخرف: ٥١].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١].

ـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين، ولكن في الآية التي نحن بصددها ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ بالتنوين، هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها؟. نقول: لا[١].

كلمة مصر تُطلَق على كل مكان له مُفْتٍ وأمير وقاض، وهي مأخوذة من الاقتطاع؛ لأنه مكان يقطع امتدادَ الأرض الخلاء.

ولكن الثابت في القرآن الكريم أنَّ (مصر) التي لم تنون هي علم على مصر التي نعيش فيها، أمّا (مصراً) التي خضعت للتنوين فهي تعني: كل وادٍ فيه زرع[٢].

ج ـ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾:

وابتلاهم الله تعالى بسبب مواقف العناد والجحود والتعنُّت بالشتات والذلَّة والصِّغار، وجعلها ملازمةً لهم، وملاصقةً بهم، مهما امتد الزمان، وتقلَّبت الدهور والعصور، عدا فترات قليلة لا تعدُّ شيئاً بالنسبة إلى أعمار الأمم والشعوب، وأخبر تعالى علاّمُ الغيوب عن ذلك فقال:

ـ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾؛ أي: جُعلت الذلَّة محيطة بهم مشتملة عليهم، كما تكون القبّةُ محيطةً بمن تُضرب عليهم، أو أُلصقت الذلَّة بهم كما يلصَق الطين عندما يضرب على الحائط.

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٥٠).

(٢) تفسير الشعراوي، (١/ ٢٦٧).

ـ ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ أي: الفقر والفاقة. وسُمِّي الفقير مسكيناً؛ لأن الفقرَ أسكنه وأقعده عن الحركة[١].

﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر، سواء أكان فقر النفس أم فقر المال، فليس عندهم كرم حتى قيل: لا أبخل من يهودي؛ فإنه ـ وإن كثر ماله ـ فهو شديد الطمع لا يشبع، فقير القلب، يده مغلولة، ولزوم الذلّ والصغار لهم حقٌّ على الحقيقة، وخبرُ صدق ويقين، ومن أصدق من الله قيلاً؟ فإنهم كانوا عبر التاريخ مقهورين أذلاء ـ ولا يزالون ـ قد تسلَّطتْ عليهم الأمم حتى أخذ المجوسُ الجزيةَ منهم[٢].

قال محمد أبو زهرة: والمسكنة: هي الخضوع والاستسلام للوهن والضعف، وهي ملازمة للذلة، فحيث كانت الذلَّة كانت المسكنة، والخضوع للظالم، ولا يرضون إلا بالذل، ولا يقبلون غيره، فإن النفس إذا أَلِفت الذلّ واستمرأته، تَرضى بكل من يذلُّها، وتسكن خاضعةً له.

فالمسكنة مصدر ميمي على وزن مفعلة، معناه الخضوع المطلق والرضا بالظلم أو الظهور بمظهر قبوله، وهو السكون ممن لا يجابهون أهلَ الباطل بقولهم الحق يصكُّ آذانهم صكّاً[٣].

فإن قال قائل: فما بالهم اليوم قد صارت لهم دولةٌ وصولةٌ وعزٌّ وقوة؟

فالجواب: أنّهم وإن طَغَوا وبَغَوا فهم غُثاء كغُثاء السيل، والذل مكتوب عليهم ظاهر لمن تأمّله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ثم إن العِبرة بالأعمّ الأغلب، فإن أكثرَ تاريخ اليهود حتى الزمن القريب ظاهر فيه تشريدهم في الأرض، وتقطيعهم، وكُره الأمم لهم، ومهما بلغ اليهودي من

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٧).
(٢) تفسير الزهراوين، ص١١٤.
(٣) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٥١).

مال وسلطان فإنه لا يزال عند أغلب أهل الأرض منبوذاً محتقَراً خبيثاً، بل إن الشعوب من حولهم ترفض ـ في الجملة ـ مخالطتهم، ومصادقتهم، والعيش معهم.

ومن جهة أخرى، لا يزالون جُبناء يبنون الأسوار، ولا يعيشون إلا في المستوطنات المحصَّنة ـ ولو كانوا أقوى سلاحاً ـ ولو صارت مواجهة حقيقية لفرّوا من ذلهم، وجُبنهم، وهوانهم عند أنفسهم(١).

إن قوتهم ليست نابعة منهم، بل هي مستمدَّة من الناس، والدول التي تُؤيدهم، وتقف وراءهم، كيداً بالمسلمين، ومكراً بهم، واستنزافاً لخيراتهم وقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [ال عمران: ١١٢](٢).

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم، حتى أصبح الغضب من كثرة عصيانهم كأنه سمةٌ من سِماتهم(٣).

لقد قرَّر الله تعالى عقوبة قاسية لذوي الضمائر الفاسدة، وهي أنهم يرجعون بغضب الله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى، فمعنى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنهم رجعوا مصاحبين غضب الله تعالى ملازماً لهم لا ينفكُّون عنه، بل إنه يلازمهم في كل أدوار حياتهم.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك الغضب الذي لازمهم، بعد أن طردهم من رحمته، وأنهم لا يستحقُّونها، ذكر سبحانه وتعالى السبب في ذلك، فقال(٤):

ح ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

إن ضَرْب الذلَّة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن ـ من الناحية

(١) تفسير الزهراوين، ص ١١٥.
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٧).
(٣) تفسير الشعراوي، (١/ ٣٦٨).
(٤) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٥١).

التاريخية ـ في هذه المرحلة من تاريخهم، إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

وقد وقع هذا منهم مُتأخِّراً بعد عهد موسى بأجيال، إنما عجَّل السِّياق بذكر الذلَّة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس، والبصل، والثوم، والقثاء، فناسب أن يكونَ قولُ موسى لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ تذكيراً لهم بالذل في مصر وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذلّ والهوان.

ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيكذبون بآياته الشرعية، ويجحدون بآياته الكونية، وفيها معجزاتُ نبيهم موسى عليه السلام[١].

ـ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كيحيى وزكريا وغيرهما، وقد حاولوا قتل عيسى عليه السلام، فرفعه الله إليه، وتسبّبوا في موت نبينا محمد ﷺ بدسّهم السُّم له، في قصة الشاة المعروفة، وقد قال النبي ﷺ: «أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتلَه نبي، أو قتلَ نبياً»[٢].

خ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، وقوله تعالى في وصْف قتلهم للأنبياء بأنه بغير الحق وصْفٌ لإفادة عتوهم وكفرهم، لا لبيان أن القتل للنبيين قد يكون بحق، بل لبيان أن فعلهم إثم وليس له مُبرِّر، وأن كونه بغير الحق للتشنيع على فعلهم، وقبح تصرفاتهم، وقد علّل تعالى ذلك كما تلونا بأن ذلك كان بعصيانهم واعتدائهم[٣].

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن ذلك كان لمجرد الاعتداء، فهم في طبيعتهم العدوان؛ لأن المعصية إذا استمرَّت، ولجُّوا في العصيان، وسيطرت الأثرة

(١) تفسير الزهراوين، ص١١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٥.
(٣) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٥٣).

عليهم يكون من آثارها ـ لا محالة ـ الاعتداءُ في طلب الأشياء، والاعتداء بسيطرة الأهواء والشهوات، والاعتداء بقتل الأنبياء.

فالاعتداء والعصيان من شؤونهم، وهكذا هم بلاء هذا الوجود[١].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٢ ـ ٦٦]:

إن أبواب الرحمة لا زالت مفتوحةً أمامهم، ودعوة الخير لازالت تدعوهم وتناديهم، رغم كل ما تقدم من مواقف العناد والكفران، وما أعقبها من ضرب الذلَّة عليهم والهوان، فرسالةُ الإسلام رسالةُ الرحمة العامّة الشاملة لجميع الناس، فلا ينبغي اليأس والقنوط والاستسلام للذلة والهوان، فهذه الصفاتُ تلازمهم ماداموا متمسِّكين بعنادهم وباطلهم، أما إذا فتحوا قلوبَهم لدعوة الحق، وأسلموا نفوسهم لله تعالى، فطريقُ الحق مفتوح أمامهم، يمكنهم السير فيه، كما سار غيرهم. وقد استجاب لدعوة الحق بعضُ أفراد منهم أسلموا وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعنة، رضي الله عنهما وغيرهما، وهذا ما دلَّ عليه قوله تعالى[٢]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]:

ولما ذكر تعالى ما فعله باليهود من العقوبات، لمّا تعدَّوا حدوده، وعصَوا،

(١) تفسير أبي زهرة، المصدر نفسه، (١/ ٢٥٣).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٨).

وخالفوا أوامره، وانتهكوا حرماته، رغّب تعالى في الإيمان وإحسان العمل، وبين ما للمؤمنين عنده من الجزاء في الدنيا والآخرة فقال:

أ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وكتبه ورسله، وصدّقوا إيمانهم بالعمل الصَّالح، فقيل: هم مؤمنو هذه الأمة، وقيل: من آمن بالأنبياء الماضين قبل بعثة محمد ﷺ، وكان على التوحيد، كقُس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وبحيرا الراهب، وغيرهم.

وقيل: هم الذين صدّقوا النبي ﷺ، واتبعوه من أهل الديانات الأخرى.

ب ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيل: من «الهوادة»، وهي «الموادَّة»، وقيل: هي من «التَّهود»، وهو «التوبة»، وقيل: نسبة إلى (يهودا)، وهو أكبر أولاد يعقوب عليه السلام.

ت ـ ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع نصراني، وقيل: «نصران»، كما في «سكارى» و«سكران» و«نشاوى» و«نشوان»، سُمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في بلدة الناصرة، أو سُمُّوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم[1].

ث ـ ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ (صبأ) خرج من دين إلى دين، وقيل: هم قومٌ على الفطرة يعرفون الله، وليس لهم دين معينٌ يتبعونه.

وقيل: إن دينهم مركب من أديان أخرى كاليهودية والمجوسية، وقيل: يقرؤون الزبور، وقيل: يعبدون الملائكة، وقيل: يصلّون إلى غير القبلة وغير ذلك[2]، ويوجد في العراق إلى اليوم فرقة تُسمَّى «الصَّابئة» يعبدون الكواكب، ويعتقدون أن للنجوم تأثيراً في الأرض وفي حياة الناس.

ج ـ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾.

ـ **﴿مَنْ ءَامَنَ﴾** من هؤلاء جميعاً.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥)، وانظر: تفسير الزهراوين، ص١١٧.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ، (١/ ٧٣). وانظر: تفسير القرطبي، (١/ ٤٣٤).

ـ ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربّاً، واتبع ما أنزله.

ـ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وما فيه من البعث والحساب والجزاء.

ح ـ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ خالصاً لله، وعلى سُنة رسوله ﷺ خاتم النبيين؛ صار عمله مرضياً مقبولاً[١].

خ ـ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

ـ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثواب أعمالهم مُدَّخراً لهم.

ـ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحفظه، ويضاعفه لهم.

ـ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة يوم الفزع.

ـ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يوم يحزن المقصّرون على تضييع العمر، وتفويت الثواب، فلا يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا، لطيب عيشهم، وما يسكنون فيه من النعيم المقيم[٢].

فالرسالةُ الإسلامية عامة شاملة، والطريقُ مفتوح للجميع، وما على الذين يريدون النجاح إلا السلوك فيه[٣].

وفي هذه الآية الكريمة فوائد، منها:

١ ـ الاهتمام بدعوة الأديان الأخرى.

٢ ـ أهمية بيان حكم الله تعالى في أهل الملل الأخرى من غير المسلمين.

٣ ـ بيان مصير من بقي على التوحيد.

٤ ـ فضل من ترك دينه الباطل إلى دين الحق.

٥ ـ بيان ضمان الأجر؛ ولذا أضافه إلى الله في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

---

(١) تفسير الزهراوين، ص١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٨.

(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١١٩).

٦ ـ أن من اتبع الحق فلا يضرّه ما كان عليه في ماضيه من ديانة باطلة.

وفي الآية: طريقة حسنة لمخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم، بذكْر مَن هو أحسن منهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومن هم أسوأ منهم ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾.

ويؤخذ من الآية: أن من اليهود والنصارى قوماً ناجين فائزين، سواء من آمنوا بالتوحيد الذي كان عليه أنبياؤهم، وعملوا بما وصل إليهم من شرائع أنبيائهم، وماتوا قبل بعثة نبينا ﷺ، أو الذين أدركوا الإسلام، فدخلوا فيه، وتركوا دينهم الأول[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]:

ثم ذكر تعالى جناية أخرى لأسلاف بني إسرائيل:

أ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، واذكروا وقت أخذنا ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾؛ أي: العهد على آبائكم بقبول التوراة، والعمل بما فيها، وعبادة الله وحده لا شريك له، فأبيتُم الإقرار بذلك العهد الثقيل المؤكَّد، فرفع الله الجبل على رؤوسهم؛ ليقرُّوا ويأخذوا العهد بقوة، وهمّة، وامتثال.

ب ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: وهو الجبلُ المعروف حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق؛ وذلك أنهم لمّا رفضوا، قلع الله الطور من أصله، وجعله فوقهم، فعلموا أنهم إذا لم يمتثلوا فسيهوي عليهم، فلما رأوا أنه لا مهربَ لهم قبلوا وسجدوا، فرحمهم الله، وكشف عنهم، وقال لهم:

ت ـ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: من الكتاب ـ وهو التَّوراة ـ واعملوا بما فيه ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ، وعزيمة، واجتهاد.

ث ـ ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ادرسوا، واقرؤوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من المواعظ والأحكام، ولاتنسوه وتغفلوا عنه[2].

---

(١) تفسير الزهراوين، ص١١٨.

(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٠).

ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تنجون من العذاب، وتخشون الله، وتتقون عذابه وانتقامه[١].

ولا يزال اليهود ـ كما يقول العلماء ـ يسجدون على جانب من وجوههم، ونظرهم الى أعلى، منذ أُخذ عليهم الميثاق ورُفع الجبل فوقهم، ومع ذلك أعرضوا عن طاعة الله تعالى، وهجروا أحكامَ التوراة، وبدّلوا فيها وغيروا[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤]:

أ ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ﴾: التولي هو الإعراض، وأصله: الإدبار، وأن يجعل جسمه مولّياً وجه من يطالبه بقول أو عمل، والمعنى أنهم أعرضوا إعراضاً شديداً واضحاً، كمن يعرض عن القول بتولية جسمه، واتجاهه في اتجاه غير اتجاه من يواجهه بالقول. ومعنى ذلك أنهم جعلوا الله وميثاقه وراءهم ودُبُر آذانهم.

والتعبير هنا بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدلُّ على التراخي، للإشارة إلى البعد عن الميثاق وموجبه، وعملهم المناقض لأمر الله تعالى، والإشارة فيها للبعيد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ﴾ لبيان بُعد عملهم عن الميثاق الذي أمرهم سبحانه وتعالى أن يأخذوه بقوة، وأن يذكروه دائماً، وأن يكونَ في وعيهم في كلِّ أحوالهم.

وإن ذلك التولي كان بالإعراض عمّا جاء في التوراة في الألواح العشرة التي أخذوها بقوة، وطُولبوا بذكْرها دائماً؛ ليمكنهم أن يعملوا بها، وقد قال القَفَّال الشاشي: وإنهم بعد قبول التوراة ورَفْع الطور تولَّوا عن التوراة بأمور كثيرة؛ فحرّفوا كلِمها عن مواضعه، وتركوا العملَ بها، وقتلوا الأنبياء بعد أن كفروا بهم، وعصَوا أمرهم، ومنه ما عمله أوائلُهم، ومنه ما فعله مُتأخِّروهم، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم لأعاجيب البلاء يخالفون موسى، ويعترضون عليه، ويلقونه بكل أذى، ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك.

---

(١) المصدر السابق، (١/ ١٢٠).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٢٠).

حتى لقد خُسف ببعضهم، وأَحرقت النار بعضَهم، وعُوقبوا بالطاعون، ثم نقل متأخروهم ما لا خفاءَ فيه، حتى عُوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح، وهمّوا بقتله، فهذه الكلماتُ صَورت تولِّيهم عن الحق واستدباره في عامة أمورهم، وكان منهم في عهد موسى، وهو يكلِّمهم عن الله، ويتولَّى تربيتهم وبث روح الإيمان في قلوبهم التي قست، وكانوا صورةً واضحة للناس التي تغلب عليهم شقوتهم[١].

ب ـ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: الفاء فاء الإفصاح التي تُفصح عن شرط مقدّر، أي: إذا كان ذلك كله منكم، بعد ذلك التوثيق لأمر الله تعالى ونهيه، وأمركم أن تأخذوه؛ فإنه كان ينزل بكم الخسران المبين، والعذاب المهين، ولكن لولا فضل الله عليكم ورحمته، و﴿لَولاَ﴾ هنا هي التي يقال فيها: إنها حرف امتناع لوجود؛ لأنها حرفُ امتناع الجواب لوجود الشرط.

والمعنى أنكم كنتم تستحقون بذلك عذابَ الهون، ولولا فضلُ الله أي إرادته أن يزيد خيرَه عليكم؛ تمكيناً لكم من فعل الخير بإمهالكم لكنتم من الخاسرين، ولقد قال الراغبُ في تفسيره: الخاسر المطلق هو الذي خسر أعظم ما يقتني، وهو نعيمُ الأبد.

فالخاسرون: هم الذين خسروا أنفسَهم بأن أوقعوها في الهلكة والعذاب، وإنَّ النصَّ القرآني يفيدُ أن الله بفضله ورحمته أعطاهم مهلة؛ ليتداركوا أمرهم، ولم يكتبهم من الخاسرين[٢].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]:

أ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: ولقد علمتم العذابَ الذي أنزله الله تعالى بالخارجين على طاعته في يوم السبت، إذ أمرهم الله تعالى

(١) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٦٠).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٢٦٠).

أن يتفرّغوا للعبادة في هذا اليوم، وحرّم عليهم الاشتغالَ بأي عمل دنيوي فيه، فخالف بعضُهم أمره، وضعفوا أمام الكسب المادي الذي لاحَ لهم في هذا اليوم، فكانت الأسماكُ بتقدير الله تأتي إلى شواطئ بلدهم أيلة (قرب العقبة) في يوم السبت، وتغيب مبتعدةً في أعماق البحر في الأيام الأخرى، وقد فصّل الله خبرهم في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ويدلُّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، وقصة أصحاب السبت في الأعراف، التي مرّ شرحها بالتفصيل، على أنَّ حادثة أصحاب السبت مشهورة ومعروفة عند اليهود[١].

ب ـ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾:

ـ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾، وهو أمر تحويل وتكوين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكانوا كما قال سبحانه، وتحولوا إلى قردة من غير امتناع ولا تأخير.

ـ ﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: مُبعَدين أو صاغرين ذليلين، وظلُّوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم هلكوا، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يعِش مِسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل[٢].

وفي الحديث الشريف، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي ممّا مُسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ لم يهلِكْ قوماً، أو يعذب قوماً، فيجعل منهم نَسْلاً، وإنَّ القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»[٣].

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢١).
(٢) تفسير القرطبي، (١/ ٤٤١).
(٣) رواه مسلم، رقم ٢٦٦٣.

لقد مسخهم الله مَسْخاً حقيقياً لا معنوياً كما زعم بعضهم، ولو كان المسخُ معنوياً كما زعموا ما كان فيه عِبرة لمعتبر وموعظةٌ لمتّعظ، ولما قال بعد ذلك[١]:

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]:

إن الله تعالى جعل القريةَ التي وقع فيها الفسق عن أمر الله نكالاً وموعظة:

أ ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، النكالُ: المنع والزجر، والنكل: القيد، والأنكال: القيود؛ لأنها تمنع، والفاء للإفصاح، كما ذكرنا في غير هذا الموضع، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾ يعودُ إلى العقوبة؛ أي: جعلنا هذه العقوبة التي كان من مقتضاها أن يفقدوا معاني السُّمُو الإنساني والارتفاع عن حضيض الحيوانية الأَوهد.

وقيل: إنها تعودُ على القرية التي كان فيها ذلك الاعتداء؛ لأنها حاضرة في الذهن ومشار إليها بذكر الذين اعتدوا منكم في السبت، أي: القرية التي كان فيها الاعتداء، فهي وإن طُويت في البيان ملاحظةٌ في المعنى، وهكذا يفسِّر القرآنُ بعضُه بعضاً، وما يطوى في مكان يصرِّح به في مكان آخر، تعالت كلمات الله تعالى، وقد أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهم بسبب هذه الشهوات الجامحة الخارجة عن مقتضى الطبع الإنساني عذاباً شديداً من الذلّ بعد العزة، ومن الضيق بعد السعة، ومن الشدة بعد الرخاء، وجعلها عِبرة لمن بين يدي الحاضرين، ومَنْ يجيء بعدها من الناس، وعبّر ـ سبحانه وتعالى ـ عن الحاضرين بقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ كنايةً عن وجودهم معهم، وأنها على مقربة منهم، قرب ما بين اليدين من الصدر، والذين تحوطهم ويحوطونها، وإن ذلك العقاب يكون له صدًى يتردَّد في الأجيال بعدهم جيلاً بعد جيل[٢].

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٢).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٦٤).

ـ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما حولها من المدن والقرى الذين شاهدوا وعاينوا الممسوخين[١].

ب ـ ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: وخصّ ـ سبحانه وتعالى ـ تأثير الموعظة بالمتقين، وإن كانت هي للعالمين لتفرّدهم بالتأثر بها والاهتداء بهديها، وهم الذين تنفعل نفوسهم للخير؛ لأنهم ليسوا مغرورين بعزة الشيطان، ولكن تمتلئ قلوبهم بتقوى الله تعالى بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقاية، فمن دأبهم الحذر من الشَّرّ، وإذا ذكّروا ذكروا، والله هو الهادي إلى الرشاد[٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

قصُّ القصص للاعتبار، وفيها:

١ ـ أن العقوبات الإلهية تكون رادعةً لمن وقعت عليه حتى لا يعود، ولغيره حتى لا يتشبّه به.

٢ ـ أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون من كل أمة.

٣ ـ أن المواعظ كما تكون شرعية بالآيات والأحاديث والكلام النافع للقلب، فمنها ما يكون كونياً قدرياً، كذلك منها ما يكون بعقوبات تقع، وعذاب ينزل.

٤ ـ التحذير لهذه الأمة من التحايل على شرع الله، ومن ذلك التحايل على الربا، وإسقاط صاحب الحق في الميراث، وإسقاط الحدود الشرعية، والاحتيال لأكل المال بالباطل[٣]، وغير ذلك.

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٢).
(٢) تفسير الزهراوين، ص١٢٢.
(٣) تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص ١٢٣.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤]:

ترتبط هذه الآيات بما قبلها التي ذكر فيها بعض جرائم اليهود، من نقض العهد، والاعتداء في السبت، والتمرُّد في تطبيق التوراة، فهي استمرارٌ في تعداد مساوئهم، وهي: مخالفتهم الأنبياء، ومعاندة الرسل عليهم السلام، والتلكُّؤ في امتثال أوامر الله تعالى[1].

وأما في سبب قصة البقرة، فقد روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مالٌ كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدَّعيه عليهم، حتى تسلَّحوا وركب بعضُهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضُكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدَّدوا، فشُدِّد

(١) التفسير المنير، (١/ ٢٠٥).

عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له غيرها، فقال: والله، لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً، فذبحوها، فضربوا القتيلَ ببعضها، فقام، فقالوا: مَن قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه، ثم مال مَيتاً، فلم يعطَ من ماله شيئاً، فلم يورَّث قاتلٌ بعدُ[١]، وفي رواية: فأخذوا الغلام، فقتلوه[٢].

تفسير الآيات السابقة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]:

ولما ذكر تعالى قبائح بني إسرائيل، من نقض المواثيق والاعتداء، أردفه بنوع آخر من مساوئهم في تكذيبهم لأنبيائهم ومخالفتهم لهم، وعدم مسارعتهم في امتثال أوامر الوحي، مع كثره اللجاج والعناد[٣].

أ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾:

لما أخبر بنو إسرائيل موسى عليه السلام عن حادثة القتل، طلب منهم أن يذبحوا بقرة، وأخبرهم أن الله هو الذي يأمرهم بذلك، وما دور موسى عليه السلام إلا في تبليغهم وإخبارهم أمر الله.

وكلمة «بَقَرَةً» في الجملة نكرة، وهذا التنكير مقصود، ويشير إلى أن الأمر واضح مفهوم، وينفَّذ الأمر بذبح أية بقرة، فلو تناولوا بقرة من بين البقر وذبحوها لقاموا بالواجب[٤].

ب ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ أي: أتستهزئ بنا؟ وجاء قولهم بصيغة الاستفهام الإنكاري، فجمعوا به بين سوء الأدب مع نبي الله موسى عليه السلام، وعدم الثقة

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٢٩٧).
(٢) التفسير المنير، (١/ ٢٠٦).
(٣) تفسير الزهراوين، ص١٢٣.
(٤) القصص القرآني، الخالدي، (٣/ ٢٤٦).

به، كأنه عليه السلام يتقول على الله تعالى، وحاشا لنبي كريم أن يفعل هذا، فقولُهم دليلٌ على سوء اعتقادهم بنبيهم وتكذيبهم له، أو جرى على نحو ما هم عليه من غلظ الطبع، والجفاء، والمعصية[١].

لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب واتهاماً للنبي الكريم بأنه يهزأ بهم، ويسخر منهم، كأنما يجوز لإنسانٍ يعرفُ الله ـ فضلاً أن يكون رسول الله ـ أن يتَّخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس[٢].

ت ـ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه[٣].

فهو رسول كريم، يؤدي رسالة الله تعالى، ويبلِّغهم أمره؛ فالموقف خطير جدّاً، فكيف يكون مستهزئاً بهم؟ ولهذا نفاه عليه السلام بأسلوب الاستعاذة بالله تعالى من الاتِّصاف بصفة المستهزئ.

وكان عليهم بعد هذا البيان أن يشعروا بخطئهم، ويدركوا سوءَ أدبهم، ويعتذروا من موسى عليه السلام، ويبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى تائبين مستغفرين، ولكنْ بنو إسرائيل هم بنو إسرائيل ـ كما مرّ بنا ـ ظلّوا متمسكين بعنادهم مستمرين على سوء أدبهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يبين لهم حقيقةَ البقرة وصفتها[٤].

لقد علموا أن الأمر جدّ، وأنه من الله، وأنهم مُلزَمون بذبح البقرة، وأن لها صلةً بحادثة القتل، لكن طبيعتهم القائمة على التحايل والتباطؤ والتلكُّؤ تأبى عليهم المسارعة بتنفيذ أمر الله؛ ولهذا دخلوا في «مفاوضات»، وحوار مع موسى عليه السلام فزعموا أنهم لايعرفون المطلوب منهم بدقة ووضوح، فما البقرة التي أُمروا بذبحها؟

---

(١) روح المعاني، (١/ ٢٨٦).
(٢) في ظلال القرآن، (١/ ١٧٨).
(٣) تفسير البيضاوي، (١/ ١٢١).
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٣).

وما صفاتها؟ وما لونها؟ وما وظيفتُها عند أهلها[١]؟

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]:

أ ـ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وهي وقاحةٌ ثانية، وسوء أدب آخر، سبقت الإشارة إليهما من قبل، كأنه ـ تعالى ـ ربُّ موسى وحده[٢].

ب ـ ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؛ أي: ما حالها؟ وما صفاتها؟. قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: فلو اعترضوا بقرة، فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شدّدوا وتعنّتوا موسى، فشدَّدَ الله عليهم[٣].

ت ـ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾؛ أي: لا كبيرة، ولا صغيرة لم تلد[٤]، لا هي عجوز ولا شابّة[٥].

ث ـ ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾:

ـ ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة ـ وسَطٌ بين هذا وذاك ـ وهي التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون في البقر وأحسنه[٦]. ثمَّ يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرةٍ حازمةٍ.

ـ ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾: ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية، وكان حسبهم، وقد ردَّهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولمّح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي، أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة،

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٣).
(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٤).
(٣) تفسير الطبري، (١/ ٢٦٨).
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٤).
(٥) في ظلال القرآن، (١/ ٧٨).
(٦) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٤).

متوسطة السِّنِّ، فيخلِّصوا بها ذمتهم، وينفِّذوا بذبحها أمرَ ربهم، ويعفُوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق، ولكنهم راحوا يتساءلون[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]:

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار وكانوا من الأمر في سعة فأصبحوا مكلَّفين على أن يبحثوا لا عن بقرة مجرد بقرة، بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقعٌ لونها، وهي بعد هذا وذاك ليست هزيلة ولا شوهاء.

ـ ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ وسرورُ الناظرين لا يتمُّ إلا أن تقعَ أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة، فهذا هو الشائع في طباع الناس، أن يعجَبوا بالحيوية والاستواء ويسَرُّوا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه، ويشمئزُّوا.

ولقد كان فيما تلكؤوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم يعقِّدون الأمور، ويشدِّدون على أنفسهم، فشدَّد الله عليهم، لقد عادوا مرّة أخرى يسألون عن الماهية[٢].

٤ ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]:

وكأنهم قالوا لموسى عليه السلام: أخبرتنا أن هذه البقرة عَوان متوسطة السن من حيث العمر، وأنها صفراء فاقِعة اللون، ولكن هذا البيان زاد البقرة إيهاماً وغموضاً، فلم نعرف ما هي البقرة المطلوبة، إنّ البقر تشابه واختلط علينا، فلم نعدْ نعرف البقرة المطلوبة من بين البقرات الصفر العَوان، فادْعُ لنا ربك يبين لنا ما هي عند أهلها، وما هي منزلتها عندهم، وهل هي بقرة ذلولٌ عاملة، أم هي بقرة مُعزَّزة مكرّمة؟

إنهم السبب في تشابه البقر عليهم، فلولا أسئِلتُهم المتكلفة لما وقعوا في هذا

---

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٧٨).

(٢) في ظلال القرآن، (١/ ٧٩).

الإشكال، وكان بإمكانهم أن يذبحوا أية بقرة وينتهي الأمر، وأنّ الاشتباه والالتباس والحيرة ضريبة يدفعها كلّ من يترك التشريع الربانّي الميسَّر، ويذهب إلى التعقيد، والتشديد، والبحث عما لا فائدة منه.

ويحمل قولهم لموسى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾: معنى الاعتذار له، وكأنهم شعروا بتأخُّرهم وتلكُّؤهم، وببَجاحَتهم بتكلفهم وتنطعهم، فبرّروا ذلك بأن البقر تشابه واختلط عليهم، ووعدوا أن يمتثلوا الأمر، ويقوموا بالواجب بعد أن يعرفوا منزلةَ البقرة عند أهلها[1].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]:

ذكرت الآية الكريمة أوصافاً يشترط وجودها؛ ليكون ذبحها سائغاً مُجرِئاً:

أ ـ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾:

ـ أنها ليست ذلولاً، أي: ليست مُذلَّلة لعمل معين، بل هي مُطْلَقة، ترعى في الكلأ، لا رقابة ولا سلطان لأحد.

ـ أنها لم تُعَدَّ لحرث الأرض وإثارتها ليرمى فيها الزرع.

ـ أنها لا تسقي الزرع، فلا تدير ساقية تسقي الزرع[2].

ب ـ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ أي: خالية من العيوب، وآثار العمل[3]؛ أي: سليمة من العرج، ومن كل ما يشوب جسمها من شوائب المرض، فمسلّمة اسم مفعول من سُلِّمَ؛ أي: إنَّ الله تعالى سَلَّمَها من كل العيوب الجسمية، فلا بها عرج، ولاعور، ولا أي عيب جسمي.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٥٢).
(٢) تفسير أبي زهرة، (١/ ٢٦٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٦).

ت ـ ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي: ليس فيها لون يخالف لونها الذي يعمُّ كلَّ أجزائها[١].

ث ـ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمٌّ لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنُّت، فلهذا ما كادوا يذبحونها[٢] وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف[٣].

٦ ـ **قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]:

أ ـ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾؛ أي: اذكروا عندما حدثت جريمة قتل في مجتمعكم، وإما أن يكون القاتل واحداً أو جماعة منهم، وخُوطب الجميع به لحُدوثه بينهم.

ب ـ ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾؛ أي: اختلفتم، واختصمتم في شأنها في الدَّرء، وهو الدفع، فكلّ منهم يدفع التهمةَ عن نفسه، ويطرحها على غيره.

ت ـ ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أمر القاتل، ويبدو أن كثيراً منهم كانوا يعلمون القاتل، ويتستَّرون عليه، إما لوجاهته وماله، وإمّا خوفاً من شرِّه[٤].

٧ ـ **قوله تعالى**: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]:

أ ـ ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ أي: اضربوا جسد القتيل بجزء من البقرة المذبوحة، ففعلوا، فأحيا الله تعالى القتيل، وأخبر بنفسه عن قاتله، فكان ذلك معجزة باهرة دلّت على كمال قدرة الله تعالى.

ب ـ ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يوم القيامة.

---

(١) تفسير أبي زهرة، (١/ ١٢٦).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، (١/ ٧٨).
(٣) في ظلال القرآن، (١/ ٧٩).
(٤) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٧).

ت ـ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: الدالة على كمال قدرته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يا بني إسرائيل مما في هذه الواقعة من دروس، وعظات، وعبر.

فالله سبحانه قادر على أن يحيي القتيل من دون ذبح البقرة وضربه بجزء من أجزائها، ولكنّه سبحانه أراد أن يبين لهم تعنُّتهم، وعنادهم، وتقاعسهم عن تنفيذ أمره، والاستسلام لشرعه، ويكشف لهم سرّ التشديد في شريعة التوراة التي كلّفهم بها، فالتشديد في الحقيقة نابع من نفوسهم، ومن طبائعهم الغليظة الجافية، فهو حكيم بكل ما شرع، عليم بدخائل النفوس ومكنونات القلوب[١].

وتعقيباً على هذا المشهد الأخير من قصة موسى عليه السلام مع قومه في سورة البقرة؛ الذي كان من شأنه أن يستجيش في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى، وتعقيباً كذلك على كل ما سَلَفَ من المشاهد والأحداث والعِبر والعظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقَّع ويرتَقَب[٢].

٨ ـ **قوله تعالى**: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]:

أ ـ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ازدادت قلوبكم قسوة وغلظة بعد كل ما حدث، والمفروض أن ترقَّ، وتلين، وتخشع لجلال الله تعالى وعظمته، بعد أن رأت وشاهدت معجزة إحياء القتيل الباهرة.

وقسوة القلوب من أخطر أمراضها، وسببها: كثرة المعاصي والإدمان عليها، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) المصدر نفسه، (١/ ١٢٨).

(٢) في ظلال القرآن، (١/ ٨٠).

وقوله ﷺ: «تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشرِبَها نُكت فيه نكتة سوداء، وأيّ قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السموات والأرض والآخر أسود لا يعرف معروفاً ولا ينكر مُنكَراً، إلا ما أُشرِبَ من هواه»[(١)].

ودواء قسوة القلب التوبة من المعاصي، والخشوع لله تعالى، واستغفاره، والإكثار من ذكره، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٢ـ٢٣].

وقسوة قلوب بني إسرائيل قسوة شديدة خاصة لا لينَ معها، إذ وصفها سبحانه[(٢)] بقوله:

ب ـ ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾؛ أي: من الحجارة، وقد يكون من الحجارة خير.

ت ـ ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾، كالحجر الذي ضربه موسى عليه السلام في الصحراء، فانفجرت منه عيونُ الماء، كما مرّ بنا.

ث ـ ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: يخرُّ ويهوي من الأعلى إلى الأسفل من عظمة الله تعالى، فالحجارة تتأثر، وتنفعل، وتنقاد لأمر الله تعالى، وتخشع لجلاله جلَّ وعلا، كما قال: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

---

(١) مسلم، رقم ١٤٤.

(٢) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٩).

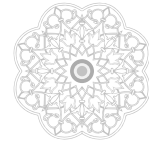
أما قلوب بني إسرائيل فلا تلين ولا تخشع، ولا تنقاد لأمر الله تعالى وشرعه.

ج ـ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من جرائم وخبائث وفِتن وفجور، ولا شك في أنه وعيد شديد لهم ولأمثالهم من ذوي القلوب القاسية الغليظة الجافية[١].

وبهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع بني إسرائيل في تاريخهم الحافل بالكفر، والتكذيب، والالتواء، واللَّجاجة، والكيد، والدس، والقسوة، والجدب، والتمرد، والفسوق[٢].

* * *

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ١٢٩).
(٢) في ظلال القرآن، (١/ ٨١).



المبحث الثاني

قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في سورة النساء والمائدة

أولاً: قصة موسى مع بني إسرائيل في سورة النساء:

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٦١]:

وقف اليهود في الجزيرة من الإسلام ونبي الإسلام ذلك الموقف العدائي المتعنّت المكشوف، وكادوا له ذلك الكيد المبيت العنيد المستمر؛ الذي وصفه القرآن الكريم تفصيلاً.

وفي هذه السورة تتحدَّث الآياتُ عن تعنُّتهم وطلبهم إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء، كتاب مخطوط، ينزله عليهم من السماء مُجسَّماً، يلمسونه بأيديهم. ويتولى الله عز وجل سبحانه الإجابة عن نبيه، ويقصّ عليه وعلى الناس صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى عليه السلام؛ الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد ﷺ.

إن هذه الجملة ليست جديدة عليهم، وليس طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي في جبلّتهم من قديم، وهم هم تعنُّتاً وإعناتاً؛ فلا يسلِمون إلا تحت القهر والضغط، وهم هم كفراً وغدراً؛ فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم ـ لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك ـ وهم فيهم قِحَةٌ وافتراء؛ فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول، ولا يتورَّعون كذلك عن الجهر بالمنكر، وهم هم طمعاً في عرَض الدنيا، وأكلاً لأموال الناس بالباطل، وإعراضاً عن أمر الله، وعما عنده من ثواب، إنها حملة تفضحهم، وتكشفهم، وتدلُّ قوتُها وتنوُّع اتجاهاتها، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خُبْث الكيد اليهودي للإسلام، وبَني الإسلام في ذلك الأوان، وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضدَّ هذا الدين وأهله حتى الآن[1].

تفسير الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣]:

أ ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾:

هذا السؤال الصَّادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ إنما كان على وجه العناد والاقتراح، وبه ربطوا تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة، كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غايةُ الظلم منهم

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٨٠٠).

والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبَّر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسِل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين عليه ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وكذلك جَعلُوا الفارقَ بين الحق والباطل مجرَّدَ إنزال الكتاب جملةً أو مفرَّقاً، إنّها مجرَّدُ دعوى لا دليل عليها ولا مناسبة، بل ولا شبهة، وهذا القرآن نزل مفرَّقاً بحسب الأحوال، مما يدلُّ على عظمته واعتناء الله بمن أُنزل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢ـ٣٣].

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به.

ب ـ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾: لم تبلغ الآيات البينات التي أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن تلمس حسَّهم، وتُوقظ وجدانهم، وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام؛ فإذا هم يطلبون رؤيه الله ـ سبحانه ـ عياناً، وهو مطلب طابعُه التبجُّح الذي لا يصدر عن طبع خالطته بشاشةُ الإيمان، أو فيه استعداد للإيمان[1].

ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾: ولكن الله ـ سبحانه ـ عفا عنهم، وتقبَّل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته إلى ربّه، كما ورد. وبيّنا ذلك في سورة الأعراف.

ت ـ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ﴾: عِجْل الذهب الذي صاغه لهم السَّامري، مما كانوا قد أخذوه ـ حليةً من نساء المصريين، وهم خارجون من مصر ـ فإذا هم يعكفون عليه، ويتَّخذونه إلهاً في

(١) تفسير السَّعدي، ص٢٤٥.

غيبة موسى عنهم في مناجاة ربّه، في الموعد الذي حدَّده له؛ لِينزل عليه الألواح فيها هدًى ونور(١).

ـ ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فعفونا لعبدة العِجْل عن عبادتهم إياه، وقد جعل الله توبتهم: أن يقتل بعضُهم بعضاً(٢)، وبين ذلك في سورة البقرة.

ث ـ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: السلطان: هو القدرة، وهو السلطة، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام القوة التي تدفع الباطل، وتُزيل رُواءه المضلِّل، فأعطاه المعجزات الباهرة البينة الواضحة، التي تُبين الحق، وأعطاه القوة التي غلب بها فرعون طاغية الدنيا في عصره؛ ولهذا ألقاه في اليم، وخرج ببني إسرائيل، وأعطاه القوة التي بها أخضع أولئك المتمرِّدين من بني إسرائيل على الحق؛ الذين تعودوا العصيان.

وأعطاه القوة فأنزل عليه التوراة، وهي وحدها سلطان مبين؛ لأنها بيان الحق، والحق في ذاته قوة.

والتوراة هي ميثاق الله تعالى، وفوق ذلك أخذ الله تعالى ميثاقاً بمقتضى الفطرة، وميثاقاً على الطاعة، كما في التوراة(٣).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤]:

أ ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾؛ أي: حين امتنعوا من العمل بالتوراة، التي عُهد إليهم الالتزام بها عهداً مؤكداً، رفعنا فوق رؤوسهم جبل الطور لتخويفهم؛ كي يقرُّوا بما عُوهدوا عليه، ويعملوا به بقوة(٤).

---

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٨٠٠).
(٢) تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٤٦).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٤/ ١٩٦٤).
(٤) تفسير المحرّر، (٣/ ٧٢١).

ب ـ ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: ادخلوا باب المدينة مطأطئي رؤوسكم بهيئة الساجدين، أمارة الخضوع حسّاً، وهو دليل على الخضوع معنىً بالإذعان لأوامر الله تعالى، وفي الآية تصريحٌ بالطاعة المطلقة التي يتضمَّنها الأمر بالدخول سُجّداً مطأطئي الرؤوس، والمدينة أوالقرية قيل: هي بيت المقدس. وقيل غيرها. وقد أبهمها الله، ولم يوجد في السنَّة الصَّحيحة ما يبينها، فلنترك أمرها، ولا ينقص ذلك الهدف القرآني من سياق هذه القصة، وهي أنهم أُمروا بالطاعة المطلقة[1]، وقد مرّ الحديث عن القرية في سورة البقرة والأعراف.

ت ـ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ **الآية**: لم يبين هنا هل امتثلوا هذا الأمر، فتركوا العدوان في السبت أم لا، ولكنه بين في مواضع أُخَر أنهم لم يمتثلوا وأنهم اعتدوا في السبت.

ـ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥].

ـ وقوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣][2].

ث ـ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾؛ أي: وأخذنا عليهم عهداً مؤكّداً شديداً، بأن يعملوا بما أمرهم الله تعالى به، وينتهوا عما نهاهم عنه[3].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]:

في هذا النص الكريم يبين فيه سبحانه وتعالى ما ارتكبوه من مظالم وعواقب ذلك عليهم؛ ولذا قال:

أ ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ذكر الله

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٤/ ١٩٤٧).
(٢) أضواء البيان، (١/ ٤٣٠).
(٣) التفسير المحرّر، (٣/ ٧٢٢).

تعالى في هذه الآيات الظلم الذي وقع منهم، فذكر مظالم كثيرة لهم، فهم نقضوا الميثاق، وكفروا بالحجج والبينات، وقتلوا الأنبياء، ونسبوا سبب الكفر إلى غيرهم، وكذبوا على مريم البتول، وادَّعوا أنهم قتلوا المسيح، وصدوا عن سبيل الله، وأكلوا الربا، وقد نُهوا عنه إلى آخر ما كفروا به، هؤلاء هم بنو إسرائيل، دائماً ينقضون المواثيق والعهود، ولا يراعون إلاًّ ولا ذمَّة، ويكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء، ويظلمون أنفسهم فيشدِّد الله عليهم الأحكام، فيحرِّم عليهم الطيبات التي كانت مباحة لهم(١).

ب ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ أي: : وبسبب قولهم قلوبنا داخلة في غلاف وأغطية، فلا نعقل بها(٢).

ت ـ ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: والحق أن الله سبحانه وتعالى لما رأى أنهم لا يهتدون، ولا يعطُون التفاتاً للدعوة، ويدرؤون حجَّة الرسل، ويدفعون براهينهم بباطل من عندهم، جزاهم على كفرهم هذا بأن طبع على قلوبهم وختم عليها، فهم لذلك لا يهتدون سبيلاً، ولا يؤمنون إلا قليلاً(٣).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]:

أ ـ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: وبسبب كفرهم في أمر عيسى عليه السلام.

وتأمل كم مرة وصفوا بالكفر، فكفرهم مُتوالٍ عليهم، ومتعاقب تعاقُبَ أجيالهم، فهو كفرٌ عريقٌ متوارَث فيهم، ينتقل من السلف إلى الخلف.

ب ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾؛ أي: وافترائهم على مريم فرية عظيمة؛ فقد اتَّهموها زوراً وكذباً بالزنا عندما قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] (٤).

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٤/ ١٩٤٩).
(٢) تفسير المحرر (٣/ ٧٢٣).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٤/ ١٩٤٩).
(٤) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٠٩).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]:

أ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: وسبب ادّعائهم الكاذب أنهم قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله، وجاء وصفهم له بالرسالة على سبيل الاستهزاء والعناد.

ونفى سبحانه ادّعاءَهم الكاذب هذا نفياً قاطعاً، بعد أن حكاه عنهم مباشرة:

ب ـ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ أي: اشتبه عليهم أمره، فأخذوا غيره فقتلوه، أمَّا عيسى عليه السلام، فرفعه تعالى إلى السماء؛ كما ذكر في قوله الكريم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ت ـ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾:

ـ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ أي: اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام.

ـ ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: لَفي تردُّدٍ وحَيرة.

ـ ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾؛ أي: ليس لهم علم بحقيقة ما حدث لعيسى عليه السلام، لكنهم يتّبعون الظن.

ـ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾؛ أي: وما قتلوه قتلاً يقيناً، كما زعموا بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ (١).

---

(١) التفسير الموضوعي، (١/ ٢٠٩).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]:

أ ـ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾؛ أي: بل الحقيقة أن الله تعالى رفعه إليه، ونجَّاه من مكرهم وكيدهم، فهو حي في السماء، وسينزل قُبيل قيام الساعة، فيقتل الدَّجال، ويكسر الصليب، كما سيأتي في الحديث الشَّريف الصَّحيح.

ب ـ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: وكان الله ولا يزال قوياً لا يغلَبُ، حكيماً في كلّ ما قدّر وشرع[1].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]:

أ ـ ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: وما من أحد من أهل الكتاب.

ب ـ ﴿إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾؛ أي: إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام الإيمان الصَّحيح بأنه عبد الله ورسوله قبل موت عيسى عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض.

ـ فالمراد: أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول عيسى إلى الأرض.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد: عموم أهل الكتاب، ورَدُّوا الضمير إلى الكتابي عندما يموت، وهذا الإيمان لا ينفعه؛ لأنه جاء متأخِّراً عند اليأس من الحياة.

لكنّ الأحاديث الشريفةَ الصَّحيحة، التي بلغت مبلغ التواتر، وتحدَّثت عن نزول عيسى قبل قيام الساعة إلى الأرض تُقوي الرأي الأول:

منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليبَ، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب ـ وفي رواية: الجزية ـ ويفيض المالُ حتى لا يقبله أحدٌ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة:

---

(١) المصدر نفسه، (١/ ٢١٠).

اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩] (١).

ففي رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن الضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ﴾، وكذا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، يعود على عيسى، أي: إلا ليؤمننّ بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزم ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه ابن جرير من طريق سعد بن جبير عنه بإسناد صحيح، ومن طريق أبي رَجاءٍ عن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآن لحي، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. ونقله عن أكثر أهل العلم ورجّحه ابن جرير وغيره(٢).

ت ـ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: شهيداً على أنه بلّغهم رسالة ربه، وأقرّ بالعبودية على نفسه(٣).

وكما اعتدى اليهود من أهل الكتاب على الأنبياء، فقتلوا بعضهم وافتروا على بعضهم، فاتهموهم بتُهمٍ كاذبة باطلة، كذلك اعتدوا على كثير من الناس، فبغَوا عليهم، وظلموهم، وأكلوا حقوقهم، وهو ما أخبر عنه تعالى:

٨ ـ قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]:

أ ـ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾: بسبب الظلم الذي فعله اليهود حرَّم الله عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

---

(١) رواه البخاري، رقم ٣٤٤٨.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٦/ ٤٩٢).
(٣) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢١١).

ب ـ ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾؛ أي: وبسبب منعهم كثيراً من الناس عن الإيمان بالله تعالى، والاستجابة لدعوة رسله، وهذه سجيةٌ همْ مُتَّصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ووقائع التاريخ شواهد عليها.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١]:

أ ـ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾؛ أي: وبسبب أكلهم الربا مستحلّين له، وقد حرّمه تعالى عليهم، فهم الذين ابتدعوا هذه النظم الاقتصادية القائمة على الربا، التي يتمكَّنون بها من امتصاص خيرات الأمم والشعوب في جنبات الأرض.

ب ـ ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾؛ أي: وبسبب عدوانهم على أموال الناس، وأكلهم لها بالطرق المحرمة، كالرشوة والغش والقمار والغصب، ولهذه الأسباب كلها شدّد الله تعالى عليهم في الدنيا، وحرّم عليهم بعضَ الطيبات التي كانت حلالاً لهم.

ت ـ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة[1].

ثانياً: قصة موسى عليه السلام مع قومه في سورة المائدة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢).

﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦]:

هذه القصة التي بين موسى عليه السلام وقومه، التي جاءت في سورة المائدة، ونزلت في الفتره المدنية، تتحدَّث عن مرحلة متقدمة في حياة موسى مع قومه، وهم على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله، وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم، وكيف نقضوه، وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق[1].

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصّلها القرآن أوسع تفصيل، وذلك لحكمة متشعبة الجوانب:

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوه الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها؛ فقد كانوا حرباً على الإسلام منذ اليوم الأول، وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة، وأمدّوهم بوسائل الكيد للعقيدة والمسلمين معاً، وهم الذين حرّضوا المشركين وواعدوهم، وتآمروا معهم على الإسلام، وهم الذين تولَّوا حربَ الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم، كما تولَّوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة.

وذلك كله قبل أن يسفِروا عن وجوههم في الحرب المعلَنة الصريحة، فلم يكن بدٌّ من كشفهم للمسلمين؛ ليعرفوا من هم أعداؤهم وما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقةُ المعركة التي يخوضونها معهم؟

ومن جوانب هذه الحكمة: أن بني إسرائيل قد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، وقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم، ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم، فاقتضى هذا أن تُلمَّ الأمة المسلمة ـ وهي وارثة

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٦٨).

الرسالات كلها، وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ـ بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ، وتعرف مزالق الطريق وعواقبها، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضمَّ هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها، وتنتفع بهذا الرصيد، وتنفع على مدار القرون، ولِتتقي ـ بصفة خاصة ـ مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدي التَّجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة: أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل، وقد علم الله أن الأمد حين يطولُ على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها، وأن الأمة المسلمة التي سيمتدُّ تاريخها حتى تقوم الساعة ستُصادفها فترات، تُشبه ما مرَّ في حياة بني إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها، ومجدِّدي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العَقابيل التي تُلِمُّ بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته، ذلك أن أشدَّ القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثمَّ انحرفت، فالقلوب الغُفْل الخام أقرب إلى الاستجابة؛ لأنها تُفاجأ من الدعوة بجديد يهزُّها وينفضُ عنها الركام لجدّته عليها وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة، فأما القلوب التي نُوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته، ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجدِّيته، ومن ثمَّ تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصَّبر الطويل.

وهناك جوانب شتّى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل، وعرضها مفصّلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين... وهذه إشاراتٌ سريعة لجوانب الحكمة من قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم.

ونعود إلى هذه الحلقة، في هذا الدرس وفي هذه السورة[١] التي تُبين موقف بني إسرائيل من نبي الله موسى عليه السلام الذي أرسله الله إليهم، وخلّصهم على

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٦٩).

يديه من ظلم فرعون الذي كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وطغيانه، وأنعم الله عليهم إكراماً لموسى عليه السلام نِعَماً جلية جليلة، كتظليل الغمام، ونبع الماء من الحجر، وإنزال المَنِّ والسَّلوى، وفوق كل ذلك أنزل عليهم التوراة نوراً وهداية، ومع كل هذه النِّعَم وقفوا مع نبي الله موسى موقف الجحود والخذلان عندما طلب إليهم موسى أن يجاهدوا في سبيل الله، ويدخلوا الأرض المقدسة، وقبل أن يطلب إليهم ذلك ذكَّرهم ببعض نِعَم الله عليهم(١).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]:

إننا لنلمحُ في كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردُّد القوم ونكوصهم على الأعقاب، فقد جرَّبهم من قبل في مواطن كثيرة في خط سير الرحلة الطويل، وقد أخرجهم من أرض مصر، وحَرَّرهم من الذلّ والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذي فرق لهم البحر، وأغرق لهم فرعون وجنده، فإذا هم يمرُّون على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيقولون: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربّه حتى يتّخذ السَّامري من الحلي التي معهم من نساء المصريين عِجْلاً ذهباً له خُوار، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إله موسى الذي ذهب لميقات ربه، وجرّبهم، وقد فجّر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء، وأنزل عليهم المَنِّ والسَّلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر، أرض الذلّ بالنسبة لهم، فيطلبون بَقْلها وقثائها وفُومها وعَدَسها وبَصَلها، ولا يصبرون على ما ألفوا من طعام وحياة في سبيل العزة والخلاص، والهدف الأسمى الذي يسوقهم إليه موسى، وهم يتسكّعون.

وجرّبهم في قصة البقرة التي أُمروا بذبحها، فتلكَّؤوا، وتسكَّعوا في الطاعة

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٨٣).

والتنفيذ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. وجرّبهم وقد عاد من ميقات ربّه ومعه الألواح، وفيها ميثاق الله عليهم، فأبَوا أن يعطوا الميثاق، وأن يمضُوا العهدَ مع ربهم بعد كل هذه الآلاء، وكل هذه المغفرة للخطايا، ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل مَنْتُوقاً فوق رؤوسهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١].

لقد جَرَّبهم في مواطن كثيرة طول الطريق الطويل، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة، أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا، الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها، ليظلُّوا في رعاية الله وقيادته.

لقد جرّبهم فحقَّ له أن يشفِقَ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة، فيحشد فيها ألمعَ الـمُذكِّرات، وأكبر البُشريات، وأضخم المشجِّعات، وأشدَّ التحذيرات[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾:

ومعنى النص الكريم: اذكر ـ يا محمد ـ حال موسى مع قومه بعد أن رأوا الآيات المحسوسة، وبعد أن نزل عليهم من النِّعَم والآلاء، وحال قومه معه، لقد دعاهم إلى الجهاد بقوله:

ـ ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ابتدأ بالنداء.

ـ ﴿يَا قَوْمِ﴾: تذكير لهم بما يربطهم من رابطة الدم والقرابة التي تجعله منهم، يهمُّه ما يهمُّهم، ويسعده ما يسعدهم، ويعِزُّه ما يعِزُّهم، فوق أنه رسول الله إليهم، وهو بهذا يقرِّبهم إليه؛ ليقترب إلى نفوسهم، والتذكير كان بنعمة الله تعالى عليهم التي تُوجب عليهم الطاعة، وقد عَدَّ نِعَماً ثلاثاً بقوله: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

نِعَمٌ ثلاث بيناتٌ واضحات:

فالنعمة الأولى: أنه سبحانه: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أي: أنه سبحانه قد بعث

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٦٩).

فيهم أنبياء يهدونهم ويرشدونهم، وكانوا كالمصابيح في ديجور الظلام، ونوراً في عمياء الضَّلالة، ولا مِنَّةَ أَجَلُّ من الهداية والسير في طريق الحق، ولا نقمة أشد من نقمة الضَّلالة والسير في طريق الفساد(١).

إن وجود الأنبياء في أي مجتمع من المجتمعات من أعظم وأجلّ النعم، فكلما هلك نبي في بني إسرائيل قام فيهم غيرُه من لدن موسى إلى زمن عيسى عليهما السلام(٢).

وقال محمد أبو زهرة في قوله: ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾: للكثرة، اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء كثيرين، ويكون ما اختصُّوا به هو كثرة الأنبياء قبل موسى وبعده، ولا يقال: إن الأنبياء كانوا فيهم وحدهم؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] (٣).

والنعمة الثانية: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، ويلاحظ أن النعمة الأولى قرَّر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه جعل فيهم أنبياء؛ أي: جعل بعضاً منهم أنبياء، أما النعمة الثانية فقد قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ أي: لم يجعل الملك في بعضهم، بل جعلهم جميعاً ملوكاً(٤)؛ أي: تعيشون عيش الملوك، لكثرة ما أفاض الله تعالى عليكم من رزقه وفضله(٥)، وقال بعض العلماء: إنَّ المراد: جعلَ فيهم زعماءَ منهم مسيطرين على أمورهم، مُوجِّهين لشؤونهم، كما طلبوا ذلك من بعد في قصة طالوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١٠٨).
(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٨٣).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١٠٤).
(٤) المصدر نفسه، (٤/ ٢١٠٩).
(٥) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٨٣).

والمراد أن يبعث عليهم كبيراً يتبعونه في القتال، ويظهر أن ذلك كان منهم من بعد موسى ومن قبله، والقائد إذا كان من الشعب أو من الجماعة كانوا جميعاً ملوكاً ومسيطرين على أمورهم؛ لأنه ينفِّذ إرادتهم، ويسير مع إحساسهم، ويعمل لمصلحتهم ما ظهر منها وما بطن، وقد يفسّر المُلك بأنه خروجهم في عهد موسى من رِبْقَة العبودية التي فرضها عليهم فرعون، فقد صارت لهم إرادة حرة، وتوجيه لعامة أمورهم، واختيارهم لحكامهم، وبذلك صاروا ملوكاً، وفوق ذلك قد أُوتوا رَغَد العيش، وصاروا أحراراً في بيوتهم، بعد أن كان فرعون يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

وفي الآثار أن الرجل إذا كان له ما يكفيه وأهله بالمعروف كان ملكاً، سأل رجلٌ عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. وقد رُوي أن النبي ﷺ قال: «من كان له بيتٌ وخادمٌ فهو ملكٌ»[١].

قد آتى سبحانه وتعالى بني إسرائيل الحرية، ومنع ذلَّهم، ومنحهم رغد العيش، وبذلك جعلهم ملوكاً بموسى عليه السلام[٢].

والنبي ﷺ يحدد الملكية الواسعة التي تُحدِّد الفرد تحديداً إيمانياً فقال: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافىً في جسده، عنده قُوتُ يومه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»[٣].

وما دامت قد حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك[٤].

والنعمة الثالثة: هي النِّعَم التي أفاضها الله تعالى عليهم، وقد عبّر سبحانه

---

(١) تفسير الطبري، (٦/ ١٠٨)، تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١١).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١٠).
(٣) سنن الترمذي، نقلاً عن تفسير الشعراوي، (٥/ ٣٠٤٣).
(٤) تفسير الشعراوي، (٥/ ٣٠٤٣).

وتعالى بقوله حاكياً: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والعالمون: جمعٌ أُريد به العقلاء من أهل هذه الأرض، ويفترق عن مفرده بأن المفرد يطلق على كل من هو على ظهر الأرض، أو في باطنها من جمادات ونبات وحيوان وإنسان، بل إنه يشمل الأرض والسموات، قاصيها ودانيها؛ ولذلك يقول العلماء: إن المفرد هنا أعمُّ من الجمع؛ لأن الجمع لا يشمل إلا العقلاء، على حين يشمل المفرد كلَّ شيء، والمفرد هو العالم.

وقد قال العلماء: إن المراد هو العالمون في زمانهم، أما مَنْ جاء بعدهم فقد أعطاهم الله تعالى ما هو أكثر وأبعد أثراً، وذكر الزمخشري هذه النِّعَم فقال: ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من فَلق البحر، وإغراق العدو، وتظليل الغمام، وإنزال المَنِّ والسَّلوى، ويصحُّ أن يضاف إلى ذلك إنقاذهم من أذى فرعون.

وهذه نِعَم منها ما أخذها غيرُهم، ومنها ما اختصوا بها كَفَلَق البحر اثني عشر فرقاً؛ كالطود العظيم، وإنزال المَنِّ والسَّلوى، فهذه اختُصوا بها دون العالمين، وإن لم يكن أكبر مما أعطاه غيرهم من نصر مُؤزَّر[1].

وقال الخالدي في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أعطى الله بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام ما لم يعطِ أحداً من عالمي زمانهم، حيث أعطاهم الهداية على يد موسى عليه السلام، ومنّ عليهم بالإيمان، وأنزل عليهم التشريعات والأحكام، كما أنجاهم من اضطهاد فرعون وجنوده، ونصرهم على أعدائهم، فكلمة «العالمين» خاصة بعالمَي زمانهم في عهد موسى عليه السلام، وليست عامة مطلقة شاملة لجميع العالمين حتى قيام الساعة، كما يزعم اليهود ويدّعون أن الله فضّلهم لجنسهم الإسرائيلي على جميع الناس، وأنَّ هذا مستمرٌّ حتى قيام الساعة[2].

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١٠).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٣).

وقال الإمام ابن كثير في التفسير: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرفَ الناس في زمانهم من اليونان، والقبط، وسائر أصناف بني آدم[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]:

أ ـ ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أمرهم بدخول الأرض المقدسة دخولاً جهادياً قتالياً؛ لأنه كانت فيها أقوام أخرى، من الكنعانيين والفلسطينيين وغيرهم من الكافرين، ولا بدّ أن يقاتلوهم ليحلّوا محلَّهم، وضَمِن لهم النصر على أعدائهم الكافرين، حيث أخبرهم أن الله كتبها لهم، وما عليهم إلا الأخذ بالأسباب والقيام بالجهاد، والنصر حاصل بعد ذلك بإذن الله[٢].

والأرض المقدسة هي الأرض المباركة المطهرة التي قدَّسها الله، وبارك فيها، وجعل فيها البركات والخيرات، وبعث فيها الرسل والأنبياء.

هذه الأرضُ التي أتى الله بإبراهيم عليه السلام إليها، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وهي الأرض الواقعة بين النهرين الإسلاميين: النيل والفرات، وهي بلاد الشام بمفهومها الواسع التي تشتمل الآن على أربعة أقطار سياسية: سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن، قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: الأرض المقدسة: ما بين العريش والفرات، وقال قتادة: هي بلاد الشام[٣].

لقد كتب الله الأرضَ المقدسة المباركة الواقعة بين النيل والفرات ـ بلاد الشام ـ لذلك الجيل من بني إسرائيل، الجيل المؤمن بموسى عليه السلام،

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٧٤).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٤).
(٣) تفسير المنار، (٦/ ٣٢٥)، وانظر: القصص القرآني، الخالدي، (٣/ ٢٧٤).

وذلك تكريماً لهم لإيمانهم بالله ـ فقد كانوا مؤمنين ـ على ما في إيمانهم من خلخلة وضعف ـ وسط أقوام من الكافرين، كالفراعنة، والكنعانيين، وغيرهم.

وبسبب هذه الخصوصية الإيمانية فيهم كتب الله لهم الأرض المقدسة، فإن فقدوا هذه الخصوصية الإيمانية، وكفروا، وبغَوا، فقدوا حقَّهم في الأرض المقدسة، وهذا ما حصل فيما بعد.

الكتابة كتابة إيمانية بشرط تحقيق الإيمان والصلاح[1].

وهذا ما ورد صريحاً في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

ولما كفر بنو إسرائيل فيما بعد، وطغَوا وبغَوا وقتلوا الرسل، انتزع الله الأرض المقدسة منهم، وأحلَّ عليهم لعنته ونقمته، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٦٨].

وهذا إلى تكذيب مزاعم اليهود وادعاءاتهم بأنّ الله كتب لهم الأرض المقدسة كتابة أبدية مستمرة حتى قيام الساعة، كتبها لهم باعتبار جنسهم الإسرائيلي، وملّكهم إياها إلى يوم القيامة، فهم أصحابها الشرعيون، ولهم أن يحرموا الآخرين منها، هذه مزاعم يهودية، وأكاذيب صهيونية، تنقضُها تلك الآيات القرآنية.

إن الله كتب لهم الأرض المقدسة كتابة إيمانية لفترة زمنية محددة، وما حصل بعد ذلك أنهم كفروا، ففقدوا حقَّهم في الأرض المقدسة، وأخرج الله أمة محمد ﷺ، أمة الخلافة، والرسالة والشهادة، حتى قيام الساعة، فصارت هي الوارثة

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٥).

للأرض المقدسة تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] (١).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: فهل هذه الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم كتابة كونية أو كتابة تشريعية؟

إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها، ولكنه قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.

إذن هي إرادة تشريعية، وليست إرادة كونية، فإن أطاعوا أمر الله، وتشجَّعوا، ودخلوا الأرض المقدسة، فإنهم يأخذونها، وإن لم يطيعوه فهي محرمة عليهم، إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه: إنه كتبها لهم، ثم قوله من بعد ذلك: إنها محرمة عليهم، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية، فإن دخلوها بشجاعة، ولم يخافوا ممن فيها، واستبسلوا، ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم؛ فإنهم سيدخلونها، أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرمة عليهم(٢).

إن الكتابة هنا تشريعية، وليست كونية، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض المقدسة دون عقبات، ودون صراع، ودون قتال(٣).

ب ـ ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، توقَّع موسى عليه السلام أن يتخاذلوا إذ يدعوهم إلى العزة والنصر، فنبَّههم إلى ما يؤدي إليه التخاذل عن الدخول، وهذا التعبير «ارتدَّ على دُبُره» كتعبير «نكصَ على عَقِبَيه» وكتعبير «ولَّوا الأدبارَ» استعارة تمثيلية، فيها تشبيه حال من يرجع عن الجهاد بعد أن توافرت أسبابه بحال من يتراجع سائراً بظهره إلى الوراء بدل أن يسير بمقدمه إلى الأمام، وهذا التعبير يصور قبح التخاذل حسّاً ومعنى.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٥).
(٢) تفسير الشعراوي، (٥/ ٣٠٥١).
(٣) المصدر نفسه، (٥٠/ ٣٠٥٧).

إن بني إسرائيل كانوا قد ضعفت همَّتُهم، وماتت عزائمهم؛ ولذلك أجابوا دعوة العزة بقولهم:

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة ٢٢]:

صحّ ما توقَّعه موسى عليه السلام منهم، وما نهاهم عنه، إذ أن روح التردُّد والهزيمة قد ملك قلوبهم، واستولى على نفوسهم، فقرَّروا له أنهم لن يدخلوا؛ لأن فيها قوماً جبارين، والجبّار في اللغة يطلق على الطويل، والمتكبر، والعاتي، وهو مأخوذ من نخلة جبارة إذا كانت طويلة لا ينال تمرها، وقد جاء في لسان العرب: «الجبار من النخيل» هو الطويل الذي فات يد المتناول، ويقال: جبار، إذا كان طويلاً عظيماً قوياً؛ تشبيهاً بالجبار من النخل، وجاء في الراغب: أن الجبار من جَبَر، وهو الإصلاحُ بقهر وقوة.

ويكون على هذا معنى جبارين أنهم قوم غلاظٌ شِداد، عندهم قدرة على القهر، وقد قيل في الأخبار: إنهم بنو عناق الذين يسكنون أمامهم في أدنى الأرض المقدسة إليهم، وهم أولو قوة وأولو بأس شديد[(١)].

وقد أوردت أسفار العهد القديم وأساطير الإسرائيليات روايات خرافية أسطورية عن أحجام أولئك الجبارين العمالقة، وعن ضخامة أجسامهم، وكبير أشكالهم، وتأثر بتلك الأساطير بعضُ المؤرخين والمفسرين، وأوردوها في كتبهم وتفاسيرهم[(٢)].

أ ـ ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾:

إن جملة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يلزم منها التجبُّر والجبروت عن طريق ضخامة الجسم، وعظمة الصورة والشكل، فقد تجد جباراً متحكماً

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١٢).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٧).

طاغياً، وهو مع ذلك ضئيل الجسم، صغير الحجم، نحيف البدن، قصير القامة، وقد تجد شخصاً ضخماً طويلاً عريضاً سميناً، وهو مع ذلك ضعيف عاجز.

والذي نراه أن أجسامَ الناس في ذلك الزمن كانت متقاربةً من حيث الشكل والحجم، سواء أكانوا فراعنة أم إسرائيليين أم كنعانيين في الأرض المقدسة، لا يكاد يختلف الشخص عن الآخر إلا في بضعة سنتيمترات طولاً، وبضعة كيلوغرامات وزناً، ثم إنهم قوم جبارون وفق نظرة بني إسرائيل إليهم، وتقويمهم لقوتهم، فهل بنو إسرائيل صادقون في ذلك التقويم؟ وصائبون في تلك النظرة؟ ألا يمكن أن يكونوا مبالغين في التقويم؟ مضخِّمين لصورة الخصم؟ ليبْدُوا معذورين في عدم قتالهم؟ ألا يمكن أن يكون الدافعُ لقولهم هو جبنهم وخوفهم ورعبهم؟ ألا يمكن أن يكون الخوف والجبن هو الذي ضَخَّم صورة أعدائهم وكبَّرها بحيث بدت ـ نفسياً ـ أكبر مما عليه في الواقع؟

إن خيالَ الجبان الضعيف يكبّر له الأشياء حتى يزداد منها خوفاً ورعباً. وصدق المتنبي في تصوير جبن الخائف الهارب:

وضاقتِ الأرضُ حتَّى كان هاربُهم إذا رأى غيرَ شيء ظنَّه رَجُلا[1]

ونلاحظ في ندائهم ـ بقولهم: يا موسى ـ نوعاً من التذلُّل والاستغاثة؛ ليسكُتَ عنهم، ووصْفُهم لخصومهم بأنهم جبارون أولُ الوهن الذي يعتري النفوس أمام الخصم[2].

ب ـ ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَاۖ فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾: وبهذا جمعوا إلى الجبن والخوف صفة العجز والكسل[3].

ـ ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا﴾: بهذا النفي التأبيدي الذي يوحي به الحرف «لن» الدال

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٨).
(٢) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١٣).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٨).

على التأبيد، لن ندخلها دخولاً ذاتياً، ولن نقابلَ القوم الجبارين، لن ندخلها حتى يخرجوا منها، وسنبقى منتظرين خروجَهم، فإذا خرجوا منها دخلناها.

وقد كرَّروا الفعل «يخرجوا» مرتين: ﴿حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَاۖ فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، والفعل مبني للمعلوم، وهذا له دلالةٌ على أن بني إسرائيل يريدون أن يخرج القوم الجبارون سكان الأرض المقدسة خروجاً ذاتياً إرادياً اختيارياً، دون أن يكرِههم أحد على الخروج، أو يقوم بإخراجهم[١].

وبينما جبُن بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة عن طريق الجهاد، وأعلنوا عصيانهم لموسى عليه السلام كان هناك أقلية قليلة منهم، عندهم شجاعة وجرأة ورغبة في القتال[٢].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَۖ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]:

أ ـ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾:

ـ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: وصفهم القرآنُ بالرجولة، وهو وصف ذو دلالة في هذا المقام، أنهما رجلان يتمتَّعان بالشَّجاعة والجرأة، وقد برزا من بين المجموع الخائف الجبان؛ ولهذا وصفا بالرجولة، التي تعني صفات جسمية، ونفسية، ومعنوية.

وفرق بين الرجولة والذكورة، فالذكورة صفة «بيولوجية» جسمية عكس الأنوثة، وهي تقوم على مظاهر مادية محسوسة عند الإنسان الذكر.

أما الرجولة، فإنها تعني الذكورة الجسمية السابقة، وتعني صفات نفسية ومعنوية، كالقوة والشجاعة والعزة والجرأة، فكلُّ رجلٍ ذكر، وليسَ كلُّ ذكرٍ رجلاً، وفي مواطن الجهاد والصدق يوصف المؤمنون بالرجولة، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٧٨).

(٢) القصص القرآني، المصدر نفسه (٣/ ٢٧٩).

إنهما رجلان، وكأن الجبناء الضعفاء الذكور ليسوا رجالاً، ثم إن القرآن أبهمهما، فلم يذكر اسْمَ واحدٍ منهما، كذلك هما مبهمان في السُّنة، فلم يرد اسم واحد منهما في الأحاديث الصَّحيحة.

وقد ذكرت الإسرائيليات اسم كل منهما، ونقل عنهم ذلك المفسرون والمؤرخون، ولسنا معهم في ذلك، فمعرفة اسميهما لا تزيدنا فائدة ولا علماً، والعِبرة والعظة تتحقَّقان بالوقوف أمام الحادثة وتدبُّر قولهما.

ـ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾:

إنهما رجلان شجاعان لا يخافان من بين الناس الآخرين «الذين يخافون» ويجبُنون عن القتال، ويرفضون دخول الأرض المقدسة مجاهدين[١].

هنا تبرز قيمةُ الإيمان بالله، والخوف منه، فهذان رجلان من الذين يخافون الله ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين، ويرزقهما شجاعة في وجوه الخطر الموهم، وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة، وقيمة الخوف من الله في موطن الخوف من الناس، فالله سبحانه لا يجمعُ في قلب واحد بين مخافتين: مخافته ـ جلَّ جلاله ـ ومخافة الناس، والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده، ولا يخاف شيئاً سواه[٢].

ب ـ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ **بعدم الخوف والجبن**، وبعدم المخالفة والتمرُّد، وعدم النكوص والعصيان، وهي الأمراضُ التي أصابت قومهما.

ـ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بقوة الإيمان وبالعزة والشجاعة وبطاعة موسى واتّباعه، وبالرغبة في القتال والجهاد، بينما حُرم قومهما من هذه النِّعَم الربانية لجبنهم وتمرُّدهم.

إنها نعم غامرة من الله على هذين الرجلين، لصدقهما مع الله، واتباعهما

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٠).
(٢) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٧٠).

لموسى عليه السلام، وهذه يمنُّ الله بها على من يشاء من عباده، فأن تكون شجاعاً وسط قوم جبناء نعمة من الله عليك، وأن تكون مستيقظاً بين نيام، واعياً بين مغفلين، مُطيعاً بين مخالفين؛ فضلٌ عظيم من الله عليك، ولا يعرف هذا الفضلَ إلا من عاشه، ولا هذه النعمة إلا من ذاقها[١].

ت- ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَۖ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾:

قاعدةٌ في علم القلوب وفي علم الحروب، أقدِموا واقتحِموا، فمتى دخلتم على القوم في عُقْر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم، وكُتب لكم الغلبة عليهم[٢].

إن قولهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَۖ﴾ يشير إلى نظرةٍ جهاديةٍ هامة هي نظرية «الحرب الهجومية»، التي قرَّر الخبراءُ العسكريون أنها طريق النصر، وأن من أراد الانتصار على خصمه فعليه أن يبدأ هو بالهجوم، ويوجِّه لخصمه «الضربة الأولى» القوية، التي تشلُّ خصمه، وتحطم قوته.

وهذا هو هدي رسولنا محمد ﷺ في حربه للأعداء، فكان هو الذي «يدخل عليهم الباب» ويبدأ بالهجوم، ويفاجِئُهم بغزو بلادهم.

وهذا ما فعله ﷺ عندما غزا يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وعندما فاجأ يهود خيبر، وفاجأ المشركين يوم فتح مكة.

وهذه ما وعاه الصحابة رضوان الله عليهم، إذ كانوا في جهادهم الكافرين يبدؤون بالضربة الأولى، ويدخلون عليهم الباب، فكان الكفَّار يفاجَؤون وينهزمون.

وقد أرسى علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه النظرية القرآنية في جملته الرائعة الصَّادقة: (ما غُزي قوم في عُقر دارهم إلا ذلُّوا)[٣].

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٢).
(٢) في ظلال القرآن، (٣/ ٢٨٢).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٢).

ث ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قال ابن القيم: فجعل التوكُّل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكُّل. وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، فذكْر اسم الإيمان ها هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكُّل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعُف الإيمان ضعف التوكُّل، وإذا كان التوكُّل ضعيفاً فهو دليلٌ على ضعف الإيمان، ولا بدَّ[١].

إن الرجلين أظهرا صدق الإيمان وعزم اليقين، فنصحا وأخلصا لله في نصحهما، ولكن القلوب القاسية الغليظة التي ران عليها الخوف والجبن والعجز لم تنتفع بهذا النصح[٢].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]:

أ ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ﴾: أخبروا موسى عليه السلام أنهم لن يدخلوا الأرض المقدسة، ما دام سكانها الجبّارون فيها، فعليه أن يقطع الأمل فيهم، وأن يتوقَّف عن ترغيبهم وحثهم وإحراجهم، وألا يتعب نفسه في ذلك، فمهما حاول معهم فلن يستجيبوا له.

وفي قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ﴾ عدةُ مؤكدات لعدم دخولهم:

«إنّ»: حرف توكيد.

«لن»: حرف النفي الدال على التأبيد.

«أبداً»: الظرف الدال على التأبيد المؤكد له.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، القاهرة، الدار السلفية، ط٢، ١٣٩٤هـ، ص٢٢٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٨٥).

﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾: الجملة الاسمية الدالة على الثبات: نحن غير داخلين فيها.

وقيدوا هذا النفي المؤبد بإقامة أصحابها فيها ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَآ﴾، وهم بهذا النفي المؤبد قرَّروا وانتهوا، لقد دفعهم جبنُهم وخوفهم إلى رفض القتال والجهاد، واختيار القعود والنكوص والتخلُّف والتمرُّد[١].

ب ـ ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾:

هكذا إذن، هذه هي النهاية، وهذه هي نتيجة سيرهم الطويل مع موسى عليه السلام، وهذه هي طاعتهم له[٢]، وهذه الكلمةُ فيها استهانةٌ بأمر الطاعة، واستخفاف بمقام الألوهية والرسالة، وخروج من معاني الإيمان السليم[٣]، وهكذا في وقاحة العاجز الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مدّ اللسان، وأما النهوض بالواجب فيكلِّفه وخْزَ اللسان.

ـ ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾:

فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستُكلِّفهم القتال.

ـ ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾:

لا نريد ملكاً، ولا نريد عزّاً، ولا نريد أرض الميعاد... ودونها لقاء الجبارين[٤].

وإن هذا الوصف ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ وصفٌ وصفوا به أنفسهم يدلُّ على الخسّة؛ لأنَّ القعود في وقت وجوب النشاط للعمل الصَّالح هو وصف مذموم[٥]، فكيف إذا كانت هذه الإجابة منهم لنبي مُرسَل من قبل الله عزَّ وجلَّ، هذه هي نهايةُ المطاف بموسى عليه السلام، نهاية الجهد الجهيد، والسفر

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٣).
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٣).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١٧).
(٤) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٧٠).
(٥) تفسير أبي زهرة، (٤/ ٢١١٧).

الطويل، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل[١]؟

ت ـ موقف الصحابة العظيم:

بينما خذل بنو إسرائيل موسى عليه السلام، وتخلَّوا عنه، ورفضوا دعوته لهم بالقتال، فإن أصحاب رسول الله ﷺ قد وقفوا معه موقفاً رائعاً جهادياً ورجولياً، فعندما استشارهم في قتال المشركين قُبيل غزوة بدر، تحمّسوا واندفعوا لقتالهم، وتذكروا خذلان بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وأعلنوا أنهم لن يكونوا مثلهم[٢].

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهداً؛ لأن أكون صاحبَه أحبُّ إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ، وهو يدعو على المشركين، فقال له: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيتُ النبي ﷺ أشرق وجهه وسُرَّ[٣]، وقد وضّح كلامَ المقداد ابن عبَّاس رضي الله عنهما، فبين أنه قال ذلك لما شاور رسول الله ﷺ أصحابه.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قوله: . . . وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليؤَمِّنوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهبْ أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سِرت بنا إلى برك الغماد ـ أبعد مكان في اليمن ـ لجالدنا معك من دونك حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيراً، ثم دعا له[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٧١).

(٢) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٥).

(٣) رواه البخاري، رقم ٣٩٥٢.

(٤) صحيح السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق ومراجعة: ناصر الدين الألباني، عمان، المكتب الإسلامي، ٢٠٠١م، رقم ٢٣٢.

وحُقَّ لموسى عليه السلام أن يأسف ويحزن وهو يواجه من قومه كل هذا الجحود والخذلان، مع الوقاحة وسوء الأدب، فلا يملك إلا أن يتوجَّه إلى الله بكلمات تقطر حزناً وأسًى[١]:

٦ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]:

دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام، وفيها ـ بعد ذلك ـ المفاصلة والحسم والتصميم، وإنه ليعلم أن ربَّه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه، ولكنّ موسى عليه السلام توجَّه إلى الله يشكو إليه بثه ونجواه، ويطلب إليه الفُرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين، فما يربطه بهم شيء بعد النُّكوص عن ميثاق الله الوثيق. ما يربطه بهم نسب وما يربطه بهم تاريخ، وما يربطه بهم جهد سابق، إنما يربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله، وقد فصلوه، فانبَتَّ ما بينه وبينهم إلى الأعماق، وما عاد يربطه بهم رباط، إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون، إنه متمسك بميثاق الله وهم ناكصون.

هذا هو أدب النبي، وهذه هي خطة المؤمن، وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرَّق المؤمنون، لا جنس ولا نسب ولا قوم ولا لغة ولا تاريخ ولا وشيجة من كل وشائج الأرض، إذا انقطعت وشيجةُ العقيدة، إذا اختلف المنهج والطريق.

واستجاب الله لنبيه، وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين[٢] الخارجين عن طاعة الله عزَّ وجلَّ المتمرِّدين على رسوله الكليم الكريم.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]:

حرم الله أولئك الجبناء من شرف الجهاد والتمكين، وبركةِ الأرض

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٨٦).
(٢) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٧١).

المقدسة، والتمتع بخيراتها؛ لأنهم نكصوا عن الجهاد، وكتب عليهم التيه في صحراء سيناء مدة أربعين سنة.

أ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، الأرض المقدسة محرّمة عليهم، ممنوعون من دخولها، والتحريم هنا هو التحريم الفعلي العام الذي يعني الامتناع عنها، وليس هو التحريم الشرعي الخاص[١].

ب ـ ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ **يسيرون في أرض سيناء لمدة أربعين سنة،** تائهين في شعابها ووديانها وتلالها وكثبانها، محتارين لا يعرفون أين يسيرون، ولا إلى أين ينتهي سيرهم.

يقال: تاه يتيه، إذا ضلّ وتحير.

والتيه: الصحراء التي ليس فيها علامة يهتدى بها، فيتيه ويضِل ويحتار سالكُها[٢].

وكتب الله عليهم التيه في مجاهل صحراء سيناء لمدة أربعين سنة؛ ليموت ذلك الجيل الجبان من بني إسرائيل، فأربعون سنة كافية لموت ذلك الجيل الذي لم تنفع معه وسائل موسى عليه السلام للارتقاء بهم.

وينشأ خلال هذه المدة جيل جديد من أبنائهم يعيشون حياة العزة والكرامة والحرية، ويذوقون شظف العيش وخشونته، وهم يتحركون في الصحراء، فيصلب عودهم وتقوى نفوسهم، فيسارعون بالجهاد والقتال، إن الله يعلم أن الجهاد لا يقوم إلا برجال أشدّاء أقوياء؛ لذلك اختار صحراء سيناء ببيئتها القاسية وظروفها الصعبة وحياتها الشاقة؛ لتكون «محضناً» ينشأ فيه الجيل الجديد، ويعدّ فيه إعداداً جهادياً خاصّاً، ومعنى ذلك أنه لا بدَّ من التخلّي عن مظاهر الترف والبذخ والإسراف، والخروج من حياة اللهو والعبث، وترك التنعُّم الفاجر

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٨).
(٢) المعجم الوسيط، (١/ ٩٢).

والرخاء القاتل، وعدم العبودية للأهواء والكماليات، حتى يعرف الجيل المعَد للجهاد وظيفته، وينشأ على الرجولة والعزة والجهاد.

ولا بدَّ من ترك الجيل الجبان لأنه يتعبُ المربِّين، ولا يتجاوب معهم، ويجب أن توجّه الجهود والطاقات إلى جيل جديد؛ لِتُثمر وتُؤتي أُكُلَها.

ولماذا يبقى بعض الدعاة في زمننا يتعبون أنفسهم، ويضيعون جهودهم، في مخاطبة أناس جبناء، ومطالبتهم بالجهاد والتحرير؟

مع أن هؤلاء المخاطَبون لا يفهمون هذه اللغة، ولا يسمعون هذا الصوت، ولا يستجيبون لهذا النداء، عليهم أن يوفِّروا جهودهم وأوقاتهم، وأن يوجِّهوها لإعداد جيل جديد إعداداً جهادياً، كما فعل موسى عليه الصلاة والسلام[1].

ت- ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

ولما أخبر الله موسى عليه السلام بحكمه على بني إسرائيل بالتيه، أربعين سنة، واساه وسُرِّي عنه، وقال له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ومعنى: (لا تأس): لا تحزن؛ ينهى الله موسى عليه السلام عن الأسى والحزن على قومه؛ لأنهم فاسقون خارجون عن أحكام الله، عاصون له، مُتمرِّدون على نبيه.

وقد ذكرت كلمة (الفاسقين) مرتين في هذه القصة:

المرة الأولى: عندما تمرّدوا على موسى عليه السلام، فتبرأ منهم، وطلب من الله أن يفصل بينه وبينهم: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، حيث حكم عليهم بأنهم فاسقون، وشهد لهم بأنهم فاسقون.

والمرة الثانية: عندما استجاب الله لدعوته؛ ففصل بينه وبينهم، وحكم عليهم بالتيه، ونهاه عن الأسى عليهم؛ لأنهم فاسقون.

فالأولى: بيان لسبب تمرُّدهم وعصيانهم ونكوصهم، فهم فعلوا ذلك لأنهم فاسقون.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٨٩).

والثانية: بيان سبب ما أوقع الله بهم من عقوبة، فما فعل ذلك بهم إلا لأنهم فاسقون.

هم فاسقون؛ ولذلك تبرأ موسى منهم، وهم فاسقون؛ ولذلك كتب الله عليهم التيه، وهم فاسقون؛ ولذلك لا يتأسَّف موسى، ولا يأسى، ولا يحزن عليهم، إنّ موسى عليه السلام لم يقصِّر في تربيتهم، ولكنهم أبَوا أن يستجيبوا له؛ لأنهم فاسقون، فلماذا يأسى على القوم الفاسقين؟ هل يستحقُّون أن يحزنَ عليهم[١]؟

ث ـ قال ابن كثير مُعلِّقاً على هذه القصة: وهذه القصة تضمَّنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفاتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمَرَهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعِدُهم بالنصر والظفر بأعدائهم... هذا مع ما شاهدوه من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده[٢].

ج ـ وقال ابن خلدون: فصل في أن عوائقَ الملك حصول الـمَذلَّة للقبيلة والانقياد إلى سواهم:

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسَورة العصبية وشدتها، فإن انقيادهم ومذلَّتهم دليل على فقدانها، فما استمرؤوا الـمَذلَّة حتى عجزوا عن ذلك، وقالوا إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها؛ أي: يخرجهم الله تعالى منها بضَرْبٍ من قدرته غير عصبيتنا، وتكون من معجزاتك يا موسى، ولما عزم عليهم لجُّوا وارتكبوا العصيان.

وقالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، وما ذلك إلا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة المطالبة كما تقتضيه الآية، وما يؤثر في تفسيرها، وذلك بما حصل فيهم من خَلق الانقياد، وما استَمرؤوا من الذلّ للقبط أحقاباً، حتى

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٩٠).
(٢) تفسير ابن كثير، (٣/ ٨١).

ذهبت العصبية منهم جملة، مع أنهم لم يؤمنوا حقَّ الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم، وأن العمالقةَ الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكمٍ من الله قدّره لهم، فأقصروا عن ذلك، وعجزوا تعويلاً على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة، لما حصل لهم من خلق المذلة، وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك، وما أمرهم به، فعاقبهم الله بالتِّيه، وهو أنهم تاهوا في قَفْر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة، لم يأووا فيها لعمران، ولا نزلوا مصراً، ولا خالطوا بشراً، كما قصَّه القرآن، لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم، ولعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه.

ويظهر من سياق الآية، ومفهومها: أن حكمة ذلك التيه مقصودة، وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذلّ والقهر والقوة، وتخلّقوا به، وأفسدوا من عصبيتهم، حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر، ولا يسام الـمَذلَّة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلُّب، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة آخر، سبحان الحكيم العليم[١].

ح ـ **قال محمد رشيد رضا تعليقاً على هذه القصة**: إن الشعوب التي تنشأ في معهد الاستبداد، وتُساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذلُّ نفوسها، ويذهب بأسُها، وتُضرَب عليهم الذلَّةُ والمسكنة، وتألف الخضوع، وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية والطبائع الخلقية، إذا أخرجت صاحبها من بيئتها، ورفعت عن رقبته نَيرها، ألفيته ينزع بطبعه إليها، ويتفلّت منك ليقتحم فيها[٢].

وقال أيضاً: فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله تعالى لنا، ونعلم أن إصلاحَ

---

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ٢٠٠٤م، (٢/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ٢٧٩.

الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزَّتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها، وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الأنبياء، وإنما يقوم بها بعد ختم النبوة ورثة الأنبياء، الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حب الإصلاح، وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات، ومن يضلل الله فما له من هاد[١].

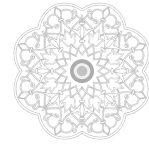
وهكذا انفصل موسى وأخوه هارون ـ عليهما السلام ـ بمن أطاعهما واتبعهما من بني إسرائيل، انفصلا وافترقا عن الأغلبية الضالة الفاسقة من بني إسرائيل، وتاه بنو إسرائيل الفاسقون في صحراء سيناء، وصاروا يتخبَّطُون بين شِعابها ووديانها في حيرة وتيه وضلال وضياع، لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا أين يسيرون، وهذا ما جَنَوه على أنفسهم، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٢].

وبدأ أفراد ذلك الجيل يموتون تباعاً، ويخرجون من هذه الدنيا مجلّلين بالذل والضعف والهوان، وهكذا تنتهي حياة موسى عليه السلام مع هذا الجيل من بني إسرائيل، بعد محاولاته المستمرة للارتقاء بهم، ولكنهم لم يتجاوبوا معه، لتنتهي حياته معهم بيأسه منهم، والتوجُّه لتربية أبنائهم على الخشونة والشدة والجهاد، أما هم فقد غادروا هذه الدنيا تائهين، حيارى، ضائعين[٣].

ويتركهم السِّياق القرآني هنا في التيه، لا يزيد على ذلك. . . وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني، على طريقة القرآن في التعبير، وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة، وبعض جوانب الحكمة في تفصيل قصة بني إسرائيل[٤].

* * *

(١) تفسير المنار، المرجع السابق نفسه.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٢٩٢).
(٣) القصص القرآني، المرجع السابق، (٣/ ٢٩٢).
(٤) في ظلال القرآن، (٢/ ٨٧١).



المبحث الثالث

قِصَّة موسى مع العبد الصَّالح في سورة الكهف

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا

وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٨٢]:

ذُكرت قصةُ موسى عليه السلام والرجل الصَّالح «الخضر» في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الكهف، ولموقعها في السورة فوائد وحكم، كشف العلاّمة الفخر الرازي في «التفسير الكبير» عن اثنتين منها، فقال: أما نفع هذه القصة في الرّد على الكفَّار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أنَّ موسى عليه السلام مع كثرة علمه، وعمله، وعلو منصبه، واستجماع مُوجبات الشرف التام في حقّه، ذهب إلى الخضر لطلب العلم، وتواضع له، وذلك يدلُّ على أن التواضع خير من التكبُّر.

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف، فهو أن اليهود قالوا لكفَّار مكّة: إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي، وإلاّ فلا، وهذا ليس بشيء؛ لأنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كما أنَّ كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر؛ ليتعلَّم منه، فظهر بما ذكرنا أنَّ هذه القصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود من القصّتين المتقدّمتين[١].

وإضافة إلى ما ذكره الفخر الرازي أقول: إن للقصة علاقة بموضوع سورة الكهف الأساسي، وهو الاختبار والابتلاء، وسبيل العصمة من الفتن، وطرق النجاة منها. وفتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرّض لها أهل العلم من علماء ومتعلّمين، وقد بين الله سبحانه في قصة موسى والخضر السُّبُل المنجية من فتنة العلم، ببيان الصفات الطيبة التي ينبغي أن يتصف بها العالم والمتعلّم[٢].

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٧٧)، نقلاً عن التفسير الكبير.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٧٨).

وقد حدثت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام أثناء إقامة بني إسرائيل في سيناء، ويبدو أنها كانت في مرحلة متأخرة من إقامتهم[١].

● **سبب القصة وتفاصيلها في كتب السنة:**

ذكرت قصة موسى والخضر في أوثق كتب السنة الشريفة؛ ففي «الصَّحيحين»: أنَّ سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أنَّ موسى عليه السلام، صاحب بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر، فقال: كذب عدو الله[٢]، سمعت أبيّ بنَ كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعَتب الله عليه، إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنَّ عبداً من عبادي بمجمع البحرين[٣] هو أعلم منك، قال موسى: أي ربِّ، كيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مِكتل[٤]، فانطلق، وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام حُوتاً في مِكتل، وانطلق هو وفَتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوتُ في المكتل حتى خرج من المكتل، فسقط في البحر، وأمسك الله عنه جِرْيةَ الماء حتى كان مثل الطاق «فتحة في الماء»، فكان الطَّاقُ للحوت سَرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، ونسي صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً[٥].

قال: ولم ينصَبْ حتى جاوز المكان الذي أُمر به.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٢٩٥).
(٢) الكذب بلغة أهل الحجاز: ما خالف الحقيقة عن قصد وغير قصد، ويدخل فيه الخطأ.
(٣) مجمع البحرين: مكان التقاء البحرين.
(٤) مكتل: سلة.
(٥) نصباً: تعباً.

قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيتُ الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً.

قال موسى: ذلك ما كنّا نبغي، فارتدّا على آثارهما قصصاً، يقصّان آثارهما، حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مسجَّى[١]، عليه ثوب، فسلَّم عليه موسى، فقال له الخضر: أنَّى بأرضِكَ السَّلامُ؟

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم.

قال: إنّك على عِلم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه.

قال له موسى عليه السلام: هل أتّبعك على أن تُعلِّمني مما عُلِّمتَ رُشداً؟

قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ به خبراً؟

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً.

قال: نعم.

فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر، فمرّت بهما سفينة، فكلّماهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول[٢]، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم، فخرقتها؛ لتُغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً.

---

(١) مسجّى: مغطى.

(٢) نوْل: أجر.

قال: ألم أقل: إنك لن تستطيع معي صبراً؟

قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ، ولا ترهقني من أمري عُسراً.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه، فاقتلعه بيده، فقتله.

فقال موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟! لقد جئت شيئاً نُكراً.

قال: ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً؟

قال: وهذه أشدُّ من الأولى.

قال: إن سألتك عن شيء بعدَها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدنّي عذراً، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، فأقامه، يقول: مائل، قال الخضر بيده هكذا، فأقامه[١].

قال له موسى: قوم أتيناهم، فلم يضيفونا، ولم يطعمونا، لو شئت لاتخذت عليه أجراً.

قال: هذا فراق بيني وبينك، سأُنبّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً.

قال رسول الله ﷺ: كانت الأولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عصفور حتى وقع على حَرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص العصفور من البحر[٢].

---

(١) أي: أشار بيده فأقامه.

(٢) البخاري، رقم ٤٧٢٥، مسلم، رقم ٢٣٨٠.

الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٦٣]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]:

أ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾: واذكر إذ قال موسى بن عمران عليه السلام، كما مرَّ بنا في الحديث الشريف(١).

ـ وقال ابن عطية: هو موسى بن عمران عليه السلام، بمقتضى الأحاديث والتواريخ وبظاهر القرآن الكريم، إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران عليه السلام، ولو كان في الآية غيره لبينه(٢).

ـ وقال القرطبي: الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران عليه السلام المذكور في القرآن، وليس فيه موسى غيره عليه السلام(٣).

ب ـ ﴿لِفَتَىٰهُ﴾: أجمع العلماء طبقاً لما ورد في البخاري ومسلم أنه يوشع بن نون بن إفرايم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام(٤).

---

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٢).
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (٣/ ٥٢٧).
(٣) تفسير القرطبي، (١٣/ ٣١٥).
(٤) قصص سورة الكهف في الديانات السماوية الثلاث، إبراهيم ثروت حداد علي عافية، دار النوادر للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤م، (٢/ ٥٤٤).

يقول المراغي: وفتى موسى عليه السلام هو يوشع بن نون، وقد كان يخدمه، ويتعلَّم منه، والعرب تُسمِّي الخادم: فتى؛ لأنَّ الخدم أكثر ما يكونون في سن الفتوة، كما يطلقون على العبد فتى، وفي الحديث: «لا يقُل أحدُكم: عبدي، أَمتي، وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي» [(١)]، وهذا من محاسن الآداب الشرعية[(٢)].

ويوشعُ بن نون أحدُ العابدين الصَّالحين الصَّادقين من بني إسرائيل، واختلف العلماء في نبوته، فذهب فريقٌ من العلماء إلى أنه نبي، واعتمدوا على حديث صحيح غير صريح لرسول الله ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «غزا نبي من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فقال لقومه: لا يتَّبِعْني رجل ملك بِضْعَ امرأة وهو يريد أن يبني بها ولمّا يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتاً لم يرفعْ سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خَلفات وهو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنكِ مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غُلُولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعها، فجاءت النار فأكلتها، فلم تحلَّ الغنائم لأحد قبلنا، ثم أحلَّ الله لنا الغنائم لما رأى ضَعْفَنا وعجزنا فأحلَّها لنا» [(٣)].

فاعتمدوا هذا الحديث نصّاً في نبوة يوشع بن نون، ولكن الراجح أنَّ الحديث لا ينصّ على ذلك، ولا يشير إليه، فالراجح أنَّ يوشع بن نون ليس نبياً، والله أعلم، وكل ما يقال: هو رجل مؤمن صالح، كان متابعاً لموسى عليه السلام ومساعداً له في قيادة بني إسرائيل، ولمّا توفِّي موسى عليه السلام تولّى يوشعُ بن

---

(١) رواه البخاري، رقم ٢٤١٤.
(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (١٥/ ١٢٧).
(٣) متفق عليه؛ رواه البخاري، رقم ٥١٥٧، مسلم، رقم ١٧٤٧.

نون قيادةَ بني إسرائيل، ودخل بهم الأرض المقدّسة، وافتتح بعض مدنها وقراها[١]، وقد كان يوشع بن نون عندما صحب موسى عليه السلام فتىً في مقتبل العمر والشباب، يأخذ عنه العلم والمعرفة، ويخدمه، وكان يلتزم بما جاء به موسى عليه السلام، وقد تأثر بموسى عليه السلام كثيراً، واستفاد من رحلته معه الخيرَ الكثيرَ، وانتصر على القوم الجبّارين ـ فيما بعد ـ وفتح بيت المقدس، واستفاد من قيادة موسى عليه السلام وعلمه وصبره[٢]، وإدارته للصراع وفي قيادة الشعوب.

ت ـ ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾:

ـ ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾؛ أي: لا أترك. وبعض النَّاس يظنُّ أنَّ (لا أبرح) تعني: لا أترك مكاني الذي أنا فيه، لكنها تعني: لا أترك ما أنا بصدده، فإن كنتُ قاعداً: لا أترك القعود، وإن كنت ماشياً: لا أترك المشي، وقد قال موسى عليه السلام هذا القولَ، وهو يبتغي بين البحرين، ويسير متّجهاً إليه، فيكون المعنى: لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين[٣].

ـ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾؛ أي: حتى أصل إلى مجمع البحرين.

مجمع البحرين: مجمعٌ قريبٌ منه عليه السلام؛ لأن الله لم يكن ليجعلَ له مكاناً يتقابل فيه مع معلّمه بعيداً عن دائرة رسالته ومهبطها، كما أن موسى عليه السلام لم يكن على معرفة بكثير من البلدان المجاورة له، بدليل أن أصحابَ السفينة عرفوا العبد الصَّالح دون موسى عليه السلام، كما ذكر البخاري فيما رواه النبي ﷺ في حديث «موسى والخضر»، ولم يكن أيضاً يعرف القرية التي أبت مضايفتهما؛ لأنه لو كان يعلم أمرها وأمر أهلها، من حيث سوء خلقهم وتعاملهم، لأنكر دخولها، وما دخلها عليه السلام هو والعبد الصَّالح.

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٠٨).

(٢) موجّهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، حمد سالم الخوالدة، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط١، ٢٠١٦م، ص٩٨.

(٣) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٤٩).

وقد بينت الدراسةُ أن موسى عليه السلام في هذا الوقت كان في صحراء مصر زمن التيه ومجمع البحرين؛ إذ هو أقرب مجمع قريب إليه[١]؛ أي: موضع التقائهما، حيث يصيران بحراً واحداً، كما يلتقي دجلة والفرات في شطِّ العرب[٢]، فمجمع البحرين هو أقرب مجمع إلى موسى عليه السلام وإلى دائرة رسالته، وإن كان بعيداً في الوصول إليه، وعليه فإنه يترجح أن يكون القلزم (البحر الأحمر أو بحر الأردن). والله أعلم[٣].

وقد قيل في ذلك أقوال كثيرة ذكرها ابن كثير، حيث قال: قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي الغرب، وقال محمد بن كعب القرطبي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني: في أقصى بلاد الغرب. والله أعلم[٤].

ورجَّح بعض العلماء أنَّ مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم؛ أي: البحر المتوسط والبحر الأحمر، ومجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح، أو هو مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. وعلى أي حالٍ فقد تركها القرآن مجملةً، فنكتفي بهذه الإشارة[٥].

وقال الشنقيطي: ومعلوم أنَّ تَعيينَ البحرين من النوع الذي قدَّمنا أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سُنَّة، وليس في معرفته فائدة، فالبحث عنه تعب لا طائل تحته، وليس عليه دليلٌ يمكن الرجوع إليه[٦].

---

(١) قصص سورة الكهف، (٢/ ٥٤٩).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٥٠).
(٣) قصص سورة الكهف، (٢/ ٢٤٩).
(٤) تفسير ابن كثير، (٥/ ١٧٤).
(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٢٧٨).
(٦) أضواء البيان، (٣/ ٣٢٢).

ث ـ ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾: أو أسير زمناً طويلاً، فموسى عليه السلام يعلن في هذه الآية تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول، وهو يعبِّرُ عن هذا التصميم بـ ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾. والحقب: قيل: عام. وقيل: ثمانون عاماً. وعلى أية حال هو تعبير عن التصميم لا عن المدة على وجه التحديد(١).

ومن الفوائد التربوية في الآية:

ـ موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقِي النّصب في طلب العلم، وفي ذلك دليلٌ على فضيلة العلم والحث على الرحلة في طلبه، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان دأبُ السلف الصَّالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الرَّاجِح، وحصلوا على السَّعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكْر والأجر والفضل أفضلُ الأقسام؛ قال البخاري: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث(٢).

ـ ومن الفوائد أيضاً توطين موسى نفسه على تحمّل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلّم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحُقَّ له ذلك(٣).

ـ ومن الفوائد رحيل موسى عليه السلام لطلب العلم وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، وفي ذلك دليل على البَدْءِ بالأهم فالأهم، فإنَّ علمَ الإنسان وزيادةَ عِلمِه أهمُّ من ترك ذلك أو الاشتغال بالتَّعليم من دون تَزَودٍ من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل(٤).

ـ وفيه أنَّ المسافرَ لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقتضت المصلحةُ الإخبار

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٢٧٨)، التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٢).
(٢) التفسير المحرر، (١٥/ ٣٤٦).
(٣) تفسير القرطبي، (١١/ ١١).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٦٢٨.

بمطلبه وأين يريد، فإنه أكمل من كَتْمِه، ففي إظهاره فوائد من إعداد له العُدَّة له، وإثبات الأمر على بصيرة وإظهار شرف هذه العبادة الجليلة[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]:

طلب موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون أن ينتبه للحوت المملَّح في المكتل، وأن يديم مراقبته والنظر إليه، فإذا دبّت فيه الحياة، وتحرّك المكتل فليخبره؛ لأنه سيجد الخضر في المكان. وتحرَّكَ الحوت في المكتل، ثم خرج منه، وسقط في البحر، وقدم الله آيةً أخرى، أبقى أثر سير الحوت على وجه الماء، فلما كان الحوت يسير على وجه الماء كان الماء لا يعود خلفه كما كان، وإنما يمسَكُ الماء كأنَّه مَسْرَبٌ واضحٌ وطريق بينٌ على وجه الماء، كالطريق البين على وجه الأرض[٢]، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوتُ المشوي، وتعود إليه الحياة، ويتوجَّه نحو البحر؛ لأنه يعلم أنَّ الماء مسكنه ومكانه[٣].

أ ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: نسي موسى عليه السلام تفقُّد الحوت، ونسي فتاه أن يخبره بفقده، إذ ردّ الله تعالى بقدرته الحياة إلى الحوت الميت، فاضطرب في المكتل، ثم قفز في البحر.

ب ـ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾: وانتبه الفتى إلى فقد الحوت، ورآه يقفز إلى البحر، ويشقُّ طريقه في الماء، ورأى أيضاً كيف أمسك الله تعالى جِرْية الماء عن طريق الحوت حتى أصبح مثل نَفَقٍ في الماء، ومع كل هذه الخوارق للعادات أُنْسِي يوشَعُ أن يذكرَ شيئاً من ذلك لموسى[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٢٨.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣١٠).
(٣) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٥١).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٣).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]:

أ ـ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ واستأنفا سيرهما بقية اليوم والليلة ـ كما وردَ في الحديث الشريف ـ شعرا بالتعب والجوع.

ب ـ ﴿قَالَ﴾ موسى.

ت ـ ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾؛ أي: تعباً ومشقة[١].

وهنا تُبرِز القصة حدثاً آخرَ، هو مجاوزة موسى عليه السلام وفتاه المكانَ المحدَّدَ، كما تدلُّ تثنيةُ الفعل ﴿جَاوَزَا﴾، ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته وتقديره جعل موسى عليه السلام يشعر بالجوع والنصب، فطلب الغداء، وعلّل ذلك بالنّصب والتعب الّذي لقيه من سفره، وهنا نجد دليلاً واضحاً على حجم التعب والنصب الذي تَجَشَّمَه موسى عليه السلام في سبيل العلم في هذه الرحلة، وقد ورد وصفُ هذا التعب في حديث البخاري الذي مرّ بنا.

وقد ذكر الله عزَّ وجَلَّ لموسى أسفاراً أخرى إلى مدين وإلى فرعون وإلى ربه، ولم يردْ معهما ذكر للمشقة والنصب، لكن هنا في رحلة العلم ذكر النصب والتعب لإثارة لطيفة في ضرورة بذل الوسع والطاقة في سبيل التعلُّم. وقد اجتمع على موسى عليه السلام من المشاق ما يصور شدَّةَ صبره وتحمُّله:

ـ مشقَّة السفر للبحث عن العبد الصَّالح.

ـ نسيان الفتى للعلامة مما تسبَّب في طول السفر، وتجاوز المطلوب.

ـ الرجوع إلى الأثر وما يرافقه من ملل، وضيق صدر.

ـ شدّة الجوع وما يصاحبه من تعب ونصب، وما يؤثر على عقل الإنسان ونفسيته.

---

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٨٣).

وهذا الحجم من المشاق غالباً ما يؤثر في مسيرة التعلُّم عند كثير من المتعلمين، لكن نحن الآن أمام نموذج عظيم في تخطّي العقبات والصَّبر على المشاقِّ في سبيل العلم، وهذا ما ينقص كثيراً من المتعلمين اليوم، فهم يتوقَّفون أو يضعفون لأدنى عقبة(١).

ومن الدروس المستفادة:

أن أخذ العُدَّة في السفر والحضر لا ينافي التوكُّل، بل هو جزء منه.

ـ لا حرج شرعاً من التأوه والفضفضة للآخرين عن التعب والنصب الذي يلقاه الإنسان.

ـ دعوة المسلمين إلى ضرورة الأخذ بالأسباب(٢).

وفي صحيح البخاري: إن ناساً من أهل اليمن كانوا يحجُّون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكّلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ (٣).

وقال القرطبي: قولُه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألة واحدة، وهي اتخاذ الزاد في الأسفار، وهذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتّخذ الزاد، مع معرفته بربه، وتوكله على ربّ العباد(٤).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]:

أ ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾؛ أي: قال يوشع لموسى

(١) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح كما وردت في القرآن الكريم، عويض بن حمود العطوي، السودان، مجلة الدراسات النفسية، ع١١، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢م، ص٣٠.

(٢) سورة الكهف: منهجيات في الإصلاح والتغيير؛ دراسة تأصيلية تطبيقية، صلاح سلطان، الولايات المتحدة الأمريكية، سلطان للنشر، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٥٨.

(٣) البخاري، رقم ١٥٢٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، (١١/ ١١).

عليه السلام: أرأيتَ حين أقمنا عند الصخرة، فإني نسيتُ الحوت في ذلك المكان[١].

أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما، فإني نسيت الحوت[٢].

ونلاحظ أن فتى موسى قال ﴿نَسِيتُ﴾، وقال في الآية السابقة ﴿نَسِيَا﴾؛ ذلك لأنَّ الأولى إخبار من الله، والثانية كلام فتى موسى؛ فكلام الله ـ تبارك وتعالى ـ يدلنا على أنَّ رئيساً متبوعاً لن يترك تابعه؛ ليتصرَّف في كل شيء؛ لأنَّ تابعه ربَّما لا يهمُّه أمرُ المسير في شيء، وقد ينشغل ذهنه بأشياء أخرى تُنسيه ما هو منوطٌ به من أمر الرحلة[٣].

إنَّ رئيس القوم لا بدَّ أن يتنبّه لكل جزئية من جزئيات الركب، وكانت العادة أن يكون آخر البارحين للمكان؛ ليتفقَّده، وينظر لعل واحداً نسي شيئاً، إذن كان على موسى عليه السلام أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير، ويذكّر فتاه بما معهم من لوازم الرحلة[٤].

ب ـ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾؛ أي: وما أنساني أن أذكر الحوت إلا الشيطان[٥].

وفي الآية: حسن أدب؛ فقد نسب النسيان إلى المتسبب فيه بوسوسته، وهو الشيطان، فمن وسوسته أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله؛ ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه[٦].

---

(١) التفسير المحرر، (١٥/ ٢٣٦).
(٢) تفسير السَّعدي، ص٦٢٦.
(٣) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٥٢).
(٤) المصدر نفسه، (١٤/ ٨٩٥٠).
(٥) التفسير المحرر، (١٥/ ٣٣٧).
(٦) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي محمد العمران، بيروت، دار الكتاب العربي، (٢/ ٢٥٧).

والشرُّ وأسبابه وسائر الأمور المكروهة تُنسب إلى الشيطان، تأدُّباً عن نسبتها إلى الله تعالى، وإن كان كلُّ شيءٍ بقضاء الله وقدره[١].

ت ـ ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾: العجب كان من موسى وفتاه لحال الحوت التي بينها يوشع، ثم رأى موسى أثرها في الماء بعدُ، يدلُّ عليه قول النبي ﷺ: فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً[٢].

فقدُ الحوت كان أمراً مكروهاً ليوشع عليه السلام؛ لأنَّ مهمته كانت الحفاظ عليه، لكنه علامة لقاء العبد الصَّالح، فقد يكون فيما يكره الإنسان خيرٌ كثيرٌ، فالإنسان لا يعلم، المهمُّ ألا يفرط فيما وكِلَ إليه[٣].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]:

أ ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾: القائل هنا هو موسى عليه السلام، وما زال الحوار دائراً بينه وبين فتاه. والملحوظ أنه لم يتوجَّه هنا بلوم فتاه على نسيانه، وهذا يعني أن النسيان عذر شرعي لا يلام عليه الإنسان، إذا لم تظهر منه بوادر التفريط، كما نلحظ هنا أن موسى عليه السلام باشر بذكر حصوله على ما يريد، ثم أَتْبَعَه بخطوة عملية هي الارتداد والرجوع، وفي هذا توجيه بالمبادرة وعدم التأخير، وهذا يتناسب تماماً مع جديته عليه السلام واهتمامه بالوصول للهدف الذي حدَّده، دون اكتراث بالعقبات، أو انشغال بالجزئيات.

ونجد في خطاب الفتى مع موسى عليه السلام أنه ساقه بصورة تُشعِر بالاعتذار، فقد نسب الخلل إلى الشيطان، على حين يظهر من خطاب موسى عليه السلام أنه حصل على ما يريد، ووقع ما كان ينبغي، فرغم ما كان فيه من تعب وجوع قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، وفي هذا إلماحةٌ إلى مضمون ما سيأتي

---

(١) التفسير المحرر، (١٥/ ٢٣٧).
(٢) رواه البخاري، رقم ٢٢.
(٣) تدبر سورة الكهف، د. ناصر العمر، ص١١٥.

وما سيمرُّ على موسى عليه السلام من أحداث، فحادثة فقْد الحوت لها مدلولٌ عند الفتى ربما يقوده إلى الحزن وإلى الاعتذار، على حين هي عند موسى عليه السلام سببٌ للفرح والسعادة؛ لأنه وجد المكانَ الذي يبحث عنه، وفي هذا إشارة إلى أن الناس يختلفون في تفسير الأحداث، وفي طبيعة التعامل معها حسب خلفياتهم العلمية والمعرفية عنها، وهذا هو ما حدث مع موسى عليه السلام مع العبد الصَّالح[١].

ب ـ ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾: نجد في هذا الوصف لحال موسى عليه السلام وفتاه ترسيخاً للمبدأ الذي ذكرناه سابقاً عند موسى عليه السلام، وهو تحمّل المشاق والصَّبر عليها، فهو هنا ينسى الجوع والنصب، ويفرح بلقاء من يعلّمه، وهذا الشوق وتلك الرغبة مطلب مهمٌّ لكل راغب في التميز في دروب العلم والمعرفة؛ لأنه يمثل إحدى صور الدافعية التي لا يحصل العلم دونها. فموسى عليه السلام يسعى إلى تحقيق إنجاز معين يتمثل في لُقيا العبد الصَّالح، وأخذ ما عنده من العلم.

ونجد هذا الحرص وتلك الرغبة تتجسَّد عملياً في عملية «القَصِّ» للأثر ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ مما يشعِر بالاهتمام الكبير بلُقيا هذا العالم، فلقد رجع موسى وفتاه يتتبعان آثار أقدامهما حتى وصلا إلى الصخرة[٢].

في هذه الآية تتبَّعَ موسى عليه السلام وغلامُه آثارَهما، ومن يعرف الآثار ومواطئ الأقدام والأصابع وشَبَه الرجل بأخيه يسمّى قائفاً، وسُمِّيت قِيافة؛ لأن قافية كل شيء تكون آخره، ومنه قافية الشعر؛ لأنها تقفو البيت.

وفي هذا دليلٌ على اعتبار القافية قرينة تُوصِل إلى المقصود لاعتبارِ نبي الله

---

(١) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح كما وردت في القرآن الكريم، العطوي، المرجع السابق، ص٣٣.

(٢) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح كما وردت في القرآن الكريم، المرجع نفسه، ص٣٤.

موسى بها، وقد ثبت أن النبي ﷺ اعتبرها، واستأنس بها، وقد جاء أنه بعث في أثر العِبرانيين الذين سرقوا إبل الصدقة؛ أي: تَتَبَّعَ آثارهم[١].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٧٠]:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]:

وتمَّ اللقاء بين موسى عليه السلام والعبد الصَّالح «الخضر»، ومرّ بنا في الحديث الشريف كيف تمّ اللِّقاء، وحالُ الرجلِ الصَّالحِ عند وصول موسى عليه السلام إليه، وقد وصفت الآيةُ الكريمةُ هذا الرجل بثلاث صفات[٢]: العبادة والرحمة والعلم.

أ ـ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾: الفاء ـ هنا ـ تدلُّ على سرعة الوصول إلى هدفهما، وهو العالم «العبد الصَّالح»، وما زلنا إلى هذه اللحظة في القصة نجد إبرازاً لدور رفيق الرحلة، وهو الفتى، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا﴾، وهذا يدلُّ على أنه إلى لحظة عثور موسى عليه السلام على مراده، كان الفتى يرافقه، وهذا يشعِر بأن الصحبة مهمة في حياة الإنسان لما لها من أثر، ولاسيما إذا كان الصَّاحب أميناً موثوقاً به.

ثم بعد هذه اللحظة، وبعد هذا المكان، لا نجد ذكراً للفتى أبداً، فهل يعني هذا أنه سرّحه، واستغنى عن خدمته، فعاد إلى بلده؟ قد يكون ذلك، والغالب أنه كان معه في رحلته خدمة وتعلُّماً وتربية وتهيئة؛ ليكون من قادة المستقبل، والجيل الجديد.

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي، تحقيق: عبد المجيد المبارك، الرياض، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٨هـ، (٣/ ١٧١٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٥).

ـ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾: نجد هنا أن أول وصف يقابلنا في هذا القسم من القصة، الخاص بلقيا موسى عليه السلام بالعبد الصَّالح، هو العبودية ﴿عَبْدًا﴾ والعبودية لله شرف كبير[١]، وتشريف عظيم، فقد عودنا الله تعالى في كتابه الكريم أنه إذا أراد تكريم عبد نسبه إلى ذاته المقدّسة بصفة العبودية، انظر كيف كرّم الله رسوله بقوله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ـ وقوله جلَّ جلاله أيضاً: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١][٢].

لقد كان من الشرف لهذا العبد الصَّالح أن ذكره الله في كتابه ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾، فجاء التنوين في ﴿عَبْدًا﴾ للتفخيم، والإضافة في ﴿عِبَادِنَآ﴾ للتشريف والاختصاص؛ أي: عبداً جليل الشأن مما اختصَّ بنا، وشُرِّفَ بالإضافة إلينا[٣].

كما أن في إبراز هذه الصفة في العالم الذي قصده موسى عليه السلام إشارةً إلى أن أولى الصفات بالعالم هي التعبّد لله؛ بمعنى أن يكون علمه في سبيل الله، وبمعنى آخر أن يقوده علمه إلى هذه الغاية العظيمة، وهي العبوديةُ بمعناها الشامل؛ الذي يعني عمارة الأرض على مراد الله[٤]، وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ التعليم له مقصد وغاية، ويجب أن تكون هذه الغاية بانِيةً نافعةً مُصلِحة، لا هادمةً ضارةً مُضِلَّة[٥].

إن الآية الكريمة والقصة العظيمة التي جاءت في القرآن الكريم، لم تُبين شيئاً عن العبد الصَّالح الذي قابله موسى عليه السلام وفتاه سوى أنه عبد من عباد الله،

---

(١) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصَّالح، المرجع السابق، ص٣٥.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٥).
(٣) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح، ص٣٥.
(٤) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح، المصدر السابق، ص٣٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٦.

فلم تذكر اسمه أو لقبه أو كنيته أو بلده أو كونه نبياً أو رسولاً أو ولِياً أو مَلِكاً، أو غير ذلك، سوى أنه عبد لله، والعبودية أشرف من أي لقب كان.

وللعبودية نوعان: عامٌّ وخاصٌّ:

فالعبودية العامة، عبودية أهل السموات والأرض كلِّهم لربهم؛ برِّهم وفاجرِهم، مؤمنِهم وكافرِهم، فهذه عبوديةُ القهر والملك.

وأما النوع الثاني: فعبوديةُ الطاعة والمحبة وامتثال الأوامر، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته، عبيد ألوهية.

وإنما انقسمت العبودية إلى عامة وخاصة؛ لأنَّ أصل معنى اللفظ: الذلّ والخضوع؛ يقال: طريق معبَّد، إذا كان مُذلَّلاً بوطْءِ الأقدام، ويقال: عبَّدَه الحُبُّ؛ إذا أذلَّه، لكن أولياءه خضعوا له، وذلُّوا طوعاً واختياراً وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً.

وعبودية الخضر كانت من القسم الثاني[(١)].

وقد جاء حديث شريفٌ في سبب تسمية الخضر بذلك الاسم، فقد روى الخالدي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «إنما سُمِّي الخضر خضراً؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء»[(٢)].

وهذه معجزة من الله ـ سبحانه ـ على يد الخضر عليه السلام، فكان تحته فروةٌ بيضاء، ولما جلس عليها اهتزَّت وتحركت، وتحول لونها من الأبيض إلى الأخضر؛ ولذلك سُمِّي «الخضر»؛ لأنه السبب في تغيير لون الفروة[(٣)].

ب ـ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: وهذه الصفة الثانية، وهي مُؤهل آخر آتاه الله إياه، ولو كان المقصود بالرحمة هنا: النبوة، كما قال الجمهور، فإن الرحمة

---

(١) قصص سورة الكهف، إبراهيم ثروت، (٢/ ٥٠٨).
(٢) رواه البخاري، رقم ٣٤٠٢.
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٣٠٥).

بمعناها المعروف باقية؛ لأنّها من صفات الرسل والنبيين، وهم معلمو الناس، وداعوهم إلى الخير، وهم القدوة في التربية والتعليم، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

مع أن بعض المفسرين قال: إنه ليس بنبي، بل هو عبد صالح آتاه الله رحمة وعلماً، ولو كان نبياً أو رسولاً لذكر عنه ذلك كما ذكر في غيره، فعلمنا في هذا أن ذكر صفة الرحمة له مدلوله الذي له علاقة بالتربية والتعليم؛ لذا كانت الرحمة من أهم صفات المعلِّم الناجح مما يكاد يتفق عليه جُلُّ الدارسين؛ ونعني بها عطف المربّي ولِينه وشفقته على الناس، وإحساسه بمعاناتهم وحاجاتهم ومشكلاتهم، وتقديره لذلك عند التوجيه والتكليف، وعند التعامل والمحاسبة، فينظر إلى المتربي من خلال قدراته وطاقاته[١].

والإيتاءُ: الإعطاء، لكن خُصّ الإيتاء في القرآن بالشيء الطيب كالصدقة والرحمة والملك والحجَّة ونحوها، قال تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

كما أن في قوله سبحانه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ بالفعل المبني للمعلوم، دون «أُوتي» بالفعل المجهول؛ ما يؤكِّد الاهتمام بهذا الـمُؤتَى، يقول الأصفهاني: وكل موضع ذكر فيه وصف «آتينا»، فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه «أوتوا»؛ لأن «أوتوا» قد يقال إذا أُوتي من لم يكن منه قَبول، و«آتيناهم» يقال فيمن كان منه قبول، فهذا دليل على مكانة العبد الصَّالح عند ربّه، وعِظَمِ ما آتاه الله من الرحمة[٢].

والملاحظ أن الرحمة سبقت العلم على أنّها صفة من صفات العالِم المعلِّم،

(١) المضامين التربوية، العطوي، ص٣٦.
(٢) المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح، العطوي، المصدر السابق، ص٣٧.

وفي هذا بيان أنَّ صفة «الرحمة» هي الأساس الذي يسبق العلم، وهي البيئة المناسبة لنفع العلم وخيره وبركته، فإذا نُزعت الرحمة من العلم، وإذا لم تسبق العلم، ولم تكن تمهيداً وأساساً، كان العلم شرّاً وخراباً وتدميراً[١].

ومن مستلزمات صفة الرحمة:

ـ سعة صدره في التعامل مع تلاميذه، فلا يضيق لأقل الأسباب، ولا يغضب لأتفه التصرُّفات، لا بل عليه أن يذكِّرَ ويوجِّه عند وقوع الخطأ من تلاميذه، ويشفِقَ عليهم، ويتلطف بهم، وهذا ما كان من الخضر المعلِّم تجاه ما وقع فيه موسى عليه السلام من النسيان وما وعده به من عدم السؤال عمّا سيفعله، فما كان من الخضر إلا أن عامله معاملة ملؤها الرحمة وسعة الصدر، بأن ذكّره بوعده له قائلاً بعد اعتراض موسى الأول: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

ـ أن يوضِّح المعلّمُ للمتعلم مآل الأمور حتى لا يكلَّف فوق طاقته لعلمه بحقيقة الأمر الـمُقْدَمِ عليه، فقد أوضح الخضر لموسى بعبارة صريحة عدم قدرته على الصَّبر على ما سيرى من أفعال رحمة ربِّه، فقال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧ ـ ٦٨].

فالرحمة صفة أساسية في المعلِّم لابدّ من اتّصافه بها؛ لأنها سبب في زيادة القرب بين المعلّم وطلاّبه، فيزيد التآلف والتحابُّ والتفاهم والانسجام؛ وهذا يثري العملية التربوية، ويزيد من فاعليتها وتأثيرها في نفس الـمُرَبَّى[٢].

ت ـ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: ثالث الصفات كما تُظهر الآيات: العلم، وهو المؤهل الثالث، وهو بلا شك علم مميز خاصٌّ لا يوجد مثله عند موسى عليه السلام، يدلُّ على هذا قول العبد الصَّالح لموسى عليه السلام كما جاء في

---

(١) تعلم الحياة مع قصص سورة الكهف، يزن أحمد عبده، دار العلم والحكم، ط١، ٢٠٠٥م، ص٧٠.

(٢) تعلم الحياة مع قصص سورة الكهف، يزن أحمد عبده، المرجع السابق، ص٧١.

الحديث الصَّحيح: «قال يا موسى إني على علم من علم الله، علّمنيه الله لا تعلمُه، وأنت على علم من علم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلمه»[١].

ـ قال الدكتور سليمان القرعاوي في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾؛ أي: علم الغيب، قال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة ببواطن الأمور، قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى علم الأحكام، والفُتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم[٢].

من هنا كانت الشريعة متمثلة في موسى باعتباره نبياً صاحب شريعة، وصاحب كتاب يحكم على الأمور بمقتضاه، أما الخضر فشيء آخر، أفعاله لا علاقة لها بالظواهر، إنما هي مُوحاةٌ إليه؛ لقوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾، وهو العلم اللَّدُني؛ الذي أشارت إليه الآية؛ الذي علّمه الله للخضر عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وهو غير علم النبوة والوحي[٣]، وإن العلاقة واحدة، وكلاهما من عند الله تعالى[٤].

ـ قال الشيخ محمد صالح العُثيمين في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: علماً لا يطَّلع عليه الناس، وهو علم الغيب في هذه القصة المعينة، وليس علم نبوة، ولكنه علم خاصٌّ؛ لأن هذا العلم الّذي اطَّلَعَ عليه الخضرُ لا يمكن إدراكُه، وليس شيئاً مبنياً على المحسوس، فيبني المستقبل على الحاضر، بل شيء من الغائب، فأطلعه الله تعالى على معلومات لا يطَّلع عليها البشرُ[٥].

ـ وقال الشيخ محمد أبو زهرة: والعلم الذي من لدن الله تعالى هو العلمُ

---

(١) رواه البخاري، رقم ٤٧٢٥.
(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٧٥.
(٣) أضواء البيان، للشنقيطي، (٤/ ١٧٣).
(٤) دراسات في التفسير الموضوعي، ص٣٧٦.
(٥) قصص القرآن، ص١٦٢.

بعواقب الأمور بالإدراك الباطني، وقد وازن بعض المفسّرين بين علم موسى وعلم العبد الصَّالح الخضر، فقال: علم الخضر علم معرفة ببواطن الأمور قد أوحيت إليه لا تُعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علمُ موسى علمَ الأحكام والفُتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

والحق أنه يضاف إلى ذلك أنَّ علم الخضر علمُ الأسباب في بواعثها، وعلم موسى علم الأسباب في واقعها، كما سنرى ذلك ـ بإذن الله ـ في المجاوبة بينهما[١].

ـ وقال الدكتور ناصر العمر: العلم اللَّدُنِي هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق والإخلاص لله، وبذل الجهد في تلقّي العلم من المشكاة المحمّدية والكتاب المجيد، وكمال الانقياد له، فيفتَح له في فهم الكتاب والسنة أمرٌ يخَصُّ به.

قال رسول الله ﷺ: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب»[٢].

ويشترط في العلم اللَّدُني الربّاني ألاّ يخالف الكتاب والسنّة، وأن يعرف صاحبُه بالصلاح وحسن السيرة، لا كما يدّعي الدّجَّالون المشعوذون، فيأتون بالمنكرات والخوارق، ثم يقولون هذا العلم اللَّدُني[٣].

ث ـ موسى عليه السلام أفضل من الخضر:

ـ قال السَّعدي في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: كان قد أُعطي من العلم ما لم يعطَ موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، ولاسيما في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين؛ الذين فضّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك[٤].

---

(١) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٥٥٩).
(٢) رواه البخاري، رقم ٣٢٨٢.
(٣) تدبر سورة الكهف، ناصر العمر، ص١١٦.
(٤) تفسير السَّعدي، ص٦٢٦.

ـ وقال عبد الحميد محمود طهماز: والخصوصية لا تقتضي الأفضلية كما هو مقرر عند العلماء، وهذا يقطع الطريق على القائلين بأن الخضر أفضل من موسى.

ورحلة موسى عليه السلام إلى الخضر في طلب العلم دليل على فضله وسعة علمه، فكلّما ازداد الإنسان علماً ازداد تعظيماً للعلم وحرصاً عليه، فالفضل في هذه المرحلة لموسى عليه السلام على الخضر، ورحم الله القائل:

إنْ زارنـــي فبفضلِـــه أو زُرتـــه فَلِفَضْلِه فالفضلُ في الحالينِ له[1]

ـ وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى، تمسُّكاً بهذه القصة، وهذا يتصور ممّن قصر نظرَه على هذه القصة، ولم ينظر فيما خصَّ الله به موسى عليه السلام من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوته، حتى عيسى.

ـ والخضر ـ وإن كان نبياً ـ فليس برسول باتِّفاق، وغاية الخضر أنَّه ليس بنبي بل ولي، فالنبي أفضل من الولي، وهذا أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً، والصَّائر إلى خلافه كافر؛ لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦]:

هذا أول خطاب يردُ في القصة بعد لُقيا موسى عليه السلام للعبد الصَّالح، ونجد أول كلمة ينطق بها موسى:

أ ـ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾:

ـ ﴿هَلۡ﴾: هذه أول كلمة نطق بها موسى عليه السلام، وهي أداةُ السؤال الذي هو مفتاح المعرفة، وهي تدلُّ أيضاً على أن طالب العلم ـ وهو موسى عليه

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٧).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٧).

السلام ـ هو الراغب في التعلُّم، لا أنه مفروض عليه، فهو يتلقاه بشغف ورغبة، و﴿هَلْ﴾ هنا سؤال لطيف يحمل أدباً جمّاً يتناسب مع أخلاق النبي الكريم موسى عليه السلام، فهو الآن في موطن الطلب والتعلُّم، و﴿هَلْ﴾ للاستفهام، والمقصود به العرض.

ـ ﴿أَتَّبِعُكَ﴾: ذكر الاتِّباع؛ ليشعر مُعلِّمه بتقديره له، وحفظه لمكانته، فأنا أتبعك؛ لأتعلم منك، وهذا الاتِّباع يوفر لموسى عليه السلام «القرب المادي» من مُعلِّمه، وهو من وسائل الاتصال الفعّال بين المعلِّم والمتعلم، والسفر يجد بيئة مناسبة لاستمرارية هذا القرب وهذا الاتصال في مواقف متنوعة؛ ولهذا القرب من التأثير الإيجابي ما يستحقّ عناية المربِّين، فقد وجد أن هناك علاقة مؤثرة بين حضور المربّي في ساعات معينة، واستقباله المتعلمين، واستعداده لذلك، وقضاء وقت معهم، وبين إقبالهم عليه، وأخذهم عنه، واستعانتهم به[١].

وفي هذا المجال يقول جرير بن عبد الله البجلي: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ابتسم في وجهي[٢].

وتبعاً لهذه العلاقة الوثيقة، سيحصِّل المتعلمُ من فرص التعلُّم بالمواقف والحوادث ما لا يحصِّل بغيره[٣].

إن موسى عليه السلام جعل نفسه تبعاً للخضر، رَغْمَ تفضيله عليه كما سبق ذكره، فقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؛ فعلى طالب العلم أن يتواضع لمُعلِّمه وأن يتابعه؛ ليستفيدَ من علمه، وتقتضي المتابعة من طالب العلم التسليم لمُعلِّمه، وترك منازعته، والاعتراض عليه[٤].

---

(١) المضامين التربوية، للعطوي، ص٤٠.
(٢) البخاري، نقلاً عن المضامين التربوية، ص٤٠.
(٣) المضامين التربوية، ص٤١.
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٨).

ب ـ ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ :

نلحظ هنا أن موسى عليه السلام عرض على العبد الصَّالح أن يتَّبِعَه بشرط أن يعلِّمه؛ لذا استدل أهل العلم بقوله هذا على جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم(١).

وفي هذا اهتمام واضح بالتعلُّم والرغبة فيه لدرجة أنه عليه أن يجعله في صورة عقد، يجب أن يلتزِمَ به الطرفان، وهذا يدلُّ على وجود جدية ووضوح في الهدف المنشود، كما يدلُّ على تبنِّي نظام دقيق وسياسة محددة تكشف عن خلفية المتعلم والمعلِّم المعرفية والتربوية، فهناك مُعلِّم ومُتعلِّم وعقدٌ بينهما، وهنا تفصيلٌ لنوع العلم وتقييدٌ له بأنه ﴿رُشْدًا﴾؛ أي: يدعو إلى الخير، وينفع(٢).

وأشار أهل العلم والاختصاص من المفسرين وغيرهم إلى أنَّ العلم الذي طلبه موسى عليه السلام لا يتعلَّق بعلم الشريعة الخاص بالأمة الإسرائيلية؛ لأنه مستغنٍ عن ذلك بما علّمه الله، لكنه أراد الازدياد من علم آخر موجود عند العبد الصَّالح، والازدياد من العلم أمر محمود، وصِفة مطلوبة، أما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وما تعلَّمَه موسى عليه السلام علمٌ يختص بالسياسة الشرعية، وتقديم المصالح البعيدة، ودرء المفاسد، حسب الحوادث والأحوال، لا بحسب المصالح الظاهرة القريبة(٣).

ـ ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾؛ أي: من بعض ما علّمك الله سبحانه، مما يدلُّ على شدة تواضع موسى عليه السلام(٤).

ـ ﴿رُشْدًا﴾؛ أي: علماً ذا رشد، ولا خير في علم لا رُشْد فيه ولا هداية،

---

(١) التحرير والتنوير، (١٥/ ٣٧٠)، المضامين التربوية، ص٤١.
(٢) المضامين التربوية، ص٤١.
(٣) التحرير والتنوير، (١٥/ ٣٧١).
(٤) المصدر نفسه، (٥/ ٢٨٨).

فإنّ العلم الذي لا رشد فيه فتنةٌ لصاحبه(١). والرُّشْدُ: العِلمُ الراشد، وإصابةُ الخير(٢).

ت ـ والرشد: خلاف الغَي، وكل علم اهتديت به إلى خير، ونفعك في دينك أو دنياك، فهو رشد، وقد قابل الله بين الضدّين في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] (٣).

والرشد: هو الآثار العملية للعلم في شخصية صاحبه، بحيث يكون راشداً متَّزِناً، نافعاً، خيراً(٤).

إن هدف موسى عليه السلام من متابعة الخضر عليه السلام أن يتعلَّم منه الرشد؛ ليكون راشداً رشيداً، ومُرشداً يتعلَّم العلم النافع الصَّحيح الذي يوجد عنده الرشد، ويجعله يتعامل مع الناس برشد، ويعيش بينهم برشد(٥).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٧]:

أي: إنك لن تُطيق الصَّبر على اتّباعي، لما تراه من أفعالي التي ظاهرها منكر، وباطنها بخلاف ذلك(٦).

فسوف تراني أفعل أشياء أنا مأمور بأن أفعلها، لكنك أنت لا تعرف حكمتها، وهي في ظاهرها أمور غريبة تدعو إلى الاستغراب والإنكار، فسوف تستغرب صدورها منّي، وتُنكِر علي فعلها؛ ولذلك لن تصبر على السير معي(٧): ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾.

---

(١) المصدر نفسه، (٥/ ٢٨٨).
(٢) قصص سورة الكهف، (٢/ ٥١١).
(٣) قصص سورة الكهف، (٢/ ٥١١).
(٤) القصص القرآني، (٣/ ٣١٥).
(٥) تعليم الحياة مع قصص سورة الكهف، ص٨٧.
(٦) التفسير المحرر، (١٥/ ٣٤٤).
(٧) القصص القرآني، (٣/ ٣١٥).

وهنا يبدأ العبد الصَّالح بإملاء شروط هذه الصحبة، ويوضح لموسى عليه السلام طبيعة علمه ومذهبه، فمذهبي غير مذهبك، وعلمي من كِيس غير كيسك، وسوف ترى مني تصرُّفات لن تصبر عليها؛ لأنه لا علم لك ببواطنها، وكأنه يلتمس له عذراً على عدم صبره معه[١].

فالإنسان الّذي يشقُّ عليه العلم عليه أن يسكت إذا سمع أو رأى شيئاً يخالف علمه، ثم استدرك الرجل معتذراً من موسى معلِّلاً[٢]:

٤ ـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]:

ولم يترك الخضر موسى عليه السلام في حيرته واستغرابه، وإنما علّل له ذلك تعليلاً نفسياً، فسوف يراه يفعل أشياء أمره الله أن يفعلها، وكشف له حقيقتها، فعرف حكمتها، ولكن موسى لم يعرفْ حقيقتها ولا حكمتها، ولم يطْلعه الله على بواطنها، وسيتعامل معها بظواهرها الخارجية، وسيكون فعلُ الخضر مستغرباً حسب تلك الظواهر؛ ولهذا لن يصبر موسى، ولن يسكت، وسيعترض، وينكر.

و﴿خُبْرًا﴾ في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ مَضمومة الأول، وهي ليست بمعنى «الخَبَر» بفتح الخاء، فالخَبَر ـ بالفتح ـ هو العلم بالأشياء الظاهرة المعلومة من جهة الخبر. والخُبْر ـ بالضَّمِّ ـ هو المعرفة ببواطن الأمور[٣].

فموسى عليه السلام لم يحِطْ خُبراً ببواطن الأفعال التي سيفعلها الخضر، وسيبقى واقفاً عند ظواهرها وأخبارها الخارجية.

أما الخضر فقد أحاط ﴿خُبْرًا﴾ بتلك الأفعال والأشياء، فقد أطلعه الله على بواطنها، وحقائقها، وخفاياها[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٥٨).
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٨٨).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٣١٦).
(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٣١٦).

والآية الكريمة تُظهر مظهراً من مظاهر أدب المعلِّم مع المتعلم، إذ احترم رأيه، والتمس له العذر إن اعترض عليه[١]، وازداد موسى تلهفاً ورغبة وشوقاً إلى التعلُّم:

٥ ـ ف: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩]:

أي: أنا قابل لشروطك، أيها المعلِّم، فاطمئِنَّ، فلن أجادلك، ولن أعارضك في شيء. وقدَّمَ المشيئة فقال:

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ ليستميله إليه، ويحنِّنَ قلبه عليه.

أ ـ ﴿صَابِرًا﴾ على ما تفعل، مهما كان.

ب ـ ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾: هكذا جعل نفسه مأموراً، فالمعلّم آمر، والمتعلّم مأمور[٢].

إن عزيمة موسى عليه السلام في طلب العلم كانت قوية وأكيدة، وإلحاحه وحاجته إليه كبيرة؛ وهذا جعله يقول في تواضع شديد: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾.

ولم يقل: إنني رسول بني إسرائيل، صاحب الشريعة وكليم رب العالمين، وصاحب المعجزات كذا وكذا، ومن المؤكد أن ما سيكون على يديك ليس بأغرب مما كان على يدي، وإنما كان الرد متواضعاً؛ ليدلَّ على عظم صاحبه وتواضعه[٣].

وفي كلام موسى عليه السلام في هذه الآية إشارة إلى الأدب في الصحبة والرحلة والسفر، فلا بدَّ فيها من الصَّبر، ولا بدَّ من طاعة المسافرين لأميرهم، حتى لا تتحول الرحلة إلى نزاع، وخصام، وعذاب.

وعندما أعلن موسى عليه السلام استعداده للصبر والطاعة، اشترط عليه

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٥٨).
(٢) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٥٩).
(٣) قصص سورة الكهف، (٢/ ٥١٣).

الخضر أن يسير معه متعلّماً، وألا يسأله عن شيء، وألا يعترض على شيء، وألا ينكر عليه ما يراه منه، وأن ينتظر لِيعلِّل له الخضر أفعالَه، ويبين له حكمة ذلك[١].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]:

وفي كلام الخضر إشارة إلى أدب من آداب طلب العلم، فلا بدَّ للمتعلم أن يطيع المعلِّم، ويوقّره، وأن يتأدب بين يديه، فلا يعترض عليه، ولا يكثر عليه الأمثلة، ولا يتعبه، ويشقَّ عليه، وينتظرَ أن يبين هو له بنفسه المسائل، ويوضح له الحقائق.

وعلى طالب العلم أن يتمتَّع بالأناة وسعة الصدر وهدوء الأعصاب والنفس الطويل، وأن يديم الاستعداد للتلقّي، والانتباه لما يجري أمامه بهدوء، وروية، وتأنٍّ، وموضوعية، فاشترط الخضر على موسى ذلك الشرط، ووافق موسى، واستحضر نية الصَّبر والطاعة وعدم الاعتراض أو الإنكار أو السؤال، واتَّفقا على الانطلاق في الرحلة[٢].

أ ـ قال القرطبي: وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر ودَأَبَ لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض، فتعين الفراق والإعراض[٣].

ب ـ قال السَّعدي: أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أُخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر[٤].

وبعد هذه المواثيق بين موسى كليم الله تعالى، والعبد الصَّالح، عليهما السلام، أخذا في السير؛ ولذا قال:

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣١٧).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٣١٧).
(٣) تفسير القرطبي، (١١/ ١٤).
(٤) تفسير السَّعدي، ص٦٧٦.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧١ ـ ٧٣]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]:

أ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ﴾: وهذه الكلمة وردت ثلاث مرات في السورة، في التركيبِ نفسِه، وفي القصةِ نفسِها.

فانطلقا يمشيان على شاطئ البحر، فمرّت بهما سفينة، فعرف أصحابها الخضر، فحملوهما بغير نَولٍ؛ أي: بغيرِ أجرة.

لكن الخضر عمد إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه، واعترض موسى على هذا التصرف بقوله: قوم حملونا بغير نَولٍ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها؛ لِتُغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً، وهذا الفعل عندَ موسى لا يليق مع الآخرين، فكيف يليق بأصحاب السفينة الذين أكرموهما؟!

ومن شدة هول الموقف على نفس موسى عليه السلام نسي موسى العهد، واعترض على الخضر قائلاً: أخرقتها؛ لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً!

وفي هذه الآية لطائف، منها:

ـ حرص الأنبياء وأتباعهم على إنكار المنكر، أو ما يرونه مخالفاً لشرع الله تعالى، ففي هذه الحالة لا يجوز السكوت على المنكر، قال ﷺ: «من رأى منكم مُنكَراً فليغيرْه بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان» [١].

---

(١) موجّهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، الخوالدة، ص١٥٨.

ـ جواز وقوع النسيان من الأنبياء.

ـ جواز ركوب البحر، فهو الطهور ماؤه والحل ميتته.

ـ السفينة باب من أبواب الرزق الذي يتكسَّب به المساكين وغيرهم.

ـ إن السفينة معروفة، وهي وسيلة من وسائل النقل البحري، ففي عهد سيدنا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره الله أن يصنع الفلك: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فينفِّذ نوح عليه السلام أمر الله ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: ٣٨].

فالمواصلات نعمة من نِعَم الله الكثيرة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ووسيلة من الوسائل الحديثة التي تُمكِّن المساكين من الكسب الحلال والإنفاق عليهم، وهي وسيلة لخدمة الناس يجب المحافظة عليها، وعدم الإضرار بها، ولا يجوز الاعتداء على الملك الخاص والعام وإلحاق الأذى به؛ لأن الأذى إذا وقع يعمّ البلاء، ويلحق بالناس المشقّة والتعب، وفي الحفاظ عليها حفاظ على مصالح الناس، ونَشْر للأمن والمحبة والألفة بينهم، ومن أهداف الشريعة: المحافظة على الضرورات الخمس(١).

وكلمة «فانطلقا» تُوحي سرعةَ البدء بالجانب العملي التطبيقي من الاتفاق على عملية التعليم، كما تدلُّ عليه «الفاء» المشعرة بالتعقيب والترتيب.

كما أن كلمة «انطلقا» تدلُّ بحروفها على الحركة السريعة للبدء بالمطلوب، وهذا يربّي في المتعلم من أول لحظة الجدَّ وبذل الوسع، وتأتي كلمة «حتى» مباشرة بعد الانطلاق، وهي تدلُّ في الأصل على انتهاء الغاية، وقيل: بل «حتى» ابتدائية، أشعرت بسرعة الخرق بمجرد ركوب السفينة(٢).

ـ وقوله: ﴿إِذَا رَكِبَا﴾ تدلُّ على أن توقيت الخرق كان أول ما ركبا السفينة، وأن ركوب السفينة كان القصد منه خرقها؛ لأن الشيء المقصود به يبادِرُه قاصدُه حال حلول وقته؛ لأنه يكون قد دَبَّر أمره من قبل. وبنى الكلام على تقديم الظرف

(١) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٢) المضامين التربوية، ص٤٨.

﴿إِذَا﴾ على عامله ﴿خَرَقَهَا﴾ دون أن يقال «فخرق السفينة لما ركبها أو حين ركبها» للتدليل على أن الخرق وقع بمجرد الركوب، إذ إن تقديم الظرف يشعِر بالاهتمام به، فيدلّ على أن وقت الركوب مقصود لإيقاع الفعل فيه، ويبدو أن في ذلك ما يثير تعجُّب موسى ودهشته، وقد يكون هذا من المعلِّم لتعليم وتدريب تلميذه، كما أن تعدية الفعل «ركب» بحرف الجر «في» وليس «على»؛ أي: «ركبا على السفينة»، للتدليل على أن ركوبهما كان داخل السفينة؛ فهما «في» جوفها، كما تشعر به دلالة «في» على الظرفية، وهما بذلك في مكان يكون الخرق فيه مؤثراً؛ لأنهما في أسفل السفينة، ولو كان الخرق في أعلاها لما أثر فيها شيئاً، كما أن لفظ «خرق» يشعِر بتعمّد التخريب، وهذا يزيد في إثارة تعجُّب موسى ودهشته.

وبهذا نعلم أن هناك أسباباً كثيرة تدعو موسى عليه السلام إلى الاعتراض، والدهشة، والسؤال:

ـ الفعل، وهو «الخرق»؛ لأنه تخريب وإيذاء.

ـ الوقت؛ لأنه حصل بمجرد ركوبهما، ولو كان لمصلحة لما أمكن العبد الصَّالح معرفة ذلك لقصر الوقت.

ـ المكان، وهو أسفل السفينة كما تدلُّ عليه «في» الظرفية.

وهنا أمام حجم هذا الحدث بكل تداعياته نسي موسى عليه السلام الاتفاق الذي كان بينه وبين العبد الصَّالح، فبادر إلى إنكار المنكَر، كما هو شأنُ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

ب ـ ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾:

ونلحظ أنه قال: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل «لتغرقنا»؛ لأنه عليه السلام أهمَّه أمر الناس، وطغت عنده مصلحتهم على ما سبق الاتفاق عليه، فغلب على ذهنه هذا الحدث، وانشغل به عمّا سواه.

---

(١) المضامين التربوية، ص٤٩.

والاستفهام هنا للإنكار، ومحلُّ الإنكار هو العلة ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وفهمنا من هذا أن السفينة فيها ركّاب، وأن الخرق سيؤدِّي إلى غرقهم، وهذا ـ في ظاهره ـ فيه إهلاك لأرواح الناس وممتلكاتهم، وهذا ما حمل النبي الكريم عليه السلام على الاعتراض[١].

ولكن فعل الخضر في الخرق كان إصلاحاً خيراً لإنقاذ النفوس البريئة، فظاهر الأمر أنَّه فسادٌ، ولكن الحقيقة من تأويل الأحداث كانت كلها خيراً.

والإفساد والتفريق يتراءى لنا نحن ـ المشاهدين ـ لأحداث القصة لأول وهلة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فلم يكن فعل الخضر بخرق السفينة إفساداً، ولكنه الإصلاح بعينه والرحمة بعينها، وسترى تأويل ذلك في نهاية القصة[٢].

ت ـ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾:

ـ واضحٌ من خطاب موسى عليه السلام الاستنكاري أنه أكثر فيه من المؤكدات التي تُعطي كلامه ثقلاً مُعيناً، يكشف عن مدى استيائه من هذا الفعل، فهذه اللام في «لقد» للقسم، و«قد» الداخلة على الماضي «قد جئت» تفيد التَّحقيق، والتعبير بـ «جئت» دون «عملت» أو «أتيت»؛ لأن المجيء، وإن كان بمعنى الإتيان، يختلف عنه في أن الإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، أما المجيء، فيقال اعتباراً بالحصول، فهو أكثر دلالة على القصد في وقوع الشيء، كما قال سبحانه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: قصدوا الكلام وتعدَّوه، وعلى هذا يكون ذكر المجيء هنا لإيضاح أن موسى عليه السلام رأى من العبد الصَّالح ما يشعر بقصده لحصول هذا الفعل المنكر.

ـ ﴿شَيْئًا﴾: جاءت كلمة (شيئاً) هنا؛ لتكون موصوفة بالإِمْر، وهذا يزيد من تفظيع الفعل واستنكاره، ثم قال: ﴿إِمْرًا﴾، والإمر هو العظيم الـمُفظِع، وهو المنكر إذا كثر وكبُر في نوعه.

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠.

ونخرج من هذا الإنكار إلى شدة استفظاع موسى عليه السلام لما حدث أمامه، فقابله بشدة الإنكار والاعتراض، يقول ابن عاشور: ولم يجعله «نُكراً» كما في الآية التي بعدها؛ لأن العمل الذي عمله العبد الصَّالح ذريعة للغرق، ولم يقع الغرق بالفعل[١]، بخلاف ما بعده؛ فالقتل قد حصل[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]:

ولا يخفى ما في هذا التذكير من إنكار على عدم صبر موسى[٣].

كانت إجابة الخضر لتلميذه موسى عليه السلام بصبر ولطف، وتذكيره بالعهد، والبدء بالسؤال ﴿أَلَمْ﴾ لاستثارة انتباهه؛ ليكون معه، لما في السؤال من التنبيه من جهة، والتقرير بالمراد أو نفيه من جهة أخرى؛ لأنه سيجيب بنعم أو لا.

والواضح من خطاب العبد الصَّالح في معاتبته وتذكيره لتلميذه أنه أعاد عليه العبارة التي قالها في أول لقاء دون زيادة أو نقصان، وهذا ينبئ عن دقة ووضوح لدى هذا المعلِّم، فهو يقصد ما يقول لتلميذه، ويريد منه أن يعي ما يسمع تماماً كما هو، وأن يدرِك ما يترتب عليه من تبعات، وعلى الرَّغم ممَّا كان عليه موسى من الاستنكار وربما الغضب والاعتراض، فقد جعل هذا السؤالُ التقريري موسى عليه السلام يعتذر من الخضر، ويطلب إليه أن يقبل اعتذاره ويسامحه[٤].

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]:

أي: ولا تعسِّر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (٥/ ٣٧٥).
(٢) المضامين التربوية، ص٥٠.
(٣) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٠).
(٤) المضامين التربوية، ص٥١.

ـ أيها الخضر ـ الشدة على صاحبك[١]، وهكذا انتهت الجولة الأولى بعتاب من الخضر، واعتذار من موسى عليه السلام[٢].

قال محمد أبو زهرة: في قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: لا تشتدَّ علي في التعنيف، فيكون الإرهاق الشديد، والمعنى اللفظي: لا ترهقني عسراً من أمري فتغلظ علي الصحبة التي أريدها، ولكنهما سارا مصطحبين، فكان أمرٌ أشدُّ غرابة وأعنفُ مظهراً من خرق السفينة، وهو قتل غلام[٣].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٤ـ٧٦]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]:

لقد كان أمر السفينة إتلافاً مالياً مباشراً، وإغراق الركاب بقي في حدود الاحتمال، أما هنا في حادثة الغلام فإنَّ القتل قد حصل، وإنَّ النفس قد أُزهقت، والغلام لم يبلغ الحلم، فيقال: إنه أُخِذ بجريمة سابقة، لم يعلمها موسى، ولو ارتكب الغلام جريمة قتل فلا قصاص عليه؛ لأنَّ القلم رُفع عن الصغير حتى يبلغ، فليس هناك شريعة سماوية تُبيح قتل مثل هذه النفس مهما كانت الاحتمالات والتأويلات للأسباب الظاهرة؛ لذا كان انفعالُ موسى عليه السلام أشدَّ من انفعاله في الحالة السابقة، وكان احتجاجه أقوى، ولئن كانت الأولى نسياناً، فلا نسيان هنا، وإنما هو العمد والقصد، كما قال خاتم النبيين عليه

(١) تفسير السَّعدي، ص٦٢٦.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٠).
(٣) تفسير أبي زهرة، (٩/ ٤٥٦٢).

الصلاة والسلام، فكانت الأولى من موسى نسياناً، والثانية عمداً، والثالثة فراقاً[١].

أ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ تُشعِر بالسرعة، فبناءً على ما تمّ بينهما من اتّفاق انطلقا، وبمجرد أن وجدا غلاماً قتله.

ـ وكلمة ﴿لَقِيَا﴾ تُشعِر بأن الغلام لم يتصرَّف بسوء مع العبد الصَّالح، ولا مع غيره مما يراه ويشاهده موسى عليه السلام، بل بمجرد ما لقيا هذا الغلام قتله، وهذا ما يجعل هذه الحادثة أعجب من سابقتها.

ـ وقوله: ﴿غُلَٰمًا﴾ دليل على أنه صغير لم يبلغ الحلم، بدليل قول موسى عليه السلام بعد ذلك ﴿نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾.

ـ والتعبير ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ يشعِر بالقسوة والشدة وعدم الرحمة، فلم يقل ضربه أو جرحه، بل قتله. ولا شك في أن قتل الصغير فيه من الشناعة ما يفوق قتل غيره، كما أن القتل ذاته جريمة كبرى عظيمة، فكيف إذا حصلت بلا مبرر، وقد ذكر في صفة القتل أنه اقتلع رأسه بيده، وقيل: بل ذبحه بسكين، وقيل: بل رضّه بالحجارة بعدما لقيه يلعب مع أقرانه، فاجترَّه من بينهم.

لا شك في أن هذا المنظر وهذا الجرم يصعب السكوت عليه، وهو جريمة حقيقية واقعة، لا مُتوقَّعة كما هو حال السفينة؛ لذا بادر موسى عليه السلام بالإنكار على نمط طريقته الأولى مع زيادة حجم الإنكار[٢].

ب ـ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾:

ـ وهكذا نجد النمط واحداً؛ فأولاً ينكر بصيغة استفهام إنكاري: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾؛ فهو هنا لا يسأل بل يستنكر ويقرِّر، ثم بعد ذلك يحكم على فعله بما يراه، وقد حكم عليه هنا بأنه شيء نُكر.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، (٥/ ٢٣٣).

(٢) المضامين التربوية، ص٥٣.

ـ وتعبيره ﴿نَفْسًا﴾ دون غلام لاستثارة مكامن الشفقة في نفس العبد الصَّالح؛ فهي نفس حقُّها أن تُصان وتُحفظ.

ـ ﴿زَكِيَّةً﴾ تعظيم لشأنها فهي طاهرة نقية؛ لأنه غلام دون الحلم، وهذا يعظم الجريمة.

ـ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ فلا جريمة لديه، ولا مبرر لهذا العمل الشنيع، و﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ وقعت موقع الحال، والمراد قتلتَ نفساً ظالماً لها، وهي مظلومة.

ـ وإنما قال ﴿زَكِيَّةً﴾ على وزن (فعيلة)، وهي صفة مشبَّهة، تدلُّ على الثبوت مع كون «فعيل» يدلُّ على المبالغة[١].

ـ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾: نلحظ هنا أنَّ تعليل موسى لإنكاره هذا الفعل كان جارياً على طريقته من قبل، مع تغيير يسير في بعض الكلم، وهذا يدلُّ على أنه يعتمد في إنكاره وطريقة اعتراضه على منهج موحد، والفرق بين ما ذكر سابقاً في شأن السفينة وما ذكر هنا، أنه وصف الفعل السابق، وهو خرق السفينة بأنه شيء إمر، وهنا وصف القتل بأنه شيء نُكر.

والنُّكْر: ما تُنكره العقول وتستقبحه، وهو المنكَر في الدِّين، وهو أعظم من الإِمْر؛ لأنَّ هذا فساد حاصل، والأول فساد متوقَّع، وعلى هذا تكون كلمةُ «نُكر» أبلغَ في تقبيح الشيء من «الإمر»[٢].

والذي يظهر أن خرق السفينة هو الأهون؛ لأنه إفساد متوقَّع لا واقع، كما هو حال قتل الغلام، وهذا ما يتناسب مع التدرُّج في التعليم، ولاسيما أنَّ الهدف هنا قياس قدرة موسى عليه السلام على التحمُّل والصَّبر والالتزام بالشروط في مواقف يجهل تفسيرها، وزيادة اعتراض موسى عليه السلام هنا يؤيد أن قتل الغلام أشنع في نظره من خرق السفينة.

---

(١) المضامين التربوية، ص٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٤.

واعتراض موسى عليه السلام هذه المرة لم يكن عن نسيان، بل كان مقصوداً، ومع هذا يخاطبه العبد الصَّالح بهدوء، وبالطريقة نفسها في المرة الأولى، وهذا يدلنا أيضاً أن المعلِّم صاحب نهج واضح محدَّد، يعرف ماذا يقول، وثبات المعلِّم أمام المتعلم والتزامه بما تم التعاقد عليه يولِّد لدى المتعلم الثقة الكافية بمُعلِّمه، ويؤكِّد له أنه صاحب مبدأ يقصد ما يقول، ويلتزم به، وهذه ميزة وسِمَة يكتسبها المتعلم من خلال الممارسة العملية من مُعلِّمه لها، مما ينعكس على منهج كامل في حياة الإنسان كلها[١].

ونجد هنا أن العبد الصَّالح ذكّر موسى عليه السلام بالشرط فقال:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]:

وزاد له هنا كلمة ﴿لَّكَ﴾، وإنما زادها في كلامه؛ ليتناسب تذكيره مع زيادة استنكار موسى عليه السلام، واعتراضه عليه، كما أن فيها تخصيصاً للقول واللوم، فكأنه يقول: ألم أقل لك خصوصاً، وهذا فيه إلماحٌ إلى أنك خالفت الاتفاق أولاً، ثم ها أنت تخالفه ثانية، والآن اعلم أن الكلام ﴿لَّكَ﴾ لا لغيرك، وواضح من نوعية الكلام هنا أن هذا المربّي المعلِّم زاد في طريقة توجيهه لموسى عليه السلام، بحسب ما رأى من خروجه على ما تم الاتفاق عليه أكثر من مرة.

وهنا لم يعتذر موسى عليه السلام بالنسيان، بل بادر إلى اشتراط جديد فقال[٢]:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]:

ونجد في هذا الاشتراط من موسى عليه السلام أدباً عظيماً، وإنصافاً، وعدلاً، فقد جعل لمعلّمه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنّباً لإحراجه،

---

(١) المضامين التربوية، المرجع السابق، ص٥٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٦.

وربما يكون في هذا اعتراف بحجم القدرات لدى موسى عليه السلام، فقد رأى أنه لا يتحمَّل شيئاً أعظم من هذا، وتقدير الإنسان لمكانته وقدراته أمر مطلوب حتى يختار من العلوم ما يمتاز به، ويبرع فيه(١).

أ ـ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾:

ـ ونجد أنه هنا قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ﴾ مع أنه ما كان يسأل من قبل، بل كان ينكِر ويعترض، وإن كان في صورة استفهام، ولعله إنما عدل إلى السؤال دون الاعتراض أو الإنكار، فلم يقل: «إن أنكرتُ عليك»، أو «إن اعترضت»؛ تأدّباً مع مُعلِّمه، وليكون أقربَ إلى قبول شرطه، إذ مجرد السؤال اليسير والاستفهام يوجب قَطْعَ العلاقة بينهما.

ـ ﴿عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾، وهذه العبارة تُوحي أنَّ مُعلِّمه معه الحق لو فارقه، وتُوحي أيضاً أنه سيحاولُ جهده ألا يسأل ولا يعترض.

ـ قوله: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ ربما يبدو هذا الكلام غريباً؛ لأن المتوقَّع أن يقول: «فلا أصاحبك»؛ لأنه هو الذي طلب ذلك، على حين تشعر (تصاحبني) بأن العبد الصَّالح هو الحريص على الصحبة.

ولعله قال ذلك؛ ليجعلَ للعبد الصَّالح «المعلِّم» القرار، فهو الذي يقرِّر المصاحبة من عدمها، وهذا ما يتناسب مع الاتباع الذي طلبه في أول اللقاء، ولو قال: فلا أصاحبك لكان هو الذي يحدّد ذلك، والذي يليق بأدب العلم هو الأول، وقال بعضهم: بل المرادُ بكلامه هذا الحزم بالترك والمفارقة، لا الترخيص بالترك من عدمه(٢).

ب ـ ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾:

ـ ﴿قَدْ﴾ دخلت على الماضي ﴿بَلَغْتَ﴾ فدلّت على التحقيق؛ أي: بلغتَ

(١) المصدر نفسه، ص٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

الغاية التي تُعْذرُ بسببها في عدم مصاحبتي، فقد خالفتُ أمرك مرة بعد مرة، كما أن في التعبير عن تمام العذر، وتَعَينِه، البلوغ.

ـ ﴿بَلَغْتَ﴾ ما يشعر بالوصول إلى الغاية، فشبَّه العذر في قطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر ويبلغه، وفي هذا إشعار بأن العبد الصَّالح قد مضى مع موسى عليه السلام وسار معه في قبول الأعذار إلى حدّ النهاية، أي: قد وصلت من جِهتي إلى عذر، يقول ابن عاشور: وهذا أيضاً فيه أدب مع أستاذه حين قدَّم له العذر لو ترك تعليمه بسبب تصرُّفاته، وعدم انضباطه بالشروط.

وهذا يدلُّ على تفكير منطقي وعادل، وتقييم صحيح للنفس، واعتراف بالخطأ، واعتذار لطيف لمعلّمه، وفي هذا تَعزيزٌ للمُعلِّم من المتعلم، وهو أمر ذو أهمية في تقوية العلاقة بينهما، وجَعْل المعلِّم يتعلَّق بتلميذه؛ فالتلميذ الذي يسعى إلى تكوين علاقة حميمة مع مُعلِّمه هو تلميذ مثابر ومطيع وملتزم بالقواعد والنظم، وتعزير المعلِّم للمتعلم نوع من الذكاء الاجتماعي؛ لأنه يعبّر عن القدرة على التواصل مع المعلِّم والتأثير فيه، ويحقق كلمة الفاروق رضي الله عنه: «أعقَلُ الناس أعذرُهم للناس»، وهذا سلوكٌ راقٍ نحتاج إلى غرسه في الناشئة، فهو من جهة أدب رفيع من المعلِّم، ومن جهة أخرى هو سلوك ينبئ عن نضج وتقدير كامل للأمور.

ـ ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: قد وصلت إلى حال تُعذر فيها على مفارقتي، وترك مصاحبتي؛ وذلك باعتراضي عليك مرَّتين، واحتمالك لي فيهما.

وفي قصة موسى والخضر من حديث أبي بن كعب، قال رسول الله ﷺ عند هذا المكان: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، ولو صبر لرأى العجب».

وفي الآية: أنه ينبغي للصاحب ألّا يفارقَ صاحبه في حال من الأحوال،

ولا يتركَ صحبته حتى يعتِبَه، ويعذرَ منه، كما فعل الخضر مع موسى(١).

خامساً: قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٧ـ٧٨]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٧]:

أ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ حتى وصلا إلى قرية، وهي قرية كبيرة ذكرت بعد ذلك بلفظ مدينة ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، وكانا في حاجة ماسّة إلى الطعام، إذ بلغ منهما الجوع مبلغه(٢).

قال القرطبي: اختلف العلماء في القرية؛ فقيل: هي الأُبُلَّة، وهي أنطاكية، وقيل: جزيرة الأندلس، وقيل: برقة، وقيل: ناصرة(٣).

قال الحافظ: وهذا الاختلاف قريب من الاختلاف في المراد بمجمع البحرين، وشدة المباينة في ذلك تقتضي ألاَّ يتحصَّلَ شيء من ذلك(٤).

ب ـ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾: استطعم؛ أي: طلب الطعام، وطلب الطعام هو أصدق أنواع السؤال، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج، فلو سأل مالاً لقلنا: إنه يدّخره، إنما الطاعم لا يعترض عليه أحد، ومنعُ الطعام عن سائله دليل بخل ولؤم متأصِّل في الطِّباع، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التي مرّا بها، وطلبا الطعامَ فمنعوهما.

---

(١) التفسير المحرر، (١٥/ ٣٨١ـ٣٨٢)، ذمامة: حياء وإشفاق.
(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩١).
(٣) تفسير القرطبي، (١١/ ١٧ـ١٨).
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٨/ ٥٣٦).

والمتأمل في الآية يجد أن أسلوب القرآن يصور مدى بخل هؤلاء القوم ولؤمهم وسوء طباعهم، فلم يقل مثلاً: فأبوا أن يطعموهما، بل قال: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وفرقٌ بين الإطعام والضيافة، أبوا الإطعام، يعني: منعوهما الطعام، لكن أبوا أن يضيفوهما يعني كل ما يمكن أن يقدّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال، وهذا منتهى ما يمكن تصوره من لؤم هؤلاء الناس.

ونلحظ أيضاً تكرار كلمة «أهل»، فلما قال: ﴿أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ فكان المقامُ للضمير فيقول: استطعموهم، لكنه قال: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾؛ لأنهم حين دخلوا القرية، هل قابلوا كل أهلها أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول؟

بطبيعة الحال قابلوا بعضهم، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً، كأنهما مرّا على كل بيت في القرية، وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى، كأنهم مُجمِعون على البخل، ولؤم الطباع(١).

لقد كان أهل هذه القرية على درجة كبيرة من البخل، والعجيب أن موسى عليه السلام لما وصل إلى مدين بعد أن خرج من مصر فراراً، لم يطلب حينئذ الطعام من أهل مدين مع شدة جوعه، بل توجّه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وقابل الخضر إساءة أهل القرية لهما بالإحسان والإصلاح(٢).

ت ـ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾؛ أي: لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وجدا جداراً يريد أن ينقضَّ، ونحن نعرفُ أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل، فإن جاءت لغير العاقل فهي بمعنى قرُب؛ أي: جداراً قارب أن ينهار، لما ترى فيه من علامات كالتَّصدُّع والشُّروخ مثلاً.

ولا مانع أن يكونَ للجدار إرادةٌ، على أساس أنَّ لكل شيء في الكون حياةً تناسبه، ولله تعالى أن يخاطبه، ويكون بينهما كلام.

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٢).

(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩١).

ألم يقل الحق سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: ٢٩]، فإذا كانت السماء تبكي فقد تعدَّت مجرد الكلام، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر، فقوله: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: ٢٩] دليل على أنها تبكي على فقد الصَّالحين.

وقد سُئِل الإمام علي رضي الله عنه عن هذه المسألة، فقال: نعم، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع في السماء، وموضع في الأرض، أمّا موضعه في الأرض فموضع مصلاّه، وأمّا موضعه في السماء فهو مصعدُ عمله[١].

وهذا دليلُ انسجام العبد المؤمن مع الكون من حوله، فالكون ساجد لله، مُسبِّح لله، طائعٌ لله، يحبُّ الطائعين، وينْبُو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم؛ لذلك العرب تقول: «نَبا به المكان» أي: كرهه لأنه غير منسجم معه، فالمكان طائع وهو عاصٍ، والمكان مسبّح وهو غافل، وعلى هذا الفهم فقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قول على حقيقته.

إذن: فهذه المخلوقات لها إحساس، ولها بكاء، وتحزُّن لفقد الأحبَّة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم علي قبل أن أُبعث»[٢].

ورُوي في السيرة حنين الجِذع إلى رسول الله، وتسبيح الحصى في يده ﷺ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا: لا ينبغي أن يقال: سبّح الحصى في يد رسول الله؛ لأن الحصى يسبِّح أيضاً في يد أبي جهل، لكن نقول: سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يديه.

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء، فقد رأينا العلماء في العصر الحديث يبحثون في لغة للأسماك، أو لغة للطير، ولغة للوطاويط التي أخذوا منها فكرة الرادار، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلزال وخاصة الحمار، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلزال مباشرة.

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٤).

(٢) رواه مسلم، رقم ٢٢٧٧.

إذن: فلهم وسائل إدراك، ولهم لغة يتفاهمون بها، ولهم منطق يعبِّرون به[١].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في هذه الآية:

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدلُّ بها القائلون بالـمَجاز في القرآن؛ زاعمين أن إرادةَ الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة، وإنما هي مجاز.

وقد دلَّتْ آياتٌ من كتاب الله على أنه لا مانعَ من كون إرادة الجدار حقيقية؛ لأن الله تعالى يعلم أنَّ للجمادات إراداتٍ وأفعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق، كما صرح تعالى بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله جل وعلا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فصرَّح بأننا لا نفقه تسبيحهم، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو ـ جلَّ وعلا ـ ونحن لا نعلمها، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]؛ فتصريحه تعالى بأن بعضَ الحجارة يهبطُ من خشية الله دليل واضح في ذلك؛ لأن الخشية بإدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ فتصريحه ـ جلَّ وعلا ـ بأنَّ السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت؛ أي: خافت؛ دليل على أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه هو ـ جلَّ وعلا ـ ونحن لا نعلمه[٢].

وزعم مَنْ لا علم عنده أن هذه الأمور لا حقيقةَ لها، وإنما هي ضربُ أمثال: زعمٌ باطل؛ لأن نصوصَ الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وأمثال هذه كثيرة جدّاً؛ ولذلك تعلمُ أنه لا مانع من

---

(١) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٥).

(٢) أضواء البيان، (٣/ ٣٣٩).

إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله عَلِمَ منه إرادة الانقضاض، وإن لم يعلم خلُقه تلك الإرادة، وهذا واضح جدّاً كما ترى، مع أنَّ من الأساليب العربية إطلاقَ الإرادة على المقاربة، والميل إلى الشَّيء، كما قال الشاعر:

يريدُ الرُّمحُ صدرَ أبي براءٍ ويعدِلُ عن دماءِ بني عقيلِ

أي: يميل إلى صدر أبي براء.

وقد بينا في رسالتنا المسمّاة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز» أنَّ جميعَ الآيات؛ التي يزعمون أنها مجاز، أن ذلك لا يتعينُ في شيء منها، وبيّنا أدلة ذلك، والعلم عند الله[١].

ـ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾: ذكر ابن عباس أنه هدمه ثم قعد يبنيه، وقال آخرون: رفع الجدار بيده فاستقام، قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عزَّ ذكره أخبر أن صاحب موسى وموسى وجدا جداراً يريد أن ينقضَّ، فأقامه صاحب موسى، بمعنى عدَّلَ ميله حتى عاد مستوياً، وجائزٌ أنَّه كان كذلك بإصلاح بعد هدم، وجائزٌ أنَّه كان برفعٍ منه له بيده، فاستوى بقدرة الله، وزال عنه ميله بلطفه[٢].

وفي الحديث الشريف: «قال الخضر بيده هكذا، فأقامه»، فمعنى قوله: «قال الخضر بيده» أشار الخضر بيده[٣]، وهو تعبيرٌ بالقول عن الفعل عندئذ[٤].

ت ـ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ونعجبُ مرة ثانية من رغبة موسى أن يأخذ الخضر أجراً على إقامة الجدار، إذا تذكرنا أن موسى عليه السلام سقى لابنتي الرجل الصَّالح غنمهما، ولم يسألهما أجراً، رغم حاجته الشديدة إليه في ذلك الوقت، ولعلَّ الحاملَ الذي حمله على رغبته أن يأخذ الخضر أجراً موقف اللؤم والبخل الذي رآه عند أهل القرية[٥].

---

(١) المصدر نفسه، (٣/ ٣٤٠).
(٢) تفسير الطبري، (١٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر، (٢/ ١٨٥٢).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٢).
(٥) المصدر نفسه، (٥/ ٩٢).

وفي هذه الآية دليلٌ على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل؛ لأنه شَرْعُ مَن قبلَنا، وحكاه القرآن، ولم يرد ما ينسخه، وفي الآية: مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية، وفي حديث رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِمْ ضيفَه، جائزتُه يومٌ وليلة»[1]، أي: يتْحِفه، ويبالغ في برِّه وضيافته ثلاثةَ أيام؛ أي: إطعام وإيواء بما حضر من غير تكلُّف كما يتكلف في أول ليلة، فما كان بعد ذلك فهو صدقة.

واختلف الفقهاءُ في وجوبها، فقال الجمهور: الضيافةُ من مكارم الأخلاق، وهي مُستحَبَّة، وليست واجبة، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي.

وقال منهم: الضيافةُ على أهل القرى والأحياء. ونُسب إلى مالك، قال سَحْنُون: أما الحَضَرُ فالفندق ينزل فيه المسافرون.

وقال الشافعي ومحمد بن عبد الحكيم من المالكية: الضيافةُ حق على أهل الحضر والبوادي، وقال الليث وأحمد: الضيافة فرض يوم وليلة[2].

وبعد هذا الاعتراض، وهو الثالث من موسى عليه السلام، قرّر الخضر الفراق، فقال:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]:

لقد حان وقت الفراق، كما طلب موسى عليه السلام عند اعتراضه على قتل الغلام، وعند شعوره بألا جدوى من الاستمرار، فلن يتمكَّنَ من هذا العلم إلا ما يطلعه عليه الرجل الصَّالح ـ كما تقدّم ـ ولكنه تحقَّق من مجالات العلم الذي لا يحيط به أحدٌ غيرُ الله عزَّ وجَلَّ، وأن الأمورَ جاريةٌ في هذا الكون بمقتضى الحكمة الإلهية، وحسب موازين ربّانية منضبطة[3].

---

(١) البخاري، رقم ٦١٣٥، التدبر والبيان، (٢٠/ ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير، (١٦/ ٧ـ٨).

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص٢٨٤.

أ ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾، تُعد دستوراً فيما يتعلَّق بالاتفاق والشروط التي تمت بين موسى عليه السلام والخضر.

وفي قوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾؛ أي: قال الخضر لموسى سؤالك واعتراضك على فعلي للمرة الثالثة هو سببُ حصول الفراق بيني وبينك، فقد انتهى ما بيننا فلن تصاحبني بعد الآن[١].

ب ـ ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي:

ـ ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ فيه تشويق لمعرفة سِرِّ تلك الأحوال الغريبة، ولا شك في أن ذلك سيخفِّف على موسى عليه السلام ألم الفراق؛ لأنَّه سيرجع بعلم عجيب لم يعرفه من قبل.

ـ ﴿ بِتَأْوِيلِ ﴾؛ أي: بتفسير، وبيان.

ـ ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ولم يقل: بما لم تصبر عليه، بل قال: بما لم تستطع عليه صبراً، أدباً مع موسى عليه السلام[٢].

ونلاحظ أن الخضرَ عليه السلام بنى إدارته في قيادة هذا الحوار، وتعليم موسى عليه السلام، على مبدأ التذكير، فالعتاب، فالحسم.

فالأصلُ في الإدارة أن يكون هناك وضوح في بنود التعاقد، فإذا نسي المتعاقَد معه، ومن نتعامل معهم، لا تكون الخطوة الأولى هي الحسم وإنهاء التعامل، كما لا يجوز الصمتُ على جراح وآلام وحرج في النفس من التذكير، لكن قوة شخصية الإداري تجعله يتبع الخطوات الإدارية الفائقة من الخضر، هي على الترتيب:

١ ـ التذكير عندما نسي موسى، فسأله عن سبب خرق السفينة: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢] وهي لغةٌ رقيقةٌ في التذكير بالعهد.

---

(١) التفسير المحرر، (١٥/ ٣٩١).

(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٢).

٢ ـ العتاب عندما نسي، وسأل عن سبب قتل الغلام: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥]، وكلمة ﴿ لَّكَ ﴾ هنا تدلُّ على رفع مستوى التذكير إلى العتاب الشخصي ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ ﴾.

٣ ـ الحسم عندما تكرر الأمر نفسه بالسؤال عن إقامته للجدار دون عِوضٍ: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]، هذا الحسم إذا تأخَّر، أو تحرَّج منه أي قائد، فسيدفع بالمؤسسة أو المدرسة أو الجامعة أو الوزارة أو الدولة إلى الفشل الذريع، فلا بدَّ من هذا السلّم الصَّاعد في التعامل: تذكير، فعتاب، فحسم دون فشل أو جراح ينوء الجميع بإثمهما[1].

وبعد هذا الحسم: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]، شرع الخضرُ في كشف الأسرار فقال:

سادساً: قوله تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٩ ـ ٨٢]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ ـ **قوله تعالى:** ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]:

فسّر الخضرُ لموسى عليهما السلام السرَّ في خرق السفينة:

أ ـ ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾:

فالسفينةُ ملكٌ لمساكين ضعفاء، لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة، يتكسَّبون

(١) سورة الكهف، د. صلاح سلطان، ص٦٦.

نتيجة عملهم، فهم يملكون بعضَ المال، ولكنه لا يكفيهم لقضاء حوائجهم.

وهناك فرق بين المسكين والفقير:

فالفقير: هو الذي لا يملك شيئاً، وليس له كسب حلال لائق به، وإلى هذا التعريف ذهب الأئمة مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل[١].

يقول الشَّعراوي: ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾: اللام للملكية؛ أي: مملوكة لهم، وقد حسمت الخلاف بين أيهما أشد حاجة، الفقير أم المسكين؟ فالمسكين من يملك شيئاً لا يكفيه، أما الفقير فهو من لا يملك شيئاً[٢].

والمسكين عند الأئمة الثلاثة: من قدر على مال أو كسب حلال لائق يقعُ موقعاً من كفايته وكفاية من يعول، ولكن لا تتمُّ به الكفاية[٣].

ب ـ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ المتكلم هنا هو الخضرُ عليه السلام، فنسب إرادة عيب السفينة إلى نفسه، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عمّا لا يليق[٤]، وهذا درس في الأدب مع الله تعالى.

وقد ورد في القصة «أردت» و«أردنا» و«أراد»، وهذا ورد في الآيات. فما المقصود بذلك؟ وهل هناك فرق بين هذه الألفاظ؟

ـ قال تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩].

ـ وقال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الكهف: ٨١].

ـ وقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

هذا درسٌ عظيمٌ في الأدب مع الله سبحانه المدبِّر للكون بعزٍّ وتمكين، وفي إضافة (الربّ) إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له على تحتم

---

(١) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، ص١٦١.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٧).
(٣) فقه الزكاة، (٢/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨).
(٤) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٧).

ووجوب الانقياد والاستسلام لإرادة الله، ووجوب الاحتراز من المناقشة مما حدث في القصة.

﴿فَأَرَدتُّ﴾، ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾:

ففي الأولى:

خرق السفينة، فقال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فأسند الفعل الماضي في (أردتُ) إلى الخضر، فأسند ما ظاهره الشرُّ والخراب والعيب إلى نفسه، ولم ينسبه إلى ربه؛ لأنه هو الفاعل له، ثمّ هو من باب التأدُّب مع الله سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم مملوء بمثل هذا الأدب الجَمِّ، فإبراهيم عليه السلام نَسَبَ المرضَ إلى نفسه والشفاء إلى الله، مع أن المرض والشفاء من عند الله تعالى تأدّباً مع الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وكما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فنسبوا الرشد إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه خير، وأما الشرّ فلا ينسب إليه، كما جاء في الحديث الصَّحيح: «والشرُّ ليسَ إليكَ»، وهذا من الأدب الجميل من أدب الجن المؤمنين، ومن أدب الخضر(١).

قال القرطبي: فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون أن يستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، واقتصر عليه، فلم ينسب الشرّ إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شيء قدير(٢).

وفي الثانية: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾، قال الآلوسي رحمه الله تعالى: «قيل»: ولعل إسناد الإرادة إلى ضمير المتكلم ومعه غيره؛ لأنَّ إهلاكَ الغلام بمباشرته وفعله، وتبديل غيره موقوف عليه، وهو يكون من فعل الله تعالى

---

(١) موجّهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، حمد الخوالدة، ص١٨٤.
(٢) تفسير القرطبي، (١١/ ٣٩ـ ٤٠).

وقدرته، فضمير «نا» في ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ مشترك بين الله تعالى والخضر عليه السلام، وقيل في وجه تغاير الأسلوب: إن **الأول** شرٌّ فلا يليق إسناده إليه سبحانه، وإن كان هو الفاعل جلَّ وعلا.

والثالث خير؛ فأفرد إسناده إلى الله عزَّ وجَلَّ، **والثاني** ممتزج خيرُه وهو تبديله بخيرٍ منه، وشرُّه وهو القتل، فأسند إلى الله عز وجل وإلى نفسه نظراً لهما[١].

قال أبو السعود: وفي التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما[٢].

قال النسفي: وإنما ذكر أولاً ﴿فَأَرَدتُّ﴾؛ لأنه إفساد في الظاهر، وهو فعله، وثالثاً ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لأنه إنعامٌ محض وغير مقدور للشرِّ، وثانياً ﴿فَأَرَدْنَآ﴾؛ لأنه إفساد من حيث الفعل وإنعام من حيث التبديل[٣].

وفي الثالثة: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أما بناء الجدار فأسندت الإرادة إلى الله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لأنها في أمر مغيب مستأنف لا يعلم ما يكون منه إلا الله سبحانه، إضافة إلى ذلك كون الفعل خيراً محضاً ليس فيه ما ينكَر، لا عقلاً ولا شرعاً، فنسبه إلى الله وحده[٤].

ت ـ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾:

وتُستعمل كلمة «وراء» في القرآن على أربعة مواضع، وتعني:

ـ أمام ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ كما في القصة.

ـ بمعنى بعد: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

ـ بمعنى غير: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧].

---

(١) روح المعاني، (١٦/ ١٠).
(٢) إرشاد العقل السليم، نقلاً عن موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، ص١٨٤.
(٣) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، الخوالدة، ص١٨٥.
(٤) المصدر نفسه، ص١٨٥.

ـ بمعنى خلف: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وجائز أن يكون وراءهم على حقيقتِه؛ أي: خلفهم، فإذا رجعوا أخذ السفينة منهم(١).

ـ ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ فكلمة ﴿كُلَّ﴾ ترسم سوراً كلياً لا يترك شيئاً، فالمراد يأخذ كل سفينة، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصَّالحة للاستعمال فقط، ولا حاجة له في المعيبة غير الصَّالحة، وكأن في سياق الآية صفة مقدرة؛ أي: يأخذ كل سفينة صالحة غصباً من صاحبها(٢)، بدلالة أنه إذا عابها فإن الملك يتركها، وجاء التعبير ﴿يَأْخُذُ﴾ للتدليل على الشدة والسطو ﴿غَصْبًا﴾ بالقوة(٣).

إذن: خَرْقُ السفينة في ظاهره اعتداءٌ على مِلك مُقوّم، وهذا منهي عنه شرعاً، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً في نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن، وسفينة معيبة خير من عدمها، ولو علم موسى عليه السلام هذه الحكمة لبادر هو إلى خَرْقها(٤).

إن الخضر عليه السلام أسّس بعمله هذا قاعدةً نفيسة من قواعد الفقه وهي: يختار أخفّ الضَّررين لدفع أكبرهما، فيتحمَّل الضَّرر الأدنى لدفع الضَّرر الأعلى، فهو لم يخرق السفينة ليغرق أهلها، إنما خرقها؛ ليحدث ضرراً صغيراً ليدفع به ضرراً كبيراً، وهو أخذ الملك الظالم للسفينة غصباً(٥).

وفي هذه الآية: جوازُ ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وكلما كان الإنسان بالمفاسد أبصر، كان في باب السلامة أدقَّ نظراً وأكثر توفيقاً. وقد كان

(١) المصدر نفسه، ص١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٨).
(٣) المضامين التربوية، ص٦١.
(٤) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٨).
(٥) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٣).

الرسول ﷺ أعلم الناس بالمفاسد المجتمعة، وأحكمهم بتخطي أعلاها بأدناها، وتركه للأعرابي الذي بال في المسجد من هذا الباب.

وكلما كان العالم أو الحاكم أعلم بالمفاسد، وأبصر بتعدّدها، كان الاعتراضُ عليه ممن دونه أشدّ؛ لأنه يرى ما لا يرون، ويختار ما لا يختارون وينقدون على ما يعلمون، ويجب عليه أن يصبر على ما يعلم مع بيان حقيقة ما يعلم إن كان له قدرة على البيان، وإنما تُؤتى الأمم وتسقط الدول؛ لأنها عرفت جهة من المفاسد، ولم تعرف جهات، وضررها فيما تجهل أشد مما تعلم، فتتجنَّب ما تعلم وتقع فيما تجهل، تظنُّها السلامة، وهو الهلاك.

والعلم بالمفاسد عظيم، وهو دقيق لا يدركه كل أحد؛ وهو خلاف العلم بالمصالح، فالنفوس تتشوق إليه، وتُقْبل عليه[١].

وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾: إنما ذكر الله المساكين ولم يذكر غيرهم؛ لأن الظالمين يعتدون على الضعفاء ويتركون الأقوياء، ولأن الأقوياء ينصرون أنفسهم ولا يحتاجون غالباً إلى ناصر، ونصرة الضعيف أعظم ثواباً من نصرة القوي[٢].

ومن فعل ما فعل الخضر فهو محسن، وليس بضامنٍ ما أفسد، على الصَّحيح، وذلك لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١][٣].

والآية تُشير إلى مكونات شخصية الملك فهي الظلم والغصب والتسلط والأنانية المادية والطمع، فصفاته التسلط والفوقية، وهي أبرزُ جانب في شخصيته، فهو ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾؛ أي: عنوة، وهدفه محدَّد بدنياه الفانية، فهو يصول ويجول دون رادع يردعه، أو ناه ينهاه عن فعله القبيح، وهو

(١) التفسير والبيان، للطريفي، (٤/ ١٧١٩).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ١٧١٩).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ١٧١٩).

قاطع طريق، فالأصلُ في الحاكم نشر الأمن والرخاء، لا أن يتحول إلى قاطع طريق، فالأمن لا يمكن أن يدوم ما دام الحاكم يسرق ويغتصب وينهب.

كما أن الملك له بطانة سيئة، تأمره بالمنكر وتنهاه عن المعروف، فلو كانت له بطانة صالحة لما بقي على جوره وظلمه وتصرُّفاته السيئة واختلاس الأموال بغير حق، والحال يدلُّ على أن البطانة سيئة، متواطئة معه في كل قراراته، فليس من المعقول أن يتولَّى بنفسه مراقبة كل شيء، وعبّر عنه بـ«الملك» لبيان أنه هو الرأس المدبِّر لكل شر، فهم يأخذون من الأشياء والسلع أحسنها وأثمنها، ونحن نرى أن الخضر عابها حتى لا يأخذها الملك الظالم وأعوانه[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠ـ٨١]:

تفسير الآيات الكريمة:

أ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]:

الغلام: الولد الذي لم يبلغ الحلم وسن التكليف، وما دام لم يكلَّف فما يزال في سن الطهارة والبراءة من المعاصي؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ [الكهف: ٧٤]؛ أي: طاهرة، ولا شك في أن أخذ الغلام في هذه السنّ خير له ومصلحة قبل أن تُلوثه المعاصي، ويدخل دائرة الحساب[٢]، إذن فطهارته هي التي دعتنا إلى التعجيل بأخذه، هذا عن الغلام، فماذا عن أبيه وأمه؟

يقول تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾، وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء، وقد علم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه، وهما مؤمنان، ولم يردِ الله تعالى لهما الفتنة، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان.

---

(١) قصة موسى مع الخضر، د. الخوالدة، ص١٦٤.

(٢) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٦٩).

وكأنَّ قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين، وجميلاً أُسدي إلى كليهما، وحكمة ظاهرة تستتر وراء الحدث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام.

وفي قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾:

خشينا: خفنا، فالواحد منّا يولد له ابن، فيكون قرة عين وسنداً، وقد يكون هذا الابنُ سبباً في فساد دين أبيه، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعِدَ الله هذا الولد من طريق الوالد، فلا يطغى[1].

ونلاحظ في بيان وتفسير حادثة قتل الغلام أنه لم يكن هناك ذكرٌ للقتل، كما ذكر العيب مع السفينة، فقد قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ بالخرق، أما هنا فلم يذكر القتل لكنه ذكر سببه، وربما يكون في عدم تكرار لفظ القتل إشارة إلى عدم تكرار الألفاظ ذات المدلول السلبي أمام المتعلِّمين.

ونلاحظ في ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾ هنا خروجٌ بالخطاب إلى أطراف أخرى لم تكن موجودة أثناء الحادثة، فهو الآن يتحدَّث عن الأبوين «الأم ـ الأب» في سبيل تعليل القتل، وفي هذا تشويقٌ للمتلقي؛ ليصلَ إلى المعلومة بعد تَشَوق، وهذا أثبتُ للمعلومة.

وذكر صفة الإيمان في الأبوين، والتعبير بـ «كان»؛ للتدليل على عراقتهما وقدمهما في الإيمان، فهو ليس شيئاً حادثاً، والتعبير بالإيمان دون الإسلام، فلم يقل «مسلمين»؛ لأن الإيمان درجة أخصُّ من الإسلام، وهذا يدلُّ على صلاح الأبوين جميعاً.

وقوله: ﴿أَبَوَاهُ﴾ دون تفريق بأن يقال: وكان أبوه وأمه، للتدليل على أنهما في مرتبة الصلاح والإيمان سواء، وإنما غلَّبَ لفظ الأبوة على الأمومة؛ لأن هذا هو مقتضى اللغة، فالذكْر يغَلَّب على الأنثى في اللفظ[2].

---

(١) المصدر نفسه، (١٤/ ٨٩٧١).

(٢) المضامين التربوية، ص٦٢.

وفي قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾: جاء ذكْرُ الخشية هنا دون الخوف؛ لأن الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه(١).

وفي قوله: ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾؛ أي: يغشاهما بشدة وقهر طغياناً وتجاوزاً للحد وكفراً بالله، وقيل: إنما ذكر الطغيان أولاً لبيان أن تأثيره عليهما سيبدأ بالطغيان والتجبُّر وينتهي بالكفر(٢).

ب ـ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]:

ولا يفوت الخضر عليه السلام أن ينسبَ الخير هنا أيضاً إلى الله، فيقول: أنا أحب هذا العمل وأريده، إنما الذي يبدلُ في الحقيقة هو الله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فهذا الخير من الله، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه.

ـ وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾؛ أي: طهراً، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؛ لأنهما أرادا الولد لينفعهما في الدنيا، وليكون قُرَّةَ عين لهما، ولما كانت الدنيا فانية لا بقاء لها، وقد ثبت في علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويه، وسيجلب عليهما المعاصي والسيئات، وسيجرُّهما إلى العذاب، كانت الرحمة الكاملة في أخذه بدل أن يتمتَّعا به في الدنيا الفانية، ويشقيا به في الآخرة الباقية(٣).

ـ وفي قوله: ﴿يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾: بشارة لوالديه بالعوض الحسن، بدلاً من ذلك الغلام الذي سيملأ حياتهما ـ إذا عاش ـ جحيماً وكفراً، خيراً منه ﴿زَكَوٰةً﴾؛ أي: طهارة، وهو مناسب لقول موسى في اعتراضه: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أكثر عطفاً وبرّاً، وهذا ما يريده الوالدان لولدهما من صلاحٍ وبرٍّ، وفي هذا إشارة إلى أن تتوجَّه وسائل تربية الوالدين لأولادهما إلى هاتين الغايتين(٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٢.
(٣) تفسير الشعراوي، (١٤/ ٨٩٧٢).
(٤) المضامين التربوية، ص٦٣.

وقال القرطبي: ويستفاد من هذه الآية تهوينُ المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سلّم للقضاء؛ أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء، قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قُتل؛ ولو بَقِي كان فيه هلاكُهما، فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضاءٍ له فيما يحبُّ[1].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]:

أ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾:

ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أقامه.

ـ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾: استثارة لمكامن الرحمة والعطف، كما يشعر بذلك لفظ (الغلام) و(اليتيم)، وهذا ما يدعو لمساعدتهما والوقوف معهما، حتى ولو كانا ضمن أهل القرية المقصودة، كما يدلُّ عليه قوله:

ـ ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: يظهر من هذا أنه يسعى لتربية هدف وجداني يتعلَّق بالعطف والشفقة لهذا الصنف من الناس، وإنما سمّاها هنا «مدينة»، ومن قبل «قرية»؛ لإظهار الاعتداد بها ورفع شأنها لذكر اليتيمين فيها، فمع اليتيمين ذكر لفظ «المدينة»، ومع البخل ذكر لفظ «القرية».

ـ ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: إنما ذكر ذلك، ولم يكتف بذكر اليتْمِ؛ لأنَّ ذلك لا يفسّر إقامة الجدار، ولكنَّ ذكر أنَّ تحته كنزاً لهما يفسّر جزءاً من ذلك، فالكنز تحت الجدار، ولو سقط لظهر، فربما يؤخذ منهما، وربما يحصلان عليه قبل الأوان المطلوب، فيكون وبالاً بدلاً من أن يكون عوناً.

---

(١) تفسير القرطبي، (١١/ ٢٦).

- ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾: قوله هذا يزيد من تفسير ما حدث، فذكر صلاح الأب هنا فيه دلالة على أن له علاقة بحفظ الله لأولاده وذريته، وفي هذا دعوة إلى عناية الإنسان بإصلاح نفسه، وأنَّ لذلك أثراً في جلب الخير لذريته.

ب- ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾:

- ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾: هنا أسند الإرادة إلى الله، ومن قبل قال: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾، ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾. وقال ابن عاشور في هذا الشأن: وقد أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصَّتين السابقتين؛ لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على القصة؛ لأنه فيهما دَفْع فساد عن الناس، بخلاف قصة الجدار، فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين(١).

وإسنادُ الإرادة إلى الرب، مع إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما، فلم يقل: «فأراد ربهما»؛ للتنبيه على تحتُّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادة الله سبحانه الذي هو ربك يا موسى، كأنه قال: إنها إرادةُ ربك يا موسى(٢).

- ﴿ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾: قيل يبلغا الحلم وكمال الرأي والقوة، وهذا ملمحٌ في التربية، وهو تأخير تصرُّف الغلمان في المال؛ لأنه قد يكون سبباً في شقائهما لو حصلا عليه قبل كمال الرأي، كما أنه ينبغي على المربي أن يقيسَ قدرات ومهارات من يعلِّمه، ثم يمكِّنُه مما أراد اختياره من أجله.

- ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾: فيه إلماحةٌ أخرى أن المطلوب أن يبحثا عن الكنز، ويباشرا إخراجه حتى يشعرا بقيمته؛ لأنَّ ما يأتي سهلاً يذهب سهلاً(٣).

ت- ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾:

- ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ كانت أفعال الخضر الثلاثة في حقيقتها رحمة من الله

---

(١) المضامين التربوية، ص٦٤.
(٢) روح المعاني، (١٦/ ١٤).
(٣) المضامين التربوية، ص٦٤.

بأصحابها، وليست ضرراً كما يوحي بذلك ظاهرها؛ ولهذا عقّب على تأويل الأفعال بقوله لموسى ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: فعلت هذه الأفعال الثلاثة رحمة من ربك بأصحابها:

كان خرقي للسفينة رحمة من ربك بأصحابها، حيث سيحافظون عليها بذلك، ويصلحونها بعد تجاوزهم عصابة الملك الغاصب.

وكان قتلي للغلام رحمة من ربك بوالديه، وسيرزقهما الله غلاماً آخر هو خير منه.

وكان بنائي للجدار رحمة من ربك بصاحبيه الغلامين، فسيأخذان الكنز الذي تحته عندما يكبران ويبلغان أشدّهما.

وبعدما أوّلَ الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ حقيقة أفعاله الثلاثة، أخبره أنه لم يجتهد في فعلها باجتهاده؛ وإنما بأمر من الله، فالله هو الذي أطلعه على بواطنها وحقائقها وخفاياها، وهو الذي أمره بفعل ما فعل؛ ولذلك قال:

ـ ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ أي: لم أفعلها بأمري، وإنما بأمر الله سبحانه.

وسياقُ الأفعال الثلاثة، وإطلاع الله الخضر على حقائقها، وأَمْره بفعل ما فعل دليل على نبوة الخضر عليه السلام، فلو لم يكن نبياً لما علم غيب المستقبل في الأفعال، ولَمَا علم بواطن وحقائق تلك الأفعال، ولَمَا أمره الله بفعلها[١].

وفي قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ دليلٌ على نبوة الخضر عليه السلام، فما فعله عندما خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، كان بوحي من الله تعالى له وتشريع؛ وهو تشريعٌ خاص بالخضر لا يجوز العمل به في الشريعة الإسلامية إلا بدليل ظاهر منها، كما أنه غير جائز في شريعة موسى عليه السلام بدليل معارضة موسى له[٢].

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٢٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٤).

ث ـ ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾:

ـ ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ﴾: سمّى بيانه لحقيقة الأفعال تأويلاً، ومعنى (تأويل) هنا هو: بيان الحقيقة والعاقبة والمآل الذي تؤول له الحادثة وتفسّر به، وهو هنا تجاوز الظاهر القريب غير المراد إلى الباطن الدقيق الخفي، وحَمْل الظاهر القريب على الباطن الدقيق.

ـ ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾: حُذفت التاء في ﴿تَسۡطِع﴾ للتخفيف؛ لأنها تكرَّرت، فناسب تخفيفها آخر مرة، أو لمناسبة ما خفَّ عن موسى لمّا عرف حقيقة الحال[1].

قال الدكتور صلاح الخالدي: والملاحَظ أن الخضر لما وعد موسى ـ عليهما السلام ـ تأويل أفعاله، قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، ولما أول تلك الأفعال حذف التاء الثانية من فعل «تستطع» فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، وإثباتها في الفعل الأول ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع﴾ يثقِّل الفعل، وهذا التثقيل للفعل يتناسب مع «الثقل النفسي» الذي كان يعيشه موسى عليه السلام، حيث شاهد ثلاثةَ أفعال عجيبة من الخضر، وكان يتعب نفسه في محاولة فهمها وتفسيرها؛ ولهذا كان يشعر بهمٍّ وثقل ومعاناة، فجاء الفعل ثقيلاً بالتاء الثانية ﴿لَمۡ تَسۡطِع﴾.

أما حذفها في الفعل الثاني: ﴿لَمۡ تَسۡطِع﴾ فقد أدّى إلى تخفيف الفعل؛ وهذا الفعل يتناسب مع التخفيف على نفسية موسى عليه السلام ومشاعره وأعصابه، فلمّا أوّل له الخضر أفعاله الثلاثة عرف حكمتها وحقائقها، وعلم أن الخضر على صواب فيما فعله، وأن فعله لا يدعو إلى الإنكار والاعتراض واللّوم، وبذلك زال «الثقل» على نفسية موسى ومشاعره وأعصابه، وزال عنه عناءُ التفكير والتوجيه والتحليل والاستنتاج، فاستراحتْ نفسه وأعصابه.

وشارك الفعل الثاني ﴿تَسۡطِع﴾ حالة موسى الجديدة، فتخفّف من أحد حروفه ليتوافق مع التخفيف على مشاعر موسى عليه السلام، وهكذا وعى موسى

(١) التفسير الموضوعي، (٥/ ٩٤).

دروسه من رحلته مع الخضر عليهما السلام، وعاد إلى بني إسرائيل الذين كانوا ينتظرونه، وقد ازداد علماً ومعرفة.

أما الخضر، فقد ذهب إلى مكان آخر، لم تحدّده النصوص، فكما أنه ظهر في القصة فجأة؛ كذلك غادر القصة، واختفى فجأة، فلا نعرف من أين جاء، ولا نعرف إلى أين ذهب، ولا ماذا كانت نهايته عليه السلام[١].

سابعاً: أهمُّ الدُّروس والعِبَر والفوائد من القِصَّة:

١ ـ أهمُّ المضامين التَّربوية في القِصَّة:

قام الباحث عويض بن حمود العطوي بدراسة نشرها في مجلة دراسة نفسية بالجامعة السودانية النفسية اسمها «المضامين التربوية في قصة موسى عليه السلام والعبد الصَّالح كما وردت في القرآن الكريم»، وتوصّلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج في مجال التربية والتعليم، أهمها:

أ ـ صفات طالب العلم:

ـ وضوح الهدف، وسموّه.

ـ الهمة العالية، والطموح الكبير، وبذل الجهد، والإصرار لبلوغ الأهداف.

ـ الاستعانة بالصُّحبة الأمينة الموثوقة في سبيل طلب العلم والسفر لأجله.

ـ الصَّبر وتحمُّل المشقات، وتجاوز الصعوبات مهما عظمت.

ـ ضبط النفس، وطاعة المعلِّم فيما ينبغي فيه الطاعة.

ـ الاستعداد، والتنظيم.

ـ مكاشفة المعلِّم التلميذ عما يجد من صعوبات في التعلُّم، أو ما يجد من صعوبة في طريقة معلمه، حتى يحقِّق مبتغاه من تعلّمه.

ـ معرفة الذات معرفة دقيقة وموضوعية، والقدرة على التفكير الصَّحيح، وامتلاك مهارات التفكير المختلفة والمبتدعة، والاعتراف بالخطأ.

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٢٨).

ب ـ خصائص المعلِّم القدوة:

ـ أن يكون أولى صفات العالم هي التعبُّد لله، فيكون علمه في سبيل الله، وأن يقود عمله إلى العبودية بمعناها الشامل؛ أي: عمارة الأرض على مراد الله.

ـ أن يتصف بالرحمة والشفقة واللطف لتربية طلابه، ثم يأتي بعد ذلك التعليم.

ـ أن يكون صاحب منهج واضح ومحدّد في أقواله وأفعاله.

ـ ألا يحجب العلم عن تلميذه لأي سبب من الأسباب، وألا يتركه دون بيان، بل يفسّر له ما لم يعرف على أفضل صورة.

ـ أن يوصل لتلميذه ما يراه نافعاً حتى لو لم يطلبه.

ت ـ آداب العلم والتعلُّم:

ـ أن يكون التعلُّم بالمواقف والحوادث، إن أمكن ذلك، فهو أولى وأنفع من التلقين.

ـ أن يكون هناك تعاقد سلوكي بين المعلّم والمتعلّم يستوجب الالتزام بما جاء فيه من سياسة ونظام وشروط لتربية الطلاب على النظام، والالتزام به.

ـ أن يكون العلم نافعاً، ويدعو للحق والخير «الرُّشد».

ـ أن ينبِّه المعلّمُ المتعلّمَ إلى عوارض موضوعات العلوم اللافتة، لاسيما إن كان في معالجتها مشقّة، حتى يستعد لذلك بما يلزم.

ـ أن تقوم العملية التعليمية على السؤال والمحاورة.

ـ أن يرتكز الموقف التعليمي على التجربة والخبرة لما لها من آثار قوية وراسخة مقارنة بالتّصور المجرّد.

ـ استخدام مثيرات التعلُّم المختلفة، «كاستثارة الانتباه والتشويق»، ليصل المتعلم للمعلومة بعد تشوق وتشويق.

ـ أن تُركِّز العملية التربوية على تربية الأولاد على الصَّلاح والبرّ[١].

٢ ـ العلم هو القيمة الأساسية في القِصَّة:

إن القيمةَ الأساسيةَ التي تدور حولها أحداث قصة موسى عليه السلام مع الخضر وصحبته هي «العلم». إن العلم في هذه القصة يعرض هنا على أنه قيمةٌ صحيحة، وله مظهران: ظاهر وخفي، وينبغي ألا تَحجُبَنا وسائلنا التي نطّلع بواسطتها على الجانب الظاهري عن التسليم بوجود الجانب الخفي الذي أحاط الله سبحانه وتعالى به.

إن العلوم التي بلَّغها الأنبياء والمرسلون لأممهم، وأقاموا صرح الحضارات الإنسانية عليها، علوم أساسية لم تستغنِ عنها البشرية في أي مرحلة من مراحل وجودها، وكانت واسطة العقد في هذه الرسالات السماوية رسالة محمد ﷺ، حيث خُتمت به وبرسالته النبوات: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وإلى جانب العلوم المستمدّة من الوحي الإلهي، فهناك العلوم التجريبية، التي تشكل حصيلة الجهد البشري على مرِّ القرون للتعرف على سنن الله في الكون، للارتقاء بالوسائل التي يستخدمها الإنسان في حياته وتعامله، وهذه العلوم كلها تُكتسب بالجهد البشري، ولوسائل المعرفة من الحواس وغيرها دور في تنميتها، والاستزادة منها.

ووراء كل ذلك علم غير خاضع للجهد البشري ووسائله في التعرف والاستزادة، وهو علمُ الغيب الذي تُدار شؤون الكون به، ومجاله الإيمان المطلق والتسليم لعالمه جلَّ جلاله الذي أحاط بكل شيء علماً[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦١ ـ ٦٣].

---

(١) المضامين التربوية في قصة موسى عليه السلام، ص٦٦.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، ص٢٩٧.

إن القيمة الحقيقية للعلم بمظهره الظاهر والخفي، علم الشرائع والعلم اللَّدُني الذي لا يدرِك حقيقتَه إلا أهل البصائر من المؤمنين الراسخين، الذين لا تُزعزع إيمانَهم الأسباب الظاهرة والنتائج المحتملة، بل يرون خلف الأسباب والمُسبِّبات يد القدرة الإلهية، والحكمة العليا التي تتجلَّى فيها حقائق أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا.

والمتمسّك بالعلم الظاهر محمود الفعال والسلوك، وينبغي ألا ينكر العلوم الخفية، وخاصة إذا وجد من الظواهر الكونية ما لا يمكن تعليله، أو معرفة أسبابه الظاهرة، أو إدراك وجه الحكمة فيه، وإنما يعيد العلم إلى الذي يعلم السرّ في السموات والأرض[١].

٣- تواضع معارفنا أمام علم الله وحكمته:

وفي قصة موسى عليه السلام والخضر رسالةٌ واضحةُ البيان في ألا يمنح الإنسان لنفسه حق الكلمة الأخيرة فيما لا يعلم بواطنه؛ مما يظهر أنه شرّ لا حكمة تخالطه[٢].

فما الحكمة التي من الممكن أن تتصورها عقولنا لخرق رجل عاقل، ظاهره الحكمة، سفينةً؛ مما قد يؤدي هذا الفعلُ إلى تلفها، وهلاك أصحابها؟

وما الحكمة من قتل طفل صغير بريء؟ لا تسمح لنا عقولنا بإبصار الحكمة وراء هذا الشرّ الذي يبدو بوضوح «ظاهري» أنه شرّ مجاني، لكنّ كشف الغطاء عن خيوط دقيقة غير مرئية تربط بين أشياء الواقع وعلائقه مما يتجاوز تفكيرنا المحدود، يظهر أن حكمة بالغة مشبعة بالرحمة الإلهية تكمن وراء هذا الشرّ الذي أوهمتنا عقولنا أنَّه مجَّاني.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(٢) مشكلة الشر ووجود الله؛ الرد على أبرز شبهات الملاحدة، سامي عامري، لندن، دار تكوين للدراسات والأبحاث، ط٢، ٢٠١٦م، ص١٦٤.

إن قصةَ النبي العظيم الحكيم «موسى» عليه السلام مع الخضر تأخذ بأيدينا إلى حقيقة تواضع معارفنا أمام هذا العالَم الهائل في تعقيده وخفاء أسراره، فخرق سفينة لعيبها حتى لا ينتهبها من أصحابها ظالم، وقتل طفلٍ لم يجرِ عليه القلم سبب لرحمته وأهله من شرّه إن كبر(١).

كل حديث عن الشرّ في عالم عظيم متداخل العلائق، وبعقل محدود المدارك، لا بدَّ أن يبدأ ـ مهما كان موقف الخائض في شأن وجود الله ـ بالإقرار بالقُصُور الإدراكي للإنسان، وأنه لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود، ويلزم من القصور العقلي للإنسان، وضعف معارفه أمام علم الخالق أن يفوتَه كثير من الحِكَم التي يصعب عليه أن يدركَها(٢).

إن حياتنا الدنيا جزء من قصة أطول، وبترها عن الآخرة يفقدها ضرورةً دلالتها على الحكمة الإلهية الكبرى من إيجادها على السنن التي نعرفها(٣).

إن هذا الكون بشروره ـ على تعدد أنواعها ودرجاتها ـ هو ما يتوقَّعه المؤمن من إله قدير، عليم، رحيم، حكيم، خلق الإنسان على الصورة التي جاء بها القرآن للحِكم التي أوردها القرآن، ولغايات أوردها القرآن؛ ولذلك لا يجد المسلم نفسه في مأزق تصوري للألوهية، ولا لمعاني الحياة(٤).

٤ ـ نبوة الخضر عليه السلام:

اختلف العلماء في حقيقة الخضر، هل هو نبي أم ولي أم مَلِك(٥)؟ وأصح الأقوال أنَّه نبي، وبه قال جمهور المحقِّقين من العلماء.

قال ابن عطية: الخضر نبي عند الجمهور(٦)، وعزاه أيضاً للجمهور القرطبي

(١) المصدر نفسه، ص١٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٧.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٨.
(٥) موجّهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، حمد الخوالدة، ص١٠٢.
(٦) المحرر الوجيز، (٣/ ٥٢٩).

في تفسيره[١]، والآلوسي في «روح المعاني»[٢]، والرازي في «مفاتيح الغيب»[٣]، بل قال الثعلبي: هو نبي على جميع الأقوال، حكاه عنه النووي في «شرح مسلم»[٤]، وممّن رجح أنه نبي الحافظان ابن كثير في «البداية والنهاية»[٥]، وابن حجر في كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة»[٦].

ومن الأدلة على نبوة الخضر التي ذكرها العلماء:

ـ أحدها: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾:

● قال القرطبي: الرحمة في هذه الآية: النبوة، وقيل: النعمة، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علم الغيب[٧].

● قال ابن عطية: كان علم الخضر معرفة بواطن قد أُوحيت إليه، لا تُعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم[٨].

● وقال أبو السعود: الرحمة من الوحي والنبوة، كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء[٩].

● قال الآلوسي: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: قال الجمهور: على أنه الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن[١٠].

---

(١) تفسير القرطبي، (١١/ ١٢).
(٢) روح المعاني، (١٥/ ٣٢٠).
(٣) مفاتيح الغيب، (٢١/ ١٤٩).
(٤) شرح النووي على مسلم، (١٥/ ١١١).
(٥) البداية والنهاية، (١/ ٣٠٥).
(٦) الإصابة في تمييز الصحابة، (٣/ ١٠٣).
(٧) تفسير القرطبي، (١١/ ١٣).
(٨) المحرر الوجيز، (٣/ ٥٢٩).
(٩) إرشاد العقل السليم، (٥/ ٢٣٤).
(١٠) أضواء البيان، (٣/ ٣٢٢ـ٣٢٣).

● قال الشنقيطي: فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله تعالى في الزخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢]، أي: نبوته حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل عظيم من القريتين.

وقوله تعالى في سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٤ ـ ٦].

وقوله تعالى في آخر القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

ومن إطلاق إيتاء العلم على النبوة قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات[1].

ـ **الثاني**: قول موسى له: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٧٠].

فلو كان ولياً وليس بنبي لما خاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يردَّ على موسى هذا الردّ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصَّه الله به دونه، فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً، ولم يكن لموسى ـ وهو نبي عظيم، ورسول كريم، واجبُ العصمة ـ كبير رغبة، ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حقباً من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظّمه واتّبعه في صورة المستفيد منه، دلَّ على أنه نبي مثله، يوحَى إليه كما يوحَى إليه، وقد خُصّ من العلوم

(١) أضواء البيان، المصدر نفسه.

اللَّدُنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم، نبي بني إسرائيل الكريم[١].

ـ **الثالث**: قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾:

قال أبو حيان: هذا يدلُّ على أنه نبي أُوحي إليه[٢].

قال الحافظ: ومن أوضح ما يستدلُّ به على نبوة الخضر قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾، وينبغي اعتقاد كونه نبياً؛ لئلا يتَذرَّع بذلك أهلُ الباطل في دعواهم أنَّ الولي أفضل من النبي، حاشا وكلاّ[٣].

قال الشنقيطي: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾، أي: وإنما فعلته عن أمر الله جلَّ وعلا، وأمر الله إنما يتحقَّق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تُعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جَلَّ وعلا ولاسيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصحُّ إلا عن طريق الوحي من الله تعالى، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ و(إنما) صيغة حصر[٤].

وقال ابن كثير: إنَّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلاّم، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم؛ علم منه بأنه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر؛ لشدة محبتهما له، فيتبعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صِيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دلَّ ذلك على نُبُوتِه، وأنه مؤيد من الله بعصمته[٥].

---

(١) البداية والنهاية، (١/ ٣٠٥ـ٣٠٦).

(٢) البحر المحيط، (٦/ ١٤٧).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (١/ ٢٩٣).

(٤) أضواء البيان، (٣/ ٣٢٣).

(٥) البداية والنهاية، المصدر السابق، (١/ ٣٠٦).

إن الراجح، والذي عليه المحققون من أهل العلم، أن الخضر عليه السلام نبي، مع أنّ الآيات لم تُصرِّح بنبوته، كما لم تصرح بذلك الأحاديث الصَّحيحة، ولكنّ سياق قصته في القرآن، وحقيقة الأفعال التي قام بها، يرجِّح نبوته، والله أعلم(١).

٥ ـ هل الخضر عليه السلام حي موجود إلى الآن؟ والرِّوايات الدَّالَّة على ذلك في ميزان علم الجرح والتَّعديل:

من الناس من يرى أنَّ الخضر لا يزال حياً، منهم الإمام النووي(٢)، والإمام ابن الصَّلاح، والسُّهيلي وغيرُهم.

وقد أورد ابن كثير أحاديث وروايات عن الصَّالحين وغيرهم تدلُّ على حياة الخضر إلى آخر الزمان، فبين عدم صحّتها، وعِلَلَها وعَيبَها(٣).

والأحاديث التي يذكَر فيها الخضر وحياته لا يصحُّ منها حديث واحد، فكلّها ما بين الضعيف والموضوع. وأما الآثار الواردة عن الصَّحابة والتابعين، فبين ابن كثير ضعف إسنادها، وبيان أحوالها، وجهالة رجالها(٤).

أ ـ الأحاديث الدَّالَّةُ على حياته ومناقشتها:

ـ قالوا: اجتمع مع رسول الله. وردَّ عليهم ابن كثيرٍ بقوله:

حديث ضعيف ومكذوب، لا يصحُّ سنداً ولا متناً، كيف لا يتمثل بين يدي رسول الله ﷺ، ويجيء بنفسه مسلِّماً ومتعلِّماً، وهم يذكرون في مجالسهم أن الخضر يأتي ويسلِّم عليهم، ويعرف أسماءهم(٥).

وأما ما جاء عن المشايخ، فهو ممّا يتَعَجَّبُ منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٠٦).
(٢) التدبر والبيان، (٢٠/ ٢٥٤).
(٣) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، حمد الخوالدة، ص١٠٧.
(٤) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، الخوالدة، ص١٠٧.
(٥) فتح الباري، (٦/ ٤٣٤٩).

شخصاً لا يعرفه، فيقول له: أنا فلان، فيصدِّقه، خاصة في فساد الزمان، وكثرة الحيل والدَّجَل؟!(١).

ـ **حديث التَّعْزِية**: لمَا قُبض رسول الله أحدق به أصحابه، فبكوا حوله، واجتمعوا، فدخل رجل أشهب اللحية، جسيم، صبيح، فتخطَّى رقابهم، فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إنّ في الله عزاءً من كل مصيبة، وعوضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا، وإليه فارغبوا، فإن المصاب مَن حُرِم الثوابَ. وانصرف. فقال بعضهم: تعرفون الرَّجُل؟ فقال أبو بكر وعلي: نعم هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام(٢).

وعقّب ابن كثير: وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة، وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي، ثم قال البيهقي: عباد بن عبد الصمد ضعيف، وهذا منكر(٣)، وقال البخاري: منكر الحديث(٤).

ب ـ اجتماع الخضر وإلياس في موسم الحج:

عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عبَّاس مرفوعاً، قال: يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم، فيحلق كل منهما رأس صاحبه، ويتَفَرَّقان عن هذه الكلمات: بسم الله، ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله(٥).

قال ابن كثير معقِّباً: قال الدارقطني في الأفراد: هذا حديث غريب من حديث ابن جريح، لم يحدِّث به غير هذا الشيخ ـ يعني: الحسن بن زريق هذا ـ وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي: مجهول غير محفوظ.

---

(١) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، ص١٠٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٨.
(٤) البداية والنهاية، (١/ ٣٣٣)، وانظر: موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، ص١٠٨.
(٥) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، ص١٠٨.

وقال أبو الحسن بن المنادي: هو حديث واه بالحسن بن زريق[١].

ت ـ اجتماع الخضر وجبريل في عرفات:

قال ابن كثير: وقد رواه ابن عساكر من طريق علي بن الحسن الجهضمي. وهو كذاب.

تعقيب ابن كثير:

وقد عقّب ابن كثير على الأحاديث الواردة في حياة الخضر، قال رحمه الله: وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبين أنها موضوعات. وأمّا الآثار عن الصحابة والتابعين فمَن بعدهم، فبين أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك، وأحسن الانتقاد، نفعنا الله بعلم السّلف، وكشف اللثام عن جهل الجهال[٢].

وقال العلاّمة الآلوسي: إن غاية ما يتمسَّك به في حياته حكاياتٌ منقولة، يخبر الرجل بها أنه رأى الخضر. وكثير من زاعمي رؤيته يغترُّ بقول: أنا الخضر، ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعالى، فمن أين للرائي أنَّ المخبر صادق لا يكذب[٣]؟

وقال الدكتور محمد خير رمضان يوسف: إنَّه قد عُظِّمَ وهول في أمر الخضر عليه السلام، وحيكت حوله أساطير، وأقوال متفاوتة الأسانيد، كما ذكرت له لقاءات لا تثبت أمام التمحيص[٤].

٦ ـ موت الخضر والأدلة على ذلك:

من الذين جزموا بأنه غير موجود ـ قد مات ـ الإمام البخاري، وإبراهيم

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١٥/ ١٢١).
(٤) الخضر بين الواقع والتهويل، ص٢١٣.

الحربي، وأبو جعفر بن المنادى، والشيخ أبو الفرج بن الجوزي، وقد ألّف كتاباً سماه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»، وابن كثير ـ عليهم رحمة الله ـ وغيرهم كثير(١).

ومن الأدلة على موته:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]:

قال الشنقيطي: فقوله: ﴿لِبَشَرٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تعمّ كل بشر، فيلزم من ذلك نفي الخلد عن كل بشر من قبله، والخضر بشر من قبله، فلو كان شرب من عين الحياة، وصار حياً خالداً إلى يوم القيامة، لكان الله قد جعل لذلك البشر الذي هو الخضر من قبله الخلد(٢).

وقال ابن كثير نقلاً عن ابن الجوزي: فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، انتهى، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن المعصوم يجب قبوله(٣).

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]:

قال ابن كثير: فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره لئلا يصلَ أحد من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان ولياً فالصدّيق أفضل منه، وإن كان نبياً فموسى أفضل منه، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله

---

(١) موجهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر، الخوالدة، ص١١٠.
(٢) أضواء البيان، (٣/ ٣٢٨).
(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (٥/ ٢٦٣).

أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أن موسى حي ما وسِعَه إلا أن يتّبعني» (١).

ت ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: صلّى لنا رسول الله ﷺ ليلةً صلاة العشاء، وهي التي تدعوها الناس: العتمة، ثم انصرف فأقبل علينا، فقال: «أرأيتُم ليلتكُم هذه، فإن رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ».

ث ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأُقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مئة عام» (٢).

ج ـ وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: لما رجع النبي ﷺ من تبوك سألوه عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفسٌ منفوسةٌ اليومَ» (٣).

قال الشنقيطي: فهذا الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ ابن عمر وجابر وأبو سعيد، فيه تصريح النبي ﷺ بأنه لا تبقى نفس منفوسة حية على وجه الأرض بعد مئة سنة، فقوله: «نفس منفوسة» ونحوها من الألفاظ في روايات الحديث نكرة في سياق النفي، فهي تعمّ كل نفس مخلوقة على الأرض، ولا شك في أن ذلك العموم بمقتضى اللفظ يشمل الخضر؛ لأنه نفس منفوسة على الأرض (٤).

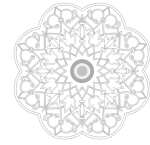
إن الراجح أن الخضر عليه السلام قد مات في عهد سحيق، كما يموت باقي البشر، وكانت وفاته قبل رسول الله ﷺ بوقتٍ طويل (٥).

* * *

(١) مصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد أبي شيبة، تحقيق: أسامة محمد أبو محمد، مكتبة الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م، (٥/ ٣١٢ـ٣١٣)، رقم ٢٦٤٢١.
(٢) رواه مسلم، رقم ٢٥٣٨.
(٣) مسلم، رقم ٢٥٣٩.
(٤) أضواء البيان، (٣/ ٣٣٠).
(٥) القصص القرآني، (٣/ ٣٠٦).

الفصل السادس

أسبابُ هلاكِ فرعونَ وقومِه،
وفضائلُ موسى عليه السلام ووفاتُه



المبحث الأول

أسبابُ هلاكِ فرعونَ وقومِه

إن موسى عليه السلام جاء في عهد الظلام والفساد والإجرام الفرعوني، وكانت نهاية الحضارة الفرعونية على يديه، فقد انحرف الفراعنة عن هدايات السماء، وعن توحيد الله عزَّ وجَلَّ، وإفراد الخالق العظيم بالعبادة، فأرسل الله لفرعون وقومه موسى عليه السلام، فأقام على الفراعنة الحجَّة، ومضت سُنَّة الله في زوالهم واستئصالهم، وقد ذكر الله عزَّ وجَلَّ أسبابَ زوال الفراعنة التي من أهمها:

أولاً: الكفر بالله عزَّ وجَلَّ:

إن من أهم أسباب العقاب الإلهي، وهلاك فرعون وقومه بالإغراق العظيم: الكفر بالله.

وأصل الكفر في اللغة: التستّر والتغطية، وقد سُمِّي الكافر كافراً؛ لأنه غطّى بكفره ما يجب أن يكونَ عليه من الإيمان، والكفر ضد الإيمان الذي هو التصديق والاعتقاد والإقرار بوحدانية الله وبربوبيته وألوهيته، والإيمان بالملائكة، وشريعة الله، ورسالة موسى عليه السلام، واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشره.

وقد رفض فرعون وملؤه وقومه دعوة التوحيد ورسالة موسى عليه السلام، وكفروا بها، وحاربوها، ووصفهم الله بالكفر في قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وهذه سُنَّة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المُكذبين؛ أي: سُنَّتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم المُكذبة ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالعقاب ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لا يعجزه أحدٌ يريد أخْذه(١).

إن الله عزَّ وجَلَّ وصَفَ آل فرعون بالكفر؛ يعني أنهم في تلك الفترة التاريخية من تاريخ الإنسانية، كانوا منفصلين عن الدِّين، مُتحرِّرين من تكاليف الإيمان بالله وشرعه، وهذا يفضي بهم إلى الانحلال الأخلاقي والانحطاط، وهذا ما حدث لهم من حالة الشقاء والتعاسة التي كان يعيشها فرعون ومَلَؤُه وقومه بسبب كفرهم بالله عزَّ وجَلَّ.

فمضتْ في آل فرعون سُنَّة الله في الكافرين، وزوال حضارتهم، ونزول انتقام الله بهم في حادثة الإغراق العظيم، التي تُعَدُّ من أبرز الحوادث التاريخية وقعاً في حياة الإنسانية، فهي من أقصى العقوبات التي عاقب الله بها الكفَّار في تاريخ الإنسانية.

ثانياً: الشِّرك في الرُّبوبية:

من المعلوم أن التوحيد هو الأصل في حياة الإنسان، وهو الذي صنع الحضارة الإنسانية مع بداية خلق الله لأبينا آدم عليه السلام، ولكن في عهد فرعون وملئِه فشا فيهم الشرك بأنواعه، وأنكروا ربوبية الله عزَّ وجَلَّ، وألوهيته.

١ ـ إنكار ربوبية الله جلَّ وعلا:

ورد ذكرُ إنكار فرعون ربوبية الله في موضعين من القرآن الكريم؛ الأول في سورة طه، والثاني في سورة الشعراء:

فالأول: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٤٠١.

وكان هذا جواباً من فرعون لموسى وهارون في قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى مُنكِراً وجود الصَّانع، إله كل شيء وربه ومليكه، فقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: الذي بعثك من هو، فإني لا أعرفه[١].

وفرعون لشدة عتوه وتكبّره لم يضف الربّ إلى نفسه في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾، وعلى سبيل الحكاية فموسى وهارون خاطباه بلفظ: ﴿رَبِّكَ﴾ في قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

ولم يقولا: «ربنا»، فكان الأحرى به أن يخاطبهما بمثل ما خاطباه، ولو على سبيل الحكاية فيقول: فمن ربي؟

لكن الخبيث لم يفعل ذلك؛ تكبّراً واستنكافاً عن أن يكون مربوباً لله، ولو من باب حكاية قول الخصم جدلاً وفرضاً[٢].

ووجّه فرعون الكلام إلى موسى وهارون في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾، مع أنه سمّى واحداً؛ لأن المجادلة إنما تكون من الواحد ـ وإن كان الخطاب للجماعة ـ لا من الجمع، وخصّ موسى بالذكْر دون هارون؛ لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه[٣].

وفي الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وهذه الآيةُ شبيهةٌ بآية طه، أنكر فيها فرعون ربوبية الله سبحانه وتعالى بالأسلوب الاستفهامي التعجّبي.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: وكانوا يجحدون الصَّانعَ

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٦٣).
(٢) روح المعاني، (١٦/ ٢٠٠).
(٣) تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٢/ ٤٣٥).

جلَّ وعلا، ويعتقدون أنْ لا ربَّ لهم سوى فرعون، فلما قال موسى: إني رسول رب العالمين، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين غيري؟

هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف[١]، حتى قال السُّدِّي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، وقد تم تفسير وإيضاح هذه الآيات في سورة طه كما مرّ بنا.

٢ ـ ادِّعاء فرعون الرُّبوبية لنفسه:

رغم الأدلة والبراهين التي جاء بها موسى عليه السلام تمادى فرعون في تكبّره وعتوه، فلم ينْقَدْ للحق، ولم يقرّ بربوبية الله، وعاند وكابر، ولم يكتف بذلك، بل ادّعى الربوبية لنفسه الخبيثة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٤].

وفي معنى هذه الآية ما يأتي من ادّعائه الألوهية، بل وتفرُّده بها على أهل مصر، وذلك في مطلب الشرك في الألوهية[٢].

وبادعاء فرعون الربوبية لنفسه كان شركُه أشنعَ أنواع الشرك، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله في ربوبيته، فهو ـ وإن كان لم يقرَّ بوجود إله غير نفسه ـ لا يغير ذلك في الحقيقة شيئاً، فالله سبحانه وتعالى هو الرّب الواحد الأحد، دلّت البراهين والآيات على ربوبيته لجميع الخلائق، لا يغير ذلك جحود جاحد، ولا إنكار مُنكِر، فإذا أتى بعد ذلك شقي، وادّعى الربوبية لنفسه، أو ادّعى تفرّده بها زوراً وبهتاناً ـ كما فعل فرعون ـ فقد جعل نفسه شريكاً مع الله في ربوبيته عناداً، وكفراً، وجحوداً[٣].

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٢٠.

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٢٠٠، هذا المرجع هو العمدة في هذا المبحث: أسباب هلاك فرعون وقومه.

(٣) أسباب هلاك الأمم السابقة، ص١٢٥.

ففرعون كان عارفاً بوجود الرّب في الباطن، ولكنه جحد، وأنكر كبراً وعلواً[١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٤].

وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فكانوا عالمين بصدق الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام، ولكنهم جحدوها ظلماً وعلواً، وكانت عاقبةُ الجحود وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة[٢].

ـ وكان قوم فرعون موافقين له في إنكاره الصَّانع، وادّعائه الربوبية: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ـ وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٨].

لقد كان فرعون في غاية العتو والتجبّر والعناد، لم يحكِ التاريخ في صحيح أخباره مثيلاً له ولا مقارباً، كيف وقد ادَّعى ما قصَّر إبليس عن ادِّعائه إذ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

أعاذنا الله من الضَّلالة والشقاوة[٣].

ثالثاً: الشِّركُ في الأُلوهية:

وردت آيتان في قصة موسى مع فرعون، بين فيهما فرعون موقِفَه من توحيد الألوهية، بل من مسألة الألوهية من الأساس، وهذا الموقف مبني على دِعامتين:

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٦.
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٢٧.

إحداهما: إنكار وجود الإله الحق جلَّ وعلا.

والثانية: ادِّعاء الألوهية لنفسه الخبيثة.

١ ـ أما الآية الأولى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]:

وهذا الكلام وجّهه فرعونُ إلى موسى بعدما أفحمه بالحجج الدّالة على توحيد الله سبحانه وتعالى، وتفرّده بالربوبية والألوهية، والأسلوب الذي وردت به الآية يظهر مدى غرور فرعون، واعتداده بنفسه، فهو لم يهدِّد موسى بالسجن من أجل أن يقرّ بألوهيته هو؛ فذلك ـ حسب رأيه ـ في حكم المفروغ منه، ومما لا يحتاجُ إلى نقاش وجدال، وإنما هدَّده من أجل أن يقرَّ بتفرُّده بالألوهية، وألَّا يتَّخذ إلهاً سواه.

٢ ـ والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]:

ولعل هذه الواقعةَ متأخرةٌ عن الواقعة الواردة في الآية الأولى، كما هو الترتيب في النزول وفي المصحف، فتهديدُه لموسى ورد في جملة المحاورة التي دارت بينهما فور مَقدم موسى عليه بالرسالة(١).

ولم يتراجع فرعون عن ادِّعائه الألوهية رغم الحجج والبينات التي جاء بها موسى، حتى إذا عاين العذاب، وتحقَّق الهلاكَ أراد استدراك ما فاته ليدفعَ عن نفسه البلية الواقعة، وفي ذلك يقول الله جلّ وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

لكن هيهات، فقد فات الأوان، وجاءه الجوابُ المُفحم: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٠.

نعم، لقد كان لديك مُتَّسع من الوقت؛ لتشهدَ شهادةَ التوحيد، وتُسلِمَ لربِّ العالمين، أمَّا الآن بعد معاينة العذاب، فكلاّ ثم كلاّ[١].

ولم يكن حالُه بأفضل من حال أشياعه من الأمم الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥].

وقد ساير قومُ فرعون فرعونَهم فيما زعم، وتبعوه في الضَّلال، وأطاعوه في ادّعائه الباطل؛ لأنهم كانوا خارجين عن طاعة الله بسبب فسقهم، ولولا ذلك لم يطيعوه، كما لم يطعه مؤمن آل فرعون في دعوته إلى الشرك إذ قال: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٢].

وكل ما تقدَّم من الكلام إنما يدلُّ على تورّط فرعون وقومه في شرك الألوهية[٢]؛ الذي كان من أسباب هلاكهم، فقد مضتْ فيهم سُنَّة الله في هلاك المشركين.

رابعاً: الظلم:

يعَدُّ الظلم من أهم أسباب هلاك الأمم والشعوب والدول والحضارات، وله مفهوم شامل عريض يؤدي إلى فقدان التوازن في مجالات الحياة كافة، وعلاقة الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره، وعن هذا تنبثق ظواهرُ نفسية واجتماعية واقتصادية مَرَضِية، وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعمّ الفساد الحياة الإنسانية بأسرها[٣].

ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٣.
(٣) نوح والطوفان العظيم، الصلاّبي، المرجع السابق، ص٣٢٥.

ـ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ويتجلَّى الظلمُ والجبروتُ والطغيانُ في شخصية فرعون كما جلاّها القرآن في كثير من الآيات، يقول تعالى في حق فرعون، ويبدو أن الكلام لكل فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]؛ ففرعون صاحب جبروت وظلم وطغيان، وقد سعى إلى تقسيم أهل مصر إلى فئات، لكل منها معاملة خاصة تناسب علاقتها به، دون أن تكون محكومة بالضرورة بمنطق العدل أو المساواة، فهناك الفئة التي استخفَّها فأطاعته، وانسجمت مع أهوائه ومطامعه ومطامحه، وارتضت أن يكون لها إلهاً رغبةً أو رهبةً، فهؤلاء لديه من المقرّبين، وعنده من المكرمين، ومن هذه الفئات فئة استضعفها واستذلّها وامتهنها، فهو يجور على أهلها أعظم الجور، ويورِد القرآنُ صورتين من أعظم صور الظلم، هما:

أولاهما: يذبِّحُ أبناءهم.

والثانية: يستحيي نساءهم.

وذكْرُ القرآن لهاتين الصورتين من صور الظلم لا أحسبه من باب الحصر لمظالم فرعون، وإنما من باب التمثيل، ويمكن لمن يفهم ولمن يفطن أن يدركَ صوراً شتّى أخرى من الامتهان والإذلال ترتبط بهاتين الصورتين: «ذبح الأبناء واستحياء النساء».

أو تأتي دونهما، فحين تصل الأمور إلى قتل الأبناء واستحياء النساء، ولا يستطيع المظلومون الوقوف في وجه الظلم والظالمين، فليس هناك ما هو أعلى من هذا الصنف من الظلم، فماذا يبقى للإنسان حين يعجز أن يحمي عرضه وذريته؟

إنهم يساقون إلى الموت كما تُساق الأنعام التي لا حيلة لها ولا اختيار، بينما يبقى أهلوهم ـ إن بقي منهم أحد ـ مشمولين بالشعور بالعجز والقهر والذل والقنوط وقلة الحيلة والانكسار، ومؤكَّد أنه كانت هناك صنوفٌ أخرى من الإيذاء

كسلب أموالهم، والتضييق عليهم في كل أمور الحياة اليومية، وتهميشهم، وامتهان كرامتهم في كل وقت وكل مكان[١].

ولفرعون صور شتّى من الظلم تشمل كلَّ مَن كان يحكمهم، كما تتوجه إلى فئات داخل المجتمع «طبقات»، وقد تتوجه إلى فرد أو مجموعة معينة حين تخرج عن طوعه وتخالفه في الرأي، كما حدث مع السّحرة الذين آمنوا برب العالمين، ربّ موسى وهارون، كما بينا في هذا الكتاب، لقد ظن فرعون لفرط طغيانه وظلمه واستجابة من حوله لكل أوامره ـ أياً كانت ـ أنه يتوجب على السحرة أن يستأذنوا منه قبل الإيمان بموسى عليه السلام، فلما آمنوا شعر بحرج موقفه، حيث انقلبت الأمور ضدَّه، وهو الذي كان يظن أنها لحظة الحسم لمصلحتِه، وكان منذ سويعات هو الذي يشعر بالاستعلاء، ولكنّه شعر بالانكسار الذي يبدو أنه لم يعتد عليه، ولم يألفه منذ زمن طويل بعد أن انتصر موسى عليه.

وكان فرعون لفرط طغيانه يستسهل القضاء على كل من يحاول أن ينازعه سلطانه، أو يهدده من قريب أو بعيد[٢].

إن الله سبحانه يمهل الظالمين ليثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى الحق والصواب، فإن عادوا فقد أمِنوا عقاب الله لهم، وإن ظلّوا على حالهم من الظلم والطغيان، فإن عقاب الله يأتيهم فيأخذهم أخذاً: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وقد أملى الله لكثير من تلك القرى الظالمة لعلهم يثوبون أو يتوبون، أو لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم وبَغيهم، ولكن هذا الإملاء لم يكن حافزاً لهم على العودة إلى الصواب أو مراجعة النفس، فكان مصيرهم كما أخبر الله عنهم أسوأ مصير[٣].

---

(١) التداول الحضاري في القرآن الكريم؛ دراسة في عوامل قيام الحضارات وانهيارها في القرآن الكريم، فرج علام، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات، ٢٠١٦م، ص١٥٧.

(٢) التداول الحضاري في القرآن الكريم، ص١٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٠.

وإن الإهلاك بسبب الظلم سُنة من سُنن الله في سقوط الدول، وزوال الحضارات، وتدمير الأنظمة الظالمة، وقد مضت في فرعون وقومه.

خامساً: الاستكبار:

إن من أسباب هلاك فرعون وقومه «الاستكبار»، والاستكبار باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أنواع:

ـ التكبُّر على الله سبحانه وتعالى بالترفع عن عبادته وعن الإذعان لأوامره ونواهيه، وهذا أشنع أنواع الكبر، وهو مثل كبر فرعون، ادّعى الربوبية، واستنكف أن يكون عبداً لله عزَّ وجَلَّ.

ـ التكبّر على الرسل من جهة الترفُّع عن الانقياد للبشر، مع معرفة صحة ما جاؤوا به، كحال عامة الأمم المُكذبة للرسل.

ـ التكبُّر على سائر الخلق باستعظام نفسه، واحتقار الناس، والترفع عليهم، والإباء عن الانقياد لهم، ولو كانوا على حق[١]، وهذه الأنواع رأيناها في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه.

إن النبي ﷺ بين حقيقة الكِبر المُتوعَّد عليه بالعقاب، قال ﷺ: «الكبر بطر الحق[٢]، وغمط الناس[٣]».

والاستكبار: صيغة استفعال دالّة على الطلب، قال الآلوسي: والاستكبار: طلب الكبر من غير استحقّاق[٤].

وكثيراً ما يرد في القرآن وصف الاستكبار بأنه استكبار بغير حق، وقد يفهم من ذلك أنه تخصيص لبعض أنواع الاستكبار بكونها بغير حق، مما يشعِر بوجود

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٥٩.

(٢) **بطر الحق**: ردّه ودفعه وإنكاره.

(٣) **غمط الناس**: احتقارهم، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ، (٢/ ٩٠).

(٤) روح المعاني، (٢٩/ ٧٢).

استكبار بحق، وقد سبق أن هذه الصيغة لا تأتي إلا للذم، وأجاب ابن عاشور عن هذا الإشكال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، فقال: وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ حال لازمة لعاملها؛ إذ لا يكون الاستكبار إلا بغير الحق[١]، فيكون قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان للمعنى الذي دلَّ عليه لفظ استكبار[٢].

وقد وردت بعض الألفاظ بمعنى الاستكبار في سياق ذكر هذه الصفة في قصة موسى مع فرعون وقومه، وهي:

ـ **العلو**: ورد في عدة مواضع فعلاً وصفة ومصدراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

قال الرازي: ﴿عَلَا﴾: استكبر، وتجبّر، وتعظَّم، وبطر[٣].

وفي اللسان يقال: علا في الأرض؛ إذا استكبر وطغى[٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٨٣] أي: جبار مستكبر[٥].

وأما المصدر ففي قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا۟﴾ [النمل: ١٤]؛ أي: تعظّماً واستكباراً[٦].

ـ **العتو**: وهو الاستكبار ومجاوزة الحد[٧]، وقد وردت في مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ [الطلاق: ٨].

---

(١) تفسير ابن عاشور، (٢٠/ ١٢٤).
(٢) أسباب هلاك الأمم، ص١٥٨.
(٣) تفسير الرازي، نقلاً عن أسباب هلاك الأمم، ص١٥٩.
(٤) لسان العرب، (٥/ ٣٠٨٩)، علا.
(٥) أسباب هلاك الأمم، ص١٥٩.
(٦) المصدر نفسه، ص١٦٠.
(٧) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤١٠).

قال ابن كثير: أي: تمرَّدت وطغت واستكبرت عن اتِّباع أمر الله، ومتابعة رسله[١].

ـ **الطغيان**: وأصله مجاوزة الحد في العصيان[٢]، وقد ورد في عدة آيات، منها قوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]، قال الطبري: يقول: عتا وتجاوز حدَّه في العدوان، والتكبُّر على ربّه[٣].

ـ **البغي**: وقد ورد في قصة قارون في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، قال الطبري: فتجاوز حدّه في الكبر، والتجبُّر عليهم[٤].

إن الكِبْر خُلُق ذميم، وكبيرة من كبائر الذنوب، بسببه شقي كثيرٌ من الناس، وأوبَقوا أنفسهم في العاجلة، واستحقُّوا العذاب في الآخرة، والنصوص الواردة في ذمّه وبيان خطورته، وما أعد الله لصاحبه كثيرة لا تُحصى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال ﷺ: «لا يدخُل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْر»[٥].

وهذان النصَّان في الوعيد الأخروي، أما في العاجلة فيكفي في بيان عقوبة صاحب الكبر ما ورد في النصوص الدالة على كونه سبباً في هلاك كثير من الأمم السالفة[٦].

وقد كان فرعون وقومه أشد الأمم تكبُّراً وأعظمها تجبُّراً وعلواً، ونادراً ما يذكر القرآنُ قصتهم إلا ويذكر عنهم صفة الكبر، وما ترتَّب عليها من آثار سيئة، ذاقوا بسببها وبال أمرهم[٧]، وقد مرّ بنا في هذا الكتاب تفسير الآيات المُتعلِّقة بذلك مثل قوله:

---

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤١٠).
(٢) أسباب هلاك الأمم، ص١٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٠.
(٥) رواه مسلم، رقم ١٤٩.
(٦) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٦٢.
(٧) أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص١٦٨.

ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦].

ومن الآيات التي تتحدَّث عمَّا حلَّ في فرعون وفي قومه:

ـ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وغير ذلك من الآيات الكريمة.

إنَّ الاستِكبارَ من أسباب هلاكِ الفراعنة.

سادساً: دفع الحق:

إن هذه الخصلةَ من أخطر آثار الكبر، وهي كذلك أيضاً من أبرز مظاهرها، فالمستكبر يبتلى دوماً بدفع الحق، والترفُّع عن الانقياد له، وقد يكون ذلك المدفوع توحيد الله سبحانه وتعالى، أو الإيمان برسله، أو آياته، أو غير ذلك، فمن الترفُّع عن توحيد الله سبحانه وتعالى ما ورد في آيات كثيرة عن عامة الأمم السالفة من إنكار لانفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة؛ تكبُّراً واستنكافاً أن يتركوا ما درجوا عليه من عبادة الأصنام؛ كقوم نوح وغيرهم.

أما فرعون وقومه، فما ورد في حقهم أشدّ وأشنع، فهم استنكفوا عن الإقرار بوجود الله من الأساس، وأشركوا فرعون مع الله في مقام الربوبية والألوهية، وذلك لفرط استكبارهم وعلوهم، فكان جرمهم أشنع[(١)].

وقومُ فرعون أيضاً قالوا كأسلافهم من الأمم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص١٧٣.

ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وقد أفصحوا عن سبب تمسُّكهم بما كان عليه آباؤهم من الشرك، وعدم إيمانهم بموسى وهارون، وهذا هو الكبر، والخوف على فوات الملك، فهم يخافون أن تكون العظمةُ والسلطانُ والملكُ لموسى وقومه إذا هم آمنوا به، فآثروا ما هم فيه من الكبرياء على اتِّباع الحق بالإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده[١].

ومن صُورِ دفع الحق التكذيب بالآيات وجحودها ترفُّعاً وتكبُّراً؛ فالمستكبر لا تنفعه الآيات؛ لأنه لا يؤمن بها مهما كانت بينةً واضحة، فالكبر يمنعه من التَّبَصُّرِ فيها والاستنارة بها، فيحرَم الهداية، ويدفع الحقَّ، ويتبع الباطل، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وهكذا نرى جحودَ الآيات يذكَر كثيراً مع الاستكبار، كما ورد هذا عن فرعون وقومه، جحدوا بآيات ربهم بسبب ظلمهم وعلوهم مع تيقُّنهم من صدقها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٣ ـ ١٤][٢].

سابعاً: انتهاكُ الحرمات:

فقد انتهكَ فرعونُ حرماتِ الدماء والأعراض والأموال والمعتقدات، ونكّل بشعبه وطائفة منهم، لهم مقدَّساتهم وعقيدتهم ودينهم، ولكنه مارس عليهم كلَّ أنواع الانتهاكات المحرّمة من رب العالمين، وأوغل في الانتهاكات حتى وصل إلى درجة متقدمة في الفساد، فكانت تلك الانتهاكاتُ سبباً في هلاكه وملئه.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٥.

ثامناً: الاستعلاء على الناس واحتقارهم:

وقد حكى القرآن الاستعلاء الذي قام به فرعون في حق موسى عليه السلام؛ إذ جعل نفسه خيراً من موسى بأسلوب فيه ازدراء بهذا النبي الكريم، قال تعالى بعد أن حكى تفاخر فرعون بملكه وسلطانه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل»، أي: بل أنا خير منه[١].

وهو على هذا خبر، لا استفهام، وقيل: هو استفهام معطوف على ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، لكن المستفهمَ عنه محذوف تقديره: «أم أنتم بصراء»، وإنما وضع ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ موضع «أنتم بصراء»؛ لأنهم إذا قالوا أنت خير منه فهم عنده بصراء[٢]، وعلى كلا الوجهين فهو يريد أن يقول إنه خير من موسى عليه السلام، ثم وصف موسى بأنه ﴿مَهِينٌ﴾؛ أي: حقير، لا ملك، ولا سلطان، ولا مال[٣].

ووصفه أيضاً بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ أي: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو يعيب موسى بعَيّ[٤] في اللِّسان، وعدم الفصاحة[٥].

إن فرعون وقومه فاقوا غيرهم في الاستعلاء، نجد أنهم كانوا يصرّون في كل مناسبة على تأكيد علو مرتبتهم على بني إسرائيل، مع احتقارهم، والغضّ من شأنهم، ويتضح ذلك من خلال هذه الآيات:

قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ أي: عالون عليهم بقهر الملك والسلطان[٦].

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٧٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٤٠).
(٤) الغي: ضد البيان، مختار الصحاح، ص٤٦٧.
(٥) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٧٧.
(٦) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٧٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]؛ أي: مطيعون مُتذلِّلون، يأتمرون بأمرنا، ويدينون لنا[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٤]، والشرذمة: الجمع المحتقر[٢].

وهذا الكلام كان عندما حشد فرعون جنوده للَّحاق ببني إسرائيل بعد أن خرجوا مع موسى، فهو يقلِّل من شأنهم، ويبين أنهم لن يفلتوا منه، فهم في نظره ليسوا إلا عبيداً أبِقُوا من مولاهم، فهو يسعى إلى ردّهم إلى حظيرة العبودية والطاعة[٣].

تاسعاً: الاعتداء على الناس:

وقد وصف الله تعالى فرعون بوصفٍ يدلُّ على شدة بطشه مع القساوة المفرطة، قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

ورد في تفسير الآية أن فرعون كان له أوتاد يعذب الناس بها، فتُغرز في يدي الشخص ورجليه، ثم يشدخ رأسه بصخرة تُلقى عليه من علو[٤]، وقيل: إنه كان يرسل العقارب والحيات على الشخص المشدود في الأوتاد إمعاناً في تعذيبه[٥].

ولا يستبعد هذا من فرعون، فقد كان مفرطاً في الكبر والظلم، ولمعرفة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بشدة تكبر فرعون، وفرط عتوه، واعتدائه توجسا خيفةَ أن ينالهما منه مكروه حين أمرهما الله بالذهاب إليه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥].

خشيا أن يعجل عليهما بالعقوبة، أو أن يعتدي عليهما، قبل سماع حجَّتهما[٦].

---

(١) المحرر الوجيز، (٤/ ١٤٤).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٢).
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٨١.
(٤) زاد المسير، (٦/ ٣٢١).
(٥) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٨١.
(٦) المصدر نفسه، ص١٨١.

وتخوف موسى وهارون لم يكن بسبب جبن، ولا تملّص من تحمُّل المسؤولية، بل لما عرفاه من شدة بطش فرعون وتجبّره، فأمثال هؤلاء الطغاة إذا شعروا بشيء يهدد سلطانهم وملكهم لا يفتحون مجالاً للمناقشة والمناظرة أو غيرهما، وما منع فرعون من الإقدام على مثل هذا إلا حفظ الله تعالى لموسى وهارون من بطشه، فقد تكفَّل الله لهما بذلك بعد أن أبديا تخوفَهما، قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وهذه المعية معية حفظ ونصرة وتأييد من الله سبحانه وتعالى لأوليائه خاصة[(١)].

إن الاعتداء على الناس، وقهرهم، وظلمهم من الإجرام والذنوب التي ساهمت في هلاك الفراعنة، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [الأنفال: ٥٢].

ومن أعظم الذنوب الشرك بالله، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقك»[(٢)].

وهلاك الأمم كلها كان بسبب الذنوب، وفي بيان هلاك الأمم بسبب الذنوب يقول الله جلّ وعلا: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦][(٣)].

عاشراً: الفخر بالملك والسلطان والمال:

وفي ذلك يقول الله تعالى عن فرعون، وهو يفتخر بملكه وسلطانه: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١٨٢.
(٢) رواه مسلم، رقم ٨٦.
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص١١٤.

وهذا النداء يجوز أن يكون فرعون تولاه بنفسه في جمع من قومه، أو أن يكون أمرَ مَن ينادي في الناس بمفاخره التي عدّدها، وإنما اتخذ هذه الخطوة ليذكر الخاصة والعامة بعِظَم ملكه، وقوة سلطانه؛ تمهيداً لما سيذكره بعد ذلك، وهو بيانُ فضله على موسى عليه السلام الذي لا يملك هذه المفاخر[١].

ووردت خصلة الفخر بالمال في قصة موسى عليه السلام عند حديثنا عن قارون؛ الذي أعطاه الله الأموالَ الطائلة، فتكبّر وبغى وكفر بنعمة الله، وتفاخر وتباهى بماله وكنوزه، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

وفي سياق القصة نفسها ذكر الله تعالى ما أقدم عليه من الخيلاء والمفاخرة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ [القصص: ٧٩]؛ أي: خرج على قومه في حشمه وخدمه في ألوان الزينة من ملبس ومركب وغير ذلك، وهناك مبالغات في مقدار مَنْ كان مع قارون مِن الحشم والخدم حتى أوصله بعضهم إلى سبعين ألفاً[٢]، وبعضهم إلى تسعين ألفاً[٣]، وهو من مبالغات القصّاص، ولا تستند إلى شيء يعتمد عليه[٤].

وكان القصد من هذا الخروج هو الفخر والتباهي لكسر قلوب الفقراء وافتتانهم، حتى إن الناس لما رأوا هذا الموكب المزين بالزخرف، افتتن مَن لم يعط حظّاً من العلم ممن يريدون الدنيا فقالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

أمّا أهل العلم، فلم تضرَّهم هذه الزينة الزائلة الزائفة، فهي مهما طالت

(١) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٤) المصدر نفسه، ص١٨٣.

فمصيرها الفناء والزوال بخلاف نعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا ينفد، جعلنا الله من أهله[١].

الحادي عشر: التكذيب بالرسل:

أخبر الله سبحانه وتعالى عن هلاك الأمم السابقة بسبب تكذيب الرسل، وبينَ ما حاقَ بهم من الهلاك والدمار، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

والقرآنُ الكريمُ سجّل لنا صُوراً من صور تكذيب فرعون وملئِه لموسى عليه السلام.

ـ قال فرعون واصفاً موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وورد عن بعض المُكذبين ما هو أشد من الرمي بمجرد الكذب، وهو الرمي بالمبالغة في الكذب، كقوله تعالى عن بعض رؤوس المُكذبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

وهذه الصيغة؛ أي: ﴿كَذَّابٌ﴾ هي على وزن «فعّال» المحول من «فاعِل» للمبالغة والتكثير[٢].

وهذه تُهمةٌ زائفة، وفِرية قبيحة تستحق العقاب وإنزال العذاب بمن تورَّطوا فيها، وفي الآية اتّهام هؤلاء الطغاة لموسى عليه السلام بالسحر كذلك.

إن الاتهام بالسحر لم يردْ على وجه التعيين إلا عن آل فرعون، ومعهم قارون، قال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٤.

(٢) أوضح المسالك مع ضياء السالك وهو صفوة الكلام على توضيح ابن هشام، محمد عبد العزيز النجار، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، (٣/ ١٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ـ٢٤].

والقرآنُ الكريم ذكَر فرعون وقومه أنهم اتهموا رسولهم بالجنون والسحر معاً، فقد اتهموا موسى عليه السلام تارة بالجنون وتارة بالسحر، كما في الآيات السابقة، وهناك آية جمع فيها فرعون بين التهمتين، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩] رماه بأحد الأمرين؛ السحر أو الجنون على سبيل الشك، لكنَّ القرآنَ نقل عنه الجزم بكل منهما كما سلف، وذلك دليل على لجاجه ومبالغته في التكذيب(١).

وقد استحلَّ فرعونُ وقومُه عصيان رسول ربهم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ـ١٠].

والضمير في قوله: ﴿فَعَصَوْا۟﴾ راجع إلى المذكورين في الآية الأولى، وهم فرعون ومن تقدَّمه من الأمم الكافرة، وهذا على القراءة بفتح القاف وسكون الباء في ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾.

وقُرئ بكسر القاف وفتح الباء «قِبَله» (٢)، والمعنى على هذه القراءة: ومن وليه من أجناده، وأهل طاعته(٣).

ويرجع الضمير أيضاً إلى (المؤتفكات). والمراد بها قُرى قوم لوط عليه السلام(٤).

والمراد في ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أنهم عصوا رسالة الله التي جاءت بها الرسل بالمخالفة، وعدم الاتباع(٥).

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢٠٥.
(٢) وبه قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب.
(٣) المحرر الوجيز، (٥/ ٣٥٨).
(٤) تفسير الطبري، نقلاً عن أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢١١.
(٥) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢١١.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكرُ عصيان فرعون في موضعين آخرين:

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦].

ـ وقال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ ـ ٢١].

وعصيان فرعون لموسى لم يقتصر على المخالفة في العمل وعدم الطاعة فحسب، بل رافق ذلك التصريح بعدم امتثال ما أمر به موسى، أو اجتناب ما نهى عنه[١].

قال فرعونُ وقومه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

لم يردْ في القرآن الكريم أمة أشدّ تكذيباً من فرعون وقومه، ذاق موسى منهم الأمرّين، ولاقى صنوفاً من الإيذاء والإعراض، على الرغم من الحجج والآيات، التي أيده الله بها.

وقد تفرَّد فرعون ومعه قومه بنوعٍ من التكذيب لم يكن فيمن سبقهم من المُكذبين، فعامةُ الأمم التي أهلكها الله قبلهم نازعوا رسلهم في ادّعائهم النبوة والرسالة، وفي الدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام، والإيمان بالبعث وتوابع ذلك، لكنهم كانوا في الجملة مقرّين بوجود الرب جلَّ وعلا، فلم ينازعوا في ذلك. أمّا فرعون، فإنه لم يقرَّ بوجود الرب أصلاً، فضلاً عن الإقرار بوجود رسول له إلى الخلق.

والناظر في قصة فرعون مع موسى عليه السلام في القرآن الكريم يلاحظ ثلاث قضايا يستهلّ بها موسى دعوته لفرعون، وهي ربوبيةُ الله لفرعون ولجميع الخلق، وكون موسى وهارون رسولين من الله إلى فرعون وقومه، ثم الأمر بإرسال بني إسرائيل مع موسى. والآيات الكريمة في القرآن الكريم تبرزُ هذه القضايا بوضوح[٢].

إلا أنَّ فرعونَ كذب وعاند وكابر، ولم تنفعه الآيات والبراهين، ولا الترغيب

---

(١) المصدر نفسه، ص٢١١.

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢٣٣.

ولا الترهيب، فشقي وأشقى قومه معه، ومعظم المحاورات والمنازعات التي دارت بين موسى وفرعون كانت حول الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون فكذب بها، وحاول معارضتها فغُلب ولم يفلح، وورد عنه وعن قومه مواقفُ من التكذيب لشخص موسى عليه السلام، فرمَوه بأقبح الأوصاف، واتهموه بمختلف التّهم[١]، كما بيّنا سابقاً.

لم ينتصحْ فرعونُ وقومه لا بموسى ولا بهارون عليهم السلام ولا بمؤمن آل فرعون، وأصرّوا على التكذيب، واتبعوا أمر فرعون، فكان عاقبة أمرهم كسائر المُكذبين، أَخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم عِبرةً لمن يعتبر[٢].

الثاني عشر: التكذيب بالآيات:

إن التكذيب بالآيات من أبرز أسباب هلاك الأمم، وأكثرها ذكراً في ثنايا قصص السالفين، فقلما تردُ قصةٌ فيها ذكرُ أمة إلا ويذكر التكذيب بالآيات ضمن الشنائع التي ارتكبوها، واستحقُّوا بسببها الهلاك والدمار.

والآياتُ التي ورد فيها ذكرُ التكذيب بالآيات واضحةٌ صريحةٌ في السببية، ولا تحتاج إلى استنباط عميق، أو استنتاج دقيق لمعرفة تعلق الهلاك بها، وإن كان بعضُ هذه الآيات أوضحَ من بعض من حيث الدلالة على السببية.

والقرآن الكريم يعبِّر عن تكذيب الأمم السالفة بالآيات، تارة بلفظ التكذيب ـ وهو الغالب الأكثر ـ وتارة بألفاظ أخرى تؤدي المعنى ذاته، وإن كان بعضُها يدلُّ على معانٍ أخرى دقيقة لا يدلُّ عليها لفظ التكذيب، وإليك هذه الألفاظ مع التمثيل لها ببعض الآيات التي وردت فيها[٣]:

١ ـ **الجحود**: وهو الإنكارُ بعد المعرفة[٤]، وهو أخصُّ من التكذيب؛ لأن

(١) المصدر نفسه، ص٢٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٥.
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢٦٤.
(٤) المحرر الوجيز، (٢/ ٢٨٦).

التكذيب عامّ فيما كُذب عن معرفة أو دونها؛ أما الجحود فخاصّ بما كان عن معرفة بصدق المُكذب به(١).

ومما ورد في الجحود قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

٢ ـ **الكفر**، كما في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

٣ ـ **الظلم**، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣] أي: كذبوا بها(٢).

٤ ـ **الاستهزاء**: ومن الاستهزاء بالآيات الضحك منها، كما ورد عن قوم فرعون في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧].

٥ ـ **جعل الآيات من السحر**: كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦].

والآياتُ الواردةُ في هلاك الأمم، بسبب التكذيب بالآيات، منها ما هو عامّ شامل لجميع الأمم التي كذبت بآيات الله فأُهلكت، ومنها ما يختصُّ بأمة بعينها، وأحياناً مع ذكرِ نوع الآيات التي كذبتْ بها تلك الأمة(٣).

ـ قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

ـ وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٥.
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢٦٦.

إن الله عزَّ وجَلَّ أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكانوا من أشدّ الأمم عناداً، وأكثرهم تعنّتاً، فدلّهم موسى عليه السلام على آيات الله الكونية، وأرشدهم إلى التدبر فيها، ليعرفوا عظمةَ الخالق جلّ وعلا ووحدانيته، كما بينا ذلك في سورة طه والشعراء.

وأظهر لهم الآياتِ التَّعجيزيةَ دلالةً على صدقه فيما أخبر به من النبوة والرسالة، ولكن القوم لم يؤمنوا بهذه الآيات رغم وضوحها وكثرتها، فعاندوا، وكابروا، وكذبوا بها، فأهلكهم الله[١].

والآياتُ الواردة في تكذيب فرعون وقومه بالآيات كثيرة جدّاً، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٢].

والآياتُ صريحة واضحة في هلاكهم بسبب تكذيبهم بآيات الله جلَّ وعلا، وقوم فرعون قابلوا الآيات التي جاء بها موسى بأساليب مختلفة من التكذيب، فتارةً بالسُّخرية والاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧].

وتارة يقولون: إنها سِحْر مبين، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [النمل: ١٣]، وقد وصف الله هذه الآيات بأنها مبصرة؛ أي: بينة وواضحة وظاهرة[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢٧٧.

فقابلوا هذا البيانَ والوضوحَ والظهور في الآيات بعكسها ونقيضها في السحر، فقالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وتارة يقولون: إن الآيات ما هي إلا سحر مفترى، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]، يقولون: ما هي إلا سحر مُفتَعَل مُختَلَق، عملت سحراً، وأوهمت أنه خلافه[١].

وفي آخر الأمر بعدما شاهدوا الآيات تلو الآيات، أعلنوا عن موقفهم من الآيات التَّعجيزية، ما أتى منها وما سيأتي، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقد سمَّوا ما سيأتي به موسى آية ليس لاعتقادهم بأنها كذلك عندهم، بل سمّوها آية من باب المحاورة لموسى عليه السلام على سبيل الاستهزاء والسخرية، فكأنهم يقولون: آية على حدِّ زعمك يا موسى، فهم ينكرون كونها آية أصلاً، ويزعمون أنها سحر؛ ولذلك قالوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ أي: لتسحر بها أعيننا، وتشبِّه علينا[٢].

والآياتُ التي جاء بها موسى، وكذب بها فرعون وقومه، كثيرة وعظيمة ومتنوعة، يقول الله عن كثرة هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]، فتعريف الآيات بالإضافة، ثم تأكيدها بـ(كلّ) ـ وكلاهما صيغتان من صيغ العموم في الأصل ـ يدلُّ على كثرة الآيات التي كذب بها فرعون، حتى اعتُبر كمن رأى جميع الآيات فكذب بها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٢].

غير أن الآية الأولى ذكر فيها تكذيب فرعون خاصة، والثانية ذكر فيها تكذيب قومه، مما يدلُّ على أن قومه قد وافقوه، واتبعوه في التكذيب بآيات الله، وفي سائر ضلالاته، فأوردهم موارد الهلاك في الدنيا، وسوء العذاب في الآخرة[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٧.
(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، المرجع السابق، ص٢٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٩.

وأما تنوع الآيات التي جاء بها موسى، وكذب بها فرعون، فإنها اشتملتْ على التذكير بالآيات الكونية، وإظهار الآيات التعجيزية[١].

ـ الآيات الكونية:

ذكّر موسى فرعونَ وقومه بالآيات الكثيرة الدّالة على أن الله سبحانه وتعالى هو الرّب الإله الواحد الأحد، وقد ورد ذلك في سورتي طه والشعراء.

قال تعالى حكايةً عن موسى، وهو يستدلُّ لفرعون على ربوبية الله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٠ ـ ٥٤].

وقال الشعراء في حكاية ما دار بين موسى وفرعون: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨]، وقد تقدم الكلامُ على الآيات[٢].

ـ الآيات التعجيزية:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أيد موسى عليه السلام بتسع آيات بينات جاء بها إلى فرعون وقومه، فكذبوا بها عناداً وكبراً، وقد ورد تحديدُ الآيات بتسع في موضعين:

أحدهما: في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٢.

والثاني: في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ﴾ [النمل: ١٢].

ولا خلافَ بين أهل التفسير في أن المراد بالآيات التسع هي المعجزات التي جاء بها موسى إلى فرعون وقومه[١]؛ وهي: العصا، واليد، والسنون: والمراد بها الجدب والقحط سنة بعد سنة، والنقص في الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والدم، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب (أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن) للدكتور سعيد محمد بابا سيلا، الذي اعتمدتُ عليه في هذا المبحث.

الثالث عشَرَ: التَّكذيبُ بالبعث والنُّشُور:

إن المُكذبين من الأمم الهالكة ذكّروا بيوم القيامة، فلم يؤمنوا به، بل كذبوا به ضمن ما كذبوا به من أصول الملة، فأهلكهم الله بتكذيبهم.

وقد ذكر الله عزَّ وجَلَّ في كتابة آيات تدلُّ على أن مطلقَ التكذيب كان سبباً في هلاك الأمم السالفة، وأن التكذيب بالبعث والنشور داخل في ذلك التكذيب المطلق، فهو سببٌ من أسباب هلاكهم من هذا الجانب.

ومن جانب آخر، نجدُ الآيات التي ذكرت تكذيب الأمم السالفة بالبعث ذكرته مستقلاً، أو ضمن أفعال اقترفوها، ثم أعقب ذلك بذكرِ هلاكهم، مما يدلُّ أن هلاكهم كان بسبب الأفعال السيئة[٢].

وقد ورد ذكرُ تكذيب فرعون وقومه بالبعث في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩ـ٤٠].

قال ابن جرير الطبري: يقول: وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون،

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٣.

ولا ثواب ولا عقاب، فركبوا أهواءهم، ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد، وأنه مُجازيهم على أعمالهم الخبيثة(١).

وهناك آيةٌ أخرى ورد فيها عدم إيمان فرعون بالبعث، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وهذا وصفٌ يعمُّ فرعون وأمثاله من الكفرة الملحدين، وهو أول الداخلين فيه، وإنما لم يعينه موسى عليه السلام لتكون الاستعاذة بالله من كلّ من كان موصوفاً بهذا الوصف، حتى يدخل فيه كل عدو لله، مُعلِناً كان أو مُسِرّاً(٢)، والله أعلم.

ومما يستأنسُ به في هذه المسألة ما ورد في قول مؤمن آل فرعون من التخويف بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣]، ويوم التنادي هو يوم القيامة(٣).

وورد التذكيرُ بيوم القيامة وما فيه من النار في موضعين آخرين على لسان مؤمن آل فرعون في قوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

ويدلُّ هذا كلُّه على أن موسى عليه السلام ذكَّر فرعون وقومه بيوم الحساب، كما فعل سائرُ الرُّسُل عليهم السلام(٤).

---

(١) تفسير الطبري، نقلاً عن أسباب هلاك الأمم، ص٣١٠.
(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٥٧)، أسباب هلاك الأمم، ٣١١.
(٣) زاد المسير، (٧/ ٤٢)، أسباب هلاك الأمم، ص٣٠٢.
(٤) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٣٠٢.

الرَّابع عشَرَ: الاستهزاءُ بالرسل وأتباعهم:

وردتْ في القرآن الكريم آيات عدة تدلُّ على شيوع الاستهزاء بالرسل في الأمم الهالكة، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧].

فزيادة على التكذيب والإعراض، واجه المُكذبون رُسُلَهم، ومن آمن بهم واهتدى بهداهم، بأساليب السخرية والاستهزاء[١].

ومما ورد من أمثال سخرية قوم فرعون بموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

ـ وقوله تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧].

ـ وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

ومقالته هذه كلُّها سخرية بموسى واستهزاء به عن طريق الفخر بملكه، وإظهار ما يدّعي أنه عيوب في موسى، واقتراح أمور من أجل التهكّم فحسب[٢]، والله أعلم.

وقد تَعَرَّضَ فرعونُ للاستهزاء بأتباع موسى عليه السلام، فقد وصفهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤ ـ ٥٦].

---

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٣٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٣.

وقد قال فرعونُ هذا الكلام على سبيل السخرية بقوم موسى، والاستهانة بهم، وذلك بعد أن بلغه خروجهم من مصر ليلاً.

ـ وقوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: جماعة قليلة محتقرة[١].

وفي كلام فرعون هذا إشارةٌ إلى قلة قوم موسى، وذلَّتِهم من أربعة أوجه؛ وهي:

ـ ذكرهم بالاسم الدال على القلة مع الحقارة، وهو شِرْذمة.

ـ وصفهم بالقلّة في قوله: ﴿قَلِيلُونَ﴾.

ـ جمع الوصف، فبدلاً من أن يقول: «شرذمة قليلة» قال: «قليلون»، ليعلم أنهم أحزاب، وأن كل حزب منهم قليل في نفسه.

ـ اختيار جمع السَّلامة لإفادة القلة[٢].

وإنما قلل فرعون قوم موسى نظراً إلى كثرة ما عنده من الجنود والعتاد، ويجوزُ أن يكونَ أراد بوصفهم بالقلة ذلَّتهم وحقارتَهم، بحيث لا يبالى بهم، ولا يتوقَّع غلبهم ولا فواتهم[٣].

وفي مقابل وصفه بني إسرائيل بالقلة والذلَّة، وصف قومه بما يدلُّ على الكثرة والعزة والمنعة، وذلك في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦]؛ أي: أنهم قوم من عادتهم الحذر والتيقّظ واستعمال الحزم في الأمور، فلا يخشى عليهم من مثل هؤلاء الشَّراذم[٤].

ولم تمضِ إلا ساعات قليلة حتى أدرك آل فرعون من هم الشِّرْذمة القليلون، ومن هم الجميع الحاذرون حقّاً، فقد نالوا جزاء تكذيبهم واستهزائهم مع شروق الشمس، ولم يغْنِ عنهم جمعُهم ولا ما ادَّعوه من الحذر واليقظة، حين أتى أمر

---

(١) المحرر الوجيز، (٢/ ٤٢٣).
(٢) تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٣/ ١١٥).
(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٣٢٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٦.

الله بهلاك المُكذبين المستهزئين وإنجاء المؤمنين، فكانت العاقبة ـ كما هي دائماً ـ للمتقين، والحمد لله رب العالمين[١].

الخامس عشر: إيذاء الرُّسل وأتباعهم:

إنَّ الإقدامَ على إيذاء موسى عليه السلام وبني إسرائيل سبيل إلى الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، ومن هذا النوع قوله تعالى عن فرعون: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إما بالقتل، أو الاستئصال، أو بالإجلاء[٢].

وهذا الربطُ يرد كثيراً في حديث القرآن عن قصة فرعون مع موسى عليه السلام، وأحياناً بأسلوب أكثر تفصيلاً مما ورد في هذه الآية، ويدل ذلك كله على أن إيذاء فرعون لبني إسرائيل، وعزمه على استئصالهم، وشروعه في ذلك، كان من أبرز الأسباب التي أدت إلى هلاكه مع قومه، والآية ذكرت هذا السبب كأنه السبب الأوحد لهلاكه مع قومه؛ لأنه هو المبدأ.

قال ابن عطية في تفسير الآية السَّالفةِ الذكر: واقتصَّت هذه الآية قصة موسى مع فرعون، وإنما ذكرت أعظم الأمر وخطيره، وهو أن فرعون أراد غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بادئ الأمر، فأغرقه الله وجنوده، وهذا نهايةُ الأمر[٣].

وقد ورد التهديد من فرعون لموسى عليه السلام بالقتل، والسجن، وكذبَه واستَهزَأَ به، واتّهمَه بالسحر والجنون، وضيقَ فرعون وملَؤه على أتباع موسى عليه السلام وآذوهم؛ سعياً إلى ردّهم عن دينهم، وقصداً في الوقت ذاته إلى إيلام موسى عليه السلام، بما يراه من الأذية التي تقع على أتباعه، وهناك آياتٌ كثيرةٌ في قصة آل فرعون توضِّح هذا المقصدَ الخبيث لأعداء الرسل، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٢٦.
(٢) النكت والعيون، (٣/ ٢٧٨).
(٣) المحرر الوجيز، (٣/ ٤٩)، أسباب هلاك الأمم، ص٣٣١.

وقال تعالى عن موسى، وهو يذكّر قومه بتلك النعمة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقد بينتُ في هذا الكتاب الآياتِ الكريمةَ التي تحدَّثت عن الإيذاء الذي تعرّض له أتباع موسى عليه السلام. وقد حكم الله ـ جلَّ وعلا ـ وهو أحكم الحاكمين، فأنصف المظلوم من الظالم، فأهلك فرعون وجنوده[1].

السادس عشر: كفران النعم:

آتى الله فرعون وقومه كثيراً من نِعَم الدنيا وزينتها، فكان لهم الملك والسلطان، وكانوا في رَغَد من العيش، بسبب ما منحهم الله من الأموال، وأنشأ لهم من الجنات، وأجرى لهم من الأنهار، ومع هذا فقد كانوا من أكفر خلق الله بالنعم، إذ كانوا منكرين لوجود الرب جلَّ وعلا، معتقدين ربوبية فرعون عليه لعنة الله، فكفروا بذلك بأعظم النعم، نعمة الخلق والإيجاد، وكفرهم بتوابع ذلك من الإرزاق والتمكين وغيرهما من باب أولى.

وقد حاجَجهم موسى عليه السلام، فأقام لهم البراهين على ربوبية الله الواحد الأحد، وذكّرهم بنِعَمه الظاهرة العامة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٤].

وقد بين القرآن الكريم نظرة فرعون وقومه إلى النعم، وتلك النظرة مبنية على ثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد بأن النِّعَم والخيرات إنما تأتيهم لاستحقاقهم لها، وكونهم أهلاً لحصولها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١]،

(١) أسباب هلاك الأمم السابقة، ص٣٥٩.

وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة: ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: نحن مستحقّوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنها من الله، فيشكروه عليها(١).

الثاني: التفاخر والتّباهي بالنّعم، والاعتقاد بأنها دليل حُسن مذهبهم، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢].

الثالث: الاغترار بالنعم والظن أنها مانعتهم من العذاب، وذلك مُستنبط مما ورد في نصيحة الرجل الذي آمن منهم، قال تعالى حكاية عنه: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

قال ابن كثير: أي: قد أنعَم الله عليكم بهذا المُلك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة، والجاه العريض، فارعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله(٢).

وهم مع عدم قيامهم بحق هذه النعمة من الشكر، كانوا يعتقدون أنهم في مأمن ومَنَعة من حلول العذاب؛ لما يرون لأنفسهم من القوة والسلطان على أهل الأرض، فحذرهم الرجل من التمادي في التكذيب والاغترار بالملك والسلطان، ولمّا كان آل فرعون على هذا القدر من كفران النِّعَم وجحودها والتفاخر بها والتّباهي، والاستعانة بها على الصدّ عن سبيل الله، لا جَرَم دعا عليهم موسى عليه السلام، فسأل ربّه أن يطمسَ على أموالهم، وأن يشدَّد على قلوبهم لعلهم يرغَبون عن غيهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

---

(١) زاد المسير، (٣/ ١٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير، (٤/ ٨٥)، وانظر: أسباب هلاك الأمم، ص٣٨١.

ولما جاء أمر الله بإهلاك آل فرعون خرجوا من تلك النِّعَم خروجاً لا عودة بعده أبداً، فتركوا خلفهم الجنّات والأنهار والزروع والأموال والملك والسلطان، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

ـ وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

فما أشدَّ حسرتهم! وما أعظم مصيبتهم! خرجوا من النعيم، وانقلبوا إلى العذاب السَّرمدي، قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦]، وهذا جزاء عادل لمن جحد الإله، وكذب الرسل، وكفر بالنعم[١].

السابع عشر: فساد الصفوة «الملأ»:

لقد نهضت الصفوةُ الفاسدةُ في قصة فرعون مع موسى عليه السلام بإضلال الناس، وحرفهم عن طريق الإيمان بالله عزَّ وجَلَّ، ومحاولة قلب الحقائق، وطمسها، وتغييبهم عنها أو تغييبها عنهم، وتزييف وعي الناس، وإلقاء الروع في نفوسهم من دعوة موسى تحت حجج شتّى لا تخضعُ للمنطق السليم، ولا للتفكير السوي، واللجوء إلى استخدام الحيل الماكرة، وإلقاء الاتهامات على مَنْ يدعون للحق وبث الرعب مما يمكن أن يحدث لعامة الناس من مهالك وأضرار حين يخضعون لمنطق هؤلاء الدّعاة، وفي ذلك لا يتوانَون عن وصف أنفسهم بالحريصين على مصالح الناس، والخوف عليهم مما يتهدَّدهم من أخطار، وما قد يصيبهم من مآسٍ[٢].

وبين الله عزَّ وجَلَّ في قصة موسى مع فرعون أن دعوة موسى عليه السلام استهدفت فرعون وملأه وقومه، وكان للملأ عداء لدعوة التوحيد، وتأثير على عامة الشعب، وكان رفض دعوة موسى عليه السلام من فرعون وملئه، يعضِّد

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٣٨٢.
(٢) التداول الحضاري في القرآن الكريم، ص١٨٢.

بعضهم بعضاً، ويدفع بعضهم بعضاً، وكان الرفض والاستكبار، فكان حقّاً وصف القرآن لهم بأنهم مجرمون، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

لقد شاركوا فرعون في محاربة موسى ودعوته بكلِّ الأساليب المتاحة لهم؛ خوفاً على نفوذهم ومصالحهم وامتيازاتهم، وكانوا يقومون بدور تحريضي ضد موسى وقومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وهكذا كما ورد في القرآن الكريم، فحين تفسدُ الصَّفوة، يفسد معها خلق كثير ممن يتبعونهم لأسباب شتى، لكن المحصّلة النهائية هي انحراف المجتمع، وانهيار الحضارات، وتوجيهها نحو مصارعها(١).

الثامن عشر: التَّرَف:

ومن أسباب العقاب الإلهي؛ الترف، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

فالظالمون وهم الأكثرون اتّبعوا نعيم الدنيا ولذاتها، إيثاراً على عمل الآخرة، وما ينجيهم من عذاب الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

فإذا أراد الله عزَّ وجَلَّ إهلاكَ أمة، فإنه يأمر هؤلاء الذين أُترفوا بالطاعة، فيفسقون فيها، ويبقون على ترفهم ومعاصيهم ومخالفتهم لأمره سبحانه، فيحِقُّ عليهم وعيد الله الذي أوعد من كفر به، وخالف رُسلُه من الهلاك والدمار، فيخرّبها سبحانه تخريباً، ويهلك من كان فيها إهلاكاً.

(١) التداول الحضاري في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص١٨٢.

إن المترفين هم أولو النعمة، والحشمة، والثروة، والرياسة[١]، وهؤلاء المُترفون هم المعنيون بالملأ من القوم، وهم الذين تولَّوا معارضة الرسل.

ومجتمع قوم فرعون ساد فيه الترف والطبقية، فهو مكون من: الرؤساء والمرؤوسين، الأغنياء والفقراء، والسادة والعبيد.

والـمُترفون من كل أمة هم طبقة من الكُبراء الـمُنَعَّمين الذين يجدون المال، ويجدون الخَدَمَ، فيتنعّمون بالراحة والسيادة حتى تترهل نفوسهم، وترتع في الفسق والـمُجون، كما يطمس نور التوحيد من عقولهم، وتُعشعش فيها الخرافات، والضَّلالات، وأنواع الشِّركيات.

وهؤلاء المترفون لا يتورّعون عن هتك الأعراض وانتهاك الحرمات وسفك الدماء، والوقوع في الخطايا والمعاصي والذنوب، وكانوا من أسباب هلاك فرعون، وهو سيد المترفين، وكذلك الملأ وقومه.

التَّاسع عشر: الاشتغال بالدُّنيا ونسيان الآخرة:

اشتغل فرعون وقومه بأمور الدنيا، وأصابهم الغرور بها، ونسوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والنعيم الزائل، وتورّطوا في الشبهات الإبليسية، وانغمسوا في الشَّهوات الشَّيطانية، وغاب عنهم الصَّبر الذي تُدفع به الشهوات المحرّمة، واليقين الربّاني الذي تُزال به شِباك إبليس في شبهاته.

ووقعوا في سُنة الاستدراج الربّاني، فكثرت أموالهم وأولادهم، وأبطرتهم النِّعَم الكثيرة، وتحقّق فيهم قول الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ـ٤٥].

والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يصور الأرزاق، والخيرات، والمتاع، والسلطان، متدفقاً كالسيول بلا حواجز ولا قيود، وهي

(١) نوح والطوفان العظيم، الصلّابي، المرجع السابق، ص٣٣٤.

مقبلة عليهم بلا كدّ ولا حتى محاولة، إنه مشهدٌ عجيبٌ يرسم حالة في حركة على طريقة التصوير القرآني العجيب.

ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ وغمرتهم الأرزاق والخيرات المتدفقة، واستغرقوا في الاستمتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعِم، ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، وتبع ذلك فساد النُّظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجرّ هذا وذاك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها؛ عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدَّل[1].

ـ ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾: فكان أَخْذهم على غرّة، وهم في سَهوة وسكرة، فإذا هم حائرون، منقطعو الرجاء في النجاة، عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، فإذا هم مهلَكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

ـ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: دابر القوم: هو آخر واحد منهم، يدبُرهم، أي: يجيء على أدبارهم، فإذا قُطع هذا فأولئك أولى، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تعني: الذين أشركوا، والشرك من أنواع الظلم، وهو أعظمُها.

ـ ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: تعقيب على استئصال الظالمين بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين، وهل يحمد الله على نعمة أجلَّ من نعمة تطهير الأرض من الظالمين؟! أو على رحمته بعباده بهذا التطهير؟

لقد أخذ الله تعالى قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السُّنة، ووراء ازدهار حضارتهم، ثم تدميرها، ذلك السرّ الـمُغيب من القدر الظاهر في سننه، وهذا التفسير الربّاني لهذا الواقع التاريخي المعروف[2].

---

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ١٠٩٠).

(٢) في ظلال القرآن، المصدر السابق، (٢/ ١٠٩١).

العشرون: سُنة الاستبدال:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٢٨].

مضت سُنَّة الله في الاجتماع البشري: أنه ما أهلك قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين، يقومون بعمارة الأرض، ذلك أن ذهابَ أمة وإنشاء أخرى لا يكون عبثاً ومصادفة، ولكنه سُنَّة الله في الأمم والدول؛ لتتجدَّد خلايا الإنسانية، وتُتداول الحياة الحضارية بين البشر؛ ليستمرَّ العالم قائماً على عقيدة سليمة، وأسس صحيحة صالحة للبقاء(١).

وإن الحضارات كما أن لها سُننَ قيام وسقوط، فلها سنن تجدّد وانبعاث واستبدال، وقد تحدّث القرآنُ الكريمُ عن الاستبدال الحضاري، وهذا ما حدث لفرعون وقومه؛ حيث تجمّعت فيهم أسباب الهلاك، فمضتْ سُنَّة الله فيهم بالغرق والإبعاد من الدنيا إلى عالم البرزخ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ـ٤٦].

الحادي والعشرون: سُنة الأجل الجماعي:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

جعل الله لكل فرد أَجَلاً تنتهي به حياته الدنيا، وجعل سبحانه للأمم والحضارات آجالاً تنتهي وتسقط في نهايتها، ويسدل الستار عليها، وكذلك لحركة التاريخ الجماعي للأمم سنن كثيرة دقيقة، تسير عليها، قدَّرها الحكيم العليم، لا تقصر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محدَّدة، وأحداثها مقدَّرة مكتوبة، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

---

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، ص٧٣.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] (١).

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]؛ أي: لكل قوم ميقات لانقضاء مدّتهم وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، لا يستأخرون ساعة، والإمداد بالساعة أقلّ مدة من الزمن، ولا يتقدَّمون بالقدر نفسه؛ لأنَّ الله قضى بذلك منذ حين (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥].

بينت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها أجل مقدّر في أسباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحجَّة على أهلها بتقديم النُّذر، وفرص الإمهال، وسنن الاستدراج (٣).

وتبقى سُنَّة الله ثابتة، وهي أن هلاك الأمم مرهون بأجلها، فالهلاك الذي قدّره الله لها مرتّب على سلوكها وأعمالها، وعلى اعتقادها وتصورها، ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله، فلا يغرّ المُكذبين تخلُّف بأس الله عنهم فترة من الوقت، ومن عدل الله أن يذيقَ كل واحد جزاء عمله وتصرّفه، وسنة الله في طريقها المعلوم تمضي رويداً رويداً نحو الأجل المقدر الذي يمنحه الله لتلك القرى، حتى لا تبقى بقية خيرٍ عند تلك الأمة، فيأتي أجلها، وتنتهي إلى مصيرها (٤).

وما من أمة عرفت الحياة، ثم تمرّدت على الحق، وتولّت عن العدل إلا والله مهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدرٌ مقدّر في الكتاب المسطور، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

---

(١) السنن الجماعية، محمد أمحزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م، (١/ ٣٦٧).
(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص٣٠٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٢.

وهذا ما حَدَث لفرعون وقومه، فبعث الله لهم موسى وهارون لهدايتهم وإخراج بني إسرائيل من ظلمهم، فردُّوا دعوتهم كبراً وعناداً، وأعرضوا عنها جُحُوداً، فمضت فيهم سُنَّة الله في الظالمين، وفي المفسدين، وفي الفاسقين، ووقع عليهم العقابُ الإلهي بسبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم وفق سنّة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ فعلمُ الله لا يتبدَّل، وسنّته لا تتحول، وهي جارية وحاكمة وفق مشيئته، وإرادته، وعلمه، وحكمته سبحانه وتعالى.

الثاني والعشرون: سنة الهلاك:

إن الله سبحانه وتعالى قضى بجعل الحساب والجزاء يوم القيامة، لكن جرت سُنته بالفصل بين أهل الحق وأهل الباطل في الدنيا بحكمةٍ ربانيةٍ عُليا؛ وذلك بإهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين في الصراع الدائر بين الرسل عليهم السلام وأعدائهم، وفي الصراع دارت الدائرة وفق سُنَّة الله على أهل الشقاوة، فمنهم من أغرقه الله، ومنهم من أرسل عليه الريح العقيم، ومنهم من أخمدته الصَّيحة، ومنهم من أخذته الرجفة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم من مُسخوا، فغدوا قردة وخنازير، على أن الهلاك الذي حلَّ بأولئك الظالمين إنما هو خزي لهم في الدنيا ونصرة للمؤمنين، وعبرة لمن يجيء بعدهم من الأمم ليتَّعظوا بمصائر الغابرين، ويبتعدوا عن سبيل الشيطان التي كانت سبباً في إهلاك القرون الخالية، المحادّة لله ورسوله.

وقد ورد لفظ «الهلاك» في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة حسب موقعه في السِّياق، كالموت مطلقاً والفساد، وافتقاد الشيء والعذاب، والمعنى الأخير هو الأكثر استعمالاً في القرآن الكريم، وله صلةٌ بموضوعنا.

أما الهلاك في الاصطلاح القرآني، فهو: ما ينزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المستأصِل المبيد، وقد ورد هذا كثيراً في قصص القرآن الكريم عن مصير الأمم الغابرة، التي انحرفت عن جادة الصراط المستقيم، وجحدتْ أوامر الله عزَّ وجَلَّ، وآذت رسله[1].

(١) نوح والطوفان العظيم، الصلابي، ص٣٤٥.

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

ويفهم من هذه الآية الكريمة: أن الهلاك بدأ بقوم نوح، ثم استمرّ إلى فترة ما قبل البعثة النبوية، حيث كان هلاك أصحاب الفيل، وكان قوم نوح سكان الأرض في تلك الحقبة الزمنية البعيدة في أغوار التاريخ قبل انتشار الناس، لقرب العهد من آدم أبي البشر عليه السلام(١).

وقد بين سبحانه وتعالى أسبابَ هلاك فرعون وملئه في سورة (المؤمنون)، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨].

الثالث والعشرون: سُنة الخُسران:

تحقَّقت سُنة الخسران في فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

من سُنَّة الله أن الكافرين لا يفلحون، وأنهم خاسرون، وهي سُنة نافذة لا تتخلَّف، كما أن الفَلاحَ للمؤمنين من سُنَّة الله في خلقه.

فكل ما كان يرى على فرعون وملئه، من جاه ومتاع وسلطان ونفوذ، لم يكن ذلك فلاحاً في ميزان القيم الحقيقية، وإنما كان استدراجاً، انتهى بالويل والخسران والإغراق في البحر.

لقد خسر فرعونُ وقومه الإدراكَ والبصيرة، فضاعوا في صحاري الشبهات، وبحار الشهوات، ووديان الضَّلال، ومضتْ فيهم سنة الخسران: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣] (٢).

---

(١) السنن الاجتماعية، (٣/ ٥٧٩).

(٢) نوح والطوفان العظيم، ص٣٤٦.

الرابع والعشرون: سُنَّة الله في المفسدين:

وصف الله عزَّ وجَلَّ فرعون بأنه كان من المفسدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، ومعنى الفساد في القرآن الكريم هو خروجُ الشيء عن الاعتدال الذي خلقه الله تعالى له، ويستعمَل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

والإفسادُ هو فعلُ الشَّرِّ الناتج عنه إخراج الشيء عن حالته الأصلية الصَّالحة التي خلقه الله عليها إلى حالة فاسدة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: بيان ما كان يفعله فرعون مما ذكره الله في الآية الكريمة من قتل الأطفال، واستحياء النساء... إلخ، فهو فساد وإفساد في الأرض، فكل تلك الأعمال الشنيعة التي فيه هي ذات صلة وثيقة بعلوه، وتجبّره، وإفساده، وإنما هي ناتج عن ذلك.

كما أن تلك الأعمال، باعتبارها قبيحة، ولا تستقيم مع منطق الصلاح والإصلاح في الأرض، اعتُبرت فساداً وإفساداً.

وقد بينت الآيةُ الكريمةُ: أن هذه المظالمَ الاجتماعيةَ التي ذكرتها تهدم أساس المجتمع وتفسده(١).

ولذلك مضت سُنَّة الله في المفسدين، الذين رفضوا دعوة موسى عليه السلام، ولم يتركوا الظلم والعتو والجحود، واستمرُّوا على فسادهم العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، والأمني، والاقتصادي.

ـ قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) مفهوم الاستكبار والاستضعاف، مصطفى أوعيشة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٤م، ص١٣١.

ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

ولا شكّ في أن الفساد الذي قام به فرعون وملؤه كان من أسباب هلاكهم ودمارهم.

الخامس والعشرون: سُنَّة الله في الفاسقين:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤ـ٥٦].

والآية الكريمة تُبين أن فرعون استخفَّ عقولَ قومه بما أبدى لهم من الشبهات التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق، وإنما تروج على ضعفاء العقول الّذين بسبب فسقهم قُيضَ لهم فرعون، يزينُ لهم الشِّركَ والشَّرَّ.

ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بأفعالهم.

ـ ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ ليعتبر بهم، ويتَّعظ بأحوالهم المتَّعظون[1].

لقد وصف القرآن الكريم قوم فرعون بالفسق، وهو الخروجُ عن طاعة الله، والوقوع في الخطايا والذنوب، فإذا ما اجتمعت المعاصي بأنواعها على أمة، فإن هذه الأمة تعاقَب، ويحُلُّ بها الهلاك[2].

ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

---

(١) تفسير السَّعدي، ص١٠٣٤.

(٢) نوح والطوفان العظيم، ص٣٣٩.

إن الذنوبَ سببٌ للانتقام وزوال النِّعَم[١]، فهي تعزلُ الأمم عن مصدر القوة الحقيقية، وتستعدي عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله، وهذه سُنَّة الله أن يأخذ الأمم بالذنوب[٢]، كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

إنَّ من أسباب هلاك الأمم وزوالها ظهور المعاصي، وارتكاب الخطايا والانغماس في الذنوب.

السادس والعشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك:

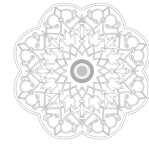
من أسباب هلاك فرعون وقومه ومضي سُنَّة الله فيهم، غفلتُهم عن أسباب الهلاك، فلم ينتبهوا إلى خطورتها، بل مارسوها على مستوى الأفراد والمجتمع، وإن القرآن الكريم في قصة فرعون وقومه وهلاكهم وجّه الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم، وهي مليئة بالدروس والعبر والفوائد والسنن، وقوانين الله في حركة الشعوب، وزوال الأمم والدول والحضارات.

هذه بعض الأسباب التي وصلتُ إليها في البحث في معرفة عوامل هلاك فرعون وقومه.

وقد استفدت في هذا البحث، واعتمدت فيه بعد الله على كتاب الدكتور محمد بابا سيلا «أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم»، وهذا للأمانة العلمية والرغبة الصَّادقة في الاعتراف بجهود السابقين والإشادة بما قدموا. وأجرنا جميعاً على الله الكريم سبحانه وتعالى.

* * *

(١) تفسير رشيد رضا، «تفسير المنار»، (٧/ ٣٠٨ـ٣٠٩).
(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢٣٨).



المبحث الثاني

التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام

أولاً: موسى عليه السلام يتلقى ألواح التوراة:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقد تمَّ تفسيرُ هذه الآية في قصة موسى في سورة الأعراف، وهذه بعض المعلومات المهمة التي تساعدنا في معرفة التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، وقد اعتمدت فيما يتعلَّق بالتوراة على كتاب الدكتور صلاح الخالدي رحمه الله «حديث القرآن عن التوراة والإنجيل».

١ ـ إنزال التوراة على موسى وهو على جبل الطور:

في ذلك الجو العظيم أنزل الله على موسى عليه السلام الألواحَ من السماء، وقد كتب عليها كلام الله إليه، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

إن قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ نصّ في أن الله آتاه الألواح وهو على جبل الطور، وأنه كتب في تلك الألواح كتابه إليه.

وتدلُّ كلمة ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ على أنها كانت عدداً من الألواح، ولكننا لا يمكن أن نعرفَ عددها، ولا أحجامها، ولا مقاساتها، ولا تفاصيلها، ولا يضيرنا

عدم العلم بذلك، ولو كان في العلم بهذه التفاصيل فائدة لنا لذكرَها الله لنا، ونحن مأمورون أن نبقى مع القرآن، وما صحّ من حديث رسول الله ﷺ.

وألواح التوراة نزلت من الله عزَّ وجَلَّ على موسى عليه السلام، وحمل منهج الله عزَّ وجَلَّ إلى قومه. وقد بينا ما حدث لقوم موسى بعد غيابه عنهم، ونزول التوراة عليه، وتحقيقه مع السَّامري وقومه وأخيه هارون عليه السلام.

وهكذا تلقّى موسى عليه السلام التوراة مكتوبة على ألواح في السماء، وبلّغها لقومه، ودعاهم إلى الالتزام بها، وتطبيق أحكامها[١].

٢ ـ التَّوراة كلمة أعجمية:

انقسم المفسّرون واللغويون في النظر إلى كلمة «التوراة» إلى قسمين:

الفريق الأول: ذهبوا إلى أن «التوراة» كلمة عربية مشتقة، وليست اسماً أعجمياً.

والفريق الثاني: ذهبوا إلى أن «التوراة» كلمة أعجمية، وليست عربية مشتقة، سُمِّي بها كتاب الله النازل على موسى عليه السلام.

والراجح هو ما قاله الفريق الثاني من أن «التوراة» اسم أعجمي، وليس عربياً مشتقّاً، فلا نبحث له عن مادة اشتقاق في اللغة العربية، وما زعموه من اشتقاقه من «وري» أو «تور» كلام مرجوحٌ مردود.

وإدخالُ أل التعريف على التوراة لا يمنع كونها اسماً أعجمياً؛ لأنها بهذا التعريف تحولت من الوصف إلى العلمية، وصارت خاصة بالكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، فلا يسمَّى بها غيره، ولا تطلق على غيره[٢].

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والانجيل، صلاح عبد الفتاح الخالدي، الأردن، دار النفائس، ط١، ٢٠١٧م، ص٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٨ ـ ٥٢.

٣ ـ ورود التوراة في القرآن :

«التوراة» كلمة من كلمات القرآن الكريم، وقد وردت ثماني عشرة مرة في سُورٍ مكية ومدنية :

وردت ست مرات في سورة آل عمران، وسبع مرات في سورة المائدة، ومرة واحدة في سور : الأعراف والتوبة والفتح والصف والجمعة .

ويلاحظ أنها وردتْ في القرآن المكّي مرة، وذلك في سورة الأعراف، وفي سياق الإخبار عن صفات الرسول الخاتم ﷺ الذي كُتبت صفاته في التوراة والإنجيل، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

والمرات الأخرى السبع عشرة وردت في سور مدنية؛ لأنه لم يكنْ يهود في مكة، فلم يكن صراعٌ بين الرسول ﷺ وبين اليهود فيها .

أ ـ التَّوراة في سورة الصَّفِّ والجمعة والفتح والتَّوبة :

١ ـ وردت التوراةُ في سورة الصف في سياق الإخبار عما قاله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

٢ ـ وردت في سورة الجمعة في سياق ذمّ اليهود الذين لم يحملوا التوراة، ولم يلتزموا بما فيها، وشبههم بالحمار في عدم الانتفاع بما يحمل على ظهره، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الجمعة : ٥] .

٣ ـ ووردت في سورة الفتح في سياق الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ، وذكرت مثلاً لهم في التوراة ومثلاً آخر لهم في الإنجيل، قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

٤ ـ ووردت في سورة التوبة في سياق الحديث عما أعدّ الله للمؤمنين المجاهدين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: ١١١].

ب ـ التَّوراة في سورة آل عمران:

وردت في سورة آل عمران ست مرّات كما يأتي:

١ ـ **أخبر الله عن إنزال القرآن** كإنزال التوراة والإنجيل، فالكتب الثلاثة من كلام الله الذي أنزله على رُسُله، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

٢ ـ **أخبر الله أنه سيبعث عيسى عليه السلام** نبياً رسولاً، وسيعلّمه التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٧ ـ ٤٨].

٣ ـ **لما بعث الله عيسى عليه السلام رسولًا** إلى بني إسرائيل، قدّم نفسه إليهم، وأخبرنا الله عما قال لهم، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٤ ـ **كذب الله أهلَ الكتاب** من اليهود والنصارى في زعمهم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وذكّرهم بأن التوراة والإنجيل أُنزلا من بعده، وخاطبهم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

٥ ـ **كَذب الله اليهودَ** في مزاعمهم في التحليل والتحريم، وذكّرهم بأنه أباح

لهم كل الطعام، إلا الطعام الذي حرّمه يعقوب على نفسه، وكان هذا قبل إنزال التوراة، وطالبهم بإحضار التوراة، واستخراج هذا الحكم منها، وهم لا يقدرون على إحضارها، قال تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

ويلاحظ أن التوراة ذكرت في هذه الآية مرتين، وفيها التحدي لليهود في المدينة بإحضار التوراة، وتقديمها للرسول، وإظهار ما يزعمونه من الأحكام فيها، وهم لم يفعلوا ذلك؛ لأنهم أضاعوها من قرون عديدة، فكيف يأتون بها[1]؟!

ت ـ التَّوراة في سورة المائدة:

وأما سورة المائدة، فقد ذكرت فيها التوراة سبع مرات، وكانت كما يأتي:

١ ـ **أنكر الله على اليهود في المدينة** تحاكمهم إلى رسول الله مع أن التوراة عندهم، فلماذا لا ينفذون أحكامها؟ قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣].

٢ ـ **أخبر الله أنه أنزل التوراة**، وذكر بعض صفاتها وأحكامها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۖ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

٣ ـ **أخبر الله أنه أرسل عيسى عليه السلام** رسولاً إلى بني إسرائيل، وأن الإنجيل الذي أنزله عليه مصدق للتوراة التي قبله، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

٤ ـ **ذمَّ الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى**؛ لأنهم لم يطبِّقوا ما أنزل الله

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، ص٥٥.

إليهم من التوراة والإنجيل، فلو آمنوا واتّقوا وأقاموا التوراة والإنجيل؛ لأغناهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

٥ ـ أمر الله رسوله أن يصارحَ اليهود والنصارى بأنهم لن يكونوا على شيء إلا إذا أقاموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم، وإقامة تلك الكتب الربانية معناها الدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨].

٦ ـ امتنّ الله على عيسى يوم القيامة بنِعَم عديدة، أنعم بها عليه في الدنيا، منها أنه علّمه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

ثانياً: من أوصاف التَّوراة في القرآن:

وصف القرآنُ الكريم التوراةَ بصفات عظيمة، فمدحها، وأثنى عليها، واعترف بفضلها، وهذا أمر طبيعي؛ لأنَّ القرآن من عند الله، والتوراة أيضاً من عند الله، أنزلها على عبده موسى عليه السلام؛ ولذلك أثنى كلام الله اللاحق على كلام الله السابق، وجاء القرآن مصدّقاً للتوراة بهذا الاعتبار، ولننظر فيما يأتي من الآيات:

١ ـ أوصاف التَّوراة في سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

هذه الآيةُ مرتبطةٌ بالآيات السابقة التي تحدّثت عن دَكِّ جبل الطور، وصعق موسى عليه السلام عندما تجلّى الله للجبل، ثم أنزل عليه التوراة في الألواح، وقد تحدّثنا عن تلك الآيات في المباحث السابقة.

وتثني هذه الآية على التوراة التي كتبها الله لموسى عليه السلام، حيث أخبر الله فيها أنه كتب لموسى عليه السلام في الألواح ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ـ وجعلها ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

ـ وطالب قومه أن ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

وشبه الجملة: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محل نصب مفعول به للفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾ على الراجح. والتقدير: كتبنا له في الألواح بعض الأحكام التي يحتاجها بنو إسرائيل في حياتهم.

و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامة في ظاهرها، لكن يراد بها الخصوص. والتقدير: كتبنا له في الألواح من كل شيء يحتاجه بنو إسرائيل من الأحكام والتشريعات.

والخصوص في ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كالخصوص في الحديث عن تدمير الريح التي أرسلها الله على قوم عاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

فلم تدمر تلك الريح كل شيء على الأرض، إنما دمرت كل شيء أُمرت بتدميره مما يتعلَّق بقوم عاد، وفيما يتعلَّق بالمكتوب ألواح التوراة، كان ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلَّق ببني إسرائيل، وحياتهم، وعبادتهم، وأحكامهم، وتشريعاتهم.

ثم وصف الله المكتوب في ألواح التوراة بقوله: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ثلاث صفات للتوراة في الآية، وصف الله أحكام التوراة بصفات ثلاث:

الأولى: أنها: ﴿مَّوْعِظَةً﴾: والوعظ: هو النصح والتذكير والتخويف من العذاب، والتحذير من الذنوب، وفي التوراة نصوص فيها الوعظ والتحذير، لتربية بني إسرائيل، وتزكيتهم، وتهذيبهم.

الثانية: أنها ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أنها مفصِّلة مبينة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض ولا إبهام؛ لأن الله يريد أن يفهمها بني إسرائيل، فلو لم تكن مفصّلة لما أمكنهم معرفتها، وهي تفصيل لكل شيء أراد الله تفصيله وبيانه، فالعموم في قوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يراد به الخصوص كما هو في الجملة السابقة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الثالثة: أنها «حسنة»، فالله أمر موسى عليه السلام أن يأخذ الألواح وما فيها بقُوة، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، والأخذ بمعنى التطبيق والالتزام، والمراد بالقوة هنا قوة العزيمة والهمة والإرادة التي تؤدي إلى التنفيذ والأداء، وطلب منه أن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسنها: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ ومعنى الجملة: واؤْمُرْهمْ أن يأخذوا بها كلّها؛ لأنها هي الأحسن.

وخلاصةُ أوصافِ التوراة في الآية: هي موعظة ومُفصِّلة لكل شيء، وشاملة لحاجات بني إسرائيل، وحسنة فاضلة[١].

٢ ـ أوصاف التَّوراة في سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٤٩].

آتى الله موسى عليه السلام التوراة، فهو رسول نبي، وهارون عليه السلام نبي ووزيرٌ ومساعدٌ له، وعُطف «هارون» على «موسى» في الآية لهذا الاعتبار[٢].

ووصف الله التوراة في الآية بثلاث صفات:

الأولى: أنها الفرقان، وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضَّلال.

الثانية: ﴿وَضِيَآءً﴾؛ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتمُّ به السالكون، وتُعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية.

الثالثة: أنها ﴿وَذِكْرًا﴾: الذكْر: هو التذكير، وهي ذكرٌ للمتقين؛ لأنها تُذكِّرهم بما أوجب الله عليهم من واجبات، ونهاهم عن منهيات، يتذكَّرونها عندما ينظرون في التوراة، فيلتزمون بها، ويطيعون الله من خلالها.

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص٦٢.

وهي ذكر لهم من وجه آخر فيها، ومن خلالها يذكرون الله سبحانه، وأفضل أنواع ذكر الله قراءة كتابه، والتدبر فيه.

وكل كتب الله النازلة على رسله ذكرٌ من الله للرسل وللناس، قال تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، فكلامُ الله النازل على نوح عليه السلام ذكرٌ من الله له، والقرآن الكريم ذكر من الله تعالى، قال الله تعالى عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٧ ـ ٨٨].

واللطيف في التعبير القرآني؛ الذي وصف التوراة بأنها ذكر أنه جاءت الآية التالية تصف القرآن بأنه ذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠] (١).

وكثيراً ما يجمعُ الله تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يطْرُق العالم أفضل منهما ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك ولا أعظم هدًى وبياناً، وهما التوراة والقرآن(٢).

٣ ـ أوصاف التَّوراة في سورة الأنعام:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

تدحض الآيةُ كُفرَ كفَّار قريش الذين أنكروا النبوات والرسالات كلّها، ونفَوا أن يكون الله قد بعث رسولاً له أو كتاباً، وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، وهدفهم من هذا نفي نبوة محمد ﷺ.

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٤.

(٢) تفسير السَّعدي، ص (٦٨٧ ـ ٦٨٨).

وتردّ الآيةُ على كفَّار قريش، فتأمر رسول الله ﷺ أن يسألهم قائلاً: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، ويسألون هذا السؤال؛ لأنهم يعرفون من خلال جيرانهم في المدينة اليهود أن الله بعث موسى عليه السلام رسولاً، وأنزل عليه التوراة.

وإثبات نبوة موسى عليه السلام طريق إلى إثبات نبوة محمد ﷺ؛ لأن من بعث موسى عليه السلام نبياً يبعث محمداً ﷺ نبياً، وإثبات التوراة كتاباً لله يثبت القرآن كتاباً لله؛ لأن مَنْ أنزل التَّوراة ينزل القرآن.

وقد وصفت التَّوراة في الآية بثلاث صفات:

الأولى: أنها «كتاب»، وذلك في جملة: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، وهي كتاب لأن الله كتبها في الألواح، وأنزلها على موسى عليه السلام، وهي كتب الله الأربعة التي يجب الإيمان بها مفصلاً: التَّوراة والزبوروالإنجيل والقرآن، والإنجيل كتاب الله، قال عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠ـ٣١].

والقرآن كتاب، دلَّ على ذلك آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ـ٢].

الثانية: أنها «نور» تنير لبني إسرائيل طريقهم، وتجعلهم يسيرون على بينة وبصيرة، بينما الكافرون في ظلمات الجهل والكفر والظلم يعمهون ويتخبّطون، والقرآن نور للناس جميعاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

الثالثة: أنها هدى الله، فالله جعلها هدى للناس، يهتدون بها إلى الحقِّ، وهي تأخذ بأيديهم وترشدهم وتدلّهم، وتقودهم إلى الخير، وتُحذرهم من الخطر والشَّرِّ، وتبين لهم الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى مرضاة الله.

ـ التَّوراة تامَّة ومفصّلة وهدى ورحمة:

قال تعالى عن التوراة في سورة الأنعام أيضاً: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا

عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

آتى الله رسولَه موسى عليه السلام التوراة، وجعلها ﴿تَمَامًا﴾؛ أي: تامة في أحكامها وتشريعاتها، تُلبِّي حاجات بني إسرائيل، وهي كافية لهم بهذا الاعتبار، والذين يستفيدون منها هم المحسنون الذين يريدون أن يحسِنوا في عبادتهم لله ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾.

وفسّر كلمة ﴿تَمَامًا﴾ بقوله بعدها: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: أن معنى كونها ﴿تَمَامًا﴾ أنها تفصيل لكل شيء يحتاجه بنو إسرائيل في حياتهم، وجعلها الله هدى يهتدي به بنو إسرائيل، كما جعلها رحمة لهم، رحِمهم بها عندما أنزلها عليهم، وبين لهم فيها الأحكام(١).

٤ ـ أوصاف التَّوراة في سورة الجاثية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦ ـ ١٧].

أخبر الله أنه آتى بني إسرائيل الكتاب ـ والمراد به التوراة ـ وآتاهم الحكم المبني على التوراة، وآتاهم النبوة، فاختار منهم موسى عليه السلام رسولاً، وأنزل عليه التوراة، ونتيجة لكل ذلك فقد فضَّلهم على العالمين.

﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: فضلهم الله على «العالمين» الموجودين في ذلك الماضي البعيد، وهم الشعوب المحيطة ببني إسرائيل، وكانوا شعوباً كافرة كالفراعنة في مصر، بينما كان بنو إسرائيل مؤمنين برسالة موسى عليه السلام. ومن سُنَّة الله تعالى أن يفضِّلَ المؤمنين مهما كانت أنسابهم على الكافرين، فإن زالت عنهم هذه الصفة، وتخلَّوا عن الإيمان والطاعة أزال الله عنهم ذلك

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص ٦٦ ـ ٦٧.

التفضيل، وهذا ما حصل منهم فيما بعد، فقد كفروا وطغَوا وبغَوا وبدّلوا نعمة الله كفراً، فأزال الله عنهم تفضيله، وأوقع بهم لعنته وغضبه.

ووصفتِ الآيةُ التوراةَ بأنها بينات: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: إن التوراة واضحة في عباراتها، بينة في أحكامها، مفهومة في نصوصها؛ لأنها كلام الله، ولابد أن يكون كلامه واضحاً بيناً، ليفهمه المكلَّفون، ويعرفوا المطلوب منهم[1].

٥ ـ أوصاف التوراة من سورة الأحقاف:

قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢].

تربط الآيةُ بين كتاب الله «التوراة»، وكتاب الله «القرآن»، وتُشيرُ إلى أن الله أنزل قبل القرآن كتاب موسى.

الهاء في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ تعودُ على القرآن، وكتاب موسى هو التوراة، ووصف كتاب موسى بأنه إمام ورحمة.

وقد تحدثنا عن وصف التوراة بالرحمة فيما سبق، والجديد في الآية وصفها بأنها إمام.

والإمام هو المرجع الذي يرجع إليه الناس، ويحتكمون إليه، ويلتزمون به، ويسيرون خلفه، وقد يكون الإمام شخصاً يؤتَمُّ به كالإمام الحاكم المسؤول القدوة، والإمام الذي يؤمُّ الناسَ في الصلاة، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد يكون إماماً معنوياً، كالكتاب الذي يتحاكمون إليه، ويلتزمون بما فيه، وكل كتاب أنزله الله فهو إمام، يرجع إليه، ويأتمُّ به الناس، فالتوراة إمام، والإنجيل إمام، والقرآن إمام بهذا الاعتبار.

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، المصدر السابق، ص٦٩.

وجمعت الآية بين كون التوراة إماماً وكونها رحمة لبني إسرائيل؛ لأن إمام الهدى والخير رحمة للمؤمنين، يقدِّم الخير لهم، ويقودهم إليه.

ووصفت التوراة بهاتين الصفتين مجتمعتين في سورة هود في عبارة قريبة من عبارة سورة الأحقاف:

ـ قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]؛ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى التوراة، جعله الله إماماً ورحمة[١].

٦ ـ أوصاف التوراة في سورة البقرة:

ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وُصفت التوراة في الآية بأنها كتاب وفرقان، فرَّقت بين الحق والباطل، وقد تكلمنا عن معنى هاتين الصفتين فيما سبق.

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧]، المراد بالكتاب في الآية: التوراة.

ـ وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

البينات: هي الأحكام الواضحة التي أنزلها الله في التوراة[٢].

٧ ـ أوصاف التَّوراة في سورة المائدة:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، المصدر السابق، ص٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٠.

أخبر الله في الآية أنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام، ووصفها بأنها فيها هدى يهتدي به المؤمنون، ويعرفون الحق ويميزونه عن الباطل، ويعبدون الله على بصيرة، ويبتعدون عن الضَّلالة.

كما وصفها بأنها فيها نور، تُنير للمؤمنين حياتهم، وتُبدِّد الظلمات من حولهم، وهذه طبيعة كل كتب الله لأنها من عند الله، فهي هدى يهدي الناس للحق، وهي نور يبدِّد الظلمات.

والصفة الجديدة للتوراة في الآية أنها «كتاب حكم» أنزلها الله ليتحاكم إليها الناس، ويطبقوا ما فيها من أحكام وتشريعات: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

وتدل الآية على أن أنبياء بني إسرائيل كانوا مأمورين بالتزام التوراة وتطبيق أحكامها على بني إسرائيل؛ لأن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام قبلهم، وهذا معناه أن بني إسرائيل كانوا مطالبين بالتَّوراة عدة قرون، وأنها كانت رسالة كل نبي بعثه الله إلى بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما السلام.

ووصف «النبيون» في الآية بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ المراد بالإسلام هنا الإسلام بالمفهوم التاريخي على اعتبار أنه دين لكل نبي بعثه الله، من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، فكلُّ نبي مسلم، وكلُّ نبي جاء بالإسلام، وكلُّ نبي طلب إلى قومه أن يكونوا مسلمين.

والمراد بقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود، أي: يحكم أنبياء بني إسرائيل المسلمون بالتوراة لقومهم اليهود.

كما يحكم بالتوراة للذين هادوا كلٌّ من الربانيين والأحبار الذين استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء، والمراد بكتاب الله هنا: التوراة.

وإذا لم يحكم الربانيون والأحبار بالتوراة فإنهم كافرون بالله، وهذا في تعبير الآية الصريح: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ثالثاً: من أحكام التوراة في القرآن:

جعل الله التوراة نوراً وضياءً وهدى لبني إسرائيل، وهذا يعني أن يبين فيها الأحكام والتشريعات التي أمر بها بني إسرائيل، فالتوراة كانت منهاج حياة لبني إسرائيل، ومعلوم أنَّ كل دين هو منهاج حياة، وكل كتاب أنزله الله على رسول هو منهاج حياة، بين فيه ما يحتاجه الناس لئلا يكون للناس حجَّة بعد الرسل(١).

١ ـ من أحكام التَّوراة المذكورة في سورة البقرة:

ذكر القرآن بعض أحكام التوراة التي أوجبها الله على بني إسرائيل، ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٥].

وتذكر الآية مجموعة من الأحكام التي أنزلها الله في التَّوراة، وهي:

ـ عبادة الله وحده: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.

ـ الإحسان إلى الوالدين: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

ـ الإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين: ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾.

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص: ٧٠ ـ ٧٢.

ـ التعامل مع الناس بالحسنى، والنطق بالقول الحسن، والكلام الطيب، واللفظ الجميل: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

ـ إقامة الصلاة، فالصلاة كانت واجبة عليهم، لكن لا نعرف تفاصيلها، وكيفياتها، وأوقاتها، وأركانها؛ لأن الله لم يخبرنا عن ذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ـ إيتاء الزكاة للفقراء والمساكين.

ـ المحافظة على الدماء، وعدم الإقدام على الانتحار، وقتل النفس، وسفك الدم، وعدم قتل الإخوة في الدين الإسرائيلي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾.

ـ عدم الاعتداء على الآخرين، أو قتالهم، أو إخراجهم من ديارهم، أو مساعدة أعدائهم في قتالهم لهم: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

والراجح أن المراد بكلمة ﴿أَنفُسَكُم﴾ إخوانكم في الدين، وإطلاق كلمة ﴿أَنفُسَكُم﴾ على الإخوان يشير إلى قوة الأخوة التي لابدّ أن تكون بينهم، فكأن الإخوان صاروا «جزءاً» من الأنفس.

ـ مساعدة الإخوان الذين اعتدى عليهم الأعداء، وإن وقع بعضهم في أسر الأعداء دفعوا لهم الفدية، وأطلقوا سراحهم: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾.

ـ تناقض اليهود في موقفهم من تلك الأحكام:

وقد ذمّت الآيات اليهود لأنهم لم يلتزموا بتلك الأحكام:

ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾:

ومن إعراضهم عن أحكام التوراة وقوعهم في تناقض وازدواجية استحقُّوا عليها اللوم والتأنيب، فالله نهاهم عن سفك دماء إخوانهم أو إخراجهم من ديارهم، ولكنهم وقعوا في تناقض عجيب، فقد خالفوا نهي الله عن قتل إخوانهم وإخراجهم من ديارهم، وقاموا بقتلهم وبإخراجهم من ديارهم، وظاهروا

وعاونوا وساعدوا الأعداء على إخوانهم، وقاتلوا إخوانهم، وكانوا في صفّ واحد مع الأعداء ضدهم، قال الله في تأنيبهم على هذه المخالفة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

وفي موضوع افتداء الأسرى من إخوانهم، التزموا بالحكم الشرعي، وفادوهم، مع أنهم السبب في وقوعهم في أسر أعدائهم؛ لأنهم قاتلوهم مع أعدائهم؛ لذلك ذمّهم الله في قوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، وهذا التناقض المرذول إيمان ببعض أحكام التوراة وكفر ببعضها الآخر(١).

٢ ـ من أحكام التَّوراة في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣ ـ ٩٤].

الطعام الوحيد الذي كان محرّماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة هو الذي حرّمه إسرائيل عليه السلام على نفسه، وقد وضّح رسول الله ﷺ هذا الطعام في حوار طويل جرى بينه وبين اليهود في المدينة؛ ليقيم عليهم الحجَّة.

ونأخذ من الحديث الطويل الجزء المُتعلِّق بهذه المسألة، فقد روى الترمذي وأحمد، عن ابن عباس رضي الله عنه: أن اليهود قالوا: يا أبا القاسم، حدّثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، أخبِرنا أي الطعام حرّم إسرائيل من قبل أن تُنزَّل التوراة؟ قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرِض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً، لئن شفاه الله من سقمه، ليحرّمن من أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لُحْمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه ألبانها.

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، المصدر السابق، ص٨٣.

قالوا: نعم.

قال: اللهمَّ اشهد عليهم[١].

أخبرهم رسول الله ﷺ أنّ أحبّ الطعام إلى يعقوب عليه السلام كان لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه كان ألبان الإبل، فلحوم الإبل وألبانها من الطيبات التي كان يحبها إبراهيم وبعده يعقوب عليهما السلام[٢].

ولمّا شفى الله يعقوب عليه السلام من مرضه وفّى بنذره، وامتنع عن لحوم وألبان الإبل، والتزم أبناؤه وأحفاده من بعده، وامتنعوا عن لحوم الإبل، واستمرَّ هذا فيمن بعدهم من أجيال بني إسرائيل، وبذلك حرَّم الله عليهم لحوم الإبل وألبانَها.

ثمّ حرم الله عليهم في التوراة بعض المباحات والطيبات التي كانت مباحة لهم قبل إنزالها، وأُضيفت تلك المحرّمات إلى لحوم الإبل وألبانها[٣].

٣ـ من أحكام التوراة في سورة النساء:

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

تُشير هذه الآية إلى حُكمين من أحكام التوراة أمرهم الله بهما، ولكنهم خالفوهما:

أ ـ دخولهم باب المدينة التي يفتحونها ساجدين لله، شاكرين، وقد فُصِّلت تلك القصة في سورة البقرة والأعراف.

ب ـ نهيهم عن الاعتداء على حرمة يوم السبت، وأمرهم بالمحافظة عليها، بأن يسبتوا، ويتوقَّفوا عن العمل، وقد خالفوا هذا الحكم أيضاً، واعتدوا على

---

(١) سنن الترمذي، رقم ٣١١٧، مسند أحمد، (١/ ٢٧٤).
(٢) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص٨٥.
(٣) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، ص٨٧.

حرمة السبت، فمسخهم الله قردة خاسئين أذلاّء[١] ـ كما مرَّ بنا ـ وقال تعالى عمّا حرّمه عليهم، ونهاهم عنه: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

تذكر الآية أن الله نهاهم عن أكل الربا، وحرَّمه عليهم، لكنهم خالفوا هذا وأكلوا الربا، كما تذكر أن الله نهاهم عن أكل أموال الناس بالباطل، وهذا يشمل تحريم أخذ أموال الآخرين، بأي صورة غير مشروعة، كالسرقة والرشوة والغش والغصب، لكنهم لم يلتزموا بذلك، وأكلوا الأموال بالباطل[٢].

٤ ـ من أحكام التوراة في سورة المائدة:

أ ـ قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

لقد أخبرهم الله عزَّ وجَلَّ أنه معهم بنصره وحفظه وتأييده، لكن هذه المعية ليست مطلقة، وإنما هي مشروطة، فهو سبحانه معهم بشرط أن يكونوا هم معه، وذلك بأن ينفِّذوا الواجبات والأحكام المطلوبة منهم، والواجبات التي ذكرتها الآية، وهي:

إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل جميعاً، ونصرة الرسل وتأييدهم، والنفقة في سبيل الله على الفقراء والمساكين؛ فإن نفّذوا هذه الأوامر، وأدّوا هذه الواجبات كان الله معهم بحفظه وتأييده، وسيمُنّ عليهم بأن يكفّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، لكن هل أدّوا تلك الواجبات، ووفوا بميثاقهم؟

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، المصدر السابق، ص٨٧.

(٢) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، المصدر نفسه، ص٨٧.

كلا، لقد قصَّروا فيها، ونقضوا ميثاقهم، فرفع الله معيته وبركته عنهم، وأوقع بهم لعنته، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

ب ـ تحريم القتل على بني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ٣٢].

وهذه الآية في التعقيب على قصة بني آدم في السورة، تلك القصة التي شهدت أول جريمة قتل في التاريخ، إذ قتل ابن لآدم أخاه.

وقد انتقلت الآية نقلة واسعة من بني آدم إلى بني إسرائيل؛ لتذكر لنا بعض أحكام التوراة النازلة إليهم.

وبدأت الآية بجملة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والإشارة إلى جريمة ابن آدم القاتل، والمعنى: من أجل منع القتل عدواناً، وعدم قتل أي إنسان ظلماً، حرّمنا القتل على بني إسرائيل.

ولماذا الحديث عن بني إسرائيل بالذات؟ وما هي الصِّلة بين بني إسرائيل وقصة آدم[١]؟

ويبدو أن الصلة بين الأمرين هي سيطرة شهوة القتل على بني إسرائيل كسيطرتها على ابن آدم الظالم؛ لأنّ عندهم رغبة في السيطرة على الآخرين وإذلالهم وقتلهم دون شفقة أو رحمة؛ ولذلك حرَّم على بني إسرائيل القتل دون حق، وبين لهم أنه من قتل نفساً ظلماً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحيا النفس بعدم قتلها فكأنما أحيا الناس جميعاً[٢].

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، ص٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٩.

ت ـ تشريع القصاص لبني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤ ـ ٤٥] .

أنزل الله التوراة لبني إسرائيل ، كتاب حكم ، وأمر النبيين والربانيين والأحبار أن يحكموا بما فيها ، وذكر في هاتين الآيتين بعض الأحكام والتوجيهات لهم في التوراة :

ـ وجوب الاحتكام إلى التوراة وقبول أحكامها ، وتنفيذها ، ومن لم يحكم بما أنزل الله في التوراة ، فأولئك هم الكافرون الظالمون .

ـ خشية الله وحده وعدم خشية الناس ؛ ولذلك يكون الالتزام بحكم الله والخوف من الله إن حصل فيه ترك أو تقصير ، وعدم الالتفاف إلى اعتراض الناس على حكم الله وعدم خشيتهم .

ـ عدم المتاجرة بآيات الله ، وعدم اشتراء الثمن القليل بها ، إرضاءً لأصحاب الأهواء الذين لا تُعجبهم أحكام الله ، ويبحثون عمّن يفتي لهم بالترخيص فيها .

ـ القصاص في القتل ، فمن قتل نفساً ظلماً دون حق يقتل بها : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ .

ـ القصاص في الجروح : فمن فقأ عيناً دفع دِيتها ، ومن قلع أنفاً دفع دِيتها ، ومن قطع أذناً دفع دِيتها ، ومن كسر سنّاً دفع دِيتَه ، وهكذا باقي الجروح والإصابات : ﴿ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ .

ـ جواز العفو عن المعتدي والتنازل عن الدية والتصدّق على المعتدي بذلك؛ لأنه حق للمعتدى عليه، سامح به وتنازل عنه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

وتشريع القصاص في القتل والجروح لبني إسرائيل كتشريع القصاص فيهما لنا نحن المسلمين، فهذا مما صدّق فيه القرآنُ التوراةَ[١].

٥ ـ من أحكام التوراة في سورة الأنعام:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٦ ـ ١٤٧].

الآيتان في سياق تكذيب المشركين في مزاعمهم أن الله حرّم عليهم أشياء، وأنهم ملتزمون بحكمه، وتقرير أن الله لم يحرم عليهم ما زعموه، وإنما هم الذين حرّموه بأهوائهم.

وتعرض الآية (١٤٦) بعض ما حرّمه الله على اليهود في التوراة، والمراد بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: اليهود، فهم الذين يزعمون أنهم هادوا ورجعوا إلى الله.

حرّم الله على اليهود شيئين يتعلّقان بالحيوانات المأكولة ولحومها:

أ ـ كل ذي ظفر من البهائم والطيور، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع، فالبقر والغنم مشقوقة الأصابع؛ لذلك هي مباحة لهم، لكن الإبل ليست مشقوقة الأصابع فهي محرّمة عليهم: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾، ومن البهائم والطيور المحرّمة عليهم ـ لأنها من ذوات الأظفار ـ الإبل والنعّام والبط والإوز[٢].

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، ص٩١.

(٢) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، المصدر نفسه، ص٩٢.

ب ـ شحوم البقر والغنم : ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ :

ـ وأباح الله الشحم الذي حمَلَته ظهور البقر والغنم وعلِق بها .

ـ الشحم الذي على الحوايا ، والحوايا : هي المباعر والأمعاء التي حواها البطن وضمّها .

ـ الشحم الذي على العظم ، كعظم العمود الفقري والعُصعص ، وعظم الرأس والقوائم والجَنب ، وغير ذلك .

فهذه المواضع الثلاثة في جسم الذبيحة يكون عليها قليل من الشحم ، ويصعب فصله عنها ؛ ولذلك أباحه الله لهم ، أما الشّحم الكثير السميك كشحم الإلية ، فهذا محرّم عليهم ، لكن هل التزم اليهود بهذا الحكم ، وامتنعوا عن الشّحم؟

أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم تحايلوا على أمر الله وفق طبيعتهم اليهودية المتحايلة ، فهم لم يأكلوا الشّحم وإنما ذوبوه وباعوه وأكلوا ثمنه ، وبذلك وقعوا في الحرام فاستحقوا اللعنة من الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال : «لعن الله اليهود ، حُرِّمت عليهم الشُّحوم ، فجَمَّلوها ، فباعوها» (١) .

ومعنى «جمّلوها» : ذوبوها .

وعن جابر عن عبد الله رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال : «قاتَلَ الله اليهود ، إنّ الله لما حرَّمَ عليهم شحومهما ، أجملوه ، ثم باعوه فأكلوا ثمنه» (٢) .

رابعاً: تحريف أحبار اليهود التوراة:

حكم موسى عليه السلام قومه بالتوراة ، وأمر أحبارهم بحفظ التوراة والمحافظة عليها ، لكنهم لم ينفِّذوا هذا الأمر ولم يحفظوها ، بل ضيعوها بعد وفاة موسى عليه السلام .

---

(١) رواه البخاري ، رقم ٢٢٢٣ .

(٢) رواه مسلم ، رقم ١٥٨١ .

لقد أضاع أولئك الأحبار التوراة الربانية التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وقد أمرهم بحفظها، ونفهم هذا الأمر من كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَاتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾، والكلام فيه عن الربّانيين والأحبار، وهم «رجال الدين» اليهودي، و﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ فعل ماضٍ سداسي مبني للمجهول، والواو فيه في محل رفع نائب فاعل، يعود على الربانيين الأحبار.

الله هو الذي «استحفظهم» على كتاب التوراة؛ أي: طلب إليهم أن يحفظوا التَّوراة، من الفعل الثلاثي «حفظ»، والهمزة والسِّين والتَّاء زوائدُ تدلُّ على الطَّلب.

استحفظ الله الربانيين والأحبار التَّوراةَ، فهل نفَّذوا أمرَ الله، وحفظوها؟ لم يفعلوا ذلك، وإنما حرَّفوها، وغيروها، وبدَّلوها، وزادوا فيها، وأنقصوا منها، واشتروا بها ثمناً قليلاً، وهذه حقيقة قرآنية أخبرت عنها عدة آيات، شهد لها التاريخ؛ الذي سجّل تحريف التوراة وضياعها، وأكّد الباحثون أن أسفارَ «العهد القديم» الموجودة بين أيدي اليهود الآن ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام[1].

وقد أفرد الدكتور الخالدي دراسةً قيمةً في هذه المواضيع:

- حديث القرآن عن التوراة.
- جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم.
- سِفر التكوين في ميزان القرآن الحكيم، ومن أراد التوسع فليرجع إليها.

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص٩٦.

وكذلك الدكتور عبد الرّزاق عبد المجيد في كتابه «مصادر النصرانية: دراسة ونقد»، فقد أفاد وأجاد فيما يتعلَّق بالتعريف بالعهد القديم، وبيان أقسامه وأسفاره عند البروتستانت.

والتوراة وأسفار موسى الخمسة: «التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية».

كذلك تقسيمها عند الكاثوليك وعند الأرثوذكس، وعن طبيعة ارتباط النَّصارى بالعهد القديم.

وقام الدكتور عبد الرزاق بدراسة نقدية في تاريخ العهد القديم ونسبتها إلى كُتَّابها، ووضع الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام في ميزان الدراسة النقدية العلمية، وذكر في كتابه شهادات غير المسلمين من اليهود والنصارى، الذين بينوا بأنَّ موسى عليه السلام ليس مؤلِّفَ الأسفار الخمسة المنسوبة إليه، وبعد بحث معمَّق طويل، قال الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد: وعلى ضوء ما تقدم من اعترافات يهودية ونصرانية نستنتج ما يلي:

ـ أنَّ الأسفار الخمسة المنسوبة إلى نبي الله موسى، لم يكتبها هو، ولا أمر بكتابتها، ولم تُكتب في حياته، وإنما كُتبت بعده بزمن طويل جدّاً، يترجَّح أن يكون ذلك بعد عودة اليهود من السَّبي البابلي(١).

ـ أنَّ الرَّأي الغالب، سواء في الأوساط اليهودية أو النصرانية: أنَّ (عِزْرا) الكاتب هو الذي أعاد لهم كتابة الأسفار المقدسة بعد الأسر البابلي، وهناك رأي أقلُّ شهرةً، وهو أن غاية ما عمله (عِزْرا) هو جمع الروايات الموجودة عند كُتَّاب متعدّدين ونسخها دون فحص أو ترتيب، وأنه حتى مجرد هذا «الجمع والنسخ» لم يكمله، أما لماذا لم يكمله وإلى أين وصل فيه، ومن الذي نهض بالعمل

(١) مصادر النصرانية: دراسة ونقداً، عبد الرزاق عبد المجيد الآزو، الرياض، دار التوحيد للنشر، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، (١/ ١٧٠).

بعده، وهل هو في مستواه نفسِه؟ كل هذه أسئِلة ما تزال الإجابة عنها محاطة بالغموض والحيرة[١].

ويتضح أن هناك محلَّ اتفاق بين جميع الطوائف المعنية، وهو أن نسبة هذه الأسفار الخمسة كلها إلى موسى ليست صحيحة، ولا تساندها الأدلة التاريخية والعلمية، وإنما الخلاف في تعيين الجزء الثالث بنسبته إليه، أهو كل هذه الأسفار أم بعضها؟

ولا شكّ في أن أسهل وأحسن الطرق لإيجاد جواب مقنع وعلمي عن هذا السؤال هو المقارنة بين ما جاء في كتاب الله العظيم «القرآن الكريم» والسنة الشريفة، وما جاء فيما يسمَّى اليوم بالبنتاتوك أو الأسفار الموسوية الخمسة، فما أَقَرَّه القرآنُ والسُّنَّةُ هو الحق، وما دَلاَّ على بطلانه فهو الباطل[٢].

وقد تحدّث الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد عن مصادر العهد القديم، وعمل لها مبحثاً سمّاه «مصادر العهد القديم عرضاً ونقداً».

إن القرآن الكريم فرّق بين التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، وهي التوراة الربانية، وهذه التوراة أثنى عليها القرآن، ووصفها بصفات فاضلة طيبة، فهي نور وضياء وهدى وفرقان وذكر ورحمة، وإمام وبركة، وتبيان لكل شيء، وهي دستور حياة لبني إسرائيل، شرعت لهم الأحكام، ووضحت لهم الحلال والحرام، وحَكَمَهم بها أنبياؤهم وصالحوهم.

هذه التوراة الربانية الهادية أمرنا الله أن نؤمن بها؛ لأنَّ ذلك من الإيمان بالكتب التي أنزلها الله، وهذا ركن من أركان الإيمان، ومن كفر بالتوراة فإنه كافر مُخلَّد في النار، ولو آمن بالإسلام والقرآن ونبوة محمد ﷺ.

---

(١) مصادر النصرانية: دراسة ونقداً، عبد الرزاق عبد المجيد الآزو، المصدر السابق، (١/ ١٧١).

(٢) مصادر النصرانية: دراسة ونقداً، عبد الرزاق عبد المجيد الآزو، المصدر نفسه، (١/ ١٧٢).

لذلك تقرَّر هنا : أن نؤمن بأن التوراة كتاب الله الذي أنزله على موسى عليه السلام، وأنها طيبة عظيمة مباركة، صادقة، وأحكامها وتشريعاتها صحيحة، عبد بها بنو إسرائيل ربَّهم.

لكننا نؤمن أنَّ الأجيال اللاحقة من اليهود «ضيعوا» تلك التوراة الربانية المباركة، وخلطوها بكلام الجبَّار جلَّ وعلا، وبذلك أتلفوها، وطمسوا أنوارها، وغيروا أحكامها، ولم يحافظوا عليها كما أمرهم الله، ونؤمن أنَّ الله «نسخ» تلك التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام، وحَرَّفها وضيعها أحبارُ اليهود؛ نَسَخَها بالقرآن الذي جعله الله الرسالة الخاتمة، وحفظه من التَّغيير والتَّحريف حتى قيام الساعة.

وهذا معناه أنه لا يجوز العملُ بالتوراة بعد إنزال القرآن، فإيماننا بها إيمان «تاريخي»، ليس له بُعدٌ واقعي[١].

١ ـ القرآنُ الكريمُ مُكذب للتَّوراة اليهودية المُحَرَّفة :

التوراة اليهودية المحرفة هي التوراةُ التي ألّفها وصاغها أحبارُ اليهود وحاخاماتهم على مدار تاريخهم اليهودي الطويل.

لقد أضاع أولئك الأحبار التوراة الربانية التي أنزلها الله على موسى عليه السلام؛ لأنهم كانوا يتناقلونها مشافهة من حَبر إلى حَبر، ولم يكن هناك نصٌّ مكتوب يرجعون إليه، ويحفظون منه، وفي النقل الشفهي بلا اعتمادٍ على أوراقٍ مكتوبةٍ معتمدةٍ أخطاءٌ كثيرةٌ، وإضاعةٌ لكثيرٍ من الكلام المنقول؛ لأنَّ الذاكرة البشرية لا تُحسن حفظ كلامٍ كثيرٍ بحروفه وألفاظه، وهنا تكمن أهميةُ وجود نصٍّ معتمدٍ مكتوبٍ يكون الحفظُ منه.

وبهذا تميز القرآن في ثبوته وتوثيقه وحفظه، فقد كان رسول الله ﷺ يحفظ الآيات التي ينزل بها عليه جبريل عليه السلام، وبعد أن يصعد جبريل إلى السماء كان رسول الله ﷺ يسارع إلى دعوة مجموعة من الصحابة من الحفَّاظ، فيتلو عليهم

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص١٥٤.

ما نزل عليه من الآيات، فيحفظونها حفظاً متقناً، ثمَّ يكتبونها على الأوراق ووسائل الحفظ والكتابة.

وهكذا في اليوم الأول لنزول الآيات تكون محفوظة حفظاً متقَناً من رسول الله ﷺ ومجموعة من الصحابة، وتكون مكتوبة مدونة، فاجتمع بذلك لها الوسيلتان المضمونتان لحفظ وتوثيق النصوص الهامة، وهما الحفظ والكتابة[١].

٢ ـ التوراة اليهودية المحرّفة من تأليف الأحبار:

وهذا الحفظ لم يتحقَّق للتوراة، فألواحُ التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام أضاعها الأحبار بعد وفاة موسى عليه السلام، وصاروا يحفظون كلمات وعبارات وفقرات، ومع مرور الزمن كانوا ينسون كثيراً من تلك الفقرات، فيضيفون إليها كلاماً من عندهم وصياغتهم، ويزعمون أن هذا الكلام من عند الله، ولم يكتبوا شيئاً من التوراة إلا بعد قرون من وفاة موسى عليه السلام، ولمّا دَونوها على الأوراق كان معظم الكلام المدون هو كلامهم، وليس كلام الله الذي أضاعوه.

وبهذا كانت التوراة اليهودية من تأليف وصياغة الأحبار، حيث مزجوا كلام الله القليل الذي بقي في ذاكرتهم المثقوبة مع كلامهم الكثير الذي أضافوه، وزعموا أن المزيج كله كلام الله، مع أن كلام الله فيه قليل جدّاً، لا يكاد يذكَر، وهذا الخليط هو الذي ظهر به الأحبار على الناس، وسمّوه «العهد القديم»، بأسفاره الكثيرة التي هي بشرية الفكرة والتعبير، وفيها من الأخطاء والأكاذيب والأباطيل الشيء الكثير، والصواب والصَّحيح فيها قليل جدّاً لا يكاد يذكر[٢].

٣ ـ القرآنُ لا يعترف بالتَّوراة اليهودية المُحَرَّفة:

هذه التوراة اليهودية «العهد القديم» يكذبها القرآن في كثير مما فيها، ويبين الأكاذيب والأخطاء التي وقع فيها الأحبار، وهم يكتبونها.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٠.

لم يعترف القرآنُ أن هذه التوراةَ اليهودية كلامُ الله ؛ لأن التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام أضاعها اليهود، وحرَّفوها، وغيروها، وبدَّلوها .

وجاء هذا في آيات صريحة عديدة تحدّثنا عنها في المباحث السابقة، ونكتفي هنا بإيراد بعضها لنتذكرها :

أ ـ قال تعالى : ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] .

ب ـ وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٩] .

ت ـ وقال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٤٦] .

ث ـ وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] .

ج ـ قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٤١] .

ح ـ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧ـ٧٨].

خ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

د ـ وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وبما أن هذه التوراة اليهودية من «تأليف» الأحبار الكافرين المحرّفين للتوراة الربّانية الصَّحيحة، فإن القرآن لا يعترف بها، ولا يقِرُّها، إنما ينكرها ويرفضها، ولا يعتبرها كلام الله، وهذا هو مفهوم الآيات السابقة التي أدانت الأحبار إدانةً صريحة.

وإقرارُنا أنَّ التوراة اليهودية المسمّاة: «العهد القديم» من صياغة الأحبار وتأليفِهم، على مدار التاريخ اليهودي الطويل، لا يمنع وجود «بقايا» قليلة من التوراة الرَّبَّانية، متفرِّقة في أسفارها، لكنها لا تخرج عن كونها كلمات أو عبارات متناثرة هنا وهناك، وهي قليلة جدّاً لا تكاد تُذكر، وسط ذلك الركام الكبير من تحريفاتِ الأحبار.

ويستحيل «فرز» ذلك القليل من التوراة الربانية من بين أساطير التوراة اليهودية، ثمَّ إنَّ الله نسخ الكلام وما فيه من تشريعات وأحكام والخير الذي فيه، وأثبته الله في القرآن[1].

٤ ـ القرآنُ يفَصِّلُ القولَ فيما يختلف فيه اليهود:

القرآن الذي يكذب التوراةَ اليهوديةَ المحرَّفة يفصِّل القول في المسائل العديدة التي كان اليهود يختلفون فيها:

(١) المصدر نفسه، ص١٤٢.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٦ـ٧٨].

تُقرِّر الآية أن اليهود اختلفوا كثيراً في مسائل كثيرة، وكانوا فِرقاً متقاتلة متنازعة يحارب ويكفِّر بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وللقرآن القول الفصل فيما كانوا يختلفون فيه؛ لأنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

والقرآن كلُّه حق وصواب؛ لأنه كلام الله المحفوظ، والله مطّلع على كل شيء، أحاط بكل شيء علماً سبحانه وتعالى؛ فهو يعلم المسائل التي اختلف فيها اليهود، وأسباب اختلافهم ومظاهره وآثاره ونتائجه، وذكر في القرآن القول الفصل في المسائل التي كانوا يختلفون فيها؛ ولذلك كان اليهود في عصر رسول الله ﷺ يدهشون ويتعجَّبون عندما يسمعون آيات القرآن تتحدَّث عن أشياء دقيقة خفية مجهولة في التاريخ اليهودي، لا يعلمها كثير من اليهود، فكيف يعرف تفاصيلها رجلٌ أمي مثلُ محمد ﷺ؟! لم يقرأ، ولم يطَّلع على كتب الأخبار؟

إن هذا يدلُّ على أن القرآن كلام الله؛ ولذلك كان القرآن مهيمناً على كل الكتب الربّانية السابقة التوراة والزبور والإنجيل؛ أي: هو الحاكم عليها، ويجب أن تعاد هي إليه، وأن تُفهم على أساسه، وإذا اختلفت تلك الكتب الربانية ـ المحرّفة ـ مع القرآن، فالقول قوله، والحكم حكمه، وكل ما قاله فهو حق وصواب، وكل ما خالفه فهو كذب وباطل، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن الأمثلة على ذلك: ذكرتْ أسفارُ العهد القديم أن اسم والد إبراهيم عليه

السلام هو «تارح»، على حين ذكر القرآن أن اسمه هو «آزر»، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

والصَّحيح هو ما ذكره القرآن، فاسم والد إبراهيم عليه السلام هو آزر؛ لأنه هو المذكور في القرآن، ولا يلتفت إلى ما ورد في التوراة اليهودية المخالف لما ورد في القرآن(١).

٥ ـ نماذج من تكذيب القرآن للتوراة اليهودية المحرفة:

وبما أن التوراة اليهودية المحرّفة كتبها الأحبار، وبما أن القرآن هو المهيمن عليها، فإنه يكذبها فيما قالته من أكاذيب وأباطيل، وقد جاء تكذيبه لها في نماذج وأمثلة عديدة من أشهرها ما يلي:

أ ـ تكذيب الأخبار في نسبة التعب إلى الله:

ورد في الفصل الثاني من سفر التكوين نسبة التعب إلى الله في التوراة المحرفة حيث قالوا: «وهكذا أُكملت السموات والأرض وجميع أقواتها، وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله، واستراح في اليوم السابع من كل عمله الذي عمله، وبارك الله اليوم السابع، وقدَّسه لأنه فيه استراح من كل عمله» (٢).

ولقد كذب القرآنُ هذا القولَ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

أي: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وكان قادراً على خلقها في لحظة واحدة؛ لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وهو سبحانه لم يتعب في خلق السموات والأرض ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾،

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٤.

واللغوب : هو التعب والإعياء الذي يضطر صاحبه معه إلى أن يستريح ، وهذا تكذيب صريح لمؤلّفي التوراة اليهودية المحرّفة[١] .

ب ـ تكذيبهم في زعمهم بحث الله عن آدم :

زعم الأحبارُ مُؤَلِّفو التوراة أنَّ آدم وحواء لما أكلا من الشجرة صارا عريانَينِ ، فسمِعا وقعَ خطا الرَّبِّ ، وهو يتمشَّى في الجنة ، فاستحييا منه ، واختَبَأا خلف أشجارها ، فصار الرَّبُّ يبحث عن آدم ، وهو لا يراه ، ولا يدري أنَّه أكلَ من الشَّجرة .

قال الأحبار في سفر التكوين : سمعا وقع خُطا الرَّبِّ الإله ، وهو يتمشَّى في الجنة عند نسيم النهار ، فاختبأ الإنسان وامرأته من وجه الرَّبِّ الإله فيما بين أشجار الجنة ، فنادى الرَّبُّ الإله الإنسانَ ، وقال له : أين أنت؟

قال : إني سمعت وقع خُطاك في الجنة ، فخفت ؛ لأني عريان ، فاختبأت .

قال : فمن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أمرتُكَ ألا تأكل منها؟

فقال الإنسان : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت[٢] .

وفي هذا النص مجموعة من الكفريات التي فيها نسبة ما لا يجوز إلى الله ، منها :

ـ تجسيم الرب الإله وتصويره في صورة البشر ، «فها هو يخرج : يتمشَّى في الجنة عند نسيم النهار» ؛ أي : يخرج ليسير في بساتين الجنة ، ويستمتع بنسيم النهار ، وكأنه يريد أن «يغير الجو» ، ويقوم برحلة ممتعة كما يفعل البشر .

ـ ومن تجسيم الإله الرَّبِّ أن تكون له قدمان تسيران ، وتتحركان ، ويخرج من سيرهما صوتٌ مسموع ، يسمعه الآخرون ، كما يسير أي إنسان ، ويسمَعُ وقع خطاه .

ـ ومنها : وصف الإله الرب بالجهل وعدم العلم ، وأنه تخفى عليه الأشياء ، فعندما اختبأ آدم وزوجه بين أشجار الجنة وقف الإله الرب يبحث عن آدم ، ولمّا لم يشاهده ناداه قائلاً : أين أنت يا آدم؟

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٤ .

وهل هذا إله يخفى عليه آدم ومكانه، فيضطر إلى أن يناديه ليعرف مكانه؟!

ـ ومنها: وصف الإله الرب بالجهل وعدم العلم بما حصل، فهو لا يعلم أن آدم أكل من الشجرة، وهو لا يعلم أنه عريان؛ ولذلك سأل آدم: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أمرتك ألا تأكل منها؟ وهذا التخفِّي والحوار بين الإله الرب وبين آدم كأنه «لعبة» هزلية يلعبها الأولاد الصغار.

وقد كذب القرآنُ هذا الكلامَ في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وفرق بين قول: نادى الرب الإنسان: أين أنت، وهل أكلت من الشجرة؟ وبين قول القرآن: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ (١).

وفي قصة آدم عليه السلام ذكر اسم الله العلم بوضوح في القرآن الكريم لما قالت الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

فعندما نتدبر اسم الله العليم، نعلم أن العلم كله بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فهو يعلم الأمور المتأخرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليلَ الأمور وحقيرَها، وصغيرَها وكبيرَها، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، وغيبَها وشهادتَها، ما يعلم الخلق منه، وما لا يعلمون، ويعلم ـ تعالى ـ الواجباتِ والمستحيلاتِ والجائزاتِ، ويعلم ـ تعالى ـ ما تحت الأرض السفلى، ويعلم ما فوق السموات العُلا، ويعلم جزئيات الأمور وخفايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمُه بجميع الأشياء في كلِّ الأوقات، ولا يعرض لعلمه ـ تعالى ـ خَفاءٌ ولا نسيان.

ـ كقوله في غير موضع: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص١٤٦.

ـ وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١١٩] [(١)] .

ت ـ تكذيبهم في زعمهم صنع هارون العجل :

ورد في سفر الخروج قولُ الأحبار : ورأى الشعب أنَّ موسى قد تأخَّر في النزول من الجبل، فاجتمع الشعب على هارون، وقالوا له : قمْ، فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا، فإنَّ موسى ذلك الرجلَ الذي أصعدَنا من أرض مصرَ، لا نعلم ماذا أصابه .

فقال لهم هارون : انزعوا حلقات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم، وائتوني بها، فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في آذانهم، وأَتَوا بها هارون، فأخذها وصبَّها في قالب، وصنَعها عِجلاً مسبوكاً، فقالوا : هذه آلهتك ـ يا إسرائيل ـ التي أصعدَتك من أرض مصر، فلما رأى هارون ذلك بنى مذبحاً أمام العجل، ونادى قائلاً : غداً عيد للرَّبِّ، فبكِّروا في الغد، واصعدوا محرقاً، وقرِّبوا ذبائح سلامة، وجلس الشعب يأكل ويشرب، ثمَّ قام يلعب[(٢)] .

ينسب الأحبار الكفَّار في هذا النص إلى هارون النبي عليه السلام الكفر، فهو الذي أخذ الحُلِي من بني إسرائيل، وهو الذي صنع لهم العجل، وهو الذي قال لهم : هذا العجل إلهكم، وهو الذي دعاهم إلى عبادته .

وقد كذبهم الله في القرآن، حيث ذكر أنَّ الذي صنع العجل هو المجرم الكافر السَّامري، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه : ٨٥] .

ـ وقال تعالى : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ [طه : ٨٧ ـ ٨٨]، ودعاهم هارون عليه السلام إلى ترك عبادة العجل، وإلى عبادة الله وحده .

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، المرجع السابق، ص٣٣٥. وانظر : قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام، علي محمد الصلابي، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠٢١م، ص٣٤٩.

(٢) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص١٤٧ .

ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١].

ث ـ تكذيبهم في زعمهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاؤه:

أوهم الأحبار المفترون الكاذبون على الله عامّة اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله اصطفاهم، وكان معهم، وأنه لا يتخلَّى عنهم، وأنهم هم المهتدون، وأن الجنة لهم وحدهم، وقد كذبهم القرآن في هذه المزاعم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

ج ـ تكذيبهم في زعمهم أنهم أولياء الله:

زعم اليهود أنهم أولياء لله من دون الناس، وأن الجنة لهم وحدهم؛ لأنهم وحدهم هم المؤمنون، وغيرهم الكافرون، وقد كذبهم القرآن في هذا الزعم، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٨].

وقد أكَّدَ هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٦].

ح ـ تكذيبهم في نسبة إبراهيم إلى اليهودية:

من مزاعمهم وأكاذيبهم زعمُهم أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان يهودياً، وقد

نافسهم النصارى في هذه الأكذوبة، إذ زعموا أنه كان نصرانياً، وقد كذبهم القرآن في هذا، فبين أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً، وإنما كان حنيفاً مسلماً[١].

ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨].

أبطلت الآيات احتجاج اليهود والنصارى في إبراهيم، وفنَّدت مزاعمهم أنه على دينهم، فالتوراة والإنجيل أُنزلا من بعده، واليهود والنصارى كانوا من بعده، فكيف يزعم اليهود أنه كان يهودياً؟

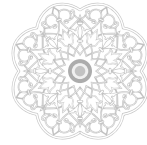
وكيف يزعم النصارى أنه كان نصرانياً، وقد عاش ومات عليه السلام قبل أن يولد أول يهودي وأول نصراني؟

إنهم كاذبون إذن في مزاعمهم، فهو لم يكن يهودياً، ولم يكن نصرانياً، ولم يكن مشركاً، وإنما كان حنيفاً، عابداً لله، مسلماً، موحِّداً.

نكتفي بهذه النماذج التي كذب فيها القرآن التوراة اليهودية المحرّفة فيما زعمه الأحبار الذين ألّفوها، ونسبوها إلى الله كاذبين مفترين[٢].

* * *

(١) المصدر نفسه، ص١٤٩.
(٢) حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص١٥٠.



المبحث الثالث

أهمُّ صفات موسى عليه السلام وفضائله ووفاته

أولاً: أهمُّ صفات موسى عليه السلام وأخلاقه:

كان موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، الذين حقَّقوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وحارب فرعون ونظامه الظالم بالعقل والحكمة والحجج والبراهين، وجعله الله سبباً في إنقاذ بني إسرائيل من النظام الاستبدادي الفرعوني، وقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات حميدة وأخلاق كريمة، فقد كان كثير الدعاء لله عزَّ وجَلَّ، والتضرع بين يديه، وشديد الخوف منه، ومتوكلاً عليه، صابراً على تكاليف الدعوة ومشاقّها، صادقاً مع ربه، شجاعاً لا يخاف إلا الله، عالماً وحكيماً وأميناً وقوياً ورحيماً ومُعيناً للمُستضعَفين، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والصفات الكريمة التي عاش بها وسط الناس، ودعا إليها وعلّمها لمن استجاب لدعوته، وقد أسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي والمنهج الرباني؛ الذي سار عليه الموحدون لله عزَّ وجَلَّ في عهده وبعد وفاته، ومن أهم تلك الأخلاق والصفات:

١ ـ الإخلاص:

إن الدعوة إلى الله عزَّ وجَلَّ، وإلى توحيده وعبادته، إن لم يصاحبها الإخلاص لله سبحانه، وابتغاء وجهه عزَّ وجَلَّ، وعدم الطمع في الأجر من الناس أو نيل أي عرض من الدنيا، فإنها دعوة منزوعة البركة، عديمة الأثر على

الناس[١]. ولقد قصّ الله علينا في كتابه العزيز قصة موسى عليه السلام في إخلاصه له تعالى، وترفُّعه عن الدنيا وزخرفها، وإرادته في عمله وجه الله عزَّ وجَلَّ في كل حركة وسكنة من حياته، وذكر الله هذه الصفة الحميدة والخلق الكريم، وأن من أعظم أسباب رفعته وعلو شأنه هذا الخلق الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٥١ ـ ٥٣].

أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران على وجه التبجيل له، والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة.

ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾: قُرئ بفتح اللام على معنى أنَّ الله تعالى اختاره واستخلصه واصطفاه على العالمين، وقُرئ بكسرها على أنه ﴿مُخۡلَصٗا﴾ لله تعالى في جميع أعماله وأقواله ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجلُّ حالة يوصف بها العبد الإخلاصُ منه، والاستخلاصُ من ربِّه.

ـ ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسِل وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع دقّه وجلّه، والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه، وتخصيصه بإنزال الوحي إليه؛ فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق.

ـ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: بل خصه الله من أنواع الوحي بأجلِّ أنواعه وأفضلها، وهو تكليمه تعالى، وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختصَّ من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن.

ـ ولهذا قال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن، أي: الأبرك من اليمن والبركة، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن، عبد العزيز الجليل، (٣/ ١٥٦).

ـ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾: والفرق بين النداء والنجاء أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذا إثبات لكلام الله وأنواعه من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون أنه سأل ربّه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً، فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليه السلام، فقد ساعدَه في أمره، وأعانه عليه(١).

إن الآيات الكريمة ركزت على صفات عديدة لموسى عليه السلام، منها: الإخلاص لله تعالى، فموسى عليه السلام كان مخلصاً لله في دعائه والتجائه إليه؛ ليهديه سواء السبيل، ويكشف الكروب والصعاب، وموسى عليه السلام كان مخلصاً في دعوته للسحرة وإقامة الحجَّة عليهم، ودعوتهم إلى توحيد الله عزَّ وجَلَّ وإفراده بالعبادة.

ـ وموسى عليه السلام كان مخلصاً في دعوته لقومه لمعرفة الله وتوحيده وإفراده بالعبادة، والالتزام بشرعه سبحانه وتعالى.

من سيرة موسى عليه السلام تعلّمنا أهمية أن يتجرد الإنسان من الدنيا، ويزهد فيها، ويجعل أعماله خالصة لوجه الله الكريم، وأن يسعى الإنسانُ المؤمنُ لرضا خالقه العظيم غير متأثر بمدح ولا بذمّ.

ولقد وجَّه موسى عليه السلام ضربة موجعة إلى إبليس، من خلال قيمة الإخلاص، وصفة الإخلاص، وخُلُق الإخلاص، ونجا من وساوسه، وكذلك من سار على هديه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، فقد اعترف إبليس سلفاً أنه لا سلطان له على الخلاصة الصَّافية من عباد الله المؤمنين الصَّادقين، ويئس منهم قبل أن يراهم(٢).

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٤٦٤.

(٢) منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح عليه السلام، أحمد سليمان الرقب، عمان، دار الرازي، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٤٦.

٢ ـ الصَّبر:

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فصبرُ أولي العزم من الرسل هو أعظم الصَّبر؛ لأنهم واجهوا من الأذى والصَّدِّ ما لم يواجهه نبي قَطُّ، وقد وجب التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فموسى عليه السلام من أولي العزم، صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً.

فما أصبر موسى عليه السلام في دعوته لفرعون وملئِه! وما أصبره على قومه في دعوته لهم!

إن موسى عليه السلام تميز في حياته بصفة الصَّبر، فقد كانت من أسباب الثبات والنصر على الأعداء، وهو محلُّ قدوة وأُسوة، إذ صبر على تكذيب فرعون وملئِه، وعلى ما لقيه من الإيذاء والسخرية، إلى أن جاء نصر الله المبين، ونصره على فرعون وقومه، وهذا يدلُّنا على حسن عاقبة الصَّبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنَّصر.

لقد كان موسى عليه السلام مدرسة فريدة من نوعها في الصَّبر والتحمُّل، وقد لَقِي الكثير من قومه ومن أذيتهم، وصبر على ذلك.

أ ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩]:

أي: لا تكونوا مع نبيكم كالذين آذوا موسى، وهم اليهود، بالقول أو العمل مما يكرهه ولا يحبُّه، ولا تكونوا مثل الذين آذوا موسى، واتهموه كذباً وزوراً، أو تعجيزه برؤية الله جهراً، أو تركه يقاتل وحده، أو مطالبته بأنواع من الطعام، فبرَّأه الله مما قالوا من الكذب والزور، وكان ذا قدر وجاه ومنزلة عند ربّه[١].

---

(١) الإيذاء؛ أنواعه، ومظاهره، سبل علاجه في ضوء القرآن والسنة النبوية، رضوان محمد العبدو، دار الكتب العلمية، ٢٠١٨م، ص٤٨. وانظر: تفسير المنير، (٢٢/ ١٢ ـ ١٢١).

ب ـ **وقال تعالى** : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] :

ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ : مُوبِّخاً لهم على صنيعهم ، ومُقرِّعاً لهم على أذيتهم له ، وهم يعلمون أنه رسول الله .

ـ ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ : بالأقوال والأفعال .

ـ ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ : والرسول من حقه الإكرام والإعظام والقيام بأوامره ، والخُضوع لحكمه ، وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله ، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزَّيغ عن الصراط المستقيم الذي قد علموه وتركوه .

ـ ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ ﴾ أي : انصرفوا عن الحق بقصدهم .

ـ ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ : عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضَوه لها ، ولم يوفقهم الله للهدى ؛ لأنهم لا يليق بهم الخير ، ولا يصلحون إلا للشر .

ـ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ؛ أي : الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم ، ليس لهم قصد في الهداية .

وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلماً منه ولا حجَّة لهم عليه ، وإنما ذلك بسبب منهم ، فإنهم أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه ، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ ، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلاً منه بهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١) .

إن موسى عليه السلام تحمّل الأذى الكثير من قومه ، وظهر منه صبرٌ جميلٌ ، وقد عرضنا موقفه من مسائل وطلبات قومه المتنوعة ، والمتشعبة ، والمتعنّتة .

---

(١) تفسير السَّعدي ، ص١١٦٥ .

وقد تذكّر رسول الله ﷺ حين تعرّض للأذى ما أصاب موسى عليه السلام من بني إسرائيل، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قسم النبي قَسْماً، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيتُ الغضبَ في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» (١).

والمقام لا يقتضي استيعاب موقف موسى عليه السلام في صبره على قومه، فقد صبر كثيراً في تعليمهم، وفي دعوتهم، وكثرة مسائلهم، وعلى سوء أدبهم مع الله ومع نبيهم موسى عليه السلام(٢)، وقد مرّ ذلك في هذا الكتاب.

٣ـ عبوديتُه لله:

كان موسى عليه السلام قد اتّصف بصفة العبد المخلص لله رب العالمين، وكان أول ما أوحى الله تعالى به إلى موسى عليه السلام أن أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤]؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلا أنا، فاخضع لي ونفِّذ أمري، فالله عزَّ وجَلَّ مختص بالألوهية؛ لذا تكون العبادة له سبحانه دون غيره. فاستجاب موسى عليه السلام لأمر الله تعالى وخضع له، فقام بالعبادات كلها، وأخلصها لله عزَّ وجَلَّ دون سواه كما رأينا، سواءٌ القوليةُ والقلبيةُ أو الأعمال الظاهرة، ومارس جميع أنواع العبادات من تسبيح وتحميد وصلاة وذكر ودعوة إلى الله ومساعدة للضعفاء... إلخ.

فقام بالأعمال:

أ ـ القولية:

ـ فكان دائم الذكْر والتسبيح.

ـ ويستعيذ بالله تعالى.

ـ ويستغفر الله عزَّ وجَلَّ.

---

(١) رواه البخاري، رقم ٣٤٥.

(٢) أخلاق الأنبياء، محمد عبد الدويش، الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع، (د. ت)، ص١٤٥.

ب ـ الأعمال الظاهرة:

وأهمها الصلاة؛ فقد أمر الله بإقامتها بعد الأمر بإخلاص العبادة لله عزَّ وجَلَّ، وهي أجلُّ العبادات وأسماها في الذكْر، وأعظم الطاعات وأفضلها.

قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وقد قيل: قوله تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٤]، المراد به: الصلاة حيث فيها ذكر الله وتسبيحه.

ت ـ قيامه بالعبودية في الأعمال الظاهرة:

من الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته والبعث والحساب إلى غير ذلك من أركان الإيمان، فهو عليه السلام يثني على الله عزَّ وجَلَّ بأسمائه الحسنى:

ـ فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

ـ ويقول الله تعالى حاكياً عنه: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ـ وقوله تعالى على لسان موسى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وكان كثير الثناء على الله تعالى بعلمه الواسع، وأنه سبحانه البصير به والعليم بكل أحواله، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٣٥]، كما كان كثير الثناء على ربِّه عز وجل بأنه وحده الذي يعلم الأمور الغيبية، ويظهر ذلك في ردّه على فرعون حين سأله عن أنباء القرون السابقة، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ﴾ [طه: ٥٢]، وكان عليه السلام يكثر من تسبيح ربِّه وتقديسه، خالق السموات والأرض ومدبّرها.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

وكان عليه السلام عظيم التوكُّل على ربِّه، والثقة بنصره وتأييده، فلما أدرك

فرعون وجنوده موسى ومن معه، ظنّ أصحاب موسى أنهم مدرَكون، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢]، فثبت موسى عليه السلام ولم يتزعزع، وكان لا يتوانى في هداية الناس وتذكيرهم بيوم الحساب: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ـ وقوله: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

لقد كان موسى عليه السلام قدوةً وأسوةً حسنة في عبوديته لله عزَّ وجَلَّ، والإخلاص له[1]، فهذه دعوته أيضاً لفرعون وقومه وبني إسرائيل مبنية على توحيد الله عزَّ وجَلَّ، وإفراده بالعبادة، كما اتضح لنا في هذا الكتاب.

٤ ـ تعظيم موسى عليه السلام لربِّه وخوفه منه:

إن سيرة موسى عليه السلام قائمة على تعظيمه لله عزَّ وجَلَّ والخوف منه ـ كما بينا في هذا الكتاب ـ وإليك هذا الموقف، وذلك عندما سأل ربّه عزَّ وجَلَّ أن يراه حبّاً له، وشوقاً إليه، فأخبره ربّه تعالى بامتناع ذلك في الدنيا، وأراه آية ذلك في الجبل الذي جعله الله تعالى دكّاً، حينما تجلّى الله عزَّ وجَلَّ، فخرّ موسى صعِقاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والشاهد من ذلك تعظيم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لربه عزَّ وجَلَّ وتنزيهه، وسؤاله ربّه المغفرة والتوبة، وكل هذا الشعور العظيم من موسى عليه

(١) عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، الدكتور المشرف: عبد الشكور العروسي، رسالة ماجستير، السعودية، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ٢٠١٥م، ص (١٨١ ـ ١٨٧).

الصلاة والسلام نابع من معرفته بربه المعرفة الحقيقية التي أثمرت هذا التعظيم والخوف من الله عزَّ وجَلَّ[١].

٥ ـ التوكُّل على الله:

لقد كانت مرتبة موسى عليه السلام في التوكُّل على الله عزَّ وجَلَّ مرتبة متقدمة، وكيف لا يكون كذلك وهو نبي يوحى إليه؟! فهو مثال للقائد المتوكّل، وتوكّله كان مثالياً؛ لأنه استنفد الأسباب كافة في سعيه لاستنقاذ قومه من العدو، وهذا فهمٌ راقٍ، ووعي راشد، فثمّة فرق كبير بين التوكُّل والتواكل، فلما انتهى السعي المادي وانقطعت الأسباب المادية كافة، وظنّ بعض المتواكلين من أتباعه أن العدو سيدركهم، ويبطش بهم، ظهر ثبات موسى عليه السلام القائد الفذ والإنسان المؤمن المتوكّل، المعتمد على ربه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

ففي إدارة الصراع يلوحُ بريق الأمل عند القائد الإيجابي المُتعلِّق بحسن الظنّ بالله عزَّ وجَلَّ، وحسن التوكُّل عليه هو الشعاع الذي ينير طريق القائد ومن معه للوصول إلى الهدف المنشود، مهما اختلفت التوازنات، وتعطّلت الأسباب[٢].

وكان موسى عليه السلام حريصاً على تربية أتباعه على هذه القيمة والصفة الجليلة؛ التوكُّل على الله عزَّ وجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦].

٦ ـ الشكر:

أمر الله نبيه موسى عليه السلام بشكره فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

---

(١) وقفات تربوية، عبد العزيز الجليل، (٣/ ٦٢).

(٢) القائد؛ دراسة تحليلية لشخصيات قيادية في القرآن الكريم، عبد الستار المرسومي، دار المعراج، ط٢، ٢٠٢٠م، ص١٠٣.

وقد قام موسى عليه السلام بهذا التوجيه الإلهي والأمر الرباني خير قيام، وتمثلت في شخصية موسى عليه السلام هذه الصفة العظيمة «الشكر لله عزَّ وجَلَّ».

والشكر مما يمنع عذاب الله عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

قال ابن القيم عن منزلة الشكر: ويا عجباً أي مقام أرفع من الشكر، الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان حتى المحبة والرضا، والتوكُّل وغيرها!

فإن الشكر لا يصحُّ إلا بعد حصولها، وتالله ليس لخواص أولياء الله وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى(١).

وقال: والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر، وقد أمر الله به ونهى عن ضده، وأثنى على أهله ووصف به خواصّ خلقه، وجعله غايةَ خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده(٢).

وهو من أسباب استحقاق مِنَّة الله على عباده؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] (٣).

ولقد امتنّ الله عزَّ وجَلَّ على موسى وهارون في كتابه العزيز بالنبوة والرسالة، وتوحيده، وإفراده بالعبودية، وتحقيق مقامات الشكر لله عزَّ وجَلَّ.

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، (٢/ ٢٣٩).
(٢) مدارج السالكين، المصدر نفسه، (٢/ ٢٣٢).
(٣) أخلاق الأنبياء، د. محمد الدويش، ص٧٦.

٧ ـ الإحسان:

وقد كان موسى عليه السلام من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب.

ـ ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: كملت فيه تلك الأمور.

ـ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، يعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودلّ هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام[1].

ولقد امتنّ الله على موسى وهارون بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وأنزل الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراةُ التي فيها الأحكام والمواعظ وتفضيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله تعالى، ومنّ عليهما بأن ألقى عليهما ثناءً حسناً وسلاماً في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين، وقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصَّافات: ١٢١]، وجاء هذا في سورة الصَّافات، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصَّافات: ١١٤ ـ ١٢٢].

---

(١) تفسير السَّعدي، ص٨١٩.

اتّصف موسى عليه السلام بالإحسان، وهي مرتبة متقدِّمة من الإيمان، وعندها يعبد العبد ربَّه وكأنه يراه، قال رسول الله ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام: ما الإحسان؟ قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

هذا في جانب العبادة، وأما في جانب التعامل مع ما يحيط بالإنسان، فإن الإحسان هو إتقان العمل على أتمِّ وجه وأحسنه[٢].

وهذا ما قام به موسى عليه السلام، سواء أكان عملاً دعوياً أم تنظيمياً أم أمنياً، أم أخلاقياً أم مساعدة الناس المحتاجين، كما مرّ بنا في سيرته.

٨ ـ العلم:

وهي صفةٌ ملازمةٌ لموسى عليه السلام قبل النبوة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

فهو كان على اطلاع قبل النبوة بديانة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف ـ عليهم السلام ـ وكان موحّداً ومؤمناً بالله، وعلى معرفة بحقيقة التوحيد ودِينِ الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، ويبدو أن والدته الصَّالحة وأسرته المؤمنة لها دور في هذه العلوم والمعرفة الربّانية.

وزاد علمُه الرباني بعدما اصطفاه الله للرسالة والنبوة، وأصبح من أولي العزم، فأوحى الله إليه، وكلّمه تكليماً، وأنزل عليه الكتاب المقدّس «التوراة»، فيه من العلم ما شاء الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وفي قصته مع الخضر عليهما السلام بينا حرصه على طلب العلم، وتواضعه في ذلك، وبذل الجهد في الوصول إلى الهدف. فمِن صفات موسى العظيمة العلمُ، وحرصُه على التعلُّم، وتعليم الناس ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عن الإيمان.

(٢) القائد، دراسة تحليلية لشخصيات قيادية، ص١٣٠.

٩ ـ القوة الإيمانية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

لقد بينا في قصة موسى في سورة القصص، وفي تفسير هذه الآية الكريمة: أنَّ موسى عليه السلام جمع بين القوة الجسمية والقوة النفسية والأخلاقية، وقد منّ الله عليه بأن وفَّقه للجمع بين الصفتين الحميدتين: القوة والأمانة؛ القوة الجسمية واضحة في حياته السابقة عندما ضرب القبطي بوكزة فقضى عليه، وعندما حمل الحجر الكبير الثقيل فأبعده عن فتحةِ البئر، ورعي الغنم يحتاج إلى القوة الجسمية لما يترتب على ذلك من متابعة الغنم في الجبال والوديان.

والأمانة قوة معنوية، وهي وقوة النفس والروح وقوة الإرادة والعزيمة، وقوة التحلّي بالأخلاق الفاضلة، التي تمثلت في موقفه من الفتاة حين غضَّ الطرف عنها، وطلب إليها أن تمشي خلفه حتى لا ينظر إلى جسمها.

إنه أمينٌ على العِرْض والشرف، وأمين على المال والغنم، وأمين على ما يوكل إليه ويطلب إليه، والمهمة الملقاة على عاتقه تحتاج إلى أمانة، فإن لم يكن الرجل أميناً، فلن يحافظ على الغنم ولا على الفتاتين ولا على بيت الرجل.

وقد جمع موسى عليه السلام مظهرين من مظاهر القوة:

ـ القوة الجسمية المادية المتمثلة في متانة الجسم.

ـ والقوة النفسية المعنوية الأخلاقية المتمثلة في الأمانة.

ولقد تمتعت هذه الفتاة الصَّالحة المؤمنة بفراسة إيمانية عالية، فقد تفرست في موسى الخير، واستشرفت له المستقبل المشرق الأمين، وصدقت فراستها فيه، فلما عمل أجيراً عندهم كان قوياً أميناً فعلاً[١].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٣٤٠).

وبعد الرسالة كان موسى عليه السلام قوياً في رسالته، وأميناً في تبليغ دعوته لفرعون وقومه ولبني إسرائيل.

ولقد وصف ـ تبارك وتعالى ـ نبيه موسى عليه السلام بالأمانة، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ١٨].

ـ وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال الزمخشري: كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك، وتمّ مرادك[١].

ـ وقال السَّعدي: وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها، فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما فإن العمل يتمّ ويكمل[٢].

إن القوة ـ كما قرَّر أهل العلم ـ مطلوبةٌ في كلِّ مجالٍ، وهي تعني تمكُّن الشخص من الخبرات والمهارات التي يحتاجها لأداء مهمة معينة، أو تولّي مسؤولية محدّدة[٣].

قال ابن تيمية: وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦][٤].

١٠ ـ كثرة الدعاء:

إن من صفات موسى عليه السلام كثرة الدعاء، والإلحاح على الله، والتضرّع

---

(١) تفسير الزمخشري، (٣/ ٤٠٣).
(٢) تفسير السَّعدي، ص٨٢٠.
(٣) أخلاق الأنبياء، ص٢٧١.
(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية الدمشقي، تحقيق: علي العمران، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، ط١، ١٤٢٩هـ، ص١٢.

بين يديه، ويتضح ذلك من خلال الآيات الكريمة التي تمَّ شرحها في موقعها حسب ترتيب هذا الكتاب، ومنها:

ـ **قوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

ـ **قوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

ـ **وقوله تعالى:** ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

ـ **وقوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦].

ـ **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩].

ـ **وقال تعالى:** ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ـ **وقال تعالى:** ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ـ **وقوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

ـ **وقوله تعالى:** ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا

مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦].

ـ **وقوله تعالى**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

ومن أهمِّ الدُّروس والعبر الَّتي يمكننا استخراجُها من أدعية موسى عليه السَّلام:

١ ـ الاعتراف بالخطأ فضيلة.

٢ ـ إعلان التوبة فور ارتكاب الفعل.

٣ ـ حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٤ ـ طلب النجاة من القوم الظالمين.

٥ ـ الدعاء طريق الإرشاد إلى الخير.

٦ ـ الدعاء قوة عظيمة لمن عرف هذه العبادة.

٧ ـ الالتجاء إلى الله، وإظهار الحاجة إليه، دليلٌ على معرفة الله، وإفراده بالعبادة.

٨ ـ الدعاء طريق انشراح الصدر، وتيسير الأمور، وإزالة العوائق المانعة في طريق تحقيق الأهداف.

٩ ـ استجابة الله تعالى لأدعية موسى عليه السلام دليلٌ على مكانته، وعُلُو شأنه، وأنَّه من المصطفَين الأخيار[١].

١١ ـ التَّواضع:

إن موسى عليه السلام ذو مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، ومكانة موسى عليه السلام ليست ادّعاء بغرور النفس، ولا مظنونة تحتمل الصواب والخطأ، ولا استنتاجاً يصدق أو لا يصدق، بل هي مقطوع بها بوحي رباني صادق، لقد زكّاه ربّه ـ تبارك وتعالى ـ ويكفي بذلك تزكية، وأين تأتي تزكية البشر أمام تزكية الله عزَّ وجَلَّ؟!

(١) دعاء الأنبياء والرسل، موسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، ط١، ١٩٩٨م، ، ص٢٣٨.

إن اختصاص الله ـ تبارك وتعالى ـ له بالنبوة كافٍ في تزكيته ظاهراً وباطناً، فالله هو خالق البشر، وهو ـ عزَّ وجَلَّ ـ أعلمُ به، والنبوة تقتضي القطع لصاحبها بالإخلاص وصدق التدين والعلم والعقل والتَّجرُّد لله سبحانه، ناهيك عن الصفات البشرية، فالله سبحانه وتعالى إنما يختار لرسالته أكمل الناس طبيعة وسجية، وخاطبه ـ سبحانه وتعالى ـ ممتنّاً عليه بالاصطفاء قائلاً له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ومع ذلك كله يتواضع موسى عليه السلام مع الخضر، فيخرج إليه، ويصحبه متعلِّماً متأدِّباً[١].

ويتجلَّى في هذه القصة مع التواضع الأدبُ النبوي لدى موسى عليه السلام، وله شواهد عدة منها:

ـ مبادرته بسؤال الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ عن الخضر واللقاء به فور سماعه عنه.

ـ تلطُّفه في طلبه من الخضر: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فأخرج الكلام في صورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا[٢]؟

ـ جعل نفسه مقام المتعلم، والخضر مقام المعلِّم.

ـ تعليقه استعداده للصبر بمشيئة الله، لا بقدرته وحوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

ـ التزامه بطاعة الخضر، وعدم عصيانه: ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

ـ اعتذاره عن خطئه واستعداده لتحمل تبعته وعذره للخضر؛ إذ قال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

إن شخصية موسى عليه السلام تتصف بالتواضع حتى قبل النبوة، فقد وصفه الله بالإحسان: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من مساعدة الفقراء والضعفاء

(١) تفسير السَّعدي، ص٦٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٢٩.

والمحتاجين، ودخوله في مجتمع الرعي والبسطاء بعد خروجه من قصر فرعون مهاجراً في سبيل الله تعالى، واتضحت تلك القصة مع أهل مَدْين ومجتمع الرعاة، وفي تعامله مع والد زوجته الرجل الصَّالح.

وعندما توسَّع علمه، وأكرمه الله بالنبوة والرسالة، زاد تواضعه وحرصه على التعلُّم ممن هو أعلم منه في بعض الأمور ولاسيما علوم الغيب التي اختصَّ الله بها الخضر عليه السلام.

إن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين الذين منحهم الله العلمَ، وأعطاهم منه ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلُّم منه[١]، وهذا دليلٌ على صفة التواضع في شخص موسى عليه السلام.

ومن المواقف التي تتجلَّى فيها صفة التواضع في موسى عليه السلام أنه عندما أوحى الله إليه، وأرسله إلى فرعون، سأل ربّه ـ تبارك وتعالى ـ أن يعينه بأخيه هارون، وعلّل ذلك بأن هارون أفصح منه لساناً، قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

وهذا اعترافٌ بالفضل لأخيه هارون، مع أنه أفضل من هارون، فهارون لم يكن نبياً بعدُ، وعندما أُوحي إليه كانَ ذلك لشدِّ عضُدِ موسى عليه السلام.

وتواضع موسى تواضعٌ حقيقي، وليس ادِّعاءً أو إظهاراً لشأن في النفس، فهو هنا يخاطب ربّه ومولاه عزَّ وجَلَّ العالم ـ سبحانه ـ بسريرته[٢].

١٢ ـ الاعتراف بالخطأ:

حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعون رسولاً من عند الله عزَّ وجَلَّ احتجّ عليه فرعون بما فعله قبل فراره منهم، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ

(١) أخلاق الأنبياء، ص٣٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٧.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]، فردّ موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢١].

وفي تفسير قول موسى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال البغوي: أي: من الجاهلين؛ أي: لم يأتني من الله شيء، وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله، وقيل: من الضالّين عن طريق الصواب من غير تعمّد، وقيل: من المخطئين(١).

لقد اعترف بخطئه، وتجاوز الحديث عن شخصه؛ ليتحدّث عن دعوته ورسالته، إنها شجاعة عالية، شجاعة مع النفس، وأصعب ما على النفس أن تعترف بخطئها، وأن تُقرَّ بما تُتَّهم به(٢).

إن الاعتراف بالخطأ، والإقرار بقصور النفس، يهذبها ويكسر كبرياءها، فيعرف صاحبُها قدر نفسه، ويضعها في موضعها، وما أحوج النفوس إلى مثلِ هذا التّواضع(٣).

إن المخالفين للداعية والناصح يسعون في تبرير موقفهم، من خلال الهروب من ساحة النقاش الحقيقية، ونقل الحديث إلى شخص الداعية، يبحث هؤلاء عن زلَّة أو هفوة أو خطأ يسْتَدْعى من تاريخه، وربَّما زيد في الأمر ونقص؛ ليعترضوا على دعوته، ويطعنوا في دينه وأمانته.

ومع اتساع التقنية، وانتشار وسائل التوثيق الصوتي والمرئي، أصبح من السهل تصيد الهفوات والزلّات، وتوظيفها في الطعن في شخصية الداعية أو الفقيه(٤).

إن موسى عليه السلام يعلِّمنا كيفية التصرف مع من يبحثون عن العيوب، ويواجهون بها خصومهم للهروب من الحق الذي يحمله الـمُعتَرِضون عليهم،

---

(١) تفسير البغوي، (٦/ ١٠٩).
(٢) أخلاق الأنبياء، ص٣٣٣.
(٣) أخلاق الأنبياء، المصدر السابق، ص٣٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٥.

فالاعتراف بالخطأ قوة ومتانة، ودليل على توازن النفس، وعدم الهروب من الأخطاء يزيد الإنسان صلابة في مواجهة التحديات والعراقيل.

١٣ ـ الشَّهامة ومساعدة الضُّعفاء:

ومن صفات موسى عليه السلام الشَّهامة، فقد أُوتي حظّاً كبيراً من الشهامة والمروءة والرجولة، فعندما سمع استغاثة الفرعوني الذي من شِيعته لم يتوانَ لحظة في نصرته ودفع الظلم عنه، وتظهرُ هذه الشَّهامةُ أيضاً في أثناء هجرته ووصوله إلى مدين عندما وجد المرأتين في موقف العجز، فسَقى عنهما بسبب تزاحم الرعاء ـ جمع راع ـ على الماء، وهو موقفٌ يستثير همة الهمام وشجاعة الشَّهم، فتقدَّم موسى لمساعدتهما حتى سقى الغنم، واتَّسم موقفُه بالقوة والأمانة معاً، فالقوة في تمكُّنه من سقي غنم المرأتين، على الرَّغْمِ من تزاحم الرعاء، وأمّا الأمانة فهي أمانة السُّلوك الَّتي تظهر في طريقه مع إحداهنَّ إلى أبيها، فتَجَلَّت هاتانِ الصِّفتان في قولها لأبيهما: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (١).

لقد أحسن موسى للفتاتين، وهو لا يعرفهما، ولا يعرفُ مَنْ تكونان، ولم يعرِّفْ نفسه لهما، أو يطلب منهما جزاء ولا شكوراً، وقد كان فعل موسى عليه السلام معروفاً محضاً يدلُّ على الشهامة والمروءة، مما أثر في عائلة الفتاتين وأبيهما، فكانت ردَّةُ فعل الرجل الشيخ الكبير الإكرامَ والضِّيافة والإحسان إلى موسى عليه السلام.

كان موسى عليه السلام مطارَداً وخائفاً يترقَّب مع التعب والجوع والغربة، ولكنها شهامة نادرة، ومروءة عجيبة، ذكرها الله لنا في كتابه العزيز: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٤].

(١) أولو العزم من الرسل، محمد عبد الله السمان، القاهرة، دار الاعتصام، ط٢، ١٩٨١م، ص١١٧.

لقد كانت صفة الشهامة مترسِّخة في شخصية موسى عليه السلام، ودعامة قوية يقوم عليها بناءُ الدعوات، وأمّا شجاعة موسى فلا تحتاج إلى نقاش، فقد واجه فرعون الظالم السافك للدماء المدَّعي الربوبية والألوهية بدعوة التوحيد التي تهدم كيانه من أساسه، وتنتزع من بين أضلاعه الألوهية التي يستخفُّ بها قومَه ويستعبدهم، وما كان لموسى الذي تربّى وليداً في بيت فرعون أن يقفَ هذا الموقف لو لم يكن على درجةٍ كبيرةٍ من الشجاعة.

ومنحَ الله موسى كلَّ ألوان الشجاعة، منحه الشجاعة الأدبية، والشجاعة القلبية التي فاقت كل شجاعة، وحسبنا دليلاً على ذلك مواجهته فرعون، ونحن نعلم من هو فرعون، الشَّرِه في سفك الدماء، والجشع في إزهاق الأرواح، ولكن شجاعة موسى عليه السلام كانت أكبر من أن تتقهقر أمام جبروت فرعون، وغطرسته، ووحشيته[١]. ولقد رأينا في هذا الكتاب حوارات موسى الشُّجاعة مع فرعون.

ورأينا أخطر المواقف التي تستفزُّ أثبتَ الأعصاب، وكانت تحدِّياً بين معجزات موسى وسحر شيعة فرعون، وهنا برزت شجاعة موسى لتواجه السحرة بالحقيقة، وتحولهم إلى الإيمان به، والكفر بفرعون وألوهيته[٢].

وحين أثبت قومُ موسى عليه السلام أنهم مطبوعون على التمرُّد والاستعصاء، وأن جذور الذلَّة والعبودية أرسخ من أن تقتلها الحرية التي مُنحوها إثرَ هلاك فرعون، دفعت موسى شجاعتُه إلى مواجهتهم بالحقيقة التي تجعلهم يعرفون أقدار أنفسهم، وأنها أتفَه من أن يؤْبَه بها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨][٣].

---

(١) أولو العزم من الرسل، المصدر السابق، ص١١٤.
(٢) أولو العزم من الرسل، المصدر نفسه، ص١١٤.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٥.

١٤ ـ العزيمة:

ومن صفات موسى عليه السلام العزيمة القوية، وهي التي تصونُ الشخصيةَ من مخازي التخاذل والتقهقر، وما كان ليقدَّر للدعوات ذرة من النجاح إذا خلتْ نفوسُ دعاتها من العزيمة الصَّارمة القوية.

وعزيمة موسى بلغت القمة من القوة، ولم يصبها في وقت من الأوقات ذرة من الضعف أو الخور، وقد تجلَّت على حقيقتها حين ذهب لمناجاة ربه، وعاد ليجد قومه عاكفين على عبادة عجل صنعه لهم السَّامري من حليهم، فعزم على أن يعطي السَّامري وقومه درساً مادياً قاسياً لن ينسوه أبداً، وعمد إلى العجل فأحرقه، ونسَفَه في اليم نسفاً، وهو درسٌ بليغٌ ما كان لموسى أن يعطيه لهؤلاء الضَّالِّين لو لم يكن يتمتَّع بعزيمة من أقوى العزائم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٧ ـ ٩٨] (١).

وظهرت العزيمة عند موسى في دعوته لفرعون وملئه وبني إسرائيل، وكذلك في طلبه للعلم من الخضر عليه السلام، وفي محاربةِ الانحرافات والمنكرات بأشكالها، وأنواعها، وأصنافها.

هذه أهمُّ الصفات التي ظهرت في شخصية موسى عليه السلام، ولا شكّ في أن ثمَّةَ صعوبةً في حصرِ صفاتِه كُلِّها؛ لأنَّ قصته أطولُ قصة في القرآن الكريم.

ثانياً: أحاديث الرسول ﷺ في وصف موسى عليه السلام وفضائله:

وصف رسول الله ﷺ في أحاديث هيئة موسى وشكله وجسمه وفضائله، منها:

---

(١) أولو العزم من الرسل، المصدر السابق، ص١١٦.

١ ـ هيئة موسى وشكله وجسمه وحجه إلى بيت الله الحرام:

ـ قال رسول الله ﷺ: «. . . وأَمَّا مُوسَى، فَرَجُلٌ آدَمُ[١]، جَعْدٌ[٢]، علَى جَمَلٍ أحْمَرَ، مَخْطُومٍ بِخُلبَةٍ[٣]، كَأَنِّي أنْظُرُ إلَيه إذا انْحَدَرَ في الوادِي يلَبِّي» [٤].

ـ وذكر رسول الله ﷺ حين أُسري به فقال: «موسى آدمُ طُوالٌ[٥]، كأنه من رجال شنوءة[٦]»، أي: أن موسى عليه السلام كان أسمر طويلاً، يكاد يشبه في طوله وهيئته رجال أزد شنوءة، القبيلة اليمنية المعروفة[٧].

ـ وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال: «عُرض علي الأنبياء، فإذا موسى ضربٌ من الرجال، كأنه من رجال شنوءة» [٨].

ـ وروى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، فمررنا بواد، فقال: أي وادٍ هذا؟ فقالوا: وادي الأزرق، قال: كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية، واضعاً أصبعيه في أذنيه، له جؤار إلى الله بالتلبية مارّاً بهذا الوادي» [٩].

ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي رأيت موسى، فإذا هو رجلٌ ضَربٌ[١٠]، رَجِل الشعر، كأنه من رجال شنوءة» [١١].

---

(١) **آدم**: أسمر اللون.
(٢) **جعد**: يعني: أن شَعْره جعد، وهو ما فيه التواء وتكسّر وخشونة.
(٣) **الخلبة**: هي الليف، كان الجمل الذي يركبه أحمر، مربوط بحبل من ليف.
(٤) رواه البخاري، رقم ٣٣٥٥، رواه مسلم، رقم ١٦٦.
(٥) **طوال**: طويل الجسم.
(٦) **شنوءة**: قبيلة معروفة من «الأزد» من اليمن.
(٧) القصص القرآني، (٣/ ٣٤٣).
(٨) رواه مسلم، رقم ١٦٧.
(٩) رواه مسلم، رقم ١٦٦.
(١٠) **رجل ضرب**: رجل متوسط في جسمه، فلا هو سمين كثير اللحم، ولا هو نحيف قليل اللحم.
(١١) رواه البخاري، رقم ٣٣٩٤.

٢ ـ الرسول ﷺ يرى موسى مع الأنبياء ليلة الإسراء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْرِ ـ حِجْرِ إسماعيل عند الكعبة ـ وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ـ لم أحفظها ـ فكربتُ كربةً ما كربتُ مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلّي، فإذا رجل ضرب جعد، كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه ﷺ ـ فحانت الصلاة فأَمَمْتُهم»[١].

أي: إنَّه صلى بالأنبياء جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليلةَ الإسراء في المسجد الأقصى.

وخلاصة وصف موسى عليه السلام من هذه الأحاديث: أنه كان أسمر اللون، طويلاً، معتدل الجسم، لا بالسمين ولا بالنحيف، يشبه في تناسق جسمه رجال الأزد اليمنيين[٢].

٣ ـ صبرُ موسى على إيذاءِ قومِه له ومعجزةُ الحَجَر والثوب:

قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حَيياً سِتِّيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما استتر هذا التستر إلا من عيب في جلده، إمَّا برص وإمَّا أدرة[٣] وإمَّا آفة، وإن الله عزَّ وجَلَّ أراد أن يبرِّئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فوضع ثوبه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عَدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من

(١) رواه مسلم، رقم ١٧٢.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣٤٥).
(٣) أدرة: عظم الخصيتين، انتفاخ الخصيتين.

بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله، وبرَّأه الله مما يقولون، وقام إلى الحجر، فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، وإن بالحجر لندباً[١] من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩]» [٢].

قال النووي والقاضي وغيرهما: إن الأنبياء مبرَّؤون ومنزَّهون من النقائص في الخَلق والخُلُق، ومن العاهات سالمون، ومن المعايب مُبرَّؤون ومُنزَّهون، ومن العيوب بعيدون، ومن كل ما ينقص ويبغض العيون أو ينفر النفوس معافَون وهم في غاية الكمال[٣].

قال الخالدي: وبهذه المعجزة الباهرة برّأ الله موسى عليه السلام من إيذاء واتِّهام قومه له[٤].

٤ ـ المحاجة والجدال بين آدم وموسى عليهما السلام:

سأل موسى ربه: يا رب أرنا آدم الذي أخرجَنا ونفسَه من الجنة، فأراه الله آدم، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال له آدم: نعم. قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وعلّمك الأسماء كلَّها، وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتَنا ونفسَك من الجنة؟ فقال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى. قال: أنت نبي بني إسرائيل الذي كلَّمك الله من وراء حجاب، لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم. قال: فبمَ تلومني في شيء سبق من الله تعالى فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «فحَجَّ آدمُ موسى، فحَجَّ آدم موسى» [٥].

---

(١) ندباً: الأثر الذي يترك في الشيء بعد ضربه.
(٢) رواه البخاري، رقم ٣٤٠٤.
(٣) أولو العزم من الرسل، المرجع السابق، ص١٣.
(٤) القصص القرآني، (٣/ ٣٤٧).
(٥) البخاري، رقم ٣٤٠٩، معنى حجّه: غلبه في الحجة.

كانت حجَّة آدم عليه السلام أغلب وأقوى، ولعل قوة الحجَّة التي قالها آدم مبنية على:

أ ـ أن الكلام كان في أمر قد مضى وانقضى، فلا سبيل إلى ردّه، فهي مصيبة وقعت، وليس أمام العبد إلا أن يرضى ويسلِّم، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

ب ـ أنه ذنب قد تاب منه آدم وأناب، وقبِلَ الله توبته، فلا سبيل إلى معاتبته وتوبيخه، وهو بعد التوبة خير منه قبل الذنب، قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيراً له»، وهذا يكون في المصائب، ويكون في الذنوب لمن تاب منها[١].

ت ـ أن الخروج من الجنة وقع لآدم وحواء فحسب، وأما موسى وسائر ذرية آدم فلم يكونوا في الجنة أصلاً.

ث ـ أن هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه، قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وليس عقاباً محضاً، إنما هو سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره، وله الحكمة في ذلك.

الإنسان مسؤول عن أعماله الإرادية الاختيارية، والظروف والبيئة والجينات وسائر المؤشرات لها اعتبار في تعاظم المسؤولية، ولا تُلغي التبعية الدنيوية القانونية ولا الأُخروية المترتبة على تصرُّفاته[٢].

٥ ـ موسى عليه السلام يسأل ربَّه عن أدنى وأعلى منازل الجنة:

وعَن المُغِيرَةِ بن شُعْبَة رضي الله عنه عنْ رسول الله ﷺ قَالَ: «سأَل مُوسَى ﷺ ربَّه، ما أَدْنَى أَهلِ الجنَّةِ مَنْزلَةً؟ قَالَ: هو رَجُلٌ يجِيءُ بعْدَمَا أُدْخِل أَهلُ الجنَّةِ

(١) علمني أبي، سلمان العودة، ص٢١٨.
(٢) قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام، الصلابي، المرجع السابق، ص٤٨٩.

الجَنَّةَ، فَيقَالُ لَه: ادْخُلِ الجنَّة. فَيقُولُ: أَي رَبِّ كَيفَ وقَدْ نَزَل النَّاسُ منَازِلَهمْ، وأَخَذوا أَخَذاتِهم؟ فَيقَالُ له: أَترضى أَنْ يكُونَ لَكَ مِثلُ مُلكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيا؟ فَيقُولُ: رضِيتُ ربِّ، فَيقُولُ: لَكَ ذلِكَ ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه، فَيقُولُ في الخَامِسَةِ: رضِيتُ ربِّ، فَيقُولُ: هذا لَكَ وعشَرةُ أَمْثالِه، ولَكَ ما اشْتَهتْ نَفْسُكَ، ولَذتْ عَينُكَ. فَيقُولُ: رضِيتُ ربِّ. قَالَ: ربِّ فَأَعْلاَهمْ منْزِلَةً؟ قالَ: أُولَئِك الَّذينَ أَردْتُ، غَرسْتُ كَرامتَهمْ بيدِي، وخَتَمْتُ علَيها، فَلَمْ تَر عينٌ، ولَمْ تَسْمعْ أُذنٌ، ولَمْ يخْطُرْ عَلَى قَلبِ بشَرٍ» (١).

٦ ـ فضل موسى عليه السلام ومنزلته عند ربّه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، جاءه يهودي فقال: يا أبا القاسم: ضرب وجهي رجلٌ من أصحابك، فقال: «من؟».

قال: رجل من الأنصار.

فدعاه، فقال: «أضربته؟»

قال: سمعتُه بالسوق يحلف، ويقول: والذي اصطفى موسى على البشر.

قلتُ: يا خبيث، على محمد ﷺ؟ فأخذتني غضبة، فضربت وجهه.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشقُّ عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعق، أم حُوسب بصعقته الأولى» (٢).

ولهذه الحادثة رواية أخرى عند البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استبّ رجلان: رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى

(١) رواه مسلم، ٤/ ١٨٨٣.

(٢) رواه البخاري، رقم ٢٤١٢.

على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعاه النبي ﷺ فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبي ﷺ: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأُصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جنب العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله» (١).

وهذا النهي عن التخيير «لا تخيروني على موسى» هو القائم على إنقاص مقام بعض الأنبياء، أو إنقاص مقام موسى على حساب محمد عليهما الصلاة والسلام.

إن هذا حرام؛ لأن المؤمن يؤمن بجميع الرسل، ولا يفرِّق بين أحد منهم، وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أما إذا أمن هذا الجانب، وآمن المؤمن بجميع الرسل، ولم ينقص من قدر أحد منهم، فعليه أن يؤمن بأن محمداً ﷺ هو أفضل الأنبياء والمرسلين، بل أفضل خلق الله أجمعين، وأن الله اصطفاه وفضّله وخصّه بما خصّه به.

ـ وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥] (٢).

٧ـ فضيلة موسى عليه السلام وإمساكه بقائمة العرش:

وبعد أن نهى رسول الله ﷺ عن تخييره على موسى عليه السلام تخييراً يقوم على إنقاص قدر موسى، قدّم لنا صورة لفضله عند الله يوم القيامة، فعندما يبعث الله الناس من قبورهم يوم القيامة، يكون رسول الله ﷺ أول من تنشقُّ عنه الأرض، وعندما يرفع رأسه ﷺ ينظر فإذا نبي الله موسى عليه السلام قائم ممسك بقائمة من قوائم

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٥٢).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٣٥٣).

عرش الله، فيتعجب رسولنا ﷺ من ذلك، ولا يدري: هل أفاق موسى قبله وأمسك بقائمة العرش أو كان ممن استثناهم الله من الصعق، واكتفى بصعقته الأولى؟!

ويشير رسولنا ﷺ في قوله: «أم حُوسب بصعقته الأولى» إشارة إلى الصعقة التي أصابت موسى عليه السلام عند جبل الطور لما طلب أن يرى الله، فلما تجلّى الله للجبل دكّه وصُعق موسى عليه السلام، وهذه الحادثة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] (١).

٨ ـ موسى عليه السلام ومقام الشَّفاعة لمحمَّد ﷺ:

روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث الشفاعة الطويل الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: وجاء فيه عن موسى عليه السلام قوله: «... فيقول لهم إبراهيم عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله... نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى... فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضّلك الله برسالاته وبتكليمه، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفساً لم أُؤمر بقتلها، نفسي، نفسي.. اذهبوا إلى عيسى...» (٢).

وهذا المقام «مقام الشفاعة» خصّ به الله محمداً ﷺ يوم القيامة(٣).

٩ ـ أمَّة محمَّد وأمَّة موسى عليهما الصَّلاة والسَّلام:

قال رسول الله ﷺ: «عُرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرُّهيط، والنبي

---

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٥٤).
(٢) الأحاديث الصَّحيحة، رقم ٣٦٤، مسلم، رقم ١٩٤.
(٣) رواه البخاري، رقم ٣٣٤٠.

ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى عليه السلام وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم.. فقيل: هذه أمتك»[١].

والسّواد هم المجموعة من الناس، فإذا كانت أمة موسى عليه السلام قد شكّلت سواداً عظيماً، ومجموعة كبيرة من الناس، فإن أمة محمد ﷺ ـ أمة الخلافة والرسالة والشهادة حتى قيام الساعة ـ قد ملأت الأفق عن اليمين والشمال، فمحمد ﷺ هو أكثر الناس أتباعاً يوم القيامة[٢].

١٠ ـ موسى عليه السلام ولقاؤه بمحمد ﷺ في السماء السادسة ليلة المعراج:

عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه قال في رحلة الإسراء والمعراج (وسنورد منه القطعة المُتعلِّقة بموسى عليه السلام): «... فأتينا على السماء السادسة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد ﷺ. قيل: وقد أُرسل إليه؟ مرحباً به نعم المجيء جاء. فأتيتُ على موسى، فسلّمت عليه فقال: مرحباً بك من أخ ونبي، فلما جاوزت بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب، هذا الغلام الذي بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي... ثم فُرضت علي خمسون صلاة، فأقبلت حتى جئتُ موسى، فقال: ما صنعت؟ قلت: فُرضت علي خمسون صلاة. قال: أنا أعلم بالناس منك، عالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، وإن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربك فسَله التخفيف، فرجعت فسألته، فجعلها أربعين، ثم مثله، ثم ثلاثين، ثم مثله، فجعلها عشرين، ثم مثله، فجعلها عشراً، فأتيت موسى فقال مثله، فجعلها خمساً. فأتيت موسى فقال: ما صنعت؟ قلت: جعلها خمساً، فقال مثله، فقلت: سلّمت. فنودي: إني قد أمضيت فريضتي وخفّفت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشراً»[٣].

---

(١) البخاري، رقم ٣٤١، مسلم، رقم ٢٢٠.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣٥٥).
(٣) رواه البخاري، رقم (٣٢٠٧ ـ ٣٤٣٠).

وفي حديث رحلة الإسراء والمعراج: إن هارون عليه السلام في السماء الخامسة، وإن موسى في السماء السادسة، وقد مرّ بهما رسولنا ﷺ ـ كما بينا ـ في رحلة الإسراء والمعراج[١].

وهذا الحديث يبين شفقة موسى عليه السلام على أمة محمد ﷺ، فخشي أن تقصِّرَ في أداء الخمسين صلاة، وطلب إليه أن يطلب إلى ربِّه التخفيف، فما زال الله ينقصها في العدد، حتى أوصلهما إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.

ومن كرم الله وفضله على هذه الأمة أنه أنقص الصلوات من حيث العدد، ولكنّه أبقاها من حيث الأجر والثواب، إنها خمس صلوات، لكنها خمسون في الأجر[٢].

إن لقاء موسى عليه السلام برسولنا الكريم أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

أي: لا تكن يا محمَّد في ريبة أو شكّ من لقائك بنبي الله موسى عليه السلام. وهذا ما تحقَّق ليلة الإسراء والمعراج، فقد التقى بموسى وغيره من الأنبياء عندما صلّى بهم إماماً في بيت المقدس، ثم التقى بهم عندما عُرِجَ به إلى السموات، حيث كانوا فيها ينتظرونه[٣].

ثالثاً: وفاة موسى عليه السلام:

استمرَّ بنو إسرائيل في التيه بسيناء، وواصل موسى عليه السلام مسيرته الدعوية والتربوية والعلمية، واختار من بينهم من كان مُؤهلاً لحمل الرسالة ودخول الأرض المقدسة، لتربيتهم على قيم الجهاد، وخلال هذه الفترة توفِّي نبي الله هارون عليه السلام.

---

(١) الأحاديث الصَّحيحة، إبراهيم محمد العلي، ص٢٥٦.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣٥٧).
(٣) القصص القرآني، (٣/ ٣٥٥).

فقد كان هارون عليه السلام حياً مع بداية التيه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [المائدة: ٢٥ـ٢٦].

ولم يرد له ذكر في القرآن، ولا في الحديث الصَّحيح بعد ذلك.

إن الإسرائيليات تحدّثت كثيراً عن وفاة هارون عليه السلام، وفصَّلت في ذلك، فذكرت اتهام بني إسرائيل لموسى عليه السلام في قتل هارون ودفاع موسى عن نفسه، وحدَّدَت المكان الذي دُفن فيه هارون.

لكننا لن نذهب إلى تلك الإسرائيليات، ونبقى مع الآيات والأحاديث الصَّحيحة. وبعد وفاة هارون استمرَّ موسى عليه السلام يربِّي الجيلَ الجديدَ من بني إسرائيل، ويساعده في ذلك فتاه الصَّالح يوشع بن نون.

وأخيراً حان أجلُ موسى عليه السلام، وقدّر الله أن ينهي حياته التي عاشها في الابتلاءات والمحن، وواجهها بالصَّبر والثبات والاحتمال، وبذل جهده في تربية بني إسرائيل والارتقاء بهممهم وعزائمهم، وجاءه الأجلُ، وهو يربِّي الجيلَ الجديد من قومه، ويعِدُّهم لدخول الأرض المقدسة[١].

١ ـ موسى وملك الموت:

عندما جاءه الأجلُ، وبعث الله إليه ملك الموت، خيره الله تخييراً؛ لأنَّ من سُنَّة الله مع الأنبياء أنه لا يقبِضُ نبياً إلا بعد أن يخيرَه بين الدنيا والآخرة، بين الموت والحياة، بين أن يبقى مع أصحابه، أو ينتقل إلى الرَّفيق الأعلى.

ـ ودليل تخيير الأنبياء عند الموت ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ أسمعُ أنه لن يموتَ نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة... فسمعتُ النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه، وقد أخذته بحّة يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) القصص القرآني، (٣/ ٣٣٢).

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، فظننته خُيِّر حينئذ(١).

فالله خيّر محمداً ﷺ عند الموت، كما تروي عائشة رضي الله عنها، فاختار الآخرة، اختار أن يكون مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصَّالحين.

ولما جاء موسى عليه السلام الأجلُ، وأراد الله تخييره بعث إليه ملكَ الموت في صورة بشرية، وجرت بينه وبين ملك الموت حادثة مثيرة، أخبرنا عنها رسول الله ﷺ(٢).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد أن يموت، فردَّ الله إليه عينه، وقال له: ارجع إليه، وقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطّت يدُه بكل شعرة سنة. قال: أي ربّ، ثم ماذا؟ قال: ثمَّ الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثمَّ لأريتكم قبرَه إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» (٣).

هذا لفظ الحديث كما جاء في صحيح مسلم، وقد جاء الحديث في صحيح البخاري وفي مسند أحمد، وعند ابن حبان، وعند الحاكم، مع تفاوت في ألفاظه، وهذا التفاوت يكمّل بعضه بعضاً حتى تتضح صورة قصة ملك الموت مع موسى عليه السلام. وإذا أردنا عَرْضَ الصورة جمعاً بين الروايات نُوجزها فيما يأتي(٤):

---

(١) البخاري، رقم ٤٤٣٥، مسلم، رقم ٣٤٤٤.
(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣٣٣).
(٣) البخاري، رقم ١٣٣٩، مسلم، رقم ٢٣٧٢.
(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: سورة النجم، (٨/ ٤٧٢)، رقم: ٤٨٥٥، وانظر: صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب الإيمان، (٢/ ٦٣٢)، رقم: ٤٣٢.

ـ كان ملك الموت يأتي الناس عياناً، فأتى موسى عليه السلام على هيئة رجل، لم يعرفه موسى في أول الأمر.

ـ ربما دخل الملكُ على موسى في هيئته البشرية، وربما استأذن ففوجئ به موسى، فعاجله بلطمةٍ على عينه وفقأها حسب أقوال، وكان موسى قوياً، كما نعلم.

ـ فُوجئ الملك بهذه اللَّطمة، فعاد أدراجه إلى ربه.

ـ أعاد الله للمَلَك عينه، وأمره بالعودة إلى موسى، وتخييره بين الموت الآن أو بعد سنين تُقدَّر بمقدار ما يقع تحت قبضته من شعر الثور.

ـ طلب موسى عليه السلام التعجيل بموته، ودعا ربه أن يجعل قبره قريباً من بيت المقدس؛ لأنها كانت محرمة على بني إسرائيل عند موته.

ـ استجاب الله دعوة نبيه موسى، وقبضه بالمكان الذي أراد.

ـ أُخبر الرسول محمد ﷺ بمكان قبر موسى على حدود القدس عند الكثيب الأحمر، وذلك من علم الغيب الذي أوحى الله به إليه[١].

٢ ـ ردود العلماء على من أنكر هذا الحديث:

ننقل ردودَ أهل العلم على محترفي إنكار الأحاديث، وردّها بعقولهم مع صحتها ـ دون النظر ـ في أشهر شروح هذه الأحاديث مثل فتح الباري، وشرح صحيح مسلم، ويبدو أن ردَّ الأحاديث بالعقل المجرد آفة قديمة استشرت في زمننا هذا، ونشرع في نقل كلام أهل العلم مع الاختصار قدر الإمكان:

أ ـ قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» عند كلامه على هذا الحديث في باب فضائل موسى عليه السلام: قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصورَه، قالوا: كيف يجوز على موسى فقءُ عين ملك الموت؟

(١) وفاة موسى، عبد الرزاق السيد، جماعة أنصار السنة، (د. ت)، ص٢٦. وانظر: أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحة، سليمان محمد الدبيخي، الرياض، دار المنهاج، ط١، ١٤٢٧هـ، (٣/ ٣٠١).

قال: وأجاب العلماء على هذا بأجوبة: **أحدها**: أنه لا يمتنع أن يكون الله سبحانه قد أذن لموسى في هذه اللطمة، ويكون امتحاناً للملطوم، والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما يشاء، ويمتحنهم بما أراد، **والثاني**: أن موسى عليه السلام لم يعلم أنه ملك من الله، وظنَّ أنه رجل قَصَدَه يريد نفسه، فـ«دافعه» فأدت المدافعة إلى ما حدث.

ب ـ قال ابن حجر في «فتح الباري»: قال ابن خزيمة: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وقالوا: إن كان موسى عرفه فقد استخفَّ به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتصَّ منه، وقد أجاب ابن خزيمة عن هذا بتفصيل لخَّصَه الخَطَّابي، ونقله أيضاً ابن حَجَر، قال الخَطَّابي: إنَّ موسى دفعه عن نفسه لما رُكِّبَ فيه من الحِدَّة، وأن الله ردَّ عين ملك الموت؛ ليعلم موسى أنه من عند الله، فلهذا استسلم حينئذ.

هذه بعض نُقول أهل العلم حول الحديث وأمثاله من الأحاديث التي قد لا تروقُ لعقول بعضهم، فيسارعون في ردّها بعقولهم على الرغم من صحتها سنداً، ولم يكلِّفوا أنفسهم قراءةَ شرح واحد لتلك الأحاديث، وتجرَّؤوا على إنكارها، وكان الأولى لهم أن يرجِعوا لكلام أهل العلم في شرح تلك الأحاديث، وإذا لم يقبل المسلم حديث رسول الله ﷺ رغْمَ صحته، فعليه أن يتّهم عقله قبل أن يتّهم الحديث الصَّحيح هذا، والله أعلم.

٣ ـ الرَّسول ﷺ رآه يصلِّي في قبره ليلةَ الإسراء:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج قوله: «مررت ليلة أُسري بي على موسى قائماً يصلّي في قبره عند الكثيب الأحمر»[(١)].

أي: أن رسول الله شاهد موسى عليه السلام قائماً يصلِّي في قبره عند الكثيب الأحمر، وهو في طريقه من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، في رحلة الإسراء والمعراج[(٢)].

---

(١) رواه مسلم، رقم ٢٣٧٥.

(٢) القصص القرآني، (٣/ ٣٤٠).

قال الخالدي: إن طريقَ الإسراء كانت هي الطريق ما بين الحجاز وبلاد الشام، فلعلّ الكثيب الأحمر المذكور في الحديث في منطقة معان جنوب الأردن، أو منطقة وادي عربة، أو منطقة أخرى شرق نهر الأردن.

ويدلُّ الحديث على أن موسى عليه السلام حي في قبره، وحياته خاصة ليست بمقاييس حياتنا الدنيا؛ لأنه غادر هذه الحياة، إنما حياته حياة برزخية تليق به، ومعلومٌ أن الأنبياء أحياء ـ حياة خاصة ـ في قبورهم، وأن الأرضَ لا تأكل أجسامهم.

وكان موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلّي لله سبحانه، وهي صلاة خاصة، ذكر لله وثناء عليه، وليست تكليفاً؛ لأنه لا تكليف بعد الموت[١].

والخلاصة أنه لا يمكننا تحديدَ المكان الذي دُفن فيه موسى عليه السلام، فكل ما ذكره الحديث أن قبره بجانب الطريق عند الكثيب الأحمر، كما أن هذا القبر والكثيب الأحمر ليسا في الأرض المقدسة، وإنما هما على مشارفها على بُعد رمية حجر منها؛ لأنَّ موسى عليه السلام تُوفِّي قُبيل دخول قومه الأرض المقدسة، وهم دخلوها بعد دفنه، وكانوا بقيادة خليفته يوشع بن نون، ولم يأخذوه معهم، ولم يدفنوه في الأرض المقدسة؛ لأنَّ كلَّ نبي يدفن في المكان الذي تُوفِّي فيه[٢].

ودليلُ ذلك ما رواه أحمد والترمذي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ أصحاب النبي ﷺ لم يدروا أين يقبرون رسول الله ﷺ، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يقبر نبي إلا حيث يموت»[٣].

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «ما قُبِضَ نبي إلا دُفن حيث يقبَض»[٤].

---

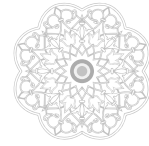
(١) المصدر نفسه، (٣/ ٣٤٠).
(٢) القصص القرآني، المصدر السابق، (٣/ ٣٤١).
(٣) مسند أحمد، رقم ٢٧، قال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث قوي بطرقه.
(٤) سنن ابن ماجه، برقم ١٦٢٨.

وهذا معناه أن موسى عليه السلام دُفن في المكان الذي قُبِضَ فيه، ولم يدفن في الأرض المقدسة، ولم ينقل إليها، والله أعلم.

وهكذا انتهت حياة موسى عليه السلام، وبقيت سيرته وقصته التي عاشها لله ومع الله في سبيل دعوة التوحيد، وتعليم الناس عبادة الله وشرعه، وإنقاذ المُستضعَفين، وإقامة الحجَّة على الفراعنة الجاحدين.

لقد عاش موسى عليه السلام لله ومع الله وبالله، وأرسى قواعدَ حضارة ربّانية أُسِّسَت على تقوى الله وتوحيده، واكتملت تلك الحضارةُ بعد وفاته في عهد طالوت وداود وسليمان عليهم السلام، فأصبحتْ لبني إسرائيل دولةُ داود ثم سليمان عليهما السلام، بعدما كانوا مُستضعَفين تحت حكم الفراعنة.

* * *



الخلاصة والنَّتائج

القرآنُ الكريمُ كتابُ الله الـمُحكَم، أنزله الله تعالى على نبيه محمّد؛ ليكون خاتم الكتب السّماوية، ودستوراً ومنهاجاً لأتباع الدِّين الذي ارتضاه الله للعالمين، وهو روح الوجود الإسلامي، جعله الله هدى للعالمين من الإنس والجن، وهو معجزة دائمة مستمرّة من معجزات خاتم أنبيائه، غير أنَّ إعجاز هذا الكتاب العظيم لم يقتصر على الجانب البلاغي والبياني، إنما فيه وجوه إعجاز أخرى لا تنتهي.

ومن وجوه إعجازه العظيم الإخبار عن الأمم السّابقة، والإنباء بقصص الأنبياء والمرسلين السّابقين، وقد عرض ذلك كُلّه بأساليب متنوعة، كان منها أسلوب القصّة القرآنية. الذي وصفه ربنا عز وجل في كتابه بأنه أحسن القصص، قال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ومن هنا تأتي أهمية دراسة القَصَص القرآني، فمثل هذه الدّراسات مجال لبيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ومنها الإعجاز الإنبائي التَّاريخِي، كما أنّها مجال لاستنباط العديد من الأحكام والإرشادات، والاستفادة منها في واقعنا الـمعاصر.

فالقصص القرآني فيه تحريك للمشاعر في القلوب، وإثارة الوجدان، ودلائل على حقيقة الرسالة الرَّبانية، وإثبات حقيقة الوحي ووحدته، فالدِّين كلُّه خرج من مشكاة واحدة، وبعث الله أولي العزم من الرُّسل والنَّبيين لتبليغ رسالة الإسلام من أبينا آدم حتّى خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

كانت تلك من دوافع تأليف هذا الكتاب الذي تناول قصّة موسى كليم الله عليه السّلام التي وردت في سُور عدّة من القرآن الكريم، فربط بين حلقات القصّة في

هذه السُّور، وبين وجوه الاختلاف في عرضها من إجمال أو تفصيل، وحاول، في بعض المواضع بيان بعض وجوه البلاغة والبيان ودلالات الألفاظ، كما أشار إلى بعض الإرشادات والأحكام التي يمكن استنباطها من القصّة.

ويمكن تلخيص النّتائج التي وصل إليها هذا الكتاب «موسى كليم الله، عدوّ المستكبرين، وقائدُ المستضعفين»، أحداث دُروس وعِبَر ومواقف نقف عليها فيما يأتي:

١ ـ ذُكِر موسى عليه السّلام في القرآن مئة وستّاً وثلاثين مرّة، وذكِر هارون عليه السّلام في القرآن الكريم تسعَ عشرةَ مرّة، وأمّا بنو إسرائيل فذكروا في القرآن إحدى وأربعين مرّة. وكلمة (اليهود) وردت في القرآن تسع مرّات فقط، وبهذه الإحصائية القرآنية نُدرك أنَّ أكثر السُّور حديثاً عن موسى كليم الله عليه السّلام هي سورة البقرة والأعراف ويونس وطه والشُّعراء والنَّمل والقَصَص وغافر والنَّازعات على نحو مُطَول، وذكر باسمه وبمواقفه في سور أخرى كثيرة.

٢ ـ موسى عليه السلام هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأسرته من بني إسرائيل، فأبوه عمران، وأمُّه يوكابد بنت الوي، وأخته الكبرى مريم بنت عمران، وأخوه الأوسط هارون بن عمران، وأولاده ـ حسب الطّبري ـ هما: جرشون وإليعاز.

٣ ـ أمّا البيئة التي عاش فيها موسى عليه السّلام فوِلِدَ في مرحلة من مراحل الحكم الفرعوني لمصر، في السّنة السّابعة من حكم رمسيس الثاني، وعاش وكَبِرَ في بيت فرعون؛ ليكون عدواً للمستكبرين، وعوناً للمستضعفين.

٤ ـ يقول الشَّيخ سلمان العودة عن موسى عليه السّلام: أحبّه؛ لأنه علَّمني الكثير بعد رسول الله، وتعرَّفت إلى الله أكثر من خلال قصَّته، وأحببت أكثر سور القرآن التي أطالت في قصته مثل سورة الأعراف وطه والقصص، وهي تقريباً كلُّها عن موسى، فعندما أقرؤها أتخيل تفاصيل القصّة، وأحسُّ أنّي أعيش في جو إيماني عظيم.

٥ ـ هيأ الله تعالى لنبيه ورسوله موسى عليه السّلام أسبابَ تبليغ الرِّسالة الرَّبانية في الدَّعوة إلى عبادة الله وحده، ورعاية الله لرسوله جعلته يعيش وسط الطُّغيان آمناً

مطمئنّاً داعياً إلى الحقّ مهما كان بطش أعدائه ومكرهم، فهو في يسر وحفظ ورعاية من الخالق تبارك وتعالى.

٦ ـ أخذ موسى عليه السّلام مكانته العظيمة في موكب الأنبياء والمرسلين والرَّهط الكرام الذين قادوا مواكب المؤمنين وجموعهم على مرِّ الأزمان، وكان موسى عليه السّلام من الدُّعاة إلى الإيمان بالله، وحظي بالمكانة البالغة في قلوب العُصْبة المسلمة حتّى يومنا هذا.

٧ ـ الحقُّ له أنصاره، ولو كثر أنصار الباطل، وأعطتنا قصّة موسى عليه السلام دروساً وعِبراً عن الظُّروف التي بَلَّغ فيها الرِّسالة، وكيف أنَّه وجد في كلِّ مرحلة من يعينه على نشر دعوة الحقّ، ومقارعة البغاة والظَّالمين والمتكبِّرين، ونصرة الحقِّ والمستضعفين.

٨ ـ سُنَّة الله في الخلق أن ينصرَ الأخيار وأهل الحقِّ في نهاية الأمر، وأن يخذلَ الأشرار والظَّلَمة والمبطلين وأعوانهم جميعاً، طال الزمان أو قصر.

٩ ـ الدُّعاة إلى الله يواجهون المصاعب والمخاطر والطُّرُق الوعرة والتَّهديد والوعيد من الظالمين، ولكنَّهم لا يقيمون لأعداء الله وزناً، بل يمضون في طريق الحق مستعينين بالله، ومُسَلِّمين أمرهم له، وآخذين بالأسباب التي هيأها الله لهم؛ ليعينهم الله على النّصر والفلاح والتّمكين لهذا الدّين العظيم.

١٠ ـ إنَّ منطق الطغاة، ومن ورائهم حاشيتهم وبطانتهم السَّيئة، هو الحكم على الدَّعوة إلى الله بأنّها إفساد في الأرض وسحر وغير عقلانية؛ لأنّها، وبكلِّ تأكيد، ستقوض أركانَ حكمهم، وستحرِّر النّاس من جبروتهم، وظلمهم، وطغيانهم.

١١ ـ الطُّغاة تأخذهم العِزَّة بالإثم والتَّكبُّر على دعوة الحقّ، وهم في كلِّ زمان ومكان رافضون لدعوة الحقِّ والعدل، ويؤثرون الغَي على الرُّشد.

١٢ ـ قصّة موسى كليم الله عليه السّلام تدعو كلَّ مؤمن إلى المداومة على ذكْر الله وأداء العبادات في السَّرّاء والضَّرّاء، وفي مواطن القوة والضَّعف بلا كَلَل أو مَلَل.

١٣ ـ في قصّة موسى دروس إيمانية، أهمُّها أنَّ الإيمان إذا دخل قلب إنسان

يطمئنُّ قلبه، وينشرح صدره، ولا يخشى أحداً سوى مولاه تبارك وتعالى، وأنَّ الدَّعوة إلى الله أساسها اللُّطف، واللِّين، والرِّفق، والإحسان، والحُجّة الدّامغة، والبشارات بأنَّ خير نهاية للمؤمن بأن تُختم حياته بالإيمان، وأن يلقى ربه وهو راضٍ عنه.

١٤ ـ تكررت قصّة كليم الله موسى عليه السلام في سورٍ وآيات كثيرة لحكمةٍ أرادها الله، وذلك لما احتوته من قصص ودروس وعِبَر وعِظاتٍ لأهل الحقّ، ولما فيها من تسلية ومصابرة وتثبيت من الله تعالى لخاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد ﷺ، في دعوته إلى الإسلام، ومواجهة الكفر والضّلال، والصَّبر على أذى المشركين، ونحن نجد بين قصّة موسى عليه السّلام وقصّة رسول الله محمَّد ﷺ مواقفَ، وأحداثاً، وحوارات متقاربة ومتماثلة.

١٥ ـ من نتائج قصّة موسى عليه السّلام وجدنا أنَّ (إسرائيل) هو الاسم الآخر ليعقوب عليه السَّلام، وقد ذكِر بالاسم الأول «إسرائيل» مرّتين في القرآنِ الكريم، الأولى في الآية (٩٣) من سورة آل عمران، والثانية في الآية (٥٨) من سورة مريم، وهي الآية التي ذكرت شجرة النّبوة المتفرِّعة عن إبراهيم ويعقوب، عليهما السّلام. وكذبت آية آل عمران وما بعدها من الآيات مزاعمَ اليهود، وكشفتْ أكاذيبهم، وما نسجَه أحبارهم من أخبار وقصص وروايات حول يعقوب في سفر التَّكوين في العهد القديم، وفنّدت ما جاء من افتراءات في حقّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفي حقِّ نبيه يعقوب عليه السّلام. وتبين لنا ذلك كلّه بالمقارنات التي أُجريت بين ما جاء في نصوص التّوراة وآيات القرآن الكريم والأحاديث النّبوية الصّحيحة الواردة في شأن بني إسرائيل ومجادلة النّبي لهم.

١٦ ـ بينت آياتُ القرآنِ الكريمِ أنَّ إبراهيم عليه السّلام هو أبو الأنبياء، ومنه تفرّعت شجرةُ النّبوة؛ فجميعُ الأنبياء المبعوثين بعده كانوا من ذرّيته؛ فالآية (٥٨) من سورة مريم، ذكرت أربعة أنبياء، هم آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل الذي هو يعقوب عليه السّلام، وجاء ذكر إبراهيم عليه السّلام لأنّه أبو الأنبياء، منه تفرّعت شجرة النّبوة، وإليه انتهت، وعنده استقرّت، وذكر آدم؛ لأنّه أبو البشر. وأمّا نوح عليه السّلام فذكِرَ؛ لأنّه أبو البشرية الثاني بعد الطُّوفان.

١٧ ـ ظهر من صريح القرآن أنّ النّبوة جُعِلت في ذرِّيةِ كلٍّ من إبراهيمَ ويعقوبَ؛ فتفرَّعتْ شجرةُ النُّبُوة إلى الفرعين الإسماعيلي والإسرائيلي، فالفرع الأول هو المُنحَدر من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام، وخُتِمَ هذا الفرع بسيدنا محمّد بن عبد الله، فكان هو خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد إسماعيل، بل سيد ولد آدم، فهو أفضل المخلوقين وأحبّ مخلوقات الله وعبادِه إليه. وأمَّا الفرع الثاني فهو المنحدر من يعقوب حفيدِ إبراهيمَ، فمِن نسلِه بنو إسرائيل، وهو أصلُ أسباطِهم وأنبيائهم، ومنهم عيسى ابن مريم من جهة أمِّه؛ لأنّه لا أبَ له، وبه خُتِم فرعُ النّبوة الإسرائيلي.

١٨ ـ يبدأ تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عليه السّلام، ولو كانوا بني إبراهيم لبدأ تاريخهم من تاريخ إبراهيم، ولو كانوا بني إسحاق لبدأ تاريخُهم من تاريخ إسحاق، لكنَّ تاريخهم يبدأ من تاريخ يعقوب، وهذه عملياً بداية وجود مَنْ ثبتَ منهم نسبُه ليعقوبَ عليه السّلام، وهو عليه السلام بداية حياتهم وتاريخهم.

١٩ ـ وردت كلمة (أسباط) في القرآن الكريم خمس مرّات، ونصّت الآياتُ التي ورد فيها ذكر (الأسباط) على وجوب الإيمان بهم، وهم أنبياء كرام من بني إسرائيل، فهم مذكورون في القرآن في سياق ذكر الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا الذكر جعل الكثيرين يعُدُّون (الأسباط) هم أبناء يعقوب الاثنا عشر، ومن ثمَّ جعلوا إخوة يوسف أنبياء؛ لكن تبين لنا أنَّ هذا الاستدلال غير صحيح، وأنَّ (الأسباط) المذكورين في القرآن الكريم ليسوا أبناء يعقوب، إنّما هم ذرِّيتُه المتفرِّعة من أبنائه، فـ (الأسباط) في بني إسرائيل كالقبائل في العرب؛ أي: هم بمعنى الأمم، كما ورد في صريح القرآن، فإذا كانت (الأسباط) بمعنى قبائل بني إسرائيل، فإنّ (الأسباط) ليسوا بأنبياء، ،وإن ذكِروا في سياق ذكْر الأنبياء في آيات من القرآن الكريم.

٢٠ ـ يفَرِّق القرآن الكريم تفرقةً واضحة بين دلالتي (بني إسرائيل) و(اليهود)؛ فالقرآن أطلق اسم (بني إسرائيل) عندما تحدّث عنهم في تاريخهم الذي سبق بعثة محمَّد ﷺ، على حين أطلق عليهم اسم (اليهود) عندما تحدَّث عن مواجهتهم لرسول الله ﷺ وأصحابه بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة؛ في سياق الكشف عن

نفسياتهم وفضح مكائدهم ودسائسهم، وتفنيد شُبهاتهم ودعاياتهم وأقوالهم. ومن هنا يمكن القول: إنَّ الشّعب الذي يسمّى تاريخياً باسم (بني إسرائيل) فقد هذا الاسم بعد بعثة النّبي، وأخذوا اسماً جديداً هو (اليهود)، ولم يعُد إطلاق الاسم السّابق (بني إسرائيل) مُمكناً.

٢١ ـ (العبرانيون) اسم مكذوب، افتراه من دونوا الأسفار بعد وفاة موسى عليه السّلام بقُرون، والدّليل على ذلك أنّ التّاريخ لم يذكر لنا البتّة أنّ إبراهيم أبا الأنبياء عليه السّلام هاجر من موطنه الأصلي جنوبي العراق إلى أرض كنعان، ومعه أربعة آلاف من قومه، ثمَّ أصبح قومه جزءاً من شعوب أرض كنعان، وأُطلِق عليهم اسم (العبرانيين)؛ فاليهود يجعلون بداية تاريخهم من إبراهيم، ويسمُّونه (إبراهيم العِبْراني)، لكنّ هذا الزّعم تُفَنّدُه المصادر الموثوقة المعتَبَرة التي تذكر أنّ الله تعالى اختارَ إبراهيمَ نبياً، فأنزل عليه الوحي في موطنه في العراق، وهناك دعا إلى التّوحيد ونبذ الشِّرك والوثنية وعبادة الأصنام، فحارَبَه قومه، ولَقِي منهم الأذى، فأمَرَه ربّه أن يهاجر إلى (أرض كنعان)، فخرج إبراهيم إلى تلك الأرض، ومعه زوجه سارة وابن أخيه لوط، فكانوا ثلاثة نَفَرٍ فقط، وكانت تلك الهجرة في أوائل القرن التّاسع عَشَر قبل الميلاد.

٢٢ ـ لا نجد في نصوص القرآن الكريم، ولا في نصوص الحديث الشّريف، ذكراً لبني إسرائيل بعد يوسف عليه السّلام، ولا إشارات إلى ما جرى لهم في هذه المرحلة القريبة من عهد موسى عليه السّلام، ولا تبين تلك النُّصوص مُدَّةَ بقاء بني إسرائيل في مصر في حالةِ تكريم وإعزاز، ولا المرحلة التي بدأ فيها اضطهاد الفراعنة لبني إسرائيل وتعذيبهم، وعندما استطاع الفراعنة أن يهزموا الهكسوس، ويطهروا بلادهم من الاحتلال، دخلت مصر في طور جديد من الحكم الفرعوني، فتغيرت الأحوال على بني إسرائيل، وبدأت مرحلة اضطِهادهم.

٢٣ ـ تناول البحث بإحصائية دقيقة السُّورَ القرآنية التي ورد فيها ذكْر موسى عليه السّلام، وتبين أنّ ذكره في هذه السُّور كان بإحدى طريقتين؛ فبعضها يذكر أحداثاً تفصيلية من قصّة موسى، وبعضها كان يذكر لقطات سريعة، وهناك سور أخرى

اكتفت بذكر اسمه فقط. وكان مجموع السّور التي ورد فيها اسم موسى عليه السّلام أربعاً وثلاثين سورة، وهذا يدلّ على أهمية هذه القصّة؛ ولهذه الأهمية تناولنا القصّة بالبحث والدّراسة.

٢٤ ـ من حيث الاصطلاح هناك فرق بين (النّبي) و(الرّسول)؛ فالنّبي جاء لتقرير شريعة مَن كان قبله، وأمّا الرّسول فهو من جاءَ بشريعة جديدة، اختصّ بها، ويترتّب على هذا أنّ كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي رسولاً. وموسى عليه السّلام نبي رسول، قد أخبَرَه الله تعالى بخبر السّماء، وأنزل عليه الوحي، وأمره بدعوة النّاس وتبليغ الرّسالة، فكان عليه السّلام من أولي العزم من الرّسل الذين نشروا الدّين الذي أمر به الله الأنبياء.

٢٥ ـ (الرّسالة) ضرورية للعباد، ولابدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى أي شيء آخر، فالإنسان محتاجٌ إلى الرّسالة لإصلاح أحواله في معاشه ومعاده، فلا صلاحَ في آخرته إلا باتّباع الرّسالة، ومن ثمَّ هو مضطرّ إلى الشَّرع، ولهذه الضّرورة جاء الرُّسُلُ لإصلاح النّفوس، وتزكيتها، وتطهيرها، وتحذيرها من المعصية، ودلالة الخلق على الطّريق القَويم، وإرشادهم إلى المنهج الصّحيح، وتوجيههم إلى المكارم ومحاسن الأخلاق، وتنفيرهم من المساوئ والشُّرور.

٢٦ ـ الأنبياء من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم، ويصيبهم ما يصيب البشر من السَّهو والنّسيان، والنّوم واليقظة، والرِّضا والغضب، والحزن والفرح، وتناولِ الطّعام والشّراب، والمشي بين النّاسِ في الأسواق، والتَّعَرُّضِ للابتِلاءات والمكاره، ويتزوجون، ويكون لهم ذرِّية وأولاداً وآباء وأمَّهات وأقارب وعشيرة، وهم في ذلكَ كُلِّه لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكنّ الله عزَّ وجلَّ اختارهم من بين عباده، وأنعم عليهم باصطفائهم لتبليغ الرِّسالات، وخصَّهم ببعض الخصائص، والحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر هي أن يكونوا قدوة، وتكون أحوالُهم مَحَلاً للتّأسّي.

٢٧ ـ (الإسلام) أول عقيدةٍ عُرفت في الأرض، وهو قائم على التّوحيد والقوامة لله وحده، وثمّة حجج دامغة، وأدلّة ثابتة، عُرِضَت مُفَصّلة في هذا الكتاب، ترفض

كلّ ما يتخبّط فيه من يسَمَّون «علماء الأديان المقارنة»، وغيرهم من (التَّطوريين) الذين ذهبوا إلى أنّ التّوحيد كان طوراً متأخِّراً من أطوار العقيدة، مثل تعدُّد الآلهة أو تثنيتها، أو تأليه القوى الطّبيعية، وتأليه الأرواح والكواكب وغير ذلك. وكلّ هذه الدّراسات مُغرضة، تَتَّبعُ منهجاً مُوجَّهاً بدوافع تاريخية ونفسية وسياسية، وتهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السّماوية والوحي الإلهي والرّسالات، لتُقَرّر في نهاية المطاف أنّ الأديان من صنع البشر، وأنّها تطورت بتطور الفكر البشري بمرور الزّمن.

٢٨ ـ دعوة الأنبياء دعوة واحدة، وهي عبادة الله وتوحيده، وتقوم على مفهوم شامل للتّوحيد والعبادة، يتمثل في إخراج النّاس من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده لا شريك له، فليس التّوحيدُ مقتَصِراً على مجرّد توحيد النّاس لله بألسنتِهم، وتوجيه شعائر التَّعبُّد الظّاهرة إليه، إنّما التّوحيد اعتقاد راسخ في القلب، ومهمّة الرُّسُل في رسالتهم ودعوتهم تتجاوز المفهوم القاصر للتّوحيد والإيمان إلى المفهوم الشامل؛ لذلك استحقّت كلّ هذه الجهود والتّضحيات، والصّبر على الابتلاء والأذى من الأنبياء والرُّسُل عليهم الصّلاة والسّلام.

٢٩ ـ سورة القصص أكثر سورة جاءت فيها قصَّة موسى عليه السّلام مفصَّلة، فهي تفصيل لإيجاز قصّته في سورتَي الشُّعراء والنّمل، ففي سورة القصص نجد حلقات من القصّة لا نجدها في غيرها، مثل مولده، والتقاط آل فرعون له، ورضاعته، وتربيته في بيت فرعون، واضطهاد فرعون لبني إسرائيل بتذبيح رجالهم واستحياء نسائهم، وحادثة قتل موسى للرَّجُل القِبطي خطأً، ثمّ فراره إلى مَدين، وسقيه للمرأتين، واستئجار أبيهما له، ثمّ زواجه من إحداهما، ثمّ عودته ومناجاته لربّه، فمن أهمّ سمات القصّة في سورة القصص الإطناب والتّفصيل في كثير من المواضع، وعلى الرّغْم من اسم السُّورة الدّالّ على أكثر من قصّة، فإنها لم تعالج إلا قصّة موسى، وكأنّ في ذلك إشارة إلى أنّ هذه القصة، بما جاء فيها من مشاهد ومواقف تفصيلية، تستحقّ هذا الاسم الجامع (القصص)؛ لأنّ فيها عِبَرَ القَصَصِ القرآني ودلالاته جميعها.

٣٠ ـ قدّمت سورةُ القصص قصّة موسى عليه السّلام في مسار واضح، فتناولتْ

بنية المجتمع، وأطراف الصّراع فيه، وما فيه من الاختلالات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبينتْ طريقة معالجتها، وورد في هذه السُّورة حديث عن معظم الشّخصيات الأساسية، ومواقفها، وخصائصها، ودورها في بناءِ المجتمع أو هدْمِه.

٣١ ـ التّدرُّج في الأشياء من سُنَنِ الله الجاريةِ في الأمم والشّعوب والدُّول والمجتمعات؛ فإذا قضى الله شيئاً، وقضت به حكمته هيأ الأسباب، وأتى به مُتدَرِّجاً لا دفعة واحدة، فعندما وصل ظلم فرعون لبني إسرائيل، واضطِهاده واستضعافه لهم إلى أقصى درجاته، وبلغ منتهاه؛ كانت تلك النقطةُ بدايةَ التّمكين لبني إسرائيل، وبدأت قصّة التّمكين (قصّة موسى عليه السّلام) من نقطة الاهتمام بموسى الرَّضيع.

٣٢ ـ نجد في قصّة موسى مظاهر الإعجاز القرآني، ومنها الإعجاز الإنبائي التّاريخي، فالقرآن الكريم وصفَ حاكم مصر في زمن موسى بِـ (فرعون)، على حين وصَفَ الحاكم في زمن يوسف بِـ (الملك) في خمسة مواضع مختلفة من سورة يوسف، وهذا وجه من وجوه الإعجاز الإنبائي والتّاريخي في كتاب الله؛ لأنّ يوسف عليه السّلام لم يعمل عند أحد من فراعنة مصر لأنهم لم يكونوا ملوكاً لها في زمنه، وهو زمنُ انحسار ملكهم إلى جنوب البلاد، وكانت عاصمتهم (الأقصر)، ولغتهم الهيروغليفية (المصرية القديمة) التي لم يكن يعرفها يوسف عليه السلام، وهذه الإشارةُ التّاريخيةُ واحدة من جملة البراهين على أنّ القرآن الكريم كلام الله الـمُعجِز من وجوه مختلفة، فلا يمكن أن يكون صناعة بشرية، فهو كلام الله أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بلغة وحيه نفسِها (اللغة العربية) بعهده الذي قطعه على ذاته العلية حتى قيام الساعة، وتعهد بحفظِه الـمُطلَق والدّائم؛ ليبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق، ووحدانية الخالق، وعلى صدق نبوة خاتم الأنبياء والـمرسَلين سَيدِنا محمّد ﷺ.

٣٣ ـ شخصية أم موسى عليه السّلام تمثل شخصية امرأة شرَّفها الله، وأكرَمها بنبيه، وجعلها بركة لقومِها ومُنقذاً لهم؛ فقد ولدتْ مَن كان سبب إهلاك عدوهم وإنقاذهم من حياة الذلّ والاضطهاد والمهانة التي كانوا يعيشونها، وهي أم لنبيينِ من الأنبياء، هما: موسى وهارون، وابتُلِيتْ هذه المرأة بموقف من أشدّ المواقف وأصعبها

فثبتت، وكانت مثالاً للأمّ الصّابرة، والمرأة المؤمنة التي تستجيب لأوامر الله بإيمان ويقين مطلق، فقدّمت درساً في امتثال أمر الله، وتصديق وعده، والثقة بالقدرة الإلهية والعناية الرّبّانية، وكمال التّوكُّل على الله، وتغليب حبِّ الله على عاطفة الأمومة.

٣٤ ـ لم يبين القرآنُ اسمَ الرَّجل الصّالح صاحب مدين، وأبي المرأتين اللّتين سقى لهما موسى، ولم يصحَّ حديث واحد مرفوع عن رسول الله في تعيينه، واختلف المفسّرون والمؤرّخون فيه، والرّاجحُ من أقوالهم أنَّه ليس النّبي شُعيباً، وأنَّه عبد صالح من أهل مَدين؛ لأنّ شعيباً عليه السّلام كان قبل موسى بمدَّة زمنية طويلة، فقوم لوط وقوم مدين كانوا متقاربين زمنياً ومكانياً، وكان دمار قوم لوط قبل دمار قوم مدين، وذكَّرهم شعيب بما حلَّ بقوم لوط من دمار منذ عهد قريب، فالحادثةُ مازالت قريبة إلى أذهانهم، ولـمَّا كان هلاكُ قومِ لوطٍ في زمن إبراهيم، فقد كان هلاك قوم مدين قريباً من عهد إبراهيم، وبين إبراهيم وموسى ـ عليهما السّلام ـ مدّةٌ زمنية طويلة تمتدُّ قروناً قدَّرَها بعض المؤرخين بأربعةِ قرون، فالرَّجُل الذي أكرمَ موسى عليه السّلام عاش بعد النّبي شعيبٍ بعدّة قرون، وكان رجلاً صالحاً من قوم مَدين، وهو مُبْهم من مبهمات القرآن، تباينت فيه أقوال الـمفسِّرين، فلا يمكن القَطع في تحديد شخصيته أو اسمه لعدم وجود أدلّة على ذلك من المنقولات أو الأحاديث الصّحيحة.

٣٥ ـ (الكلام) من صفات الله تعالى، وهذا اعتقاد راسخ من عقيدة السّلف، وهي صفة قائمة غير بائنة عن الله عزَّ وجَلَّ، لا ابتداء لاتِّصافه بها، ولا انتهاء، يتكلم، وكلام الله تعالى أحسن الكلام، ولا يشابه كلامه كلامَ المخلوقين، إذ لا قياس أصلاً للخالق بالمخلوق، ويكلِّمُ به من يشاء من ملائكته ورُسله، ويسمِعهم كلامه على الحقيقة، وبصوت نفسِه، وكذلك يسمع كلامَه عبادَه في الدّار الآخرة، كما كَلَّم موسى، وناداه حين أتى الشّجرة، فسمعه موسى، وكلام الله تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، وصوته لا يشبه أصواتهم، ولا نفاد لكلماته، ومن كلامه التّوراة والإنجيل والقرآن بسُورِه وآياته ومُفرداته.

٣٦ ـ الأدلّة على وجود الله كثيرة مبثوثة في الأنفس والآفاق، ويستَدلّ على

وجود الله بالعقل والمنطق والحِسّ والفطرة السّليمة، فالأشياء موجودات حادثة، وحدوثها ووجودها بعد العدم دليل على أنّ هناكَ مُوجِداً أوجدها، ومن ثمَّ لم يكن مقصود فرعون من ادّعاءِ إلهيته أنَّه خالق للسّماوات والأرضِ وما بينها، إنَّما المقصود أنّ السّلطة والقيادة على النّاس لا تكون إلاّ له، وأنّ من الواجبِ طاعته وامتثال أوامره، فهو ملك النّاس وسيدهم، ومن هنا كان ادّعاء ربوبيته عليهم، ففي كلامه ما يؤكِّدُ عدم ثقته بألوهيته عليهم، فاحتمالُ وجود إله غيره يستحقّ العبودية احتمال قائم.

٣٧ ـ قدّرَ الله على أمّ موسى حزناً شديداً، وهمّاً بليغاً، وخوفاً على ولدها من آل فرعون، لكنّ ما كابدتْه من همّ وحزن لم يكن إلاّ وسيلة لوصول ابنها إليها على نحو تطمئنُّ به نفسُها، وتقَرُّ به عينها، وتزداد به غبطة وسروراً، فالله يقَدِّرُ على عبيده بعض الـمَشاقِّ؛ لِينيلَهم خيراً، أو يدفع عنهم شرّاً أعظم من الـمَشاقِّ التي تحمّلوها، والخوف الطّبيعي من الخلق لا يعارِضُ الإيمانَ بالخالق.

٣٨ ـ الإيمان يزيد وينقص، واليقين من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويبلغُ به درجةَ الكمال، ومن أمارات الإيمان الصّبر على المكارِه والـمُزعِجات، ويأتي التّثبيت من الله، فيربط على قلوبِ عباده المؤمِنين الصّابرين، ويزيدهم إيماناً وثباتاً وصبراً، وبذلك يتمكَّن العبد من الصّواب في القول والفعل، ويكون ما ظاهره البلاء رحمة من الله في حقيقتِهِ ومآله؛ لأنّ الأمور تُقَدَّر بخواتيمها، ومآلاتها، ونهاياتها.

٣٩ ـ وعد الله أمَّ موسى أن يردَّ إليها ابنها، ومع ذلك اجتهدت في محاولات ردِّه، وأرسلت أخته للبحث عنه ومعرفة خبره، وبهذا تُرشدنا قصّة موسى إلى ضرورة الأخذ بالأسباب، فالأخذ بها غير منافٍ للإيمان بالله، ولا يعارِضُ حقيقة التَّوكُّل عليه، بل هو من تمام التَّوكُّل على الله، وإذا عرف العبد أنّ القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا محالة فإنه لا يهمل الأخذ بالأسباب.

٤٠ ـ من الأحكام التي يمكن استنباطها من قصَّة موسى جوازُ خروج المرأة في طلب حاجتها، وجواز تكليمها للرِّجال من غير محذور، وجواز أخذ الأجرة على الكفالة والرَّضاع والدّلالة على من يفعل ذلك، وعدم جواز قتل النّفوس بغير حقّ، ومن يفعل ذلك يعدّ من الجبّارين الـمُفسِدين في الأرض، ولا يمكن تبرير عمله

بأنّه يريد الإصلاح؛ وجواز إخبار الرَّجلِ غيرَه بما قيل فيه على وجه التّحذير له من شرّ قد يقع له، ولا يعَدُّ ذلك من النّميمة.

٤١ ـ من الأحكام المستنبطة من القصّة الأخذ بأخفِّ الضَّررَين عند تزاحم مفسدتين، ودفع المفسدة الأعظم بالمفسدة الأقلّ، إذا كان لابدّ من ارتكاب إحداهما، أي أنه يرتكب الأخف منهما والأسلم، ودليل هذا الاستنباط أنَّ موسى لما دار الأمرُ بين بقائِهِ في مصر مع قتله للرَّجل، أو ذهابه إلى بلدٍ بعيدٍ لا يعرف الطريق إليه، وليس معه دليل، اختار موسى الخيار الثاني؛ لأنّه الأسلم والأخفّ ضرراً.

٤٢ ـ يعترف الإسلامُ بالملكية الفردية، ويقدِّر الجهد الفردي الذي يبذل في تحصيل هذه الملكية بوجه من وجوه الحلال المشروعة، غير أنّه يضع ضوابط للتّصرُّف في الملكية الفردية، ويرسم منهجاً واضحاً لتنميتها، وهنا يظهر مبدأ (التّوازن) والجمع بين المثالية والواقعية في التّشريعات والـمُعاملات الإسلامية، فهي تلبّي الحاجة الفطرية الغريزية في الإنسان المتمثلة في حبِّه للتَّملُّك، فلا يحرم الفرد ثمرة جهده، لكنّه لا يطلِق يدَه في الاستمتاع به إطلاقاً يصلُ إلى حدّ التّرَف، ولا يقيدُه تقييداً يصل إلى حدِّ التّقتير، ويوازن بين (حقّ الفرد) و(حقوق الجماعة).

٤٣ ـ من أهداف القصص القرآني تثبيت قلب النّبي محمّد خاتم الأنبياء ﷺ، ولا تخرج قصّة موسى عن هذا الهدف العامّ، فهي تبدأ وتختِمُ بخطاب الرّسول ﷺ، ببيان وظيفته وحدود تكاليفه؛ كيلا يتأثر بما يلقاه من أذى قومه، وما فيهم من سفاهة وعناد وتكذيب لرسالته، وتنطوي على إرشاداتٍ للنّبي وتذكير بوظيفتِهِ الأساسية التي هي البلاغُ الـمُبين.

٤٤ ـ تَعرِض سورة طه قصّة موسى عليه السّلام ـ بتفصيل من مطلعها إلى ختامها ـ حلقات رسالته من حلقة تكليفه إلى حلقة اتِّخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، ولاسيما موقف المناجاة بين الله ونبيه موسى، وموقف الجدل بين موسى وفرعون، وموقف المبارزة بين موسى والسّحَرة.

٤٥ ـ (العقيدة) هي الموضوع الرَّئيس لسُورة الشُّعراء، وتجمع هذه السُّورة في عناصرها الأساسية توحيد الله، والخوف من الآخرة، والتّصديق بالوحي الـمُنزَل

على محمّد رسول الله، والتّخويف من عاقبة التّكذيب. وجسم السُّورة هو القصص، مع مقدّمة وتعقيب، وجميع هذه الأجزاء والعناصر تُؤلّف وحدة متكاملة مُتَجانِسة تعبّر عن موضوع السُّورة، وتُبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد، ومن ثمَّ تعرض من كلّ قصَّة الحلقة أو الحلقات التي تؤدّي هذه الأغراض. ويغلب على السُّورة كلّها جو الإنذار والوعيد والعذاب؛ لأنّ السُّورة تواجه تكذيب مُشرِكي قريش لرسول الله.

٤٦ ـ من أهمّ الأسلحة والعتاد في مواجهة الطُّغاة الإكثار من ذكر الله، وحسن الصّلة بين العبد وربّه والتَّوكُّل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كلّ الأوقات، فالذكر طريق الاستعانة بالله على مواجهة الصُّعوبات، فتسبيح الله وحمده والثناء عليه يجعل القلوبَ عامرةً بذكر الله، فيصونُها من الضّعف والفُتور في مواجهة الطُّغيان، والذكر الدّائم يشرح الصُّدور وييسِّر الأمور، وهذا عامّ في كلّ من آمن بالله، وملءُ القلوب بذكر الله يمنح القوة والصّبر والرّضا.

٤٧ ـ اسم (فرعون) من «مبهمات القرآن»؛ فالآيات لا تحدِّدُ اسمَه، وكلُّ ما تقرِّرُه أنَّه (فرعون)، وهذا لقبٌ يطلَق على من ملك مصر في تلك المرحلة، وليس اسماً لملك معينٍ حكمَ مصر، فقد يكون هو فرعون نفسُه، امتدَّ به الحكم والعمر، وظلَّ حاكماً لمصر منذ ولادة موسى إلى أن عاد إليه نبياً، وكان هلاكُه غرقاً في البحر لمّا لحق بني إسرائيل ـ وهذا الرَّاجح ـ وقد يكون فرعونَ آخرَ حكم بعد الأول.

٤٨ ـ ذهب المؤرِّخون إلى أنّ هناك فرعونين، هما الأب والابن، فالأول «فرعونُ الاضطهاد»، وهو (رمسيس الثاني) الذي ازداد اضطهادُ بني إسرائيل في عهده، وفي عهده ولِدَ موسى عليه السّلام، وتربَّى في قصره، فلمَّا شبَّ قتل القِبْطِي، وهرب؛ والثاني «فرعون الخروج»، وهو (منتباح) أو (منفتاح) أو (مفتاح) ابن رمسيس الثاني، وقد حكم بعد وفاة والده، وهو الذي واجهه موسى وهارون عليهما السّلام، وجرى بينهما وبينه ما جرى من أحداث، وسُمِّي بذلك الاسم لأنّه لحق ببني إسرائيل، وخرج وراءهم، فأغرقه الله في البحر.

٤٩ ـ لم يرد في القرآن ذكرٌ صريح لاسم فرعون، ولم يصِحَّ شيء في تعيينه عن رسول الله ﷺ في الحديث الشّريف؛ لذلك نُبقي اسم فرعون الذي واجهه موسى

عليه السّلام مبهماً، ولا نقول عنه سوى أنَّه فرعون الطّاغية المتجبِّر الـمُفْسِد الذي ادّعى الألوهية والرّبوبية، وعبَّد شعبَه له، فجعلوه إلهاً وربّاً.

٥٠ ـ دعوة الأنبياء ورسالاتهم خالصة لله تعالى، ومُنَزّهة عن الأغراض الدنيوية، وهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم، اصطفاهم واختارهم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهم يستمدُّون حجّتهم من آيات الله في الكون، فلا يجد الطُّغاة والظّالمون ما يدفعون به هذه الحُجج الدّامغة سوى اتِّهام الرسول بأنّه يريد الحكم والسُّلطان لنفسه، وأنّه لا يريد إصلاحاً ولا عدلاً، ومن هنا كانت دعوة موسى في نظر فرعون دعوة سياسية، بحسب الاصطلاح الدّارج في عصرنا الحاضر.

٥١ ـ السِّحر عملٌ بغيض وباطل، يقوم على الخداع، وتأباه طباع النّاسِ وفِطَرهم السّليمة، ومن يمارسون السِّحر لا يختلفون في الفطرة عن باقي النّاس، فطباعهم وفطرهم تأبى هذا الفعل، ويعلمون في قرارة أنفسهم أنّه كذب وتدليس، لكنّهم يستمرّون بهذه الأفعال، ويتعلَّمون السِّحرَ، ويعلِّمونه غيرَهم؛ لأنّ السِّحر والشّعوذة بضاعتهم ومصدر رزقِهم، لذلك يسعون إلى ترويجها خدمة لمصالحِهم.

٥٢ ـ السّحر مُحرَّم؛ لأنّه يقوم على الكذب والتّلفيق، ولأنّ فيه إفساداً لعقائد النّاس، وإيهاماً لهم بقدرة السَّاحر على ما لا يقدر عليه إلاّ الله. ولا خلاف بين أهل العلم في الحكم على السَّاحر بالكفر إذا كان سحرُه من نوع الاستعانة بالشّياطين والكواكب والنُّجوم، وعقوبتُه في هذه الحال القتل باتِّفاق العلماء، أمّا إذا كان سحره بالحِيلِ الصِّناعية فإنّه يعزَّر.

٥٣ ـ لا يجوز تعلّم السِّحر ولا تعليمه لعِلّةِ إفساد العقائد والإيهام بالقدرة، وأمّا الرُّقى فكلّها مباحة ما لم تكن شِرْكاً، وهي البديل الشّرعي للسِّحر، والذين أباحوا تعلُّم السِّحر قلّة من أهل العلم، شذت عن رأي الجمهور، ولا يجوز الالتفات إلى الرَّأي الشّاذ ولا العمل به. وأمّا توبة السّاحر فالصّحيح أنّها مقبولة قبل القدرة عليه، وأمّا عند الله فإنّ باب التَّوبة مفتوح، لا يغلَق، والله تعالى لا يحجب التّوبة عن أحد.

٥٤ ـ كثير من أدعياء الغيب هم ممّن لهم فراسة في الأمور، وبعضهم له

استِعانة بالشّياطين، ولا علم لهم بالغيبِ حقيقةً؛ لأنّ الله اختصّ علم الغيب لنفسه، فلا يعلم الغيب إلاَّ هو، ولا يجوز الاستعانة بأدعياء الغيب من الـمُنَجِّمينَ والكُهان والعَرّافين، ويجب على الحُكَّام وأولي الأمر أن يحاربوا كلّ أنواعِ الدّجَل التي تقوم على ادِّعاء معرفة الغيب، ويوقِعوا بأهله أشدّ العقوبات، وعلى العلماء أن يحذروا المسلمين من اللُّجوء إلى أمثال هؤلاء الدَّجّالين، والاستعانة بهم.

٥٥ ـ وردت حلقات من قصّة موسى عليه السّلام في سُور البقرة والمائدة والأعراف ويونس والإسراء والكهف، وطه، وهناك إشارات إليها في سُورٍ أخرى. وفي كلِّ مرَّة كانت الإشارات أو الحلقات التي تُعرض منها متناسقةً مع موضوع السُّورة أو السِّياق الذي تعرض فيه على نحو ما في السُّورة، وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السِّياق.

٥٦ ـ طلب العلم هو من صفات العقلاء وأهل الصّلاح والتّقوى، وتُخبرنا قصّة موسى والخضر كم تجشّم كليم الله من مشاقّ ومتاعب؛ ليزداد علماً ومعرفة من عبد الله الصّالح، ولعلّ من دروس هذا المشهد القصصي القرآني أنَّ الإنسان عليه أن يستمرَّ في طلب العلم النّافع مهما كلَّفه الأمر، فلا بدَّ من الاجتهاد لتحصيل العلم، والله هو الوهاب العليم.

٥٧ ـ في سورة النَّمل تبيان لأمر التّوحيد وأمر الآخرة، وفيها حديث عن يوم القيامة، وفيها جمع بين البشارة والإنذار ومجموعة من القصص، هي قصص موسى وداود وسليمان ولوط وصالح عليهم السّلام. وكان التّركيز في تناول هذه السُّورة على المقدِّمة وما يتعلَّق بقصّة موسى عليه السّلام وفقَ فقه التّفسير الموضوعي المتعلِّق بدراسة موسى في القرآن الكريم.

٥٨ ـ تعدّ قصّة يونس عليه السّلام من القصص المثيرة، وتظهر هذه الإثارة في مشهد التقام الحوت له، وفي جانب ما اختصّ الله به قومه من بين سائر الأمم برفع العذاب عنهم حين آمنوا، وتتميز سورة يونس بالكلام على الأهداف الكبرى لرسالة القرآن، وهي إثبات التّوحيد لله، والقضاء على الشِّرك، وإثبات النُّبوة والبعث والمعاد، والدّعوة إلى الإيمان بالرّسالات السّماوية.

٥٩ ـ تتناول سورة يونس بإيجاز العبرة والموعظة، وتقرير صدق القرآن في قصص الأنبياء، كقصّة نوح عليه السّلام والنَّجاة من الطُّوفان العظيم، وقصّة موسى عليه السّلام مع فرعون، واستعانة فرعون بالسَّحَرة لإبطال دعوة موسى، وشأن موسى مع قومه ودعائه على فرعون، ونجاة بني إسرائيل، وغرق فرعون في البحر، وقصّة يونس عليه السّلام مع قومه، وبهذا تكون السّورة قد تناولت ثلاث قصص.

٦٠ ـ عُنيت سورة غافر بأصول العقيدة، فقد جاءت آياتها لإثبات العرش، وإنهاء الصِّراع بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، أو بين فريق الهدى وفريق الضَّلال، وابتدأت بإعلان تنزيل الكتاب الكريم من الله، وهاجمت الكفّار الذين يجادلون بالباطل، ثمَّ وصفت مهامَّ ملائكة، وأخبرت عن طلب أهل النّار الخروج منها لشدّة العذاب ورفض هذا الطّلب، وأقامت الأدلّة على وجود الله القادر، وخوفت من أهوال القيامة، وأنذرت الكفّار من شدائد ذلك اليوم.

٦١ ـ خصّت سورة غافر بالذكر قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون وهامان وقارون، وما دار من حوار بين فرعون وقومه وبين رجل من آل فرعون يكتم إيمانه، وعرضت اضطهاد فرعون لبني إسرائيل في قتل أولادهم واستحياء نسائهم خشيةَ انتشار الإيمان في قومه، وانتهت القصّة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده، ونجاة موسى وقومه جندِ الإيمان في ذلك العصر، فبينت بذلك مصير الطُّغاة، ومآل الطُّغيان.

٦٢ ـ كانت سورة غافر بشارة وتسلية للنَّبي محمَّد ﷺ، بذكر عاقبة الكفّار الذين كذبوا بالأنبياء قبله والاستدلال على مصيرهم وبمشاهدة آثارهم، كما سلاّه بذكر قصّة موسى عليه السّلام التي دلَّت على أنَّه مع قوة معجزاته، كذبه فرعون وهامان وقارون، وقالوا عنه: هو ساحر كذاب، ولكنّ العاقبة كانت له، فانتصر على الـمُكَذبين.

٦٣ ـ دعوة موسى عليه السّلام ربَّه أن يجعلَ أخاه هارون وزيراً له، كانت من باب الاحتياط للدَّعوة للنُّهوض بها على أكملِ وجه، ولهذه الغايةِ نفسِها أظهر الخوفَ من احتمال قتلِ آلِ فرعونَ له، فلم يكن خوفُه تبريراً للهروب من المواجهة والتَّحلُّلِ من التّكليف الإلهي، إنّما كان ذلك حرصاً منه على الدّعوة، ورغبة في تبليغها، فإذا

قتَله آل فرعون نهض بالرِّسالة من بعده أخوه هارون، وأتمَّ الواجب كما أمرَه ربُّه، فتكون الدَّعوة تامَّة غير قاصرة.

٦٤ ـ كانت شخصية فرعون نموذجاً ومثالاً لكلّ طاغية، ولكلّ إمام من أئمَّة الضّلال، فقد دمَّرَ عيش قومِه، وأضاع دُنياهم وآخرتهم. ومن غايات القَصَصِ القرآني أن يعتبر الخلق، فلا يقامِروا بمصائرِهم باتِّباع أئمَّة الضّلال؛ لأنّ أئمة الضّلال في الدُّنيا هم أئمة النّارِ في الآخرة، فمن ابتغى السّلامة لنفسه لم يركَنْ إليهم، ولم يطِع لهم أمراً في معصية الله، إنّما يحكِّم عقله وتفكيره، فإنّ حرّية (الإرادة والاختيار) من أخصّ خصائص (الآدمية).

٦٥ ـ (الرُّجولة) وصف تكريم وتشريف، ويراد بها معنيان، الأول مادّي، فيكونُ مُقابلاً لوصف الأنثى في الجنس الآخر، فيقال: هذا رجل ذكر، وهذه امرأة أُنثى؛ والمعنى الثاني للرُّجولةِ نفسي، يرادُ به أنّه يقف مواقف الرِّجال، ويتَّصِفُ بصفاتهم، مثل قوة الإرادة والعزيمة والهمّة والجرأة والشّجاعة والإقدام، فهذه صفات وطاقات ليست موجودة في كلّ الذكور، إنّما يقدر عليها الرجال من الذكور، فكُلّ رجل ذكر، لكن ليس كلّ ذكر رجلاً، فهناك ذكور لا يقفون مواقفَ الرِّجال.

٦٦ ـ الـمُؤمِنُ الحقيقي الذي رسَخَ الإيمانُ في قلبِه لا تخدَعُه المظاهر؛ فالرَّجُل المؤمن لم يخدَع بما أحاط به فرعون نفسه من مظاهر الأُبَّهةِ والقوة وهالات العظمة، ونظر إليه بمنظار اليقين بقوة الله، فرآه على حقيقتِه البشرية، ووزنه بميزان الإيمان، فلم يخشَ فرعونَ، وأظهر إيمانَه، وانتصر لموسى عليه السلام، وبهذا يكون المؤمن قدوة للمؤمنين، فينظرون إلى الطُّغاة والمتجبّرين بمنظار الإيمان، فيعرفون حجمهم الحقيقي بلا مبالغة ولا تهويل، فلا يرهبونهم، ولا يتركون الحقّ خشية تهديدهم.

٦٧ ـ يشعر الطُّغاةُ بالخطر على سلطتِهم ومصالحهم ممّن يمثلون الطّبقة الواعية في المجتمع، كالـمُؤمنينَ والصّالحين وأهلِ العلم؛ لذلك يدَبِّرون لهم المكائد، ويحاولون التّخلّص منهم بشتّى الوسائل والطّرائق؛ لأنّهم يجهرون بالحقيقة، ولا يخشون الطُّغاة، ومن هنا نجد فرعون قد غضب من كلام الرَّجل، فأصدر أوامره لجنوده

لإسكاته والتّخلّص منه، وأحسّ الرَّجل المؤمن بذلك، فلم يتراجع، ولكنَّه فوض أمره إلى الله، واستعاذ به من مكر فرعون ومَلَئِه.

٦٨ ـ إنَّ لله أولياءَ يغضب لغضبِهم، ويأسف لأسفِهم، وقد أغضب فرعون وجنودُه ربَّ العالمين بكفرهم وضلالهم، كما أغضبوا موسى عليه السّلام والمؤمنين، وهم أولياء الله وأحبابه، واستحقّ فرعون بذلك العقاب، فأوقع الله به وبأعوانِه أشدّ العذاب انتقاماً لعبدِه ورسولِه موسى، ومن تَبِعَه وآمن بدعوتِه من المؤمنين، وأغرق آل فرعون في البحر، وجعلهم عِبرة لمن يعتبر.

٦٩ ـ يؤيدُ الله رسلَه وأنبياءه وأولياءه بالجنود السّماويين، فلا يقدِرُ عليهم أحد من خلقِه، فقد حفظ الله موسى مع كونِه وحيداً من فرعون معَ كثرة أتباعه وأشياعِه، وأمدَّ رسولَه بالمعجزات، كالعصا واليدِ البيضاء، فكانت هذه المعجزاتُ كافيةً لإثبات صدقِه، والانتصار على خُصومِه.

٧٠ ـ كلّ الكائنات تُسبِّح الله، ولا يشذ عن هذه المنظومة المسبِّحة إلاّ الإنسان، ومن هنا كانت المخلوقات الأخرى غير الإنسان أكثر فهماً منه حين رفضت حمل أمانة التّخيير، وتنازلت عن مرادها استجابة لأمر ربّها.

٧١ ـ للمخلوقات الأخرى دور ومنزلة عند الله، وقد خلق الله فيها مثلَ ما خلقَ في الإنسان من الفَهمِ والعاطفة، وهي منسجمةٌ مع منهج الله، وهي طائفة مسبِّحةٌ؛ لذلك تحبُّ من كان على شاكلتها من البشر، وتكره من شَذ منهم عن منهج الله وعقيدةِ التَّوحيد، فهناك صحبةٌ بين المكان والمكينِ فيه، وبين المكان والإنسان المؤمن.

٧٢ ـ تهتَمُّ سورة النَّازعات بأصول العقيدة، كالتَّوحيد والنُّبوة والبعث والنُّشور، وهي لا تختلفُ في موضوعِها عن السُّور المكية الأخرى، وتبدأ السُّورة بالقَسَمِ بالملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد لإثباتِ البعث، ثمَّ وصفت أحوال المشركين المنكرين للبعث والحِساب، وصورت ما يكونون عليه من ذعر شديد واضطراب يوم القيامة، وذكرت مقالتهم في إنكار البعث، وردَّت عليهم، وجاءت

هذه الموضوعات مناسبةً لإيراد قصَّة موسى عليه السّلام مع الطَّاغية الجبَّار فرعون الذي ادَّعى الرُّبوبية، فأغرقه الله وجنوده في البحر للعِظَة والعِبرة.

٧٣ ـ المؤمن الرّاسخ في الإيمان يتحمّل العذاب في سبيل اختياره للإيمان، ويطلب إلى الله أن يفرغ عليهم الصّبر، ولهذا يظهرُ المؤمنون الحقيقة التي في نفوسهم، وهي إيمانهم بآيات الله، وتتوجَّه قلوبهم إلى الذين آمنوا بآياتِه، ولا يجدون لهم ملاذاً إلا الله، فيطلبون منه التّثبيت، وأن يفرِغَ عليهم الصّبر، حتى كأنّه يصَبّ عليهم صبّاً؛ ليتحمّلوا ما يسومهم الطُّغاةُ منَ العذاب، فيكرِمهم الله بحُسن الخاتمة، ويتوفَّاهم على الإيمان، وينالون الجزاء الأوفى في الآخرة، دار البقاء والخلود.

٧٤ ـ لم يكن هارون عليه السّلام وصياً لموسى عليه السلام، بل كان نبياً ووزيراً بنصِّ القرآنِ الكريم، ومن ثمَّ لا يجوزُ قياسُ حال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بحال هارون عليه السّلام، لأنّ هذا القياس قياس مع الفارق، فلا يصحّ الاستدلال بكون هارون عليه السّلام وزيراً لموسى على وزارة أمير المؤمنين علي لرسول الله ﷺ، وذلك لأنّ الله تعالى جعل هارون عليه السلام وزيراً لنبيه موسى، وأشرَكَه في أمره، كما يظهر بصريح القرآن، وعلي رضي الله عنه لم يكن مشاركاً لرسول الله ﷺ في نبوتِه كما كانَ هارون مُشاركاً لموسى، ومن يعتقد هذه الشّراكة فلا شكّ في كفره، وخروجه من ملّة الإسلام.

٧٥ ـ (القسوة) من أخطر أمراض القلوب، وسببها كثرة المعاصي والإصرار عليها، ودواء قسوة القلب التَّوبة من المعاصي والخشوع لله تعالى واستغفاره والإكثار من ذكره، وكان لقلوب بني إسرائيل قسوة شديدة خاصّة، فهي قلوبٌ لا تلين حتّى وصفَها الله عزَّ وجَلَّ بأنَّها كالحجارةِ أو أشَدَّ قسوة.

٧٦ ـ وقف اليهود في الجزيرة العربية من الإسلام ونبيه موقفاً عدائياً مُتَعَنِّتاً، وتتحدَّث الآيات في سورة النِّساء عن تعنُّتِهم، وطلبهم إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السَّماء، فقصَّ الله على نبيه وعلى النّاس صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى عليه السّلام الذي يزعمون أنّهم يؤمنون به، ويرفضون التّصديق بعيسى من بعده وبمحمد ﷺ، ففي هذا السِّياق جاءت قصّة موسى مع بني

إسرائيل؛ لتُبَين أنّ هذا العنادَ ليس جديداً فيهم، فهو صفة مُتَأصِّلة، ليست خاصّة بهذا الجيل منهم الذي عاصر بعثة النّبي محمَّد ﷺ، فهم عبرَ تاريخهم لا يسلِمون إلا تحت القهر والضَّغط، وإن أسلموا عادوا ونقضوا عهدَهم، ولا يعنيهم أن يتثبَّتوا من قول، ولا يتورَّعوا عن الجهر بالمنكر. ومعرفة هذه الصّفات فيهم تساعد في كشفهم، وإبطال دسائسهم ومؤامراتِهم.

٧٧ ـ كان موقف الصّحابة مع رسول الله مختلفاً اختلافاً كُلِّياً عن موقف بني إسرائيل من موسى، فبنو إسرائيل خذلوا موسى، وتَخَلَّوا عنه، ورفضوا دعوته لهم بالقتال، على حين وقف الصّحابة مع رسول الله موقفاً جهادياً وبطولياً رائعاً، تحمّسوا لقتال المشركين في غزوة بدر، واندفعوا إلى قتالهم بكلِّ شجاعةٍ وبسالة، وتذكروا خذلان بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وأعلنوا أنهم لن يكونوا مثلهم، وبهذه المقارنة بين الموقفَين يظهر لنا أنّ أهداف القصص القرآني لم تكن تثبيت قلبِ النّبي فحسب، بل كان لهذا القصص ـ ولاسيما قصّة موسى ـ دور في تثبيت قلوب الصّحابةِ أيضاً، فكانوا يقولون للنّبي: امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونك حتَّى تبلغها.

٧٨ ـ لا يقوم الجهاد إلا برجال أقوياء أشدّاء؛ لذلك لا بدّ أن تكون هناك بيئة مناسبة يعَدُّ فيها ذلك الجيل إعداداً خاصّاً للمهمّات الصّعبة كالجهاد، وهذا يقتضي التَّخلِّي عن مظاهر التّرف، وتركَ حياة اللهو والعبث والرَّخاء والتّنعُّم الفاجر، وعدم العبودية للأهواء، ونبذ الكماليات، فينشأ الجيل الـمُعَدّ للجهاد على الرُّجولة والعِزّة والشّجاعة. ولا بد من ترك الجيل الجبان؛ لأنه يتعِبُ الـمُرَبِّينَ، ولا يستجيب للتّوجيهات، فلا بدّ من أن تُوجَّه الجهود والطَّاقات إلى جيل جديد، ينهض بالجهاد والتّحرير.

٧٩ ـ لم تبين القصَّة العظيمة التي جاءت في القرآن الكريم شيئاً عن العبد الصّالح الذي قابله موسى عليه السّلام وفتاه، سوى أنَّه عبد من عباد الله، ولم

تذكر له اسماً ولا لقباً أو كنيةً، ولم تحَدِّد بلده أو كونه نبياً أو رسولاً أو وليّاً أو ملكاً، أو غير ذلك، فلم يخبرنا القرآن بغير أنّه عبد لله، وفي إبراز هذه الصّفة في العالِم الذي قصده موسى عليه السّلام إشارة إلى أنّ التّعبُّد لله أول الصّفات التي يجب أن يتَّصِفَ بها العالم؛ أي: أن يكون علمُه في سبيل الله، وأن يقوده علمه إلى العبودية لله بمعناها الشّامل وغايتها الأسمى، وهي عمارة الأرض على الوجه الذي يبتغيه الله.

٨٠ ـ استفاض القرآن الكريم والسُّنّة النَّبوية المشرَّفة في ذكر صفات موسى عليه السلام الخَلقية وهيئته وشكله، وخلاصة وصف موسى عليه السّلام الجسماني من هذه الأحاديث: أنَّه كان أسمر اللَّون، طويلاً، معتدل الجسم، لا بالسَّمين ولا بالنَّحيف، يشبه في تناسق جسمه رجال الأزد اليمنيين، وهو قوي البنيان، موصوفاً بصفات الصَّلابة والعزيمة والقوة الجسدية والنّفسية.

٨١ ـ ذكر رسول الله ﷺ فضلَ موسى عليه السّلام ومنزلته عند ربِّه، وذلك في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس، جاءه يهودي، فقال: يا أبا القاسم: ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار. فدعاه، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسُّوق يحلف ويقول: والَّذي اصطفى موسى على البشر. قلت: يا خبيث، على محمَّد ﷺ؟ فأخذتني غضبة، فضربت وجهه. فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: لا تخيروا بين الأنبياء، فإنَّ النّاس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشقُّ عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، أم حوسب بصعقته الأولى».

٨٢ ـ من فضائل موسى عليه السّلام إمساكه بقائمة العرش؛ وبعد أن نهى رسول الله ﷺ عن تخييره على موسى عليه السّلام تخييراً يقوم على إنقاص قدر موسى، قدّم لنا صورة لفضله عند الله يوم القيامة، فعندما يبعث الله النّاس من قبورهم يوم القيامة، يكون رسول الله ﷺ أول من تنشقّ عنه الأرض، وعندما يرفع رأسه ﷺ ينظر فإذا نبي الله موسى عليه السّلام قائم، ممسك بقائمة من قوائم عرش الله، فيتعجَّب رسولنا ﷺ من ذلك، ولا يدري هل أفاق موسى قبله، وأمسك بقائمة العرش، أو كان ممّن استثناهم الله من الصَّعق، واكتفى بصعقته الأولى. ويشير

رسولنا ﷺ في قوله: «أم حوسب بصعقته الأولى» إلى الصَّعقة التي أصابت موسى عليه السّلام عند جبل الطُّور لـمّا طلب أن يرى الله، فلمّا تجلّى الله للجبل دكّه، وصُعق موسى عليه السَّلام، وهذه الحادثةُ هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٨٣ ـ يبدو لنا التَّشابه بين أمّة موسى وأمّة محمّد عليهما الصّلاة والسّلام من الموحِّدين، إذ قال رسول الله ﷺ: «عُرضت علي الأمم، فرأيت النَّبي ومعه الرُّهيط، والنَّبي ومعه الرَّجل والرَّجلان، والنَّبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمّتي، فقيل لي: هذا موسى عليه السّلام وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم.. فقيل: هذه أمّتك». والسّواد: هم المجموعة من النّاس، فإذا كانت أمّة موسى عليه السّلام قد شكّلت سواداً عظيماً ومجموعة كبيرة من النّاس، فإنَّ أمة محمّد ﷺ ـ أمّة الخلافة والرِّسالة والشّهادة حتّى قيام السّاعة ـ قد ملأت الأفق عن اليمين والشِّمال، فمحمَّد ﷺ هو أكثر النَّاس أتباعاً يوم القيامة.

٨٤ ـ موسى عليه السّلام ولقاؤه بمحمّد ﷺ في السَّماء السّادسة ليلة المعراج: عن رسول الله ﷺ أنّه قال في رحلة الإسراء والمعراج: .... فأتينا على السّماء السّادسة، قيل: ما هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمّد ﷺ. قيل: وقد أُرسل إليه؟ مرحباً به نعم المجيء جاء. فأتيت على موسى، فسلّمت عليه، فقال: مرحباً بك من أخ ونبي، فلما جاوزت بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا ربّ، هذا الغلام الذي بُعِث بعدي يدخل الجنّة من أمّته أفضل ممّا يدخل من أمّتي... ثمَّ فُرضت علي خمسون صلاة، فأقبلت حتّى جئت موسى، فقال: ما صنعتَ؟ قلت: فُرضت علي خمسون صلاة. قال: أنا أعلم بالنّاس منك، عالجتُ بني إسرائيل أشدّ المعالجة، وإنَّ أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربِّك فسَله التخفيف، فرجعت فسألته، فجعلها أربعين، ثمَّ مثله، ثمَّ ثلاثين، ثمَّ مثله، فجعلها عشرين، ثمَّ مثله، فجعلها

عشراً، فأتيت موسى فقال مثله، فجعلها خمساً. فأتيت موسى فقال: ما صنعت؟ قلت: جعلها خمساً، فقال مثله، فقلت: سلّمت. فنودي: إنِّي قد أمضيت فريضتي، وخفَّفت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشراً[1]. وفي حديث رحلة الإسراء والمعراج: إنَّ هارون عليه السّلام في السّماء الخامسة، وإنَّ موسى في السّماء السّادسة، وقد مرَّ بهما رسولنا ﷺ ـ كما بينا ـ في رحلة الإسراء والمعراج.

٨٥ ـ عاش موسى عليه السّلام لله ومع الله وبالله، وأرسى قواعد حضارة ربّانية أُسِّسَت على تقوى الله وتوحيده، واكتملت تلك الحضارة بعد وفاته في عهد طالوت وداود وسليمان عليهم السلام، فأصبحت لبني إسرائيل دولة داود ثم سليمان عليهما السّلام، بعدما كانوا مستضعفين تحت حكم الفراعنة.

٨٦ ـ حكم موسى عليه السّلام قومه بالتّوراة، وأمر أحبارهم بحفظ التّوراة والمحافظة عليها، لكنّهم لم ينفِّذوا هذا الأمر ولم يحفظوها، بل ضيعوها بعد وفاة موسى عليه السّلام. ولقد أضاع أولئك الأحبار التّوراة الرَّبانية التي أنزلها الله على موسى عليه السّلام وقد أمرهم بحفظها، ونفهم هذا الأمر من كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٨٧ ـ فَرّق القرآن الكريم بين التّوراة الربانية التي نزلت على موسى عليه السّلام وهذه التّوراة أثنى عليها القرآن، ووصفها بصفات فاضلة طيبة، فهي نور وضياء وهدى وفرقان وذكر ورحمة، وإمام وبركة، وتبيان لكل شيء، وهي دستور حياة لبني إسرائيل، شرعت لهم الأحكام، ووضّحت لهم الحلال والحرام، وحكمهم بها أنبياؤهم وصالحوهم، وبين التّوراة اليهودية المحرَّفة التي ألّفها وصاغها أحبارُ اليهود وحاخاماتهم على مدار تاريخهم اليهودي الطّويل. ولقد أضاع أولئك الأحبار التوراة الربانية؛ لأنهم كانوا يتناقلونها مشافهة من حَبر إلى حَبر، ولم يكن

(١) رواه البخاري، رقم (٣٢٠٧ ـ ٣٤٣٠)، ذُكر سابقاً.

هناك نصٌّ مكتوب يرجعون إليه، ويحفظون منه، وفي النقل الشفهي بلا اعتمادٍ على أوراقٍ مكتوبةٍ معتمدةٍ أخطاءٌ كثيرةٌ وإضاعةٌ لكثيرٍ من الكلام المنقول؛ لأنَّ الذاكرة البشرية لا تحسن حفظ كلامٍ كثيرٍ بحروفه وألفاظه، وهنا تكمن أهميةُ وجود نصٍّ معتمدٍ مكتوبٍ يكون الحفظ منه.

٨٨ ـ لم يعترف القرآن بأنَّ التَّوراة اليهودية كلام الله؛ لأن التّوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السّلام أضاعها اليهود، وحرَّفوها، وغيروها، وبدَّلوها. وجاء هذا في آيات صريحة، تحدّثنا عنها في المباحث السّابقة، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

٨٩ ـ جاء القرآن الكريم مهيمناً على كلِّ الكتب الربّانية السّابقة التَّوراة والزَّبور والإنجيل؛ أي: هو الحاكم عليها، ويجب أن تُعاد هي إليه، وأن تُفهم على أساسه، وإذا اختلفت تلك الكتب الرَّبانية المحرَّفة مع القرآن، فالقول قوله، والحكم حكمه، وكلّ ما قاله فهو حقّ وصواب، وكلّ ما خالفه فهو كذب وباطل، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

٩٠ ـ جاء في القرآن الكريم ذكر صفات موسى عليه السّلام وأخلاقه وفضائله، فهو من أولي العزم من الرُّسل الذين حقّقوا التّوحيد وإفراد الله بالعبادة، وحارب فرعون ونظامه الظّالم بالعقل والحكمة والحُجَج والبراهين، وجعله الله سبباً في إنقاذ بني إسرائيل من النّظام الاستبدادي الفرعوني، وقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات حميدة، وأخلاق كريمة، وكان كثير الدعاء لله عزَّ وجَلَّ والتَّضرُّع بين يديه، وشديد الخوف منه، ومتوكِّلاً عليه، صابراً على تكاليف الدّعوة ومشاقّها، صادقاً مع ربّه، شجاعاً لا يخاف إلا الله، عالماً وحكيماً وأميناً وقوياً، ورحيماً ومعيناً

للمستضعفين، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والصّفات الكريمة التي عاش بها وسط النّاس، ودعا إليها، وعلّمها لمن استجاب لدعوته، وقد أسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التّأسيس الأخلاقي والمنهج الرّبّاني الذي سار عليه الموحِّدون لله عزَّ وجَلَّ في عهده وبعد وفاته.

٩١ ـ من أبرز صفات موسى عليه السّلام كما رأيناها في الكتاب: الإخلاص، ولقد قصّ الله علينا في كتابه العزيز قصّة موسى عليه السّلام في إخلاصه لله تعالى، وترفُّعه عن الدّنيا وزخرفها، وإرادته في عمله وجه الله عزَّ وجَلَّ في كلِّ حركة وسكنة من حياته، وذكر الله هذه الصّفة الحميدة والخلق الكريم، وأنَّ من أعظم أسباب رفعته وعلو شأنه هذا الخلق الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٥١ ـ ٥٣]. وموسى عليه السلام كان مخلصاً في دعوته لقومه لمعرفة الله وتوحيده وإفراده بالعبادة والالتزام بشرعه سبحانه وتعالى، وهو وجَّه ضربةً موجعة إلى إبليس من خلال قيمة الإخلاص، وصفة الإخلاص، وخُلُق الإخلاص، ونجا من وساوسه.

٩٢ ـ من صفات موسى عليه السّلام التي تعطينا دروساً للحياة صفة الصّبر، فقد كان موسى عليه السّلام مدرسة فريدة من نوعها في الصّبر والتّحمُّل، وقد لقي الكثيرَ من أذيةِ قومه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]. وإنَّ موسى عليه السّلام تحمّل الأذى الكثير من قومه، وظهر منه صبرٌ جميلٌ، وقد عرضنا موقفه من مسائل وطلبات قومه المتنوعة، والمتشعّبة، والمتعنّتة.

٩٣ ـ كان موسى عليه السّلام من عباد الله المحسنين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]. والإحسان مرتبة متقدمة من الإيمان، وعندها يعبد العبد ربَّه، وكأنه يراه.

٩٤ ـ كان لدى موسى عليه السّلام قوة إيمانية، وهو ما بيناه في آيات سورة

القصص، أنَّ موسى عليه السّلام جمع بين القوة الجسمية والقوة النّفسية والأخلاقية، وقد مَنَّ الله عليه بأن وفّقه للجمع بين الصِّفتين الحميدتين: القوة والأمانة. فقبل الرِّسالة كان موسى عليه السّلام قوياً في متانة جسمه، وأمانته في علمه، وبعد الدعوة الربانية قوياً في رسالته، وأميناً في تبليغ دعوته لفرعون وقومه ولبني إسرائيل.

٩٥ ـ كان من صفات موسى عليه السّلام كثرة الدّعاء، والإلحاح على الله، والتّضرُّع بين يديه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٦].

٩٦ ـ إنَّ من أجلِّ صفات موسى عليه السّلام صفة التَّواضع، وهناك شواهد كثيرة على التَّواضع والأدب النّبوي، وشخصيته عليه السّلام اتَّصفت بالتَّواضع حتّى قبل النّبوة، وتجلَّت أمثلة تواضعه وخلقه الرَّفيع في قوله تعالى عند اعتذاره عن خطئه، واستعداده لتحمُّل تبعته، وعذره للخضر، إذ قال له: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِي قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٦].

٩٧ ـ ومن صفات موسى عليه السّلام الاعتراف بالخطأ، ومواقفه تعلِّمنا كيفية التّصرُّف مع من يبحثون في عيوب الآخرين، ويواجهون بها خصومهم للهروب من الحقّ، فالاعتراف بالخطأ قوة ومتانة ودليلاً على توازن النّفس، وعدم الهروب من الأخطاء يزيد الإنسان صلابة في مواجهة التّحدِّيات والعراقيل.

٩٨ ـ من صفات موسى عليه السّلام الشَّهامة والعزيمة ومساعدة الضُّعفاء، فهو أحسن إلى الفتاتين، وهو لا يعرفهما، ولا يعرفُ من تكونان، ولم يعرِّفْ نفسه لهما، أو يطلب إليهما جزاء ولا شكوراً، وقد كان فِعْلُ موسى عليه السّلام معروفاً محضاً يدلّ على الشّهامة والمروءة، مما أثر في عائلة الفتاتين وأبيهما، فكانت ردَّةُ فعل الرَّجل الشّيخ الكبير الإكرامَ والضِّيافة والإحسان إلى موسى عليه السّلام. ومنحَ الله موسى كلَّ ألوان الشّجاعة، منحه الشّجاعة الأدبية، والشّجاعة القلبية التي فاقت كلَّ شجاعة، وحسبنا دليلاً على ذلك مواجهته فرعون، ونحن نعلم من هو

فرعون، الشَّرِه في سفك الدماء، والجشع في إزهاق الأرواح، ولكنَّ شجاعة موسى عليه السّلام كانت أكبر من أن تتقهقر أمام جبروت فرعون، وغطرسته، ووحشيته.

٩٩ ـ (العلم) من أهمّ القيم التي تُعزِّزُها قصّة موسى عليه السّلام، ومن أبرز صفات موسى، وهو القيمة الأساسية التي تدور حولها أحداث القِصّة، ويعرَض العلم فيها بمظهرين: ظاهر وخفي، فينبغي ألاّ تَحجُبَنا وسائلُنا التي نطَّلع بواسطتها على الجانب الظّاهري عن التسليم بوجود الجانب الخفي الذي أحاط بعلمِه الله تعالى. والعلوم التي بلَّغها الأنبياءُ والمرسلون لأممهم، وأقاموا صرح الحضارات الإنسانية عليها، علوم أساسية لا غنى للبشرية عنها، وهي حَلقة أساسية في الرِّسالات السّماوية، ومنها رسالة سيدِنا محمّد ﷺ التي خُتِمَت بها الرِّسالات والنُّبُوات.

١٠٠ ـ تظهر في قصّة موسى مع الخضر ـ عليهما السّلام ـ حقيقة تواضُع معارفِنا أمام هذا العَالم المعقَّد المُمتَلئ بالأسرار الخفية، وهو عالم عظيم متداخل العلائق، والعقل البشري المحدود الإدراك عاجز عن إدراك حقيقته، ومن ثمَّ لا بدّ أن يبدأ كلّ من يخوض في شأن وجود الله بالإقرار بالقُصُور الإدراكي للإنسان، وأنّه لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود، على حين يلزم من القصور العقلي للإنسان وضعف قدراتِه الإدراكية أمام علم الخالق أن تفوت إدراكه حِكَمُ أمور كثيرة من العالم، فحياتنا الدُّنيا جزء من قصّة أطول، وقطعها عن الحياة الآخرة يفقدها دلالتها على الحكمة الإلهية الكبرى من إيجادها على النّواميس الظّاهرة التي نعرفها.

١٠١ ـ قصّة موسى عليه السّلام هي معركة تاريخية فاصلة بين الحقّ والباطل؛ أي: بين جنود الرّحمن وأتباع الشّيطان وعبدة الطّاغوت، انتصر فيها عبد الله الواحد على جموع الطّاغية وحشوده من الوزراء والجنود والسَّحَرة، بإيمانه ويقينه، واعتزازه بالله تعالى، وركونه إليه، وتوكُّله عليه، وبحقّ تعتبر من أكبر المعارك في تاريخ الإنسانية، وكانت حاسمة في إحقاق الحقّ وكشف الباطل، حتّى قال سبحانه تأكيداً لتلك المعركة وأهميتها: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

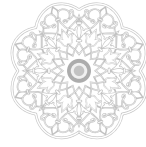
١٠٢ ـ تنطوي قصّة موسى في سُور القرآن الكريم على أحكام كثيرة اشتملت

عليها التّوراة، وأهمُّها: عبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين، والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، والتّعامل مع النّاس بالحسنى، وإيتاء الزّكاة للفقراء والمساكين، والمحافظة على الدِّماء، وعدم الإقدام على الانتحار وقتل النّفس وسفك الدِّماء، وعدم الاعتداء على الآخرين أو قتالهم، أو إخراجهم من ديارهم، أو مساعدة أعدائهم في قتالهم لهم، ومساعدة الإخوان الذين اعتدى عليهم الأعداء.

١٠٣ ـ لما جاء موسى عليه السّلام الأجلُ وحانت وفاته، أراد الله تخييره، فبعث إليه ملك الموت في صورة بشرية، وجرت بينه وبين ملك الموت حادثة مثيرة، أخبرنا عنها رسول الله ﷺ؛ فملك الموت جاء موسى عليه السّلام في صورته البشرية، وخيّره بأمر الله بين الموت الآن أو بعد سنين، فطلب موسى عليه السلام التَّعجيل بموته، ودعا ربَّه أن يجعل قبره قريباً من بيت المقدس؛ لأنَّ تلك الأرض كانت محرّمة على بني إسرائيل عند موته، واستجاب الله دعوة نبيه موسى، وقبضه في المكان الذي أراد، وجاء هذا الخبر من رسول الله محمد ﷺ.

وهكذا انتهت حياةُ موسى عليه السّلام، وبقيت سيرتُه وقصّته التي عاشها في سبيل الدَّعوة إلى التَّوحيد، وإنقاذ المستضعفين، ومقارعة المستبدِّين، مثالاً في كلِّ زمان.

* * *



المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم؛ دراسة موضوعية**، محمد الأمين إسماعيل، رسالة ماجستير، السودان، كلية أصول الدين/ جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠٠٠م.

٣ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

٤ ـ **أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحة**، سليمان محمد الدبيخي، الرياض، دار المنهاج، ط١، ١٤٢٧هـ.

٥ ـ **أخلاق الأنبياء**، محمد عبد الله الدويش، الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع، (د. ت).

٦ ـ **الارتباط الزّمني والعقائدي بين الأنبياء والرُّسل**، محمّد وصفي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٧م.

٧ ـ **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، أحمد بن أبي بكر شهاب الدين القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، ١٩٩٦م.

٨ ـ **أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم**، سعيد محمد بابا سيلا، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٠م.

٩ ـ **الاستخبارات العسكرية في الإسلام**، عبد الله علي السلامة المحمد، إشراف الدكتور يوسف علية محمود، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٠ ـ **استراتيجية توجيه الخطاب في القرآن الكريم؛ سورة طه نموذجاً**، مشعل عبيد الشمري، إشراف الدكتور خالد بن دومي، رسالة ماجستير، الأردن، جامعة اليرموك، ٢٠١٤م.

١١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي المالكي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م.

١٢ ـ أسرار التكرار في القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، دار الفضيلة، (د. ت).

١٣ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، جدة، السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، دار علم الفوائد، (د. ت).

١٤ ـ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ)، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ.

١٥ ـ إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزي شمس وآخرين، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، ١٤٣٢هـ.

١٦ ـ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، علي محمد الصلابي، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠١٥م.

١٧ ـ أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، هدى الطويل، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦م.

١٨ ـ أوضح المسالك مع ضياء السالك وهو صفوة الكلام على توضيح ابن هشام، محمد عبد العزيز النجار، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.

١٩ ـ أوضح المعاني في تهذيب تفسير روح المعاني، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي البغدادي، تحقيق: محسن عبد الحميد، عَمان، دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠١٥م.

٢٠ ـ أولو العزم من الرسل، محمد عبد الله السمان، القاهرة، دار الاعتصام، ط٢، ١٩٨١م.

٢١ ـ الإيذاء؛ أنواعه، ومظاهره، سبل علاجه في ضوء القرآن والسنة النبوية، رضوان محمد العبدو، دار الكتب العلمية، ٢٠١٨م.

٢٢ ـ بحر العلوم (تفسير السمرقندي)، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)، تحقيق: د. محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر، (د. ت).

٢٣ ـ **البحر المحيط في التفسير**، أثير الدين أبو حيان بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ٢٠١٠م.

٢٤ ـ **البداية والنهاية**، الإمام أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، دمشق، دار ابن كثير، ط٦، ٢٠٢١م.

٢٥ ـ **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي محمد العمران، بيروت، دار الكتاب العربي.

٢٦ ـ **بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم**، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٧ ـ **بنو إسرائيل في ميزان القرآن**، البهي الخولي، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٨ ـ **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، بيروت، دار التراث، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٢٩ ـ **تأملات في سورة الشعراء**، أبو الحسن الندوي، ترجمة: د. محمد فرمان الندوي، الهند، المجمع الإسلامي العلمي لكناؤ، ط١، ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

٣٠ ـ **تأملات قرآنية: من نبأ موسى وفرعون**، أحمد بن عبد الله العماري الزهراني، السعودية، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، معهد الإمام الشاطبي، مج١، ع١، ٢٠٠٦م.

٣١ ـ **تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد عطية سالم (ت: ١٤٢٠هـ)، السعودية، ١٩٨٠م.

٣٢ ـ **التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية**، فالح بن مهدي آل مهدي الدوسري، المدينة المنورة، مطابع الجامعة الإسلامية، ط٣، ١٤١٣هـ.

٣٣ ـ **التداول الحضاري في القرآن الكريم؛ دراسة في عوامل قيام الحضارات وانهيارها في القرآن الكريم**، فرج علام، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات، ٢٠١٦م.

٣٤ ـ **تدبّر سورة القصص**، ناصر بن سليمان العمر، السعودية، الرياض، مركز تدبر للدراسات والاستشارات، ط١، ٢٠١٧م.

٣٥ ـ التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٣٦ ـ تصريف القول في القصص القرآني؛ دراسة بلاغية تحليلية لقصة موسى عليه السلام، محمَّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ٢٠١٨م.

٣٧ ـ تعلم الحياة مع قصص سورة الكهف، يزن أحمد عبده، دار العلم والحكم، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٨ ـ تفسير أبي السعود؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

٣٩ ـ تفسير البغوي «معالم التنزيل»، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.

٤٠ ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين أبو سعيد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ.

٤١ ـ تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

٤٢ ـ تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن أحمد الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧م.

٤٣ ـ تفسير الزهراوين (البقرة وآل عمران)، محمد صالح المنجد، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

٤٤ ـ تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، السعودية، الدمام، دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤٣٥هـ.

٤٥ ـ تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط١، ١٩٩٢م.

٤٦ ـ تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

٤٧ ـ **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٨ ـ **التفسير المحرر للقرآن الكريم**، مؤسسة الدرر السنية، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، ٢٠١٧م.

٤٩ ـ **التفسير المظهري**، محمد ثناء الله المظهري، تحقيق: غلام نبي التونسي، الباكستان، مكتبة الرشدية، ١٤١٢هـ.

٥٠ ـ **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٥١ ـ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٥٢ ـ **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، عبد الحميد محمود طهماز، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٥٣ ـ **تفسير النابلسي**، محمد راتب النابلسي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ٢٠١٦م.

٥٤ ـ **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، محمد سيد طنطاوي، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨م.

٥٥ ـ **تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله العلوي الهرري الشافعي، تحقيق: هاشم بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، ط١، ٢٠٠١م.

٥٦ ـ **تفسير سورة القصص**، أحمد نوفل، عَمان، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط١، ٢٠١٥م.

٥٧ ـ **تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً**، محمود عبد الكريم الحسن، رسالة ماجستير، فلسطين، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٠م.

٥٨ ـ **تفسير سورة يونس؛ دراسة تحليلية موضوعية**، أحمد إسماعيل نوفل، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠٠٠م.

٥٩ ـ **التفسير والبيان لأحكام القرآن**، عبد العزيز الطريفي، تحقيق: عبد المجيد المبارك، الرياض، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٨هـ.

٦٠ ـ **تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المدني: دراسة لغوية**، صالح عبد الله منصور العولقي، اليمن، عدن، دراسات قرآنية في جامعة عدن، رسالة ماجستير، ٢٠١١م.

٦١ ـ **تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي**، رجاء بنت صالح محمد البحر، القاهرة، مكتبة المتنبي، ط١، ٢٠١٦م.

٦٢ ـ **تيسير التفسير**، محمد بن يوسف بن عيسى أطفيش، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافي، ١٩٨٦م.

٦٣ ـ **التيسير في أحاديث التفسير**، محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٦٤ ـ **التيسير في التفسير**، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي (ت: ٥٣٧هـ)، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرين، إستانبول، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، ط١، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

٦٥ ـ **ثم أبصرت الحقيقة**، محمد سالم الخضر، شبكة أنصار أهل البيت، ط٢، ٢٠٠٧م.

٦٦ ـ **جامع أحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي الأندلسي القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٦٧ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشير عيون، مكتبة الحلواني، ط١، ١٩٦٩م، ودار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٧٢م.

٦٨ ـ **جامع الرسائل**، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جدة، السعودية، دار المدني للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٦٩ ـ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، أبو عبد الله محمد الأنصاري شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٤م.

٧٠ ـ **الجامع لشعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: مختار أحمد الندوي وآخرين، مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م.

٧١ ـ **الجانب الخلقي في قصة موسى عليه السلام والمرأتين**، نورة بنت عبد الله الورثان،

السعودية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مج١٧/ع٣٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧٢ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وآخرين، الرياض، دار العاصمة، ١٩٩٩م.

٧٣ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، ط١، ١٤٢٨هـ.

٧٤ ـ **حديث القرآن عن التوراة والإنجيل**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، الأردن، دار النفائس، ط١، ٢٠١٧م.

٧٥ ـ **الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية**، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، السعودية، دار ابن القيم، ط٢، ١٩٨٧م.

٧٦ ـ **حقبة من التاريخ، عثمان الخميس**، دار الإيمان، ١٩٩٩م.

٧٧ ـ **حقيقة المسيح والتثليث**، منصور تميم نتشة، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م.

٧٨ ـ **الحكمة من إرسال الرّسل**، عبد الرازق عفيفي، الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٧٩ ـ **الحوار القرآني في قصة موسى**، تيسير محجوب الفتياني، الأردن، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٥م.

٨٠ ـ **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني**، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٦م.

٨١ ـ **درة التنزيل وغرة التأويل**، أبو عبد الله محمد الأصبهاني الخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ)، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية/ جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٨٢ ـ **الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية**، عبد الهادي الشمراني، تحقيق: عبد الباسط إبراهيم بلبول، السعودية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٨٣ ـ دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر أحمد محمد الريامي، اليمن، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٤، ع ١٤، حزيران/ يونيو ٢٠١٧م.

٨٤ ـ دعاء الأنبياء والرسل، موسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، ط١، ١٩٩٨م.

٨٥ ـ دعاء موسى في القرآن الكريم: دراسة تحليلية موضوعية، سلمى داود إبراهيم بن داود، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تموز/ يوليو ٢٠١٦م.

٨٦ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد البكري الصديقي الشافعي (ت: ١٠٥٧هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٤، ٢٠٠٤م.

٨٧ ـ الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام وتطبيقاته في الأسرة، جوهرة عبد العزيز السيف، رسالة ماجستير، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٣م.

٨٨ ـ الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (ت: ١٤٢٧هـ)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٧م.

٨٩ ـ الرد على المنطقيين (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، ابن تيمية، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، بيروت، مؤسسة الريان، ٢٠٠٥م.

٩٠ ـ رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، القاهرة، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م.

٩١ ـ الرسائل الشمولية، عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة ودار عيون المعرفة، ط١، ٢٠٠٠م.

٩٢ ـ الرّسل والرّسالات، عمر سليمان الأشقر، بيروت، دار النفائس، ط٤، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٩٣ ـ الروايات الواردة في نسبة العجمة لموسى عليه السلام؛ دراسة حديثية، أحمد عبد الله أحمد وطاهر لون نيجيري، فلسطين، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، جامعة غزة، مج ٢٧، نوفمبر ٢٠١٩م.

٩٤ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

٩٥ ـ **الروح**، شمس الدين ابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٢م.

٩٦ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.

٩٧ ـ **زاد المعاد في هدى خير العباد**، ابن قيم الجوزية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢٨، ١٤١٥هـ.

٩٨ ـ **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.

٩٩ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٠٠ ـ **السنن الجماعية**، محمد أمحزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.

١٠١ ـ **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.

١٠٢ ـ **السنن الكبرى**، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٠٣ ـ **سورة القصص؛ دراسة تحليلية**، محمد مطني أحمد خلف الدليمي، تحقيق: محمد صالح عطية، العراق، ديوان الوقف السني، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٠٤ ـ **سورة الكهف: منهجيات في الإصلاح والتغيير؛ دراسة تأصيلية تطبيقية**، صلاح سلطان، الولايات المتحدة الأمريكية، سلطان للنشر، ط١، ٢٠٠٨م.

١٠٥ ـ **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، ابن تيمية الدمشقي، تحقيق: علي العمران، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، ط١، ١٤٢٩هـ.

١٠٦ ـ **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث؛ دروس وعِبر**، محمد علي الصلابي، دمشق، دار ابن كثير، ط٩، ٢٠١٩م.

١٠٧ ـ **السيرة النبوية**، عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٩٠م.

١٠٨ ـ **الشخصية اليهودية من خلال القرآن؛ تاريخ وسمات ومصير**، صلاح الخالدي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦م.

١٠٩ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، ابن أبي العز، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٠م.

١١٠ ـ **شرح كتاب التوحيد**، عبد العزيز ابن باز، تحقيق: محمد العلاوي، دار الضياء، ٢٠٠١م.

١١١ ـ **شرح مشكل الآثار**، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.

١١٢ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، ابن قيم الجوزية، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١١٣ ـ **الشوكاني، فتح القدير**، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.

١١٤ ـ **صحيح ابن حبّان**، ابن حبّان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م.

١١٥ ـ **صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء**، سليم بن عيد الهلالي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١١٦ ـ **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١١٧ ـ **صحيح الترغيب والترهيب**، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١١٨ ـ **صحيح السيرة النبوية**، ابن كثير، تحقيق ومراجعة: ناصر الدين الألباني، عمان، المكتبة الإسلامية، ٢٠٠١م.

١١٩ ـ صحيح سنن أبي داود، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٢٠ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢م.

١٢١ ـ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م.

١٢٢ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي محمد الدخيل الله، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ.

١٢٣ ـ الطبقات، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي للطباعة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، القاهرة، الدار السلفية، ط٢، ١٣٩٤هـ.

١٢٥ ـ عالم السحر والشعوذة، عمر سليمان الأشقر، الأردن، دار النفائس، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٢٦ ـ عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، الدكتور المشرف: عبد الشكور العروسي، رسالة ماجستير، السعودية، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ٢٠١٥م.

١٢٧ ـ العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، مصر، الإسماعيلية، دار الأصالة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٢٨ ـ علَّمني موسى، سلمان العودة، إستانبول، مكتبة وسم، ط١، ٢٠٢١م.

١٢٩ ـ عمدة الحُفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السّمين الحلبي شهاب الدّين أحمد بن يوسف بن عبد الدّايم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٣٠ ـ فبهداهم اقتده: قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، ط١، ٢٠١٠م.

١٣١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز ابن باز وآخرين، القاهرة، المطبعة السلفية، ط١.

١٣٢ ـ الفتح الربّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، دار إحياء التراث العربي، ط٢.

١٣٣ ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، شيخ الإسلام الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق: محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨٣م.

١٣٤ ـ فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين العليمي الحنبلي، دار النوادر للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.

١٣٥ ـ فتح القدير (تفسير الشوكاني)، محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، دمشق، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ.

١٣٦ ـ فرعون في القرآن الكريم، زياد الحوراني، دمشق، (د.ت).

١٣٧ ـ فرعون وموسى، خالد علي نبهان، مصر، مكتبة النافذة، ٢٠٠٥م.

١٣٨ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دمشق، مكتبة دار البيان. الرياض، مكتبة المؤيد، ١٥٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٣٩ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمّد الصلّابي، بيروت، دار المعرفة، ط٥، ٢٠٠٩م.

١٤٠ ـ فن السيناريو في القصص القرآني، جمال شاكر البدري، دمشق، دار صفحات للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٧م.

١٤١ ـ في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، القاهرة، دار الشروق، ط٣٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٤٢ ـ في موكب النبيين، سيد محمد الكيلاني، دمشق، دار القلم، ١٩٨٤م.

١٤٣ ـ القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م.

١٤٤ ـ القائد؛ دراسة تحليلية لشخصيات قيادية في القرآن الكريم، عبد الستار المرسومي، دار المعراج، ط٢، ٢٠٢٠م.

١٤٥ ـ قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام، علي محمد الصلابي، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠٢١م.

١٤٦ ـ **قصة عقدة لسان موسى: دراسة نقدية**، يحيى محمود القضاة، الأردن، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، مج ١٤، عدد ٤، ٢٠١٨م.

١٤٧ ـ **قصة موسى في القرآن: دراسة فنية**، كلثوم صالح مقابلة، رسالة ماجستير، كلية الآداب في جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠١٢م.

١٤٨ ـ **قصة موسى مع فرعون**، مصطفى العدوي، القاهرة، ٢٠١٤م.

١٤٩ ـ **قصص الأنبياء**، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٥٠ ـ **قصص الأنبياء**، عبد الحليم محمود، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠١٠م.

١٥١ ـ **قصص الأنبياء**، عبد الوهاب النجار، القاهرة، دار الكتب العلمية، ٢٠١٦م.

١٥٢ ـ **قصص القرآن الكريم**، فضل حسن عباس، الأردن، دار النفائس، ط٣، ٢٠١٠م.

١٥٣ ـ **القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه**، سليمان الدقور، عَمان، دار النّفائس، ٢٠١٨م.

١٥٤ ـ **القصص القرآني؛ عرض وقائع وتحليل أحداث**، صلاح الخالدي، دمشق، دار القلم، ط٤، ٢٠١٦م.

١٥٥ ـ **قصص الكليم في القرآن**، فرح عبد الفتاح حسام الدين، دار الهدى، ٢٠١٩م.

١٥٦ ـ **قصص أولي العزم من الرسل**، ليلى بلخير، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٤م.

١٥٧ ـ **قصص سورة الكهف في الديانات السماوية الثلاث**، إبراهيم ثروت حداد علي عافية، دار النوادر للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤م.

١٥٨ ـ **قضايا العقدية في سورة طه: دراسة مقارنة بين السلف والمتكلمين**، همام مصطفى الزق، إشراف الدكتور أحمد العصمي، رسالة ماجستير، فلسطين، الجامعة الإسلامية في غزة، ٢٠١٧م.

١٥٩ ـ **الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل**، ابن قدامة الحنبلي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.

١٦٠ ـ **الكامل في التاريخ**، عز الدين أبو الحسن ابن الأثير الجزري (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.

١٦١ ـ **كلام في اليهود، مجموعة مقالات في اليهود وفي دولتهم المعاصرة**، محمد علي دولة، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠١٣م.

١٦٢ ـ **لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**، سيد سعيد عبد الغني، الإسكندرية، دار الإيمان، ٢٠٠٧م.

١٦٣ ـ **لباب التأول في معاني التنزيل (تفسير الخازن)**، الخازن، تحقيق: عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤م.

١٦٤ ـ **لباب التفسير**، تاج القراء محمود بن نصر الكرماني النيسابوري (ت: ٥٣١هـ)، لندن، المكتبة القومية البريطانية، (د. ت).

١٦٥ ـ **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ط٣، ٢٠٠٣م، ص١١١.

١٦٦ ـ **المبدع في شرح المقنع**، برهان الدين إبراهيم بن مفلح، عالم الكتب، ٢٠٠٣م.

١٦٧ ـ **مجالس النور**، محمد عياش الكبيسي، الدوحة، جامعة قطر، ط١، ٢٠١٩م، .

١٦٨ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، ابن تيمية، الدمشقي، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٦٩ ـ **محاسن التأويل (تفسير القاسمي)**، محمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٦م.

١٧٠ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)**، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

١٧١ ـ **محمد في الكتاب المقدس**، عبد الأحد داود، ترجمة: فاروق الزين، الدمام، دار الإصباح للنشر، ٢٠١٢م.

١٧٢ ـ **مختصر تفسير ابن كثير**، محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، ٢٠٠٦م.

١٧٣ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: عماد عامر، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٧٤ ـ المرأة في القصص القرآني، أحمد محمد الشرقاوي، حلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١١م.

١٧٥ ـ المرتضى سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب، أبو الحسن علي الحسني الندوي، الكويت، دار القلم، ط١، ١٩٨٩م.

١٧٦ ـ مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ٢٠٠٨م.

١٧٧ ـ مشكلة الشر ووجود الله؛ الرد على أبرز شبهات الملاحدة، سامي عامري، لندن، دار تكوين للدراسات والأبحاث، ط٢، ٢٠١٦م.

١٧٨ ـ مصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: أسامة محمد بن إبراهيم بن محمد، مكتبة الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م.

١٧٩ ـ المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح كما وردت في القرآن الكريم، عويض بن حمود العطوي، السودان، مجلة الدراسات النفسية، ع١١، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢م.

١٨٠ ـ معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة، ١٩٨٩م.

١٨١ ـ معالم التوحيد في قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، حمود بن غزاي بن غازي الحربي، السعودية، مجلة العلوم الشرعية، جامعة القصيم، مج١٢، ع ٥، أيار/ مايو ٢٠١٩م.

١٨٢ ـ معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٨٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصرية، (د. ط)، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.

١٨٤ ـ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، القاهرة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٥، ٢٠١١م.

١٨٥ ـ **معجم لسان العرب**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور (ت: ٧١١هـ)، بيروت، دار صادر، ط١١، ٢٠٢١م.

١٨٦ ـ **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، دار الفكر، ١٩٧٩م.

١٨٧ ـ **مفاتح الغيب (التفسير الكبير)**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، تحقيق: سيد عمران، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ، ودار الكتب العلمية، ٢٠٢٠م.

١٨٨ ـ **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ.

١٨٩ ـ **مفهوم الاستكبار والاستضعاف**، مصطفى أوعيشة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٤م.

١٩٠ ـ **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ٢٠٠٤م.

١٩١ ـ **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، تحقيق: عبد الغني الفاسي، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٩٢ ـ **من أنباء القرى**، أحمد الكبيسي، ترجمة وتحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة العالمية، ٢٠٠٧م.

١٩٣ ـ **من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي**، زغلول نجار، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٩٤ ـ **من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم**، محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

١٩٥ ـ **من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين**، علي محمد الصلابي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ٢٠٠٥م.

١٩٦ ـ **المنتقى شرح الموطأ**، أبو الوليد سليمان التجيبي القرطبي الأندلسي (ت: ٤٧٤هـ)، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).

١٩٧ ـ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

١٩٨ ـ **منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني**، منى داود، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٨م.

١٩٩ ـ **منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح عليه السلام**، أحمد سليمان الرقب، عمان، دار الرازي، ط١، ٢٠٠٦م

٢٠٠ ـ **منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين**، أفنان حمد بن محمد الغماس، الرياض، مركز دلائل، ط١، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

٢٠١ ـ **موجّهات إيمانية وتربوية في قصة موسى والخضر**، حمد سالم الخوالدة، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط١، ٢٠١٦م.

٢٠٢ ـ **موسوعة التفسير المأثور**، إشراف الدكتور مساعد سليمان الطيار (مركز الدراسات والمعلومات القرآنية)، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ٢٠١٧م.

٢٠٣ ـ **موسى عليه السلام قبل بعثته؛ دراسة مقارنة بين القرآن الكريم والعهد القديم**، محمد عطا أحمد يوسف، المجلد ١٩، ع ٥٧، الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ٢٠٠٤م.

٢٠٤ ـ **موسى عليه السلام**، حلمي شعبان، القاهرة، (د. ت).

٢٠٥ ـ **موسى من وحي القرآن**، عقيل حسين عقيل، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠١٠م.

٢٠٦ ـ **مؤمن آل فرعون؛ حفيد المرأة الكاملة وابن الرجل الصالح**، الشفيع الماحي أحمد، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٠٧ ـ **مؤمن آل فرعون؛ دراسة دعوية تحليلية**، بشير علي أحمد الخياط، رسالة دكتوراه، السودان، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم درمان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٠٨ ـ **النبوات**، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الرياض، أضواء السلف، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٠٩ ـ **نخبة من علماء التّفسير وعلوم القرآن**، بإشراف الدكتور مصطفى مسلم، التفسير

الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلّية الدّراسات، جامعة الشّارقة، (د. ط)، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢١٠ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

٢١١ ـ **النكت والعيون (تفسير الماوردي)**، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

٢١٢ ـ **نوح عليه السلام والطوفان العظيم**، علي محمد الصّلاّبي، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ٢٠٢٠م.

٢١٣ ـ **هذا ربي**، خالد الخليوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م.

٢١٤ ـ **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

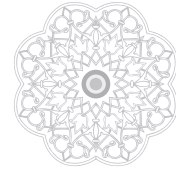
٢١٥ ـ **وفاة موسى**، عبد الرزاق السيد، جماعة أنصار السنة، (د. ت).

٢١٦ـ **وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم**، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢١٧ ـ **وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين (أكثر من ٢٠٠ فائدة)**، السعودية، إبراهيم بن فهد بن إبراهيم الودعان، مراجعة: عبد الرحمن بن فهد الودعان، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

٢١٨ ـ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها «سورة الأعراف: ١٨٠»: دراسة تربوية للآثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى**، عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار القسطناوي للطباعة والنشر، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

* * *



كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢. الوسطية في القران الكريم.

١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.

١٨. عماد الدين زنكي.

١٩. نور الدين زنكي.

٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القران في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١. الشورى في الإسلام.

٤٢. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤٣. الإيمان باليوم الآخر.

٤٤. الإيمان بالقدر.

٤٥. الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦. الإيمان بالملائكة.

٤٧. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

٤٨. السلطان محمد الفاتح.

٤٩. المعجزة الخالدة.

٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.

٥٣. الشورى فريضة إسلامية.

٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧. العدل في التصور الإسلامي.

٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.

٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦١. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٣. أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة

٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٦. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٧. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -الحقيقة الكاملة-.

٦٨. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٦٩. نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٧٠. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».

٧١. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كليم الله.

٧٢. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر.

٧٣. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.

٧٤. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.

٧٥. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٦. - مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

٧٧. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

٧٨. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).

٧٩. سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).

٨٠. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.



د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

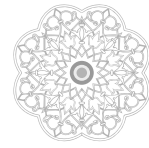
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية.
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحقيقة الكاملة.
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (كليم الله).
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر.
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.
- – مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
- لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).
- سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
- سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
- مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.



فهرس الموضوعات

الإهداء ٥

تقديم بقلم أ. د. علي محيي الدين القره داغي ٧

مقدمة الكتاب ١٧

الفصل الأول

جذور بني إسرائيل التاريخية وحياتهم في مصر

المبحث الأول: جذور بني إسرائيل التاريخية ٣٣

أولًا: مواضع ورود اسم يعقوب عليه السلام في القرآن الكريم ٣٣

ثانياً: مواضع ذكر اسمه الثاني «إسرائيل» في القرآن ٣٤

ثالثاً: شجرة النبوة الإبراهيمية ٣٦

رابعاً: اليهود ٤٣

خامساً: العبريون ٥٧

المبحث الثاني: حياة بني إسرائيل في مصر ٦٣

أولًا: يوسف عليه السلام في مصر ٦٣

ثانياً: هجرة يعقوب وبنيه إلى مصر ووفاته ٦٥

ثالثاً: وفاة يوسف عليه السلام ٦٨

رابعاً: حكم الفراعنة لمصر وهزيمة الهكسوس ٧١

الفصل الثاني

موسى عليه السلام: اسمه ونسبه ومولده، ومكانته بين الأنبياء والمرسلين

المبحث الأول: موسى عليه السلام؛ اسمه ونسبه والبيئة التي ولد فيها ٨١

أولًا: اسمه ونسبه ٨١

ثانياً: البيئة التي ولد فيها موسى عليه السلام ٨٢

المبحث الثاني: موسى عليه السلام ومكانته بين الأنبياء والمرسلين ٨٧
أولًا: النبي والرسول والنبوة والرسالة ٩٠
ثانياً: الحكمة من بعث الرّسل ١٠١
ثالثاً: خصائص الأنبياء والمرسلين ١١٢
رابعاً: دين الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام واحد، ودعوتهم واحدة ... ١١٩

الفصل الثالث

قصة موسى عليه السلام في سورة القصص وطه والشعراء والنمل ويونس وهود

المبحث الأول: قصة موسى عليه السلام في سورة القصص ١٣١
تفسير الآيات الكريمة في سورة القصص ١٣٣
أولًا: قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ ... مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ ١٣٩
ثانياً: قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ... وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ١٥٢
ـ نموذج للتفاؤل «امرأة فرعون» ١٦٢
ـ قدوة في الصبر «امرأة فرعون» ١٦٣
ـ حال آسية بنت مزاحم مع الدعاء ١٦٥
ـ أنموذج آسية في الولاء والبراء ١٦٦
ـ قوة إرادة امرأة فرعون واستقلالها في التفكير ١٦٧
ثالثاً: قال تعالى ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ ... وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ١٦٧
● شخصية أخت موسى عليه السلام ١٧٢
رابعاً: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ... ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ١٧٧
خامساً: قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا ... تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ ١٨٦
سادساً: قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ... يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ١٨٩
سابعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ ... نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٩٦
ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا ... وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ ٢٠٩
تاسعاً: قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ... أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ٢١٨
عاشراً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ ... إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٢٣٩
الحادي عشر: قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ... هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ ٢٤٢
الثاني عشر: قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ... لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٢٥٥

الثالث عشر: قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ... وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٥٧
الرابع عشر: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ... لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٢٦٢
الخامس عشر: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ... وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٧٠
المبحث الثاني: قصة موسى عليه السلام في سورة طه ٢٩٧
أولًا: قوله تعالى: ﴿طه ۝١... لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ٣٠١
ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ... وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ٣١٠
ثالثاً: قوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ... إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ٣٣٠
رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ... إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ٣٤١
خامساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ... أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ... ٣٥٥
سادساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ... وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ ٣٨٤
سابعاً: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ... ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ٤٠٧
ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ... أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ٤٢٤
تاسعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ... ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ٤٤٥
عاشراً: قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن... وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ٤٥٦
الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ٤٨٤
المبحث الثالث: قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ٤٩٣
أولًا: قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٤٩٧
ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ... أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ٥٠٤
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا... بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ٥٠٩
رابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ... إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ٥١٦
خامساً: قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ... أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٣٣
سادساً: قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ... ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٥٤٩
المبحث الرابع: قصة موسى عليه السلام في سورة النمل ٥٦٥
أولًا: قوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ... لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ٥٦٦
ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ... كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٥٧٤
المبحث الخامس: قصة موسى عليه السلام في سورتي يونس وهود ٥٩٥
أولًا: قصة موسى عليه السلام في سورة يونس ٥٩٥

أولًا: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم . . . وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٩٧
ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي . . . وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ٦٠٤
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ . . . سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦٠٨
رابعاً: قال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . . كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ٦٢٧
ثانياً: قصة موسى عليه السلام في سورة هود ٦٤٤
المبحث السادس: قصة موسى عليه السلام في سور غافر والزخرف والدخان والنازعات ٦٦٣
أولًا: قصة موسى عليه السلام في سورة غافر ٦٦٣
أولًا: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ . . . لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ٦٦٦
ثانياً: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ . . . مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ٦٧٣
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ . . . إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ٦٩٧
رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ . . . أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ٧٠٣
ثانياً: قصة موسى عليه السلام في سورة الزخرف ٧٢١
ثالثاً: قصة موسى عليه السلام في سورة الدخان ٧٣٩
رابعاً: قصة موسى عليه السلام في سورة النازعات ٧٦٢

الفصل الرابع

قصة موسى عليه السلام في سورتي الأعراف وإبراهيم

المبحث الأول: قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف ٧٧٩
أولًا: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم . . . وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ٧٨٥
ثانياً: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ . . . مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ٨٠٨
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ . . . وَنَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ٨١١
رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ . . . كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ٨١٩
خامساً: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ . . . وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ ٨٢٧
سادساً: قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ . . . بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٨٣٩
سابعاً: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ . . . إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ٨٥٠
ثامناً: قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ . . . لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ٨٧٥
تاسعاً: قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ . . . لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ٨٨٨

عاشراً: قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ ... بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ ٩٠٤
الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ... خَـٰسِـِٔينَ﴾ ٩١٩
الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ٩٢٧
المبحث الثاني: قصة موسى عليه السلام مع قومه في سورة إبراهيم عليه السلام ٩٣٧

الفصل الخامس
قصة موسى عليه السلام مع قومه في سور البقرة والنساء والمائدة

المبحث الأول: قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في سورة البقرة ٩٥٩
أولًا: قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... وَلَآ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٩٦٥
ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ... وَكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ ٩٨٠
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ١٠١٢
رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ... وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١٠٢١
المبحث الثاني: قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في سورة النساء والمائدة ١٠٣١
أولًا: قصة موسى مع بني إسرائيل في سورة النساء ١٠٣١
ثانياً: قصة موسى عليه السلام مع قومه في سورة المائدة ١٠٤٠
المبحث الثالث: قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف ١٠٦٥
سبب القصة وتفاصيلها في كتب السنة ١٠٦٧
أولًا: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ... فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ١٠٧٠
ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ... لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ١٠٨١
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ ... مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ ١٠٩٥
رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا ... مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ ١١٠٠
خامساً: قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ ... مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ١١٠٦
سادساً: قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ ... مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ١١١٣
سابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد من القصة ١١٢٦

الفصل السادس
أسباب هلاك فرعون وقومه، وفضائل موسى عليه السلام ووفاته

المبحث الأول: أسباب هلاك فرعون وقومه ١١٤١
أولًا: الكفر بالله عز وجل ١١٤١

ثانياً: الشرك في الربوبية ١١٤٢
ثالثاً: الشرك في الألوهية ١١٤٥
رابعاً: الظلم ١١٤٧
خامساً: الاستكبار ١١٥٠
سادساً: دفع الحق ١١٥٣
سابعاً: انتهاك الحرمات ١١٥٤
ثامناً: الاستعلاء على الناس واحتقارهم ١١٥٥
تاسعاً: الاعتداء على الناس ١١٥٦
عاشراً: الفخر بالملك والسلطان والمال ١١٥٧
الحادي عشر: التكذيب بالرسل ١١٥٩
الثاني عشر: التكذيب بالآيات ١١٦٢
الثالث عشر: التكذيب بالبعث والنشور ١١٦٧
الرابع عشر: الاستهزاء بالرسل وأتباعهم ١١٦٩
الخامس عشر: إيذاء الرسل وأتباعهم ١١٧١
السادس عشر: كفران النعم ١١٧٢
السابع عشر: فساد الصفوة «الملأ» ١١٧٤
الثامن عشر: الترف ١١٧٥
التاسع عشر: الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة ١١٧٦
العشرون: سنة الاستبدال ١١٧٨
الحادي والعشرون: سنة الأجل الجماعي ١١٧٨
الثاني والعشرون: سنة الهلاك ١١٨٠
الثالث والعشرون: سنة الخسران ١١٨١
الرابع والعشرون: سنة الله في المفسدين ١١٨٢
الخامس والعشرون: سنة الله في الفاسقين ١١٨٣
السادس والعشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك ١١٨٤
المبحث الثاني: التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام **١١٨٥**
أولًا: موسى عليه السلام يتلقى ألواح التوراة ١١٨٥

ثانياً: من أوصاف التوراة في القرآن ١١٩٠
ثالثاً: من أحكام التوراة في القرآن ١١٩٩
رابعاً: تحريف أحبار اليهود التوراة ١٢٠٧
المبحث الثالث: أهم صفات موسى عليه السلام وفضائله ووفاته **١٢٢٣**
أولًا: أهم صفات موسى عليه السلام وأخلاقه ١٢٢٣
ثانياً: أحاديث الرسول ﷺ في وصف موسى عليه السلام وفضائله ١٢٤٤
ثالثاً: وفاة موسى عليه السلام ١٢٥٣
الخلاصة والنتائج **١٢٦١**
المصادر والمراجع **١٢٨٩**
كتب صدرت للمؤلف **١٣٠٧**
المؤلف في سطور **١٣١٢**
فهرس الموضوعات **١٣١٤**

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

إيماناً من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بأن الأمة الإسلامية إنما تنهض بالعلوم النافعة، وتنهض بالأفكار العالية، وترتقي بالأخلاق الراقية، وتتقوى بالحضارة الجامعة، وشاء الله تعالى أن تمتاز حضارة الإسلام بالقراءة الصحيحة لكتاب الله المسطور (القران والسنة) وكتاب الله المنظور (الكون وما فيه) قراءة دقيقة تجديدية تحليلية في ظلال الإيمان والأخلاق، وكرامة الإنسان وحقوقه، حيث دل على ذلك قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

وبهذه القراءة الجامعة للوحي الصحيح، والعقل المستضيء بنور الله تعالى، يتحقق الاستخلاف والشهود الحضاري النافع، القائم على العزة، والعدل، والرحمة للعالمين.
ونحن في الاتحاد تبنينا هذا المشروع بطريقة جديدة وهي: نشر خلاصة جهود العلماء المتخصصين في فروع العلوم الإسلامية، بدل أن نبدأ من جديد.

فاليوم نقدم جهود فضيلة العالم المحقق المتخصص في سير الأنبياء (عليهم السلام) الدكتور علي محمد الصلابي التي بذل فيها جهوده المباركة خلال سنوات طوال: مستهدفًا الإسهامَ في هذا المشروع الحضاري العظيم، جزاه الله خيراً.

وبعد هذه الموسوعة سنقدم موسوعة أخرى في السياسة، ثم في الاقتصاد، ثم في الفكر إلخ... بتوفيق الله تعالى آملين من أمتنا -وبخاصة علماؤها ومفكروها- دعم هذا المشروع، وإفادتنا بملاحظاتهم القيمة.

والله أسأل أن يجعل هذه الموسوعات التي نقدمها إلى أمتنا خالصة لله تعالى، ونافعة للبلاد والعباد، ومحققة الغايات التي وضعت لها، والمقاصد التي أريد منها.. آمين.

محبكم جميعا: أ.د. علي محيي الدين القره داغي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

TK: 978-625-5637-70-3
ISBN: 978-625-5637-81-9
9 786255 637819
asaletyayinlari.com.tr
asaletyayinlari
دار الأصالة